



فى
تاريخ مصر القديم والحديث

لمؤلفه
ميخائيل شاروبيم بك
رئيس النيابة العمومية بمحكمة المنصورة الأهلية
والمفتش بنظارة المالية الجليلة
عفى الله عنه

الجزء الرابع

عن الفترة من
١٨٠٠ م إلى سنة ١٨٩٠م
١٢٢٠ هـ إلى سنة ١٣٠٩هـ

الناشر
مكتبة مدبولى
٦ ميدان طلعت حرب - القاهرة

مكتبة لسان العرب

هذه السلسلة تضم :

١ – فتح العرب لمصر
٢ – تاريخ مصر إلى الفتح العثماني
٣ – الجيش المصري البري والبحري في عهد محمد علي
٤ – تاريخ مصر من أقدم العصور إلى الفتح الفارسي
٥ – تاريخ مصر من عهد المماليك إلى نهاية حكم إسماعيل
٦ – تاريخ مصر من الفتح العثماني إلى قبيل الوقت الحاضر
٧ – ذكرى البطل الفاتح إبراهيم باشا
٨ – تاريخ مصر في عهد الخديوي إسماعيل باشا (مجلد أول)
٩ – تاريخ مصر في عهد الخديوي إسماعيل باشا (مجلد ثاني)
١٠ – فتوح مصر وأخبارها
١١ – تاريخ مصر الحديث مع فذلكة في تاريخ مصر القديم
١٢ – قوانين الدواوين
١٣ – تاريخ مصر من محمد علي إلى العصر الحديث
١٤ – الحكم المصري في الشام
١٥ – تاريخ الخديوي محمد باشا توفيق
١٦ – آثار الزعيم سعد زغلول
١٧ – مذكراتي
١٨ – الجيش المصري في الحرب الروسية المعروفة بحرب القرم
١٩ – وادي النطرون ورهبانه وأديرته ومختصر البطاركة
٢٠ – الجمعية الأثرية المصرية في صحراء العرب والأديرة الشرقية
٢١ – الرحلة الأولى للبحث عن ينابيع البحر الأبيض (النيل الأبيض)
٢٢ – السلطان قلاوون (تاريخه – أحوال مصر في عهده – منشآته المعمارية)
٢٣ – صفوة العصر
٢٤ – المماليك في مصر
٢٥ – تاريخ دولة المماليك في مصر
٢٦ – سلاطين بني عثمان
٢٧ – محمود فهمي النقراشي
٢٨ – دور القصر في الحياة السياسية
٢٩ – مذكرات اللورد كيللرن .
٣٠ – عادات المصريين
٣١ – خنقاوات الصوفية ج ١
٣٢ – خنقاوات الصوفية ج ٢
٣٣ – تحفة الناظرين فيمن ولي مصر من الملوك والسلاطين
٣٤ – تاريخ عمرو بن العاص
٣٥ – دور القبائل العربية في صعيد مصر
٣٦ – علاقات الفاطميين في مصر بدول المغرب
٣٧ – عبد الرحمن الجبرتي ٥ أجزاء
٣٨ – مصر في العصر العثماني في القرن ١٦
٣٩ – خطط المقريزى ٣ أجزاء (محققة منقحة في ٢٧٥٠ صفحة)
٤٠ – صفحات من تاريخ مصر (صليب باشا سامى)
٤١ – صفحات من تاريخ مصر (سيد مرعى)
٤٢ – سلار الأمير التتري المسلم
٤٣ – مالية مصر
٤٤ – الموسيقى الشرقية
٤٥ – الدليل في موارد أعالي النيل
٤٦ – الموسيقى الشرقي
٤٧ـ النخبة المصرية الحاكمة ١٩٥٢-٠٠
٤٨ـ الكافي في تاريخ مصر– ٤ أجزاء

مكتبة مدبولى
MADBOULI BOOKSHOP
٦ ميدان طلعت حرب - القاهرة - ت : ٥٧٥٦٤٢١
6 Talat Harb SQ. Tel.: 5756421



الكافى

فى تاريخ مصر القديم والحديث

من سنة 1800 م. إلى سنة 1890م

1220 هـ إلى سنة 1309 هـ



الكتاب: الكافي

الكاتب: ميخائيل شاروبيم بك

الناشر: مكتبة مدبولي

ت: ٥٧٥٦٤٢١

الطبعة:

الأولى: ١٨٩٨م ـ ١٣١٥هـ

الثانية: ٢٠٠٤م ـ ١٤٢٥هـ

رقم الإيداع:

مراجعة لغوية: عبد النبي محمد



الكافى

فى
تاريخ مصر القديم والحديث

لمؤلفه
ميخائيل شاروبيم بك
رئيس النيابة العمومية بمحكمة المنصورة الأهلية
والمفتش بنظارة المالية الجليلة
عفى الله عنه

الجزء الرابع

عن الفترة من
١٨٠٠ م إلى سنة ١٨٩٠م
١٢٢٠ هـ إلى سنة ١٣٠٩هـ

الناشر
مكتبة مدبولى
٦ ميدان طلعت حرب ـ القاهرة

المحتويـــات



بسم الله الرحمن الرحيم

وصـــــــل

(فى ترجمة محمد على باشا)

هو محمد على بن إبراهيم ولد فى بلدة قاوله التابعة للروم إيلى سنة اثنتين وثمانين ومائة وألف هجرية أى سنة ثمان وسبعين وسبعمائة وألف ميلادية وكان أبوه من صغار مقدمى العسكر وقيل إنه كان شيخ خفراء البلد وهو الصحيح ولما بلغ محمد على الرابعة من عمره مات أبوه فتولى حضانته عمه طوسون فأقام عنده ما شاء الله ثم جاء مرسوم السلطان إلى والى قاوله بقتل طوسون المذكور فقتل وكان محمد على إلى هذا الحين لم يبلغ أشده فأخذه أحد أعيان البلد واسمه براواسطه فأقام عنده حقيراً مهانا وكان كلما شب شبت معه الأحزان وظل على هذا الحال حينا حتى ضاقت نفسه وتاقت إلى الأسفار فى طلب الرزق فسار فى أرض الله الواسعة الفضاء وأجهد النفس فى تحمل الجوع والعناء فقاسى من الشدائد ما لا يحتمل، ومما حكاه عن نفسه أنه قال: كنت أتمنى أن الله سبحانه وتعالى يدفع عنى هذه الشدائد ويرحمنى مما ألاقيه من الضنك والذل فكنت أجهد النفس فى طلب العيش على قدر الحاجة وكان يمر بى اليوم واليومان أطوى الأرض سائراً على أقدامى لا أذوق مناما ولا أسيغ طعاما وكانت الأرض وطائى والسماء غطائى وأتفق أنى سافرت على ظهر مركب أريد أرض الله الواسعة فى طلب العيش فخرجت ريح شديدة فأرتفعت الأمواج وعلت وأزبد البحر وهاج وألقى مركبنا على الصخور فتحطمت وغرق كل من فيها فتركنى رفاقى وطلعوا إلى بعض الجزائر القريبة وبقيت أنا عرضة للأمواج تعلو بى تارة وتهبط بى أخرى وتستقبلنى الصخور فتدق عظمى وتدمى جسدى حتى

يسر الله لـى الوصول إلى تلك الجـزيرة سالماً وقد صـارت اليوم من بعـض أملاكى فسبحان المعطى بغير حساب. اهـ قوله.

وما زال على هذا الحال من قلة ذات اليد وضيق العـيش حتى بلغ الثامنة عشرة من العمر فـدخل فى خدمة العسكرية وظهرت عليـه علامات الشهامـة وشدة البأس فقيده الوالى بجـباية الأموال وجمع الخراج ومال إليه وأحبه وولاه رتبـة البلكباشية. قال بعض الكتاب: وقد زوّجه إحدى قريباتـه. وقيل غير ذلك فولدت له خمسا من بنين وبنات وهم إبراهيم وطوسون وإسماعيل وزهرة وزينب، فلما كبرت عائلته وقل ماله ترك خدمة العسكرية واتخذ له حانوتاً يبيع فيه التبغ (الدخان) فيسر الله له الحال وبسط له فى الرزق وكانت قد بلغت منه الشجاعـة مبلغاً عظيماً فكان إذا تعذر على الوالى القبض على جـان سير إليـه محمـد على فيأتى به صـاغرا فهـابه الناس جدا وأجله رفاقه وشـهدوا له بالبسالة وعلو الهـمة ولبث على هذا الحال حينـا فلما أغار بونابارته بجيـوش الفرنسيس على ديار مـصر وكبر ذلك علـى السلطان سليم جيش لقتاله الجيوش وأعد المعدات وأرسل إلى والى مـقدونية فى طلب النجدة فبعث والى مقدونيـة إلى براواسطه وكان قد تولى على ولاية قـاوله بأن يجهز لقتال الـفرنسيس مائة مقاتل فجهزهم وجعل مقدمهم ولده عليا ورسم لمحمد علىّ بأن يكون فى ركابه وجاءهم حـسن باشا أميـر سفن الدولة بسفـينة فركبـوها فسارت بهم إلى أبى قـير وانزلتهم هناك فقاتلهم الفرنسيس قتـالاً عنيفاً وظفروا بهم فخاف علىّ المذكور ورجع بالذى بقى معه من عسكـره وأقام محمد على فى نفر قليل ممن مال إلى البـقاء معه فأعجب حسن باشـا فعله وقلده رتبة البكباشية على من كان معـه من العساكر وضم إليه طائفة أخرى فسار بهم مع العمارة الإنجليـزية والجيوش العثمانية التى جاءت مع يوسف باشا الصدر الأعظم لقتال الفرنسيس فأبلى محمد على فى قتالهم بلاء حسنا ولما استقر بهم المقام بالقاهرة بعد جلاء الفرنسيس عنها قاتل الأمراء المصريين وكانت له معهم وقائع مذكورة.

واتفق أن حضر بعيـد ذلك خسرو باشا أحد كبار عـسكر السلطان لقتال الأمراء المصريين والمماليك وقـطع شأفة من بقى منهم وإنقاذ البلاد من أيديـهم فوقعت بينه وبين محمد على مناظرات كثـيرة واشتدت الوحشة بينهما وكبـرت حتى كاد خسرو باشا ينفشل ويسقط فى يده ثم عاد فتمكن من نكاية مـحمد على وسد عليه مسالك التقدم وقـفل دونه أبواب الفلاح وجعل يراقب أموره ويرصد أعـماله فخافه مـحمد على وخشى العـاقبة وجعـل يستميل إليـه طوائف الأرنؤط ويتزلف حتى مـالوا إليه

وأحبوه فاستوثق لنفسه فولوه وظيفة (فابى بولك باشى) وهى فى عرفهم رتبة حرس السراى فهابه خسرو باشا وعاد إلى مسايرته وأدناه منه وقرّبه من مجلسه وبقيا على ذلك حينا ثم ولاه منصب سرجشمه ولعلها مقدم أربعة آلاف فظهر من هذا الحين طالع نجمه وعلت كلمته ومال إليه الناس وتعلقت به آمال العسكر لا سيما طوائف الأرنؤط فخضعوا له وأطاعوا أمره وعملوا بإشارته فحسده خسرو باشا وتحذر منه وخشى عاقبة ظهوره فلما عصى الأمراء المصريون وخرجوا على خسرو باشا وانحدر إلى القاهرة من كان منهم بالصعيد الأعلى سير لقتالهم عسكرا من العثمانيين ورسم إلى محمد على بالخروج فى جنده لنجدة العساكر السلطانية فخرج كارهاً فلما احتدمت نار القتال بين الفريقين تأخر محمد على عن نجدة العثمانيين وخذلهم فانتصر عليهم الأمراء المصريون نصرة عظيمة وأعملوا فيهم القتل والتشريد وجاء مقدم العساكر العثمانية يشكو مما فعله محمد على فشق فعله على خسرو باشا وأكبره ورسم بقتله وحرر فرمانا بذلك واستدعاه ليلة إلى قلعة الجبل فأحس بالمكيدة وعلم بما وراء صعوده إلى القلعة فى تلك الليلة فتمارض وأصبح وقد ثار الجند يطالبون بالمتأخر من جماكيهم وعلوفاتهم فتحزبوا وشددوا فى الطلب وركبوا على خسرو باشا وقاتلوه فانهزم وفرّ إلى دمياط فى نفر من أتباعه فأقاموا فى الولاية بعده أحمد طاهر باشا وهو من مقدمى عسكر الأرنؤط فلم تكن إلا أيام قلائل حتى قام عليه جماعة الانكشارية وقتلوه فقامت بعد قتله الفتنة وعم الاختلال واشتدت الخطوب وكثر السلب والنهب وهتك النساء فى الشوارع والطرقات واشتد الأمر شدة بالغة ووقع من الحوادث ما مر بك بيانه فى محله مفصلا فكان لمحمد على فى إضرام نار هذه الفتن اليد الطولى وأعانه على جميع ذلك الشيخ الشرقاوى والسيد عمر نقيب الأشراف وخلا لمحمد على الجوّ بموت طاهر باشا وصارت جميع الجند من الأرنؤط طوع أمره فلما آنس منهم كمال الطاعة عمل على استمالة من كان بالقاهرة من كبار المشايخ والعلماء وأرباب الوظائف العالية فانحازوا إليه ولبوا دعوته وتقدموا إلى دار السلطنة العثمانية فى طلب توليته على ديار مصر وكان السلطان قد رسم بولايته على جدة كما أشرنا إلى ذلك بقصد إبعاده عن ديار مصر وتمزيق شمل أصحابه فقد كان هو وأصحابه أشد خطراً على الدولة من جماعة الأمراء المصريين فلم يتعجل بالسفر وتقاعس وأظهر الاهتمام بجمع الزاد والذخيرة واحتياجات العسكر وكان المشايخ والعلماء فى خلال هذه الفترة يكثرون من الإلحاح على دار السلطنة بطلب تقليده الولاية على مصر ويرفعون إليه القصص ويشكون مما يلاقونه من الجور والعسف وقد

أضرموا نار الفتنة بمصر والقاهرة وأثاروا العامة أياماً فخرجوا على أحمد باشا خورشيد عامل الدولة يومئذ على ديار مصر وحاصروه بقلعة الجبل فكان بينه وبين الجند والعامة وقائع وحروب هائلة قد مر بك بيانها فى محلها. وطالت أيام الفتنة والرسل تتردد ما بين دار السلطنة ومصر والحرب والقتل والنهب قائمة على ساق حتى جاء الفرمان بولاية محمد على اعتباراً من العشرين من ربيع الأول سنة عشرين ومائتين وألف هجرية ولم يستقر به المنصب إلا فى يوم الثلاثاء ثالث جمادى الأولى سنة عشرين لتمنع أحمد باشا بقلعة الجبل وعدم اعترافه بصحة ولاية محمد على باشا حتى وفد عليه رسول الدولة بمرسوم السلطان يأمره فيه بترك قلعة الجبل والجلاء عنها إلى الإسكندرية فنزل وسار إلى الإسكندرية على ما تقدم بك بيانه.

(فصل)

(فيما وقع فى أيامه من الحوادث والأنباء إلى ولاية ولده الأمير إبراهيم)

ولما استقرت الولاية بمحمد على باشا جعل يتصرف فى الأمور ويعمل على تعزيز سلطانه وتأييد مقامه باسترضاء الجند وصرف المتأخر من جماكيهم فضرب على قبط مصر قرضا وقسمه على كبرائهم، فكان ذلك أول قرض أحدثه بعد ولايته وكان عظيمًا للغاية وبث الأعوان لقبضه فعاثوا وفعلوا ما لا خير فيه ثم قبض على المعلم جرجس الجوهرى معلم مصر يومئذ وصاحب خراجها وعلى جماعة من عظماء القبط وسجنهم ببيت كتخدا وطلب من المعلم جرجس حسابه عن سنة خمس عشرة ومائتين واستقدم المعلم غالى وكان يومئذ كاتب الألفى بالصعيد وأقامه بدله وضيق على المعلم جرجس وشدد فى طلب الحساب وفرض عليه مبلغًا عظيمًا من المال فباع ما كان عنده من أثاث ومتاع ووفى بعض ما طولب به فلم يخل عنه وبقى معتقلاً أياماً. والطلب على أهل البلاد بما فرض عليهم مترادف فحسد الأمراء المصريون محمد على باشا على ما وصل إليه من علوّ الكلمة واتساع الشهرة وحقدوا عليه واستصغروا قدره وناووه فخافهم وخشى عاقبة أمرهم واهتم لقتالهم وشدد فى طلب الأموال وفى جمع الخراج وبث أصحاب الجباية فجابوا البلاد شرقا وغربا ونزلوا على القرى وجمعوا منها ما قدروا على جمعه ثم أخذ فى تدبير أمور العسكر وصرف الجماكى والعلوفات المتأخرة لهم وأكثر من جمع الأسلحة ومعدات الحرب وسير إلى زعماء الأمراء المصريين الذين كانوا بالأقاليم القبلية والبحرية يدعوهم إلى

ترك القتال والعود إلى طاعة السلطان فشطوا فى الطلب وبالغوا فلم يقدر على القيام بمطالبهم فلما علموا بعجزه انحـدروا بخيلهم ورجلهم إلى الجيزة وضربوا على أهلها الكلف والمغارم وانضم إليهم من كان بها من لومهم وأتباعهم وسار جماعة منهم إلى ناحية المذبـح وكسروا باب الحسينيـة ودخلوا من باب الفتوح وهم فى ضـجة وجلبة عظيمة وخلفهم طبول ونقاقير وجمال وأحمال وساروا من بين القصرين حتى جاءوا الأشرفيـة فاندهش الناس من دخولهم المدينة على هذه الحـال وما زالوا حتى وصلوا إلى عطفـة الخراطين فـافترقـوا إلى فرقـتين ودخل جـماعـة منهم وبأيديهم البنادق والسيوف ومروا بالجامع الأزهر إلى بيت السيد عمر النقيب والشيخ الشرقاوى فامتنع السيـد عمر من لقائهم فـدخلوا إلى بيت الشيخ الشرقـاوى وأتى إليهم السيد عـمر فطلبوا منه النجدة وخـروج العامة معهم لقتـال محمد على باشا فامتنـع فألحوا عليه فلم يقبل وهددهم فـركبوا وخـرجوا من باب البرقـية، وكان قد وصل خـبرهم إلى محمد على باشا فأرسل فى أثرهم حسن بيك الأرنؤطى فى عدة وافرة من المشاة فلم يلحق بهم، أما الفريق الثانى منه فإنه جـعل يتقدم حتى وصل إلى باب زويلة وسار قليلاً إلى جهة الدرب الأحمر فمـانعه العسكر المرابطون هناك وأطلقوا عليهم البنادق فرجعوا القهقرى إلى جهـة باب زويلة وهموا بالدخول إلى جامع المؤيد والتحصن به فمانعهم المغاربة الساكنون هناك وأطلق عليهم المرابطون نيرانهم فقتلوا منهم وجرحوا وقوى جـأش المرابطين بجهـة الدرب الأحمـر عند سمـاعهم أصوات البنـادق وتنبه غيرهم أيضاً فاجتمعوا لمعاونة بعضهم فلما شاهد الأمراء المصريون ما حل بأصحابهم من تساقط النيران عليهم من كل صوب وحدب ولوا الفـرار فتبعهم العسكر يضربون فى أقفيـتهم فلم يزالوا فى سيرهم إلى النحاسين. وقـد أغلق الناس بوابة الكعكيين وبوابة الخراطين وبوابة البندقـانيين فانقلبوا إلى مـا بين القصرين فلاقـاهم فريق من عسكر محمـد على باشا وأطلقوا عليهم البنادق فوقعوا بيـن نارين فانفشلوا وسقطوا فى أيديهم وترجلوا عن خـيلهم ودخل منهم جـماعـة إلى جامع البـرقوقيـة وذهب آخرون بخيلهم إلى باب النصر فوجدوه مغلقا فنزلوا أيضاً عن الخيل ودخلوا العطوف وتسوّروا الأسوار وتسلقوا الجدران إلى خارج باب النصر وتفرق منهم جماعة اختفوا فى الحارات وبعض الـوكائل والبيـوت فأحاط العـسكر بمن دخلوا جامع الـبرقوقـية وأحرقوا باب الجامع وقـبضوا على من كان به وجردوهم من ثيـابهم وأخذوا ما كان معهم من ذهب ونقود وأسلحة وذبحوا منهم جماعة وأخذوا من بقى مكبلين بالحديد وهم فى أسوأ حـال وساروا بهم إلى بيت محـمد على باشا بالأزبكيـة، وكان على أهبة الركوب فلما ألقوا بين يديه رؤوس القتلى سكن جـأشه وفرح كثيراً، وكان ممن

قبض عليه من الأمراء أحـمد بيك تابع البرديسى أمير دميـاط وحسن شبكة وآخرون فلما مثل أحـمد بيك بين يدى محمـد على باشا قال له: أو لم تدر يا أحمد عـاقبة الخروج؟ فقال أعطونى ماء فأمر محمد على باشا ففكوا قيوده وأتوه بماء ليشرب فنظر حوله وكان على مقربة منه أحد الجند وفى حـزامه خنجر فخطف الخنجر من حزامه وهَمّ بقتل محمـد على باشا وقد جرح عدة من العسكر فتكـاثروا عليه وقتلوه ذبحًا كذبح الشاة وساقوا الباقين إلى المحبوس فكان ذلك آخر العهد بهم، قلـت: وكانت هذه أول وقعـة وقعت بين الأمراء المصـريين وعـسكر محـمد على باشا بعـد وصول فرمان السلطان بولايتـه على ديار مصر، وزاد من هذا الحين تحذر محـمد على باشا وأصحابه من هجمـات الأمراء المصريين وسير عابدى بيك فى عـسكر عظيم لقتالهم فنزل عابدى بيك على طرا والتقى مع من كان بها منهم فكان بها إبراهيم بيك الكبير وابنه مرزوق بيك وأصحابهما فأقتتلوا قتالاً شديداً فى البر والبحر وأبلى إبراهيم بيك وأصحابه فى هذه الحـرب بلاء حسنا فانهزم عابدى بيك ومن معـه وقتل من عـسكره خلق كثير وعاد من بقى إلى ناحية الفـسطاط وقد غرقت بعض سفنهم فتقوت بذلك عزيمة إبـراهيم بيك ونشر جموعـه فى البلاد فعاثوا وأفـسدوا وقتلوا ونهبـوا وسبوا النساء والأولاد وأحرقوا الكفور والقرى فسير محمد على باشا اثنين من أصحابه إلى إبراهيم بيك ليـخاطبـاه فى أمـر الصلح فلم يجب إليـه وشط فى الطلب، وحضـر جماعة من أصـحاب الألفى إلى جهة سقارة والجـيزة وعاثوا فيها أيضـاً وطلبوا منها الكلف والأموال وبلغ الصـائح القاهرة فنادى محـمد على باشا بخـروج سائر الجند والعسكر فـخرجوا مـشاة وركبانا وركب مـعهم محـمد على باشا فى أبهـة وجلالة وعبروا النيل إلى الجيزة ليلاً ولم تطلع الشمس إلا وكل أمير قد وقف على أصحابه. وجاء الخبر بقرب العدوّ من محلتهم فزحفوا وبانت طلائع العدو فهجم عليهم عـسكر محمد على باشا فأنهزموا وولوا الأدبار فتبعوهم وأعملوا الـسيف في أقفيتهم واشتدوا عليهم شـدة بالغة، فبـينما هم كذلك إذ خـرج عليهم كامن من خـلف فوقع بينهم الضرب وحمل أحـد مقدمى عسكر مـحمد على باشا بمن معـه على الأعداء فظنوه محمد على فأحاطوا به وأخذوه أسيراً هو ومن معه واشتد القتال بين الفريقين وعلت الضوضاء وكـثر الصياح فلم يلبثوا على هذا الحـال حتى تقهقر عسكر مـحمد على باشا ورجع من بقى منهم إلى ناحية الفسطاط وترفع المصريون إلى ناحية بياض وبنى سويف فكانت وقعة من شر الوقائع مات فيها خلق كثير من الفريقين وداست جثثهم سنابك الخيل.

ولم تكن إلا أيام حتى رجع المصريون فى أول المحرم افتتاح سنة إحدى وعشرين فى جمع كثير من العربان ولموم أهل الحرف ونزلوا بناحية جنزيرة الهواء فأزعج حضورهم محمد على باشا ورسم بخروج العسكر فخرجوا لقتالهم واقتتلوا قتالاً شديدًا فمات من الفريقين خلق وانضم فريق من عسكر الباشا إلى العدوّ وكان المقدم عليهم يومئذ حسن باشا الأرنؤطى فأرسل إلى محمد على باشا يستنجده ويخبره بما وقع فهاله الخبر وأزعجه فجمع جيشاً ضخماً وسير به نجدة إلى حسن باشا وعين المرابطين بإنبابة وطرا وشدد عليهم فى ملازمة المعاقل ونادى فى جميع الجند بذلك وأكثر من جمع الأسلحة وآلات الحرب وجاء إلى القاهرة كثيرون من الجرحى ونادوا بعدم الخروج إلى الأسواق بعد أذان العشاء فكان لذلك النداء أثر مخيف وعاد العامة وأصحاب البيوت إلى حمل السلاح والسهر والتحرز وملازمة الأزقة نهارًا والأسطحة ليلاً وسار عابدى بيك بعسكره خلف لموم الألفى إلى الفيوم فلم يجد بها أحدًا منهم فاحتلها بعسكره ثم ترك بها رباطا وعاد لنجدة أخيه حسن باشا وأقام معه بناحية الرقق وتوالت رسائل الألفى الكبير على السيد عمر النقيب بالوساطة بينه وبين محمد على باشا وتقرير قاعدة للصلح فشاور محمد على باشا أصحابه فى الأمر فقرروا إقطاع الألفى بلاد الجيزة من غير عقد ولا عهد ولا كفالة كما طلب وكتبوا له بذلك على يد رسوله الذى حضر بخطابه واحتاج الألفى وأصحابه وهم فى انتظار الجواب إلى النفقة فطلبوها من أهل برطس وأم دينار ومنية عقبة فامتنعوا عليهم فركبوا وحاربوهم ونهبوا وقتلوا الشيوخ والنساء والأطفال وفعلوا ما لا خير فيه ثم تفرقوا فى البلاد وعاثوا ووصلت طلائعهم إلى المنوفية ففعلوا بها من القتل والنهب ما لا يوصف وانضم إليهم جماعة من عساكر محمد على باشا فتقوت شوكتهم وزاد عسفهم فعزم محمد على باشا على الخروج لقتالهم بنفسه وأخذ يتأهب لذلك وأنزل شيئاً كثيراً من المهمات من قلعة الجبل ونادى مناديه فى العسكر بالخروج وضرب للنفقة فرضة على البلاد وقامت الجباة لجمعها فكانت كثيرة جداً ووردت الأخبار بقيام الألفى وزحفه من جهة الجسر الأسود والطرانة إلى ناحية الجيزة فخرج لقتاله طائفة من العساكر فوصل الألفى إلى دمنهور فوجدها ممتنعة فحاصرها فقاتلته قتالاً شديدًا فسار عنها قليلاً وعسكر على بُعد منها ومنع عنها الوارد وطلب حسن باشا المدد من محمد على باشا فسيره إليه فقام من بنى سويف إلى منية ابن خصيب فى جمع كثير وقاتل من كان بها من الأمراء المصريين والعربان وأبلى فيهم بلاء حسنًا وسارت طائفة أخرى إلى دمنهور لإجلاء الألفى عنها وظن

محمد على باشا الظفر بأعدائه فى هذه الحملة واستبشر الناس بذلك أيضًا وجعلوا يعللون الآمال بقرب زوال هذه المحن والخطوب المتتابعة، فلما كان يوم الثلاثاء رابع عشر ربيع الآخر سنة إحدى وعشرين ومائتين وألف جاء الخبر من حاكم الإسكندرية بقدوم جيش عظيم من العساكر العثمانية على نظام عسكر الفرنسيس ومع هذا الجيش والٍ جديد لمصر بدلاً من محمد على باشا اسمه موسى باشا وكان ورود هذا الخبر إلى الدفتردار أولاً فسير بـه إلى السيد عمر النقيب فجاءه السيد عمر وركبا معاً إلى محمد على باشا وأعلماه بالخبر ثم شاع بين الناس وتناقلته الألسنة فبذل الوالى والمحتسب جهد الاستطاعة فى إخفاء الخبر كى لا يصل إلى الأمراء المصريين فلم يقدرا وقد سار المبشرون إلى الألفى وهو على سواد البحيرة وأخبروه بوصول سفن الدولة وعليها العسكر المنظم ففرح وسر سروراً لا يوصف وطير الكتب بذلك إلى الآفاق فزاد فى مصر والقاهرة الهرج وكثر القال والقيل ولبث الناس على هذه الحال إلى يوم الجمعة سابع عشر ربيع الآخر فقدم إلى القاهرة رسول من قبل أمير تلك السفن فسير محمد على باشا جماعة للقائه وأنزله فى بيت الروزنامجى فأقام يومى السبت والأحد واجتمع بمحمد على باشا مرات كثيرة ثم سافر يوم الاثنين ولم يعلم أحد بما دار بينهما من الحديث وجعل محمد على باشا من هذا الحين يتأهب ويستعد ويكثر من عمل آلات الحرب ومعدات القتال وجمع الحدادين والنجارين وأرباب الصنائع بقلعة الجبل وجمع إليه مقدمى العسكر وأصحاب الوظائف العالية فخاف الناس من ذلك وأخذتهم الطيرة وتحققوا عصيان محمد على باشا وخروجه على السلطان وأرسل محمد على باشا إلى السيد عمر النقيب والخاصة وبعض المشايخ والعلماء فأخبرهم بصورة الحال وما ورد له من دار السلطنة بعزله وولاية موسى باشا. قال: وسبب ذلك أن الأمراء المصريين تقدموا إلى الباب العالى فى طلب العفو عنهم وعودهم إلى ديارهم بشرط خروج جميع الجند الأرنؤط وجلائهم عن البلاد وعليهم القيام بخدمة الدولة والحرمين وإرسال غلالهما ودفع الخزينة وتأمين السابلة فأجيبوا إلى سؤالهم على هذه الشروط وأن المشايخ والعلماء يتكفلون بهم ويضمنون عهدهم بذلك، فلما سمع من حضر هذا الكلام سكتوا جميعًا ولم ينطقوا ببنت شفة ثم انصرفوا واشتدت عزيمة محمد على باشا وقوى مع ذلك جأشه فبالغ فى الاستعداد والإكثار من آلات الحرب والتطواف فى الشوارع والصعود والنزول من قلعة الجبل ثم جمع العلماء والمشايخ والسيد عمر النقيب وبعض أخصائه ثانية ومعهم ديوان أفندى وتكلموا فى ذلك الأمر طويلاً فاتفقوا على أن يرفعوا إلى الباب

العالى قصة ينكرون عليه فيها مـا يراد فعله من خلع محمد على باشا وتولية موسى باشا فكتبوا يقولون :بسم الله الرحمن الرحيم، الرؤوف الحليم الحمد لله ذى الجلالة على جميع الشئون والأحوال نرفع إليك أكفا من بحـر جودك مغترفـه ونتوجه إلى كعبة فـضلك بقلوب بخالص الوحدانية معترفـه أن يديم بهجة الزمان ورونق عنوان اليمن والأمـان بدوام وزير تخضع لـمهابتـه الرقاب وتدنو لهـيبـته سطوة المهـمات الصعاب منتهـى آمال المقاصد والوسائل ومحط رحال المطالـب من كل سائل حضرة صدر الصدور ومدبر مهمات الأمور الصدر الأعظم أدام الله دعائم العز ببقائه وفسح للأنام فى أيامه محفوفا بعناية الرب الكريم مـحفوظًا بآيات القرآن العظيم آمين، أما بعد رفع المقصد والرجـاء ومد سواعد الخضوع والالتجاء فـإننا ننهى لمسامعكم العلية وشيم أخـلاقكم المرضية بأنه قد قـدم حضرة الدستـور الأكرم والمشير الأفـخم مدير مهمات الأسكلات البحرية خادم الدولة العلية الوزير قبطان باشا إلى ثغر الإسكندرية فأرسل كتـخدا البوابين سعـيد أغا ومعـه الأمر الشريف الواجب القبـول والتشريف المعنون بالرسم الهـمايونى الـعالى دامت مـسراته على ممر الدهور والأعـوام والأيام والليالى فأوضح مكنونه وأفصح مضمـونه أنه قد تطاولت العداوة بين الوزير محمد على باشـا وبين الأمراء المصريـين فتعطلـت مهمـات الحرمـين الشريفـين من غلال ومرتبات وتنظيم أمير الحاج على حكم سـوابق العادات والحال أنه ينبغى تقديم ذلك على سائر المطلوبات وأن هذا التـأخير سببـه كثرة العساكـر والعلوفات وترتب على ذلك لكامل الرعية بالأقاليم المصرية الدّمار والاضمحلال وأنهت الأمراء المصرية هذه الكيفية لحضرة السدة السنية وأنهم يتعهـدون بالتزام جميع مرتبات الحرمين الشريفين من غلال وعـوائد ومهـمات وإخراج أمـير الحـاج على حكم أسلوب المتقـدمين مع الامتثـال لكامل ما يرد من الأوامر الشريفة إلى ولاة الأمـور بالديار المصرية، وأنهم يقومـون فى كل سنة بدفع الأموال الأميـرية إلى خزينة الدولة العليـة إن حصل لهم العفـو عن جرائمهم الماضيـة والرضا بدخولهم مـصر المحميـة والتمسوا من حـضرة الدولة قبـول ذلك منهم وبلوغهم مأمولهم فـأصدرتم لهم الأمر الهمـايونى للشريف المطاع المنيف بعزل الوزير المشـار إليه المقرر العـداوة معه ووجهـتم له ولاية سلانيك ووجهتم ولاية مصـر إلى الوزير موسى باشا وقبلتم توبتهم وأن العلمـاء والوجاقلية والرؤساء والوجهـاء بالديار المصرية الداعين لحضرة مـولانا الخانكار ببلوغ المأمولات المرضيـة إن تعهدوا بهم وكـفلوهم تحصل لهم المساعـدة الكلية حكم التمـاسهم من أعتاب حضرة الدولة العلية فأمركم مطاع وواجب القبول والاتباع غير أننا نلتمس من

شيم الأخلاق المرضية والمراحم العلية العفو عن تعهدنا وكفالتنا لهم فإن شرط الكفيل قدرتـه على المكفول ونحن لا قـدرة لنا على ذلك لما تقـدم من الأفعـال الشهـيرة، والأحوال والمنظورات الكثـيرة التى منها خيـانة المرحوم السيد على باشـا والى مصر سابقـاً بعد واقعة مـيرميران طاهر باشـا وقتل الحجـاج القادمين من البلاد الرومـية، وسلب الأموال بغير أوجه شرعية والصغـير لا يسمع كلام الكبير والكبير لا يستطيع تنفيذ الأمر على الصـغير وغير ذلك مما هو معلومنا ومشاهدنا خـصوصاً ما وقع فى العام الماضى من إقـدامهم على مـصر المحميـة وهجومهـم عليها فى وقت الفـجرية فجلاهم عنها حضرة المشـار إليه وقتل منهم جماعة كثيرة فكانت وقعـة شهيرة فهذا شىء لا ينكر فحينئذ لا يمكننا التكفل والتعهد لأننا لا نطلع على ما فى السرائر وما هو مستكن فى الضمائر ونرجو عـدم المؤاخذة فى الأمور التى لا قدرة لنا عليها لأننا لا نقدر على دفع المفسـدين والطغاة والمتمردين الذين أهلكوا الرعـايا ودمروهم فأنتم خلفاء الله على خليفته وأمناؤه على بريتـه ونحن ممتثلون لولاة أموركم فى جميع ما هو مـوافق للشريعـة المحمـدية على حكم الأمر من رب البـرية فى قولـه سبحـانه وتعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيـعوا الرسول وأولى الأمر منكم**﴾ فـلا تسعنا المخالفة فيما يرضى الله ورسوله فإن حصل منهم خلاف ذلك نكل الأمر فيهم إلى مالك الممـالك لأن أهل مصر قوم ضـعاف. وقال عليه الصـلاة والسلام: «أهل مصر الجند الضعيف فما كادهـم أحد إلا كفاهم الله مؤنته». وقال أيضاً: «وكل راع مسـئول عن رعيتـه يوم القيامة»، ونفـيد أيضاً حـضرة المسامع العلية من خـصوص القرض والسلف التى حصل منها الثقلة للأهالى من حضرة محسوبكم الوزير محمد على باشـا فإنه اضطر إليـها لأجل إغـراء العسـاكر وتقـويتهم علـى دفع الأشقـياء والمفسـدين والطغاة المتمـردين امتثالاً لأوامـر الدولة العلية فى دفعـهم والخروج من حقـهم واجتهد فى ذلك غـاية الاجتهاد رغـبة فى حلول أنظار الدولة العلية فـالأمر مفوض إليكم والملك أمانة تحت أيديكم نسأل الله الكريم المنان أن يديم العز والامتنان لسدّة السلطان مع رفعة تترشح بها فى النفوس عظمته وسطوة تسرى بها فى القلوب مهابته، وأن يبقى دولته على الأنام وأن يحسن المبدأ والختـام بجاه سيدنا محمد خير البرية وآله وصحبه ذوى المناقب الوفية، انتهى بنصه.

وكتـبوا هذا المحضر نـسختين إحـداهما برسم أميـر سفن الحرب الراسـية بمينا الإسكندرية والأخـرى برسم السلطان ووقع المشـايخ والعلمـاء عليهـما وأرسـلا مع مـخصـوص فلم يصل رسـولهم إلى مـدينة الإسكندرية إلا وقـد وصل إلى بولاق

سلحدار الوزير فنزل بها فى ليلة الاثنين ثالث عشرى ربيع الآخر من السنة ثم حضر إلى بيت محـمد على باشـا وأصبح وقد بعث إلى جـميع المشايخ خطـابا ومثله إلى الشيخ السادات. وثالثًا إلى السـيد عمر النقيب من أمير سفن الحـرب وكلها تتضمن الأخبار بعزل مـحمد على باشا عن ولاية مصر وولايته على سالونيك وإقـامة السيد موسى باشا المنفصل عنها بدلاً منه وأن يكون الجمـيع تحت الطاعة والامتثال للأوامر والاجتهاد فى المعاونـة ووجوب سفر محمد على باشا عن طريق دمـياط ومعه حسن باشا حاكم جرجا وجميع من كان معـهما من الجند بلا مهل فلما علموا بالأمر قاموا جميعًا وركبوا فى عصر اليوم واجتمعوا بمحمد على باشا وتناجوا فى الأمر طويلاً ثم انصرفـوا وفى الغد سير إليـهم بصورة عريضة يـكتبونها ردًا على خطاب أمـير تلك السفن فكتـبوها وسيروا بهـا إليه وهى تتضمن الاسـترحام وعدم القدرة علـى كفالة الأمراء وطلب مـنع الضرر الذى لابد وأن يترتـب على إرغام العسكـر على الخروج بعد الاستـيطان وبالغوا فى الشكوى وعظموا فى البلوى وأخذ محـمد على باشا فى الأهبة والاستـعداد لقتال الألفى وأمر فـخرج العساكر إلـى بولاق وعبروا النيل إلى الجيـزة ونادى فى الجند والوجاقلية بسـرعة الخروج وعـدم التخلف وأنزل كثـيرًا من المدافع وآلات الحرب ثم عبر هـو أيضا النيل إلى انبابة واستقدم إليـه مشايخ العربان ورتب منهم طائفة لخـدمة الجند، فلما وصل إلى أمـير سفن الحـرب خطاب المشايخ والعلماء غضب وكـتب إلى محمد على باشا يستحثه على ترك مصـر والجلاء عنها إلى دمياط فيل فلم يبال محمد على باشا بذلك ولم يكف عن حشد الجيوش وجمع معـدات الحرب حتى تحقق الناس عـصيانه فلمـا كان ثانى عشر جـمادى الأولى من السنة وردت الأخبار بوصول موسى باشا الوالى الجديد إلى مدينة الإسكندرية وحضر إلى القاهرة أحـد أعوانه بكتـاب إلى الدفتردار بأن يكون قـائمًا مقـامه مسـئولاً عن الأموال وحـقوق الخـزينة السلطانيـة فلم يقبل الدفـتردار ذلك وكـان الألفى لم يزل بالجيزة يبعث إلى أمير السفن الحربية بالأخبار والهدايا العظيمة وقد أرسل إليه ثلاثين حصـانا منها عشـرة برخوتها ومن الغنم أربعـة آلاف رأس وجملة أبقار وجـواميس ومائة جمل محملة بالذخيرة وغير ذلك من المال والثياب والأقمشة برسم كبار أتباعه فغضب محمد على من فعله هذا وخاف عاقـبته وعجل فى تسيير الجند لقتاله فنزلوا تجاه الرحمـانية فلما أحس الألفى بحضورهم سـار إليهم بقومه وقاتلهم قتـالاً عنيفًا انجلى عن هزيمة عسكر مـحمد على باشا ولم يزالوا فى هزيمتهم إلى البـحر فألقوا بأنفسهم وهرب كتخدا محمد على باشـا وطاهر باشا إلى ناحية المنوفية وعبروا النيل

واستولى الألفى علـى ما تركوه من سلاح وكراع وكـان شيئًا كثـيرًا وأرسل بمن أسر منهم إلى أمير سفن الحرب وجاءت الأخبـار بذلك إلى محمد على باشا فخرج إلى انبابة وطاف الوالى وأصـحاب الدرك ينادون على العسـكر بالخروج ووصل من بقى من عسكر طاهر باشا إلى بولاق ومعهم الجرحى والمرضى فمنعوا من النزول وسارت بهم السفن إلى امبابة وباتوا وأصبحـوا وقد عادوا إلى بولاق ودخلوا المدينة ثم حضر بعد أيام طاهر باشا إلى امبابة وكان قد أرسل إليه محمد على باشا بعد انهزام جيشه أن لا يعود إلى القـاهرة، وأن يرحل عنه إلى رشيد فلم يصل إلى رشيـد حتى رسم إليه بالرجوع إلى الـرحمانية لإجلاء الألفى عنهـا فرجع إلى الرحمانيـة ومعه بعض الجند فلما التـقى الجمعان انهـزم عسكر طاهر باشا ورجـعوا القهقـرى وما زالوا فى هزيمتهم ومعهم طاهر باشا حتى وصلوا إلى امبابة ورجع الألفى إلى حصار دمنهور والتضييق على من كانوا بها وجاءت الأخبار من أمير السفن إلى الألفى بالتشديد فى قتال من بها حتى يستأمنوا وطال القتال واشتد فى جميع الجهات وترددت الرسل بين أميـر السفن والألفى والأمراء المقـيمين بالصعـيد وطالت المخابرة بينهم وطلب أمـير السفن حضور الأمراء من الصعيـد إلى الإسكندرية ليتشاوروا فى الأمر فلم يحضروا إذ منعهم البرديسى من ذلك لما بينه وبـين الألفى من الشحناء وكان الألفى هو الذى استقـدم أمير تلك السفن بسـفنه إلى مياه الإسكندرية وعمل على خلع مـحمد على باشا بوساطة الإنجليز بدون مشورة الأمراء المصريين فلما لم ينحدروا إلى الإسكندرية علم أميـر السفن مـا بينهم من البغضـاء والشحناء ومـا هم عليه من تفـريق الكلمة فتحقق أنهم لا يفلحون وأنه لا يصح له الاستيثاق منهم ولا الأخذ بمشورتهم فنبذهم وأرسل إلى محمـد على باشا مكتوبجيـه واستوثق منه فتـعهد له محـمد على باشا بجميع الالتزامـات والتعهدات التى عينها الألفى وكتـب بذلك عرضا ووقع عليه من المشايخ والاخـتيارية والـوجاقلية وأرسله مع ولده إبراهيـم وأرسل معه هدية فـاخرة للغاية وخيلا وأقمشة هندية وغير ذلك فلما كان العاشر من رجب وصل كتخدا أمير السفن المذكور إلى سـاحل بولاق فأطلقوا لقدومه عـدة مدافع وأرسلوا له فى صبح ثانى يوم خيولا صحبة الأمير طوسون ولد محمد على باشا فركب فى موكب حافل للغاية ثم عقد الديوان وقـرئ مرسوم أمير السفن ببقاء مـحمد على باشا على ولاية الديار المصرية وعليه القيام بجميع التعهدات التى منها خروج الحاج والاستمرار على أداء لوازم الحرمـين وإيصال العـلائف والغلال لأربابها على الـنسق القديم، وأن لا يدخل فى دائرة تصـرفه ثغـور رشـيد ودمـياط والإسكندريـة بل تبقى إيراداتهـا من

الجمـارك حقا للـخزينة السلطانيـة فلما تمت قراءة ذلك المرسـوم أطلقوا عـدة مدافع وطاف المبشـرون على بيوت الأمـراء والأعيان وأقلـع الأمير بسـفنه إلى دار السلطنة ومعـه موسى باشا والأمـير وإبراهيم ولد محـمد على باشا فى يوم السـبت خامس شعـبان وتقوت عزيـمة محمـد على باشا فجـعل يتأهب لقتـال الألفى وإجلائه عن دمنهور والرحـمانية فلم يتم خروج الـعسكر لقتاله حـتى جاء هو وقومه إلى الجـيزة وانتشرت لمومه بـلادها فكانت كثيرة جدًا فأسرع محـمد على باشا فى إخراج الجند وعبر بهم النيل إلى امبابة وسير فريقًـا منهم إلى الأخصاص فالتقى بأصحاب الألفى واقتتلوا قتالاً عنيفًـا فتقهقرت عـساكر محمـد على باشا وانحازوا إلى الكفور والقرى وأصبحوا وقد نودى فى عسكر الألفى بالرحيل إلى شبرامنت فساروا فى يوم الثلاثاء ثامن عشر القعدة فكانوا عدة كثيرة على نظام وترتيب الفرنسيس فأعجب محمد على باشا نظامهم ورأى الألفى قرمـا عنيدًا فأمر ببقاء أصحابه على قـدم الدفاع فلما كان يوم الخميس العشرين من القعدة حضر جماعة من العربان وأخبروا محمد على باشا بموت الألفى فى يوم وصوله إلـى شبرامنت نزل به خلط دمـوى فتقـاياً ثم مات من ساعـته ناحية المحـرقة على مقربة من دهـشور وأن مماليكه أجمعـوا على أن يؤمروا عليهم شاهين كما أوصى الألفى عند مـوته فانفصلت عنهم العربان من طائفة أولاد على وكذلك تركهم كثير من العسكر فلم يصدق محمد على باشـا هذا الخبر وشاع فتحدث الناس به وهم بين مصدق ومكذب وسير مـحمد على باشا من يتحقق الخبر فلم تعد رسله حـتى جاءه الخبـر أيضاً بموت عثـمان بيك البرديـسى بمنفلوط وموت سليم بيك أبو دياب ببنى عدى وكـلاهما من كبـار الأمراء الفارين بالأقاليم القـبلية وزعماء العصابة ثم عادت رسل محمد على باشا وأكدوا له موت الألفى فسر بذلك سرورًا لا يوصف وقـال لمن كان معـه من بطانته يوم وصـول هذا الخبر إليـه: اليوم طاب لى ملك مصـر فلا خوف علىّ. وأرسل إلى كبار جـيش الألفى يخابرهم فى الصلح ويمنيـهم بالأمانى العظيمـة فلم يقبلوا إلا بما كـان يطلبه أسـتاذهم من المزايا والإقطاعات وأن يدخل ضمن هذا العهد أيضاً جمـيع الأمراء المقيمين بالصعيد وهم إبراهيم بيك وعثمان بيك حسن فخرج محمد على باشا بجنده وعبر النيل إلى الجيزة وخيم على مقربة من ساقية مكى وسير من يخابر الأمراء المصريين فى الصلح وكف القتال واسـتدعى ولد الشيخ الأمير وولد الشـيخ العروسى والسيد مـحمد الدواخلى وسيرهم سفراء لتقرير قاعـدة الصلح على ما فيه المصلحة وظل قوم الألفى وعسكره ببلاد الجيزة يعيثون ويفسدون ويطالبـون أهلها بالكلف والمغارم وهم يـستغيثون وليس

من مجيب، وكان الألفى داهية طاغية حازما حسن السياسة ساكن الجأش واسع التدبير جسوراً صبوراً على الخطوب مقداماً فى الحروب وكان قد جلبه بعض النخاسين إلى مصر فاشتراه أحمد جاويش المعروف بالمجنون فأقام عنده أياما فلم تعجبه أوصافه إذ كان عماجنا سفيها فطلب منه أن يبيعه فباعه إلى آخر اسمه سليم أغا الغزاوى المعروف بتيمورلنك فأقام عنده حينا ثم أهداه إلى مراد بيك فأعطاه بدله ألف أردب من الغلال فسمى من ذلك الحين بالألفى وكان جميلاً حسن الصورة فأحبه مراد بيك وجعله جوخداره ثم أعتقه وجعله كاشفا للشرقية فظهر أمره وعرفه الناس وكان صعب المراس قوى الشكيمة وكان له جار اسمه على أغا المتوكلى فدخل عنده يوماً وترجاه فى أمر فوعده بقضائه ثم أحجم عنه فدخل عليه يوما فى بيته وعاتبه فغضب الألفى وأمر خدامه أن يضربوه فضربوه بالنبابيت ضربًا مبرحًا وحملوه إلى بيته فمات فى ثانى يوم فشكى أهله الألفى إلى أستاذه مراد بيك فغضب مراد بيك ونفاه إلى البحيرة فعاث فى فوّة ومطوبس وبارنبال ورشيد وأكثر من الفساد وضرب على أهل البلاد الكلف والمغارم فشكوه إلى مراد بيك فأرسل إليه يتهدده إن عاد إلى مثل ذلك، واتفق فى هذه الأثناء إن وقع التشاحن بين الأمراء المصريين فأبعدوا سليمان بيك الأغا وأخاه إبراهيم بيك ومصطفى بيك فأرسل إليه مراد بيك أن يرافق سليمان بيك إلى الإسكندرية ثم يعود إلى القاهرة ففعل ورجع إلى القاهرة فقلدوه صنجقا وذلك فى سنة اثنتين وتسعين ومائة وألف هجرية واشتهر من هذا الحين بالغلظة والخشونة فخافه الناس وتحاشوا بأسه وبنى له دارا رحبة بقيصون واشترى المماليك والجوارى وأمر من مماليكه الأمراء والكشاف فنشئوا على أخلاق أستاذهم وتطبعوا بطباعه من التعدى والعسف والفجور والتزم بإقطاع فرشوط وغيرها من بلاد الصعيد ومن الإقليم البحرى محلة دمنه ومليج وزوبر وغيرها ولما تولى إمارة الشرقية خافه العربان وقبض على كبارهم وصادرهم فى أموالهم وماشيتهم وفرض على مشايخ القبائل المغارم والجمال ولم يزل على حاله وسطوته إلى أن قدم حسن باشا الجزايرلى إلى مصر فخرج الألفى المذكور مع حاشيته وأصحابه إلى الصعيد وأقام بها ثم رجعوا فى أواخر سنة خمس ومائتين وألف بعد الطاعون وقد لبث بالصعيد نحو الأربع سنوات ولما عاد إلى الشرقية شوهد منه بعض السكون والتأنى ومالت نفسه إلى مطالعة العلوم والنظر فى الفلكيات والهندسة وتعلق بالزايرجات وأشكال الرمل وأحكام النجوم وقرب إليه أهل العلم بها واقتنى كتبا عظيمة فى أنواع العلوم والتاريخ واعتكف ثم عاد إلى القاهرة ونزل بداره القديمة وترك الإمارة وعكف على

العلوم واكتفى بما عنده من الأراضى والإقطاعات ولبث على هذه الحال حينا فصغرت منزلته عند قومه وكادوا يحتقرونه فألتزم الأوسط وانتقل إلى دار أخرى ثم عاد إلى الإكثار من شراء المماليك حتى بلغت مماليكه زهاء الألف عدا من كان منهم في الوظائف الكبيرة وأنشأ داره العظيمة بالأزبكية فلما تم بناؤها زينها بالفرش وأنواع البسط الفاخرة والتحف العظيمة التى أهداه بها جماعة الفرنجة وجعل خلفها بستانًا عظيماً للغاية وسكن بهذه الدار في أواخر شعبان سنة اثنتى عشرة وهنأه الشعراء ونظم الشيخ حسن العطار تاريخا لقاعة جلوسه في بيتين على أسكفة باب القاعة وهما:

شموس التهانى قد أضات بقاعة
مـحاسنها للعين تزداد بالألف
على بابها قال السرور مؤرخا
سماء سعاداتى تجدد بالألفى
١٤٤ ٤٢١ ٥٤٦ ١٠١
سنة ١٢١٢

فلما كان شهر رمضان أنار الدار المذكورة بالأنوار الكثيرة وازدحمت خيول الأمراء على بابه وأتى إليه المهنئون من كل صوب وما زال على هذه الحال إلى منتصف رمضان ثم بدا له السفر إلى الشرقية فأبطلوا الوقدة وأطفئوا تلك السرج والشموع فكان ذلك فألا وكانت مدة لبثه بهذه الدار ستة عشر يوماً فإنه ما تغيب بالشرقية إلا قليلاً حتى احتل بونابارته بجيوشه ديار مصر وساق الأمراء المصريين سوق الماشية إلى الأقاليم القبلية كما مر بك بيانه في محله، وكان للألفى مع الفرنسيس تاريخ يذكر ووقائع عدة وما زال يراوغهم ويتعقب كتائبهم إلى أن جاءت الجيوش العثمانية إلى حدود مصر من ناحية الشام فسار إلى الصدر الأعظم قائد هذه الجيوش وقدّم له هدية نفيسة فخلع عليه الصدر وأقام عنده أيامًا ثم رجع وترفع إلى الصعيد ثم انحدر منها إلى الشام والفرنسيس يرصدونه.

ولما دخل الصدر الأعظم مصر بمن معه من الجنود وانتقض الصلح بينه وبين الفرنسيس على ما تقدم بيانه وانحصر المصريون والعثمانيون بالمدينة ركب الألفى فى قومه وقاتل الفرنسيس قتال الأبطال وخالف مراد بيك فى الصلح مع الفرنسيس واستمر على قتاله معهم وما زال إلى أن تم الصلح ثانيًا وخرج مع الصدر الأعظم وجيوشه إلى الديار الشامية ثم رجع إلى شرقية بلبيس ثم جاء إلى القاهرة وأقام بها

مع بقية الأمـراء بعد دخول الإنجليز وخروج الفـرنسيس وكان فى مدة إقامتـه معهم شديد التحـرز كثير التطير وجعل يتـقرب من كاتب يد الوزير حتى مال إليـه وأحبه فكلمه فى الوساطة بينه وبين الوزير على أن يقلده الوزير إمارة الصعـيد بشرط قيامه بالغلال والأمـوال فى كل عام من غيـر تأخير ولما كان الألفـى كثير الحـشم والأتباع مسموع الكلمة مهيبا عند الناس كافة وكان الوزير يرغب فى تبعيده عن القاهرة وفى تمزيق شمل عصابـة الأمراء أجابه إلى طلبه ورسم له بالإمارة فسـار من فوره بجميع أتباعه ومماليكه وعـسكره وجدّ فى السير فلما شاع الخبـر جاء إلى الوزير من قبح له هذا العمل وأشار عليه بنقـضه فندم الوزير وسير من يستحضـره فلم يلحقوا به وقد وصل إلى مدينة أسيوط وأرسل إلى الوزيـر الأموال والغلال وهدايا أخرى من أغنام وعبيـد وخصيان وغير ذلك ولم يمض على قـيامه إلى الصعيـد إلا القليل حتى قام جماعة من كبار جند الإنجليز إلى الإسكندرية وكـذلك حسين باشا أمير سفن الدولة ونصبوا للمـصريين الفخاخ وأرسل القـبطان يطلب جماعة منهم، فلمـا قدموا أوقع بهم وقبض الوزير على من بالقاهرة منهم وحبسـهم وجرى ما هو مسطور فى محله وأرسلوا طاهر باشا لقـتال الألفى فى عـسكر جرار وحـصلت المقاقمة وقـتل من قتل ولجأ الكثيـرون إلى معـسكر الإنجليز بامبـابة وهرب جميع الأمراء إلى الصعيـد فقاتل عنهم الألفى قـتال الأبطال فى عـدة وقائـع تذكر ثم سـافر مع الإنجليـز إلى لوندره عاصمة مملكتهم وغاب بها سنة وشـهرا وبعض أيام وجرى فى غيابه من الحوادث ما قد ذكر فى محله بالتفصيل.

ولما تولى محـمد على باشا على مـصر كان يخشى الألـفى ويهابه كثيـراً فوقع بينهمـا من الحروب ما مر بك بيـانه فى محله وبالغ الألفى فى الشكوى من محـمد على باشا إلى دار السلطنة العثمانية وإلى دولة الإنجليـز حتى كان ما كان من حضور أمير سـفن الدولة وعزل محمد على باشـا وتولية موسى باشا مما قـد ذكر فى محله فلما سافـر أمير تلك السفن وتأيدت ولايـة محمد على باشا اشـتد بغض الألفى له وكبر عليه أمر ولايته على مصر فكتب إلى دولة الإنجليز يستنجدها على قتال محمد على باشا فلم تجب طلبـه ثم عادت فكتبت إليه توعـده بنجدة مؤلفـة من ستة آلاف مقاتل فتـربص ناحية دمنهور وبقى ينتظر ثلاثة أشهـر فلم يأته أحد ولما طال به المقام وعيل صبـر قومه وقد ضجروا من الجـدب سار بهم إلى الجيزة يريد الصعيـد فخرج عليه محمد على باشا بعسكره فـارتحل إلى شبرامنت. قال بعض الكتاب: فلما صار على مـقربة من قـناطرها نزل على ربوة هناك وجلس عليـهـا وقد زاد به الهـاجس

والقهر ونظر إلى جهة مصر وقال مخاطبًا لها: ويلك أيتها القاهرة انظرى إلى أولادك وهم حولك ممزقون كل ممزق انظرى فقد استوطنك أجلاف الترك واليهود وأراذل الأرنؤط وصاروا يقبضون خراجك ويحاربون أولادك ويقاتلون أبطالك ويقامون فرسانك ويهدمون دورك ويسكنون قصورك ويفسقون بولدانك وحورك ويطمسون بهجتك ونورك، انظرى، انظرى، انظرى. قال الراوى لهذه العبارة: ولم يزل يردد هذا الكلام وأمثاله حتى تحرك به خلط دموى وتقيأ فى الحال دما ونادى بأعلى صوته أواه قد قضى الأمر وخلصت مصر لمحمد على وما ثم من ينازعه ويغالبه عليها وقد مد حكمه على طوائف المماليك فلا تقوم لهم راية بعد اليوم، قال: ثم جمع إليه أمراءه وأمر عليهم شاهين بيك وأوصاه وأوصاهم بالألفة والتحابب وأن يحذروا من مخادعة عدوهم فهو قرم عنيد وأوصاهم أنه إذا مات يحملونه إلى البهنسا ويدفنونه بجوار قبور الشهداء فمات فى تلك الليلة وهى ليلة الأربعاء تاسع عشر ذى القعدة فحملوه على بعير وساروا به إلى البهنسا ودفنوه هناك وكان جليلاً مهيباً محتشما بعيد الفكر عظيم البأس ذا غيرة حتى على أتباعه وكانت جميع قبائل العربان النازلة بمصر لا يخالفون له كلمة وكان له معهم سياسة غريبة ومعرفة بأحوالهم فكأنما هو مربى بين ظهرانيهم يقومون ويقعدون لأمره وهو مع ذلك يصادرهم فى أموالهم وجمالهم ويقتل منهم وقد تزوّج من بناتهم كثيراً ولم يبق منهن فى عصمته غير واحدة كانت غاية فى الجمال فمات عنها ولما شاع خبر موته بين العربان اجتمعت بناتهم وصرن يندبنه بكلام عجيب فكانت تتناقله أرباب المغانى فتغنى به على آلات الطرب.

وبعد موت الألفى بنحو الأربعين يوماً وصلت نجدة الإنجليز إلى ثغر الإسكندرية ونزلوا إلى البر فبلغهم خبر موته فأرسلوا رسلهم إلى جماعة الأمراء المصريين يطلبونهم إلى الحضور ليتكلموا معهم فيما فيه المصلحة وفى ردهم إلى مناصبهم وإرجاع إقطاعاتهم إلى ما كانت عليه وكان محمد على باشا يقاتلهم بالصعيد فلما علم بذلك خابرهم فى الصلح وأمر بتحصين الثغور وترميم القلاع وقيد بذلك جماعة من كبار العسكر وخشى عاقبة حضور الإنجليز إلى الإسكندرية وقد كان حضورهم فى عمارة عظيمة ونزل الإنجليز بالإسكندرية وأرسل مقدمهم إلى حاكمها يطلب تمكين العساكر البحرية من دخول الأبراج للدفاع عن الثغر بحجة أن جيوش الفرنسيس عائدة لأخذ المدينة عنوة فلم يقبل الحاكم منه ذلك ولم يمكن الجند من دخول الأبراج وترددت الرسل بين أميرال السفن الإنجليزية وحاكم المدينة ومقدم

العسكر المرابطين بالحصون والقلاع وشدد الأميرال فى الطلب وضرب للحاكم أجلاً أربعا وعشرين ساعة فإن أصر على الإباء والعناد ضربت الحصون والقلاع بالقنابل من مدافع السفن فأرسل الحاكم يخبر كتخدا الباشا بجميع ما وقع بينه وبين أميرال السفن الإنجليزية فجمع إليه كبار الدولة وأصحاب الحل والعقد وتشاوروا فى الأمر فاتفقوا على إبلاغ الخبر لمحمد على باشا واستنهاضه إلى سرعة الحضور إلى القاهرة بمن معه من المحاربين فسيروا له الأخبار بجميع ما جرى وشددوا عليه فى الحضور فلما انقضى الأجل المضروب بين الإنجليز وحاكم الإسكندرية وهو فى الممانعة أطلقوا على الحصون المدافع ورموا الأبراج بالقنابل الهائلة فهدموا ركنا من البرج الكبير وكذا هدموا الأبراج الصغار وجانباً عظيمًا من السور فعند ذلك طلب أهل المدينة الأمان فأمنوهم ودخلت العساكر الأبراج وانتشرت فى المدينة وكانت عدتهم خمسة آلاف مقاتل ونزل أميرال الأسطول إلى المدينة وسكن بوكالة القنصل وأمن أمين أغا حاكم المدينة على نفسه ومن معه من العساكر والأجناد وكتب له عهدا بأن لا تسكن عسكر الإنجليز فى البيوت قهرا عن أصحابها بل بالأجرة والتراضى ولا يمتهنون المساجد ولا يعطلون منها الشعائر الدينية وأن من كان له دين على الحكومة يقبض نصفه من الإنجليز حالاً ومن أراد السفر بحراً فليسافر فى خفارتهم إلى أى جهة شاءها إلا دار السلطنة العثمانية وأن أهل البلد لا يتكلفون للأسطول بشىء من الميرة أو المال وتبقى المحكمة الشرعية على ما هى عليه من الفصل فى دعاوى الناس حسب الشريعة والسنة ولا ينظر الإنجليز فى دعاوى المسلمين بغير رضاهم وتبقى رعايا الدول الأجنبية حائزة لجميع الامتيازات الدولية المعروفة بين الممالك وبعضها وأن لا يؤخذ شىء من الرسوم الجمركية على جميع البضائع سوى اثنين ونصف فى المائة.

واشتد خوف محمد على باشا من احتلال الإنجليز للأبراج والحصون وكاد يسقط فى أمره وكتب إلى كتخداه بأن يعجل بجمع العسكر ويجهز المعدات وشدد فى ذلك، وسارت طائفة من الجنود الإنجليزية من الإسكندرية إلى رشيد لاحتلالها، وكان من بها من المرابطين والأهالى على يقظة تامة بالأزقة والعطوف وطيقان البيوت فلما صار الإنجليز بداخل البلد أطلقوا عليهم النيران من كل صوب وحدب فارتبك الإنجليز وألقوا ما بأيديهم من الأسلحة وطلبوا الأمان فلم يلتفتوا إليهم وقبضوا عليهم وذبحوا منهم جملة كثيرة ذبح الشاة وأسروا الباقين وفرّ جماعة منهم إلى ناحية دمنهور، وكان بها طائفة من الجند وجماعة من العربان فخرجوا والتقوا بتلك الفئة فقتلوا بعضهم وأخذوا من بقى أسيرا وأرسلوا السعاة إلى القاهرة بالبشائر ثم

أرسلوا الأسرى مع رؤوس القتلى من الإنجليز، ونادى شيخ الجامع فى طلبة العلم والمجاورين بالأزهر بترك التدريس وحمل السلاح والتأهب للقتال والجهاد فى الإنجليز وشدد السيد عمر النقيب فى ذلك على العامة فزاد هرج الناس وكثر لغطهم واجتمع المشايخ والأمراء وتشاوروا فيما يجب فعله دفاعا عن البلاد فاتفقوا على تحصين المدينة وفتح الخندق الكبير الذى كان قد أنشأه الفرنسيس عند باب الحديد واعتنوا بإصلاحه قدر الاستطاعة وأكثروا من جمع الأسلحة والكراع وأكثر الوالى من الطواف والنداء بخروج العسكر وتأهب الأهالى للدفاع فلما علم أميرال الأسطول بما حل بعسكره فى رشيد سير بعض السفن من مياه الإسكندرية إلى رشيد فأحس أهل رشيد بذلك وأرسلوا السعاة يستنجدون كتخدا الباشا ويقولون عجل فقد أصبح العدو بسفنه على الأبواب وطيروا الخبر بذلك إلى محمد على باشا فتزايد خوفه وذهب صبره وأرسل رسله إلى الأمراء المصريين يستحثهم على الصلح ويستميلهم إلى الاستعداد لطرد العدوّ الزاحف إليهم وما زالوا بهم أيامًا وهم بين إقبال وإدبار ولين وشدة ووعد ووعيد حتى مالوا إلى الصلح فاستوثق منهم وتركهم وانحدر بجيوشه إلى القاهرة ودخلها ليلاً فلما أصبح جمع إليه كبار العسكر وأرباب المناصب وخابرهم فى أمر جلاء الإنجليز وقد جاء الخبر بوصولهم إلى رشيد واستيلائهم على كوم الأفراج وأبى منصور واستمرار إطلاقهم القنابل على المدينة حتى تهدمت أكثر دورها ومات خلق كثير وأن من بها من الحكام وأرباب المناصب يطلبون المدد ويستنجدون المشايخ فطلب محمد على باشا من السيد عمر النقيب أن يفرض على الأهالى فرضة لنفقة الجند قدرها ألف كيس وأخذ فى تجييش الجيوش ونادى فى العسكر بعدم التخلف والخروج لدفع العدوّ وخرج بنفسه ومعه حسن باشا وعابدين بيك وعمر بيك وسار فى طائفة عظيمة من الجند وأرسل إلى الأمراء بالأقاليم القبلية يستنهضهم ويستقدمهم لقتال الإنجليز ويذكر لهم العهد الذى تعهد لهم به ويقول قد صارت الإنجليز على الأبواب فعجلوا بالحضور لدفعهم وإلا فعلى الإسلام السلام فلم يلبوا دعوته وقالوا لسنا على ثقة من عداوة الإنجليز لسلطاننا حتى نقاتلهم وكانوا قد حضروا لنجدتنا بناء على طلب الألفى ثم انحدروا إلى منية ابن خصيب وتربصوا بها وعاد محمد على باشا بعد تغيبه أياما بظاهر المدينة يحض العسكر على الخروج إلى الجهاد ويستنفرهم فلم تكن إلا أيام قلائل حتى جاءت الأخبار بهزيمة الإنجليز وجلائهم عن أبى منصور ومتاريس رشيد والحماد وقد أسر منهم عدة عظيمة وانحاز من بقى منهم إلى الإسكندرية وتحصنوا فيها وقطعوا سد أبى قير فانهمل ماء البحر المتوسط وأغرق ما حول الإسكندرية حتى كادت تسير فيه المراكب الصغار وحضر

الأسرى من الإنجليز إلى القاهرة فأصعدوهم إلى قلعة الجبل فكانوا زهاء الأربعمائة بينهم بعض كبار القواد ففرح الناس بهزيمتهم وتقوّت عزائم الجند المصرى وحضر أيضاً يس بيك أحد أمراء المصريين بعساكره وأقام بالجيزة على عهد الصلح الذى تقرر بينه وبين محمد على باشا ففرح محمد على باشا بقدومه وخلع عليه خلع الرضا وأعطاه ما طلب من متاع وسلاح وجهزه لقتال الإنجليز فعسكر بقومه ظاهر بولاق وطلب العساكر الخارجة عن خدمة محمد على باشا فأتوا إليه من كل صوب وحدب وكبر جيشه واتسعت كلمته فمالت نفسه إلى طلب الرياسة والخروج على محمد على باشا فبث الجباة فى بلاد القليوبية تجمع له الأموال والمغارم والكلف فأحس محمد على باشا بما وراء ذلك وأرسل إليه يطلب سرعة قيامه لقتال الإنجليز والمحافظة على العهد فتقاعس وشغل أمره محمد على باشا فأخذ فى التدبير عليه واستمال العسكر المنضمين إليه وحل عرى رباطهم ورشاهم بالمال والهدايا ونادى فى عسكر الأرناؤط بالخروج جميعًا فخرجوا إلى ناحية السبتية والخندق وحالوا بينه وبين بولاق ومصر وركب محمد على باشا فى طائفة من خواصه وخرج إلى تلك الناحية وحصن أبواب المدينة وأرسل إلى يس بيك يقول: إما أن تستمر على الطاعة وتصرف عنك هذه اللموم وتخرج لقتال الإنجليز وإما أنك ترحل إلى بلادك بلا مهل وإلا فأنا واصل إليك ومحاربك، فخاف يس بيك وانحلت عزائم قومه وتفرق عنه أكثرهم، فلما كان بعد غروب ذلك اليوم طلب الركوب ولم يعلم قومه إلى أين يريد فركبوا جميعًا وساروا قليلاً تحت جنح الليل ثم تفرقوا وتاهوا وذهب كل فريق منهم إلى ناحية لا يعلم له مقر ولم يزل يس فى سرّاه بمن معه حتى أصبح وقد نزل التبين فسير خلفه محمد على باشا طائفة من الجند لقتاله أما هو فإنه لم يستقر به المقام بالتبين حتى نهب عسكره التبين وحلوان وطرا والمعصرة والبساتين وخطفوا النساء ونهبوا الأجران وأخذوا ما كان فيها وفعلوا غير ذلك من فعال الشدة ولما أحس بقدوم العسكر ارتحل إلى صول والبرنبل ونزل إبراهيم بيك الكبير وعساكره أيضًا على بنى سويف وأرسل يعلم محمد على باشا بقدومه فلم يلتفت محمد على باشا إلى ذلك ولم يهمه ورسم بترميم القلاع والحصون التى كانت للفرنسيس أيام حلولهم بمصر وبالغ فى التشديد بذلك وقيد بعض مقدمى العسكر بالعمل وحضر من الديار الشامية كثير من العساكر الدلاتلية وبعض المرتزقة من الترك فجهزهم محمد على باشا بالسلاح ومعدات القتال ونادى فيمن كان بمصر والقاهرة من العساكر والأجناد بالخروج إلى انبابة وخرج هو فاجتمع حول وطاقه طوائف العسكر

فلمـا كان يوم الخمـيس عاشـر جمـادى الآخرة من السنة أى سنة اثـنتين وعـشرين ومائتـين وألف أمر بالارتحـال فساروا فى أبهـة وكبكبة عظيـمة إلى ناحـية البحـيرة وتربص محمد على باشا بطائفة من أصحابه على مقربة من مدينة الإسكندرية وبعث سفـراء إلى مقـدم الإنجليز يخـابرونه فى أمر الصـلح فجعل الـسفراء يتـرددون بين الفريقين أياما ثم حضر إلى معسكر محمد على باشا نفر من الإنجليز واختلوا به إلى نصف النهار، فلما كـان يوم الجمعة غرة رجب الفرد من السنة تقـررت بينهم قاعدة الصلح على أصول لم يذكرها أحد من أهل التاريخ ثم استحضر إلى الإسكندرية من كان بمصر من أسراء الإنجلـيز وردّوا إلى معسكرهم وحضر لزيارة مـحمد على باشا بمعسكره أمير سـفن الإنجليز فى نفر من قواده فأكرم محـمد على باشا وفادته وأطلق لقدومهم عدة مدافع وقدّم لهم خيولاً وهدايا نفيسـة وأقمشة هندية وشيلانا كشميرية ثم ركب معهم فـى قلة من قومه وساروا إلى بيت أميـر الجيوش الإنجليزية فـأكرموا محمد على بـاشا وقدموا له الهدايا والطرف من أفخـر الصنائع ثم أتموا التوقيع على عقـد الصلح وسلموا المدينة وفكوا من كان عندهم من أسـرى رشيد وانسحـبوا من الأبراج والحصون إلى مراكب البحر، ولبث محمد على باشا بالإسكندرية وقد باتت داخلة فى حكمه بعد أن كانت مع سائر الثغـور فى حوزة وتصرف أمير سفن حرب الدولة العثمـانية من عهد السلطان سليم إلى ذلك الحين وما زال بهـا حتى قدم إلى القاهرة فى يوم الاثنين ثالث شعبان من السنة أى سنة اثنـتين وعشرين ومائتين وألف هجرية فخرج العلماء والأمراء للقـائه وأطلقت لقدومه المدافع من قلعة الجبل وسائر الحصون وزينت المدينة ثلاث ليـال ورجع معه حسن باشا طاهر وسليمان أغـا وكثير من العسـاكر والأجناد.

وما اسـتقر به المقام حـتى جعل ينظر فى ترتيب أمور البـلاد ويعمل على إزالة الوحشـة التى بينه وبين من بقى من الأمـراء المصريين فـسيـر إليهم من يستـميلهم ويحبب لهم تـرك القتال والانضـمام إلى حاشـية محـمد على فمـنهم من مال إلى المصالحـة ومنهم من تجافى وشط فى الطلب وكـانت لم تزل الدسـائس والفتن قـائمة بين الجند وأصحـاب الكلمة فيـهم، فلما كان يوم الاثنين ثالـث عشرى شعـبان من السنة اجتمعت طائفة كبيرة من الأرنؤط والعساكر الرومية على بيت محمد على باشا وطلبوا علائفـهم فوعدهم فقالوا لا نصبر فـلاطفهم فتجافوا وأطلقـوا بنادقهم مراراً وأصروا على طلب العـلائف ثم انصرفوا وتفرقـوا فى القاهرة ومصر فـخاف الناس وتطيـروا وأرسل السيد عـمر إلى أهل الغـورية والعقـادين والأسواق يأمـرهم برفع

بضائعـهم من الحوانيت فـفعلوا وأغلقـوها فلما كـان قبيل الغـروب وصل إلى بيت محـمد على باشا فـريق آخر من الدلاتلية وطالبـوا أيضاً بالعلائف وأطلقـوا كذلك بنادقهم على من بباب مـحمد على باشا فردهم الجند وأطلقوا عليـهم النار فجرحوا منهم عدد فـانكفوا ورجعـوا وبات الناس متخـوفين وأصبح يوم الثـلاثاء والحال فى اضطراب وقد نقلت أمتعة محمد على باشا فى تلك الليلة إلى قلعة الجبل وصعد هو كذلك إلى القلعة وأرسل إلى رجب أغا أحد مقدمى الأرنؤط من يلزمه بالخروج إلى الديار الرومية بلا مهل فأظهر العـصيان وتترس هو وفريق من جنده فى بعض الدور ووقع بينهم وبين عساكـر محمد على باشا قتـال ثلاثة أيام ثم انجلى عن سفر رجب أغا قهراً إلى الديار الرومية. قال بعض كتاب الأخبار: ونزل محمد على باشا وطاف بالمدينة ومـر بناحية سـويقة المعـزى سائرا إلى بيت يلبـغا وهناك المكتـب الذى فوق السـبيل بين الطريقين تجاه من يأتى من تلك الناحـية فصعد إلى ذلك المكتب اثنان من الجند يرصدان محمد على باشا فى مـروره فلما أتى مقابلاً لذلك المكتب أطلقا عليه بارودتين فأخطأتاه وأصـابت إحدى الرصاصـتين فرس أحـد الملازمين حوله فـسقط فترجل محـمد على باشا عن فرسه وهو ساكن الجأش ووقـف على مصطبة حانوت هناك وأمر بالقبض على الجنديين فقبضوا عليهمـا فأمر بإخراجهما إلى الديار الرومية فأخـرجوهما فى الحـال، وعاد إلى مخـابرة الأمراء المصريـين فأول من أذعن منهم للصلح شاهين بيك الألفى فحضر ونزل بدهشور ومعه هدايا عظيمة من إبراهيم بيك الكبيـر ومحـمد بيك المرادى المعروف بالمنـفوخ برسم محـمد على باشـا وهى نحو الثلاثين حصانا من جياد الخيل ومائة قنطار بن قهوة ومائة قنطار سكر وأربعة خصيان وعشرين جارية سـوداء فلما وصل شاهين بيك إلى دهشور وحضـر من أعلم محمد على باشا بحـضوره أرسل معهم هدية عظيـمة ورافقهم ولده وكاتب سـره ثم انتقل شاهين بيك إلى شـبرامنت واستلم الجـيزة بعد ذلك والقـصر وما حـوله وما به من المدافع وآلات الحرب ودخل القصر وأعطاه محمد على باشا إقليم البهنسا وعشر بلاد من بلاد الجـيزة وكـتب له بذلك تقاسـيط ديوانية وضم له كـشوفـية البـحيـرة إلى الإسكندرية وأطلق له التصرف فى جميع ذلك بلا مـعارض وأكثر من مكاتبة الأمراء بالصعيد وسـلم لهم أمر مقاتلة يس بيك الذى هرب إلى الصعيـد فقاتلوه ونالوا منه وفرقوا جيوشه فانحاز إلى منيـة ابن خصيب وقد نهبت أحماله ودوابه وانصرف عنه أكثر جنده ولموه وكاد يسقط فى يده.

ولما كان الـثالث والعشـرون من شوال من السنة أى سـنة اثنتين وعـشرين ورد

فرمان السلطان بتأييد ولاية محمد على باشا ووجوب التأهب وإعداد الجند والسلاح لقتال الوهابيين الخارجين بالحجاز ففرضوا لذلك فرضة عظيمة على أهل البلاد وعين من كبار الجند من يقبضها ورسم محمد على باشا بعمارة أسوار وقلاع الإسكندرية وأبى قير والسويس ورشيد ودمياط وبالغ فى العمل وقيد به جماعة وأرسل إلى من كانوا يقاتلون يس بيك أن يشددوا فى حصاره ويمنعوا الواصل إلى مقره ففعلوا وبالغوا فى التشديد فخابرهم يس بيك فى الصلح على شروط اقترحها فقبلوا منه ذلك فاستأمن وصرف من كان عنده من طوائف العربان ثم حضر إلى بولاق وصعد إلى قلعة الجبل فعوقه محمد على باشا وأراد الفتك به فقام من الأمراء من ترامى على أقدام محمد على باشا فرسم بإخراجه إلى الديار الرومية ثم خلع عليه بعد ذلك وسير معه من يوصله إلى ثغر دمياط ومنها إلى جزيرة قبرص.

واشتغل السلطان عن مصر فى هذا الحين بقيام الفتنة فى القسطنطينية وخروج طوائف الانكشارية عن طاعته وذلك أنه لما أعياه أمرهم وصاروا أشد عداوة للدولة وأعظم ضررا عليها من الأعداء عمد إلى تنظيم عسكر مخصوص على هيئة وترتيب عسكر الفرنسيس واستقدم لذلك قائداً من كبار قوّاد الفرنسيس ففاز ونجح وتم له الأمر أو كاد فلما أحست طوائف الانكشارية بما وراء ذلك تجرّدوا للعداوة وشق عصا الطاعة وأعانهم جماعة من العلماء والمشايخ وأضرموا نار الفتنة فى جوف القسطنطينية وطلبوا صرف أولئك الجنود المنظمة وشدّدوا فى الطلب فأجابهم السلطان إلى ذلك كارهاً فلم يقفوا عند هذا الحد وطلبوا أشياء أخرى فطاولهم فألحوا فى الطلب فأجابهم إطفاء لنار الفتنة ولكى يتمكن من دفع العدوّ المحدق بالدولة من كل جانب فلما سكنت الفتنة وأخلد المشاغبون إلى السكون سير الصدر الأعظم إلى مدينة شوملة لقتال الروس وكانوا قد تجردوا لقتال السلطان ورسم له أيضاً بإرجاع بعض الولايات التى شقت عصا الطاعة وولى مصطفى باشا قائمقامية الصدارة وكان مصطفى باشا هذا من أعداء النظام الجديد وكان قد مات فى هذه الأثناء مفتى دار السلطنة وكان من أكبر أنصار السلطان سليم على إدخال النظام الجديد فى عسكره فتولى مكانه آخر شديد التعصب لعادات الانكشارية ومذهبهم يكره ذلك النظام ويعدّه بدعة مخالفة للدين فاتفق مع مصطفى باشا وبعض المشايخ وكبار العلماء على إبطاله وتحالفوا على ذلك فدسوا الدسائس وأيقظوا الفتنة النائمة وأضرموا نارها فالتهبت وقام العسكر بعضهم على بعض واقتتلوا قتال الأعداء فمات منهم خلق كثير

واجتمع كثير من العساكر المرتزقة وقدّموا عليهم مقدما منهم فسار بهم حتى أتوا إلى المكان المعروف (بايت ميدان) وقد انضم إليهم جماعة من الانكشارية وغير الانكشارية فأتوا بقدور طعامهم فصفوها أمام صفوفهم وهى عادتهم عند عدم الطاعة وقيام الفتنة وصاحوا بالويل والثبور على أصحاب النظام الجديد ثم أتوا بجميع أرباب الوظائف العالية الذين ساعدوا السلطان على إدخال ذلك النظام فى عسكره إلى ذلك الميدان فقطعوا أعناقهم وقطعوا بعضهم فى الطريق قبل أن يصلوا بهم إلى الميدان ولم ينكفوا عن الضجيج والصياح والفتنة قائمة مدة يومين حتى أفتى المفتى بخلع السلطان سليم فى الحادى والعشرين من ربيع الأول سنة اثنتين وعشرين ومائتين وألف هجرية أى سنة سبع وثمانمائة وألف ميلادية. وقال: (لا يصلح للملك من يدخل عادات الفرنجة فى بلاد المسلمين والله أعلم) ففرح العسكر بذلك ونادوا بخلعه وولاية السلطان مصطفى خان الرابع ثم قبضوا عليه ووضعوه فى إحدى السرايات محجورا عليه فكانت سلطنته زهاء العشرين سنة.

ومات فى أيامه مرقس بطرك المتأصلين بعد أن أقام فى الرياسة نحو أربع وعشرين سنة كلها شدائد ومحن وقد كثرت فيها المغارم ومصادرة الناس فى أموالهم على ما تقدم بيانه جميعه فى محله فأقيم بعده يوحنا وهو السابع بعد المائة وكان راهباً بدير أنطونيوس واسمه يوسف ووقع من الحوادث فى أيامه ما سيذكر فى محله.

(الفصل العشرون)

(فى سلطنة السلطان مصطفى الرابع ابن السلطان عبد الحميد)

ثم قام بالأمر بعد السلطان سليم ابن أخيه السلطان مصطفى الرابع ابن السلطان عبد الحميد بويع له بالملك يوم خلع عمه فى حادى عشرى ربيع الأول سنة اثنتين وعشرين ومائتين وألف هجرية أى سنة سبع وثمانمائة وألف ميلادية فلم يكن له من السلطنة سوى الاسم فقط والكلمة للمفتى ومن معه من مبغضى النظام الجديد فتصرفوا فى جميع الأمور وأطاعوا هواهم وولوا الوظائف لغير مستحقيها وسلموا مقاليد القلاع والحصون إلى مقدم الجند الذين ثاروا على السلطان فسكنت الفتنة

وعادت الأمور إلى ما كانت عليه، ووصل الخبر بما جرى إلى العسكر الذين كانوا يقاتلون الروس ففرح جماعة الانكشارية وسروا بقهرهم وقاموا على الصدر الأعظم فقتلوه وولوا بدله چلبي مصطفى باشا فسرى الفساد إلى جميع مصالح الدولة واستولى الخلل على أمورها وعبث بها الأغرار وعاثوا وأفسدوا وقام مقدم أصحاب الثورة بعد قليل على قائمقام الصدارة فخلعه وولى بدله آخر اسمه طاهر باشا فلما استقر بطاهر باشا هذا المنصب وأراد التصرف رأى أنه مغلوب على أمره ليس له من المنصب سوى الاسم والكلمة للمفتي ومقدم الجند أصحاب الفتنة فخلع نفسه ورحل عن القسطنطينية إلى مدينة روستجق ونزل في جوار حاكمها مصطفى باشا البيرقدار وكان مصطفى باشا هذا راغباً في النظام الجديد وقد جيش منه جيشاً عظيماً وكان من أنصار السلطان سليم ميالا إلى إعادته إلى عرش الملك فلما استجار به طاهر باشا قويت آماله بإرجاع السلطان إلى عرشه فسير إلى الصدر الأعظم وأصحاب الحل والعقد من يكلمهم في الأمر ويستميلهم إلى الغدر بالمفتي ومقدم أصحاب الثورة وما زال بهم حتى مالوا إلى ذلك ووافقوه وبرز الحكم من الصدر الأعظم بقتل مقدم الثورة المذكور فركب عليه أحد مقدمي الفرسان وقتله فهاج أصحابه وماجوا وتجردوا للقتال وكان مصطفى باشا البيرقدار قد وصل في هذه الأثناء إلى ضواحي القسطنطينية في جيشه المنظم وصار عسكره على مقربة من الأبواب فلما علم السلطان مصطفى بحضوره خشي العاقبة ورسم بخلع المفتي وأمر فنادى في الجند أصحاب الثورة بالانصراف إلى أوطانهم فلم يلتفت البيرقدار إلى شيء من ذلك وسار بجيوشه حتى وقف أمام باب السراى السلطانية وقد أغلقوه فهم بكسره أو حرقه ثم فتحوه عنوة وعبروا إلى داخل السراى وطلب السلطان سليم وكان محجورا عليه فأخفوه عنه وسير السلطان مصطفى في الحال جماعة من خواصه فدخلوا على السلطان سليم وضربوه بالخناجر وأحضروه ميتا إلى حيث السلطان مصطفى فقال: سلموه إلى هذا وأشار إلى البيرقدار وقال: (ها هو سلطانك الذى تطلبه منا اليوم) فلما رآه البيرقدار بكى بكاء مرا وشاع قتل السلطان سليم بين الجند فهاجوا وماجوا وكثر ضجيجهم واشتدت الفتنة ونادوا بخلع السلطان مصطفى ثم قبضوا عليه وسجنوه في المكان الذى قتل به السلطان سليم وذلك في الخامس من جمادى الأولى سنة ثلاث وعشرين ومائتين وألف هجرية أى سنة ثمان وثمانمائة وألف ميلادية فكانت سلطنته بضعة أشهر وولوا الملك بعده لأخيه السلطان محمود الثانى وهو فى عنفوان الشباب وغضاضة السن.

(الفصل الحادى والعشرون)

(فــى سلطنة السلطان محمود
الثانى ابن السلطان عبد الحميد)

ثم قام بالأمر بعد خلع السلطان مصطفى أخـوه السلطان محمود الثانى بويع له بالملك يوم الخميس خامس جمادى الأولى سنة ثلاث وعشرين ومائتين وألف هجرية أى سنة ثمان وثمـانمائة وألف ميلادية ووردت الأخبار بذلك إلــى مصر فقام مـحمد على باشـا بمظاهر الاحتـفال وزينت المدينة ثلاث ليـال وخطبوا له على المنابـر بمصر والقاهرة وسائر المدن القبلية والبحرية واسـتوزر السلطان محمود الوزير مصطفى باشا البيرقـدار وسلمه ختم الصـدارة وصرّفه فى جمـيـع الأمور فأحكم السيـاسة وأحسن التدبير وجـعل يعمل على إخضاع طوائف الانـكشارية وإيقافهم عند حـدهم فجمع يوماً جمـيع كبار الدولة وأصحاب المناصب العـالية والعلماء والمشايخ وعقـد مجلسا حافلاً وكلمهم فـيما تلاقيه الدولة بسبب خروج الانكشارية وعـدم وقوفهم عند حد رسومـهم وعاداتهم القـديمة وبالغ فى الشكوى وعظم فى البلوى وسـألهم اجتـماع الكلمـة على دفع هذا الفـساد ومنع تـطاول أيدى أولئك القوم إلــى العبث بمصـالح الدولة التى استحوز عليها الفشل وتولاها الخلل فأجابوه إلى ذلك ووافقوه على أخذ فتـوى من مفتى دار السلطنة بوجوب رجـوع طوائف الانكشارية فى جمـيع أمورهم إلى رسـومهم وعاداتـهم القديمـة فقـويت بذلك عزيمـته واشـتد أزره وعمـد إلى إخضاعهم فأخضعهم وألبسـهم ثيـاب الذل وتصرف فيهم فخاف عليه بعض أصحابه وحـذره من مكرهم وغدرهم فلـم يلتفت إلى ذلك وبالغ فـى التشـديد وأكثـر من الوعيـد، فلما ضـاق بهم الخناق وأيسوا من الخـلاص أثاروا الفتنة فى مدينـة فلييى وأظهروا العصـيان فسير لقتـالهم جيشه المنظم ولم يبق معـه سوى زهاء أربعة آلاف وبعض العساكر الأخرى وبالغ فى الشدة عـلى من بالقسطنطينية من الانكشارية فلما كانت ليلة السابع والعشرين من رمضان سنة ثلاث وعـشرين أجمعوا أمرهم وتحزبوا وساروا إلى مقر السلطان مصطفى المعزول وانبثوا حوله وهموا بإخراجه وإرجاعه إلى عرش السلطنة فركب عليهم مـصطفى باشا البيرقدار فيمن بقى من عـساكره وقاتلهم قتـالاً عنيفاً فـلم يقو على ردهم وأحس بالهـزيمة لكثرة العـدو فـسيـر إلى السلطان مصطفى المعزول من قتلـه وأمر بجثته فألقوها من أعلى الســراى إلى أصحاب الثورة كى لا يتـمكنوا من إرجاعـه إلى عرش السلطـنة فلما رأوا السلطان على هـذا الحال

اشتد هياجهم وعلا ضجيجهم وأضرموا النار فى سراى السلطان مصطفى ليهلك فيها البيرقدار بالحريق وقيل بل أضرموها فى سراى البيرقدار وأفحشوا فى الحرق والهدم والنهب واختفى البيرقدار فى سرداب فلم يعثروا عليه وكان لما اشتبك القتال بين عسكر البيرقدار والانكشارية أدخل أمير سفن الحرب ثلاثاً من السفن إلى بوغاز القسطنطينية ووجه أفواه مدافعها نحو منازل الانكشارية ورمى عليها بالقنابل رميا متتابعا ثم نزل بطائفة من عسكره أيضاً وسار لنجدة البيرقدار وكذلك سار لنجدته أحد مقدمى العساكر المنظمة فلم يفلحوا إذ كان الأنكشارية قد تمكنوا من حرق السراى فأعملوا السيف فى الانكشارية وأخذوهم من كل صوب وحدب حتى انهزموا وولوا الأدبار فانحدر جماعة منهم إلى بيوت الناس فأضرموا فيها النار فعلا اللهيب واشتد وخاف السلطان وهاله الأمر وتحقق دمار جميع المدينة وطمس معالمها فنزل من مقره إلى الباب الموصل إلى البحر ونادى بقتال الأنكشارية فقاتلوهم قتالاً عنيفًا وأكثر الانكشارية من حرق الدور والأبنية العظيمة فانهال اللهب إنهيال السيل والتهبت أكثر دور المدينة فدمرتها وعلا صياح النساء والأطفال من كل ناحية وهب الناس من مضاجعهم مذعورين فصاح السلطان وشدّد على الجند بالقتال وذبح كل من وجدوه يعاون على الحريق وهو مع ذلك محصور فى سرايته يوما وليلة فلما أشتد الحال وضعفت من خلاص المدينة الآمال سير السلطان إلى كبار الانكشارية من يخابرهم فى أمر الصلح وترددت الرسل بينهم فانكفوا عن الحريق وأخذوا فى إطفائه ودخل جماعة من الانكشارية إلى حيث مصطفى باشا البيرقدار فأخرجوه من تحت الردم ميتا وعلقوه فى شجرة ومثلوا به تمثيلاً وسكنت بعد ذلك الفتنة وعادت الأمور إلى ما كانت عليه فاستوزر السلطان الوزير ضيا يوسف باشا الذى كان حضر إلى مصر لقتال عساكر بونابارته وكظم غيظه وجعل يراقب الفرص ويتبين وجه الانتفاع بها.

وكانت هذه الفتنة وما نجم عنها من اختلال نظام الدولة وسقوط هيبتها وغل أيدى السلطان عن أن يأتى بأى أمر أراده وتفاقم شر طوائف الانكشارية كل هذا جعل محمد على باشا فى مأمن من جانب السلطنة ومكنه ذلك من منصب الولاية فتجرد للعمل وسار عن القاهرة إلى الأقاليم البحرية وقد طلب الكلف اللازمة لذلك وفرضها على البلاد فكتب إليه الرزنامجى يقول إن الخراب ضارب أطنابه على أكثر البلاد بأسباب المحن المتوالية فلا قدرة لأهلها على دفع شيء الآن فلم يرض محمد على باشا من الرزنامجى بذلك وجاب البلاد شرقاً وغرباً ومعه الكتاب وبعض

المباشرين ثم رسم بتحرير سجل مخصوص يشمل عدد ما يوجد من البلاد التى لا قدرة لأهلها على الزرع فحرروا سجلاً بها فأقطعها لأولاده وذوى قرابته وجمع إليها من تشرد من أهلها وصار من هذا الحين إذا تأخرت بلده عن القيام بما يفرض عليها أقطعها إلى رجال الدولة أو أحد أولاده أو ذوى قرابته وسميت الإقطاعات من يومئذ أى من سنة ثلاث وعشرين ومائتين وألف هجرية أو نحوها (بالعهد) ثم جعل ينظر فى احتياجات البلاد وفى ترتيب أمورها على ما فيه المصلحة واهتم بذلك كثيراً فكاد يتم له الأمر لسكون الأمراء المصريين واستقرارهم بالصعيد الأعلى وعدم قيام الفتنة.

فلما كان أوائل سنة أربع وعشرين ورد فرمان السلطان بالعودة إلى جمع العساكر والسلاح لقتال الوهابيين وكانوا قد خرجوا بالحجاز فعاثوا ونهبوا وقتلوا وسلبوا ومنعوا الحج وأظهروا البدع والخروج عن السنن والعبث بالشريعة وهم أصحاب عبد الوهاب الدرعى، وعبد الوهاب هذا رجل من العرب ولد فى الدرعية من بلاد الحجاز وتعلم مذهب الإمام أبى حنيفة النعمان ثم سار إلى أصفهان ولاذ بعلمائها وأخذ منهم حتى غزرت مادته وتضلع من علم أصول وفروع الشريعة لاسيما تفسير القرآن ثم قفل راجعاً إلى بلاده فى سنة إحدى وسبعين ومائة وألف هجرية فلما استقر به المقام جعل يقرر مذهب الإمام أبى حنيفة ثم اجتهد واستقل وقرر له مذهبا مخصوصا وألقاه على تلامذته فاتبعوه وعملوا به وكثر مريدوه وشاع أمره فى نجد والقطيف والأحساء وكثير من بلاد العرب كبنى عتبة من أرض اليمن وعمان وغيرهما للمذهب هذا قواعد وشروط مخصوصة يعلم بعضها من رسالة ذكرها صاحب الخطط التوفيقية نأتى بها هنا تتميما للفائدة.

قال: اعلموا رحمكم الله أن الحنيفية ملة إبراهيم أن تعبد الله مخلصاً له الدين وبذلك أمر الله جميع الناس وخلقهم له كما قال تعالى: ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ فإذا عرفت أن الله خلق العباد للعبادة فأعلم أن العبادة لا تسمى عبادة إلا مع التوحيد كما أن الصلاة لا تسمى صلاة إلا مع الطهارة فإذا دخل الشرك فسدت كالحدث إذا دخل فى الطهارة كما قال الله تعالى: ﴿ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر أولئك حبطت أعمالهم وفى النار هم خالدون﴾ فمن دعا غير الله طالباً منه ما لا يقدر عليه إلا الله من جلب خير أو دفع ضر فقد أشرك فى العبادة كما قال الله تعالى: ﴿ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون * وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين﴾ وقال تعالى: ﴿والذين تدعون من دونه

ما يملكون من قطمير إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير﴾ فأخبر تبارك وتعالى أن دعاء غير الله شرك فمن قال يارسول الله أو يابن عباس أو ياعبد القادر زاعماً أنه باب حاجته إلى الله وشفيعه عنده ووسيلته إليه فهو المشرك الذى يهدر دمه وماله إلا أن يتوب من ذلك، وكذلك الذين يحلفون بغير الله أو الذى يتوكل على غير الله أو يرجو غير الله أو يخاف وقوع الشر من غير الله أو يلتجىء إلى غير الله فهو أيضًا مشرك، وما ذكرنا من أنواع الشرك هو الذى قال الله فيه: ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾ وهو الذى قاتل رسول الله المشركين عليه وأمرهم بإخلاص العبادة كلها لله تعالى ويصبح ذلك أى التشنيع عليهم بمعرفة أربع قواعد ذكرها الله تعالى فى كتابه، أولها أن تعلم أن الكفار الذين قاتلهم رسول الله يقرون أن الله هو الخالق الرازق المحيى المميت المدبر لجميع الأمور والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿قل من يرزقكم من السماء والأرض أمّن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ومن يدبر الأمر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون﴾ وقوله تعالى: ﴿قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون سيقولون لله قل أفلا تذكرون * قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم سيقولون لله قل أفلا تتقون * قل من بيده ملكوت كل شىء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون سيقولون لله قل فأنى تسحرون﴾ إذا عرفت هذه القاعدة وأشكل عليك الأمر فأعلم أنهم بهذا أقروا ثم توجهوا إلى غير الله يدعونه من دون الله فأشركوا، القاعدة الثانية، أنهم يقولون ما نرجوهم إلا لطلب الشفاعة عند الله نريد من الله لا منهم ولكن بشفاعتهم وهو شرك والدليل على ذلك قول الله تعالى: ﴿ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله قل أتنبئون الله بما لا يعلم فى السموات ولا فى الأرض سبحانه وتعالى عما يشركون﴾ وقال الله تعالى: ﴿والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى إن الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون أن الله لا يهدى من هو كاذب كفار﴾ وإذا عرفت هذه القاعدة فأعرف القاعدة الثالثة، وهى أن منهم من طلب الشفاعة من الأصنام ومنهم من تبرأ من الأصنام وتعلق بالصالحين مثل عيسى وأمه والملائكة والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه إن عذاب ربك كان محذورا﴾ ورسول الله لم يفرق بين من عبد الأصنام ومن عبد الصالحين بل كفر الكل وقاتلهم حتى يكون الدين كله لله وإذا

عرفت هذه القاعـدة، فاعرف القاعدة الرابعة، وهـى أنهم يخلصون لله فى الشدائد وينسون ما يشركون والدليل على ذلك قوله تعالى: **﴿فإذا ركبـوا فى الفلك دعوا الله مخلصـين له الدين فلما نجـاهم إلى البر إذا هم يشـركون﴾** وأهل زمـاننا يخلصـون الدعاء فى الشـدائد لغير الله فـإذا عرفت هذا، فاعـرف القاعدة الخامسة، وهى أن المشركين فى زمـان النبىّ أخف شركا من عقلاء مشـركى زماننا لأن أولئك يخلصون لله فى الشدائد وهؤلاء يدعون مشايخـهم فى الشدائد والرخاء، والله أعلم بالصواب انتهى بنصه.

ووردت الأخبار بخروج الصـدر الأعظم يوسف باشا من دار السلطنة فى جيش عظيم لقتال الـوهابيين وخروج آخر اسمـه سليمان باشا من مدينـة بغداد فى عسكر أيضاً لقتالهم فـجعل محمد على باشا يتأهب للخروج ورسم بتـحصين قلاع القلزم وتعبيتها بالأسلحة وآلات الحرب وأكثـر فيها من المؤنة والماء وقيد بها طائفة من الجند حتى صارت على قدم الاستعداد وأنشـأ على ساحل بولاق معملا لمد السفن وصنعة النجـارة سماه الترسخـانة وعمل السـفن والشوانى الكبـيرة وجـمع لذلك الصناع والنجارين والحداديـن فكانوا يهيئون الأخشـاب ويصلحونها ويحملونـها على ظهور الجمال إلى السويس فيضمون بعضها إلى بعض وينزلونها إلى بحر القلزم فعملوا من ذلك أربع سفـن كبـيرة وعدة سـفن صغـيرة وشحنوها بالآلات والمهـمات الحـربية فصارت على أهبة السفر إلى الأقطار الحجازية وأظهر محمد على باشا الاهتمام بهذه الحـملة، فبـينما هو علـى هذا الحال من جـمع الجند وآلات الحرب إذ جـاءه الخبـر بانحدار الأمراء المصريين إلى الجيـزة وأنهم نصبوا خيامهم خارجها ومـعهم كثير من العربان والهوارة ولموم أخر وأنهم يريدون حضور مـحمد على باشا لملاقاة من تعاهد منهم على الصلح فلم يلتفت محمـد على إلى ذلك ولم يحضر ولم يرسل أحدا من قبله فى ذلك اليـوم فساء ذلك إبراهيم بيك الكبـير وعدها إهانة له ولأصـحابه ومن حضر مـعه على العهد من الأمـراء فلما كان ثانى يوم عبـر شاهين بيك الألفى إلى شبرى واجتمع بمحمد على باشـا وعاتبه وأغلظ عليه القول ثـم نزل من عنده وعبر النيل إلى الجيزة وأمـر فنقلوا متاعه وجـميع أثاثه ونساءه وسيرّهـنّ إلى الفيوم ونسى محاسن القصر الذى كان يسكنه بالجيزة وانضم إلى إبراهيم بيك الكبير وبقية الأمراء وخالف العهد وكفر بالنعمة وجمع إليـه مماليكه وأتباعه وعساكره ونصب خيامه على مقربة من خـيامهم ورتبوا الأمر بينهم وقـسموا مواقف الحرب والقـتال واختص كل فريق منهم بجهة وجاء الخبر بذلك إلى محمد على باشا فسير إليهم يلاطفهم ويطيب

خواطرهم فلم يقبلوا وتجافوا وأغلظوا فى القول ورموه بالخديعة وشاع الخبر بذلك بمصر والقاهرة فخرج إليهم أيضاً من كان مختفيا من العساكر والأجناد المصريين وعبروا النيل إلى الجيزة فكثرت لمومهم وكبر جيشهم فاستعظم محمد على باشا الأمر وخشى العاقبة فأخذ فى التجهيز ونادى فى عسكره بالخروج فعبروا النيل وهو فى مقدمتهم ونزل بقصر الجيزة وتحققت المفاقمة وتحصن الأمراء خلف السور ووقفت أمامهم عساكر محمد على باشا ولبثوا على هذا الحال إلى ثانى يوم ولم يقع بينهما ضرب ولا قتال ثم ترفع المصريون إلى ناحية دهشور وزنين فأمسك عليهم محمد على باشا الطرق ومنع عنهم المواصلات وشدد فى المنع وبث العيون والأرصاد واستمال من كان معهم من عربان أولاد على وغيرهم وأمنهم فتركوهم وأتوا إليه خاضعين فأحسن إليهم وردهم إلى أوطانهم وسير طائفة من العسكر لقتال شاهين بيك ومن معه فالتقوا بهم عند صول والبرنبل وقد جعلوا بها المتاريس ونصبوا عليها المدافع فقاتلوهم حتى أجلوهم عنها وملكوا المتاريس وقد مات من الفريقين خلق كثير وأنقسم الأمراء المصريون إلى قسمين قسم عبر النيل إلى شرق أطفيح وقسم قفل راجعاً إلى الجيزة لقتال المرابطين بها وإبعادهم عنهم فلم ينالوا منهم أربا وجعل محمد على باشا يستميل من كان مع شاهين بيك من الأمراء المصريين والكشاف وما زال بهم حتى تخلوا عن شاهين وانحازوا إلى عسكر محمد على باشا فأكرم لقاءهم وخلع عليهم خلع الرضاء وشاع خبر رجوعهم عند أصحاب شاهين فزالت لذلك هيبته وسقطت كلمته ورجع من كان على قدم الطاعة إليه والانضمام إلى عسكره وقام عليه أهل البلاد التى كانوا يمرون بها ومنعوهم من ضرب المغارم وأخذ الكلف وطردوا المعينين لذلك من قبله وكادت تتلاشى سطوته وتتفرق كلمة من كانوا معه وأحس محمد على باشا بانصرام حزمتهم فشدد فى مطاردتهم وضيق عليهم من كل صوب وحدب وأرتحل بعساكره من الجيزة ومعه ولده الأمير طوسون إلى جزيرة الذهب ثم ساروا منها إلى الصعيد فكان كلما اقترب من منازل المحاربين انسحب من جموعهم العدد الكثير وانحازوا إليه وقدموا له الطاعة، فلما كان يوم السبت عاشر رجب سنة خمس وعشرين التقى الجمعان واقتتلا قتالاً عنيفًا فاستظهرت عساكر محمد على باشا على الأمراء وأبلوا فيهم بلاء حسنًا فترفع الأمراء إلى الصعيد وتبعتهم الجيوش المصرية فلما رأى جماعة الألفى أنهم مأخوذون استأمن منهم طائفة كبيرة وتتابعت انتصارات محمد على باشا وضعفت عزيمة الأمراء المصريين فكانوا كلما اقترب العسكر من منازلهم تركوها وترفعوا إلى الصعيد وبينما هو على هذا

الحال إذ جاءه الخبر بقدوم رسول من جانب السلطان بفرمان وأنه نزل بقصر شبرى من ضواحى القاهرة فانحدر محمد على باشا إلى القاهرة على عجل وصعد إلى قلعة الجبل وطلب إليه الرسول فقابله برهة لطيفة شاع بعدها الخبر بأن السلطان راغب فى سرعة قتال الوهّابيين والتعجيل فى تسيير العساكر المصرية لقتالهم فأظهر محمد على باشا الاهتمام بذلك وأمر بالتأهب والاستعداد وأكثر من جمع العساكر ونادى فيهم بالخروج فأجتمعوا عند قبة العزب ونزلوا هناك أيامًا حتى يتم خروجهم وقد سلم قيادهم إلى ولده الأمير طوسون ثم نادى مناديه باجتماع الأمراء وسائر أرباب الوظائف ورجال الحكومة فى قلعة الجبل ليركبوا فى غد بتجملاتهم وزينتهم ويسيروا أمام موكب الأمير طوسون عند خروجه بعسكره إلى مدينة السويس.

(مطلب)

(قتل أمراء العسكر المعروفة بقتل الغز)

فلما أصبح يوم الجمعة سادس صفر سنة ست وعشرين ومائتين وألف ركب جميع الأمراء والكشاف وصعدوا إلى قلعة الجبل فى مماليكهم وأتباعهم وأجنادهم بتجملاتهم وزينتهم ودخل الأمراء منهم على محمد على باشا وتحادثوا ساعة وهو يظهر لهم غاية البشر والإيناس ثم أمر فسار الموكب على الوضع الذى رتبوه فكانت طائفة الدلاة فى المقدمة ومن خلفهم طوائف العسكر المشاة والفرسان وأرباب المناصب وكان محمد على باشا قد أطلع حسن باشا وصالح جوق والكتخدا على ما فى نفسه من الغدر بالأمراء المصريين وقطع شأفتهم وأسرّ بذلك أيضًا فى صبح اليوم إبراهيم أغا أغات الباب فلما سار الموكب من باب العزب وفرغ طائفة الدلاة ومن كان معهم من الوجاقلية وانفصلوا من الباب المذكور أشار صالح جوق فاغلقوا الباب وعرف أصحابه بالمراد فأطلقوا فى الحال نيرانهم على المصريين وقد انحصروا جميعهم فى المضيق المنحدر من الحجر المقطوع فى أعلى باب العزب ما بين الباب الأعلى الذى يتوصل منه إلى رحبة سوق القلعة إلى الباب الأسفل، وهو مشاهد إلى يومنا هذا، وقد كانوا أعدوا عدة من العساكر أوقفوهم على الجدران التى بذلك المضيق فلما أطلقت البنادق من الواقفين عند الباب همّ الأمراء بالرجوع إلى الوراء فلم يتمكنوا من ذلك لتكاثر الخيل من خلف وقد أخذهم ضرب البنادق من خلفهم أيضاً واشتدت عليهم النيران وتتابعت وسمع العسكر الواقفون بالأعالى فأطلقوا نيرانهم أيضًا فلما نظروا ما حل بهم سقطوا فى أيديهم وارتبكوا ووقع منهم قتلى كثيرون وترجل أكثرهم عن خيولهم واقتحم شاهين بيك الألفى وسليمان بيك

الأبواب فى عدة من مماليكهم راجعين إلى فوق ونزعوا ما كان عليهم من الفراوى والثياب الثقيلة وساروا والسيوف فى أيديهم حتى الرحبة الوسطى المواجهة لقاعة الأعمدة وهى قاعة صلاح الدين يوسف وقد قتل أكثرهم برمى البنادق وأصيب شاهين بيك وسقط على الأرض فانقضوا عليه وقطعوا رأسه وأسرعوا بها إلى محمد على باشا وكان محمد على باشا عندما ساروا بالموكب قد دخل إلى بيت الحريم وهرب سليمان بيك البواب وتسلق إلى حائط البرج الكبير فأصابوه برمى الرصاص فسقط فاحتزوا رأسه أيضاً وهرب كثير إلى بيت الأمير طوسون مستجيرين فلحقوهم وقتلوهم وأسرف العسكر فى القتل وتتبعوا الشاردين فى نواحى القلعة وقبضوا على من لم يكن فى الموكب أيضًا وقتلوهم فى تلك الليلة واستمر القتل يوم الجمعة بطوله وليلة السبت ويوم السبت فكان المنظر مخيفاً للغاية والأرض مغطاة بالجثث والأسلحة وثياب القتلى، وأنفذوا إلى كشاف الأقاليم بقتل جميع من يوجد عندهم من طوائف المماليك وفوض محمد على باشا أمر ذلك إلى كتخداه فبالغ فى البحث والتفتيش عليهم بالجهات القبلية والبحرية ونزلت العساكر إلى بيوت الأمراء فنهبوا ما فيها وسبوا النساء وأفحشوا فى القتل وإخراج المخدرات حاسرات الرؤوس وركب محمد على باشا ونزل من قلعة الجبل فى ضحوة يوم السبت وحوله أمراؤه الكبار مشاة وأمامه طائفة الصقاشية والجاويشية بزينتهم ولباسهم الفاخر مشاة وهو راكب على فرس وهم محدقون به وأمامه وخلفه عدة أخرى ونادى مناديه بمنع النهب وأمر بقتل من يضبط ومعه شىء من المنهوبات فانكف الجند وامتنعوا، وسير الكشاف برؤوس القتلى من المماليك ممن كانوا بالمدائن والقرى بالأقاليم القبلية والبحرية فكانت شيئاً كثيرًا جداً. قال بعض الكتاب: فلم ينج من طوائف الألفية إلا اثنان وهما أحمد بيك زوّج أبنة إبراهيم بيك الكبير فقد كان غائبًا فى بلدة بوش. وثانيهما أمين بيك وقيل إنه ألقى بنفسه وهو على ظهر جواده من السور المجاور لقاعة الأعمدة إلى ميدان الرميلة فمات جواده ونجا هو وهرب إلى الديار الشامية فكانت عدة من مات من المماليك فى هذه الوقعة زهاء الأربعمائة ومن الأتباع والكشاف وغيرهم زهاء الستمائة وبينهم مرزوق بيك بن إبراهيم بيك الكبير فوجدت عليه أمه وجدا عظيماً وطلبت جثته فأخرجوها من بين القتلى فدفنت فى مدفن أعدته له، ووصل الخبر بما وقع للأمراء المصريين إلى أحمد بيك الألفى وهو ببوش فسار من فوره إلى الصعيد الأعلى واجتمع بمن فيه من الأمراء وأعلم إبراهيم بيك الكبير بما جرى لولده مرزوق فحزن حزناً عظيما ولبسوا جميعًا السواد وجلسوا للعزاء وما زال القتل متتابعا فيمن يعثرون عليه من طوائف المماليك شرقا وغرباً وفى أصحاب البيوتات القديمة منهم

حتى كادوا يمحون أثرهم فأرسل إبراهيم بيك ومن معه يطلب من محمد على باشا الأمان وأن يرسم لهم بالجهة التى يعيشون فيها فلم يرد عليهم جواباً وأرسل لقتالهم مصطفى بيك فى طائفة كبيرة من عسكر الأرنؤط واهتم بعد ذلك بتعبية الجند والسلاح لقتال الوهّابيين، وكأنه قد تفرغ لذلك فجمع منهم طائفة عظيمة وعقد لابنه لواء الأمير طوسون هذه الحملة فلما كان يوم الأحد سادس ربيع الأوّل سنة ست وعشرين نزل الأمير طوسون بجيشه من قلعة الجبل فى موكب حافل وأمامه المدافع وآلات الحرب وعسكر ببركة الحاج وأقام بها حتى تكامل جيشه وسافر محمد على باشا إلى السويس وقد سير ما كان فى ميناها من السفن ومراكب الحرب فسارت إلى الينبع وتقاتلت مع من بها من الوهّابيين ونالت منهم ثم سار الأمير طوسون بجيشه من البركة فى يوم الخميس التاسع من رمضان هذه السنة فوصلوا فى السابع من شوال إلى بندر المويلح وعيدوا العيد بمقابر شعيب يوم السبت ثم ساروا إلى الينبع وملكوها من غير قتال وساروا إلى منزلة الصفراء والحديدة فوجدوا فيها عند سفح الجبل متاريس فقاتلوا عليها حتى أخذوها ثم تسلقوا الجبال فالتقى فريق منهم بجيوش الوهابيين فانتشب بينهم القتال وثابروا عليه يوماً وليلة ثم انجلى عن هزيمة المصريين فرجعوا القهقرى واختل نظامهم وتبدد شملهم وطلبوا السفن وكان قد حضر منها بساحل البريك عدة مددا فلحقوا بها وتزاحموا عليها وتفرقت دواب الحمل وتشردت وترك الجنود خيامهم وسلاحهم مع جميع متاعهم وكانت وقعة من أشد الوقائع ورجع الأمير طوسون إلى ينبع بعد تغيبه يوماً عن معسكره وقد ظنوا موته ولبث بينبع أربعة وعشرين يوماً حتى جمع شتات عساكره المشاة أما الفرسان فقد رجعوا إلى الوراء وما زالوا حتى وصلوا إلى المويلح وقد أجهدهم الجوع وأضناهم الوصب فنزلوا بها ووردت الأخبار بما حصل إلى محمد على باشا فلم يتزعزع ولم تفتر له همة ونادى فى العسكر المقيمين بمصر والقاهرة بالخروج وشدد فى النداء وبرز إلى ضواحى القاهرة وخرج العسكر فرتبهم وعقد لواءهم لبونابارته الخازندار فساروا إلى الينبع ليرابطوا بها وجيش جيشاً آخر وعقد لواءه لصالح بيك السلحدار وجعل معه جماعة من الكشاف واستقدم من كان مع الأمير طوسون فحضروا فأمرهم بالجلاء عن مصر والرحيل إلى بلادهم فلم تسعهم المخالفة وخرجوا فى عدة كبيرة من العساكر الأرنؤط وخرج بنفسه لقتال الوهابيين والأخذ بثأر من مات من رجاله فسار بجيش عظيم ومعه حسن باشا طاهر وأخوه عابدين بيك فلم يسر مرحلة عن القاهرة حتى وردت إليه الأخبار فى ثانى يوم باستيلاء من بقى من

المصريين على عقبة الصفراء والحديدة بغير حرب ولا قتال وأنهم لم يجدوا فيها أحداً من الوهابيين ففرح بذلك وسار إلى السويس ولبث فيها أياماً وقد عدل عن المسير إلى الحجاز فعجل بتسيير الجيوش التى كانت معه برا وأنزل طائفة منهم بالسفن والشوانى وسير كذلك مصطفى بيك والى باشا بجميع عساكر الدلاتلية ومعهم شيء كثير من المؤن وآلات الحرب وعاد إلى مصر فلما دخل القاهرة وردت إليه الأخبار بوصول عساكره إلى المدينة وأنهم نزلوا بفنائها وقد أحضر المبشر بهذا الخبر مفاتيح المدينة فزينت لذلك البلد ثلاث ليال أوّلها يوم الخميس ثالث عشر ذى الحجة سنة سبع وعشرين ومائتين وألف هجرية فأرسل المفاتيح مع رسول مخصوص إلى دار السلطنة.

وبينما كان بعض عساكره يقاتل الوهابيين ويسترد منهم ما ملكوه من بلاد الحجاز كان البعض الآخر يطارد أيضًا من بقى من الأمراء المصريين حتى أجلوهم عن الصعيد وما زالوا على أثرهم حتى ترفعوا إلى النوبة ودخلوا إبريم فقطعوا عنهم الواصل وسدوا عليهم المسالك وقبضوا على كثير من أتباعهم وقتلوهم وما زال يشدد فى تتبعهم بالقتل والتشريد حتى أمن شرهم فأمّر ولده إبراهيم على جميع الأقاليم القبلية وأطلق له فيها التصرف وأخذ هو فى تدبير أمور البلاد فأكثر من المشروعات المهمة والأعمال المفيدة كحفر الترع وترميم الجسور وإنشاء الحصون والمعاقل بمدينة الإسكندرية، وبعضها باق إلى هذا اليوم، وأنشأ المعامل العظيمة لمد السفن ومراكب الحرب وهيأ عمارة حربية عظيمة وسلحها بالمدافع وآلات القتال وسير منها عدة كبيرة مددا إلى ولده الأمير طوسون وكان يظن ذهاب شوكة الوهابيين وسقوط كلمة زعيمهم الأمير سعود وقد كان الأمير سعود هذا قد انكف عن قتال عساكر الأمير طوسون حينا وترفع بقومه إلى بعض الجبال ولكنه عاد فى سنة ثمان وعشرين ومائتين وألف فهاجمهم بعدة كثيرة من أصحابه ناحية طراباى شرقى مكة فملكها وكانت شدة القيظ قد فعلت بالعسكر المصرى فعلاً رديئًا جدا ثم سار إلى المدينة وملك جميع أرباضها والقرى المجاورة لها وأفحش فى النهب والسلب وقاتل من بها من العساكر المصرية وضيق عليها ومنع عنها الواصل فكان كل من هرب من الحصار وقفل راجعاً إلى الوراء قبضوا عليه وقتلوه ووصلت الأخبار بما جرى فشق الأمر على محمد على باشا وأعظمه وجيش جيشا عظيمًا وخرج به من القاهرة يوم الجمعة ثالث عشر شوّال سنة ثمان وعشرين ومائتين وألف ونزل ببركة الحاج ثم سار منها إلى السويس فلاقاه المبشرون فى الطريق وبشروه بسقوط عثمان المضايفى فى أسر

الأمير طوسون وكان المضايفي هذا قد خرج في لموم كثيرة لقتال من بالطائف من العسكر المصرى فبرز إليه الشريف غالب بالعسكر المصرى وطوائف العربان وقاتلوه واشتد القتال بين الفريقين فأصيب جواد المضايفي فنزل عنه واختلط بالعسكر فلم يعرفوه فخرج من بينهم هاربًا فصادفه جماعة من جند الشريف غالب فعرفوه وقبضوا عليه وقد أصابته جراحة فلما مثل بين يدى الشريف أمر فقيدوه بالحديد وسير به إلى الأمير طوسون. قال بعض كتاب الأخبار: والمضايفي هذا زوّج أخت الشريف خرج عنه وانضم إلى الوهابيين فكان أكبر عون لهم وكان هو الذى يستميل لهم طوائف العربان فنما لذلك أمره واشتهر ذكره فدوّخ المدن وفتح منها عدة كثيرة وافتتح الطائف وله وقائع وحروب مشهورة أضربنا عن ذكرها هنا.

ولما وصل محمد على باشا إلى ينبع سير طلائع عسكره إلى المدينة فناوشوا من كان حولها من أصحاب الوهابي وأجلوهم عنها فنزل عليها محمد على باشا وأدّى فريضة الحج ثم أخذ في تدبير أمور الحملة ومال إلى الشريف غالب وأظهر له الولاء والمحبة فانخدع الشريف وبقى معه على ذلك أياماً ثم قبض عليه هو وثلاثة من أولاده وسيرهم مع نفر من الجند إلى جدة وأنزلوهم بإحدى السفن فأقلعت بهم إلى مصر عن طريق القصير، قال بعض الكتاب: وتحرير الخبر أنه لما وصل محمد على باشا إلى مكة جدد العهد مع الشريف غالب وحلفا الأيمان في جوف الكعبة بأن لا يخون أحد صاحبه ولا يغدر به ولا يعمل على إيذائه فكان بعد ذلك يذهب كل منهما إلى الآخر في قلة من أصحابه واستمرا على هذا الحال زهاء خمسة عشر يوماً من ذى القعدة فلما كان أحد الأيام دعا الأمير طوسون الشريف غالب إلى بيته فأتاه في قلة على عادته فلما اقتحم الدار رأى فيها من العساكر والأجناد ما رابه فصعد متخوفاً فلما استقر به المجلس حضر عابدين بيك في نفر من الجند وصعد إلى المجلس ودنا من الشريف وأخذ خنجره من منطقته وقال له قم قد بعث سيدنا ومولانا أمير المؤمنين في طلبك إلى دار السلطنة فقال على السمع والطاعة ولكن لى أشغال أقضيها في ثلاثة أيام فقال لا سبيل إلى ذلك وقد أعددنا لك سفينة لتحملك فلما سمع جماعة الشريف وعبيده هذا القول تحزبوا وأسرعوا إلى الأبراج التى هى مقر الشريف يريدون القتال فأرسل محمد على باشا يتهددهم بحرق المدينة إن هم فعلوا شيئاً وأرسل الشريف كذلك ينهاهم عما عزموا على فعله وكان أولاد الشريف الثلاثة في بيت له فأرسل إليهم محمد على باشا أحد خواص الشريف وما زال يخادعهم حتى انخدع كبيرهم فنزل بهم متحفظًا إلى مكان وفى الحال استحضر

محمد على باشا الشريف يحيى بن سرور وهو ابن أخى الشريف غالب وخلع عليه وقلده إمارة مكة ونودى بذلك وطيروا خبره إلى الآفاق وأقام الشريف غالب أربعة أيام ثم أنزل إلى سفينة فسارت به إلى القصير ومنها إلى القاهرة فاستقبله كتخدا الباشا بالاحتفال والاحتفاء وأطلقت لقدومه المدافع وانزلوه ببيت السيد المحروقى أياماً ثم أعدوا له دارا أخرى وأسكنوه بها وجعلوا الجند على بابه تحرسه ثم قدم بعده أيضاً ولد أخيه الشريف عبد الله بن الشريف سرور مبعدًا منفياً فأنزلوه فى دار مخصوصة محجوراً عليه ولم يجتمع بعمه ولم يره قيل وكان هذا كله بأمر من دار السلطنة فكادت لذلك تنصرف عن الأمير طوسون طوائف العربان الذين أتوا بكلمة الشريف غالب وتقاعسوا عن القتال معه وفترت همتهم وأنفشلوا وهاجر الكثير منهم ومن الأشراف وانضموا إلى الوهابيين وقاتلوا جيوش الأمير طوسون قتالاً عنيفًا وأبلوا بلاء حسنًا فوقع بأسباب ذلك فى الحرمين غلاء شديد وقل الوارد من الحبوب والدقيق واشتد الجوع وهاجر الفقراء إلى الجبال فكانت شدة عظيمة جداً، ومات فى هذه الأثناء سعود شيخ الوهابيين فولى الوهابيون ولده عبد الله مكانه وكان يظن انفشالهم بعد موته ووردت الأخبار بذلك إلى الأمير طوسون ففرح وأمر عساكره فزحفوا إلى ناحية (قنفده) وحاربوا عليها أياماً كثيرة حتى فتحوها واستولوا عليها ووصلت الأخبار إلى دار السلطنة بوقوع الشريف غالب فى أسر المصريين فحضر منها قاصد يخبر بوجوب جمع ما أخذ من الشريف ورده إليه من متاع ومال وذخائر وكان محمد على باشا قد أرسل إلى دار السلطنة من ذخائر الشريف مسبحتين من لؤلؤ فاستحضرهما معه ذلك القاصد وردهما للشريف فلما كان يوم السبت تاسع عشرى شعبان سنة تسع وعشرين أنزلوا الشريف غالب إلى بولاق بنسائه وأولاده وغلمانه وعبيده فسافروا مع القاصد إلى دمياط ومنها إلى سلانيك وأرسل محمد على باشا فى طلب الشريف عبد الله بن سرور إلى الديار الحجازية وكانوا قد شددوا فى الحجر والتضييق عليه وكان لما حضر إلى مصر وأقام محجورا عليه أيامًا رأى كتخدا بيك عدم المانع من إخلاء سبيله يغدو ويروح فى الشوارع وعند المعارف والأحباب واستمر على هذا الحال شهرا ثم زينت له نفسه الفرار فاختفى أياما فأزعج كتخدا بيك فراره واستحضر سائر مشايخ الحارات وشدد عليهم فى إحضاره وبث العيون والأرصاد واهتم لهذا الأمر جدًا فلما كانت ليلة السبت ثامن عشرى رجب سنة تسع وعشرين حضروا به فى وقت الغروب إلى بيت السيد المحروقى فسلمه إلى كتخدا بيك وكانوا قد عثروا عليه بحلوان فضيق عليه هو وعمه من ذلك الوقت

ومنع من خروجهما حتى سافر الشريف غالب إلى سلانيك وسافر عبد الله المذكور إلى الديار الحجازية.

ورأى محمد على باشا أنه لابد من مصالحة الأشراف واسترضائهم كى تنحسم أسباب الخصام وتبطل الحرب بعد أن طالت أيامها وملت منها نفوس الجند فجعل يعمل ويدبر حتى استمال الشريف راجح وتودد إليه وأظهر له غاية الإخلاص وأمده بالمال وأجزل له العطاء فكانت مصالحته سببا فى ظفر جيوش الأمير طوسون وفوزهم وارتفاع كلمة محمد على باشا وقد دانت إليه الأمور وتم له المأمول وزيادة ووصل الخبر بذلك إلى دار السلطنة فجاءه فرمان السلطان بإضافة الديار الحجازية إلى ولاية مصر وجعلها كلها ولاية واحدة خاضعة لحكمه ففرح محمد على باشا فرحاً عظيمًا وطير الخبر بذلك إلى الآفاق ولبث بالحجاز يدبر الأمر ويحسن حال جيش الأمير طوسون حتى أصلح ما أراد وقفل راجعًا إلى مصر ودخلها فى ليلة الجمعة خامس عشرى رجب سنة ثلاثين ومائتين وألف هجرية فى قلة من الخدم والأتباع وبعض الجند فتسابق الناس إلى رفع التقادم والهدايا إليه وقد احتجب عن الخروج أياماً ثم خرج وصعد إلى قلعة الجبل وأخذ فى إعداد ما لزم لعساكر الأمير طوسون وأكثر من جمع الجند وآلات الحرب وبالغ فى ذلك كثيرًا والناس فى ريب وطيرة لا يدرون ما سيكون من وراء هذا الاهتمام وعمد إلى تنظيم هيئة الجندية وتنسيقها على نسق عسكر الفرنسيس فشاور مقدمى الجند فى ذلك وجعل يستميلهم إلى رأيه فلم يقبلوا فأمر بعسكر ولده إسماعيل وكلهم من المرتزقة فاجتمعوا بظاهر بولاق فأوقفهم صفوفًا وأعلمهم بقصده من ترتيبهم على نسق عسكر الفرنسيس فلم تعجبهم مقالته وأكبروا الأمر جداً وأظهروا العصيان والخروج على كبارهم وباتوا ليلتهم تلك بين أخذ ورد وأصبحوا وقد اتفقوا على قتل محمد على باشا والغدر به ووافقهم على ذلك أيضًا بعض كبارهم.

(مطلب)

(العزم على قتل محمد على باشا ونهب دكاكين تجار المدينة)

فلما كانت ليلة الجمعة ثامن عشرى شعبان من السنة اجتمع عند عابدين بيك جماعة من أكابر الجند فى وليمة وبينهم محو بيك وعبد الله أغا سارى جله وحسن أغا الأرزنجلى فتناجوا فيما يريده محمد على باشا وفيما تقرر بين الأحزاب من الغدر به فأعجبهم رأيهم واتفقوا على الركوب عليه فى تلك الليلة واغتياله قبل أن يستشعر بالأمر وأن يهجموا عليه عند مطلع الفجر فى بيته الذى بالأزبكية وتحالفوا على ذلك

واستوثق بعضهم من بعض ثم عادوا إلى ما كانوا عليه فى مجلسهم غافلهم عابدين بيك وتركهم فى أنسهم ولهوهم وخرج متنكراً مسرعًا إلى محمد على باشا وأخبره بخبرهم ورجع إلى أصحابه فلم يعلموا من أمره شيئاً وأسرع محمد على فى الركوب فى سادس ساعة من الليل وطلب عسكر طاهر باشا فركبوا معه وقد أحاط الدار بالعسكر ثم أخلف الطريق وذهب إلى ناحية البركة الناصرية ومرمى النشاب وصعد إلى قلعة الجبل وتبعه من يثق به من الجند فلما قارب الفجر قام المتآمرون يريدون الهجوم على دار محمد على باشا فمانعهم المرابطون واشتد بينهم رمى البنادق فقتل منهم عدة ولم ينالوا غرضاً فساروا إلى ناحية قلعة الجبل وقد علموا بصعود محمد على باشا إليها واجتمعوا بالرميلة وقراميدان وتحيروا فى أمرهم واشتد غيظهم ووقفوا وهم لا يدرون ماذا يفعلون ثم أجمع رأيهم على أن يتفرقوا فى المدينة وينهبوا متاع الرعية وأموالها فنزلوا من وسط قصبة رضوان على الصليبة والسروجية وجعلوا يكسرون أبواب الحوانيت المغلقة وينهبون ما فيها وقد كان الناس لما تسامعوا بالحركة أغلقوا حوانيتهم وأبواب دورهم وتركوا تجارتهم طلبا للسلامة وانضم إلى الثائرين من بقى طائعاً من الجند وعمت الفوضى وبادروا جميعاً إلى النهب والخطف وشاركهم العامّة وأراذل الناس ومضوا على طريقهم إلى داخل باب زويلة وكسروا حوانيت السكرية وأخذوا ما فيها من أموال وبضائع ومضوا فى سيرهم إلى العقادين والغورية والأشرفية وسوق الصاغة ووصلت طائفة إلى سوق مرجوش فكسروا أبواب الحوانيت والوكايل والخانات ونهبوا ما فيها من أقمشة وغيرها ومروا بخان الخليلى وأرادوا مدّ يد النهب فثارت عليهم طائفة الأتراك الذين يتعاطون التجارة الساكنين بخان البن والنحاس وأطلقوا عليهم نارا حامية وكذلك فعل من كان منهم بباب الزهومة حتى ردوهم ومنعوهم وقام عليهم أيضًا طائفة المغاربة بالفحامين وحارة الكعكيين وأطلقوا البنادق فردوهم عن تلك الناحية وأغلقوا البوابات التى على رؤوس الحارات وجلس عند كل باب جماعة ومن فوقها آخرون من أهل الخطة وبأيديهم البنادق لمنع الواصل إليهم ووصلت طائفة إلى خان الحمزاوى فعالجوا بابه حتى كسروا الخوخة التى بالباب وعبروا الخان وكسروا حواصل التجار كافة ونهبوا ما وجدوه من الأقمشة الهندية والشامية والمقصبات وتبعهم فى ذلك الخدم والعامة وأخرجوا ما فى الدكاكين والحواصل من الأموال وأنواع البضائع وكان القوى منهم يعدو على الضعيف فيأخذ ما معه ويقتل بعضهم بعضا وكسروا أبواب الحوانيت التى خارج الخان بالخطة وأخرجوا ما فيها من التحف والأوانى الصينية والبلور وأنواع

الزجاج وكـذلك فعلوا بسوق البندقانيـين وكثر خلفهم النـهابون والغوغاء واسـتباح الناس يومئذ أموال بعضهم وكان هذا الحادث من أشد الحوادث وأنكاها بالرعية. قال بعض الكتاب: وقد تم هذا كله فى ظرف مدة لا تـتـجاوز الخمس ساعات وذلك من قبيل صلاة الجمعة إلى قبـيل صلاة العصر ولم تصل الجمعة فى ذلك اليوم وأغلقت المسـاجد بداخل المدينة وأخـذ الناس حذرهم وتسلحـوا وأغلقوا الـبوابات وسـهروا الليالى وأقـاموا على التحذر والتـخوف، وأصبح يوم السـبت تاسع عشرى شعـبان موافقًا لآخر يوم من شهر أبيب وقد أوفى النيل أذرعه وكان فى ذلك اليوم أيضاً رؤية هلال رمضان فلم يـعمل فيه شيء من المراسم المعـتادة لقيام الفتنة فلـما سكن الحال رسم محمد على باشا بإحصاء ما نهبه العسكر وتقويمه لرده لأصحابه من ماله فطلع إليه كـبار العسكر يعتـذرون ويتنصلون من تبعة مـا فعله الجند فرسم لهم بجـمع ما يمكن جمعـه من النهابين ففعلوا وشقوا فى وسـط المدينة ونادوا بالأمان فلم تطمئن خواطر الرعـية ونزل كتـخدا بيك وجلس عند جامع الغـورية ورسم لأهل الأسواق بفتح حوانيتهم وأن يجلسـوا فيها على عـادتهم ففعلوا على تخوف وأخذ محمد على باشا يتـدبر فى أمر أولئك العـسكر ويعمل على تمزيق شملـهم فاستـعمل مع بعض كبارهم المسايرة وقرّبهم من مجلسه وتزلف إليهم جهد الاستطاعة وأجزل لهم العطاء ورفعهم إلى الرتب السـامية ولم يعجل فى عمله بل لازم التأنى والصـبر، فلما كان شهر ربيع الآخر من سنة إحدى وثلاثين أمر أولاده بالخـروج بمن معهم من العساكر والأجناد إلى ظاهر المدينة والإقامـة على أهبة السفر وأسـرّ إليهم ما فى ضمـيره من قتل كـبار الفتنة وزعمـاء هانه العصابة وخاطب أمـراء العسكر فى الخروج فـخرجوا وعسكروا بظاهر المدينة وأصحـب مع ولده الأمير طوسون رجلاً من خواصـه أسمه أحمد أغـا المنجورجى المدللى ووكل إلى الأمير طوسـون تدبير أمر قتل القـوم فأخذ الأمير طوسون فى التدبير وعمل الحـيلة وبدأ بمحو بيك وهو أعظمهم قدرا وأكثرهم جندًا وأخذ فى استمالة عسكره وإبعادهم عنه وما زال حتى لم يبق مع محو بيك إلا القليل فلما تمكـن من ذلك وصار قتله أمـراً مقضيـاً أرسل إليه يدعوه لمشـورة فعلم أحمد أغا المنجورجى بما وراء ذلك فذهب إليه وأسر إليه بما يراد به فعله وأشار عليه بعدم الذهاب فركب محو بيك من فوره وذهب إلى كبار الدلاة مستجيرا فشفعوا فيه عند محمـد على باشا وقد علم محمد علـى بما فعله أحمد أغا فأمـر به فقتلوه عند باب زويلة وتركوا جثـته ملقاة يوماً كاملاً وتحرز كـبار الجند وداخلهم الخوف والقلق وأخذتهم الطيرة فـأقام الأمير طوسون بعسكره أياماً حتى رسم له أبوه بالرجوع إلى

الحجاز فعاد إليها بعسكره وسير إلى الشريف عبد الله بن مسعود الذى تولى زعامة الوهابيين بعد موت أبيه من يخابره فى الصلح وطالت المخابرة بينهما إلى أن تقررت القاعدة على ما يحبان فحضر جماعة من الوهابيين نحو العشرين وأقاموا عند الأمير طوسون رهائن على تنفيذ عقد الصلح وحضر منهم اثنان إلى مصر وأبلغا محمد على باشا ما تقرر بينهم وبين الأمير طوسون ثم رجعا، فلما كان اليوم الأول من ذى القعدة من السنة أى سنة إحدى وثلاثين وصل الأمير طوسون إلى السويس وأتى إلى القاهرة فزينوا لقدومه المدينة وعملوا له موكبا حافلا فدخل من باب النصر وعلى رأسه الطبلخان وشعار الوزارة وطلع إلى قلعة الجبل وأقام بها إلى ليلة الجمعة خامس عشره ثم سافر إلى الإسكندرية حيث كان أبوه ينتظره ثم عاد إلى مصر وقد ولاه أبوه قيادة الجند الأتراك والدلاة وأطلق له التصرف فى تدبيرهم، وكان محمد على باشا فى خلال هذه المحن والخطوب مثابراً على مساحة الأراضى وضبط الرزق والأحباس وتعميم الفلاحة وإنشاء الترع والجسور وإحداث المعامل النافعة وغرس الأشجار الكبيرة وتنظيم الطرقات وتأسيس المدارس وإحياء العلوم على اختلافها ولاسيما الطب والهندسة والفلك وعمل السفن والمعاقل والحصون وقد بذل النفيس فى إعادة السدّ الممتد الموصل إلى الإسكندرية وهو سد أبى قير فقد كان اتسع أمره وتخرب وزحف منه الماء الملح وأتلف الكثير من الأراضى وأغرق القرى وخرب المدن والمزارع وتعطلت بسببه الطرق والمسالك وعجزت الدول فى أمره ولم يزل يتزايد فى التهوّر وزحف المياه الملحة على الأراضى حتى دخلت إلى خليج الأشرفية الذى تمتلىء منه صهاريج الإسكندرية المعروف الآن بترعة المحمودية فلما اعتنى محمد على باشا بتشييد الإسكندرية وتعمير أبراجها وحصونها ومعاقلها وأنزل بها العمارات اعتنى أيضاً بأمر السد المذكور وأرسل إليه المباشرين والقوّام والعمال والفعلة والنجارين والبنائين والأخشاب وآلات الحديد والأحجار والمؤن حتى تممه وكان له عناية لم تكن لغيره من ملوك هذه الأزمان وقيد به بعض المهندسين والعمال وما زالوا به إلى هذا الحين.

(مطلب)

(موت الأمير طوسون وقيام الأمير إبراهيم بقتال أهل الحجاز بعده)

واتفق أن ظهر الطاعون بمصر فى هذه السنة أى سنة إحدى وثلاثين واشتد وكثر الموت فى الناس وكان الأمير طوسون قد ذهب إلى رشيد وعاد منها إلى قصره فى برنبال ففى ليلة وصوله إلى القصر أصابه الطاعون فتململ نحو العشر ساعات ومات

ليلة الأحد سابع شهر ذى القعدة من السنة فكفنوه ووضعوه داخل صندوق ووصلوا به فى سفينة منتصف ليلة الأربعاء عاشره وكان أبوه بالجيزة فلم يتجاسروا على إخباره فذهب إليه أحمد أغا أخو كتخدا بيك فلما علم بوصوله ليلاً استنكر حضوره فى ذلك الوقت فسأله عن سبب حضوره وعن ولده الأمير طوسون فقال إنه حضر متوعكا إلى شبرا فركب فى الحال محمد على باشا طرادة وانحدر إلى شبرا وصعد إلى القصر وصار يمر بالمخادع ويقول :أين هو؟ أين هو؟ فلم يقدر أحد على إخباره بالخبر وكانوا قد ذهبوا به وهو فى السفينة إلى بولاق ورسوا عند الترسخانة وأقبل كتخدا بيك على محمد على باشا فرآه يبكى فانزعج انزعاجًا شديدًا وكاد يقع مغشياً عليه ونزل سفينة وأتى إلى بولاق آخر الليل ولازم النعش وهو يبكى بكاء مرا فلما أصبحوا ساروا بالنعش فى مشهد حافل للغاية وصلوا عليه بجامع المؤمنين ثم ذهبوا به إلى المدفن الذى أعده أبوه لموتاه وكان محمد على باشا يسير بجانب النعش وعيناه شاخصتان إليه والدموع تنحدر على خديه ولحيته ولم يخبروا والدته بموته إلا بعد دفنه فوجدت عليه وجدا عظيما ولازم أهل المدينة الحداد أربعين يوماً وجلسوا للعزاء عند قبره ومات وهو فى مقتبل الشباب لم يبلغ العشرين وكان أبيض جسيماً بطلاً شجاعاً جواداً كريماً يحب المصريين وله هيبة فى قلوب العسكر زائدة وكان محبوبا عند الناس فكانوا يرجون ولايته بعد أبيه ويأبى الله إلا ما يريد وطار خبر موته إلى الآفاق وشاع بين الوهابيين ففرحوا وعادوا إلى الخروج ثانية إلا القليل من كبارهم وجاء الخبر بذلك فجهز محمد على باشا لردهم ولده الأمير إبراهيم وجيش له جيشاً عظيما وعدداً من مراكب الحرب والشوانى الكبيرة فسار وقاتل الشريف عبد الله وفتح بعض المدن والبنادر وأعمل فى أهلها القتل والنهب وتغلغل فى جوف البلاد وغاب عن أبيه خبره فانزعج وبعث بطائفة أخرى من العساكر والأجناد وبالغ فى المدد براً وبحراً ثم وردت الأنباء بوصول الأمير إبراهيم إلى ناحية اسمها (الموتان) وأنه قاتل الوهابيين فيها قتالاً شديداً كان له فيه الظفر وقد أسر منهم عدة رجال وأخذ خياماً كثيرة ومدفعين وقبض على زعيم من زعمائهم اسمه (عتيبة) ثم سار بعساكره إلى ناحية الشقراء وكان بها الشريف عبد الله بن مسعود فقاتل عليها قتالاً عظيماً فخرج منها الشريف هارباً إلى الدرعية فتبعه العسكر وفتحوا كل ما صادفهم فى طريقهم من المدن والبنادر حتى أتوا الدرعية فحاصروها وقاتلوها قتالاً عنيفًا ومنعوا عنها الواصل وأحاطوا بها أيامًا كثيرة وضيقوا عليها وشددوا، واتفق أن سار الأمير إبراهيم بجماعة من عسكره إلى بعض الجبال لاستكشاف معسكر الوهابيين وقد كان على مرحلتين

من الدرعيـة فتغـيب أيامًا فلما أحس المرابـطون فى الدرعية بغـيابه خرجـوا وقاتلوا عساكـره حتى أجلوهم وأخذوا خيـامهم وآلات حربهم وقتـلوا منهم جماعة كـثيرة واشتدوا عليهم شدة بالغة فكانت وقعة من شر الوقائع وجاء الخبر إلى الأمير إبراهيم فكرّ راجعاً ولكنه لم ينل من الوهابيـين فأخذ فى تدبير جيشـه وجمع من تشرد منه وطلب من أبيه المدد فأمده بعدة عظيمـة من المشاة والفرسان وعدة من مراكب الحرب فتقـوّى جند الأمير إبراهيم فأعاد الكـرة على الشريف عبد الله وأصحـابه واشتد فى قتالهم فـقتل الشريف حمودة أصـابته جراحة وهو فى سـاحة القتال ناحيـة الدرعية وضيق على من بقى فيـها حتى أخذها عنوة وقبض على الشريف عـبد الله وسير به أسيرًا إلى مصر. قال بعض كتاب الأخبـار: فلما مثل بين يدى محمد على باشا قام له إجـلالاً وأجلسه بجـانبه ولاطفـه وقـال له: «ما هذه المطاولة»؟ فـقال: الحـرب سجال. قال: وكيف رأيت ولدى إبراهيم؟ قال: ما قصر وبذل الهمة وقد فعلنا نحن فعله حتى كان ما قدره الله. فقـال: سأشفع فيك عند الخليفة إن شاء الله. فقـال: ما قدّر سوف يكون، فألبسه خلعة وانصرف من عنده إلى بيت إسماعيل باشا ببولاق ولبث أيامـاً ثم سيـروه إلى دار الخلافة مع طـائفة من الجند تخـفره وأرسل الأمـير إبراهيم فريقـاً من عـسكره ومقدمه خليل بـاشا لفتح يمن الحجاز فـقاتلها قتـالاً عنيفًا حتى تغلب عليـها وفتـحها عنوة فلمـا وصلت الأخبار بذلـك إلى دار السلطنة سر السلطان بذلك سروراً عظـيماً وأرسل إلى محـمد على باشا وولده الأمـير إبراهيم الهدايا النفيسة والتحف الغالية وخلع عليهما خلع الرضا، وحضر إلى مصر من بقى من الوهابيين وسـقط فى قبضة الأمـير إبراهيم فكانوا زهاء الأربعمائة مـا بين رجال ونساء وأولاد فـأسكـنوهم بالمكان المعـروف بالقـشلة بالأزبكية وبينهم ابـن الشريف عبد الله بن مـسعود وقد كـان أبوه قتل فى دار السلطنة بعد وصوله إليـها بقليل فلم يحجر عليـهم فعلم الناس منهم أن يمن الحجاز لم تؤخـذ عنوة قالوا: لأنه لما مات حمـودة شيخهـا وولوا مكانه ولده أظهر الطاعة للدولة فلمـا سار خليل باشا لقـتاله أخلى له البلد وأعـتزل فى حـصن له ولم يخرج لدفـعه ومـحاربتـه كما فـعل أبوه وترددت بينهم الرسل وما زال به خليل باشا حتى أنزله من الحصن وأتى إليه فى قلة فقبض عليـه وسيره إلى مصر أسـيراً، وعاد الأمير إبراهيـم من الأقطار الحجازية فى حادى عشـرى صفر سنة خمـس وثلاثين ومائتين وألف عن طريق القصـير ودخل القاهرة من باب النصـر فى موكب حافل للغاية وعلى رأسه الطبلـخان السليمى فى شعار الوزراء وصعد بالموكب إلى قلعة الجـبل ثم عاد إلى مقره بالروضة وقد تزاحم

على بابه المهنئون ومدحه الشعراء وقدّمت له الهدايا والأعلاق النفيسة وظهرت من هذا الحين كلمته واتسعت شهرته وهابه الكبراء والأمراء.

(مطلب)

(إصلاح ترعة الأشرفية)

ونظر محمد على باشا إلى ما يقاسيه التجار من صعوبة نقل أرزاقهم وقلة المواصلات فرسم بتصليح الترعة الموصلة إلى مدينة الإسكندرية المعروفة بالأشرفية فقيد بها العمال والمباشرين والمهندسين فأخذوا فى حفرها وتنسيقها سنة وبضع أشهر حتى تمت أخريات ربيع الأول سنة خمس وثلاثين وجرى فيها الماء وسارت بها المراكب إلى رشيد والإسكندرية بالأرزاق والبضائع والركاب وفرح الناس بها فرحًا عظيمًا وسافر بها محمد على باشا وأعجبه وصفها وسماها فى ذلك اليوم المحمودية وهى من أجل الأعمال النافعة والمآثر الباقية إلى يومنا هذا.

(مطلب)

(فتح السودان وتدويخ أمرائه وترتيب جيش على نظام عسكر الفرنسيس)

ولما زالت الفتن من جوف البلاد بزوال الأمراء المصريين وقطع شأفة المماليك والغوغاء من الجند والحرافيش وتذليل الوهابيين بالديار الحجازية والقبض على زعمائهم وأصحاب الكلمة فيهم وعجز من بقى منهم عن مقاومة المرابطين من العسكر المصرى عمد محمد على باشا إلى فتح السودان وقوى عزمه على الإغارة عليها واستخراج كنوزها ومعادنها فاهتم اهتماماً زائداً فى تجييش الجيوش وإعداد المؤن وآلات الحرب وجعل ولده الأمير إسماعيل مقدّم هذه الغزوة وبالغ في تجهيزه بجميع ما يلزم وضم إلى جيشه كثيرًا من العربان فصار جيشا ضخما للغاية وسارت طلائعه فى أوائل شعبان سنة خمس وثلاثين ثم ارتحل الأمير إسماعيل فى ذى القعدة من السنة وارتحل معه محمد بيك الدفتردار ليتولى قيادة الحملة الذاهبة إلى الدارفور ومحو بيك وغيرهم واستقر محمد كتخدا لاظ بأنصنا التى هى إسنا لتوصيل المؤن والذخيرة ودواب الحمل وكان محمد على باشا إلى هذا الحين شديد الرغبة فى إنشاء جيش من أولاد الناس على نظام عسكر الفرنسيس وقد خلت البلاد من كثير من العسكر الذين ارتحلوا مع ولده الأمير إسماعيل إلى غزوة السودان فعمد إلى تنفيذ ما فى نفسه وخاطب أهالى البلاد بأن من يشاء أن يدخل فى خدمة الدولة بصفة جندى

يصرف له كذا من العلوفة وكذا من السلاح وكذا من الألبسة بشرط أن يكون فى سن الخامسة والعشرين أبيض اللون صحيح الجسم سليم البصر فليسجل اسمه فى الدفتر الذى أعدّ لذلك عند مشايخ البلاد، وكان الناس جميعاً ميالين إلى مساواتهم بطوائف الجند فراراً من إيذائهم فتسابقوا إلى الدخول طوعاً وافتخر بعضهم على بعض بحسن القد وانتظام الهيئة وتسارعوا إلى تسجيل أسمائهم فكان إذا اجتمع فى البلدة أو القرية اثنان أو ثلاثة سيروا بهم إلى بنى عدى من مديرية أسيوط حيث كان محمد كتخدا لاظ أوغلى فيسلمهم إلى الموكلين بتعليمهم وكان محمد على باشا قد رسم بأخذ جماعة من مماليك رجال الدولة وأرباب الوظائف فاختاروا منهم من توسموا فيه النجابة واستقدم إليهم ضابطا من عظماء الفرنسيس اسمه (الكولونيل ساف) فأخذ ساف المذكور فى تعليمهم العلوم العسكرية حتى تخرّجوا ونبغوا وتولوا هم تدريب الجند وتعليمهم بحيث لم يعلم بخبرهم من أهل البلاد إلا النزر اليسير وما زالوا حتى تم لهم تمرين خمسة آلاف مقاتل وكمل نظامهم على نحو ما أرادوا وفرح محمد على باشا بهم فرحا عظيما وأمر فسيروهم مع من خرج من الجند إلى السودان فى شعبان سنة خمس وثلاثين فقطعوا الشلالات ومروا بشندى والمتمة وأخضعوا كل ما صادفهم فى طريقهم من القرى والبلدان وهم لا يدافعون إلا بالأمر الخفيف ثم ساروا إلى سنار على البحر الأزرق وراء الخرطوم فخرجت عليهم قبيلة الشايقية وقاتلتهم قتالاً غير طويل حتى استأمنت فدخل العساكر سنار التى هى عاصمة الكردفان وعسكروا بها ورتبوا أمورهم ثم سار الأمير إسماعيل عن سنار إلى فيزوغلى فى طائفة من عسكره ليكشف حقائق تلك البقاع ويعرف ما فيها من الكنوز والمعادن فاستولى على عسكره المرض وفشا فيهم الوباء وكثر الموت فمات منهم خلق كثير فأرسل يطلب المدد فأتت إليه نجدة من ثلاثة آلاف مقاتل ومقدمهم أحمد بيك الدفتردار فقويت عزيمة الأمير إسماعيل وترك الدفتردار يدبرالأمور فى كردفان وسار هو إلى المتمة فى عسكر ثم عبر النيل إلى شندى ونزل بها وكان بها سلطان اسمه (نمر) وكان عاتيا شديد البأس جبارا فاستحضره الأمير إسماعيل وضرب عليه الكلف وقرر عليه شيئاً كثيراً من الذهب والرجال قيل طلب منه ملء سفينة صغيرة من الذهب وألفى مقاتل فى أجل لا يتجاوز الخمسة أيام فاستعظم نمر هذا الأمر وبالغ فى الشكوى والاستعطاف وما زال بالأمير إسماعيل حتى رضى أن يأخذ عشرين ألف ريال عوض الذهب ثم سأله أن يمد له الأجل فغضب عند ذلك الأمير إسماعيل وكان بيده شبق الدخان فضرب نمرا به على رأسه وقيل بل ضربه بمنشة على وجهه وصاح عليه ونهره فخرج نمر من عنده وهو مضمر له السوء فلما كان

المســاء من تلك الليلة أكثــر نمر من استــحضــار التبن علفا للــجمال ودواب الحــمل والحطب لوقود العسكر وجعل يصفه صفوفاً حول العسكر بعضه يتصل ببعض فكان شيئاً كثيراً جدا ثم أتى إلى مقر الأمير إسماعيل فى سرب من العبيد يضربون الطبول وينفخون فى قرون الحيــوانات كالمزامير ويرقصون فأعجب الأمــير إسماعيل منظرهم وطرب أصحــابه منهم وما زالوا على هذا الحــال إلى منتصف الليل وقــد اجتــمعت الغوغــاء وعلت الضوضاء واشــتدت الطبول وعلت أصــوات القرون فأمــر نمر طائفة منهم فأشعلوا النار فى التبن وذلك الوقود ووقفت طائفة منهم بالسيوف والحراب تمنع الخارج فاندلع لسان اللهيب وعلا وأظلم الجوّ فأعملوا السيوف فى أعناق الجند فهموا بالفرّار فلم يتــمكنوا فاحترق مــن أحترق ومات الأمــير إسماعــيل بالحريق وهو بين طائفة من مماليكه وأصــبحوا ولم يبق من العسكر ديار ولا نفاخ نار وســاق أصحاب نمر سلبهم إلى شندى وأتصل الخبر بالدفتــردار وهو بدارفور فقام من فوره وسار إلى شندى وأقســم أنه ليهلك عــشرين ألفا فــداء لإسمــاعيل فلمــا نزل عليهــا لاقاه نمر بأصحابه فقــاتلهم بمن معه من العــكر وظفر بنمر وقتله وأعــمل السيف فى أصحابه وأفحش فى القــتل وأسرف فى الانتقــام ولم يحنث فى يمينه فهــابه الناس واتسعت شهرته إلى أقــاصى الســودان فانكمش أصحاب الفتن وظــل يدبر الأمور ويأمر وينهى ويخضع الكبار من السود إلى سنة أربعين ومائتين وألف هجرية حتى جاءه الأمر من محمــد على باشا بالتخلى عنهــا والانحدار إلى القاهرة فانحــدر وتولى مكانه رستم بيك فحذا حذوه وأكثر من الوعيد والتــهديد حتى خضعت له جميع الأهالى ودانت له سائر الأمور.

(مطلب)

(إنشاء المدارس الحربية ومعامل الأسلحة والبارود)

واشتدت رغبــة محمد على باشا بعد فتح الســودان فى إتقان نظام عسكره على نسق عسكر الفرنسيس فأنشأ مدرسة للمــشاة فى الخانقاه وأخرى للفرسان بالجيزة فى بيت مراد بيك الكــبير واســتحضر لهــما أشهــر أساتذة الفرنجــة وأنشأ أيضًا مــدرسة لأصحاب المدافع وأسس مــعامل للبارود وصب المدافع وعمل الــبنادق وجميع آلات الحرب واحتياجات الجند على اختلافها وسلم إلى الكولونيل سيف الذى هو سليمان باشا الفرنسوى زمــام تدبيرها ووكل لعهدته جميع أمــور الجندية وجعله رأس جميع مقدميــها فبالغ سليمــان باشا فى تعزيزها وإتقان نظامهــا فلم يمض عليها إلا القليل حتى صارت جندا عظيماً مدبراً مغازيا واســع الإصابة موفقا مظفرا أينما سار، ونقل

الناقلون إلى السلطان خبر ما وصل إليه محمد على باشا من الشهرة والجاه بعد فتحه للأقطار السودانية فخشى السلطان عاقبة أفعال محمد على باشا وظن به السوء وجعل يراقب أحواله ولكنه كان لا يقدر على أن يأتى معه أمرا لقيام الفتنة فى جميع الإيالات التابعة لملكته واشتغال عساكره بالحروب القائمة مع الأحزاب لا سيما الحرب القائمة منها مع اليونان فقد كانت من أشدها ويلا وأعظمها خرابا وأنكاها بالغالب من الفريقين والمغلوب وطالت أيامها وأريق فيها من الدماء شىء كثير للغاية فكانت كلما طالت استعرت نارها وأشتد أوارها وقويت ظهور الثائرين وجاءهم المدد من أرض الله الواسعة برا وبحرا فقاتلوا قتال المستقتلين حتى أعيا السلطان أمرهم وداخل عساكره الملل وخشى عاقبة ذلك.

(مطلب)

(خلود اليونان إلى الثورة وطلب الاستقلال)

قال أصحاب التاريخ: لما نهض اليونان إلى طلب الاستقلال والخروج عن تابعية السلطنة العثمانية رأوا أن هذا الأمر لا يتم لهم إلا ببث الحرية والمساواة بين طبقات الرعية وهذا لا يتم أيضاً إلا بتثقيف أذهان أبنائهم بالعلوم والمعارف الصحيحة فتألب كبراؤهم وأصحاب الميسرة فيهم وسيروا أولادهم إلى بلاد الفرنجة لتلقى العلوم والآداب ومعرفة عاداتهم حتى إذا عادوا إلى أوطانهم بما عرفوه من معارف أولئك القوم وعاداتهم كانوا هم مقدمى الأمة ورعاة حريتها ومخرجيها من مضايق الأسر والاسترقاق إلى بحبوحة الحرية والمساواة فنجعوا فى ذلك وأنشأوا جمعيات سرية للذب عن حقوقهم السياسية وجعلوا مقرها بلاد الروس وبلاد النمسا فعملت تلك الجمعيات وبالغت جداً وكان أهمها عملا وأشدها خطرا الجمعية المسماة هيتيرى ومعناها الجمعية الأخوية وكان مقر هذه الجمعية أوّلا بمدينة أودسا ثم انتقلت إلى مدينة كيف وكلتاهما من أملاك الروس وبقيت تحافظ على كتمان أمرها إلى سنة سبع وثلاثين ومائتين وألف هجرية ثم ظهرت نتائج أعمالها بظهور الفتنة وخروج اليونان عن طاعة السلطنة العثمانية، وكان للقيصر إسكندر الأول ابن القيصر بولس قيصر الروس يد قوية فى تعضيد تلك الجمعيات وتقوية عزائم الجنس اليونانى وتعزيز مطالبة تنكيلا بالدولة العثمانية ولكى لا تخمد نار الفتنة من جميع بلادها ولا ينطل لها اضطراب فيتمكن من تنفيذ وصية بطرس الأكبر التى أوصى بها كل من يتولى ملك الروس أن يجعل القسطنطينية باب الممالك الروسية ومفتاح مغالق الديار الأوروباوية (قلت) ولما كانت هذه الوصية عند كبار السياسة الشرقية والغربية لاسيما

عند كبار رجال السلطنة العثمانية بمكان وكان بقاء السلطنة المشار إليها وزوالها معقودين بأطراف تلك الوصية رأيت أنه لا بأس بإيرادها هنا كما جاءت فى ترجمة تاريخ العلامة جودت باشا ولا أعلم من أين وصلت إليه معرفتها وعهدنا بوصايا الملوك التى من هذا القبيل أن يقفل دونها جميع أبواب الوصول قال:

(وصية بطرس قيصر الروسية)

(البند الأول) من اللزوم أن تقاد العساكر دائمًا إلى الحرب وينبغى للأمة الروسية أن تكون متمادية على حالة الكفاح لتكون أليفة الوغا وترك وقت لراحة العساكر أو لأجل إصلاح المالية وتوفيرها وإن كان ضروريا يلزم أن يكون تنظيم المعسكرات متعاقبا وتكون مراقبة الوقت الموافق للهجوم متصلة آنا بآن وعلى هذه الصورة ينبغى لروسيه أن تتخذ من الصلح والأمان وسيلة قوية للحرب وهكذا زمن الحرب للصلح وذلك لأجل زيادة قوتها وتوسيع منافعها.

(البند الثانى) فى وقت الحرب ينبغى اتخاذ جميع الوسائل الممكنة لاستجلاب ضباط للجنود من بين الملل والأقوام الذين هم أكثر معلومات فى أوروبا وكذلك فى زمن الصلح يتعين استجلاب أرباب العلم والمعارف منهم أيضاً ويلزم الاعتناء بما يجعل الأمة الروسية تستفيد من منافع سائر الممالك ومحسناتها بحيث إنها لا تضيع سعيا فى تحصيل المحسنات المخصوصة بمملكتها.

(البند الثالث) عند سنوح الفرصة ينبغى وضع اليد والمداخلة فى جميع الأمور والمصالح الجارية فى أوروبا وفى اختلافاتها ومنازعاتها وعلى الخصوص فى وقوعات ممالك ألمانيا الممكن الاستفادة منها بلا واسطة بسبب شدة قربها.

(البند الرابع) ينبغى استعمال أصول الرشوة لأجل إلقاء الفساد والبغضاء والحسد دائماً فى داخلية ممالك «له» وتفريق كلمتهم واستمالة أعيان الأمة ببذل المال واكتساب النفوذ في مجلس الحكومة حتى تتمكن من المداخلة فى انتخاب الملك وبعد الحصول على انتخاب من هو من حزب روسيه من تلك الأمة ينبغى حينئذ دخول عساكر روسيه إلى داخل البلاد لحمايتهم والتعصب لهم بإقامة العساكر المذكورة مدة مديدة هناك إلى أن تحصل الفرصة لاتخاذ وسيلة تمكننا من الإقامة وعندما تظهر مخالفة فى ذلك من طرف الدولة المجاورة فلأجل إخماد نار الفتنة موقتا ينبغى أن نقاسم المخالفين فى ممالك «له» ثم نترقب الفرص لاسترجاع الحصص التى تكون أعطيت لهم.

(البنـد الخـامس) ينبغى الاستيلاء على بعض الجهات من ممالك أسوج بقدر الإمكان ثم نسعى فى اغتنام وسيلة لاستكمال الباقى منـها ولا نتوصل إلى ذلك إلا بوجه تضطر فيه تلك الدولة إلى أن تعلن الحرب على دولة الروسية وتهاجمها والذى يلزم أولاً هو أن تصـرف المساعى والهـمة لإلـقاء الفـساد والنفـرة دائماً بين أسـوج والدانمرقة بحيث إن يكون الاختلاف والمراقبة بينهم دائمين باقيين.

(البند السـادس) يجب على الأسرة الأمبراطورية الروسية أن يتزوّجوا دائماً من بنات العائلة الملوكيـة الألمانية وذلك لتكثير روابط الزوجية والاتحاد بـينهم واشتراكهم فى المنافع إذ بهـذه الصـورة يمكن إجـراء نفـوذهم فى داخل ألمانيـا ويربطون أيضـاً الممالك المذكورة لجهة منافعنا ومصالحنا.

(البند السابع) أن دولة إنجلترا هى الدولة الأكثر احتياجا إلينا فى أمورها البحرية ولهذه الدولة فائدة عظيمة جدا أيضـاً فى أمر زيادة قوتنا البحرية فلذلك من الواجب ترجيح الاتفـاق معـها فى أمر التـجارة على سـائر الدول وبيع محصـولات ممالكنا كـالأخـشاب وسـائر الأشـيـاء إلى إنجلتـرا وجلب الذهب من عنـدهم إلى ممالكنا واستكمال أسباب الروابط والمناسبات متماديا بين تجار وملاحى الطرفين فيتوسع بهذه الوسيلة أمر التجارة وسير السفن فى ممالكنا.

(البند الـثـامن) على الروسيين أن ينتشروا يوما فـيوما شمالا فى سواحل بحر البلطيق وجنوباً فى سواحل البحر الأحمر.

(البند التـاسع) ينبغى التقرب بقدر الإمكان مـن استانبول والهند وحيث أنه من القضـايا المسلمة أن من يحكم عـلى استانبـول يمكنه حقـيقة أن يحكم عـلى الدنيا بأسرها فلذلك من اللازم إحداث المحاربات المتتابعة تارة مع الدولة العثمانية وتارة مع الدولة الإيرانيـة وينبغى ضبط الـبحر الأسـود شيـئًا فشـيئًا وذلـك لأجل إنشاء دار صناعات بحرية والاستـيلاء على بحر البلطيق أيضًا لأنه ألزم موقع لحـصول المقصود وللتعجيل بضعف بل بزوال دولة إيران لنـتمكن من الوصول إلى خليج البصرة وربما نتمكن من إعادة تجار الممالك الشرقية القديمة إلى بلاد الشام والوصول منها إلى بلاد الهند التى هى بمثابة مخزن للدنيا وبهذه الوسيلة نستغنى عن ذهب إنجلترا.

(البند العـاشر) ينبغى الاهتمام بالحصول على الاتفاق والاتحاد مع دولة أوستريا والمحافظة على ذلك ومن اللازم التظاهر بترويج أفكار الدولة المشار إليها من جهة ما

تبتغى إجراءه من النفوذ فى المستقبل فى بلاد ألمانيا وأما باطنها فينبغى لنا أن نسعى فى تحريك عروق حسد وعداوة سائر حكام ألمانيا لها وتحريك كل منهم لطلب الاستعانة والاستعداد من دولة روسية ومن اللازم إجراء نوع من حماية الدولة المذكورة بصورة يتسنى لنا فيها الحكم على تلك الدول فى المستقبل.

(البند الحادي عشر) ينبغى تحريض العائلة المالكة فى أستوريا على طرد الأتراك وتبعيدهم من خطة الروم إيلى وحينما نستولى على استانبول علينا أن نسلط دول أوروبا القديمة على دولة لستوريا حربا أو نسكن حسدها ومراقبتها لنا بإعطائها حصة صغيرة من الأماكن التى نكون قد أخذناها من قبل وبعده نسعى بنزع هذه الحصة من يدها.

(البند الثاني عشر) ينبغى أن نستميل لجهتنا جميع المسيحيين الذين هم من مذهب الروم المنكرين رياسة الباب الروحية والمنتشرين فى بلاد المجر والممالك العثمانية وفى جنوبى ممالك «له» ونجعلهم أن يتخذوا دولة روسيا مرجعا ومعينا لهم ومن اللازم قبل كل شيء إحداث رياسة مذهبية حتى نتمكن من إجراء نوع نفوذ وحكومة رهبانية عليهم فنسعى بهذه الواسطة لاكتساب أصدقاء كثيرين ذوى غيرة نستعين بهم فى ولاية كل أعدائنا.

(البند الثالث عشر) حين ما يصبح الأسوجيون متشتتين والإيرانيون مغلوبين واللاهيون محكومين والممالك العثمانية مضبوطة أيضًا حينئذ نجمع معسكراتنا فى محل واحد مع المحافظة على البحر الأسود وبحر البلطيق بقوتنا البحرية وعند ذلك نظهر أولاً لدولة فرنسا كيفية مقاسمات حكومات الدنيا بأسرها بيننا ثم لدولة أستوريا ويعرض ذلك على كل من الدولتين المشار إليهما كل منهما على حدة بصورة خفية جداً لقبول ذلك وحيث إنه لابد من أن إحداهما تقبل بهذه الصورة فعند ذلك ينبغى مداراة واحترام كل منهما ونجعل من كان منهما قابلاً بما عرضناه عليهما واسطة لتنكيل الأخرى وبذا تكون دولة روسية حينئذ قد ضبطت جميع الممالك الشرقية ويكون مثل ذلك أعظم قطع أوروبا حديثة الدخول فى يد تصرفها فعنده يسهل علينا أن نقهر وننكل فيما بعد أى دولة بقيت فى الميدان من الدولتين المذكورتين.

(البند الرابع عشر) على فرض المحال أن كلاً من الدولتين المشار إليهما لم يقبل بما عرضته عليهما روسيه فينبغى حينئذ لروسية أن تصرف الأفكار لمراقبة ما يحدث

من النزاع والخلاف بينهما فإذا وقع ذلك فلابد أن يحصل تعب للطرفين ويشتبك هذا الأمر مع الآخر وفى ذلك الوقت يجب على روسية أن تنتظر الفرصة العظيمة وتسوق حالاً معسكراتها المجتمعة أولاً بأول على المانيا فتهجم على تلك الجهات ثم تخرج قسمين كليين من السفن أحدهما من بحر أزاق المملوء بالعساكر الوافرة المجتمعة من أقوام الأناضول المتنوعة. والثانى من ليمان أرخانكل الكائنة فى البحر المتجمد الشمالى فتسير هذه السفن وتمر فى البحر الأبيض والبحر المحيط الشمالى مع الأسطول المرتب فى البحر الأسود وبحرالبلطيق وتهجم كالسيل على سواحل فرنسا وأما ألمانيا فإنها تكون إذ ذاك مشغولة بحالها وبما ذكرنا تصبح المملكتان الواسعتان المذكورتان مغلوبتين على هذه الصورة فالقطعة التى تبقى من أوروبا قابلة للفتح والتسخير، انتهت بنصها. قلت: ولا يقع فى ملكه إلا ما يشاء.

(مطلب)

(ولاية محمد على باشا على المورة وكريد ومقالة من بهما من الخوارج)

وانتشر سر جمعية الهيتيرى المذكورة بين جميع الجنس اليونانى المقيم ببلاد المورة وغيرهما من بقية بلاد المملكة العثمانية وفشا بينهم فلم تأت سنة سبع وثلاثين ومائتين وألف هجرية حتى بلغ عدد أعضائها العاملين فيها نيفا وعشرين ألفا ممن يقدرون على حمل السلاح ولا يرهبون الموت عند الكفاح فلما ظهرت الفتنة فى يانيا وخرج واليها المسمى على باشا عن طاعة السلطان واشتغلت العساكر السلطانية بقتاله نهض أعضاء تلك الجمعية نهضة الأسد الرابض وركبوا على الجنود العثمانية المرابطة فى حصونهم وقلاعهم وأعملوا فيهم القتل واشتدت الفتنة وعمت وتمكن زعماء العصابة من الاستيلاء على كثير من الحصون والقلاع وأشغل السلطان أمر هذه الفتنة واهتم لها اهتمامًا عظيمًا فلما سكنت فتنة يانيا وقتل واليها سير السلطان خورشيد باشا فى عسكر عظيم لإخضاع اليونان وإرجاعهم إلى الطاعة فقاتلوه قتالاً عنيفاً وانتصروا عليه نصرة مؤزرة فى مضيق الترمونبيل ومزقوا شمل عساكره كل ممزق وتمكنوا من إضرام النار فى جميع سفن حرب الدولة العثمانية التى كانت يومئذ راسية أمام جزيرة صاقز فمات فى الحريق زهاء ثلاثة آلاف من جند تلك السفن وكانت هذه السفن قد قاتلت على جزيرة صاقز وساموس وغيرهما واستخلصتها من أيدى أصحاب الفتنة فأفحش عسكرها فى القتل والنهب وسبى النساء والأطفال

وارتكاب أنواع الفظائع والفجور فقام أصحاب الفتنة عليها ودمروها تدميراً فلما جاءت الأخبار بذلك إلى دار السلطنة اضطرب السلطان وكاد يأمر بالكف عن القتال وترك الأعداء وشأنهم ولكنه خشى العار خصوصاً بعد أن قام سفراء الدول في دار السلطنة على ساق وقبحوا على الصدر الأعظم ما فعله عساكر السفن الحربية من القتل والنهب والسلب وسبي النساء والأطفال في صاقز وغيرها فعمد إلى استعمال الحيلة وأخذ في التدبير وسير إلى محمد على باشا فرمان الولاية على المورة وكريد ورسم له بقتال أصحاب الفتنة وإرجاعهم إلى الطاعة ليشغله بهذه الحرب المستعصية عن الخروج وطلب الاستقلال بملك الديار المصرية والأقطار الحجازية وأرسل إليه خلع الرضا فأجابه محمد باشا إلى ذلك وأعد للقتال زهاء السبعة عشر ألفا من المشاة المصريين وعددا من الفرسان وأصحاب المدافع وجعل مقدمهم ولده الأمير إبراهيم ومعه سليمان باشا الفرنساوى فساروا إلى مدينة الإسكندرية ثم ركبوا السفن وأقلعوا في ذى القعدة سنة أربعين ومائتين وألف هجرية إلى رودس فلبثوا بها أياماً ثم رحل عنها الأمير إبراهيم إلى كريد وترك سليمان باشا في طائفة من العسكر فلما وصل إلى كريد قاتل من بها من الثائرين ثم احتلها عنوة وسار إلى سواحل المورة يريد إنزال جنوده بها فلم يتمكن وقاتله أصحاب الفتنة قتالاً عنيفًا للغاية وكان إلى ذلك الحين لم يبق للدّولة العثمانية من بلاد تلك السواحل سوى مدينتين مودون وكورون فسار إبراهيم باشا بعسكره إلى مينا مودون وأنزلهم إلى البر بعد عناء شديد وكان أصحاب الفتنة على قدم الأهبة والاستعداد للقاء العسكر المصرى بما عندهم من الرجال والذخائر والأموال وآلات الحرب التي كانت ترد إليهم من أهل البر ومحبى تحرير الأمم وفك قيود أسرهم فقد كانت تألفت في ديار أوروبا عدة جمعيات باسم جمعيات محبى اليونان وانتظم في عداد أعضائها كثير من الأمراء والكبراء فكانوا يرسلون إلى أصحاب الفتنة بالأموال وآلات الحرب والذخيرة وكان ممن انتظم في سلكها الشاعر الفرنسوى المسمى فيكتور هوجو والناظم كازيمير دلافين فجعلا يقولان الأشعار والقصائد الحماسية في تلك الحروب ويبالغان في وصف ما يقاسيه أهل المورة وكريد من العسف والجور فكان لقولهما وقع في قلوب أهل النخوة والمروءة فتجرد الكثير منهم إلى التطوع وبذل النفس في عتق تلك الأمة وجاءهم أيضًا واشنطون ابن واشنطون محرر بلاد أمريكا واللورد بيرون الشاعر الإنجليزى متطوعين حبا في تعميم الحرية وانتصاراً للضعيف على القوى ففاز اليونان وتقوت عزائمهم وانتصروا على العساكر السلطانية في عدة وقائع واستخلصوا كثيراً من

القلاع والحصون التى كانت تسكنها عساكر الدولة العثمانية ولم يستقر بالأمير إبراهيم فى مودون المقام حتى جاء الخبر بمحاصرة العدو لمدينة كورون وكان بها بعض العساكر السلطانية فسير لنجدتها طائفة من عسكره وسار هو فى طائفة لحصار مدينة ناورين فنزل عليها وشدد فى حصارها وضيق وما زال بها حتى فتحها ودخلها عنوة فى سلخ شوال سنة إحدى وأربعين ومائتين وألف هجرية ثم سار إلى مدينة كلاماتا ففتحها أيضاً ودخل مدينة تريبولتا بعد قتال وكان رشيد باشا مقدم العسكر السلطانى نازلاً فى هذا الحين على مدينة يسولونجى محاصراً فاستعصى عليه الفتح وأعيته الحيل فسير إلى الأمير إبراهيم يستقدمه لنجدته فسار إليه فيمن معه من العسكر المصرى ونزل عليها وقاتلها قتالاً شديداً وبالغ سليمان باشا الفرنسوى فى حصارها وضيق وطالت أيام الحصار لوصول المدد إليها من البحر وعدم التمكن من قطعه عنها وما زالوا بها حتى فتحوها ودخلها العسكران المصرى والعثمانى ظافرين فأعملوا فيمن وجدوه بها القتل وغنموا منها شيئاً كثيراً من المؤن والذخيرة وآلات الحرب، ثم لم تستهل سنة اثنتين وأربعين ومائتين وألف هجرية حتى زحفت العساكر السلطانية على مدينة أتينا وقاتلت عليها حتى فتحتها واحتلت قلعتها الشهيرة وكان بها الأمير كوشران القائد البحرى الإنكليزى مقدم الجيوش اليونانية فى تلك الثورة فأعمل العسكر السلطانى السيف فيمن وجدوه بها من العسكر والمتطوعة وأفحشوا فى القتل والتخريب وبينما هم على هذا الحال والأمير إبراهيم يتأهب لرد ما بقى فى أيدى أصحاب الفتنة إذ مات إسكندر الأول قيصر الروس وتولى الملك بعده نيقولا الأول ثالث أولاد القيصر بولس فتجرد إلى معاكسة الدولة العثمانية وطالبها بالمطالب الطويلة العريضة وهم بفتح أبواب الحرب عليها وتسيير عسكره إلى بعض الإيالات التابعة لها فأجابته إلى ما طلب وعقدت معه معاهدة سميت بمعاهدة «آق قرمان» فكان مما جاء فيها منح الروس حق الملاحة فى البحر الأسود والعبور من البوغازين بلا معارضة ولا تفتيش على ما فى سفنها وأن لا تحتل العساكر السلطانية إلا قلعة بلغراد وثلاث قلاع أخرى مما هو فى حوزة الدولة العثمانية ومنح الصرب كثير من الامتيازات تجعلها أشبه بالمستقلة بإدارة نفسها وأن يكون للدولة الروسية حق انتخاب حكام كل من الفلاخ والبغدان لمدة سبع سنين ولا يصح للدولة العثمانية عزلهما إلا بإقرار من قيصر الروس، ومع ما كان فى هذه المعاهدة من الحيف والجور بالدولة العثمانية لم تر بدا من قبولها تفاديا من فتح أبواب الحرب فى ذلك الوقت ولم يقف القيصر نقولا عند هذا الحد بل دس إلى جميع الدول الكبرى بأن يتوسطوا ما بين

السلطان وأصحاب الفتنة من اليونان فكلم سفير الإنجليز الصدر الأعظم فى ذلك وبالغ فى الشكوى مما تلاقيه أهل مورة من العسكرين العثمانى والمصرى وألح فى الطلب فلم يلتفت السلطان إلى ذلك وصمم على قتالهم حتى يرجعوا إلى الطاعة فاتفق قيصر الروس وملكا الإنجليز والفرنسيس وتعاهدوا على إكراه السلطان على منح اليونان استقلالهم الإدارى وعليهم الجزية فى كل عام حسبما يقع عليه الاتفاق وتحديد تخوم الفريقين وضربوا للسلطان أجلاً لا يتجاوز ثلاثين يوماً لا يقع فيها حرب ولا جلاد فلما علم السلطان بما فى هذا العهد غضب وأبى إلا القتال حتى يرجعوا إلى الطاعة وسير إلى خورشيد باشا بالإلحاح فى قتال الثائرين واستخلاص ما بأيديهم من القلاع والحصون ولبثت الدول الثلاثة تراقب فوات الأجل المضروب فلما انقضت أيامه سيروا مراكب حربهم إلى سواحل اليونان وكتبوا إلى الأمير إبراهيم بالكف عن القتال فلم يلتفت إلى قولهم وقال حتى يأتى فرمان السلطان وسير الخبر بذلك إلى دار السلطنة فاجتمعت سفن الأحزاب فى مينا تاورين ومنعت من خروج السفن العثمانية والمصرية وشددت في المنع ثم لم تلبث أن أطلقت مدافعها على السفن العثمانية والمصرية وراسلت الرمى بالقنابل فاشتبك القتال بين الفريقين وحمى الوطيس وارتفع الدخان وتكاثف وأظلم الجوّ وانكشف عن تدمير جميع السفن العثمانية والمصرية بنيران المدافع ووصلت الأخبار بما وقع إلى دار السلطنة فاضطرب السلطان وهاله هذا الأمر وكتب إلى جميع الإيالات التابعة إلى مملكته يحذرهم من مقاصد الدول عموماً ودولة الروس خصوصاً ويحضهم على الغزو والجهاد دفاعاً عن الإسلام وأهله وأن يقوموا يداً واحدة لنصرة الدين ودفع العدو الطامع فاهتم قيصر الروس لذلك وخشى العاقبة وعجل بفتح باب الحرب على الدولة وزحف بعسكره فى صفر سنة أربع وخمسين ومائتين وألف هجرية ورأى الأمير إبراهيم أنه لا قبل له على قتال الأحزاب بعد حرق أعظم السفن التى كانت معه فكتب إلى أبيه بما جرى فجاءه الأمر بالانسحاب بجميع عسكره والعود إلى مصر فخرج بمن معه وعاد على ما بقى من السفن المصرية إلى مدينة الإسكندرية ثم وقع بعيد ذلك ما وقع بين الدولة العثمانية والأحزاب فعقدوا محفلا فى لندن عاصمة الإنجليز ليقرروا فيه قاعدة لاستقلال اليونان وطلبوا من السلطان أن يبعث سفيرا من قبله فلم يقبل وأصر على ما فى نفسه فلم يهمهم ذلك وقرروا ما شاءوا من سلخ بلاد اليونان من تابعية الدولة فانسلخت من ذلك الحين واستقلت بحكم نفسها وتعهدت بدفع الجزية خمسمائة ألف قرش تحمل إلى الخزينة السلطانية فى كل

عام وأشتغل السلطان بحرب الروس عن إخضاع اليونان وإرجاعهم إلى الطاعة وطالت أيام الحرب بين الفريقين ثم انكشفت عن هزيمة العساكر السلطانية فترددت رسل السلطان فى طلب الصلح وبعد أخذ وردّ تقررت القاعدة بينهما على حصول دولة الروس على كثير من الامتيازات والحقوق وأعتراف السلطان بسلخ البلاد اليونانية من مملكته ومنحها جميع الامتيازات التى تقررت فى محفل لندن عاصمة الإنجليز.

(مطلب)

(تنظيم العساكر السلطانية على نظام عساكر دولة الفرنسيس)

وكان إلى هذا الحين قد تمكن السلطان من إبادة جميع طوائف الانكشارية وطوائف السلامدارية والعلوفة جيه وأراح الدولة من شرهم. قال أصحاب التاريخ: لما رأى السلطان أن لا قبل لهؤلاء الأخلاط من العسكر على قتال جيوش الدول المتمدنة المنظمة لا سيما فى الحروب الأخيرة عمد إلى تنظيم عسكر على نسق العسكر الأوروبى وتجرد لمعاداة كل من يخالفه فى ذلك وجمع كبار الدولة وأعيان المملكة ومقدمى جميع طوائف الانكشارية ومفتى دار السلطنة وكان ممن لا يبغضون النظام الجديد فقام الصدر الأعظم بينهم خطيبا وتكلم فى أمر الانكشارية كثيراً وحض القوم على نصرة الدين بتقوية المجاهدين وترتيبهم على النظام الكافل بصد الأعداء والذب عن بيضة الإسلام فوافقوا جميعاً على عمل ما فيه المصلحة للأمة والبلاد وحرروا محضرا بذلك وأفتى مفتى دار السلطنة بجواز العمل بما تقرر شرعا وتعزير المخالفين له ووقع على ذلك جميع مقدمى الانكشارية فلما شرعوا فى العمل وأحس طوائف الانكشارية بما وراء ذلك ندموا على ما فعله كبارهم وأكثروا من التألب والاجتماع وتأهبوا للثورة والخروج كما فعلوا على عهد السلطان سليم وأخذت الوحشة بينهم وبين العسكر المنظم تكبر فلما كان شهر رمضان سنة أربعين ومائتين وألف قام جماعة منهم وجعلوا يزاحمون العسكر المنظم فى أوقات تمرينهم ويعاكسونهم فرفع كبار الجند أمر ذلك إلى السلطان فاغضبه جدا ورسم بقتل كل من يبدو منه أدنى معارضة بلا معاودة فلما شاع خبر ذلك بين طوائف الانكشارية هاجوا واجتمعوا وتحالفوا على العصيان وتأهبوا للخروج فجمع السلطان العلماء والمشايخ

وأخبرهم بما فعله طوائف الانكشارية فأكبروه وقبحوه وتقدموا إلى السلطان في طلب قتالهم والجهاد فيهم وأصبحوا وقد أخرج السلطان علم صاحب الشريعة المحمدية وأمر أصحاب المدافع بالخروج إلى (آت ميدان) فخرجوا وأمامهم العلم المشار إليه وخرج معهم أيضًا كثير من العلماء والمشايخ وطلبة العلم وكان بالميدان المذكور أصحاب الفتنة والعدد العديد من طوائف الانكشارية وهم في ضجيج وجلبة فأحاط بهم أصحاب المدافع إحاطة السوار بالمعصم وأطلقوا عليهم القنابل وراسلوا الرمي واشتدوا وأصلوهم نارا حامية فهربوا إلى منازلهم يريدون النجاة فتبعهم أصحاب المدافع وصوّبوا أفواه المدافع نحو المنازل واشتدوا في الرمي عليها بالقنابل فهدمتها جميعها وأشعلت فيها النيران وارتفع لهيبها وتطاير شررها وما زالت النيران في اشتعال حتى أبادتها وصيرتها رمادا ومات فيها جميع من كان بها من طوائف الانكشارية وبات الحال هكذا وأصبحوا وقد رسم السلطان بإبطال زيهم واصطلاحاتهم وجميع ما يتعلق بهم من جميع الأيالات التابعة لمملكته ونودي بذلك في الشوارع وطيروا الخبر بما جرى إلى الآفاق وكتب إلى جميع العمال بالقبض على كل من يجدوه منهم فيقتلونه بغير معاودة فوقع فيهم القتل في كل فج وتتبعوهم حتى أبادوهم ولم يبق منهم إلا من طال عمره فاختفى عن العيون والأرصاد، وجاءت الأخبار بما وقع بطوائف الانكشارية إلى محمد علي باشا فعادت همته إلى ما كانت عليه قبل حرب مورة من تجنيد الجنود وإتقان نظام العسكر والإكثار من الآلات والكراع وإنشاء عمارة عظيمة من سفن الحرب وشواني النقل بدل التي أحرقتها سفن الأحزاب وأقام البنايات العظيمة منازل للجند وجلب الخيل والبغال والجمال لحمل المؤن والذخيرة وغير ذلك فاتصلت أخبار هذا كله بالسلطان فحقد على محمد علي باشا لما يعلمه من ميله إلى الخروج ورغبته في الاستبداد بملك الديار المصرية مع عجز السلطان عن رده وإرجاعه إلى الطاعة إن هو عمد إلى ذلك وجعل يراقب الأمور ويتودد إلى محمد علي باشا بالهدايا النفيسة والتحف الجليلة.

مطلب)

(ما انتحله محمد علي باشا من العلل لفتح باب الحرب على الشامات والتغلغل في قلب آسيه)

قال بعض الكتاب: وكان تأهب محمد علي باشا واستعداده في هذه المرة إنما هو للزحف على الديار الشامية وضمها إلى بلاده كما كانت على عهد من سبقه من

الخلفاء والسلاطين وكان شديد الرغبة فى ذلك جداً فأتفق أن بعض الملتزمين من أهل مصر هربوا إلى عكا ونزلوا فى جوار عبد الله باشا الجزار واليها فرارا من محمد على باشا لدين عليهم وقيل فرارا من الفرض والطلبات المتابعة وقيل غير ذلك فأرسل محمد على باشا إلى الجزار يقول له: اقبض على من أتاك من أهل بلادى وردهم إلىّ فإنه لا يصح أن تمنعهم عنى فاستعظم الجزار هذا الأمر من محمد على باشا وأرسل إليه يوبخه ويشنع عليه ويقول: لست خادمًا على بابك حتى تتصرف فى أمرى وإياك أن تخاطبنى فى هذا الأمر ثانياً فشق هذا الكلام على محمد على باشا وأقسم الأيمان الغلاظ أن يسير عسكره إلى عكا لقتال الجزار ويضم جميع البلاد الشامية إلى مصر وجعل يتأهب لذلك من هذا الحين، فلما كان سادس عشرى جمادى الأولى سنة سبع وأربعين ومائتين وألف خرجت الجيوش المصرية من القاهرة تريد عكا ومقدمها الأمير إبراهيم ومعه سليمان باشا الفرنساوى وكان عددها زهاء أربعة وعشرين ألفا فساروا إلى الصالحية فالعريش فغزة وركب الأمير إبراهيم وحاشيته السفن إلى يافا فلم يدرك يافا حتى استولت عساكره على غزة ويافا بعد دفاع خفيف فسار بهم إلى عكا فنزل عليها حادى عشرى جمادى الثانية وحاصرها برا وبحرا ونصب خيامه أمامها ورمى عليها بالقنابل وراسل الرمى وشدد فخرج الجزار فى عسكر عظيم وقاتلوا قتالاً عنيفاً فمات منهم خلق كثير وعادوا إلى المدينة وجعلوا يقاتلون من وراء الأسوار وطالت الحرب واشتد الحصار ومنع الأمير إبراهيم الوارد عن المدينة من البر والبحر إلى سادس عشرى ذى القعدة وقيل سادس شوال ثم نادى فى عسكره بالهجوم فهجموا عليها واقتحموا أسوارها وحصونها فاستأمن من كان بها من العسكر الشامى والعثمانى فأمنهم ودخل بعسكره البلد فكاد العسكر يستبيحونها فلم يمكنهم الأمير إبراهيم من ذلك وقيل أباحها ثلاثة أيام فأعمل عسكره فيمن بها السيف، فلما كان اليوم الثانى وصل الأمير عباس حلمى ابن الأمير طوسون فى عسكر عظيم ومعه كثير من العربان والهوارة إعانة للعسكر المصرى فسيرهم الأمير إبراهيم إلى حصار بعض المدن والبنادر كصور وصيدا وبيروت واشتدت عزيمة العساكر المصرية بما نالوه من النصر المتتابع وسير الأمير إبراهيم الكتب إلى البلاد كافة يدعوهم إلى الطاعة والخروج على من عندهم من العساكر السلطانية كتب كذلك إلى متولى بيت القدس والمفتى وقاضى القضاة به يقول:

تعلمون أن فى بيت المقدس كثيراً من الديارات والكنائس والآثار الدينية التى تحج إليها فى كل عام طوائف النصرانية واليهود وقد شكى إلينا هؤلاء مما يلاقونه

منكم من العنت والقسوة والغلظة عليهم والتحقير لدينهم فضلاً عما أنتم فارضوه عليهم من الكلف والمغارم الفادحة غير ناظرين إلا إلى ما فيه إرضاء أنفسكم والعمل بهواكم على أن هذه الغايات الدنيئة والفعال الرديئة لا ترضاها النفوس الأبية ولا يصح السكوت عليها ولذلك أنهاكم وأحذركم من عاقبة التعرض لأولئك القوم وأسألكم أن تفسحوا لجماعة القسيسين والرهبان والشمامسة أهل ذلك البيت المقدس من جميع المذاهب قبطا كانوا أو روما أو أرمنا فى دينهم ودنياهم ولا تمنعوهم من إقامة شعائر دينهم ولا تأخذوا ممن يذهبون زائرين بحر الشريعة شيئاً من الكلف والمغارم ولا تضيقوا على زائرى كنيسة القيامة ولا تلزموهم الصغار بدفع المال فإن أطعتم أحسنتم لأنفسكم وإن خالفتم أسأتم عليها والسلام عليكم ورحمة الله.

وجاءت الأخبار بذلك إلى السلطان فاغتم وكاد يسقط فى أمره وكانت قد جرت عادة الباب العالى أن ينشر جدول التوجيهات والتغيرات التى تحصل فى هيئة الحكومة فى كل سنة فى اليوم الأول من العيد الأكبر فجاء فى صدر الجدول الذى نشر فى تلك السنة ما معناه قد رأينا أن لا نقطع بتوجيه ولايات مصر وجدّة وكريد حتى يأتى إلى بابنا العالى جواب محمد على باشا على ما أرسلناه إليه من الرسائل والفرمانات بشأن ما ارتكبه من الخروج والعصيان على خليفته وسلطانه ولزوم عدوله عن خطة الخسة والدناءة التى سار فيها هو وإبراهيم ولده ورجوعه إلى حد التأدب وقهره بقدر ما تصل إليه القدرة إن شاء الله، ثم رسم للوزير عثمان باشا بالخروج فى جيش عظيم لقتال الأمير إبراهيم واستخلاص ما بيده من بلاد الدولة لا سيما منها مدينة عكا وقهره جهد الاستطاعة فسار الوزير وسير الكتب إلى الأمير إبراهيم يدعوه فيها إلى طاعة خليفته وسلطانه ويحذره من عاقبة الخروج وشق عصا الطاعة فلم يلتفت الأمير إبراهيم إلى شىء من ذلك وترددت الرسل بين العسكرين أياماً على غير طائل ثم زحف الفريقان للقتال فلما التقى الجمعان اقتتلا قتالاً عنيفاً فانهزم الوزير عثمان باشا بعسكره شر هزيمة وأخذتهم سيوف المصريين من كل صوب وحدب فمزقت شملهم وولى من بقى منهم مدحوراً فغنم المصريون ما كان فى معسكرهم من كراع ومتاع وعجل الأمير إبراهيم المسير بعسكره بعد هذه النصرة إلى مدينة حمص يريد حصارها والتضييق عليها وتحقق الوزير من ذلك فجعل يجمع من بقى من عسكره وسار بهم خلف العسكر المصرى يتخطف ساقه ويناوشهم القتال فوقف له العسكر المصرى وقاتلوه فهزموه ثانية وأعملوا فى جنده السيف ففروا ووصلت الأخبار بما جرى إلى دار السلطنة فهال السلطان هذا الحال وأرعجه فأنفذ إلى عامله على حمص

بالثبات وقتال العسكر المصرى ما استطاع ووصل الأمير إبراهيم بخيله ورجله إلى حمص فى سابع ربيع الأول سنة ثمان وأربعين ومائتين فلاقاه واليها محمد باشا بعسكره واقتتل الفريقان قتالاً شديداً.

(مطلب)

تسليم محمد على باشا والى حمص إلى الأمير إبراهيم وصدور فرمان السلطان بعزل محمد على باشا وولاية حسين باشا سر عسكر بدله

قال بعض الكتاب: كان هذا القتال حيلة من محمد باشا يريد بها تسليم حمص إلى الأمير إبراهيم وقد كان استوثق لنفسه وتعاهد مع الأمير إبراهيم على ما لم يصل أحد إلى معرفته فلم تكن إلا ساعة أو بعض ساعة حتى استسلم محمد باشا فاستلم الأمير إبراهيم حمصا ورتب أمورها على ما شاء وترك طائفة من عسكره فيها وسير جيشاً إلى حلب فاستسلمت إليه بغير قتال فكان كلما اقترب من مدينة أو قرية سلمت إليه بغير قتال فيأخذ منها المؤن ودواب الحمل ويسير عنها إلى غيرها فلما ورد الخبر بما وقع إلى دار السلطنة كاد السلطان يتميز غيظا وجهز حسين باشا سر عسكر الدولة فى جيش عظيم ورسم له بالخروج إلى القتال وولاه مصر وكريد والحبشة، كذا ولا أعلم ما هى ولاية الحبشة والحبشة كما هو محقق ومشهور دولة قائمة بذاتها منذ قرون وأجيال، وسلمه فرمان الولاية بيده وترجمته:

من سلطان الدولة العلية العثمانية وولى نعمة المملكة العظمى الشاهانية إلى فخر الأمراء المعظمين وقدوة أعيان دولتنا المفخمين حسين باشا بلغه الله ما شاء وأسبل عليه بساط اليمن والأمان وأفاض عليه سجال العدل والإحسان وأسبغ عليه من المكارم رداء سابغاً وأورده من موارد الأمن شراباً سائغاً سنجق التشيرمان وأمير بحرية الأناضول الموجه إليه من لدن مكارمنا المشهورة ولاية الديار المصرية والحبشة وجزيرة كريد وما يتعلق بها.

- أما بعد - لا يخفى على من تهمه أخبار دولتنا العلية وما هى عليه مملكتنا العثمانية الشاهانية أن محمد على باشا والى الديار المصرية سابقاً بعد أن كان فردا من آحاد الرعية لا يعرف له حسب ولا نسب قد تدرج إلى أوج المعالى وما زال حتى تولى حكومة الديار المصرية من قبل بابنا العالى فنظرنا إليه بما جبلنا عليه من كرم الطباع وعاملناه بغاية الرفق والتودد والاتضاع وكنا نظن أنه يقف عند حد الشكران فلا يخالف لنا كلمة ولا يغلب على طبعه النكران وأن يقابل نعمتنا بالصدق والولاء

ولكنه لدناءة أصله وخسة نفسه قد أطاع هواه فداخله الغرور والكبرياء وكفر بالنعمة وشق عصا طاعتنا وجاهر بمعاداة حكومتنا ولم يقف عند حد من إثارة الفتن وتعميم القلاقل والاحن ودس الدسائس الشيطانية بين عمال وولاة إيالاتنا الشاهانية حتى استمال إليه الكثير ممن كنا نعتمد عليهم ونركن فى جميع الأمور المهمة إليهم وقد أقلق راحة أهالى ألبانيا والروم إيلى بشن الغارة على بلادهم والإكثار من القتل والنهب بلا موجب ولا سبب حتى كاد الخراب يتولاها وكثيراً ما ألح على مصطفى باشا بوساطة جلال بك وقاوللى مصطفى بالخروج عن طاعتنا سرا وطالما ما مناه بالمال والرجال ومعدات القتال فلم يفلح وهو يظن أننا عن تصرفاته هذه غافلون وعن سوء أفعاله لاهون على حالة أنه لم تخف عنا خافية قط وكثيراً ما دس إلى عبد الله باشا والى عكا المخلص فى طاعتنا ووسوس إليه وسوسة الخناس الذى يوسوس فى صدور الناس حتى فتنه أوكاد وأدركه لطف الله سبحانه فعاد فوقع بينهما من العداوة والشحناء ما قامت بسببه الحرب بين الفريقين وجاء إبراهيم ولد محمد على باشا الخائن المذكور فى عسكر جرار إلى يافا ففتحها والى طرابلس ودمشق الشام فدخلهما ثم تقدم نحو عكا فحاصرها وقاتلها ولم يبال بما أرسلناه إليه من الرسائل المفعمة بالنصح والاسترضاء ولم يعد عن غيه وضلاله بل اندفع وراء هواه حتى استهواه ومع هذا كله فلم نعجل بمؤاخذته ولم نتسرع بمعاقبته وطاولناه حقنا للدماء ورحمة بعباد الله الذين عهدت العناية الربّانية إلينا رعايتهم وعسى أن يجد لنفسه من نفسه رادعا عن ركوب هذا المركب الخشن والتمادى على عدم طاعة خليفة رسول رب العالمين والرجوع إلى جادة الحق بعد هذا الزيغ والضلال والمروق عن الدين ويتوب ويستغفر عما جنت يداه وقد فسحنا إلى ذلك المارق الأجل عله يرتدع أما الآن وقد آن الأوان وحل القضاء الذى لا مفر له منه فلم يبق من باعث على التهاون والإغضاء ولكنا مع ذلك نعفو عمن يأتى إلى بابنا طائعا لائذا مقرا بالذنب ممن شاركوه فى خيانة العصيان مكرهين ولو كانوا من ولده وأهله وعشيرته وأصحاب الوظائف السامية والمناصب العالية وكبار الجند وأفراد العسكر وغيرهم وقد أصدرنا فرماننا هذا العلى الشأن بتوجيه ولاية مصر والشام وجريد والحبشة إليك مع ما يتبعها ورسمنا لك بنزعها من أيدى أولئك المارقين وإنا لعلى يقين بحسن خبرتك ودرايتك بجميع الأمور وببسالتك فى الغزو والجهاد وبمشيئة الله تعالى وببركة رسوله المصطفى ﷺ تسير بالعسكر المنصور إلى حلب ثم تنحدر إلى ديار مصر فتنزع جميع البلاد من أيدى أولئك الخائنين وأذكر شفقتى ولا تنس عفوى عمن يتوب ويرجع إلى طاعة الله وطاعة رسوله وطاعة خليفته من بعده واتق الله وأخلص النية يجعل الله لك من كل

شدة مخرجًا والسلام، فسار حسين باشا بعسكره وهم زهاء ستين ألفا بين فارس وراجل وتباطأ في سيره حتى تمكن الأمير إبراهيم من ترتيب عسكره على ما يشاء وتأهب للقاء العسكر السلطاني وجاء الخبر بذلك إلى محمد على باشا فجعل يبالغ في التأهب والاستعداد وأيقن بأن قد بلغ العظم السكين واستعصى الوئام فلم يبق إلا الكفاح والجلاد حتى يحكم الله بينه وبين خليفته وهو أحكم الحاكمين.

(مطلب)

(هزيمة عسكر السلطان عند حلب)

ووصلت طلائع عسكر السلطان إلى مقربة من حلب فخرج للقائهم الأمير إبراهيم في عسكره وقاتلهم وصبر على قتالهم حتى ظفر بهم وبدد شملهم ثم ساق بخيلة ورجله حتى دخل حلب واحتلها فتفرق من بقي من العسكر السلطاني وجاء الخبر بذلك إلى حسين باشا فتقهقر بمن بقي معه وتحصن في مضيق بيلان أهم مضايق جبال الطورس وعلم الأمير إبراهيم بخبره وما هو عليه فخرج من حلب لقتاله فلما ألتقى الجمعان اقتتلا قتالاً عنيفاً وما زالا حتى تمت هزيمة العسكر السلطاني فغنم الأمير إبراهيم متاعهم ودوابهم وآلات حربهم وتتبع من بقي منهم حتى نزلوا سفنهم التي كانت راسية في مينا الإسكندرونة ووصلت الأخبار إلى دار السلطنة بما حل بعسكر السلطان فحزن وأغتم وعم الخبر وشاع عند سائر الدول وكانت ولاية المجر تخشى من استفحال أمر الفتنة في إيالات الدولة العثمانية وأشتغال الدولة بالحروب والخطوب المتتابعة فتطمع دولة النمسا في إرجاع المجر إلى سلطتها وتلحقها بمملكتها وكانت تلاحظ مع الحزم والتأني الحوادث الجارية في أوربا فأرسلت يومئذ إلى محمد على باشا تتهده بتسيير جندها مع العسكر السلطاني لقتاله إن هو لم يرجع إلى الطاعة وينكف عن العصيان وجارتها في ذلك دولة الروس وأظهرت المودة والإشفاق إلى الخليفة فكتبت إلى قنصلها الجنرال بديار مصر بأن انسحب من الإسكندرية وأقطع كل علاقة مع محمد على باشا فانسحب فلم يلتفت محمد على باشا إلى شيء من ذلك البتة واشتدت رغبته في هدم أركان الدولة العثمانية وأخذ سائر ما بيد سلطانه من الإيالات وتدمير معالم الخلافة.

(مطلب)

(ما كتبه السلطان إلى الدول من عزمه على محالفة الروس وتهديده إياهم بذلك)

وكتب إلى ولده إبراهيم بالإلحاح في القتال وأن يعجل بالفتح ما استطاع وأن

يتقدم بعد ذلك إلى الأمام ما قدر فتغلغل الأمير إبراهيم فى خوف الأناضول فكتب السلطان إلى الدول يخبرها بعزمه على التحالف مع قيصر الروس على الذب والدفاع إن لم تبادر إلى إيقاف محمد على عند حده وترجع عساكره عن التغلغل فى جوف أملاك السلطنة العثمانية فكتبت دولتا الفرنسيس والإنجليز إلى محمد على باشا بذلك وحذرتاه عاقبة تعاقد السلطان مع دولة الروس وألحتا عليه بإيقاف تيار هذه المحنة حتى تتقرر قاعدة الصلح على ما فيه مصلحة الطرفين، وأنفذ يومئذ قيصر الروس الأمير مورايف أحد كبار قومه إلى محمد على باشا ليكلمه فى ذلك وسيرت معه كذلك دولة الفرنسيس الكولونيل روهابيل وكتب قنصل جنرال الفرنسيس أيضاً إلى الأمير إبراهيم يقول: كتابى إليك حرسك الله ورسل السلام يخاطبون أباك فى وضع حد لهذه القلاقل والمحن المترتبة على تلك الحرب القائمة فقد آن للباب العالى أن يطلب حقن دماء خلق الله الذين عهدت رعايتهم إليه وسيصل خليل باشا أمير سفن الحرب السلطانية رسولاً إلى أبيك ومعه شروط الصلح التى رضيها السلطان بناء على إشارة دولة الفرنسيس التى لم يبق فى وسعها السكوت عن هذه القلاقل التى عمت جميع المشرق أو كادت بسبب الحرب القائمة بين أبيك وسلطانه ولنا جميعاً الأمل بأن ما جبل عليه والدك من سلامة النية وما هو موصوف به من الحزم والنظر فى عواقب الأمور يكونان سبباً فى قبوله الصلح وترك الخصام فيشير إليك بإيقاف عسكرك عن التوغل فى قلب الشام والروم وإطفاء نار الوغى حتى يأتيك الأمر بما كان وما سيكون، واعلم هداك الله أنك مسئول أمام جميع الدول العظمى عما ينجم عن تغلغل عسكرك فى داخلية البلاد والله عليم بالعاقبة فاعدل عن الحرب وانكف حتى يأتيك الخبر والسلام.

وكان الأمير إبراهيم فى هذه الآونة ينتقل بجيوشه من مكان إلى مكان يريد القسطنطينية فأرسل السلطان إلى قيصر الروس يطلب منه أن يسير لصد الأمير إبراهيم سفينة حربية وخمسة آلاف من المقاتلين وعلمت دولة الفرنسيس بذلك فأرسلت إلى السلطان تتهدده بمساعدتها للعساكر المصرية إن هو عاقد الروس على شيء من ذلك، ووصل فى هذه الأثناء الجنرال مورايف رسول القيصر إلى الإسكندرية وكلم محمد على باشا فى أمر الصلح فحاول محمد على باشا وطاول وأظهر الشدة وخاطب الجنرال مورايف بغلظة وحدة فغضب الجنرال مورايف وعمد إلى التهديد فضرب إلى محمد على باشا أجلا فخشى محمد على باشا شر العاقبة وكتب إلى ولده الأمير إبراهيم يقول: إذا أتاك كتابى بأية أرض فقف حتى يأتيك رسولى ثم أعلم مورايف بما كتبه فطير مورايف الخبر بذلك إلى الآفاق ففرح

السلطان ولم تنكث دولة الروس بعد ذلك فيما وعدت به السلطان وتمكنت فى هذه الآونة من التعاقد معه على الذب والدفاع عن جميع أملاك السلطنة العثمانية واحتلال أى جهة شاءتها بخيلها ورجلها أو سفن حربها فى أى وقت شاءت وسمت هذه المعاهدة بمعاهدة (خونكار اسكله سيى) فلما علمت الدول بخبر هذه المعاهدة امتعضت ولاسيما دولتا الفرنسيس والإنجليز فسعتا جهد الاستطاعة في إبطالها فلم تفلحا وخابت مساعيهما وخافت دولة الفرنسيس من تمكن دولة الروس من احتلال شئ من أملاك السلطنة العثمانية بسبب هذه المعاهدة فجعلت تراقب الفرص واشتدت عزيمة السلطان بهذه المعاهدة وقوى ظهره فجعل يتأهب ويستعدّ ويستعمل الحيلة فى إطالة الوقت بين أخذ ورد ليتمكن من لم شعث جنوده وجمع ما تفرق فى تلك الأصقاع من أعلامه، واتفق أن قدمت إلى دار السلطنة فى هذه الأثناء زهرة هانم أرملة الأمير إسماعيل ثالث أولاد محمد على باشا ابنة عارف أفندى قاضى عسكر ولاية آسية وكان شيخ الإسلام يومئذ بدار السلطنة تريد زيارة أبيها. قال بعض كتاب الأخبار: ولم يكن ذهاب تلك السيدة إلى دار السلطنة لمجرد محض الزيارة كما كان يظن الكثير من الناس وإنما كانت رسول محمد على باشا فى التقرب من كبار السلطنة ومقدمي الدولة واستمالة أهل الحل والعقد من جماعة المابين بما لأبيها من النفوذ والكلمة المسموعة فسعت وأجهدت النفس وسعى أبوها ولبثت على هذه الحال أياما لم يخف فيها على عيون السلطان من أعمالها خافية فكان السلطان فى خلال ذلك يكثر من مناجاة الدول فى أمر إرجاع محمد على باشا إلى الطاعة ويستفزهم إلى الأخذ بناصر الحق وإزهاق الباطل فكان كلما عرضت الدول عليه رأيا حاول فيه وطاول ورد عليهم ردا جميلا وسألهم التوسع فى النصح قال الراوى: كل ذلك ليتمكن من الفرص المناسبة لأغراضه وقدمت بعيد قليل من الإسكندرية السفينة الحربية المسماة (النيل) لنقل الأميرة زهرة هانم فأرسلت تستأذن السلطان فى ذلك فأذن لها وأهداها هدية نفيسة وأحسن إلى رجال السفينة بشيء من المال للنفقة وسير معها أحمد فوزى باشا أحد رجال سفن الحرب فلما ألقت النيل مرساها وعلم محمد على باشا بمقدم فوزى باشا تغافل عنه ولم يظهر شيئاً من الاهتمام به وأوعز إلى حبيب أفندى أن يتلقاه ويكرم مثواه فأنزله حبيب أفندى منزلاً رحبا ورتب له المأكل والمشرب على أحسن ما يكون ولبث على هذه الحال أياماً لم ير فيها محمد على باشا ولا علم من أمره شيئًا حتى جاءه مرسوم السلطان بالقيام إلى القاهرة والالتقاء بمحمد على باشا ومناجاته فى أمر الصلح وفى العدول عما يغضب خليفته وسلطانه وقد أبلغ السلطان رجال ديوانه الخاص خبر بعثة فوزى باشا وطلب أن يبدوا فيها

رأيهم ليعمل هو به فقام برتو باشا وعارض في ذلك كثيراً. وقال: ياأمير المؤمنين والله ما مثل فوزى باشا في مصر إلا مثل الحمل الصغير الذى ذهب إلى وكر الذئب الهرم ليعوده وهو يرجو السلامة من العطب فلا يغرنك من ذلك الشيخ نعومة كلامه وبساطة أحلامه فهو يا أمير المؤمنين أكبر من كل كبيرة والرأى أن ترسل إليه صارم أفندى مهر دار الخارجية فهو ابن بجدتها وأخو نجدتها فأعجب السلطان رأيه وسير في الحال يطلب فوزى باشا وكان فوزى باشا إلى هذا الحين قد اجتمع بمحمد على باشا ووقع بينهما من المحبة والمودة ما أكبر معه العود إلى دار السلطنة ولكنه قام كارها ولم يستقرّ به في دار السلطنة المقام حتى أرسل إلى محمد على باشا يقول: إياك وخفض الجناح إلى من سيقدم إليك واحفظ عليك نفسك وكرامتك حتى أرجع إليك فأتفق وإياك على ما فيه المصلحة لبلادك إن شاء الله تعالى.

(مطلب)

(مقدم صارم أفندى على محمد على باشا ليخابره في الصلح)

ووصل صارم أفندى إلى القاهرة مع بعض الخدم والأتباع فأكرم محمد على باشا وفادته وبالغ في الحفاوة به وأنزله منزلاً عظيماً فجعل صارم أفندى يغدو ويروح إلى مقر محمد على باشا ويكلمه في الرجوع إلى طاعة سلطانه ومحمد على باشا تارة يظهر اللين وأخرى يظهر الشدّة وآونة يشكو مما يلاقيه من أفاعيل أهل الحل والعقد بدار السلطنة وأخرى يظهر الصبر والتجلد فسأله صارم أفندى يوما قائلا أما آن لك أن تخلص النية وتتمثل بين يدى خليفتك وسلطانك فتتعاقد معه على ما ترضيانه فاعتذر محمد على باشا وقال نفعل إن شاء الله إذا آذنت الفرص. قال الراوى لهذا الخبر: ويعجبنى من محمد على ما قاله يوما لأحد كبار الأجانب وكان من أصدقائه هلا علمت بخبر جنون القيصر نقولا قيصر الروس وكانت الجرائد أذاعت هذا الخبر زورا وبهتانا فقال ذلك الصديق نعم سمعته وهو من الغرابة بمكان فقال وعندى أنه ليس في الأمر شئ من ذلك فإن جلالة السلطان متبوعى الأعظم أجن بكثير من نقولا إذ هو يدعو محمد على ذلك الشيخ الذى حنكته التجارب وهذبته المحن والنوائب إلى المثول بين يديه والتعاقد معه على ما فيه المصلحة. قال: ثم ضحك حتى كاد يستلقى على قفاه. وطال مكث صارم أفندى بالقاهرة وهو ومحمد على باشا كل يوم في أخذ وردّ وقد قال يوما لمحمد على باشا سيعطيك سلطانك ولايتى مصر وجزيرة العرب لك ولذريتك من بعدك إن أنت رجعت عن قصدك وأخلصت له النية وأقلعت عن عدائه فلم يلتفت محمد على باشا إلى قوله فقال ويوليك أيضاً ولايتى عكا وطرابلس أو صيدا وطرابلس بشرط أن تعيد إلى

حكومة سلطانك سائر ما أخذته من الشام فلم يقبل وقال لابد من بقاء سائر ما فتحته عساكري في يدى وفي يد ذريتي من بعدى فإذا تم ذلك قمت بإرسال الإتاوة في حينها إلى الخزينة السلطانية ووفيت طاعة سلطاني حقها فعاد صارم أفندي بعد أيام إلى دار السلطنة ولم يمض على وصوله إلا القليل حتى ورد مرسوم السلطان بالرضا عن محمد على باشا وقبول توليته الولاية العامة على ديار مصر وبلاد العرب وجعل هذه الولاية في عقبه من بعده الأرشد فالأرشد مع ولاية صيدا وطرابلس بشرط قيامه بحمل الخراج إلى الخزينة السلطانية في آجاله وخفض جناح الطاعة إلى متبوعه وولى أمره في السر والعلانية: وفي بعض الروايات أنه لما عاد صارم أفندى إلى دار السلطنة وقد بلغ ما وقع بينه وبين محمد على باشا من الأخذ والرد رسم السلطان في سادس عشر ذى القعدة وقيل رابع عشرى ذى الحجة سنة ثمان وأربعين ومائتين وألف هجرية بتمليك محمد على باشا ديار مصر وكريد وتولية ولده الأمير إبراهيم ولاية جدة وتسليمه رياسة الحرم المكى مع ضم الشام إلى مصر وجعلها إرثا لذريته من بعده. قال الراوى: وجاء إلى مصر صارم أفندى أحد قرناء السلطان يحمل قاعدة هذا الوفاق ونزل على محمد على باشا بالإسكندرية فأكرم لقاءه وأحسن مثواه وأظهر له غاية المجاملة والتلطف. وقال له: إنما تعطى إلىّ بلاد الشام إلى طوروس كما تعطى لذريتى من بعدى. قال: فراجعه صارم أفندى وقال: هذا يكون غير ما أذن به أمير المؤمنين والمصلحة أن تتكفوا عن إراقة دماء المسلمين ولا تحاربوا الله ورسوله وكفى ما مضى فقال محمد على باشا: لا سبيل إلى غير ما أقول ولا مصلحة لى إلا في الذى أنا طالبه فقال صارم أفندى: والمصلحة عندى أن تتمثل بين يدى سلطانك فيهون الأمر وتنفرج هذه الأزمة فقال: نفعل إن شاء الله فعاد صارم أفندى إلى دار السلطنة ولم يتم له مع محمد على باشا شيء، قال: وقد كان صارم أفندى هذا يحمل معه عند ذهابه إلى مصر عقد الصلح الذى كان وقع الاتفاق عليه في بلد كوتاهية التى هى مقر الأمير إبراهيم وعساكره يومئذ، قلت: ومع بحثى عن معاهدة كوتاهية هذه لعلى أعرف لها تفصيلا إذ هى من أهم الملحقات التاريخية لحروب محمد على باشا مع دار السلطنة فلم أجد لها أثرا ولم أقف لها على خبر في مؤلفات أصحاب التآليف من الغربيين والشرقيين وعلى الخصوص مؤلف الشهير تيتسا الفرنسوى الذى تجرد لجمع سائر المعاهدات والعقود والرسائل التى دارت ما بين الدول كافة ودار السلطنة العثمانية غير أنى وجدت في مؤلفه المشار إليه صفحة ٣٥٠ ما تعريبه: ولقد طالما زعم مؤرخو الغرب أن الخلاف الذى وقع بين الباب العالى ومحمد على باشا صاحب مصر انتهى بعقد المعاهدة التى سميت باسم كوتاهيه وهى

المدينة الكائنة بآسية الصغرى وعندى أن لا أثر ألبتة لهذه المعاهدة ولم تحصل مطلقا غاية ما وقع أن السلطان أرسل إلى محمد على باشا بعض الفرمانات والخطوط الهمايونية فعلم منها محمد على باشا مقاصد الباب وبيان ما يريد السلطان منحه إياه من البلاد والامتيازات الأخرى التى اقتضاها يومئذ الحال. قال :ثم بعد أن تبادل الفريقان الأخذ والردّ انحسمت الأسباب ووقعت الهدنة بين الفريقين حينا من الدهر. انتهى.

(مطلب)

(عقد المجلس الشرعى بدار السلطنة، والحكم بعصيان محمد على باشا وولده إبراهيم ثم الحكم عليهما بالتجريد والقصاص بالموت)

وأرسل محمد على باشا من فوره إلى دار السلطنة بعد قيام صارم أفندى يقول: ليس فيما رسم به السلطان شىء مما وقع الاتفاق عليه مع مبعوث الباب وأنه يبقى الحالة الراهنة على ما هى عليه من عدم قبول شىء من ذلك ألبتة وسير إلى ولده الأمير إبراهيم بالتأهب والاستعداد إلى إصلاء نار الحرب ثانياً وعدم الوقوف عند حد، ووصلت الأخبار بذلك إلى دار السلطنة فأعظم السلطان الأمر وأكبره ورسم بعقد مجلس شرعى لينظر فى أمر عصيان محمد على باشا وولده ويحكم بالجهاد فيهما فانعقد المجلس فى سادس عشر ذى القعدة وقيل رابع عشرى الشهر المذكور سنة ثمان وأربعين ومائتين وألف فحضر فيه ثلاثة من المفتين وأربعة عشر من قضاة العسكر واثنا عشر قاضيا وتسعة من أئمة السراى السلطانية والمدارس الشاهانية وشيخا جامع آيا صوفيا وجامع السلطان أحمد فلما اجتمع عقد نظامهم رسم السلطان بتوجيه الأسئلة الآتية إليه:

ما الذى جاء به الشرع الشريف من الأمر بطاعة أمير المؤمنين وخليفة ربّ العالمين؟

الجواب عن ذلك: قد فرضت له الطاعة والوقوف عند حد أوامره جهد الاستطاعة.

ما الذى جاء به الشرع الشريف فى عقاب العامل المارق عن طاعة خليفته وسلطانه الذى أحسن إليه وأتم نعمته عليه فطغى وتجبر ودس الدسائس وأقام الأحقاد وأيقظ الفتنة الراقدة وعمل على تمزيق ملك سلطانه فركب متن الجور والعسف وأراق الدماء هدراً وخرب ديار المسلمين ولم يرض بالطاعة للدين ولا العمل بسنة سيد المرسلين؟

الجواب عن ذلك: يجرد عن سائر رتبه ووظائفه ولا يعهد إليه بأمر من أمور المسلمين ثم يقتل وتلقى جثته لوحوش البرية أو إلى طيور الفلاة وهذا جزاؤه فى الدنيا وفى الآخرة الخزى والنار الآكلة.

هل يكون الخليفة مسئولاً بدم ذلك المارق أمام الله والناس؟

الجواب عن ذلك: لا جناح عليه ولا تثريب فإنه قد قام بما فرضه الشرع الشريف وجاءت به أحكام الدين المنيف.

ثم اختلى القوم ساعة وأصدروا الحكم الآتى:

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله وحده، حيث ثبت خروج محمد على وولده إبراهيم عن طاعة سلطانهما فحق العقاب عليهما كما حق على سائر من حذا حذوهما فى شق عصا طاعة أمير المؤمنين وخليفة رسول رب العالمين وبذلك قد قضى الشرع الشريف أولا بتجريد محمد على وولده إبراهيم من جميع الرتب والمناصب الديوانية والقاب الشرف الممنوحة لهما من لدن أمير المؤمنين ثم بقصاصهما قتلا مع سائر من شاركهما فى هذا العصيان والخروج عن طاعة السلطان . اهـ.

وجاء الخبر إلى محمد على باشا بما جرى فى دار السلطنة فلم يحفل به ولم يلتفت إليه وسير الكتب إلى ولده إبراهيم بالإكثار من الحصون والقلاع على خط جبال الطورس التى هى مفتاح الشامات من جهة آسيه وامتنع من حمل الخراج إلى الخزينة السلطانية وشدد فى تعبية الجيوش وإعداد المعدات وسير كثيراً من قطع السفن الكبار مشحونة بالمؤن والذخيرة إلى ولده فسعى سفراء السلطان لدى الدول الكبرى فى وساطتهن فى الأمر والعمل على إيقاف محمد على باشا عند حده وكانت دول أوروبا تعرف أنه إذا اشتدت نار الوغى بين محمد على باشا وسلطانه وتم لمحمد على باشا ما يتمناه من تغلغل عسكره فى داخلية آسية وضم أكثر بلدانها إلى مملكته التى يريد الاستقلال بها وجعل قاعدتها على ضفاف النيل عمدت دولة الروس إلى العمل بمقتضى معاهدة خنكارا سكله سى فتنشب أظفارها فى جوف المملكة العثمانية وتنال منها غنما فيستعصى على الدول إرجاع الشئ إلى أصله والله يعلم بما سيكون من وراء ذلك، فكتبت دولة الفرنسيس على يدى البارون روسين متولى أعمال خارجيتها إلى محمد على باشا تقول قد آن للسلطان أن يعدل عن تلك الحرب المشئومة بعد أن عرف قدرك وتحقق أن لا قبل لعسكره على لقاء عسكرك المنصور بحسن قيادة ولدك وقد عاد عما تعاقد عليه مع قيصر الروس وقد سير إليه بإيقاف إرسال تلك النجدة التى كان يطلبها لقتال ولدك وودّ لو لم يكن قد تسرع فى الأمر

ولكن القيصر لم يلتفت إلى شئ من ذلك ورسم فأتت إلى بوغاز القسطنطينية سفينة من أكبر سفن الحرب الروسية فـألقت مرساها والله سبحانه يعلم بما سيكون من وراء حضـورها إن أنت أبيت الصلح وصـممت على القتـال فاحـذر التطويل وأقلع عن التسويف والتعليل ولا تفتح لخـصوم الدولة باباً يلجونه للإضرار بها وأنت هداك الله شريك لسـلطانك فى السـراء والضـراء وسيقـدم عليك خليل باشا مـبعوثـاً من قبل السلطان ومـعه شـروط الصلح التى تقررت قـاعدتهـا فلا تأباها عليـه ولا تشط فى الطلب فـتـدفع بدولة الروس إلـى ابتـلاع مملكة سلطانك واذكـر أنك إن عـاقـدت سلطانك على الصلح حـقنت دماء قومك وعـملت ما فيـه المصلحة لبلادك فـعجل بتسيير رسلك إلى ولدك بالكف عن القتال واقبل من سلطانك ما تنازل لك عنه فقد عـفا عنك وولاك حـكم عكا وجمـيع أراضى بيت المقـدس والشـام ونابلس وإياك والطمع فإنه يجلب عليك وعلى بلادك وبالاً ونكالاً واعلـم أن دولة الفرنسيس التى هذبت رجـالك وعلمت فنون الحـرب لإبطالك هى التـى أشارت بعـقـد رباط هذا الصلح ورضيت عن القاعدة الواصلة إليك وأرسلتنى إلى دار السلطنة لهذه الغاية فلا تأبى الكرامة ولا تطع هـوى النفس وسيصل إلى مـقرك السامى كـتابى هذا على يد كبير تشريفات ديوانى فأكرم وفادته كما عوّدتنا الجميل والسلام.

وأرسلت كذلك دولتا النمسا والإنجليز إلى محمد على باشا على يدى قنصليهما تهددانه بأشد ما يكون من التهديد إن هو لم يقف عند حد الطاعة لسلطانه وأرسلت إليه دولة الروس تقـول أيضًا إن لم تعدل عن غـيك وتنكف عن عداتك وترجع إلى طاعة سلطانك عملت بمقـتضى ما بينى وبين سلطانك من العهد وفـعلت ما تسوك عقبـاه ومالم تطق عليه صـبراً إذا لم تعجل دولتا الفـرنسيس والإنجليز بحصـر سائر السواحل المصرية والشامية بسفن حربهما وتضيقا عليها تضييقًا ثم وإياك والشطط فى دعـواك بعـد الذى تنازل لك عنه خـليفـتك فـالله الله فى نفـسك وأهلك وولدك والسلام.

(مطلب)

(ما كتبه محمد علي باشا إلى صاحب سياسة الفرنسيس)

فكتب محـمد على باشا إلى صـاحب سياسـة الفرنسيس يقـول: أما بعد فـقد وافانى كـتابك الشريف على يدى كبـير تشريفات مـقرك المنيف وقد ذكرت فـيه أنه بمقتضى قاعدة الاتفاق التى قررتموها لم يبق لى حق فى شئ من البلاد الشامية سوى

حكم ولاية عكا وطرابلس الشام وبيت المقدس ونابلس وبعض مدن أخرى أخجل ويعلم الله من ذكرها وأنه يلزمنى بعد ذلك استرجاع جميع جنودى من بلاد الأناضول والمبادرة إلى عقد رباط الصلح مع سلطانى فإذا أبيت ذلك قامت دولة الفرنسيس بخيلها ورجلها لتذيقنى وجميع أهل بلادى النكال، أعاذنا الله معاشر المصريين من ذلك ولقد بلغنى رسولك هداه الله أنى إن لم أبادر إلى قبول تلك الشروط الجائرة وأحلها محل السمع والطاعة سيرت إلىّ دولتا الفرنسيس والإنجليز سفن الحرب والشوانى الكبار مشحونة بالرجال لتكرهنى على الطاعة والتسليم، فقل لى بحقك كيف جاز لكم إكراهى وأى شرع من شرائع الأمم المتمدنة أحل لكم هذه الفعال أو ترضى أمة الفرنسيس أم التمدن ومهد الحرية والتفنن أن أترك بلاداً فتحتها بالسيف والجهاد والكفاح والجلاد فضية مسلمة اعلم أن قومى وسائر أهل بلادى هم طوع أمرى واقفون عند حد إشارتى فلا شئ عندى أقرب من أن أقود بنفسى جيوشى تلك المظفرة وأسير بها لفتح جميع بلاد الأناضول والروم إيلى وأبذل النفس والنفيس فى ضم كل ما استطعت ضمه إلى مملكتى ما دام فىّ قطرة من دم وثق بأنى قد وطنت النفس على ذلك فلا حول لى عنه ولا مندوحة منه وإنى لأعجب كيف تشدد علىّ النكير وتكرهنى على ترك بلاد قد حكمتها بالفتح والغزو وتكبدت فى فتحها جيوشى أصعب المصاعب وأتعب المتاعب وأريقت فيها الدماء الكثيرة وضاعت الخزائن الوفيرة وعلم أهل المعمور شرقًا وغرباً شهامة رجالى وبسالة أبطالى ونبالة مقصدى واستبشر الناس طرا بأنى سأوفق إن شاء الله تعالى إلى فتح جميع بلاد الدولة العثمانية وأنال منها قبل أن تنال دولة الروس وهل يجمل بك أن تشير بتركى مصر والاستعاضة عنها وأنت تعلم أنها لا تفارقنى أبدًا ولا أفارقها إلا بمفارقة الروح للجسد فافقه يا هداك الله واعدل ولا تكن من المجحفين واذكر أن المروءة لا ترضى بذلّ من وطن النفس على القيام بخدمة الشرق عموماً ودولة آل عثمان خصوصاً والسلام.

(مطلب)

ما كتبه محمد علي باشا يهدد به الدول

قال بعض الكتاب: ثم لم ير محمد على باشا بعد كل هذا التهديد والوعيد بدًا من العدول عن طلب الاستقلال التام بحكم ما بيده من ديار مصر والشام إلى طلب الولاية بالتوريث فى عقبه من بعده وأن يكون حكمه فى ذلك كحكم ولاة بغداد

وعلى باشا والى يانيا وسير الكتب إلى سفـراء الدول وكلم سفير الفرنسيس فى ذلك طويلاً فلما لم ير منهم أذنًا صاغية عمد إلى التـهديد، وكتب إليهم ثانية يقول كتابى إليكم يا أنصار الإنسانية وعـهدى بكم الوفاء وحسن الإخلاص والولاء وإنى والله لا أدرى ما علة هذا الجفاء مـهلاً مهلاً مابالكم تجافيـتم بعد ذلك العطف والتلطف فإن كنتم ترون فى طلبى الاستقلال بملك مافى يـدى شططًا وغنمًا لا تحمـد عقباه فـقد عدلت عنه إلى طـلب الولاية وجعلها مـيراثًا بعدى إلى ولدى ولا أخـالكم تنكرون علىّ ذلك أيضًا بـعد الذى تحقـقتمـوه من أمرى فإن شـتم فـعلتم ذلك وإلا فدون استـلامى إلى سلطانى على يدكم خـرط القتاد ولا لوم علىّ ولا تثريب إذا جاهرت بالذى أبتغيه وحافظت على ما بيدى من البلاد بحد السيف فقد عشت طويلاً ورأيت كثيـراً وخير لشيخ مثلى أن يموت عـزيزاً موقراً من أن يموت حقيـراً مرذولاً وكيف ذلك وأنا لم أطلب شيئًا يتعدى مصلحة أوروبا السياسية ولم أسأل ما هو من العنت والخيلاء فى شئ فملكم تراوغوننى مـراوغة ما أنزل الله بها من سلطان ألكونى على غير دين المسيحية لا أظن ذلك ويعلم الله فإن المروءة والشهامة تأبيان الإضرار بمن لا يسعى إلا إلى غاية شريفة ومستقبل شريف لذريته من بعده ولقد أكثرت من الشكوى ولم أخف عنكم مـا وطنت الـنفس على عـمله فلم يبق إلا أن أقـول عـلانيـة إنى عاهدت النفس أخيراً على الخوض فى معـامع الحرب والجلاد حتى الموت فإن فازت الدول بالانتصار وألحقت بى وبعسكرى البوار فهـذا لا يزيدها شرفًا ولا يكسبها غنمًا إذ أنها أكبر من ذلك كـثيراً وإن أتاح الله سبحانه لى الظفر ووفـقنى إلى سبل الغلبة والنصر أريت الدول عـاقبة هذا الأمر وأنبأتهـا بما لم تطق عليه الصبـر وكم من فئة صغيرة غلبت فئة كبيرة بإذن الله والسلام.

(مطلب)

احتفال السلطان بزفاف ابنته زليخا سلطانه وهدية محمد علي باشا

واتفق فى غضـون هذه الحوادث أن احتـفل السلطان بزفاف ابنته زليـخا سلطانه على خليل باشـا أحد كبـار رجال الدولة فـعمل لذلك الأفراح والـولائم وأتت إليه هدايا الملوك والسلاطين والـولاة من كل صوب وحدب فأرسل إلـيه كذلك محـمد على باشا شيئًا كثيراً من الأعلاق النفـيسة والتعابى الثمينة والجواهر النادرة المثال فلم يكن احتفال السلطان بها إلا كاحتـفال الدائن يأخذ ماله فى ذمة مدينه ولم يردّ على

محمد على باشا ردًا جميلاً فامتعض محمد على باشا من ذلك وعاد إلى الشكوى من فعال الدول ووقوفهم فى وجهه فكلم وكلاء الدول السلطان فى وضع حد لهذا النزاع والخصام يكون من ورائه فصل الخطاب والكف عن إراقة تلك الدماء هدرا فأجابهم بأحسن جواب وأخذ على نفسه هذا العمل وهجر سرايه المعروفة بسراى استافروى فراراً من الطاعون الذى دخلها بالعدوى من بعض الشيلان الكاشميرية التى جاءته هدية من قاضى القضاة بمصر ومنع رجال دولته من التداخل فى أمر حل هذه المشاكل ولم يشرك معه فى حلها سوى سعيد بيك كاتم أسراره الأول وواصف أفندى كاتم أسراره الثانى وجعلت رسله تتردد على مقر سفير الفرنسيس وطال الأخذ والرد فى تقرير قاعدة لتنازل السلطان عن ولاية مصر وتركها إلى محمد على باشا ثم إلى ذريته من بعده ميراثًا للأرشد فالأرشد وعن ولاية الشامات مقيدة ببعض القيود اللازمة لحفظ حقوق المتبوع على التابع وألح سفير دولة الفرنسيس فى ذلك وأكثر من التشديد فلم يفلح.

(مطلب)

ضرب الجزية على أهل حوران ولبنان

وكتب محمد على باشا إلى ولده الأمير إبراهيم يأمره بالتأهب والاستعداد لإصلاء نار الحرب فى الأقرب العاجل فجعل الأمير إبراهيم يتأهب وقد بالغ فى ذلك ففرض على أهل الشام الفرض الفادحة وضرب الجزية على أهل حوران ولبنان وقد أحس منهم بالشر والخروج عن الطاعة فألزمهم الصغار واشتد فى تذليلهم وعمت الجزية سائر أهل تلك الأصقاع وقد كان عمال السلطان قبلاً لا يفرضونها إلا على اليهود والنصارى دون المسلمين فعم القلق من أقرب البلاد إلى أقصاها وبدت إشارات العصيان وعلم الأمير إبراهيم بحضور جماعة من عيون السلطان وأنهم يجوبون البلاد ويحضون الناس على الخروج وإضرام نار الفتنة فبالغ فى الحيطة والتحرز وبلغ جيشه الذى جمعه فى هذا الحين زهاء ثمانية عشر ألفًا، وجعل السلطان يكثر أيضًا من حشد الجيوش ويعد المعدات ويرسل الجند تباعًا إلى حدود الشامات وقلب آسيه وسلم قيادتها إلى حافظ باشا أحد كبار الحرب وعمد إلى الإضرار بمحمد على باشا ماليًا أيضًا فعاقد دولة الإنجليز على يد رشيد باشا واللورد بونسنبى على منع احتكار المحاصيل المصرية فكبر هذا الأمر على محمد على باشا وكاد يسقط فى يده لحاجته إلى المال لنفقة الجنود وجعل يفكر فى تجديد المخابرات مع

الباب العالى مباشرة مبتعدًا ما استطاع عن وساطة الدول سادًا دون ذلك كل منفذ وباب.

(مطلب)

سفر محمد علي باشا إلى السودان في طلب معادن الذهب

قال بعض الكُتاب: وكان يرى أنه فى حاجة إلى المال الذى هو أكبر معين على بلوغ هذه الآمال فعزم على الرحيل إلى بلاد السنار فى طلب معادن الذهب حتى إذا فاز منها ببلوغ الأرب أعطى ووهب وقهر وغلب وقلب إلى تلك الدول ظهر المجن بعد الذى عاناه بسببهم من المكايد والمحن وقال آخرون: بل كان يقصد بهذه الرحلة الطويلة تغيير مجرى الحوادث وتفريج تلك الأزمة التى استحكمت حلقاتها بما كان يأتيه من التشديد والتهديد وقد كان يرى من دولتى الروس والإنجليز عدوًا لدودًا وخصمًا مشاغبًا كنودًا وأن رجوعه القهقرى بعد ذلك التشامخ والتعاظم يكون نقطة سوداء فى صحيفة أيامه فعمد إلى تلك الرحلة وعقد النية على أنه إن عاد سالمًا لا يظهر فى ميدان ذلك المعترك بمظهر البادئ بالشر إلا إذا اضطره الخصم إلى القبض بكلتى يديه على حر هذا الجمر، وكان معه فى هذه الحملة كثير من العمال وأرباب الصنائع والبنائين والمهندسين وأصحاب علم طبقات الأرض من الفرنسيس وغيرهم وجماعة من القبط والملتزمين والخدم والأتباع وجاهد من مشاق الأسفار ما لا يقدر عليه إلا القليل فلما وصل إلى سنار جاءه مشايخ القبائل وأمراء السود وبعض سلاطين ذلك الصعيد خاضعين وقدّموا له الهدايا النفيسة من الذهب وكثيرًا من الإماء والعبيد والخصيان وسن الفيل والريش والعطريات فأكرم لقاءهم وبالغ فى الحفاوة بهم وحادثهم فيما هم عليه ووعدهم خيرًا إن هو ظفر بأمنيته من تدويخ سائر ولايات السلطنة العثمانية وتم له الاستقلال بملك سائر ما بيده من البلاد ثم بث سائر من معه من أصحاب علم طبقات الأرض فى أنحاء السنار يجوبون الصحارى والقفار علهم يهتدون إلى شئ من معادن الذهب فلم يوفقوا إلى ذلك ألبتة سوى ما عثروا عليه من بعض الرمال المخلوطة بالشئ اليسير من القشور الذهبية فأحزنه هذا الأمر وسار عن السنار وقد ترك بها جماعة من المهندسين والعمال والكُتاب وأصحاب طبقات الأرض وهو على عزم أن يؤسس بها مستعمرة يسميها باسمه ووافق وصوله مدينة القاهرة يوم افتتاح سنة خمس وخمسين ومائتين وألف هجرية فعلم بخبر وصول بعض السفن العثمانية ومعها الهدايا والتعابى المعتاد إرسالها فى

كل عام إلى مكة والمدينة وكان الموكل بتوصيل تلك الهدايا نائب أمير سفن الحرب العثمانية فلم يحفل محمد على باشا بقدومه وأغضى عنه وكأنه لا يعلم من أمره شيئًا فأرسل إليه النائب يقول: أمير المؤمنين يقرئك السلام ويخصك بالتحية والإكرام ويقول: عجل بحمل الخراج ولا تحدث حدثًا بعد الذى علمته من إغضاء سلطانك وعفوه عما فات فلم يردّ عليه أيامًا ثم أرسل إليه كتابًا يقول فيه لست فى استعداد للقائك الآن فارحل عنا ثم عد بعد أربعة أشهر فلم يسع النائب المذكور إلا العود خائبًا مقهورًا.

(مطلب)

انقسام رجال الدولة العثمانية وعدم اتفاقهم على استمرار القتال مع محمد علي باشا

وانقسم رجال الدولة من هذا الحين إلى فريقين مختلفين أحدهما يقول بلزوم الحرب وإصلاء نار الوغى مع محمد على باشا حتى يرجع صاغرًا وكبير هذا الحزب أحمد قبطان باشا وثانيهما يقول بلزوم التأنى وترك العجلة والأخذ بأسباب المساهلة حتى تخمد نار هذه الفتنة وتعود الأمور إلى ما كانت عليه من المودة والصفاء بين المتبوع وتابعه ورأس هذا الحزب خسرو باشا قال بعض الكُتّاب: وقد كان خسرو هذا من ألد أعداء محمد على باشا وأكبر خصومه وهو الذى كان واليًا على ديار مصر أيام على بيك الكبير شيخ البلد ومراد بيك ووقع بينه وبين محمد على باشا من البغضاء ما قامت الحرب بسببه بين أصحابه وعسكر محمد على باشا أيامًا كثيرة حتى خلعه محمد على باشا وأخرجه من مصر خاسرًا مقهورًا وولى مكانه خورشيد باشا (كما هو مذكور فى محله من الجزء الثالث من كتابنا هذا) قال الراوى: ومع ذلك فقد كان من المحقق الذى لا مراء فيه أن خسرو باشا مع قيامه بزعامة حزب السلم كان يرجو قهر أحد الفريقين المتحاربين وغلبته ويقول: إن دحر محمد على وقهرته العساكر السلطانية كان ذلك غاية ما أتمنى أن يحيق به جزاءً له على خلعى من ولاية مصر وإخراجى منها قهراً وإن ظفر محمد على بالعساكر السلطانية ومزق شمل جمعهم كان ذلك ما أرجوه كى يحيق برشيد محمد باشا وحسين باشا مقدمى العساكر السلطانية العار والشنار والخزى والبوار.

(مطلب)

خروج أهل الشام وانتشار الفتنة

وعلت في غضون هذه الحوادث ضوضاء أهل حوران ولبنان وكثر ضجيجهم ونادوا باللخلاص من نير عبودية الأمير إبراهيم وجور عسكره وقدمت رسلهم إلى دار السلطنة يصيحون المدد وقد كان لما أحس أهل الشام بضعف جيوش الأمير إبراهيم قاموا على عماله وخرجوا عن طاعتهم وانبثت عصاباتهم فى القرى والبلدان يدعون الناس إلى شق عصا الطاعة فهبوا جميعًا إلى الثورة فأرسل الأمير إبراهيم إلى أبيه بالإسكندرية يستنجده فسار محمد على باشا من فوره إلى يافا ومعه الهدايا النفيسة والتعابى الفاخرة فلما ألقت سفينته مرساها طلب وجهاء البلد وأعيان القوم وكبار القبائل فحضروا إليه فأحسن لقاءهم وخلع عليهم الخلع النفيسة وأعطاهم التعابى الغالية وبالغ فى استمالتهم فمالوا إليه وعاهدوه فأرسل إلى ولده يقول عجل بالخروج وقاتل ما استطعت وشرد أصحاب الفتنة وشدد عليه فى ذلك وبالغ فى توبيخه وتعزيره استرضاء لأصحاب العهد فخرج الأمير إبراهيم بعسكره وحارب أصحاب الفتنة وقاتلهم قتالاً عنيفًا حتى دوّخهم وظفر بهم ثم ركب على نابلس وقاتل من بها فقاتلوه وصبروا على قتاله أيامًا كثيرة ثم عادوا فطلبوا الأمان فأمنهم وركب كذلك على الكرك والسلط وأمر عسكره فهدموها ودكوا حصونها وأخضع جبال الناصرة وأرجع أهلها إلى الطاعة وسير جماعة من عسكره إلى اللاذقية فبينما هم فى طريقهم إذ خرج عليهم أهل الناصرة ثانية فنالوا منهم قتلاً وجرحًا وتشريدًا فرجع من بقى إلى حيث الأمير إبراهيم فكبر عليه هذا الأمر وأخذ فى التدبير على أهل الناصرة وعاهد الأمير بشير الشهابى على الذب والدفاع فجيش الأمير بشير عسكرا لقتال أهل الناصرة وقدم عليهم ولده الأمير خليل وجيش كذلك الأمير إبراهيم جيشا آخر وسلم قيادته إلى الأمير خليل فسار بهم إلى الناصرة وقاتل من بها فوقعت بينهم عدة وقائع كانت الحرب فيها سجالاً وما زال الأمير يقاتل والمدد يأتيه تباعًا حتى ظفر بأهل الناصرة وأخضعهم وقبض على كبارهم وسلمهم إلى الأمير إبراهيم فمثل بهم وقتلهم وبالغ فى التحذر واستئصال أسباب الفتنة فرسم بجمع ما فى أيدى الشاميين من سلاح وآلة حرب وشدد فى ذلك وتوعد وطاف القرى والبلدان ومعه جماعة من العسكر يكبسون الدور ويحفرون الفسحات ويهدمون الجدران ويخرجون ما فيها من سلاح وآلات حرب فكانت شيئًا كثيرًا فخافه الشاميون

وانكمشوا وانمحت آثار الفتنة وخضعت جميع الشامات فلم يتركهم بل عمد إلى إذلالهم وتنكيلهم ورسم بجمع كل ما قدروا على جمعه من الخيل ودواب الحمل وأدخل الشبان من أولادهم في مصاف الجند وسيرهم إلى أقصى البلاد فكان عمله هذا من أشد الضربات على الشاميين وكان كلما بدت منهم دالة التمرد أو الخروج فعل بهم كذلك فيرجعون إلى الطاعة وقد تراكمت الشكاوى من ذلك على الباب العالى فأبلغ السلطان وكلاء الدول خبرها وقال لابد من خروج إبراهيم وعسكره من الشامات وجلائهم عنها بغير معاودة وإلا فالسيف والنار ولا هذا الخزى والعار فراجعته دولة الفرنسيس وكذلك فعلت دولة الروس آخذة فى هذه الآونة برأى كبير سياستها المسيو روبوتانوف. قال أصحاب التاريخ: فقد كان هذا الرجل من فحول أصحاب السياسة ومقدمي رجال الرياسة كثير المعرفة بأحوال الدول فلما رأى من اللورد بونسنبى سفير الإنجليز من المواربة والدهاء أدرك ما وراء ذلك فاستدرك الخطأ وعمد إلى تغيير خطة سياسة دولته من المكابرة والمعاندة إلى المساهلة والمجاملة واتبعته فى ذلك أيضًا دولتا بروسيا والنمسا وأكثروا جميعًا من الأخذ والرد مع السلطان وهو يطاول ويحاول ويظهر خلاف ما يبطن حتى خشى حزب السلم من تفاقم الخطب واشتداد الكرب وعمد إلى طلب خلع أحمد قبطان باشا مقدم حزب الحرب فلم يفلح لمكانته وقربه من السلطان فعدل عن ذلك إلى طلب تحقيق حالة الشامات وما إذا كانت تستلزم البقاء على هذه الحرب المشؤمة التى لا يعلم عاقبتها إلا الله وحده وألح خسرو باشا بطلب ذلك وزين للسلطان العمل برأيه فأجابه كارهًا وسير سعيد باشا ناظر الحربية إلى الديار الشامية وكانت العساكر السلطانية إلى هذا الحين نازلة بملاطية وقد فعل فيها برد ذلك الشتاء فعله وقلت عندهم المؤن وفشت بينهم الأمراض وكثر الموات وساءت حالهم وبدت منهم إشارات الخروج وشق عصا الطاعة فكان حافظ باشا مقدمهم يخشى عاقبة ذلك ويلح على السلطان بطلب الإذن بفتح باب الحرب والزحف بعساكره لقتال الأمير إبراهيم فأجابه السلطان إلى ذلك وسير إليه ثلاثة من كبار قواد الجيوش البروسياويه وبينهم البارون ملتكه الشهير ليكونوا له عونًا على العمل فسار حافظ باشا بعسكره من ملاطية يريد الشامات وعبرت طائفة منهم الفرات ومقدمهم إسماعيل باشا وسارت على أكمل ترتيب ونظام حتى اقتربت من حلب وكان الأمير إبراهيم قد سار عن حلب إلى حوران ليرى المزارع وغرس الأشجار الكثيرة التى أشار بغرسها فى تلك الأصقاع فلما جاءه الخبر بوصول العساكر السلطانية أرسل إلى قواد عسكره يستحثهم على التأهب والاستعداد وجمع

إليه مشايخ قبائل وبلاد تلك الأنحاء واستحلفهم على الطاعة والولاء فحلفوا له الأيمان الغلاظ وكان ممن حضر معه فى ذلك اليوم سليمان باشا الفرنسوى فقال له: أيها الأمير خفف عنك فوالله إما أن ندخل دار السلطنة فى هذه المرة بعسكرنا المنصور وإما أن نعود إلى ديارنا مدحورين خاسرين فسرّ الأمير إبراهيم عند سماعه هذا الكلام وقال بوركت يا سليمان والله لن يكون إلا دخولنا بإذنه تعالى ظافرين غانمين، وأحاطت العساكر السلطانية بالشامات ونزلت على بلادها من كل صوب وحدب واجتمع لهم عند مدينة قونية كثير من الجند وتأهبوا للهجوم على البلد والولوج منها إلى المفاوز الموصلة إلى مدينة أطنة وجاءت كتب السلطان إلى عزت محمد باشا والى أنجور بتجييش الجيوش وإعداد المعدات مددا عند مسيس الحاجة وسار كل من والي بغداد ووالى الموصل فى عسكر عظيم مددا إلى حافظ باشا. قال بعض الكُتاب: ولم يكن سير هذين الأميرين بعسكرهما إلا لإمداد الأمير إبراهيم ومعاونته على قتال عسكر السلطان وكان الأمير إبراهيم فى خلال هذه الحركة وتعبية تلك الجيوش الجرارة ساكن القلب هادئ اللب وهو مع ذلك يعلم أن جيوش السلطان التى جاءت لقتاله فى هذه المرة زهاء المائة ألف وخمسين ألفًا فضلاً عما وصل أيضًا من سفن الحرب الكبيرة والشوانى المشحونة بالمدافع والمقاتلين وجعل يرتب جيوشه ويرسلها إلى مواقف القتال فسارت منها طائفة إلى مرعش وأخرى من أصحاب المدافع إلى عنتاب لرد أهلها إلى الطاعة فإنهم لما أحسوا بقرب العساكر السلطانية منهم ثاروا على عمال الأمير إبراهيم وشاغبوهم وسارت طائفة أخرى من الفرسان وأصحاب المدافع إلى حماة ومعهم جماعة من عربان الهنادى ومقدمهم قفطان بك وخرجت قبيلة العنزة عن طاعة السلطان أيضًا وانضمت إلى العسكر المصرى فهال السلطان خروجهم وأزعجه واهتم محمد على باشا بجمع المال لنفقة الجند واحتياجات العسكر فزاد فى فرض الفرض وضرب المكوس والمغارم على سائر أهالى البلاد بلا فرق بين الغنى والفقير والصغير والكبير من التجار وأرباب الحرف والصنائع والكتاب والملتزمين وبالغ فى جمعها وبث الجباة والمأمورين يجوبون البلاد شرقًا وغربًا فى طلب ذلك فاشتدوا على الناس شدة بالغة وأخذ أيضًا سائر ما كان مودعًا من المال بصندوق التوفير من مال أرباب الرتب العالية وأصحاب الوظائف السامية وقدره ثلاثون ألف ألف قرش وخرج إلى بعض المدن مثل طنطا والمحلة وشبين الكوم والمنصورة وفارسكور وغيرها ليحض الجباة والمأمورين على جمع المال

وكتب إلى الأمير إبراهيم يقول: لا تعجل بفتح أبواب الحرب وكن مدافعًا لا مهاجمًا حتى تعرف دول أوروبا أن سلطانك هو البادى بالشر والبادى أظلم.

(مطلب)

اتخاذ حلب مقرًا لحركة العساكر المصرية واستحلاف أهلها على السمع والطاعة

وكان إلى هذا الحين قد انقطعت المواصلات بين الشام ومصر وبلاد الترك وانقطع ورود القوافل بالتجارة واستوحش كل قرين من قرينه واشتد الخوف بأهل تلك الأطراف من عبث الجيوش العثمانية وإهلاكهم للحرث والنسل، وقدم طاهر باشا رسولاً من قبل السلطان إلى حافظ باشا مقدم العسكر السلطانى يحمل المرسوم بفتح أبواب الحرب وإصلاء نار الوغى وكانت عيون الأمير إبراهيم تنقل إليه الأخبار فأعلموه بخبر ما هى عليه العساكر السلطانية من القوة ووفرة العدد والعدد وحصانة الموقع فاتخذ حلب مقرًا لحركة جنوده واستحلف عظماءها ثانية على السمع والطاعة فحلفوا فجبا أهلها الجزية سلفًا فدفعوها فكانت ثلاثة آلاف كيس ومائة كيس واستقرضهم قرضًا قدره ثلاثمائة وخمسة وسبعون ألف قرش فأقرضوه إياه فكان ما خص النصارى والمسلمين من هذا القرض ثلاثمائة ألف وما خص اليهود خمسة وسبعين ألفًا وسير لحراسة بعلبك ومنع القادم من العساكر العثمانية إلى حوران ولبنان طائفة من الأرناؤط ورفع عن أهلها الجزية وسائر المغارم كى يخلدوا إلى السكون وأباحهم الزرع بلا مال ولا خراج وأجاز لهم انتخاب شيوخهم ومديرى أمورهم وأعاد إليهم ما كان قد جمعه منهم من الأسلحة وآلات الحرب وأقام عليهم شبلى عريان أحد كبارهم ومقدّمى حزبهم عينًا ليراقب أحوالهم ويحرس دروبهم وبالغ جدًا فى الحيطة والتحرز من أهل تلك الأطراف لشدة بأسهم وصبرهم على الحرب والقتال.

(مطلب)

عود قناصل الدول إلى مكالمة محمد علي باشا في الصلح وما كان من وراء ذلك

ووردت كتب الدول إلى وكلائهم بالإسكندرية بأن يعاودوا محمد على باشا فى كف ولده عن الزحف والقتال. قال بعض الكتاب: وكان كتاب كبير سياسة الروس

فى ذلك إلى قنصلهم شديد اللهجة غليظ الكلام وكـان محمد على باشا هذه الأثناء يجوب البـلاد وقد وصل إلى مدينة دميـاط فسار إليه قنصل الروس وأبلغـه الرسالة وأخبره بخبـر كتب الدول إلى وكلائها فغضب محمـد على باشا وعاد من فوره إلى الإسكندرية فـاجتمع إليـه سائر القناصل وجـعلوا يكلمونه فى الإقـلاع عن كل هذا العداء والكف عن الحرب واستدعاء ولده ومن معـه من العسكر وتقرير قاعدة أخرى للصلح قال: فـامتـعض محمـد على باشا وقال مـا بالكم تسعـون فى الإضرار بى وبأهلى وولدى ومـا بالكم تضربون على يدى وتطلقـون يد السلطان يقـتل من شاء ويخرب ما شاء ويحرق ما شاء أو لم تخافوا الله وتحكموا بالقسط بينى وبينه والله لن أرجع عن الحرب والقتال ولن ترجع عساكرى عن الغزو والفتح حتى يحكم الله بينى وبينه وهو أحكم الحـاكمين. فجـعل القناصل عند ذلك يخفـفون عليـه حتى سكن بعض ما به ورسم إلـى كاتب سره أن يكتب إلى الدول شـيئًا مما هـم بصدده فكتب يقول: قد خاطبنى قناصل الدول العظمى بما جـاءهم من الكتب فى أمر تقرير قاعدة للصلح بينى وبين سلطانى فلـم أر بدًا من العود إلى إعلامكم بما قـد وطنت النفس على عـمله آخذا بمشـورتكم فإن عـادت العسـاكـر السلطانية الذين عـبروا الفـرات وأصبـحوا عـلى مقـربة من المعسكر المصـرى إلى حيث أتوا وتم ذلك فـى الأقرب العاجل سيـرت إلى ولدى بإيقاف عـسكره ورجوعـه إلى دمشق مع حاشيـته وأركان حربه وإن خرجت سائر العسـاكر السلطانية وانجلت عن الديار الشامية استوقفت سائر جيـوشى واستقدمت ولدى إلى مـصر فإذا تكفلت لنا الدول بالمحـافظة على السلام وتوكيد عرى الولاء مع السلطان بتوريـث أولادى من بعدى ملك ما بيدى من البلاد فإنى لا أحجم عن استقدام بعض جـيوشى إلى مصر ولا آنف من العود إلى المخابرة مع سلطانى فى تقـرير قـاعدة للصلـح راسخـة الأركان لا يبـقى من ورائهـا باقيـة والسلام، قال بعض الـكتاب: كل هذا والسلطان يظهر إلى سفـراء الدول خلاف ما يبطن فكان من جهة يقول: إنه ما برح يطاول محمد على باشا وولده ويدفعهما عن بلاده بالتى هى أحسن ومن أخـرى يحض مقدم عسكره على الزحف والانـتقال من بلد إلى آخر بعلل وأسبـاب مختلفة وقد أنشب الموت أظافره فى العسـاكر السلطانية فأهلك منهم خلقًا كثيرًا ولحق كذلك بدوابهم فكاد يبيدها ونزل فريق من العساكر فى مضيق من الجـبال وعر المسلك ولبثوا فـيه لا يتحركون أيامًـا. قال الراوى: فلو كان الأمير إبراهيم نازلهم فى ذلك المضيق بنفر من عسكره ساعة لأتى على آخرهم ولكنه

لم يفعل حقنًا للدماء ولكى لا يقال أنه البادى بالشر وشاع خبر ذلك فى دار السلطنة فكبر خوف حزب السلام وقام سفراء الدول يسألون طاهر باشا فى ذلك فلم يروا منه جنوحًا إلى المسالمة ولاميلاً إلى المكالمة وكثر اللغط بلزوم الحرب والقتال وقطع شأفة العساكر المصرية من كافة بلاد الدولة وظهر من اللورد بونسنبى سفير الإنجليز ميل إلى معاداة محمد على باشا وأوعز إلى قنصل الإنجليز بدار السلطنة أن يكلم السلطان فى تقليد الجنرال سكرانودسكى البروسياوى قيادة الجيوش العثمانية فى هذه الحملة فلما شاع خبر ذلك غضب سائر كبار حرب الجيش البروسياوى وقاموا قومة رجل واحد وقالوا النار ولا هذا العار الذى يلحق بنا إذا ظل الرجل فى خدمة جيوشنا وكان هذا الجنرال قد تجنس بالجنسية الإنجليزية وقام كذلك كبير سياسة بروسيا يمانع ويشدد فى المنع فخاف السلطان شر العاقبة ولم يوافق على طلب اللورد بونسنبى وانبثت العساكر السلطانية فى أنحاء الشامات فعاثت وأفسدت واجتمع إليها أهل البطالة والفساد وأتت إليها الأحزاب من كل صوب وحدب ووصلت طائفة من الفرسان إلى ناحية (مزار) على قيد فرسخين من نصيبين وأرسل مقدم هذه الطائفة إلى عامل السلطان على (أرول) فى طلب الرجوع إلى طاعة سلطانه وترك الأمير إبراهيم وشأنه فأجابه إلى ذلك وعلم الأمير إبراهيم بخبره فرسم إلى محمد معجون بك بالمسير بمن معه من العساكر والعربان إلى تل باشر فسار إليه ثالث عشر ربيع الأول من السنة وكثر احتلال الجنود العثمانية للكثير من القرى والبلدان الداخلة فى ولاية عنتاب والتقى والى (أرول) بمقدم العساكر السلطانية فأكرم وفادته فبالغ الوالى فى السمع والطاعة إليه وأشار عليه بجمع مشايخ ذلك الصعيد ففعل فكلمهم فى الخروج عن طاعة الأمير إبراهيم فأجابوه إلى ذلك فأعطاهم الأسلحة وآلات الحرب وأكثر لهم من الذخيرة ففرقوها على أهل البلاد ودفعوا بهم إلى قتال العسكر المصرى ومع كل هذا فقد كان كبير سياسة السلطان يقول لسفراء الدول إن أمير المؤمنين جانح إلى السلم كاره للحرب وإنه على ما هو عليه من التأنى وترك التسرع حتى تقضى الدول بينه وبين متبوعه.

وكبر كيد الأمير إبراهيم فلم يبق فى إمكانه السكوت لا سيما وقد انبثت العساكر السلطانية حوله وجاءوا إلى مواقع عسكره من كل صوب فأرسل إلى سليمان باشا الفرنسوى يستحثه على الحضور بسائر من عنده من العساكر ثم سار هو من حلب فى جماعة من الفرسان وأصحاب المدافع ولحق به سليمان باشا بمن معه

وبينما الأمير إبراهيم فى طريقه إذ جاءه الخبر بهزيمة العربان الذين كانوا رباطًا عند نهر الساجور قاتلهم الفرسان العثمانيون فلم تأت ساعة أو بعض ساعة حتى انهزموا شر هزيمة وأسر منهم جماعة كثيرة وتمزق شمل من بقى منهم فأزعجه هذا الخبر وسار سيرًا حثيثًا يريد لقاء العساكر السلطانية فلم يتمكن من ذلك وكان رجال المابين السلطانى فى خلال هذه المشاغبات يكثرون من الضجيج والعجيج إلى الدول من شر فعال محمد على باشا وولده إبراهيم وامتناعه من حمل الخراج إلى الخزينة السلطانية ويقولون إنه ما برح يظهر إلى سلطانه كل بغض وعداء بتجييشه الجيوش وإعداده المعدّات بعد أن صفح عنه وعفا عما فات ثم أرسل صدر الدولة إلى وكلاء الدول كتابًا يقول فيه: قد آن لكم أن تروا ما يراه أمير المؤمنين من لزوم حل عقدة هذه المشاكل والإحن التى قوّضت أركان السلام أو كادت فقد فرغ الصبر واستفحل شر هذا الأمر وأخذت الخيلاء من ذلك التابع المارق مأخذها فداس بقدميه هامة الخلافة وزعزع أركانها وبلغت به القحة مبلغها والجسارة منتهاها فلم يبق فى وسع الباب العالى الإغضاء بعد هذا كله، وقد تنازل أمير المؤمنين بأن يبعث إلى الإسكندرية سفراء يعرضون على محمد على الرجوع إلى طاعة خليفته وسلطانه فإن أذعن عفا الله عما سلف وإن امتنع وكابر فالسيف والنار ولا هذا الخزى والعار، ولأمير المؤمنين عضد ونصير من جانب دولة الإنجليز التى وعدت بالمعونة والمدد وأمسى وعدها إن شاء الله أمرًا مقضيًا، وبعد فأمير المؤمنين يسأل الدول المتحابة أن تسعى جهدها فى إقناع ذلك التابع بالإذعان والكف عن المشاغبة وعدم الطموح إلى ما لا تحمد عقباه وأمير المؤمنين على يقين من حسن نوايا الدول المتحابة وميلهن إلى توطيد أركان السلم وسد أبواب تلك الحرب التى لم يبق فى وسع أحد النظر إلى تيارها الجارف نظرة المتفرج فلذلك يرجوهم تدارك الخطر قبل استفحاله والسلام.

ووردت على محمد على باشا فى هذه الأثناء الأخبار من ولده الأمير إبراهيم بما هم عليه من الجهد والتعب بسبب هجمات طلائع الجيوش السلطانية على مقدمة العساكر المصرية والتزامه خطة الدفاع والوقوف عند حد التحرز لكل لا تتهمه الدول بسوء القصد بعد الذى هم فيه من الأخذ والرد فلم يصل إليه الجواب حتى جاءه الخبر بوصول رجل اسمه موسنتيك بك فى طائفة كبيرة من عساكر الكرداغ المرتزقة يريد قتاله وما زال موسنتيك هذا يتقدم بخيله ورجله حتى صار على قيد فرسخ من مواقف المصريين فكبر أمره على الأمير إبراهيم وركب فى طائفة من المصريين لقتاله

وشاع الخبر بذلك بين أهل ذلك الصعيد فهب أهل لبنان إلى شق عصا الطاعة وتألبوا جميعًا على قتال المصريين وإجلائهم عن البلاد ووصلت طلائع لوم موستيك إلى عنتاب وبها طائفة من العساكر المصرية فخرج أهل البلد للقائهم وفرحوا بمقدمهم وانقلبوا يريدون مشاغبة من عندهم من المصريين فأسرع الأمير إبراهيم فى إجلاء عسكره عن عنتاب فانسحبوا فى رابع عشرى ربيع الأول من تلك السنة بجميع متاعهم وكراعهم وانضموا إلى المقاتلين ولم يتم انجلاؤهم عن عنتاب حتى دخلها والى مرعش وقد خرج عن طاعة الأمير إبراهيم بإغراء مقدم العساكر السلطانية وجعل يتصرف فى البلد وفيما هو فيها من مال وكراع، فلما كان سابع عشرى ربيع المذكور عبر حافظ باشا مقدم الجيوش السلطانية الساجور ومعه خمسة آلاف من المقاتلة وثلاثة آلاف فارس من المرتزقة وسار يريد الالتقاء بالعساكر المصرية فلما ترآى الفريقان جعلت العساكر السلطانية تطلق مدافعها تباعًا فلم تلتفت إليها العساكر المصرية .

(مطلب)

ما كتبه الأمير إبراهيم إلى حافظ باشا مقدم العساكر العثمانية وما كان بعد ذلك

وكتب فى الحال الأمير إبراهيم إلى مقدم عسكر السلطان يقول: إذا كنتم تعلمون ما هو جار بين أمير المؤمنين والدول من الأخذ والرد فى شأن الكف عن القتال حتى تتقرر قاعدة الصلح بيننا وبينكم فكيف سيرتم سليمان باشا العثمانى فى طائفة كبيرة من الفرسان المرتزقة لمهاجمة عسكرنا النازلين (بولايتك) وكيف استبحتم إرسال موستيك بك فى جيش جرار من الأكراد ليعاونوا أهالى (باياس) على شق عصا طاعتنا وبعثتم الحاج عمر أوغلى إلى الكراداغ لإيقاظ الفتنة النائمة وهاجمتم عرباننا الهنادى المرابطين على الحدود ومددتم أهل عنتاب بالأسلحة ومعدات الحرب ليقاتلونا ورسمتم إلى سليمان باشا العثمانى بدخول عنتاب والقتال عنها ما استطاع ولم تقفوا عند هذا الحد من التعدى وخرق حرمة العهد حتى زحفتم علينا بخيلكم ورجلكم وأطلقتم علينا اليوم بنادقكم ومدافعكم رجاء أن تخرجونا من دائرة التأنى والصبر والعمل برغائب أمير المؤمنين والدول المتحابة إلى التهور والاندفاع إلى إصلاء نار الحرب المغضبة لخليفتنا وسلطاننا وللدول أجمع وكأنك هداك الله ظننت أن سكوتنا عن قتالكم ضرب من العجز أو شئ من الجبن حاشا ثم حاشا فإن كان قد أتاكم أمر الخليفة بقتالنا فليس من النصفة أن تستعملوا الخدعة والمكر بنا والتدليس

بأصحابك فأعلن الحرب جهاراً وناد بالجهاد علانية وسترى منا إن شاء الله أسودا بواسل لا يهابون القتال ولا يحسبون حسابًا للقاء الأبطال فقد عيل منهم الصبر وهذا كتابى واصل إليك على يد محمود بك أحد مقدمى أصحاب المدافع فأفدنا الجواب والسلام عليك ورحمة الله وبركاته.

فلما علم حافظ باشا ما فى جواب الأمير إبراهيم كتب إليه يقول: ألفيت كتابك مفعمًا بعبارات الطاعة وإشارات الخضوع إلى سلطانك خليفة رسول رب العالمين وظل الله الوارف فى أرضه فقبل كل قول يجب علينا أن نرفع أكف الضراعة والابتهال إلى المولى العزيز المتعال بأن يديم لنا فرع هذه الشجرة المقدسة زاهيًا زاهرًا موفقًا مدى الدهور والأعوام وبعد فإنك تعلم هداك الله أن طاعة أمير المؤمنين واجبة مفروضة على من يؤمن بالله ورسوله واليوم الآخر وأن هذه الطاعة لم تكن باللفظ المجرد عن العمل وإلا كانت مروقا وعصيانا فإن كنت قد وطنت النفس على الطاعة وعقدت النية على التقرب من عرش الخلافة فكيف أرسلت لقتالنا محمد معجون بك فى جماعة من العربان وكيف أذنت طلائع عسكرك بأن يناوشوا طلائعنا الحرب ويجروهم إلى القتال فكل هذه الأمور قد جعلتنا فى ريب من إخلاصك ودفعت بنا إلى مناوشتك القتال فإن أنت رجعت وتبت وندمت على ما فعلت فعليك الأمان من أمير المؤمنين والسلام عليك ورحمة الله وبركاته، ولم يصل كتاب حافظ باشا إلى الأمير إبراهيم حتى جاءه الخبر أيضًا بقيام سفن حرب السلطان مشحونة بالمقاتلة والفرسان والذخيرة والميرة الكثيرة وهى مؤلفة من عدة شوانى كبار وقطع عظيمة وبأن الحرب لا مندوحة عنها ولا فرار قط منها فسير الأمير إبراهيم الخبر بذلك إلى أبيه وطلب المدد واستسرع النجدة فكتب إليه أبوه فى ثامن عشرى ربيع الأول من السنة أى سنة ثمان وخمسين ومائتين وألف يقول: جاءنى كتابك وعندى الخبر اليقين بما يلاقيه عسكرنا من الحيف وما هو مشاهد فى كل يوم من عبث العساكر العثمانية بالبلاد وتسليح حافظ باشا لأهل الشقاوة الخوارج وبثهم فى المدن والقرى لإهلاك الحرث والنسل ولقد طال منا التغاضى أخذًا بمشورة الدول أصحاب الوساطة لعل حافظ باشا يرعوى ويقف عند حده حتى تقرر القاعدة بيننا على ما فيه المصلحة فلم يفعل فإذا أتاك كتابى هذا فسر على بركة الله بعسكرك المنصور وقاتل هذا العدو المارق وادحره دحراً وأوقع به وبعسكره ما استطعت وسر من فورك إلى (كوليك) بوغاز ومن هناك إلى ملاشيا وقريوت وعرفة وديار بكر والله سبحانه وليك وهو حواليك لا عليك والسلام ورحمة الله وبركاته.

(مطلب)

قدوم المسيو كاليه مندوب دولة الفرنسيس إلى مصر ومكالمة محمد علي باشا في تقرير قاعدة للصلح

وجعل محمد على باشا يجيش الجيوش ويكثر من آلات الحرب لنجدة ولده وأقام المرابطين على الحدود وبث العيون وظهرت الحركة بالقاهرة وبولاق القاهرة ومصر وتحت قلعة الجبل بمرور دواب الحمل وسحب المدافع والأثقال وطير قناصل الدول الخبر بذلك إلى الآفاق فاهتمت له دولة الفرنسيس وسيرت على الأثر رسولين أحدهما إلى محمد على باشا واسمه المسيو كاليه وثانيهما إلى دار السلطنة واسمه المسيو فوتز وزودت كلا منهما من الأسرار بما اقتضاه الحال، واتفق أن قدم محمد على باشا إلى مدينة الإسكندرية ليباشر بنفسه إرسال المدد إلى ولده الأمير إبراهيم فقدم عليه المسيو كاليه فى نفر من الكتاب والحشم والأتباع فأكرم محمد على باشا مقدمه وبالغ فى الحفاوة به فكلم محمد على باشا فى أمر الكف عن القتال والتأنى فى الحركة حتى يتم تقرير قاعدة الصلح بينه وبين السلطنة على ما فيه المصلحة فامتنع محمد على باشا من ذلك وقال لابد من متابعة القتال وعدم الكف عن الحرب حتى يقضى الله بيننا فألح المسيو كاليه فى الطلب وبالغ فى استرضاء محمد على باشا وطاوله أيامًا ثم عاوده فأجابه ورسم إلى خسرو أفندى بقبول وساطة دولة الفرنسيس وساطة فعلية فى جعل حد لهذه الحرب وتقرير قاعدة راسخة للصلح وأن يكتب إلى الأمير إبراهيم بأن يبقى حيث هو مقيم حتى يأتيه كتاب وركب المسيو كاليه وخسرو أفندى سفينة مصرية يريدان الشام والالتقاء بالأمير إبراهيم وكان قد قام بعسكره لقتال حافظ باشا عملاً بالكتاب الوارد إليه من محمد على باشا وقصد ناحية مزار الواقعة جنوب شرقى نصيبين ونزل على قيد فراسخ من محلة العساكر السلطانية، قال بعض كتاب الأخبار: فاضطرب عند ذلك مقدم العساكر السلطانية ورسم لمقدمى عسكره بمناوشة طلائع المصريين فجعلت العساكر السلطانية تطلق مدافعها تباعًا على المصريين مع ما هم عليه من مشقة السفر فأطلق كذلك المصريون مدافعهم وتراسلت قنابلهم قال فخاف عند ذلك جماعة الترك وولى منهم فيلق الحرس الفرار فنادى عند ذلك النفير على المصريين بالزحف على مزار فالتصقوا بأسوارها قبل غروب الشمس ونزلوا على شاطئ الساجور بخيلهم وكراعهم فكبر أمرهم على حافظ باشا وقد شاهد من نظامهم وكثرة عددهم وعددهم ما أذهله

وأخافه فرسم إلى كبار عسكره بأن لا يبدءوا بالقتال وأن يتحينوا الفرص فلما رأى الأمير إبراهيم إحجامهم سار بعسكره وعبر الساجور ونزل علي الضفة الثانية وجعل كل من الفريقين يتأهب للقتال وكانت العساكر السلطانية قد بلغت إلى هذا الحين زهاء ثلاثين ألفًا من المشاة وخمسة آلاف من الركبان وثلاثة آلاف من أصحاب المدافع عدا أرباب الخدم وكانت العساكر المصرية تربو على الأربعين ألفاً عدا أصحاب الخدم، قال بعض كُتاب الأخبار: وكانت هاته الجيوش التركية على كثرتها ينقصها شئ من الصفات العسكرية كالدربة علي الحروب وحسن النظام والطاعة ونحو ذلك من الصفات المهيئة لأسباب الظفر والغلبة على العدو وكانت الوظائف العسكرية عندهم تعطى لغير مستحقيها من الأغرار الصنائع الذين لا خلاق لهم فكان حافظ باشا لذلك فى قلق دائم وكمد ملازم يتوقع الهزيمة فى كل لحظة تمر فى النهار.

(مطلب)

هزيمة المصريين ليلاً ثم انتصارهم على العدو

وما غربت شمس ذلك اليوم حتى نادى منادى الأمير إبراهيم فاصطفت جنوده فخطب فيهم وقال: قد علمتم أيها الجنود البواسل قدر ما أحرزتموه من الشرف والفخار لغاية الآن فلم يبق عليكم إلا أن تكللوا هذه الأعمال بإكليل حسن الختام واعلموا أنكم لن تنالوا ذلك إلا ببذل المهج فيكم إعزاز الوطن وبموتكم حياته وخير لنا أن نموت لحياة الوطن من أن نحيا لذله وشقائه فالله سبحانه حوالينا لا علينا وهو حسبنا ونعم النصير، فصاح عند ذلك جماعة الضباط الله الله ولا حول ولا قوة إلا بالله وباتوا ليلتهم تلك وكان حافظ باشا قد رأى أن الظفر كل الظفر فى كبس المصريين ليلاً وأخذهم على غرة فرسم إلى إسماعيل باشا أحد كبار العسكر بالإسراء نصف الليل بجماعة من أصحاب المدافع وأن ينزلوا على ميسرة المصريين حتى إذا صاروا على مقربة منهم أطلقوا عليهم المدافع وأصلوهم نارًا حامية قال الراوى: فلم يشعر المصريون إلا ونيران الترك قد أخذتهم من كل جانب وتراسلت قنابلهم على خيمتى الأمير إبراهيم وسليمان باشا الفرنسوى فهبوا من نومهم مذعورين وكادوا يتمزقون كل ممزق فنادوا فيهم بالنفير فنشطوا إلى الدفاع وقاتلوا حتى مطلع الفجر وظفروا بالعساكر السلطانية وردوهم على أعقابهم وقتلوا منهم جماعة ولما أصبحوا جعل الأمير إبراهيم يتفرس فى مواقف العساكر السلطانية فإذا هم على مرتفع من

الأرض تحيط به أخاديد كأنها خنادق طبيعية وكانت مواقف العساكر المصرية فى ذلك اليوم حرجة للغاية معرّضة لنيران مدافع العدوّ فكبر عليه هذا الأمر وأعظمه لا سيما وقد رأى من حركة العساكر السلطانية ومن معهم من الضباط الأجانب ما أدهشه وأخافه فرسم إلى سليمان باشا الفرنسوى بترتيب الصفوف وإحكام مواقع الوقوف ونادى فى العسكر بالتأهب للقتال والاستعداد للطعن والنزال فأنس من بعضهم شيئًا من العصيان فعجل يسوقهم إلى ساحة القتال فانتشبت الحرب بين الفريقين وارتفعت أصوات المدافع والتحمت الصفوف بالصفوف والتفت السيوف بالسيوف وزلزلت الأرض من هول ذلك اليوم العصيب وثبت الترك الثبات العجيب ونكلوا بالمصريين تنكيلاً حتى دحروهم وقهروهم فهربت منهم طائفة فى عرض الأرض وكادت تتم هزيمتهم وما زالوا بين أخذ ورد وطعن وصد حتى تمكنوا من الظفر على مقربة من نصيبين فتفرقت الجنود التركية أشتاتًا وفرّ حافظ باشا إلى مدينة مرعش فاستولى المصريون على ما فى معسكر الترك من متاع وكراع وكثير من الخيام ودواب الحمل وأسروا زهاء خمسة عشر ألفًا من الأتراك ووجد الأمير إبراهيم فى خيمة حافظ باشا سائر الكتب التى كانت تأتيه من السلطان بالإسراع فى الزحف والقتال وقطع شأفة المصريين.

(مطلب)

استمالة محمد علي باشا إلى أمير سفن حرب الدولة وأخذ سائر السفن غنيمة بلا حرب ولا قتال

وكان السلطان قد رسم أيضًا إلى أمير سفن حرب الدولة بالإقلاع إلى مدينة الإسكندرية ودكّ حصونها ومعاقلها بقنابل المدافع وعدم البراح من مياهها حتى يقبض على محمد على باشا ويأتى به إلى دار السلطنة مكبلاً بالأغلال والقيود فسارت السفن وألقت مرساها عند كريد أيامًا كثيرة ترددت فى خلالها الرسل بين أميرها ومحمد على باشا قيل فخدعه محمد على باشا واستماله وعاقده على تسليم سائر ما معه من سفن الحرب والشوانى بغير حرب ولا قتال فجاءت تلك السفن وألقت مرساها بمينا الإسكندرية أمام رأس التين ثم أنزلوا من بها من العساكر والأجناد إلى المدينة وقد سلموا جميع سلاحهم وآلات حربهم ولم يلبثوا إلا أيامًا قلائل حتى فرقوهم فى البلاد شرقًا وغربًا وأنزلوا أمير تلك السفن فى بيت محرم

بك ثم نقوله بعد أيام إلى دار مخصوصة وجرت عليه الأرزاق في كل شهر وشاع الخبر بذلك بين سائر الدول فكان له دهشة عظيمة، قال بعض الكتاب: وكانت حجة أمير تلك السفن في التسليم على هذه الصورة تأخير جماكي العسكر وقطع بعض المرتبات، ووصل المسيو كاليه مبعوث دولة الفرنسيس الذى تقدم الكلام عليه ومعه مرسوم محمد على باشا إلى حلب فلاقاه واليها وأعلمه بخبر تلك الموقعة وما جرى فيها على الترك فسار مجداً يريد لقاء الأمير إبراهيم قبل أن يتحرك حركة أخرى وقد كان الأمير إبراهيم بعد أن تم له النصر وحقق الله له الغلبة والظفر رسم إلى معجون بك بأن يسير بمن معه من العربان إلى غزنة ويقاتل من بها ويفتحها والى عثمان بك وأحمد بك المنكلى وسليمان بك بالاستيلاء على كل ما يمكن الاستيلاء عليه من بلاد آسية الصغرى وسار هو في طائفة أخرى من العساكر والأجناد في سادس عشر ربيع الثانى يريد عنتاب لإخضاعها وإرجاعها إلى الطاعة ونزل عليها بخيله ورجله فخرج إليه كبارها وأصحاب الكلمة فيها يرجون عفوه وصفحه عما فات فعفا عنهم ولكنه ضرب عليهم الجزية مضاعفة فكانت نارها أشد عليهم من نار الحرب ولما كانت ليلة حادى عشر الشهر المذكور وصل المسيو كاليه إلى معسكر الأمير إبراهيم فأحسن الأمير لقاءه وبالغ في إكرامه فبات ليلته وعند الصباح سلم إلى الأمير إبراهيم كتاب أبيه ثم تقدم إليه في الكف عن القتال وترك الأمر حتى يتم تقرير قاعدة الصلح فامتنع الأمير إبراهيم من ذلك وقال لابد من القتال حتى يقضى الله أمراً كان مفعولاً فألح عليه المسيو كاليه وجعل يهوّن عليه الأمر وهو لا يزداد إلا عناداً ونفوراً واختلف الكتاب في الذى دفع بالأمير إبراهيم إلى عدم الإذعان والرضا بمطالب المسيو كاليه فمن قائل إن ذلك كان بإيعاز من أبيه على يد سامى بك كاتب سره ومن قائل غير ذلك وصمم الأمير إبراهيم على الزحف والقتال ونادى في عسكره بحضرة المسيو كاليه بالمسير وعبور جبال الطورس واصلاء نار الحرب ما استطاعوا إليها سبيلاً فمانعه المسيو كاليه وما زال حتى رسم إلى كبار جنده بأن لا يتجاوزوا سلسلة تلك الجبال ولكنه مع ذلك لم ينكف عن تدويخ وإرجاع سائر من خرج عن طاعته ولم يتعرض لفتح شئ من البلاد الثابتة على طاعة السلطان وسير إلى أبيه كتاباً يقول: جاءنى أمركم الكريم على يد المسيو كاليه أحد كبار ديوان السياسة الإفرنسية والذى أحيطكم به علماً أنه لما استولى حافظ باشا مقدم العساكر السلطانية على مدينة عنتاب قد صممت بعد الاتكال على الله سبحانه وتعالى على

إرجاعها وسرت بجيوشنا المظفرة إلى مواقع العدو فوافانى أمركم الكريم بالكف عن القتال وترك الحرب والنزال إلى حين ولما كان الصعيد الذى قد نزلناه ليس فيه من المؤن والزاد ما يكفى بحاجة العسكر ولا من الكلا ما يفى بمؤنة دواب الحمل وخيول الفرسان وكان بقاؤنا فيه أشد خطراً علينا من لقاء العدوّ وكان أقرب بلد من ذلك الصعيد هو حلب الشهباء فقد سرنا إليه فشاهدنا من تأهب العدوّ واستعداده لصدنا وإصلائنا ناراً حامية ما اضطرنا إلى تركه والمسير نحو عنتاب ومرعش وهذا ما دفع بنا إلى التقدم إلى الأمام والسلام ورحمة الله وبركاته، وأما المسيو فوتز رسول دولة الفرنسيس إلى دار السلطنة فإنه لم يفلح فى رسالته ولم يتمكن من إقناع السلطان بالعدول عن الحرب وفتح أبواب الصلح وأقام أياماً لم ينل فيها مأرباً فاستعان باللورد بونسنبى سفير الإنجليز بدار السلطنة فلم يعنه واتهم السلطان دولة الفرنسيس بالتحزب مع محمد على باشا والعمل على إرغام السلطان وفعل كل ما يحط بقدر الدولة ويذهب بكرامتها.

(مطلب)

وقوع رشيد باشا صدر الدولة أسيرًا في يد الأمير إبراهيم وتمزيق شمل عسكره وما كان من وراء ذلك

واشتد الضيق بالأمير إبراهيم وعسكره وأحدقت بهم العساكر السلطانية من كل صوب وحدب فخاف شر العاقبة سيما وقد كاد يظهر عجزه عن الحركة واستضعفه أهل الأطراف فجعلوا يتخطفون مؤخرة جنده فساق بعسكره يريد التغلغل فى قلب الأناضول واخترق جبال الطورس واحتل إقليم أطنة وما وراءه إلى مدينة قونية ووردت الأخبار بذلك إلى السلطان فكاد يسقط فى يده وكبر كيده ورسم بتسيير رشيد باشا صدر الدولة فى عسكر لرد الأمير إبراهيم فسار رشيد باشا فى عسكره يريد اللحاق بقونية والدفاع عنها وجاء الخبر بذلك إلى الأمير إبراهيم فجمع جيشاً عظيماً من الشام والروم وعجل بالمسير يريد القسطنطينية لملاقاة رشيد باشا فالتقى الجمعان عند قونية واشتبك القتال بينهما وتراسلت القنابل واشتدت النيران وعلت أصوات المدافع وتكاثف الدخان فلم تكن إلا فترة بين الزوال والغروب حتى تمت هزيمة العساكر السلطانية وتمزقت كل ممزق ووقع رشيد باشا أسيراً فى يدى الأمير إبراهيم وكذلك أسر جماعة كثيره من مقدمى العساكر التركية فكانت هذه الوقعة من

أتعس الوقائع وأشدها هولاً على السلطان، واختلف الكُتّاب وأصحاب التاريخ يومئذ في كيفية سقوط رشيد باشا في قبضة الأمير إبراهيم فمن قائل أن ذلك كان باتفاق بينهما ومن قائل بل كان لحسن تدبير حركة الجنود المصرية في ذلك اليوم وحصانة موقفهم ومن قائل غير ذلك وطار الخبر بما جرى على رشيد باشا وعسكره فكان له أشد الوقع في النفوس وسار الأمير إبراهيم بخيله ورجله يريد القسطنطينية فأرسل السلطان إلى قيصر الروس يطلب منه إرسال سفينة حربية وخمسة آلاف من المقاتلين لرد إبراهيم وإيقافه عند حده وشاع الخبر بذلك بين رجال السلطنة فقبحوا هذا الرأى وقالوا لا تحل الاستعانة على قتال المسلمين بالعساكر النصرانية وورد الخبر إلى محمد على باشا فجعل يبالغ في الشكوى ويعظم في البلوى ويكاتب الدول في هذا الأمر وظهر على أثر ذلك حركة في دار السلطنة وتكلم الناس كثيراً فخاف السلطان شر العاقبة وعاد إلى مخابرة محمد على باشا في عقد الصلح وسير في الحال خليل باشا قبطان باشا قبلاً إلى مصر وفوّض إليه الاتفاق على ما فيه المصلحة وكتب إلى سفير الروس يعلمه بأن الحالة الآن لا تستلزم طلب المساعدة وأخذ يعمل الجهد على إرجاع الجنرال موراويف الروسي عن عزم الذهاب إلى ديار مصر والالتقاء بمحمد على باشا فلم يفلح ودخل موراويف إلى الإسكندرية كإشارة قيصر الروس فعمد السلطان حينئذ إلى ملاطفة دولة الفرنسيس واستمالها إلى التحرير أولاً إلى محمد على باشا بوجوب المحافظة على مبادئ الصلح وأسباب السلم التى قد تعهد بالمحافظة عليها وثانيًا إلى الأمير إبراهيم بعدم مبارحة موقفه والكف عن التغلغل بجيوشه في جوف البلاد وقد كان الأمير إبراهيم إلى ذلك الحين لم يكتم عن الناس خطة تسيير جنوده ولم يخف عن الملأ أنه سائر نحو قوطاهيه وبروسا ومنها إلى أسقودار ليجمع هناك مجلسًا من كبار علماء الإسلام ليحكموا بينه وبين سلطانه فكان ذلك موجبًا لقلق السلطان وعدوله عن الاستعانة بدولة الفرنسيس ورجوعه إلى طلب معاونة دولة الروس فسير في الحال كتبه إلى القيصر بأن يمده عند الطلب بعشرين ألفًا من الجنود البرية وخمسة آلاف من العساكر البحرية وعمارة ساوتابول البحرية فعلم سفير الفرنسيس بذلك فكتب إلى الأمير إبراهيم في الحال يقول إياك ومبارحة قونية واحذر شر العاقبة فقد بلغ القنوط من سلطانك مبلغه وجاء الخبر بما فعله السلطان إلى محمد على باشا فكتب إلى ولده يقول: إذا أتاك كتابي وأنت بأية أرض فلا تبرحها ولا تحرّك لك قدمًا حتى يأتيك آخر، وكان الأمير إبراهيم قد بلغ بجيوشه مدينة

قوطاهيه وأرسل محمد على باشا إلى السلطان والى دولة الفرنسيس يخبرهما بخبر ما كتبه إلى ولده الأمير إبراهيم ويقول الباب العالى إن الحامل لولدى على الانحدار إلى قوطاهيه إنما هى حاجته إلى حطب الوقود وغيره من احتياجات العسكر التى لم توجد فى قونية وما زال الحال بين أخذ ورد وخوف ورجاء حتى عاد سفير الروس الذى كان ذهب للالتقاء بمحمد علـى باشا إلى دار السلطنة يحمل بشائر الطمأنينة والسلام حيث أبلغ الباب العالى أن محمد على باشا صرح بخضوعه وطاعته لسلطانه وأنه عبد لمولاه وقد عقد النية عقدًا وثيقًا على فض أسباب الخلاف والاتفاق مع خليل باشا على أمر الصلح بتاتًا، قال بعض الكُتاب: ولم يستعمل الجنرال موراويف فى كلامه مع محمد على باشا شيئًا من الشدة التى أقسم أنه يستعملها معه ولم يسمعه شيئًا من هذر الكلام كما كانت تقتضيه رسالته ولكنه كان إذا اجتمع به لاطفه وهون عليه أمر الصلح وحببه إليه ويقول له إن مولاى القيصر يعلم ما أنت عليه من شرف المبدأ ونبالة المقصد ومكارم الأخلاق فلا تكن سببًا فى زلزلة موقف سلطانك ولا تعمل على فساد ملكه ولا تحدث فى الإسلام حدثًا قل أن تحمد عاقبته واتق الله فى نفسك وولدك وعسكرك، ووصلت كتب محمد على باشا إلى ولده بالكف عن القتال والوقوف عند حد السكون حتى يتم الأمر على ما تشاؤه الأقدار، وما شاعت الأنباء بذلك حتى ورد على قنصل جنرال النمسا كتاب من بابا روميه يسأله الوساطة بين محمد على باشا وسلطانه وكفه عن إراقة الدماء هدراً وكأنه لم يعلم بخبر ما وقع الاتفاق عليه بين محمد علي باشا والجنرال موراويف مندوب الروس فأرسل القنصل إلى محمد على باشا خطابًا فى المعنى محشواً بالتهديد والوعيد فلم يلتفت محمد على باشا إليه ولم يفلح القنصل فى شئ ألبتة.

(مطلب)

قدوم مندوب الباب العالي إلى مصر
بفرمان العفو عن محمد علي باشا وولده

ووصل خليل باشا مندوب الباب العالى إلى مصر يحمل الفرمان السلطانى بالعفو عن محمد على باشا وشروط الصلح على قاعدة الامتيازات التى أعطيت إلى محمد على باشا وهى ولاية عكا وطرابلس والشام ونابلس وأراضى بيت المقدس فلاقاه محمد على باشا وسائر رجال حكومته بالحفاوة والتعظيم وأنزله منزلاً رحبًا

وقدّم له التقادم من التحف والأعلاق النفيسة ورتب له المرتبات من المأكول والمشروب ثم رسم بقراءة الفرمان فلم يعجبه ما جاء فيه من الامتيازات حيث لم تكن شاملة لسائر الشامات ولا لولاية آطنة فكلم خليل باشا فى ذلك وطال بينهما الأخذ والرد أيامًا حتى تم الاتفاق على نوال محمد على باشا سائر ما طلبه وسير خليل باشا الكتب بما وقع الاتفاق عليه إلى دار السلطنة، قال بعض الكُتاب ومع ذلك فقد كان السلطان فى ريب من العاقبة فلم يصرف وجهه عن طلب معاونة دولة الروس ولم ينكف عن مكالمة وكيلها فى ذلك من حين إلى حين، قال: وكان الحامل له على ذلك كثرة إرجاف الأمير إبراهيم وإرساله البعوث إلى بلاد آسيا لدس الدسائس وبث الفتن وتحريض الناس على شق عصا طاعة السلطان ولم يمض إلا القليل من الأيام حتى عاد الصدر الأعظم وكتب إلى الدول الكبرى يقول إن أمير المؤمنين جاهر بأنه لم يبق فى إمكانه العدول عن طلب المدد من قيصر الروس والاستنجاد بعسكره على إخراج الأمير إبراهيم وعسكره من جميع أملاك الدولة فى الأقرب العاجل واتفق أن وصل فى عشية ذلك اليوم إلى دار السلطنة مندوب دولة الفرنسيس وقد علم بما سير به الصدر الأعظم من الكتب إلى الدول فاجتمع به وخاطبه فى الأمر طويلاً وحبب إليه أن يكتب إلى دولة الروس بعدم الحاجة إلى إرسال سفن الحرب بعد أن أسفرت مأمورية خليل باشا عن طاعة محمد على باشا ورجوعه إلى مجاملة سلطانه فوعده الصدر الأعظم وعدًا جميلاً وقال لابد من اجتماع مجلس شورى الدولة وطرح هذا الأمر عليه.

(مطلب)

حصول العمارة الروسية إلى البوسفور مددًا إلى السلطان

وبينما كان مندوب الفرنسيس يراقب ما سيكون من وراء اجتماع المجلس إذ وصلت العمارة الروسية تمخر فى عباب البحار وألقت مرساها أمام البوسفور فكانت عشر قطع كبار من الطراز الأول وكانت بعض سفن الحرب الإفرنسية راسية هناك كطلب سفير الفرنسيس فلما رأى ربانها تلك السفن والشوانى الروسية هاله أمر حضورها وسير فى الحال إلى صدر الدولة يقول نظرًا للانقلاب السريع الذى طرأ فى هذه الآونة وتغيير الأحوال عن سابق مجراها صار يعز علىّ البقاء بما معى من السفن إن لم تقلع السفن الروسية وترجع من حيث أتت وأكثرت رسله من التردد على

الباب العالى فى طلب الجواب فكتب إليه السلطان يقول: كتابى إليك أعزك الله وعوامل الاضطراب والقلق المستحوذين على مملكتى تشخص أمام عينى ذلك الودّ القديم الذى يربط بلادى بمملكة الفرنسيس وتدفع بى إلى طلب المعونة والمدد من تلك الدولة القوية العظيمة دولة الفرنسيس الفخيمة فإن أنت هداك الله تعهدت باسم وشرف مملكة الفرنسيس بأن يكون عقد رباط الصلح بينى وبين متبوعى محمد على على قاعدة الشروط التى بلغها إليه خليل باشا عجلت بإرجاع العساكر الروسية ورد سفنها الحربية والسلام، فأجابه ربان السفن الإفرنسية إلى ذلك فلم يسع السلطان يومئذ إلا معاودة ربان سفن الحرب الروسية وأمير جيوشها البرية بالرجوع فما أقلعت تلك السفن حتى سير أمير سفن حرب الفرنسيس رسولين على عجل أحدهما إلى محمد على باشا ليقهره على إرسال كتبه إلى كبار عسكره بسرعة الكف عن الحرب وثانيهما إلى الأمير إبراهيم ليلزمه بسرعة العودة إلى مصر والكف عن كل عداء مع ولاة وعمال السلطان وكتب كبير سياسة الفرنسيس أيضًا إلى قنصلهم بمصر يقول أن شدّد على محمد باشا بالإذعان وقبول شروط الصلح التى وصلت إليه على يدى خليل باشا فإن أطاع وأذعن فبها وإلا فلا مندوحة عن إكراهه.

قال كبير السياسة المذكور فى كتاب بعث به إلى وكلاء دولته لدى سائر الدول بعد كلام طويل: ومن تصفح أدوار هذه الأزمة، يعنى بها الأزمة القائمة ما بين محمد على باشا وسلطانه، مع عدم التحيز حكم بنزاهة دولة الفرنسيس عن الغرض وطهارة ذمتها من أدران التشيع وتحقق نبالة مقصدها فى سائر أدوار هذه الأزمة التى اختلط فيها الحابل بالنابل وكادت تذهب بالشرق الأدنى إلى مهواة الدمار قال ولما كانت دولة الفرنسيس قد أخذت على عهدتها إصلاح ذات البين والتوفيق بين مصلحة الطرفين لم يبق فى وسعها العدول ولا ترك الأمور هدفًا للحوادث ولا غرضًا للغاية الطامحة ولو تطوّح بها الأمر إلى رد القوة بالقوة والسيف بالسيف فإنها لا تلوى عنان الجهد ولا تتقهقر أمام هاتيك العواقب التى قد حسبت لها ألف حساب اهـ.

(مطلب)

تعاقد الحاج محمد عاكف باشا باشكاتب المابين مع سفير الفرنسيس على كيفية إرجاع محمد علي باشا إلى طاعة سلطانه

ورسم السلطان بعد ذلك إلى الحاج محمد عاكف باشا باشكاتب ما بينه بالتعاقد مع سفير دولة الفرنسيس على إرجاع محمد على باشا إلى طاعة سلطانه فتعاقدا ثانى شوّال من السنة على شروط حاصل ما فيها قبول الباب العالى تداخل دولة الفرنسيس بواسطة سفيرها البارون روفارن فى أمر الصلح بشرط أنها تضمن للباب العالى قبول محمد على باشا بالامتيازات التى منحه إياها السلطان بالفرمان المرسل على يدى خليل باشا مشير الطبخانة العامرة وبشرط رجوع محمد على باشا إلى الطاعة والإخلاص لمتبوعه وأن هذه الامتيازات لا تتعدى ولايته على عكا وطرابلس والشام وبيت المقدس ونابلس وأن يتكفل السفير المذكور باسم امبراطور الفرنسيس بعقد رباط الصلح على هذه القاعدة ويتعهد الباب العالى بأن يقرر ويعلن عدوله عن قبول أو طلب كل مدد أجنبىّ أو مساعدة مادية يراد بها الإضرار بمحمد على باشا، وشاع الخبر بما وقع الاتفاق عليه ما بين الحاج محمد عاكف باشا وسفير الفرنسيس وعزم دولة الفرنسيس على قهر محمد على باشا وإرغامه على طاعة سلطانه وتكلم الناس فى الأمر كثيرًا وكتب سفير الإنجليز إلى الأمير إبراهيم يقول، كتابى إليك وعندى العلم اليقين بما رضيه سلطانك من تقرر قاعدة الصلح مع خليل باشا مشير الطوبخانة السلطانية فامتلأ قلبى فرحًا وتحققت آمالى بأنك ستنكف عن تلك الحرب المشؤمة التى كادت تدك معالم المدينة وأنك ترفع سيفك إن شاء الله عن هامة تلك الأرجاء التى قد تولاها الخراب ونزل بها البلاء من كل حدب واعلم أن سلطانك قد منح أباك ولاية الشامات وحلب ودمشق وقد سير إليه فرمان الرضا وفرمان الولاية على يدى رشيد بك قابوجى السلطنة وأمره بالكف عن القتال وأن يكتب إليك بذلك فى الأقرب العاجل وقد ورد الأمر من لدن إمبراطور الفرنسيس إلى سفيره لدى الباب العالى بالمسير مع رشيد بك إلى الإسكندرية ليشرح لأبيك وخامة العاقبة إن هو أغضب دولة الفرنسيس برفض الصلح على قاعدة ما فى الفرمان أما دولة الإنجليز فقد أضحت أميالها وأغراضها واضحة معلومة لأبيك ولا أشك فى أنه لا

يجهل التأثير الذى يحصل للحكومة الإنجليزية إن هو امتنع من الصلح كما أنه عالم بالعواقب التى تكون من وراء هذا الرفض وإنى لا أخالك أيها الأمير ممن يأبى الكرامة فلا تمتنع من الصلح الآن واجعل خاتمة أعمالك السلامة والسلام.

(مطلب)

صدور فرمان السلطان بالعفو عن محمد علي باشا ولده وتوجيه ما قد وجهه إليهما من الرتب وألقاب الشرف

وطير السلطان الخبر إلى الآفاق بالعفو عن محمد على باشا وولده الأمير إبراهيم وبتوجيه ما قد وجهه إليهما من الرتب وألقاب الشرف وأصدر فرمانًا يقول فيه : حيث إن محمد على باشا وولده قد عادا إلى طاعة سلطانهما وأبديا من الإخلاص مالم يبق معه موضع للريب فى حسن المآل إن شاء الله تعالى وقد طلبا العفو عما فات فقد اقتضت إرادتنا السلطانية ومراحمنا الشاهانية العفو عنهما وأصدرنا فرماننا هذا السامى بتأييد ولاية أحدهما محمد على باشا على كريد والديار المصرية كالتماسه وأحسنا إليه أيضًا بالولاية على دمشق وطرابلس وصيدا وصفت وحلب وبيت المقدس ونابلس مع إمارة الحج ونيابة أشقودره وولينا ولده رياسة الحرمين الشريفين مع صنجقية جده وقارئًا التماسه بالإحسان عليه أيضًا بولاية أطنة وملحقاتها وعهدنا إليه جباية خراجها الآن وبناء على ما طبعنا عليه من الرفق والحنان وما خصنا الله سبحانه وتعالى به من الميل إلى إسداء المعروف والإحسان نعلن أصحاب الكلمة وأولى الشأن من العمال والمأمورين ببلاد الأناضول أن يغضوا الطرف عما وقع من سكان تلك العمالات من الخروج وشق عصا الطاعة وأن لا يتعرضوا لأحد لا فى روحه ولا فى ماله ولا فى عياله وأن يعلموا الناس كافة بما اقتضته إرادتنا الشاهانية وسمحت به تعطفاتنا الخاقانية من العفو عن الجميع والصفح عما وقع من الرفيع والوضيع وأن يكونوا من الآن ساكنى الخواطر قريرى النواظر وعلى سائر الولاة والحكام حض الرعية على الالتفات إلى ما فيه خيرهم وإصلاحهم واستمرار الدعاء بتأييد عرشنا بالنصر الدائم والظفر الملازم ولكى يكون فى علم سائر الولاة والحكام وجميع صنوف الرعية من مسيحيين وإسلام ما شملهم من العفو العام والرضا التام قد أصدرنا هذه الإرادة متوّجة بطغرائنا ناطقة بما نحن عليه من حسن النية وسلامة الطوية كى يبسط الكل أكف الضراعة والإبتهال إلى المولى ذى الجلال والإكرام بدوام دولتنا وتأييد سدّتنا وإعزاز شوكتنا بمنه وكرمه اهـ.

فلما شاع خبر هذا الفرمان وذاع رفع الأمير إبراهيم إلى الباب العالى عريضة ضمنها أبلغ ما يكون من عبارات الشكران والامتنان إلى أن قال: ويعلم مولاى أدام الله سلطانه وحرس ملكه وأيد بالنصر أركانه أن العبد ما برح على ما يعلمه فيه مولاه من الطاعة والولاء لسدتكم العلية لا سيما وقد قلدنى المولى أدام الله تعالى وجوده منة العفو وولانى تفضلاً منه وتكرمًا حكم ولاية أطنة وجباية خراجها فلم يبق فى النفس بعد ذلك شئ والله سبحانه على ما أقول شهيد وها أنا العبد باسط أكف الضراعة والابتهال بأن يديم أيام ملككم غرّة فى جبين الدهر وليعلم مولاى أنى قد وطنت النفس على خدمة الأعتاب الشريفة بما فى الطاقة والله خير مسئول يوفقنى إلى طاعتكم بمنه وكرمه إنه السميع المجيب، قال بعض الكُتاب: ومع هذا فإنه لم يمض القليل من الأيام حتى جاءت الأخبار إلى دار السلطنة تترى بزحف الأمير إبراهيم بجيوشه وآلات حربه إلى قلب آسية وأنه ترك قونية وهو على قدم المسير إلى بروصاه فاندهش السلطان من سماع هذه الأنباء وظنها مبالغة ووقيعة فلم تكن إلا أيام حتى ثبتت صحتها وجاءت الكتب بذلك إلى الباب العالى فسير السلطان فى الحال إلى سفير الفرنسيس من يكلمه فى أمر ذلك فاندهش السفير وكتب إلى الأمير إبراهيم يقبح ما فعله ويحذره شر العاقبة ويمنعه من التغلغل فى داخلية البلاد فرد عليه الأمير إبراهيم يقول إن الحاجة إلى الماء والميرة وحطب الوقود وعدم وجود شئ من ذلك ألبتة بقونية واتقاء برد الشتاء وتفشى الأمراض فى الجنود المصرية كل ذلك كان الحامل لنا على المسير إلى بروصاه وأنا مازلنا على قدم الطاعة والولاء لأمير المؤمنين وواقفين عند حد ما رسمه لنا محمد على باشا فلا تصغوا إلى وشاية الواشين ولا تلتفتوا إلى غواية الغاوين وأعرضوا عن كل قول هراء فإن العدوّ ما برح يدس السم فى الدسم ويتمنى لو أن الدهر يرمى كياننا بالعدم فالله والسلام.

(مطلب)

اشتداد علة السلطان وما كان من وراء ذلك

واشتدت فى هذه الأثناء علة السلطان محمود وكبر مرضه واستعصى برؤه فاضطربت أحوال السلطنة أو كادت وكثر تحدث الناس فى أسباب علته فمن قائل أنها ذات الجنب ومن قائل أنها ضرب من الهذيان والهزؤ الدائم ومن قائل أنه السل وكانت أخباره كل يوم فى شأن والباب العالى يكثر من نشر بشائر سلامته وعافيته

والناس لا يصدقون ذلك فانعقد مجلس فى السراى السلطانية من خسرو باشا وخليل باشا وسعيد باشا وعزت بك وضيا بك وجعلوا يتشاورون فيما يجب عمله إذا جاءت منية السلطان على عجل وكانت رسل والدة السلطان وولى عهده يغدون ويروحون إلى مقر السلطان وبعد أخذ وردّ بين أصحاب المجلس وقع الاتفاق على أن يكتبوا إلى قبطان باشا سفن الحرب بأن لا يبرح بسفنه كلها من البوسفور والى حافظ باشا مقدم العساكر القائمة بقتال الأمير إبراهيم بإيقاف رحى الحرب حتى تأتيهما الأخبار بما سيكون فكاد حافظ باشا يسقط فى يده وطارت الأخبار بما أصبح فيه السلطان من الخطر وشدد الأطباء فى عدم دخول أحد عليه فلما كان يوم الاثنين تاسع عشر ربيع الأول وقيل سادس عشريه سنة أربع وخمسين ومائتين وألف هجرية أى سنة تسع وثلاثين وثمانمائة وألف ميلادية مات وحيداً فى مخدعه فكانت سلطنته زهاء إحدى وثلاثين سنة وعمره أربعا وخمسين سنة على المشهور، قال بعض الكُتاب: ومن الغريب أن اليوم الذى مات فيه يوافق اليوم الذى تولى فيه السلطنة قال وكان ملكًا مهيبًا مقدامًا عالى الهمة واسع المعرفة كبير الدراية بالأمور صبوراً على الشدائد محبًا للرعية ميالاً إلى العمارية عادلاً بعيدًا عن العسف والجور ولكنه كان قليل الحظ حسن الخط غير موفق كأن الدهر عدوه مغلوبًا على أمره بحكم الأيام فقد خرج فى أيامه كثير من الإيالات ما بين حجازية وشامية ورومية وهو الذى أباد طوائف الانكشارية والأصبهانية ونظم عسكره على نظام الفرنسيس وأنشأ الكثير من سفن الحرب ومعدات القتال وأفرغ الجهد فى إصلاح الأمور ومحو آثار الفتن الداخلية فلم يوفق إلى ذلك لسوء حظه ونكد طالعه والله سبحانه يؤتى النصر لمن يشاء من عباده.

ومات فى أيام السلطان محمود يوحنا بطرك المتأصلين بعد أن أقام ستًا وعشرين سنة ولم يقع له من الحوادث الأجنبية شئ يذكر ولكن قامت عليه النصارى لأسباب نقموها عليه فهرب واختفى مدة ثم استقدموه بعد أن تاب واستغفر ولبث فى منصب البطريكية إلى أن مات فأقاموا بعده مرقس وهو الثامن بعد المائة واسمه يوحنا وكان راهبًا بدير أنطونيوس بالجبل الشرقى وفى أيامه نقلت دار البطريكية من حارة الروم عند باب زويلة بالقاهرة إلى الأزبكية بالدرب المعروف بالدرب الواسع فصارت من حينئذ مقرًا لبطاركة المتأصلين إلى يومنا الذى نحن فيه ثم مات بعد أن أقام ثلاث عشرة سنة فأقاموا بعده بطرس وهو التاسع بعد المائة واسمه مرقوريوس وكان راهبًا بدير أنطونيوس وأصله من بلدة جاولى بصعيد مصر ووقع فى أيامه من الحوادث ما سيذكر فى محله.

الفصل الثاني والعشرون

(في سلطنة السلطان عبدالمجيد خان

ابن السلطان محمود خان)

ثم قام بالأمر بعد السلطان محمود خان ولده السلطان عبدالمجيد بويع له بالملك يوم بموت أبيه سادس عشرى ربيع الأول سنة أربع وخمسين ومائتين وألف هجرية أى سنة تسع وثلاثين وثمانمائة وألف ميلادية تولاها والفتنة قائمة ونار الحرب متأججة والأمور فى خبال ونكال ودول أوروبا فى إقدام وإحجام يوم معه ويوم عليه وكان قيصر الروس لا ينكف عن طلب العمل بمعاهدة خونكار اسكله سى التى تعاقد فيها مع السلطان محمود على الذب والدفاع عن جميع بلاد الدولة واحتلال كل ما يمكن احتلاله منها عند الضرورة وقد تزايد طلبه إلى ذلك بعد استسلام جميع سفن الحرب السلطانية إلى محمد على باشا وفناء أكثر العساكر العثمانية فى الحرب القائمة مع الخوارج وكانت دولتا الفرنسيس والإنجليز تكرهان ذلك من قيصر الروس ولا ترغبان فى أن يكون له عليهما سابقة ولا كلمة وتخشيان أن يكون من وراء تلك المعاهدة احتلال الروس لمدينة القسطنطينية تكون الطامة الكبرى على سائر أوروبا فجعل سفراء الفرنسيس والإنجليز والنمسا والبروسيا يعملون على ما فيه استمالة دولة الروس إلى جانبهم وما زالوا حتى أوعز القيصر إلى سفيره بدار السلطنة بذلك فاجتمعوا بخسرو باشا صدر الدولة يومئذ وتناجوا فيما يصح جعله قاعدة للتعاقد مع محمد على باشا والكف عن القتال وأشار سفير النمسا والإنجليز برد جميع ما فتحه محمد على باشا من البلاد الشامية إلى الدولة وأن لا يعطى إليه إلا ديار مصر فقط فعارضهما فى ذلك سفيرا الفرنسيس والروس وقالا لا بل يعطى إليه ملك مصر وإيالات الشام الأربع وطال الجدال بينهم وما زالوا فى أخذ وردّ حتى وافق سفير البروسيا سفيرى النمسا والإنجليز وقال بقولهما فسقط رأى سفيرى الفرنسيس والروس وتقررت القاعدة بينهم على أن لا يعطى إلى محمد على باشا سوى ديار مصر وأن يؤخذ منه جميع ما افتتحه من بلاد الدولة ثم أشار سفير النمسا بعقد مؤتمر دوليّ إما فى عاصمة النمسا وإما فى عاصمة الإنجليز لإتمام ما بقى متعلقًا بمصر فلم

تصادف إشارته قبولاً وعارضه سفيرا الفرنسيس والإنجليز وكذلك سفير الروس وقال إن مولاى القيصر لا يقبل أن يكون لمؤتمر دولى حق تجديد علاقة مملكته السياسية مع دار السلطنة العثمانية وأنه لا يتنازل عن العمل بما أباحته معاهدة خونكار اسلكه سى من الذب والدفاع عن جميع أملاك الدولة العثمانية بما أعده القيصر من الجيوش البرية والسفن الحربية واحتلال معظم إيالات الدولة إذا لم ينكف الأمير إبراهيم عن القتال والتغلغل فى قلب بلاد الدولة فهال سفيرى الفرنسيس والإنجليز هذا الطلب وخافا شر عاقبته وطلبا من صدر الدولة أن يجيز لمراكب الحرب الإنجليزية والفرنسوية العبور من بوغاز الدردنيل لدفع غارات الروس والمصريين عن بلاد الدولة عند الحاجة وسيرت دولة الإنجليز إلى القسطنطينية إحدى مراكب حربها المسماة ستويفورد للمخابرة مع السلطان فى ذلك وكثر القيل والقال وساء بقية السفراء ما فعله سفير الإنجليز وتجرد سفير الروس إلى المقاومة والإصرار على ما طلبه وسير إلى صدر الدولة يقول إن أباح السلطان لمراكب الإنجليز والفرنسيس العبور من الدردنيل قطعت كل علاقة بين حكومتى ودار السلطنة وخرجت من القسطنطينية بلا مهل، وكانت مراكب الإنجليز والفرنسيس على مقربة من البوغاز تنتظر ما يرد إليها من الأخبار، وأرسلت دولة النمسا إلى عاصمتى الفرنسيس والإنجليز تقول إن ما فعله سفيراكما من الشدة والعنت لا يكون من ورائه إلا فصم عروة الاتحاد وقيام الحرب على قدم وساق ولذلك فهى تصمم على الانسحاب من دائرة ذلك التحالف إذا بقى الحال هكذا وتكون مطلقة اليدين فيما تنوى فعله، وكان السلطان ميالاً إلى إجابة طلب مبعوث الإنجليز فكان خسرو باشا يحبب إليه ذلك فلما اشتد الخصام بين مندوبى الدول وكبرت الفتنة خشى السلطان العاقبة فلم يجب مطالب مبعوث الإنجليز وأوعز إلى الصدر الأعظم بأن يخابر الدولتين فى أمر إبعاد مراكبهما عن الدردنيل ففعل ففشلوا جميعًا وتفرقت كلمتهم وذهب كل إلى مذهب وتعطلت المخابرة أيامًا كثيرة.

(مطلب)

عزم دولة الإنجليز على إكراه محمد علي باشا على رد جميع ما أخذه، واشتداد الخلاف بينها وبين دولة الفرنسيس بسبب ذلك

فلما كان شهر شوال سنة خمس وخمسين ومائتين وألف هجرية سيرت دولة الإنجليز رسولاً من قبلها اسمه اللورد بونسنبى إلى دار السلطنة العثمانية يقول

للسلطان: إن دولة الإنجليز متأهبة لأن تكره محمد على باشا على رد جميع ما اغتصبه من المراكب العثمانية وترغمه إلى الطاعة والإخلاد إلى جميع مطالب السلطان بشرط أن تدخل مراكب الحرب الإنجليزية إلى بوغاز القسطنطينية لدفع الروس إذا اعتدوا على بلاد الدولة فساء ذلك دولة الفرنسيس واستعظمته وأوعزت إلى أمير مراكب حربها الراسية فى بحر الروم بأن لا يعاون مراكب الإنجليز على قتال محمد على باشا ولا يشترك معها فى أى عمل كان وأن يكون دائمًا على قدم التأهب والاستعداد وطيروا الأخبار بذلك إلى الآفاق فعم الخوف وظن الناس أن الحرب بين الدولتين الإنجليزية والإفرنسية صارت على قاب قوسين أو أدنى وأخذت بقية الدول حذرها وكتبت دولة النمسا تقول إنها تأبى التداخل فى هذه المسألة بعد أن خابت سعيًا فى عقد المؤتمر الذى أشارت به وجاهرت دولة الفرنسيس بميلها إلى الذب عن محمد على باشا وتعضيده فى جميع مطالبه وقالت لابد من إعطائه ولايتى مصر والشام له ولذريته من بعده وإقليمى أطنه وطرسوس له مدة حياته فخالفتها فى ذلك دولة الإنجليز وقالت لا يعطى إليه إلا ولاية مصر فقط وأصرت على ذلك فلما رأت من دولة الفرنسيس قرما عنيدا عادت إلى مسايرتها وأشارت بإعطائه أيضاً النصف القبلي من بلاد الشام مدة حياته واشترطت أن لا تكون مدينة عكا داخلة في ذلك النصف فأبت دولة فرنسا عليها ذلك وألحت بقبول مطالبها إذ المصلحة فيها للطرفين وطال الأخذ والرد بين الدولتين أيامًا فكان لا ينكف فيها رسول الإنجليز عن استمالة سفراء الدول الأخرى إلى الأخذ بمشورته حتى ظفر وفاز وكتبت دولتا النمسا والبروسيا تقولان إنهما توافقان على ما أشار به رسول الإنجليز وتعضدان مطالبه فى السر والجهر.

وكانت دولة الروس إلى هذا الحين تراقب الفرص فلما تحققت من اشتداد الفتنة بين دولتى الإنجليز والفرنسيس واختلاف الغاية سيرت إلى عاصمة الإنجليز رسولاً اسمه البارون دى برونو يقول إن دولة الروس تترك للإنجليز حرية العمل فى مصر ولا تأنف من مساعدتهم على إخضاع محمد على باشا بشرط أن تتمكن الروس من وضع جيش فى مدينة سينوب الواقعة على شاطىء البحر الأسود بالقرب من دار السلطنة العثمانية لتيسير الدفاع عن مدينة القسطنطينية إذا زحف عليها الأمير إبراهيم بعساكره فمال اللورد بالمرستون كبير سياسة الإنجليز يومئذ إلى ذلك واستحسنه وحسبه من مسببات الفوز والغلبة وهم بإنفاذه فرأى من استنكار كبار الدولة

وأصحاب الحل والعقد له واستقباحهم إياه ما أقعده فحاول الاستظهار عليهم فلم يفلح فمال إلى المواربة وسأل مبعوث الروس أن يكلم القيصر فى أمر تخليه عن جميع تلك الحقوق الممنوحة له بمعاهدة خونكار اسكله سى من حماية جميع بلاد الدولة العثمانية فإذا تخلى عنها أنفذ له مطالبه وتعاقد معه على ما فيه المصلحة فلم يقبل القيصر ذلك واستنكره وأوعز إلى رسوله بمبارحة عاصمة الإنجليز فرحل عنها وتعطلت المخابرة وأعرضت عنها جميع الدول.

(مطلب)

تأهب محمد علي باشا للقتال بعد أن علم بتألب الدول عليه مع السلطان ما عدا دولة الفرنسيس

وعلم محمد على باشا بما تنويه له دولة الإنجليز من السوء وما صممت عليه من أخذ جميع ما افتتحه من بلاد الدولة وإرجاعه إلى طاعة السلطان ومساعدة جميع الدول لها إلا دولة الفرنسيس وأن لا قدرة لدولة الفرنسيس على الدفاع عنه ومعاداة جميع هاته الدول فعمد إلى التأهب والاستعداد وتجرد للدفاع ما استطاع وأوعز إلى سليمان باشا الفرنسوى بتقوية الحصون والقلاع الشامية جهد الاستطاعة وعلى الخصوص منها قلاع عكا وبيروت ورسم بتكليف جميع أهل الشام بحمل السلاح والتدرب على الحركات العسكرية للقيام بها عند الحاجة واستقدم جميع العساكر المصرية التى كانت فى نجد والحجاز وأهمل شأن تلك الأصقاع وأطلق سراح محمد ابن عون شريف مكة وقد كان محجوراً عليه بالقاهرة فسار إلى مكة وجعل يتصرف فى أمورها على ما تقتضيه مصلحته وأنفذ إلى ولده الأمير إبراهيم بالالتفات والأخذ بأسباب الحزم فبالغ الأمير إبراهيم فى ذلك وبث العيون والأرصاد وحاسب أهل الشام على الذرة والبرة فانكمشوا وانكفوا وأخلد كبارهم إلى الطاعة خوفا من جبروته وبقى الحال هكذا إلى أوائل سنة ست وخمسين ومائتين وألف هجرية وإذا بدولة النمسا قد عادت إلى الإلحاح بطلب عقد المؤتمر فى مدينة فينا لفض جميع المسائل المتعلقة بمصر ومنع جميع القلاقل المترتبة على بقاء هذه المسألة عرضة لأغراض الدولة وسبباً لوقوع التخاصم بينهم فأجابتها الدول حينئذ إلى عقد المؤتمر بلندن عاصمة الإنجليز وحضره مبعوث من دار السلطنة العثمانية بناء على طلب دولة الفرنسيس فلم يتفقوا على حال من الأحوال وأصرت كل من دولتى الفرنسيس

والإنجليز على ما طلبته ثم انصرفوا على غير طائل وتعطلت المخابرة ووقفت عند حدها الذى كانت عليه.

(مطلب)

قيام تييرس كبير سياسة الفرنسيس لنصرة محمد علي باشا وتعاقد الدول على العمل ضد محمد علي باشا

واتفق بعيد ذلك بقليل أن تولى الموسيو تييرس رياسة الحكومة الفرنسوية وكان يكره أن تحل المسئلة المصرية جميع الدول ويرغب أن يكون حلها بينه وبين السلطان مباشرة فما استقرّ به المنصب حتى سير إلى السلطان من يعلمه بوجوب ترك إيالات الشام ومصر إلى محمد على باشا وذريته من بعده ويتوعده بقيام دولة الفرنسيس للذب والدفاع عن محمد على باشا إن أبى عليه ذلك وسير أيضاً إلى محمد على باشا يمنيه بالأمانى الطويلة ويحضه على نبذ مطالب دولة الإنجليز وعدم الالتفات إليها وأن يثابر على الجد والاجتهاد وتقوية الحصون والقلاع الشامية وأنه سيأتيه المدد من عسكر الفرنسيس إذا هم الإنجليز بإكراهه على قبول ما لا يحب فتقوت عزائم محمد على باشا قيل: ولكنه كان يحسب ما وراء تألب بقية الدول على معاكسته فكان كثير الوساوس شديد الهواجس بعيد النظر فى العواقب فلما علم اللورد بالمرستون كبير سياسة الإنجليز بما فعله تييرس صاحب سياسة الفرنسيس تجرد إلى المقاومة وعمد إلى إغراء دولة الروس والنمسا وبروسيا على التحالف معه على صد إغارات الأمير إبراهيم ورد جميع ما أخذه من البلاد الشامية وإرجاعه إلى طاعة سلطانه وما زال بهم حتى أفلح وتعاقدوا معا على هذا العهد :

أولاً: إلزام محمد على باشا بإرجاع جميع ما أخذه من بلاد الدولة ما عدا الجانب القبلى من ولاية الشام دون مدينة عكا.

ثانياً: محاصرة السفن الإنجليزية والسفن النمساوية للموانى الشامية ومساعدة جميع من أراد من أهل الشام على خلع طاعة الأمير إبراهيم والخروج على العساكر المصرية لإشغالهم عن مقاومة سفن الدولتين.

ثالثاً: دخول سفن روسية وإنجليزية ونمساوية إلى بوغاز القسطنطينية للذب عن المدينة إذا اتصلت بها العساكر المصرية.

رابعاً: عدم جواز عبور سفن إحدى الدول المذكورات بوغاز القسطنطينية ما دام الأمن مستتبا فى المدينة.

خامساً: وجوب تصديق الدول الثلاث المذكورات على هذا العقد فى مدة لا تتجاوز الشهرين وأن يكون هذا التصديق فى مدينة لندن.

وأضافوا إلى هذا العقد صكا موقعا عليه من مبعوث دار السلطنة فيه بيان لما وقع الاتفاق على إعطائه إلى محمد على باشا من الحقوق، قال بعض كتاب الأخبار: وعز على كبير سياسة الإنجليز الصبر فعمد إلى دس الدسائس وإثارة الفتن بين أهل لبنان وأوعز إلى سفيرهم بدار السلطنة أن يعجل فى ذلك فسير السفير ترجمانه المدعو (وود) إلى الشام فوصلها ولم يلبث بها أياماً حتى ظهرت الفتنة وعمت البلاد وخرج الشاميون على الأمير إبراهيم وامتنعوا من دفع الخراج وحمل المؤن للجند فركب الأمير إبراهيم وسليمان باشا الفرنسوى والأمير عباس على أهل الثورة وقاتلوهم حتى أخضعوهم وأرجعوهم إلى الطاعة صاغرين وجاء المدد من مصر فتقوت عزائم المصريين ونالوا من الشاميين وأطفئوا نار الثورة وبالغ سليمان باشا فى تحصين مدينة بيروت وجعلها على أهبة الدفاع وشحنها بالمؤن والذخيرة وأنشأ القلاع والحصون بالثغور والمدن وتأهب لصد الأعداء برا وبحرا وأرسل إلى محمد على باشا يطلب المدد من طريق البحر فعلم كبير سياسة الإنجليز بذلك وأوعز إلى الأمير نابير من أمراء سفن الحرب الإنجليزية بالوقوف بسفنه فى طريق الشام والإسكندرية وإحراق كل ما يلاقيه من السفن المصرية وأسر ما يمكن أسره منها فأحس كبير السياسة الفرنسوية بذلك فسير فى الحال مركبا إلى مدينة بيروت لتخبر قائد الجيوش المصرية بالخبر وجاء النبأ إلى محمد على باشا فأزعجه واسترجع ما كان قد سيره من تلك السفن ووصلت السفن الإنجليزية مع نابيير إلى الإسكندرية فلم تعثر فى طريقها على واحدة من السفن المصرية.

ولما كان خامس عشر جمادى الأولى سنة ست وخمسين ومائتين وألف هجرية تم توقيع الأحزاب على معاهدة لندن وصدق عليها السلطان فصار معمولا بها من ذلك اليوم ولم يمض عليها شهر حتى أبلغها قناصل الدول المتعاهدة إلى محمد على باشا وعرضوا عليه ما اتفقت عليه كلمة دولهم من إعطائه ولاية مصر له ولذريته من بعده وولاية نصف الشام بما فيها عكا مدة حياته ثم تردّ إلى مملكة السلطان بعد موته وضربوا له أجلا عشرة أيام قيل فأزعجه هذا الحال وأحزنه ومضى الأجل المضروب

فلم يجب إلا بالسلب والامتناع وعدم التسليم فى شىء مما تطلبه الأحزاب فأخبره القناصل بأن امتناعه عن قبول ذلك قد أسقط حقه أيضاً فى أخذ مدينة عكا مدة حياته وصارت الدول لا تسمح له بشىء سوى ولاية مصر فكبر غيظه وراجعهم فى الكلام فقالوا لا سبيل إلى غير ذلك وقد أمهلناك عشرة أخرى فأصر على الامتناع وانقضت المهلة ولم يجبهم فسيروا الأخبار بذلك إلى دار السلطنة ولما ضربوا له الأجل الأول ولم يجب رسم السلطان بعقد مجلس فى دار شيخ الإسلام حضره المشايخ والعلماء وأصحاب المراتب العالية وتناجوا فى امتناع محمد على باشا وتأهبه للذب والدفاع فبعد أخذ ورد أفتى الشيخ بسقوط حكم محمد علي باشا من الشام وخلعه وقرئت هذه الفتوى في سائر مساجد دار السلطنة وورد الخبر بما جرى إلى محمد علي باشا فأرسل إلى السلطان يقبح ما أفتى به شيخ الإسلام ويقول: إما ولاية مصر فهى من حقوقى وحقوق أولادى الوراثية وأما الشام فلا أتخلى عنها بعد الذى أرقته فيها من الدماء وصرفته من الأموال الطائلة.

(مطلب)

إطلاق سفن الإنجليز القنابل على بيروت وسائر السواحل الشامية، وما كان من وراء ذلك

وجاء الأمر إلى نابيير أمير سفن الحرب الإنجليزية بالتأهب لإطلاق المدافع على بيروت وجميع السواحل الشامية وأخذها من أيدى المصريين فسار بسفنه قاصدا بيروت وأخذ فى طريقه كل ما صادفه من مراكب التجارة المصرية ولحق به أيضاً الأميرال ستفورد ومعه ثمان سفن حربية من القطع الكبار ولحقتهم التجريدة العثمانية من قبرص وهى زهاء ستة آلاف مقاتل تحملها ثمان وعشرون قطعة من سفن النقل الإنجليزية ومقدمها الأمير واكر وأرسى نابيير سفنه أمام حصون بيروت وأرسل إلى سليمان باشا الفرنسوى مقدم العساكر المصرية بها يعلمه بسرعة التخلى عن المدينة والجلاء عنها وسير إلى من بعكا يخبرهم بذلك أيضاً وطير الأخبار إلى الآفاق بما تقرر شرعا من خلع محمد على باشا وتنزيله عن ولاية الشامات وحض أهل الشام جميعا على الخروج وشق عصا طاعة الأمير إبراهيم فبدأت عند ذلك تظهر علامات الوحشة بين الفريقين وأخذ كل حذره وجعل سليمان باشا يرتب عسكره ويزيد فى تحصين القلاع والحصون ويبعث البعوث إلى بقية الثغور للحض على اليقظة

والالتفات وأرسل محمد على باشا إلى الموسيو تيرس كبير السياسة الفرنسوية يستنهضه إلى الوساطة فى الأمر والرجوع بالأحزاب إلى اللين وترك الشدّة فتجرد الموسيو تيرس إلى ذلك وبالغ فى الإرهاب وجعل يتأهب ويحشد الجيوش ويعدّ المعدات للذب والدفاع عن جميع مطالب محمد على باشا. قال بعض كتاب الأخبار: ولكنه رأى أنه فى حاجة إلى شىء من السلاح والذخيرة لفراغ المخازن منها يومئذ وأنه ينقصه أشياء أخرى من معدات الحرب فكاد يسقط فى أمره وشاع الخبر بذلك بين الفرنسيس فقاموا على كبير سياستهم وقبحوا فعاله ونادوا بالويل والثبور ورموه بالخيانة والغدر ووسموه بالكذب والفجور حيث حرض محمد على باشا على مقاومة الأحزاب وشق عصا طاعة سلطانه ثم عاد فتخلى عنه عند شديد الحاجة وجعلوا يطوفون جماعات حول بيته وهم يهزءون ويسخرون به ويصيحون فكبر عليه الأمر واستعظمه وأنزل نفسه عن منصب الرياسة واعتزل موقف هذه السياسة فى سلخ رمضان سنة ست وخمسين ومائتين وألف هجرية وجاء الأمر إلى أمير سفن الحرب الفرنساوية التى كانت راسية يومئذ على مقربة من بيروت بسرعة العود إلى جزائر اليونان ثم إلى بلاد الفرنسيس فأقلعت من فورها وتركت الشام ومصر هدفا لرمى قنابل سفن الأحزاب فعدّ ذلك لدولة الفرنسيس من الغلطات المسوّدة لوجه تاريخ حسناتها فى ديار مصر وهكذا سياستها عند اشتداد الكروب وتفاقم الخطوب ومثل هذا سواء بسواء ما فعلته مما نجم عن ظهور الثورة العرابية كما سيتلى عليك فى محله إن شاء الله.

ولما كان الخامس عشر من رجب الفرد سنة ست وخمسين تقدمت سفن نابيير الإنجليزى نحو حصون بيروت ورمتها بالقنابل وراسلت الرمى لحظة ثم انكفت وأرسل نابيير إلى سليمان باشا الفرنسوى يقول له: أن تخل عن الحصون وانجل بعسكرك عن المدينة قبل أن أدكها عليكم دكا فأرسل إليه سليمان يقول: لن تدخلوها إلا خرابا بلقعا ولم نسلم لكم فيها وفينا رجل وكان قد سير إلى الأمير إبراهيم فى بعلبك أن ينحدر إلى بيروت بمن معه من العساكر والأجناد فحضر ونصب خيامه ظاهر بيروت وباتوا ليلتهم ثم أصبحوا وقد اقتربت جميع السفن من المدينة وأطلقت عليها القنابل واشتدت فى القتال شدّة بالغة حتى أحرقت المدينة ودكت أسوارها وتقدم الأرشيدوق فردريك أمير سفن الحرب النمساوية بمركبه وأطلق مدافعها على بيت المرضى من العساكر والأجناد المصرية وكانت عليه راية سوداء إشارة إلى أنه

بيت المرضى فلم يحفل بهـا وأطلق على جدران ذلك البيت القنابل حـتى دكه على من به من المرضى ولم تأخـذه شـفقـة ولا حنان وهم يقـولون بأنهم أنصـار المروءة وإخوان الرحمة وتمكن نابيـير من تنزيل طائفة من العساكر العثـمانية والإنجليزية إلى بيروت وسير بعض السفن إلى عكا وبقية الـثغور فدمرتها بنيران المدافع وأصلت من بها من المصريين نارا حامـية، وانتقض أهل الشام ولبنان وخان الأمير بشـير الشهابى العهـد واليمين الذى حلفه للأمـير إبراهيم فاشتـدت نار الفتنة وعمت جمـيع البلاد وصار المصـريون بين منتطح عنزين وتساقطت عليـهم نيران الأعداء من البر والبـحر فانجلى من بقى منهم عما كان بأيديهم من القـلاع والحصون وخرجوا وهم فى أسوأ حال لا مؤن ولا زاد ولا دواب للحمل إلا القليل وتبعهم الشاميون يتخطفون ساقهم ويمنعون عنهم الواصل من الماء والميرة فـاشتد بهم الجوع شدة بالغة فـأكلوا جميع ما كان معـهم من دواب الحمل حتى أكلوا جذوع الأشـجار وما صادفـوه من الحشيش اليابس وشربوا بول البهائم وفشا فيهم الموات بالحميات الخبيثة وما زالوا يجدّون السير ويدافعون عن ساقهم والعدو من خلفـهم حتى وصلوا إلى حدود الديار المصرية وقد ذاقوا مرارة التعب وقاسوا شديد النصب وتحملوا ما تكل عن وصفه الأقلام ولا تحيط بنعته الأوهام وتركوا تلك الديار التى ترطب أديمـها بدماء إخوانهم حينا من الدهر، وسار نابيير بست من سـفنه الكبار إلى الإسكندرية ورسا أمام مقر مـحمد على باشا برأس التين وأرسل إليه يطلب تنازله عن جميع الحقوق التى تقررت بمعاهدة كوتاهيه فأبى محمد على باشا ذلك فأغلظ نابـيير فى القول وشدد فى الطلب وتهدده بحرق الإسكندرية ويخلعـه من منصب الولاية على مصـر أيضاً إن هو أصر عـلى الامتناع والعناد وضرب له أجلاً ضـيقا وأرسل يقول: إن مضى الأجـل ولم توقع على عقد التنازل أحرقت المدينة وجعلتها رمادا فكبر الأمـر على محمد على باشا وأحزنه جداً وترددت الرسل بينه وبين محمد على باشا عـسى أن يصلوا إلى أمر فيه المصلحة فلم يفلحوا وأبي نابيـير إلا ما أراد فأجـابه محمد علـي باشا إلى ما طلب فأقلع نابيـير بسفنه راجـعا إلى دار السـلطنة وعـاد محمـد على باشا إلى الشكوى فـرفع أمره إلى دولتى الفرنـسيس والروس وشكا مما فعلـه نابيير فـعمدت الدولتـان إلى إبطال ذلك العقد وعملنا جهد الاستطاعة على إحباط مـساعى دولة الإنجليز نظرًا لتفردها بالعمل وتجاوزها حد الوساطة وشددنا فى ذلك وكادت الروس تـتحد مع الفرنسيس على ما فيـه الإضرار بالدولة العـثمـانية فخـشى السلطان شر العـاقبـة وعمد إلـى الملاطفة

والمجاملة وأنفذ إلى محمد على باشا بأن تكون ولاية مصر فى عقبه وللسلطان أن يختار منهم الأليق فامتنع محمد على باشا من قبول ذلك أولاً ثم عاد فرضى به وتقررت القاعدة بين الفريقين نهائيا وتم الاتفاق.

(مطلب)

وصول فرمان السلطان إلى محمد علي باشا بجعل ولاية الديار المصرية في عقبه، وتحديد حقوق الولاية، وما جاء بعده من الفرمانات

فلما كان حادى عشر ذى الحجة سنة ست وخمسين ومائتين وألف هجرية ورد فرمان السلطان بذلك إلى مصر فأبلغته قناصل الدول إلى باغوص بيك ناظر الخارجية يومئذ ونصه:

قد رأينا بسرور ما عرضتموه من البراهين على خضوعكم وتأكيدات أمانتكم وصدق عبوديتكم لذاتنا الشاهانية ولمصلحة بابنا العالى من طول اختباركم وما لكم من الدراية بأحوال البلاد المسلمة إدارتها لكم من مدّة مديدة لا يجعلان عندنا ريبا بأنكم قادرون بما لكم من الغيرة والحكمة فى إدارة شئون ولايتكم على الحصول من لدنا الشاهانى على حقوق جديدة ونظراً لتعطفاتنا الملوكية وثقتنا بكم فلابد أنكم تقدّرون إحساساتنا إليكم حق قدرها وتجتهدون فى بث هذه المزايا التى التزمتم بها إلى أولادكم ولذلك قد صممنا على تثبيتكم على ولاية مصر وسلمنا لكم زمامها حسب الحدود المبينة بالخريطة المرسومة لكم من لدن صدر دولتنا الأعظم وقد منحناكم فضلاً عن ذلك الولاية بطريق التوارث بالشروط الآتية.

عندما يخلو منصب الولاية المصرية تعهد الولاية إلى من تنتخبه سدّتنا الملوكية من أولادكم الذكور وتجرى هذه الطريقة فى حق أولاده أيضاً إلى ما شاء الله فإذا انقرضت ذريتكم الذكور فلا حق لأولاد بناتكم الذكور فى الولاية وإرثها ومن وقع عليه من أولادكم الانتخاب للولاية على ديار مصر بالإرث من بعدكم وجب عليه الحضور إلى دار السلطنة لتقليده الولاية بشرط أن حق التوارث الممنوح لكل والٍ منه لا يمنحه رتبة ولا لقبا أعلى من رتبة سائر الوزراء ولقبهم ولا حقا فى التقدم عليهم بل يعامل بنفس معاملتهم وجميع خطنا الشريف الهمايونى الصادر عن كل خانه وكافة القوانين الإدارية الجارى العمل بها أو تلك التى سيجرى العمل بها فى جميع

ممالكنا العثمانية وجميع العهود المعقودة أو التى ستعقد فى مستقبل الأيام بين بابنا العالى والدولة المتحابة يجب العمل بها جميعها فى ولاية مصر أيضاً وتحصيل جميع الأموال والضرائب المفروضة على أهل مصر بإسمنا الملوكانى.

ولكى لا يكون أهل مصر الذين هم من بعض رعايا بابنا العالى معرّضين للمضار والضرائب غير القانونية يجب أن تنظم تلك الضرائب بما يوافق حالة ترتيبها فى سائر الممالك العثمانية ويرسل إلى خزينة بابنا العالى العامرة ربع الإيرادات الناتجة من جميع الرسوم الجمركية ومن بقية الضرائب التى تتحصل فى سائر الديار المصرية ولا يتأخر منه شىء ألبتة والثلاثة أرباع الباقية تبقى لولايتكم للقيام بنفقة التحصيل والإدارة والعسكرية ونفقات الوالى وأثمان الغلال التى تقوم مصر بتسييرها فى كل عام إلى الحرمين الشريفين ويبقى هذا الخراج مستمرا أداؤه على هذا الوجه مدة خمس سنوات تبتدىء من عام سبع وخمسين ومائتين وألف هجرية ويصبح تعديل ذلك بطريقة أخرى فى مستقبل الأيام تكون أكثر موافقة لحالة الإيالة المصرية ونوع الظروف والمناسبات التى تطرأ عليها.

ولما كان من واجب بابنا العالى الوقوف على مقدار الإيرادات فى كل عام وكيفية تحصيلها لا سيما تحصيل العشورى منها وجباية بقية الضرائب وكان الوصول إلى معرفة هذا كله يستلزم تعيين عمدة يخول حق المراقبة على جميع أعمال إيالة مصر فينظر فى ذلك فيما بعد وسيتقرر ما يوافق إرادتنا السلطانية ونظراً لأهمية طريقة سك النقود ووجوب تقرير قاعدة ثابتة لهذا الأمر المهم كى لا يحدث فيها خلاف لا من جهة العيار ولا من جهة القيمة فقد اقتضت إرادتنا السلطانية أن تكون جميع النقوذ من الذهب والفضة التى يجوز لإيالة مصر ضربها باسمنا الشاهانى معادلة للنقوذ المضروبة فى الضربخانة السلطانية العامرة سواء كانت فى العيار أو فى الشكل ولا يكون لإيالة مصر فى أوقات السلم أكثر من ثمانية عشر ألفا من الجند للمحافظة على داخلية البلاد بحيث لا يجوز أن تزيدوا على هذا العدد شيئاً ألبتة غير أنه لما كانت قوات مصر العسكرية هى معدة لخدمة ممالكنا المحروسة أسوة ببقية إيالاتنا العثمانية فلذلك يسوغ أن يزاد هذا العدد فى زمن الحرب بما يرى لزومه ويراعى فى خدمة الجندية بإيالتكم ما هو مقرر ومتبع فى كافة ممالكنا المحروسة وهى بعد أن تخدم الجند خمس سنوات يستبدلون بغيرهم من أبناء البلاد وهذه القاعدة يجب اتباعها فى إيالة مصر بحيث ينتخب ممن يكون فى الخدمة حالا بعد الذين

أمضوا تلك المدة عشرين ألفا فيبقى منهم ثمانية عشر ألفا بمصر والألفان الباقيان يرسلان إلى الآستانة لأداء مدة خدمتهم وحيث إن خمس هذا القدر يعنى العشرين ألفا واجب استبداله سنويا فيطلب فى كل سنة من مصر أربعة آلاف حسب القاعدة المقررة فى نظام العسكرية عند سحب القرعة بشرط أن تستعمل مواجب الإنسانية ونزاهة القصد والسرعة المقتضية فى هذه الأحوال فيبقى فى مصر ثلاثة آلاف وستمائة جندى ممن ينتخبون حديثاً ويرسل منهم أربعمائة إلى الآستانة فمن أتم منهم خدمته سواء كان ذلك بمصر أو بدار السلطنة عاد إلى بلده ولا يجوز طلبه للخدمة مرة ثانية هذا وبما أن طبيعة بلاد مصر وهواءها ربما يستلزم أن تكون أقمشة ملابس عسكرها غير أقمشة ملابس عسكرنا المنصور فلا بأس بذلك إنما يراعى جيداً أن لا تختلف هيئة الملابس والعلائم التميزية ورايات الجنود المصرية عن مثلها من ملابس ورايات سائر عسكرنا المظفر وكذا ملابس الضابطان وعلامات امتيازاتهم وملابس البحرية والعساكر البحرية ورايات السفن المصرية يجب أن تكون كملابس ورايات وعلامات رجالنا وسفننا ويجوز للحكومة المصرية أن تمنح ضابطان البر والبحر إلى حد رتبة الملازم أما ما كان من فوق ذلك فمرجع الأمر فيه إلى إرادتنا الملوكانية ولا يسوغ منذ الآن لوالى مصر أن ينشىء سفنا حربية إلا بإذننا الخصوصى، ومن المعلوم أن الامتياز المعطى من لدنا بوراثة مصر هو معلق بجميع الاشتراطات المبينة آنفا فإذا توقف تنفيذ هذه الاشتراطات كان الامتياز المذكور لاغيا لا عمل له وبناء على ذلك قد أصدرنا خطنا هذا الشريف الملوكانى لتعرفوا أنتم وذريتكم قدر ما جبلنا عليه من الإحسان فتقوموا مع تمام الاعتناء بتنفيذ الاشتراطات المدونة آنفا وتمنعوا عن أهل مصر كل ما يكرهونه وتكفلوا أمنيتهم وسعادتهم وتجتنبوا كل مخالفة لسائر أوامرنا السلطانية مع إخبار بابنا العالى عن جميع المسائل المهمة المتعلقة بالبلاد المعهودة ولايتها لكم .اهـ.

وورد مع هذا الفرمان فرمان آخر بتوجيه ولاية النوبة ودارفور وكردفان وسنار إلى محمد على باشا مدة حياته فقط ثم تعاد بعد موته إلى السلطنة العثمانية فيوليها السلطان لمن يشاء ونصه: حيث قد ثبتم على ولاية مصر بمقتضى ما هو واضح بفرماننا السلطانى الصادر إليكم ووافق إرادتنا الشاهانية توريث ذريتكم من بعدكم مسند هذه الولاية بشروط وحدود معلومة ومعينة فقد قلدتم أيضاً فضلاً عن ولاية ديار مصر إيالات النوبة ودارفور وكردفان وسنار وجميع ملحقاتها الخارجة عن حدود مصر ولكن بغير توارث فبناء على ما هو معهود فيكم من الحكمة والاختيار وما

أمرتم به من التمسك بهما تقومون بإدارة هذه الإيالات وترتيب جميع شئونها بما ينطبق على عدالتنا ويوافق رغائبنا السلطانية مع توفير أسباب السعادة لسائر الرعية وترسلوا فى كل سنة إلى بابنا العالى قائمة ببيان الإيرادات السنوية جميعها.

وحيث إنه فى غالب الأحيان يصير الهجوم من العساكر والأجناد على القرى والبلدان بتلك الأصقاع فيأخذون منها ما يقدرون على أخذه من الشبان الذكور والإناث ويتصرفون فيها بالبيع وغير ذلك نظير مرتباتهم وعلوفاتهم فهذه الفعال فضلاً عما يترتب على استمرارها من انقراض أهالى تلك الديار فإنها من الأمور المخالفة للشريعة الإسلامية المطهرة وكذلك أيضاً ما هو شائع ومستعمل فى جب الرجال أى جعلهم خصيانا لخدمة النساء فإنه من أفظع الأمور التى لا تنطبق على إرادتنا السنية لما فيها من مخالفة مبادىء العدل والإنسانية التى هى من أجل مقاصدنا منذ جلوسنا على عرش الخلافة العظمى فعليكم مداركة جميع الأمور بما ينبغى من العناية والاعتناء ومنع حدوثها فى المستقبل واعلم أنى قد عفوت عن جميع الضابطان والعساكر وباقى المأمورين الموجودين الآن بديار مصر إلا من وصلوا منها بمراكبنا الحربية فاستسلموا وكما قلنا بفرماننا السلطانى المرسل إليكم قبل هذا أنه يجوز لكم منح سائر الضابطان من البرية والبحرية لحد رتبة الملازم فقط فلا بأس من إرسال جدول بأسماء من رتبتم من ضابطان العسكر المصرى إلى بابنا العالى لينال التصديق منا وترسل لكم الفرمانات المثبتة لرتبهم هذا ما اقتضته إرادتنا الشاهانية ووافق رغبتنا السامّية السلطانية فعليكم المبادرة فى العمل بمقتضاه . اهـ.

فلم ير محمد على باشا بدا من الطاعة وخفض الجناح لهذه الشروط على ما فيها من الحيف والقهر وذل النفس بعد الذى نالته عساكره من الفوز والغلبة ولكنه كتب إلى الدول يشكو من جور هاته الشروط وشدة ما فيها من الحجر والتضييق ويسألها الوساطة فى تحديد شروط الوراثة وجعلها لأكبر أولاده من بعده وتحديد مبلغ الخراج وجعله قدرا يحمل فى كل عام إلى الخزينة السلطانية ومنحه حق إعطاء الرتب وألقاب الشرف للضابطان البريين والبحريين إلى رتبة الميرالاى فأجابته الدول إلى ذلك وخابرت السلطان فى الأمر فأجابها إلى ما طلبت وسير إلى محمد على باشا الفرمان بذلك فى عاشر جمادى الأولى سنة سبع وخمسين ومائتين وألف هجرية ونصه:

إن الحضرة الفخيمة السلطانية تلقت ما تعطفت عليها به الدول المتحالفة من

النصائح فى هذه الواقعة أيضًا ولذلك قد منحت محمد على باشا وتكرمت عليه بالامتيازات الآتية بشرط انقياده الانقياد التام إلى جميع الوثائق والمعاهدات المبرمة حالاً والتى ستبرم فى مستقبل الأيام فيما بين سلطتنا العثمانية والدول المتحالفة، قد صار مسند ولاية ديار مصر من الآن فصاعدا ينتقل بالإرث من محمد علي باشا إلى أولاده وأولاد أولاده الذكور بكيفية أن يتولاه الأرشد فالأرشد فيقلده الباب العالي مسند الولاية كلما خلا هذا المسند من وال وقد تنازلت سدتنا الملوكانية عن أخذ ربع إيرادات الإيالة المصرية مقابلة تقرير مبلغ فى كل سنة يحمل إلى خزينتنا السلطانية خراجا وهذا المبلغ سيقرر فيما بعد مع بيان كيفية تحصيله بما يناسب حالة إيرادات البلاد كما وأنه من الآن فصاعداً صار من المرخص لمحمد على باشا أن يمنح من تلقاء نفسه رتب ضابطان البرية والبحرية إلى رتبة الأميرالاى فقط وما زاد عن ذلك يعرض عنه لبابنا العالى أما ما يتعلق بإدارة الإيالة الداخلية التى يجب أن تكون على مثال الإدارة الجارية فى جميع ممالكنا المحروسة فهو وإن كان محمد على باشا لم يتكلم عنها بشىء حسبما يقتضيه الحال من الصراحة مع كونه قد سبق تقرير ذلك بالعقد الملحق لمعاهدة المحالفة ولكن لكى لا يدع الباب العالى سبيلا للدول المتحالفة بالتضرر منه كما لو حدث أن وقع من محمد على باشا فى مستقبل الأيام أمور مخالفة لوجه مهم من الأوجه المستندة على المعاهدة المحكى عنها قد تقرر أن تطلب أولاً الإيضاحات والتقريرات المذكورة من قبلكم كتابة. اهـ.

فقبلت الدول المتحالفة هذا التحوير وأشارت بتأييده فجاء الفرمان بذلك إلى محمد على باشا، ثم ورد فرمان آخر فى غرة جمادى الأولى سنة سبع وخمسين ومائتين وألف بتقرير مبلغ ثمانية آلاف كيس خراجا يحمل فى كل عام إلى الخزينة السلطانية ووقفت المخابرات بين محمد على باشا وسلطانه يومئذ عند هذا الحد.

(مطلب)

وصول سيف ونيشان هدية من السلطان إلى محمد علي باشا

فلما كان رابع عشرى شعبان سنة سبع وخمسين قدم إلى القاهرة رسول من دار السلطنة يحمل سيفا ونيشانا عاليا هدية من السلطان إلى محمد على باشا فأنزلوه فى سراى شبرى واحتفلوا للقائه احتفالا شائقا وعملوا لذلك تشريفا بقلعة الجبل فى

خامس عشرى الشهر اجتمع فيه جميع الأمراء والكبراء ورجال الحكومة والمشايخ والعلماء، قال بعض كتاب الأخبار: ولم تكن هذه الهدايا لتذهب ما علق بخاطر محمد علي باشا من فعال رجال دار السلطنة ولا ما داخله من الحقد على كبير سياسة الإنجليز والبغض لهذه الدولة فقد عملت حتى نالت منه وسلخت عنه الشام والحجاز وغيرهما ولم تبق له إلا ولاية مصر والنوبة وذهبت أمواله ودماء رجاله الذين فتحوا تلك الأصقاع ودوّخوها هدرا وانحصرت حدود مملكته وضاقت حلقة سلطته وألزم بدفع الجزية صاغرا مبلغا قدره ثمانية آلاف كيس ذهبا تحمل إلى الخزينة السلطانية فى كل عام وقل عدد عساكره إلى ثمانية عشر ألفا لا يلبسون الا زى العسكر السلطانى وقيدوا علاقته مع سائر الدول الأجنبية بقيود منها أنه لا يجوز عقد عهود أو استدانة شيء من المال إلا بأمر من دار السلطنة ولا يعطى شيئاً من ألقاب الشرف ونياشين الاعتبار إلا إلى الدرجة الثانية للملكيين ورتبة أميرالاى للعسكريين فخسر بسعايتهم ما لم يكن له فى حساب وقد كانوا يريدون إخضاعه وإرجاعه إلى طاعة سلطانه بغير عهد ولا شرط، قال: وسعوا فى حرمان ذريته من تولى منصب الولاية من بعده تشفيا وانتقاما لأمور نقموها عليه منها أنهم كانوا اشتروا جزيرة عدن من أحد مشايخ العربان مع أرض أخرى متصلة بها بمبلغ من المال وأنشئوا بها حصنًا عظيما لعلمهم ما سيكون لتلك الأرض من الأهمية فى مستقبل الزمان فلما امتدت شوكة محمد على باشا بالفتح إلى خليج فارس وعلت كلمته وكبرت شهرته بتلك الأصقاع خاف الإنجليز على ما لهم من الأملاك الواقعة على شطوط البحر الأحمر فكتبوا إلى محمد على باشا بأن ينفذ إلى عسكره النازلين على تلك الجزيرة بالانجلاء عنها خوفاً من تألب العرب مع العساكر المصرية فيقومون على الإنجليز النازلين بتلك الجزيرة فيكرهونهم على الجلاء عنها فأبى محمد على باشا عليهم ذلك فبقيت فى حوزة جنوده تابعة لمملكته حتى تنازل عنها إلى سلطانه مع مكة والمدينة وجميع الديار الحجازية بغير عهد ولا شرط.

(مطلب)

كف محمد علي باشا عن الحرب
والعناية بإصلاح شئون مملكته

قال الراوى لهذه الحادثة: ونقموا على محمد علي باشا أشياء أخرى غير هذه فكانوا لذلك يظهرون له غاية البغض وينظرون إلى فعاله بعين المقت والحسد

ويخشون عاقبة ظهوره فلم ينكفوا عنه حتى أذلوه وأقعدوه عن كل عمل فانكف عن الغزو والفتح ووقف عند حد العناية بإصلاح شئون مملكتـه وترتيب أمورها على ما تقتضيه مصلحة العباد والبلاد وسالم سلطانه وخليفته وخفض له جناح الطاعة وأظهر له غاية الإخلاص والولاء وسير ولده الأمير محمد سعيد إلى دار السلطنة ليرفع إليه فروض الإخلاص فنال الأمير محمـد من السلطان غاية الألتفات وحسن الوفادة فلما استأذنه بالرجوع إلى مصر أذن له وأهداه كثيـرا من الهدايا والتحف النفيسة والتعابى الثمينة وأحسن إلى من كانوا معـه من الخدم والحشم والأتباع فكان لهذا الصنيع وقع حسن عند محمـد على باشا فتجرد إلى الإصلاح، وكـانت الحوادث المتوالية والمحن المتراكمة قد أمحلت البلاد وكادت تذهب ما بقى بها من آثار العمران فعمد إلى إنشاء المعامل وضبط الصنائع واحتكر تجارة جميع الأصناف وراك الحياكة وجعل لكل شيء ديواناً وكتابا وجعل لكل ديوان لما يتحـصل من غلات البلاد حواصل بكل بلد يأتى إليها الزارعون بما يتـحصل عندهم بثمن مقدر فيخصم منه مـا عليه من الخراج ويباع ما بقى إلى التجار الأجـانب الذين كانوا يأتون إلى ديار مصر ليمتـاروا وأنشأ معامل للحديد وأخرى للقطن وأخرى لـلكتان ومثلها لسائر أصناف الأقمشـة من المقصبات والأحواخ ونحـوها ونظم الشوارع ومهـد الطرق وابتنى المبانى العظيـمة ديارا للعلوم والصنائع وأنشأ بالإسكندرية معملا للسفن وصناعة البحار وكان قد أتى بسفن الحرب والدوارع من البلاد الأجنبيـة وأنشأ بها أيضاً مدرسة لعلم البحـار وأتى لها بالأساتذة من ديار الإنجليز والفرنسيس واستقدم زهاء الألف وخـمسمائة من فلاحى الفرنسيس وفرقهم فى الـبلاد البحرية والقبلـية ليعلموا أهلهـا طرق الزراعة ويبثوا بينهم محبة وخدمـة الأرض ويكثروا من زراعة شجـرة البن واستقدم المسـيو جوميل الفـرنسوى لزراعة القطن وقد كانت إلى ذلك الحين هملا مهملا لا يعرفون لها طريقا ففاز ونجح وكبرت زراعته واتسعت وأتى بنبات النيلة والأفيون وأكثر من غرس الأشجار الكبيرة النافعة وأنشأ الجنـائن والبساتين العظيمة فى جزيرة الروضـة وشبرى والأزبكية وبالغ فى الاهتمـام بأمر الطب وأتى له بالطبيب الشـهير العـلامة كلوت الفرنسوى فـأنشأ مدرسة لـذلك وأخرى للقوابل وعهـد بإدارتها إلى الست جوت الفرنسـاوية وأخرى للطب البيطرى وسلم إدارتها إلى المسيو هامون الفرنسوى وأنشأ ديارا لمرضى العسكر وأهل البـلاد على أحسن مـا يكون من النظافـة والنظام وجـعلهـا تحت نظر المسيـو دوساب والمسيو لبها وقد كان الطب إلى هذا الحين كغيره هملا مهملا وسقطا مرذولا

ليس بين أهل البلاد من يعـرفه بل كانوا لا يعـوّلون إلا على ما تصفه العـجائز ولا يرضون إلا بأقوال المشعوذين والدجـالين فكانوا إذا مرض أحدهم ذهب أهله فطرقوا له الودع والقـول وقاسوا الأثر وحـسبـوا النجم فكل ما قـاله لهم الدجال صـدقوه واعتمدوا عليه ثـم يكتبون له الأحجبة والتعاويذ والتـحويطات الطويلة العريضة التى ربما بلغ طول ورقتها ضعفى طول المريض وربما أضعافا ويبخرونه باللبان وجلد القنفذ والكزبرة اليابسـة ونسج العنكبوت والشب الأبيض والميـعة وغير ذلك وعلقـوا عليه الخرزات وكان لهم عناية عجيبة بالأحجار فكانت عندهم خرزات كل واحدة يزعمون أنها تبرىء من داء فللعين خرزة حمراء يسمونهـا البذلة وللرقبة خرزة بيضاء يسمونها خرزة الرقبة ولهم أحجـار يحكونها للفزعة والحمى يسمونها حـجر الشفاء فإذا لسع أحدهم حكوا له الخرتيت وسقوه ماءه أو وضعـوا له على موضع اللسعة فصا يسمى فص العقـرب وغير ذلك من التـمائم والأحجـبة وخيطان الصـوف وعظام الأموات المعروفة عندهم بعظام الكفرة أو أصبع الكافر، ومن إهمـال أمر الصحة يومئذ اتخاذ الناس المقابر وسط المدينة فكانت بمصر والقـاهرة شيئاً كثيرًا مثل مقـبرة السيدة زينب ومقبـرة القاصد والشيخ عبـد الله والشيخ ريحان وغيرهم بل كـان الكثير من الناس يدفنون موتاهم فى حيشان البيوت وفى المساجد والمدارس الكائنة وسط المدينة، ووقع فى سنة سبع وخمسين ومائتين وألف هجرية وباء شـديد فأمات خلقا كثيرًا حتى أن الأموات كانت تشاهد ملقاة بالأزقة والحارات وبجانب جدران البيوت فى الشوارع ثم انتقل إلى الماشية فأهلك منها شيئاً يفوق الحصر وكاد يفنيها لولا لطف الله.

قال بعض الكتاب: وكما كان الطب مهمـلاً فقد كان كذلك أمر تدبير ماء النيل وحفظ الجسور وبناء القناطر فأتى لها محمد عـلى باشا بالمسيو لينان الفرنسوى فأكثر من بناء القناطر والجسور وسـهل سبل الزراعة ومهد المسالك وأنشـأ القناطر العظيمة الواقعة على رأس مصر السفلى المسماة بالقناطر الخيرية على يدى أحد كبار مهندسى الفرنسيس المدعو المسيو موجيل وهى من أكبر الأعمال الهندسية وأشرفها وهى مفتاح النيل ومغلقه عند فرعيه الشرقى والغربى وعليها حساب رى الإقليم البحرى ونصف الإقليم القبلى وكـان مع موجيل هذا جـماعة من مـهندسى الفرنسيس فـأظهروا فى وضع هذه القناطر أسـرار الهندسة ودقـائق صنعة البناء وكـانت ديار مصـر إلى هذا الحين قـد فقـدت صناعهـا المهرة وأمـست وهى فى حاجـة إلى كل شىء لا سيـما العمارة، أما إهمال النظافة فقد كان شاملا مصر والقاهرة وجميع المدن والبنادر على

اخـتلافـها وكـانت القـاذورات تلقى بجـوانب الحارات وعلى أبواب الأزقـة وتحت الأسبطة وفى أركان الجدران وكان مـا ينشأ من الهدم والأتربة إن اعتنى به ألقى على أبواب المدينة فيصير تلالا فإذا نسفها الريح قام منها فوق البلد سحاب من التراب نتن الرائحة كريه الشم يورث الأمراض المعدية الوبائية فأين سرّحت الطرف فى البلد ترى المجذوم والمجـدور والأبرص والأعمى وغيـر ذلك من بقية الأمـراض، وكانت البلد محاطة بالتلال من كل جانب وكانت ضيقة المسالك والحارات مرتفعة البناء على غير نظام قذرة فلا تتمكن الشـمس من تحويل أشعتها نحو قاع تلك الحـارات لتنقيها من الرطوبات وتحلل ما فيها من النتن ولا الرياح من تجفيفها وكانت تتصاعد على من بها من السكان فتحدث الأمراض الجلدية كالحكة والأجذيمة وغيرها كل هذه الأدران قد طهر منها البلاد وأراح من مصائبها العباد فحسبت له حسنات لا يمحيها كرور الأيام وينال عليها إن شاء الله خير الجزاء من بارئ الأنام.

(مطلب)

ما أصاب البلاد من الضربات السماوية في سنة ثمان وخمسين ومائتين وألف هجرية

ولما كانت سنة ثمان وخمسين ومائتـين وألف هجرية نزل على البلاد جراد كثير فعمها وأهلك زرعها حتى ورق الأشـجار العظيمة وكل نبات أخضر ثم باض وأفرخ حتى غـطا وجه الأرض فوقع الـغلاء وقل وارد الغلال واشـتد الضـيق بالناس وعم البلاء والويل الغنى والفقير وهاجر الناس فراراً من أصحاب الجباية وأعوان التحصيل وقد كانوا انبـثوا فى البلاد لجبـايتها بأمر من الأمـير إبراهيم فكانوا إذا نزح أهل بلد أضافوا مـا عليهم من الخراج على البلد المجاورة لها وشـددوا على أهلها فى الطلب وبالغوا فى إيذائهم فضاق خناق أهل البـلاد وارتفع ضجيجهم وعجيجـهم وأصبحوا وهم بين منتطح كبشين إذهاب الحرث والنسل وإيذاء أصـحاب الجباية فكادوا يشقون عـصا الطاعـة ويخـرجون على عـمـال الخراج وكـان مـحمـد على باشـا يومئـذ بالإسكندرية فلمـا علم بالخبـر اضطرب قـيل فأصـابه بسبب ذلك نوع من الهـذيان وتحقق أن ذلك من فعال الأمير إبراهيم بالرعية فغضب غضبا عظيما وانتقل من مقره برأس التين إلى بيت محرم بك عند المحمودية وأقام هناك أياما وهو يخلط فى القول ويكثـر من النداء على بعض الخـدم ويقول: يالله قـد خـانني القوم فـأيقظوا الفـتنة

وأبغضوا الناس فيّ وبقى على هذا أياماً والناس يقولون بذهاب عقله ولزوم تخليه عن حكم البلاد ثم سار من الإسكندرية إلى القاهرة فى نفر من الأتباع ونزل بقصره بشبرى فأتى إليه أصحاب الوظائف ورجال الدولة فعنفهم وزاد فى توبيخهم رحمة بالرعية فلم يجسر أحد على معاودته.

(مطلب)

زيارة محمد علي باشا دار السلطنة، وما لقيه من حفاوة السلطان به

وتاقت نفس السلطان عبد المجيد لرؤية محمد على باشا فدعاه للحضور إلى دار السلطنة فلبى دعوته وسار فى سنة اثنتين وستين ومائتين وألف هجرية فى قلة من الخدمَ والأتباع ونزل ضيفا على رضا باشا أحد كبار الدولة وكان رضا باشا هذا من ألد أعداء محمد على باشا ثم تمثل بين يدى السلطان فرحب به كثيراً فتقدم ليقبل يده فأمسك بيده ورفعه وأجلسه بجانبه ولاطفه جداً وحادثه ساعة، قال بعض الكتاب: واتفق أنه كان يحادث السلطان يوما فقال له فى أثناء الحديث حفظت يابنى وأحسنت، ثم استدرك أن هذا الخطاب لا يليق بأمير المؤمنين فقال: ليعف مولاى عن زلة عبده فإن حبى لأبناء مصر قد أجرى على لسانى مخاطبة الكبير منهم والصغير بيا بنى، فتبسم السلطان وقال :لا بأس عليك يغفر الله لنا ولك ولبث فى دار السلطنة زهاء ثلاثين يوما أنفق فيها من المال ألف ألف قرش ما عدا الهدايا النفيسة والتعابى الغالية والتصدق على المساكين وذوى البيوتات ثم رحل عنها إلى قوله مسقط رأسه فمكث بها أياما وأنشأ بها مدرسة للفقراء ودارا للمساكين ورحل عنها راجعاً إلى الإسكندرية ففرح الناس كافة برجوعه فرحا عظيما ودقت له البشائر وزينت المدينة ثلاث ليال وكذلك زينت مصر والقاهرة والكثير من المدن وأقام يدبر الأمر ويتصرف حتى كثر هذيانه وقل إدراكه فكان لا ينكف عن النداء على بعض حاشيته لغير سبب وكان سريع الغضب يكره أن يرى ولده الأمير إبراهيم فإذا رآه اضطرب وظهر على وجهه الغضب فأنفذ الأمير إبراهيم إلى دار السلطنة يخبر بأمر أبيه وما وصلت إليه حالته ويعلم أهل المابين بوجوب تخليه عن المنصب فأجابه السلطان إلى ذلك ورسم له بالولاية على ديار مصر وجاءه الفرمان بذلك فقرىء بقلعة الجبل فى مشهد حافل ودقت البشائر وطيروا الخبر إلى الآفاق ونقل محمد على باشا إلى الإسكندرية وكانت أحب البلاد إليه وقد كثر خلطه وكبرت علته.

فلما كان ثالث عشر رمضان سنة خمس وستين ومائتين وألف هجرية في ولاية عباس حلمي باشا الأول مات محمد علي باشا وله من العمر ثلاث وثمانون سنة وقيل أكثر من ذلك وكان ولده الأمير محمد سعيد في صحبته لم يفارقه كل أيام مرضه فبالغ في جنازته ونقل نعشه إلى القاهرة مع التجلة والتكريم في مشهد حافل جداً ودفن بالمقصورة التي ابتناها لنفسه في جامعه الذي أنشأه بقلعة الجبل ولم يكن قد تم بناؤه فحزن عليه أهل القاهرة وسائر البلاد حزنا عظيما لاجتماع القلوب على محبته، وكان رحمه الله أبيض اللون مشربا بحمرة عالي الجبهة أصلعها أسود العينين متوسط القامة جميل الهيئة مع هيبة ووداعة سريع الحركة كثير التفكر إذا مشى يجعل يديه خلفه مثل نابوليون بونابارته بسيط الملبس لا يحب التفاخر ولا الزينة ولا كثرة الحشم والحجاب ميالاً إلى مسامرة كبار الجند ورجال الحرب لا سيما منهم سليمان باشا الفرنسوي فإنه كان يحبه ويجله، قال بعض الكتاب: فكان سليمان باشا يقول لم أتعلق بمحبة أحد غير ثلاثة أبي وبونابارته ومحمد علي باشا وكان محمد علي باشا إذا جلس في مجلسه لا يتقلد السلاح بل يجلس وفي يده علبة السعوط والمسبحة وكان سليم القلب سريع التأثر لا يعرف الكظم سريع الانقياد كريم النفس أبيها سخيّ العطاء واسع التدبير محبا للاطلاع على أخبار الأمم وأحوال الممالك كثير الاشتغال بالسياسة كبير الاهتمام بأحوال الرعية قليل العزم دينا صحيح الإسلام محبا للنصارى لا سيما القبط أهل البلاد قرّب منهم جماعة كثيرة وأخلص لهم فأخلصوا في خدمته وخدمة البلاد فسلم إليهم مقاليد الدواوين وصرفهم في ما وراء بابه فأحسنوا العمل وأحكموا التدبير وكان الأجانب عموما يسمونه بمحيي ديار مصر بعد اندراسها ومبيد طوائف المماليك رحمه الله تعالى برحمته الواسعة وأسكن روحه جنات النعيم.

(مطلب)

(في ولاية الأمير إبراهيم باشا ابن محمد علي باشا)

لما اشتدت علة محمد علي باشا وكثر هذيانه أنفذ ولده إبراهيم باشا إلى دار السلطنة يعلمهم بما آلت إليه حالة أبيه ويسألهم الإجازة بتنزيله عن منصب الولاية وتخليه عن حكم البلاد فجاءه الأمر بذلك في جمادى الأولى سنة أربع وستين ومائتين وألف هجرية فجعل يتصرف في الأمور بالوكالة عن أبيه حتى يأتيه فرمان

التولية فلما كـان منتصف شعبان من السنة قدم إلى القـاهرة مظلوم بيك أحد رجال دار السلطنة ومعـه الفرمان بولاية إبراهيم باشا فقـرىء فى ثامن عشر شعـبان بقلعة الجبل فى مـحفل حافل من كـبار الدولة والعلمـاء والمشايخ والكبراء ودقت البـشائر وطيروا الخـبر بذلك إلى الآفاق فلمـا كان شهر رمـضان سافـر إبراهيم باشا إلى دار السلطنة ليقبل الأعتاب على حكم ما فى فـرمان الولاية فأكرم السلطان لقاءه وأحسن وفادته ولبث أيامـا ثم عاد فوصل الإسكندرية فى عاشـر شوال من السـنة وهو يشكو من مرض فى الباطن ومـا زال يشتد به المرض حتى مات ثالث عشـر ذى الحجة سنة أربع وستـين ومائتيـن وألف هجرية أى سنة سبع وأربعـين وثمانمائة وألف مـيلادية فلازم أهل مصر والقاهرة الحداد عليه أربعين يوما ودفن بالإمام الشافعى وكان جليل القدر مهيبا حازما واسع الفكر عظيم التـدبير شديد البطش سريع الغضب جبارا قرما عنيدا صبورا على الحروب جسورا راسخ القلب موفـقا يحسبه العدوّ بألف مقاتل فى قومه، وكان لما عـاد من حروبه فى آسيه الصغرى وتم عقـد الصلح بين محمد على باشا وسلطانه عـزم على السفر إلى بلاد الفـرنسيس للاطلاع على ما فيـها من فنون القتال وأسرار الحروب فـسار معه سليمان باشا الفرنسوى ورافقـهما الدوق نيمورس والأمير جوانفيل فلما وصل إلى عاصمة الفرنسيس قوبل بغاية التجلة والاعتبار وكان ينتظره أحد كـبار الأسطبل الملوكى وقيل أحد كـبار الدولة ومعه فـرس عربى مطهم بسرج من السـروج الكليمانيـة قد أعد لركـوبه فقدمه إليـه فركبـه وسار بين مظاهر الاحتفـال والاحتفاء وكان هذا الفرس لإبراهيم بـاشا وقد شاهد معه جـميع الوقائع والحروب فى الشام وآسيه الصغرى ودخل به مدينة نـصيبين ظافراً منصورا بعد فتكه بالعسكر الـسلطانى فسيـرّ به محمـد على باشا بعـد ذلك هدية إلى قصـر التويلرى بعاصمة الفرنسيس ومعه تسـعة من السوّاس المصريين ولبث إبراهيم باشا بباريز أياماً أولمت له فيها الولائم العظيمة وكانوا يضعون له فى كل مأدبة أو وليمة كرسيا موجها إلى جهة الشرق إشارة إلى أنه نابغة الشرق ومحيى دياره بعد الاندراس وكانت آلات الطرب والموسيقات تكرر بحضرته نغمات النصر وتردد أدوار الظفر والألحان الحماسية إشارة إلى الوقائع والحروب التى اشتهر بها وفاز فيها بالنصر والغلبة، وجال فى باريز وشاهد ما فيها من الغرائب وتصدق على فقرائها بثمانية وأربعين ألف قرش وسيرت إليه ملكة الإنجليز تدعوه لزيارة بلادها فاعتذر ولم يشأ الذهاب لبغضه لكبار الإنجليز وبارح ديار الفرنسيس إلى عـاصمة البرتغال فـأحسن ملكها وفادته واحتـفل لقدومه

احتفالاً شائقا وأهداه نيشان الصليب الأكبر ثم عاد إلى مصر وعاد فى ركابه سليمان باشا.

(مطلب)

فى من هو سليمان باشا الفرنسوى

وقد سمعت بعض الناس يقولون إن سليمان باشا هذا كان فوضويا ميالاً إلى الثورة وقلب هيئة الحكومات فلما اشتهر خبره بين كبار الفرنسيس خافوا منه فأقصوه إلى البلاد البعيدة فجاء هارباً إلى مصر ودخل فى خدمة محمد على باشا وتقلب فى الوظائف العسكرية حتى حاز الرتب العالية والألقاب السامية واعتنق الديانة الإسلامية تزلفا واسترضاء فجعلت أبحث عن ترجمة حاله وأسأل عن صدق أخباره ممن كانوا معه وساروا فى ركابه إلى معامع الحروب ومشاهد القتال فلم أعرف منهم إلا ما عرفه العامة وتحدثوا به وما زلت أبحث حتى عثرت على ترجمته لأحد كتاب الفرنسيس فنقلتها عنه وهى، هو سيف بن أوكتاف جوزيف انتلم الطحان ولد بمدينة ليون من أعمال فرنسا فى أوائل شهر أبريل سنة سبع وثمانين وسبعمائة وألف ميلادية أى سنة إحدى ومائتين وألف هجرية وكان له جد قوى الجأش شديد البأس طاغية قاسى القلب يلقب بالتركى لقساوته وسكون قلبه وكان سيف المذكور مولعاً بالحروب ميالاً إلى الغزو والجهاد والخوض فى معامع القتال فلما بلغ السابعة عشرة من عمره سار إلى طولون إحدى أعمال فرنسا ودخل فى خدمة بحريتها متطوعا وأقام بها خمس سنوات ثم نال رتبة وكيل للفرقة الثانية البحرية المدفعية ولبث بها زهاء سنتين ثم تاقت نفسه إلى الانخراط فى سلك الجندية البرية وقد كان مارس حركاتها وتعلم أساليبها وجال فى البحر الأبيض المتوسط والمحيط الأطلانتيكى مرات كثيرة وزار جزائر الأرخبيل ثم عاد إلى ليون لجراحة أصابته فى ذراعه الأيسر فى حرب ترافلجار وأقام مع أبويه أياما كثيرة ثم حدث بعد ذلك أن وقع بينه وبين عدوّ له مشاجرة أدت إلى الملاكمة ثم المضاربة فانقض سيف على عدوّه وقتله وفرّ هاربا من ليون إلى إيطاليا خوفاً من العقاب ودخل فى عسكريتها جنديا فى الفرقة السادسة التى كان يقودها الكولونيل باجول ولبث على هذا الحال حينا ولما كان من نظام دولة إيطاليا العسكرى فى ذلك الحين تعليم الفرسان الإيطالية جميع حركات المشاة أيضاً قد تكفل سيف بتعليمهم وأخذ ذلك على عهدته فظهر أمره وكبر شأنه وعرفه الناس فاتسعت شهرته، فلما كانت سنة تسع وثمانمائة وألف ميلادية اختارته الدولة

الإيطالية لأن يكون قائدا لجيوشها التى ساقتها إلى القتال فى واقعة الرين الشهيرة مع دولة الروس فأبلى فى تلك الحرب بلاء حسنا حتى شهد له العدو بالبسالة ومعرفة أسرار الحروب وما زال يقاتل والنصر يلازمه والتوفيق يتقدمه حتى أصيب فرسه فى إحدى المعامع فسقط ميتا وسقط هو على الأرض فأصابه العدو بثلاث طعنات وطلق نارى ثم حمل أسيرا إلى مدينة موسكو عاصمة الروس فلبث بها ما شاء الله حتى شفيت جراحته ونقه من علته واستعرض القيصر أسراء تلك الحرب وعلم بأحوال سيف فمال إليه وامتدح بسالته وجعله وكيل مقدم جميع الفرسان الروسية ثم مقدّم جميع الفرسان فظهر نبله واشتد أمره وحاز نياشين الشرف فى معامع الحروب وكاد أن يسقط فى يد العدو فى واقعة بوزن وقد جرح بجراحة خطيرة ثم شفى منها فقلده القيصر قايمقامية قيادة الجيوش الروسية وفى سنة أربع عشرة وثمانمائة وألف ميلادية افتتح بعض المقاطعات القوزاقية بطريقة لم يسبق لها مثيل ولم يكن ليسمح له بها رئيسه الجنرال بيره فزاد إعجاب رجال حرب الروس به وقدروه قدره ولما طالت غيبة سيف عن الآل والوطن حنت إليهما جوارحه فصار بين إقدام وإحجام حتى علم بونابارته من أمره ما أعجبه فأنفذ إليه بالحضور إلى عاصمة الفرنسيس فلبى إشارته وأتى مسرعا إلى باريز فأكرم بونابارته لقاءه وأدخله فى خدمة الجيوش الفرنسوية فسار سيرة حسنة للغاية وبالغ فى الطاعة وأداء الخدمة حقها واشتهر فى خدمة برينة شهرة عظيمة للغاية فمال إليه بونابارته وأحبه ومنحه رتبة القايمقام، ورافق المارشال جروشى قائد جيوش الفرنساوية فى واقعة وأنزلوا الإنجليزية فنال شهرة عظيمة ثم تغيب عن ساحة الحرب فدارت فى غيبته الدائرة على الفرنسيس فانهزموا شر هزيمة وكان له بعيد ذلك فى حروب المائة يوم المشهورة اليد الطولى فغلب فيها وقهر وفاز وانتصر ونال من العدو وظفر فنال رتبة الكولونيل أى أميرالاى مع نيشان الافتخار، فلما سقط بونابارته عن عرشه وبطلت الحروب بسقوطه عز على الأمير سيف هذا المصاب وحزن على بونابارته حزناً عظيماً واعتزل الجندية ومال إلى الزرع والفلاحة فاستأجر مزرعة فى أراضى الجرنيل وجعل يفلح حينا ثم تاقت نفسه إلى الخوض فى عباب الحروب ومشاهد القتال وكأنه أقسم أن لا يموت إلا شهيد الحرب والجلاد ولما لم يكن بين بلاده وبين دولة أخرى حرب قائمة ترك وطنه ومسقط رأسه وسكنه وسار إلى بلاد فارس وقد كان ملك فارس أخذ ينظم جيوشه يومئذ على ترتيب ونظام جيوش الفرنسيس فمر سيف فى طريقه بالإسكندرية ولبث بها أياماً فأعجبه هواؤها وحن إلى البقاء فيها وعدل عن الذهاب إلى ملك فارس وكان يعرف

بالإسكندرية تاجرا من كبار الفرنسيس فقصده وكاشفه على ما فى نفسه من الميل إلى خدمة محمد على باشا وترتيب عسكره على نسق وترتيب عسكر الفرنسيس وكان محمد على باشا ميالا إلى ذلك جدا فلما علم بأخبار الكولونيل سيف وعرف مبلغ شهرته فى تنظيم الجيوش وتدريب العسكر وتحقق من بسالته وإقدامه وتمكنه من الفنون الحربية مال إليه وأدخله فى خدمته وسلم إليه مقاليد كافة الأمور العسكرية فلاقى من كبار وصغار العسكر الأرنؤد والدلاة وغيرهم من بقية أخلاط العسكر المصرى يومئذ غاية الجفاء والشدة فكانوا يخاطبونه بفحش القول وينادونه بالكافر واشتد بغضهم إليه وكرهوا بقاءه بينهم فألحوا على محمد على باشا بإخراجه من ديار مصر وإلا فهم قاتلوه لا محالة ودسوا إلى جماعة منهم ممن دخل فى نظام العسكر الجديد أن يقتلوه فبينما كان يدرب العسكر يوما ويعلمهم استعمال البنادق أطلق عليه أحدهم بارودته فأخطأته فتغافل الكولونيل سيف عنه ولم يظهر اهتماما بأمره وظل على ما هو عليه من لين الجانب ودماثة الأخلاق وجعل يستميل خصومه ويسامرهم فنجح بعض النجاح ولكنهم عادوا فأطلقوا عليه الرصاص مرة ثانية فلم يصيبوه فتبسم وصاح عليهم لا بأس عليكم يارفاق وددت لو أنكم تحسنون الرماية فيسر خاطرى بكم فلما رأوا ثباته وشدة محبة محمد على باشا له هابوه وخضعوا له فظهرت كلمته واتسعت شهرته ولبث يعلم الجند ثلاث سنين والتوفيق ملازم له حتى ظهرت فتنة أهل المورة وخرجوا عن طاعة السلطان محمود فسير السلطان لإخضاعهم جيشا من خمسة آلاف مقاتل ومقدمه خورشيد باشا صدر الدولة يومئذ وكثيراً من سفن الحرب ومراكب النقل فاستظهرت الروم على الترك ونالت منهم قتلا وتفريقا وأحرقوا سفنهم وكادوا يدمرونها عن آخرها فأنفذ السلطان إلى محمد على باشا فى رابع عشر جمادى الأولى سنة تسع وثلاثين ومائتين وألف هجرية يستنجده على قتال الروم ويمنيه بالأمانى الكثيرة ويخاطبه بعبارات التجلة والتكريم ويلقبه بمبيد طغام الكفار ويعده بضم مورة إلى ولاية مصر إن هو دوّخها وأرجعها إلى الطاعة وكان يوسف بوغوس بيك الأرمنى متوليا يومئذ رياسة الخارجية والتجارة وكتابة سر محمد على باشا فلما اطلع على ما فى فرمان السلطان من عبارات التجلة والتكريم كاد يطير فرحا وتقدم إلى محمد على باشا وهو يقول: ليضع الله بيده القادرة على جبينك الشريف تاج ملك جميع العالم فإنك أهل لذلك يابونابارته أفريقية. فسير محمد على باشا لقتال الروم جيشا ومقدمه الأمير إبراهيم باشا وكان الكولونيل سيف فى هذا الحين قد أسلم واعتنق الدين الإسلامى وسمى سليمان ونال رتبة الباشاوية

فسار مع الأمير إبراهيم باشا وقاتل الروم وأظهر من فنون القتال وأسرار الحرب ما شهدت به الأعداء وبلغت شهرته يومئذ مبلغا عظيما وأحبه محمد على باشا ثم كان منه ما كان فى حروب الشام وآسيه الصغرى وزحفه بالعسكر المصرى على أبواب القسطنطينية وأسره للصدر الأعظم وغيره من كبار رجال حرب الدولة وما أنشأه من القلاع والحصون والمعاقل التى كانت من معجزات فنون القتال وغير ذلك من الأعمال الخطيرة التى قل أن يأتى غيره بمثلها فى ذلك الحين وما زال يتقلب على بساط النعيم فى بحبوحة الهناء حتى مات ودفن ببستان منزله على ساحل النيل بمصر القديمة.

وكان إبراهيم باشا مولعا بالزراعة وفلاحة الأرض فضم إلى أملاكه أجود الأراضى وأخصبها بالإقليمين القبلى والبحرى ورتبها بغرس الأشجار العظيمة وأنشأ معامل السكر والكتان ومطاحن القمح ومعامل النيلة وبالغ فى ترتيبها وبذل النفيس فى إصلاح أمرها حتى زادت غلتها وكثرت محصولاتها ونمت، قالوا: وكان شديد البأس على الفلاحين جافى الطبع حازما مقترا يحاسب على الذرة والبرة ولا يترك لأحد منهم مثقال ذرة فكان أبوه يكره منه ذلك ويعنفه عليه ولا يمكن نفسه من هواها وقد أثرى وكثر ماله فى آخر أيامه كثرة بالغة واتسعت مادة رزقه اتساعا عظيما وخلف ثلاثة بنين هم أحمد وإسماعيل ومصطفى ومات عن عدة زوجات أكثرهن بغير ولد وكثير من الجوارى والحظيات وعمره ستون سنة هلالية فكانت ولايته سبعة أشهر وثلاثة عشر يوما منها ثلاثة أشهر بعد ورود فرمان السلطان إليه بالولاية فتولى الأمر بعده ولد أخيه عباس باشا الأول ابن طوسون بن محمد على باشا.

(مطلب)

(ولاية عباس باشا ابن الأمير طوسون باشا)

كان عباس باشا يوم موت عمه إبراهيم بالديار الحجازية فاراً من وجه عمه إذ كان يمقته كثيراً ويريد البطش به لأمور نقمها عليه وقيل بل ذهب لأداء مناسك الحج والأول أشهر فاستقدموه ورفعوا أمر ولايته إلى دار السلطنة فورد الفرمان بولايته في سابع عشري ذي الحجة سنة أربع وستين ومائتين وألف هجرية فأصعدوه إلى قلعة الجبل فى موكب حافل وطيروا الخبر بذلك إلى الآفاق فلما استقرت به الولاية صرف الكثير من بطانة جده وأبعد أصحاب الوظائف العالية واتخذ له بطانة ممن يعتمد

عليهم ويميل بالطبع إليهم وأقصى أصحاب الرأى وأهل الشورى واختص بقوم غيرهم فسلم إليهم مقاليد الأمور وتدبير مهام الرعية فعملوا لأنفسهم واشتدت فى هذا الحين الفتنة بين قيصر الروس والسلطان عبد المجيد وكبرت الوحشة بين الفريقين.

(مطلب)

وقوع الحرب بين السلطان ودولة الروس ومعاونة الإنجليز والفرنسيس للسلطان على قتال الروس

قال أصحاب التاريخ: وكان سبب ذلك أنه لما كان لدولة الفرنسيس حق حماية جميع الكنائس الكاثوليكية والذب عنها عند الحاجة بمقتضى أحكام المعاهدة التى تمت ما بين الملك لويس الخامس عشر ملك الفرنسيس والسلطان محمد خان سنة ثلاث وخمسين ومائتين وألف هجرية أى سنة أربعين وسبعمائة وألف ميلادية على ما تقدم بك بيانه فى الجزء الثالث من هذا الكتاب، وكانت دولة الروس تكره ذلك وتسعى فى تعضيد جانب جماعة الأرثوذكس وإعلاء كلمتهم فوق كلمة أصحاب الكثلكة لا سيما فى بيت المقدس وتشتد رغبتها كل يوم فى نزع كنائس بيت المقدس من أيدى قسوس الكاثوليك وإعطائها إلى قسوس الأرثوذكس فجعلت تراقب الفرص وتتبين انتفاعها حتى رأت اشتغال دولة الفرنسيس بإخماد نار ثورتها الداخلية ثم بالحروب التى أثارها بونابارته على جميع الممالك الغربية زهاء اثنتين وعشرين سنة بما لا تقدر معه على الذب عن أهل الكثلكة فعمدت إلى نزع جميع ما بأيدي الكاثوليك من تلك الحقوق والامتيازات وسلمتها إلى جماعة الأرثوذكس فتصرفوا فيها واستبدوا بها وغيروا وبدلوا حسب أهوائهم وما زالوا يتصرفون حتى تولى نابوليون الثالث رياسة جمهور الفرنسيس الثانية فرأى من اهتمام أهل الكثلكة بهذا الأمر ما أعجبه وزين له مخابرة السلطان فى إرجاع تلك الحقوق والامتيازات إلى ما كانت عليه حسب المعاهدات والعقود القديمة فطال الأخذ والرد ثم تقررت القاعدة بين الفريقين على انتخاب عمدة من كبار المذاهب وأئمة الدين لينظروا فى مزاعم الخصمين ويقرروا فيها أمرا باتا فأطالت العمدة البحث والتنقيب ولبث الحال على ذلك أياماً كثيرة ثم حكمت برد جميع الكنائس والديارات إلى جماعة الكاثوليك ببيت المقدس وبرد بعض الامتيازات والحقوق الأخرى حسب أحكام المعاهدات القديمة وحررت بذلك صكا فى شهر جمادى الأولى سنة تسع وستين ومائتين وألف هجرية أى فى شهر فبراير سنة اثنتين وخمسين وثمانمائة وألف ميلادية فعارضت دولة الروس فى نفاذ

هذا الصك وهدد قيصرها السلطان بالحرب والقتال إن هو رسم بتنفيذه وطالب نابوليون السلطان بتنفيذ حكم العمدة ورد ما أخذ من جماعة الكاثوليك وشدد في الطلب فأصبح السلطان وهو بين متطح عنزين ولكنه عاد فرسم بتنفيذ حكم العمدة فقامت دولة الروس وقعدت وكان القيصر شديد الرغبة فى فتح أبواب الحرب والتعجيل فى قتال السلطان وقد أخذ تأهبه لذلك منذ حين فعمد إلى استعمال الشدة وسير إلى دار السلطنة الأمير منشكوف كبير ديوان البحرية الروسية ليكلم السلطان في عدم جواز العمل بما قضت به العمدة وعدم مس ما بأيدى الأرثوذكس من الكنائس والديارات فوصل إلى دار السلطنة فى ثامن جمادى الأولى سنة تسع وستين، قال بعض الكتاب: فاحتفل للقائه جماعة الروم بالقسطنطينية احتفالا عظيما وبالغوا فى إجلاله وتعظيمه استصغارا بالمسلمين وساروا أمامه وهم فى ضجة وجلبة عظيمتين فنزل فى دار سفير الروس أياما لا يقابل فيها أحدا من رجال الدولة فلما كان العشرون من جمادى المذكور سار إلى مقر صدر الدولة وهو فى زى المسافرين ودخل عليه بلا حشمة ولا تأدب وكلمه في أمر الكنائس ببيت المقدس وقال إن مولاى القيصر لا يطيق الصبر على ما يلاقيه أهل الأرثوذكسية من أصحاب الكثلكة ولا يسمح بتنفيذ حكم العمدة الدينية وقد سير بى إلى هنا لأكلمكم فى الأمر فإن أنتم فعلتم ما نحب فيها ونعمت وإلا فالسيف يحكم بيننا وبينكم وطير الخبر بذلك إلى القيصر فجعل القيصر يستطلع ما سيكون من دولة الإنجليز إن هو ركب بعسكره لقتال السلطان وسأل سفيرالإنجليز فى ذلك وفيما إذا كانت دولة الإنجليز تعاقده على قتال السلطان «قال» فإذا هى فعلت ذلك وبلغنا المقصود من تقسيم بلاد السلطنة العثمانية وإرجعناها إلى ما كانت عليه من الذل والصغار تساهلت معها وأنلتها أخذ الديار المصرية وجزيرة كريد وتخلصنا جميعاً من مكايد هذا القرم العنيد فخابر سفير الإنجليز دولته فى ذلك فلم تقبل خوفا من استفحال أمر الروس وامتداد شوكتهم فى الشرق ودخول القسطنطينية فى عداد أملاكهم فيشاركون الإنجليز فى ملك البحار ويزاحمونهم على نيل الأوطار.

وكبر ما وقع من سفير الروس على السلطان عبد المجيد واستعظمه فكلم دولتى الإنجليز والفرنسيس فى أمره فتجرد نابوليون الثالث للعداوة وزين لدولة الإنجليز التحالف على قتال الروس وإيقافهم عند حد احترام العهود والعمل بمقتضى المواثيق القديمة وما زال بها حتى مالت إلى الحرب خوفا على هندها فسير فى الحال بعض

سفن الحرب الفرنسوية إلى اليونان فألقت مرساها فى فرضة سلامين إحدى الجزر اليونانية ولبثت تراقب الحوادث ورسمت كذلك دولة الإنجليز إلى سفن حربها الراسية فى مينا مالطة بأن تكون على قدم التأهب والاستعداد وكان الأمير منشيكوف الروسى فى غضون ذلك يتردد على الباب العالى فى طلب تجديد معاهدة خونكار اسكله سى ليكون لدولة الروس من وراء تجديدها حق حماية جميع طوائف الأرثوذكس الذين فى بلاد السلطنة العثمانية فكان السلطان يطاوله ويمنيه بالأمانى البعيدة ثم رسم بإعادة رشيد باشا الصدر المعزول إلى منصب الصدارة وهو من أعداء الروس وأشد رجال الدولة كرها لهم وكان قد خلع من منصبه استرضاء للقيصر ومنعا للدسائس والفتن السياسية فلما تقلد المنصب تجرد إلى الدفاع ووقف فى وجه الأمير منشيكوف وأبى عليه كلما طلبه فاستعظم الأمير منشيكوف هذا الأمر وأنفذ إلى الباب العالى بلاغا فى شعبان سنة تسع وستين ومائتين وألف بجميع مطالب مولاه القيصر وضرب للصدر الأعظم أجلا خمسة أيام فلما انقضى الأجل المضروب أمده بثمانية أيام أخر فانقضت ولم ينل من الباب العالى جوابا، وكان السلطان لما ورد إليه بلاغ الأمير منشيكوف طير خبره إلى عاصمتى الإنجليز والفرنسيس وطلب منهما الوساطة فى الأمر حقنا للدماء فسيرت فى الحال سفنهما الحربية نحو الدردنيل وعلم الأمير منشيكوف بذلك فكتب إلى صدر الدولة فى تاسع عشر رمضان من السنة يعلمه بزحف الجيوش الروسية على حدود السلطنة العثمانية فلما كان خامس عشرى الشهر المذكور جاءت الأخبار باجتياز الأمير كورتشاكوف الروسى بعساكره نهر البرونة واحتلاله مقاطعة الدانوب فسير إليه السلطان من يسأله الجلاء وعدم مجاوزة الحدود فلم يلتفت إلى ذلك ونادى فى عسكره بالتأهب ووردت الأخبار بذلك أيضاً إلى عاصمتى الفرنسيس والإنجليز فاجتازت سفنهما الدردنيل وكان القيصر يؤمل مساعدة إمبراطور النمسا له فى هذه الحرب لما بين القيصر وبينه من العلائق الودية وما للقيصر عليه من الأيادى البيضاء لا سيما بعد قيام الفتنة فى بلاد المجر وخروج أهلها عن طاعته وكان إمبراطور النمسا يخشى عاقبة هذه الحرب ويعلم أن ما وراءها إلا الطامة الكبرى على مملكته إن نالت دولة الروس من السلطنة العثمانية وتم لها النصر فعمد إلى استعمال المواربة وخابر الدول جميعا فى عقد مؤتمر بمدينة ويانا لإصلاح ذات البين ومنع وقوع الحرب بين الطرفين فأجابته الدول إلى ذلك وتم انعقاد المؤتمر فى سلخ ذى القعدة سنة تسع وستين ومائتين وألف هجرية وتقررت القاعدة بين

مبعوثى كافة الدول على حدود وشروط معينة قيل فاذعنت لها دولة الروس راضية على ما فيها من المواربة والتعقيد ولم يقبلها الباب العالى وفضل الحرب على هذا السلم المحفوف بصنوف المكاره فانحل المؤتمر على غير طائل وكان الأمير كورتشاكوف قائد الجيوش الروسية قد تمكن فى خلال هذه الفترة من احتلال ولايتى الفلاق والبغدان والتحصن فى حصونها فأنفذ إليه السلطان بإخلائهما وضرب له أجلا خمسة عشر يوما ورسم إلى عمر باشا مقدم الجيوش العثمانية فعبر الطونة فصارت الحرب بين الفريقين أدنى من قاب قوسين.

واستخف الأمير كورتشاكوف بقدر الجيوش العثمانية التى عبرت الطونة فلم ينجل عن مواقعه وزاد فى التحصن والاستعداد فسار إليه عمر باشا وقاتله قتالاً عنيفاً وطال القتال أياماً ثم انكشف عن هزيمة كورتشاكوف شر هزيمة وجلائه عن معاقله وانتصار عمر باشا نصرة مؤزرة وجاءت الأخبار بذلك إلى دار السلطنة وكان السلطان قد رسم أيضاً إلى عبده باشا أحد مقدمى العسكر السلطانى بالزحف على حدود الروس من جهة بلاد قافقاسية فسار بعسكره حتى اجتاز الحدود وقاتل وأخذ قلعة سان نقولا وانتصر كذلك على الروس نصرة عظيمة واشتد القتال بين الطرفين أياماً ثم توقف بسبب الشتاء وتراكم الثلوج والأمطار فهال القيصر هذا الأمر وأزعجه وكبر خوفه من عاقبة هذه الحرب إن اشتركت فيها أيضاً عساكر الفرنسيس والإنجليز وطلب المدد من إمبراطور النمسا فلم يجبه خوفا من شر العاقبة فسير القيصر إلى دولتى الفرنسيس والإنجليز يسألهما عدم دخول مراكبهما الحربية إلى البحر الأسود وتربصها عند البوغاز وهو يكفل لهما عدم إجراء شيء من الحرب والقتال. قال بعض الكتاب: البحر المذكور لو نزلت فيه مراكب الدولتين لا تتحرك من مكانها أياما وظن السلطان وقوف رحى الحرب حتى ينقضى الشتاء وكان للسلطان عمارة صغيرة بالبحر الأسود راسية فى مينا سانوب فلم يشعر أميرها إلا وقد داهمته مراكب الروس وأحاطت بمراكبه من كل جانب وأطلقت عليها القنابل تباعا فسقط فى أمره واختبل وعز عليه التدبير للخلاص واشتد رمى مراكب الروس وتراسلت القنابل حتى دمرت جميع المراكب السلطانية ولم تبق لها أثرا وجاء الخبر بذلك إلى دار السلطنة فأبلغه الصدر إلى سفراء الدول فجاء الأمر على الأثر إلى السفن الفرنسوية والإنجليزية باجتياز البوغاز ودخول البحر الأسود والتأهب لرد جميع المراكب الروسية عن الدنو من موانىء السلطنة العثمانية فاجتازته وسارت تمخر فى طوله وعرضه وأرسل السلطان إلى عباس باشا يطلب المدد من العسكر المصرى فبعث إليه عباس باشا

بجيش ضخم كامل العدد وأرسل إلى الخزينة السلطانية شيئاً من المال لنفقة الجند قيل وكان يكره نجدة السلطان ويتمنى انفشاله حبا في الاستقلال بملك مصر والخروج من تابعية السلطنة فلم تساعده الأيام ولم ينل هذا المرام وسارت العساكر المصرية مع العساكر العثمانية وقاتلت وانتصرت في عدة مواقع كبيرة وأبلت بلاء حسنا ووردت الأوامر من قيصر الروس إلى سفيريه بعاصمتى الفرنسيس والإنجليز بالشخوص إلى عاصمة الروس وقطع العلائق السياسية فانسحبا ووقع الاتفاق بين دولتى الفرنسيس والإنجليز والسلطان على قتال الروس وتقررت القاعدة بينهم على أن تسوق دولة الفرنسيس إلى ساحة القتال خمسين ألف مقاتل من رجالها كاملى العدد وكذلك دولة الإنجليزية تسير خمسة وعشرين ألفا ليتألبوا على القتال ولا ينفكوا عنه حتى تلزم دولة الروس حدودها وتنكف عن القتال صاغرة فإذا تم لهم النصر عادت العساكر الإفرنسية والإنجليزية وتركت الدولة العثمانية وشأنها تتصرف في بلادها وترتب أمورها على ما فيه مصلحتها فلما كان شعبان سنة سبعين ومائتين وألف هجرية قامت الجيوش الإفرنسية ومقدمها الماريشال دى سنت أرنو والجيوش الإنجليزية ومقدمها اللورد رجلان ومعهم شيء كثير من المؤن والذخائر وآلات الحرب الكاملة على ظهور سفن النقل العظيمة قاصدة دار السلطنة العثمانية فلم تكد تصل إليها حتى قامت الحرب على ساقها بين مراكب الحرب الإنجليزية والفرنساوية وبين قلاع وحصون مدينة أوديسا، قال بعض الكتاب: وتحرير الخبر أنه لما انقطعت العلاقات السياسية بين الأحزاب ودولة الروس جعلت كل دولة منهم تحافظ على كرامة رعاياها وحرمتهم في بلاد عدوّتها فسيرت دولة الإنجليز بعض السفن الحربية التى لها بالبحر الأسود لنقل قنصل الإنجليز ومن معه من الرعايا الإنجليزيين الذين بمدينة أوديسا فلما اقتربت السفينة المذكورة أطلق عليها الروس الذين بقلاعها المدافع وراسلوا الرمى بالقنابل حتى كادت تدمرها فهربت فهال هذا الأمر أمير السفن الإنجليزية واتفق مع أمير السفن الإفرنسية على الأخذ بالثأر إن لم يعتذر حاكم أوديسا عما وقع ويطلب الصفح ويقوم بالترضية وضربا له أجلا أربعا وعشرين ساعة فلم يلتفت الحاكم إلى ذلك ولم يحل طلبهما محلا فسارت جميع السفن في شعبان سنة سبعين ووقفت أمام حصون المدينة وجعلت ترمى عليها بالقنابل تباعا حتى دمرتها تدميرا والتهمت النيران جانبا منها ثم تركتها وسارت نحو سباستوبول ودعت مراكب الحرب الروسية للنزال فلم تبرز لنزالها فسارت على الفور بعض السفن الإفرنسية والإنجليزية لضرب جميع الثغور الروسية الواقعة على البحر الأسود فأنفذ القيصر الماريشال بسكيفتش

فى جيش جرار لعبور نهر الطونة فعبره وسـار نحو مدينة سلستريا وحاصرها وضيق عليها من كل جانب وأقام على حصارها زهاء خمسة وثلاثين يوما فلم ينل منها وقد كان من بها من العسكر السلطانى لا يتجاوز الخمسة عشر ألفا ومقدمهم موسى باشا وجاءت الأخبـار بذلك إلى دار السلطنة فسارت الجـيوش المتحالفـة إلى وارنه لنجدة موسى باشا ومن معه فمات موسى باشا قبل أن ينجدوه وخاف أمير العساكر الروسية من وصول الجيوش المتحالفة وهو على قدم الحصـار فانجلى بعسكره عن المدينة فتبعته العسـاكر العثمـانية وجعلت تتـخطف ساقته حـتى تجاوز نهر الطونة ومـا زال يقاتل ويدافع حتى عبر نهر البروت وصار فى مأمن من نيران العسكر السلطانى فعادت بعد ذلك العساكر السلطانية فاجتمع سائر أمراء الجيوش المتحالفة وتشاوروا فى أمر القتال مع العدوّ وكـان الطاعون قد تفشى فى حـدود السلطنة العثمانـية وكثر فيـها الموات فاتفقت كلـمتهم على النزول على سبـاستبول ومحـاصرتها وعدم الجـلاء عنها حتى يدكوا أسوارها دكا وسيروا فى المحرم افتتاح سنة إحدى وسبعين جماعة من المقاتلين من الفرنسيس والإنجليز والترك والمصريين فكـانوا زهاء ستين ألفا كاملى العدد فنزلوا عليها ولم يستقرّ بهم المقام حتى التـهبت نار الحرب بينهم وبين الروس وعلا ضرامها وانكشـفت عن هزيمـة الروس ونصـرة الفـرنساويـين نصرة مـؤزرة وأخـذوا منهم المرتفعات المشرفة على نهر الماء فكانت عندهم من أهم المواقع الحصينة ثم عمدوا إلى فتح مـينا بلكلاوا ليـجعلوها مـأمنا لسفنهم التى كـانت تأتى إليهم بالمؤن والـذخائر ومعدات الحرب فزحفوا عليها وقاتلوها يومين حتى فتحوها عنوة ودخلوها ثم انكفوا عن القتال أيامـا فتمكنت فيها جـماعة الروس من تحصين سـباستبول تحصـينا منيعا وبالغت فى ذلك من البر والبحر حتى صارت لا ترام.

وسارت جيوش الأحزاب نحو سباستبول وقد تفشت فيهم الحميات فكثر الموات بينهم وحم الماريشال سانت أرنو مقدمى الجيوش الإفـرنسية ومات قبل أن يعيد الكرة على حصون سنباستبول فنقلوا جـثته إلى عاصمـة الفرنسيس باحتفـال زائد وأقاموا مكانه الجنرال كانروبر فحاصروا سباستـبول ورموا عليها بالقنابل فى أوائل صفر سنة إحدى وسبعين ولـبثوا يراسلون الرمى ليلا ونهارا زهاء خمسة أيام ثم هجـموا عليها هجمة رجل واحد فلم يـنالوا منها وردوا على أعقابهم خاسرين وتبـعتهم طائفة من العسـاكر الروسـية وقاتلتهم قتالاً عنيفا ثم عـادت ولم تظفر بهم وطالت أيام الحصار والحرب بين الفـريقين سجـالا حتى دخل الشتـاء فكثر الموات فى عـسكر الأحزاب وتفشت بينهم الأمراض فأوقفوا رمى القتال ولبثـوا على قدم الحصار فعادت العساكر

الروسية إلى تقوية مـا تشعث من الحصون وترميم ما تهدم منهـا حتى عادت إلى ما كانت عليـه من المنعة وخاف رجال سـياسة الفـرنـسيس والإنجليز من اتحاد إمـبراطور النمسا مع قيصر الروس على الذب والقتال فـتزداد هذه الحرب ويلا وتعظم مصيبتها لا سيما وقد كـانوا يرون فى الروس خصما عنيدا وقرما صبورا على القـتال فعمدوا إلى استمالة إمبـراطور النمسا وحببوا إليه الاتفاق معهم على مـا فيه المصلحة لبلاده أيضاً فوافقهم على ذلك وكان بينه وبين فـريديك غليوم ملك البروسيا عهد على أن لا يقدم أحدهما على التحالف مع الدول الثلاثة المتحالفة إلا بعد رضا الآخر فخابره أمبـراطور النمسا فى ذلك وزين له الاشـتراك معه على مـا فيه المصلحـة لبلاده فلم يلتفت إلى شىء من أقـواله فاتفق الأحزاب على مـخابرة قيـصر الروس فى الصلح وكف القتال على قاعـدة هى عدم انفراد القيصر بحماية المسيـحيين من رعايا الدولة العثمانية وعـدم التعرض لحماية الفلاق والبغدان وإباحـة المرور لجميع مراكب الدول فى نهر الطونة وتعديل المعـاهدات المتعلقة بالمرور فى بوغازات القسطنطينيـة لا سيما منها معاهدة سنة سبع وخمسين ومائتـين وألف هجرية وكلموا سفير الروس بعاصمة النمسـا فى ذلك فطلب المهلة حـتى يأتيه أمـر القيصـر فامـهلوه واشتغلوا بـالتأهب والاستـعداد لإضرام نار الحـرب إذا ولى الشتـاء وجاء الصيف وبينمـا هم على هذا الحال إذ هاجم الروس مدينة أوپاتوريا وكان بها عدد من العساكر السلطانية والعساكر المصرية فاقـتتل الفريقان قتـالاً عنيفاً وصبر كل فـريق على القتال فمات خلق كـثير ومات سليـمان باشا مـقدم العسكر المصـرى فى هذه الموقعة ثم انكشف القـتال عن هزيمة الروس وردهـم على أعقابهم خـاسرين ووردت الأخبار بذلك إلى مـعسكر الأحزاب فأخذوا أهبتهم واستعدوا لمهاجمة سباستبول والإلحاح فى قتالها وأكثروا من جمع الأسلحة والكراع فلـم يمض على ذلك إلا أيام حتى مرض القيصـر واشتد به مرضه ومات فى جمادى الثانية سنة إحدىَ وسبعين ومائتين وألف هجرية وشاع خبر موته فظن الناس زوال الفتنة وكف المتحـالفون عن القتال فلم يصب ظنهم المرمى إذ تولى الملك بعد مـوت القيصر المشـار إليه ابنه إسكندر الثانى ولم يستـقرّ به المنصب حتى جـعل يتأهب للزحف على مواقع الأحزاب ويكـثر من حشد الجـيوش وإعداد معدات القـتال فلما أنس الأحزاب منه ذلك زينوا إلى ملك سـاردينا التى هى اليوم مملكة إيطاليا الاتحاد معهم على قتال الروس وما زالوا به حـتى سير جيشا عظيما من عسكره إلى حصـار سباستبول وتحـالف على الذب والقتال فقويت عـزيمة الأحزاب وجعلوا يناوشون الروس القتال فكانـت بينهم سجالاً ثم تمكنت جيوش الأحزاب من

احتلال مدينة كمريش وبوغاز بريكوب ومدخل بحر أزاق فأتموا حصار سباستبول ومنعوا عنها الواصل واشتد الحال من هذا الحين على الروس فجعلت جيوش الأحزاب توالى الزحف والهجوم على مواقع الروس وتلح فى قتالهم من البر والبحر فانتصروا فى عدة مواقع وأخذوا بعض القلاع والحصون الداخلة فى حدود بلاد القرم ومنها قلعة ملاكوف أخذها الجنرال ماك مهون الفرنسوى عنوة فى خامس عشر ذى الحجة سنة إحدى وسبعين ومائتين وألف هجرية ولما اشتد الحصار على سباستبول وضاقت عليها المسالك وانقطع المدد خرج من كان بها من الروس وأوقدوا فيها النيران فالتهمتها عن آخرها ودكتها دكا فدخلتها عساكر الأحزاب فى ثانى يوم متخوفة.

ودخل الشتاء فوقفت رحى الحرب بين الفريقين وأحست دولة الروس بالغلبة وعدم القدرة على دفع جيوش الأحزاب بعد خراب سباستبول فعمدت إلى المواربة وتودد القيصر إسكندر إلى أمبراطور النمسا فكلم الأمبراطور الدول المتحالفة فى تقرير قاعدة للصلح والكف عن القتال وحقن الدماء المهدرة بسبب هذه الحرب المشؤمة فأجابته الدول إلى ذلك وقرروا القاعدة بينهم على ما فيه المصلحة وعرضوها على القيصر فأجابهم إليها وطلب عقد مؤتمر فى باريس عاصمة الفرنسيس لتقرير أمر الصلح نهائياً فأجابوه إلى ذلك أيضاً وانعقد المؤتمر ووالى الاجتماع أياماً حتى تم الصلح بينهم وتسطر فى أربع وثلاثين مادة أصلية ومادة إضافية صار التوقيع عليها من جميع مبعوثى الدول ومبعوث السلطان ثم تقرر بعيد ذلك رفع الحصار عن جميع الموانى والثغور الروسية وانسحاب جميع عساكر الأحزاب من بلاد القرم فى أجل لا يتجاوز الستة أشهر وأن تتجلى دولة النمسا عن ولايتى الفلاق والبغدان فى بحر ثلاثة أشهر وكذلك تنجلى الروس عن مدينة قرص وقلعتها وتردها إلى الأملاك السلطانية فى بحر ثلاثة أشهر وعاد من بقى من العساكر المصرية إلى القاهرة ثم كان بعيد ذلك ما كان من الفتن والإرهاصات الداخلية وخروج بعض الإيالات عن طاعة السلطان ونوالها شبه الاستقلال بتعضيد دول أوروبا لها مما لا محل له هنا خوف الإطالة.

وكثر على باب عباس باشا أصحاب السعاية وأهل الوشاية فأخذ بقولهم وعمل بمشورتهم واشتدت رغبته فى معرفة أحوال جميع الناس وأسرار أصحاب البيوتات فأنفذ لذلك جماعة فكانوا يأتون إليه بالأخبار المقلقة والحوادث المكدرة ليباعدوا بينه

وبين الناس فتطير وأخـذ حذره وأكثر من شراء المماليك الجلب والإمـاء السود وأقام طوائف الترك على بابه يحرسـونه نهارا وطوائف المماليك يخفرونه ليـلا وكان شديد البغض لأهله وعمومته وعلى الخصوص منهم أولاد إبراهيم باشا فضيق عليهم وشدد وبالغ فى تنكيلهم فضبط أرزاقهم وحبس غلاتهم وشرد أتـباعهم وحاشيتهم وأقصى القائمين بإشغالهم إلى سنار وفيزوغلى وأقام عليهم الدعاوى الطويلة حتى ضاق بهم الخناق فكانوا لا يحـصلون على طعام يوم لحبس أرزاقـهم وانكمشـوا وقل ظهورهم بين الناس خوفا من اشتداد الفتنة ورميـهم بالتهم الكاذبة ومع ذلك فقد كانت عيونه وأرصاده لا تفارق أبوابهم ساعة ووقع بينه وبين عمه الأميـر محمد سعيد من النفرة والشحناء ما لم يبق معه إلا القتال فادّعى على عمه الدعاوى الكثيرة واتهمه بالخروج وشق عصـا الطاعة واتهم أعيـان البحيـرة وبعض مشايخ عـربان أولاد على بنجدته فأعمل فيـهم القتل والتشريد والتبعيد إلـى أقاصى السودان وبالغ فى تخريب دورهم ومحـو آثار منازلهم فاختـفى من بقى منهم ونزحوا إلى الشـام والحجاز وألزم عـمه بالمكث فى الإسكندرية وعدم دخـوله القاهرة وبث حوله العيون والأرصـاد فضاقت على الأمير مـحمد سعيـد المذاهب واستنجد ببعض رجـال الدولة وكبار النزلاء من الأجـانب فلم يفلح لشدة بـأس عبـاس باشا وعظم هيـبـته فى نفـوس الناس على اختلاف طبقاتهم واشتدت بعبـاس باشا الطيرة فاحتجب عن الناس ومال إلى سكنى البيـداء والجبال فـابتنى له قصرا بالدار البـيضاء بطـريق السويس وآخر بسـفح الجبل الأحمـر خارج باب الحسـينية سـماه العبـاسية نسـبة إلى اسـمه فكان إذا ذهب إلى أحدهما أقـام به أياماً لا يصل إليه إلا المقربون من قـومه وابتنى مبانى أخرى كـثيرة كالحلمـية وغـيرها بمنيل شيـحه ورسم ببناء دار بظاهر بركـة الأزبكية بجـوار جامع الكيخـيا فشـرعوا فى العمل وبدؤا ببناء السـور من الحجر الأحـمر وجمـعوا لذلك البنائين والنحاتين والحجارين والخشابين والفعلة ووكل بهم جماعة من الترك يحملون العصى والأسواط فكانوا يسومون أولئك العمال الخسف ويذيقونهم مضض التعذيب وكان ذلك على عهد ولاية جـده محمد على باشا فاتفق أن مـر الأمير إبراهيم باشا يوما بالأزبكية فسـمع من صياح العمال وجلبتهم ما أدهشه فـسأل عن ذلك فقيل له أنهم عمال فى بناء الدار التى ينشئها الأمير عباس فـسار نحوها فرأى من كثرة أولئك العمال وما يقاسونه من تعذيب الموكلين بالعـمل ما هاله وأحزنه فسير فى الحال إلى الأميـر عباس من يعلمـه بترك هذا العمل وصـرف أولئك العمال بالتى هى فـخاف

الأمير عباس وصرفهم وترك البناء فى ذلك المكان ولم يتم منه إلا بعض السور من الجانب الشرقى فرسم الأمير إبراهيم يجعله مناخا للجمال المرتبين لخدمة الدولة وبقى كذلك إلى أيام إسماعيل باشا ابن إبراهيم باشا فأزاله وأنشأ فى جانب منه النزل المعروف باللوقاندة الجديدة وأمر ببيع الباقى منه فصار الآن من أحسن الدور وأرفعها بناء وأنظمها ترتيبا وتنسيقا، وكان شديد البغض للأجانب جبارا على الرعية سهل الانقياد لبعض حاشيته والمقربين إليه ميالا إلى الوشاية وإيقاع الفتنة بين أصحاب الوظائف حذرا من تآلفهم واتحادهم على ما يخشاه وكان مثل الخليفة المعتصم بن هارون الرشيد فى الإكثار من شراء المماليك ووقوفهم على بابه وتزيينهم بأفخر الملابس وكان يركبهم جياد الخيل بالسروج المطهمة وأنشأ فرقة منهم ومن أبناء بعض الناس بلباس مخصوص على زى الجند سماها الأورطة المفروزة فكانوا هم حراس أبوابه وكان مع شدة بطشه وعدم أغضائه عن الصغائر كثير التخيل لا يمكن أحدا من الدنو منه حيثما سار فكان يمشى وحوله طوائف الترك فإذا رابهم من أحد ريبة فى طريقهم مالوا عليه وأوجعوه ضربا بالسياط والعصى وربما قتلوه وكان يحب المكث عند عرب الهنادى بالشرقية، قال جماعة: وتزوّج بإحدى بناتهم وكانت غاية فى الجمال وعندى أنها فرية ما أنزل الله بها من سلطان، وقال آخرون بل سلم جماعة منهم ولد له ليربوه على طباع أهل البادية فلم يعش ومات وهذه هى الحقيقة بلا مراء وكان قربه منهم باعثا لهم على التمرد والشقاوة فأذلوا أهل الشرقية وتطاولت أيديهم إلى سلب أموالهم ونهب زروعهم ومواشيهم فلم يكن الرجل من أصحاب الزرع ليأمن على ماله ولا على عرضه ولم يقفوا عند هذا الحد بل ضربوا على أصحاب الزروعات المغارم والكلف الفادحة من مال وغلال فإذا تعذر جمعها عاثوا فى البلاد وأهلكوا الحرث والنسل وكان عباس باشا يدفع بهم كل قليل من الزمان إلى قتال عربان البحيرة لميلهم إلى عمه الأمير محمد سعيد ثم لم يلبث على موالاتهم طويلا حتى عاد فغدر بهم وأهلك كبارهم وشرد نساءهم ونهب زروعاتهم على يدى رستم بيك مدير الشرقية فلم تقم لهم بعد ذلك قائمة، وأبطل فى يوم واحد جميع معامل القطن والكتان والأقمشة والأجواخ والحرير والمقصبات التى أنشأها جده محمد على باشا وشرّد من كان بها من الصناع والعمال، قال بعض الكتاب: وقد تم ذلك بإغراء من الجنرال ميرى قنصل جنرال الإنجليز فكان فعله هذا من أشد الفعال المحزنة لقلوب أهل البلاد فقد كانت هذه المعامل على ضخامة آلاتها وقلة معداتها والاعتماد فى

حركتـها على الدواب لعدم ظهور استعمال البخار يومئذ وتعذر وصولها إلى حد الكمال التى هى عليه المعامل اليوم كافلة باحتياجات البلاد وقد أحيت من الصنائع ما أماتته الأيام وأذهبه جور الحكام وأعادت لمصر بعض رونقها القديم وسهلت على أهل البلاد سبل الكسب والتعليم فعاش فى ظلها العدد العديد وترامت آمالهم فيها إلى المرمى البعيد ولو بقيت إلى يومنا هذا لكان لها من الشهرة ما يغنى البلاد عن كثير من المصنوعات الأجنبية على اختلافها وأمست وهى مهبط الرزق للصانع فيها والمتجر فى مصنوعاتها ولكنها أصبحت فلم تكن شيئاً مذكوراً.

ولما كانت سنة خمس وستين ومائتين وألف هجرية تقدم إليه قنصل جنرال الإنجليز فى تحجير الطريق من باب الحسينية إلى مدينة السويس تسهيلا لنقل السوّاح من الإنجليز الذين كانوا يأتون من السويس على عجلات كانت تجرها الخيل فرسم بذلك وقيد بعض الترك بهذا العمل فأفحشوا فى الجور وإيذاء خلق الله حتى أتموه فى عهد قريب، وعمر فى سنة ست وستين مسجد السيدة سكينة وعمل على الضريح مقصورة من النحاس الأحمر وجدد كذلك جامع العشماوى بشارع العشماوى بالأزبكية فأعجب ذلك أهل القاهرة ومصر واستحسنوه منه وتقدم إليه الجنرال ميرى قنصل الإنجليز فى إنشاء خط حديدى أيضاً بين الإسكندرية والقاهرة وسلك تلغرافى كذلك وألح عليه وكرر الطلب لتسهيل المواصلات بين عاصمة الإنجليز وهندها وما زال به وهو يمنيه بالأمانى البعيدة حتى رسم بإنشائهما فكان مدّحور الخط فى تاسع عشرى ذى الحجة سنة سبع وستين ومائتين وألف هجرية، وحجت أمه فخرجت من القاهرة فى كبكبة عظيمة وسارت مع ركب الحج وأمام هودجها الجند وخلفه الخدم والحشم والغلمان والأتباع فلما دخلت المدينة أنفقت وفرقت من الغلال شيئاً كثيرًا وفعلت كذلك بمكة وغيرهما وعادت إلى القاهرة فأولم لها الولائم العظيمة وأطعم وكسى أولاد المكاتب والأيتام وتصدق على بعض المساجد وأضرحة الأولياء وأقام المقرئين والفقهاء يتلون القرآن فى دارها أياما وزارها جميع الأمراء والكبراء وأصحاب البيوتات العالية من النساء وقدموا لها الهدايا والتحابى النفيسة.

وكان كثير التساؤل عن مستقبل الأمور ثابت الاعتقاد فى صحة الكهانة والعرافة والزايرجات فأدنى منه جماعة من أصحابها وقربهم وسألهم عما يكون فى أيامه من الحوادث والكوائن وما سيقع إليه من خير أو شر فأبهموا عليه الأمر فهددهم فقالوا

إنا نخاف عليك من رجل طويل القامة أسمر اللون في شكل كذا وكذا قيل فاضطرب وزاد خوفه من جميع الناس وأمر بالدجالين وأصحاب الزابرجات فجمعوهم وأقصوهم إلى أعالي السنار والدارفور فتطاولت عند ذلك أيدي أعوانه إلى خيار الناس من كل ملة فكان صاحب الوجاهة لا يشعر إلا وقد كبس داره جماعة من الترك فيحملونه مقيدا بالحديد إلى حيث لا يدرى ويرجعون فيبحثون عما في داره من كتب وأوراق ويأخذون كل ما وصلت إليه أيديهم من حلى ومتاع فكثر لذلك أصحاب السعاية واشتد الخوف بالناس فانكمشوا وقل اجتماعهم وأوجس كل من صاحبه بل ومن خادمه أو خادمته إذ كان من المحتم على كل خادم أن يبلغ شيخه في كل يوم أخبار بيت سيده من قيل وقال وما دخل إليه من مأكول ومشروب وملبوس وغير ذلك فلا يشعر صاحب البيت إلا وهو بين يدى صاحب الشرطة يسأله عما قاله في ليلته أو فعله في صباح يومه فإذا أنكر أتى إليه بألف دليل من أسرار بيته وعورات أهله وولده فكان إذا أغضب المخدوم خادمه أو أغلظ عليه في القول وشى به عند صاحب الشرطة فتكون عليه الطامة الكبرى، وكان يحب اقتناء المعزى والنعاج وكبار الكباش للمضاربة والحمام والسباع والفيلة والضباع وجياد الخيل وكان شديد العناية بها ينفق عليها أموالا كثيرة ويرسل خواصه للإتيان بها من أقاصى البلاد كالهند والعراق واليمن ونجد وبغداد وكان شديد البغض للنصرانية ناقما على النصارى لا سيما منهم أهل البلاد فأخرج الكثير منهم من خدمة الدولة ومنع من استخدامهم وبالغ في تذليلهم وأتى للمباشرين منهم بطائفة من الأحداث الأغرار وأبناء المكاتب فجعلهم في وظائفهم وألزمهم بتعليمهم وتدريبهم وضرب لهم أجلا فاختل نظام المصالح الديوانية وتطرق الفساد إلى جميع الأعمال وكسدت حرفة القلم وتحقرت، قيل :واشتد به البغض للنصارى حتى دبر أمر إخراجهم من وطنهم وتبعيدهم إلى أقاصى السودان وأرسل إلى الأستاذ الشيخ الباجورى شيخ الإسلام يومئذ يسأله في ذلك فلما جلس الشيخ قال له أسألك أمرا لا تكتمه عليّ قال وما هو ياأمير قال: إنى أقصد تبعيد النصارى كافة من بلادى ومقر حكومتى إلى أقصى السودان وقد دبرت لذلك تدبيراً فما قولك قيل فقطب الشيخ وجهه وقال أى النصارى تعنى ياأمير إن كنت تعنى الذميين الذين هم أهل البلاد وأصحابها فالحمد لله لم يطرأ على ذمة الإسلام طارىء ولم يستول عليها خلل حتى تغدر بمن هم في ذمته إلى اليوم الآخر وإن كنت تعنى النصارى الفرنجة النازلين في بلادك فإنى أخاف

إذا فعلت بهم شـرا أن يحل ببلادك مـا حل بالجزائر من الفرنـسيس، قيل فـغضب عباس باشـا ونادى خذوه عنى فقام الشـيخ وهو يقول أى ويعلم الله أى ويعلم الله، وكان إذا أبغض أحد من بطانتـه آخر أيا كانت درجته قال له أن فلانـا (يريدخصمه) فيه شىء من الأوصـاف التى قال عنها فلان صاحب الزايرجـة وفلان صاحب تخت الرمل فلا يشـعر ذلك المبغـوض إلا وقد دخل عليه طائفـة من الترك فيـأخذونه إلى حيث لا يعـود فكان الرجل أية كانـت وجاهته يقـضى بياض يومـه فى حسـاب ما سيكون فى سواد ليله فكان إذا غضب على أحد غضب النـاس كافة عليه فلا يقترب منه الرفيق ولا يكالمه الصديق خوفا من العيـون فأشتد الخوف بالناس إلى حد القنوط واليأس.

قال أحد كتاب الأخبار: فتجردوا للعداوة وابتهلوا إلى الله وتوجهوا إليه بقلوبهم واتفق أنه خرج من القاهرة فى شوال سنة سبعين ومائتين وألف هجرية ونزل بقصره ببنها العسـل على النيل كعـادته وهو قصر قـد أنشأه على مقـربة من تل تريب قيل موضع قـصر المقوقس عظيم قـبطة مصـر وأقام به أياما مع بطانتـه وكثيـر من الخدم والحشم والأتباع وطائفة من الغلمان فلما كـانت ليلة ثامن عشر شوال من السنة تآمر أولئك الغلمان على قتله فدبروا الأمر وأحكمـوا التدبير وتولى قتله أربعة منهم وقيل ستة والأول أصح فقاموا عليه وهو بفراشه فقتلوه وخرجوا من ساعتهم يوهمون أنهم إنما خرجوا يريدون القاهرة لأمر أشار به عباس باشا وتركوه وباب حجرته مغلق عليه فطلع النهار وارتفع وصار الـظهر قريبا ولم يدر أحد بما جـرى عليه واتفق أن مر فى ذلك اليوم بـبنها أحمـد باشا يكن يريد بالذهاب إلى إقطـاعاته بالمنصورة فلـما علم بوجود عباس باشا بقصره نزل للسلام عليه وطلع إلى الديوان وسأل عنه فقيل له أنه نائم فلبث ينتظره سـاعة حتى أذن الظهـر ثم قرب العصـر ولم يظهر خبـر فأوجس أحمد باشـا خوفا وقال دلونى على حجـرة نومه فدلوه عليها فطرق بابهـا فلم يجبه أحد فتابع الـطرق ثم أمر فكسروا الباب ودخلوا فإذا هو ملقى على فـراشه فأمر من كان معـه بكتمان الخبر واستـدعى كبير الخصـيان وقال له الباشا يأمـر بذهاب جميع النساء إلى القـاهرة فى هذه الساعة فنزلوا ونزل رجـال ديوانه الخاص وجمـيع الخدم والحشم والأتباع وجماعـة الغلمان وأبقى معه جماعة وألبس عبـاس باشا ثيابه وأعد عربته ولـم يعلم بالخبر إلا القليل فلما أذنت العـشاء أنزلوه من حجرته حـملا على الأيدى وأجلسوه فى عربته كأن به مرضا وجلس معه أحمد باشا وساروا إلى القاهرة

فى الكبكبة المعتادة وأنزلوه بمقره بالحلمية وأصبحوا وقد شاع الخبر بموته وتناقله الناس فلم يصدقوه وكان عمه الأمير محمد سعيد بالإسكندرية محجورا عليه فوردت عليه فى صباح ذلك اليوم رسائل التهانى وأرسلوا إليه يستقدمونه وتشاغل الناس عن جنازة عباس باشا حتى المقربون إليه والعائشون فى نعمته وأبطؤا فى دفنه فلم تخرج جنازته إلا بعد الظهر وكان اليوم شديد القيظ فسارت جنازته فى نفر من خواصه وبعض الجند ومرت من الغورية فالنحاسين والناس فى دهشة لا يصدقون بموته ثم طيروا الخبر إلى محمد سعيد باشا واستقدموه ليولوه الولاية فرحل عن الإسكندرية يريد القاهرة فكانت ولاية عباس باشا زهاء خمس سنوات رحمه الله.

(مطلب)

(ولاية محمد سعيد باشا ابن ساكن الجنان الحاج محمد على باشا الكبير)

لما ورد الخبر إلى الأمير محمد سعيد باشا بموت عباس باشا قيل: إنه اندهش وكاد أن لا يصدقه لولا ترادف رسائل التهانى عليه من كل فج وصوب فجمع إليه قناصل الدول وسار بهم من الإسكندرية يريد القاهرة فعلم فى الطريق أن ألفى باشا أحمد أخصاء عباس باشا تعاهد مع أمير جند قلعة الجبل على غلق أبواب القلعة ومنع سعيد باشا من دخولها واستقدام الأمير إلهامى ولد عباس باشا من الديار الأوروباوية وكان قد سافر إليها من أيام وتحالفا على ذلك فلما دخل سعيد باشا القاهرة لاقاه جميع رجال الدولة وأصحاب الوظائف العالية والعلماء والمشايخ وساروا فى ركابه إلى قلعة الجبل ومعه قناصل الدول وبعض كبار الأجانب ففتح لهم أمير جندها الأبواب وقابله الجند بالسلام وانطلقت ألسنتهم بالدعاء إليه ودقت البشائر وطيروا الخبر بولايته إلى الآفاق ففرح الناس فرحا عظيما قيل فلم يمض على ألفى باشا بياض يومه ذلك حتى مات غما وقيل خوفا مما فعل فتولاها الأمير محمد سعيد باشا ابن محمد على باشا فى عشرى شوال سنة سبعين ومائتين وألف هجرية أى سنة أربع وخمسين وثمانمائة وألف ميلادية فلما استقرت به الولاية وجاءه فرمان السلطان أحسن التدبير وأحكم السياسة ورتب أمور البلاد على ما فيه المصلحة لأهلها ورد جميع الأطيان التى كانت أعطيت إلى كبار المأمورين وأرباب الدولة على عهد إبراهيم باشا وعباس باشا إلى أصحابها من الفلاحين وأبطل الكثير من المكوس

والمغارم والضرائب الفادحة وأزال البدع والمظالم والأحدوثات التى كادت تدمر البلاد منذ ولاية إبراهيم باشا ورتب الخراج ورفع المتأخرات والبقايا من الأموال الأميرية عن الفلاحين ورد المتشردين منهم إلى أوطانهم وأمن الطرق وسهل سبل التجارة فراجت أسباب الزراعة واتسع نطاقها وعلت الأسعار فأثرى الفلاح وحسن حاله واتسعت مادة رزقه فأسرف وبالغ فى السفه حتى لم يبق ولم يذر.

وكان يحب الجندية ويعجب بها جداً فبالغ فى تنظيمها وأكثر عدد رجالها وألبسهم الملابس الفاخرة وسلحهم بالأسلحة المتقنة وجمع إليهم من أبناء جميع البلاد وأنشأ طائفة من السود فكانت على أكمل هيئة وأجمل نظام فكان إذا سار إلى بلد سار جميع الجنود فى ركابه وخلفها المكاحل والمدافع ودواب الحمل كأنها زاحفة للحرب والقتال وإذا عاد عادت على هذه الصورة من الكبكبة ونزلت بالخيام ظاهر القاهرة ومصر القديمة أو دخلت إلى منازل الجند كقصر النيل وطرا والجيزة وغيرها فلم يستقر بها المقام حتى يأتيها الأمر بالرحيل إلى مريوط أو أدفينة أو بنى سويف أو غيرها فكانوا دائماً على قدم الأهبة والاستعداد لا تفتر لهم همة ولا تخمد لهم عزيمة وكان مع حبه للجند وشدة تعلقه بهم شديد البطش فتاكا بمن تقع منه صغيرة أو كبيرة من العسكر فكانوا كأحسن عساكر الدنيا طاعة وخفة ونظاما وملبسا ومأكلا ومشربا.

(مطلب)

عصاوة عربان منية ابن خصيب وما جرى لهم

وظهر فى أيامه عصيان عربان منية ابن خصيب فركب عليهم بخيله ورجله وأعمل فيهم القتل والتشريد. قال بعض كتاب الأخبار: وكان سبب خروجهم عن الطاعة أنه أراد أن يأخذ منهم جماعة ليدخلهم فى مصاف الجند فيكون لهم ما لهم وعليهم ما عليهم وأنفذ إلى مدير منية ابن خصيب بإحصائهم فجمع المدير كبارهم وأصحاب الرأى منهم وكلمهم فى الأمر فامتنعوا وقالوا لا سبيل إلى ذلك ونحن وعيالنا متعهدون بخفر الدروب والجبال منذ ولاية محمد على باشا الكبير إلى هذا الحين فلا يصح إدخال أولادنا فى مصاف العسكر وإذهاب ما بأيدينا من الحقوق المعطاة لنا من ذلك العهد فراجعهم المدير فى ذلك فامتنعوا فألح عليهم فتجافوا وخاطبوه بفحش القول فأمر بهم فعوّقوهم ورفع أمرهم إلى محمد سعيد باشا فأغضبه ذلك قيل وكان يبغضهم بغضا شديدا لميل عباس باشا إليهم وتحريضهم على

قتال عربان أولاد على نكاية بسعيد باشا كما تقدم القول فأنفذ إلى مدير منية ابن خصيب يقول لا سبيل إلى غير ما سيرت به إليك فإياك والتقاعس وإهمال هذا الأمر فشدد المدير فى الطلب وألح على أولئك المشايخ فطلبوا مهلة فأمهلهم وسرحهم وضرب لهم أجلاً فساروا وتحصنوا بالجبل الشرقى ولم يرجعوا إليه وجاء الخبر بذلك إلى محمد سعيد باشا فكاد يتميز غيظا ونادى فى عسكره بالرحيل إلى منية ابن خصيب وبنى سويف فساروا وركبوا على أولئك العربان وقاتلوهم أياما كثيرة فترفع العربان إلى الجبل الشرقى وبعضهم إلى الجبل الغربى فتبعهم الجند وأعملوا فيهم القتل فقتلوا منهم خلقا كثيرا وسبوا النساء والأولاد والبنات وأتوا بهم إلى مدينة الفيوم وبنى سويف فكانوا يعطونهم إلى أصحاب البيوت كالإماء والعبيد وقبضوا على كبارهم وأصحاب الوجاهة منهم وأودعوهم السجون وكان الجند إذا كبسوا حيا من أحياء أولئك القوم وجدوا البيوت قاعا صفصفا ليس فيها إلا ما ثقل حمله وبخس ثمنه فيأخذونه فإذا ابتعدوا عنها قليلاً وجدوا الأطفال مطروحين مثقلين بالرمل كى لا يقدرون على الزحف فيموتون حيث وضعتهم أمهاتهم فكانوا يأتون بهم إلى بنى سويف والفيوم وغيرهما ويعطونهم إلى أهل الخير فيكفلونهم وكان أولئك العربان على عهد عباس باشا واسعى الكلمة عظيمى الصولة كبيرى الإهابة فعاثوا فى البلاد وأفسدوا وأهلكوا الحرث والنسل وأمر سعيد باشا فأعملوا فيهم القتل والشنق والتمزيق بنيران المدافع وأباحهم لجميع المديرين لا سيما يعقوب بيك مدير بنى سويف فأفحش فى قتلهم وبالغ فى البحث عنهم وتتبعهم أينما ساروا وخرب منازلهم وشرد من بقى منهم إلى أقاصى الشام والحجاز فاختفى من لم يتمكن من الفرار فى القرى والكفور وتزيابزى العامة والفلاحين وتكلم بكلامهم وترك ما يلتزمه العرب فى كلامهم من الترخيم وكسر آخر الكلم وقد كان الفقير منهم يانف من مخالطة أهل البلاد ومكالمتهم ويحسب ذلك عارا ومذلة فصار الكبير منهم لا يرى السلامة إلا بالالتجاء إلى أصغر بيوت الفلاحين، واشتد الخوف بأهل الفساد واللصوص وقطاع الطريق فاختفوا فأمنت السبل وسلكت المسالك واشتدت يقظة أهل البلاد فأقاموا الخفراء على الحدود ورؤوس الطرق والمسالك وارتفع الخوف عن الناس فكانت المرأة تأتى من مريوط إلى أقاصى الصعيد الأعلى برا من غير رفيق فلا تجد فى طريقها من يعترضها فى مالها أو عرضها أو يسألها من أين أو إلى أين وكبرت هيبة سعيد باشا فى أعين أهل البلاد كافة فانكفوا عن إيذاء بعضهم وعكف كل على مهنته وحرفته وصنعته فحسنت حالهم وكثرت أموالهم وغزرت مادتهم

ونمت زروعاتهم ودرت الأرزاق فأكلوا وشربوا وشبعوا ولبسوا ما لم يأكلوا ولم يشربوا ولم يلبسوا فى أيامهم الغابرة، ونظر إلى مستقبل موظفى الحكومة وأرباب الدولة فرتب لهم قانونا كافلا لمعاشهم إذا تقاعدوا عن الخدمة ورسم فى خامس ربيع الثاني سنة إحدى وسبعين بالعمل بمقتضى هذا القانون فكان من أكبر النعم وأجل المزايا التى لا يعادلها شيء عند جميع موظفى الدولة وهو معمول به إلى يومنا الذى نحن فيه حتى أصدر إسماعيل باشا قانونه الجديد فنفذ حكمه على من كانت خدمته فى مصالح الدولة ودواوينها تالية لتاريخ صدور ذلك القانون، وأنشأ القلعة القائمة على بناء القناطر الخيرية وسماها بالقلعة السعيدية ووضع أساسها بيده فى ثالث عشرى جمادى الآخرة من السنة وبالغ فى تنظيمها حتى جاءت من أحسن المبانى وأتقنها وقد زالت محاسنها وتشعث بعض بنائها فازالها اليوم جماعة الإنجليز ولم يبقوا منها حجرا على حجر، ولما كان شهر رمضان من السنة ظهرت الهيضة بالقاهرة ومصر واشتدت فكثر الموات فى الناس كثرة بالغة ولبث الحال على ذلك أياما فبلغ عدد من أحصى ممن مات نيفا وخمسة آلاف نسمة وأما من لم يحص فكثير ثم ارتفع واطمأنت القلوب وعاد من هاجر من أهالى القاهرة ومصر فرارا من الموت، وأعاد سعيد باشا بعض ما أبطله عباس باشا من المعامل والمدارس الملكية والعسكرية واستقدم العلامة رفاعة بيك من منفاه بالديار السودانية حيث كان أبعده عباس باشا لوشاية الواشين وسلمه مقاليد تلك المدارس فأفلحت وتخرج منها الكثير من أبناء البلاد.

وقدم فى ولايته الشهير فردينانديلسبس الفرنسوى إلى القاهرة وكلمه فى حفر خليج يصل البحر الأبيض بالبحر الأحمر مبتدئا من مدينة السويس إلى ما يجاور الاشتوم المعروف باشتوم الجمل على ساحل البحر الأبيض المتوسط وألح على سعيد باشا فى ذلك فاستكبر سعيد باشا هذا العمل وعده رابع المستحيلات وطاول ديلسبس ومناه فاشتدت عزيمة دى لسبس وشدد فى الطلب وأكثر التردد على مقر سعيد باشا وتواردت على سعيد باشا الرسائل تترى بعضها طعنا فى أعمال دى لسبس وبعضها استهزاء بمشروعه وسخرية به. قال أحد الكتاب: وأكثرت دولة الإنجليز من التنديد بهذا العمل الخطير واندفع أصحاب صحف أخبارها يسلقون دى لسبس بألسنة حداد ويبالغون فى الهجاء والسخرية فمنهم من سماه سيزوستريس القرن التاسع عشر ومنهم من قال بل هو إسكندر المقدونى ابن فلبس ومنهم من قال هو عمرو بن العاص فاتح مصر الذين تقدموا فى أيامهم إلى إيصال البحرين ببعضهما ولم يبق

لعملهم أثر على ما كان لهم من بُعد الصيت واتساع الكلمة وتذليلهم للصعاب ومع هذا كله لم ينثن لديلسبس عزم ولم تفتر له همة وثابر على الإلحاح فوعده سعيد باشا ومناه فرفع إليه فى ثانى عشرى صفر سنة إحدى وسبعين ومائتين وألف هجرية كتابا يقول فيه:

يامولاى ـ لقد طالما اشتغل عظماء العالم بأسره لا سيما ملوك مصر الأولين بأمر إيصال البحر الأحمر بالبحر الأبيض المتوسط وقد أثبت التاريخ ما قيل عن سيزوستريس فرعون مصر الشهير والإسكندر المقدونى وقيصر ملك رومية وعمرو بن العاص وبونابارته ووالدك محمد على باشا أنهم قد بذلوا جهدهم فى سبيل انجاز هذا المشروع الخطير وقد تم لبعضهم ما أراد فأوصلوا البحرين ببعضهما بواسطة ترعة تمرّ بالنيل وبقيت هذه الترعة مدة غير طويلة فى منتصف القرن التاسع قبل الهجرة المحمدية ثم علاها التراب فطمها وامتنع جريان الماء بها فتعطلت وبطل نفعها ثم قام بعضهم بعيد ذلك وأعاد هذا الاتصال فبقى زهاء أربعمائة سنة وخمس وأربعين سنة فى أيام خلفاء الإسكندر المقدونى على ديار مصر ولبث الحال على ذلك إلى القرن الرابع قبل الهجرة المحمدية ثم علاها التراب وطمها حينا حتى دخل عمرو بن العاص مصر بجيوش المسلمين فأخذ بأطراف هذا الأمر العظيم ونهض إلى استرجاع ذلك الاتصال ففاز ونجح وجرى الماء فيه فعبرته السفن مائة وثلاثين سنة ولقيام الفتن وتوالى البلايا والمحن علاه التراب فطم وامتنع سير السفن منه.

ولما دخل الشهير بونابارته بجيوشه ديار مصر وشاهد بعينى رأسه موقع ذلك الاتصال ودّ لو استطاع إرجاعه فينال شهرة عظيمة لا يمحوها كرور الأيام والسنين وعمد إلى تشكيل عمدة من كبارالمهندسين وأماثل علماء الآثار وأتى بهم من الديار الأروباوية لينظر فى انجاز هذه الأمنية وسألهم إذا كان فى الإمكان إرجاع ذلك الاتصال بشرط أن لا يمر بالنيل فأجابوه إلى ذلك ورفع إلى مقامه أحدهم الموسيو لوبير تقريرا عما ظهر لهم من البحث والتنقيب وما يحتاجه هذا العمل الخطير من النفقة فلما اطلع عليه بونابارته صاح قائلا أنه لعمل يستحق مزيد العناية والاهتمام ويجب علىّ إنجازه ولكن من أين لى النفقة الآن ويدى خالية فعسى أن يأتى يوم تعود فيه السلطنة العثمانية إلى سابق مجدها وغناها فتعيد ذلك الاتصال فيخلد ذكرها على ممر الأعوام فها قد آن يامولاى الأوان وجاء اليوم الذى قال عنه الشهير بونابارته نعم إن العمل خطير ولكن انجازه سيكون داعيا إلى ظهور شأن السلطنة العثمانية ورفعة كلمتها واتساع شهرتها فتقطع ألسنة القائلين بقرب سقوطها وزوال

مجدها ويرجعون فيعلمون أنها ما برحت صاحبة الكلمة المسموعة والقول الذى لا يرد ويخلد لها الذكر الحسن فى بطون التواريخ الجامعة لحوادث المدنية والعمران، ولا خفاء أن اجتماع دول أوروبا على الذب عن الأستانة وحفظها مقرا للسلطنة العثمانية والذود عن ذمارها ورغبتها فى بقاء السلطنة المشار إليها زاهية زاهرة موفقة معززة قوية على خصومها وقيامها لنصرتها عند أى حادث بالنفس والنفيس وركوبها على عدوها لقتاله وارجاعه إلى الطاعة والخلود إلى السكون إنما هذا كله نظراً لما لبوغاز السويس من خطارة المركز وأهمية الموقع الذى يفصل ما بين البحرين وحذرا من وضع يد إحداهن عليه فتصبح هى المالكة المتسلطة على بقية الديار فتنتقض المساواة وتختل الموازنة المتفق عليها بين الدول الغربية التى يهم العالم بأسره حفظها بين الدول الكبرى، ولعمرى إذا كان البوغاز المذكور هو سبب تكاثف سائر الدول على معاونة السلطنة العثمانية والاهتمام بأمرها فكيف بها لو جعلت مصر مركز العالم بأسره ومحط رحال التجارة وطريق العالمين الغربى والشرقى بالجمع بين البحرين فلابد وأن يزداد شأنها علوا وقدرها خطارة ومقامها أهمية لدى أهل السياسة إذ تصبح مفاتيح العالم بأسره فى يدها ولا خوف عليها فأنه متى تم حفر ذلك الاتصال قام جميع الدول بجعله حرا مباحا للجميع سواء وجعلته تحت رعاية الدولة العلية دون سواها إذ هى صاحبة الدار، وقد كان الموسيو لوبير من نحو الخمسين سنة قدّر عدد الفعلة اللازمين للعمل فى الاتصال المذكور بعشرة آلاف وضرب لهم أجلا لانجازه زهاء أربع سنين وقوّم ما يحتاجه من النفقة بقيمة ثلاثين أو أربعين مليونا من الفرنكات وقال أنه يمكن اتصال البحرين بواسطة ترعة على خط مستقيم وأما الموسيو طلابوت الذى سبق انتدابه لهذا الغرض ضمن الثلاثة المهندسين المشهورين الذين سيرت بهم الجمعية الفرنسوية التى تأسست بفرانسا من نحو العشر سنين للنظر فى هذا الموضوع فقد تراءى له جعل الترعة المذكورة واصلة من مدينة السويس إلى الإسكندرية بحيث تمر بالنيل على القناطر الخيرية وقدر للنفقة على هذا العمل مائة وثلاثين أو مائة وأربعين مليونا من الفرنكات ونحو عشرين مليونا أخرى لعمل مينا ورصيف بمدينة السويس وأما لينان بيك الموظف بخدمة الحكومة المصرية الموكول لعهدته منذ ثلاثين سنة حفر الترع وتقوية الجسور ونحوه فقد اشتغل بأمر البحث عن إعادة الاتصال المذكور بحثا مدققا مع ما هو عليه من الدراية والخبرة المشهود له بهما فى جميع الدول فتراءى له صلاحية مدّ ترعة بحيث تمر ببحيرة التمساح وأن يعمل

بالبحيرة المذكورة مينا ترسى فيها السفن الآتية من بيلوز التى هى آتية إلى البحر الأحمر أو من السويس إلى البحرالأبيض المتوسط وكذلك العلامة الشهير كاليس بيك مهندس الحصون والقلاع المصرية على عهد المرحوم أبيك قد كان رفع إلى أبيك رحمه الله مشروع حفر ذلك الاتصال على شكل خط مستقيم وعمل له رسما عن ذلك بقلم العلامة لينان بيك المشار إليه وموجيل بيك مهندس أشغال القناطر الخيرية والكبارى والجسور المصرية وما من هؤلاء إلا وكان يطنب لوالدك المبرور فى مدح هذا العمل وما ينجم عنه من الفوائد الجمة وفوق ذلك فأنه فى سنة أربعين وثمانمائة وألف ميلادية استدعى الكونت دى والوسكى الذى كان وقتئذ نزيل الديار المصرية الموسيو كاليس المومى إليه وكلمه فى أمر هذا الاتصال فرفع إليه كاليس تقريرا بما يراه ولكن قد حالت يومئذ دون انجاز هذا المشروع موانع لا وجود لها اليوم.

ولما كان من الواجب علينا أن ندقق البحث وغمعن النظر مع التأمل فى جميع آراء أولئك العلماء الأفاضل والمهندسين الأماثل مع مراعاة إن هذا المشروع المهم قابل للانجاز على أحسن حال وأتم منوال لزمنا أن نختار منها أسدّها وأصوبها وأقواها حجة وبرهانا فنعمل به وليعلم مولاى حفظه الله أن الموانع والمرابك والعقبات التى طالما أقلقت القدماء وأضعفت عزائمهم وحالت بينهم وبين انجاز هذا العمل الجليل قد زالت اليوم وهب أنها لم تزل باقية بعضها أو كلها فإن تحمل الصعاب مع الصبر والجلد فى سبيل انجاز هذا الأمر الخطير لهو من أوجب المواجب بل من أسمى المطالب بقى إذا علينا أن ننظر فى أمر النفقة وهذه أيضاً ليست بالأمر البعيد فأنه لا يصعب على أولى الحزم والعزم حل عقدتها على أحسن ما يرام إذ ستكون إيرادات ذلك الاتصال أضعاف أضعاف ما سينفق عليه وعلى ذكر هذه المسئلة الثانوية فليسمح لى مولاى أدامه الله بأن آتى إليه بالبيان الآتى بعد فيتضح لسموّه أن المصاريف التى يحتاجها عمل ذلك الاتصال لا تعد شيئاً فى جانب الفوائد المهمة والمنافع الجمة المترتبة على إعادته فضلاً عن كونه سيقصر المسافة الواقعة ما بين الهند وآسية وبين أوروبا وأمريكا وهذا البيان قد سطره الأستاذ الشهير والجيولوجى الماهر الموسيو كورديه.

أشهر مين أوروبا وأمريكا	المسافة ما بين المين المذكورة إلى بومباي		الفرق بين الطريقين بالفرسخ	
	من المحيط الأطلانتيكي	من طريق الاتصال الجديد		
قسطنطينية	٦١٠٠	١٨٠٠	٤٣٠٠	بالفرسخ
مالطا	٥٨٠٠	٢٠٦٢	٣٧٧٨	بالفرسخ
تريستا	٥٩٦٠	٢٣٤٠	٣٦٢٠	بالفرسخ
مارسيليا	٥٦٥٠	٢٣٧٤	٣٢٧٦	بالفرسخ
كاديش	٥٢٠٠	٢٢٣٤	٢٩٧٦	بالفرسخ
يسبون	٥٣٥٠	٢٥٠٠	٢٨٥٠	بالفرسخ
بوردو	٥٦٥٠	٢٨٠٠	٢٨٥٠	بالفرسخ
هافر	٥٨٠٠	٢٨٢٤	٢٩٧٦	بالفرسخ
لوندرا	٥٩٥٠	٣١٠٠	٢٨٥٠	بالفرسخ
ليفربول	٥٩٠٠	٣٠٥٠	٢٨٥٠	بالفرسخ
آمستردام	٥٩٥٠	٣١٠٠	٢٨٥٠	بالفرسخ
سان بطرس برج	٦٥٥٠	٣٧٠٠	٢٨٥٠	بالفرسخ
نيويورك	٦٢٠٠	٣٧٦١	٢٤٣٩	بالفرسخ
نيوفيل أورلانس	٦٤٥٠	٣٧٢٤	٢٧٢٦	بالفرسخ

ولقد وافق على هذا التقدير سائر المهندسين وأجمعوا على دقة ضبطه وقرروا بأنه يهم جداً سائر بلاد أوروبا وأمريكا والهند والعالم بأسره إعادة هذا الاتصال، وليعلم مولاى أن لا عمل في بلاده أكبر خطارة ولا أعظم فائدة ولا أجل شأنا من هذا العمل العظيم فليعمل مولاى على ذكر اسمه فى مصاف أولئك الذين تملكوا على ديار مصر وينجز هذا المشروع فى أيامه فيزدان حكمه بما لم ينله غيره من قبل

وتسعد الأمة المصرية فتتجه نحوها الأبصار وتمد إليها الأعناق وينادى باسم مولاى فى سائر أنحاء المعمورة ويخلد ذكره فى بطون التواريخ وينال من الشهرة ورفعة القدر ما لم ينله الفراعنة الذين شادوا الأهرام والهياكل الضخمة التى لا فائدة فيها للنوع الإنسانى كالفائدة المترتبة على إعادة ذلك الاتصال وإنما هى مبان تدل على القدرة البشرية التى سخرت كل نوع لحذقها وإظهار مجدها، ومن فوائد هذا الاتصال العظيمة التى لا ينكرها مكابر تسهيل طريق الحج إلى بيت الله الحرام وتعلق الناس بفن الملاحة وتسيير السفن وإتقان السباحة فى أرض البحار فيتسع نطاق التجارة وتنفتح أبواب الرزق على أهل البلاد المصرية ويعم نفع ذلك جميع البلاد الواقعة على ساحل القلزم وخليج العجم وشرقى أفريقيا ومملكة سيام وشنتين واليابان ومملكة الصين البالغ عدد سكانها زهاء أربعمائة مليون فضلا عن جزائر فيلبين وأوستراليا وجميع جزاير البحر الأبيض المتوسط التى هاجر إليها الكثير من الأوروباويين فتجرى المواصلات بينها جميعها وتسعد حالها.

هذا ولقد ظهر من الإحصاءات المدققة أن ما تنقله السفن الأوروباوية فى كل سنة عن طريق رأس الرجاء الصالح ورأس هارون لا يقل عن الستة ملايين طونلاطة فإذا سارت هذه السفن بطريق خليج العجم وترعة السويس المراد إنشاؤها زاد نقلها عن ذلك زيادة عظيمة وكان الدخل المتحصل منها زهاء المائة وخمسين مليونا من الفرنكات باعتبار عشرة فرنكات عن كل طونلاطة وربما زاد الدخل عن ذلك كلما انتظم سير السفن بالترعة المذكورة وحسنت الملاحة فيها، ويجب مراعاة أن إعادة هذا الاتصال بين البحرين يهم جدا دولة الإنجليز التى هى سيدة البحار وأغنى سائر العالم مالاً وأكثرهم تجارة وأكبرهم رغبة فى تقريب الاتصالات التجارية ولكن بعض أهل السياسة يقولون أن إعادة هذا الاتصال تضر جداً بمصالح الإنجليز وتحط بها لأنها تقرب العالم بعضه إلى بعض وتوسع نطاق ملاحة جميع الدول على أن الإنجليز لا يحبون تقدم غيرهم فى شىء من ذلك البتة ويميلون إلى أن يروا أنفسهم السابقين فى كل شىء والرابحين لكل شىء ولذا أصبح هذا البحث الدقيق الشغل الشاغل لكثير من أهل السياسة وكان من أكبر الأسباب الباعثة على تأجيل الشروع فى هذا العمل الجليل ولو تأمل أصحاب هذا الرأى فيما جاء فى المعاهدات التى أبرمت بين دول فرنسا وانجلترا والباب العالى فى هذا الشأن لتحققوا أن الأمر على غير ما يتوهمون وعلموا أن دولة إنجلترا تملك أهم وأعظم بوغازات العالم بأسره مثل جبل طارق ومالطا وجزاير الأرخبيل وعدن وغير ذلك فى الهند وسنجابور وأوستراليا فلا

يضر بشىء من مصالحها إرجاع ذلك الاتصال فإذا سمح مولاى بالأخذ بأطراف هذا العمل لا يسع دولتى الفرنسيس والإنجليز إلا الإذعان والموافقة على حفر مستطيل لا يتجاوز طوله ثلاثين فرسخا ولعمر الحق من ينظر إلى شكل هذا المستطيل على خريطة نظرة التأمل ولا يهيم شوقا إلى رؤياه برزخا يجمع ما بين البحرين أما مدّ خط حديدى من مدينة الإسكندرية إلى مدينة السويس كما تمنت ذلك الدولة الإنجليزية وسعت جهد الاستطاعة وراء الحصول عليه فهذا لا يأتى بالفائدة المطلوبة إلا إذا كان المراد منه مساعدة الملاحة فى الاتصال المذكور.

وإذا نظرنا إلى دولة النمسا فلا نراها تبدى اعتراضنا على هذا العمل لأنها أباحت حرية الملاحة فى نهر الدانوب والسوبليانا فلا سبيل لها إلى غير الإذعان والقبول وكذلك دولة المجر لا ترى فى هذا العمل سوى زيادة أهمية مينا تريستا والبندقية وجعلهما من أهم مين العالم التجارية فنعم به السعادة والرفاهية أهل بلادها ويتسع عندها نطاق التجارة والصناعة فلا تجد بدا من معاونتنا وهى على أتم ما يكون من حسن الرضا والقبول، وإن قيل أن دولة الروسيا لا ترضى عن ذلك العمل قلت هذا لا يكون لأنها تودّ ظهوره وهى الآن فى غناء عن أن تعارضنا لا سيما وجلالة قيصرها قد فاز بكل ما تاقت إليه نفسه فافسح لكل بلاد دخلت فى دائرة حكومته طرق التمدن والعمران فإذا تم عمل هذا الاتصال كان له نور على نور فينفذ قومه إلى أقاصى الهند بأصناف المتاجر والبضائع فتنفتح لهم أبواب الرزق وتسعد أحوالهم وكذلك تزداد العلائق يوما عن يوم بين الولايات المتحدة الأمريكية وبين الهند والصين وتزداد مواصلات أسبانيا مع جزائر الفليبين وهولاندا مع جافا والصومال وبرنيو ودولة إيطاليا الشهيرة قديماً مع اليونان وبالإجمال يسر العالم بأسره سرورا عظيماً يوم يعم خبر الشروع فى هذا العمل العظيم، وإنى أعد مولاى حرسه الله بأنى سأبذل جهد المجتهد فى الحصول على معاونة جميع هذه الدول وأقوم خير قيام بوفاء وعدى والسلام.

فاستحسن سعيد باشا هذا المشروع وأحله محل القبول وبعد التأمل والبحث الطويل أجاب الموسيو ديلسبس إلى الأخذ فى أسباب عمل الاتصال المذكور وأنفذ إليه إجازة تتضمن اثنتى عشرة مادة بصورة العمل وما يحتاجه من العمال وما يتبع فى حق الأراضى الواقعة على شاطىء الاتصال المذكور وكيفية المساهمة والمشاركة فى الأموال اللازمة للنفقة والأرباح الناتجة من الملاحة فيه وفى تسمية شركة لذلك

وتعيين عدد المساهمين وغير ذلك من الشروط والالتزامات التى يستلزمها هذا العمل العظيم، ولما كان لا يتأتى الجزم بالشروع فى هذا العمل عقب إعطاء هذه الإجازة للموسيو ديلسبس إلا من بعد مخابرة دار السلطنة العثمانية فى ذلك والحصول على رخصة البراءة السلطانية أو عز سعيد باشا إلى الموسيو دى لسبس بالشخوص إلى دارالسلطنة ليخابر صدر الدولة فى هذا الأمر فسار إليها فكان بينه وبين الصدر الأعظم أخذ وردّ أياما كثيرة وورد مرسوم الصدر الأعظم إلى سعيد باشا باستحسان المشروع وحلوله محل القبول لدى أمير المؤمنين ولزوم التأنى والتروى فيه قبل إنفاذه وأنه صار من ذلك اليوم موضوع نظر رجال الدولة ومبحث أرباب الحل والعقد وأنه قد تصرح للموسيو ديلسبس بالشخوص إلى حيث شاء حتى يأتيه أمر السلطان.

وجاء المسيو ديلسبس إلى القاهرة غير قانط ولاضعيف الأمل ولبث بها أياما يغدو ويروح على مقر سعيد باشا ثم سار إلى بلاد الفرنسيس ليعدّ المعدات ويجمع المال للنفقة فكثر تحدث كبار الدول فى هذا الأمر واندفعت أصحاب صحف أخبارهم تبدى وتعيد كل حسب ما تمليه عليه أهواؤه وما يلائم مصلحة بلاده ووقف الوشاة على باب السلطان يدسون الدسائس ويحركون ما فى صدور أهل الحل والعقد ويعملون على إبطال هذا المشروع فلم يكن بأسرع من أن عاد ديلسبس ومعه جماعات المهندسين والرسام والبنائين والغواصين وصناع الآلات ومعلمى طبقات الأرض والمعادن وشرعوا فى العمل فرسم محمد سعيد باشا فى سادس عشر ذى القعدة سنة اثنتين وسبعين ومائتين وألف هجرية بتسخير زهاء عشرين ألفا من أهالى البلاد بالمناوبة فى حفر ذلك الاتصال ووكل مديرى الجهات بجمعهم وتسييرهم فكانت شدة عظيمة للغاية ونال مشايخ القرى والبلاد من أهلها فأذلوهم وتمكن العدوّ من عدوه وشمت الغريم بغريمه وكادت تتعطل أسباب الفلاحة إذ هاجر الكثير من أهل البلاد ونزحوا من أوطانهم فرارا من هذه المحنة الكبرى، وسار ديلسبس فى العمل سيرا حثيثا غير مبال بعدم رضا السلطان ولا هياب من العاقبة وفرق العمال على طول خط الاتصال من بيلوز على البحر الأبيض التى على أرضها الآن مدينة بورسعيد إلى مدينة السويس فتبعهم البياعون على اختلافهم وأصحاب القهاوى والخانات وأهل الخلاعة والقصف فعمرت تلك الأصقاع وصارت آهلة بأخلاط الناس من الروم والترك والفرنجة والمصريين وغيرهم ممن جاء من البلاد البعيدة فى طلب الرزق واهتم رجال الدولة باستتباب الأمن فى تلك الأنحاء فرتبوا لها العسس

والشرطة لا ينكفون عن التطواف ليلا ولا نهارا وقام سعيد باشا بجميع تعهداته التى تعهد بها إلى ديلسبس ماديا وأدبيا فاندهش العالم بأسره وكان من وراء ذلك ما سيتلى عليك فى محله إن شاء الله.

وبينما كانت الأحوال على ما يرام والقلوب مطمئنة والفتنة راقدة إذ جاء الخبر بزحف نجاشى الحبشة على بعض الأملاك المصرية الواقعة على الحدود وشنه الغارة عليها وأنه نهب أهلها وساق مواشيهم وأسر منهم خلقا فهال سعيد باشا هذا الأمر وأزعجه فجند جندا عظيما لقتال النجاشى وعزم على لقائه وكان إلى هذا الحين لم يرتق كيرولس بطرك المتأصلين مسند البطريكية بل كان مطرانا ووكيلا للدار البطريكية بعد موت بطرس البطرك وكان بين كيرولس ونجاشى الحبشة مودة وصحبة قديمة على عهد بطرس فإنه كان سفيرا من قبل بطرس إلى النجاشى وقد نزل فى جواره أياما كثيرة، والحبشان يجلون بطارقة القبط ويخضعون لسلطتهم الدينية خضوعا عظيما ويعتقدون أن البطرك إنما هو أقرب جميع المخلوقات إلى نوع الملائكة والأرواح العلوية من أنواع البشر ولذلك لا يقربون من مقامه ولا ينظرون إليه فإذا نظروا اضطرارا فبطرف خاشع مطرق، وبعد أن تأهب سعيد باشا للمسير للقاء النجاشى عاد فحسب ما وراء هذه الحملة فخاف العاقبة وظهر أن ماء النيل آخذ فى الهبوط فى غير أوانه فخاف الناس وترامت ظنونهم إلى المرمى البعيد فسلك سعيد باشا فى الأمر مسلك التأنى وشاور أصحاب الفكر فأشاروا بإنفاذ رسل إلى النجاشى يكون كيرولس مطران المتأصلين صاحب الكلمة بينهم فأعجب سعيد باشا رأيهم وكلم كيرولس فى الأمر فأجابه إلى ذلك فرسم سعيد باشا فجهزوا له باخرة من بواخر النيل فركبها مع رجال الوفد وترفعوا نحو الصعيد الأعلى فكانت إذا مرت باخرتهم بإحدى المديريات أطلقوا لها المدافع إجلالا وتعظيما وأنزلوا فيها أصناف المأكول والمشروب ثم ركبوا الهجن والجمال حتى بلغوا حدود الحبشة وعلم النجاشى بقدوم كيرولس ومن معه فخف للقائهم وسار إليهم فى أربعين ألفا من الجند فلما اقترب من المحلة التى كانوا بها ترجل وسعى على أقدامه حاسر الرأس فقام كيرولس للقائه فقبل النجاشى يديه وقبل كيرولس رأسه وسار معه والجند حوله حتى دخل مجدلة تخت الملك يومئذ وشاع خبر مجىء كيرولس فى جميع أرض الحبشة ففرحوا فرحا عظيما ودقت البشائر وأقيمت الصلاة فى جميع الكنائس وبالغ النجاشى فى إكرامه وقد كان يتمنى لو أنه يراه كى يمسحه ملكا على جميع ملوك الحبشة كما

كانت تمسح أبناء بنى إسرائيل ملوكهم حسب ناموس موسى عليه السلام وكان إلى هذا الحين لم يعتبر النجاشى نفسه ملكا على سائر ملوك الحبشة إذ هو لم يمسح بتلك المسحة فلم يستقر بكيرولس المقام حتى سأله النجاشى أن يمسحه فأجابه إلى ذلك وضرب له أجلا فوفدت جميع ملوك الحبشة والأمراء وسائر قواد الجند والوجهاء والأعيان من أقاصى الحبشة إلى مجدلة وأقيمت الولائم والأفراح فى كل صوب وحدب أياماً ثم مسحه بين الملوك والأمراء وقواد الجند وصفوف العسكر والعدد العديد من أهل البلاد وفرح ثيودوروس النجاشى بذلك فرحاً لا يوصف وكان فى مجدلة نفر من الإنجليز مرسلين من الجمعية المعروفة بجمعية التبشير بالإنجيل لبث تعاليم مارتين لوثر الدينية بين الحبشان وقد تقربوا من النجاشى بعمل المدافع وصنع الأسلحة لعسكره وتعليمهم فنون الحرب والقتال حتى مال إليهم وأحبهم وأباح لهم التجول فى جوف البلاد فجالوها شرقا وغربا وشمالا وجنوبا وبثوا تعاليمهم حتى كادت تعم تقاليدهم جميع البلاد وأصبحوا وقد عبثوا بطقوس الكنيسة القبطية التى هى أم الكنيسة الحبشية فكبر هذا الأمر على مطران الحبشة وخشى العاقبة فعمد إلى إيقاف هؤلاء المرسلين عند حدهم فلم يفلح وقدكبر شأنهم واتسعت كلمتهم واشتدت الوحشة بينهم وبينه فلما جاء كيرولس شكى إليه المطران مما تلاقيه الكنيسة من أولئك القوم وسأله أن يتقدم إلى النجاشى فى تبعيدهم عسى أن تزول من البلاد تقاليدهم فأجابه كيرولس إلى ذلك ولما تمت الأفراح بمسح النجاشى ورجع من حضر من الملوك والأمراء والقواد والجند إلى أوطانهم كلم كيرولس النجاشى فى سبب قدومه عليه من مصر وسأله أن يردّ ما أخذه من بلاد مصر وأن يقلع عما يفعله فى الحدود منعا لقيام الحرب بين الحبشة ومصر وحقنا للدماء التى حرم الله سفكها فأذعن النجاشى وأجابه إلى كل ما طلبه ورسم فكتبوا إلى سعيد باشا يعلمونه بقبول ما طلبه كيرولس بغير شرط ولا تقييد ففرح كيرولس بذلك وكلمه أيضاً فى أمر المرسلين الإنجليز وزين له تسييرهم إلى أوطانهم فقال إنما هم عندى لعمل المدافع وتدريب عسكرى على القتال فقال كيرولس لم يبق موجب لبقائهم وقد زال ولله المنة والحمد ما كان بينك وبين والى مصر من الوحشة والنفور فإن كنت فى حاجة إلى صناع لآلات الحرب أو إلى من يدرب عسكرك أتيت لك من مصر بمن لا تحتاج معهم إلى غيرهم فقال النجاشى هذا ما أبغيه ثم رسم بإخراج من كان فى البلاد من جماعة الإنجليز فأخرجوهم وقد علموا بالسبب فشق عليهم الأمر جداً واستعظموه وصمموا على الانتقام.

وكتب كيرولس إلى سعيد باشا يعلمه بما جرى ويسأله أن يسير إليه بطائفة من الصناع والمعلمين وعلم قنصل جنرال الإنجليز بمصر بالخبر فعمد إلى الأخذ بالثأر والانتقام من كيرولس جزاء ما فعله بجماعة المرسلين فدخل على سعيد باشا بمقره وقال قد علمت أن كيرولس مطران القبط سأل مولاى أن يبعث إلى نجاشى الحبشة ببعض صناع آلات الحرب ومعلمى الجند فقال قد كان ذلك قال ولا أظن أن مولاى يجهل أن عند القبط كتابا يعتقدون صحة ما فيه وهو يدلهم على زحف الحبشة على أرض مصر فى يوم معلوم عندهم فيأخذونها عنوة قال لا علم لى بذلك ولعله حديث خرافة فقال القنصل هو كذلك ولكنى أتقدم إلى مولاى فى أن يأخذ حذره من كيرولس فأنه داهية طاغية قوى المراس بعيد الفكر محتال قال الراوى لهذا الحديث وما زال بسعيد باشا حتى تمكنت منه الظنون وترامت إلى المرمى البعيد وجمع إليه رجال ديوانه وأهل الدولة وشاورهم فى الأمر فأشاروا بالقتال وإعداد الجند والعسكر فرسم بالتأهب والاستعداد وكتب إلى كيرولس يعيب عليه ما فعله ويقول قد أفرطت وتجاوزت حد المصالحة فعجل بالحضور، وقام فى جيش عظيم قاصدا الخرطوم فوصلها فى سادس عشرى جمادى الأولى سنة ثلاث وسبعين ومائتين وألف هجرية، قال الراوى فلما تمت حيلة الإنجليز بقيام سعيد باشا بعسكره إلى حدود الحبشان دسوا إلى النجاشى من أعلمه بأن قدوم كيرولس إلى بلادك إنما هو لمنعك من إعداد جندك وآلات حربك لتذب عن مملكتك من إغارة والى مصر وقد أتى إلى السودان ليركب عليك بخيله ورجله فيأخذ ملكك ويذهب سلطانك وأنت آمن مطمئن وقد سير إليك أيضاً مع كيرولس كساه مسمم النسيج حتى إذا لبسته تسمم جسدك ومت من يومك وكان مع ما أتى به كيرولس من الهدايا والتحف النفيسة والتعابى الثمينة برنس من الجوخ الأحمر المزركش بطراز الذهب والفضة والحرير الملون فهال النجاشى هذا الأمر وأزعجه جدا وأنفذ من يستكشف له خبر مجيء سعيد باشا إلى الخرطوم فجاءه الخبر بوصول جيش عظيم من المصريين فكبر خوفه وتبدلت أفراحه أتراحا وأمر بكيرولس فسجنوه فى مقره وأحاط به الحراس من الجند ومنعوا من الدخول عنده ووكل به جماعة من خواصه يراقبونه فى الليل والنهار لمعرفة أحواله واستطلاع أسراره ووكل جماعة آخرين بطعامه وشرابه وضيق عليه وشدد وكيرولس لا يعلم بالخبر ولا يدرى ما هذا الأمر ثم لم يلبث أن نادى فى عسكره بالخروج وكثرت المناداة فى كل يوم فخرجت طوائف الجند مشاة وركبانا

فكانت شيئاً كثيراً للغاية وصـاروا على قدم الرحيل إلى حيث يلتقون بالعدوّ، ورأى النجاشى أنه إذا ترك كيرولس معتقلا وسار بعسكره للقتال تمكن كيرولس من الخروج فيمسح أحد بيت الملك أو أحد كبار قـواد الجند ملكا فتذهب سلطته وتسقط بيعته وتخرج عليه الملوك والقواد فيصبح بين منتطح عنزين فعزم على أن لا يتركه فكان إذا سار من بلد إلـى آخر ساقـه معه فى حلقـة من الحراس ونفـر من الخواص وإذا نزل بعسكره للراحـة استدعاه وجعل يؤنبـه ويعنفه بفحش الكلام ويقـول أو هذه فعالك ياإمام النصـرانية فشق هذا الأمر على كـيرولس وأحزنه جداً وأخذ فى التـدبير فكان كلما كلموا الملك فى أمره زاد غضبا وغيظا فلبث كيرولس على هذه الحال من الشدة أياماً طوالا إلى أن تمكن من لقاء أم الملك وكانت تقية صاحبة دين وورع فشكى إليها ما يلاقيه من ولدها وقص عليـها خبره واستجار بها وسألهـا أن تعلم ولدها بحقيقة الحال فـأجابته إلى ذلك وكـلمت النجاشى واستـحلفته أن يـجمع إليه رجـال دولته ويشاورهم فى أمر كـيرولس فلم ير بدا من طاعتهـا وجمع كبار قومـه ورجال دولته وقص عليهم ماعلمه من أمـر قدوم كيرولس إلى البلاد ثم أمر بحضوره فـاستحضر فسئل عن سبب حضور سعيد باشا إلى الخرطوم بعسكره وسبب وضع الكساء المسمم بين الهدايا التى قدمـها إلى الملك فوقف بين أيديهم والدمع ينحدر على لحـيته وبالغ فى بيان الحـقائق وأكـثر من مدح سـعيد باشـا وبالغ فى إخلاصه وولائـه للنجاشى وجميع قومه وما زال يستميل القلوب بحسن إيداعه حتى بش الملك وزال عنه بعض الغضب فقـال كيرولس: وأما الكسـاء فهو هدية الباشا إليك أيهـا الملك العظيم فلا يأخذنك ريب فى أمره ولا تصدق ما أخـبرك به الوشاة وما أنا إلا أخلص الناس فى الأمانة وأقرب إلى طاعة الله فلا آخذ بالوجوه ولا أبيع الآجلة بالعاجلة فإن كنت فى ريب من أمر هذا الكساء فأذن لـى حتى ألبسه ما شئت من الأيام فيـتحقق لك الأمر فاستـحسن الملك مقالته وأمـر بالكساء فأتوا به وألبسوه إيـاه على لحمه ووكل به من يحرسه يومين كـاملين فلم يصبه ضرر فاستغـرب الملك من ذلك وأمر فجيء برجل محكوم عليه بالموت فألبسوه الكسـاء ووكل به من يحرسه ثلاثة أيام فلم يصبه شيء البتة فالتفت الملك إلى قومه وقـال: ماذا تقولون قالوا: هى فرية ما أنزل الله بها من سلطان وقد أسأنا إلى كيرولس فليـجعلنا فى حل مما وقع فقال: بقى علينا أن نسأله إرجاع سـعيد باشـا إلى مقره فـإن فعل شكرناه وكنا له من المحـسنين ثم أرسل إلى كيرولس فدخل عليه فأجله وأجلسه بجـانبه فقال: هل لك أن تكتب إلى سعيد باشا

بالانحدار بعسكره إلى تخت بلاده ويكفينا وإياه شـر القتال فإن فعلت ذلك شكرناك واستغفرنا عما سلف قال: سأفعل الساعة إن شاء الله وكتب من فوره إلى سعيد باشا يعلمه بما جرى ويسأله الانصراف عن الخرطوم تتميما لقاعدة الصلح التى تقررت مع النجاشى وسير بالكتاب مع نفر من كبار الحبشان فلما ورد الكتاب على سعيد باشا رحل بعسكره عن الخرطوم وكتب إلى كيـرولس، قد رحلنا عن الخرطوم إلى القاهرة فبلغوا عنا الملك خـالص المودة وأعلموه أنا ما زلنا على حسن الولاء والمحبـة، فعاد الرسل بالجواب ففرح كيرولس فـرحا لا يوصف وقام ودخل على الملك فلاقاه الملك وهو حاسـر الرأس حافى الأقـدام وانكب على يديه يقبلهـما فقبل كيـرولس رأسه وسامـحه وأمـر الملك فدقت البـشائر وأقـيمت الأفـراح وأولمت الولائم ونودى فى العسكر بالخـروج فخرجـوا أفواجاً ومـروا بالمكان الذى كان به كيـرولس والنجاشى وصاحوا بأصوات التـهليل وأمر النجاشى فجيء إليه بورقة العـهد الذى رسم بعقده مع سعيد باشا فوقع عليها وهو بين كبار قومه ورجال دولته وأرسلت والدة النجاشى إلى كيرولس هدية نفـيسة للغاية وكـذلك الأمراء وكبار القواد وزاروه وقـبلوا أقدامه وتزاحمت على بابه أقدام المهنئين وأتوا إليـه من كل صوب وحدب ثم استأذن الملك فى الشخوص إلى مصر فجهزه بمال وأرسل معه كثـيرا من الهدايا النفيسة وسير معه وزيرا من كبـار وزرائه وكتابا إلى سعـيد باشا فلما وصل كـيرولس إلى الإسكندرية قوبل بغاية الاحتفاء والاحتفـال وأنزلوا وزير النجاشى بدار الضيافة الخاصة وقد رفع إلى سعيد باشا كتـاب الملك والعهد والهدايا ولبث أياماً كثيرة لم ير فيـها سعيد باشا غيـر المرة الأولى ثم استأذن بالانصراف فـأذن له وأرسل معه بعض الهـدايا والتحف وجوابا إلى الملك.

وأحس كـيرولس بعـيد رحيل وزيـر النجاشى بغـيظ محـمد سعـيد باشـا منه وإعراضه عنه فكبر عليه ذلك وتردد على مقر سعـيد باشا لعله يعرف شيئاً من الأمر فلم يتمكن فصمم على العزلة حتى تنجلى الحقيقة ويظهر الصدق لذى عينين، واتفق بعد أيام أن خـرج كيرولس إلـى دير أنطونيوس بالجبل الشـرقى ومعـه بطركا الروم والأرمن الأورثوذكس ليقضـوا فيه أياماً ترويحـا للنفس فلما وصلوا بلدة بوش على مقربة من بنى سويف نزلوا بعزبة الرهبان أياماً حتى تأتى القافلة فيخرجوا معها، قال الراوى لهذا الحـديث: وعلم قنصل الإنجليز بخـبر قيـامهم ونزولهم بعـزبة الرهبان ببوش فسار إلى مقر سعيـد باشا ودس إليه بأن كيرولـس إنما ذهب إلى الدير بمن معه

من البطاركة للتحالف وتجديد العهد على وحدة الطوائف الأروثوذكسية بمصر وجعل كيرولس بطركا عليهم ووضع الكنيسة القبطية تحت حماية دولة الروس فإذا تم له ذلك أصبح مسند الولاية المصرية على شفا جرف تحيط به الأخطار من كل جانب، قيل فانذهل سعيد باشا من فعال كيرولس وأنفذ إلى مدير بنى سويف يقول: سر إلى كيرولس بطرك القبط وقل له أن يأتى إلينا عاجلا فإنا فى حاجة إلى حضوره فسار إليه بعزبة بوش وأبلغه الرسالة فقال إنى ذاهب مع رفاقى إلى الدير بالجبل الشرقى فإذا عدنا إن شاء الله ذهبت إليه وتمثلت بين يديه فقال المدير اكتب بذلك فأخذ كيرولس ورقة وكتب مقالته هذه فبعث بها المدير إلى سعيد باشا فاشتد غيظه ثم كان من خبر كيرولس وما جرى له بعيد ذلك ما سيذكر فى محله إن شاء الله تعالى.

ولم تكن لتشغل محمد سعيد باشا عندما نزل على الخرطوم الحرب المنتظر وقوعها بينه وبين نجاشى الحبشة عن النظر فى شئون الرعية وإصلاح ما أفسدته أيدى الحكام والعمال من أمور البلاد وتخفيف الضرائب وإبطال بعض المكوس فأنفذ إلى جميع عماله على السودان فى سلخ جمادى الثانية سنة ثلاث وسبعين مرسوما يقول فيه: ليس منكم من يجهل ما ألاقيه من التعب فى سبيل إحياء ما اندرس من معالم المدنية والعمران وإيراد كافة صنوف الرعية موارد العز والرفاهية وقطع شأفة الظلم والاستعباد ومع ذلك فإنى لما قدمت إلى هذه الأصقاع شاهدت بعينى رأسى ما يلاقيه أهلها من الضنك والفاقة وسمعت بأذنى صوت أنينهم من أحمال الضرائب التى أثقلت كاهل الغنىّ منهم فضلا عن الفقير وفداحة الخراج المضروب على سقاياتهم وأطيانهم وتسخيرهم فى كثير من الأعمال التى لا قدرة لهم على القيام بها والإتجار فى أولادهم وبناتهم كالسلعة فى الأسواق فكان ذلك مما أحزن قلبى وبلبل فكرى لا سيما وقد علمت بأنهم أخذوا يهاجرون من أوطانهم إلى أقاصى البلاد هربا من هذه الكوارث والمحن المتراكم بعضها فوق بعض فلذلك قد عقدت النية على جعل الخراج قدرا يناسب حالة البلاد وأهلها وعلى أن أبذل جهد المجتهد فى إصلاح أحوالهم وترتيب أمورهم على ما فيه الصالح لهم ولذريتهم من بعدهم فلما نزلت على بربر جمعت المشايخ وجميع من جاء للقائى من أهل البلاد على اختلاف مراتبهم وسألتهم أن يؤمروا عليهم أميراً يختارونه من بينهم ممن يستبشرون بإمارته ويتوسمون فيه الخير للبلاد وتحصل على يديه السكينة والخلود إلى الطاعة وأن يقدروا مبلغ الخراج الذى يسهل عليهم القيام به بلا كلفة ولا مشقة ففرحوا بذلك وطلبوا أن

يربط على كل سقاية خراجا قدره مائتان وخمسون قرشا فى كل سنة فلم يعجبنى ذلك منهم لكثرته مع حاجة البلاد إلى التخفيف فرسمت بأن لا يزيد خراج كل سقاية عن مائة وخمسين قرشا وخراج كل فدان من أرض الجزائر خمسة وعشرون قرشا أما أراضى العلو فعشرون قرشا لا غير فكان لهذا العمل أحسن وقع فى قلوب سائر الرعية وفرحوا فرحا لا يوصف وأخلدوا إلى السكون والطاعة وهنأ بعضهم بعضا وأرسلوا يستقدمون من هاجر منهم وترك الأوطان.

ولما وصلت إلى الخرطوم جاءنى أولئك المشايخ والأعيان فأحسنت لقاءهم وأكرمت مثواهم وطيبت خواطرهم بما لم يسبق له مثيل علكم تقتدون بى وإنى لم أقلدكم المناصب إلا لتكونوا عونى على استتباب الأمن وإصلاح أمور الرعية فإياكم والعسف والجور ولا تجبوا الخراج إلا فى الأوقات المناسبة واعقدوا لتقرير قاعدة ذلك جمعية فى الثلاثة شهور التى لا زرع ولا قلع فيها وقسموا الخراج على أقساط متساوية يسهل عليكم جبايتها إلى آخر كل سنة وكلفوا جماعة الأعيان بتقرير هذا العمل وكل ما وقع عليه الاتفاق ارفعوه إلىّ ثم أحصوا جميع الكشاف والجند الموكلين بجباية الخراج واخلعوهم وقلدوا مكانهم مشايخ البلاد فهم أولى بذلك وعافوهم فى مقابلة هذه الخدمة برفع خراج سقاية فى كل خمس وعشرين سقاية هذا وحيث أن لأولئك المشايخ والأعيان بيوتًا ينزل عليها كل طارق وقاصد فارفعوا عن كل منهم خراج أربعة أفدنة فى كل مائة فدان وإذا ابتاعت الحكومة شيئًا من أهالى البلاد لزمها أن تنقدهم ثمنه حالاً بزيادة اثنين فى المائة عما تشترى به الأهالى بعضها من البعض الآخر وإياكم والمخالفة فيكون جزاؤكم شر الجزاء.

وحيث يوجد فى هذه البلاد من الأخشاب الصالحة للعمائر ومد السفن والحزايق وغيره شيئًا كثيرًا فاشتروا منه من الأهالى كل ما تيسر وسيروا به إلى القاهرة وانقدوهم الثمن معجلاً وعلموهم الصنائع والفنون وإنشاء المبانى المنظمة والمساكن المشيدة وغرس الأشجار بالشوارع والطرقات وإذا أعطيتم أحدًا أرضًا للفلاحة من الأطيان المتروكة فأخبروا بذلك المديرية التى أنتم فى دائرة اختصاصها وإذا عاد من هاجر إلى بلده وطلب رد أطيانه وكانت ثابتة إليه وجب ردها إذا لم يمض على انسحابه خمس عشرة سنة وارفعوا عن الأهالى جميع المتأخرات لغاية سنة إحدى وسبعين ومائتين وألف هجرية واعتبروا أن مساحة كل فدان أربعمائة قصبة وإن كل قصبة ثلاثة أمتار فقط وإياكم والمخالفة فيكون جزاؤكم شر الجزاء اهـ.

فلما ذاع خبر هذا المنشور بين أهل السودان فرحوا فرحًا عظيمًا وعاد منهم من هاجر ورحل عن الأوطان بسبب تلك المغارم والمظالم المتراكم بعضها فوق بعض وجاءت وفودهم إلى مقر سعيد باشا يقبلون أعتابه ويدعون له بخير ويعلمونه بأنهم قد أصبحوا على قدم الطاعة والخلود إلى الدعاء بدوام ملكه وتأييد عرشه فأكرم لقاءهم وأحسن وفادتهم ووعدهم بانجاز كل ما يتمنونه من الخير لبلادهم.

وكان ميالاً جداً إلى مد الخطوط التلغرافية والحديدية من القاهرة إلى قلب السودان فلم تمكنه الأيام من ذلك ولكنه رسم بتسيير عدة من سفن البخار فى النيل بين الصعيدين فكانت من أكبر أسباب العمران وأدعى إلى رحيل الكثير من الأجانب إلى تلك الأطراف، وكان سريع الخاطر قريب الغضب سريع الرضا يرضى بالقليل من كل شئ ولا يتطلع إلى ما فى أيدى الرعية ولم يظلم أحداً قط وكان إذا علم بظلامة أحد هاج وعاقب مرتكب هذه الظلامة لا سيما منهم أرباب الدولة والحكام وكان بعيد التعصب لأحد الأديان لا يفرق بينهم ولا يفضل بعضهم على بعض فأحبته الرعية ومالت إليه جميع القلوب وكان لا يملك داراً لنفسه فإن جميع ما ابتناه جعله ملكًا للخزينة، وسار فى عشر رجب من القاهرة يريد الحجاز فوصل مدينة السويس فى رابع عشرة وركب من يومه الباخرة المسماة نجد وزار الحرمين وتصدق فى مكة والمدينة وأطعم وفرق أموالاً كثيرة وقام من المدينة فى سادس شعبان فوصل ينبع فى ثالث عشرة وسار منها إلى مدينة السويس فوصلها فى سابع عشر الشهر المذكور ففرح الناس بقدومه ودقت البشائر وزينوا له مصر والقاهرة ثلاث ليال فكانت كلها أفراحًا، وكان بينه وبين نابوليون امبراطور الفرنسيس محبة كبيرة وكانا على وفاق فى كثير من الأمور فأبغضه لذلك كبار سياسة الإنجليز وعملوا على نكايته وتذليله، قال بعض الكتاب: فدسوا إلى السلطان أنه إنما يسالم نابليون ليساعده على الاستقلال بملك البلاد والخروج عن تابعية دار السلطنة وكانت المملكة العثمانية يومئذ فى غاية الارتباك والخبال لخروج الكثير من إيالاتها كالجبل الأسود والبوسنة والهرسك وغيرها عن الطاعة وطلب الاستقلال أو شبه الاستقلال مع تعرض الدول الكبرى إلى جميع أمور السلطنة الداخلية ووقوفهن فى سبيل إصلاح الأحوال وإرجاع الأمور إلى سابق مجراها فكانت إذا عمدت إلى إخماد فتنة فى إحدى الإيالات ظهرت ثورة فى أخرى وإذا تجردت إلى مقاومة طائفة قامت عليها أمة فكان كبار سياسة الدول يهولون ويرمون السلطنة بالجور والعسف ويسمونها بالغلطة

والجفاء فسعت وبذلت المهج فى سبيل إخماد تلك الفتن وأجهدت نفسها ولم تتمكن من إعادة السكينة إلى ربوع الهرسك وبوسنه وإصلاح بعض أمورها حتى ظهرت الفتنة بجزيرة كريد واشتدت وعظم أمرها فقام من بها من المسلمين على النصارى واقتتل الفريقان قتال الأعداء وكادت تمتد نار الفتنة إلى جميع البلاد فتدارك صدر الدولة يومئذ عالى باشا الأمر بحكمة منه وخلع والى الجزيرة وأقام مكانه سامى باشا استرضاء لفريق النصارى فسكنت الفتنة وعادت الأمور إلى ما كانت عليه وشدد الصدر الأعظم فى مراقبة الأحوال واستطلاع الأخبار فلم يكن بأسرع من أن ظهرت الفتنة أيضًا بمدينة جدة فقام من بها من المسلمين وركبوا على النصارى فى ذى الحجة سنة خمس وسبعين وأعملوا فيهم القتل بحد السيف وجرحوا قنصل الفرنسيس وكاتبه بجراحة عظيمة وقتلوا زوجة القنصل وجاء الخبر بذلك إلى دار السلطنة فاهتم له الصدر الأعظم وفؤاد باشا ناظر الخارجية اهتمامًا عظيمًا وسيرا فى الحال فريقًا من الجند ومقدمه إسماعيل باشا وأباح له الصدر قصاص جميع أصحاب هذه الثورة بالقتل من غير معاودة فسار إسماعيل باشا قاصدًا جدة فلم يبلغها حتى علمت الدول الكبرى بالأمر فهاجت وماجت ونادت بالويل والحرب وأنفذت دولتا الفرنسيس والإنجليز إلى بعض سفن حربهما بالشخوص إلى جدة ورميها بالقنابل تباعًا حتى تدكها دكًا وأعلمتا الباب العالى بذلك فراجعهما فلم يلتفتا لقوله، وكان لما وصل الخبر بما جرى فى مدينة جدة إلى عامل السلطان على مكة سار من فوره إلى جدة وقبض على أصحاب الفتنة وزعماء الثورة وحكم على جماعة منهم بالقتل وعلى آخرين بالتبعيد ورفع أمرهم إلى دار السلطنة ولبث ينتظر الجواب فوصلت فى هذه الأثناء إحدى سفن الحرب الإنجليزية وعلم ربانها بما جرى فسير إلى العامل على مكة يطلب التعجيل بقتل أصحاب الفتنة وضرب له أجلاً أربعًا وعشرين ساعة فأعاد إليه الجواب لا أعمل عملاً حتى يأتينى أمر السلطان فلما مضى الأجل المضروب أطلق ربان السفينة قنابل مدافعه على المدينة تباعًا واشتد الرمى وتراسلت القنابل زهاء عشرين ساعة حتى كادت تدمرها ولا تبقى بها حجرًا على حجر ومات تحت الردم خلق كثير وبينما القنابل تتساقط من كل صوب وحدب إذ وصل إسماعيل باشا مبعوث السلطان ومعه طوائف الجند والعسكر العثمانى فكلم ربان السفينة الإنجليزية فى الكف عن رمى القنابل فأجابه إلى ذلك وأنزل من معه من العسكر وكذلك أنزل إسماعيل باشا عسكره إلى البر ورسم بقتل أصحاب الفتنة وزعماء الثورة فعلقوهم على الأخشاب وبالغوا فى التمثيل بهم فزالت الفتنة ولم يبق لها أثر.

وكانت هذه الدسائس وأشباهها موجبة لطيرة السلطان وتخوفه من جميع عماله ورجال مملكته وتحذره عند كل حادث فلما أعلموه بخبر مسالمة سعيد باشا لنابوليون ودسوا إليه أنه إنما يتودد إلى نابوليون ليكون له عونًا على الخروج والاستقلال بملك مصر خشى العاقبة والبلاد باب الحرمين وطريق الحج إلى بيت الله فبث العيون ليأتوا إليه بالأخبار وما زال حتى تحقق أنها فرية لحاجة في النفس فأخلد إلى السكينة مع التحذر والالتفات وما زالت الأمور بينهما على ما يرام من التودد والصفاء حتى مرض السلطان ومات في سابع عشر ذى الحجة سنة سبع وسبعين ومائتين وألف هجرية أى سنة إحدى وستين وثمانمائة وألف ميلادية فكانت سلطنته ثلاثًا وعشرين سنة وستة أشهر وعمره أربعون سنة وأربعة عشر يومًا.

ومات في أيامه بطرس بطرك المتأصلين بعد أن أقام اثنتين وأربعين سنة وكان تقيًا ورعًا زاهدًا متقشفًا محبًا للخير قليل الكلام مع هيبة ووقار يقضى يومه منكبًا على المطالعة ولا يجلس إلا على الأرض ولا يلبس إلا الصوف الخشن ولا ينام إلا على حصير من القش بعيد الغضب إذا تكلم فمع التأدب والحشمة ولا ينظر إلى وجه سامعه وكان قد استقدمه إبراهيم باشا إلى بيت المقدس على عهد حكمه على الشام فأكرم وفادته وأحسن لقاءه وبالغ في تعظيمه ثم أعاده إلى القاهرة، قيل ولما احتضر سأله بعض كبار الأمة عمن يخلفه في المنصب فرفع عينيه إلى السماء لحظة ثم أطرق وقال داود رئيس عزبة بوش فاستقدموه عاجلاً وكان قد كتب إليه قبل مرضه بأيام كثيرة أن أحضر ولا تبطئ فإني في حاجة إليك، وكان لا يتعرض إلى أمر من أمور السياسة ولا يجتمع بأحد من ولاة الأمور وإذا سار في الطريق أرخى على وجهه لثامًا أسود، مات في ليلة الرابع عشر من جمادى الآخرة سنة ثمان وستين ومائتين وألف هجرية ولم يصل داود إلى القاهرة إلا في تاسع عشري رمضان من السنة أى بعد موت بطرس بشهرين وخمسة عشر يومًا فقد كان رسوله إلى الرسا على ملك ملوك الحبشة لفض الخلاف الذى كان بين الحبشة ودار البطريكية بخصوص الدير المعروف بدير السلطان الكائن بأرض بيت المقدس، وتحرير الخبر أن للقبط بأرض بيت المقدس ديرًا عظيمًا يعرف بدير السلطان وهو على مقربة من كنيسة القيامة وكانت تأوى إليه جماعة من الحبشان المتوطنين ببيت المقدس كسائر الأغراب الذين لا مأوى لهم بتلك الديار فاتفق أن وقع بين بعض أولئك الحبشان وبين رهبان ذلك الدير شقاق أدى إلى المخاصمة ثم إلى الملاكمة فلم يسع الرهبان إلا إخراج

أولئك الحبشان خارج الدير المذكور وسد أبوابه فى وجوههم فتحزبوا وأرادوا الدخول عنوة فلم يفلحوا فشكوا أمرهم إلى أصحاب الحل والعقد فلم ينالوا غرضًا وكأنه قد كبر مصابهم على قنصل الإنجليز ببيت المقدس فتجرد للأخذ بناصرهم وبالغ فى تعضيدهم لأمر لم تصل إلينا معرفته فقام أولئك الحبشان يدعون ملكية الدير المذكور وقالوا إن الذى أنشأه هو أحد ملوك الحبشة ولذلك يسمى بدير السلطان وأما القبط فلا ملك لهم ولا سلطان منذ دخول النصرانية بأرض مصر وإنما السلطان للحبشان وقال القبط: غير ذلك وإن الذى بناه هو الأسعد أحد عظماء القبط فى خلافة محمد المهدى ثالث خلفاء بنى العباس وقد كان الخليفة المشار إليه أحسن إلى القبط بقطعة الأرض الواقع عليها بناء الدير المذكور ورسم ببنائه على نفقته فسماه جماعة القبط من يومئذ دير السلطان إجلالاً للخليفة المهدى وتعظيمًا واشتد الخلاف وتحرجت الأمور بين الفريقين فأوعز قنصل الإنجليز ببيت المقدس إلى جماعة الحبشان برفع ظلامتهم إلى دار السلطنة العثمانية فسار نفر منهم إلى القسطنطينية ووردت كتب النجاشى فى ذلك إلى بطرس البطرك فرسم بطرس إلى مطران بيت المقدس بفض هذا الخلاف بالتى هى أحسن فبذل المطران الجهد فى إقناع جماعة الحبشان فلم يفلح واستفحل الأمر وتعذر الوئام وكبر التساهل على الفريقين وقنصل الإنجليز لا يقف عند حد فلما أعيا بطرس البطريرك الحال وخشى سوء المآل استقدم داود رئيس عزبة بوش التى هى مفتاح دير أنطونيوس بالجبل الشرقى ورسم له بالذهاب إلى الحبشة سفيرًا إلى الرسا على لفض الخلاف الواقع بسبب ذلك الدير وكان لداود المذكور إقبال وحسن سياسة فسار فى نفر والتقى بالرسا على وكلمه فى الأمر قال بعض الكُتاب: فلم يفلح لسعاية قنصل الإنجليز وطال مقامه على غير طائل فجاء إليه الطلب فى أوائل ربيع الآخر سنة ثمان وستين فتقدم إلى النجاشى فى ذلك فلم يأذن له وعوقه أيامًا أخر ثم سرحه فوصل القاهرة فى تاسع عشرى رمضان فكانت مدة لبثه عند النجاشى سنة وبضعة أشهر وكان وصوله إلى القاهرة بعد موت بطرس كما تقدم القول فلاقاه الناس باحتفال عظيم للغاية ونزل بدار البطريكية ضيفًا ولبث بها أيامًا على الرحب والسعة ثم اجتمع كبار الملة وأصحاب الرأى فيهم وتشاوروا فى إقامة داود خلفًا لبطرس فاتفقت كلمتهم على ذلك وكان الأمر يومئذ إلى عباس باشا حلمى والى الديار المصرية فاجتمع جماعة من كبار الملة ورفعوا إلى عباس باشا رقعة بطلب إقامة داود مكان بطرس البطرك، قال أحد كُتاب الأخبار فطاولهم وسأل

أصحاب الزايرجات عما يرونه فى إقامة داود بطركا فأرجفوا وهولوا وقالوا نكد ثم خصام وشدة ثم موت الوالى وتمزيق شمل أتباعه فاضطرب عباس باشا وشدد فى السؤال فلم يروا فى حسابهم غير ذلك وكان من مقدمى دواوين الدولة يومئذ ديوانى اسمه جاد أفندى عونى وهو جاد شيحه فاستدعاه كتخدا الباشا وقال له أعلم جماعة القبط بأن لا سبيل إلى ولاية داود منصب البطريكية فإن أبوا إلا هو كانت الطامة الكبرى فلما علم القوم بما قاله كتخدا الباشا اختلفت آراؤهم وتفرقت كلمتهم وانقسموا فمنهم من قال: لا نختار غير داود ومنهم من طلب الأنبا يوساب أسقف إخميم وهؤلاء هم أنصار جاد أفندى ومنهم من اختار الأنبا اثنا سيوس أسقف أبى تيج ومنهم من اختار غيره واشتد الخلاف وتفرقت الأهواء وكثر التحزب وتوالى الاجتماع فى الليل والنهار ولبثوا على هذه الحال أيامًا وجاد أفندى يغدو ويروح على كتخدا الباشا ليعلمه بأخبار كل يوم.

فلما كادت الحزمة تنصرم وثار الوحشة بين الأحزاب تضطرم قام أنصار داود ولجئوا إلى المستر ليدر أحد مرسلى جمعية التبشير الإنجليزية واستنجدوه فكلم قنصل الإنجليز فى ذلك والقنصل كلم عباس باشا فطاوله فألح عليه فمناه وطال الحال والناس يذهبون فى كل يوم إلى بيت القنصل ويسألونه التعجيل، واتفق أن قدم فى هذه الأثناء رسول من قبل نجاشى الحبشة ومعه كثير من التحف والهدايا النفيسة إلى عباس باشا وشئ من الذهب والفضة والمرجان والدواب والوحوش البرية وكتاب من النجاشى لم يصل إلينا علم مافيه فأنزلوه فى دار الضيافة فلم يمض على حضوره إلا أيام حتى شاع الخبر بأن القبط جميعًا كانوا على قدم الخروج وشق عصا الطاعة وأن داود إنما سار إلى النجاشى ليستنجده وكثر تحدث الناس فى هذا الأمر فلما كان فى أحد الايام جاء إلى دار البطريكية رسول من قبل محافظ البلد ومعه جماعة من الكتاب والجند وجعلوا يسألون داود عن سبب ذهابه إلى النجاشى وما كان بينه وبين النجاشى من القيل والقال وعما هى رسالة بطرس البطريرك إلى النجاشى وظلوا على هذه الحال أيامًا ثم رسم عباس باشا يحمل داود إلى مجلس الأحكام بقلعة الجبل فكانوا يأتون به أمام المجلس فى كل يوم المرة والمرتين ويشددون عليه فى السؤال وهو مع ذلك ساكن القلب هادئ اللب لا ينطق عن الهوى فكبر أمره على عباس باشا وزادت كراهته للقبط فرسم بإخراج جميع مباشرى الدواوين من خدمة الدولة وكذلك سائر الكتاب فأخرجوهم وأقصى أصحاب الوجاهة منهم إلى سنار

ودارفور وبالغ فى تذليل من لم يمكن الاستغناء عنهم فكانوا لضيق الحال ونفاد ما بأيديهم يشترون المصالح الديوانية بالمناقصة وكثر ذهاب أنصار داود إلى بيت المستر ميرى قنصل جنرال الإنجليز يستفزونه إلى الأخذ بناصرهم وعباس باشا لا يزداد إلا إباءً وعنادًا ثم سير كتخدا الباشا يومًا فى طلب جاد أفندى ورسموا له بأن يختاروا آخر غير داود خلفًا لبطرس وأن يعجلوا فى ذلك كى لا يبقى لوساطة القنصل محل فقام جاد أفندى واجتمع من ساعته بجميع الأساقفة وأخبرهم بما يريده كتخدا الباشا وقال لهم اختاروا واحدًا من بينكم يكفينا مؤنة التطويل فاختلفت كلمتهم وتفرقت أغراضهم وذهب كل إلى مذهب ثم طال بينهم الكلام واشتد اللدد والخصام ففشا سرهم وانكشف خفى أمرهم وتفرقوا فى ليلتهم تلك على غير طائل وأصبحوا وقد اجتمعوا وبينهم جاد أفندى وتكلموا فى الأمر وبعد أخذ ورد اتفقت كلمتهم على مبايعة الأنبا يوساب أسقف إخميم وكتبوا عهدًا بذلك وتحالفوا على كتمان الخبر فلما كانت الليلة الأولى من رجب الفرد سنة تسع وستين ومائتين وألف هجرية اجتمع جميع الأساقفة بدار البطريكية فتبعتهم الغوغاء سرًا ومعهم صاحبهم يوساب وجاد أفندى ونفر من أقاربه وأغلقوا الأبواب وأقاموا الحجاب تحرسهم ورفعوا الصلاة وبينما هم على هذه الحال إذ برز أعمى من عرفان المكاتب اسمه ينى وجعل يطوف فى الأزقة والحارات المجاورة لدار البطريكية وينادى بأعلى صوته هبوا يا قوم فقد قضى الأمر اليوم يا قوم ها هم يبايعون الليلة أنبا يوساب فإن تغافلتم ندمتم وإن نشطتم غنمتم يا قوم قد قامت الصلاة قد قامت الصلاة بادروا قبل الفوات هداكم الله هداكم الله، وما زال يكرر النداء ويكثر من الصياح والتطواف حتى استيقظ الناس وهبوا من نومهم وهم لا يدرون ما الخبر وهرعوا إلى دار البطريكية فتبعتهم الغوغاء واقتحموا الأبواب وعلت الضوضاء وكثر الصياح وهب جماعة من الحبشان كانوا نيامًا بدار البطريكية وسألوا عن الخبر فزينوا لهم إخراج الأساقفة من المسجد فذهب جماعة منهم وأتوا بالعصى والمساوق واقتحموا المكان الذى كان به جمع الأساقفة ورسول الباشا وهم لا يعرفون حقيقة الخبر فكسروا الأبواب وفرقوا شمل جميع الحجاب وصاحوا فى وجوه الأساقفة وأخرجوهم قسرًا فعلت أصوات العامة وكثر الصياح ووقع بينهم الهرج وطلب العامة رسول الباشا فكان كمن غمس فى الماء أو عرج به إلى عنان السماء وظل جماعة الحبشان والناس يغدون ويروحون أمام دار البطريكية حتى مطلع الفجر فتفرقوا وانصرف جمعهم.

وقد بدأ التعصب يدب فى صدور الناس ولاحت لوائح الفتنة وظهرت علائم اليأس فذهب قنصل الإنجليز إلى عباس باشا وأخبره بما جرى وبالغ فى الأمر وهوّل فى سوء العاقبة وأشار إلى ما سيكون من وراء الإباءة والمنع فخاف عباس باشا ورسم بإقامة داود وكيلاً للدار البطريكية فرضى القنصل ورضى سائر القبط بذلك وقالوا أن أول الغيث قطر فلما كان خامس عشر رجب من السنة سير الباشا مرسومه بذلك فأقاموا الصلاة سراً خوفًا من قيام جماعة الحبشان إذ كانوا لا يحبون داود ولا يرضونه بطركا فما كادت الصلاة تتم حتى برح الخفاء وشاع الخبر فاجتمع الحبشان بالمسجد فلحق بهم العامة وتبعهم أتباع المصلين واقتحموا الأبواب وبأيديهم العصى والمساوق وصاحوا فى وجوه المصلين وأكثروا من شتمهم وسبهم ثم تماسكوا بالأطواق ووقع الضرب واللكم وكثر الصياح وعلت الأصوات واشتدت الجلبة وتطايرت العمائم عن الرؤوس وتكسرت مصابيح المسجد وأطفئت الشموع فهرب الأساقفة واختفى داود وأصحابه ففتش عليه الحبشان فلم يعثروا عليه فانكفوا وسكنت الفتنة وقد كان لا يظن أنها تسكن وأصبحوا وقد اتفقت كلمتهم على إقامة داود خلفًا لبطرس فلما كان يوم الأحد التالى اجتمعوا بالكنيسة الكبرى وبايعوه جهاراً وسموه كيرولسا وولوه مطرانًا على كرسى مصر ووكيلاً للكرسى البطريكى فلم يستقر به المنصب حتى قامت الفتنة ووقع الخلاف فتفرقت الكلمة وتحزبت الأحزاب وذهب كل إلى مذهب فى أمر كيرولس وكبرت الوحشة بينه وبين فريق منهم وقد كانوا هم مقدمى القوم وأصحاب الكلمة فيهم فحجروا عليه فى جميع تصرفاته ومنعوه من النظر فى شئون الملة واشتدوا عليه شدة بالغة فكان إذا أراد النوم لا يجد لرأسه وسادة ولا لجنبه فراشا وإذا جاع لا يطعم إلا ما قدموه إليه وإذا زاره أحد فلا يأذنون له بلقائه وهو مع ذلك ساكن البال رائق الحال لا يألو جهدا فى تأليف القلوب المتفرقة والنفوس المتنافرة وما زال حتى أفلح فى ضم الكل إلى الكل فصاروا على الخير أعوانا وفى ذات الله إخوانا وطرحوا عنهم الخلاف وعادوا إلى الاستنجاد بقنصل جنرال الإنجليز على تولية كيرولس منصب البطريكية فأجابهم إلى ذلك وما زال بعباس باشا حتى رسم فى سلخ شعبان من السنة أى سنة سبعين ومائتين وألف هجرية بولايته.

فلما كان تاسع رمضان بايعه الأساقفة فى أبهة زائدة وطيروا الخبر بذلك إلى الآفاق وفرحوا بولايته ووفد عليه المهنئون من كل صوب وحدب ولم يمض على

ارتقائه منصب البطريكية أيام حتى مات عباس باشا فاعتقد الناس صحة ما قاله أصحاب الزايرجات وأحلوه محلا، ولما استقر بكيرولس المنصب جمع إليه القلوب المتنافرة واستمال الخواطر المتباعدة وأصلح ما أفسده التحاقد فمال الناس جميعا إليه وأخذوا بكلمته وساروا بمشورته فعمد إلى إخراج سليلة قدماء المصريين من حضيض الجهالة ومهاوي الرذالة إلى أوج المعارف والتمدن وصروح التعلم والتفنن فأنشأ لهم المدارس وأتى لها بكبار الأساتذة والمعلمين من الفرنسيس والإنجليز والإيطاليين وعلماء العربية وأكثر لها من المعدات والأدوات والكتب المرتبة وغير ذلك، وكان المشار إليهم في تعليم الأطفال يومئذ جماعة من العميان يعرفون باسم العرفان وكان لهم منزلة عظيمة بين الناس وحرمة واسعة وكلمة مسموعة فلما أحسوا بما فعله كيرولس أدركوا ما وراءه من الخيبة وسد أبواب الرزق في وجوههم فتجردوا إلى العداوة وإيقاظ الفتنة الراقدة وجعلوا يطوفون البيوت ويحضون آباء الأولاد وأمهاتهم على العصيان وشق عصا الطاعة ويقولون كيف تلقون أولادكم بأيديكم إلى التهلكة وصاحبكم كيرولس قد عاقد الدولة على أن يجند لها من أولادكم ألوفا لتدفع بهم إلى حيث لا يعلم إلا الله وكان إذا وصل إلى دار البطريكية شيء من الكتب أو معدات التعليم ولولوا وقالوا هذه البنادق وآلات الحرب وملابس الصيف وأحذية الشتاء تأتي على عجل وكان الناس كافة كما هو اليوم يكرهون الجندية ويخافون التجند خوفا ما عليه من مزيد فاعتقدوا صحة الخبر وأخذتهم الطيرة وكرهوا عمل كيرولس وتجردوا لمقاومته وجماعة العرفان لا ينكفون عن التطواف وحض الناس على مقاومته، أقول وقد كنت وإخوتي نتعلم العربية عند أحد أولئك العميان ولي من العمر يومئذ السابعة فبينما نحن يوما نرقب حضوره كالعادة إذ أقبل يهرول في ثيابه ويده على كتف أحد الصبيان فقمنا إجلالا إليه وأقبلنا جميعا نقبل يديه فجلس ثم أخذ يتمايل تمايل الزق المفنوخ أو البو المسلوخ وأخرج علبة السعوط فحشا خياشيمه حشوا حتى تأوه وعطس ثم مخط وسعل وتفل يمنة ويسرة وضرب الأرض بعصاه فطار عثيرها وتساقط على رؤسنا تساقط المطر وصاح لا حول ولا قوة إلا بالله.

ثم قال أف لكم وتعسا لوالديكم فلسوف تلقون غدا ما تلقون فقد استسلم آباؤكم إلى الترهات وزخرف القول فضلوا وألقوكم بأيديهم إلى التهلكة فبئس المصير بئس المصير ثم عاد فحشا خياشيمه بالسعوط وصاح اقرؤا ارفعوا أصواتكم ثم اشتد

به السعال حتى كاد يغمى عليه فلما أفاق قال ها هاهيه أسمعنى صوتك، كرر لوحتك، اسكت يابن النجار، اخسأ ياشقى، اخرس ياشيطان، لا تعض أذن أخيك يابن الصائغ قم وأفرغ ما فى خياشيمك يابن يوسف صه ياأحدب ياأبا الرأسين يا أبا ذباب وما زال على هذا الحال من النداء والصياح والجلبة والسب والشتم ونحن فى جلبة وضجيج حتى نعس ونام واشتد غطيطه ونحن كالحلقة حوله ندفع عنه الذباب ونطرد الكلاب الداخلة علينا من الباب فلما سكنت قلوبنا بنومه أقبلنا على معلمنا الذى كان يكتب لنا الألواح ويضفر لنا زعف النخل فراشا نجلس عليه فسألناه عما أصاب العريف فى يومه فقال هو بخير وعافية ولكنه فى شاغل مما أتاه كيرولس البطريرك فإنه على عزم أن يجمع جميع أبناء الملة ويضعهم فى دار أنشأها بالقبيلة وسماها (دار العلوم) وقد عين لدخول التلامذة فيها يوم كذا ونودى بذلك فى الناس اليوم بالكنيسة الكبرى فدعونا وهذا الكلام وارفعوا أصواتكم قبل أن يرفع العريف رأسه فعلت الأصوات واشتدت الجلبة.

وأحس كيرولس بما وراء تطواف أولئك العميان من الفشل فاستعمل الحيلة وأحسن التدبير فجمعهم إليه وطيب خواطرهم وأناط بهم التعاليم الابتدائية وأقرهم على ما بأيديهم وأفرز لكل منهم محلا بدار المدرسة الكبرى ورتب لهم الجماكى والمرتبات وأخذ عليهم العهود ومهد لهم طريقا للتعليم وجعل لامتحان تلامذتهم أياما معدودة فى كل ستة شهور فمن وجد منهم ناجحاً ضم إلى صفوف المدرسة فلم يمض على ذلك إلا القليل حتى دخل من هؤلاء فى صفوف المدرسة نيف وتسعون تلميذا ومائة ممن كانوا خارجا وظهرت عليهم علامات النجابة ودلائل الفلاح فتكلموا بالإنجليزية والإفرنسية والإيطالية والقبطية وجودوا العربية وتعلموا منها النحو والصرف والبديع والبيان ونبغوا ونجحوا نجاحا عظيما ثم أنشأ بعد ذلك مدرسة ثانية بالخطة المعروفة بحارة السقايين فكان شديد الولع بها وكان فى نهاية كل سنة يولم الولائم العظيمة ويدعو كبار القوم والوجهاء والعلماء لامتحان التلامذة ثم يفرق الجوائز من نياشين الذهب والفضة ونفيس الكتب ويمد الموائد الفاخرة وكان إذا سمع من أحد التلامذة كلمة وأعجبه وضعها أو استكبرها على قائلها لصغره وعدم بلوغه حد النقد فرح به فرحا عظيما واستعادها مرارا وأخبر بها كل من يراه فى يومه فيقول سمعت اليوم فلان ابن فلان يقول كيت وكيت فسرنى جداً إدراكه وتحقق لى نجاحه إن شاء الله، ووجه عنايته إلى ترميم المعابد وإعادة ما تخرب منها فأعادها إلى ما كانت عليه وأنشأ بالخطة المعروفة بحارة السقايين كنيسة وقد كان إلى ذلك الحين

يصعب جداً إنشاء الكنائس تمسكا بالعهد القديم والسنة المتبعة عند أولياء الأمور وأصحاب الكلمة من أمناء الدين وأنشا أيضاً الكنيسة الكبرى بالقبيلة على نظام أشهر الكنائس ولم يتم بناؤها وأنشأ دارا للطباعة وسماها باسمه وسلم أمر تدبيرها لجماعة من أبناء المدارس فأحسنوه وأتقنوا صنعة الطباعة فطبعوا فيها كثيرا من الكتب الدينية وكتب التاريخ والآداب وجمع من خزائن الديارات والمعابد القديمة نفائس الكتب وأشهر السجلات ليضعها فى دار مخصوصة قد أعدها لذلك وقد تبددت بموته ورسم بتصحيح الكثير من كتب الكنيسة وقد كانت محشوة بالخلط والتحريف فصححوا ما فيها وضبطوا عباراتها فجاءت على أحسن ما يرام ورتب الطقس الإكليريكى وهذب الزى الشماسى فجاء حسنا مقبولاً جارياً إلى يومنا الذى نحن فيه وأحيا اللغة القبطية بعد مواتها فطبع منها عدة كتب بدار الطباعة الكبرى بلندن عاصمة الإنجليز فتعلمها أبناء المدارس وتكلموا بها فكانت إلى آخر أيامه من أهم اللغات التى تتكلم بها أبناء المدارس، وكان ميالا إلى تعليم البنات وتهذيبهن إلى جد يكن فيه معينات لأزواجهن ومربيات لأولادهن فصادف من المقاومة فى ذلك أشكالا ولكنه كان مع ذلك يتحين الفرص ويتبين انتفاعها فلم تطل أيامه ومات قبل أن ينال إربه من ذلك.

ووقع بينه وبين محمد سعيد باشا من الوحشة والنفور بسبب ما رماه به الإنجليز من سعيه وراء الخروج عن طاعة الدولة وجعله الكنيسة القبطية تحت حماية الدولة الروسية كما تقدم بيان هذا كله فى محله ما أوجب تخوفه وانكماشه وعدم اجتماعه بأحد من رجال الدولة وكأنه كان يخشى وقوع أمر يتهدده ولكن.

ولا يمنعنك الطير شيئاً أردته فقد خط بالأقلام ما كنت لاقيا

وطالت أيام عزلته ورسل القيصر تعوده كل قليل وتخابره فى أمر الكنيستين القبطية والروسية وعندى أنها حقيقة لا يصح إنكارها فقد كانت من أعظم رغائب كيرولس وهو أكثر الناس تعلقا بها وأشدهم تمسكا بأهدابها وقد بذل فى الوصول إليها النفيس وتقرب ممن أشاروا عليه بذلك جهد الاستطاعة واستمالهم فأعانوه وصار اتحاد الكنيستين أدنى من قاب قوسين بل أمرا مقضيا، فلما كان فى أحد الأيام جاء إليه رسول من قبل محافظ مصر يستدعيه إلى الديوان لأمر لا يتم إلا بحضوره فلم يقبل الذهاب وصرف عنه الرسول بالتى هى أحسن فعاد إليه ثانية وثالثة فلم ير بدًا من الذهاب وسار معه وغاب ساعة ثم عاد ووجهه يقطر منه العرق وقد نزلت به حمى شديدة فلازم الفراش من ساعته واشتدت به الحمى شدة بالغة فأتوا إليه بطبيب

فعرف العلة وأشار بالدواء فلم يأته حتى أتاه طبيب محمد سعيد باشا بأمر منه وأخذ في علاجه وما زال يعالجه أياما وقد اشتدت علته وعظم الداء وفقد الرشد وسقط شعر رأسه ولحيته على وسادته وانحل جسده ومات ليلة من سنة تسع وستين ومائتين وألف هجرية أي سنة ثلاث وخمسين وثمانمائة وألف ميلادية ودفن بتربته التي ابتناها لنفسه بالكنيسة الكبرى بالقبيلة ودفن معه حظ القبط جميعا وحظ بنيهم من بعدهم وحزن الناس عليه حزنا عظيما فكانت مدته خمس سنين إلا أياماً رحمه الله رحمة واسعة.

قلت وهو داود بن توماس بن بشوت بن داود ولد سنة خمس وعشرين ومائتين وألف هجرية بقرية اسمها نجع أبوزقالي من قسم صومعة شغلاق بإقليم إخميم بصعيد مصر وأقام مع أبويه بهذه القرية إلى أن ناهز الخامسة والعشرين وكان رحمه الله عفوفا تقيا ورعا محبأ للفقراء حسن النية سليم الطوية ميالا إلى العزلة والانفراد شديد الرغبة في معرفة أخبار الصالحين مولعا بأهل العلم آوى إليه كثيرا من أهل الفضل من جماعة القسيسين والرهبان وانكب على تلقي العلوم الدينية ثم تاقت نفسه إلى الرهبنة والتجهد وهم بالرحيل عن وطنه فمنعه من ذلك أبواه ثم جعل يراقب الفرص حتى خرج هاربا في عام ثمان وأربعين ومائتين وألف هجرية إلى دير أنطونيوس الأعلى بالجبل الشرقي ولبس مسح الرهبانية وأقام سبع سنين فكان محبوباً موقرا يشار إليه في المهمات، فلما كانت سنة خمس وخمسين ارتقى إلى رتبة القسيسية فزادت منزلته وعلت كلمته ومالت إليه القلوب وأحبه الناس وفي سلخ جمادى الأولى من السنة المذكورة استقدمه بطرس البطرك وولاه الوكالة على الأحباس والأوقاف فدبر أمورها وأحسن تدبيرها وأكمل نظامها وعرفه الناس فمالوا إليه وتقربوا منه فرأوه شهما حازما واسع الدراية يقظا نشيطا وقورا حسن السياسة ميالا إلى تعميم المعارف وتوسيع نطاق التمدن شديد الرغبة في إحياء ما اندرس من معالم مدنية الأمة القبطية والارتقاء بها إلى درجات الرفعة والتقدم، وفي أخريات سنة خمس وخمسين ومائتين وألف هجرية ولاه بطرس البطرك الرياسة على دير أنطونيوس الأعلى فأحسن التدبير ورتب الأمور على أحسن ما يرام وشدد في ملازمة حدود الرهبانية فافتتن في أيامه جماعة الرهبان فتنة كبرى ولبثت أياماً حتى تمكن من إخماد نارها وبقي رئيسا تسع سنين أولها سنة سبع وخمسين وآخرها سنة ست وستين ثم استقدمه بطرس وسير به إلى الحبشة رسولا إلى النجاشي كما تقدم القول

وكان رحمه الله عظيم التجهد يتظاهر بحسن الملبس وهو لا يلبس على جسده إلا أخشن الوبر يظهر الاعتناء بعظائم الأمور وهو غاية فى العفة والتقشف حليم بعيد الغضب شديد على جماعة الرهبان لا يبيح لهم ترك الجبل والاختلاط بالناس كريم النفس أبيها رزين خبير بالأمور وبموته خلا الكرسى زهاء سبع سنين كان يدبر الأمر فيها مرقس مطران البحيرة ثم قام بعده ديمتريوس سنة سبعين ومائتين وألف هجرية أى سنة أربع وخمسين وثمانمائة وألف ميلادية وهو الحادى عشر بعد المائة واسمه مخائيل وكان رئيسا على دير أبى مقار ووقع فى أيامه من الحوادث ما سيذكر فى محله إن شاء الله تعالى.

(الفصل الثالث والعشرون)

(فى خلافة السلطان عبد العزيز ابن السلطان محمود خان)

ثم قام بالأمر بعد موت السلطان عبد المجيد أخوه السلطان عبدالعزيز خان ابن السلطان محمود خان بويع له بالملك يوم موت أخيه سابع عشر ذى الحجة سنة سبع وسبعين ومائتين وألف هجرية أى سنة إحدى وستين وثمانمائة وألف ميلادية وأتت بذلك الأخبار إلى القاهرة فزينت المدينة ودقت البشائر وخطب له على المنابر وضربت السكة باسمه وورد إلى محمد سعيد باشا فرمان الرضا فقرىء فى ديوان الغورى بقلعة الجبل ولما استقرت به السلطنة نظر إلى أمور الدولة من أبوابها وأجهد النفس فى ترتيبها وقد كانت الحروب القائمة عليها أمحلتها وأذهبت رونقها وبهجتها حتى كاد العدوّ ينشب أظفاره فى جوفها فبالغ فى إصلاح ما أفسدته الأيام وعزز جانبها وجند لها الجند الكثير وأنشأ مراكب الحرب وسفن الطراد وحصن الحصون والقلاع بأنواع الأسلحة الثقيلة فعلت كلمته وكبرت فى أعين الخصوم هيبته وتقرب منه الإسكندر الثانى قيصر الروس وتحبب إليه وسالمه وأخذ بقوله وعمل بمشورته حتى كاد ينفضح ما كان بينهما من السر المكتوم وخاف الإنجليز شر ذلك وأحسوا بما وراءه من تنكيس أعلامهم فى قلب آسية وداخل أبواب هندهم فبذلوا النفيس وتقربوا

إلى مشايخ قبائل ذلك الصقع وأعملوا الدسائس فى دار السلطنة ببذل المال وإعطاء العطايا العظيمة وما زالوا يميلون بأبناء البلاد يمنة ويسرة حتى نالوا منهم وأسسوا عصابة باسم تركية الفتاة وأمدوها بالمال فنمت وعظمت وكثر عددها وانضم إليها الكثير من فحول الكتاب وأصحاب التحرير والخطباء والقوالين فكتبوا وألفوا وصنفوا وقالوا فى الخليفة السلطان عبد العزيز ما قال مالك فى الخمر ورموه بالمزوق عن الدين ووسموه بموالاة الروس أعداء المسلمين وأكثروا من التقريع والوقيعة بعالى باشا الصدر الأعظم وشيخ الإسلام وأهل الحل والعقد من رجال الدولة وبلغت بهؤلاء القوم القحة إلى حد كانت رسائلهم المشحونة بالسب والشتم وفحش القول تلقى فى مخادع الصدر الأعظم وشيخ الإسلام وقد وصلوا إلى معرفة أخبار دار السلطان وأسرار كافة بيوت أهل الحل والعقد واشتدوا عليهم شدة بالغة وكان لهذه العصابة أصول وفروع بين عاصمة الفرنسيس وعاصمة الإنجليز ودار السلطنة العثمانية فخافها السلطان وعمل على تنكيلها فلم ينجح له عمل ولم ينل منها أربا لاستفحال أمرها واتساع كلمتها حتى كان من أمرها بعد ذلك ما سيتلى عليك فى محله، ولم يقع بين السلطان ومحمد سعيد باشا من المودة والإخلاص ما كان يظن وقوعه بعد موت السلطان عبد المجيد فقد كانت الوحشة لم تزل قائمة ما بين محمد سعيد باشا ورجال الدولة وأركان السلطنة لا سيما الصدر الأعظم عالى باشا فكان كل من الطرفين على حذر والتفات دائم وكان سعيد باشا أبعد جميع الولاة عن موالاة السلطان وأقربهم إلى بغض رجاله وأكبرهم حقدا وشماتة ومع ذلك لم تتمكن رجال الدولة من استغلاطه ولا مؤاخذته بأمر من الأمور السياسية لا فى الداخل ولا فى الخارج ولا هبت للفتنة بسبب ذلك نار فى جميع أيامه لاشتغالهم عنه بالكثير من الكوائن والمحن الداخلية فكان فى مأمن من كيدهم وفى حرز من شرهم يعطيهم من طرف اللسان حلاوة، ومات فى أيام محمد سعيد باشا الأمير أحمد أكبر أولاد إبراهيم باشا بن محمد على باشا مات غريقا فى النيل بين كفر الزيات وكفر العيس بإقليم الغربية فى يوم عيد أضحى سنة ثمان وسبعين ومائتين وألف هجرية وذلك أنه لما كان سعيد باشا بالإسكندرية وقد دخل عيد الأضحى استقدم جميع أصحاب الوظائف العالية من الملكيين والجنديين وعمد وأعيان سائر المدن وجميع الأمراء من ذرية محمد على باشا لعمل تشريف العيد بمقره بالإسكندرية فعمل التشريف فى ذلك على نسق لم يسبق له مثال ثم نزلوا يريدون الرجوع إلى القاهرة. وكان جسر

كفر الزيات الحديدى الموصل لخط السكة الحديد بما بين الإسكندرية والقاهرة لم يتم بناؤه إلى ذلك الحين وقد جعلوا لنقل عربات الركاب والبضائع والوابورات جسرا متحركا على ظهر سفينة تسير فى النيل بالبخار فكان إذا وصل المسافرون إلى كفر العيس من الإسكندرية وقف القطار هناك فيأتون بذلك الجسر ويوقفونه ملتحما بضفة النيل ويدفعون على ظهره عددا معلوما من العربات ويقيدون عجلاتها بسلاسل الحديد فيسير بها الجسر ويعبر النيل عرضا إلى أن يرسو ملتحما بالجانب الثانى فيدفعون بما عليه من العربات بمن فيها من المسافرين إلى الخط الحديدى الموصل إلى القاهرة أو بالعكس إلى الإسكندرية وكان ممن ركب فى قطار ذلك اليوم يريد الرجوع إلى القاهرة الأمير أحمد بن إبراهيم باشا والأمير عبد الحليم بن محمد على باشا وبعض الباشاوات مثل أدهم باشا وغيرهم ونزل أيضاً الأمير إسماعيل وأخوه الأمير مصطفى فاضل أخوا الأمير أحمد ولكنهما عادا فنزلا من القطار قبل أن يسير من الإسكندرية بإيعاز من أحد رجال ديوان سعيد باشا فلما وصل القطار إلى كفر العيس ودفعوا بعدد من عربات المسافرين إلى ظهر ذلك الجسر وقد كان فى إحداها الأمير أحمد والأمير عبد الحليم وغيرهما من الباشاوات قيل إنهم لم يقيدوا عجلات العربات كعادتهم بل وتركوها خلوا وأتوا بغيرها من خلفها فلطمت الأولى فتحركت واندفعت إلى الأمام فسقطت جميعها فى النيل وغرقت وكان الأمير أحمد شابا جميلا قوى الجسم ضخما كبير البطن فلم يتمكن من الخلاص فمات غريقا أما الأمير عبد الحليم فإنه لما سقطت العربة ألقى بنفسه من نافذتها إلى البحر فعاونه بعض أصحاب السفن التى كانت هناك وأخرجوه حيا ومات أدهم باشا وجميع من كانوا بالعربة مع الأمير أحمد فكان المنظر مروّعا والمشهد محزنا وقد كثر صياح العامة وولولت النساء وانتشرت مماليك الأمير أحمد وأتباعه على وجه الماء يطلبون جثته وأتوا بجماعة من صيادى السمك فألقوا شباكهم وما زالوا حتى عثروا عليها وأخرجوها وأخرجوا من عثروا به أيضاً من بقية الأموات وجاءوا به إلى القاهرة وغسلوه فى بيته الذى بجانب القصر العالى ثم دفنوه فى ثانى يوم فى مشهد حافل للغاية وتحدث الناس كثيراً فى أمر موته فقالوا أنه أغرق بأمر من سعيد باشا كى لا يتولى ملك البلاد بعده لأمر نقمه عليه ولكى تنتقل الوراثة بموته إلى أخيه الأمير إسماعيل، قلت وقد حدثنى أحد مماليك الأمير أحمد قال جاء الأمر من سعيد باشا إلى مولاى الأمير وهو بالقاهرة بشخوصه إلى الإسكندرية للحضور فى تشريف عيد

أضحى سنة ثمان وسبعين فقمنا فى صبح يوم الوقفة بعرفات ووصلنا إلى الإسكندرية قبل المساء بقليل وبتنا ليلتنا تلك والأمير ساكن البال رائق الحال وأصبحنا وقد دعانى فدخلت عليه فرأيت الدمع يذرف من عينيه فقلت أصلح الله حال مولاى ما باله يبكى وقد كنا بالأمس على أحسن ما يكون من السرور وصفاء البال قال رأيت البارحة فى نومى كأنى وإياك على شرافة هذا المنزل نريد الاختفاء من وجه سعيد باشا وقد أرسل فى طلبنا جماعة من العبيد السود فما وقع بصرهم علينا حتى هجموا علىّ هجمة الأسود الضوارى وأخذوا جميعاً بيدى ورجلى وألقوا بى فى تيار النيل فقمت مذعورا من نومى وتعوذت بالله ونمت فجاءنى هاتف يقول هلا أوصيت على العيال قلت ولماذا قال قد أتت المنية فلا مفرّ فقمت مذعورا وتعوذت بالله ولبثت باهتا ساعة حتى غلب على النوم فنمت فإذا بشخص فى زى الفقراء وعلى كتفه شبكة صياد قد اقترب منى وقال قم ياأحمد فقلت ومن أنت؟ يرحمك الله قال رسول ملك الموت فقمت باكيا من ساعتى كما ترى، قال: فقلت يامولاى هذه أضغاث أحلام وقد أتعبك البارحة السفر فلا تظن الظنون الفاسدة وقم فقد حل وقت عمل التشريف فقام ولبس كسوة التشريف وركب وهو فى قلق واضطراب وركبت معه فكان كلما مررنا بقولق من قولقات العسكر قاموا إجلالا وتعظيما ونفخوا فى البوق فيبكى ويذرف الدمع فلما انقضت ساعة التشريف قال لابد من السفر الساعة فقلت يامولاى أرحم نفسك ودعنا نبيت الليلة هنا فقال لا بل نسير إلى القاهرة عسى الله يفرج كربتى فركبنا القطار وركب معنا جميع الأمراء من ذرية محمد على باشا فلم يكن بأسرع من أن دخل أحد رجال ديوان سعيد باشا وهمس فى أذن الأمير إسمعيل فالتفت إلى أحد أتباعه وقال أنزلوا متاعى فقد عدلت عن السفر فقال له أخوه الأمير مصطفى فاضل إن كان ولابد من بقائك اليوم فإنى مرافقك ونزلا معا وتركانا فسار بنا القطار حتى وصلنا إلى كفر العيس وكان من أمر غرقنا ما سارت بذكره الركبان وعرفه القاصى والدان فالله الله ولا حول ولا قوة إلا بالله . اهـ.

قلت ولم تطل ولاية سعيد باشا بعد هذا الحادث فأنه مات سادس عشرى رجب سنة تسع وسبعين ومائتين وألف هجرية أى تاسع عشر يناير سنة ثلاث وستين وثمانمائة وألف ميلادية، قال بعض الكتاب من الغربيين: لما ثقل المرض بسعيد باشا واشتدت علته وجاء خبر ذلك إلى الأمير إسمعيل وهو بالقاهرة سير إلى الإسكندرية أحد المقربين إليه من جماعة الفرنسيس واسمه ديرفيو ليرسل إليه بأخبار سعيد باشا

فى كل يوم ومناه بالأمانى الكثيرة والعطاء الجزيل إن هو بعث إليه بخير وفاته فلبث دير فيور بالإسكندرية أياما يرسل فيها الأخبار إلى الأمير إسمعيل باشا فلما كان صباح تاسع عشر يناير أرسل إليه يقول أعدّوا البيت فقد عزم الساكن على الرحيل، يشير بذلك إلى قرب مفارقة سعيد باشا لهذه الدار الدنيا وتأهب إسمعيل باشا للدخول فيها، فلما جاءه هذا الخبر فرح به كثيراً ولبث ينتظر ما سيكون من وراء ذلك حتى جاءه الخبر بموته فسير إلى الإسكندرية من يجهزه ويدفنه هنالك وكان جميع أرباب الديوان الخاص قد حضروا إلى القاهرة ولم يبق منهم بالإسكندرية إلا نفر قليل مع محمد شريف باشا الذى لم يفارقه طرفة عين قيل وكان سعيد باشا قد أوصى بأن يدفنوه فى القاهرة وقيل فى الإسكندرية فحزن عليه الناس كثيراً لا سيما أهل الإسكندرية وأقامت النساء عليه المناحات بشوارع المدينة فكان يوم دفنه يوما مشهودا وكانت ولايته زهاء تسع سنين وقيل ثمان سنين وتسعة أشهر وستة أيام وعمره اثنتين وأربعين سنة رحمه الله تعالى برحمته الواسعة وأسكن روحه فردوس جنانه.

(مطلب)

(ولاية إسماعيل باشا بن إبراهيم باشا بن محمد على باشا)

بويع فى اليوم الذى مات فيه محمد سعيد باشا وهو يوم السبت سادس عشرى رجب سنة تسع وسبعين ومائتين وألف هجرية الأمير إسمعيل باشا بن إبراهيم باشا ابن محمد على باشا بايعه فى قلعة الجبل أرباب الدولة وأهل الحل والعقد والعلماء والوجهاء ودقت البشائر وطيروا الخبر إلى الآفاق وزينت جميع المدن والبنادر ثلاث ليال وأقيمت الأفراح والولائم وبولغ فى ذلك مبالغة زائدة جداً وفرقت والدته فى ذلك اليوم من الهدايا والتعابى النفيسة إلى أرباب الدولة والعلماء والمشايخ شيئاً كثيرا وأقامت الأدعية فى المساجد أياماً ورسمت بترميم بعض أضرحة الأولياء والصالحين من مالها تفاؤلا واستزادة للنعمة فلما استقرت به الولاية وجاءه فرمان السلطان عمد إلى تغيير الكثير من عادات البلاد والأحداثات المتبعة وتصرف فى الأمور ونظر فى ترتيب موارد الإيرادات نظرة الراغب فى المزيد فضبط الخراج وعدل العشر وأحدث بعض المكوس والمغارم ورتب لذلك طوائف الجباة والعمال والقباض والرقباء وتقريب كثيرا من رجال السلطنة وأهل المابين واتخذ له من كبارهم أخلاء يعتمد عليهم فى

عظائم الأمور وأجزل عطاءهم فمهدوا له العقبات وذللوا له الصعاب وفتحوا له من الآمال والأمانى أوسع الأبواب وحببوا إلى السلطان زيارة مصر وزينوا له مشاهدة ما فيها من العجائب والآثار فمال إلى ذلك ووردت الأخبار بعزمه على الحضور فى نفر من خواصه وحشمه وأتباعه فبالغ إسماعيل باشا فى الاستعداد لقدومه وأنفق النفقة الواسعة فى إعداد معدات الولائم ولوازم الأفراح من مأكول ومشروب ومفروش وملبوس واهتم لذلك اهتماما عظيما.

(مطلب)

مجيء السلطان عبد العزيز إلى ديار مصر

فلما كان رابع عشر شوال سنة تسع وسبعين ومائتين وألف هجرية وصل السلطان إلى مدينة الإسكندرية على باخرة عظيمة يخفرها الأسطول العثمانى الحربى وفريق من العسكر وكان فى انتظاره فى الإسكندرية إسماعيل باشا وجميع رجال الدولة وأرباب الوظائف العالية فقوبل فى أبهة واحتفال لم يسبق لهما مثال لملك من ملوك المشرق والمغرب وسار فى شوارع المدينة والذهب ينثر بين يديه وكان فى ركابه مراد أفندى وعبد الحميد أفندى ابنا السلطان عبد المجيد خان ورشاد أفندى ويوسف عز الدين أفندى والوزير محمد باشا والوزير فؤاد باشا ثم قام من الإسكندرية إلى القاهرة على قطار مخصوص وكانت الناس على جانبى الطريق من الإسكندرية إلى القاهرة فلما دخل إليها قوبل بأحسن ما قوبل به فى الإسكندرية وشق من وسط المدينة فانطلقت ألسنة العامة بالدعاء له وصاحوا نصر الله مولانا السلطان وطلع إلى قلعة الجبل وقد أعدوا له مقرا بها فزينوه بأنواع الحرائر والمقصبات وأفخر وسائل الزينة ودقت له البشائر وزينت مصر والقاهرة سبعة أيام وأقيم له الدعاء بالمساجد كافة وكبروا لحضوره على مآذن مصر والقاهرة وبعد أيام نزل لزيارة المساجد فزار المشهد الحسينى والزينبى والنفيسى وغيرها فكان إذا مر بالناس وقفوا صفوفاً إجلالاً وتعظيما فينظر إليهم يمنة ويسرة نظرة لطيفة وهى كناية عن السلام فى عرف سلاطين آل عثمان وكان العامة والسوقة إذا رأوه صاحوا الفاتحة لمولانا السلطان فينظر إليهم كأنه يحييهم فيكثر صياحهم وتشتد جلبتهم وهى حالة لم يرها السلطان فى بلاده فإنه إذا مر بالناس يوم خروجه للصلاة مثلا أو فى أيام المواكب أطرقوا بأبصارهم إلى الأرض وتخشعوا ولم يرتفع لأحد منهم صوت.

وتصدق السلطان وأكثر العطاء وفرق على الفقراء والمحتاجين وطلبة العلم بالجامع الأزهر وعلى أصحاب التكايا وخدام المساجد وبعض الأضرحة ولم يره من أصحاب الوظائف إلا القليل، وكان إذا ركب سارت خلف عربته الجنائب السلطانية وطائفة الحرس السلطاني بالعمائم البيض والبرانس الحرير الأبيض وفى أيديهم القرابينات على شكل جميل للغاية ولبث بالقاهرة أياماً ثم سار إلى الإسكندرية وركب منها إلى دار السلطنة وتبعه الأسطول الحربى والسفن التى تحمل التحف والهدايا فكانت أيامه بديار مصر كلها أفراحا وولائم عند العامة ومن لا خلاق لهم، وأما خيار الناس فقد كانوا يخشون عاقبة مجيئه إلى مصر وقد أخذتهم الطيرة إذ لم يسبق لأحد من سلاطين آل عثمان بعد السلطان سليم الفاتح دخول أرض مصر وكبر خوفهم وقدأخذوا بأقوال أصحاب الزايرجات فترامت ظنونهم إلى المرمى البعيد فلما كانت سنة إحدى وثمانين ومائتين وألف هجرية مع أخريات سنة ثمانين ظهر الوباء فى البقر واشتد وعم جميع البلاد شرقا وغربا ولم يترك قرية ولا كفرا إلا ودخله واشتد شدة بالغة حتى كاد يفنى جميع البقر وقل وارد السمن من جميع البلاد بل وانقطع وأكل الناس الدهن والزيت فأمر إسمعيل باشا فاستحضروا من البلاد الأجنبية كالنمسا والمجر ونواحى الأناضول السمن وهو فى غاية الرداءة والنتن وباعه على أهل البلاد وفرق منه على الفقراء مجانا فكانوا يتزاحمون على الوكائل ومخازن التوزيع بالأخطاط وهم فى ضجيج وجلبة تصم الآذان واستمر الحال هكذا أياماً كثيرة حتى ارتفع الوباء وبدأ الوارد من سمن الجاموس والضأن يرد إلى القاهرة ومصر من الجهات القبلية ولم يكد ينقضى هذا الوباء حتى وقع الغلاء وارتفعت الأسعار وانقطع وارد القمح واشتد الطلب فلم يجد الفقراء له أثرا لا فى سواحل بولاق ولا فى مصر القديمة ولا فى جميع رقع الغلال فضجوا وعجوا وكثر طواف النساء فى الأسواق يحملن المقاطف لعلهن يجدن من يبيعهن قمحا أو دقيقا وعلم إسمعيل باشا بما عليه الناس من الضر فهاله الأمر وأزعجه ورسم بجلب القمح والدقيق من البلاد الخارجية فأتوا له بشيء كثير منهما وفرقوه فى الوكايل وجهات الرقع ورتبوا للبيع وقتين فى الصباح والمساء ونادوا فى الناس بذلك ففرحوا وتزاحموا على أبواب الوكائل وجهات الرقع تزاحم الجياع واستمروا على هذا الحال شهرين وبضعة أيام حتى تواردت الغلال من الأقاليم القبلية وملأت مخازن التجار وأشوان الدولة وعم الوارد منها الأقاليم البحرية فلم تكن لتسكن الخواطر وتطمئن القلوب

حتى ظهر الوباء فى الناس ثانى عشر المحرم إفتتاح سنة اثنتين وثمانين ومائتين وألف هجرية واشتد الموات شدة بالغة بالقاهرة ومصر القديمة ثم عم جميع البلاد شرقا وغربا فكانت الفقراء تموت بجانب جدران البيوت وفى الأزقة والحارات وأصحاب الشرطة يطوفون لنقل الجثث إلى المقابر وبالغ محافظ المدينة فى نظافتها فلم يرتفع الوباء واستمر على شدته إلى رابع عشرى ربيع الثانى فمات خلق كثير ثم ارتفع وقد نزح الكثير من الأجانب وأهل البلاد إلى الديار الخارجية فرارا من الموت وخلط الناس وخبطوا وقالوا أن هذه الكوائن إنما هى ناجمة عن دخول السلطان إلى مصر إذ لم يسبق لذلك مثيل منذ فتحها السلطان سليم بعسكره واشتد خوفهم وأخذتهم الطيرة وتشاءموا من حاكم الوقت وخشوا عواقب أيامه وأخذوا بأقوال أصحاب الزايرجات والمنجمين كعادتهم عند وقوع الشدائد وضجوا وعجوا وابتهلوا إلى الله تعالى وتوجهوا إليه بقلوبهم وقد أحصوا من مات فكان زهاء المائة ألف نسمة.

وما انقطع الوباء وسكنت الخواطر حتى جعل إسماعيل باشا يتصرف في أمور الدولة بحب هواه أو ما يلائم مصلحة البلاد فنقض ما أبرمه سعيد باشا مع ديلسبس فاتح ترعة السويس ورسم بعدم تسخير أهل البلاد فى حفر ذلك الاتصال كما كان المعينين سعيد باشا وديلسبس واستعان إسماعيل باشا على إبطال هذا الحدث بالسلطان فكتب إلى الباب العالى يقول:

إن عدل أمير المؤمنين لا يسمح بتسخير رعاياه فى عمل قد أضر بالحرث والنسل وأذهب براحة أهل البلاد وأوعز إلى أصحاب صحف الأخبار المصرية فهبت يومها تنادى بالويل والحرب وتستفز رجال الدولة إلى إبطال هذا العمل والأخذ بالأسباب لدفع ورفع هذا النير عن أعناق أهل البلاد وكان إلى هذا الحين لم يصدر السلطان البراءة وعمل ذات الاتصال بعد أن سار دي لسبس إلى دار السلطنة وأقام بها أياما كثيرة وكاتب الصدر الأعظم فى ذلك مرارا فكتب عالي باشا إلى سفير الدولة العثمانية بعاصمة الفرنسيس في شأن ذلك يقول: غير خاف على معارفكم أن الدولة العلية أيدها الله قد صرفت كثير أنفس أوقاتها فى بحث أمر عمل الاتصال المراد عمله ما بين البحر الأبيض المتوسط والأحمر ومع كونها تودّ من صميم القلب انجاز هذا المشروع الخطير والعمل على الاتحاد مع الدولتين البحريتين العظيمتين لعلمها بأهمية وخطارة هذا الاتصال إلا الورود على الباب العالى فى هذا الحين مطالعة من والى الديار المصرية يطلب فيها تأييد أمير المؤمنين فى هذا الأمر ويحزننى جداً أن

أرى أنه قد بدىء وكاد أن يتم عمل الاتصال قبل أن يقع الاتفاق على أمر من الأمور بين الباب العالى والدول المتحالفة ويعز على أيضاً إيقاف العمل الآن وتعطيل مشروع كهذا جزيل الفائدة كبير القيمة على أنى مع ذلك أقول أنه لا يمكن للدولة العلية على أىّ حال كان الموافقة على عمل هذا الاتصال إلا بعد اتفاق سائر الدول مع الباب العالى على جعله حرا مستقلا تحت حكومة البلاد التى هو فيها بمثابة بوغاز البوسفور والدردنيل فى دار السلطنة العثمانية وقد تكلفت تلك البلاد أعني البلاد المصرية بتشغيل زهاء عشرين ألفا من جراء هذا الاتصال عونة وسخرة مع سبق النشر والإعلان بإبطال هذه العادة الخشنة وإبطال العدل والشرف ومما يحول دون اعتراف الباب العالى بتتميم عمل ذلك الاتصال فقد تم عقد الاتفاق الموقع عليه محمد سعيد باشا والموسيو دى لسبس صاحب ذلك المشروع بعد محمد سعيد باشا الموسيو المشار إليه بتنازل حكومة البلاد له عن منفعة بيع الأراضي التى تكون واقعة على ضفتى الاتصال المذكور مدة تسع وتسعين سنة ولم يبق مانع يمنع دخول مدينة السويس وجميع ما جاورها من القرى والمزارع والبقاع ومدينة بورسعيد وسائر حدود الشام أى معظم المملكة المصرية فى حوزة وتصرف شركة ترعة السويس وينجم عن ذلك ظهور شعوب متفرقة مستقلة بنفسها خارجة عن طاعة أمير المؤمنين وهو أمر لا تحمد عواقبه ولا أخالكم تنكرون علىّ القول بأنه ما من حكومة رزقها الله حسن النظر فى عواقب الأمور ولو بقدر مثقال ذرة وألهمها السعى وراء حفظ استقلالها وتوسيع نطاق عمرانها ومدنيتها ترضى بمثل هذه الشروط المفعمة جورا وخذلانا لرعاياها الطائعين ولا تظنوا أن أمير المؤمنين يجيز العمل بمقتضى تلك الشروط التى كان بعث محمد سعيد باشا بصورة منها إلى الباب العالى وهو يعلم حرسه الله ما وراء ذلك من تعيير سائر الأمم لحكومته ورميها بالقصور والمروق عن جادة الحق فإن أجازه فإنما يجيزه بعد قبول هاته الخصال الثلاث:

الأولى منها: جعل هذا الاتصال مستقلا تحت رعاية الحكومة المصرية وعدم منح أية دولة كانت امتيازات أو حقوق خصوصية فى أى حال من الأحوال.

الثانية: رفع نير السخرة من أعناق أهل البلاد.

الثالثة: العدول عن مشروع حفر الاتصال المار بالنيل وأن لا يعطى شىء من الأراضى لشركة هذا الاتصال إلا ما كان لازما لإنشاء معاملها وورشها فقط.

فإذا تم قبول هاته الخصال الثلاث جاز العمل بالاتفاق مع والى الديار وسهل التصديق على بقية الشروط المدوّنة بالعقد، فالذى نسألكم إياه الآن هو أخذ رأى

الدولتين المتحالفتين أعنى بهمـا دولتى الفرنسيين والإنجليز عما يليق عمله الآن أيليق منح شركـة حفر هذا الاتصال عدة امـتيازات وحقـوق لا يكون من ورائها إلا هضم حقوق رعايا الدولة العلية وإذهاب ثروة البلاد واضمحـلالها وضياع كثير مما نالته من شبه اسـتقلالها وهل يوافق أنه إذا لـم يتم التراضى بيننا تأخذ حكومة أمـير المؤمنين على عهدتهـا بالاتفاق مع عاملها على ديار مصر الجـاز عمل هذا الاتصال وأن تنفق عليه من مالها أو تسلمـه لشركة أخرى بشروط وعهود يقع الاتفـاق عليها بحيث لا يبقى للشركـة الحالية حق فى المطالبة بالمال الذى أنفـقته إذ كان اندفاعـها إلى العمل بغير إجازة ولا مسوّغ أفيدوا الجـواب، ووردت الأخبار بهذا المعنى إلى إسمعيل باشا من الباب العالى فسر بها سرورا عظيما وكتب إلى الموسيو دى لسبس يقول:

لا يليق بنا أن نخفى عليك مـعرفة أنه لما كان من الخلاف فى أمـر عمل اتصال البحر الأبيض بالبحر الأحمر قد كنا خابرنا دار السلطنة العلية فى ذلك وسألنا الباب العالى أن يفتينا فى الأمر فجاءنا منه مطالعة فى هذا الحين تجيز لنا المخابرة مع شركة الاتصال المذكور والاتفاق معها على جمـيع التغيرات المراد إدخالها على عقد التنازل الموقع عليه مع المرحوم محمد سعيد باشا وإبطال ما فيها مما كان سببا لحصول الإباءة وعدم قبـوله لغاية الآن، ولا إخالك تجهل إنى مـنذ وليت الأحكام إلى هذا الحين لم يكن عندى من المشـاغل شىء يعادل هذه المسئلة وكـان الذى لم يقبله البـاب العالى وهو يمانع فـيه للآن كل الممانـعة أمرين الأول تسـخير أهل البـلاد فى ذلك العمل والثانى تنـازل الحكومة عن منفعـة الأراضى الواقعـة على شاطىء الاتصـال المذكور فلأجل أن لا يزداد الأمـر إشكالاً والأحوال بيننا جـدالاً قد رسمت إلـى نوبار باشا بحل عقدة هذه المسئلة بالاتحاد معك ومـع أعضاء الشركة وإنى لواثق بأنك تبادر إلى فض هذا النزاع بالتى هى أحسن بما لك من سلامـة النية كى لا يقع بسبب ذلك فى مستقبل الأيام ما لا تحمد عقبـاه وقد ضرب لنا الباب العالى أجلا للاتفاق قدره ستة أشهر فإن مضى الأجل ولم نتـفق على أمر يحسن السكوت عليه لم يعد إذ ذاك فى وسعى أن أعيد الكلام مع دار السـلطنة فتدخل المسئلة فى دور جديد مع الباب العالى ويعز الوفاق ومـعاذ الله أن نصل إلى هذا الحد، وسترون أن الذى رسـمته إلى نوبار باشـا ليخـابرك عنه لم أراع فـيه سـوى راحة الرعـيـة ورفع المضار عنهم مع إنجـاز مشروعكم على النمـط المرغوب هذا وقد جاءنى مرسوم أمـير المؤمنين بأن أبادر إلى تبليغ مـقره الكريم حالة مـا هو عليه الاتصـال المذكور من العمـق والطول والعرض

المراد جعله حسابا لذلك الاتصال وأن يلاحظ بأن لا يكون الاتصال المذكور قليلاً السير السفن الحربية فإن أمير المؤمنين حرسه الله لا شيء أحب إليه من المحافظة على السلم واجتناب جميع المشاكل مع سائر الدول . اهـ.

فاجتمع نوبار باشا بعد أيام مع الموسيو ديلسبس وسأله الموافقة على تقليل عدد العاملين فى حفر ذلك الاتصال من أهل البلاد من عشرين ألفا إلى ستة آلاف ونفقة فرنكين أى سبعة قروش وثلاثون فضة لكل واحد يوميا والتنازل عن جميع الأراضى المتنازع فيها وقيام الحكومة بجميع المصاريف التى أنفقتها الشركة إلى تاريخ عقد هذا الاتفاق مع قيامها أيضاً بجميع نفقة الترعة المراد إنشاؤها من النيل إلى جوار الاتصال فطال بين الفريقين الأخذ والرد واشتد الجدال وكاد يتعذر الوفاق وينفض اجتماعهم على غير طائل فرفع إسماعيل باشا الأمر إلى نابوليون أمبراطور الفرنسيس وتقرب منه وتزلف إليه وأقام الوسطاء والشفعاء فأشار نابوليون بوجوب تقرب الفريقين وإصلاح ذات البين وأقام لذلك عمدة من خمسة من كبار السياسة وأصحاب الشريعة بعاصمة الفرنسيس ورسم لهم بالتخفيف وحسم أسباب النزاع بالتى هى أحسن فتم الوفاق على ما شاءه إسماعيل باشا وقام برد النفقة التى أنفقت على جميع الأراضى التى كانت الشركة تتنازع فيها وبنفقة الترعة الحلوة التى أنشئت ممتدة من النيل فكان ما أنفق على ذلك دون غيره عشرة آلاف ألف من الفرنكات أى سبعة وثلاثين ألف ألف وخمسمائة ألف قرش وورد فرمان السلطان فى ثانى عشر القعدة سنة اثنتين وثمانين وألف هجرية بقبول كل ما وقع الاتفاق عليه وارتفعت السخرة عن أهل البلاد وزالت عنهم تلك المحنة وحسبت مكرمة إلى إسماعيل باشا على مر الأيام.

(مطلب)

تولية إسماعيل باشا مصر دون ذرية محمد باشا

وكان إسماعيل باشا قد سبر غور رجال المابين وأصحاب الحل والعقد فى دار السلطنة بعد أن تم له ما أراد فى أمر اتصال ترعة السويس ولما كان شديد الرغبة من يوم توليه مسند الولاية فى نزع حقوق الوراثة المحصورة فى ذرية محمد على باشا بمقتضى الفرمان السلطانى المؤرخ فى شهر ذى الحجة سنة ست وخمسين ومائتين وألف وجعلها فى عقبه من بعده أى فى الأرشد من ولده وفى عقب ولده، قال بعض أهل التحقيق: وقد كانت رغبته فى ذلك مترتبة على سببين أولهما بغضه الشديد لأخيه الأمير مصطفى فاضل المستحق للولاية من بعده وثانيهما حرمان الأمير عبد الحليم بن محمد على باشا من الولاية بعد الأمير مصطفى فاضل فسعى فى دار

السلطنة وأنفق الأموال الطائلة وأجزل العطاء لأرباب الدولة وتزلف إلى أصحاب الحل والعقد ورجال المابين وهادى الصدر الأعظم وشيخ الإسلام ثم جعل يدير على أخيه وعمه ويكيد لهما ورفع القصص إلى الباب العالى يشكو من أفاعيل عزاها إليهما وقال أنهما كادا له وعملا على قتله وكان أخوه قد نزل فى جوار السلطان وعمه باق بالقاهرة فضيق على عمه وشدد وأرهب وتوعد فانكمش عمه بمقره بشبرا بضواحى القاهرة وانزوى عن الناس فزاد فى التضييق عليه وأقصى عنه حاشيته والمتقربين إليه ومزق أتباعه وضبط أكثر أرزاقه وحبس غلاته وبالغ فى نكايته حتى أخرجه مدحوراً إلى دار السلطنة فنزل على أصحاب المابين مستجيرا فلم يمدوا له يدا قد بسطوها إلى عمه فأقام يراقب الفرص لعل الله يأتيه بالفرج القريب وما زال إسماعيل باشا يكثر السعى ويجهد النفس ويبذل النفيس حتى مال السلطان إلى طلبه وحقق أمنيته ورسم فى ثالث عشر المحرم افتتاح سنة ثلاث وثمانين ومائتين وألف هجرية بجعل حكومة البلاد وراثية تنتقل من إسماعيل باشا إلى أكبر أولاده ثم للأرشد من عقب ولده وجاء الفرمان بذلك إلى القاهرة ففرح إسماعيل باشا فرحا لا يوصف ودقت البشائر وعملت الولائم والمآدب وأكثر رجال الدولة من عمل الأفراح وتصدقت والدة إسماعيل باشا وأطعمت وفرقت الهدايا على المشايخ والعلماء وكست أولاد المكاتب واليتامى وقد أدرك الباب العالى بعد قليل من الأيام أنه لم يحدد فى فرمانه الخطة الواجب إتباعها عندما يكون الوارث لكرسى الحكومة المصرية قاصرا أى لم يبلغ سن الثامنة عشرة وعلم أن فى إغفال ذلك تعقيدا وإشكالا فسير فى ثانى صفر من السنة إلى مصر رسولا ومعه فرمان آخر بما ذكر فلما وصل القاهرة قوبل باحتفال عظيم فاستغرب الناس يومئذ حضوره وكثرت الأقوال فى شأنه وترامت الظنون إلى المرمى البعيد وما زالوا على هذا الحال حتى شاع الخبر بما فى ذلك الفرمان وتناقلته أصحاب صحف الأخبار على اختلافها.

وبدأت من هذا الحين تعلو كلمة إسماعيل باشا وقد زال عنه ما كان يلاقيه من متاعب شركة ترعة السويس ونقل الوراثة إلى عقبه من بعده وتبعيد أخيه الأمير مصطفى فاضل وعمه الأمير عبد الحليم وتمكن من مخانق رجال المابين وأصحاب الحل والعقد فى دار السلطنة فاشتدت عزيمته ومالت نفسه إلى التشبه بكبار الملوك وأصحاب الحكومات الدستورية لما فى ذلك من استرضاء الناقمين من كبار الدول الأوروباوية فرسم فى شعبان من السنة أى سنة ثلاث وثمانين ومائتين وألف هجرية

بتشكيل مجلس شورى للبلاد على نسق ورتب مجالس الأمم المتمدنة والحكومات الدستورية المقيدة وبالغ فى الأمر وطير الخبر بذلك إلى الآفاق وأوعز إلى بعض أصحاب صحف الأخبار الأجنبية فقاموا وقعدوا وشادوا بذكر تلك المجلس وقالوا هو من مقدمات الإصلاح ومبادىء الفلاح وانتقال البلاد من دور الخراب والهمجية إلى دور العمران والمدنية (قال بعض الكتاب) ولم يكن فى الأمر شىء من ذلك البتة فأنه ما تم اجتماع أعضائه وجعلوا ينظرون فى مصالح البلاد حتى زادت الضرائب وكثرت المكوس وتعددت أنواع المغارم وانبث أصحاب الجباية شرقا وغربا واشتدوا على الرعية شدة بالغة ونواب الأمة لا يعزفون من مواجب النيابة غير الطاعة لمن قال من كبار الحكومة أو أشار من أصحاب الحل والعقد فكانوا حملا ثقيلا على عاتق أهل البلد وسدا قويا بين القادحين من أهل النقد وبين أصحاب الحل والعقد فنهض عند ذلك بعض أصحاب صحف الأخبار الأجنبية إلى الطعن وتجردوا إلى التعييب ورموا نواب الأمة بالجهل والمروق وشخصوا أوقات اجتماعهم بهيآت مضحكة حاكوا فيها الملاعب الخيالية والأشكال السخرية وحذروا أهل البلاد من شر العاقبة وخوفوهم من سوء المصير ولايضعف هذا كله لإسماعيل باشا عزما ولا وقف به عند حد لمكانته عند رجال السلطنة وأصحاب الكلمة فى المابين وكان كلما زاد أصحاب صحف الأخبار فى التقريع والتعيب زاد هو أيضاً فى التقرب إلى رجال السلطنة وأجزل لهم العطاء وأهدى لهم الهدايا والتحف العظيمة فيقضون له كل ما فى نفسه، واشتدت رغبته فى التسمي باسم لم يتسم به أحد ممن تولى حكم البلاد قبله فسأل السلطان أن يلقبه بعزيز مصر وأن يرسل له خطا فطوعه بذلك السلطان ومناه فكثرت رسائله إلى أصحاب الباب ثم أهدى وفرق فجاء الخبر بأن السلطان قد لقبه بلقب خديو وهو أكبر مراتب الدولة وأرفعها ولم يسبق لأحد نوال مثلها من الوزراء وكبار القوم فإن لقب عزيز مصر إنما هو دون لقب خديو إذ كان يوسف بن يعقوب عليهما السلام عزيز مصر أى وزيرها والأمين على خزائنها ففرح بهذه البشرى وشاع خبرها بين الناس فلما كان خامس ربيع الأول من السنة جاء فرمان السلطان بذلك على يدى أحد القرناء السلطانية فقرىء فى محفل حافل للغاية ودقت البشائر وطيروا الأخبار إلى الآفاق ودعوا للسلطان فى جميع المساجد بالقاهرة ومصر والأقاليم القبلية والبحرية وانطلقت كلمة الخديو إسماعيل من هذا الحين بعد التقييد واتسعت وحل له فعل ما لم يحل من قبل من عقد العهود مع الممالك الأجنبية والقروض مع أصحاب الأموال بلا استئذان من الباب وضرب الضرائب وتعديل

المكوس وفعل كل ما يختار من غير معاودة ولم يمض على ذلك إلا اليسير حتى مالت به النفس إلى الاستزادة وتاقت لها الاستقلال بملك الديار المصرية فعمد إلى تنظيم الجند والإكثار من معدات الحرب وحصنت الحصون وأنشأ القلاع العظيمة بثغر دمياط ورشيد وأبى قير ومعامل البارود والفشنك والبنادق والمكاحل وملابس الجند والخيام وسروج الخيل وغير ذلك وأرسل يشترى الكثير من البنادق الجديدة المستعملة فى جيوش الدول الكبرى واستقدم جماعة من كبار جند الأمريكان وأركان الحرب والمهندسين لتعليم العسكر وتدريبهم على النسق المستعمل فى جيوش الممالك الأجنبية وأكثر من التزلف إلى نابوليون أمبراطور الفرنسيس وهو يومئذ صاحب الكلمة والقول الفصل بين كبار الملوك ليستعين به عند الحاجة وأدنى منه دى لسبس فاتح خليج السويس ليكون رسوله فى المهمات وجعل يراقب الفرص ويتحين انتفاعها فلم تخف أعماله على رجال دار السلطنة وعلم السلطان بما فى نيته فكبر عليه أمر ذلك واستعظمه ورسم إلى عالى باشا الصدر الأعظم بمراقبة الحوادث وعدم التهاون فى شيء وكان صفاء الود الذى بين الخديو والصدر المشار إليه قد تكدر لأسباب لم تصل إلينا معرفتها فاشتد الصدر على الخديو وبعث العيون إلى مصر وجعل يراقب الحوادث ويسأل عن الصغيرة والكبيرة ويحاسب على الذرة والبرة.

واتفق فى هذا الحين أن قدم إلى دار السلطنة داعى نابوليون أمبراطور الفرنسيس يدعو السلطان إلى الوليمة المزمع أعمالها فى عاصمة الفرنسيس عند فتح المعرض الذى أقيم فيها وقد دعا إليه الأمبراطور كثيراً من الملوك والأمراء والخديو إسمعيل فسار الخديو من الإسكندرية فى سابع صفر ووصل السلطان إلى باريز فى تاسع عشرة فقوبل باحتفال واحتفاء عظيمين وأقام بها زهاء شهر ونصف وكان معه بعض رجال الدولة وجماعة من المابين فكلمه الأمبراطور فى أمر الخلاف الواقع بين الباب العالي والخديو وهوّن عليه الأمر وما زال به حتى استرضاه فعفا السلطان عما سلف وأدنى الخديو منه ولاطفه ثم عاد السلطان إلى دار الخلافة فى سادس ربيع الثانى سنة أربع وثمانين ومائتين وألف هجرية وأقام الخديو أياماً فعرفه من حضر إلى باريز من الملوك وأولاد الملوك والأمراء والكبراء وتقرب من الكثير منهم وتزلف إليهم وبالغ فى التظاهر بمظاهر كبار الملوك فاتفق وأهدى وأجزل العطاء وحبب إليهم الحضور إلى مصر عند عمل الأفراح لفتح خليج السويس فمنهم من أجاب إلى ذلك ومنهم من وعد ثم عاد إلى الإسكندرية وأقام بها أياما يدبر أمر ضيافة أولئك الملوك والكبراء

فرأى أن مصر ليس فيها من محال اللعب واللهو ما فى أصغر بلاد الفرنجة كمراسح التشخيص ومواقف المغانى وغير ذلك مما لم تسمع به أهل البلاد ولم تره فعاد إلى القاهرة ورسم إلى بعض المقربين إليه من الأجانب بإنشاء مرسحين على نفقة الخزينة فأقام أحدهما على بقايا بناء السراى المعروفة بسراى ثلاثة وليه وهى منزل أحمد طاهر باشا بن طاهر باشا الكبير وسموه باسم الكوميديا والثانى على يسار الأول وسموه باسم (الأوبرا) وبالغوا فى تزيينهما بأنواع الفرش والبسط والطنافس والتحف والنقوش البديعة وأتوا إليهما من الديار الأوروباوية بجماعة المشخصين والمشخصات والمغنين والمغنيات وأساتذة هذا الفن وعملوا لهم من الملبوس والحلى الفاخرة شيئاً يكاد أن لا يدخل تحت الحصر ورتبوا لهم الجماكى والمرتبات الواسعة ورسم إلى شركة ترعة السويس بأن تنشيء على نفقة الخزينة أيضاً دارا فى مدينة الإسماعيلية لضيافة الزائرين من أولئك الملوك والأمراء والكبراء فأنشأتها فكان ما انفق عليها زهاء ثمانين ألفا ذهبا، فلما حل الأجل المضروب لإقامة تلك الأفراح والولائم وكان الاتصال بين البحرين الأبيض والأحمر قد تم وجرى الماء بينهما مختلطا وهو كاف لحمل البواخر والسفن التى تشق عبابه سير الخديو رسله إلى الديار الأوروباوية يدعون ملوكها وأمراءها إلى تلك الأفراح فلقوا من جميعهم الرضا وقد أخذ فى الأهبة والاستعداد ورسم بخروج سائر عمد وأعيان البلاد القبلية والبحرية بخيامهم وطبولهم وزمورهم وخيلهم ومأكولهم ومشروبهم فخيموا بمدينة الإسماعيلية وهى إحدى المدن التى أنشئت على شاطىء الترعة على قيد بعض فراسخ من قرية العباسية وأمر فجمعوا سائر المغنين والمغنيات وأرباب الملاعب على اختلاف أنواعها وعملوا الزينة على أشكال متنوعة يعجز اللسان والقلم عن وصفها ورتبوا الحراقات والأشكال النارية ووضعوا الرايات الخاصة بمملكة كل ملك وأمير دعى إلى هذه الأفراح وجاءت إلى مدينة الإسماعيلية طوائف العساكر والأجناد بالمدافع وآلات الحرب الكاملة وكثير من الزوارق والسفن الصغيرة المزينة بأحسن الزينة وتقاطرت إليها الذبائح من الضأن وشباب البقر وفحول الجاموس والغزلان والمعزى ومن الطيور على اختلافها وتراكمت أحمال المأكول والمشروب بحالة يقصر عن وصفها اللسان والقلم.

وبينما كانت الاستعدادات لهذه الأفراح والولائم قائمة على ساق كان على باشا الصدر الأعظم يخابر الدول الكبرى فى أمر تعدى الخديو على حقوق أمير المؤمنين

واستصغاره لواجبات التابعية وأنه إذا كانت ديار مصر من أملاك الخلافة كالقلب من الإنسان فكيف ساغ للخديو أن يتولى أمزا من أهم الأمور وأكبرها بغير إجازة وأنه ليس من الكياسة ولا من حسن السياسة فى شىء أن تذهب الضيوف إلى دار أمير المؤمنين وهو غير عالم بأسباب الضيافة ولا قائم بواجباتها مع أنه أحرص الناس على حفظ كرامة مملكته وشرف كرسى سلطنته وعدم تعريض حقوقه الذاتية للضياع، قال بعض كتاب الأخبار وكان قد بلغ الباب العالى أن الخديو إنما يريد بهذه الأفراح واستدعاء ملوك الدول وكبار الممالك لبس شعار السلطنة على ديار مصر والخروج من تابعية السلطان فهال السلطان هذا الأمر وأزعجه جداً ورسم إلى الصدر الأعظم بمذاكرة الخطب قبل استفحاله وشدد فى ذلك فكلم الصدر الأعظم كبار ساسة الدول وما زال بهم حتى أحجم بعض الملوك عن الذهاب وبعضهم أناب عنه ولى عهده أو أحد قرابته وانفشلوا أو كادوا ولاحت بشائر الظفر للصدر الأعظم فكبر الأمر على الخديو واستعظمه وشكى حاله إلى نابوليون واستنجده فكلم نابوليون الصدر الأعظم فى ذلك وشدد وهدد وما زال الأمر بين أخذ ورد أياماً حتى تقررت القاعدة على أن كل من شاء من الملوك والأمراء إجابة دعوة الخديو وجب عليه أن يعرج على دار الخلافة قبل ذهابه إلى مصر ويزور الخليفة السلطان بصفته صاحب الدعوة ثم يسير إلى مصر بعد ذلك على الرحب والسعة وأن للخليفة أن ينيب عنه من شاء فى هذه الولائم لتفتح مراسم التهانى باسمه الشاهانى وترفع لمن حضر واجبات الشكر وحقوق الضيافة فأناب السلطان عنه مبعوث دولة الإنجليز وزوده بما شاء مما لم تصل إلينا معرفته.

فلما كان ثانى شعبان سنة ست وثمانين ومائتين وألف هجرية قدم الوافدون تتقدمهم أوجنيه أمبراطورة الفرنسيس وأمبراطور النمسا والمجر مع ولى عهده وولى عهد ملك إيطاليا وكثير من الأمراء والكبراء وولى عهد البروسيا فباتوا ليلة فى مدينة بورسعيد بين مظاهر الأنس والسرور وأصبحوا وقد ركبوا السفن ومعهم طوائف الحرس والخدم والحشم وأكابر ممالكهم ونزلوا الإسماعيلية وقد تكامل عددهم ولم يتأخر منهم سوى مبعوث الإنجليز النائب عن الخليفة أمير المؤمنين فباتوا ليلتهم ورأوا من إتقان نظام الوليمة وحسن ترتيبها ما لم يجر على مثال سابق وكانت الموائد تمد تباعا فى الخيام والصواوين والسفن والأماكن التى أعدت لذلك والمدعوّون يتعاقبون عليها فوجا بعد فوج واستمر الحال على ذلك زهاء أربع عشرة ساعة، قال بعض كتاب الأخبار، فأعجب الملوك ذلك جدا بل أدهشهم وجعلهم فى حيرة وأصبحوا

رابع عشر شعبان وقد اجتمعوا جميعا فى مجلس أعد لهم وبينهم أوچنيه أمبراطورة الفرنسيس وكبير وزراء مملكتها وزئيس أركان حرب الجيوش الأفرنسية فقامت فيهم الخطباء والفصحاء فخطبوا وتكلموا وأطنبوا وبالغوا فى الإطراء ولم يتم الخطيب كلامه حتى وقف فى وسطهم مبعوث الإنجليز وقد كان لا يظن وصوله فى هذا الحين فختم الخطيب خطابه بالثناء على الخديوى وامتدح من حسن لقائه وكرم أخلاقه فصاح رسول الإنجليز بالدعاء للخليفة أمير المؤمنين صاحب البيت وما فيه فتبعه من حضر بالدعاء جهارا فأطلقت السفن مدافعها تباعا وأطلقت كذلك مدافع البر وهتف الجند بأصوات التهليل والدعاء وصدحت الموسيقى من كل صوب وحدب وعلا الصياح واشتد التهليل ودقت العمد والأعيان والمشايخ وأرباب الطرق طبولهم وهتفوا جميعا بالدعاء ومرت السفن بالخليج تباعاً بعضها آت من البحر الأبيض المتوسط وبعضها من البحر الأحمر وهى مزينة بصنوف الرايات وأشكال الزينة ورست أمام مدينة الإسماعيلية بعضها خلف بعض وجندها وملاحوها يهتفون بالدعاء على أعالى الصوارى وما زالوا على هذه الحال حتى تم عبورها فكان مشهدا من أعجب المشاهد وأحسنها لا يمكن وصفه ولا استيفاء محاسن ما فيه وقد كان ما أنفق من مال الخزينة على هذه الولائم والأفراح ما قدره ألفا ألف ذهبا ما عدا الهدايا والتقادم النفيسة التى أهداها الخديو من ماله وهى كثيرة جداً، ورجع من حضر من الملوك والأمراء ولم يبق إلا أوچنيه أمبراطورة الفرنسيس ومن معها من الحشم والأتباع وبعض الأمراء لمشاهدة الآثار القديمة بمصر وصعيدها فبالغ الخديو فى إكرامها ولازم ركابها حيثما سارت وجعل الأمير حسين ثانى أولاده فى خدمتها وطاف معها الخديو جميع ضواحى القاهرة ومصر مثل المطرية وطرا والأهرام وسقارة وغيرها على ظهور الحمير وأراها جميع العادات المصرية فى المأكول والملبوس وفى الأعراس والولائم وفى تمشيط العروس وجلوتها وتخطيرها وغير ذلك بأن زوّج بعض حظياته إلى بعض رجال ديوانه الخاص وعمل لهن الأعراس على أحسن ما يكون من الأبهة والعظمة الشرقية ثم سارت أوچنيه من القاهرة تريد الصعيد فسار الأمير حسين فى ركابها وخصص الخديو لخدمتها ستة عشرة باخرة تمخر فى النيل صعودا وهبوطا فكان بعضها لحمل الحشم والأتباع وبعضها لجلب المأكل والمشرب فى كل يوم من القاهرة وقضت بالصعيد اثنين وعشرين يوما صرف فيها من الأموال شيئاً كثيراً ثم عادت ولبثت بالقاهرة أياماً قلائل ثم سارت راجعة إلى عاصمة الفرنسيس ومعها من التحف والهدايا الفاخرة والأعلاق الثمينة ما لا يكاد يدخل تحت الحصر ويجل عن الوصف.

ولما فرغ الخديو من ولائم ترعة السويس وأفراحها عاد إلى التفكر فى أمر توسيع دائرة خديويته بين مصر والسودان والحبشة وخط الاستواء فسير الإرساليات العلمية والعسكرية إلى جوف السودان والحبشة لتخطيط الطرق واستكشاف أحوال البلاد ومواقعها وعوائد أهلها وأميالهم وغير ذلك واهتم بتحسين فرضتى سواكن ومصوع الواقعتين على ساحل القلزم وقد كان تقدم إلى السلطان فى ضمهما إلى خديوية مصر مع بعض بلاد الصومال التابعة للسلطنة العثمانية فى مقابلة زيادة الخراج المقرر دفعه كل سنة إلى الخزينة السلطانية وإبلاغه إلى سبعمائة وخمسين ألفا من الجنيهات فأعطاه إياها السلطان فحصن سواكن ببعض القلاع الخفيفة وأقام بها المرابطين من العسكر المصري وفعل كذلك بمصوع ثم تأهبت عساكره وشنت الغارة على غير ما أخذه من بلاد الصومال واستولى على عدة بلدان منها وسير جيشا عظيما إلى جوف السودان والدارفور وخط الاستواء ففتح الكثير من بلدانها واستولى على عدة مدائن وأراض واسعة وعاثت جنوده فى تلك الأصقاع وأعملت فيمن عصاها السيف ففتكت ونهبت وأسرت وأهلكت الحرث والنسل فهابهم أهل السودان وخشوا بأسهم واستسلموا لهم كارهين فأقام عليهم الحكام من أهل القوة والبأس وبث بينهم جباة الأموال من أهل الخشونة والقوة ووكل بهم ذوى الطمع والجشع وجعل تلك البلاد الأهلة بالإنسان والحيوان والضرع والزرع منفى لأصحاب الجرائم وأهل الشقاوة وضرب عليهم العمال والولاة الضرائب الفادحة وفرضوا الفرض والمكوس الجائرة واشتدوا على طوائف التجار منهم والنخاسين وخصوهم بالمغارم والفرض وأذلوهم بالمصادرة والتشريد عند أصغر سبب أو أقل تقصير، وكان ممن سيرهم إلى جوف بلاد الحبشان لمعرفة أحوالها والتقرب من بعض كبار رجالها رجاء الغنم رجل نمساوى الأصل اسمه مشنجر فتغلغل مشنجر هذا فيها وغاب خبره حينًا ثم عاد حاملاً شيئًا من محاصيل البلاد وزين للخديو التغلب عليها وضمها إلى مملكته وقد كانت الفتنة يومئذ قائمة بين ملوكها وأمرائها والخلل ضارب فيها أطنابه قيل وأقسم مشنجر للخديو بأغلظ الأيمان أنه يملكها ويدوخها بنفر من العسكر المصرى وشئ من النفقة فأعجب الخديو رأيه ومال إليه وما زال مشنجر يتردد على أبواب الخديو حتى ولاه المحافظة على فرضة مصوع التى هى مفتاح أرض الحبشان البحري وأعطاه رتبة البيكوية فسار مشنجر إليها واستقر بها وجعل يدبر فى فتح البلاد وقرب إليه بعض مشايخ السواحل واستمالهم بالرشاوى والبراطيل ودفع بهم إلى دس الدسائس

وإيقاظ الفتنة ما استطاعوا ولبث على هذا الحال حينًا ثم استقدمه الخديو إلى القاهرة وعوّقه أيامًا ثم أعاده وأنفذ إليه جيشًا خفيفًا معقودًا لواؤه إلى أرندروب بيك الأمريكانى أحد مقدمى الحرب الذين أتى بهم الخديو للخدمة فى الجيش المصرى ورسمَ له بالزحف على البلاد وفتحها وأقام مكانه فى المحافظة على مصوع أراكيل بيك وهو شاب أرمنى المحتد لابأس به فخرج مشنجر بالعسكر من مصوع فى يوم مشؤم الطالع وسار نحو بلاد الحبشة سيرًا بطيئًا وجعل يستميل فى طريقه مشايخ القبائل الضاربة فى الطرق والمسالك وقرّب منه شيخ قبيلة الحماسيين وبالغ فى التودد إليه ومناه بالأمانى الكثيرة فلازم الشيخ ركابه خديعة ومكرًا وسار معه وهو على قدم السمع والطاعة ومشنجر يظن بلوغ الغاية والفرح ملء فؤاده وسير إلى أراكيل بيك يعلمه بالخبر فكتب أراكيل إلى الخديو يبشره بذلك، وتاقت نفس أراكيل إلى الخروج والغزو مع مشنجر ليشاطره النصر ويشاركه فى الغنم فسار عن مصوع ولحق بالحملة وساروا جميعًا وعيون النجاشى من أمامهم ومن خلفهم وعن يمينهم ويسارهم وهم لا يشعرون فلما بلغوا بلدة (جندت) نزلوا بها ونصبوا خيامهم وأوقدوا نيرانهم ليبيتوا ليلتهم وكان مع مشنجر فى هذه الغزوة امرأته وأولاده وبناته وبعض الخدم والأتباع كأنهم ذاهبون إلى عرس أو وليمة أعدت لهم على الرحب والسعة فبينما هم نيام على فراش الاطمئنان إذ دب عليهم جماعة الحبشان فى منتصف الليل الأخير وأحاطوا بالخيام إحاطة السوار بالمعصم ودخلت جماعة أخرى فى وسط الخيام وأعملوا فى العسكر السيف فهب العسكر من نومهم مذعورين واختلطوا بالحبشان فلم تمكنهم الحبشان من الدفاع وأثخنوا فيهم قتلاً وطعنًا حتى أفنوهم أو كادوا ودخلوا على مشنجر فى سرداقه فذبحوه مع امرأته وأولاده وبناته ذبح الشاة وذبحوا جميع حاشيته وأتباعه وقتلوا أراكيل بيك شر قتلة وكان شابًا جميلاً حسن الشمائل عاقلاً ذكيًا مولعًا بالمعالى وقتلوا كذلك أرندروب وأصبحوا ودماء القتلى تجرى بين الخيام جريان الماء وأخذوا جميع ما وجدوه من سلاح ومؤن وذخيرة وخيام ودواب للحمل ورجعوا ظافرين غانمين.

وعاد من بقى من العسكر إلى مصوع فى أسوأ حال من العرى والجوع وكلهم مثخن بالجراح وأخبروا بما جرى فسيروا بالخبر إلى الخديو فهاله وأزعجه، قال بعض الكُتاب: وأقسم بالأيمان الغلاظ أن لا ترجع عساكره عن أرض الحبشان وفيها ديار أو نفاخ نار ورسم إلى راتب باشا أحد مقدمى العساكر وسردارها يومئذ بتجنيد الجند

وإعداد المعدات وشدد وبالغ في ذلك وكان قد عاد في هذه الأثناء من الديار الأوروباوية الأمير حسن ثالث أولاد الخديو وقد تعلم الفنون الحربية وخدم في عسكر الإنجليز وعسكر الألمان حينًا.

فلما كان شوال من سنة اثنتين وتسعين ومائتين وألف رسم الخديو بخروج العساكر والأجناد وتسييرهم إلى مصوع فسار أولاً عثمان رفقي باشا أحد مقدمي العسكر من الشراكسة على رأس الايين إلى مصوع ونزل بها أيامًا ثم لحقهم الجيش كله في ذي القعدة من السنة في ثالث عشرة ولبثوا بها جميعًا زهاء أربعين يومًا حتى تكامل وصول مؤنتهم ودواب حملهم وذخيرتهم وآلات حربهم ووصل أيضًا الأمير حسن ومن معه من أركان حربه ومقدمهم الجنرال لورنج الأمريكاني المعروف بأبي ذراع لبتر ذراعه الأيسر ثم بعد أن رتبوا أمورهم وأصلحوا حالهم وتأهبوا للزحف سار في مقدمتهم عثمان رفقي باشا بمن معه من العسكر إلى المحلة المعروفة باسم (بعرزه) وهي تبعد مسيرة يوم للمجدّ المسافر ويومين للراكب البطئ وسار بقية الجيش بسلاحه ومتاعه ودواب حمله عن مصوع في يوم الاثنين سابع عشرى ذى الحجة من السنة فلم تغرب عليهم شمس ذلك اليوم حتى نزلوا على بلدة (ينعض) فباتوا بها ليلتهم وأصبحوا سائرين على أحسن ما يكون من الهيئة والترتيب فبلغوا (بعرزه) بعد الزوال بقليل فأنزلوا بها أحمالهم يوم الأربعاء وباتوا ليلة الخميس وفي الصباح الذى هو أول المحرم افتتاح سنة ثلاث وتسعين ساروا إلى (عدرسه) فنزلوا عليها في غروب اليوم وباتوا بها ليلتهم وأصبحوا يريدون بلدة (قيح خور) التي يقال لها أيضًا (قيا خور) وباتوا بها ثم أصبحوا سائرين نحو (قرع) فبلغوها في ضحوة يوم السبت ثالث المحرم المذكور وقياخور وقرع كلاهما من حدود مملكة الحبشان فرسم السنردار إلى أركان حربه بتهيئة مكان لنزول العسكر فأنزلوهم غربيّ البلد ودقوا خيامهم ورتبوا دوابهم وحفروا الخنادق وأقاموا الاستحكامات الخفيفة وأنشئوا قلعة على ذلك الاستحكام على أحسن ما يكون من الوضع والنظام وخندقوا حولها خندقًا على أعظم ما يكون من العمق وسموا هذه القلعة بالقلعة الجديدة وقد مهدوا الطريق من مصوع إلى قياخور وأزالوا ما يتخلله من العقبات وحفروا به بعض الآبار للإرتواء وانبث جماعة منهم بين الحبشان لشراء الشعير لمؤنة الدواب والدقيق والعسل فاشتروا من ذلك شيئًا كثيرًا وآخرون لاستراق سمع الأخبار عن النجاشي يوحنا ومن معه من العساكر والأجناد وقد سار عن (عدوة) تخت مملكته يريد الإلتقاء بالعساكر المصرية

والقتال معهم وما زال ينتقل بخيله ورجله من بلد إلى بلد حتى وصل إلى ناحيتين يقال لأحداهما (دنبه) والأخرى (لمزه) وهما يبعدان عن المعسكر المصرى زهاء ست ساعات فتربص هناك، وجعل الأمير حسن يراسل كبار الحبشان وأمراءهم ويستميلهم إلى طاعة أبيه ويمنيهم بالأماني الكثيرة فكان أول من مال إلى ذلك (لح برو) عظيم (عد خاله) فحضر إلى معسكر المصريين فى نفر من الجند والأتباع فأكرم الأمير حسن وفادته وأهداه شيئًا من الملابس وشقق الحرير وهذا الرجل من أهل العصاوة وقطاع الطرق وله وقائع عدة مع العساكر المصرية فى واقعة أرندروب وجاءهم أيضًا (دجاج) ولد تكائيل صاحب الحماسيين فى جيش عظيم وطبول ورايات فلاقاه الأمير حسن ومقدموا عسكره وأحسنوا لقاءه وقدموا له الهدايا النفيسة من الشيلات الكاشميرية وشقق الحرير والمقصبات وقلائد الفضة وسروج الخيل المطهمة وأقام بالمعسكر المصرى يومًا وليلة وأطلقوا لقدومه بعض المدافع وحادثه الأمير حسن فيما هم بصدده، وولد تكائيل هذا من دهاة الحبشان وأصحاب الكلمة فيهم واجتمع حول المعسكر المصرى بذلك الصقع الكثير من السوقة وأصحاب السلع وأصناف الحبوب من الفول والعدس والشعيروالسمن والعسل واللبن والدجاج والبقر والخيول والبغال والضأن والمعز فكانوا يبيعون على العسكر آمنين مطمئنين وكانوا مدة لبثهم بغير قتال شديدى التحرز والالتفات وكان كبار الضباط من الشراكسة شديدى القسوة والجبروت على صغار الضباط من المصريين يؤاخذونهم بالعنف والشدة على أصغر الصغائر، قالوا لكى لا ينفشلوا، ويلقونهم فى أضيق الحبوس عند أقل حادثة فكانت أيام هذه الحملة على صغار الضباط المصريين من أتعس الأيام وأشدها ويلاً، وكانت عيون الأمير حسن وجواسيسه تنقل من أخبار النجاشى وعسكره فى كل يوم أشكالاً حتى أتت فأخبرت بأن النجاشى على أهبة الزحف بخيله ورجله فى يوم الثلاثاء حادى عشر صفر من السنة أى سنة ثلاث وتسعين فنادى راتب باشا فى العسكر المصرى بالتأهب والاستعداد لملاقاة العدو فتأهبوا ورحل يوحنا النجاشى عن دنبه ولمزه يريد مواقع المصريين فظهرت طلائع جيوشه ضحوة الثلاثاء وسمعت أصوات طبولهم وزمورهم فخرج فريق من المصريين ما بين مشاة وفرسان وجماعة من أصحاب المكاحل والمدافع من القلعة ووقفوا على قيد فرسخ منها على أحسن ما يكون من النظام والترتيب وناوشوا العدو القتال فقامت الحرب بينهما على قدم وساق واشتد الطعن والنزال وحمى الوطيس وعلت أصوات المدافع وارتفع الدخان إلى عنان السماء

فأظلم الجوّ والتقت الصفوف بالصفوف والتقت السيوف بالسيوف فأظهر الحبشان القهقرى والرجوع فتبعهم العسكر المصرى ومازالوا يتقهقرون والمصريون من خلفهم يصلونهم نارًا حامية حتى قطعوا ذلك الوادى وعبروا خورًا هناك وطلعوا على قطعة من اليبس توصل إلى خورثان وكلاهما يجرى فيه الماء والحبشان من أمامهم يناوشونهم القتال ولم يطل الحال على ذلك ساعة أو بضع ساعة إلا وقد أخذ الحبشان المصريين من خلفهم يعملون فى أقفيتهم السيوف والحراب وانطبقوا عليهم من كل جانب واشتدوا بالطعن والضرب وكانت صفوف المصريين الذين خرجوا من القلعة للقتال بغير احتياط ولا مدد وربما كان ذلك لحكمة لا يعلمها إلا العارفون بفنون الحرب والقتال وهجمت طائفة من فرسان الحبشان على القلعة يريدون اقتحامها وأخذ الأمير منها وكانوا يظنون أنه بها فالتقوا به عند الخور الأول فى جماعة من الحرس وأركان الحرب فاندفعوا عليه اندفاع السيل الجارف وأوشكوا أن يقبضوا عليه فساق بجواده وهم خلفه فلم يدركوه وتبعه من كان معه من حاشيته والعدوّ فى أثره حتى دخل الحصن وأغلقت أبوابه وانفشل العسكر المصرى أى انفشال واستولت عليه الهزيمة وأمر راتب باشا فجعلوا يطلقون المدافع على من كانوا خارج الحصن ووالوا الرمى بأشد ما يكون فكانت قنابل المدافع تكنس الأجسام من العسكريين كنسًا بل فعلت بالمصريين فعلاً تنفطر له الأكباد وتتمزق من هوله القلوب وما زال الرمى متراسلاً إلى قرب الزوال فتفرق من بقى من الحبشان وخلا منهم ذلك المكان فبطل رمى القنابل وقد امتلأ ذلك الوادى بالجثث والجرحى من العسكريين وجرى فيه الدم جريان الماء فى خوره وكان المنظر مزعجًا للغاية ثم خرج فريق من العساكر المصرية لدفن الموتى فأقاموا على ذلك أيامًا.

ووقع فى أسر الحبشان كثير من العساكر المصرية وجماعة من أرباب الوظائف بالجيش فقتلوا منهم وخصوا وأذاقوهم مر العذاب، قال أحمد رفعت بيك مقدم كتاب هذه الحملة فى رسالته التى ألفها باسم، جبر الكسر فى الخلاص من الأسر، وقد كان وقع فى أسر الحبشان فى هذه الواقعة ووفقه الله تعالى إلى عقد رباط الصلح مع النجاشى ما نصه، وقد حضر إلينا والحرب قائمة ضابطان من سوارينا يستطلعان حال القلعة إذ ربما يكون قد دهمتها جنود الأعداء وعلمنا منهما انتصار عساكرنا وظهورهم على العدو قال وقد كان لى فى القلعة جواد فأخذه خادم محمد نسيم أفندى أحد أصحابنا بقصد التوجه به إلى مخدومه لتوصيل ماء إليه فناديت

الخادم أن ارجع فلم يرجع وكـان قصدى بذلـك أن يوجد جوادى بجـانبى حتى إذا فاجـأتنا الأعداء بالهجـوم واضطرتنا الحال إلى مغـادرة القلعة ألفيت الجـواد بجانبى ونجوت به مع الناجين، قـال: ولما لم يرجع الخادم بعثت خلفه بتابع لى يسـتحضره ويحجزه فلم يعد هو أيضًا فاشتد حنقى وزاد غيظى وخرجت من القلعة ماشيًا ومعى قربينة وجبخانـة بقدر ما يكفى سعيًا على الحصول على جـوادى وطمعًا فى مشاهدة الحرب ومشارفـة القتال وقد ظننت أنه إذا حصلت هزيمة لعسـاكرنا المحاربة أدركهم عسكر الاحتـياط بالمدد كما شاهدت ذلك فـى محاربة كريد فأكـون ما بين ذلك قد تمكنت من العود إلى القلعة غير أن الأمر كان بخلاف ذلك إذ لم يكن لعساكرنا مدد ولا احـتيـاط على حسب الـقواعـد الحربيـة وما كـنت أظن هذا الأمر ولا أتخـيل حصوله، ولما أخذت فى السير وبعدت عن القلعة بمسافـة ألف وخمسمائة متر تقريبًا وجدت حسن أفندى أحمد الكاتب معى حاضـرًا خلفى على قدميه ثم رأيت حضرة محمد علـى بيك الحكيم راكبًا بجير ومعـه خادمه وشاهدت خادم محمـد بيك جبر الميرالاى راكبًا علـى بجير محمل ماء لتوصـيله إلى مخدومه فأمر مـحمد على بيك الحكيم خادم محمد بيك جبر بالنزول عن البجير كى أركبه ففعل ولما امتطيته سلمت القربينة للخادم المذكور وسرنا وقد جاء تسليم القربينة للخادم من الحكمة كما سيظهر فيما بعد وبعد مسيرنا ببرهة لم نشعر إلا والعجاج الثائر يغشانا شيئًا فشيئًا وقد رأيت وقتئـذ شابين من عساكرنا راجـعين بهرولة فسألتهـما عن السبب فقالا إن عـساكرنا انهزمـوا ولما أردت الرجوع بالبجيـر قصر عن الإسعـاف ثم حرن وعمد إلى التـقدم مجفلاً عن الرجوع فلم أجد سبيلاً سوى الترجل فنزلت عنه ولسان حالى يقول:

أذل قـــدمىّ ظـهـــر الأرض إنى ... رأيت الأرض أثبـت منك ظهـــرًا

وقصدت العود ماشيًا ولكن هيـهات إذ بعدت المسافة ولم يمكنى الجرى. قال: أما الـكاتب فاندهش وانذهل وقـال هات يدك ثم افتـرق منى إلى الجبل وقـد رأيت محمدَ على بيك الحكيم راجعًا بجواده وما لبثنا حتى وافتنا خيالة العدو فى الحال تؤم القلعة بالهـجوم فأحاطت بنا إحـاطة السوار بالمعصم وأقامت بيننا وبين الـقلعة سدا محكما ثم أقعـدنى أحد فرسان العدو فعـمد الشابان المنهزمان إلى ضربه فـقال لهما أمان فكفـا أيديهما عنه فعـاد إلىّ وجذبنى من يدى فتـخلصت منه بالعنف وأنا عن السلاح أعزل فصوّب نحوى بندقيته ولم يطلقها وربما كانت خالية من الذخيرة وكان تصويبه إياها من باب الإرهاب ثم عـمد إلى سيفه وضـربنى به ضربة جاءت خلف أذنى اليسرى فـأسالت الدم فى الحال غير أنى لم أشـعر بها إلا عند نزول الدم على

ملابسي لما اعتراني من الدهش والانذهال وشتات الذهن وتفرق البال ثم شفع الضربة الأولى بثانية صادفتني خلف العنق وكانت خفيفة الوطأة هينة التأثير قائلا: كيدن، ومعناها بالحبشية اذهب وهنا انجلت حكمة سبق تسليمي القريبة للخادم المتقدم ذكره إذ لو كنت حاملاً لبعض السلاح لظنني الفارس محاربا وابتدرني بالقتال والكفاح، قال: ولما كانت خيالتنا عائدة بالهجوم على القلعة طار عني الفارس المذكور خائفا وجلا فاختفيت في شجر المرسين فلما سلم منهم عاد إلى فأدركني بمجني ومختبئي وقهرني على القيام وكانت النيران في أثناء ذلك تلقى من قلعتنا على العدوّ صدا لهجماته وردا لغاراته فأخذ العدو في القهقرى ونزل حينئذ الفارس الذي أمسك بي عن جواده اتقاء الإصابة بالمقذوفات النارية راجعا إلى الوراء منحنيا في سيره مشيرا إليّ بالاقتداء به حتى أسلم من الإصابة وكنت أشاهد بعض عساكر العدو وبعض عساكرنا الذين اختلطوا بهم في ملتحم الهجوم ومزدحم الرجعي يصابون بالرصاص فيخرون على الغبراء مضرجين بالدماء وقد أفضت بنا القهقرى إلى نفق بالجبل فأوينا إليه وتوارينا به وكانت حينئذ تمر على رؤسنا مقذوفات المدافع فتنصدم بالجبال ولما توارينا بالجبل وصرنا على حذر من الوجل أخذ الآسر المذكور يمشي بي على مهل حتى وصلنا إلى نهير فاغترف لي منه ماء بيده وسقاني وبعد أن شربت شرع في سلب ما عليّ من الثياب فأخذ مني أوّلا البالطو وكان ملطخا بالدم وعلقه بعنق جواده وبعد ذلك سرنا حتى جئنا إلى ميدان واسع وكان ذلك في الساعة الحادية عشرة نهارا تقريباً فرأيت هناك جموعا شتى ولم يمكن أن أتبين في الحال هذا الميدان الذي أعهده من قبل وذلك بسبب ما أصابني من الدهشة والفرق ووجدت هناك جملة أسارى من عساكرنا وقد سأل الآسر المذكور أحدهم عما إذا كنت أميرا من الأمراء أو غير ذلك فأخبره وكان لا يعرف أنني منهم مستدلا على ذلك بزيي وهيئتي ثم رمق الآسر ساعتي وسلسلتها وأراد سلبهما فأخرجت ختمي من السلسلة بحيث لا يراني وأخفيته في جيب البنطلون لتعلقي به إذ هو عندي من منذ ثلاث وعشرين سنة فأخذ مني الساعة والسلسلة وعلقهما بعنقه وصار يدور حولي راكبا ويقول كلاما لم أفهمه قيل لي فيما بعد أنه عبارة عن ترنمه بشجاعته وذكر حسبه ونسبه وإتيانه بأسير وبعد ذلك وصل بي إلى محل في هذا الميدان وأخذ يفتش على زملائه فلم يجد منهم أحدا وكان ذلك وقت الغروب وقد عرفت هذا الميدان وهو الكائن شرقي (قرع) الذي كنا اتخذناه معسكرا لنا في أول الأمر إذ وجدت في المكان

الذى كنت فيه قطع ورق مما كنت أكتب فيه بختمي فقلت سبحان من أحلني بهذا المكان أسيرا وقد كنت فيه البارحة أميرا ولعلى منيت بالأسر لحكمة مستورة علمها عند الله إلى أن قال وفى صباح يوم الخميس ثالث عشر صفر رأيت عساكر العدو يحتشدون زمرا وأفواجاً على هيئة القولات واحتفزوا للتوجه إلى القلعة ثم ساروا ولم يخلفوا فى معسكرهم سوى الأسراء والنساء والصبيان وقد أوثقوا الأسراء وبعد برهة سمعنا صوت البنادق والمدافع منبئة بانتشاب المحاربة واشتداد المضاربة وحمى الوطيس بين الفريقين فانطلقت النساء الموجودات بالمعسكر عند إذ يصحن قائلات أبيت أبيت وهى كلمة تضرع ومعناه ياسيدى ياسيدى وكن يسجدن على الأرض ويأخذن التراب ويذررنه على رؤوسهن وهذا جميعه طلبا للنصر والتماسا للظفر وبعد ساعتين تقريباً عاد قوشو آسرى وعلمت من حاله انفشال أمرهم وخيبة أملهم ثم صار عساكر العدو يؤبون بالتعاقب إلى آخر النهار وسيماهم الحزن والأكدار إلى أن قال ولم يمكن العدو أن يتغلب على الاستحكام في محاربة يوم الخميس كما أسلفنا ذلك وقد رجع مهزوما مغلوبا مع كونه كرر الهجوم على الاستحكام دفعات متعددة من أول النهار إلى آخره حالة أن الاستحكام المذكور لم يكن به سوى أورطة ونصف تقريباً من العساكر فلو أن السبع أورطات يعنى كامل العساكر التى ساقوها لهذه الغزوة التى خرجت من الاستحكام أقامت به ولحقها الثلاث أورطات التى كانت فى قيادخور لتكوّن من ذلك قسوة عظيمة فى الاستحكام ولانهزم جيش العدو شر هزيمة ولم يقو على القرب من الاستحكام لوصول مقذوفاتنا إلى النقطة التى أخذها العدو معسكرا ولو كنا اقتصرنا على قذف النيران على العدو من الاستحكام لكان هذا كافيا لكسره وتبديد جموعه قال: وحصول الأمر بخلاف ذلك نشأ من تفرق الكلمة وتباين الآراء لأن جناب السردار رأى أن تتحصن العساكر فى الاستحكام وتلحق بها الأورطات التى كانت بقياخور ورأى الغير ولعله الأمير حسن خروج العساكر لمقابلة العدو وبقاء جزء منه بالقلعة مع عدم إخلاء قياخور من العساكر خشية انقطاع خط المواصلات، إلى أن قال: ولكن إذا أراد الله نفاذ أمر سلب من ذوى العقول عقولهم حتى ينفذ أحكامه فيهم فإن صاحب ذلك الرأى يريد (الأمير حسن) لم يراع فيه التدبير اللازم حتى إننا ما كنا نعلم بسبب عدم الاستكشاف إن كانت مقذوفات مدافعنا تصل إلى معسكر العدوّ أم لا وما علمنا وصولها إلا بعد أن غادر جيش العدوّ هذا المعسكر قال وليس من الحكمة والتدبير أن تساق العساكر بأجمعها إلى المحاربة دفعة واحدة ولا يكون لها مدد واحتياط للرجعى

ولا يصح إيجاد العساكر فى مكان على يمينه جبل يمكن صعود العدو فيه وإشرافه عليهم وحول أطرافه خور محيط به يمنع الرجعة فإنه لما اصطفت عساكرنا فى ذلك المكان وأقبل عليهم جيش العدو رموه بمقذوفات المدافع والبنادق فما وسعه إلا الهبوط إلى الخور والسير منه بحيث لم تره عساكرنا لعمق الخور حتى وصل منه إلى ذروة الجبل فتسلط على يمين جيشنا وكسر جناحه ولما عمد جيشنا إلى الرجعى منعه الخور المذكور وقد انقلب فيه مدفع من مدافعنا بحيواناته وانكبت حملة من عساكرنا فيه على بعضهم فبطل الرجوع بالكلية ونشأ منه ذلك الفشل والهزيمة ووقوع فوج من عساكرنا فى أسر العدو. اهـ.

ولما لم تتمكن الحبشان من أخذ الحصن عنوة وقد أخذتهم نيران مدافعه تراجعوا فنادوا فيهم بدفن الموتى ونقل الجرحى فدفنوهم ونقلوا جرحاهم ثم دقت طبولهم بالرحيل فانقلبوا فى الحال على من عندهم من الأسرى فقتلوا منهم خنقا وذبحا وأفحشوا فى ذلك جداً ثم ساروا أفواجا وهم فى عدة كثيرة بكراعهم ومتاعهم حتى نزلوا على بلدة (اقلبه) وعسكروا بها فلما كان يوم السبت أرسل الملك فى طلب أحمد بيك رفعت وقد أخذ منه الجهد والتعب وبلبلة البال مأخذا عظيما فقام وسار مع رسول الملك وصحبتهما الأسر لأحمد بيك وهما يقولان له أمان أمان ويفهمانه أنه ذاهب إلى حيث النجاشى يكلمه فى شىء من أمر الصلح والكف عن الحرب، قال أحمد بيك فلما وصلنا إلى ساحة الملك وجدت الأسر سجد خلف خيمة فظننتها خيمة الملك وأن السجود له وإذا هى كنيسة الملك وهى مصنوعة من جوخ أحمر أما خيمته التى يقيم فيها فمن قماش أبيض قال: وبعد برهة طلبت إليه وكان أول من قابلنى على باب خيمته شخص يعرف قليلا من العربية وحينئذ خرج كل من كان عند الملك من أمير وحقير ولم يبق لديه إلا عمه المدعو رأس سرايه فقال لي: ذلك الشخص الذي قابلنى أأنت الكاتب وكبير الكتاب وهل تعرف مقدار السلاح والبارود وكل شىء فقلت نعم ولما دخلت فى الخيمة ألفيت الملك متلثما حتى لا يمكننى من معرفة صورته وقيل لى فيما بعد أن من عادة ملوك الحبشة أن يفعلوا ذلك عند لقاء الأجنبى المعادى خوفا من أن يعرفه فيفتك به عند سنوح الفرصة وكان الملك طويل القامة متوسط اللون بين السواد والسمرة عارى الرأس مضفور الشعر مستطيل الوجه عسلى العينين ضخم الأنف بارز الأسنان حافى الأقدام نظيف الملابس وعليه منها جلابية ولباس وفوطة متشح بها وكان جالسا على سرير عنجريب وعلى يمينه مخدة

وعلى يساره أخرى وهما كبيرتان الجرم من نوع الشطمة المستعملة قديما وأمامه على الأرض كليمان وقد وقف بجانبه الشخص الذى دخل معى وسألنى عن وظيفتى ثانيا وكان إذ ذاك عم الملك جالسا على الكليم دون السرير ولما لم يحسن الفهم ولم يجد التفهيم استحضر الملك شخصا آخر يحسن الكلام بالعربية فصار يترجم بينى وبينه.

فسألنى الملك بواسطة ترجمانه قائلاً: ما سبب حضوركم وما القصد منه؟ قلت: أن القصد هو تبادل التجارة بين الحبشة والمصريين وتوطيد دعائم المودة والألفة بين الفريقين ولما أرسل إليكم أرندروب بيك أحد النواب المدعو محمد عبد الرحيم للمفاوضة فى هذا الصدد سجنتموه على أن الرسول لا يسجن ولا يهان فقال: نحن لم نأمر بسجنه إلا لكونه قال: أن الخديو يريد الاستيلاء على ما بين مصوع إلى المارب ومن العادة أن من يريد المفاوضة في هذه المسائل لا يأتى ومعه العساكر فأرندروب بيك حضر إلى بلادنا ومعه الجنود فقلت له أما ما بلغه الرسول فلا ينطبق على الواقع ولا يوافق القصد فإن كان قال: ذلك فهو من عندياته وأما حضور أرندروب بيك بعساكر فمن المعلوم أن أراضى الحبشة عبارة عن وديان سحيقة وجبال وعرة وفيها قطاع الطريق والمتلصصون ونحوهم ويخشى من الطواف بها والتجوّل فيها بالانفراد فالعساكر التى أرسلت مع أرندروب بيك لم تكن إلا للمحافظة عليه في أثناء الطريق واتصال خط المواصلة والدليل على ذلك أنه لم يكن معه سوى ألف نفر وباقى العساكر كان بالمحطات بقصد توصيل الذخائر إليه وإلى من معه حتى لا يكلفوا جناب الملك بشيء ما فقال ولو أن كلامك من هذا القبيل غير أنى عارف ببواطن الأمور وهل عندك ختم تكتب لنا جوابا بالصلح فقلت نعم: ولكن أخذه الأسر فأمر الملك حينئذ بإحضار الختم وقد حصل فكان ذلك عندى من طلائع السرور وتباشير الحبور إلى أن قال: ولما خرجت من عند الملك أجلسونى فى خيمة معدة لحفظ الأسلحة الخاصة به وهى عبارة عن درق وحراب وبعض أمتعة فطلبت قرطاسا وقلما ودواة فأحضروا لى ذلك مع كاتب يدعى متى من أقباط مصر يشبه صيارفة البلاد ولبسه ثوب وعمامة وهو حافى الأقدام وفى خلال ذلك كنت قعدت بمعزل عن الخيمة مع الترجمان وعرفنى أن اسمه دسته وطلب منى الوعد بأن لا أنساه من البر والإحسان إذا نجح المطلوب وحصل المرغوب فقلت له لك ذلك وبعد حضور الكاتب قدموا لى من باب الإكرام بعضا من العسلية فتناولته مطمئنا فرحا وقلت لمن فى الخيمة (تملسوا) ومعناها باللغة الحبشية أخرجوا وقصدى بذلك إخلاء الخيمة من الناس فضحكوا تعجبا من إخراجهم مع كونهم هم أصحاب المحل ثم

أخذت القرطاس والقلم وكتبت مسودة خطاب عن لسان الملك إلى جناب البرنس حسن باشا وذكرت فيه.

إننى كنت أود استمرار علاقات المودة بينى وبين والدكم الأفخم ولكن حال دون هذه الأمنية تمويهات مشنجر باشا محافظ مصوع وبثه الأكاذيب حتى بنى على ذلك حضور أرندروب بيك وحضوركم وكان ما كان فى وقعتى جندت وقرع من هدر الدماء بين الفريقين وهذا أمر لا يرضى الله ولا الناس ولم ندر ما هو المقصد والمرام من حضوركم بالجنود إلى بلادنا فالأولى أن ترسلوا مندوبا من عندكم أو نرسل مندوبا من عندنا للمفاوضة فى شأن الأمر الذى نحن فيه إلى أن قال ونقلت مسودة كتابى على قرطاس بخط كاتبهم بدون تغيير فيها ولا تبديل ولا محور ولا إثبات ثم عرض على الملك فختمه وحررت منى كتابا تركى العبارة إلى جناب السردار بما شاهدته من حال جيوش الحبشة من حيث وفرتها وكثرتها وما لاح لى من هذا القبيل مع الاختصار وختمته باستلفات نظره إلى ضرورة حسم هذه المشكلة بالحسنى.

وقامت رسل النجاشى بالكتاب إلى المعسكر المصرى وسلموه إلى الأمير حسن فشرع يكلمهم فى تقرير قاعدة يحسن الوقوف عندها فقالوا إنما نحن أتينا نحمل خطاب الملك لا أن نناجيكم فى أمر الصلح فرسم الأمير حسن بأن يكتبوا إلى النجاشى بأن يرسل إليهم رجلا مفوضا من قبله فى عقد رباط الصلح والكف عن الحرب والقتال فلم يرد عليهم النجاشى أياما كثيرة وسار فى عسكره عن (أقليه) إلى ناحية دوارية إحدى بلاد الحماسيين وهى التى وصلت إليها العساكر التركية على عهد فتح السلطان سليم لبلاد الحبشة وتعطلت المخابرة فى أمر الصلح أو كادت ثم كتب النجاشى بعد ذلك إلى الأمير حسن يقول قوموا وتوجهوا ولا خوف على عساكركم منا ولا على مودتنا من الانقطاع فلما علم الأمير حسن ما فى هذا الجواب سأل الرسول أن يبدى رأيه فى أمر الصلح فقال: لم يأذن لى مولاى بالكلام فى شىء من ذلك فكبر الأمر على الأمير حسن واستعظمه وسير فى طلب المدد فجاءته طائفة من الجند فأمد بها المرابطين فى قياخور ولبث ينتظر ما سيكون وكانت كتبه ترد فى كل يوم على أبيه بمصر يحملها السلك البرقى وكذلك كتب أبيه وكلها فى معنى ما هم فيه، واشتد قلق أحمد رفعت بيك وخشى عاقبة التطويل وكان يرى من حركة الحبشان وميل كبارهم إلى إعادة الكرة على العسكر المصرى ما زاده قلقا وانزعاجا فسير إلى راتب باشا سرا يسأله تعجيل طلب الصلح وتلافى الخطب قبل استفحاله

وعـدم النطوح إلى إعادة الحـرب التى لا تؤمن عـاقـبتـها علـى حالة أن النجـاشى موصوف بالحنان والرفق كـارها لإراقة الدماء راغبا فى المسالمة والتـوّدد فأجابه راتب باشا إلى ذلك وحـثه على عقد رباط الصلح والإسـراع فى عمله قبل دخول الـشتاء واشتداده على العـسكـر المصرى ومناه بالأمانى الكثيرة إن هو عجل فى العـمل فتقدم أحمد رفعت بيـك إلى النجاشي في طلب تقرير قاعدة الصلح على ما فـيه المصلحة للطرفين وما زال به حتى ألانه واستمـاله وهون عليه الأمر فرسم له النجاشي بطلب أحد زعمـاء العسكر المصرى يكلمه فـى شيء من ذلك فسير أحمـد رفعت بيك إلى راتب باشا يطلب مبعوثا من قبلهم وضمن هو سـلامته وعدم مس المبعوث بضر فلم تكن إلا أيام حـتى جاءت الأخبـار بقرب وصـول علي أفندى الروبى أحد مـقدمى الفرسان المـصريين وأحمد أفندى عـبد الغفار ويوزباشى من الأقـباط مبعوثيـن لعقد شروط الصلح والكف عن القتال فرسم النجاشى بالاستعداد والتأهب للقائهم فخرج للقائهم زهاء الألفين من الحبشان بسلاحهم وآلات حربهم وكثر اللغط فى معسكرهم بقرب وصول المبعوثين فلما وصلوا وصاروا على مقربة من مقر النجاشى ترجلوا عن خيولهم ودخلوا على النجاشى مع بعض الأمـراء الذين هم فى ركاب الملك فأحسن النجاشى لقاءهم ورحب بهم كثيراً ورسم بنزولهم على الرحب والسعة فأنزلوهم فى خيمـة أعدت لهم وقدموا لهم شيـئاً من المآكل والمشرب ولبثوا يومـين يتكلمون فى قاعدة الصلح ثم اتفـقوا على أن يرسل الملك رسولا من قبله إلى مـعسكر المصريين فسير معهم رجلا اسـمه (ليكا منكاس ورقى) وهو من قرناء الملك فغاب ليكامنكاس ورقى أياما وعـاد ومعه شيء من الهدايا والـتحف ومبعـوثو الأمير حـسن المفـوضون بعقد رباط الصلح فتناجوا فى ذلك أياما فكان ما طلبه المصريون من الحبشان رد سائر المدافع وآلات الحرب التى غنموها وفـتح أبواب التجارة ما بين أملاك مصـر والحبشة فكره النجاشى منهم ذلك وأنكره وقال لا سبيل إلى رد شيء من الأسلحة البتة اللهم إلا إذا كان مـا قدره خمـسمائة بندقـية لا غيـر فألح رسل الأميـر حسن فى الطلب وجعلوا يهونون على النجاشى الأمر فـأخذته ثورة الغضب. وقال: لا سبيل إلى رد شيء وقد أخـذتم من بلادنا سنهيت ومصـوع بغير مسـوّغ شرعى ومصـوع هى مينا الديار الحبشية ومـفتاحها البحرى فلا سبـيل قط إلى شيء مما تطلبون وما كنا لنتوقع من خديويكم أن يناوينا الشر على غير موجب ولا سبب فكان من وراء فعاله هذه ما هدرتموه من دم أولئك الأبريـاء فالله علـيكم شـهيـد ثم أعـرض عن رسل الأمـيـر

فأخرجوهم عنه وباتوا وأصبحوا وهم محل الإعراض والازدراء بعد الذى لقوه من التجلة والتكريم فعادوا وأعلموا الأمير حسن بإعراض النجاشى عنهم وعدم الالتفات إلى شىء مما طلبوه وأن النجاشى لا يسلم فى شىء من السلاح والمتاع ولا رد شىء مما غنمته عساكره البتة سوى إرجاع الأسرى والتعاقد على المحبة والولاء وفتح طريق التجارة بين المملكتين فلم ير الأمير حسن بدا من قبول ذلك فأعاد الرسل بالسمع والقبول فرسم النجاشى بإحصاء الأسرى وردهم جميعا فنادى مناديه فى العسكر بذلك فاجتمع الأسرى حول خيمة النجاشى حتى تكاملوا ثم أدخلوهم عليه وكان بينهم بيكباشى أمريكى اسمه دورهاس فالتفت إليهم النجاشى التفاتة لطيفة كأنه يحييهم تحية الوداع فخرجوا فسار أمامهم أصحاب الطبول والزمور يضربون بطبولهم ويعزفون بمزاميرهم والحبشان من نساء ورجال على جانبى الطريق حتى دخلوا إلى المعسكر المصرى سالمين.

وعاد الأمير حسن بمن بقى من حاشيته وبطانته وبعض مقدمى العساكر المصرية من جماعة الشراكسة إلى القاهرة ثم لحقهم طائفة من العسكر وبقيت طائفة أخرى بعضها بقياخور وبعضها بعدرسة وبعرزه وهؤلاء لم يلبثوا طويلا حتى رحلوا إلى القاهرة وحل محلهم جماعة الباشيبوزق والعربان وبقى راتب باشا معهم حتى يأتيه مرسوم الخديو بالرحيل فلما جاء المرسوم بذلك نزل بمن معه فى إحدى السفن التجارية وأنزلوا ما بقى من المدافع والأسلحة والمهمات في ثلاث سفن كبيرة وبينما هي تسير قاصدة السويس اصطدمت إحداها المسماة دنقلة بصخر فى الماء فغرقت بما عليها ولم ينج منها غير الرجال ووصلت العساكر إلى مدينة السويس فسيروهم على الأثر إلى رأس الوادى فأقاموا بها أياما ثم سرحوهم فعادوا إلى أوطانهم فكانت هذه الغزوة من أتعس الغزوات وأشرها على البلاد وأهلها فسبحان من يؤتى النصر لمن يشاء من عباده.

وكان الخديو منذ ولايته ميالا إلى جعل مدينة القاهرة على نسق عواصم الأمم المتمدنة والدول الكبرى فى الترتيب والنظام وتنسيق المبانى وتوسيع الطرق وغرس الأشجار لتظليل الشوارع وغير ذلك من المحسنات فبالغ فى هذا الأمر ورتب له ديوانا مخصوصا وقيد به جماعة من المأمورين فصرفوا الأموال الطائلة فى توسيع الطرق وإنشاء المبانى وعمل المراسح ومحال اللعب العمومية وغرس الأشجار الكبيرة وإنشاء الحدائق والمتنزهات البديعية وإنارة الشوارع بالأنوار الغازية على ترتيب غريب وفرشوا الأرض بالحصا الأحمر وكسوها بالرمل الأصفر وهدموا الكثير من الدور

والوكائل القديمة والجوامع والأضرحة والتكايا توسيعا للطرقات وعملوا من محاسن البناء والتنظيم شيئاً كثيراً فكانت هذه الأعمال وغيرها مما سيتلى عليك بعضه سببا فى امحال الخزينة ونضوب الإيراد وذهاب الدرهم والدينار والاضطرار إلى الاستدانة من أصحاب الأموال بالربا الفاحش فاستدانت الخزينة مبلغا من المال قدره ثمانية آلاف ألف من الذهب فكانت هذه القرضة الأولى التى مدت إليها يدها بعد ولاية إسمعيل باشا ولم تكن استدانت شيئاً من قبل سوى أربعة آلاف ألف على عهد سعيد باشا لتبتاع بها سهاما من شركة خليج السويس فكثرت من هذا الحين معاملة أصحاب الأموال للخزينة وانبسطت أيديهم فاعطوا وسجلوا وحاسبوا وطالبوا وطاولوا وتقربوا وتلطفوا فى المعاملة فأمن الخديو جانبهم واستدان منهم أيضاً باسم أملاكه وزروعاته الخصوصية فأعطوه فاستزاد فزادوه واستطال فطاولوه حتى بلغ الدرهم دينارا فأنشأ معامل السكر العظيمة وسكك الحديد الزراعية والأبنية الفاخرة والعمائر الواسعة وأكثر من بناء القصور والمنتزهات الغريبة وبالغ فى أسباب الزينة بأحسن مما يفعله أكبر ملوك العالم وزوّج أولاده وبناته وعمل لهم الأفراح والولائم العظيمة وجمع فيها سائر أرباب القصف واللهو وسائر المغنين والمغنيات وفرق الهدايا العظيمة والتحف الجليلة على رجال الدولة والعلماء والمشايخ وأنفق الأموال الطائلة وخص كل واحدة وواحد منهم بالاقطاعات العظيمة والعقارات الواسعة للنفقة وأنشأ لهم القصور المشيدة والمبانى الفاخرة فى باب الخرق وخطة الإسماعيلية والقبة والجيزة وبولاق التكرور وزوّج الكثير من جواريه وسراريه إلى كبار الجند وصغار الضباط وأصحاب الوظائف الديوانية وبنى لهن الدور الواسعة وزينها بأنواع الفرش والبسط وأفخر الأوانى ورتب لهن الجماكى والمرتبات وأعطاهن غير ذلك من العطايا والتحف.

وكان إذا نضب الإيراد وأمحلت الخزينة وعز الدرهم عمد إلى الاستدانة وضرب المغارم وتكثير المكوس وفرض الفرض على البلاد شرقا وغربا وإعادة أشكال المكوس الغريبة التى كانت على عهد ملوك دولة الشراكسة الثانية وما زال على هذه الحال من السرف والأرغال وأصحاب الأموال تطاوله وهو يمنيهم بالأمانى البعيدة حتى اشتد بأهل البلاد الضيق واستحكمت حلقاته فضجوا وعجوا وجباة الأموال تجوب البلاد شرقا وغرباً وأصحاب الأموال من اليهود والروم تتبعهم فإذا تعذر على المموّل سد مطالب أصحاب الجباية أخذوا ما وجدوه عنده من غلة أو ماشية وباعوها لمن تبعهم من أولئك المرابين بأبخس الأثمان وهكذا كانوا يفعلون بأهل كل بلد وقرية حتى عم

الويل واشتد الكرب واستفحل الخطب وعز الخلاص، ولم تكن هذه المحن لتقعد الخديوى عن إعطاء نفسه كل ما تتمناه إذ سار فى سنة تسعين ومائتين وألف هجرية أى سنة ثلاث وسبعين وثمانمائة وألف ميلادية إلى دار السلطنة العثمانية ليستعطف صدر الدولة يومئذ ويزيل ما كان بينهما من الوحشة والتقاطع فأحسن السلطان لقاءه وبالغ فى إكرامه فأقام فى قسطنطينية أشهرا أنفق فيها من الأموال ما لا يكاد يدخل تحت الحصر وتقرّب من صدر الدولة وكبار السلطنة وأزال ما كان بينهم وبينه من الوحشة وأولم الولائم الكثيرة وأهدى لهم الهدايا العظيمة والتحف الفاخرة فلما تمكن من استرضائهم استقدم إليه من عاصمة الفرنسيس الموسيو أوبنهايم المرابى الشهير واقترض منه قرضا برسم الخزينة قدره ثمان وعشرون ألف ألف من الجنيهات أى ثمانية وعشرون مليونا ذهبا بحجة وفاء جميع ما على الخزينة من الديون وصرف ما يتبقى فى شئون البلاد وحاجاتها وكان من شروط هذا القرض أن لا يدفع ملتزمه للخزينة معجلا سوى ستة آلاف ألف نقدا وأن يعطى بالباقى أوراقا، هى المعروفة فى عرف أصحاب الأموال بالسندات الاسمية، فقام أوبنهايم بهذا الشرط ووفى إلى خزينة الخديوى هذا المال فى آجاله فلم يهتم له الخديوى وتقدم إلى أمير المؤمنين فى قبول ثلاثة آلاف ألف منه إعانة للخزينة السلطانية فقبل السلطان ذلك ورسم بحمل المال إلى الخزينة السلطانية وكأنه عز على الخديوى العود إلى القاهرة وفى خزينته شىء مما بقى من ذلك المال فعمد إلى شراء الجوارى الحسان والجواهر الثمينة والأعلاق النفيسة وهادى جميع رجال الدولة وأنفق وأولم للسلطان وليمة لم يسبق لها مثال جمع فيها من أصناف الزينة وبدائع الألعاب النارية والأنوار والفرش والمأكول والمشروب ما لا يمكن استيفاء شرح محاسنه وأولمت كذلك والدته لوالدة السلطان وليمة أخرى وقدمت لها من التعابى والأعلاق الثمينة ما لا يمكن وصفه.

(مطلب)

فرمان السلطان القاضي بنقل وراثة الخديوية من عقب محمد علي باشا إلى ذرية إسماعيل باشا

قال بعض كتاب الأخبار: وتحقق لهما فى تلك الليلة أنهما من أقرباء بعضهما تجتمعان فى جد واحد ففرحنا بذلك فرحا عظيما وجعلتا تتزاوران كل قليل ولا تنقطع من بينهما فى كل يوم رسل التحية والتسليم ولبث الخديوى بعد ذلك أياما

كلها أفراح ومواسم ثم تقدّم إلى السلطان فى أن يسرحه بالانصراف فسرحه فوصل الإسكندرية فى أوائل ربيع الثانى من السنة فزينت له المدينة ثلاثة أيام وكذلك زينت القاهرة عند وصوله إليها ودقت البشائر وزاره الأمراء والكبراء والعلماء والوجهاء ولم يستقر به المقام حتى شاع الخبر بورود فرمان السلطان بتأييد سائر الفرمانات السابقة مع إضافة جميع الحقوق والامتيازات التابعة لرتبة الخديوية إليه وتحدث الناس فى ذلك كثيرا ولم تمض إلا أيام حتى قرىء الفرمان فى محفل حافل بديوان السلطان الملك الغورى بقلعة الجبل حضره جميع رجال الدولة والأمراءوالكبراء والمشايخ والعلماء فكان ما فى الفرمان المذكور بعد الديباجة المعلومة ما نصه.

قد نظرنا بعين الاهتمام إلى طلبك بإصدار خط سلطانى يجمع بالتفصيل والتغيير اللازم جميع الخطوط الصادرة بعد الفرمان المانح المرحوم الوالى محمد على باشا الحكومة الأرثية سواء كانت تلك الفرامين متعلقة بكيفية الخلافة أو بالحقوق والامتيازات الجديدة الممنوحة مراعاة لحال الخديوية وسكانها فهذا الفرمان من شأنه أن ينسخ فى المستقبل حكم تلك الفرامين جميعها بما يتضمنه مما سيأتى بعد ويكون دائماً نافذا مرعى الإجراء.

أن كيفية وراثة الحكومة المصرية المقررة فى فرماننا الصادر ثانى ربيع الآخر سنة خمس وسبعين ومائتين وألف قد غيرت على وجه أن تنقل الخديوية من متبوّىء كرسيها إلى كبير أبنائه ومن هذا إلى أكبر أبنائه أيضا وهلم جرا علما بأن ذلك أدنى إلى المصلحة وأرشد ملاءمة لأحوال البلاد المصرية واختصاصا لك بانعطافى الذى صرت له أهلا بحسن سعيك واستقامتك واجتهادك وأمانتك وإثباتا لذلك أجعل قانون الوراثة الخديوية لمصر ومتعلقاتها وما يتبعها من البلاد وقائمقامية سواكن ومصوّع وتوابعهما كما تقدم بيانه بحيث تكون الولاية لبكر أبنائك ثم لبكر أبنائه من بعده فإذا لم يرزق من ولى الخديوية ولدا ذكرا كانت الولاية من بعده لأكبر أخوته أو لأكبر بنى أخيه الأكبر كما تقرر ولا تكون هذه الوراثة لأبناء البنات ولأجل تأييد هذه الأحكام ينبغى أن تكون الوصاية فى حال كون الوارث قاصرا على الصورة الآتية:

إذا توفى الخديوى وكان كبير ولده قاصرا أى غير بالغ من العمر ثمانى عشرة سنة يكون هذا القاصر بالحقيقة خديويا بحق الوراثة فيصدر إليه فرماننا بوجه السرعة وأما إذا كان الخديوى المتوفى قد نظم قبل وفاته أسلوبا للوصاية وعين كيفيتها وذوى إدارتها بصك ثبت بشهادة اثنين من رؤساء حكومته فأولئك الأوصياء يقبضون إذ ذاك

على أزمّة الأعمال عقب وفاة الخديوى ثم ينهون ذلك إلى الباب ليثبتهم فى مناصبهم ولكن إذا توفى الخديوى بغير وصية وكان ابنه قاصرا فمجلس الوصاية عند ذلك يؤلف من متولى الإدارة الداخلية والحربية والمالية والخارجية والحقانية وقائد العسكر ومفتش الأقاليم فتجتمع هؤلاء الذوات وينتخبون للخديوى وصيا بإجماع الآراء لا بالأغلبية فإذا تساوت الأراء لاثنين من المنتخبين كانت الوصاية لارفعهما رتبة باعتماد الترتيب السابق من الداخلية فما بعدها ويشكل مجلس الوصاية من الباقين فيباشرون جميعاً أمور الخديوية ويعرضون بذلك لسلطتنا السنية ليصدّق عليه بالفرمان الشريف. وكما أنه لا يجوز تبديل الوصى وتغيير هيئة الوصايا قبل انتهاء مدتها على الصورة الأولى أي فيما إذا كان تنظيمها بحكم وصية الخديوى المتوفى فكذلك لا تغير فى الصورة الثانية وأما إذا توفى الوصى أو أحد أعضاء مجلس الوصاية فى خلال تلك المدة فينتخب بدل الأول أحد أعضاء المجلس وبدل الثانى أحد ذوات الحكومة وبمجرد بلوغ الخديوى القاصر ثمانى عشرة سنة يكون راشدا فيباشر أمور الخديوية وذلك مماتقرر لدينا واقتضته إرادتنا السلطانية.

ولما كان تزايد عمارة الخديوية المصرية وسعادة حالها ورفاهية سكانها من أهم الأمور لدينا وكانت إدارة المملكة المالية ومنافعها المادية المتوقف عليها تكامل وسائل الراحة وتوفر أسباب السعادة عائدا على الحكومة المصرية رأينا أن نذكر كيفية تعديل الامتيازات وتوضيحها على شرط بقاء جميع الامتيازات الممنوحة سابقا للحكومة المصرية وذلك أنه لما كانت إدارة المملكة الملكية والمالية بجميع فروعها وأحوالها ومنافعها عائدة بالحصر على الحكومة ومتعلقة بها وكان من المعلوم أن إدارة أيّ مملكة وحسن نظامها وتزايد عمارتها وسعادة سكانها ما لا يتم إلا بالتوفيق والتطبيق بين الإدارة العمومية والأحوال والمواقع وأمزجة السكان وطباعهم فقد منحناكم الرخصة المطلقة فى وضع القوانين والنظامات الداخلية حسب الحاجة واللزوم ولأجل تسهيل تسوية المعاملات سواء كانت من قبل الرعية أو من قبل الحكومة مع الأجانب وتوسيع نطاق الصنائع والحرف وتوفير أسباب التجارة منحناكم أيضاً الرخصة المطلقة فى عقد المشاركات وتجديد المقاولات مع مأمورى الدول الأجنبية فى أمور المالك والتجارة وسائر المعاملات الجارية مع الأجانب فى أمور المملكة الداخلية وغيرها على شرط أن لا يكون ذلك موجبا للإخلال بمعاهدات الدول السياسية.

ولكون خديوى مصر حائزا لحق التصرف المطلق فى الأمور المالية فقد أعطيت له

الرخصة فى عقد القروض من الخارج بغير استئذان عندما يجد لذلك لزوما على شرط أن يكون القرض باسم الحكومة المصرية وبما أن أمر المحافظة على المملكة وصيانتها من الطوارق وهو أهم الأمور وأحوجها إلى العناية من أقدم الوظائف المختصة بخديوى مصر قد منحناه الإذن المطلق بتدارك أسباب المحافظة وتنسيبها على مقتضى ضرورات الزمان والحال وبتكثير أو تقليل عدد العساكر المصرية الشاهانية على حسب اللزوم بغير تقييد ولا تحديد وأبقينا كذلك لخديوى مصر امتيازه القديم بمنح الرتب العسكرية إلى رتبة ميرالاى والملكية إلى الرتبة الثانية على شرط أن تكون المسكوكات المضروبة فى مصر باسمنا الشاهانى وتكون أعلام العساكر البرية والبحرية فى القطر المصرى كالأعلام التى لعساكرنا السلطانية بلا فرق ولا تمييز ولا يجوز لخديوى مصر أن ينشىء البوارج المدرّعة بغير استئذان أما سائر السفن والبوارج ففى استطاعته أن ينشئها متى شاء.

ولاجل إعلان الأحكام السابق بيانها وتأييدها قد أصدرنا إليكم هذا الفرمان الجليل القدر من ديواننا الهمايونى وأعطى لكم متمما ومعدّلا وشارحا للخطوط الشريفة والأوامر المنيفة الصادرة إلى هذا التاريخ سواء كانت فى وراثة الحكومة المصرية وفى كيفية الوصاية أو فى إدارة الأمور الملكية والعسكرية والمالية والمنافع العمومية وسائر المهمات على شرط أن تكون أحكام هذا الفرمان الجديدة نافذة مرعية الإجراء على مر الأزمان قائمة مقام أحكام الفرمانات السالفة على ما اقتضته إرادتنا السلطانية فينبغى أن تعلموا قدر لطف عنايتنا وتؤدوا الشكر لها وتصرفوا الهمة إلى تنظيم الإدارة على محور الاستقامة وإلى الأخذ بأسباب وقاية الرعية وإصلاح شئونها وتأييد راحتها على حسب ما فطرتم عليه من الغيرة والاستقامة وحسن الأخلاق وما وقفتم عليه من أحوال تلك الجهات وأن تراعوا أحكام الشروط الواردة فى هذا الفرمان الجديد مع تأدية المائة وخمسين ألف كيس المضروبة على الديار المصرية سنويا فى أوقاتها المعينة إلى خزينتنا العامرة السلطانية على القوانين والقواعد المرعية انتهى بنصه.

(مطلب)

بيع سندات خليج السويس إلى الإنجليز

وظل الخديوى سائرا على ما يهواه من السرف وتمهيد العقبات أمام أصحاب الأموال حتى تمكنوا من أعناق أهل البلاد وأثقلوهم بالديون التى لا خلاص لهم منها

ونال أموال قرض الثماني وعشرين ألف ألف ما نال غيره من أموال القروض السابقة له وكثرت الديون المعروفة فى عرفهم بالديون السائرة إلى حد لا يمكن معه الوفاء ونضب جميع موارد الإيراد والخديوى مع ذلك لا ينكف عن إنشاء المبانى الواسعة والقصور المشيدة والحدائق الناضرة والتغالى فى أسباب الزينة والترف والإتيان بعجائب المقتنيات من بلاد الهند والصين غير مبال بما وراء هذا كله، وكان المتولى النظر على الخزينة فى هذا الحين المشير إسمعيل صديق باشا فأعمل الفكرة فى رأب هذه الصدوع فلم يكن فى الإمكان إصلاح ما كان واشتدت الأزمة واستحكمت على الخزينة حلقات الضيق وتأخر صرف الجماكى والمرتبات والعلوفات ولا سيما جماكى الجند وعلوفاتهم فطالب أصحاب الديون السائرة بديونهم وتزاحموا على أبواب الخزينة ولجوا ورموا المشير إسمعيل صديق باشا بسوء التدبير وفساد الرأى فعمد إلى معالجة الداء بالداء واصطفى له من بين أصحاب تلك الديون جماعة فجعلوا يخلطون ويخبطون ويمنون غيرهم بالأمانى الكثيرة ولكن على غير جدوى فانكمش أصحاب الأموال وعز على الخزينة الاستدانة وابتعد عنها من كان أقربهم إليها واشتد الطلب على المشير إسمعيل صديق باشا وقد سدت فى وجهه أبواب الحيل ولج الخديوى بإصلاح الحال تعاميا وتغريرا ورسم ببيع سندات خليج السويس التى كان اشتراها محمد سعيد باشا باسم الخزينة كما تقدم القول وسامها مع قنصل جنرال الإنجليز وكلمه فى شرائها باسم دولته فأجابه إلى ذلك وعجل بشرائها كى لا يسبقه إلى ذلك قنصل جنرال الفرنسيس، فلما كان أوائل سنة اثنتين وتسعين ومائتين وألف هجرية رسم إلىّ المشير إسمعيل صديق باشا بتسليم تلك السندات إلى المستر بورج قنصل الإنجليز بالقاهرة وقد كانت مودعة بالخزينة وكنت يومئذ ترجمان الباشا المشار إليه فقضيت فى تسليمها أياما فكنت أرى من الاهتمام بأمرها والتعجيل بنقلها إلى عاصمة الإنجليز على ظهر دارعة حربية استقدمت من الهند لهذا الغرض ما لم يكن لأحد فى حساب وفرح كبار سياسة الإنجليز بشراء تلك السندات فرحا عظيماً وتكلم أصحاب صحف أخبارهم فى الأمر ففصلوا وقاسوا وألبسوه ثوب الأطراء والمدح وعدّوه من معجزات سياسة ذلك الحين ثم انقلبوا يقرّعون الخديوى ويندّدون به ويرمونه بالخيانة ويسمون المشير إسمعيل صديق باشا بالتغرير وظلوا على هذه الحال أياما كثيرة لم تكن لتهدأ فيها أيضاً خواطر أصحاب الديون السائرة ولا انثنى لهم عزم عن الإلحاح فى طلب الوفاء.

(مطلب)

حضور كيف رسولاً من قبل الإنجليز للبحث والتنقيب عن الخزينة

واشتدت الأزمة وانقلب أصحاب صحف أخبار الإنجليز من التقريع والتنديد إلى تحريض صاحب سياستهم على التداخل فى الأمر والأخذ بناصر أصحاب الديون والبحث فى الأسباب المترتب عليها إمحال الخزينة ونضب الإيرادات وأطالوا الكلام فى ذلك وبالغوا فلم يمض إلا القليل حتى وردت الأخبار بقيام مبعوث من الإنجليز يريد القاهرة اسمه المستر (كيف) وهو مزوّد بشيء من الأسرار فاهتم الخديوى لحضوره وأمر فأعدّوا قصر النزهة من ضواحى القاهرة لنزوله ورتبوا له أصناف المأكول والمشروب وبعض الخدم والحشم فلما وصل إلى القاهرة لاقاه بعض رجال الديوان الخاص وأنزلوه بذلك القصر فاستراح قليلا ثم زار الخديوى بمقره بعابدين فأحسن الخديوى لقاءه وأولم له فى تلك الليلة ثم لم يلبث أياماً حتى شاع خبره وتناقله الناس وقالوا أن كيف هذا جاء ومعه أوامر بعضها سرية وبعضها علانية فالسرية منها كشف المخبا من أعمال الخديوى والحامل له على السرف وإنفاق الأموال الطائلة التى استدانها باسم الخزينة فى حين أن الخزينة لم تأخذ منها إلا القليل وأما العلانية فهى البحث فى حساب الخزينة وتحقيق جميع أبواب الإيراد والمصرف منذ تولى الولاية والأسباب الحاملة إلى كثرة الاستدانة وأوجه النفع المترتبة عليها إلى غير ذلك من أبواب البحث والتنقيب وقد كنت يومئذ رسول المشير إسمعيل صديق باشا إلى ذلك المبعوث فكنت أؤدى رسالة كل منهما إلى صاحبه وأحمل إلى (كيف) الصكوك والأوراق الديوانية التى كان يطلبها من الخزينة فكنت أرى منه رجلاً عاقلاً رزينا واسع المعرفة وكان إذا طلب شيئاً من الصكوك أو الأوراق نقبه تنقيبا فلا يتركه حتى يأتى على ما فيه من صدق أو كذب وأقام على هذه الحال أياما ثم رحل عن مصر إلى عاصمة الإنجليز فظن الناس أنه عاد صفر اليدين والأمر على غير ذلك فإنه لم ينكف عن البحث والاستقصاء والإتيان على جميع الأمور من أبوابها حتى عرف ما لم يعرفه أقرب الناس من مقام الخديوى وأعرفهم بأحوال البلاد وأهلها وقد سألنى المشير إسمعيل صديق باشا عما استطلعته من أعمال كيف ونواياه مدة مكثى معه فأعلمته بما عرفته وكاشفته بما استكشفته فظن أن فى الخبر إطراء ومبالغة وأن الرجل سارعنا وهو لا يعرف شيئاً من عوراتنا،وما جاء الخبر بوصوله إلى عاصمة بلاده

حتى أرسل كبير سياسة الإنجليز إلى الخديوى يستنهضه إلى استرضاء أصحاب الديون السائرة ويحذره من انقلاب الأحوال بسبب استنجاد أرباب تلك الديون بحكوماتهم فكبر هذا الكلام على الخديوى واشتد على المشير إسماعيل صديق باشا فاشتد الطلب على الفلاحين بقبض الثلث من الخراج معجلا ثم الربع ثم ما بقى من المغارم الأخرى فلم يأت هذا كله بالغرض المطلوب واشتدت الأزمة بأكثر مما كانت عليه وبقى الحال هكذا حينا وشاع الخبر بتكدر خاطر السلطان على الخديوى بسبب ما يلاقيه أهل البلاد من أصحاب الجباية وتكلم أصحاب صحف الأخبار الإنجليزية فى ذلك وبالغوا وهوّلوا.

(مطلب)

حضور فرمان من السلطان باستحسان عمل الخديوي إسماعيل

فلما كان سابع عشرى ربيع الثانى سير السلطان سريًا وراءه إلى مصر ومعه خط شريف باستحسان مساعى الخديو لدى الذات الشاهانية ومحظوظيتها منها مع إحالة فرضة زيلع وملحقاتها على الخديوية المصرية مقابلة خمسة عشر ألف جنيه عثمانى تضاف إلى الخراج الذى يحمل إلى الخزينة السلطانية فى كل سنة فبالغ الخديوى فى الاحتفال بقراءة هذا الخط وطير الخبر به إلى الآفاق فاستعظم الإنجليز هذا الأمر وكبر عليهم جداً وتجرد كبارهم إلى المقاومة وخابروا كبار ساسة الفرنسيس فى ذلك وزينوا لهم الاتحاد على ما فيه المصلحة لأصحاب الديون وكان أصحاب السياسة من الفرنسيس ميالين إلى الانتقام فأجابوا كبار سياسة الإنجليز إلى ما طلبوا وكتبوا إلى الخديوى يسألونه التعجيل فى فض هذه الأزمة بالتى هى أحسن ويحذرونه شر العاقبة فمناهم وبقى الحال هكذا أياما كثيرة.

(مطلب)

حضور جوشن الإنجليز وجوبير الفرنسيس لتحقيق ديون البلاد

وعاد أصحاب الديون إلى الوقوف على باب المشير إسماعيل صديق باشا يطالبون بما لهم أو ببعض الشيء منه فلم يفلحوا فعمدوا إلى الاستغاثة بقناصلهم وهؤلاء رفعوا الأمر إلى دولهم فظهرت لوائح الشدة وبانت دلائل الوحشة وجاء

الخبر إلى القاهرة بعزم دولتى الفرنسيس والإنجليز على تسيير رسولين إلى مصر باسم وكيلى الدائنين من رعايا الفرنسيس والإنجليز وتحدث الناس فى هذا الأمر فلما كانت أخريات سنة اثنتين وتسعين ومائتين وألف هجرية وصل المبعوثان المذكوران إلى القاهرة ونزلا بالنزل المعروف بنزل شبرد ببركة الأزبكية واعتزلا الناس كافة ولم يقابلا الخديوى إلا فى اليوم الثالث من وصولهما وكلماه فى سبب حضورهما وسألاه أن لا يكون بينهما وبينه وساطة ولا متكلم وأن جميع طلباتهما المتعلقة بمأموريتهما إنما يطلبانها من شخص الخديوى دون غيره وهو يكلم بها من شاء من رجال دولته فشق هذا الأمر على الخديوى وأكبره وتحقق أن فى الجراب ما فيه وكان الإنجليزى منهما اسمه جوشن والفرنسوى اسمه جوبير.

وبالغ جوشن ورفيقه فى البحث والاستقصاء عن موارد الإيراد وأوجه الصرف وأسباب الاستدانة وما أنفق وما لم ينفق حتى حصحص الحق وبان ولم يمض على ذلك إلا القليل حتى رفعا إلى الخديوى محضرا بما رأياه من أوجه الإصلاح وهى، إقامة اثنين باسم مفتشين أحدهما فرنسوى والآخر إنجليزى وتقسيم أعمال الخزينة إلى قسمين قسم للإيراد ويرأسه الإنجليزى وقسم للمصرف ويرأسه الفرنسوى وسألاه التصديق على ذلك فلم يسعه إلا الإذعان ورسم به فلم يكن بأسرع من أن حضر إلى القاهرة ذلك الذى تولى على الإيراد واسمه المستر رومين وحضر أيضاً الذى تولى على المصرف واسمه البارون دى ملاريه وقبضا على زمام أعمال الخزينة وأمرا ونهيا وتصرفا واشتدا على أصحاب الجباية والمديرين وأخذا ما فى يد المشير إسمعيل صديق باشا من الوظائف فلم يبق له من الرياسة إلا الاسم فقط ثم رفعا إلى الخديوى محضرا آخر بتسليم زمام الجمارك إلى رجل من الإنجليز يديرها على ما فيه المصلحة وبتشكيل هيئة من ثلاثة مأمورين أحدهم فرنسوى وثانيهم إنجليزى وثالثهم مصرى يختصون بإشغال السكك الحديدية غير تابعين إلا إلى جهة واحدة هى نظارة الأشغال العمومية فرأى الخديوى أن مستعظم النار من مستصغر الشرر وأنه إن تساهل مع جوشن ورفيقه اختبط عليه الأمر واختلط الحابل بالنابل وخرجت موارد الإيراد من قبضته فلا يعود فى إمكانه الحصول على شىء مما كان فعمد إلى المراوغة والتطويل وسير إلى جوشن ورفيقه يعلمهما بأن مصلحة البلاد وعادات أهلها لا تجيز تسليم الأمور ليد أجنبية وأنهما يتفاوضان مع المشير إسمعيل صديق باشا فى ذلك فأبيا مكالمته وألح جوشن فى الطلب وطال الأخذ والرد أياما فلما رأى جوشن عناد

الخديوى وإصـراره على الإباءة تجرد للعداوة وأظهـر ما كان يخـفيه من الحـقد فكان يدخل على الخديوى بمـقره بلا تأدب ولا احتـفال ويخاطبـه بفحش القول ويتـهدده بإفشـاء ما علمه من خـفى سره، قال بعض الكتاب: وأرسـل إليه يوما رقعـة يقول فيها: لقد كنت أتمنى أن لا تحدو بى مأمـوريتى إلى حد توجيه السؤال إلى شخصك الكريم عن أمر يهم دولة الإنجليز معرفـته ولكنى أرى نفسى مع زميلى مضطرين إلى سؤالك أيـن صرفت الأربعـة عشر ملـيون جنيـه الباقيـة من قرض الخـزينة والإيراد السنوى من عهد المرحوم محمد سعـيد باشا إلى هذا الحين، قال فلما اطلع الخديوى على هذا السؤال اضطرب وكبـر عليه الأمر فجعل يرعـد ويزيد ويتكلم كمن أصابه هذيان ثم جمع إليـه رجال الدولة وأصحاب الحل والعـقد من العاملين والمتقـاعدين وبينهم ولده الأمير حسين وهو يومئذ فى منصب تفتيش الأقاليم وشاورهم فى الأمر فتكلموا فيه كـثيراً ثم استقر رأيهم على تكليف المشير إسمـعيل صديق باشا بالجواب على ذلك السؤال ولم يكن المشـير بينهم فى تلك الليلة فكتب الخـديوى إلى جوشن بذلك واسـتدعى إليـه المشير إسـمعـيل صديق باشـا ورسم له بالجواب عـلى سؤال جوشن فامتنع وقال لا جواب عندى البتـة فشدد عليه وقال لابد من الجواب فقال إن كان ولابد فـلا جواب عندى سـوى قول الحق والتزام جـانب الصدق وهذه كـتبك ومراسيمك تنبئك بما فعلته بتلك الأمـوال وما بددته فى الحل والترحال قال فاستعظم الخديوى هذا الكلام واضطرب منه أىّ اضطراب وراجع المشير فقال لا سبيل إلى غير ذلك، وعاد رسول الخديوى ومعه جواب من جوشـن يـقول لا حاجـة لنـا البتـة إلى السؤال من إسمـعيل صديق باشا خلافا لما بيننا من العـهد ولا نطلب الجواب إلا من شخصك فجمع الخديوى إليه محمد شريف باشا وولده الأمير حسين وبعض حاشيته ورجال ديوانه الخاص ولم يحضـر معهم فى ذلك اليوم أيضاً المشير إسـمعيل صديق باشا وتناجوا فـى الأمر طويلا ثم انفض اجتماعـهم على ما لم تصل إلينا معـرفته، فلما كـانت الساعة الثـالثة من ليلة الخميس حادى عشـرى شوال من السنة أى سنة ثلاث وتسعين حضر إلى مقر الخديوى بعابدين أحد أتباع المشير إسمعيل صديق باشا ومعه مكاتبـة برسم خيرى باشا المهـر دار وسلمه إياها ففضـها وإذا هى خطاب إلى شخص الخديوى غايـة فى الشدة وفى بيان ما أصاب خزينة البـلاد من الإمحال وما حل بالرعية من الضنك وسوء الحال بأسـباب أفاعيل الخديوى وأنه هو برىء من كل تبعة مترتبـة على كثرة الاستدانة والنفقة بغير حـساب وأنه قد خلع نفسه من منصب النظر على الخزينة واعتزل من ذلك اليوم الوظيفة وترك الأمر لمن بيده سبحانه وتعالى

تدبير سائر الأمور فدخل خيرى باشا على الخديوى وناوله الخطاب فهاج عند رؤيته وماج وصاح علىّ به الساعة فسار إليه خيرى باشا يستدعيه فامتنع ولم يحضر فجاء إليه طونينو بيك أحد رجال التشريفات فامتنع أيضا فأرسل إليه أحمد نشأت بيك فامتنع وبات ليلته تلك وأصبح يوم الخميس فجاء إليه خيرى باشا واجتمع به وجلس يكلمه ساعة ثم قاما معا وسارا إلى مقر الخديوى بعابدين فلما دخل على الخديوى أحسن لقاءه وبش فى وجهه وعاتبه وتلطف فى عتابه ثم مازحه وقضى معه ذلك اليوم ثم انصرف المشير إسمعيل صديق باشا من عنده فى نحو الساعة الثالثة ليلاً وفى ثانى يوم الجمعة صباحاً جاءه رسول الخديوى يدعوه كالعادة فسار معه إلى عابدين وصعد إلى مقر الخديوى فلم يلبث إلا قليلاً حتى جاءت عربة الخديوى أمام سلم الديوان وحولها طوائف الحرس على عادتهم ثم انحدر الخديوى ومعه المشير إسمعيل صديق باشا وركبا معا فسارت العربة بهما فى الساعة الرابعة نهارا من الطريق الموصل إلى قصر النيل فكانت هذه الساعة آخر العهد به رحمه الله تعالى.

وعقد الخديوى فى تلك الليلة مجلسا بمقره بعابدين اجتمع فيه جميع رجال الدولة وأصحاب الوظائف العالية والعلماء والمشايخ ومفتى الديار المصرية وتكلموا فى أمر المشير إسمعيل صديق باشا وأسندوا إليه فعل ما لا يحل من العصيان والكيد على الخديوى وحرروا محضرا بذلك وحكموا بتبعيده إلى دنقلة إحدى مدائن السودان ووقعوا جميعاً على ذلك المحضر فلم يعلم الناس إلى هذا اليوم شيئاً مما جاء فيه غير ما قلناه وقد قفلت دونه من تلك الساعة أبواب الوصول، حدثنى صاحب لى، قال: أو ظننت صدق الخبر القائل بتسيير المشير إسمعيل صديق باشا إلى دنقلة وموته بها مبطونا، قلت نعم هو الصدق الذى لا مراء فيه فقال: اعلم أنه لما ركب الخديوى مع المشير العربة من رحبة عابدين سارت بهما والجند تخفرها إلى قصر النيل وكان به الأمير حسن ونساؤه يومئذ فلما وقفت بهما عند السلاملك التفت الخديو إلى المشير وقال تبقى هنا قليلاً حتى أزور ولدى وأرجع إليك فنزل المشير وجلس برهة لطيفة وإذا بالأمير حسن قد أقبل وهو يتلكأ فى مشيته وسلم فقام المشير إجلالاً له وحياه فنظر الأمير إليه وقال قد رسم الخديو الساعة بالترسيم عليك هنا تحت حراسة هؤلاء الجند حتى تأتى الباخرة التى ستقلك إلى دنقلة مبعدا فقال: وما سبب ذلك يامولاى وأى ذنب جنيته وأنا أصدق الناس فى خدمة أبيك وأشفقهم عليه وأطوعهم لإشارته فقال: لست أدرى ويعلم الله هل لك من حاجة تسألينها

ففاضت عينا المشير بالدمع وقال: لاشئ اسألك، وإنما أسأل الله الرحمة بي ثم نادى بأعلى صوته، ياغياث أغث عبدك وسكت وكـانوا قد دبروا أمر تبعيده وأعدوا لذلك باخرة من بواخر النيل وأرسوها تحت القصر وحولهـا الجند تحرسها وقد أنزلوا إليها بعض المأكـول والمشروب والمفـروش وجمـاعة من الخـدم والاتباع وطائفـة من الجند ومقدمـهم إسحق بيك أحد الضبـاط الشراكسة ثم عـاد الأمير حسن وخلفـه الأمير حسين ودخلا على المشير فوجـداه هادىء اللب ساكن القلب فقال له الأمير حسن: قم فقد تم كل شيء فهم يريد الـقيام فلم يقدر فأمسك الأميـر حسن بيده وخرج به من المكان وسلمه إلى إسحق بيك مقدم العسكر المكلفـين بحراسة الباخرة ومصطفى فهمي باشا محافظ المدينة يومئذ.

قال الراوي: لهـذه العبارة وسـمعت ممن يدعى أنه رأى المشيـر وهو خارج من المكان بين الأميرين حسن وحسين أن الأمير حسين لما رأى جبنه وخور عزيمته لطمه على وجهه وقال له: لقد خـانتك الأيام يالئيم فأذهب، قال: وعندى أنه لم يحصل شيء من ذلك فقد كان لوقوع هذا الأمـر الغريب فى ذلك الحين دهشة عند القريب والبعيد ولما أنزلوه إلى الباخرة أحاط بهـا الجند من كل جانب وأوصدوا جميع ما بها من الشبابيـك وأرسوها فى وسط النيل فكان المشير يصـيح وينادى كل قليل كأنه فى غرفـة نومه ثم كـثر هذيانه واشـتدت جلبتـه ومازالت البـاخرة فى مرسـاها والناس يسمعون صـياحه حتى غربت الشمس فأقلعت وسـارت ببطء قاصدة الإقليم القبلى ولم تسر قيد ربع فرسخ من قصر النيل حتى خفى صوت المشير ولم يعلم ماذا جرى عليه بعد ذلك ثم سارت الباخرة عند شروق الشمس مترفعة إلى الصعيد وقد طيروا الخبر إلى الآفاق بعدم دنو أحد منها ولا خروج أحد منها إلى البر فسارت فى عرض النيل سيرا حثيثا وما زالت والناس فى ريب من صحة الخبر حتى وصلت إلى أسوان فنزل من البـاخرة رجل على رأســه شملة من صـوف وركب على جمل وسـاروا به على هذه الحال إلى دنقلة ونزلوا بها أيامـا قلائل ثم أذاعوا خبر موت المشـير مبطونا وعملوا محـضرا بذلك بشهادة قاضى دنقـلة ومديرها وبعض مأمورى الحكومة فـيها وعادوا إلى القاهرة وقـد شوهد فى سبابة إسحق بـيك اليمنى جراحة عظيمـة فشاع خبر تلك الجراحة وتحدث الناس فى أمرها وقـالوا بأنها دليل على مقتل ذلك الشهيد رحمه الله تعالى رحمة واسعة، قال: وأصـبحوا ليلة القبض عليه وقد وصل خبر ما حل به إلى نسائه فقام الصياح واشتد العويل والبكاء وهرعت جميع النساء العائشات فى نعمته إلى دوره وأقمن الصيـاح والندب فاشتدت الجلبة وعلت الأصوات فكانت

ساعـة تنفطر من هولها الأكبـاد وجاء رجال ديوان الخـديوى الخاص ونفر من قـومه الذين اصطفاهم لنفسـه ودخلوا على نساء وجوارى المشير وأخذوا جميع ما فى الدور من تحف وأعلاق وأموال وأوراق الديون المعروفة باسم (بونات الخزينة) وكانت كثيرة ونقلوا جميع ما وجـدوه من الأمتعة الغالية وأدوات الزينة الفاخـرة وأخرجوا جواريه وسراريه وفرقوهن على بعض عامة الناس ومشايخ القرى ونقلوا جميع نسائه وذراريه إلى دار فى خطة التبانة تحت قلعـة الجبل وشردّوا مماليكه وغلمانه وخصـيانه وأقصوا بعضهم إلى أقـاصى السنار والدارفور وضيقـوا على خزندارته واثنتين معـها ليدللن على خبايا المشيـر وأمواله ونقلوهن إلى سراى الزعفران بالعباسـية فلم يعترفن بشىء وقلن أن جميع ما كان له قد نقله أعـوان الخديوى وأتباعه، وجاء أصحاب بيت المال فأحصـوا ما بقى من فرش وبسط وغيـر ذلك وضبطوه وبالغوا فى الضبـط والتحرير فقام كل من كان له دين عـلى المشير يطالب بما له وقد استبدل درهـمه بدينار واشتد الطلب من كل صـوب وحدب فـعينوا لعـمل حسـاب تركتـه عمـدة من أصـحاب الوظائف فأحصوا ما لأصحاب تلك الديون وسجلوه وادعى الأمير حسين ثانى أولاد الخديوى بأن للخزينة على المشير قدرا من المال له صورة وكان قد تولى نظارة الخزينة بعد خلع المشيـر فأجابته العمدة إلى مـا طلب وجعلوا يبيعون ما أحـصوه من فرش وبسط وطنافس وأسرة ومـقاعد وكراسى وأوانى فـاخرة وغير ذلك فاشـتراها بعض صغار الناس وبعض السوقة بأبخس الأثمان وظلوا على هذه الحال أياماً ربح فيها من ربح وخسر من خسـر وقليلون ويعلم الله هم الخاسـرون وانقضى الأمر وقد جمع ما ترك من متاع وزروع ودور وهى من أحـسن الدور وأفخرها وأوسعهـا وأجملها زينة فأعطى الخديو واحدة منها إلى المـشير محمد شريف باشا فانتـقل إليها بعياله ورسم بجعل الاثنتين الأخريين مقرا لبعض دواوين الحكومة فأنزلوا فيهما الخارجية والحقانية والخزينة والداخلية وهى باقية فيها إلى يومنا الذى نحن فيه فسبحان من يرث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

قـلـت: وقد كان بين المشـير إسمعيل صديق باشـا وبين أحد رجال دار الندوة الإنجليزية مـودة وصحبـة كبيرة فكـان إذا أتى الرجل إلى القاهرة أيام الشتـاء تبديلا للهواء على عادة كبار الإنجليز لازم المشيـر وبالغ فى التقرب منه فاتفق أنه حضر إلى القاهرة فى غضون الأزمة القائمة بسبب فعال جوشن وجوبير فاجتمع بالمشير إسمعيل صديق باشا وكلمه فى أمر بعـثة جوشن ورفيقه وقد كنت يومئذ ترجمـانهما وكاشفه

على كثير من المسائل المهمة التى لا محل لها هنا ونصح له أن يلتزم جانب الحزم عند الحاجة وأن يدفع عن نفسه بالتى هى فقال له المشير: إنى عزمت على خلع نفسى وترك منصبى فيوليه الخديو من يشاء من أولاده فإن منهم من يزاحمنى عليه أشد المزاحمة. قال: ومن هو قال: هو الأمير حسين فإذا تخليت عن المنصب واعتزلته وجاءنى الطلب من جوشنكم، يريد جوشن الإنجليز، وسألنى عما أعلمه من أمر المصرف والإيراد وكيفية الاستدانة ولا أظنه إلا فاعل ذلك أطلعته على ما ظهر من الأمر وما خفى وأعلمته بكل ما علمته من أفاعيل الخديوى مذ تولى إلى هذا الحين فيخف عنى ما ألاقيه من اضطراب الحال وبلبلة البال وأكون قد وفيت الذمة حقها والله يتولانى برحمة منه، فقال له: أو تأمن شر الخديوى والله لئن فعلت ذلك ليقتلنك شر قتلة وإنى أراه داهية غادرا خداعا يظهر غير ما يبطن فقال لم يبق فى قدرته فعل شىء من ذلك بعد أن نلت رتبة المشيرية فأنا اليوم رجل السلطان لى ما للخديوى نفسه وعلىّ ما عليه، فقال الرجل: لا يغرنك هذا الأمر فسلطانك فى شاغل عنك بما لديه من المشاغل المهمة والخطوب المدلهمة فلا تعجل فى الأمر واحذر التقرب من جوشن حتى يظهر الحق ويزهق الباطل ثم افترقا على ذلك فلما رفع المشير قصته إلى الخديوى وقد تهدده فيها بتبليغ جوشن جميع ما يعلمه من أمره كما تقدم الكلام سير إلى صاحبه المشار إليه فجاء فقال لى: قل له إنى خلعت نفسى واعتزلت المناصب وأوعدت الخديوى شرا فقد عيل منى الصبر واشتد بى الأمر ولم أر لى خلاصا إلا فيما فعلت فماذا تقول، فبهت الرجل وظهرت عليه علامات الدهشة وسكت برهة ثم قال: قد قضى الأمر وغدر بك صاحبك فقال لى: قل له لا تخش من ذلك فالله غالب على أمره ثم افترقا على ذلك فلما شاع الخبر بتبعيد المشير إلى دنقلة ذهب الرجل فى صباح الليلة التى أنزلوا فيها المشير إلى الباخرة ودخل على الخديوى وتقدم إليه فى أن لايصيب المشير أدنى ضرر فقال له الخديوى أخشى أنه يقتل نفسه بنفسه فإنه ما برح مذ أنزلوه إلى الباخرة وهو يشرب الخمر بالطاس ولا ينكف عنها فربما عجلت بموته فخرج من عنده حزينا، واتفق أنى قابلته فى ثانى يوم فسلمت عليه فوجدته مقطب الوجه كاسف البال فرد علىّ السلام وقال قتل صاحبى ويعلم الله قلت ومن أين أتاك علم ذلك قال: كنت البارحة عند الخديوى أرجوه أن لا يصيب المشير ضرر فقال لى كيت وكيت فتحققت أنه مات لا محالة.

وتقدم الأمير حسين إلى الخديوى فى طلب منصب النظر على الخزينة بدلا من المشير إسمعيل صديق باشا فولاه إياه فلم يستقر به حتى جعل يعزل ويولى ويتصرف فى صغير الأمور وكبيرها ولم يقدر على إرجاع جوشن ورفيقه عن عزمهما من إقامة موظفى الجمارك والسكك الحديدية كما شآ وقد عاودا الطلب والتزما جانب الشدة فلم ير الخديو بدا من الإذعان ورسم بذلك فى أخريات شوال سنة ثلاث وتسعين ومائتين وألف هجرية أى سنة ست وسبعين وثمانمائة وألف ميلادية ومع هذا فلم يقف بهما الطلب عند هذا الحد بل طلبا أيضاً إقامة مراقبين من جانب الدولتين الإنجليزية والفرنسوية على جميع أعمال الحكومة فلا يبرم أمرا إلا بمشورتهما ولايعمل عملا إلا برأيهما بحيث يبقى منصبهما دائمالا يتزعزع وإقامة عمدة من جميع الدول يكون من اختصاصها إجراء جميع الأعمال المتعلقة بديون الخزينة ومراقبة تحصيل الأموال الأميرية وصرفها إلى أصحاب الديون فى آجال ضربت لذلك فرسم الخديو بتنفيذ جميع ذلك صاغرا وحضرت العمدة إلى القاهرة فأنشأوا لها مكانا مخصوصا سموه، صندوق الدين، وتسموا هم كذلك باسم أعضاء صندوق الدين وجعلوا يتصرفون فى الأمور فجمعوا إليهم جميع إيراد المديريات والمصالح الضامنة لدين الخزينة وتسيطروا على جميع الأعمال الخاصة بأصول وفروع الديون فلما تم لجوشن ورفيقه ما أراد عادا إلى بلادهما يظنان الخلاص مما مضى والغلبة فيما هو آت وقام أصحاب صحف الأخبار من الإنجليز والفرنسيس يثنون عليهما بكل لسان ويقولون أنهما إنما أقاما بحكمة منهما دون تطاول يد الخديوى إلى أموال الخزينة سدا قوى البنيان فلم يكن فى الأمر شىء من ذلك البتة إذ عاد الخديو إلى العبث بموارد الإيراد وأهمل كل عهد وميثاق وجعل يحمل منها ما شاء من الأموال إلى خزائن زروعاته وبعضها إلى خزينته الخاصة وأعضاء صندوق الدين ثملون بخمرة وظائفهم هذه العالية ومرتباتهم الفادحة التى لم تكن تخطر لأحدهم على خاطر ولم يمض على ذلك الترتيب والنظام الجوشنى الجوبيرى سوى بضعة أشهر حتى ظهر العجز فى الإيراد زهاء ثمانمائة ألف وعشرين ألفا ذهاب وتعذر القيام بمطالب أصحاب الديون السائرة فى آجالها وعادت الأزمة بأشد مما كانت عليه فتزاحم أصحاب تلك الديون على أبواب الخزينة وأكثروا الإلحاح واللجاج وصاح بعضهم فى وجه الأمير حسين وخاطبه ببذئ الكلام وفحش القول وأقاموا الدعاوى على الخزينة أمام المحاكم المختلطة فحكمت وشددت فى التنفيذ وحجرت على الكثير من موارد الحكومة وأملاكها فاشتد الضيق بالخزينة واستحكمت حلقاته وزادت

الأمور خبالا وأشكالاً وأنفذت دولة الإنجليز إلى المستر فيفيان قنصلها الجنرال بمصر أن يكلم الخديوى فى الأمر ويسأله سرعة القيام بمطالب أرباب تلك الديون قبل استفحال الخطب وتفاقم الضرر فلم يلتفت الخديو إلى ذلك ولم تقصر يده عن أخذ كل ما وصلت إليه من أموال الخزينة وبقى الحال هكذا أياماً قد وقف فيها دولاب التجارة وضاقت على أهل البلاد مسالك الرزق.

(مطلب)

المؤامرة على قتل السلطان عبد العزيز

وبينما كانت الأزمة فى مصر تشتد والحال فى ارتباك وخبال كانت الفتنة فى دار السلطنة قائمة على قدم وساق ورجال الدولة وأصحاب الحل والعقد فيما وراء باب السلطان يعملون على خلعه ويحزبون الأحزاب ويهيئون العصب ويفتحون للفتنة أوسع الأبواب، قال بعض الكتاب: وتحرير الخبر، أنه لما أحس السلطان بمكايد الإنجليز واتخاذهم رجال الدولة وكبار السلطنة آلة صماء فى أيديهم يهددون بها دولة الروس كلما رأوا منها تدخلاً نحو أملاكهم الهندية أو تعطيلا لرواج تجارتهم الآسيوية فتخسر السلطنة العثمانية بأسباب ذلك من الرجال والأموال والبلدان ما لا يمكن معه بقاء عين أو أثر لمملكة آل عثمان ففطن إلى الأمر وهمّ بمداركة الخطر ومال عن معاضدة الإنجليز وأبغض سياستهم بغضا شديدا وتقرّب من قيصر الروس على يد سفيره الأمير أغناتيف ففرح القيصر بذلك وتحبب إلى السلطان وترددت بينهما رسل المودّة والتسليم وتكاثرت رسائل المحبة وتناسيا ما بين الأمتين من العداوة القديمة وتعاهدا على كبح جماح الإنجليز وإبعادهم عن أن ينالوا من السلطنة العثمانية بسياستهم ما كانوا ينالونه من قبل ودبرا لذلك تدبيرا حسنا للغاية فعلمت عيون سفير الإنجليز بالخبر وأعلمته به فخافه جدا وسير به إلى كبير سياستهم فجاءته الرسائل بالتيقظ ودقة الالتفات فبث العيون والأرصاد حول الأمير أغناتيف وتجرد إلى المقاومة وجعل يستميل كبار الدولة ويشتريهم بالذهب الرنان ثم كلمهم فى التدبير على خلع السلطان والتخلص منه فمالوا إليه وباعوا آخرتهم بأبخس الأثمان وكان ممن وافقه على ذلك نورى باشا ومحمد جلال الدين باشا صهرا السلطان عبد الحميد سلطان هذا الوقت ومحمد رشدى باشا الصدر الأعظم وعونى باشا وقيصرلى أحمد باشا وخير الله أفندى شيخ الإسلام ومدحت باشا رئيس شورى الدولة وبقى هذا السر

مكتوما بينهم حينا كانوا يحزبون فيه الأحزاب ويهيشون لإيقاد نار هذه الفتنة أعظم الأسباب حتى تم لهم ما أرادوا ثم سلموا الأمر بعد ذلك إلى محمد رشدى باشا ومدحت باشا وحسين عونى باشا وخير الله أفندى شيخ الإسلام وانضم إلى عصابتهم أيضاً السلطانة والدة مراد أفندى بكر أولاد السلطان عبد المجيد وجماعة من المابين وبعض كبار جند الحرس وهم نجيب بيك وعلى بيك وفخرى بيك وسعيد بيك ورضا بيك وغيرهم وجعلوا يتحينون الفرص ويتبينون انتفاعها وسفير الإنجليز يمهد لهم العقبات فلما أحكموا التدبير عمد الصدر الأعظم إلى الادعاء على السلطان بالدعاوى العريضة واتهمه بمحالفة العدوّ والتفريط فى أعظم حقوق الأمة والوطن وتعريض حقوق الخلافة الإسلامية إلى الضياع والتعاقد مع قيصر الروس على إدخال جيش من الروس فى قلب دار السلطنة للفتك بكبار الدولة وأركان الملة وأنه خالف عوائد أسلافه السلاطين وحاكى جماعة الفرنجة فى عاداتهم ومجتمعاتهم وغير ذلك ورفع إلى شيخ الإسلام هذا السؤال وهو: إذا كان زيد الذى هو أمير المؤمنين قد اختل شعوره فصار لا قدرة له على سياسة الأمة وهو مع ذلك ينفق أموال الخزينة فى ملاذه الذاتية ومنافعه الخصوصية إلى حد لا تطيق الأمة الصبر عليه وقد زاغ عن الحقائق الدينية وأخل بالأمور الدنيوية وكاد يقلب هيئة الملك ويهدم أركان السلطنة وكان بقاؤه ضررا فهلا يصح خلع بيعته؟

(الجواب) يصح كتبه الفقير حسن خير الله عفى عنه.

فلما كان يوم الاثنين سادس جمادى الأولى سنة ثلاث وتسعين ومائتين وألف هجرية أى خامس عشرى مايو سنة ست وسبعين وثمانمائة وألف ميلادية هموا بخلع السلطان وأناطوا حسين عونى باشا بتدبير أمر ذلك وكلفوا شيخ الإسلام مع بقية رجال الدولة وزعماء العصابة بمبايعة السلطان مراد بن السلطان عبد المجيد خان فأنفذ الصدر الأعظم إلى أمير سفن الحرب السلطانية بالتأهب والاستعداد فجعل يرتب سفنه على هيئة حصار لمقر السلطان وشاهد السلطان ذلك من بعض نوافذ مقره فاستغربه وسير إلى أمير السفن يستعلم عن سبب تلك الحركة الفجائية فأجاب بأنه ليس فى الأمر ما يستوجب الخوف وإنما هى مناورات لابد منها وعلم الصدر الأعظم ومدحت باشا بسؤال السلطان عن حركة السفن أمام مقره فخشيا أن يفتضح أمرهم ويتضح ما خفى من سرهم فلما كانت الساعة الثانية من غروب ذلك اليوم اجتمع زعماء العصابة فى باب السر عسكرية وخرج رديف باشا فى ألفين وخمسمائة من

الجند وأحاطوا بسراى السلطان إحاطة السوار بالمعصم وتسلم سليمان باشا حراسة أبوابها بمائة من تلامذة المدرسة الحربية وهم على ظهور الخيل ثم خرج حسين عونى باشا فى عربة وسار إلى مقر السلطان مراد وأنزله وأركبه فى العربة وهو لا يدرى ما الخبر فانزعج واشتد به الخوف حتى كاد يغمى عليه فلما وصلا إلى باب السر العسكرية لاقاهما شيخ الإسلام والشريف عبد المطلب وأخذا بيد السلطان مراد وهو يضطرب وكان رجال الدولة وكبار السلطنة وجميع أصحاب الحل والعقد وكبار الجند وقوفا على الأقدام فاجلسوا السلطان مراد على كرسى وحوله زعماء العصابة وتولى جماعة من العسكر حراسة الأبواب كى لا يخرج ممن حضر أحد وقام شيخ الإسلام فبايع السلطان وبايعه جميع الأمراء والكبراء ورجال السلطنة وكبار الجند وهو مع ذلك لا يتمالك نفسه مما لحقه من الخوف والفزع ووصل الخبر إلى رديف باشا بتمام البيعة إلى السلطان مراد فلم يشعر السلطان عبد العزيز إلا وقد دخل عليه رديف ونفر من كبار ضباط الجند فاضطرب واستكبر الأمر جدا وقال كيف تأتون إلىّ فى هذه الساعة بغير إذن فقال رديف باشا أتينا لنخبرك بأن الأمة خلعت بيعتك فقال كيف يكون ذلك وصاح فى وجوهم فقال له: رديف باشا انظر من الطاق فنظر وإذا بالجند قد أحاطت بمقره ومدافع مراكب البحر موجهة نحوه قيل فبكى وقال: أو أنتم فاعلون بى شيئاً الساعة فقالوا: لا وإنما سنقوم بحراسة أبوابك حتى ينقل بك إلى سراى طوب قبو وفى نحو الساعة الحادية عشرة ليلاً اطلقت المدافع من البر والبحر ونادى المنادون فى الشوارع والطرقات بخلع السلطان عبد العزيز وولاية السلطان مراد ابن أخيه فهرع الناس من كل صوب وحدب إلى باب السر عسكرية وأصبحوا وقد نقلوا السلطان عبد العزيز من مقره إلى سراى طوب قبو فذهبت معه السلطانة والدته وولده يوسف عز الدين أفندى وباقى أولاده ونساؤه فأقامت والدته فى حجرة بجانب حجرته خوفا عليه من فعال الأعداء وقد وكلوا بحراسة السراى نفرا من الجند ومعهم نجيب بيك وعلى بيك وهما من أصحاب الفتنة، قال أحد كتاب الأخبار، ولما تم نقل السلطان عبد العزيز إلى ذلك المكان وقد نقلوا معه جميع متاعه ومقتنياته اجتمع جلال الدين باشا ومدحت باشا ونورى باشا وبقية أصحاب الفتنة فجعلوا يدبرون أمر قتل السلطان عبد العزيز وأرسلوا إلى نجيب بيك وعلى بيك فى أمر ذلك.

واشتد القلق بالسلطان عبد العزيز من بقائه فى سراى طوب قبو وتطير من ذلك فكتب فى عاشر جمادى الأولى إلى ابن أخيه السلطان مراد يقول، بعد اتكالى على

الله سبحانه قد وجهت اعتمادى عليك فأرفع إليك مراسم التهانى بارتقائك تخت السلطنة وأبين لك ما بى من الأسف على أنى لم أقدر على القيام بخدمة الأمة كما تبغى ولكنى أؤمل أنك تبلغ هذا الأرب وإنك لا تنسى إنى بذلت كل ما فى وسعى لصيانة المملكة والذب عن شرفها وأوصيك أن تذكر أن من صيرنى إلى ما أنا فيه الآن إنما هم الجند الذين سلحتهم أنا بيدى وحيث إنى كنت كثير الرفق بالمظلومين ميالا إلى معاملتهم بالمعروف فأرغب إليك أن تأذن بنقلى من هذا المكان الضيق الذى أنا فيه الآن إلى مكان آخر وإنى أهنىء نفسى بانتقال الخلافة إلى ذرية أخى السلطان عبد المجيد خان، فرسم السلطان مراد بنقله إلى سراى أخرى فلم يمكث بها غير بياض يومه ذلك وفى المساء أدخل نجيب بيك وعلى بيك المتوليان حراسة المكان جماعة هم مصطفى البهلوان ومصطفى الجزايرلى وأربعة من الخصيان إلى مقر السلطان وأخفوهم عن الناس فلما كانت الساعة الثالثة ليلا دخل عليه أولئك القوم ومعهم اثنان أحدهما اسمه فخرى بيك والثانى اسمه الحاج أحمد أغا فتقدم فخرى بك وأمسك بكتفى السلطان وقبض مصطفى الجزايرلى والحاج أحمد أغا على ساقيه وتقدم مصطفى البهلوان وأمسك بأحد ذراعيه وقطع أوردته بمقراض ثم فعل كذلك بالثانى وما زالوا به وهو يصيح ويستغيث حتى خرج جميع دمه ومات فلفوا جثته بقميص أبيض وحملوها إلى حجرة قهوة وجاق الحرس السلطانى وألقوها على حصيرة كانت هناك وقد شاهدت بعض ما حل بالسلطان جارية من جوارى والدته فصاحت واستغاثت فصاح لصياحها سائر الجوارى واشتد الصياح والعويل وعلت الضوضاء وكانت والدة السلطان قد خرجت من حجرتها لقضاء حاجة فجاءت مسرعة لترى ما حل بولدها وفلذة كبدها فلم يمكنوها من ذلك وأخذوا فى حمل متاعه ومقتنياته وما كان عنده من تحف وأعلاق ثمينة إلى مقر السلطان مراد وكان مما أخذ من عنده سيف السلطان سليم فاتح مصر وهو من أشهر السيوف عند سلاطين آل عثمان وباتوا على تلك الحالة وأصبحوا وقد حضر إلى محل الجثة بعض الوزراء وكبار الدولة وبعض المشايخ والعلماء ووكلاء سفارات الدول وطبيب سفارة الإنجليز وماركو باشا رئيس المدرسة الطبية السلطانية وغيرهما من كبار الأطباء وكشفوا على جثة السلطان وبحثوا عما فيها فاختلفت كلمتهم وتحاجوا وطال بينهم الجدال وقال طبيب سفارة الإنجليز إن السلطان هو القاتل لنفسه ووافقه على ذلك بعض الأطباء وقال رئيس المدرسة الطبية بل قتل عمدا ووافقه على قوله بعض الأطباء واشتد

الجدال بين الفريقين وأبى رئيس المدرسة الطبية أن يوقع على محضر الكشف وأصر على الإباءة وقد شوهد فى جثة السلطان طعنة خنجر فى جانبه الأيسر وبعض خدوش فى فمه وذهاب إحدى أسنانه بضربة شديدة على فمه واشتد اللجاج بين جماعة الأطباء ساعة ثم أشاروا بدفن السلطان فدفنوه فى مشهد حافل للغاية ولم يكن حديث الناس طرا يومئذ إلا أنه مات شهيد التقرب من قيصر الروس وتناقل هذا الحديث أصحاب صحف الأخبار الروسية وقالوا وعادوا وبالغوا فى الشكوى فخاف رجال الدولة وخشوا العاقبة فأشاعوا أن قد أصاب السلطان أمراض عقلية بسبب تنزيله عن عرش السلطنة فاضطربت من ذلك اليوم أحواله وتبلبل بلباله فكان يتخيل له أن السفن راسية فى بوغاز المدينة تراسل رمى القنابل على العدوّ واشتد به هذا التخيل إلى حد أذهب نومه فى الليلة التالية لخلعه وأصبح فذهب إلى الحمام على عادته ثم خرج منه ونزل إلى البستان ثم عاد وأمر بعض الجوارى بفتح سائر الشبابيك والأبواب ففعلن فتركهن وخرج إلى البستان ثم عاد ثم خرج ثالثة ثم عاد ثم أراد الخروج من الباب الموصل إلى البحر وفى يده غدارة فمنعه الموكل بحراسة الباب فتهدده بتلك الغدارة ثم عاد إلى حجرته وقد اشتدت به الأعراض وكثر هذيانه فصار يتخيل أن عدوا هاجم عليه فيصيح على الجند والحراس بأن تطارده وعلى السفن بأن تمنعه قالوا ثم طلب من بعض الجوارى أن تأتيه بمقراض ومرآة ليهندم لحيته فأحضرتهما له من والدته وانصرفت عنه فتأمل فرأى والدته تنظر من وراء الباب فصاح عليها وأمرها بالانصراف ثم حضر عنده بعد ذلك أحد قرنائه وجلس معه برهة فجعل يقص عليه خبر العدوّ الذى كان يتخيله ولزوم مقاتلته وفى أثناء الحديث أخذ المقراض وقطع به عرقا من أوردة ذراعه الأيمن فهم الرجل يمنعه فلم يقدر فأسرع إلى والدة السلطان ليخبرها بالخبر فقام السلطان فى الحال وأقفل الباب وجميع شبابيك المكان وقطع عرق ذراعه الأيسر أيضاً ونام على فراشه حتى خرج دمه ومات، ويروون عنه غير ذلك أيضا ما لا يسعنا إيراده هنا، وعظمت الفتنة بعد موت السلطان عبد العزيز وكاد يتطاير شررها إلى سائر الإيالات وتظاهر جماعة من أصحاب الكلمة المسموعة والرأى المحمود فى دار السلطنة بالتشيع إليه والرغبة فى الأخذ بثأره فخاف أصحاب الفتنة وبالغوا فى الحيطة وعملوا على تفريق القوم ما استطاعوا وأوعزوا إلى بعض أصحاب صحف الأخبار التركية فحملوا على السلطان عبد العزيز حملة منكرة ورموه بالمروق عن الدين وإذهاب كرامة سائر المسلمين

ووسموه بالخبال وذهاب العقل وأكثروا من الجلبة والضوضاء حتى تخيل للناس أن أصحاب الفتنة فى حل مما فعلوه، ومما سيتلى عليك من تحقيق حادث خلع السلطان عبد العزيز وموته وما جرى فى شأن ذلك فى خلافة السلطان عبد الحميد سلطان هذا الوقت تعرف أى القولين أصح وأى الحجتين أقوى وأشد فتحكم إما لأصحاب الفتنة وإما عليهم والله يحكم بينهم وهو أحكم الحاكمين.

مات السلطان فكانت مدة سلطنته زهاء خمس عشرة سنة وله من العمر اثنتان وستون وقيل خمس وستون سنة وكان كبير المعرفة واسع الدراية ميالا إلى خير الرعية وإيراد البلاد موارد التقدم والعمران بعيد العسف غير متحجب ولا مشاغب مبغضا للإنجليز وسياستهم عاملا على التخلص منهم جهد الاستطاعة فلم يبلغ مأربا ومات شهيد جرأته رحمه الله برحمته الواسعة.

ومات فى أيامه ديمتريوس بطرك المتأصلين بعد أن أقام سبع سنين وكان شهما عاقلا محبا للعلوم فاعتنى بترتيب المدارس وبالغ فى وضعها على النحو الذى نحاه كيرولس مؤسسها فأعانه الخديو على ذلك وأقطع المدارس أرضا واسعة فأوقفت على عمارتها وتوسيع نطاق العلوم فكانت لها أعظم عضد ولما مات خلا الكرسى بعده أشهرا ثم أقيم كيرولس وهو الثالث عشر بعد المائة وأصله من بلدة تزمنت بإقليم بنى سويف واسمه يوحنا من رهبان دير البراموس ببرية شهات وهو بطرك المتأصلين الآن وله من الأعمال المبرورة والآثار المشكورة ما سيذكر فى محله إن شاء الله.

(الفصل الرابع والعشرون)

(فى سلطنة السلطان مراد ابن السلطان عبد المجيد خان)

وقام بالأمر بعد السلطان عبد العزيز السلطان مراد ابن السلطان عبد المجيد بويع بالملك يوم خلع عمه عبد العزيز سابع جمادى الأولى سنة ثلاث وتسعين ومائتين وألف هجرية أى سنة ست وسبعين وثمانمائة وألف ميلادية ولم يمض على ولايته إلا بضعة أيام حتى ظهرت عليه علامات الضعف ووهن العزيمة قيل وكثر هذيانه فكان يميل إلى العزلة والانفراد ويخاف من كل شىء ويضطرب لأقل شىء يراه أو يسمع به، وكان ليوسف عز الدين أفندى ابن السلطان عبد العزيز ياور لركابه فى

أيام أبيه اسمه حسين بيك بن إسماعيل بيك أحد أمراء الجراكسة الذين هاجروا إلى دار السلطنة وكان حسين بيك هذا طاغية شديد البأس جبارا وحسين عونى باشا السر عسكر يعلم حال حسين بيك ويخشى عاقبة بقائه في دار السلطنة بعد موت السلطان عبد العزيز فرسم بتسييره إلى بغداد ليتولى رياسة فريق ممن بها من العسكر السلطانى وأرسل إليه الفرمان بذلك فامتنع فأمر بحبسه فحبسوه أياما ثم عاد فاظهر الطاعة والرغبة فى الرحيل إلى بغداد وطلب مهلة يومين فأمهلوه فلما كان صباح يوم الخميس ثالث عشر جمادى الأولى خرج حسين بيك هذا من داره متسلحا بخنجر وأربع غدارات مسدسة وسار يريد منزل حسين عونى باشا وسأل عنه فقيل له أنه فى بيت مدحت باشا فسار إلى بيت مدحت وسأل الخدم عن عونى باشا فقالوا إنه مع بقية الوكلاء فى مجلس مخصوص فأعلمهم بأن معه تلغرافا يتعلق بباب السر عسكرية يريد توصيله إلى عونى باشا فأغضوا عنه فلبث برهة لطيفة ثم صعد إلى حيث مجلس الوكلاء وأراد الدخول فمنعه حارس الباب فسأله حسين بيك ومن أنت قال: سالم أغا خادم الصدر الأعظم فقال: ادعُ إلىّ خادم عونى باشا فإنى فى حاجة إلى لقاء مولاه الساعة فذهب سالم أغا وترك الباب فدخل حسين بيك فى الحال إلى المكان الذى فيه الوكلاء وقصد حسين عونى باشا فلما دنا منه أطلق عليه غدارته طلقتين فأصابتاه فقام ليدفع عن نفسه فانخرط عليه حسين بيك بالخنجر وطعنه عدة طعنات ثم أطلق عيارا على محمد راشد باشا فأصابه فى عنقه فمات لساعته ومال على قيصرلى أحمد باشا أمير سفن الحرب فقام وأمسكه بيده فأثخنه بالجراح وقد تمكن قيصرلى أحمد باشا وبقية الوكلاء من الهرب إلى بيت النساء وأغلقوا دونهم الأبواب وجاء أحمد أغا خادم الصدر الأعظم مسرعا وهجم على حسين بيك ليقبض عليه فصرعه حسين بيك قتيلاً وقصد كسر الباب الذى حال بينه وبين بقية الوكلاء فلم يفلح فجعل يكسر المصابيح وأخذ شمعة ليوقد بها الأستار كى يحترق جميع المنزل ليتمكن من الفرار فلم يقدر إذ جاءت طائفة من العسكر وكبسوا عليه وأمسكوه وقد قتل أحد العسكر وشكرى بيك ياور ركاب الصدر الأعظم وزجوه ليلته تلك فى السجن وأصبحوا وقد عجلوا بالحكم عليه بالتجريد والقتل شنقا، فلما كان فجر يوم السبت أتوا به بين طائفة من الجند وعلقوه على شجرة فى ميدان بايزيد وبقى معلقا إلى يوم الاثنين، قال بعض الكتاب: وكان عند عمل التحقيق معه ساكن القلب هادىء اللب لم تأخذه أخذة من الخوف وكان يظهر الأسف على من مات من ضباط العسكر والعسكر ويقول وددت لو أنى أذقت قيصرلى أحمد باشا أيضاً كأس المنون

كمـا ذاقهـا عونى وراشـد، وتحدث الناس بما فـعله حسيـن بيك فاختلـفت الأقوال وتباينـت ثم عادوا فاجـتمـعت كلمتهم عـلى أنه إنما فعل ذلك بهم انتـقاما لقـتلهم السلطان عبد العزيز واتـصل خبر هذا الحادث بالسلطان مراد فكبر خوفـه قيل واشتد هذيانه وتغيرت أحـواله واضطربت فكان لا يعرف أحدا ولا يميـز بين الضار والنافع وكان الصدر الأعظم يخفى حقيقة حاله عن الناس وقيل بل كانت أمه تظهر أنه عاقل رزين وتعمل على إخفاء حقيقة أمـره ولا تقرّب منه أحدا فلما طال تحجبه عن الناس لا سيما عـن قناصل الدول وقد اشتدت به علته استـحضروا له طبيبا نمسـاويا اسمه ليدزورف قد اشتهر بمداواة المجانين فلما شاهد أحواله وخبر أموره حكم بعدم نجاحه فاجـتمعت كلمة الوزراء وكـبار الدولة على خلعه وكـتبوا إلى خيـر الله أفندى شيخ الإسلام سؤالا فى معنى ذلك وهو:

إذا جنّ إمام المسلمـين جنونا مطبقا ففـات المقصود من الإمامـة فهل يصح حل الإمامـة من عهدته؟ (الجواب) يصح والله أعلم، كـتبه الفقـير حسن خيـر الله عفى عنه، واجتمع الوزراء فى يوم الأربعاء عاشر شعبان وقـرروا خلع بيعته والبيعة لأخيه السلطان عبد الحمـيد فخلعوه فكانت سلطنته ثلاثة أشـهر وثلاثة أيام لا غير ووردت الأخبار بما وقع له إلى القاهرة فكان الخديو فى شاغل عنها بما هو فيه من نكد الحال وبلبلة البلبال بسبب مطالب أصحاب الديون وقيـام دولة الإنجليز لنصرتهم كما ستراه فى محله إن شاء الله تعالى.

(الفصل الخامس والعشرون)

(فى سلطنة السلطان عبد الحميد ابن السلطان عبد المجيد)

وقـام بالأمـر بعد خـلع السلطان مراد أخوه السلطان عـبد الحمـيد ابن السلطان عبد المجيد خان بويع بالملك فى يوم الخميس حـادى عشر شعبان سنة ثلاث وتسعين ومائتـين وألف هجرية أى سنة ست وسبـعين وثمانمائة وألف مـيلادية تولى السلطنة والملك فى ارتباك والـفتنة قائمـة والعمالات فى اضطراب فـعمد إلـى سن القوانين والنظامات الدستورية الحـافظة لحقوق جميع الرعية على التسـاوى بلا فرق ولا تمييز

وكان التفـريق بينهم يومئذ قد أخـذ مأخذه حتى تمزقت جـامعتهم وتفرقـت كلمتهم وعمل التقاطع فـيهم عمله فنالت الدول أصحاب الغايات السيـاسية من ذلك ما لم تنله بحـد السـيف وكـرات المدافع، ورسم فى خامـس شوال سنة ثلاث وتـسعـين بتأسيس مجلس لنواب البلاد يتألف من هيئتين إحداهما ينتخب أعضاءها أهل البلاد وتسمى بمجلس المبعـوثان والثانية تنتخب أعضاءها الحكومة وتـسمى بمجلس الأعيان وكان المتولى الصدارة العظمى يومئذ محمـد رشيد باشا فخلعه وولاها أحمد مدحت باشا وهو صاحب ذلك الدستور وأنفـذ إليه صورة من القانون الأساسى الذى أنشىء لجميع الإصلاحات الواجب العمل بها فـى جميع ما وراء الباب. قال بعض الكتاب وكان هذا القـانون يشتمل على مـائة وتسع عشـرة مادة فرسم بنشـره والعمل به من يومه فى جـميع أنحـاء المملكة وأصدر فرمـانا بذلك فى سابع ذى الحـجة فكان من أحكام ذلك القانون المساواة بين صنوف الرعية وعدم التفريق بين الناس كافة وتحديد اختصاص مجلسى المبعوثان والأعيان وإبطال مصادرة الناس فى أموالهم وترك القسوة والتعـذيب فى تحقيق الجـرائم ومنع السخرة والعـونة وعدم عزل القـضاة إلا بحكم شـرعى وتعيـين مـواجب العـمال والولاة وجـعل التـعليم إجبـاريا وإعطاء الحـرية للمطبوعات وغير ذلك مما لا يسعنا إيراده هنا مـفصلا، قال بعض الرواة: فلم يستقر بمدحت باشا منصب الصـدارة حتى داخله الغرور وجعـل يعمل على خلع السلطان عـبد الحـميـد وإرجاع السـلطان مراد إلى تخت الملك ويـسعى فى فـصل الخلافـة الإسلامية عن مسند السلطنة العثمانية وجعلها عربية فيمن بقى من قريش من أشراف مكة وأوعز إلى بعض أصحاب صحف الأخبار الأجنبية فأشارت إلى ذلك وتكلمت عنه مع التعقيد والإبهام، قلت: وهذه سياسة غلادستون زعيم الأحرار بديار الإنجليز وأمنيته منذ نعومة أظفاره وكثيراً ما كتب وخطب وحض على أخذ شعار الخلافة من ملوك آل عثمان وإعطائه إلى من بقى من قريش أو لمن يصلح للإمامة من غير قريش وكان عربياً فلمـا أحس السلطان عبد الحميد بذلك رسم فى حـادى عشر المحرم سنة أربع وتسعين بخلع أحمد مدحت باشا وتنزيله عن منصب الصدارة وتبعيده عن دار الخلافة وأقام محمد أدهم باشا بدله فكانت صدارة مدحت باشا شهرين لا غير. قال بعض كتـاب الأخبار: ولم يـبعد مدحت باشا عن دار الخـلافة حتى تحـركت إمارتا الصرب والجبل الأسود وجعلتا تحشد الجيوش وتعدّ المعدّات وتدرّب العساكر والأجناد على فنون القتال وقدم جـماعة من ضباط عسكر الروس فتطوّعوا فـى خدمة جيوش

الإمارتين وجعلوا يحصنون الدروب ويوعرون الطرق وعلم السلطان بما وراء ذلك فرسم بحشد جيش ضخم على الحدود فلما تم للإمارتين ما أرادتا سير كل من نقولا وميلان أميرى الإمارتين إلى دار السلطنة يطلبان كثيراً من المطالب الطويلة العريضة فأبى عليهما السلطان جميع ما طلباه وكثر الأخذ والرد بين الطرفين وأصر كل منهم على مزاعمه فاجتازت عند ذلك عساكر الجبل والعساكر الصربية الحدود وزحفت على بلاد السلطنة العثمانية فزحف عليهم العسكر السلطانى من كل صوب وحدب ومقدمهم الغازى عثمان باشا وعبد الكريم باشا السر عسكر وقاتلوهم حتى هزموهم شر هزيمة ثم سارت طائفة من العسكر السلطانى إلى مدينة مينا شيوار ففتحوها عنوة وساروا إلى مدينتى عالكيناس ودلجراد ليقاتلوهما فلم ينالوا منهما لحصانتهما ومنعتهما فرحلوا عنهما وعبروا نهر موراوا فلم يشعر العدو إلا وهم قد صاروا على الشاطىء الأيسر من النهر وساروا يريدون مدينة بلغراد عاصمة الصرب فهال الصربيين هذا الأمر وأزعجهم جداً لخلو المدينة ممن يدافع عنها ويقاتل دونها فعبروا النهر على الفور وساروا خلف العسكر السلطانى فوقفوا للقائهم وأصلوهم نارا حامية حتى انفشلوا وتفرق جمعهم وركن أكثرهم إلى الفرار من غير ضرب ولا طعن فسارت العساكر نحو بلغراد لا يمانعهم فى طريقهم ممانع وجاء الخبر بذلك إلى دار السلطنة وكان أمير الصرب قد سير إلى سفراء الدول بدار الخلافة فى طلب الوساطة بينه وبين الباب العالى خوف الهزيمة والعار فكلموا السلطان فى ذلك فمناهم وطاولهم حتى صارت العساكر السلطانية على أبواب بلغراد ووردت الأخبار بذلك إلى السفراء فقاموا وقعدوا وشددوا فى الطلب فسير السلطان إلى مقدم عساكره بالكف عن القتال حتى يأتيه الأمر وفتح سفراء الدول باب المخابرة فى أمر الصلح وكثر الأخذ والرد وترددت السفراء على الباب العالى أياما والقلوب فى اضطراب فأبى الباب العالى إمضاء الصلح إلا على ثلاث خصال، الأولى حضور أمير الصرب إلى دار السلطنة وتقديمه مواجب الخضوع والتذلل لعرش السدة الشاهانية، الثانية أن تحتل الجيوش السلطانية ثانيا جميع القلاع التى كانت الدولة سمحت لإمارة الصرب باحتلالها مؤقتاً فى سنة اثنتين وثمانين ومائتين وألف هجرية، الثالثة إبطال الرديف من إيالة الصرب وأن لا تجيش الإيالة من الآن عسكرا إلا عشرة آلاف فقط وبطاريتين من أصحاب المدافع لحفظ الأمن فى الداخل فلم يرض الدول هذا الطلب واتفقوا معا على إكراه الباب العالى على إرجاع حالة

الصرب والجبل الأسود إلى ما كانت عليه قبل الحرب وتأسيس إدارة وطنية مستقلة فى البوسنيه والهرسك لتراقب مأمورى الحكومة وكذلك فى البلغار وأنفذ اللورد دربى صاحب سياسة الإنجليز يومئذ إلى الباب العالى مكاتبة بذلك وأوعز إلى سفيره فى دار السلطنة بأن يلح فى الطلب فبالغ السفير فى ذلك فلم يلتفت السلطان إلى قوله وأوعز إلى مقدم الجيوش المحاربة بإعادة الحرب والقتال حتى يتمكن من تدويخ العدوّ ويرجعه إلى ما كان عليه من الطاعة فزحفت العساكر السلطانية على مدينة جونيس وكان بها الجنرال تشرنايف الروسى ومعظم العسكر الصربى فقاتلوهم قتالاً عنيفاً ثم هجموا على المدينة هجمة رجل واحد فتقهقر الصربيون وتركوا المدينة وأخلوا كذلك مدينة دجراد فدخلتهما طائفة من العساكر السلطانية وسارت طائفة أخرى تريد مدينة بلغراد عاصمة الصرب لقتال من بها وأخذها عنوة.

وطار الخبر بذلك إلى الآفاق وعلمت به سائر الدول فاهتموا له اهتماما عظيما وأنفذ صاحب سياسة الروس إلى سفيره فى دار السلطنة بطلب إيقاف رحى الحرب ومهادنة الصرب والجبل الأسود مدة شهرين فإن لم يجب الباب العالى إلى ذلك انقطع حبل العلاقات السياسية بين الدولتين وضرب لذلك أجلا ثمانيا وأربعين ساعة فأجاب الباب العالى إلى ذلك كارها وقد أحس بتأهب الروس للقتال وإضرام نار الحرب وبدأت من هذا الحين تظهر دلائل الوحشة بين الفريقين وخافت سائر الدول عاقبة ذلك لا سيما دولة الإنجلير فخابر صاحب سياستها كبار ساسة الدول فى عقد مؤتمر فى دار الخلافة لتقرير قاعدة ثابتة لراحة جميع المسيحيين من رعايا الدولة العثمانية ومنع الحرب التى صارت على قاب قوسين فأجابته الدول إلى ذلك بعد أخذ ورد وسيرت مبعوثيها إلى دار السلطنة وقررت كثيرا من الطلبات التى لا يطيق الباب العالى الصبر عليها ولا الإذعان لها ثم اجتمع جمعهم فى سراى البحرية وحضر بينهم مندوبو الدولة فتكلموا فى الأمر كثيرا وطال اجتماعهم أياما على غير طائل فرسم السلطان حينئذ بعقد مجلس من كبار الدولة وأعيان السلطنة ورؤساء الأديان كافة فلما تم اجتماعهم وكانوا زهاء المائتين عرض عليهم طلبات مبعوثى الدول فاستعظموها وقالوا هى مذلة وصغار وحط من كرامة الدولة ومقام الخلافة العظمى فلا سبيل إلى قبولها وفى المملكة من يذب عن ذمارها فراجعوهم فى الأمر فقالوا جميعا: الحرب والنار ولا هذا الخزى والعار وكثرت جلبتهم وعلت أصواتهم ثم انصرفوا وقد سطروا بذلك محضرا فرفعه صفوت باشا مندوب الدولة يومئذ إلى

أصحاب المؤتمر فكبر عليهم ورحلوا عن دار السلطنة ولم يقابل منهم أحد أمير المؤمنين كما جرت العادة بذلك واختلط الحال على كبار سياسة الدول واختبط واستعصى عليهم حل هذه العقدة وقد رأوا من الباب العالى عنادا وتصميما وكانوا لا يتوقعون منه غير الطاعة والإذعان فجعلوا يمنون الروس بالأمانى البعيدة ويهوّنون عليهم الأمر، فبينما هم على هذه الحال إذ عاقدت الدولة العثمانية الإمارة الصربية على الصلح وترك القتال على شروط رضى بها الفريقان وشاع الخبر بذلك فخشيت دولة الروس العاقبة وفطنت إلى الأمر وتحققت أنها إن لم تبادر إلى إشهار الحرب مع الدولة العثمانية قبل أن تعاقد أمير الجبل الأسود الصلح أيضاً انفشل الروس وسقطوا فى أمرهم فحض القيصر الدول كافة على تدارك الخطب قبل استفحاله فأجابته إلى ذلك وأرسلت إلى دار السلطنة إنذارا تتهدد فيه الباب العالى بأن تتركه وشأنه مع دولة الروس إن هو أصر على الإباءة والعناد فرد عليهم القول ردا جميلاً وصمم على مطالبه كلها فتجرد قيصر الروس عندئذ إلى التأهب والاستعداد وجعل يحشد الجيوش ويعد المعدات ويكثر من نقل المؤن والذخرة وأنفذ إلى مندوب الباب العالى فى عاصمة الروس بأن يرجع إلى سلطانه وبأنه قد أعلن بالحرب والقتال فسار المندوب إلى دار السلطنة فما وصل الخبر إلى الباب العالى وتناقله الناس حتى قاموا وقعدوا واشتد بينهم الهرج ونودى فى جميع العسكر بالخروج وأفتى شيخ الإسلام بأنه قد حق على كل مسلم الغزو والجهاد وبأن يضاف إلى ألقاب أمير المؤمنين عند الدعاء له على المنابر لقب غازى عملا بحديث صاحب الشريعة القائل «من جهز غازيا فى سبيل الله فقد غزا».

وورد الطلب من الباب العالى إلى الخديوى بإرسال مدد من العسكر المصرى ليسير مع العسكر المنصور لقتال الروس فاهتم بذلك الخديوى وأظهر العناية وجهز طائفة من المقاتلين ومقدمهم الأمير حسن ثالث أولاده ومعه جماعة من كبار الضباط الشراكسة فحملتهم بعض السفن إلى در السلطنة واشتركوا مع العسكر السلطانى فى عدة مواقع، قال بعض كتاب الأخبار: وقد أبلوا بلاء حسنا ونالوا من الروس فى عدة وقائع واشتد القتال بين الفريقين وحمى الوطيس واجتاز الروس نهر الطونة بغير قتال وقيل: بل كانوا يدفعون بالأمر الخفيف ثم ألحوا فى القتال فاحتلوا مدينة ترنوه ثم مدينة ينكوبلى وسار الجنرال جوركوا فى عسكره فاحتل مضايق البلقان التى هى أبواب مضيق شبكا واشتدوا على العساكر السلطانية شدة بالغة وجاء الخبر بذلك إلى

دار السلطنة فكبر خوف الناس وعظم اضطرابهم واشتد قلقهم وهم الكثير منهم بالجلاء عن دار السلطنة فلم يتمكنوا حيث رسم السلطان فى جمادى الأولى من السنة أى سنة أربع وتسعين بجعل دار السلطنة تحت الأحكام العرفية فانكمش الناس وأخذوا حذرهم وكانوا يتوقعون هجوم العدوّ على المدينة فى كل لحظة واشتد الروس فى القتال والنصر ملازم لهم وجاءوا لحصار مدينة بلفنه وكان بها عثمان باشا فى ثلاثين ألفا من المقاتلين فسير إلى دار السلطنة فى طلب المدد قبل أن يتمكن الروس من تشديد الحصار وألح فى الطلب ووردت رسائله تترى على ديوان الحرب مفعمة بالحض والاستنهاض فلم يلتفتوا إلى ندائه والروس تشدد فى حصار المدينة يوما عن يوم فكان عثمان باشا يقاتلهم فى كل يوم من وراء الأسوار كى يشغلهم عن تشديد الحصار فلم يفلح ووالى الروس الهجوم على المدينة لعلهم يفتحونها فلم يتمكنوا حتى تم لهم حصارها فضيقوا وشددوا ومنعوا عنها الوارد من كل جانب ووصلت الأخبار بذلك إلى السلطان فكبر عليه الأمر ورسم بخلع عبد الكريم باشا سردار العساكر السلطانية من منصبه وتنزيل درويش باشا من منصب رياسة ديوان الحرب لظهور خيانته وسوء تدبيره وخلعوا أيضاً جماعة كثيرة من كبار الضباط وصغارهم لخيانتهم لسلطانهم وبلادهم وحكموا عليهم بالنفى والتبعيد وأكثروا من التغيير والتبديل فى مراكز الجند ومواقف القتال استدراكا لما فات وسيروا المدد إلى عثمان باشا فلم يتمكن من الوصول إليه لإحاطة العدو بالمدينة من كل صوب وحدب وسيروا طائفة أخرى لتقاتل الروس على مضيق شبكا وأخرى لدفع جيوش ولى عهد القيصر الزاحفة على بلاد الدولة العثمانية واهتم السلطان لذلك وظن بلوغ الآمال وإرجاع العدو فاقتتلوا قتالاً شديداً وأبلوا بلاء حسنا ونالوا من الروس وجاء الخبر للقيصر بما حل بعسكره فسار من فوره فى قلة إلى ميدان القتال وقيل بل جاء جريدة وسير إلى أمير الجبل الأسود يسأله العون والمدد فجاءه فى نحو مائة ألف مقاتل وكثير من الأسلحة والكراع وقاتلوا العثمانيين قتالا عنيفا للغاية وانتصروا عليهم فى عدة وقائع واشتدوا فى حصار بلفنه شدة بالغة وألحوا فى قتال من بها من العساكر فكانوا لا ينكفون عن الرمى عليها فى الليل والنهار وما زال الرمى من الفريقين متراسلا حتى نفد ما عند العساكر السلطانية من المؤن والذخيرة فنادى عثمان باشا فيمن بقى من العسكر بالخروج من المدينة ومهاجمة العدو فإما أنهم يموتون جميعاً شهداء الدفاع عن ملجأ الخلافة أو أنهم يسلمون فخرجوا جميعاً واندفعوا على خطوط العدو وثابروا على القتال والعدو يصليهم نارا حامية حتى أصابت

عثمان باشا مقدمهم جراحة فى ساقه الأيسر فسقط عن جواده وسقط جواده أيضاً ميتا وشاع خبر موته بين الجند فانفشلوا وسقطوا فى أمرهم وهموا بالرجوع إلى المدينة فلم يتمكنوا من ذلك لدخول العدوّ بها ورميه بالقنابل عليهم تباعا فصاروا بين نارين فلم يروا بدا من التسليم فألقوا عنهم سلاحهم وسلموا بأنفسهم وكانوا قد نقلوا عثمان باشا إلى أحد البيوت القريبة من موقف القتال فقابله أحد كبار ضباط الروس وبالغ فى إجلاله وتعظيمه ونقله فى إحدى العربات إلى مدينة بلفنه وبينما هو فى الطريق قابله الغرندوق نقولا وأمير رومانيا فأوقفاه وسلما عليه وبالغا فى ملاطفته إظهارا لفضله وإكبارا لشهامته.

وتقوّت عزيمة الروس لسقوط بلفنه فى أيديهم فتقدموا نحو دار السلطنة وهم يفتحون كل ما صادفهم فى طريقهم من الحصون والقلاع فخرج عند ذلك أمير الصرب عن الطاعة ونقض ما كان بينه وبين الباب العالى من العهد ونهض إلى معاونة الروس بالرجال والمال فاشتد الأمر على الباب العالى وسدت فى وجه العساكر السلطانية أبواب الفلاح وتولاهم الفشل وكادوا يقنطون من النصر والغلبة فأنفذ السلطان إلى الدول الكبرى فى الوساطة بينه وبين قيصر الروس فطاولوه ولم يهتموا إلى ذلك وبقيت الحرب قائمة بين الفريقين حتى دخل الشتاء وكثرت الثلوج والأمطار وهم مع ذلك لم ينكفوا وسارت جيوش الروس تريد الإغارة على بلاد البلغار والروم‌للى الشرقية وتقدم الجنرال چوركوا بعسكره فاجتاز جبال البلقان ونزل على مدينة صوفية تخت البلقان واحتلها ثم سار إلى مدينة فليبه واحتلها أيضاً وسارت طائفة من عسكر الجنرال سكوبلف إلى مدينة أدرنه فقاتلت من بها واحتلتها عنوة ولبثوا فى هذه المدن أياماً حتى أصلحوا حالهم وساروا فى كثرة يريدون دار السلطنة فلم يجدوا فى طريقهم من يمنعهم أو يناوشهم الحرب لخلو الطريق حتى صاروا على أبوابها، وبينما كان الروس يتقدمون نحو دار السلطنة فى عدة وافرة كانت عساكر الجبل الأسود تقاتل مدينة انتيبارى حتى ملكتها وسارت حتى وصلت إلى ضواحى أشقودره ودخلت أيضاً العساكر الصربية مدينة نيش وأحاط الأعداء بمعظم بلاد الدولة من كل صوب ودرب وقد زاد الأمر ويلا وشدة جلاء المسلمين من أهل البلغار وغيرهم عن أوطانهم ونزولهم على دار السلطنة وهم فى أسوأ حال من العرى والجوع فملئوا شوارع المدينة وحاراتها واهتم الباب العالى بمأكولهم ومشروبهم وملبوسهم ووقودهم لوفر البرد وتبرع أهل البر والإحسان بالمال للنفقة واهتموا لذلك

اهتماما عظيما ومع هذا فقد فشت بينهم الحميات الخبيثة وكثر فيهم الموات واشتد فكانوا يموتون بجانب الجدران وعلى أبواب بيوت أهل الخير فكان المنظر محزنا والخطب عظيما.

ورسم السلطان بتسيير أربعة من كبار الدولة إلى حيث الغراندوق نقولا ليكلموه فى تقرير قاعدة للصلح بين الفريقين يكون من ورائها إبطال الحرب وحقن الدماء فساروا إلى قزانلق والتقوا بالغراندوق وكلموه فى الأمر فأجابهم إلى ذلك وسار بهم إلى مدينة أدرنة وقد سير إلى القيصر فى طلب إجارته بعقد شروط الصلح فأجابه فأمضى معهم عهدا فى المحرم افتتاح سنة خمس وتسعين كان فيه منح الاستقلال الإدارى لإمارة البلغار والاستقلال السياسى لكل من مملكة رومانيا ومملكة الجبل الأسود وأعطاهم بعض أملاك من أملاك السلطنة وتكليف الخزينة السلطانية بنفقة الحرب فإن لم تدفعها عينا أعطت بها قلاعا أو حصونا من قلاع السلطنة ثم قرروا بينهم قاعدة للهدنة ونودى فى العسكرين بالكف عن القتال فبطل الحرب وكفى الله المؤمنين شر القتال وطيروا الخبر بذلك إلى الآفاق فقامت الدول الكبرى وقعدت وترامت ظنون كبارها إلى المرمى البعيد لا سيما دولة النمسا فإنها كانت تخشى من قرب الروس من حدودها فأنفذ إمبراطورها إلى الدول فى طلب عقد مؤتمر لينظر فى شروط ذلك الصلح وماهيته وألح على دولة الإنجليز فى ذلك فأجابته إلى ما طلب وأشارت على الدول بذلك وكلمت الروس فى الأمر فطاول القيصر وحاول ولم يبلغ الدول شيئاً مما وقع الاتفاق عليه بينه وبين الباب العالى وقد كان يأبى وساطة الدول وعدم تداخلهم فى أمر الصلح وطال الأخذ والرد بين الدول وبعضهم أياماً فأزعج الدول امتناع القيصر وعدم إجابة طلبهم وكثر القيل والقال واختلط عليهم الحال وكثرت الإشاعة بدخول الروس فى دار السلطنة وعمدت دولة الإنجليز إلى استعمال الشدة والترهيب فسيرت سفن حربها إلى دار السلطنة لمنع الروس من الدنو من القسطنطينية فاجتازت الدردانيل عنوة ورست أمام المدينة فخاف الناس من ذلك وأخذتهم الطيرة وكثر لغطهم وتحدثهم فى هذا الأمر ورموا رجال الدولة وكبار السلطنة بالخيانة والتدليس وقام جماعة من رجال مجلس المبعوثان يعيبون على أصحاب الحل والعقد سوء تدبيرهم ويرمونهم بالمروق عن الدين فرسم السلطان بنفيهم وتبعيدهم فأقصوهم عن دار السلطنة وكثر الهرج والمرج وكادت تلتهب نار الفتنة فى جوف القسطنطينية واختلط الحال على السلطان فجعل يكثر من العزل

والتولية فى مناصب الدولة وخلع الصدر الأعظم أدهم باشا وولى مكانه أحمد حمدى باشا فلم يمض على ارتقائه منصب الصدارة سوى أيام حتى خلع أيضاً وأبطل لقب الصدارة بلقب رئيس الوكلاء وعين فى هذا المنصب رفيق باشا فلم يلبث أن عزل فى خامس عشرى ربيع الثانى وولى مكانه الصادق محمد باشا واشتدت الأزمة فاستحكمت الوحشة وكره الناس أصحاب الحل والعقد وبدأت تظهر دلائل الفتنة .

فلما كان سابع عشر جمادى الأولى قام رجل بخارى الأصل اسمه صعاوى من أصحاب الدسائس والفتن وهو أحد أركان العصابة التى كان ألفها الأمير مصطفى فاضل باشا أخى الخديوى إسماعيل وسماها باسم (چون ترك) أى تركية الفتاة وصرف عليها الأموال الطائلة فكان لها فى قلب هيئة السلطنة وخلع السلطان عبد العزيز وقتله وغير ذلك من الفتن والدسائس الداخلية اليد الطولى وكان الأمير مصطفى فاضل باشا هذا يتمنى أنه يرى جميع ذلك بعينه ولكنه مات قبل أن يخلع السلطان بأشهر وعمد صعاوى هذا إلى إيقاد نار الفتنة فى جوف القسطنطينية وخلع السلطان عبد الحميد وإعادة السلطان مراد إلى منصب الخلافة وكان فى دار السلطنة زهاء مائة وخمسين ألفا من المهاجرين وكلهم ناقمون على رجال الدولة كارهون للسلطان فقام بينهم صعاوى خطيبا وكان فصيح اللسان قوى الجنان وجعل يزين لهم خلع السلطان عبد الحميد ومبايعة السلطان مراد ثم سار فى جماعة منهم فى ذلك اليوم إلى سراى جراغان التى هى مقر السلطان مراد واقتحموها من البر والبحر وقتلوا من كان على أبوابها من الحرس واتصل صعاوى بغرفة السلطان مراد وسلمه طبنجة وأخذ بيده يريد الخروج وقد علت الضوضاء وكثر صياح العامة فترامح الناس من كل صوب وحدب واشتد الخوف بهم شدة بالغة وظن السوقة دخول الروس إلى المدينة وإعمالهم السيف فى أهلها فتسابقوا إلى غلق حوانيتهم وهرعوا إلى بيوتهم يدفعون عنها إيذاء العدو وجاءت طائفة من جند الحرس السلطانى إلى سراى جراغان وكبست على أصحاب الفتنة من البر والبحر وأعملوا فيهم القتل بحد السيف فلم تكن إلا ساعة أو بعض ساعة حتى أتوا على آخرهم إلا من طال عمره ومات صعاوى وصالح بيك مقدّما هذه الفتنة وجاء الأمر من السلطان بالقبض على أخيه مراد ووالدته ومن عنده من الجوارى والغلمان فقبضوا عليهم ونقلوهم إلى سراى السلطان عبد الحميد محجورا عليهم ولم يمض على هذا الحادث سوى ثلاثة أيام

حتى دس بعض أصحاب الفتنة النار فى دوائر الباب العالى فاشتعلت اشتعالاً عظيما واندلع لسان لهيبها إلى عنان السماء فأحرقت دوائر شورى الدولة وما يتبعها ودائرة الأحكام العدلية والتشريفات والداخلية وغيرها وأبادت جميع ما فيها من فرش وبسط وأوراق وغير ذلك وكبر غيظ السلطان فرسم بخلع الصادق محمد باشا من منصب رياسة الوكلاء فخلع فى سابع عشرى جمادى الأولى وولى مكانه محمد رشدى باشا وأعيد إليه لقب صدر أعظم فلم يكد يستقر به المنصب بضعة أيام حتى خلع وولى مكانه صفوت باشا.

ولما دخلت سفن حرب الإنجليز ورست أمام القسطنطينية كما تقدم القول عظم أمرها على الروس وعدّوه إهانة لهم وتحقيراً فأنفذ مقدم عساكرهم النازلة عند أبواب القسطنطينية فى طلب دخول طائفة من عسكره إلى المدينة وشدد فى ذلك فمانعته دولة الإنجليز وطال الأخذ والرد بين الروس وبقية الدول أياماً وجاء الغراندوق نقولا إلى أدرنه قبل انتهاء الهدنة فسير إليه السلطان نامق باشا ليكلمه فى منع دخول عساكره إلى المدينة فلم يقبل إلا بشرط أن تحتل مقدمة جيوشه خط بيوك چكمجه وكوچك چكمجه من ضواحى القسطنطينية وأن تنسحب العساكر السلطانية إلى ما وراء ذلك مع جعل مركز المخابرات فى قرية سان اسطفانوس الواقعة على بحر مرمرة وكان لم يعرف لها اسم ولا خبر قبل هذا الحادث فقبل السلطان ذلك وسار الغراندوق إلى قرية سان اسطفانوس فى ألف مقاتل ونزل بها وصار يأتى إليه المدد فى كل يوم حتى بلغت عساكره بالقرية المذكورة زهاء عشرين ألفا وجاءت رسل السلطان بعد ذلك لتقرير قاعدة الصلح فطال الجدال بين الفريقين أياماً وكان رسول القيصر فى عقد هذا الصلح الأمير اغناتيف وهو من دهاة السياسيين وأقطابهم فجعل يقلب للدولة ظهر المجن فسطر شروطا غاية فى الشدة والتضييق على الدولة العثمانية وسأل رسل السلطان التوقيع عليها فطلبوا مهلة فلم يقبل وضرب لهم أجلا فإن انقضى ذلك الأجل سارت العساكر النازلة فى سان اسطفانوس إلى القسطنطينية ودخلتها عنوة فراجعه رسل السلطان فلم يقبل وكان ذلك الأجل الثالث من شهر مارس الذى هو يوم عيد قيصر الروس فجعل رسل السلطان ينقبون فى تلك الشروط كى لا يحل الأجل المضروب إلا وقد أتوا على آخرها فلما كان ثالث الشهر المذكور أى ثامن عشر صفر سنة خمس وتسعين جمع الغراندوق نقولا جيوشه بين مشاة وفرسان وأوقفهم موقف الاستعراض إجلالا لعيد القيصر ولبث ينتظر ما سيكون من

رسل السلطان فلما أبطأ عليه الجواب سار إلى حيث رسل السلطان وطلب منهم الجواب فى تلك الساعة وإلا سارت جميع جيوشه إلى دار السلطنة بلا مهل فهال الرسل هذا الأمر وما زال الأمير اغناتيف يتهددهم حتى يتم توقيعهم على الشروط ولحق اغناتيف بالغراندوق ومعه شروط الصلح وكان الغراندوق ممتطيا جواده أمام العساكر وحوله جماعة من كبار الجند والحرس فناوله اغناتيف شروط الصلح فلما تناولها صاح من كان حوله من كبار العسكر فصاح العسكر جميعاً بأصوات الفرح وترجل جميع ضباط الجند عن خيولهم وخروا على الأرض سجدا لله عزّ وجلّ الذى أتاح لهم هذا النصر المبين وجاء أحد القسيسين فصلى بالعسكر صلاة الشكر وهم جميعاً سجود وطير الغراندوق الخبر إلى القيصر بما جرى ففرح فرحا لا يوصف ووردت على الغراندوق رسائل التهانى من كل فج عميق، وكان مما أخذ عهدا وميثاقا بين الدولتين بعد تلك الحرب الهائلة واشتهر بمعاهدة سان اسطفانوس هو الشرط الآتى ترجمته بعد: إن حضرة قيصر الروسيه وحضرة سلطان المملكة العثمانية قد عين كل منهما مرخصين لأجل تحرير مقدمات الصلح رغبة فى تأمين بلادهما ورعاياهما من وقوع ما يخل بالراحة والأمنية فيما بعد وطلبا لحصول فوائد المسالمة والراحة العمومية حالا فالمرخصان اللذان نصبهما القيصر أحدهما (الكونت نقولا اغناتيف) وهو حائز رتبة أمير اللواء ياور القيصر ومن أعضاء المجلس الخصوصى وعنده نشان روسى مرصع وهو نيشان صان عكساندر نويسكى ونياشين أجنبية متعددة والمرخص الآخر (موسيو نيلدوف) من قرناء الدائرة الإمبراطورية ومن أعضاء شورى الدولة وعنده نيشان صانت آن من الطبقة الأولى مع السيوف المختصة به وعدة من النياشين الروسية والأجنبية والمرخصان اللذان عينهما حضرة السلطان أحدهما (صفوت باشا) ناظر الأمور الخارجية الحامل النيشان العثمانى المرصع والنيشان المجيدى وكلاهما من الطبقة الأولى والنياشين الأجنبية المتنوعة والثانى (سعد الله بيك) سفير الدولة العلية فى مركز إمبراطورية ألمانيا وهو حامل النيشان المجيدى من الطبقة الأولى والنيشان العثمانى من الطبقة الثانية فهؤلاء المرخصون من بعد أن اطلعوا على المحررات الرسمية المتعلقة بكيفية ترخيصهم ووجودها مطابقة للأصول والعادات قرروا المواد الآتى ذكرها فيما بينهم.

المادة الأولى: أنه بموجب الخريطة المربوطة بهذه المعاهدة وبمقتضى الشروط والوجوه الآتى ذكرها تقرر تصحيح حدود ممالك الدولة العلية والجبل الأسود وذلك

لأجل إنهاء المنازعات والمصادمات المتتابعة الوقوع فيما بينهما فالحدود تمتد من جبل دوبروزيجه على الوجه الذى عينه المؤتمر الذى كان عقد فى الآستانة إلى (غوريتوويبلكه) والحد الجديد يستطيل إلى (غاجقه) وعلى هذا (توتركيا غاجقو) تبقى فى تصرف الجبل الأسود وتمتد الحدود أيضاً من مجمع أنهر (بيوه وتاره) وتمر من نهر (درين) إلى جهة الشمال وتنتهى إلى مجمع هذا النهر مع النهر المسمى (ثيم) وأما حدود الجبل المذكور الشرقية فتبتدىء من نهر (ثيم) إلى (بريرة بولره) ومن (روستراق إلى سوق بلانيا) وبيهور وروستراق تبقيان داخل الجبل فعلى ذلك يكون تخطيط الحدود هكذا أعنى من الجبال المتسلسلة الجامة لروغوه بلاوا وكورنره إلى پاقلنى ومن رؤوس جبال قوبر يونيق وباباور وبور وحذاء حدود بلاد الأرناؤط إلى أعلى ذروة جبل (بروقلنى) ومن هذه النقطة إلى (كنيب بيسقاشيق) وينتهى الحد على الخط المستقيم إلى عين الماء فى چيستى هوتى ويفصل فيما بين چيستى هوتى وچيستى فاسترانى ويتجاوز ماء أشقوره إلى أن ينتهى لنهر بويانه وهكذا مع النهر إلى مصبه فى البحر وبموجب ذلك تبقى نكسيك وغاجقة وأشبوزى ويورغوريچه وزابلياق وباز ضمن الجبل المذكور وقد يصير تعيين حدود الجبل قطعيا بمعرفة لجنة مركبة من بعض مأمورى دول أوروبا بشرط أن تكون وكلاء الباب العالى والجبل الأسود معهم أيضاً فهذه اللجنة تلاحظ منافع الطرفين وأمنية البلاد الكائنة فى الجهتين ثم تشير فى الخريطة إلى التعديلات التى ترى لها لزوما وتعلم أنها هى الحق وتوضح فى ذلك ما رأته من صالح الجهتين ثم لا يخفى أن أمر سير السفن فى نهر بويانه لم يزل يجلب النزاع فيما بين الباب العالى والجبل الأسود فلأجل قطع هذا النزاع سيصير تحرير نظام ذلك بمعرفة اللجنة المذكورة.

المادة الثانية: أن الباب العالى يثبت استقلال إمارة الجبل الأسود على الوجه القطعى ثم فيما يأتى تستقرر فيما بين دولة الروسيه والدولة العلية والإمارة المذكورة كيفية المناسبات التى ستكون بين الباب العالى والجبل وقضية تعيين وكلاء من طرف الإمارة فى الآستانة والبلاد العثمانية المقتضية ويتقرر أيضاً أمر إعادة أرباب الجنايات الذين يفرون من بلاد الدولة العلية إلى الجبل الأسود ومن الجبل إلى بلاد الدولة وأمر إطاعة أهل الجبل المقيمين أو المارين فى بلاد الدولة العلية وانقيادهم إلى نظامات ومأمورى الدولة طبق الحقوق الجارية بين الدول والعادات والمعاملات القديمة التى كانت تجرى بحقهم فى بلاد الدولة وستنعقد أيضاً مقاولة فيما بين الباب العالى

والجبل الأسود لأجل توضيح وتنظيم المسائل المتعلقة بالإنشاءات العسكرية فى قرب الحدودو وأحوال ومناسبات الأهالى المتجاوزة هناك وإذا اختلف الباب العالى مع الجبل الأسود فى بعض مسائل ولم يمكن فصلها باتفاقهما فتحكم بينهما دولتا الروسيه وأوستريا ومن بعد هذه المعاهدة إذا وقعت مباحثة أو مصادمة فيما بين الباب العالى والجبل الأسود ما عدا المطالب الملكية الجديدة ينبغى أن يفوضا أمرهما إلى دولتى الروسيه وأوستريا وهما باتفاقهما يفصلانها بينهما وقد تقرر أنه من بعد إمضاء مقدمات الصلح إلى عشرة أيام يجب على عساكر الجبل الأسود أن تخرج من البلاد الغير داخلة ضمن الحدود المذكورة أعلاه.

المادة الثالثة: أن إمارة الصرب تكون مستقلة ويكون حدها بموجب الخريطة المربوطة لهذه المعاهدة مجرى نهردرين وتبقى كوجك أزورنيق وسقار فى إدارة الصرب ويمتد هذا الحد إلى منبع نهر رازده الكائن بجوار استايلاق على حسب الحدود القديمة وتبتدىء الحدود الجديدة من هنا أعنى مع مجرى نهر رزوه إلى نهر راسقه ومنه إلى يكى بزار ومن يكى بزار يصعد الخط الفاصل ويمر من جوار قريتى مهنتره وارغويج إلى أعلى النهر المذكور حتى ينتهى إلى منبعه ويمتد إلى بوسور بلاتينا الكائنة فى وادى إيبار وينزل مع الماء الجارى الذى يصب فى النهر المذكور ومنه يسير مع أنهر إيبار وسيديج ولاب إلى منبع نهر ياتنسه الكائن فى جبل عزايا شينجه بلاتينا وبعدها يمر من التلال الفاصلة بين نهرى قربوه وترينجة ومن أقصر الطرق الموجودة على مصب نهر ميوواجقه حتى ينتهى أيضاً إلى نهر ديرنجه ويسير مع هذا النهر ويقطع ميوواجقه وبلاتينا ويصل إلى جهة موراوه فى قرب قرية قاليمانس ومن هنا يسير إلى قرب قرية استابقوجى ويجتمع هناك مع نهر بلوسينه وهكذا مع النهر إلى موراوه ويمتد من النهر إلى جهة فوق حتى يصل إلى قوتقاويجه ويقطع سوق بلاتينا ويجتمع بنهر نيساوة ويتصل بقرية قرونراج ومنها يمر من أقصر الطرق ويمتد على جدود الصرب القديمة إلى جنوب شرق قره ول بور وعلى هذا الخط يتصل بنهر الطونة وتقرر إخلاء اطه قلعة وهدمها وترتيب لجنة مركبة من مأمورى الدولة العلية والصرب لأجل تعيين خط الحدود على الوجه القطعى فى برهة ثلاثة أشهر ويكون ذلك بمعاونة مأمورين من طرف دولة الروسيه وهذه اللجنة تفصل أيضاً المسائل المتعلقة بجزاير نهر درين وتقطعها وحينما تبتدىء هذه اللجنة بتعيين الحدود الفاصلة بين بلاد الصرب والصقالبة ينبغى أن يكون وكيل واحد من طرف الصقالبة يشترك معهم فى هذا الأمر.

المادة الرابعة: أن المسلمين الذين لهم أملاك فى البلاد التى صار إلحاقها بالصرب إذا لم يريدوا الإقامة هناك فلهم الخيار إن أحبوا أجروا أملاكهم وإن أحبوا أقاموا وكلاء من طرفهم لأجل حفظها واستغلالها والمسائل المتعلقة بأموالهم غير المنقولة تفصلها لجنة مركبة من مأمورى الدولة العلية والصرب بإعانة مأمورين من طرف دولة الروسيه فى ظرف سنتين وهذه اللجنة تفصل أيضاً فى برهة ثلاث سنين أمر فراغ الأملاك الميرية والموقوفة والمسائل المتعلقة ببعض الأشخاص الذين لهم علاقة ونفع فى الأملاك المذكورة وذلك يكون عقيب انعقاد المعاهدة فيما بين الدولة العلية والصرب والأناس المقيمون أو الذين يجولون فى بلاد الدولة من تبعة الصرب تكون المعاملة معهم على القواعد الكلية بمقتضى الحقوق الكائنة بين الدول وقد تقرر أنه من بعد إمضاء مقدمات الصلح إلى خمسة عشر يوما يجب على عساكر الصرب أن تخرج من البلاد التى ليست داخلة ضمن الحدود المذكورة أعلاه.

المادة الخامسة: أن الباب العالى قد أثبت استقلال رومانيا أعنى المملكتين ولها أن تطلب من الدولة العلية تضمينات الحرب وتجرى المذاكرة فى هذا الشأن فيما بينهما وعند ما تنعقد المعاهدة بين الدولة العلية ورومانيا رأسا تنال تبعة رومانيا الأمن والامتياز طبق تبعة دول أوربا.

المادة السادسة: تقرر أن تكون البلغارستان أعنى بلاد الصقالبة إمارة مختارة فى إدارتها تدفع مبلغا معلوما إلى الدولة العلية ويكون مأمورو الحكومة والعساكر الملية من المسيحيين ويصير تعيين حدودها على الوجه القطعى بمعرفة لجنة مركبة من مأمورى الدولة العلية والروسية وذلك قبل خروج عساكر الروسيه من الروم إيلى وهذه اللجنة تبين هناك فى الخريطة التعديلات التى ينبغى إجراؤها وتلاحظ ملية أكثر الأهالى وتوضح المنافع المحلية تطبيقا لفن تخصيص الأراضى وتقرر تعيين وتبيين مقدار اتساع ملك الصقالبة بخريطة وجعلها أساسا فى قطع الحدود، وخط الحدود يبتدىء من حدود الصرب الجديدة ومن غرب ورا نثره إلى سلسلة الجبل الأسود ومن جهة الغرب يمر من نهر دبو جيجه إلى درنية غرب قوماتوه وقوچانى وقلقان ولن إلى جبل قوارب ومن هناك يمر من نهر بوجيجه إلى درينة ويلتفت إلى جهة الجنوب إلى حدود غرب قضاء (أخرى) حتى ينتهى إلى جبل ليناس ومنه يمر من غربى كوريجة واستادره ويتصل بجبل غراموس وكذلك يمر من ماء فاستريا ويلتصق بنهر موغلينجه ويسير مع النهر إلى يكجه ويمر عن نهر واردا يكجه ومن مصب نهر وارداد وقرية غاليقو وإلى قراء يارغه وصارى كوى وهناك يمر من وسط عين الماء المعبر عنه

بشيك كل إلى مصب نهرى أستروما وقره صو ومن السواحل إلى بوروكل ويمتد إلى الشمال الغربى ويمر على سلسلة جبل رودوب إلى جبلى جالتپه وأوشوه ويمرّ من جبال أشك قولاج وچبيلون وقره قولاس وجيقلر إلى نهر أرده ويلتفت إلى جهة الجنوب ويمر من قرامسو كوتلى وقره حمزة وارتاد كوى وأقارجى وأينجه إلى تكه دره سى فى قرب أدرنه ومن تكه دره سى وجورلى دره سى إلى لوله برغوثى ومن هنا وعن نهر جوجق دره إلى قرية سوركن ومنها إلى التلال ويقطع حكيم طابيه سى حتى يتصل بساحل البحر الأسود ويبتدىء أيضاً من صقالبة السواحل ويمر من شمال حدود لواء طولجى ومن فرق راسوه إلى نهر الطونة.

المادة السابعة: أن أمير الصقالبة يصير انتخابه من طرف الأهالى بالحرية التامة والباب العالى يثبته بانضمام آراء الدول ولا يجوز انتخاب أحد من أقارب دول أوربا الجالسين على سرير الملك للإمارة المذكورة وحينما تنحل الإمارة كذلك يكون انتخاب الأمير الجديد على هذا المنوال وهاته الشروط وقد تقرر أنه ينبغى من قبل انتخاب الأمير أن يجتمع مجلس مشيرى الصقالبة إما فى قلبه وإما فى طرنوه تحت نظارة مأمورين من طرف الروسيه وفى حضور مأمورين من طرف الدولة العلية وتؤسس نظامات هذه الإدارة المستقلة توفيقا لأمثالها أعنى لنظامات المملكتين التى تنظمت فى سنة ثلاثين وثمانمائة وألف ميلادية بعد انعقاد مصالحة أدرنه وعند تأسيس تلك النظامات ستصير وقاية حقوق ومنافع الأهالى من المسلمين والروم والأولاخ وغيرهم الموجودين والمختلطين مع الصقالبة وتقرر أيضاً إحالة تأسيس هذه الإدارة الجديدة فى البلغارستان مع ما يلزم من النظر فى صور إجرائها لعهدة مأمورين موظفين من طرف دولة الروسيه من هنا إلى سنتين وفى انقضاء السنة الأولى من تأسيس الإدارة الجديدة إذا لم يحصل اتفاق بهذا الشأن فيما بين الروسيه والباب العالى ودول أوربا يكون للدول المشار إليهم حق أن يوظفوا مأمورين برفق مأمورين الروسيه.

المادة الثامنة: ليس لعساكر الدولة العثمانية حق بعد هذا للإقامة فى البلغارستان وسيصير هدم القلاع القديمة الكائنة هناك بمعرفة الحكومة المحلية وأن الباب العالى له حق أن يتصرف فى الأدوات الحربية الموجودة فى قلاع الطونة التى صار إخلاؤها من العساكر بموجب سند المتاركة الذى تحرر فى حادى ثلاثين كانون الثانى والآلات الحربية الكائنة فى مدينتى شمنى ووارنه وجميع الأملاك المتعلقة بالحكومة العثمانية

كيفما شاء وتبقى عساكر الروسية فى البلغارستان مقيمة إلى أن ينتهى ترتيب العساكر الملية المحلية الكافية لحفظ الراحة وتوطيد الأمنية وإذا اقتضت الحال يقومون فعلا بإعانة المأمورين وسيصير تعيين عدد العساكر الملية بالاتفاق فيما بين الدولة العلية ودولة الروسية وأن مدة إقامة عساكر الروسية فى البلغارستان تكون سنتين والعساكر التى تبقى هناك بعد خروج جميع العساكر الروسية من بلاد الدولة العلية تكون عبارة عن ست فرق مشاة وفرقتين خيالة وجميعها خمسون ألفا ومصروف هؤلاء العساكر يكون على بلاد الصقالبة ويكون لها طرق مراسلات فى المملكتين فى شطوط البحر الأسود من جهة وارنه وبرغوس وفى مدة إقامتها هناك يكون لها المخازن المقتضية على الشطوط المذكورة.

المادة التاسعة: أن المرتب السنوى الذى يلزم على البلغارستان إيفاؤه للدولة العلية يتسلم إلى البنك الذى يعينه الباب العالى وهذا البنك يصير تعيينه بمعرفة دولة الروسية والدولة العلية وسائر الدول وذلك فى انتهاء السنة الأولى من ابتداء إجراء أصول الإدارة الجديدة ومقدار ذلك المرتب يتأسس بالنظر لإيراد البلاد والأراضى التى تكون فى إدارة الإمارة على الحساب المتوسط والبلغارستان تتعهد بالقيام بالتعهد الذى على الدولة العلية إلى شركة سكة الحديد فى طريق وارنة وروسجق غب المذاكرة المذكورة ومع الباب العالى وإدارة الشركة المذكورة ومسئلة السكة الحديد الأخرى الموجودة ضمن الإمارة يصير فصلها بمعرفة الدولة العلية وحكومة الصقالبة وإدارة الشركة.

المادة العاشرة: أن الباب العالى له حق أن ينقل ويجلب عساكر ومهمات وذخرة من الطريق المعينة فى داخل البلغارستان إلى الإيالات العثمانية التى وراء البلغارستان ولأجل عدم وقوع مشاكل فى هذا الخصوص وتأمين الإيجابات العسكرية العثمانية سيوضع نظام بالاتفاق مع الباب العالى والإمارة من ابتداء تعاطى هذه المعاهدة إلى ثلاثة أشهر فى ذلك وهذا الحق المتعلق بالمرور والعبور يختص بالعساكر النظامية فقط دون الباشبوزق والجراكسة والعساكر المعاونة وللباب العالى كذلك أن يتعاطى البوسطة من طريق الإمارة ويستعمل مسالك التلغراف فى مخابراته فهذان الأمران كذلك يصير تعيينهما وتنظيمهما فى المدة والشروط المحررة أعلاه.

المادة الحادية عشرة: أن المسلمين وغيرهم من أصحاب الأملاك إذا أرادوا الإقامة فى خارج الإمارة لهم أن يحفظوا أملاكهم ويؤجروها أو يفوّضوا أمر إدارتها إلى من

يريدونه ثم إن مأمور الدولة العلية ومأمور الصقالبة يجتمعان تحت نظارة مأمور الروسية ويفعلون المسائل المتعلقة بتصرف الأملاك وفى منافع مسلمى الصقالبة وذلك يكون فى ظرف سنتين والأملاك الميرية والموقوفة يصير تعيين أمرها إما بالبيع وإما باستعمالها على الوجه الذى يكون فيه النفع الزائد لجهة الباب العالى ويصير تعيين ذلك بمعرفة لجان مخصوصة محدودة فى السنتين المذكورتين والأراضى التى تبقى بدون صاحب عند انتقاض السنتين يصير طرحها فى المزاد وتباع ويؤخذ ثمنها ويدفع إلى أيتام وأرامل المصابين فى الأحوال الأخيرة من المسلمين والمسيحيين.

المادة الثانية عشرة: أن القلاع الكائنة على نهر الطونة يصير هدمها جميعاً ولا يبقى من بعد هذا على سواحل الطونة قلعة مّا مطلقا ولا يجوز وجود سفن حربية فى مياه رومانيا والصرب والصقالبة سوى السفن الصغيرة والفلوكات المختصة والمستعملة فى أمور الضبط فقط وحقوق ووظائف وامتيازات لجنة الطونه المختلطة تبقى بتمامها على أصلها.

المادة الثالثة عشرة: أن الباب العالى يتعهد بتنظيف البحر فى مضيق سنه وإرجاعه إلى حاله السابق ليصلح لمرورالسفن منه ويتعهد أن يضمن العطل والضرر الذى حصل للتجار بسبب منع مرور السفن من نهر الطونه مدة الحرب وسيصير خصم خمسمائة ألف فرنك من أصل دين لجنة الطونة إلى الباب العالى لأجل هذا الأمر.

المادة الرابعة عشرة: أن الإصلاحات التى تبلغت إلى مرخص الباب العالى فى أول جلسة مؤتمر الآستانة ينبغى حالا وضعها فى موقع الإجراء فى بوسنه وهرسك مع التعديلات التى ستقرر فيما بين دولتى الروسيه وأوستريا ويجب أن لا يطلب من هاتين الإيالتين بقايا الأموال الميريه وأن لا يؤخذ شىء من الواردات إلى ابتداء شهر مارس سنة ١٨٨٠ بل تصرف كلها فى الاحتياجات المحلية ويسدّ بها عوز الأهالى والعيال الذين أصيبوا فى الأحوال الأخيرة ومن بعد انقضاء المدة المذكورة يتعين المبلغ الذى يلزم على الأهالى دفعه فى كل سنة إلى الحكومة المركزية بالاتفاق فيما بين الدولة العلية ودولتى الروسيه وأوستريا.

المادة الخامسة عشرة: يتعهد الباب العالى بإجراء أحكام النظام الأساسى الذى وضع فى سنة ثمان وستين وستمائة وألف المختص بجزيرة كريد طبق مطلوب الأهالى الذى بينوه مقدما ويلزم إجراء الإصلاحات المماثلة لنظامات كريد فى ترحاله

ويانيه وفى سائر جهات الروم إيلى التى ليس لها نظامات مخصوصة ويصير تشكيل لجنة مركبة من الأهالى المحلية فى كل إيالة لأجل ترتيب وتأليف النظامات الجديدة ثم يصير تقديمها إلى الباب العالى وهو يتذاكر مع دولة الروسية فى ذلك.

المادة السادسة عشرة: أن خروج عساكر الروسيه من الأرمنستان وإرجاع تلك البلاد إلى الدولة العلية يمكن أن يفضى إلى المناقشة والاختلاف فيما بينهما فلهذا يتعهد الباب العالى حالا بإجراء الإصلاحات على حسب الاحتياجات المحلية فى الولايات التى سكانها أرمن وتأمين المسيحيين من تعدى الأكراد والجراكسة.

المادة السابعة عشرة: أن الباب العالى سيعلن العفو العمومى عن المتهمين فى الأحوال الأخيرة ويطلق سبيل المحبوسين والمنفيين بسبب ذلك.

المادة الثامنة عشرة: أن الباب العالى يتعهد بالتبصر بعين الدقة إلى ما بينه وكلاء الدول المتوسطة فى خصوص قضاء قوتور وتعيين الحدود الإيرانية على الوجه القطعى.

المادة التاسعة عشرة: أن مبالغ التضمينات الحربية التى طلبها حضرة قيصر الروسيه هى فى مقابلة الأضرار والخسائر التى تكبدتها دولته بسبب هذه الحرب والباب العالى قد تعهد بدفعها فمن هاته المبالغ أولا ـ تسعمائة مليون روبل فى مقابلة مصروف العساكر والأدوات الحربية والأشياء التالفة. وثانيا: ـ أربعمائة مليون روبل لأجل الأضرار الحاصلة فى سواحل بلاد الروسية الجنوبية وفى إخراجات البضائع التجارية وفى طرق الحديد. وثالثا: مائة مليون روبل فى مقابلة الضرر الحاصل من الهجوم على قوقاس. ورابعا ـ عشرة ملايين روبل لأجل الخسائر التى حصلت لتبعة الروسية المقيمين فى الممالك العثمانية ولتأسيساتها فعلى ذلك تكون هذه المبالغ من حيث المجموع عبارة عن مليار واحد وأربعمائة مليون وعشرة ملايين روبل يعنى مائتين وخمسة وأربعين مليونا ومائتين وسبعة عشر ألفا وثلثمائة وأحدا وتسعين ليرة عثمانية وريال مجيدى أبيض ونصف، هذا وأن القيصر المشار إليه قد لاحظ ضيق حال الدولة العلية من جهة المال وتأمل فى مقاصدها التى نوهت عنها فى هذا الشأن فلذلك قد قبل أن تترك الدولة العلية الأراضى المحررة أسماؤها أدناه عوضا عن القسم الأكثر من المبالغ المذكورة. أولا ـ لواء طوالحى يعنى قضاء كيليا وسنه ومحموديه وإيساقجى وياجين وبابا طاغى وخرسوه ولوستنجه ومجيدية والجزائر الكائنة فى نهر طونة قد تركتها الدولة العلية جميعا إلا أن الدولة الروسية

ليس لها فكر بإلحاق هاته البلاد إلى ملكها بل إنها تحفظ حق مبادلة هذه البلاد بقطعة بسارابيا التى أخذت منها بموجب معاهدة سنة ست وخمسين وثمانمائة وألف فحدود قطعة بسارابيا من جهة الجنوب طرف من أراضى كـيليا ومصب نهر الطونة والجهات التى يصطادون بها السمك فى النهر يصير تفريقها بمعرفة مأمورين من طرف الروسيه ومن حكومة المملكتين فى برهة سنة واحدة اعتبارا من تاريخ تعاطى هذه المعاهدة.

ثانيـاً ـ أردهان وقبـرص وباطوم وبايزيد مع الأراضى المحاذية لهـا إلى جبل جوغانلى سيصير تسليمها إلى دولة روسيه وحينئذ الحدود الفاصلة تكون هكذا أعنى يبتـدىء الخط الفاصل من الجبال الـتى فيما بين الميـاه الجارية والمنصبـة فى نهر هويا وجوروق ويمـر من الجبال المـتسلسلة الواقعـة فى جنوب قضـاء وارتوين ومن جوار قريتى والات وبشاكت ومن فوق درونيسك وكـفى وهوجسه زاد ويحقين صاغ ومن الجبال الفـاصلة للمياه التى تختلط بنهرى تورقم وجـورف ومن فوق قراء يالى وهين ولم كليسـا إلى أن ينتهى لنهـر تورتم ومن هناك يمر من سـيورى طاغ ومن مـضيق سيورى طاغ ويتـصل بقرية نريمان ويلتفت إلى وجهـة الجنوب حتى يصل إلى زوين ومن زوين يمر من غربى طريق أردوست خراسان إلى جنوب جبل جوغانلى ويتصل بقرية كيلجمان ومنها يمر من جبـل تريا ومن قرية خمير ومن أون رست مسافة ومن تلال طاندور ومن جنوب وادى بايزيد وينتهى فى الجهة الجنوبية من قازلى كول وهذا المحل هو الحد الفاصل قديما فيما بين حدود أرض الدولة العلية وأراضى دولة إيران وإن الأراضى التى صار إلحاقها بممالك الروسـية ومذكورة فى الخريطة المربوطة لهذه المعاهدات يصيـر تعيين حدودها قطعيـا بمعرفة مأمور من طرف الروسيـة ومأمور من طرف الدولة العليـة وهما يلاحظان قـواعد تخطيط الأراضى وأسـباب تأمـين حسن الإدارة.

ثالثاً: إن الأراضى التى صـار تركها للدولة الـروسية كمـا هو محرر أعـلاه قد اعتبرت بمبلغ مليار ومائة وعشرة ملايين روبل وأما الباقى من التضمينات وهو ثلثمائة مليون روبل ما عـدا العشرة ملايين روبل التى هى فى مـقابلة خسائر تبعـة الروسية وتأسيسـاتها فستتفق دولة الروسية مع الدولة العلية على قضية دفعها وتأمين وفائها.

رابعاً: إن العـشرة ملايين روبل التى تخص التبـعة الروسية ومـؤسساتها يـصير تسويتهـا هكذا. أعنى أن سفارة الروسية فى الاسـتانة تجرى التدقيقـات اللازمة بهذا الشأن عـلى طلبات أرباب الشـأن وتعرض الكيـفية علـى الباب العالى وهـو يجرى التسوية على مقتضى تبليغات السفارة.

المادة العشرون: أن الباب العالى يتعهد بأن يستعمل التدابير المؤثرة سريعاً فى حسم الدعاوى المتنازع فيها منذ سنين عديدة المتعلقة بتبعة الروسية وأنه إذا اقتضى الأمر يدفع تضمينات وينفذ أحكام الإعلامات.

المادة الحادية والعشرون. أن أهالى البلاد التى سلمت إلى الروسية إن أرادوا الهجرة منها لم أن يبيعوا أملاكهم وأراضيهم ويهاجروا وقد أعطى لهم مهلة فى ذلك ثلاث سنين من تاريخ تعاطى هذه المعاهدة فالذين لا يبيعون أملاكهم فى هذه المدة ولا يهاجرون يدخلون فى حكم الروسية عند انقضاء تلك المدة. والأملاك الأميرية والموقوفة يصير بيعها على حسب الأصول التى يعينها مأمور الروسية ومأمور الدولة العلية فى بحر السنين المذكورة وهما يتممان إيفاء كيفية نقل الأدوات الحربية الموجودة فى المحلات التى هى الآن فى يد الروس سواء كانت من البلاد التى سلمت إلى دولة الروسية أو غيرها.

المادة الثانية والعشرون: أن القسيسين والزوار الذين يسكنون أو يسيحون فى الممالك العثمانية فى الروم إيلى والأناضول من تبعة الروسية سينالون الحقوق والامتيازات التى ينالها القسيسون والزوار من تبعة سائر الدول سوية وسفارة الروسية الكائنة فى الاستانة وقناصلها يحمون حقوق أولئك الأشخاص وذواتهم ومؤسساتهم والرهبان وغيرهم الموجودون فى الأماكن المقدسة وبالخصوص فى اينورز فهم حائزون حقوقهم التى كانوا حائزين عليها فى السابق ويحفظون الديارات الثلاثة الكائنة فى اينورز مع مشتملاتها المتعلقة بهم كسائر الديارات والمؤسسات المذهبية الكائنة لغيرهم هناك سوية.

المادة الثالثة والعشرون: أن المعاهدات والمقاولات التى كانت موجودة فيما بين الدولة العلية والروسية المتعلقة بالتجارة المحاكمة وبتبعة الروسية المقيمين فى بلاد الدولة العلية وتعطلت أحكامها بسبب هذه الحرب ينبغى أن تجرى أحكامها كما فى السابق وأن دولتى الروسية والعثمانية قد أعادتا العلاقات إلى سابق مجراها قبل هذه الحرب فى الأمور التجارية وغيرها فيقتضى إحكام عرى المعاهدات والمقاولات المذكورة ما عدا المواد التى نسختها هاته المعاهدة.

المادة الرابعة والعشرون: أن خليج الاستانة وخليج جناق قلعة سواء كان فى زمن الحرب أو زمن الصلح يكون مفتوحا للسفن التجارية التى تريد المرور منه إلى بلاد الروسية من الدول التى تكون على الحيادة والباب العالى ليس له من بعد هذا

أن يستبدّ بمراقبة الشطوط الواقعة فيما بين البحر الأسود وبحر الأزاق المخالف لمضمون معاهدة باريز التى صار إمضاؤها فى رابع أبريل سنة ١٨٥٦ ست وخمسين وثمانمائة وألف.

المادة الخامسة والعشرون: أن عساكر الروس يخرجون من بلاد الدولة العلية الكائنة فى أوربا بالروم إيلى ما عدا البلغارستان وذلك من تاريخ انعقاد الصلح القطعى إلى ثلاثة أشهر هذا وأن العساكر المذكورة لهم أن يأتوا إلى الأساكل الموجودة فى البحر الأسود وبحر مرمرة عند السفر للركوب فى السفائن التى تحضرها أو تستأجرها دولة الروسية حتى لا يكونوا مجبورين على تحديد مدة الإقامة فى الممالك العثمانية وفى رومانيا وأما خروج عساكر الروسية من الأناطول فيكون بعد انعقاد الصلح القطعى بستة أشهر ولهم أن يأتوا إلى طرابزون لأجل الركوب فى السفن ومن هناك يسافرون إلى القريم أو القوقاى.

المادة السادسة والعشرون: أن قواعد الإدارة والأوامر التى وضعتها دولة الروسية فى البلاد التى دخلتها عساكرها والتى ينبغى تسليمها إلى الدولة العلية بموجب هذه المعاهدة تكون باقية وجارية إلى حين قيام العساكر منها وليس للباب العالى المشاركة فى الأحكام ولا للعساكر العثمانية الدخول إليها قبل ذلك بناء على هذا فإن أمير عساكر الروسية يخبر الضابط الذى يعينه الباب العالى عن سفر عساكر الروسية وليس للباب العالى أن يجرى الأحكام من قبل أن تسلم له القلاع والإيالات.

المادة السابعة والعشرون: أن الباب العالى لا يجازى أحدا بسوء من تبعته الذين لهم علاقة مع دولة الروسية فى زمن الحرب وليس لمأمورى الدولة العلية أن يمنعوا أو يوقفوا أحدا من الأهالى الذين يرغبون أن يسافروا مع العساكر الروسية.

المادة الثامنة والعشرون: أن أسرى الحرب يصير إرجاعهم تحت ملاحظة مأمورين مرتبين من طرف الدولتين وذلك عقب تعاطى مقدمات الصلح وهؤلاء المأمورون يسافرون إلى أودسة وسيواستابول وأما مصروف أسراء العساكر العثمانية فتدفعه الدولة العلية فى ظرف ست سنوات على ثمانية عشر قسطا بموجب الدفتر الذى يحرره المأمورون المذكورون وأما قضية مبادلة الأسرى فيما بين حكومتى دونيا والصرب وإمارة الجبل الأسود فيصير إجراؤها على هذا الأساس إلا أنه يصير تنزيل العدد الذى تستلمه الدولة العلية من العدد الذى تستلمه من الأسرى.

المادة التاسعة والعشرون: أن حضرة إمبراطور الروسية والحضرة السلطانية

سيثبتون هذه المعاهدة ووثائق الاتفاق تكون معاطاتها فى سان بطرسبورج فى ظرف خمسة عشر يوما أو بوجه أسرع من ذلك إن أمكن وكذلك يجرى التصديق رسميا على الشروط المذكورة فى هذه المعاهدة على حسب الأصول الجارية فى المعاهدات الصلحية وأن الدولتين المتعاهدتين من تاريخ تعاطى المعاهدة تعدّان أنفسهما رسميا بأنهما متعهدتان بأن مرخصي الطرفين قد أمضوا هذه المعاهدة كما يأتي تصديقا لمضمونها (انتهت كما رقمها صاحب الجوائب) ثم جاء بعد ذلك ما نصه: إن معاهدة مقدمة الصلح التى صار إمضاؤها فى هذا اليوم أعنى فى تاسع عشر شعبان وثالث إدار سنة ثمان وسبعين وثمانمائة وألف ميلادية قد حصل سهو بها فى الجملة الأخيرة من المادة الحادية عشرة فلذلك زيدت العبارة الآتية واعتبرت جزءاً متمما للمعاهدة المذكورة وهى:

أنَّ الذين يقيمون أو يسيحون فى الممالك العثمانية من أهالى البلغارستان يكونون تابعين للقوانين العثمانية انتهى.

قال بعض كتاب الأخبار: فلم تكن لترضى هذه المعاهدة سكان البلاد المنسلخة عن السلطنة العثمانية ولا بقية الدول وعلى الخصوص منها دولة الإنجليز فإنها أصبحت وكأن الطير على رؤوس كبار سياستها فقد هاجوا وماجوا وأوعزوا إلى دولة النمسا فقام أصحاب الكلمة فيها يطالبون بحل عقد هذا التحالف ويزمون دولة الروس بالخديعة والمكر ويقولون لا سبيل إلى ترك بوسنة وهرسك مضغة لينة لغيرنا ولابد من أخذ مينا سلانيك لتغنينا عن تريستا التى أكثرت إيطاليا تهديدنا ووعيدنا بسببها وكتب كبير سياسة الإنجليز إلى دولة الروس يقول إن كل عمل تأتيه الروسية مع الدولة العلية مخالفا لنصوص معاهدة سنة ست وخمسين وثمانمائة وألف المبرمة فى عاصمة الفرنسيس لا يعمل به إلا برضا جميع الدول الضامنة لتلك المعاهدة وسألت دولة النمسا بقية الدول فى عقد مؤتمر فى مدينة برلين عاصمة الألمان للنظر فى مدعياتها فأجابتها إلى ذلك واشترطت دولة الإنجليز أن يكون لأعضاء هذا المؤتمر حق النظر فى جميع مواد معاهدة سان اسطفانوس والإتيان عليها من سائر أبوابها فمانعت دولة الروس فى ذلك وشددت فى المنع وعظم الخلاف بين الروس والإنجليز واستفحل الخطب وجعل كل فريق يتأهب لقتال الآخر وكثر اهتمام الإنجليز بحشد الجنود وإعداد معدات القتال وجعل سفن حربهم على قدم الاستعداد أمام جزيرة مالطة واستقدموا عدة طوائف من عساكرهم الهندية إلى الجزيرة المذكورة كى يكونوا على مقربة من دار السلطنة عند الحاجة إليهم وبالغت دولة الروس كذلك فى حشد

الجنود وتسليح الكثير من سفن التجارة بالمدافع الضخمة لتسحق بها سفن تجارة الإنجليز عند انتشاب الحرب بين الفريقين واشتد الخوف وعم الاضطراب وقامت الفتنة فى البلغارستان وخرج من بها من المسلمين على الروس وقاتلوهم وتحصنوا فى الجبال فعز على الروس إرجاعهم إلى الطاعة وعمت الفتنة جميع البلغارستان وضواحى صوفيا إلى حدود الصرب واشتدت وبقى الحال هكذا أياما ومراكب حرب الإنجليز راسية أمام دار السلطنة وعساكر الروس حولها من كل صوب ودخل الصيف وزال الشتاء فتفشت الأمراض فى عسكر الروس ووقع فى الجند الموات فكبر الأمر على القيصر وسير إلى خاله إمبراطور الألمان فى الوساطة بينه وبين الإنجليز وأنفذ إلى سفيره بعاصمة الإنجليز فى ذلك أيضاً فانفتح باب المخابرة فى الصلح والوقوف عند حدّ يكون فيه المصلحة للفريقين ثم اتفق الروس والإنجليز على عقد المؤتمر فى برلين عاصمة الألمان كطلب دولة النمسا وكتبوا إلى البرنس بسمارك كبير سياسة الألمان فى أمر ذلك فأنفذ إلى بقية الدول بأن تبعث سفراه من قبلهم فجاءت سفراؤهم إلى برلين بعد أخذ وردّ وانعقد المؤتمر وتكلموا فى معاهدة سان اصطفانوس وفيما يجب تغييره من أحكامها. قال بعض الكتاب: وقال اللورد بيكنشفيلد كبير سياسة الإنجليز يومئذ: ولماذا لا تنسحب العساكر الروسية عن ضواحى دار السلطنة العثمانية فأجابه البرنس غورتشاكوف كبير سياسة الروس حتى تنسحب السفن الإنجليزية من مياه القسطنطينية فعارضه بيكنشفيلد فى ذلك وردّ عليه غورتشاكوف وعلت أصواتهما واشتد بينهما اللدد وكاد ينحل عقد المؤتمر لولا وساطة بسمارك وحسن سياسته، وما زال المؤتمر يوالى جلساته حتى تم الاتفاق على ما أرادوه وكتبوا به عهدا فى عاشر رجب سنة خمس وتسعين ومائتين وألف هجرية أى ثالث عشر يوليو سنة ثمان وسبعين وثمانمائة وألف ميلادية وهو المعروف بمعاهدة برلين وهى تحتوى على أربع وستين مادة قد أضربنا عن إيرادها هنا وكان من أحكامها انفصال ولاية البلغار انفصالا تاما عن ممالك الدولة العثمانية وتسليم البوسنة والهرسك إلى دولة النمسا والمجر تسليما لا رد بعده وإعطاء اليونانية جزءاً من أراضى الدولة العلية توسيعا لحدودها وكذلك اتسعت حدود الصرب وحدود الجبل الأسود وإعطاء أمير الجبل المذكور مينا انتبغارى المهمة الواقعة على بحر الأدرياتيك وقد نالت كذلك دولة فارس جزءاً من الأملاك العثمانية أسوة بغيرها أما دولة الإنجليز فإنها لم تكتف من الغنيمة بالإياب بل أخذت جزيرة قبرص على شروط

وعهود قد أضربنا عن إيرادها هنا وانقضت تلك الحرب المشئومة وقد خسرت فيها السلطنة العثمانية من المال والرجال والأراضى ما كاد أن يخلخل أركانها بل يقوض بنيانها ويمحى ما بقى من آثار مجدها القديم والأمر يومئذ لله الواحد القهار.

لماعادت الأمور إلى سابق مجراها أظهر السلطان ميله إلى موالاة الروس ومحبة قيصرهم وكرهه لسياسة الإنجليز ثم عمد إلى قطع شأفة المفسدين وأصحاب السعاية والفتن والمتحيزين للإنجليز من كبار الدولة وأصحاب الوظائف العالية ورسم بتحقيق مقتل عمه السلطان عبد العزيز وقد بث العيون والجواسيس حول جميع من كان لهم يد فى تلك الفتنة وشدد فى الأمر وقيد بذلك جماعة من كبار المحاكم فقبضوا على كل من ظهرت تهمته فى ارتكاب هذه الجناية، قال أحد الكتاب: فكانوا خمسة عشر شخصاً منهم مصطفى البهلوان ومصطفى الجزايرلى والحاج أحمد أغا ونجيب بيك وعلى بيك ونورى باشا ومحمد جلال الدين باشا أصهار السلطان عبد الحميد سلطان هذا الوقت ومحمد رشدى باشا وخير الله أفندى شيخ الإسلام والسلطانة والدة السلطان مراد وأربعة آخرون وقد أثبتوا عليهم ارتكاب هذه الجناية الشنعاء.

فلما كان رابع جمادى الآخرة سنة ثلاث وتسعين ومائتين وألف هجرية انعقدت محكمة القضاء لمحاكمتهم فأتى بهم أمام دائرة الجنايات وكانت هذه الدائرة مشكلة من رئيس اسمه تيمستوفل خرستو فوتيادى يونانى الجنس عثمانى التبعة وثلاثة قضاة آخرين أحدهم أرمنى واسمه إسكندر أفندى والاثنان مسلمان وتعين لرئاسة الجلسات التى عهد إليها النظر فى هذه الدعوى سرورى أفندى رئيس دائرة محكمة الاستئناف وهو الذى تولى التحقيقات الابتدائية وقد حضر فى قاعة الجلسة السفراء والوكلاء وقناصل سائر الدول وموظفو الحكومة وأرباب المناصب العالية وكتاب صحف الأخبار فلما استقر بمن حضروا المقام نودى على المتهمين وقد كانت نصبت لهم خيمة كبيرة بجانب حرس مالطة على بعد من سراية يلدز فحضر أوّلا مصطفى البهلوان ومصطفى الجزايرلى والحاج أحمد أغا ونجيب بيك وعلى بيك وفخرى بيك وسعيد بيك ورضا بيك ثم استحضروا نورى باشا ومحمد جلال الدين باشا، وكان المدعى العمومى اسمه لطيف بيك، فافتتح الرئيس الجلسة وأخذ فى تعريف المتهمين وقد محض النصيحة للمحامين الذين انتدبوا للدفاع عنهم، ثم أشار بتلاوة المثبت فى صحيفة التحقيق وأوراقه فجعل يتلوها عز الله أفندى باشكاتب الدائرة واستمر فى تلاوة هذه الأوراق نحو ثلاث ساعات فكان حاصل ما فيها:

أنه بعد خلع السلطان مراد وجلوس السلطان عبد الحميد على سرير الملك رسم بترتيب مصروفات السراى السلطانية. وبحث فى أمر المرتبات فوجد أن ثلاثة أشخاص من صغار المأمورين عين لهم مائة ليرة عثمانية معاشا شهريا فبحث عن سبب ترتيب هذا المعاش لهم، فعلم أنه ترتب لهم مكافأة على قتل المرحوم السلطان عبد العزيز وهؤلاء المأمورون هم: مصطفى البهلوان ومصطفى الجزايرلى والحاج أحمد أغا، فلما سئلوا عن ذلك اعترفوا بالحقيقة وقالوا: إن محمد جلال الدين باشا ونورى باشا أصهار الحضرة السلطانية هما اللذان أغرياهم على فعل القتل، وأن محمود باشا زودّهم بما يلزم فعله وزادهم علما به نورى باشا وشدد عليهم بكتمان الأمر بأيمان القسامة، وقد وافق على إجراء هذا الفعل العظيم هيئة تألفت من: محمد رشدى باشا الصدر الأعظم، ومدحت باشا، وحسين عونى باشا، وخير الله أفندى شيخ الإسلام فإنهم كانوا استصدروا من السلطان مراد قبل خلعه فرمانا بأن لا يقع فى داخلية السلطنة وخارجها شيء إلا بأمر هذه الهيئة، فظهر من التحقيق أن قتل السلطان عبد العزيز كان بموافقة رأى هذه الهيئة وثبت أن المتآمرين كان من قصدهم أيضاً اغتيال جميع العائلة السلطانية حيث دعوهم جميعاً إلى مادبة أعدها جلال الدين باشا فى قسطية فى أعالى بك أوغلى فأحسوا بالمكيدة وامتنعوا عن الذهاب إلى تلك الناحية، وبناء على ما ظهر فى هذه القضية حكمت النظارة (لعلها دائرة التحقيق عندهم) على المتهمين الذين هم: محمد جلال الدين باشا، ونورى باشا، ومدحت باشا، ومحمد رشدى باشا، وخير الله أفندى شيخ الإسلام، والسلطانة والدة السلطان مراد بالأشغال الشاقة إلى أمد طبقاً للمادة الحادية والتسعين من قانون العقوبات، وعلى السلطان مراد بهذا الجزاء أيضاً، وبأن يعافى من ذلك لاختلال عقله، وحكمت بالقتل على فخرى بك، ومصطفى الجزايرلى، ومصطفى البهلوان، والحاج أحمد أغا، ونجيب بك، وعلى بك وسعيد بك، ورضا بك طبقا للمادة المائة وسبعين من قانون العقوبات، وبعد تلاوة الأوراق لخص سرورى أفندى الرئيس الدعاوى وأخذ فى استنطاق المتهمين فسأل مصطفى البهلوان أولا: فقال:

ـ قد استدعانى محمد جلال الدين باشا يوما وقال لى: إنه رتب لى مائة ليرة عثمانية في كل شهر، ولرفيقى مصطفى الجزايرلى أيضاً على أن نقوم بمهمة قتل السلطان عبد العزيز بواسطة فتح عروقه بمقرض أعده لنا، ثم استدعانى نورى باشا أنا ورفيقى وأوصانا بما ذكر وبالغ فى الوصية وشدد علينا فى الأمر، وقال: لم يبق

لنا حيلة سوى الخلاص من أسر هذا السلطان واسترقاقه لنا. واستحلفنا على كتمان السر فحلفنا فناول كلا منا ثلاثين ليرة عثمانية. فلما كان عصر اليوم أدخلنى نجيب بيك وعلى بيك الضابطان اللذان كانا يحرسان السراى بأورطة كوى أنا ورفاقى وأربعة من الخصيان إلى مقر السلطان عبد العزيز فقتلناه بحضرة فخرى بك وهو الذى قبض على السلطان من كتفيه ومصطفى الجزايرلى والحاج أحمد أغا قبضا على ساقيه بعنف وشدة كى لا يستطيع التخلص فقبضت أنا على ذراعه وقطعت أوردته ثم على الثانى وفعلت به كذلك وهو يصيح ويستغيث، وكان نجيب بك وعلى بك فى هذا الحين يحرسان باب الدائرة فلما قضى السلطان نحبه حملوا جثته وهى ملفوفة ببعض الثياب ووضعت فى حجرة قهوة وجاق الحرس على حصير من القش كانت هناك.

فسأله الرئيس ـ أصحيح ما قيل أن السلطان كان به رمق من الحياة حين نقل به إلى الحرس. فقال البلهوان: لا علم لى بذلك غير أنى أظن أنه كان قد مات وشبع موتا.

فالتفت الرئيس إلى الحاج أحمد أغا وسأله فاعترف ولم ينكر من فعله شيئاً، ثم سأل مصطفى الجزايرلى فتلعثم وتلون واختلفت أقواله عما اعترف به فى التحقيق الابتدائى، ثم قال: إن ما قلته من أن نورى باشا قد حلفنا اليمين بأن نقتل السلطان ونكتم سر ذلك خطأ منى، فإن نورى باشا لم يأمرنا بشىء من ذلك بل أوصانا بأن نخدم السلطان أحسن خدمة وأن نقترب من مقامه إن شاء أن نكون بحضرته وأن نعتنى بحراسة مقره غاية الاعتناء فعملنا بما أوصانا به إلى أن قتل السلطان نفسه ـ فقال الرئيس ـ أو لم تشترك مع رفاقك فى قتل السلطان؟ فقال: حاشا فقد كنت وقت قتله فى أسفل الدائرة فلما سمعت الغوغاء صعدت مع من صعد من الناس لأعرف الخبر فوجدت أن السلطان قد قتل، فقال الرئيس: قد خالفت ما اعترفت به فى التحقيق الأول، فقال: أخطأت مرادى أن أقول سمعت الغوغاء فتوهمت حريقا فى السراى فهرولت إليها فقالوا لى إن السلطان قتل نفسه.

فنظر الرئيس إلى فخرى بك وسأله فقص ما وقع من السلطان عبد العزيز وانتقاله إلى طوب قبو وإقامته بها بعد أن كتب ورقة إلى السلطان مراد وهو فى سراى شراغان ثم قال: إن السلطان عبد العزيز ما دخل هذا المكان حتى بدأت تظهر عليه علامات الجنون والهذيان، فقد رأى حزمة فى أرض الجنينة لتذويب الكلس

فاضطرب منها. وقال إنها من عـلامات السوء ودلائل النحس، ثم سمع طلق مدفع فقال: إن أهل البـلاد انقسموا إلى حزبين وها هم يتضـاربون من أجله ـ قال: وكان السلطان يقول: إنه لابد من أن يقتل كما قتل السلطان سليم، واتفق أن رأى نفرا من الجند يدخنون السيجار تحت شبابيك السراى فجعل يشتمـهم ويعزرهم على كفرهم بالإحسان ـ ورأى مركبا حربية آتية لترسو تجاه قصره فصاح مناديا بأنهم لا يلبثون أن يطلقوا القنابل على مقره ـ قال: وفى تلك المدة دعيت إلى حرس أورطة كوى حيث كان نجيب بك وعلى بك فأخبـرانى بأن عندهم ثلاثة أشخاص لابد من إدخالهم إلى مقـر السلطان تنفيذا للإرادة الشـاهانية، وأن هؤلاء الأشخـاص مأذونون بنقل بعض المتاع من السراى فـعارضتهـما ولكن اضطررت بعيد ذلك إلى الإذعـان فدخلوا وقد رجعت إلى مقر السلطان فكنت أرى علامـات الجنون تزداد عليه حتى كان يتوهم أن سقف السراى يلتهب نارا وأن الأعداء أوقدوا فيه النار عمدا، وقد طلب مرآة ومقصا لكى يهندم لحيتـه وكنت أمرت أن لا يعطى شيئـاً ولكن بالرغم عنى أعطوه ما طلب فانزوى فى مـخدعه وقـفل بابه فحضـرت إحدى جوارى والدته وجـعلت تنظر من الطاق لتعرف ما الذى يفعله فلما لم تتمكن من ذلك صاحت وعلا صوتها فأسرعت إلى الدائرة فوجـدته مطروحا غريقا فى دمـه ـ فقال الرئيس: قـد كان عند السلطان سيف السلطان سليم فـهل أخذت ذلك السيف؟ فقـال: نعم ولكن وضعته مـع بقية الأشياء التى أخذت بأمـر الذات السلطانية ـ فقال الرئيس: لمن سلمتـه ـ فقال أدخلته من الطاق وأعطيته لأحد الحراس ـ الرئيس: من هو هذا الحارس ـ لا أعرف اسمه.

الرئيس: قد نظروك مساء وأنت تتكلم فى مـوضع الحرس مع جلال الدين باشا وحسين عونى باشا ونورى باشا.

نعم: قد كانوا استدعونى ليتحدثوا معى بشأن خدام السراى.

الرئيس: لمن سلمت السـيف ؟ لا أعرف ـ لا يخطر لعـاقل على بال أنك تكون سلمته لمن لا تعرفه.

ثم سئل نجيب بك الذى كان متوليا رئـاسة حراسة الباب المشرف على الرصيف فى أمر مقتل السلطان فـأنكره، وأكد أنه قتل نفسـه ـ قال: وقـد كنت مكلفا بحراسة متاع السـلطان المأخوذ من السراى فـفى ليلة هذه الحادثة ذهبت إلى سراى دولمه بغچه حيث تقابلت مع جلال الدين باشا وأخـذت منه سلسلة من ذهب وساعة ثم رجعت إلى مقر السلطان عبد العزيز ومعى ثلاثة من الخدام وأربعة من الخصيان مرسلين بأمر

السلطان مراد فقضيت ليلتى تلك بغاية الطمأنينة، وبينما أنا راقد في الليل إذ سمعت غوغاء فانتبهت ورأيت ما جرى وعلمت أن السلطان قتل نفسه.

الرئيس - إن بعض المتهمين قالوا إنك كنت قائما بالباب عندما كانوا يباشرون فعل القتل - فقال - ليس ذلك بصحيح - فالتفت الرئيس إلى محمود باشا، وقال: قد ظهر أنه بعد جلوس السلطان مراد على التخت الملوكانى كانت تشكلت هيئة فى السراى بإرادة سلطانية، فصار من المحتم أن كل شىء يقع فى البلد لا يكون إلا بإشارة هذه الهيئة فهلا كنت عضوا عاملا فيها؟ - فقال محمود باشا: لا علم لى بوجود هذه الهيئة ولم أكن من أعضائها، نعم إنه فى ثانى يوم جلوس السلطان مراد توجهت إلى السراى فكلفونى بقبول منصب إحدى الوزارات، وفى اليوم التالى بقيت فى السراى ولا أعلم ألبتة بهذه الهيئة - فقال الرئيس - لقد صرح أدهم أفندى ونورى باشا بما يخالف ذلك - فقال محمود باشا: كذبا فيما قالا.

الرئيس - علمنا أنه لما نقل السلطان عبد العزيز إلى سراى طوب قبو طلب منك أن تنقل إليه جميع أمتعته وعهد إليك أيضاً المحافظة عليه حين نقله بعيد ذلك إلى سراى قرية، فأنت حينئذ الذى حافظت على مقر السلطان مع نجيب بك وعلى بك من كبار العسكر، فقال: حاشا حاشا وكلا لم يعهد إلى بأن أخفر السلطان فى مقره - فقال الرئيس - وأين كنت ياترى ليلة مقتل السلطان - فقال: كنت فى دارى بالفندقلى إلى أن توجهت إلى محمد رشدى باشا - فقال الرئيس - محمد رشدى باشا يكذبك فإنهم قد نظروك ليلة قتل السلطان وقبل حصول القتل بساعة فى الحرس تتكلم مع فخرى بك ونجيب بك وعلى بك - فقال: لم يحصل شىء من ذلك ألبتة - فقال الرئيس - الشهود عليك كثيرون وذكر له أسماء الشهود - فقال محمود باشا كلهم يكذبون فيما يدعون - فقال الرئيس - قد نظرك القبطان راسم يوم نقل أمتعة السلطان تكسر صندوقا مدهونا بدهن أخضر - فقال محمود باشا: قد حصل وقت النقل ضرر ولم يمكن منع وقوعه - فقال الرئيس - هل توجهت إلى محل الحادثة عندما علمت بها؟ فقال: لالا - قال الرئيس - ومن أين إذًا علمت بهذه التفاصيل - فقال: علمت بها من صحف الأخبار التى تكلمت عنها.

فالتفت الرئيس إلى نورى باشا وقال: من الذى دعاك ماريشال السراى أى أمير أمراء جند الحرس السلطانى - فقال: السلطان مراد هو الذى دعانى بهذا الاسم - فقال الرئيس - قد شكلت بعد جلوس السلطان على تخت السلطنة هيئة فى السراى

فممن ياترى كانت هذه الهيئة مؤلفة؟ ـ فقال نورى باشا: كانت مؤلفة من محمد رشدى باشا ومحمد جلال الدين باشا ومدحت باشا وحسين عونى باشا وخير الله أفندى شيخ الإسلام وكنت أنا من أعضائها أيضا ـ فقال الرئيس ـ إذا ما هى الأعمال التى نيطت بتلك الهيئة؟ ـ فقال: هى جميع الأشغال وقد كان لابد من عرضها عليها بحيث لا يقع فى الدولة شىء بدون آرائها حسبما أمر به مولانا السلطان ـ الرئيس ـ ومن الذى بعث بالثلاثة رجال إلى مقر السلطان عبد العزيز؟ ـ فقال: أرسلهم المابينجى سعيد باشا حيث أتى بهم إلىّ بأمر سلطانى، وبما أنى مارشال السراى كان لابد من مخابرتى فى جميع الأمور فأرسلتهم بصفة كونهم خدمة إلى مقر السلطان عبد العزيز وأوصيتهم بأن يحسنوا الخدمة ما استطاعوا ـ الرئيس ـ هل أعطيتهم تعليمات سرية؟ حاشا فإنى أدخلتهم فى مخدعى بحضور كثير من الناس وكلمتهم عما لزم جهارا، ثم ذكر أسماء الذين كانوا حاضرين وقتئذ ـ الرئيس ـ كيف هذا مع أن مصطفى الجزايرلى قد قرر خلاف ما ذكرت وقال: إنك طلبت منهم كتمان السر وإنك حلفتهم يمين القسامة؟ ليس ذلك بصحيح ألبتة ـ الرئيس ـ هل توجهت إلى محل القتل؟ ـ نعم عندما علمت أن السلطان عبد العزيز جرح نفسه توجهت واستدعيت ماركو باشا طبيب المرحوم السلطان فأتى ومعه أطباء آخرون وجعلوا يفحصون أسباب الموت فحصا طبيا وكتبوا تقريرا بما رأوه غير أن ماركو باشا أبى أن يوقع على التقرير وتشاجر مع بقية الأطباء.

فتقدم محمود باشا وأنكر أقوال نورى باشا وكرر القول بأنه لا يعلم ألبتة بتشكيل تلك الهيئة ـ فقال الرئيس ـ كيف وقد قلت واعترفت بأنك أنت الذى أوصيت نورى باشا بمصطفى البهلوان ـ فقال: إنى لم أر البهلوان سوى مرة واحدة من نحو الخمس عشرة سنة فى ناحية جاملجة وأوصيت نورى باشا به ولم يكن فى خدمتى أو يتردد علىّ قط قبل الآن.

ثم دخل مدحت باشا وبيده مفكرات ودفاتر فأوقف موقف المتهمين وعلامات السكون تنطق من وجهه فمدت إليه الأعناق وأحدقت به الأبصار وقد وضع ذراعه على رأس كرسى كان أمامه ـ فقال له الرئيس ـ يتلو عليك الكاتب الآن ما يتعلق بك مما ورد فى أوراق الدعوى ـ فأجاب مدحت قائلا: قبل أن أسمع هذه التلاوة أقول ويحق لى أن أقول إنى أعد نفسى سعيدا إذ دعيت لأبرىء نفسى من تبعة جناية أمام هيئة علانية ويجب على فى هذا المقام أن أمتدح غيرة ومساعى المأمورين بالقضاء

إذ رغبوا فى أن يقوموا حق القيام بمأموريتهم فتصرفوا بنوع من العجلة وحكموا قبل أن يقضوا وينبغى على هذا تقديم واجب الاحترام لشعائر العدل المتصف بها جلالة مولانا السلطان حيث تنازل وأمر بكشف خفايا هذه المسئلة فى محاكمة علنية وهى خطوة عظيمة نحو الحرية فما تم مقاله حتى جعل الكاتب يتلو مرسوم الإحالة وأوراق الدعوى، وقبل أن تتم تلاوة جميع الأوراق عاد مدحت باشا إلى سياق مقالته الأولى فقاطعه الرئيس وقال: يجب عليك السكوت فإن إدارة المحكمة هى من خصائص الرئيس لا المتهم، ثم قال له: قل ما تعلمه من أمر الهيئة التى كانت فى السراى. فقال: لا علم لى بوجود الهيئة المذكورة بل الذى أعلمه أن مجلس الوزراء هو الذى كان وحده يدبر جميع أمور الدولة، وإنى كنت أحد أعضائه ولم نؤمر قط بقتل السلطان عبد العزيز، فقال الرئيس: من الذى أمر بأن يؤخذ من السلطان المخلوع سيف السلطان سليم ؟ فقال مدحت باشا: أتعنى بذلك بعد الخلع؟ فقال الرئيس: نعم، قال: قد أمر بعد نقله إلى سراى طوقبو أن يبعد عنه كل نوع من الأسلحة ولم يكن لذلك من سبب سوى الخوف على حياته - الرئيس - متى تمت وفاة السلطان؟ فقال مدحت باشا: يوم الأحد توجهت إلى الباب العالى لأحضر الجلسة التى كان مزمعا عقدها فوصلت إليه ولم أجد أحدا فسألت عن الخبر فقيل لى: أنّ المستشار سعيد باشا أفندى هو وحده موجود هنا، فسألته عن سبب غياب الوزراء فأخبرنى بالحادثة فراعنى الخبر بل كدّرنى جدا خصوصا وقد خطر ببالى وقتئذ ما يترتب على ذلك من مؤاخذة الكثير من خلق الله فى هذه الحادثة بمجرد الشبهة - الرئيس - لكن سعيد باشا أفندى المذكور يكذب قولك، فقال مدحت: ليس لتكذيبه عندى أهمية فبعد أن سمعت هذا الخبر بارحت الباب العالى وسرت إلى دولمه بفنجه قاصدا حرس أورطة كوى حيث كان هناك جماعة الوزراء وجم من العلماء وغيرهم من أهل المراتب وتسعة عشر طبيبا فكلهم قالوا لى مع فخرى بك إن السلطان قتل نفسه فلم يسعنى إلا التصديق كسائر من سمع الخبر من الحراس - الرئيس - قالوا إنهم وجدوا عدا الجروح التى كانت فى ذراعيه جرحا آخر فوق ثديه الشمال وآثارا أخرى شديدة تدل على أنه قتل مقهورا وحيث إنك كنت فى ذاك الحين وزيرا فكان من واجباتك أن تأمر بالفحص فى أمر قتله، فقال مدحت: إذا اعتبرتمونى لأجل ذلك مسئولا وجب إذا جعل جميع الوزراء الآخرين مسئولين مثلى ولكنى لست أراهم قائمين بجانبى فى هذا الموقف حتى أقتسم بينى وبينهم مسئولية

عدم أمرهم بإجـراء الفحص ـ الرئيس ـ هل كان فى السلطان رمق من الحـياة عندما نقلت جثته إلى وجاق قهوة الحرس؟ فقال مدحت: لا علم لى ألبتة بذلك ـ الرئيس ـ كيف ومحمـد رشدى باشا لا يقول ما قتله أنت الآن؟ فـقال مدحت: ذلك ممكن وقد قرر محمد رشدى باشا أمورا أخرى كثيرة من هذا القبيل ـ الرئيس ـ إن المجلس يرغب أن يسألك أيضـاً عن الأسباب التى حـملتك على الالتجاء إلى دار قـونصلية فرانسا، فقـال مدحت باشا: هذه الحادثة تحتاج للتفـصيل ولكنى مع ذلك أقول: إنه قـد كانت وردت لى مكاتبـات من الآسـتانة تعلمنى بـكل ما كـان يقال فى حـقى وكشفت لى عن التهمة التى رميت بها فى ظروف لا يطمئن معها قلبى، ثم لم ألبث أن رأيت فى صـباح ذات يوم مـعاون الحـضرة السلطانيـة وصل إلى أزميـر ثم أتى القوناق وجعل فى الحال يراسل السراى السلطانية برسائل الأرقام، وقد أبلغنى بذلك رجال البـوليس السرى الذى كنت أنشـأته هناك، فعلمت أن ذلك الأمـر يختص بى ذاتيا ثم بعـيد وصول هذا المعاون بأيام قـلائل علمت أيضاً بوصول مأمـور عسكرى وهو على بيك رجل على شاكلة وفطرة شركسلى حسن وادعى أنه إنما جاء لأجل أن يرتقى إلى رتبة ميرالاى وأن لباسه الرسمى لم يكمل لغاية حضوره إلى أزمير ولذلك أتى بغير لبـاس عسكرى ثم جعل بعد أيام مـن وصوله يتكلم بما لا يليق ونسب لى أمورا قبيحة فقصدت القبض عليه ولكن لم يقع ذلك حتى بلغنى أنهم عازمون على القـبض علىّ وفى تلك الليلة نفـســها رأيت أنـه قد أحـاط بمنزلى ثلاثمـائة جندى فداخلنى من الخوف ما ألجأنى إلى عدم التأخر عن المسير حتى لا تنالنى هذه الحراب المشرعـة ولا أقع فى أيدى رجال على بك المذكـور ولهذا السبـب خرجت من باب الجنينة وركـبت أول عربة وجـدتها وسـرت إلى المحلة الأوروباوية فأول باب وجـدته مفتوحا كان باب دار قونصليـة دول الفرنسيس فدخلتها وإنى لأكـذب كـل التكذيب ما قيل من أنى فـتحت بابا فى الجنينة عمدا لهـذا الغرض قبل بخمسـة أيام كما أنى برىء من اتهامى بأنى هيأت العربة فى تلك الليلة قبل الأمر.

فلما أتم مدحت باشا كلامه أشار الرئيس بقفل الجلسة وأنه لدى افتتاحها تسمع شهـادة كثير من الشـهود ولما كان اليـوم الثانى افتـتحت الجلسة بعـد الظهر وجلس القضـاة وأخذ فى تلاوة طلب المدعى العمـومى وقرار المجلس المشـتمل على الحكم على مصطفى البهلوان وحاجى محمد ومصطفى الجزايرلى وفخرى بك بأن لهم اليد فى قتل السلطان وعلى محمود باشا ونورى باشا وعلى بيك ونجيب بيك وعزت بيك

بأنهم شركاء فدافع عنهم المحامون، وقال بعضهم أمام هيئة المحكمة: إنهم يرفعون دعواهم أمام محكمة التميز، وقال البعض الآخر: إنهم يسلمون أمرهم لحلم ورحمة الذات السلطانية وكذلك طلب المحامى عن محمود باشا تخفيف الحكم عليه، ثم قام الأعضاء واختلوا برهة ثم عادوا وقرروا الحكم على سبعة من المتهمين بالقتل طبقا للمادة المائة وخمس عشرة من القانون العثمانى، وهم: مصطفى البهلوان وحاجى محمد ومصطفى الجزايرلى وفخرى بيك ومحمود باشا ونورى باشا وعلى بيك ونجيب بيك، وحكموا على سعيد بيك وعزت بيك بعشر سنين فى الأشغال الشاقة وكان هذا الحكم بموافقة جميع الآراء خلا الحكم على محمود باشا ونورى باشا فإنه كان بالأغلبية، ثم أخرجوا جميع المتهمين من قاعة الجلسة وعاد القضاة بعد ذلك فحكموا على مدحت باشا ولم يحضر بين القضاة سرورى أفندى فإنه قد رد نفسه عن الحكم لخلاف وقع بينه وبين مدحت عند مدافعته عن نفسه وبعد أن تقرر الحكم على مدحت استدعى أمام الهيئة فلما حضر تلى عليه طلب المدعى العمومى القاضى بقتله لاشتراكه فى مقتل السلطان عبد العزيز، ثم سأله الرئيس هل عندك شىء من الملحوظات تقوله لهيئة المحكمة؟ فقال: إن عندى كلاما طويلا فى طريقة المحاكمة والسير الذى سارت به، فأجابه الرئيس بأن هذا ليس له فى هذه الهيئة من محل وأمره بالسكوت فقام شهرى أفندى المحامى عن مدحت باشا وقال: إن موكلى مدحت باشا يطلب استئناف الدعوى فقام القضاة واختلوا مليا ثم عادوا وحكموا باتحاد الآراء بالقتل لاشتراكه فى قتل السلطان عبد العزيز، وبعد أن تلى عليه الحكم قال له الرئيس: إنه لابد من تقديم تقرير الاستئناف فى ظرف ثمانية أيام، فلما شاع الحكم على مدحت باشا بالقتل اندفع أصحاب صحف الأخبار الإنجليزية يهوّلون ويهددون ويرمون رجال السلطنة العثمانية بالعسف والجور وقام أحد خطباء الإنجليز يطلب من حكومته باسم الإنسانية وبشرف الأمة الإنجليزية التداخل فى أمر استبدال الحكم على مدحت بحكم آخر لا يضر بحياته التى هى ثمينة عندهم وجعل يبالغ فى الإطراء ويعدد مناقب مدحت وماله من الأيادى البيضاء على الدولة الإنجليزية فرد عليه أحد رجال السياسة وقال متهكما: خفف عنك ياصاح ولا تجزع، فإن رجال حكومتنا عافاهم الله لم ينجلوا بأن أنفذوا إلى دوفرين سفيرنا فى دار السلطنة العثمانية بالوساطة فى استصدار فرمان من السلطان بالعفو عن مدحت ومحمود جلال الدين ونورى باشا فإنهم قد دافعوا كثيراً عن السياسة الإنجليزية وعززوا جانبها بل أخلصوا لها الخدمة يوم كانوا قابضين على زمام الحكومة لا سيما مدحت، قال:

ولا إخالك تنكر على القول بأن قومك الإنجليز أصلح الله حالهم يحبون مدحت حبهم لأنفسهم ولم يتركوه يوم أنزله السلطان من مسند الصدارة بل أعمل سفيركم هناك الجهد حتى ولاه على الشام، وكم شدد يومها وهدد وأرعد وأزبد ونادى بالويل والثبور ولو لم يقدر الله بسقوط الحزب المحافظ الذى كان قابضا على زمام الحكم على بلادك يومئذ لأرانا من دسائسه فى تلك الأصقاع عجائب غرائب بل المبكى والمضحك فتأمل عافاك الله واحكم إن كنت من المنصفين . اهـ.

ورفع مدحت باشا إلى أمير المؤمنين بعد الحكم عليه بالقتل قصة يقول فيها: إنى وإن كنت قد عملت على خلع بيعة السلطان عبد العزيز عندما ظهرت منه الرغبة فى عزل الوزراء وتسليم البلاد والأمة وإدخال جيش روسى فى دار الخلافة الإسلامية ولكنى لم أعمل على موته ولم أشترك فى ذنب سفك دمه ولم أوافق قومه إلا على خلع بيعته وتنزيله والله ورسوله على ما أقول شهيدان، فلم يلتفت السلطان إلى كلامه ولم يسمح بتخفيف العقوبة عليه قال بعض كتاب الأخبار: وقد نسب أصحاب صحف أخبار الإنجليز ما وقع لقاتلى السلطان عبد العزيز من الشدة ثم الحكم عليهم بهاته العقوبات إلى دسائس الروس واتساع كلمتهم فى دار السلطنة العثمانية فتحرك لذلك خواطر العامة والخاصة من الإنجليز وقاموا وقعدوا وطلبوا منع تنفيذ الأحكام على مدحت ورفقائه كأنهم إنجليز أولاد إنجليز، ثم قام خطباؤهم فى دار ندوتهم ينادون واتمدّناه وإنسانيتاه وامرحمتاه فوقعت عند ذلك بينهم ضجة حمل فيها أهل اليمين على أهل اليسار وعلت الضوضاء وارتفعت الأصوات وطال الجدال واشتد اللجاج واحتدم النكال فلم يخرجوا وقبعاتهم على رؤوسهم إلا وهم على بينة مما سيكون ولم يمض على ذلك إلا القليل حتى شاع الخبر بصدور فرمان السلطان باستبدال حكم القتل على مدحت ورفقائه بالنفى والتبعيد إلى الأقطار الحجازية، فلما كان تاسع رمضان سنة ثلاث وتسعين عبرت من ترعة السويس سفينة عثمانية حربية اسمها (عز الدين) تحمل مدحت ورفقاءه قاصدة جدة ولم ترس بالمينا بل دخلت من البوغاز وسارت إلى السويس مسرعة فأغضب قيصر الروس هذا الأمر وعلم أنه من أفاعيل دولة الإنجليز فأضمر لها السوء وعمد إلى معاكساتها فى أواسط آسيا وتنكيس أعلامها فى جوف الهند وعلى حدود الصين فسير عسكره المنصور إلى قلب التركمان تك وحدود الأفغان التى هى حصن الإنجليز الأكبر الحائل بين غارات الروس وبين هندهم، ففعل ذلك الجيش فعاله وتغلغل فى جوف البلاد وأزهب

وهدد وأخضع الخصوم وذلل الصعاب فكادت قلوب الإنجليز تطير خوفا وقد أعيت كبارهم الحيل وضاقت عليهم المذاهب فكادوا يسقطون فى أمرهم، وبينما كان القيصر ينظر إلى ظفر جنوده فى تلك الأصقاع نظرة الساهر على الأخذ بالثأر إذ تحركت طوائف الناهليست وهم طائفة العديميين، وقيل: حركتهم أيدى الإنجليز وتآمروا على قتله فدبروا له المكايد وتبعوه أينما سار بالآلات الجهنمية قصد إذهاب روحه فتحفظ وبث العيون والأرصاد وأكثر من الحراس والرقباء وبالغ فى تعقب هذه العصابة الوحشية واشتد عليها شدة بالغة حتى خيل له أنه فى مأمن من شرها، واتفق أنه ذهب بعد ظهر الحادى عشر ربيع الآخر سنة تسع وتسعين إلى مشاهدة معرض الجنود على عادته فبينما هو عائد إلى مقره ألقى عليه نفر من هذه العصابة قنبلة محشوّة بالمواد الالتهابية فسقطت القنبلة تحت عجلات عربته وانفجرت انفجارا هائلا فقتلت وجرحت بعضا ممن كان معه فأسرع هو ونزل من العربة فراراً ولكن لم تصل أقدامه إلى الأرض حتى سقطت بين رجليه قنبلة أخرى فخلعتهما معا فسقط وأغمى عليه لا يبدى ولا يعيد فأسرع الجند فى نقله إلى السراى وهو لا ينطق بكلمة ولبث ثلاث ساعات ونصفا فى نزع شديد حتى فارق الحياة وقد مات أيضاً بعض من كانوا معه وبذل أصحاب الشرطة جهد المجتهد فى القبض على مرتكبى هذه الجناية العظيمة فكانوا أربعة ثلاثة رجال وامرأة وهم دوساكوف وسكبالابوف ومكاوف وصوفيا برسوكا وألقتهم فى السجن مكبلين بالحديد ونادوا بولى العهد قيصرا على الروس وبايعوه البيعة العامة ثم دفنوا القيصر فى مشهد وأخذوا فى محاكمة أولئك القاتلين فحكم عليهم جميعاً بالقتل، ولم يكن موت هؤلاء الطغاة يغنى عن موت السلطان عبد العزيز والقيصر إسكندر الثانى اللذين ذهبا شهيدى التحالف والاتفاق على الضرب على يد أصحاب السياسة الإنجليزية رحمهما الله تعالى فهو الغفور التواب.

(مطلب)

رجوع دولة الإنجليز إلى تهديد الخديوى إسماعيل

وعادت دولة الإنجليز وكأنها قد تفرغت إلى تهديد الخديوى إسماعيل وإرغامه على وفاء سائر الديون الصغيرة التى حكمت بها المحاكم المختلطة كما تقدم القول وأنفذت إلى قونصلها المستر فيفيان أن يشدد فى طلب ذلك والخديوى يحاول ويطاول، واتفق فى هذه الأثناء أن تغيرت هيئة حكومة الفرنسيس بهيئة أخرى كان

فيها المسيو وادنجتون وزيرا للأمور الخارجية فنظر هذا المسيو إلى ما هو واقع من الخديوى بعين القلا والرجل من دم إنجليزى أقام سفيرا للفرنسيس بدار الإنجليز أعواماً كثيرة فيصح أن يقال عنه أنه إنكليزى بحت فكتب فى صفر سنة خمس وتسعين إلى وزير الإنجليز يعلمه بما آلت إليه الحالة بمصر ويستفزه إلى الأخذ بالأحوط وتدارك الخطر قبل استفحاله وما زالت المخابرة بين الفريقين متتابعة حتى تقررت القاعدة بينهما على تشكيل هيئة باسم مجلس التفتيش يكون من اختصاصها تنقيب جميع الطرق التى اتخذت للنظر فى حالة خزينة البلاد وأرباب الديون وكلموا الخديوى فى ذلك وما زالوا به حتى رسم فى سادس عشرى ربيع الأول سنة خمس وتسعين أى فى غاية مارس سنة ثمان وسبعين ميلادية بتشكيل ذلك المجلس برياسة المسيو فرديننددلبس فاتح خليج السويس ووكالة أحد رجال الإنجليز المسمى ريفرس ويلصون فلم يتسن للرئيس الحضور فى جلسات المجلس لأسباب سياسية لم نصل إلى معرفة الصحيح منها فأخذ المجلس فى العمل تحت رياسة ويلصون الإنجليزى وجعل يبالغ فى البحث والتنقيب وكان من حدوده بمقتضى ما رسم به الخديوى أن يطلب من شاء من موظفى الحكومة وكبار رجال الدولة ويسألهم فيما يرى لزوم سؤالهم فيه.

(مطلب)

امتناع الوزير شريف باشا من الحضور أمام هيئة التحقيق وخلعه لنفسه من المنصب

وكان الوزير محمد شريف باشا فى هذا الحين فى منصب وزارتى الخارجية والحقانية فسير إليه ويلصون يستدعيه يوما لسؤاله أمام المجلس عن شىء يريده فاستعظم الوزير هذا الأمر وأكبره وامتنع من الذهاب فكبر ذلك على ويلصون وكان مصطفى رياض باشا قد أقامه الخديو وكيلا ثانياً لهيئة ذلك المجلس وكان بينه وبين الوزير شريف باشا بغض ونفور مستحكم فلما امتنع الوزير من الحضور أمام هيئة المجلس، قيل إن مصطفى رياض باشا جعل يزين إلى ويلصون الإصرار على طلب الوزير وأن يحاسبه على الذرة والبرة فشدد ويلصون فى الطلب ومال على الوزير شريف باشا، وقال: لابد من حضوره فصمم الوزير على الامتناع، وقال: لا سبيل إلى ذلك، وطال بين الفريقين الأخذ والرد وتداخل فى الأمر قناصل الدول واشتدت

الأزمة واتسع الخرق فلم يسع الوزير إلا التخلى عن منصبه فاعتزله ولم يرض بالذل والصغار، فرسم الخديو بإقامة مصطفى رياض باشا بدلا منه بإيعاز من ويلصون فتعطلت أعمال المجلس أياماً وأحست دولة الإنجليز بما وراء ذلك من الخيبة والفشل فرسمت بإقامة ويلصون رئيسا فأجابها الخديو إلى ذلك وأناب عن هيئة الحكومة فى ذلك المجلس بطرس بيك غالى وهو يومئذ كاتم أسرار وزارة الحقانية فبالغ ويلصون فى البحث والتنقيب حتى أتى على جميع الأمور من أبوابها وكتبوا بما علموه من حالة البلاد والخزينة والديون محضرا ذكروا فيه أمورا كثيرة كان أهم ما فيها أن جميع ما اتخذ من التحوّطات قبلا وما تقرر يومئذ من القواعد الكافلة بحسن سير الخزينة وراحة أهل البلاد وطمأنينة أصحاب الديون لا حقيقة لها ألبتة وماهى إلا من قبيل النقش على الماء وأن لا سبيل إلا إلى تصفية جميع حسابات الخزينة وتقرير قاعدة لها ثابتة الأركان لا يعتورها شيء من الزور والبهتان وكلموا الخديوى فى ذلك فأظهر غاية الميل ومزيد الرغبة وسهل لهم الأمر ما استطاع وعمل بما أشاروا به جهد الاستطاعة.

(مطلب)

تشكيل الوزارة المختلطة وخلع الوزراء المصريين

فلما كان شهر شعبان سنة ١٢٩٥ خمس وتسعين ومائتين وألف هجرية أى شهر أغسطس سنة ثمان وسبعين وثمانمائة وألف ميلادية أنفذت دولة الإنجليز إلى الخديو بخلع الوزراء وتنزيلهم كافة عن مناصبهم فخلعهم طائعاً فرسمت له بتأليف وزارة أخرى من ويلصون رجلها ودى بلينار الفرنساوى الذى كان ممن جاءوا للنظر فى أمر ديون الخزينة وآخرين من أهل البلاد وأن يكون رئيس هاته الوزارة الوزير نوبار باشا فأجابها إلى ذلك، وتم تشكيل الوزارة على ما أرادت فكان ويلصون الإنجليزى لوزارة المالية ودى بلينار الفرنسيى للأشغال العمومية ومصطفى رياض باشا للداخلية وأخذت على الخديو العهود بأن لا يأتى عملا إلا بمشورة وزرائه ولا يبدى رأيا إلا بعد رأيهم أسوة الممالك الدستورية، وصادق أصحاب سياسة الفرنسيس والإنجليز على هذه العهود وأنزلوها منزلة عالية وفرح الناس بها وظنوا سكون الحال وزوال الشدة وانحلال عقدة ذلك الضيق، وأعقب ذلك أن استدانت الخزينة قرضا جديدا قدره ثمانية آلاف ألف من الذهب من أحد كبار أغنياء الإنجليز المسمى روشيلد وجعلت جميع إقطاعات الخديو وإقطاعات عائلته على اختلافها رهنا

لوفاء هذا القرض وعقدوا بذلك عقدا كان من شروطه أن أنشئوا ديوانا مخصوصا فتولى رجاله إدارة عمل تلك الإقطاعات وجمع أموالها وتدبير شئونها وكانوا ثلاثة إنجليزى وفرنساوى ومصرى، واشترطت دولتا الإنجليز والفرنسيس عدم جواز تنزيل أحدهم من منصبه إلا بعد رضاهما بذلك وخصتهم ببعض الحقوق والامتيازات التى تجعلهم فى مأمن من كل حادث ولم تقفا عند هذا الحد بل طلبتا أيضاً إقامة اثنين مراقبين يكون من اختصاصهما المراقبة على جميع أعمال الهيئة الحاكمة ومنع وقوع ما لا يلائم منها مصلحة أصحاب الديون وخزينة البلاد،وراسلت دولة الإنجليز الخديو فى ذلك على يد المستر فيفيان قنصلها الجنرال بمصر وأظهرت للخديو غاية التجمل والملاطفة فأبى الخديو عليها ذلك فألح عليه القونصل وأكثر من الإلحاح والترداد على مقر الخديو فأكبر الخديو هذا الأمر وأحزنه، وقال للقونصل يوما: ما هذا الإلحاح وقد كنا والإنجليز يشيرون علينا إشارة الصاحب الودود فأصبحنا وهم يتهددوننا تهديد العدوّ الكنود فجعل القونصل يطاوله وهو يراوغه ويحاوله.

وسار الوزراء فى أعمالهم سيرا حثيثا وأظهر ويلصون همة ورغبة زائدة فى تخفيف المصارفات عن عاتق أهل البلاد والتزام جانب الاقتصاد والحزم جهد الاستطاعة، قيل: وكلم الخديوى فى ذلك فاستحسنه وحبب إليه العمل به وقد كانت الخزينة إلى هذا الحين فارغة والجماكى معطلة لا سيما مرتبات سائر الجند والعسكر وعلوفات كبارهم، وقد مضى عليهم زهاء عشرين شهرا لا يحصلون على فضة ولا نحاس فعمد ويلصون عند ذلك إلى الإتيان على أوجه الاقتصاد من أبوابها فحسب ودقق وصرف من الجند والعسكر زهاء الألفين إلى أوطانهم تخفيفاً على الخزينة وجعل ينظر فى جميع مصروفاتهم من أوجهها الحقيقية فساء ذلك أمراء الجند وكبارهم واستعظموه وشكوا منه إلى مقدمهم، وتزاحموا على أبواب ويلصون والوزير نوبار باشا يطلبون صرف جماكيهم الموقوفة ومرتباتهم المتأخرة وهما يعدانهم ويهوّنان عليهم فكانوا لا يزدادون إلا إلحاحا وتشديدا فى الطلب.

(مطلب)

تحزب طوائف الضباط وإهانتهم للوزير نوبار باشا ومن معه

فلما كان خامس عشرى صفر سنة ست وتسعين ومائتين وألف هجرية أى ثامن عشر فبراير سنة تسع وسبعين وثمانمائة وألف ميلادية اجتمع نيف وأربعمائة من صغار الضباط، وساروا وهم مزججون بالسلاح ومروا برحبة عابدين حتى أتوا شارع

الدواوين فى نحو الظهر وتفرقوا فى أنحائه يراقبون مرور ويلصون والوزير نوبار باشا فلما مرت بهم عربة الوزير وهو بها وعلى يمينه كمال بك كاتب سر المجلس انقض عليها جماعة منهم وأمسكوا بلجم الخيل وتقدم جماعة آخرون وأمسكوا بأطواق الوزير وصاحوا فى وجهه لا يحل لك ياظالم أن تعيش رغدا متمتعا ونحن نموت جوعا أعطنا جماكينا الساعة، فجعل يلاطفهم ويكلمهم بأحسن الكلام وقد حث سائق العربة الخيل بضرب السوط يريد الفرار بمولاه فترامح خلفه جميع الضباط حتى أوقفوه وأخذوا بلجم الخيل وعادوا به إلى مقر الدواوين واتفق خروج ويلصون ولم يشعر به أحد من المتآمرين فلما علموا بخروجه أكثروا من الصياح والجلبة وعلت بينهم الضوضاء وترامح الناس فأغلق أصحاب البيوت القريبة أبوابهم وغص مقر الدواوين بالضباط والجند وأصحاب الوظائف وأصعدوا الوزير نوبار باشا إلى الديوان ووقفوا على الأبواب يحرسونها، ووصل الخبر بما جرى إلى مقر الخديو فجاء وحوله طوائف الحرس وجميع بطانته ورجال ديوانه الخاص وعبد القادر باشا محافظ المدينة يومئذ وشق من وسط الزحام حتى دخل حوش الديوان واقتحم الدرج وهو ساكن القلب هادىء اللب كأن لا خوف عليه فلما رآه الضباط والجند صاحوا بأصوات الدعاء والتهليل فغاب برهة جمع فيها هيئة مجلس الوزراء وكلمهم فى الأمر ثم أشرف على الجمع من الشباك وخاطبهم بالحسنى وأكثر من ملاطفتهم ووعدهم بصرف جميع جماكيهم وسائر مرتباتهم المتأخرة إن هم عادوا إلى منازلهم، فصاحوا لا سبيل إلى ذلك فالموت بالنار خير لنا من الموت جوعا فزاد فى ملاطفتهم فزادوهم لجاجا وحجاجا فغاب عنهم برهة ثم عاد وكلمهم فلم ينصرفوا، فنزل وحوله بطانته وحاشيته وحرسه وأمر فتقدم إلى جماعة الضباط نفر من الحجاب والحراس ليفرقوهم فمانعوا وأطلقوا عدة طلقات نارية فكثر عند ذلك الضجيج وعلا الصياح والتحم الجمع واشتدت الضوضاء وتماسك البعض بالبعض واشتد اللكم والضرب فأسرع الخديوى وركب عربته وخلفه أصحابه وأتباعه وسار إلى مقره وجمع إليه هيئة الوزراء ثانية وبينهم بعض قناصل الدول وكلمهم فى الأمر طويلا وبالغ فى الشكوى إلى أن قال للقناصل: قد صرت عاجزا عن دره كل ما يحدث فى داخلية البلاد وأخشى من انتشار الفتنة واتساع نطاق الثورة إن لم تعد إلىّ السلطة التي سلبتها منى هيئة الوزارة الجديدة وإنى لا أرى من المناسب قط بعد وقوع ما وقع اليوم بقاء الوزير نوبار باشا

قابضـا على زمام الحكومة وقـد رأيتم ظهور الفتنة وتحـزب طوائف الجند على ما لم يسبق له مـثال قبل فاسـتعظم القناصل هذا الأمـر ولم يبق عند أحدهم شك فى أن الخديو هو الذى هيـأ هذه الفتنة وأضرم نارها لغـاية فى نفسه واشتـد الخوف بالناس وكثر تطيرهم والخديو يشدد فى طلب تنزيل الوزراء عن مناصبهم ويطعن فى شخص ويلصون الإنجليزى ويرميه ببغض البلاد وأهلها وأنه عامل على تخريبها وكثر اجتماع العلماء وكبار المشايخ بالجامع الأزهر وهم يتكلمون فيما فعله ويلصون والوزير نوبار باشا من الإضرار بالبلاد ويشكون من تغلب النصرانيـة على حدود الشريعة المحمدية المطهرة وتقدم الشـيخ البكرى بالأصالة عن نفسه وبالوكالة عن زهاء سبـعين ألفا من الدراويش هم أرباب الأشـاير والطرق ومـشايخ السـجاجـيـد وأصحـاب العكاكيـز والمتعـممين يشكون مما أصـاب البلاد وأهلهـا من سوء فعال ويـلصون والوزير نوبار باشا، وتكلم مع الخديوى فى ذلك وأكثرمن التـرداد على مقره. قال بعض الكتاب: فكان إذا اجتـمع عند الخديو قناصل الدول أو بعض كبار الأجـانب أرسل فى الحال إلى الشيخ البكرى فيـدخل على الخديو فيقوم له الخديو إجـلالا ويعظمه ويدنيه من مجلسه ويخاطبه بغاية التجلة والتكريم مع الرهبة والوقار، فإذا خرج نظر الخديو إلى الحاضرين، وقـال: هذا هو كبير الإسـلام وشيخ مشايخ الدراويش وإن فى خـدمته وتحت أمره وإشارته سبعين ألف من الدراويش وهـو اليوم يطالبنى بحقوق الأمة فلا أدرى ما ستكون عـاقبة الأمر مـعه، ونادى بعض العلماء على منابر الجوامع بـتكفير مصطفى رياض باشا ومروقه عن جادة الحق وتعضـيده للنصرانية وأهلها، ثم اجتمع نواب البلاد وجعلوا يطعنون فيما بدا من ويـلصون وينكرون عليه ما قاله من ضعف حال البلاد وإمحال موارد الإيراد وذهاب ما فى خزينتها من الأموال وأرسل صاحب شرطة القاهرة إلى مصطفى رياض باشا يقـول: دبر للخلاص أمرا فإن البغض إليك فى ازدياد ولذلك فإنى غيـر مسئول عمـا سيحيق بك إذا لم تغـادر البلاد فإنى أرى الخطب شديد والخلاص بعـيد فهال مصطفى رياض باشا هذا الكـلام وأزعجه جدا، ورأى الوزير نوبار بعد ذلك استحالة بقائه فـى منصب الوزارة فخلع نفسه وتبعه فى ذلك مصطفى رياض باشا وبقى ويلصون الإنجليزى ودى بلينار الفرنـسيس فى القاهرة ينتظران الأمر من دولتـيهما، وفـر مصطفى رياض باشا من وجـه الخديو إلى الديار الأورباوية خوفا من البطش به.

(مطلب)

رجوع وزارة الوزير شريف باشا بعد وزارة الأمير محمد توفيق وما كان من وراء ذلك

ولما تم تنزيل الوزير نوبار باشا ورفاقه وتخليهم عن المناصب عمد الخديو إلى تشكيل وزارة يرأسها أكبر أولاده الأمير محمد توفيق وسير الخبر بذلك إلى دولتى الفرنسيس والإنجليز فوافقتاه على كره واشترطتا أنه إن حدث أىّ حادث بعد وقوع ما وقع فلا لوم إلا على شخص الخديو فقبل الخديو ذلك ولكن لم تطل أيام رياسة الأمير محمد توفيق وزالت لاشتداد الأزمة واستحكام حلقات الضيق بإمحال الخزينة فخلع رابع عشرى ربيع الآخر سنة ست وتسعين ومائتين وألف هجرية أى سابع أبريل سنة تسع وسبعين وثمانمائة وألف ميلادية وأقيم بدله الوزير محمد شريف باشا قال بعض الكتاب: وقد كان لم يصل لأحد من الوزراء علم بهذا التغيير فلم يشعر الواحد منهم إلا وقد دخل عليه من خلفه وقبض على زمام الأعمال فتنحوا عن المراكز وهم صاغرون وطيروا الخبر بذلك إلى الآفاق، فلما علمت دولتا الإنجليز والفرنسيس بما جرى خلافاً للعهد هالهما الأمر وحرك منهما ساكنا فأوعزتا إلى وكيليهما بالقاهرة أن يكلما الخديو ويحذراه سوء العاقبة فلم يلتفت لقولهما وأطلق للنفس عنان هواها وأمر فزيد فى عدد العساكر والأجناد إلى ستين ألفا وأكثر من جمع الأسلحة وآلات الحرب وبالغ فى التأهب والاستعداد، قيل وأوعز إلى بعض أصحاب صحف الأخبار فنقلوا خبر ذلك محشوا بالغلو والمبالغة وصاحوا بالثارات الدائنين بالثارات حاملى السندات، ولم يقف عند هذا الحد بل رسم أيضاً فى تاسع عشرى ربيع الآخر سنة ست وتسعين بإبطال جميع النظامات والتعديلات التى كانت تقررت للخزينة سنة ست وسبعين وثمانمائة وألف ميلادية وعدم اعتبارها لعدم ملاءمتها لحالة البلاد وعادات أهلها فتجرد عندئذ أصحاب سياستى الفرنسيس والإنجليز للذب والدفاع وعمدوا إلى الاستعانة بالسلطان وأوعزوا إلى سفيريهم بدار السلطنة أن يبلغا السلطان حديث ما جرى ويستطلعا أفكاره وكلموا فى ذلك أيضاً بسمارك داهية السياسة وكبير وزراء الألمان فسير بسمارك إلى دار السلطنة فى طلب خلع الخديو تلافيا للخطر قبل استفحاله فاشتدت عزائم الإنجليز حينئذ وتقدموا إلى السلطان فى تولية الأمير محمد توفيق مسند الخديوية وظنوا أنهم إن فازوا بذلك كانوا أقوى جميع الدول حجة على الأمير وأبيضهن يدا فلا يصح له بعد ذلك أن

ينقض لهم كلمة أو يخالف لهم إشارة، وأحس الخديو إسماعيل بذلك فبث العيون في دار السلطنة وأكثر من البذل والعطاء وهادى رجال الدولة وكبار المابين فأتت إليه الأخبار بعضها يناقض بعضا وطال الأخذ والردّ بين سفراء الإنجليز والفرنسيس وصدر الدولة واشتدت الأزمة في سائر البلاد واستحكمت حلقات الضيق على أهلها وسيرت دولة الفرنسيس إلى مصر وكيلا لها اسمه تريكو وأوعزت إليه أن يعمل على خلع الخديو بكل ما وصلت إليه حيلته فزاد هذا الرجل الأمر تعقيدا وخبالا وكان يدخل على الخديو تارة يظهر التحقير والاستخفاف وطورا بالإرهاب والتهويل ويطلب منه التخلى عن منصب الخديوية وكان قونصل الإنجليز في ذلك الحين أروغ من ثعلب يظهر الرفق آونة وآونة يظهر الوعيد والخديو يجدّ في استمالة رجال السلطنة العثمانية وكبار الدولة ويتقرب منهم كي لا تتمكن الدول الثلاث من خلعه، وبينما هو على هذه الحال إذ ورد عليه الخبر من إبراهام باشا كابوكخياه بدار السعادة بأن السلطان أبى على الدول خلعه ففرح بذلك فرحا لا يوصف وطير الخبر إلى الآفاق ولكن لم يمض بياض يومه حتى وردت الأخبار في سواد ليله تنبىء بأنه إن لم يتنازل عن عرشه لولده الأمير محمد توفيق طائعا سلبه إياه الأمير عبد الحليم بن محمد على باشا كرها فاضطرب أيّ اضطراب وكاد يسقط في يده وجاء الخبر من سفير الفرنسيس بدار السلطنة العثمانية إلى تريكوا بأن يلح على الخديو بالتعجيل في خلع نفسه والتنازل لولده إذ صارت تولية الأمير عبد الحليم أمرا مقضيا وشاع الخبر بذلك في تلك الليلة فاشتد الخوف بالناس وكثر تحدثهم فيه وجمع إليه الخديو كبار قومه ورجال أبيه إبراهيم باشا وطوائف المشايخ والعلماء والأعيان ونواب الأمة وتناجوا في الأمر طويلا فلم يستقروا على أمر من الأمور واشتد قلق الخديو وفارقته تلك الحمية وذلك الثبات فلما كانت ليلة الخامس من رجب أى ليلة خامس عشر جونيو سار قونصلا الفرنسيس والإنجليز إلى دار الوزير محمد شريف باشا وأعلماه بخبر ما تقرر في دار السلطنة من خلع الخديو وتولية ولده الأمير محمد توفيق وحدثاه بعزم السلطان على إعادة حقوق الوراثة إلى ذرية محمد على باشا وتولية الأمير عبد الحليم إن أصر الخديو على الإباءة والعناد، ثم قاموا جميعاً وقد مضى من الليل أكثره وساروا إلى مقر الخديو بعابدين وطلبوا الاجتماع به فمانع في ذلك كبير الخصيان، وقال: كيف أفتح لكم الأبواب وقد مضى من الليل أكثره فراجعه الوزير فلم يقبل فصاح به، وقال: ويحك أنا رئيس الوزراء وهؤلاء وكلاء الدول الكبرى وقد أتينا لأمر لا تدرك أنت أهميته.

(مطلب)

مجئ الأمر السلطانى بخلع الخديوى إسماعيل وتولية ولده الأمير محمد توفيق وما كان بعد ذلك

فبينما هم على هذه الحال مع كبير الخصيان إذ نادى مناد من وراء الحجاب افتح لهم عاجلا ياغلام الأبواب فصعد الوزير ومن معه ولاقاهم الخديو بلباس النوم فكلموه طويلاً فى أمر تخليه عن المنصب طوعا قبل تنزيله كرها وألح الوزير عليه فى ذلك فأعلمهم الخديو بالخبر الذى جاءه من كابوتخداه بدار السلطنة وطال بينهم وبينه الجدال واشتد اللجاج فقال الخديو: لا أتنازل حتى يأتينى أمر السلطان بذلك وقد كان يظن طول الأجل وبلوغ نهاية الأمل فخرجوا من عنده وقد كتب تريكو إلى سفير الفرنسيس بدار السلطنة يخبره بما قاله الخديو فلم تمض الساعة الثانية عشرة من تلك الليلة حتى ورد إلى خيرى باشا المهردار مرسوم السلطان على جناح البرق خطابا إلى الخديو بخلعه من منصب الخديوية فاضطرب خيرى باشا ولم يجسر على إخبار الخديو بخبره وظل باهتا حائرا فدخل عليه الوزير محمد شريف باشا فأعلمه خيرى باشا بالخبر، فقال: ولماذا لم ترفعه لمولاك؟ فقال: لا أجسر على الدخول عليه الآن، فقال: قم وادخل معى فقام ودخلا معا وفى يد خيرى باشا ورقة الخبر فلما رآها الخديو قال: ما هذا الذى أتيتمانى به الساعة، فقال الوزير: هو خبر ورد من دار السلطنة فمدّ الخديو يده وأخذه ونظر إلى ما فيه فاضطرب وعلا وجهه الاصفرار ولبث برهة لا ينطق ببنت شفة ثم نظر إلى الوزير وقال: علىّ بولدى توفيق الساعة، وكان لما كثر اللغط بين الناس وتحدثوا فى أمر خلع الخديو وفيما هو جار بين الدول ودار السلطنة العثمانية فى شأن ذلك وكان الأمير محمد توفيق يومئذ نازلاً بسراى الإسماعيلية الكائنة عند قصر الدبارة كثر ذهاب بعض رجال الدولة وكبار الأمة والمشايخ إليه ورسم بنقل الأمير محمد توفيق من سراى الإسماعيلية إلى سراى القبة بعين شمس فنقلوه مع نسائه وأولاده وأحاطت بمقره طوائف الجند فامتنع الناس عنه وبقى محجورا عليه حتى سير الخديو فى طلبه فى تلك الليلة فأتوا به إلى سراى الإسماعيلية وأوقفوا الحراس على بابه يمنعون من أراد الدخول عليه فسار إليه الوزير محمد شريف باشا وهنأه بالولاية وأركبه معه وحضر به إلى عابدين فلما مثل بين يدى أبيه قام له إجلالا، وهى أول مرة قام له، فتقدم الأمير وقبل يده فأذن له بالجلوس فجلس وهو ينظر إليه نظرة البائس الحزين، وقال له: يابنى لقد اقتضت

إرادة الله سبحانه وتعالى وإرادة مولانا وسلطاننا أن تكون أنت خديو البلاد فأوصيك يابني بإخوتك وسائر الآل برا واعلم أني سائر عنك آسف لـعجزى عن إزالـة جميع ما ستلقاه في أعمالك من المصاعب والمتاعب على أني واثق بحزمك فاتبع يابني رأى ذوى شوراك وعش سعيـداً لا كما عاش أبوك. فبكى الأمير توفـيق عند سماعه هذا الكلام وبكى سائر الحـاضرين وشاع الخبر في الـقاهرة ومصر القديمـة بخلع الخديو وولاية ولده الأمير محمد توفيق وطير الخبر بذلك إلى الآفاق وأخذ الوزير بيد الأمير وعاد به إلى مقره بالإسـماعيلية ثم تركه وعاد إلى عابدين فوجـد بها قناصل جميع الدول وبينهم تريكو الفرنسيـي فدخل الوزير على إسماعيل باشا وأعلمه بحضورهم فدعاهـم إليه وكلمهم في أمر تخليـه عن المنصب لولده الأمير توفـيق وفي ميله إلى العزلة ما بقي من أيامه وكان إلى هذه الساعـة لم يخطر على باله قط أنهم سيبعدونه عن البلاد ويخرجونه من أرض الفراعنة قـهـرا فتقـدم إليـه عـند ذلك تريكو وأعلمه بما وقع الاتفاق عليه من تبعيده عن أرض مصر وطلب منه الإسراع في جمع ما يشاء من متـاعه لينقلو إلى البلد التي يختـارها، قيل: فاصفـر لونه وتلجلج لسانه وعض على إصبعه ندما على ما بدا منه من التخلي عن المنصب قبل أن يستوثق لنفسه ونظر إلى تريكو وقـال: يعلم الله أن هذا التبـعيـد ما كـان لي في خلد، ثم جعل يمـانع وأغلظ على تريكو في القول وتجـافى في الرد فجعل الحاضرون يـلاطفونه ويهوّنون عليه ويحذرونه عاقبة العناد وما زالوا به حـتى عاد وطلب كثيراً من المطالب فأجابوه إلى جميعها.

ثم قال: أطلب مـائة ألف ذهبا للنفقـة وباخرة لخدمـتي وأن آخذ معي جـميع مقـتنياتي ومن يريد الخـروج معي من نسائي والجـوارى والحاشـية والأتباع وجـميع الأمتعة وأن أقيم في جزيرة أزمير إحـدى جزر البحر المتوسط فوافقوه على كل طلب وتساهلوا معـه جهد الاستطاعة، وقامت بشـأن ذلك المخابرات ما بين قناصل الدول بمصر والسـفراء بدار السلطنة والناس في القاهرة في خوف عظـيم يحسبون للعـاقبة ألف حساب.

(مطلب)

رحيل الخديو إسماعيل عن وطنه ومسقط رأسه وسكنه

وأخذ أتباعـه في نقل المتاع والصناديق من عابدين والجـيزة والجزيرة إلى بولاق الدكرور وطاف جماعـة الخصيان على بيوت الأمراء يخبـرونهم بالخبر وهم في بكاء

ونحيب فخرج النساء فى ذلك اليوم وتزاحمن على أبواب عابدين وهن باكيات مولولات رافعات أصوات النحيب، وخرج أيضاً نساء إسماعيل باشا وطفن ببعض البيوت الكبيرة مودّعات فكان يوماً شره قمطريرا، وفى اليوم الثانى الذى هو سادس رجب وسادس عشرى يونيو قبل شروق الشمس غصت رحبة عابدين بجماهير الناس والجند وأرباب الوظائف العالية والمأمورين والعلماء والمشايخ والأعيان وقاضى القضاة والمفتى وجميع أتباع إسماعيل باشا والعائشين فى نعمته، وقد علا الضجيج وكثرت الغوغاء وظلوا على هذه الحال إلى الساعة الثالثة عربى، فحضر الأمير توفيق ومعه سائر الوزراء وصعدوا إلى مقر إسماعيل باشا فلاقاهم والدمع ينحدر على خدّيه وحادثهم ساعة ثم حضر تريكو الفرنسيس يستحثه على الخروج فقام من فوره وهو لا يتكلم واقتحم الدرج وهو يتوكأ على كتف ولده الأمير توفيق وخلفه ولداه حسن وحسين والوزراء وقناصل الدول ورجال الديوان الخاص وكبار الجند وأصحاب الرتب العالية وغيرهم من طوائف الخدم والحشم، فلما انتهى إلى باب السراى وقف على آخر الدرج لحظة لطيفة كأنه يودّع الدار ومن فيها فتقدم إليه قاضى القضاة وقبل طرف أثوابه وهو ينتحب بالبكاء فانحنى إليه وقبل رأسه وارتفع صوته بالبكاء وتقدم إليه الوزير محمد شريف باشا وصافحه فتبعه فى ذلك بقية الوزراء وبكوا لبكائه، ثم نزل وركب عربة وركب معه ولده الأمير توفيق وركب فى عربة ثانية الأميران حسن وحسين فلما سارت به العربة وخلفه الجم الغفير صاح النساء من شبابيك السراى واشتد الصراخ من كل صوب وارتفعت أصوات الرجال أيضاً بالبكاء واشتد الهرج والمرج وترامح جماعة الخصيان والجاويشية حول عربته وهم يبكون ويلولون «على من تركتنا ياسيدنا» «من أوصيته بنا ياسيدنا» وكان إذا مرت عربته ببيت من بيوت جواريه فتحن الشبابيك وصحن صارخات بأعلى أصواتهن وكدن يلقين بأنفسهن وما زال سائرا والصراخ أمامه وخلفه متواصل حتى وصل إلى محطة السكة الحديد وكانوا قد أعدوا للقائه فريقا من الجند، فنزل الأمير توفيق وأمسك بيد أبيه وأنزله ومر من بين صفوف الجند فحيوه بالسلام وصدحت الموسيقى بالنشيد الخديوى فدخل إلى المحطة وقد أعدوا له قطارا مخصوصا فلما دنا منه التفت إلى ولده الأمير توفيق يريد أن يخاطبه فخنقه البكاء فضمه إلى صدره وقبله وبكى بكاء مرا فقبل الأمير يده ووقف بجانبه طارق العين والتفت إسماعيل باشا إلى الحاضرين ورفع صوته يريد أن يودّعهم فلم يقدر فصعد إلى عربة القطار فسار به إلى الإسكندرية وأنزله بالقبارى

حيث كان ينتظره زورق خصوصى فركب وسار بين صفوف الجند وأصوات المدافع من جميع القلاع والحصون وركب الباخرة المسماة المحروسة وقد كانت أعدت لركوبه وركب معه ولداه حسن وحسين وجميع نسائه وجواريه وأتباعه وغلمانه ومن رافقه من كبار الموظفين والباشاوات وقد سلم محافظ المدينة إلى ربان الباخرة مرسوما وأمره أن لا يفض ختامه حتى يبعد عن الإسكندرية فراسخ قيل: وهو يتضمن منع تنزيل إسماعيل باشا ومن معه بأى جهة من أملاك السلطنة العثمانية والمسير به إلى أى جهة شاءها من الممالك الأجنبية فلما أعلمه الربان بذلك قال: نسير إلى مدينة نابولى إحدى أعمال دولة إيطاليا فوصلها بعد أربعة أيام وألقت الباخرة مرساها وكان ملك إيطاليا قد رسم لحاكم المدينة بلقائه فلاقاه وبالغ فى إكرامه والاحتفال به فكانت ولايته سبع عشرة سنة وعشرين يوماً، ومن عجيب الاتفاق أنه تولاها فى شهر رجب واعتزلها فى شهر رجب فسبحان من لا زوال لملكه ولا إذلال لجبروته سبحانه فهو المعز المذل لا يهدى من عاداه ولا يضل من استهداه إنه التواب العظيم.

(مطلب)

ولاية الخديو محمد توفيق باشا

ولما كان يوم الخميس سابع رجب الفرد من السنة أى سنة ست وتسعين ومائتين وألف هجرية ورد من خير الدين باشا صدر الدولة يومئذ مرسوم على جناح البرق خطابا إلى الأمير محمد توفيق باشا يقول:

بناء على أن الخطة المصرية هى من الأجزاء المتممة لجسم أملاك السلطنة العثمانية وأن غاية صاحب الشوكة والاقتدار إنما هى تأمين أسباب الترقى وحفظ الأمن والعمارة فى الممالك - وبناء على أن الامتيازات والشرائط المخصوصة للخديوية المصرية مبنية على ما للحضرة الشاهانية من المقاصد المذكورة الخيرية - وبناء على تزايد أهمية ما حصل فى القطر المصرى الناشئة عما وقع فيه من المشكلات الداخلية والخارجية الفائقة العادة وجب تنازل والد جنابكم العالى إسماعيل باشا - ثم إنه بناء على ما اتصفت به ذاتكم السامية الأصافانيه من الرشد وحسن الروية وعلى ما ثبت لدى ملجا الخلافة العظمى من أن جنابكم الداورى ستوفقون إلى استحصال أسباب الأمنية والرفاهة لصنوف الأهالى وإدارة أمور المملكة على وفق إرادة الحضرة الشاهانية الملوكانية توجهت الإرادة العالية بتوجيه الخديوية الجليلة إلى عهدة استئهال صفانيتكم - وبناء على الفرمان العلى الشأن الذى سيصدر حسب العادة على مقتضى

الإرادة السنية السلطانية التى صار شرح حـدودها ـ وبناء على ما كتب بالتلغراف إلى حضرة المشار إليه إسماعيل باشـا من تخليه عن النظر فى أمور الحكومة وتفرغه منها بصورة وقوع انفصاله قد تحرر هذا التلغراف لكى يعلن حال وصوله للعلماء والأمراء والأعيان وأهل المملكة جمـيعاً وتباشر من بعده أمور الحكومة وهذا من الـتوجيهات الوجيهـة إلى أثر استحقـاق اصفانيتكم لتـجرى التنظيمات والتـرقيات مبـدأ وتقدمة ويصير تكرار الدعاء بتـوفيق الذات الجليلة الفخيمة السلطـانية ولذلك صارت المبادرة إلى إبداء لوازم التهنئة لحضرتكم أيها الخديوى المعظم والأمر والفرمان على كل حال لمن له الأمر. انتهى.

فلما كانت الساعة الثالثة صباحا من يوم الخميس صعد الخديوى إلى قلعة الجبل فى أبهة وكبكبة زائدة واحـتفل بقراءة هذا المرسوم احتفالا عظيـما ودخل عليه رجال الدولة وكبـار الحكومة والعلماء والمشايخ والرؤسـاء الروحانيون ووكلاء الـدول كافة وطوائف ضبـاط الجند فهنؤه وتزاحـمت ذوات البيوتات على بـاب والدته وأتت إليه رسائل التهـانى تباعا من كل صوب وفرح النـاس جميعا بولايتـه ودقت البشائر فى ذلك اليوم وأولمت والدته وأطعمت وكست بعض الفـقراء وتصدقت وكتب الخديوى إلى الصدر الأعظم يقول:

وصل ليد التبجيل تلغرافكم السامى الآمر أن فراغ محسوبكم والدى المحترم عن الحكومة المصرية وتوجيـه مقام الخديوية من محض جليل عواطف الحـضرة الملوكانية لعهـدة رقيقكم همـا من مقتـضى عالى إرادته السنية السلطانيـة وبالحقيـقة أن تكرم حضرة صاحب الخلافـة الأقدسى الذات بتوجيه مقام الخديوية لعـهدة هذا العبد كان دليلا على جليل المـبانى وركنا بالفخـر لا يعادله ثانى على وجود عـبدكم مشـمولا بفـيض النظر الملوكـانى وبما أننى مـهمـا بذلت من الوسع والمـقدرة لإيفـاء ذرة من التـشكرات المفروضـة على هذه العنايات والآلاء أرى ذاتى عـاجزا بالكليـة عن حق الإيفاء والأداء فلذا رفعت إلى مقر إجابة الرب القدير أكف الأدعية الخيرية ببقاء عمر وعافية وارتقـاء شأن وشوكة الحضرة السلطانيـة مشفوعة بتكرار الدعوات المـستجابة بدوام موفقية فخامتكم وبمقتضى منيف إرادة الجناب السلطانى السنية قد صعدت إلى قلعة مصر فى السـاعة العاشرة من يوم الخميس وهناك قد أعلنت الكيفـية لجميع من حضـر من العلماء والأشـراف والوجوه والأعـيان والرؤسـاء الروحانيـن والمأمورين الأجانب ولكافـة الأهالى وأطلقت المدافع، ثم أخذت بزمـام الحكومة وبدأت بظليل ظل الحضرة السنيـة الملوكانية فى مباشـرة أمور الخديوية عالم علم اليقـين أن سلامة

الخديوية المصرية وسعادتها وموفقية عبدكم الكاملة يحصلان بالثبات على قدم العبودية والتابعية للسلطنة السنية، وأن بقاءها لا يقوم إلا بالصداقة والإخلاص للذات السنية الملوكانية فأستمر على هذا الطريق وأصرف الوسع والقدرة بالاهتمام لاستحصال راحة ورفاهية أهالي مصر وسكانها والملتمس عرض ذلك لعالى أعتاب الحضرة السنية السلطانية متخذا ذلك وسيلة لاستبقاء توجيهات فخامتكم العلية وفى جميع الأحوال الإرادة والفرمان لحضرة من له الأمر. انتهى.

ولما استقر بالخديوى المنصب رسم إلى الوزير محمد شريف باشا بترتيب هيئة الوزارة فرتبها على ما شاء، ثم رسم بصرف عشرة آلاف من الجند إلى أوطانهم فصرفوا ولم يبق من الجند العامل سوى اثنى عشر ألفا فبدأت دلائل الإصلاح وظهرت إشارات الفلاح ففرح الناس فرحاً عظيمًا ورفع الكثير من الأجانب المستوطنين بالإسكندرية والقاهرة على اختلاف أجناسهم العرائض إلى وكلاء حكوماتهم بالإطراء والمدح للهيئة الحاكمة ويشكرون لها أخذها بأطراف الهمة وسيرها على سنن الإصلاح ويرجونهم فى منع تعرض أبناء جلدتهم إلى عمل الحكومة وترك تدبير أمور البلاد إلى أهلها قالوا: لأنهم أعلم الناس بها وأعرفهم بحاجاتها فاشتدت عند ذلك عزائم المصريين وعمد الوزير إلى الإتيان على جميع أوجه الإصلاح من أبوابها وبالغ فى ترتيب سائر الأمور وإحكام نظامها، وكان إلى هذا الحين لم يرد فرمان السلطان بالولاية وقد جاء الخبر بأنّ رجال السلطنة العثمانية وأهل المابين الهمايونى على طرفى نقيض فإن بعضهم يعمل على تقليل امتيازات مصر الممنوحة لها من أيام محمد على باشا الكبير وأن السلطان ميال إلى ذلك فخشى الوزير محمد شريف باشا العاقبة، وكلم وكيلى الفرنسيس والإنجليز فى الأمر فكتبا إلى كبيرى السياسة الإفرنسية والإنجليزية فى ذلك فكلما الباب العالى وشدّدا فى الطلب وطال الأخذ والردّ بين الفريقين وأظهر رجال السلطنة العثمانية حزما وثباتا فطاولوا وحاولوا واشتدت عزيمة أنصار الأمير عبد الحليم بن محمد على باشا وبذلوا النفيس فى استمالة رجال المابين فخاف سفيرا الفرنسيس والإنجليز بدار السلطنة شر عاقبة هذه الحال وأعملا الفكرة وأكثرا الترداد على الباب العالى وما زالا حتى تقررت القاعدة بينهما وبين الصدر الأعظم على تسيير سفير مخصوص ومعه فرمان الولاية فطيروا الخبر بذلك إلى القاهرة فزال عن الوزير محمد شريف باشا ما كان يخشاه.

(مطلب)

ورود فرمان الولاية على يدى فؤاد بك كاتب أول المابين

فلما كان ثالث عشرى شعبان سنة ست وتسعين ومائتين وألف هجرية وصلت إلى مدينة الإسكندرية الباخرة عز الدين السلطانية وعليها الأمير على فؤاد بيك كاتب أول المابين يحمل الفرمان المشار إليه فأنزل فى سراى رأس التين فى تلك الليلة وقدم إلى القاهرة فى رابع عشريه فأنزل مع حاشيته بقصر النزهة بشبرا من ضواحى القاهرة فزاره جميع الوزراء ورجال الحكومة وبالغوا فى إجلاله وتعظيمه وطيروا الخبر بقدومه وفى صبح الخميس خامس عشريه هرع الناس إلى قلعة الجبل وتقاطر إليها رجال الدولة وكبار المأمورين وهم بلباس الزينة والتشريف، وصعد كذلك وكلاء الدول والعلماء والرؤساء والأعيان واصطفت الجند تباعا من صليبة ابن طولون وطريق محمد على إلى ديوان السلطان الغورى بقلعة الجبل، وفى نحو الساعة الثانية صباحاً صعد الخديوى راكبا فى عربة التشريف وعلى يساره الوزير محمد شريف باشا وأمامه على فؤاد بيك رسول السلطان وبجانبه طلعت باشا كاتب الديوان الخديوى ومر من وسط الجند بين ضجيج الدعاء وأصوات البوق والنفيرَ ودويّ المدافع حتى صعد إلى الديوان فلما استقر به المقام تقدم مبعوث الخليفة بالفرمان وناوله إياه فأخذه وقبله ورفعه إلى رأسه ثم ناوله إلى طلعت باشا الكاتب فقبله هو أيضاً وارتقى مكانا مرتفعا أعدّ له وقرأ ما فيه بالرومية فكان بالعربية هكذا:

الدستور الأكرم والمعظم الخديوى الأفخم المحترم نظام العالم وناظم مناظم الأمم مدبر أمور الجمهور بالفكر الثاقب متمم مهام الأنام بالرأى الصائب ممهد بنيان الدولة والإقبال مشيد أركان السعادة والإجلال مرتب مراتب الخلافة الكبرى مكمل ناموس السلطنة العظمى المحفوف بصنوف عواطف الملك الأعلى خديوى مصر الحائز لرتبة الصدارة الجليلة فعلا الحامل لنيشاننا الهمايونى العثمانى المرصع ونيشاننا المرصع المجيدى وزيرى سمير المعالى «توفيق باشا» أدام الله إجلاله وضاعف اقتداره وإقباله إنه لدى وصول توقيعنا الهمايونى الرفيع يكون معلوما لكم أنه بناء على انفصال إسماعيل باشا خديوى مصر فى اليوم السادس من شهر رجب سنة ١٢٩٦ ست وتسعين ومائتين وألف هجرية وحسن خدامتكم وصداقتكم واستقامتكم لذاتنا الشاهانية ولمنافع دولتنا العلية ولما هو معلوم لدينا من أن لكم وقوفا ومعلومات بمصر منذ مدة وإصلاحها وجهنا إلى عهدتكم الخديوية المصرية المحدودة بالحدود القديمة

المعلومة مع الأراضى المنضمة إليها المعطاة إلى إدارة مصر توفيقا للقاعدة المتخذة بالفرمان العالى الصادر فى الثانى عشر من المحرم سنة ثلاث وثمانين ومائتين وألف هجرية المتضمن توجيه الخديوية المصرية إلى أكبر الأولاد ـ وحيث إنكم أكبر أولاد الباشا المشار إليه قد وجهت إلى عهدتكم الخديوية المصرية ولما كان تزايد عمران الخديوية المصرية وسعادتها وتأمين راحة كافة أهاليها وسكانها ورفاهيتهم هى من المواد المهمة لدينا ومن أجل مرغوبنا ومطلوبنا وقد ظهر أن بعض أحكام الفرمان العلى الشأن المبنى على تسهيل هذه المقاصد الخيرية المبين فيها الامتيازات الحائزة لها الخديوية المصرية قديما نشأت عنها الأحوال المشكلة الحاضرة المعلومة فلذلك صار تثبيت المواد المقتضى تبديلها وتعديلها وإصلاحها فما تقرر إجراؤه الآن هو المواد الآتية:

إن كافة إيرادات الخطة المذكورة يكون تحصيلها واستيفاؤها باسمنا الشاهانى وحيث إن أهالى مصر أيضاً من تبعة دولتنا العلية وأن الخديوية المصرية ملزومة بإدارة أمور المملكة والمالية والعدلية بشرط أن لا يقع فى حقهم أدنى ظلم ولا تعدّ فى وقت من الأوقات فخديوى مصر يكون مأذونا بوضع النظامات اللازمة الداخلية المتعلقة بهم وتأسيسها بصورة عادلة ـ وأيضا خديوى مصر مأذون بعقد وتجديد المشارطات مع مأمورى الدول الأجنبية بخصوص الجمرك والتجارة وكافة أمور المملكة الداخلية لأجل ترقى الحرف والصنائع والتجارة واتساعها ولأجل تسوية المعاملات السائرة التى بين الحكومة والأجانب بشرط عدم خلل معاهدات دولتنا العلية المؤسسة وفى حقوق متبوعية مصر إليها وإنما قبل إعلان الخديوية المشارطات التى تعقد مع الأجانب بهذه الصورة يصير تقديمها إلى بابنا العالى ـ وأيضاً يكون حائزا للتصرفات الكاملة فى أمور المالية لكنه لا يكون مأذونا بعقد استقراض من الآن فصاعدا بوجه من الوجوه وإنما يكون مأذونا بعقد استقراض بالاتفاق مع المداينين الحاضرين أو وكلائهم الذين يتعينون رسميا وهذا الاستقراض يكون منحصرا فى تسوية أحوال المالية الحاضرة ومخصوصاً بها ـ وحيث إن الامتيازات التى أعطيت إلى مصر هى جزء من حقوق دولتنا العلية الطبيعية التى خصت بها الخديوية وأودعت لديها لا يجوز لأى سبب أو وسيلة ترك هذه الامتيازات جميعها أو بعضها أو ترك قطعة أرض من الأراضى المصرية إلى الغير مطلقا ـ ويلزم تأدية مبلغ سبعمائة وخمسين ألف ليرة عثمانية الذى هو الويركو المقرر دفعه فى كل سنة فى أوانه ـ وكذلك جميع النقود التى تضرب فى مصر تكون باسمنا الشاهانى ولا يجوز جمع عساكر زيادة عن ثمانية

عشر ألفا لأن هذا القدر كاف لأمنية إيالة مصر الداخلية فى وقت الصلح وإنما حيث إن قوّة مصر البرية والبحرية مرتبة من أجل دولتنا يجوز أن يزاد مقدار العساكر بالصورة التى تستتب فيها حالة دولتنا العلية محاربة وتكون رايات البرية والبحرية والعلامات المميزة لرتب ضباطهم كرايات ونياشين عسكرنا الشاهانى ويباح لخديوى مصر أن يعطى الضباط البرية والبحرية إلى غاية رتبة أميرآلاى والملكية إلى الرتبة الثانية ولا يرخص لخديوى مصر أن ينشىء سفنا مدرّعة إلا بعد الإذن والحصول على رخصة صريحة قطعية إليه من دولتنا العلية - ومن اللزوم وقاية كافة الشروط السالفة الذكر واجتناب وقوع حركة تخالفها - وحيث صدرت إرادتنا السنية بإجراء المواد السابق ذكرها قد أصدرنا أمرنا هذا الجليل القدر والموشح أعلاه بخطنا الهمايونى وهو مرسل صحبة افتخار الأعالى والأعاظم وفخار الأكابر والأفاخم فؤاد بيك باشكاتب المابين الهمايونى ومن أعاظم دولتنا العلية الحائز والحامل للنياشين العثمانية والمجيدية ذات الشأن والشرف انتهى.

فلما أتم طلعت باشا قراءته نزل فارتقى مكانه الشيخ سليم عمر خطيب جامع قلعة الجبل ودعا ببعض الأدعية للخليفة ورجال دولته وللخديوى ورجاله ثم أطلقت المدافع تباعا وهتف الجند بأصوات الدعاء والتعظيم ودقوا طبولهم ونزل الخديوى بموكبه إلى مقر عابدين فانصرف الجميع وتزاحم الكبراء والأمراء ورجال الدولة فى ذلك اليوم على بابه وزار والدته نساء الأمراء والكبراء وزينت مصر والقاهرة ثلاث ليال وأطلقت المدافع من قلعة الجبل فى الأوقات الخمس وفرح الناس بذلك كثيراً.

(مطلب)

تخلى الوزير محمد شريف باشا عن منصب الرياسة وما اشتهر به بين الناس

وسار الخديوى فى الرعية سيرا حسنا وسلك بهم مسالك الدعة والرفق وفرّق الصدقات على المساكين والمنقطعين وبالغ فى الإحسان فلم يردّ سائلا ولم يمنع مستعطيا وتقدم إليه الوزير محمد شريف باشا فى رفع الخراج عن جميع الأراضى المأخوذة للمنافع العمومية فرسم برفعه وكان شيئاً كثيراً وتقدم إليه أيضاً فى طلب كثير من الأمور النافعة للبلاد وأهلها فأجابه إليها فتعلقت الآمال بالوزير واجتمعت على محبته القلوب وظل الحال على أحسن ما يكون من الهدوّ والطمأنينة ورواج

الأعمال أياما والناس في فرح واستبشار حتى خلع الوزير محمد شريف باشا نفسه من منصب الرئاسة وتخلى عنه طائعا في الثلاثين من شعبان فتطير الناس من ذلك وترامت ظنونهم إلى المرمى البعيد واختلفت الأقوال في الأسباب فمن قائل أنه تخلى لخلاف بينه وبين قونصلي الإنجليز والفرنسيس ومن قائل بل لخلاف مع قونصل الفرنسيس لأمور نقمها عليه ومن قائل: بل بإيعاز من دولة الإنجليز إذ كانت ترى منه قرما عنيدا شديد البأس عزيز النفس أبيها صبورا على الشدائد فعملت على تنزيله فأحس بذلك فبادر هو بخلع نفسه، ومن قائل غير ذلك وعندي أن القول الأخير أرجح بل أصح فحزن الناس عليه وأسفوا أسفا شديدا وقد عرفوا منه رجلا كيسا حازما صائب الرأي شريف النفس واسع المعرفة بأساليب السياسة شديد الميل إلى نصرة المظلوم يعفو عند المقدرة ويغض عن الهفوات ويعرض عن بطانة السوء ويكره المطرين وأصحاب الوشاية ميالا إلى بث روح الحرية والمساواة بين صنوف الرعية، وهو أول من نادى بالشورى على عهد الخديو إسماعيل وبذل جهد المجتهد في بثها في جوف البلاد ثم أنشأ قانونها ورفعه إلى الخديوى إسماعيل وطالبه يومئذ بتحرير البلاد وفك قيود الرعية فتململ ولم يقبل فألح عليه وهدده بتنزيل نفسه وتخليه عن منصب الرياسة يومئذ إن هو أصر على الإباءة ثم حدث في ذلك الحين من الكوائن ما كان سببا لترك ذلك القانون في زوايا الإهمال، فلما تولى الخديوية الأمير محمد توفيق باشا ووجه مسند الرياسة إليه أحسن الظن بمخدومه وأخلص له النية. قال بعض كتاب الأخبار: فأبان له عما في الشورى من الخير والبركة وجعل يحبب إليه العمل بها فمال إلى رأيه ودعاه إلى سنّ قانون لا يمس حقوقه الذاتية ولا يذهب شيئاً من سلطته الوراثية فرفع إليه القانون الذى كان أنشأه على عهد أبيه إسماعيل. قال: فاستشار رجال ديوانه في جواز العمل به فقبحوا له ذلك وموّهوا عليه الحقائق وهوّلوا في العاقبة فأعرض عنه فراجعه الوزير فلم يرض فأنزل نفسه عن منصب الرياسة في الثلاثين من شعبان كما تقدم القول (قلت): وهذا قول آخر في أسباب تخليه عن منصبه وعندي أنه قول لا صحة له والأول أصح، وكان مصطفى رياض باشا إلى هذا الحين نزيل الديار الأورباوية وكان قد فرّ هاربا من وجه إسماعيل باشا خوفا من البطش به كما تقدم القول فأرسل إليه الخديوى يستقدمه ويستحثه على الحضور ليوليه مسند الرياسة وأقام هيئة وزراء مؤقتة برياسته كان فيها الوزير منصور باشا يكن وعلى حيدر باشا وذو الفقار باشا ومصطفى فهمي باشا ومحمد مرعشلي

باشا وعثمان رفقى باشا وعلى إبراهيم باشا فتحدث الناس فى أمر طلب مصطفى رياض باشا وتطيروا من توليته مسند الرياسة وخشوا عاقبته لما يعلمونه من عدم موفقيته ونكد طالعه على البلاد وكثر لغطهم فى ذلك، فلما كان سابع عشرى رمضان قدم رياض باشا إلى القاهرة فبالغ الخديوى فى إكرامه ولبث أياما يغدو ويروح إلى مقر الخديوى والناس فى تخوف كأنّ على رؤوسهم الطير ثم شاع أن استقدامه بعد ذلك التبعيد إنما كان بإيعاز من دولة الإنجليز وإلحاح من قونصلها بمصر. قال بعض كتاب الأخبار: وتحرير الخبر أنه لما سار إلى لندن عاصمة الإنجليز بعيد فراره من القاهرة اجتمع به ويلصون الذى كان متوليا نظارة المالية المصرية على عهد إسماعيل باشا وشكى إليه حاله وما لاقاه من مضض التضييق وذل التبعيد عن الآل والوطن فقربه ويلصون من كبار ساسة الإنجليز واستمالهم إليه وأعلمهم بحاله وما لاقاه من إسماعيل باشا. قال الراوى: فسأله بعضهم قائلاً: ماذا تفعل إذا أرجعناك إلى ديار مصر وولیناك منصب الرياسة؟ قال: أكفل لكم تعضيد سيادتكم وإعلاء كلمتكم والعمل فى سائر الأحوال بحسب إشارتكم فوعدوه بذلك إن هو حافظ على العهد ولم يرجع عنه وجعلوا من ذلك الحين يعملون مع الخديوى على إرجاعه وتوليته فأحس الوزير محمد شريف باشا بذلك فخلع نفسه وأفرغ لهم المسند فاستقدمه الخديوى كما أشار قونصل الإنجليز وقد زاد الناس اعتقادا فى صدق هذا النبأ ما تبينوه يومئذ من استحسان أصحاب صحف الأخبار الإنجليزية أمر توليته منصب الرياسة وامتداحهم لكفاءته وحسن سياسته وقدرته على تدبير الأمور على أحسن ما يكون، وقد تطرف بهم الإطراء إلى القول بأنه على عزم أن يرفع إلى مقام الخديوى قبل تولية المنصب ثلاثة مطالب لابد منها ولا مندوحة عنها الأول: جعل هيئة الحكومة دستورية أو مشوروية بأن تؤلف من وزراء مسئولين ولا يكون أمير البلاد مسئولا عن أىّ خلل يحدث فى الخزينة أو فى إدارة البلاد. الثانى: عدم جواز خلع أحد من موظفى الحكومة إلا بحكم يصدر عليه. الثالث: أن لا يترأس الخديوى قط على هيئة مجلس الوزراء ليكون لكل منهم حرية إبداء فكره فلم يعتبر الناس يومئذ بأن هاته المطالب من عنديات مصطفى رياض باشا لأنهم يعرفونه عدواً للشورى. قلت: وقد سبق لأصحاب هذه الصحف طلب تقرير هاته الأمور على عهد إسماعيل باشا فحضوا جوشن وجوبير يوم كانا بديار مصر على تقريرها وإكراه إسماعيل باشا على العمل بها ثم حال دون ذلك من المحن والكوائن ما كان سببا فى خلع إسماعيل باشا وتبعيده.

(مطلب)

تولية رياض باشا الرياسة للمرة الأولى

فلما كان رابع شوّال من السنة (أى سنة ست وتسعين ومائتين وألف هجرية) رسم الخديوى إلى مصطفى رياض باشا بتشكيل هيئة الوزارة فشكلها على نحو ما أراد ووافقه الخديوى على تشكيلها فتزاحمت على بابه أقدام أصحاب الوظائف والمناصب العالية ومأمورى الحكومة وذوى الغايات والمطامع فأمر ونهى وتقدم إلى الخديوى فى إقامة المراقبين الماليين الإنجليزى والفرنسوى اللذين أشار بهما رجال لجنة التصفية كما تقدم الكلام على ذلك فى محله فأجابه إلى ما طلب ورسم به فجاء من قبل دولة الإنجليز أحد رجالها واسمه الماجور بارنج وجاء من قبل دولة الفرنسيس آخر اسمه المسيو دى بلينار وهو الذى كان متوليا نظارة الأشغال العمومية على عهد إسماعيل باشا فسلم لهما الرئيس مصطفى رياض باشا زمام الأعمال فبحثا ونقبا وأتيا على جميع أمور الخزينة من أبوابها وأخذا فى إصلاح ما فسد من أحوالها ورتبا لأصحاب الديون نظاما كافلا بحفظ حقوقهم وعينا لجباية الأموال آجالا يجبون فيها الخراج وقد كانت إلى ذلك الحين هملا مهملا وأبطلا كثيرا من المغارم والمكوس الظالمة والبدع المستحدثة وقررا قاعدة لميزانية خزينة البلاد وإيرادها ومصرفها ونظرا فى جميع أوجه الإصلاح من أبوابها وقيدا الأعمال باللوائح والنظامات المرتبة على نسق ما فى بلاد الأمم المتمدنة ونظرا إلى فلاحى البلاد وأصحاب الزراعات نظرة الأب الشفيق فهوّنا عليهم كل أمر شاق، وبينما كان المراقبان يعملان على ما فيه المصلحة للبلاد وأهلها كان الرئيس مصطفى رياض باشا يعمل أيضاً على تعزيز مقامه وإعلاء كلمته وبسط يده على جميع الأمور وإحاطته علما بالصغير منها والكبير فتطرّق به حب هذه الأثرة إلى التعدى على حقوق الخديوى وجعل أعماله ونفوذه الذاتى لا يتعدى إشارته وكان الخديوى منذ تولى المنصب قد جعل يعطى مأمورى الحكومة وبعض أعيان البلاد ألقاب الشرف ونياشين الاعتبار تلطفا منه وإحسانا فلم يرق عمله هذا فى عين الرئيس بل أنكره وندد به ونهاه عن التمادى عليه فلم يلتفت الخديوى إلى قوله فأكبر الرئيس هذا الأمر من الخديوى وكتب فى رابع عشرى ذى القعدة من السنة إلى جميع دواوين الحكومة يقول: إنه لا عبرة قط لهذه الرتب فى أمر الجماكى والمرتبات فى جميع الخدامات الملكية فساء الخديوى ذلك واستعظمه وكبر عليه الرجوع عما فى نفسه فزاد فى الإحسان وأكثر من العطاء فامتعض الرئيس وعقد لذلك مجلس الوزراء فقرّ قرارهم على أن لا يعطى شىء من ألقاب الشرف والناشين

إلى مأموري الحكومة وموظفيها أيا كانت درجته إلا بعد الطلب من مجلس الوزراء ورفع هذا القرار إلى الخديوي ليصادق عليه.

(مطلب)

فاتحة الخلاف ومبدأ الشقاق بين الخديوي والرئيس مصطفى رياض باشا

فكبر الأمر عليه وأزعجه فطاول وحاول أياما وراجع الرئيس ثم أدرك ما سيكون من وراء ذلك من الفشل واستفحال الخطب إن هو أصر على الامتناع فوقع على القرار كارها فكان هذا الحادث فاتحة الخلاف ومبدأ الشقاق بين الخديوي والرئيس مصطفى رياض ومن معه ورأى الخديوي بعد ذلك من الرئيس غلظةِ وجفاء فتأهب للتجوّل في أنحاء القطر والترفع إلى الأقاليم القبلية ترويحا للنفس من شر هذا الحال، فلما كان صبح الخميس تاسع عشري صفر من السنة أي سنة سبع وتسعين ومائتين وألف هجرية تحرك ركابه وسار قاصدا الأقاليم القبلية ومعه آل بيته وحاشيته وأتباعه وغلمانه ورجال ديوانه الخاص فاستعدّ أهل البلاد للقائه وفرحوا بحضوره إليهم فرحا لا يوصف وأظهروا من الإخلاص والتلطف للقائه ما لا يكاد يصدقه العقل فزينوا البلاد بالأنوار والرايات والرياحين والأزهار وقابلوه بالطبول والزمور وإطلاق البنادق بين ضجيج الفرح وأصوات الدعاء والابتهال إلى الله، فكان إذا نزل ببلد هرع أهلها رجالا ونساء وأطفالاً وقابلوه بالدعاء وبالغوا في تعظيمه فكان يقابلهم بالبشاشة والترحاب ويمد لهم الموائد ويعطى الفقراء والمساكين منهم ولا يردّ لهم سائلاً وما زال على هذه الحال حتى مدينة أسيوط، فلما استقر بها ركبه كتب إلى الرئيس مصطفى رياض باشا يقول:

أنا الآن بأسيوط وليس في الإمكان والاستطاعة وصف جميع ما أظهره الأهالي من الجيزة إلى هذا المكان من عظم الفرح والمسرة وحسن الترحب بنا ولا شك أن مثل هذه الأفراح والمسرات لا تصدر إلا عن الثقة العمومية ولا توجد الثقة إلا بوجود العدالة والاستقامة، ويرى أن الرعية الآن آملة فينا واثقة بنا، تلك نعمة آلهية عظيمة المقدار وتوجب علينا الاستمرار على نهج منهج العدالة والأمانة لتزداد الرعية حبا لنا وثقة بنا جمل الله القدير اجتهادنا بالفلاح، ثم رجع إلى القاهرة في كبكبته وزينته بين خدمه وحاشيته وأتباعه ورجال ديوانه وسار منها إلى الأقاليم البحرية فلاقاه أهل البلاد بالفرح وأولموا لقدومه الولائم والأفراح وبالغوا في ذلك بما لا يكاد يدخل تحت الحصر ثم قفل راجعا إلى القاهرة وقد بلغه من أخبار الرئيس

مصطفى رياض باشا واستهتاره بالأمور وتحامله على منصب الخديوية وشخص الخديوى ما أنساه تلك الولائم والأفراح فجعل عند ذلك يراقب الأحوال والرئيس لا يلوى عنان النفس عن هواها وقد بسط يده على جميع مصالح الحكومة فتزاحم على بابه أصحاب السعاية وتقرب من مجلسه أهل النميمة والوشاية واشتد على كل من آنس منه جأشا فهابه الحكام وخافه أصحاب الوظائف وكثرت عيونه وأرصاده وأوجس أتباع إسماعيل باشا منه شرا إذ مال على بعضهم يريد الانتقام واشتد عليهم شدة بالغة فهالهم أمره وأزعجهم تهديده وخشوا عاقبة فعله فانضم بعضهم إلى بعض وتألبوا مع الفريق شاهين باشا كنج الذى كان رئيس ديوان الجند على عهد إسماعيل باشا وجعلوا يدبرون على الخلاص منه فلما أحس بما هم عليه سير إلى شاهين باشا يتهدده ويقول: إن لم تقلع عما أنت عليه ساءت حالك وكذب فألك ثم بث حول داره العيون ومنع من دخول الناس إليه فكبر الأمر على شاهين باشا وأرسل إلى إسماعيل باشا يعلمه بما آلت إليه حالة أتباعه وحاشيته وكل من نالته منه نعمة ويشكو من مقال الرئيس مصطفى رياض باشا فحبب إليه إسماعيل باشا ترك تابعية السلطنة العثمانية والالتجاء إلى دولة إيطاليا فمال شاهين إلى ذلك فرارا من إيذاء الرئيس وعلم الرئيس بالخبر فمانع قال بعض الكتاب: وحرض بعض مشايخ البلاد التى بها زروعات شاهين باشا فأقاموا عليه الدعاوى الطويلة وضيقوا على خدمه وأتباعه وأخذوا ما قدروا عليه من أرزاقه فكبر عند ذلك خوف شاهين باشا وألح على إسماعيل باشا فى التعجيل فوردت إليه أوراق التابعية فقام من فوره وحصر أرزاقه وضبطها ووكل بها من يبعث إليه برزقها فى حينه وتأهب للرحيل إلى مدينة نابولى حيث يقيم إسماعيل باشا فكبر الأمر على الرئيس مصطفى رياض باشا وجعل يدبر على فساد حيلة شاهين وسير إلى قونصل دولة إيطاليا فى ذلك فلم يفلح.

(مطلب)

الحكم بتبعيد جاهين باشا وتجريده من رتبه وألقابه

فلما كان خامس رجب قام شاهين من القاهرة إلى الإسكندرية يريد الذهاب إلى نابولى فجمع الرئيس فى صباح سادسه هيئة مجلس الوزراء على خلاف العادة وهيأ قرارا بتجريد شاهين باشا من جميع رتبه وألقابه وصفاته الرسمية مع محو اسمه من سجل ضباط الجيش المصرى ومنعه من العود إلى ديار مصر منعا مؤبدا، ثم رفع

هذا القرار إلى الخديوى فامتنع من التوقيع عليه فشدد الرئيس فى الطلب فوقع عليه كارها فسير به الرئيس مع رسول إلى شاهين باشا فأعطاه إياه وهو على ظهر السفينة التى كانت قائمة ذلك اليوم إلى مدينة نابولى، حدثنى صاحب لى قال: كنت فى ذلك اليوم على ظهر السفينة التى كان بها شاهين باشا وكنت مودّعا خليل أغا كبير خصيان جدة الخديوى حيث كان قاصدا مدينة نابولى إحدى أعمال إيطاليا فرارا من وجه الرئيس مصطفى رياض باشا فبينما نحن مهتمون بإصلاح متاع السفر إذ صعد على ظهر السفينة أحد مأمورى الحكومة وعلامات الاضطراب بادية على وجهه فتقدم إلى شاهين باشا وناوله ورقة مختومة ففضها وقرأ ما فيها وهو هادىء اللب ساكن القلب ثم التفت إلى ذلك المأمور وقال: قل للرئيس أصلح الله حاله إنى فاعل ما أراده حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا والتفت إلينا وقال وهو يتبسم: تالله لو بغى جبل على جبل لدك الباغى. قال: صاحبى فقلت جعلت فداك هل هى وصية يجب العمل بها؟ فقال : بل هى فرية يجب أن تخلد فى بطون التواريخ ليعلم صاغر عن كابر كم تقاسى مصر وأهلها من الجور والاستعباد. قال صاحبى: فخفت أن أطيل الكلام بحضرة المأمور وتشاغلت عن حديثه بحديثى مع كبير الخصيان حتى تركنا المأمور وانصرف فنظرت إلى شاهين باشا لعله يعيد علينا حديث ما فى تلك الورقة فلم يفعل وكان لم يكن به شىء وودعته مع كبير الخصيان وانصرفت وأنا فى خوف ظانا أن قد وصل خبرى إلى الرئيس فرجعت إلى القاهرة ولازمت دارى أياما حتى سكن جأشى واطمأن قلبى ولم يقدّر الله علىّ بمكروه . اهـ.

قلت: وقد عدّ فرار شاهين باشا وخليل أغا كبير خصيان جدة الخديوى وإلحاقهما بإسماعيل باشا ذنبا لا يغفر إذ عقد الرئيس مصطفى رياض باشا فى ثامن رجب هيئة مجلس الوزراء وتناجوا فى ذلك طويلاً وبعد أخذ وردّ تقررت القاعدة بينهم على نزع سراى عابدين مع ما يتبعها من الأبنية وغيرها من جميع الملحقات وسراى الإسماعيلية وملحقاتها وما يتبعها من الأبنية وسراى القصر العالى وملحقاتها وما يتبعها والمكان الكائن بمصر القاهرة بخط الإسماعيلية وملحقاته المعروف بمخزن الموبليات ومطبعة بولاق وملحقاتها مع ما يتبعها من الآلات والمهمات والأبنية وأصطبلات بولاق وسراى الجزيرة مع ما يتبعها من الأبنية والجنينة البالغ مقدار ذلك اثنين وستين فدانا والأراضى التى تتبعها وقدرها ثلاثة آلاف وخمسمائة وخمسة وتسعون فدانا وجميع الملحقات الكائنة بالجيزة وسراى الجيزة وما يتبعها من الأبنية

والجنينة والأراضى من جميع الملحقات التى قدرها خمسمائة فدان وسبعة عشر فدانا والنزل والكشك والحمامات الكائنة بمدينة جلوان وجنينة النزهة القديمة المعروفة بجنينة باستريه بالإسكندرية على ترعة المحمودية وسراى الرمل بالإسكندرية وجميع ما يتبعها من الأبنية والثكنات والإصطبلات وغيرها من الملحقات الكائنة بالرمل وسراى دفينة وما يتبعها بمديرية البحيرة وسراى المنصورة وما يتبعها وسراى الروضة وسراى المنيا (أى منية ابن خصيب) من ملكية إسماعيل باشا وجعلها من أملاك الحكومة قالوا: لأنه قد تبين لهم أن بناء البعض وشراء البعض الآخر كان من مال الخزينة ولأنها لازمة جميعها للمنافع العمومية أو لإقامة خديوى مصر ولأنها كانت لغاية الآن مخصصة لذلك، فلما شاع خبر ذلك استعظمه الناس وتحدثوا به وقد كانوا لا يظنون وقوعه من الرئيس، ثم أعقب ذلك أيضاً أن سير الرئيس إلى ربان السفينة المسماة المحروسة التى كان إسماعيل باشا اتخذها مسكنا لنسائه أمام مدينة نابولى بأن يسرع الكرة إلى الإسكندرية بالسفينة وإلا عدّ تأخيره عن الحضور عصيانا وخروجا وكتب بذلك أيضاً إلى إسماعيل باشا فكبر الأمر على إسماعيل باشا وأحزنه جدا ولم يسعه إلا إعادة السفينة ومن شاء الرجوع إلى القاهرة من خدمه وأتباعه وحاشيته واشترى له دارا بنابولى وأسكن بها من بقى من جواريه ونسائه وأرسل إلى الخديوى توفيق فى ذلك وعاتبه وبالغ فى الشكوى من فعال الرئيس مصطفى رياض باشا وحذره من سوء العاقبة وأشار عليه باليقظة والالتفات.

(مطلب)

الاحتفال برفع قانون التصفية إلى مقام الخديوى

وكانت لجنة التصفية إلى هذا الحين قد أتمت أعمالها على وجه ما تقدم بيانه وعملت بها دستورا سمته (قانون التصفية) وتأهبت لنشره والعمل به، فلما كان يوم السبت تاسع شعبان من السنة سار رجال هذه اللجنة من القاهرة إلى الإسكندرية وصعدوا إلى مقر الخديوى بسراى رأس التين فتقدم إليه ويلصون رئيس اللجنة وبقية رجالها فصافحهم جميعا ثم خاطبه ويلصون بعبارات التهانى وقص عليه مجمل ما عملته اللجنة فأجابه الخديوى بعبارات التلطف وناوله بيده النيشان المجيدى من الدرجة الأولى وكذلك ناول كلا من بطرس بك غالى والمستر كولفن والمسيو براوللى والمسيو دى بوغاز والمسيو تريكو والمسيو يتجره والمسيو ليرون دى رول النيشان العثمانى من الرتبة الثالثة وأعطى كذلك النيشان المجيدى من الرتبة الرابعة لبقية رجال

تلك اللجنة وبعد انصرافهم أحسن الخديوى على الرئيس مصطفى رياض باشا بالنيشان العثمانى من الدرجة الأولى وعلى المسيو دى بلينار المراقب الفرنسوى بالنيشان المجيدى من الدرجة الأولى أيضاً وأحسن كذلك بعدة رتب ونياشين إلى بعض الوزراء وعند غروب اليوم استدعى الخديوى للطعام جميع الوزراء ورجال لجنة التصفية بمقره برأس التين، وكان المكان غاية فى البهجة والزينة داخلاً وخارجا فأتت إلى ديوان الخديوى فى ذلك اليوم وتلك الليلة رسائل التهانى من الآفاق وحضر فى نحو الساعة الثالثة من تلك الليلة إلى رحبة السراى طوائف الجند ما بين مشاة وركبان بالطبول رافعين بأيديهم فوانيس الزجاج الملون موقدة بالشموع وساروا إلى أن وصلوا إلى واجهة السراى المشرفة على تلك الرحبة حيث كان الخديوى وسائر الوزراء ورجال اللجنة ينتظرونهم فاصطفوا هناك وبعد برهة لطيفة نادوا بأصوات التهليل ثم ساروا وعبروا شوارع المدينة حتى انتهوا إلى ميدان المنشية فوقفوا هناك برهة فهرع الناس لرؤيتهم وفى أواخر الساعة الثالثة اجتمع أرباب الأشاير والطرق تتقدمهم المشاعل والأنوار والطبول والزمور والبيارق والرايات وساروا على نظام معلوم عندهم إلى أن دخلوا رحبة السراى فى عدد كثير وكان كل فريق منهم على شكل مخصوص وهم يضجون ويعجون ثم ورد من بعدهم أبناء المدارس وفى أيديهم مصابيح الشمع وفى ذلك الوقت كان ساحل البحر مزدانا بالأنوار وكذلك جميع السفن الراسية فى المينا وقد سار عدد من قوارب البحر يحمل الجماهير من الناس وكانت مزدانة بالأنوار والقناديل وفى بعضها الطبول والمغنون والمغنيات فانتهوا إلى مقر الخديوى وهم يعزفون ويضربون الطبول إلى أن كانت الساعة السادسة من تلك الليلة فأطلقت شنكات البارود والحراريق والألعاب النارية أمام السراى من باخرة الخديوى الخصوصية وباخرتى محمد على ومصر واستمرت كذلك إلى الساعة السابعة من الليل وقد تسابق الناس على اختلافهم لرؤية هذا المنظر البهيج والمشهد الحافل وكانت ليلة لم يسبق لها مثال وأكثر الشعراء فيها من المدح والغزل وعملوا فى لجنة التصفية القصائد والمدائح وأوعز الرئيس مصطفى رياض باشا إلى مديرى الأقاليم فوردت رسائل التهانى ركاما من سائر البلاد.

وكان أول شيء بدىء به من نفثات التصفية زيادة مائة وخمسين ألف جنيه ذهبا على ضريبة الأطيان العشورية وتوزيعها على التساوى بلا فرق ولا تمييز بين الأراضى وبعضها قالوا: وستبقى هذه الضريبة معمولاً بها حتى ينجز ترتيب أمور الخزينة فلم

يتم توزيعها حتى انبث أصحاب الجباية يعيثون فى البلاد لجمعها فشق هذا الأمر على أصحاب تلك الأطيان وشكوا منه وتزاحموا على باب الرئيس فمناهم ووعدهم خيرا فسكتوا فلما كان خامس عشر رمضان من السنة قرر الرئيس اعتبار هذه الضريبة أصلا مقررا فى ضرائب الأطيان العشورية وأن لا يكون بينها وبين الضرائب الأصلية فرق وأن جميع الأطيان المعطاة قبل الآن بشرط أن تكون عشورية يربط عليها العشور المناسبة لها على هذا الأساس بعد فرزها وتقدير درجاتها وما كان معطى بدون شرط جعلها عشورية وكذلك جميع الأطيان الميرية التى تنقل من الآن فصاعدا من حيازة الميرى لحيازة أخرى تعتبر أطيان خراجية ويربط عليها الخراج بحسب الدرجة المناسبة لها فأتت الزيادة بعد ذلك القرار أمرا مقضيا فاشتد انقباض الناس من فعال الرئيس وتطيروا منها وابتعدت قلوبهم عنه أو كادت وكثرت الإشاعة بقرب خلعه وتنزيله عن منصب الرياسة.

(مطلب)

أول شكوى لضباط الجند مما يلاقونه من عثمان رفقى باشا

وأعقب ذلك أيضاً أن ظهر فريق من ضباط الجند يشكون مما يلاقون من عثمان رفقى باشا رئيس ديوان الجند وصرفه الكثير منهم عن الخدمة العسكرية واستعاضتهم بآخرين من جماعة الشراكسة بغير سبب، قالوا: سوى الميل إلى الجنسية ورغبته فى تبعيد أبناء البلاد ووالوا الشكوى وعظموا البلوى ورفعوا إلى الرئيس مصطفى رياض باشا ظلامتهم ووقفوا ببابه أياماً فلم يروا منه التفاتا وقد اشتد بهم الضيق وكثرت عليهم حاجة العيال فكانوا يجتمعون فى كل ليلة فى دار محمد أفندى فنى رئيس المترجمين بديوان الخزينة يتناجون فى أمرهم وما هم فيه من الشدة والفاقة ويرددون حديث ما تعانيه أهل البلاد من جفاء الرئيس مصطفى رياض باشا واستصغاره بأمور الرعية فاتصل به خبر اجتماعهم فبث حولهم العيون والأرصاد وهم لا يشعرون، فلما كانوا فى إحدى الليالى يتناجون فى حوادث يومهم ذلك إذ كبس عليهم نفر من الجند وأصحاب الشرطة ومأمور من مأمورى الضابطة وقبضوا عليهم جميعاً وساقوهم إلى المحبوس فباتوا ليلتهم تلك وأصبحوا فنقلوهم إلى سجن قلعة الجبل ورسم الرئيس فهيئوا لمحاكمتهم مجلسا حربيا وشددوا عليهم وضيقوا فكثر تحدث الناس فى ذلك وتطاولت ألسنتهم إلى التقريع والسباب، فلما كان ثالث ذى الحجة سنة سبع وتسعين حكموا على محمد أفندى فنى صاحب البيت بالطرد من خدامات

الحكومة والسجن بقلعة الجبل ستين وحكموا على من كانوا يجتمعون معه بالسجن والعزل من الوظائف العسكرية، واشتدوا من هذا الحين على جميع الضباط المصريين وبالغوا فى التضييق عليهم وخلعوا الكثير منهم بغير موجب ولا سبب واستودعوهم بربع الجماكى فكانوا نيفا وألف ضابط وقد حاق بهم الذل والحيف وأعمل الجوع فى أطفالهم عمله فتألبوا وتحزبوا وارتبط بعضهم ببعض بالأيمان والعهود وانضم إلى جمعهم كل ذى نائبة من أبناء البلاد وكانوا كثيرين لا سيما من ثقلت عليهم يد الرئيس، حدثنى صاحب لى قال: لما ظهرت علامات الفتنة وكادت تبدو إشارات الخروج وأحس الخديوى بذلك كلم الرئيس مصطفى رياض باشا وحذره من سوء العاقبة فلم يلتفت وكان إذا شدد عليه الخديوى وحذره وألقى عليه التبعة ذهب إلى قونصل الإنجليز وشكى إليه واستعان به على الخديوى فبلغ من نفوذ القونصل المذكور يومئذ أن صار يعزل ويولى من يشاء من مأمورى الحكومة وأرباب الوظائف وأتى بجماعة من قومه فأدخلهم فى خدمة الحكومة وسدّ بهم أبواب الرزق فى وجوه أهل البلاد وجاراه فى ذلك قونصل الفرنسيس فبات الرئيس وهو لا يقدر أن يخالف لهما كلمة ولا ينبذ لهما طاعة وظل على هذه الحال والخديوى لا يرى للخلاص سبيلا.

(مطلب)

ظهور الوحشة بين المراقب الفرنسوى وقونصل جنراله وظهور عصابة الجند

ورأى المسيو دى بلينار مراقب الفرنسيس من نفوذ قونصل جنرال دولته واتساع كلمته وتطاول يده إلى أعمال الحكومة والعبث بمنصب المراقبة ما أزعجه وبلبل أفكاره فكلم الرئيس مصطفى رياض باشا فى ذلك وحذره من سوء العاقبة ثم جعل يمانع فى تداخل القونصل ويعمل على إيقافه عند حده فاستكبر القونصل ذلك ونقمه عليه وناواه الخصام فقامت بين الاثنين قائمة الشحناء واشتدت البغضاء وأعرض الرئيس عن المراقب ومال إلى جانب القونصل فكبر بغض المراقب له أيضاً واستفحل بينهما الخلاف واستعصى الوئام، وبينما كان الرئيس والمراقب والقونصل يتنازعون النفوذ والحرب بينهم سجال كان عثمان رفقى باشا رئيس ديوان الجند يكثر من عزل الضباط المصريين ويقصيهم عن مناصبهم ويولى بدلهم جماعة الشراكسة وكان ممن عزلهم من مناصبهم كبير من ضباط الفرسان اسمه أحمد بيك عبد الغفار وكان له منزلة وحرمة بين قومه فما شاع خبر عزله حتى انضم إليه جماعة الضباط المعزولين وجعلوا

يجتمعون فى كل ليلة فى داره ثم اتفقوا على أن يختاروا لهم رئيسا يرجعون إليه فى أمورهم وتدبير شئونهم فوقع اختيارهم على أحد أمراء الجند المدعو أحمد بيك عرابى أمير جند الآلاى الرابع فلبى دعوتهم وتجرد لنجدتهم وعمل على توحيد كلمتهم وأحكم التدبير على ما يناسب مصلحتهم، قلت: وأحمد عرابى بيك هذا رجل ولد من أبوين فقيرين وكان مولده فى ليلة السبت ثالث عشرى جمادى الثانية من عام ثمان وأربعين ومائتين وألف هجرية، وقيل: ولد فى صفر عام سبع وخمسين فى قرية من قرى الشرقية تسمى هرية رزنه على بعد بعض فراسخ من الزقازيق أنشأها محمد على باشا الكبير وأسكن بها جماعة من العربان الذين يقال إن أجداد أحمد عرابى هذا منهم وأقطعهم بعض الأراضى لزرعها واستغلالها رزقة بلا مال إلى أجل فكان ما أصاب أبو أحمد المدعو عرابى من تلك الأرض ستة أفدنة سواذا فكانت مادة حياتهم ومنبع تعيشهم، فلما بلغ أحمد عرابى أشدّه سلمه أبوه إلى قبطى اسمه المعلم مخاييل غطاس وكان صراف الناحية ليعلمه القراءة والكتابة فلازمه زهاء خمس سنوات أحسن فيها معرفة القراءة والكتابة وبعض القواعد الحسابية ثم أدخله أبوه فى مصاف طلبة العلم بالجامع الأزهر فرارا من العسكرية وذلك سنة خمس وستين ومائتين وألف هجرية فلبث به زهاء الأربع سنوات يتلقى بعض أصول النحو واللغة والفقه وحفظ القرآن ثم عاد إلى قريته وأقام مع والديه إلى سنة اثنتين وسبعين ومائتين وألف هجرية ثم أخذ إلى العسكرية قهرا على عهد سعيد باشا وكان من أهل قريته بالمعسكر جاويش بروجى لسعيد باشا اسمه حسن حلمى له كلمة مسموعة فتقرب منه أحمد عرابى ولازمه واحتسب عليه فأحبه وعمل على مساعدته فرقى بواسطته إلى رتبة بلوك أمين للبلوك السابع من الأرطة الرابعة من ألاى المشاة الأول وكان يعرف بين الجند يومئذ بالشيخ أحمد عرابى فلما كانت سنة ثلاث سبعين رقى إلى رتبة ملازم ثم إلى رتبة يوزباشى فى سنة أربع وسبعين ثم إلى رتبة الصاغقول أغاسى والبيكباشى إلى سنة ست وسبعين وكان فى غضون هذه المدة قد بلغ حسن حلمى البروجى رتبة القائمقام ومات فبكاه أحمد عرابى بكاء مرا وجزع عليه جزعا شديدا وبلغ ذلك طيب الذكر سعيد باشا فتعجب ومنحه رتبة حسن حلمى المتوفى وذلك سنة سبع وسبعين فصار من هذا الحين معدودا من كبار ضباط الجند ولبث على هذا الحال حينا ثم اعتزل الخدمة حينا أيضاً ثم عاد إليها فى أوائل ولاية إسماعيل باشا فى سنة تسع وسبعين هجرية ولبث بها إلى أن وقعت بينه

وبين خسرو باشا أحد كبـار الضباط الشراكسة خصومة فهيئـوا لمحاكمة أحمد عرابى مجلسا حـربيا فحكم عليه بالحـبس بضعة أيام فلم يقبل الحكم ورمى هيـئة المحكمة بالمروق عن جادة العدل والأخذ بالوجوه فرفعوا أمـره إلى إسماعيل باشا فأمر بإبعاده عن الخدمة العسكرية فأبعدوه وبالغوا فى تذليله فكبر عليه الأمر وعظم بغضه لطائفة الشراكســة ولبث مبعدا زهاء السنة ثم توسط بعض أهل الخيـر فى شأنه فأدخلوه فى خدمة الدائرة الحلميــة وهى دائرة الأمير إلهامى باشا ولد عبـاس باشا الأول فأحسن الخدمة واستمال إليه كبار الدائرة فزوّجوه بابنة مرضعة الأمير إلهامى وهى أخت حرم الخديوى محمـد توفيق باشا بالرضاع، ولما كانت سنة اثنتين وتسـعين ومائتين وألف هجرية تشفعوا له عند الخديوى إسماعيل بسبب زوجته فأعاده إلى خدمة الجندية فلم يستـقر به المنصب حـتى جعل يبث بين الضبـاط من المصريين روح الألفـة والاتحاد ويقرب بعـضهم إلى بعض حتى صـاروا على قلب رجل واحد فلمـا تولى الخديوية الأمير محمـد توفيق باشا وأحسن على الكثير من رجال العـسكرية والملكية بنياشين الشرف ورتب الاعتبار ساعد الحظ يومئذ أحمد عرابى فنال رتبة الميرالاى وكان ذلك فى رجب سنة ست وتسعين .

(مطلب)

تحالف الضباط المصريين على السيف والمصحف وانتداب أحمد عرابى للزعامة ورفعة عريضة بالطعن فى عثمان باشا رفقى

واتفق فى هذا الحين أن شرع عثمان رفـقى باشا كبير ديوان الجند فى سن قانون للقرعة العـسكرية دل مبدؤه على عدم جواز ترقى أحـد من الجند إلى الرتب العالية حيث قضى على العسكرى أن يبقى فى الخدمة مدة أربع سنوات ثم يذهب إلى بلده إمداديا ويبقى هكذا مـدة خمس سنوات أخرى ويأتى إلى مركـز المديرية شهرين فى كل سنة لمباشرة التـمرينات العسكرية وبعد مضى الخمس سنوات يقـيم فى بلده بغير عمل ويسـمى احتـياطيـا تحت الطلب مدة ست سنوات ثم يمـحى اسمـه من دفاتر الجندية فلما ذاع خبر هذا القانون بين ضباط الجند فرح لسماعه جماعة الضباط الترك والشراكسـة وانقبض له الضـباط المصريون وعلموا بأنه إنما سن هذا القانون على هذا المبـدأ لحرمانـهم من الرتب وجعلهم جندا تحت تـسلط جمـاعة التـرك والشراكـسة واختصـاص هؤلاء بالرتب والمناصب العالية فـجعلوا يقبحـون العمل به وشكوا من

فعـال عثمـان رفقى باشا وكـان بين الباشا المذكـور وبين على فهـمى المعروف بعلى الديب أمير آلاى جند الحـرس الخديوى وعبد العال حلمى المعروف بعـبد العال أبى حشيش تفور ووحشـة لأمور لم نصل إلى معرفتها فاجتمع على فـهمى وعبد العال وأحمد عـبد الغفار بأحمد عـرابى فى بيته وتناجوا فى أمر ذلك القـانون وفى فعال عثمان رفقى باشا ثم تحالفوا وتعاهدوا وارتبطوا بالمواثيق على أن يكونوا كرجل واحد ثم أصبحوا وقد جمع كل من عنده من الضباط والصف ضباط وخطب فيهم خطب الحث والتـهييج ضـد جمـاعة الشـراكسة وقـبح لهم فعـال عثـمان رفقى بـاشا ثم استحلفهـم على السيف والمصحف بأن يكونوا يدا واحدة وقلبا واحدا عـلى مساعدة أمراء الآلايات الثلاثة فى عملهم والمحافظة على أرواحـهم إذا قصدوا بسوء ويعد أن تم ذلك كتب كل من ضبـاط الأيالات عريضة يطلبون فيـها بعض المطالب الذى هم فى حاجة إليـها فأخذ أحمـد عرابى العرائض الثلاثة وأبقاهـا عنده ورفع هو عريضة أخرى إلى الرئيس مصطفى رياض باشا يقول:

مقـدم هذا لإعتاب دولتكم بغـاية كل خضوع ضبـاط الجهادية ومـا نعرض عنه أفندم أنه لما أشرقت بحـمد الله أنوار شمس الحـضرة التوفـيقيـة وأينعت بالعدل فى أرجاء ديارنا المصرية نشر العدل ألويته على دوائر أطلالنا وتحررت رقاب المصريين من رق العبودية كما تخلصت نفوسهم من ضيق الاستبداد الذى طالما استولى على بلادنا عدّة أجيال يعـاملنا بأنواع المظالم الغدرية فحمدناه تعالى علـى ذلك وسألناه التوفيق لتشييد دعـائم أركان العدل والإنصاف محفوفـة برياض الحرية المبنية على المساواة فى الحقوق بين الرعيـة لكن لما أحيل على سعادة عثمان رفـقى باشا نظارة الجهادية رأينا سعادتـه يعامل ضابطان الجهـادية بالذل والاحتقار ويسـعى فيما يوجب لنـا الحرمان والإضرار كـاننا الأعداء الألداء وكأن الله سبـحانه وتعالى يطلـب منه ظلم المصريين والإجحاف بحقوقهم مقتفيا فى ذلك أثر راتب باشا فى آخر العهد السابق من تهييج الأفكار وإثارة الفتن التى تكون سـببا فى توقيـف حركة الإصلاح الإدارى قـصد أن يتمكن مما ساقته إليه نفس سعادته وما زلنا صابرين على مضض البلايا حتى آل الأمر لحرمـان أغلبنا من خدمة وطننا مـع استعدادنا وتـأهلنا وعدم تأخرنا عـمن ترقوا فى الخدمة بوجه امـتياز على ما بهم من العلل ولا موجب لترقيـهم سوى كونهم أقارب ومحاسيب من لهم فى العسكرية النفوذ المطلق وبرهاننا على ذلك أنه موجود بديوان الجهـادية فوق الألف ضابط بقلم المسـتودعين لم يكن فيـهم أحد من غيـر الوطنيين

وهذا مضـاد للمسـاواة ومجحف بالحقوق هذا ومن بعـد أن تبين لسعـادته تسكين الخواطر واستقامة الأحوال كبر ذلك عليه وقصد تهييج الأفكار بإصدار أمره المبنى على الاستبداد والاستعباد برفت أحد قايمـقامى السوارى المسمى أحمد عـبد الغفار بيك بصورة تهكم بغير محاكمة قانونية وعلى ضد كل قانون عادل فبذلك هيج بلبالنا وأورثنا عدم الأمن والاطمـئنان وصرنا متوقـعين الإيقاع بنا واحدا بعـد واحد ما دام سعادة المشار إليه فى مسند نظارة الجهـادية الذى لا تسمح القوانين الحرة بتوجيه هذا المسند لمثل سعادته ومما يؤيد تلك القوانين مسألتا كنج چاهين وحافظ باشا وبعد ذلك ينظر فى أفضلية من امتازهم عنا بالخدمة مع عدم مساواتهم معنا فى العلوم والآداب العسكرية وغيرها ومآثر دولتكم فى تسكين حركة الخواطر وبث روح العدل والمساواة اتباعا لمبدأ الحضرة الخديوية يوجب علينا القيام بواجبات الشكر الحقيقى والأمر لمن له الأمر انتهى.

(مطلب)

تشكيل المجلس العسكرى للحكم على عرابى بك ومن معه من كبار العسكر

فلما علـم الرئيس مصطفى رياض باشـا بما فى هذه العريضة كـبر عليـه الأمر ونقمـه على أحمـد بيك عرابى وجـمع إليه فى الحـال هيئـة مجلس الوزراء وعـقد مجلسهم وبينهم عـثمان رفقى باشا كبيـر ديوان الجند وتكلموا فى الأمر طويلاً فطال بينهم الأخذ والرد سـاعة ثم انفض مجلسـهم على غير طائل وعلم الخديوي بالخبر فكلم الرئيس مصطفى رياض باشـا وحذره سوء العاقبة وأشـار بالتأنى وترك العجلة ورسم بالمجاملة والتلطف وتـرك القسوة والعنف فلم يعـجب الرئيس منه ذلك وتجرد إلى المقاومة وعمد إلى التهديد فبث العيون وشدد فى النكير والضباط لا ينكفون عن التحزب والتألب وضم كل بعيد عنهم ممن مسه الضر بفعل الرئيس، فلما كان صبح الثلاثاء ثالث ربيـع الأول من السنة أى سنة ثمان وتسعـين اجتمع الـرئيس مصطفى رياض باشا ببقـية الوزراء فى جلسة خصوصـية وكلمهم فى أمر أحـمد عرابى بيك ومن معه من جـماعة الضباط فـاتفقوا بعد جدال على تشكيـل مجلس عسكرى من كبار الشراكسـة لمحاكمة كل من له يد فى تأسيس عصابتـهم وتشكيل محكمة أخرى من بعض الموظفين الملكيـين لمحاكمة من انضم إليـهم من الأهليين وقد أخذ عـثمان رفقى باشا على عـهدته تنفيذ ما يتعـلق بزعماء العصابة وقام من سـاعته وذهب إلى

مقر ديوانه بقصر النيل وجمع إليه رجال مجلسه الحربى وكلهم من الشراكسة فتكلموا فى الأمر برهة قصيرة ثم برز من مجلسهم الحكم بتجريد كبار العصابة من رتبهم ووظائفهم العسكرية وتبعيدهم عن الديار المصرية وتسليم مناصبهم لجماعة من الضباط الشراكسة وكتبوا فى الحال ثلاثة أوامر إلى الثلاثة أمراء وهم على بيك فهمى المعروف بعلى الديب أمير جند الحرس الخديوى وأحمد عرابى بيك أمير جند الألاى الرابع وعبد العال حلمى بيك المعروف بأبى حشيش أمير الجند السودانى يستدعونهم إلى قصر النيل بحجة أن عثمان باشا كبير الديوان يريد مشاورتهم فيما يجب فعله من ترتيب زفاف الأميرة جميلة هانم أخت الخديوى فلم تخف عليهم الحقيقة وقد علموا بكل ما وقع الاتفاق عليه ومع ذلك فإنهم لم يتأخروا وقاموا من فورهم وساروا إلى قصر النيل ومعهم من يأتى بالخبر إلى أصحابهم إذا حل بهم ما يكرهون فلما دنوا من مقر عثمان رفقى باشا أحاطت بهم طوائف الحرس ومشى خلفهم كثير من الضباط الشراكسة وأدخلوهم إلى حيث المجلس العسكرى فلما وقفوا بين أيدى رجال المجلس التفت إليهم خسرو باشا أحد الأعضاء وقال: قد حكم عليكم اليوم مجلسنا العسكرى بالتجريد من الوظائف وجميع الرتب العسكرية ومحو أسمائكم من سجل العسكرية فاخلعوا عنكم سيوفكم الآن وسلموها. فقال أحمد عرابى بيك: قد سمعنا ما تقول ونطلب أن تطلعنا على ورقة هذا الحكم لنكون على علم بما جنينا ونعرف ما إذا كان حكمكم هذا ينطبق على ما جاءت به أحكام القوانين العسكرية أو... فقاطعه أحد رجال المجلس بأن قال: ومن أين أثبتم لأنفسكم حق هذا النظر وكيف تطلبون الاطلاع على ورقة الحكم وأنتم اليوم مجرمون مجردون من كل رتبة وشرف، ثم صاح ببعض الحراس خذوا عنهم سيوفهم الساعة واذهبوا بهم إلى حيث أمرناكم فخلع الأمراء عنهم سيوفهم وسلموها وهم صاغرون فأخذوهم ومضوا بهم إلى أسفل الديوان ووضعوا كل أمير منهم فى سجن منفردا تخفره الجند وبعض كبار الجراكسة وكان ذلك فى نحو الساعة العاشرة نهارا فلما بلغ خبر سجنهم عسكر الحرس الخديوى برحبة عابدين وكان محمد أفندى عبيد أحد كبار ضباط هذا الحرس يراقب الحوادث وقد علم بما وراء حبس الأمراء نادى فى جنده بالخروج فخرجوا جميعاً بأسلحتهم وعدّتهم فاعترضه خورشيد بيك يسمى قائمقام الحرس وسأله عن سبب خروج العسكر على هذه الصورة فلم يلتفت إلى قوله وأمر بعض الجند فقبضوا عليه وأودعوه فى إحدى الحجرات ووقفوا على بابه يخفرونه وسار محمد عبيد بجميع الجند إلى قصر النيل وهم فى ضجة وجلبة وبلغ الخديوى الخبر

فأشرف على الجند من شرافة السلاملك ورسم إلى الفريق راشد حسنى باشا بمنعهم من الذهاب إلى قصر النيل فلم يتمكن فأمر بروجى قرا قول السراى بأن ينفخ فى البوق مناديا لجماعة الضباط أن احضروا أمام الخديوى فلم يلتفت أحد لندائه وظلوا سائرين وهم فى ضجة وجلبة حتى دخلوا أبواب قصر النيل فمانعهم بعض الجند النازلين هناك فلم يلتفتوا إليهم وقصدوا مقر الفريق عثمان رفقى باشا وكان عثمان باشا قد علم بخبر مجيء الجند فأمر بالأبواب فأغلقت فلما رأى الجند أن الأبواب مقفلة صاحوا ودمدموا وكسروها واقتحموها عنوة وهم يكثرون من الشتم واللعن وبادروا كل من لاقوه بالضرب واللكم والسب وفتشوا على عثمان رفقى باشا يريدون البطش به فلم يعثروا له على أثر وكان قد خرج من ديوانه مسرعا حتى دخل ورشة تشغيل ملابس العسكر فقام إليه ناظرها ألماس بيك وأخذ بيده وأدخله أحد المخازن وستره عن الأعين ببعض الأكياس الفارغة فتوارى هناك فلما لم يجدوه اقتحموا سجون الأمراء الثلاثة وأخرجوهم وساروا بهم إلى مقر الحرس الخديوى حملا على الأيدى وهم حاسرون الرؤوس والناس خلفهم فى ضجة وجلبة عظيمتين.

ووصل الخبر إلى الخديوى بما جرى فاضطرب وأىّ اضطراب وسير فى طلب الرئيس مصطفى رياض باشا وسائر الوزراء فحضروا فرسم بذهابهم إلى قصر النيل ليتداركوا الأمر قبل استفحاله فساروا ولم يتجاوزوا رحبة عابدين حتى رأوا الجند آتين ومعهم الأمراء الثلاثة وهم ينفخون فى البوق وخلفهم العامّة فى ضجة عظيمة فعادوا مسرعين إلى مقر الخديوى وأعلموه بالخبر ولم يكد يقرّبهم المقام حتى أحاط الجند بالسراى إحاطة السوار بالمعصم وقد طار الخبر فى هذه الأثناء إلى معسكر طرا والعباسية فحضر منهما على الفور فرقتان بالبنادق والحراب وانضمتا إلى جند الحرس ورفعوا أصواتهم على الأثر ونادوا بالويل والثبور على عثمان رفقى باشا وأشياعه وطلبوا خلعه من منصبه وأكثروا من الضجيج والصياح فسير إليهم الخديوى يقول هوّنوا عليكم فسنرى فيما تطلبون الساعة فضجوا عند ذلك بالدعاء للخديوى ثلاثاً وقد هرع الناس عند سماعهم الضجيج وأتوا إلى رحبة عابدين من كل فج عميق وتزاحموا خلف صفوف الجند وعلت بينهم الضوضاء وصاح الصبيان (الله ينصر السلطان) واجتمعت الغوغاء وكثر الهرج والمرج وحضر قناصل الدول إلى مقر الخديوى وهم فى دهشة واضطراب وكان أحمد عرابى بك قد أرسل إليهم فى الحال يعلمهم بالحادثة ويطمنّ خواطرهم من نحو رعاياهم وأتباعهم ويقول لهم: إنه لا علاقة لهذه الحركة قط بالأمور السياسية.

(مطلب)

تولية محمود باشا البارودى رئاسة ديوان الجند وما كان

ورأى الخديوى من استفحال الخطب ما أزعجه فأمر بمجلس الوزراء فانتظم وحضره جميع من حضر من قناصل الدول وتكلموا فى الأمر طويلاً ثم استدعوا أحمد عرابى بك وسألوه ماذا يطلب فتكلم كثيراً وبالغ فى الشكوى وعظم البلوى ثم قال: إنا لا نطلب الآن سوى خلع عثمان رفقى باشا وتنزيله من منصبه فتناجوا فى الأمر طويلاً ثم قرروا خلع عثمان باشا من منصبه والعفو عن الأمراء الثلاثة وأن تعاد لهم وظائفهم فنزل أحمد عرابى بك وأعلم جميع الضباط بماجرى ووقع الاتفاق عليه ونادى فى العسكر بالمسير فهتفوا جميعاً بأصوات الدعاء ثلاثاً وانسحبوا إلى معسكر عابدين والموزيقى تصدح أمام صفوفهم فباتوا ليلتهم وهم بين راقص ومطرب ومدخن بقصبة دخانه وضاحك مع رفيقه حتى مطلع الفجر فسارت الجنود السودانية مع مقدمهم عبد العال بك إلى طرا وسار أحمد عرابى بك بعسكره إلى العباسية وأصبحوا وقد تولى محمود باشا البارودى رياسة ديوان الجند بدلاً من عثمان رفقى باشا المعزول فانحاز جميع الأمراء ومقدمى الجند إليه وتقربوا منه ليكون لهم عونا فأعجبه ذلك منهم ومال إليهم وتقدم إلى الخديوى فى طلب العفو عنهم جميعاً وما زال به حتى أجابه إلى ذلك.

فلما كان يوم السبت عشرى ربيع الأول رسم الخديوى بحضورهم جميعاً إلى مقره بعابدين فحضروا فى الساعة الخامسة وفى مقدمتهم محمود باشا البارودى فلما تمثلوا بين يديه قام فيهم خطيباً يقول:

إنكم تعلمون حق العلم ما عندى من الميل والمحبة للعساكر والالتفات إلى شئونهم من يوم استلامى زمام الحكومة وذلك لما هو محقق لدىّ من أنهم متحدون معى على مقاصدى الحسنة التى هى دوام حفظ الأمنية واستقامة الأحوال الإدارية فى هذا القطر لذلك لا أخفى عليكم ما حصل لى من الأسف بأسباب الحركة التى حدثت وانقضت ومع ذلك فإنى قد عفوت ولم يبق فى قلبى من آثارها شىء بالكلية فيلزمكم من الآن فصاعدا أن لا تشتغلوا بشىء خارج عن حدود وظائفكم واجتهدوا فى أداء واجباتكم العسكرية ومن المعلوم أن سعيى واجتهادى متجه إلى إصلاح الأحوال وتحسين الأمور وهيئة النظار الحاضرة متحدة معى فى هذه المقاصد الخيرية ومجتهدة فى تتميم ما يجب من الإصلاحات اللازمة وليس بخاف عليكم ما تم بهذا

القطر من الإصلاحات المالية والإدارية فى ظرف سنة واحدة وذلك مما يوجب على كل محب لهذا القطر إبداء الشكر وإظهار المسرة وحاصل ما أقول لكم إن العساكر ليس لهم وظيفة سوى التمسك بالقوانين العسكرية والسعى فى أداء واجباتهم والامتثال لولى أمرهم وإنى لعلى يقين من أنكم تعتقدون بأن أكمل الصفات العسكرية هى الاستقامة والامتثال فى جميع الأمور والأحوال فمن الواجب عليكم أن تحافظوا على ذلك وتجعلوا أعمالكم كلها دائرة على هذا المحور . اهـ.

فلما أتم خطابه هتفوا جميعاً بالدعاء وانصرفوا ثم توجه الأمراء الثلاثة إلى قونصلى الفرنسيس والإنجليز وتكلموا معهما فيما هم عليه من السكينة والتمسك بالحدود والقوانين العسكرية وأن ليس هناك قط ما يدعو إلى القلق أو الاضطراب ولله درّ من قال:

فلا يمنعنك الطير شيئاً أردته فقد خط بالأقلام ما كنت لاقيا

ولم يكن يرضى الرئيس رياض باشا عما بدا من الخديوى من والعفو السماح ولا عما وقع من خلع عثمان رفقى باشا من منصبه ولا عن تولية محمود باشا البارودى مسند نظارة الجهادية فجعل يرقب الفرص ليوقع بالأمراء الثلاثة وصار يكيد لهم كيدا والبارودى يعمل على ما فيه المصلحة لهم والذب عنهم وما زال حتى أعيت الرئيس الحيل وكاد يخيب منه الرجاء والأمل وتحقق أن لا نجاح له ولا فلاح إلا بالخلاص من البارودى فعمد إلى معاكسته فى السر والنجوى ورماه بتهمة الخيانة وإفشاء أسرار الحكومة وأعمال مجلس الوزراء قبل تقريرها وتبليغ قونصل جنرال الفرنسيس بحوادث البلاد قبل إذاعتها، قيل: وقد كان البارودى تقرب من قونصل الفرنسيس وتحبب إليه فأحبه ومال إليه انتقاما من الرئيس لما بينهما من سابق العداوة التى تقدم الكلام عنها واشتد الخلاف بين الرئيس والبارودى شدة بالغة وشكا الرئيس للخديوى وقبح مصاحبة البارودى للقونصل وكتب إلى رئيس جمهور الفرنسيس يشكو من فعال القونصل ويعيب تداخله فى أعمال الحكومة وأوعز إلى بعض أصحاب صحف الأخبار المحلية فقاموا وقعدوا ووقعوا بالقونصل سبا وتعييبا وأكثروا من اللوم والتقريع بدولة الفرنسيس لتركها قونصلها يعمل على إثارة الخواطر وبلبلة الأفكار وأعانهم المراقب الفرنسوى على ذلك أيضاً لما بينه وبين القونصل من البغض والمزاحمة على النفوذ.

(مطلب)

اشتداد الخلاف ما بين قونصل الفرنسيس والرئيس مصطفى رياض باشا وما كان من وراء ذلك

ولما اشتد الخلاف بين القونصل والرئيس وكبرت الوحشة بينهما قام جماعة من الفرنسيس نزلاء القاهرة والإسكندرية واجتمعوا بالنزل المعروف بنزل أبات بالإسكندرية يريدون تعضيد القونصل ورد كيد الرئيس والمراقب عنه فخطب فيهم الخطباء وتكلم بينهم الفصحاء فى ذلك اليوم وهم يقبحون أفعال الرئيس والمراقب وكتبوا بذلك محضرا وبعثوا به إلى مجلس نواب بلادهم وسألوهم أن لا يغيروا شكوى الرئيس ووشاية المراقب جانب الالتفات وأن يستبقوا القونصل فى منصبه كى لا يهدموا بأيديهم ما بناه القونصل بديار مصر من العز ونفوذ الكلمة فلم يكد يصل خطابهم إلى عاصمة الفرنسيس حتى جاء الطلب إلى القونصل مع البريد فهاج أصحابه وماجوا ورفعوا عريضة ثانية إلى كبير جمهورهم فلم ينالوا وطرا وسار القونصل عن القاهرة فى غاية ربيع الأول من السنة فشيعه العدد العديد من الفرنسيس وبالغوا فى الاحتفال بوداعه وألقوا المقالات المهيجة وهم على ظهر الباخرة التى نزل بها راجعا إلى بلاده وفرح أصحاب صحف الأخبار الإنجليزية بخلع القونصل وتبعيده عن ديار مصر واتهموه بالاشتراك فى مؤامرة الجند وخروج الأمراء الثلاثة وقالوا إنه هو الذى حضهم على شق عصا الطاعة نكاية بالرئيس وأصحابه فرد عليهم أصحاب صحف أخبار الفرنسيس وأغلظوا فى الرد وتجافوا فى القول وقامت بينهم حرب الأقلام على قدم وساق واشتد الغيظ بأصحاب القونصل وقام زعيمهم المدعو الموسيوجاكن وألف لجنة أو عصابة سماها العصابة الوقتية المكلفة بالدفاع عن مصالح الفرنسيس بأرض الفراعنة وكتب إلى كبير جمهور الفرنسيس يقول: إنى بصفتى رئيس اللجنة المؤقتة المكلفة بالدفاع عن مصالح الفرنسيس فى ديار مصر أطلب بإلحاح أن تنظروا بعين الالتفات إلى العريضة التى بعثنا بها لمقامكم على جناح البريد ثم نشر الزعيم المذكور فى رابع ربيع الثانى إعلانا يطلب فيه اجتماع كافة الفرنسيس نزلاء مصر والإسكندرية وسائر التابعين للراية ذات الألوان الثلاثة يعنى الراية الإفرنسية بالنزل المعروف بنزل أبات بالإسكندرية لإقامة لجنة دائمة تكلف بالدفاع عن مصالح الفرنسيس عوضا عن تلك اللجنة المؤقتة فلبى القوم دعوته وتزاحموا حتى غص بهم المكان فقام فيهم الخطباء والنصحاء ورموا الرئيس بالخيانة

لوطنه والمروق عن جادة الحق وبالغوا فى السب والتعييب بين أصوات التهليل وضجيج الاستحسان ثم بعثوا بعد ذلك برسالة ثالثة إلى كبير جمهورهم فلما علم الرئيس بما جرى خشى العاقبة وقد أحس بوشك رجوع القونصل إلى منصبه فتقدم إلى الخديوى فى التحرير إلى كبير جمهور الفرنسيس بمنع رجوع القونصل إلى ديار مصر كى لا يتكدر صفاء المودّة بين البلدين فأجابه الخديوى إلى ذلك وكتب .

(مطلب)

القبض على أحد الضباط الشراكسة وهو يستكتب ضباط الجند السودانى بالشكوى من عبد العال بيك حشيش

ولم يكد يطمئن قلب الرئيس باستحالة رجوع القونصل إلى منصبه حتى قام زعماء عصابة الجند وقعدوا وهاجوا وماجوا وكثر اجتماعهم فى دار البارودى وطاف أعوانهم يرجفون ذلك لأن عبدالعال بيك حشيش أمير الجند السودانى قبض على أحد الشراكسة من الضباط الذين معه وهو يطوف على جميع الضباط والعسكر السودانى يحضهم للتوقيع منهم على محضر قالوا إنه مرقوم عن لسان جميع الضباط والجند بأنهم ليسوا راضين عن أميرهم عبد العال وأنهم يطلبون العفو من الخديوى عما سلف من طاعتهم لأميرهم وإخراجهم إياه من قصر النيل قالوا: وقد ثبت أن يوسف باشا كامل كبير ديوان بيت الخديوى يومئذ هو الذى استقدم إليه الضابط المذكور وسلمه ذلك المحضر وتسعمائة جنيه ذهبا عينا وأوصاه أن يبذل جهد المجتهد فى التوقيع عليه من جميع ضباط وأفراد جند عبد العال ولكل ضابط فى نظير ذلك ثلاثة جنيهات وللجندى جنيه وله هو فى مقابلة ذلك الرفعة وعلو الكلمة فذهب الضابط وسعى وسط الجند فاستمال بعضهم وخدع بعضهم وكان ممن تكلم معه فى ذلك أونباشى أى كبير عشرة من الجنود فوافقه الأونباشى ووعده ثم تركه وذهب إلى القائمقام وأعلمه بالخبر فقام من فوره ودخل على ذلك الضابط وقبض عليه وفتشه فوجد المحضر وعليه نيف وثلاثون توقيعا فكبله بالحديد وألقاه فى الحال بالسجن وضيق عليه وسأله فاعترف بما ذكر وبأنه رسول يوسف باشا كامل فسير القائمقام فى الحال إلى عبدالعال بيك فحضر وأخذ تلك الورقة وعاد بها إلى رفاقه وأعلمهم بخبر الضابط واجتمعوا بمعسكر رحبة عابدين وأرسلوا إلى البارودى باشا فجاء على الأثر وعقدوا مجلسهم وتناجوا فى الأمر ثم قام البارودى ودخل على الرئيس وأعلمه بما

جرى فلم يهتم به ولم يلتفت إليه فساء البارودى ذلك وذهب إلى الخديوى وحدثه بما جرى فغضب ورسم بخلع يوسف باشا وتبعيده عن القاهرة فسار إلى أرض له بالإقليم البحرى وخمدت بتبعيده نار الفتنة وسكت خواطر زعماء العصابة وأخذوا من ذلك اليوم بأطراف الجد والحزامة فتقدموا إلى البارودى فى ترتيب سائر أمور الجندية على ما يقتضيه نظامها وتقييدها بالقوانين واللوائح والنظر فى حالة الترقى والجماكى والمرتبات وسنّ قانون يكون إليه المرجع فى تقدم كل عسكرى وواجباته وعدم تقييد حياته بالخدمة العسكرية وغير ذلك من أوجه الإصلاح فأجابهم البارودى إلى ذلك وكلم الرئيس مصطفى رياض باشا فى الأمر فحاول وطاول البارودى يلح فى الطلب فلما أعيته الحيلة سأل الخديوى فى ذلك فكلم الخديوى الرئيس فلم يلتفت وأصر على الإباءة فرسم الخديوى بتشكيل مجلس من جاكى باشا واستون باشا ويلتش باشا وإسماعيل كامل باشا وأحمد عرابى بيك وبرناردى بيك والمستر جولد اسمث مفتش الدار السنية وغيرهم من الضباط لينظروا فى طلبات زعماء الجند ويقدروها قدرها فاجتمعوا ووالوا الاجتماع أياما ثم رفعوا إلى الرئيس مصطفى رياض باشا محضرا بينوا فيه لزوم تقليل العسكر العامل وجعلوا حدًّا للترقى فى الدرجات العسكرية تخلصا من تزايد عدد المستودعين وقالوا: إنه يوجد من هؤلاء أى من المستودعين بعد الذين أدخلوا فى الخدمات الملكية والدواوين العمومية ما يبلغ ألفا وزيادة وطلبوا من الرئيس الإقرار على هاته القاعدة فأجابهم إلى ذلك كارها ورفعها إلى الخديوى فرسم بتنفيذها والعمل بها فبات الجند وأصبحوا وقد زادت جماكيهم وزادت أيضا المرتبات والعلوفات فظهرت عند ذلك كلمة محمود باشا البارودى وعلت منزلته واتسعت شهرة أحمد عرابى بيك وأحبه الضباط والجند كافة ومالوا إلى طاعته والاجتماع عند إشارته إلا نفرا من الضباط فسعى فى عزلهم وتولية أنصاره مكانهم.

ورأى البارودى بعيد هذا كله ضرورة الجمع ما بين زعماء العصابة والرئيس مصطفى رياض باشا وصرف ما فى النفوس لعل الأزمة تنفرج، فلماكان حادى عشرى جمادى الأولى من السنة أولم وليمة عظيمة بقصر النيل ودعا إليها جميع الوزراء والمراقبين الإنجليزى والفرنسوى وضباط الجند فلما جلسوا على الطعام قام البارودى وخطب فيهم فكان ما قاله، هذه ليلة أنس دعتنا إلى الاجتماع فيها دواعى المحبة والائتلاف تذكارا لمآثر الحكومة الخديوية الجليلة التى وجهت وجه عزيمتها إلى

إصلاح أحوال الأهالى جميعا وإقامة العدل فيهم وإيصال كل لما يستحقه فقد رأينا فى هذا الزمن القليل من عهد خديونا المعظم زمام الحكومة تغييرا مهما إذ تبدل فيه العسر باليسر والظلم بالعدل وما ذاك إلا من حسن مقاصد هذا الجناب وطهارة سجاياه ـ إلى أن قال ـ ولاريب فى هذه النعم يجب علينا استبقاؤها والاستزادة منها ولن يكون ذلك إلا إذا قرناها بالشكر فقد قالوا الشكر سياج النعم وحقيقته أن يكون جميعنا مخلصا للحكومة فى خدمته قائما بواجباتها معضدا لجميع مقاصدها خاضعا لأوامر الحضرة الخديوية التى هى السبب فى هذا الخير العظيم وعلى ذلك لابد أن نادى جميعا فليحى الجناب الخديوى أطال الله بقاءه، فقام بعده الرئيس مصطفى رياض باشا وتكلم مخاطبا طوائف الضباط ـ إلى أن قال ـ إن محسنات العدل ووجوه الإصلاح التى امتازت بها أيام حكم الجناب الخديوى فى هذه الأوطان أمر معلوم يعدّ تعداده من قبيل تحصيل الحاصل وأنتم معاشر الضباط تعلمون ذلك حق العلم فلا حاجة إلى بسط الكلام فيه وإن ضباط العسكرية وهم من أشرف أعضاء الحكومة ممن شملتهم هذه المحسنات وعمتهم فوائد الإصلاح ـ إلى أن قال ـ وقد رأيتم من أنفسكم أن حقوقكم وصلت إليكم وأنتم قوة الحاكم وآلته المنفذة فإذا بادأكم الحاكم بحسن الالتفات ونظر إليكم بعين الرأفة والرحمة فعليكم وجوبا كما أخذتم مالكم أن تؤدّوا ما عليكم وهو طاعة ولى الأمر الذى هو السبب الأعظم فى جميع هذه الخيرات ـ إلى أن قال ـ وعلينا جميعا أن نبتهل إلى الله تعالى ببقاء الخديوى وتأييد عزة وأن نادى بلسان الحال فليعش الجناب الخديوى فأجابه الحاضرون على ذلك .

(مطلب)

فى عمد أحمد عرابى بيك إلى استمالة أهل البلاد

قلت: ولم تكن هذه المآدب والخطابات والتمدح بطاعة الجند لتذهب ما فى نفوس زعماء العصابة من البغض للرئيس مصطفى رياض باشا ولا لتقلل من همتهم فى العمل على خلعه والتخلص منه فإنه لما تمكن أحمد عرابى بيك من طاعة جميع الجند ومحبة سائر الضباط عمد إلى استمالة أهل البلاد وعمدها ومشايخها ومشايخ قبائل العربان والتقرب من جماعة العلماء والمشايخ والوجهاء ثم جعل يبعث البعوث فكانوا يجوبون البلاد ويهيجون العامة ويضرمون فى صدورهم نار البغض للرئيس وأعوانه وتخطى به الخروج إلى أن كتب إلى عمد وأعيان البلاد القبلية والبحرية على

أيدى رسله يقول: إن الوزارة الرياضية يعنى الهيئة التى يرأسها مصطفى رياض باشا قد ركبت متن الشطط وعدلت عن الصراط المستقيم وليس لها من نية سوى العمل على مافيه اضمحلال البلاد وتلاشيها بما هو جار من بيع الأراضى الكثيرة للأجانب وتسليم أغلب مصالح الحكومة لهم وإعطائهم الرواتب الفادحة المثقلة على أكتافكم فضلا عن أنها رسمت برفع الأحجار الطبيعية الموجودة ببوغاز إسكندرية لتتمكن سفن الأجانب من الدخول إلى جوف البلاد بلا ممانع وإن سكوتنا وإضرابنا عن هذا كله يعدّ من الجبن والعجز والتفريط فى وطننا ومقر نشأتنا فاعلموا يا معاشر الوطنيين أن أولادكم القائمين بالخدمة العسكرية قد اتكلوا على البارى سبحانه وتعالى وعزموا على منع كل إجحاف بحقوقكم والذود عنها جهد الاستطاعة ولا يخفاكم أن هذا لا يتم إلا بتنزيل وزارة رياض باشا وخلعه من منصب الرئاسة وتشكيل مجلس نواب للبلاد لينال وطننا الحرية المطلوبة والمقصود هو أنكم توقعون على الكتابة المرسلة إليكم على يد حاملها والغاية منها جعلى نائبا عنكم فى كل ما يتعلق بأحوال البلاد، فأجابه إلى ذلك كثير من عمد البلاد وأعيانها وغيرهم من المزارعين وأصحاب الأراضى واتفق فى غضون ذلك أن قام الخديوى وحاشيته ورجال ديوانه إلى مدينة الإسكندرية لقضاء فصل الصيف فيها على عادته فى كل عام وتبعه الرئيس وهيئة مجلس الوزارة فخلا الجو لزعماء العصابة فأكثر رسلهم من التطواف على بيوت الأعيان والدخول فى مجالس أصحاب الكلمة المسموعة وهم يرجفون ويقبحون فعال الرئيس ويحضونهم على تعضيد العصابة والأخذ بيد زعمائها، وظهر فى هذا الحين نجم من ذوات الذنب فكان يرى فى كل ليلة بشكل جلى حتى لضعاف البصر فهال الناس ظهوره وخافوه وأخذتهم الطيرة وجعلوا يتأولون ظهوره إلى رموز وإشارات شتى ويقولون: إن هذه السنة أى سنة ثمان وتسعين لا تتم دون وقوع أمور مهمة وحوادث مدلهمة بل حروب وكروب وخطوب وقطوب وقد نسبوا إليه جميع الوقائع والحوادث التى وقعت فى غير ديار مصر، وتكلم أصحاب صحف الأخبار عن هذا النجم فقالوا: إنه النجم ذو الذنب الذى سبق فتكلم عنه المعلم مبل الفلكى الشهير فقال: إنه ظهر فى سنة ست وسبعمائة وألف ميلادية وشاهده فى سنة سبع وثمانمائة وألف ميلادية واستدل على أنه سيعود بعد أربع وسبعين سنة من هذا التاريخ، ونقل بعض أصحاب تلك الصحف أيضا أن أحد المنجمين الأقدمين تنبأ بأن العالم بأسره سينقرض نهارا فى رابع عشرى نوفمبر سنة اثنتين وثمانين وثمانمائة

وألف ميلادية يعنى فى ثانى المحرم افتتاح سنة تسع وتسعين ومائتين وألف هجرية قال: وتستمر الأحوال من هذا التاريخ إلى ثامن ديسمبر يعنى سابع عشر المحرم أى مدة خمسة عشر يوما يأتى كل يوم منها بداهية دهياء وأن النوع البشرى ينقرض فى اليوم السادس من ديسمبر المذكور الذى هو يوم عيد القديس نيقولاس العجائبى بعد أن يشاهد الكثير من هذه النوازل الطامة التى منها تلاشى أسماك جميع البحار وأن يوم البعث والنشور يكون فى ثامن ديسمبر بحيث لا يستغرق إلا يوما واحدا قال المتنبئ: ثم يعود بعد ذلك كل إلى وظائفه العادية أ.هـ.

«قلت»: فكان أهل القاهرة عند ظهور ذلك النجم يحيون الليالى وهم على أسطحة البيوت مولولين وكانت لا تمضى لحظة إلا ويسمع فيها من يقول قد دنت الساعة وبعد أيام كذا تقوم القيامة ومنهم من ترك أشغاله وتأهب للرحيل إلى دار الخلود ومنهم من اقتصر على الصلاة فى المساجد ومنهم من باع حلى امرأته واشترى له قبرا وكانوا يقضون اليوم فى بيوتهم وهم يضربون بالعصى على بعض أوانى النحاس ويضجون ويعجون ويقولون: يا لطيف يالطيف فإذا سألهم سائل عن ذلك قالوا: الناس تتحدث به وهذا نجم الذنب ظاهر للعيان، وقد اعتقد الناس أنه دليل صحيح على حدوث أمر خطير فى هيئة الحكومة أو كرسى الخلافة والولاة وغير ذلك، وكان مما زاد أهل البلاد خوفا وتطيرا إرجاف الضباط الذين كانوا يجوبون البلاد ويلقون بين أهاليها الأراجيف الباطلة والإشاعات الكاذبة ويستفزونهم إلى الخروج عن طاعة ولاة الأمور ويحضونهم على عدم دفع الضرائب والمكوس لأصحاب الجباية ويوسوسون لهم بأن ما كان فى البلاد من الضنك والخراب وإمحال الأرض إنما هو من فعال الرئيس وبغضه للأهالى ورغبته فى تسليم البلاد للإنجليز حتى صدّقوا ذلك وأحلوه محل الاعتبار وعمّت هذه الأراجيف البلاد شرقا وغربا فنجم عنها أن كره أهلها سائر الأجانب المستوطنين فى البلاد وطمعت نفوسهم فى أموالهم وأرزاقهم فكان إذا استدان أحد دينا من أحد هؤلاء التجاروحل أجله ماطل وحاول وطلب المهلة فإذا شدد عليه الطلب أنكر الدين وهدد صاحبه وتوعده فخاف جميع التجار وانكمشوا وقلت ومعاملتهم لأهل البلاد ونزح الكثير منهم إلى المدن الكبيرة وقد تبدل ورقهم ورقا حتى تعطل البيع والشراء وبارت الأرزاق ومحاصيل البلاد لتخوف المشترين من الأجانب وتعذرت الجباية وقلت حيلة أصحابها وذهب الأمن من جميع الجهات وعاث أهل الفساد وكثرت اللصوص فشدد الرئيس على

المديرين ومأمورى الحكومة بمراقبة الأحوال ومنع هذه القلاقل وإيقاف تيار الفتنة فلم يفلحوا لفساد أخلاق العامة وميل أهل البلاد إلى الأباطيل والأخذ بأقوال الأولياء والمشايخ والمكاشفين من رجال الوقت وأصحاب الزايرجات التى كان يذيعها ضباط الجند بين أهل البلاد.

(مطلب)

قيام جند الإسكندرية
بسبب موت أحدهم بصدمة من عربة أجنبى

وبينما كانت أفكار العامة فى اضطراب وقلوبهم تتقد غيظا من النزلاء ويتمنون لو أنهم يبطشون بهم جميعا إذ حدث بمدينة الإسكندرية أن جنديا من مرابطى القلاع كان سائرا بميدان المنشية فصدمته عربة لأحد النزلاء فسقط ميتا فى الحال فرآه بعض رفاقه فأسرعوا إليه وطلبوا سائق العربة فلم يجدوه وكان كمن قمس فى الماء أو عرج به إلى عنان السماء فحملوا جثة رفيقهم وساروا بها إلى سراى رأس التين وخلفهم الخلق الكثير من السوقة والغوغاء وهم فى صياح وجلبة فإذا مروا بأجنبى أوسعوه شتما وسبا وتهديدا وكثر صياح الغوغاء وتخطفهم الأشياء من حوانيت الناس فخاف الناس العاقبة وأغلقوا حوانيتهم وشاع الخبر فتلاحق بهؤلاء الجند نفر من أصحاب الشرطة يريدون أخذ الجثة منهم فمانعوا وأبوا إلا الصعود بها إلى مقر الخديوى ومازالوا سائرين بين صياح العامة وولولة النساء حتى دخلوا حوش رأس التين ووضعوا جثة رفيقهم تجاه شباك مجلس الخديوى وصاحوا نصرك الله يا أفندينا ما يحل للنصارى قتلنا فى أيامك ائت لنا بصاحب العربة يا أفندينا نصرك الله على أعداء الدين فأشرف الخديو فى الحال من الطاق ولاطفهم وهوّن عليهم ووعدهم ورسم بحمل الجثة إلى دار صاحب الشرطة فصاحوا ما يحل ذلك يا أفندينا النصارى النصارى تقتلهم جميعا فأرسل إليهم بعض ضباط حرسه يطمنون خواطرهم ويهوّنون عليهم فلم ينكفوا عن النداء والصياح وحضر فى هذه الأثناء صاحب الشرطة ومعه نفر من أعوانه فحملوا الجثة قهرا وساروا بها وخلفهم الغوغاء وجاء الخبر بذلك إلى القاهرة فبالغ الناس فيه وخلطوا وخبطوا حتى قالوا: إنه قد قامت الحرب بين الجند والطوائف الافرنجية بشوارع الإسكندرية والأمر يومئذ على غير ذلك فقد قبض صاحب الشرطة على رفاق ذلك الجندى وألقاهم فى السجن أياما ثم حكموا عليهم بالعقاب الشديد فلما شاع خبر الحكم عليهم تحرك جند الإسكندرية وأظهروا غاية

السخط وعدم الرضا عما أصاب رفاقهم ثم كثر تطوافهم في ذلك اليوم في الأزقة والحارات التي تسكنها الطوائف الإفرنجية فعم الخوف جميع سكان الإسكندرية وجاء الخبر إلى البارودي فأبلغه للرئيس مصطفى رياض باشا فلم يعره جانب التصديق وظنه فرية أو هو من أراجيف زعماء العصابة التي ما برحوا يذيعونها للتهويل والإرهاب.

(مطلب)

تطواف عبد الله النديم على أهل البلاد يستنصرهم لرجال عصابة الجند

وأوعز في هذا الحين أحمد عرابي بيك إلى رجل من أهل البلاد اسمه عبدالله نديم صاحب صحيفة من صحف الأخبار اسمها (التنكيت والتبكيت) أن يجوب الأقاليم القبلية والبحرية ويدعوالناس إلى نصرة زعماء العصابة ويستفزهم إلى طلب تشكيل مجلس نواب للبلاد كما كان على عهد إسماعيل باشا لينالوا بواسطته مالم يقدروا على نواله الآن من الرئيس مصطفى رياض باشا وكان عبدالله هذا قوى الحجة فصيح اللسان قوّالا سهل العبارات عذب المنطق مفلقا مهيجا بذلاقة لسانه وقوة حجته وبيانه قد عرف عادات البلاد وأميال أهلها فطفق يجوب المدن والبنادر والقرى ويخطب في الناس ويقص عليهم حديث أجدادهم وأخبارهم وما ألم بهم من الجور والعسف وماحل بالبلاد على أيامهم من الويل والخراب وكان يصعد على منابر الجوامع ويخطب جهارا وعيناه تذرفان الدمع فافتتن الناس ومال إليه خلق كثير من الأعيان والوجهاء من كل صوب وحدب فلما آنس منهم ذلك كتب محضرا وذكر في عرض عباراته أن أهل البلاد كافة يدعون ولاة الأمور ومن بيدهم زمام الأحكام إلى تشكيل مجلس تكون أعضاؤه من أهل البلاد البحرية والقبلية للذب عن حقوقهم واستخلاصهم من ربق الاستعباد الذى أثقلهم فوقعوا عليه جميعا وسموه المحضر الوطني وعاد عبدالله بذلك المحضر إلى القاهرة وسلمه إلى أحمد بيك عرابي ففرح به وتقوت عزائم زعماء العصابة فنهضوا إلى طلب الشيء الكثير من المطالب وسألوا زيادة عدد العسكر العامل إلى ثلاثين ألفا، وجعل زمام الجيش وإدارة جميع أموره بيد أمراء الآلايات دون غيرهم ـ وزيادة جماكى العسكر ـ وتعديل قوانين العسكرية وغير ذلك مما لم يكن للرئيس مصطفى رياض باشا في حساب وكتبوا بجميع ذلك محضرا ورفعوه إلى الرئيس على يدى البارودي فحرك ذلك ساكنا من قلب الرئيس

ولكنه جعل يطاول ويحاول ويمني البارودى، والبارودى لاينكف عن الطلب ولم تفتر له عزيمة وبلغت منه الشدة يومئذ مبلغها قيل: فكاشف الخديوى على ماخفى من فعال الرئيس وحقق له أن الرئيس إنما يعمل منذ اليوم الذى عفا عنه الخديوى عن الجند وزعماء العصابة على سلب امتيازات الخديوى وإذهاب حقوقه الذاتية وأطلعه على كثير من الأمور الخفية التى لم تكن تخطر له على بال، قال الراوى: فاندهش الخديو من ذلك وتزايد قلقه وكاد يظهر للرئيس ما يخفيه من بغضه إليه وحقده عليه ولكنه اعتصم بحبل التأنى ورسم بأن لا تعقد هيئة مجلس الوزراء إلا برئاسته وأن لا يقع شيء إلا بعد مشورته وأن لا يأتى الرئيس عملا إلا بعد التصديق عليه منه فأجابه الرئيس بالسمع الطاعة ولكنه لم يطق الصبر عليه فكان إذا أطلع الخديوى على شئ أخفى عنه أشياء وإذا أخبره بأمر ستر عنه أمورا والخديوى يتغافل ويظهر الصبر والتجلد وبقى الحال على هذا المنوال أياما.

(مطلب)

تقرب البارودي من المراقب الفرنسوى وقونصل جنرال الفرنسيس وما كان من وراء ذلك

وتقرب البارودى من المراقب الفرنسوى واستماله فمال إليه وقربه من المسيو سنكوفيتش قونصل جنرال الفرنسيس الذى جاء خلفا للمسيو دى رنج المعزول الذى تقدم لنا الكلام على أعماله وحوادثه مع الرئيس رياض باشا. قال بعض الكتاب: وتحابوا توادّوا فرأوا من الخديوى عينا راضية وأذنا صاغية فلم يبق عند الناس من هذا الحين شك فى أن للخديوى يدا فى جميع هذه الحوادث وأنه راض عن فعال زعماء العصابة انتقاما من الرئيس للأسباب التى تقدم بيانها واشتدت عزيمة البارودى وتقوت أنصار أحمد عرابى بيك وتقدم البارودى إلى الرئيس فى طلب تنفيذ مطالب أمراء الجند التى تقدم بيانها وشدد فى ذلك وألح وهدد الرئيس فكبر الأمر على الرئيس وشكا إلى قونصل جنرال الإنجليز ما يلاقيه من المراقب وقونصل الفرنسيس والبارودى وزعماء العصابة، قيل: فهون عليه القونصل وشدد عزيمته وحسن له الإصرار على الإبادة. قال بعض العارفين بأساليب تلك السياسة: إن القونصل إنما أراد بذلك اشتداد الفتنة واستفحال الخلاف فعمل الرئيس بمشورته وأخذ بقوله ومانع البارودى وأغلظ له فى القول فقابله البارودى بما هو أشد وأنكى وأوعز إلى زعماء العصابة فقاموا وقعدوا وأكثروا من عقد المحافل وإلقاء خطب التهديد على لسان

عبدالله صاحب (التنكيت والتبكيت) وكثر الأخذ والرد بين الرئيس والبارودى وكلم قناصل الدول الخديوى فى ذلك فأرسل الخديوى فى سادس عشر رمضان يستقدم الرئيس وجميع الوزراء إلى الإسكندرية فساروا إليه وانعقد مجلسهم فى ساعة وصولهم فكلمهم الخديوى فى أمر ذلك الخلاف وحذرهم من الفتنة وحركة الجند وعرض بذكر أعمال الرئيس وتجافيه وحطه من مقام الخديوى وقال: لابد من تنزيل الوزراء وخلعهم جميعا وأن يتقلد هو رئاسة المجلس ويتولى النيابة الوزير محمد شريف باشا كى تخمد نار هذه الفتنة وترجع الأمور إلى سابق مجراها وشدد فى ذلك وعنف الرئيس. قال الراوى لهذا الخبر: فتغيرت عند ذلك أحوال الرئيس واصفر لونه وقال: لست بمتخل عن منصبى ولا أنا بمنزل نفسى وفىّ بقية من الرمق بل لن أعترف بمايطلبه الخديوى من تقليده نفسه رئاسة مجلس الوزراء فأجابه على ذلك البارودى وجعل يؤنبه ويعدد معايبه ويذكر للخديو ما ينويه الرئيس من السوء للبلاد وأهلها فكثر بينهم الأخذ والردّ واشتد اللد فتلجلج الرئيس وضعفت حجته وفاز البارودى أو كاد فكبر الأمر على قونصل جنرال الإنجليز وقد كان حضر مجلسهم وهم يتحاجون فانتصر للرئيس وبالغ فى الدفاع عنه فكثرت عند ذلك الغوغاء وعلت الضوضاء وأظهر البارودى ثباتا وحزما وتقدم إلى الخديوى فى قبول تنازله عن منصبه وألح على الخديوى وترامى على أقدامه، وقال: والله لن يجمع بينى وبين رياض باشا مجلس فأجابه الخديوى إلى ذلك ورسم فى الحال بتقليد الأمير داود باشا ابن الأمير أحمد باشا يكن منصبه ثم انفض مجلسهم على ذلك فى نحو الساعة السابعة عربى من تلك الليلة وفى النفوس مافيها، وفرح الرئيس مصطفى رياض باشا بخلع البارودى وظن انفشال أصحاب الحركة وانصرام حزمتهم فقرب إليه الأمير داود واستحثه على عدم التهاون حتى بصغائر الأمور فشدد الأمير على صغار الضباط ومنعهم من الاجتماع ليلا فى بيوت بعضهم وحرر بذلك منشوراً وأوعد كل من يخالف بالتبعيد إلى أقاصى السودان فلم يرتدوا وظلوا على ماهم عليه من الخروج ليلا وتطواف بعضهم على بعض فأنفذ إلى الدراملى صاحب شحنة القاهرة بالقبض على كل من يراه منهم ليلا فطاف الدراملى ليلا ونهارا فلم يفلح إذ كانوا يتهددونه ويتوعدونه بالقتل وكان إذا هم بعمل شىء علموا به قبل الشروع فيه وسدّوا عليه جميع أبوابه فلما أعيته الحيل تمارض وطلب التخلى عن منصبه فأنزلوه وولوا مكانه عبدالقادر باشا أحد أمراء الجند على عهد إسماعيل باشا فتدبر وجعل يكثر من التطواف والتشديد ولكنه لم يفلح أيضا إذ عصاه أصحاب الشرطة ونبذوا

كلمته وعكسوا عليه عمله وأفسدوا تدبيره واتهمه ضباط الجند بأنه إنما يطوف حول دار أحمد عرابى ليفتك به وأذاعوا ذلك بين العامة فتحدثوا به وخلطوا وخبطوا فخاف عبدالقادر باشا شر العاقبة ولازم بيته أياما بحجة أنه مبطون وكلم الأمير داود الرئيس مصطفى رياض باشا فى ذلك فاستعظم الأمر ولم يطق الصبر على حر هذا الجمر ورسم بالتشديد وعدم الكف عن التهديد حتى يرجعوا صاغرين.

وبينما الناس فى شاغل بالحوادث المترادفة والبلايا المتراسلة إذ ظهر أيضا نجم جديد من ذوات الذنب ولم يكن غاب النجم الأول غير أنه صار ضعيف الضوء لايكاد ينظر إلا بالجهد وكان هذا النجم الجديد صغيراً لا يتجاوز الست درجات ولا يظهر جدا لشدة ارتفاعه فى الشمال الغربى بأسفل الدب الأكبر ومع ذلك فقد كان ينظر فى نحو الساعة الثالثة عربى ليلا إلى بعد نصف الليل بساعة فلما رآه الناس عادوا إلى التخوف والتطير وجعلوا يحيون الليالى على الأسطحة ورؤوس الجدران يرصدونه وهم فى ضجة وولولة وابتهال إلى الله أن يرفع عن البلاد وأهلها ما يستقبلها من الخطوب وكان ظهور هذا النجم فى خامس عشرى رمضان من السنة أى سنة ثمان وتسعين ومائتين وألف هجرية .

(مطلب)

ورود الخبر من عمال السودان بظهور كذاب يدعى المهدوية

فلما كان سابع عشريه وردت الأخبار من عامل السودان بظهور رجل كذاب يدعى أنه المهدى المنتظر على رأس القرن الثانى عشر من الهجرة المحمدية واسمه محمد أحمد وكان سبب ظهوره أنه لما سار جماعة من العسكر السودانى بمديرية آيا الكائنة بالنيل الأبيض وهى مستقر المهدى المذكور ليأتوا به إلى مقر الوالى وقد تنبه على مقدّمهم بأن لا يسير إليه إلا ومعه قاضى بلدة الكوة فلم يأخذ معه القاضى وسار بعسكره فى الساعة الثالثة ليلا فلما قربوا من مقر المهدى وجدوا عنده زهاء المائتين من الدراويش مزججين بالرماح والبنادق فأوعز مقدم العسكر إلى العسكر بأن يطلقوا النيران على أولئك الدراويش ليمزقوا جمعهم فامتنع العسكر من ذلك وقالوا: لا نضرب قوما فقراء ولا نقاومهم لأنهم من الدراويش فأحس الدراويش بهم فركبوا عليهم وأعملوا فيهم القتل بحد السيف فقتلوا نيفا ومائة عسكرى وستة من الضباط وفرّ من بقى والتجئوا إلى النيل، ولما رجع أصحاب المهدى إليه ظافرين اشتد ظهره وتقوت عزيمته وبث الدعاة فى البلاد فلبى دعوته كثير من البقارة وأهالى

الجبال وكثرت لومه فعبر بهم إلى الجانب الغربى وظهر من هذا الحين أمره وعلت كلمته ثم دخل بلدة حبال نقلى إحدى بلدان مديرية كردفان بأراضى البقارة وجعل بها مقره وطير الخبر إلى الآفاق يدعو الناس إلى طاعته ويستحثهم على الخروج عن طاعة الكفرة الملحدين فجمع الوالى عند ذلك لقتاله جماعة من الباشيبوزق والجند وسيرهم إلى فاشوده ليسيروا منها غربا والوالى يومئذ رؤوف باشا وأرسل إلى القاهرة فى طلب المدد من الرجال ومعدات الحرب فسر الرئيس مصطفى رياض باشا بذلك وظن بلوغ المأمول ورسم إلى الأمير داود بأن يسير إليه طائفة من مرابطى قلعة الجبل وأخرى من جند أحمد عرابى بك النازلين بالعباسية فأحس زعماء العصابة بما وراء ذلك فبثوا أعوانهم يشيعون تكذيب خبر الفتنة بالسودان ويقولون: إنها مناوشات بين البقارة وسكان الجبال لابد منها عند خروج أصحاب الجباية لجمع الخراج فشدد الأمير داود فى طلب خروج العسكر والمعدات فامتنع كبارهم وبالغوا فى الامتناع وتجرد عبدالله صاحب (التنكيت والتبكيت) للذب والدفاع وكثر بين الفريقين الأخذ والرد فكلم الرئيس مصطفى رياض باشا المستر ماليت قونصل جنرال الإنجليز فى ذلك واستعان به فأعانه وتقدم إلى الخديوى فى طلب صرف جميع الجند إلى أوطانهم علها تسقط كلمة أحمد عرابى ويذهب نفوذ زعماء العصابة فرسم الخديوى بذلك إلى الأمير داود فجمع الأمير داود كبار الجند من جماعة الشراكسة وكلمهم فى الأمر فأجابوه بالسمع والطاعة ولكنهم لم يفلحوا حيث رأوا من صغار الضباط غاية الممانعة والرفض فعملوا على استرضائهم فلم يتمكنوا وكان الأمر على غير ما يريدون، فلما أعيتهم الحيل وكاد يخيب منهم الرجاء والأمل كتب الأمير داود مرسوما فى ثالث عشر شوال إلى جميع طوائف الضباط ينهاهم عن الاجتماع ويحذرهم من شر العاقبة وطاف فى ليلة تحريره ذلك المرسوم على بيوت الضباط ليرى ما سيكون من أمرهم فرآها غاصة بجماهيرهم وهم فى هرج وجلبة فأصبح وقد كتب إليه عبد العال بيك أمير الجند السودانى يطعن فى مرسومه ويعيب قوله ويرمى الهيئة الحاكمة بالجور والعنف ويقول إن هذا النهى مما لا يصح الامتثال إليه إذ هو مخالف للقوانين العسكرية وإرادة أمير البلاد ومقتضيات الملة الحنيفية وأن تعاضد الجند واتحاد العسكر فى أمورهم وتقوية عزائمهم بالتزاور وتآلفهم وتجمعهم فى أعمالهم كل ذلك عنصره القوة والنظام العسكرى فى كل أمة وملة ولا سبيل إلى النهى عنه فاستعظم الأمير داود هذا الجواب وأكبر مافيه من الغلظة والتعنيف وقام من ساعته وسار إلى قصر النيل وجمع ضباط الفرسان المرابطين هناك وجعل

يستميلهم ويمنيهم بالأماني العظيمة ومازال بهم حتى استمالهم واستمال كذلك ضباط فرسان قلعة الجبل وكان قبل هذا الحين قد استحلف ضباط الآلاى الخامس النازلين بمدينة الإسكندرية وضباط الحرس الخديوى وظن إخلاصهم والاعتماد عليهم عند الحاجة فلما تم له ذلك رسم إلى أحمد عرابى بالقيام بجميع عسكره إلى مدينة رشيد وإلى جند قلعة الجبل بالقيام إلى دمياط وأنفذ إلى مقدم جند دمياط أن يأتى بعسكره إلى مدينة الإسكندرية وإلى مقدم جند الإسكندرية بالحضور إلى القاهرة عند انحدار جند أحمد عرابي وجند قلعة الجبل إلى رشيد ودمياط، فلما وصل مرسوم الأمير داود إلى مقدم جند القلعة بالانحدار إلى رشيد وكان ممن لا يميلون إلى أحمد عرابى وأصحابه جمع الضباط الذين معه وتلا عليهم المرسوم واستحثهم على التأهب للخروج مع العسكر إلى رشيد فقالوا لا نخرج فراجعهم فعنفوه وانحدر جماعة منهم وأعلموا زعماء العصابة بما جرى فخافوا العاقبة وجمعوا فى الحال جميع ضباط الجند الذين بالقاهرة وطرا والعباسية فى معسكر الحرس الخديوى وقام فيهم أحمد عرابى خطيبا فشكى من فعال الأمير داود وبالغ فى الشكوى وعظم البلوى وأطال الكلام عن الاتحاد والتعاضد وما فيهما من الخير والأمن على الأرواح ثم استحلفهم جميعا على السيف والكتاب بأن تكون أرواحهم موقوفة على حفظ الوطن من شر الأعداء والاحتراس على موارد إيراده من أيدى الطمع وبأن يكونوا جميعا على قلب رجل واحد ثم أعلمهم بأنه قد اجتمعت الكلمة على تسليمه زمام الزعامة وأن يكون المرجع فى كل الأمور إليه.

(مطلب)

كيف كان اجتماع العسكر بميدان عابدين وما كان من وراء ذلك

وانقضى مجلسهم فكتب أحمد عرابى بيك إلى الأمير داود يقول: قد تحقق لنا ولعموم ضابطان الجهادية وأفراد العسكر صدور أمركم إلى الآلاى السادس بالتوجه إلى الإسكندرية بدون باعث ولا سبب يقتضى ذلك ولكن علمنا أن المراد تفريق القوة العسكرية ليسهل الانتقام منا والتمكن من الغدر بمن هم محافظون على الطاعة والإخلاص ولا ذنب لهم سوى طلب الإصلاح فليكن معلوما لدى سعادتكم أننا لا نسلم أنفسنا إلى الموت وأن كافة الآلايات ستجتمع يوم تاريخه فى الساعة التاسعة نهارا بميدان عابدين للنظر فى حل تلك المسائل بحيث إن هذه الآلايات لا تتحرك من

موضعها إلا إذا حصل التأمين الكافى لسنّ قانون عادل يوقف كل إنسان عند حده وسنشعر وكلاء الدول الأجنبية بما يلزم ا.هـ بنصه.

وكتب إلى قناصل الدول أيضا يقول: أتشرف بأن أحيط علم جنابكم أنه من أول شهر فبراير سنة إحدى وثمانين أى من وقت ابتداء الفتنة التى أحدثها عثمان رفقى باشا إلى الآن قد مضى فوق السبعة أشهر وفى كل هذه المدة تقاسى العسكرية أتعابا وتتحمل مصائب ونوازل وتهديدات وتتوقع الفتك والإعدام غدرا وخديعة ومن هذه المصائب حادثة يوسف باشا كامل وكيل الحضرة الخديوية ونازلة فرج بك السودانى وواقعة التسعة عشر ضابطا الذين كانوا يدسون الدسائس. قلت: وهاتان الحادثتان لم أذكرهما لعدم أهميتهما يومئذ، ونحن مع كل ذلك نسعى فى تحسين الحال وقطع المفاسد بالحكمة والتدبير رغبة فى الحصول على الراحة العمومية وحقن الدماء والمحافظة على كافة تبعة الدول المتحابة ومن وقت أن تشرفت مصر بالحضرة الخديوية أخذت الفتن والدسائس تزداد إلى أن شرع فى تجزئة الجيش المصرى وتفريقه تسهيلا للغدر والانتقام فلهذا التزمنا بالمحافظة والمدافعة عن أنفسنا وأعراضنا إلى أن يأتينا أمر دولتنا العلية الذى يترتب عليه حفظ بلادنا ومن فيها وقد دعت الحالة إلى تحرير هذا لجنابكم لتعلموا بأننا متمسكون بالمحافظة على حقوق التبعة الأورباوية واقبلوا مزيد الاحترام. أ.هـ.

فلما وقف الأمير داود على ما فى خطاب أحمد عرابى بيك تكدر وقام من فوره ودخل على الخديوى بعابدين وكان الخديوى قد عاد من الإسكندرية منذ أيام وحدثه بخبر تحزب جميع الضباط وما فى خطاب أحمد عرابى بيك فسير الخديوى فى الحال فى طلب الرئيس مصطفى رياض باشا وجميع الوزراء وبينهم المستر كولفن المراقب الإنجليزى لغياب ماليت قونصلهم الجنرال فحضروا فعقد مجلسا وتناجوا فى الأمر طويلا وكثر بينهم الأخذ والرد فأوقعوا اللوم على الرئيس وعابوا عليه جميع أفعاله وبينما هم على هذا الحال إذ حضر من يعلم الخديوى بأن حرس سراى القبة التى هى مقر نساء الخديوى قد انضموا إلى عسكر العباسية وتركوا مراكزهم فظهرت عند ذلك على وجوه جميع الحاضرين علامات الدهشة والخوف واشتد بهم القلق وانفض مجلسهم على ما لم تصل إلينا معرفته إلى الآن، وفى نحو الساعة السادسة نهارا عاد الرئيس مصطفى رياض باشا ومعه سائر الوزراء فعقدوا مجلسهم ثانية وتكلموا فى الأمر وبينهم كولفن المراقب الإنجليزى فتقدم كولفن إلى الخديوى فى إبلاغ المسيو سنكوفيش قونصل جنرال الفرنسيس بخبر هذا الحادث إذ كان فى هذا

اليوم بمدينة طنطا فرسم له بذلك فغاب كولفن ساعة ثم عاد فأعلمه الخديوى بأن جند الحرس وجند الآلاى الثانى على قدم الاستعداد لإرغام جند أحمد عرابى وإرجاعهم إلى الطاعة وأنه على عزم الذهاب ومعه جميع الحاضرين إلى معسكر الحرس لتحقيق صدقهم وإخلاصهم جميعا بكلمة الإخلاص وهتفوا بالدعاء له فسار هو ومن معه إلى قلعة الجبل ودعا إليه رضا باشا مقدم العسكر النازلين بها ورسم إليه بأن يسير إلى أحمد عرابى بك من يخبره بأن لا يتحرك بجنده ولايأتى إلى ميدان عابدين بشىء من المدافع وفى هذه الأثناء حضر المستر كوكسن كاتب المستر ماليت قونصل جنرال الإنجليز فقص عليه كولفن تفاصيل الحادثة فنزل من فوره من القلعة وبعث بها إلى عاصمة الإنجليز على جناح البرق ولما صار الخديوى ومن معه فى جوف القلعة اجتمع حوله جميع الضباط وأظهروا له كمال الطاعة وحسن الولاء والإخلاص ودعوا له ثلاثا ثم نادوا بالويل والثبور على الرئيس مصطفى رياض باشا ورفاقه وطلبوا خلعه من منصب الرياسة عاجلا فقال الخديوى: ما السبب فى نبذكم للأوامر فقالوا حاشا أن نخالف لأميرنا أمرا ونحن عبيده المخلصون فى طاعته فالتفت إلى إبراهيم بيك حيدر مقدمهم التفات الاستغراب فقال إبراهيم بيك: لم يكن من سبب لنبذ الأوامر سوى إغراء فوده حسن هذا البيكباشى وأشار إليه فتقدم نحوه الرئيس مصطفى رياض باشا وأمسك بأطواقه وجذبه إليه وقال له: أمثلك من يعصى أمير البلاد ويمانع فى إجراء ما أشارت به الهيئة الحاكمة فلما فعل به ذلك نفخ أحد أصحاب البوق على الجند ونادى ضعوا الحراب ضعوا الحراب فأسرعوا جميعا ووضعوا حرابهم على أفواه البنادق وأحاطوا بالخديوى ومن معه إحاطة السوار بالمعصم وكثر ضجيجهم واشتدت جلبتهم ونادوا أطلق ضابطنا أطلقه فخلى عنه الرئيس وقد ظن أنه مأخوذ على رؤوس الحراب فالتفت الخديوى إلى الجند وقال: ألست خديويكم وولى أمركم قالوا: بلى قال: هل تأخر لأحد منكم راتب أو تعيين أو كسوة حتى جهرتم بهذا العصيان وفعلتم ماأنتم فاعلوه قالوا والله إنا مطيعون لك لانخالف لك أمرا وأنت أميرنا وولى نعمتنا ولانريد سوى خلع الرئيس وتبعيده عن خدمة البلاد فتركهم عند ذلك الخديوى وانحدر وانحدر من كان معه على عجل، قيل: وبينما هم منحدرون أشار الرئيس والمستر كولفن على الخديوى بأن ينحدر إلى عابدين قبل أن يصل إلى ميدانها أحمد عرابى ومن معه من الجند فامتنع وأصر على الذهاب إلى العباسية على غير الطريق المسلوك حتى انقطع عنه بعض فرسان حرسه

وقد غطى الغبار وجهه ولحيته وابتلت جميع ملابسه بالعرق فوصل العباسية في أقل من ساعة ودخل محلة الجند فلم ير فيها ديارا ولا نفاخ نار قيل فطرق كفا على كف وكر راجعا إلى عابدين، وأما أحمد عرابي بك فإنه لما صار الساعة الثامنة عربي نهارا نادى فنفخوا في البوق واصطف الجند وحملوا بنادقهم وساروا من العباسية فتبعهم أصحاب المدافع يجرون اثنين وعشرين مدفعا من الطراز الكبير وكان قيامه بهذه العساكر والأجناد من العباسية في نفس الساعة التي دخل فيها الخديوي قلعة الجبل فقد أرسل إليه ضباط القلعة يعلمونه بوصول ركب الخديوي إليهم وكذلك أرسلوا إلى عبدالعال بك مقدم الجند السوداني بمعسكره بطرا فتحرك في الحال عبد العال بجنوده وركبوا قطار سكة حديد حلوان ونزلوا بميدان محمد علي ثم صعدوا إلى قلعة الجبل ليقبضوا على جميع الوزراء ويلقوهم في سجن القلعة، وفي رواية ليقبضوا على الخديوي وعندي أن الأول أصح، فقد أكد بعض العارفين أن الخديوي كان على اتفاق مع زعماء العصابة إلى هذا الحين فلم يكن من موجد إذن للقبض عليه ولما لم يجدوا أحدًا بالقلعة كروا راجعين إلى رحبة عابدين فالتقوا هناك بجند العباسية والفرسان وأصحاب المدافع فتقدم عبد العال بك إلى حيث أحمد عرابي وبقية الضباط وتعانقوا ثم تصافحوا وتساروا لحظة ثم وقف كل في مقدمة عسكره وسيفه بيده مسلول وقد اجتمع حولهم العامة ما لا يحصر عدده من النساء والرجال والصبيان وما وصل جند عبدالعال بيك حتى نفخ البوق نفخات متتابعة فعلت الضوضاء عند ذلك وكثر صياح العامة وارتفعت أصواتهم بالاستغاثة وترامحوا وترامى بعضهم فوق بعض ظنا منهم أن البوق إنما يدعو الجند إلى إطلاق قنابل المدافع على المدينة وقد كان صوت البوق ينادي جند الحرس الخديوي للخروج من معسكرهم فخرجوا في الحال يحملون البنادق والحراب ومروا بين الصفوف ودخلوا السراي وأمامهم مقدمهم علي بيك الديب وأحاطوا بالسراي من كل صوب ودرب يمنعون الناس من الدنو منها وهم في غاية الهدوّ والسكينة، أما الخديوي فإنه لما وصل إلى رأس الطريق الموصل إلى ميدان عابدين ورأى الميدان غاصا بالجند والخيل والمدافع والخلق الكثير من العامة وهم في ولولة وخوف عرّج إلى طريق أخرى ودخل السراي من باب صغير أمام الجناح الذي بالجانب القبلي من السراي وكان معه في مركبته كولفن المراقب الإنجليزي وخلفه الجنرال أستون باشا وثلاثة من الضباط فنزل وسار نحو الباب الغربي الموصل إلى الميدان حيث الجند والخيل فتقدم إليه في

الحال رضا باشا وأعلمه بأن جند قلعة الجبل قد انضموا أيضاً إلى المتظاهرين ولم يسمعوا لمقدمهم كلمة فالتفت كولفن إلى الخديوى عندئذ وقال: إذا تقدم نحوك أحمد عرابى فأمره أن يرد سيفه إلى غمده ويتبعك فإذا فعل تقدم أنت إلى رأس كل فريق من الجند ومره بالانصراف فقدم الخديوى بقلب ثابت وشهامة كبرى وسار نحو أحمد عرابى وعبد العال وأشار لهما بالسلام فسلما بالاحترام والتجلة والوقار فقال لهم: مالكم قد نبذتم عن طاعتى وعصيتم أمرى؟ فقالوا: حاشا نحن عبيدك المخلصون فقال: انصرفوا وسأبذل جهد الاستطاعة فى تحسين أحوال العسكرية وتنظيم قوانينها على قواعد ثابتة فأجاب أحمد عرابى إنى وإخوانى وجميع ضباط الجيش وأفراد العسكر خاضعون لك يامولاى وكلنا لا نبرح من هذا الموقف حتى تنجز لنا ما طلبناه فقال له الخديوى ردّ سيفك إلى غمده فأجاب سمعا وطاعة وناول الخديوى ورقة وقال: هذه يا مولاى ملحقة بمقترحات الوطن وبنيه فأخذها الخديوى وقفل راجعا إلى السراى ولم يأمر أحمد عرابى أن يتبعه ليقبض عليه ويطرحه فى السجن كما أشار بذلك المراقب الإنجليزى فلم يقتحم الخديوى الدرج حتى جاءه من يقول إن جند الحرس انضموا أيضاً إلى المتظاهرين فقطب وجهه وصعد إلى مقره فلما استوى به المقام أمر فعقدوا هيئة مجلس الوزارة وتليت عليهم مقترحات ضباط الجند فكانت ـ أولا: عزل جميع الوزراء وتشكيل وزارة أخرى يرأسها الوزير محمد شريف ـ ثانيا: جعل عدد العساكر العاملة ثمانية عشر ألفا طبقا للفرمان الصادر فى شأن ذلك ـ ثالثاً: تشكيل مجلس نواب البلاد على ما كان عليه فلما طرق أذن الرئيس مصطفى رياض باشا طبل هذا الكلام كاد يتميز غيظا وقال: كيف يحل لهم طلب خلع الوزراء كافة والوزراء خدموا البلاد وأخلصوا فى خدمة أبنائها لا سيما وهم اليوم مؤيدون بتصديق دولتى الإنجليز والفرنسيس فلا يصح التعرض لهم بشىء ألبتة إلا بعد استشارة الدولتين فقال الخديوى: وأنا أرى أيضاً أن الوزير محمد شريف باشا لا يريد أن تكون له الرياسة على هيئة تكون كالآلة الصماء فى أيدى الجند، أما من جهة مجلس شورى النواب فلا اختصاص لعصابة الجند بطلب تشكيله وكذلك جعل عدد العسكر العامل ثمانية عشر ألفا مما يثقل حمله على عاتق الخزينة وليس فى الأمر الآن ما يستلزم هذه الزيادة، فكثر عند ذلك الأخذ والرد بين الوزراء والخديوى وعلت بينهم الضوضاء وتنوعت الأغراض وتفرقت الأهواء وعلا صوت الرئيس مصطفى رياض باشا وأقسم أنه لا يخلع نفسه وفيه بقية من الحياة فعنونه

بعض رجال ديوان الخديوى وقالوا له: إنك أنت محدث هذه الثورة وموقد نار هاته الفتنة وكأنك تعمل على خلع شخص الخديوى لغاية فى نفسك فأغلظ عليهم فى الرد وشدد فى الامتناع فراجعه الخديوى فامتنع أيضاً، فقام عند ذلك المستر كوكسن نائب قونصل جنرال الإنجليز ليسأل أحمد عرابى بيك عن رغائبه، وكان أحمد عرابى واقفا وحوله كتيبة من الجند تحرسه على شكل قلعة فدنا منه المستر كوكسن وقال: قد تقرر خلع الوزراء الآن ولكن لا يتقرر تعيين بدلهم حتى تصرف جميع الجند وتفض هاته الجموع المجتمعة حولهم فصاح عند ذلك جميع الضباط ونادوا نطلب الوزير محمد شريف باشا، الوزير محمد شريف باشا، فقال كوكسن: ويحكم إنى أرى أن الأجمل صرف الجند الساعة وإلا كنتم سبب ضياع وطنكم وعيالكم فإن الخليفة أمير المؤمنين ودولتى الإنجليز والفرنسيس لا يرضون عن جعل حكم هذه البلاد فى قبضة جنودها انصرفوا، فصاح الضباط ثلاثا نطلب الوزير محمد شريف باشا فرجع كوكسن إلى مقر الخديوى وغاب برهة لطيفة ثم عاد، وقال: إن الخديوى رسم بإحالة نظر هذه المشكلة على دار السلطنة فلا يعمل فيها عملا حتى يأتيه الإذن من أمير المؤمنين فأصرفوا الجند وفضوا هذا التظاهر، فقال أحمد عرابى بيك: أما إحالة نظر هذه المشكلة على دار الخلافة الإسلامية فلا بأس به وأما صرف الجند فلا سبيل إليه قبل أن يعطى لنا الخديوى أمرا قاضيا بخلع الرئيس مصطفى رياض باشا وأصحابه وإقامة الوزير محمد شريف باشا بدله، فقال كوكسن: إن كنت تخشى شيئاً من انصراف الجند فأنا كافل لك أنت ومن معك حفظ أرواحكم وعيالكم وأموالكم وجميع ما لكم من الرتب وألقاب الشرف فضحك أحمد عرابى وقال: بورك فيك، كيف تكفل لنا حفظ أرواحنا وأموالنا وعيالنا وأنت غريب نازل ببلادنا التى هى فى حفظ وحراسة هؤلاء الجنود الساهرين على حفظ أرواح سائر الأجانب وصيانة أموالهم وأعراضهم وكيف يكون لك ذلك وأنت فرد من الإنجليز ولا أظنك تجهل أن دولتى الإنجليز والفرنسيس مع تكفلهما معا بحفظ حياة الوزير إسماعيل صديق باشا لم يدفعا عنه مرارة تلك الكاس التى شربها قهرا فعند ذلك سكت كوكسن وعاد إلى المجلس ولم يعد ثالثة إلا ومعه كولفن المراقب وخيرى باشا المهردار وبيد خيرى باشا مرسوم الخديوى إلى الوزير محمد شريف باشا بتوليته منصب الرياسة وتشكيل هيئة الوزراء على ما يشاء، فلما دنوا من موقف أحمد عرابى أخذ القونصل المرسوم ودفعه إلى أحمد عرابى وقال: ها هو ما تطلبه فاعطه

بيدك إلى الوزير محمد شريف باشا ومر الجند بالانصراف وقد خرج من مجلس الخديوى من يستدعى أحمد عرابى للمثول بين يدى الخديوى فدخل أحمد عرابى إلى المجلس وغاب برهة ثم عاد فأمر صاحب البوق فنفخ فيه تباعا فصاح الجند جميعا بصوت واحد (أفند مز جوق يشا) ثلاثاً فظن الناس عند ذلك أن قد قامت الحرب على ساقها ولم يبق إلا طلق المدافع فترامحوا وارتفعت أصواتهم بالصياح وتساقط بعضهم فوق بعض وكثر بكاؤهم فنفخ البوق ثانية وثالثة فسار أولاً جند عبد العال بيك إلى ناحية طرا ثم جند قصر النيل، ثم جند العباسية وكان فى مقدمة جند العباسية كوكبة من الفرسان ثم أخرى من المشاة على شكل قلعة وفى وسطها أحمد عرابى بك وخلفه جماعة من الضباط يحملون السيوف ثم بقية المشاة ثم أصحاب المدافع وخلفهم نساء العامة والسوقة وهن يزغرتن ويغنين الأغانى الريفية ويصحن فى كل لحظة ويقلن الله ينصرك ياعرابى ياسند الولايا الله ينصرك.

وسير الخديوى فى الحال بعد انفضاض الجمع خبر هذا الحادث إلى دار السلطنة فأتاه الجواب من صدر الدولة يستحثه على استدراك الخطب قبل استفحاله، وأرسل فى نحو الساعة الخامسة ليلا إلى الإسكندرية يستقدم الوزير محمد شريف باشا وقد كان بها منذ أيام فقام من محطة الحضرة فى قطار مخصوص هو وآل بيته وخدمه وحشمه وأتباعه فوصل القاهرة فى فجر السبت سادس عشرى شوّال ودخل على الخديوى ولبث بحضرته طويلا ولم يحدث فى تلك الليلة شيء مما كان يتوقع الناس حدوثه من العامة وزغانف الفرنجة، فقد كان أصحاب الشرطة ساهرين يقظين والعسس يكثر التطواف فى الأزقة والحارات، وأصحاب الدركات ينادون بعضهم على بعض تباعا ورتب أحمد عرابى بك جماعة من الجند يطوفون ويمنعون العامة من التجمع فى الطرق والقهاوى على عاداتهم، وألبس كثيرا من صغار الضباط ملابس العامة فكانوا يمرون بين الناس لاستراق السمع واستطلاع الحوادث وأصبحوا والناس فى فرح ما عليه من مزيد وقد سر أصحاب الوظائف ورجال الدولة بخلع الرئيس مصطفى رياض باشا وذهب الوزير محمد شريف باشا إلى مقر الخديوى بعابدين وعقد مجلسا حضره جميع قناصل الدول الكبرى وبعض قناصل الدول الصغرى وكان بعضهم فى هذا اليوم فى الإسكندرية وبعضهم فى طنطا وحضر فى هذا المجلس أيضاً مقدمو العسكر فتكلم الوزير محمد شريف باشا فى طلبات زعماء الجند وتباحثوا كثيراً فعلق الوزير قبوله منصب الرياسة على خلع أمراء الأيالات

الثلاثة من مناصبـهم وأنه يكفل لهم الذب عن جميع حقوقـهم الذاتية ولسائر الجند بنوال العفو عمـا فرط ولزوم انسحاب جند العباسـية وطرا إلى رأس الوادى ودمياط فلم يرض مـقدمو الـعسكر بذلك، وقـالوا: إنما نحن نطلب أن يتولى ريـاسة ديوان الجند رجل من أهل البـلاد لا شركـسى ولا من العائلة الخـديوية وأن لابد من إبلاغ عدد الجنود العاملة إلى ثمـانية عشر ألفا، وأن يشكل مجلس شورى البـلاد كما كان على أيام الخـديوى إسماعـيل باشا فطـال بينهم الأخذ والرد وكـثرت الضـوضاء ثم انفض مجلسهم عـلى غير طائل، وشاع الخبـر بما كان فتطير الناس وخافـوا وكثرت الأراجيف وتنوّعت الإشاعـات فمن قائل إن مراكب حرب الإنجليز والفـرنـسيس آتية للإسكندرية لإخضاع زعماء الجند وإرجاعهم إلى الطاعة، ومن قائل لا بل إن عسكر السلطان صارت على مقربة من العريش وهى آتية لمعـاونة زعماء الجند وتقرير جميع مطالبهم واشتد اللغط وكثر تساؤل الناس بعـضهم لبعض وأصبحوا فأرسل الخديوى إلى الوزير محمد شريف باشا يلح عليه بقبول منصب الرياسة وتوسط فى ذلك أيضاً قناصل الدول فامتنع، وقـال: لا سبيل إلى ذلك حتى تنسحب جمـيع العساكر إلى رأس الوادى ودميـاط ويتنزل أمراء الجند الثلاثة عن منصـبهم فانقـسم الناس فى أمره يومئذ إلى فريقين فريق كان يصوّب آراءه ويستحـسنها غاية الاستحسان مشيرا بذلك إلى عزة نفسه ونزاهتها عن الأغـراض الذاتية التى تصحب عادة تلك المناصب العالية مع حبه الزائد للوطن، وفريق كـان يرى أن حب الوطن مفضل على كل شىء فكان عليه أن يلبى الداعى ويأخذ بأطراف الحزم مع أجمل المساعى فيفض المشكلة بحكمته المشهورة وينقـذ البلاد وأهلها من البلايا التى وقـعت فيها، وكان لكـل من الفريقين دليل وبرهان وعندى: أن القـول الثـانى أفـضل وقـد ظن بعض الناس أن تردده فى قبـول منصب الرياسة مـبنى على رغبـته فى إماتة الوقت والمطاولة حـتى تصل إلى الإسكندرية مـراكب الحرب السلطانيـة، وظن آخرون أنه لا يقبل هذا المـنصب حتى تنحل عقدة المراقبة وينزل المراقبان الإنجليزى والفرنساوى عن مناصبهما لما بين الوزير والمراقب الفرنساوى من الوحشة والنفور، قلـت: ولم يكن الوزير على هذا الجانب من الإفراط والتفريط فإنه معـروف بين جميع أهل البلاد بالتنزه عن الأغراض الذاتية مشهور بلين العـريكة وسلامة النية فلا تميله الأغراض ولا تغـير المناصب من أخلاقه شيئاً ولا يسيـر إلا على ما يعتقد أن فيه الخير والمصلـحة للبلاد وأهلها، وفوق ذلك فهـو ليس بذى طمع مع إحدى الدول الطامعـة فى البلاد كغيـره ممن تولوا الرياسة،

ولذلك كان الناس كافة يعتبرونه أبا الأمة وأخا الإصلاح ومحيى روح المساواة بين صنوف الرعية، ولما طال امتناعه أوعز الخديوى إلى قناصل الدول والعلماء والرؤساء الروحانيين وعمد البلاد ووجهاء التجار أن يستميلوه إلى قبول المنصب ففعلوا وزادوا فى استعطافه ورفع إليه العلماء وعمد البلاد ووجهاؤها وأئمة المذاهب ومشايخ الطرق سجلا بأختامهم وأسمائهم وهم زهاء الستة آلاف ذكروا فيه: أنهم كافلون وضامنون طاعة أمراء العسكر وجميع صغار الضباط وعدم عودهم إلى تكدير صفو الراحة وامتثالهم لإشارة الوزير وغير ذلك من أقوال اللين والتلطف فلم يسعه بعد ذلك إلا القبول وقام من ساعته ودخل على الخديوى بمقره بالإسماعيلية ولبث بحضرته لحظة ثم كر راجعا إلى داره فلقيه وفد من مقدمى العسكر ومعهم التماس وقع عليه جميع أفراد الضباط على اختلاف درجاتهم فدفعوه إليه فقبله ولاطفهم وأظهر لهم غاية البشر والإيناس وقرأه وإذا هم يقولون فيه:

نحن ضباط الجيش المصرى نعتقد الاعتقاد التام فى حسن صداقة وغيرة دولتكم وخلوص طويتكم وسلامة نيتكم فى خدمة الوطن العزيز والمحافظة على حقوقه والسعى فى رفاهية أهله ولهذا ولكوننا جميعا نحب تقدّم وطننا العزيز فنلتمس من دولتكم قبول مسند رياسة مجلس النظار ونسترحم من دولتكم انتخاب نظار الدواوين ممن يكونون موصوفين بالصفات الحسنة والعرض عنهم للحضرة الفخيمة الخديوية للقيام بأعباء خدمة الوطن العزيز وإعلانا لصداقتنا وانقيادنا لأوامر الحكومة التى تصدر فى صالحنا العمومى قد أمضينا هذه العريضة ونحن على يقين أن تقع لدى دولتكم موقع القبول . اهـ.

(مطلب)

قبول الوزير شريف باشا تشكيل الوزارة بعد امتناع

فما فرغ من قراءة العريضة حتى هان عليه الخطب وخف عنه ما كان يلاقيه ورسم بتشكيل هيئة الوزراء فعين مصطفى فهمى باشا لوزارة الخارجية وحيدر باشا للمالية وإسماعيل أيوب باشا للأشغال ومحمود باشا البارودى للجهادية والبحرية وقدرى بك للحقانية وأضاف إلى مسند الرياسة وزارة الداخلية وكان الفراغ من تشكيل الوزارة على هذا النسق بعد ظهر يوم الثلاثاء تاسع عشرى شوال سنة ثمان وتسعين وشاع خبر ذلك بين الناس ففرحوا فرحا لا يوصف واطمأنت قلوبهم بعد

الخوف وذهبت عنهم تلك الطيرة ووردت رسائل التهانى على الوزير محمد شريف باشا من كل صوب وحدب وأحس مصطفى رياض باشا بما وراء تنزيله عن منصب الرياسة لا سيما وقد كثر اللغط وعمت الإشاعة بأن زعماء الجند يطلبون محاكمته على ما ارتكبه من الجور والعسف وتخريب البيوت العامرة وتبعيد الكثير من أبناء البلاد إلى أقاصى السودان والدارفور بلا موجب، فخاف وتقدم إلى الخديوى فى أن يسرحه بالخروج إلى الديار الأجنبية كما فعل عند خلعه على أيام الخديوى إسماعيل فسرحه بشفاعة قونصل الإنجليز والمستر كولفن المراقب فرحل عن القاهرة مساء الثلاثاء تاسع عشر شوال إلى الإسكندرية ثم سار عنها فى ثانى يوم إلى مدينة نيس إحدى مدن بلاد الفرنسيس فكان بين خلعه وارتحاله ثلاثة أيام وإحدى عشرة ساعة بالقاهرة وزهاء سبع عشرة ساعة بالإسكندرية وطير الخديوى الخبر بجميع ما جرى إلى دار السلطنة، فجاءه الجواب فى ثالث عشرى شوال يهنئه بما حصل ويسأله تحقيق الآمال بجعل الوزير محمد شريف باشا يتصرف فى الأمور بعزمه وحزمه المعلومين وينظر إلى مصالح الخلق من أبوابها الحقة،وجاء إلى القاهرة العدد العديد من وجهاء البلاد وأعيانها وكبار الأهلين ومعهم عريضتان موقع على كل منهما من زهاء الألف والخمسمائة من عمد البلاد وكبارها إحداهما برسم الوزير محمد شريف باشا ومضمونها: أن جميع من وقعوا عليها كافلون بأنه لا يقع فى المستقبل من الجيوش المصرية شيء تأباه الهيئة الحاكمة وإنهم فرحون فرحا ما عليه من مزيد حيث تنازل وقبل مسند الرياسة لأنهم يعتقدون أن قبوله هذا هو الوسيلة العظمى فى اطمئنان الخواطر وسكون النفوس، وثانيتهما: برسم الخديوى ومضمونها طلب تشكيل مجلس النواب حيث إنه هو الواسطة الكبرى للإصلاح الذى توجهت إليه آمال جميع الأهلين وكان بين هذه الجموع التى حضرت محمد سلطان باشا أحد وجهاء منية ابن خصيب فوقف وقال مخاطبا الوزير محمد شريف باشا: إنى أعرض على مسامع دولتكم أن هؤلاء الوجهاء والنبلاء قد تمثلوا بين أيدى مراحمكم ليظهروا ما عندهم من الفرح والسرور حيث تفضلتم بقبول مسند الرياسة الجليل فأنهم يعرفون ما لدولتكم من الميل الحقيقى لإجراء الإصلاح الذى كثيرا ما أمّلوه وليعرضوا أنهم متكلفون بالجيوش المصرية الذين هم فى الحقيقة أبناؤهم وإخوانهم وليلتمسوا من مكارمكم ما يعلمونه فى سموّ أفكاركم من بث روح الحرية فى البلاد والمساواة بين أصناف الرعية، وحيث إن دولتكم على هذه الأفكار السامية فهذا الجمع يلتمس من

كرمكم بالأصالة عن نفسه وبالنيابة عن إخوانهم الموقعين على هاتين العريضتين أن تمدوا إليهم ساعد المساعدة القوى وتسعفوهم بما علموه فى همتكم من الإقدام وقوة العزيمة وأن مساعدتهم على نوال ما طلبوه لا تتحقق إلا بأن تكون دولتكم الواسطة العظمى فى رفع هذه العريضة المتضمنة طلب تشكيل مجلس النواب إلى الجناب الخديوى المعظم أعزه الله، وليست هذه بأول ما رآه الناس من حبكم لبث روح الحرية فى البلاد فأن أفكاركم السامية لم تزل ولا تزال موجهة نحو كل ما فيه الخير والمنفعة لهذه الأوطان . اهـ.

فأجابه الوزير بما شف عن إخلاصه فى مساعدتهم وأنه عازم كل العزم على أن يسعى جهده فيما تتقدم به البلاد لا سيما فى تشكيل مجلس شورى النواب فانصرفوا وطيروا الخبر بذلك إلى الآفاق، فوردت على الوزير فى هذا اليوم رسائل التهانى من جميع قناصل الدول وكبار الأجانب والأهلين وأرسل إليه صاحب جريدة التقدم وهو يومئذ بالشام فارا من وجه مصطفى رياض باشا تاريخاً على جناح البرق يؤرخ به عوده إلى منصب الرياسة وهو:

فهذه النعمة تاريخها نصر من الله بفتح قريب

سنة ١٢٩٨ هجرية

وتواردت عليه قصائد التهانى وأبيات المديح من جميع الجهات تترى ووقف بعض الشعراء على بابه، وسمعت شطر بيت لأحد أدباء القاهرة يؤرخ به رياسة المشار إليه وكأنه كان يعرّض بأعمال مصطفى رياض باشا أيام رياسته ولكنى لم أقف على الشطر الأول وهو

* الدهر حر والوزير شريف * سنة ١٢٩٨

ولم يستقر به المنصب حتى جعل ينظر فى طلبات الجند من أبوابها فقرر منها قانون الإجازات العسكرية البرية والبحرية، وقانون تسوية حالة الضباط المستودعين وقانون معاشات الجهادية البرية والبحرية، وقانون القواعد الأساسية الذى يليه قانون الترقى، وقانون الضمائم والامتيازات والإعانات العسكرية فلما أتمها على الوجه المطلوب رفعها إلى الخديوى فصادق عليها ورسم بتنفيذها والعمل بها اعتبارا من ثامن عشرى شوّال ففرح الجند بذلك فرحا لا يوصف وسر كبارهم واطمأنت قلوبهم واعترفوا للوزير بالفضل والمنة، وكانت هذه القوانين غاية فى السهولة والاعتدال لا شىء فيها خارج عن رغائب الحكومة وما تقتضيه حالة البلاد ولم يعلم إلى هذا

الحين ما الذى حمل مصطفى رياض باشا أيام رياسته على تعييبها والامتناع من العمل بها بعد أن رسم بتقريرها فكانت على نحو ما أراد ولو لم يقع منه فى أيام رياسته شيء من الجفاء والشدة مع مقدمى الجند سوى إصراره على عدم تنفيذ هذه القوانين لكفى فإن أعمال زعماء العصابة كانت لغاية اليوم الذى تقررت فيه هذه القوانين غاية فى الخطل والخلل بل هى كأعمال صبيان المكاتب ليس فيها ما يوجب الخوف ولا ما يورث القلق وكانت مجردة عن كل حكمة مشوبة بالأغراض التى لابد وأن تفضى بصاحبها يوما إلى الوقوع فى الهلكة وكان عقلاء القوم يعرفون ذلك جيدا فلما رسم مصطفى رياض باشا بتقرير تلك القوانين ثم عاد فامتنع من العمل بها كان مثله فى ذلك كمثل رجل سلم لآخر سيفا باترا على حين لا يملك عصا واستحلفه أن لا يتقلده إلا متى بلغت منه الشدة مبلغها ثم كان منه بعد أيام أن ضيق عليه وبالغ فى إذلاله وسامه الخسف فلم يشعر إلا وذاك السيف يكاد يعمل فى عنقه فالتفت مذعورا وقال لصاحبه: أو أنت فاعل قال: كيف لا وقد استحلفتنى وهذا السيف سيفك الذى سلمتنيه فندم ولكن لم ينفع الندم.

(مطلب)

رفع ظلامات أهل المحبوس إلى الوزير

وسار الوزير محمد شريف باشا فى النظر فى أمور البلاد واحتياجاتها سيرا حثيثا فكثر توارد القصص والظلامات على ديوانه من أهل المحبوس التى ملأها مصطفى رياض باشا بالكثير من أهل البلاد لأقل ذنب وأصغر شبهة فكان إذا خرج الوزير من بيته يريد الديوان تعلق نساء أهل تلك المحبوس وأطفالهم بأثوابه واستغاثوا وضجوا وبكوا وتساقطت الظلامات بين يديه فتناقل هذا أصحاب صحف الأخبار المحلية وشاع حتى نقله أصحاب صحف أخبار الإنجليز وقاموا له وقعدوا وتبعهم أصحاب صحف أخبار الفرنسيس واستعظموا البلوى ونادوا ياللعدالة ياللإنسانية فكبر الأمر على الوزير محمد شريف باشا واستعظمه ورسم بتشكيل لجنة عهد إليها تفتيش جميع المحبوس وتحقيق ظلامة كل مسجون، وسيرت دولة الإنجليز أحد مقدمى جنودها إلى القاهرة ليشارك اللجنة فى أعمالها، وكلم القونصل الوزير محمد شريف باشا عنه فلم يمانع فى حضوره فبحثت اللجنة ونقبت فظهر لها كثير من المظالم والفظائع قالوا: ولم تكن هذه المظالم قاصرة على مستخدمى بعض المصالح

والدواوين كالطرد والحرمان من الخدامات والتبعيد والسجن وغير ذلك بل قد عمت أيضاً جميع أهل البلاد وأنشبت بالجليل منهم والحقير والغنى والفقير حتى غصت بهم الحبوس وضاقت على اتساعها وأبعد الكثير منهم إلى أقاصى السودان وغيرها بلا قضاء شرعى ولا حكم قانونى وأحصوهم فكانوا زهاء الأربعة آلاف من سائر المديريات القبلية والبحرية فأطلقوا من بقى منهم فعادوا إلى أوطانهم على نفقة الخزينة، وبينما الناس فى شاغل بحوادث أصحاب الظلامات ومن أهلكتهم الحبوس إذ جاء الخبر من دار السلطنة فى ثلمن ذى القعدة إلى ديوان الخديوى الخاص بقيام إحدى سفن حرب الدولة إلى الإسكندرية وعليها أربعة من مأمورى الدولة وهم: على نظامى باشا المعتمد الأول الموكول إليه البحث فى أمر تظاهر أحمد عرابى بيك وأصحابه، وعلى فؤاد بيك المعتمد الثانى الموكول إليه النظر فى الأمور السياسية وله حق الاشتراك فى المخابرات التى تقع بين مصر والدول الكبرى، وراتب باشا، وصفر أفندى وهما من ياوران الخليفة أمير المؤمنين ويتضمن الخبر أيضاً التهانى للخديوى على ما أظهره من الحزم وحسن السياسة فى حل تظاهر الجند وتسكين قلوب الرعية، ويقول إنى: أرسلت إليك فى مركب حربية من مراكبنا السلطانية بعض المأمورين من ياوراننا الخاص سيكونون لك عونا على حل هذا الإشكال وفض الخلاف بالتى هى أحسن ومنع حدوث مثل هذه القلاقل مرة ثانية فلما شاع الخبر بما ذكر استعظمه الناس وخافوا عاقبته واهتم له الوزير محمد شريف باشا فرسم فى الحال بانحدار عبد العال بيك بعسكره السود إلى مدينة دمياط فانحدر فى نفس اليوم الذى جاء فيه الخبر بقيام وفد السلطان وقد شيعه على المحطة العدد العديد من ضباط الجند والوجهاء والأعيان والتجار على اختلاف درجاتهم وأحمد عرابى بيك والبارودى، فقبل أن يسير بهم القطار وقف عبد العال بين الضباط وقال مخاطبا للجمع أيها الإخوان: إنا نودعكم والقلوب معكم وكلمة الوطنية تجمعنا فاجعلوا حبل المواصلة بيننا ممدودا وثقوا بعزمكم ولا تطيعوا الوشاة فيما يفترونه علينا كما أننا لا نسمع من واش كلاما واعلموا أننا فى تيار أفكار إن لم تحفظ أنفسنا فيه بالاتحاد وإلا هلكنا وكلنا يعلم حسن طوية مولانا الخديوى وطهارة رجاله الفخام فنحن نخدم أفكارهم بأرواحنا ونقضى العمر فى طاعتهم والله الحفيظ علي وعليكم وهو على كل شيء قدير.

فبرز عند ذلك عبد الله صاحب جريدتى الطائف والتنكيب والتبكيت وقال مخاطبا للجند: حماة البلاد وفرسانها من قرأ التاريخ وعلم ما توالى على مصر من

الحوادث والنوازل عرف مقدار ما وصلتم إليه من الشرف وما كتب لكم في صفحات التاريخ من الحسنات فقد ارتقيتم ذروة ما سبقكم إليها سابق ولا يلحقكم في إدراكها لاحق ألا وهي حماية البلاد وحفظ العباد وكف يد الأستبداد عنهما فلكم الذكر الجميل والمجد المخلد يباهي بكم الحاضر من أهلنا ويفاخر باثركم الآتي من أبنائنا فقد حيي الوطن حياة طيبة بعد أن بلغت الروح التراقي فإن الأمة جسد والجند روح ولا حياة للجسم بلا روح وهذا وطنكم العزيز أصبح يناديكم ويناجيكم ويقول:

إليكم يردّ الأمر وهو عظيم	فإني بكم طول الزمان رحيم
إذا لم تكونوا للخطوب وللورى	فمن أين يأتي للديار نعيم
وأن الفتى إن لم ينازل زمانه	تأخر عنه صاحب وحميم
فردّوا عنان الخيل نحو متيم	تقلبه بين البيوت نسيم
وشدّوا له الأطراف من كل وجهة	فمشدود أطراف الجهات قويم
إذا لم تكن سيفا فكن أرض وطأة	فليس لمغلول اليدين حريم
وإن لم تكن للعائذين حماية	فأنت ومخضوب البنان قسيم

ولقد ذكرتم باتحادكم وحسن تعاهدكم ما كان من رسول الله ﷺ عند تغيب سيدنا عثمان في أهل مكة من مبايعة أهل الشجرة على استخلاص صاحبهم فصاروا يعنونون بالعشرة المبشرين بالجنة وأنتم قد تعاهدتم على حفظ الأوطان وبقاء سلطة مولانا الخديوي وتأييد ملكه وتبايعتم على الدفاع ووقاية أهليكم من كل ما يذهب بالثروة أو يضعف القوة أو يخدش الشرف ﴿فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم﴾ ثم التفت إلى عبد العال بيك وقال: هذا أخوكم الحرّ يودعكم ويسير بإخوانكم إلى دمياط فاجعلوا عروة الود وثيقة ولا تحلوا حبل الاتحاد الذي جاهدتم الأنفس في إحكامه فقد:

زالت موانعنا التي	كانت تجرّ إلى الفساد
والأنس دار رحيقه	بين الجيوش أولي الرشاد
لا تعمر الدنيا إذا	لم تترك الخلق العناد
الأرض تنبت زرعها	لحياتنا بالاتحاد

ومن محاسنكم التي تفتخرون بها ويعرف لكم بها الفضل طاعتكم لأوامر الحكومة وامتثالكم لإشارتها وربط قلوبكم بمحبة مولانا الخديوي ورجاله الكرام

خصوصا هذا الرئيس البر الرءوف القائم بخدمة الأمة وبلادها وأحسن ما يؤرخ به اسم الجهادى عند النوازل أن يقال مات شهيد الأوطان . اهـ .

فما ختم خطابه حتى نادى الجمع بصوت واحد رضينا بالموت فى حفظ الأوطان ووقاية أميرنا من كل ما يمس سلطته، ثم سار القطار قاصدا دمياط فقابلهم أهلها بالبشر والترحاب فنزل الجند فى المحلة التى أعدت لهم، وزار عبد العال بيك جميع وجهاء البلد وأعيانها وعملوا له الولائم والختمات وتوددوا إليه وتقرّبوا منه جهد الاستطاعة فلما جاء الخبر إلى القاهرة بأن قد استقرّ بعبد العال بيك وجنده المقام رسم الوزير محمد شريف باشا إلى أحمد عرابى بأن ينحدر بجنده إلى رأس الوادى فنادى فيهم بالخروج فخرجوا يوم الخميس ثالث عشر ذى القعدة وأمامهم أحمد عرابى بك على فرس وحوله كوكبة من الضباط على ظهور الخيل والسيوف بأيديهم مسلولة وساروا من وسط المدينة إلى المقام الحسينى فلما اقتربوا منه ترجل أحمد عرابى بيك وترجل معه جماعة من الضباط ودخل إلى المقام ومعه بيرق الآلاى وطاف حول الضريح مرارا كثيرة وهو يقرأ بعض الأحزاب ثم خرج وركب هو ومن معه وساروا قاصدين محطة السكة الحديد وكان جند الحرس الخديوى مصطفا على جانبى الطريق وبأيدى ضباطه باقات الورد والزهور وكذلك بعض العامة وكانت الطرق غاصة بجماهير الناس من الرجال والنساء والصبيان فلما اقترب أحمد عرابى بيك من المحطة هتف الناس هتافا عظيما وعزفت الموسيقى وترامت عليه ضمات الزهور من كل جانب وكان فى انتظاره كبار الضباط وبعض أعيان القاهرة وعمد بعض البلاد وقد فرشوا له الأرض بالزهور والرياحين وأوراق الشجر فترجل عن جواده ووقف برهة لطيفة وحوله جماعة من مقدمى الجند وهم: على بيك الديب مقدم الحرس الخديوى، وعلى بيك يوسف مقدم جند قلعة الجبل الذى تولى بدل إبراهيم بيك حيدر، وطلبة بيك عصمت مقدم جند قصر النيل الذى تولى بدل شوقى بيك وقبل أن يتحرك به وبعسكره القطار التفت إلى من كانوا حوله وجعل يحضهم على الاتحاد والتعاون وعدم تفريق الكلمة مع صفاء القلوب وإخلاص النية عند كل عمل، ثم تقدم عبد الله صاحب الطائف وخطب فحض وحث وبالغ فى التنكيت والتبكيت حتى أخذ بالعقول وكاد يبكى الناس ثم رحل بهم القطار قاصدا رأس الوادى فلما وصل مدينة الزقازيق التى هى كرسى القرية التى ولد فيها أحمد عرابى بيك هرع إليه الكثير من مشايخ البلدان والعمد والأعيان يحمل بعضهم أغصان الشجر وبعضهم سعف النخل وبعضهم الزهور والرياحين وهم فى ضجة

وجلبة عظيمة فـأشرف عليهم من نافذة العربة فصـاحوا ودعوا له فنزل ووقف بينهم وأشار إلى صاحب الطائف فتكلم وبالغ فى الحث ثم تكلـم هو كذلك فترامت عليه الزهور والرياحين من كل جـانب وعلت الأصوات بالدعاء ثم انحدر القطار مسرعا إلى رأس الوداى...

(مطلب)

رجال الوفد بالخديوى فى مقره وذهابه إليهم

واتفق أنه وصل فى هذا اليوم رجال الوفد القـادمون من دار السلطنة إلى مدينة الإسكندرية ودخلت مركـبهم المينا فسلمت فرد علـيها بعض الحصـون السلام وكان الخديوى قـد رسم إلى ذى الفقـار باشا فانحـدر إلى الإسكندرية للقاء رجـال الوفد فأنزلوهم فى سراى رأس التين فأكلوا وشربوا وركبوا إلى محطة السكة الحديد حيث كان ينتظرهم قطار الخديوى الخاص وكان فى ركـابهم فريق من العسكر وجماعة من أصحاب الشرطة ومـحافظ المدينة وصاحب شرطتها فسـار بهم القطار قاصدا القاهرة فوصلوا فى السـاعة الثانية ليلا وساروا إلى قصر النزهة حيث أعدّ لهم وكانت عدتهم ستة، وهم: على نظامى باشا وراتب باشا وعلى فؤاد بيك وصفر أفندى وسيف الله أفندى والشيخ أحـمد أسعـد أفندى متولى الفـراشة بالحرمـين الشريفين عـدا الخدم والحشم والأتباع فإنهم كثيرون وكان جميع ضباط الباخرة التى جاءت بهم من ضباط القصر الشاهانى وقد بقى معهم اثنا عـشر شخصا لم ينزلوا إلى البر وهم من الحرس السلطانى المكلفين بمراقبة رجال الوفد، ولما كان صبـاح الجمعة رابع عشر ذى القعدة ركب رجال الوفد لزيارة الخديوى بمقره بالإسماعيليـة فتلقاهم بغاية البشر والترحاب وبالغ فى تكريمهم وجلسوا معه برهة يتحدثون فيما لم تصل إلينا معرفته أو كما قال بعض أصـحاب صـحف الأخـبار المحليـة أنهم أبلغـوا الخديـوى تسليمـات الذات السلطانية وأعربوا عما لها من تمام المسرة والرضا عن همة الخديوى فى حفظ الأمنية وأن المقصود من حـضورهم إنما هو إظهار ما للذات الملوكانية من الوثـوق والاعتماد على الجناب الخديوى وتأييد نفـوذه وتعزيز موقعه وتثبيت مـركزه، قالوا: فعند ذلك نطق الخـديوى بآيات الخضـوع وأدى واجبـات الشكر للذات الشـاهانية على حـسن عنايتهـا ثم دعا لها بتخليـد ملكها وتمكين قوّتهـا وبعد ذلك انصرفوا، فلمـا جاءت الساعة الخامسة ركب الخديوى فى كبكبته وزار رجال الوفد بقصر النزهة ولبث معهم برهة ثم كر راجعـا إلى الإسماعيليـة فبات حضور رجـال هذا الوفد مع طلب الأمة

إنشاء مجلس شورى نواب البلاد شغل جميع الناس الشاغل لهم عن كل شيء وكان الوزير محمد شريف باشا يعرف ذلك منهم فتقدم إلى الخديوى فى خامس عشر ذى القعدة فى طلب التصديق على إنشاء المجلس على قاعدة قد قررها فصادق الخديوى عليها راضيا ورسم بافتتاحه فى غرة صفر الخير سنة تسع وتسعين ومائتين وألف هجرية باحتفال عظيم وشاع الخبر بذلك ففرح الناس كثيراً وطاف جماعة الضباط على بيوت الوجهاء والأعيان بالقاهرة ومصر يبشرونهم وتكلم أصحاب صحف الأخبار المحلية عن الفوائد العظيمة التى تنجم عن إنشاء هذا المجلس وأطالوا الكلام وبالغوا فى الإطراء، وقالوا: إنه لهو من المحسنات بل من المعجزات التى لا يقدر غير الوزير محمد شريف باشا على الإتيان بها لا سيما فى إبان هذه الظروف المهمة والخطوب المدلهمة.

وفى يوم الثلاثاء ثامن عشر ذى القعدة زار رجال الوفد سائر دواوين الحكومة ونظاراتها ثم ساروا إلى ديوان الجند بقصر النيل فاصطفت لقدومهم جميع العساكر وكان محمود باشا البارودى واقفا على باب الديوان متهيئا لاستقبال رجال الوفد فلما دخل على نظامى باشا أخذ البارودى بيده ومر معه على صفوف العسكر ثم استدعى إليه طلبة بيك وجميع القائمقامات والبيكباشية فألقى عليهم خطابا بالتركية فترجمه البارودى بالعربية فكان هكذا، إن للجناب الخديوى الأكرم منزلة رفيعة من الحب وحسن الرعاية عند مولانا السلطان الأعظم أيده الله ونصره فهو لذلك يحافظ على تعزيز جانبه وتأييد مركزه ويعضد نفوذه وسلطته وليس بخاف على حضراتكم أن الجناب الخديوى هو الوكيل المفوض عن مولانا السلطان الأعظم وأن الوكيل كالأصيل فمن أطاع الجناب الخديوى وامتثل أوامره وانقاد لأحكامه فقد أطاع حضرة مولانا السلطان وكان من العاملين بما جاء فى محكم القرآن من قوله تعالى: ﴿أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم﴾ ومن خالف الجناب الخديوى فقد خالف مولانا السلطان وعصى أمر الرحمن - نعوذ بالله من ذلك، فنحن معشر العساكر يلزمنا فى كل حال أن نطيع ونذعن لولى الأمر وأن لا نتردد أو نتهاون فى القيام بما يكلف به من الأوامر وأن لا نبحث عن موجبها ولا نسأل عن أسباب ما تكلف به من الأوامر وإنما علينا أن نمتثل كل ما أمرنا به ونجرى على مقتضاه وقد أمضيت فى خدمة العسكرية ثلاثة وأربعين عاما واشتركت معكم أيام الحروب الماضية فى المخاطرة بدمائنا وأرواحنا امتثالا لأوامر مولانا وسلطاننا وإعلاء لكلمة ديننا

ودفاعا عن عموم أوطاننا فأوصيكم أن تتمسكوا بالطاعة وتقيموا على الانقياد وتلزموا حدودكم المعروفة فلا يعرف الصغير إلا من هو أكبر درجة منه ولا الكبير إلا الأعلى منه رتبة وهكذا لا يعرف إلا كبيره درجة بعد درجة إلى الانتهاء، وبعد أن ختم مقالته هذه ودّعهم وانصرف مع من حضروا معه فلما كان بعد ظهر اليوم ركب ومعه فؤاد بيك وزار بعض المدارس العليا والوزير محمد شريف باشا قيل وأعلماه بأنه لم يكن فى عزمهما التداخل فى شىء من أمور البلاد وبأن غاية حضورهما مع من حضر من رجال الوفد إنما هى تقديم مراسيم التهانى للجناب الخديوى على ما أظهره من الحزم وأصالة الرأى فحادثهما الوزير عن عادات البلاد وسلامة نوايا أهلها ودوام خلودهم إلى الهدوّ والسكينة وعدم الاندفاع إلى ما يكدّر صفو راحتهم ثم انصرفوا وأمر الخديوى فزارهم كثير من الوجهاء والأعيان وشيخ الإسلام وبعض العلماء ومشايخ الطرق وبالغوا فى إجلال رجال الوفد وتعظيمهم.

وحسب قونصل جنرال الإنجليز بمصر ما وراء حسن وفادة على نظامى باشا ومن معه وتقرّب أهل البلاد منهم فجعل يراقب الحوادث ويستطلع الأخبار ويكثر من الذهاب تارة إلى مقر الخديوى وأخرى إلى مقر الوزير محمد شريف باشا وطورا إلى مقر البارودى وبث العيون والأرصاد حول مقام الوفد وطاف رجال ديوانه على بيوت بعض رجال الدولة يستنشقون نسمات تلك الأخبار وكأنه آنس منهم بعض الشىء فكتب به إلى اللورد جرانفل كبير السياسة الإنجليزية يومئذ فسير هذا اللورد إلى الباب العالى يطلب سرعة استرجاع رجال الوفد وجلائهم عن الكنانة واستنجد بكبير سياسة الفرنسيس وهو يومئذ المسيو بارتملى سنتهلار فأنجده وجعلا يشدّدان الطلب وضربا لجلاء الوفد أجلا وأوعزا إلى أصحاب صحف أخبارهم فهاجوا وماجوا ونادوا بالحرب والقتال وخبطوا وخلطوا فى القول وترامت ظنونهم إلى المرمى البعيد، فمن قائل: أن الوفد إنما دخل أرض الكنانة يتابعه من السر ما لا يعلمه إلا المقرّبون من أبواب السلطان، ومن قائل: بل هم يتأبطون جميع الفرامين والخطوط الهمايونية الصادرة من عهد محمد على باشا الكبير إلى أيام الخديوى توفيق لغاية خفية وسر مكتوم وتناهى ببعضهم الخلط إلى القول بأن رئيس الوفد قام من دار السلطنة إلى مصر ومعه فرمان مخصوص لا يليق التكلم عنه حتى ينجلى الصبح لذى عينين (قلت): يريدون فرمانا بعزل الخديوى توفيق وتولية الأمير عبد الحليم بن محمد على باشا وجعلوا يقولون غير ذلك من الأراجيف فقام أصحاب صحف الأخبار التركية

يفندون تلك المزاعم ويرمون أصحاب صحف الإنجليز والفرنسيس بسوء النية وخبث الطوية ويقولون إنما مصر بلد إسلامية وهى كالقلب من جسم السلطنة العثمانية فأى جناح على المتبوع إذا سير إلى تابعه يسأل عن حاله ويخفف عنه ما اشتدّ من أحواله وطال الأخذ والردّ على غير جدوى والسلطان لا يلتفت إلى أقوال صاحبى سياسة الإنجليز والفرنسيس فعمد عند ذلك صاحب سياسة الفرنسيس إلى التهديد وسير إحدى مراكب حربهم إلى مدينة الإسكندرية وكانت من أضخم سفنهم واسمها آلما فوصلت ليلة تاسع عشر ذى القعدة وباتت ليلتها خارج البوغاز وأصبحت فدخلت إلى المرسى وسلمت على الطوابى بإطلاق مدافعها فردّت عليها طوابى رأس التين السلام وكانت تحمل زهاء ثلثمائة وخمسين من الفرق الحربية وعشرة مدافع من العيار الكبير والطراز الجديد، وشاع خبر قدومها ووصل إلى القاهرة فخاف الناس وكثر تحدثهم به وخشوا سوء العاقبة وكأن السلطان قد بما وراء ذلك فجاء الخبر إلى رجال الوفد بالجلاء عن مصر فتأهبوا للرحيل، ولما كان ثالث عشرى ذى القعدة تمثل على نظامى باشا وفؤاد بيك ورجال الوفد بين يدى الخديوى وأبلغاه أنّ أمير المؤمنين قد أحسن عليه بنيشان الامتياز وأنّ من شأن توجيه هذا النيشان أن الخليفة يضعه بيده على صدر من تشرف به وهو ممثل بين يديه بملابس التشريف، قيل: فأظهر الخديوى الخضوع والطاعة، وقال: سأتشرف إن شاء الله بالمثول لدى سيدى ومولاى أمير المؤمنين عند تمام استتباب الأمن وسكون خواطر أهل البلاد، ثم تقدم إليه فخرى بيك ربان باخرة الوفد وأبلغه بأن قد ورد إليه مرسوم السلطان بالعود إلى دار السلطنة حالا وانصرفوا وفى الساعة الثالثة من صباح ثانى يوم الثلاثاء رابع عشرى الشهر خف على نظامى باشا وفؤاد بيك إلى مقر الخديوى بالإسماعيلية لوداعه فأحسن لقاءهما ورحب بهما ورسم فهيؤا قطاره المخصوص فركبوا إلى محطة السكة الحديد، وكان الوزير محمد شريف باشا وسائر الوزراء والكبراء وموظفى الحكومة فى انتظارهم فركبوا القطار وسار بهم إلى الإسكندرية ونزلوا بسراى رأس التين فوفد عليهم جميع ضباط جند الإسكندرية للسلام فوقف بينهم المشير على نظامى باشا وخطب خطابا وجيزا معناه، أنه عند وصوله إلى مقر الخلافة العظمى لابد أن يبشر إخوانهم العسكر المنصور هناك بأن لهم فى مصر إخوانا لا يرون غير الطاعة لأوامر مولانا أمير المؤمنين والانقياد للخديوى ثم نزلوا إلى السفينة ورحلوا إلى دار السلطنة وقد تخلف عنهم بالقاهرة عظيم اسمه كامل باشا وحجته فى ذلك عزمه على السفر

إلى الأقطار الحجازية، فأقام أياما يتراوح بين القاهرة والإسكندرية لا يعلم أحد من أمره شيئاً ثم رحل إلى السويس ومر بمدينة الزقازيق قصبة الشرقية فلاقاه فى محطتها أحمد عرابى بيك وكأنه كان فى انتظاره فركب معه فى عربة القطار ولبثا معا إلى أن بلغ القطار محطة التل الكبير ثم ودّعه ونزل فسار القطار الهوينا وكان على يسار طريق القطار جميع جند أحمد عرابى ومعهم الموسيقى، فلما اقترب منهم القطار عزفت الموسيقى بنشيد السلام السلطانى وضج الجند بأصوات التهليل والتكبير فبرز كامل باشا من شباك العربة وحياهم بإشارات السلام فصاحوا بالدعاء للخليفة أمير المؤمنين وكان أحمد عرابى على رأس صفوف أولئك العسكر وخلفه جماعة من كبار الضباط وهو يهلل بالدعاء فأعجب هذا كله كامل باشا وسر به سرورا عظيما، وكان لقاء كامل باشا وأحمد عرابى على موعد بينهما رغما عن ممانعة رجال الحكومة وبذلهم الجهد فى التبعيد بينهما، وبعد أن خرجت الباخرة العثمانية بمن عليها من رجال الوفد من مينا الإسكندرية بقليل دخلت باخرة حربية إنجليزية اسمها انشيل قادمة من مالطه وهى من المدرعات الضخمة فيها أربعة عشر مدفعا كبيرا فأقامت بالإسكندرية يومين ثم خرجت فى سادس عشرى ذى القعدة وخرجت معها المركب الفرنساوية، وتشوّف الناس يومئذ إلى معرفة ما سيكون بعد وصول رجال الوفد إلى دار السلطنة وتزايد تساؤلهم عما فى صحف الأخبار وأكثروا من شرائها واضطر من لا يعرف القراءة من العامة إلى مصاحبة من يعرف القليل منها فكنت تراهم فى شوارع القاهرة ومصر القديمة جماعات وبينهم الرجل أو الصبى من صبيان المكاتب وهو يقرأ عليهم ترجمة عبارة لصاحب جريدة التيمس الإنجليزية أو لصاحب الديبا الأفرنسية أو لغيرها من صحف الأخبار الأجنبية وهم فى ضجة وحوقلة وعم هذا الحال السوقة وأصحاب الحرف الدنيئة كالصباغين والزياتين والحلاقين، وقد رأيت يوما صبيا فى حانوت لرجل يبيع البقل وبيده صحيفة من صحف الأخبار العربية وأمام الحانوت خلق من السوقة وهم محدقون بالصبى وهو يقرأ عليهم ما نصه، قد طلب الباب العالى من سفيرى الفرنسيس والإنجليز أن يعلماه مفصلا بالسبب الحامل للدولتين على إرسال المركبين الحربيتين إلى مدينة الإسكندرية، فأجاباه بأن ليس المقصود من إرسالهما إرغام رجال الوفد العثمانى على سرعة الخروج من مصر كما أشاعه المرجفون وإنما المقصود هو وقاية رعايا الدولتين فقط فإذا سافر المبعوثان سافر المركبان أيضاً انتهى، فقهقه الجمع عند سماعهم هذا الكلام وهمس كل فى أذن

الآخر وصاح أحـدهم قائلاً وهلا ترى فى هذه الورقة أيضاً أن الإنجليـز والفرنسيس يتخوّفون من تخلف كـامل باشا السمين بالقاهرة بعد قيـام الذين جاءوا معه من دار السلطنة وقد نادى أصحاب صـحف أخبار الفرنسيس على قومـهم بالحذر والألتفات إلى ما عسـاه أن يحصل من بقاء الباشا المذكـور فقلب الصبى الصحيـفة يمنة ويسرة وتأملَ فيهـا، وقال: صدقت ياعماه ومن الـذى أعلمك بهذا الخبر، فقـال: سمعت فلانا الحلاق الساعة يقول أنه سمـعه من أحد موظفى الحكومة، فقلت فى نفسى أن الله بالعاقبة عليم.

(مطلب)

مجلس نواب البلاد وهو أحد مطالب جماعة الضباط

ووصل رجـال الوفد إلى دار السلطنـة فاندهش كـبار سـياسـة الدول من دهاء السلطان وعدم جعله تلازمـا أو تعلقا بين وجود مبعـوثيه فى بلاد هى تابعة له وبين إرسال دولتى الإنجليـز والفرنـسيس مركـبيهمـا الحربيتيـن إلى مدينة الإسكندرية فكاد سفير الإنجليـز فى دار السلطنة يتميز غيظا من عجزه عن إدراك جمـيع هاته المعميات التى لم تكن تخطر له على بـال، وقد أشار إلى ذلك صـاحب جريدة الدالـى نيوز الإنجليزية فى كثير من عباراته عن سياسة الخليفة السلطان «عبد الحميد» وما فعله عند إرسـال وفـده إلى مـصـر مما لم يعـرفـه أحـد إلى يوم رجـوع رجـال الوفـد إلى القسطنطينية، وانصرفت أفكار الناس عن البحث فيما أتى من أجله رجال الوفد بعد رحيلهم إلى الـقسطنطينية إلى اسـتطلاع ما سـيكون من أمر تشكيل مـجلس شورى نواب البلاد وقـد رسم الوزير محمد شـريف باشا إلى مديرى الجـهات ومحافظيـها باستدعاء أهالى البلاد إلى الانتخاب على القاعدة التى تقررت لذلك وأرسل يستحث الناس على التـدبر وأن لا ينتخبـوا إلا من عهد بالصـدق وعرف فـيما بين العـموم بالفطانة والذكاء واشتـهر بالمعرفة وحب المنافع للبـلاد والأهتداء إلى طرقها الحقيـقية وتحققت منه العفة والاستقامة قديما وحديثا ـ قال ـ فمن وجد بهذه الصفات انتخبوه غير مراعين إلى الشهرة والظهور ومن وجدتموه على ما يناقض هذه الأخلاق فابتعدوا عنه وانبذوه وإن كـان أثرى المثرين، فـما طار الخبـر بذلك إلى الآفاق حـتى غصت دواوين الحكومة بـالوجهاء والأعـيان والمثريـن من أهل القرى واختلفـت كلمة أهل البلاد وتفرقت أهواؤهم وتبـاينت أغراضهم حتى كادوا يفـتتنون وتعذر على المديرين

والمحافظين عمل الانتخاب والوزير يستحثهم ويحضهم على الأخذ بأطراف الحزم وأن لا يراعوا إلا المصلحة العامة ولا ينظروا إلا إلى الأوسع معرفة من قومهم والأقوى إدراكا والأنفذ بصيرة والأكثر اطلاعا والأعرف بأحوال بلاده وحكوماتها فى الماضى والحاضر فاطمأنت عند ذلك القلوب وتم الانتخاب أو كاد.

(مطلب)

ما كان من سياسة قونصل جنرال الإنجليز فى أمر تشكيل مجلس شورى النواب

قال بعض الكتاب: فكبر هذا الأمر على المستر مالت قونصل جنرال الإنجليز واستعظمه لا لأنه من الأهمية عنده فى شيء ولكن لاعتباره إياه أنه هو المحور الذى ستدور عليه رحا أعماله فعمد إلى ملازمة الخديوى وأكثر من مجالسته فكان إذا رأى منه تسرعا فى تحديد أجل تشكيل مجلس النواب على النحو الذى أشار به الوزير محمد شريف باشا بالغ فى النصيحة وهوّل فى العاقبة وأظهر من جانب القسوة حنواً وإشفاقاً وإذا رأى منه بعد ذلك تباطؤا فى العمل وإغضاء ذهب إلى البارودى وشكا إليه من تغاضى الخديوى وإبطائه وحض البارودى على الثبات والحزم وعدم التخلى عن زعماء العصابة حتى يدركوا منشودهم فلم يخرج من عند البارودى وأصحابه إلا وهم فى ضجة وجلبة وهياج فإذا كثرت جلبتهم وعظم ضجيجهم ورموا الخديوى بسوء النية وبالغوا فى تعنيفه وتعييبه حتى ينقبض ويغضب ذهب إليه مالت ولاطفه وهوّن عليه الأمر ومناه بالأمانى الطويلة العريضة فإذا آنس منه سكون الخاطر والخلود إلى المساهلة عرج به إلى الوقيعة وشذ فى القول وعظم البلوى وحذر من العاقبة حتى يتخيل للخديوى أن قد سدت أبواب النجاح وانطمست معالم الفلاح فيرجع إلى ما كان عليه من الوحشة والانقباض ويرجع كذلك البارودى وأصحابه إلى الاستغاثة بقونصلى الفرنسيس والإنجليز - قال - وهكذا كان حال الخديوى وزعماء العصابة من اليوم الذى بعث فيه الوزير محمد شريف باشا يستحث المديرين والمحافظين على سرعة الانتخاب، وكان من وراء ذلك أن تطاولت أيدى رجال العصابة العسكرية إلى العبث بعمل الانتخاب فجعل عبد الله صاحب الطائف يجوب البلاد ويستميل الناس إلى انتخاب المحزبين لرجال العصابة فاستمال الكثير من أهل الشرقية والبحيرة والدقهلية والقليوبية وغيرهم من أهالى المدن القبلية، فلما كان

عاشر ذى الحجة من السنة أى سنة ثمان وتسعين قدم أحمد عرابى إلى القاهرة وقدم كذلك من مدينة دمياط عبد العال بيك حشيش وشاع خبر حضورهما فتحدث الناس به وترامت ظنونهم، وقالوا: إنهما إنما قد حضرا لإكراه الهيئة الحاكمة على سرعة تشكيل مجلس نواب البلاد واشتد خوف العامة وكثر لغطهم فكانوا إذا رأوا جماعة يهرولون فى الطريق، قالوا: إنهم ذاهبون بدعوة من أحمد عرابى أو شاهدوا زحاما على حانوت، قالوا: إنه بإشارة منه لسر لا يعلمه إلا هو والمقربون إليه أو سمعوا مؤذنا ينادى حى على الفلاح، قالوا: إنما هو يدعو الناس إلى التعاون والتعاضد أو سمعوا امرأة تولول على صبى ضل اسمه أحمد، قالوا: إنما هى تستغيث بأحمد عرابى بيك لدفع ظلامتها وكشف غمتها وعم هذا الخلط جميع المدن والبلاد فكانت إذا وضعت حبلى صبيا سمته عرابى أو أحمد عرابى لا سيما أهل القرى واشتد تعلق الناس به شدة لم تكن تخطر لأحد على بال وتكلم أصحاب صحف الإنجليز والفرنسيس فى أمر مجىء أحمد عرابى وعبد العال حشيش إلى القاهرة وفصلوا وقاسوا وخاطوا فخشى الوزير محمد شريف باشا العاقبة واستقدم سائر المديرين والمحافظين وشدد عليهم بسرعة الانتخاب فأتموه فى ثانى عشر ذى الحجة المذكور.

(مطلب)

الاختلاف فيمن يتولى مجلس نواب البلاد

ولما تم انتخاب سائر الأعضاء ولم يبق إلا الرئيس اختلفوا فيمن يتولى الرئاسة وطالت أيام الاختلاف فتباينت الأغراض وتفرقت الأهواء وعادوا إلى ما كانوا عليه من الخلط والخبط وكثرت أراجيف ضباط الجند وتزايد تطوافهم فى شوارع المدينة ولبثوا على هذه الحال أياما حتى اجتمعت كلمتهم على انتخاب محمد سلطان باشا أحد أعيان منية ابن خصيب بالأقاليم القبلية وزال ما كاد أن يقع من الوحشة بين الوزير محمد شريف باشا وزعماء العصابة وشاع خبر رحيل أحمد عرابى وعبد العال حشيش عن القاهرة إلى دمياط ورأس الوادى ولم تكد تسكن الخواطر وتطمئن القلوب لقيام أحمد عرابى بك وعبد العال بك إلى مقر عسكرهما حتى عاد الأرجاف بقيام العسكر على كافة النزلاء الذين بالإسكندرية وإعمال السيف فى رقابهم فاشتد الخوف بالناس شدة بالغة، وتحرير الخبر أنهم وجدوا فى سادس عشر المحرم افتتاح سنة تسع وتسعين رجلا من الشرطة قتيلا فى الطريق وكان أول من رأى

جثتـه رجلا إيطالياً فـذهب الرجل إلى مقر محـافظ المدينة وأعلمه بالخبر فلـما شاع الخبـر وعلمه أصحـاب ذلك الشرطي ظنوا أن الإيطالي هو القاتل فـهاجوا ومـاجوا وحملوا بنادقـهم وتأثروا الإيطالي فاختـبأ في مقر المحـافظ فأرادوه عنوة واقتحـموا المكان وهم فى ضجيج هائل وذهب جماعة منهم إلى موضع القتيل فحملوه وأتوا به أمام مقـر المحافظ وصاحوا ونادوا وطلـبوا الإيطالى للبطش به فاجتـمعت عند ذلك الغوغـاء وعلت الضوضاء وتزاحم الناس على أبواب الـديوان يريدون الدخول فنزل إليهم المحـافظ وجعل يلاطفهم وأمر بالـقتيل ليحـمل ويدفن فامتنعوا وصـاحوا فى وجهه وقالوا: لا يحل لك ذلك يامسلم أحـضر لنا النصرانى الساعة لنبطش به وإلا ذهبنا بالجثة إلى القاهرة فاشتد الـلدد وخاف الناس واختفى الأجانب وأغلق أصحاب الحوانيت حـوانيتهـم وأرسل المحافظ إلى الوزير محـمد شريف باشـا يعلمه بالخـبر فاستعظم الأمر جدا وسير إلى المحافظ يستحثه إلى مداركة الأمر وكتب إلى صاحب الشرطة يقـول لازموا السكينة وسـيقدم عليكم وفـد لتحقـيق الحادثة فبـذل المحافظ وصاحب الشرطة جـهد الاستطاعة حتـى فرقوا تلك الجموع وحـملوا الجثة وواروها التراب ليـلا وبات الناس ليلتهم تلك وهم فى خوف مـا عليه من مزيد، فلمـا كان اليوم الثانى قدم إلى الإسكندرية وفد الوزير محـمد شريف باشا فسأل وبحث ودقق فلم يظهر أن للإيطالى ذنبا ولا جناية فاخلوا سبيله وقد ثبت أن القاتل للشرطى نفر من أهله لسر بينهم فسكنت الفتنة واطمأنت قلوب الخلق.

(مطلب)

الخبر باستفحال أمر مدعى المهدوية بالسودان

ولم تكن لتتمكن الهيئة الحاكمة إلى هذا الحين من تسيير المدد إلى السودان لقتال مدعـى المهدوية، وقـد وردت الأخبـار من والى السودان وهو رؤف باشـا فى ثالث صفر من السنة تنبىء بـاستفحال أمر مـدعى المهدوية وإعلاء كلمته وأنه عـاد فخرج على من وجـده من العسـكر المصرى فـقتل منـهم زهاء الثلثمـائة ونهب مـتاعـهم وسلاحهم فلما شاع خـبر نصرته بين سكان الجبال اعتقدوا صحة دعـواه فتبعه خلق كثير من العـربان والقبائل الرحالة وشنوا الغارة على الكثيـر ممن لم ينضموا إليه ولم يقوموا لنصرته ودخلوا القرى فأحرقوا ونهـبوا ما لا يحصى من البقر والغنم والأنعام والريش وسنّ الفيـل واستلبوا مـا فى خزائن مراكـز الحكومة فلم يبـقوا ولم يذروا،

ووصل الخبر بذلك إلى أهل الخرطوم وتجارها فحصل لهم فزع عظيم وداخلهم من الخوف ما لا مزيد عليه فجمعوا أموالهم وسيروا بها إلى أسوان بالصعيد الأعلى فكبر الأمر على الوزير محمد شريف باشا وجعل يرسل المدد تباعا من الجند والكراع وقدم إلى القاهرة طوائف التجار من الأقطار السودانية ما بين أهليين وأجانب فرارا من نار الثورة وإيذاء مدعي المهدوية وأصحابه فتحدثوا بخبر ما وصلت إليه لوم المدعى وما يفعله أصحابه من القتل والنهب وإحراق المدن والقرى وذبح الأطفال على صدور الأمهات وإهلاك الحرث والنسل وكثر انحدار السفن ومراكب النقل إلى أسيوط والقوافل من طريق الأربعين وغيرها تحمل أرزاق التجار وانقطع إرسال البضائع إلى السودان وتعطلت سائر أسباب الرزق بتلك الأصقاع فلم يبق عند الناس شك فى صحة خبر المتمهدى وقد كانوا إلى هذا الحين يظنون أن القول بظهوره إنما هو اختلاق من الرئيس مصطفى رياض باشا أيام رئاسته ليتمكن بذلك من تمزيق شمل عصابة الجند والتفريق بين كبارها وأطالوا الكلام فى أمره أياما ثم تناسوه بحديث مجلس شورى النواب وما سيكون من أمر رجاله وتبعهم فى ذلك أصحاب صحف الأخبار المحلية وأكثروا من حض الوزير محمد شريف باشا على سرعة فتح أبواب ذلك المجلس وأطالوا العتب واللوم.

(مطلب)

افتتاح مجلس شورى النواب

فلما كان الخامس من صفر افتتح المجلس فكان يوما مشهوداً أخذ الناس منذ شروق الشمس يتواردون عشرات عشرات إلى صوب المقام حتى غصت حجرات المكان بالوفود من أهل البلاد والأجانب وامتلأت دوائر قاعة المجلس بالوجهاء والمعتبرين ثم جاء الأعضاء بملابس الزينة والتشريف فجلسوا واصطف فى الفسحة الخارجية فرقتان من الجند ولم يلبثوا إلا قليلا حتى أقبل الخديوى فى عربته يصحبه الوزير محمد شريف باشا وأمامهما أحمد خيرى باشا المهردار وطلعت باشا كاتب الديوان الخديوى فنادى الجند بالسلام وعزفت الموسيقى بالنشيد الخديوى فخرج للقائه زهاء العشرين من النواب وسائر النظار فدخل قاعة الاستراحة ولبث لحظة ثم انتقل فى نحو الساعة السادسة إلى قاعة المجلس ووقف فى صدر المكان وعلى يمينه النظار ورجال ديوانه الخاص وأخذ ورقة وقرأ ما نصه.

أبدى لحضرات النواب ممنونيتي من اجتماعهم لأجل أن ينوبوا عن الأهالي في الأمور العائدة عليهم بالنفع وفي علم الجميع أني من وقت ما استلمت زمام الحكومة عزمت بنية خالصة على فتح مجلس النواب ولكن تأخر افتتاحه للآن بسبب المشكلات التي كانت محيطة بالحكومة فأما الآن فنحمد الله تعالى على ما يسر لنا من رفع المشكلات المالية بمساعدة الدول المتحابة ومن تخفيف أحمال الأهالي بقدر الإمكان فلم يبق مانع من المبادرة إلى ما أنا متشوف لحصوله وهو مجلس النواب الذي أنا فاتحه في هذا اليوم باجتماعكم وأنتم تحيطون علما أن جل مقاصدي ومساعي حكومتي هو راحة الأهالي ورفاهيتهم وتنظيم أمورهم بتعميم العدالة بينهم وتأمين سكان القطر على اختلاف أجناسهم وهذا منهجي واضح مستقيم وعليه سيري منذ توليت أمركم محبا للتربية ونشر العلوم والمعارف فعلى المجلس أن يكون مساعدا للحكومة في هذه الأمور كلها خالصا مخلصا في خدمة الوطن منحصرة وأفكاره ومذكراته في المنافع العمومية مع مراعاة قرار لجنة التصفية وسائر تعهدات الحكومة مع الدول سالكا المسلك المعتدل والمنهج القويم الذي هو أهم شيء في هذا الوقت الذي هو عصر الترقي والتمدن فالواجب علينا الاعتدال والتأني وحسن التبصر وأن نكون يدا واحدة في إتمام الأعمال النافعة متوسلين بعناية الله تعالى وإمداد رسوله الكريم ومتمسكين ارتباطا بالحضرة السلطانية وبالدولة العلية أدامها الله تعالى نسأل الله حسن النجاح وهو ولي التوفيق.

فلما أتم كلامه أمن الجميع على دعائه ونادى الرئيس قائلا أدام الله المعظم فكرر ذلك أيضا الحاضرون ثم استراح الخديوي بقدر جلسة الخطيب ثم خرج وركب عربته فاطلقت عند ذلك المدافع من قلعة الجبل وأخذ الناس في الانصراف هيئة المجلس فأمر رئيسهم فعقدوا جلستهم وتلا عليهم هذا الخطاب.

أيها السادة النواب نحمد الله الذي جعل أمرنا شورى، ونصلي ونسلم على نبيه فيه المأمور بالشورى، والآمر بها، وبعد فقد سمعتم ما تضمنته المقالة الخديوية الكريمة من حسن القصد وسمو الإرادة مما لم يزدكم إلا يقينا بما عهدتم بالجناب المعظم من حسن النية، وكريم العنصر وسلامة الطوية، والارتياح إلى المصلحة الوطنية، وقد سمعتم في هذا المقام الرفيع بعناية الجناب الخديوي العالي ورجال حكومته السنية أمور أوطانكم وأنتم خلاصة وجهاء القطر وبضعة أعيانه ونبهائه فواجباتكم من قبيل تقضي عليكم بالحكمة والاعتدال والثبات ولا أزيدكم علما بأن الولي العزيزي إلى الإصلاح والتنظيم قابل للتقدم والعمران جامع لأسباب المنافع الكلية

فمـا الاجتهـاد إلا لنوال المـراد ولكنكم لا تجـهلون أن علينا حقوقـا واجبـة الحفظ وسلامـة الرعاية وأنا قـد أمرنا شـرعا بحـفظ العهـد ورعى الذمم فمن تلـك شدة الأرتباط ؟؟ للدولة العلية التى هى مركز قوتنا ومرجع سطوتنا وقد عرفنا منها العناية ؟؟؟ الإخلاص فلابد من ثباتنا على هذا الحـال بالنظر إليها ولا شك أن تقدمنا ؟؟؟ وتأييد أمـور الشورى فينا يسر هـذه الدولة العلية لما ينشأ لنا عنه من القـوة جزء من قوتهـا الكلية، وأن الذمم والمواثيق هى علاقـاتنا المالية والتجـارية مع الدول العظمى فهذه الذمم واجبـة الرعاية لما يترتب على حفظها من اسـتحكام صلات المواثيق بيننا وبين هاتيك الدول التى ينبغى لنا الأعتقاد برغبتها فى انتظام أمورنا وميلها يعود علينا بالنفع كمـا صرح بذلك عظماء رجالهـا على منابر المجالس النيابيـة وفى المنشورات الرسمية فإذا حفظنا تلك العـهود وراعينا تلك الذمم وعرفنا حقوق الوطن علينا ولم نذهل عن شىء من الواجبات لزمنا الأخذ بأسباب الحكمة والثبات للنظر فيما يجلب علينا النفـع ويـدرأ عنـا الضرر ويثبـت للنـاس جدارتـنا بما وصلنا إليه ويحقق لنا ظن أبناء الوطن الذين جعلـونا موضع ثقتهـم واعتمادهم فـوجهوا إخـوانى همتكم فى السعى بالحكمـة والاعتدال والتبصـر والثبات فمن جدّ وجـد ومن سار على الدرب وصل فنسأل الله العظيم حسن البداية والنهاية.

ثم انفض مجلسهم وتفـرقوا ولما كانت السـاعة التاسعـة من تاسع الشهر المذكور وفد على مقر الخـديوى بالإسماعيلية عشرة من نواب البـلاد انتدبهم المجلس لتقديم الجواب على الخطاب الذى افتتح به الخديوى المجلس فـمثلوا بين يديه وحوله جميع الوزراء والوزير محمد شريف باشا على يساره فتلا أحدهم هذا الجواب.

بعد حـمد الله على توفـيقه وإرشـاده، والصلاة والسـلام على من اصطفى من عباده، نقوم لدى هذه السـدة الخديوية الكريمة نحن مـعاشر الأمة المصرية مقام النيابة عن جمـيعهـا فى تقديم واجب الشكر لهـذا الجناب الخديوى الفخـيم على انعطاف عواطفه نحو مجلس شورى النيابة الذى انتخـبه بنطقه الشريـف إظهارا لمقصده الجليل من حيز القوة إلى عالم الفعل وإجابة لرغبة الأمة ونظرا لمصلحة العامة بعد أن أزالت العوائق دونه وامتنعت الموانع بيننا وبينه بجلائل همـة الخديوى التى زلت لها صعاب المسائل، وخضعت لها رقاب المشاكل، حتى صفا الوقت واطمأنت الحال، ودنا المنى وانقادت الآمال، ولقد شنف أسماعنا، وأنعش أرواحنا، ذلك النطق الكريم، وملك أفئدتنا سرورا وطربا بما تضمن من الإفصاح عما عرفناه لولى النعمة وألفناه من نزاهة

ونبالة القصد حتى لقد نطقت السرائر بما بدا من نسمات السرور فلم تدع بالألسنة من حاجة للتعبير عن فرط محبة عظيمة من أمة كريمة لمولى تفضل عليها وتحبب إليها تحبب محب لحريتها مشغوف بخيرها ونفعها فلم يبق إلا أن نبذل غاية ما فى السعة وتأتى جهد الاستطاعة فى نفع هذه الأمة التى انتدبتنا للنظر فى منفعتها واستنابتنا عن أنفسها لرؤية مصالحها سالكين فى ذلك مسالك الحزم والتبصر وحسن النظر بما تتحسن بعناية الله مغبته وتحمد بيمن التوفيق غايته ويعضد مقاصد حكومتنا السنية المتجهة للرشاد والسداد وسلامة البلاد والعباد ويؤيد ما لنا من روابط التبعة للذات السنية السلطانية والدولة العلية العثمانية التى منحتنا عواطفها الكريمة من الامتيازات المرعية فكملت به النعمة وعظمت المنة ويؤيد علائقنا الإدارية مع الدول الأجنبية المحبة لمنفعتنا وفائدة بلادنا مبتهلين إلى الله جل ثناؤه وتقدست آلاؤه فى أن يحرس لنا هذا الجناب الخديوى الفخيم ويديم لأوطاننا به النفع العميم أدام الله توفيقها على أحسن ما يرام ويبلغ به الوطن العزيز غاية المرام آمين.

والتأموا بعد ظهر اليوم ثانية وقرروا أمر تحقيق الانتخابات فكانت جملة النواب خمسة وسبعين ثم شكلوا لجنة لتنظر فى أبواب وفصول قانونهم وتنقيحه، وقد كان ذلك القانون هو الذى أنشأه الخديوى إسماعيل وقرر كل قسم نوابا عنه فى تلك اللجنة فأخذوا بأطراف العمل وساروا فيه سيرا حثيثا فلما كان ثانى عشر صفر سار الوزير محمد شريف باشا إلى مقر النواب ورفع لهم القانون الأساسى لأعمال المجلس لينظروا فيه ويبدوا ما يخطر لهم من الأفكار فى مواده وحدوده ثم وقف بينهم وألقى فيهم هذا الخطاب.

(أيها السادة النواب - إنى لا أقدر أن أعبر لحضراتكم عن سرورى من الحضور بينكم فى هذا اليوم الذى أعدّه مبدأ لعصر جديد إن شاء الله يعود على هذا القطر بالتقدم والنجاح وحضراتكم تعلمون أنه من منذ ثلاث سنوات تراءى لى أن الطريقة الوحيدة لخلاص البلاد من الورطات التى كانت محيطة بها هى توسيع نطاق الشورى واشتراك رأى نواب البلاد مع الحكومة فى نظر كل أمر مهم تعود منه المنفعة وكنت قدمت مشروعا لمجلس النواب الذى كان موجودا يومئذ وقد أجري فيه تغييرات ثم تيسر للحكومة النظر فيها ثم طرأت حوادث سياسية ومالية ليست خافية عليكم قد ترتب عليها تعويق إتمام المشروع والحمد لله قد زالت العوائق وإنى لأجد نفسى سعيدا حيث إن أفكارى فى هذا الخصوص ما كانت إلا نتيجة مقاصد الحضرة الخديوية وهذه الأفكار قد طابق عليها عموم الأهالى ولهذا حصل انتخاب حضراتكم

واجتمعتم فلنهنىء القطر على ذلك ولنهنىء أنفسنا وندعو للذات الشاهانية والحضرة الخديوية ببقائها مصدرا لكل خير ولما كانت لائحة النواب التى اجتمعتم على مقتضاها لا تلائم أفكارنا جميعاً قد أوضحت من منذ ثلاث سنوات وكررت المعروض الذى رفعته أخيرا للسدة الخديوية عند طلب اجتماع مجلسكم هذا فاشتغلت مع رفقائى بتحضير لائحة موافقة لمقاصد العموم وقد تمت وها أنا الآن أقدمها لحضراتكم للنظر فيها ومع كون هذه أول مرة اجتمع فيها مجلس نواب حر فكان يلزم أن السلطة التى تعطى له لا تكون مطلقة بالكلية حتى يحكم المستقبل بإطلاقها بالتدريج شيئاً فشيئاً لكن حيث إن مقصدنا جميعا واحد وهو خير البلاد والحكومة معتقدة بكفاءة النواب وعلمهم بحقوقهم وواجباتهم ومحبتهم للوطن فقد أعطت لكم الحرية التامة فى إبداء آرائكم وحق المراقبة على أفعال مأمورى الحكومة من أى وجه وأى صنف كانوا وصرح لكم بنظر الموازين العمومية وإبداء آرائكم فيها ونظر كافة القوانين واللوائح وقد التزمت بعدم وضع أى ضريبة ولا نشر أى قانون أو لائحة ما لم يكن بتصديق وإقرار منكم، وكذلك تعهدت بأن تجعل النظار مسئولين لديكم عن كل أمر يترتب عليه إخلال بحقوقكم والغاية فأنه لم يحجر عليكم فى شىء ما ولم يخرج أمر مهم عن حد نظركم ومراقبتكم إنما لا يخفاكم الحالة المالية التى كانت عليها مصر مما أوجب عدم ثقة الحكومات الأجنبية بها ونشأ من ذلك تكليفها بترتيب مصالح وتعهدها بالتزامات ليست خافية عليكم بعضها بعقود خصوصية والبعض بقانون التصفية فهل يتيسر للحكومة أن تجعل هذه الأمور موضعا لنظرها أو لنظر النوّاب حاشا لأنه يجب عليها قبل كل شىء القيام بتعهداتها وعدم خدشها بشىء مّا حتى نصلح خللنا وتزداد ثقة العموم بنا ونكتسب أمنية الحكومات الأجنبية ومتى رأت منا تلك الحكومات الكفاءة لتنفيذ تعهداتها بحسن إخلاص بدون مساعدتها فنتخلص شيئاً فشيئاً مما نحن فيه، وإنى لواثق بأن بصيرة وحكمة النواب ومساعدتهم الحكومة لابد وأن يترتب عليها ازدياد الثقة بنا هذا ومن المعلوم أننا تابعوُن للدولة وصوالحنا مرتبطة بصوالحها وهذه التبعية وهذا الارتباط هما السبب الوحيد لسلامتنا ونجاتنا فحقوقها حينئذ هذه مقدسة ومراعاتها فرض واجب على كل منا ولندع الله جميعاً بدوام الذات الشاهانية وتأييد دولته العلية التى منحتنا امتيازات تضمن لنا خير البلاد وحيث إن الثمرة المقصودة من اجتماع المجلس وهى نفع البلاد لا يمكن الحصول عليها إلا بعد التصديق على لائحة إجراءاته فالمأمول من

حضراتكم المبادرة بنظرها حتى إننا نشرع فى الأعمال النافعة المهمة ولكون من تتمة وضع مجلس نواب يلزم ترتيب مجلس للإدارة وتحضير القوانين ومحاكمة المأمورين عن كل أمر يجرونه خارج عن حدودهم أو مخالف للقوانين واللوائح فى أثناء تأدية وظائفهم فقد عمل عن ذلك مشروع وها هو مقدم للمجلس المأمول أيضاً الإسراع بنظره حتى يصدر مع اللائحة وإن شاء الله تعالى سيتقدم لحضراتكم عما قريب مشروع لائحة الانتخاب فنسأله تعالى ببركة نبيه الكريم أن يقرن أعمالنا بالنجاح ويوفقنا للاتحاد قولا وفعلا لما يكون فيه الإصلاح آمين آمين بجاه خاتم النبيين.

فأمّن الجميع على دعائه ثم تركهم وانصرف.

(مطلب)

مفاد ما فى قانون الانتخاب

وكان مفاد القانون الذى رفعه إليهم فى ذلك اليوم أن الانتخاب وكيفيته يكون بموجب قانون آخر يتبع القانون العمومى وأن مدة النيابة لا أقل من خمس سنين وأن النواب يكونون أحراراً فى الأعمال وإذا ارتكب أحدهم جريمة فلا يجوز للحكومة أن تقبض عليه إلا بإذن وتصديق من هيئة المجلس ومن أحكام هذا القانون أيضاً أن النائب ينوب عن الجهة التى استنابته خصوصا وعن مصالح البلاد كلها عموما ويكون مقر المجلس بالقاهرة ولا يكون التئامه إلا بأمر يصدر من الخديوى على قرار من مجلس الوزراء ولا يستعمل فى إدارة أشغاله إلا اللغة العربية ويصح للنظار أن يحضروا جلساته كما لهم أن يستنيبوا عنهم فى الجواب عن بعض المسائل أعضاء مجلس الإدارة أو أحد كبار الموظفين فى دواوينهم ويقدم النظار الجواب عن كل ما يسئلون عنه من قبل المجلس اللهم إلا فيما هو من خصوصياته وإذا اختلف مجلس الأمة ومجلس الوزراء فى أمر من الأمور جاز للخديوى حل عقد مجلس الأمة ويأمر بانتخاب سواه لمدة أربعة أشهر، فإذا صدق مجلس الأمة بعد الانتخاب الثانى على ما كان قرره الأعضاء السابقون كان قراره هو النافذ ولا يعرض موضع الخلاف على مجلس الأمة ثانية فى كل مدته ولمجلس الأمة أن يتداول فى اللوائح والقوانين والضرائب وفى كل أمر تعرضه عليه الهيئة الحاكمة وله أن يرى فى ميزانية الخزينة ويبدى فيها رأيه فقط وأن لا يمكن فرض ضريبة من أى نوع كان بدون قانون يصدق عليه من الأمة فإذا جمعت ضريبة غير المقرر فى القوانين المالية عوقب جامعها

بأشد العقاب أما ميزانية الخزينة فتعرض على المجلس قبل نهاية الشهر الثانى من التشامه ويجب أن تكون موضحة التوضيح الكافى وله أن يبدى فيها رأيه وعلى الرئيس أن يبلغ ذلك إلى ناظر الخزينة قبل انحلال المجلس ولا يجوز للمجلس التداخل فى أمر العسكرية ولا قرارات لجنة التصفية وصندوق الدين وما يتعلق به ولا المعاهدات الدولية ولا يمكن المداولة فى المجلس إلا إذا حضر ثلثا الأعضاء ويقتضى لاعتبار قراراته أن تكون الأغلبية تامة أما قرار مسئولية النظار فيكون بأغلبية من ثلاثة أرباع الحاضرين، هذا هو ملخص ما فى ذلك القانون أتيت به تتميما للفائدة المقصودة.

(مطلب)

تولية أحمد عرابى وكالة ديوان الجند
وورود لائحة الدولتين للخديوى

وفرح الناس بفتح أبواب مجلس شورى نواب البلاد واستبشروا به خيرا فأناروا فى تلك الليلة منارات المساجد بالأنوار الكثيرة وأقيمت الأدعية على المنابر وهنأ الناس بعضهم بعضا وأصبحوا وقد شاع الخبر بتولية أحمد عرابى بيك وكالة ديوان الجند فتناقلوه وهم بين مصدق ومكذب لا سيما أصحاب صحف الأخبار الأجنبية فلما كان خامس عشر صفر تأكد الخبر وتحقق صدق الرواية فهرع إلى داره طوائف الضباط والوجهاء والعلماء والأعيان والعميان وأصحاب العكاكيز ووقف الشعراء والمطرئون على بابه وأتته الهدايا من الضأن والأرز والسمن والعسل والسكر وبن القهوة والشمع وغير ذلك من أعيان البلاد وعمدها وتزاحموا على بابه يرجون لقاءه ويتمنون طلعته ولبث الحال هكذا يومين وخرج فى تاسع عشره يريد مقر الخديوى ليقبل الأعتاب على العادة المألوفة فى مثل ذلك فقابله الخديوى بالبشاشة والترحاب وأحسن لقاءه ولم يخرج من عنده حتى دخل قونصلا الإنجليز والفرنسيس ورفع إلى الخديوى ورقتان هما فى عرف أهل السياسة (لائحة) وقالا: إنهما متحدتان فى المعنى والمبنى وقد بعثت بهما الدولتان يعدان الخديوى فيهما بالمساعدة والإعانة على قضاء كل ما يروم نواله لاستتباب سلطته وتمكين عرشه عند مسيس الحاجة وشاع خبر هاته اللائحة فتعجب الناس وكثر تحدثهم به وداخل ضابط الجند بسبب هذه اللائحة من الريب ما داخلهم فاجتمعوا بقصر النيل وتناجوا فى الأمر طويلا ثم اتفقت كلمتهم على أنّ البارودى يكلم هيئة مجلس النظار فى ذلك فاجتمع البارودى

بالوزير محمد شريف باشا ثم بالخديوى وعـقدوا لذلك مجلسا وتكلموا فى معنى ما جاء فى تلك اللائحة وبعد أخذ ورد اتحـدت كلمتهم على أن يرسلوا صورة منها إلى الباب العالى ويسألوه الجواب فبعث الوزير بالصورة إلى دار السلطنة وكأنّ القونصلين قد أحسـا بما وراء ذلك فتقدّمـا إلى الخديوى والوزير محمد شـريف باشا فى طلب الجواب وألحـا فى الطلب فـرسم الخديوى إلى الوزير بإعطاء الجـواب فطاول فـشدد الخديوى فى ذلك فكبر الأمر على الوزير وطال بينهمـا الأخذ والرد فاحتجب الوزير فى بيتـه أياما فذهب إليه قـونصل الفرنـسيس فى صـبح حادى عشرى صـفر وطلب الجواب وألح فى الطلب فـقال الوزير: لا جواب عندى على ذلك البتـة والبلاد آمنة مطمئنة فإذا وقع فيها ما يكدر صفو الراحة كانت الدولة العلية أولى بالذب عنها فهى صاحبة السيـادة والخليفة أمير المؤمنين سلطان البلاد، فقـال القونصل: لا سبيل إلى غير مـا تطلبه دولتا الفرنسـيس والإنجليز، فقال الوزير: لم أعـرف إلى الآن ما مراد الدولتين من هذه اللائحة ولذلك فإنى استـوضح منك مشكلاتها قبل إعطاء الجواب فقام القونصل وتركه، وكلم قونصل جنرال الإنجليز كبيـرَ سياستهم فيما يسأله الوزير محمـد شريف باشا من فك أسرار ومشكلات تلك اللائحـة فرسم له بسؤال الوزير عما يريده ففعل وأبلغ ما أعطى بيانه ولبـث ينتظر الجواب، وبينما كان الوزير محمد شريف باشـا يراقب الحوادث ويطمن القلوب الراجـفة ويعمل عـلى منع الأراجيف وإزالة القلاقل إذ كتب صاحب صحيفة التـيمس الإنجليزية عبارة طويلة سماها باسم لائحـة الحزب الوطنى وضـمنها فـصولا وأبوابا لا يسـعنا إيرادها هنا وعزا تحـريرها وتنميقها إلى أحـمد عرابى بيك وبالغ فى مدحها واستحـسانها فكبر هذا الأمر على الوزير واستـعظمه وعـمل على تكذيبه وإذهاب مـا علق منه بالأذهان، وقـد كان لما تظاهر أحمـد عرابى بيك بزعامـة العصابة وتمكن من خلع الـرئيس مصطفى رياض باشا من منصب الرياسـة أحدقت به عيون أهل السـياسة من الإنجليز وكـثر تواردهم عليه وتزلفهم إليه رغبة منهم فى معرفة قدر إدراكه ومبلغ علمه بعوائد الأمم وأحوال البلاد وأساليب السياسة وكأنهم كانوا يرون فى ظهوره وخروجه مفتاحا لمغالق آمالهم فـسيروا له من دهاتهم وحـملة أسارارهم جـماعـة فجعلـوا يسايرونه ويبـالغون فى الأطراء عليه ويخـاطبونه بأنواع التجلة والتكريم ويقولون له إنك لمـن أعاظم الرجال وأقطاب أهل السـيـاسة وإنك لـرجل الحرية ومنقـذ البـلاد وأهلهـا من وهدة الذل والعبـودية وأنت العون والـسند وأنت الملجـأ والملاذ وغير ذلك من صنـوف التضليل والتغـرير حتى استهـووه وتطوّحوا به وكان ممن لازمه مـلازمة الظل من دهاة هؤلاء

القوم طاغيتان أحدهما اسمه وليم جريجورى وثانيهما اسمه بلانت فاستهوياه وغررا به تقريرا وزينا له كل عمل وحرّضاه على فعل كل خارجة لا سيما منهما بلانت فإنه تمكن من أحمد عرابى وأخذ بمجامع قلبه وكاشفه على ما خفى من سر بعثته إلى ديار مصر التى إنما هى سلخ الكنانة عن تابعية دار السلطنة العثمانية والعمل على تشييد مملكة عربية إسلامية يدخل تحت لوائها سائر بلاد العرب من عراق ويمن وحجاز وما بين النهرين وتونس وطرابلس والجزائر ودمشق الشام وكل بقعة من بقاع الأرض التى تحتلها العرب وبالغ فى المدح والإطراء، قال أحد المقرّبين إلى أحمد عرابى: وما زال ذلك الطاغية بأحمد حتى تاقت نفسه إلى طلب المعال الرخيصة وخضع له وعمل بمشورته فتجرد عند ذلك هو ورفيقه جريجورى على تحرير الرسائل المهيجة وتلفيق الأراجيف المزعجة وجعلا يرسلانها إلى صحفهم السيارة على لسان عرابى وشيعته حتى كادا ينكران متبوعية مصر لدار السلطنة العثمانية فكانت أصحاب صحف الإنجليز ترددها مشفوعة بالمدح والإطراء والتكهن بزوال ملك آل عثمان. اهـ.

قال جماعة: وزين بلانت ورفيقه إلى أحمد عرابى مخابرة شريف مكة وغيره من كبار العرب فى هذا الأمر وفى استنهاضهم إلى الخروج وشق عصا الطاعة عند ظهور الحركة بمصر قيل وسير إلى السنوسى بطرابلس الغرب يستقدمه إلى القاهرة ليكون له عونا على بلوغ الأرب وبعث إلى كبار مسلمى الهند يشاورهم فى الأمر فظهرت عندئذ حركة الخواطر وبدت إشارات الخروج وبلغت ترهات بلانت ورفيقه يومئذ والتغرير بأحمد عرابى مبلغا عظيما فكانا إذا سمعا أحمد عرابى يقول فى حديثه مع آخر أن نفرا من الجند أصابتهم اليوم تخمة تستلزم نقلهم إلى المستشفى كتبا إلى أصحاب صحف الإنجليز يقولان أشار أحمد عرابى بيك بنقل فريق من الجند وطائفة من العسكر بجميع سلاحهم وكراعهم إلى الجهة الفلانية وهم على قدم الرحيل والقلوب واجفة والخواطر مضطربة، وإذا سمعاه يقول زرت اليوم ضريح ولى الله العتريس أو اجتمعت بشيخنا فلان فدعا لى دعاء صالحا وبشرنى بأنى من أهل الجنة، كتبا يقولان علمنا ممن يوثق بحديثه أن قد طاف أحمد عرابى بيك على مساكن الجند ومعه جماعة من كبار العلماء وأئمة الدين فحثوا الجند على التعاون والتعاقد وإعزاز الدين والخروج عن طاعة الخلافة الغير الصحيحة إلى طاعة خلافة عربية تعمل بسنة الله ورسوله وغير ذلك من الأقاويل فكانت هذه الترهات والأضاليل داعية إلى كلمة القال والقيل وحاملة إلى طيرة الناس وتخوّفهم

وتسآلهم، قلت: وبلانت هذا رجل طويل القامة يبلغ الخمسة والأربعين من العمر قد نزل بالقـاهرة أعوامـا يتقـرب من بعض العلماء والمشـايخ وأرباب الوظائف العالـية ويتظاهر بمحبته إلى العرب وميله إلى عاداتهم وطباعـهم وحريتهم وحبهم للاستقلال ومقته لـلذل والاسترقاق وولوعه بلغتـهم وغير ذلك فاغتر الكثـير منهم بظاهر أمره وأدنوه من مجالسهم فجلس وتصدر واستفرغ ما فى صدورهم من حيث لا يشعرون حتى عـرف مبلغ علمهم ولبث بـين ظهرانيهم يكاتب رءوسـاء قبائل عـرب العراق واليمن والحجاز وما بين البحرين ويستميلهم بالعطايا والتحف وأصحاب الحل والعقد فى سنة من النوم لا يعـرفـون من أمره سـوى أنه من سـوّاح الإنجليـز الذين دأبهم البحث عن الآثارالقديمة ومعرفة طبقـات الأرض وقد اتخذ عين شمس له مقرا وما زال حتى ظهرت الفتنة بالقاهرة وقام أحمد عرابى ومن معه يطالبون بمطالبهم الطويلة ففرح بلانت وتجرد إلى العمل وتقرب من أحمد عرابى وأصحابه وجعل يزين لهم ما بدا ويحضهم على الأخذ بأطراف الحزم حتى كان من أمرهم ما كان مما سيتلى عليك فى محله إن شاء الله تعالى.

وكان لما بعث الوزير محـمد شريف باشا بصورة من لائحـة الدولتين إلى الباب العالى كـما تقدم القـول أرسل السلطان إلى كبيـرى السياسـة الإنجليزية والأفرنسـية يستعلم عن السـبـب الحامل على إرسال تلك اللائحة ويحتج عليهـما فى ذلك فكتبا إليه يقولان إنهما لا ينـازعان فى تبعية ديار مصر إلى مقام الخـلافة العظمى ولكنهما عزمتا على تأييد سلطة الخديوى وحفظ مقامه الحالى وبقاء المراقبة على ديوان الخزينة كمـا هى بدون مـساس فـأحس السلطان بخطورة ما وراء ذلك مـن اشتـداد الأزمة واستفحـال الخطب إذا ظل الحال هكذا (قال جماعة) فراسل أحـمد عرابى سرا على يدى أحـد القرناء وكـأنه رسم له بحـشد الجـنود والتأهب للقـتـال ومنع تطاول يد الدولتين فعاد أحـمد عرابى إلى طلب زيادة عدد الجنود العاملة إلى ثمانيـة عشر ألفا وألح فى الطلب وشدد على البارودى فى ذلك فنادوا فى البلاد بخروج سائر العسكر وجاءت الكتب بذلك إلى المديرين والمحافظين فانحدرت العـساكر أفواجا إلى القاهرة حتى ضاقت بهم منازل الجند أو كادت وانبثـوا فى الأسواق فخاف طوائف الأجانب وزاد بهم الهلع وظنوا أنه مـا وراء هذا الزحام إلا حـصول الطعن وامتـشاق الحـسام فنزح الكثـير منهم إلى الإسكندرية وطارت الأخـبار إلى الآفاق بمجىء الـعسكر إلى القاهـرة فهوّل أصـحاب الصـحف الإنجليزية وبـالغوا فى الأمـر ونهوا قومـهم عن

الاختلاط بالمسلمين ومجانبتهم.

وبينما كان الجند يأتون إلى القاهرة تباعا والناس فى شاغل بهم عما سواهم كان نواب البلاد وهيئة الحكومة على طرفى نقيض فى أمر تخويلهم حق النظر فى ميزانية الخزينة ومصروفات المصالح وقد طال بينهما الخلاف واشتد اللدد وأرسلوا لائحة مجلسهم إلى مجلس النظار يريدون الاعتراف منه بما أدخلوه على موادها من التحوير والتعديل لا سيما ما كان متعلقا بأمر الميزانية فطاولهم المجلس ومناهم فأبوا إلا ما يقولون وشددوا فلما كان يوم الثلاثاء حادى عشر ربيع الأول أعاد مجلس النظار إلى مجلس النواب اللائحة وأرسل يقول أن وكيلى الدولة الإنجليزية والأفرنسية يريان أن لاحق لمجلس النواب فى تقرير ميزانية الخزينة ولكنهما مع ذلك يقبلان المخابرة فى هذا الشأن بشرط أن يستقر الاتفاق بين جماعة النواب وهيئة الحكومة على سائر بنود اللائحة وبناء على ذلك تطلب الحكومة من النواب أن يصدقوا على اللائحة كما عدلها مجلس النظار وأن يترك البند المتعلق بالميزانية إلى حين وأن يبدى النواب رأيهم النهائى فى أمر الميزانية ليتسنى للحكومة جعله أساسا لفتح باب المخابرة مع الدولتين فلما وصلت اللائحة إلى النواب مع الطلب بما تقدم كبر عليهم الأمر واستعظموه واجتمعوا فى بيت محمد سلطان باشا الرئيس وظلوا ليلتهم تلك يتشاورون ويتدبرون فى العمل إلى أن اتحدت كلمتهم على أن لا يجيبوا طلب الحكومة ولا يعملوا برأيها وأصبحوا وقد عقدوا مجلسهم على غير العادة وقرروا تسليم اللائحة وورقة الطلب إلى اللجنة التى كان عهد لها تحرير تلك اللائحة واشترطوا عليها أن تنظر فيها ثانية وتعدل منها ما ترى لزوم تعديله ففعلت وصادقت على بعض البنود وأنكرت البعض الآخر وأبقت البند المتعلق بالميزانية جائزا بجميع أحكامه، وفى صبح الخميس سار خمسة عشر من النواب إلى مقر الخديوى بالإسماعيلية ليطلبوا تنفيذ ما قرروه فمروا فى طريقهم ببيت الوزير محمد شريف باشا فدخلوا عليه وسألوه قبول العمل بما قرروه فامتنع وقال: هذا لا يصح فألحوا عليه فلم يقبل فساروا إلى مقر الخديوى وتقدموا إليه فى قبول لائحتهم والعمل بما قرروه فيها وإلا لزم تنزيل الوزير محمد شريف باشا وخلعه من منصب الرياسة وتحقق الوزير ما فى عمل جماعة النواب من الدسائس الغريبة عن طباعهم فخشى العاقبة وعمد إلى المواربة وعين للوساطة بينهم بطرس بك غالى كاتب سر مجلس النظار يومئذ ورسم له بالعمل فقام بالأمر وسلك مسالك الجد والحزم وعمل على تذليل تلك الموانع فكان إذا مهد السبل وأحكم العمل وسار معه جماعة النواب وهم آمنون مطمئنون بوصولهم إلى الغرض وسوس

لهم خناس العصابة فيرجعون ناكصين وهم أشد عنادا وأصعب مراسا من ذى قبل فلما ضاقت عليه المذاهب أو كادت عمد إلى مجامع العصابة فدخلها وما زال بكبارها وأصحاب الكلمة فيها حتى تمكن من تعديل بعض مواد القانون التى لا علاقة لها بالميزانية وبقيت أحكام المادة المتعلقة بالميزانية على ما هى عليه، وعظم الأمر على الوزير محمد شريف باشا واستعصى الحل فكتب قونصلا الإنجليز والفرنسيس إليه يقولان بناء على كون قانون التصفية لم يبح اشتراك نواب البلاد فى تقرير ميزانية الخزينة وبما أن الدولتين تقرّان أن أمر الميزانية صار ارتباطا بينهما وبين حكومة مصر فيجب على الحكومة أن ترفع لنا بيان ما يتطلبه الآن مجلس النواب لتبعث به إلى أصحاب الحل والعقد فى بلادنا ليروا فيه رأيهم، فجمع الوزير فى اليوم الثانى مجلس الوزراء وبينهم بعض نواب البلاد ليروا فى طلب القونصلين فتكلموا فى ذلك كثيرا وطال الأخذ والرد حتى علت الأصوات وكثرت الضوضاء واشتد الخصام وأبى النواب إلا ما أرادوا من رؤية ميزانية الخزينة وتعديل أبوابها على ما فيه المصلحة للبلاد ثم انصرفوا على غير طائل وعاد الوزير بعد ظهر ذلك اليوم فجمع إليه محمد سلطان باشا رئيس النواب وشريعى باشا رئيس التحرير وشواربى بيك وأمين بيك الشمسى ومحمد بيك سليمان وأباظه بيك وأحمد أفندى محمود وإبراهيم أفندى الوكيل وأحمد أفندى عبد الغفار وأعادوا البحث والجدال فى أمر الميزانية وفى نص الفقرة المختصة بها فى القانون (قلت) وكان نصها:

(متى تعادلت الآراء استشير مجلس الأمة فإذا صدق على قرار لجنة التحرير وأصرت الحكومة على رفض ذلك ولم تستعف الوزارة فض المجلس وجاز حينئذ أن تسحب المبالغ الضرورية لسير الإدارة وتوقفت الميزانية إلى أن يلتئم مجلس النواب الجديد فإذا صدقت لجنته على قرار لجنة المجلس السابق وجب أن يكون قرارها مقبولا . اهـ.

فلم يتم لهم فى ذلك اليوم أمر ولم ينفض لهم نزاع فانصرفوا وعادوا فى نحو الساعة الثالثة عربى ليلا إلى بيت الوزير ولبثوا يتنازعون إلى ما بعد نصف الليل ولكنهم لم يهتدوا إلى أمر مّا فعند ذلك نهض الوزير وقال بعد كلام: وحيث إننا لم نصل مع توالى الاجتماع إلى حل عقدة هذا الإشكال صار المتعين علىّ المخابرة فى ذلك مع قونصلى الإنجليز والفرنسيس إذ هى من المسائل الخاصة بهما وباتوا ليلتهم تلك وأصبحوا وقد اجتمع الوزير بالمستر مالت قونصل الإنجليز وتحادثا فى الأمر

فدخل عليهما قونصل الفرنسيس فتكلموا فى ذلك طويلا وتكلموا أيضاً فيما لم تصل إلينا معرفته إلى هذا الحين وسير الخديوى إلى سلطان باشا يستحثه على استمالة النواب وتركهم لهذا الشغب فأرسل يعتذر ويقول: أنه لم يقو على استمالتهم لأنهم جميعاً فى طاعة عصابة الجند وفى قبضة أحمد عرابى وأن لا سبيل إلى عدولهم إلا باستمالة زعماء العصابة واسترضائهم وهذا مما لا يقوى عليه هو أيضاً فرسم الخديوى باجتماع مجلس الوزراء فاجتمعوا فى سراى عابدين وبينهم سائر النواب وجعلوا يتجادلون فى أمر ذلك الخلاف فطال الحال واشتد بهم الجدال وكثر القيل والقال واحتدم الخصام وتعذر الوئام وانفض مجلسهم على غير طائل.

واتفق أن دخلت فى هذا اليوم إلى مينا الإسكندرية سفينة من سفن الحرب العثمانية آتية من دار الخلافة فجاء الخبر بدخولها وتحدث الناس به كثيرا وجزم بعضهم أن مع ربانها أوراقا من بسيم أفندى أحد قرناء السلطان مخاطبة إلى أحمد عرابى وقال البعض: إن الربان المذكور جاء خفية من الإسكندرية إلى القاهرة ونزل بالنزل المعروف بلوقاندة أوريتال وبات ليلته تلك وأصبح فركب حمارا واستتر برداء من أكسية جند البحر وسار إلى بيت أحمد عرابى بباب اللوق ولبث معه ساعة ثم رجع من فوره إلى الإسكندرية وشاع الخبر بذلك فطيره الناس إلى الآفاق وبالغوا فى نقله على عادتهم فأحس الوزير محمد شريف باشا بما وراء ذلك فكتب إلى المديرين والمحافظين وسائر مأمورى الحكومة يلزمهم بحض الناس على ملازمة السكون وترك الإشاعات وعدم الأخذ بأقوال أصحاب الغايات وقال: أن هذه السفينة وإن كانت من مراكب الحرب العثمانية ولكنها ليست الآن إلا فى خدمة والى الشام وأنها لما قامت من مرساها قاصدة إحدى الموانى العثمانية صادفها ريح عاصف فألقى بها إلى سواحل مصر فلجأت إلى مينا الإسكندرية فرارا من الأنواء ونظرا لكون بعض آلاتها تعطلت بأسباب ما لاقته ستلبث أياما حتى تصلح ما تعطل منها فى هاويس الإسكندرية ثم ترجع، فلم تبطل هذه الأقوال الإشاعة ولم تنكف الناس عن القال والقيل ولا سيما الأحزاب وضباط الجند، قلت: وكان لمجىء تلك السفينة فى هذا الحين أى بعد رفع الدولتين لائحتهما التى تقدم الكلام عليها سرّ خفى وقصد منوى عليه وكان السلطان وجميع قرنائه وأرباب شوراه وأصحاب الكلمة فى بابه وإمامه الشيخ أحمد أفندى أسعد يعتقدون أن فى ظهور أحمد عرابى وأصحابه وقيام الحركة بالقاهرة واضطراب الخواطر بالأقاليم القبلية فتحا ونصرا للسلطان على خصومه بديار

مصر فترفع فيها كلمة الخلافة وترجع الشوكة السلطانية إلى ما كانت عليه قبل سنة ثلاث وعشرين ومائتين وألف هجرية فيتولى الباب العالى التصرف فيها كتصرفه فى بقية الإيالات التابعة له من شام وعراق وكانت هذه الهواجس والظنون تقوى عندهم كلما أكثر أحمد عرابى والبارودى من إرسال كتب التلطف ورسائل التأدب إلى الباب العالى عند الشكوى من أفعال الرئيس مصطفى رياض باشا ومراقبى الإنجليز والفرنسيس فكثر لذلك توارد كتب السلطان على أحمد عرابى بواسطة بسيم أفندى من قرناء السلطان وجاءته الرسائل تترى بما لم تصل إلينا معرفته إلى الآن وظن رجال السلطنة أن بضاعتهم ردت إليهم، وكما كانت آمال رجال السلطنة العثمانية وبابهم العالى معلقة بالمحال وهم فى تغرير وضلال قد كان سعاة الإنجليز لا ينكفون عن التقرب من أحمد عرابى وأصحابه وكبار سياستهم يعملون ليس على سلخ مصر عن تابعية الخلافة العثمانية فقط بل وعلى إزالة ملك آل عثمان من قارتى آسيا وأوروبا وتأسيس دولة عربية ليتم لهم ما يرغبون وهذه هى سياسة غلادستون شيخ الأحرار من الأحزاب الإنجليزية منذ حداثته فكانوا كلما تقربوا من أحمد عرابى مال عطفا إليهم وعمل بقولهم وأخذ بمشورتهم وراسل مشايخ العرب باليمن والحجاز والعراق وتقرب من السنوسى وتحبب إلى شريف مكة ودعاهم إلى نصرته وجماعة الإنجليز يظنون أن قد تم الأمر لشيخ سياستهم غلادستون على يدى أحمد عرابى، وكان الخديوى إسماعيل باشا يرى أيضا أن فى ظهور أحمد عرابى واتساع كلمته واستفحال الخلل بديار مصر وتهديد مقام ولده توفيق باشا فرصة ربما كان من ورائها خلع ولده وعودته هو إلى كرسى الخديوية فجعل يراسل أحمد عرابى ويمنيه بالأمانى الكثيرة ثم عمد إلى الاستعانة ببعض كبار الإنجليز فماراهم بالهدايا العظيمة والتحف الجليلة قيل فكان أحمد عرابى يظهر له الطاعة ويتلطف معه فى الجواب ويهوّن عليه الأمر حتى ظن إسماعيل باشا المحال وبلوغه غاية الآمال، وكما كان إسماعيل باشا يمنى النفس بقرب عودته إلى منصب الخديوية على يدى أحمد عرابى بك وأشياعه كان الأمير عبد الحليم بن محمد على باشا يتقرب أيضاً من أحمد عرابى ويهديه بالهدايا النفيسة والتحف الجليلة على يدى أحد خدام بيت أبيه ويستفزه إلى نصرته بردّ تاج الوراثة إليه، قال بعض الكتاب: وأغراه بالرشا والبرطيل واشتد أمله وكبر رجاؤه بتحزب بعض رجال المابين الهمايونى إليه فكان أحمد عرابى يسايره ويتلطف فى الرد عليه ويمنيه بالأمانى الكثيرة حتى اختلط الأمر على أحمد عرابى

وطاش منه الرجاء وحار وقد كان في خلده أن لا يعمل إلا لنفسه ولا يجاهد إلا في إعلاء كلمته وارتقائه منصب الخديوية بما له من المكانة عند أهل البلاد والمحبة في قلوب العساكر والأجناد والهيبة عند كبار الناس وعظمائهم كما فعل محمد على باشا الكبير، قال جماعة: وقد كانت هذه الآمال أيضاً لا تفارق كلا من محمود باشا البارودى ومحمد سلطان باشا رئيس نواب البلاد كما سيتلى عليك خبر ذلك في موضعه فكان مثلهم في ذلك كمثل صبي في يده مرآة يوجه بها نحو أشعة الشمس فينطبع ضوءها على الأرض ومعه فتية يتزاحمون ويترامون على ذلك الضوء فكل منهم يظن أنه أصاب منه شيئاً وهم لا يقدرون لحركة ذلك الضوء بتحريك الصبي للمراءة.

(مطلب)

عودة النواب إلى تنفيذ لائحتهم وما وراء ذلك

وعاد نواب البلاد إلى طلب تنفيذ لائحتهم كما صوروها وأصروا على ذلك وسار جماعة منهم إلى مقر ديوان الداخلية ورفعوا إلى الوزير محمد شريف باشا تلك اللائحة وقالوا: إن تأخير تنفيذها جالب للفشل فإنا عقدنا النية على أن لا نترك هذا اليوم يمضي بغير قبولها أو رفضها فجعل الوزير يلاطفهم ويهوّن عليهم ثم قال لهم: تعلمون أني منذ أخذتم في تنظيم لائحتكم هذه لم اتعرض لشيء من امتيازاتكم سوى ما تطلبونه من رؤية ميزانية الخزينة وإبداء رأيكم فيها على أني ما زلت لا أتحول عن هذا الرأى فلذلك لم أصادق على ما رأيتموه في أمر الميزانية إلا بعد رضا الدول ذوات الشأن فقالوا: إنّ هذا من خصائصك ولا دخل للدول فيه بل لا موجب لتوقفهم فإنها مسألة لا تمس ما لهم من الحقوق ولا تضر لهم مصلحة، فقال الوزير: لا سبيل إلى ذلك البتة، فقال جماعة منهم: إنا نأسف جدا أن يصادق لنا على اللائحة غيرك يعنون بذلك إكراهه على التخلى عن منصبه، ثم انصرفوا وساروا إلى مقر الخديوى بعابدين وتمثلوا بين يديه وتقدم جماعة منهم وقالوا: إنا جازمون بمحبة مولانا للوطن وميله إلى إصلاحه ولهذه الغاية قد منح مولانا الأمة المصرية حقوق الشورى وفتح مجلسها فنظمنا له هذه اللائحة ونقحناها وطلبنا إلى الوزير محمد شريف باشا أن يوقع عليها فلم يقبل حالة كوننا لم نتعرض لشيء مما في العقود الدولية، فقال الخديوى: إذا كانت هيئة الوزارة قد أبت التصديق على اللائحة فماذا تطلبون حينئذ قالوا: نطلب أن تعزل فتشكل وزارة أخرى لا تأبى

التصديق والعمل معنا فوعدهم بإعطاء الجواب فى غد فانصرفوا ولبث الوزير بعد خروج نواب البلاد يفكر فى الأمر ويضرب أخماسا فى أسداس ثم قام ودخل على الخديوى وجعل يتحاجج معه فيما لم تصل إلينا معرفته وحضر قونصلا الإنجليز والفرنسيس إلى مقر الخديوى ودار بينهم الحديث فاشتد الجدال وطال القيل والقال، فوقف الوزير وقال: قد خلعت نفسى واعتزلت منصب الرياسة فانظروا من يتولاها فأجابه الخديوى إلى ذلك بحضرة القونصلين وانصرفوا جميعا وفى نحو الساعة الثالثة من ليلة الخميس خامس عشر ربيع الأول من السنة استقدم الخديوى الخمسة عشر عضوا المندوبين من قبل شورى البلاد لتنفيذ لائحة مجلسهم فتمثلوا بين يديه فقال قد تخلى الوزير محمد شريف باشا عن الرياسة فاختاروا من يتولاها فقالوا لا، وحاشا أن نتعدى على حقوق مولانا فيطلب مولانا من يختاره، فقال: لابد من ذلك فامتنعوا وبقى الحال على ذلك إلى الساعة الرابعة ثم انصرفوا وأصبحوا وقد استقدمهم الخديوى وسألهم أن يختاروا من يصلح للرياسة فقالوا نختار اليوم محمود باشا البارودى رئيس ديوان الجند بشرط تصديقه على لائحة مجلسنا ثم خرجوا وساروا إلى بيت البارودى وانتظم مجلسهم ومعهم جماعة من كبار عصابة الجند فتناحوا بينهم فيمن يختارونهم لبقية المناصب فاختاروا جماعة ممن لا يخالفون لهم كلمة وكأنهم أرسلوا إلى الخديو يعلمونه بذلك فلما كان بعد ظهر اليوم بعث الخديوى مع أحد رجال ديوانه الخاص إلى محمود باشا البارودى مرسوما يقول فيه: حيث دعت الأحوال لانفصال محمد شريف باشا بناء على استعفائه واقتضى الحال لانتخاب بديل عنه يكون متأهلا ولائقاً لمقام الرياسة ومن المسلم عندى أنك أهل لذلك لما اتصفت به من كمال الدراية وحلية الصدق والاستقامة فقد انتخبتك لهذا المقام الخطير وقلدتك رياسة النظار فيجب المبادرة بانتخاب هيئة النظار اللازم وجودها معك وحيث إن غاية قصدى ونهاية أملى إنما هى السعى وصرف الجهد لما فيه عمارة وسعادة الوطن وإصلاح أحواله فأملى فيك القيام بهذه المساعى الحسنة وفقنا الله جميعاً لما به الإصلاح والنجاح انتهى.

فلما وصل الكتاب إلى البارودى فرح به وفرح من معه من زعماء العصابة ورفع فى الحال إلى الخديوى عريضة ذكر فيها أسماء الوزراء الذين انتخبهم للهيئة الجديدة فكان مصطفى باشا فهمى للخارجية والحقانية وأحمد عرابى بيك للجهادية والبحرية وإسماعيل باشا أيوب للمالية ومحمود فهمى بيك للأشغال وعبد الله فكرى باشا للمعارف وحسن شريعى باشا للأوقاف فاستقدم الخديوى فى الحال قونصلى الإنجليز

والفرنسيس وكلمهما فى هذا الأمر طويلا ثم صدّق على هذا الانتخاب وأضاف إلى عهدة البارودى نظارة الداخلية أيضاً وجاء الوزراء وتمثلوا بحضرة الخديوى بسراى عابدين فحادثهم طويلاً فيما لم تصل إلينا معرفته فلم ينصرفوا من عنده حتى خلع إسماعيل أيوب باشا نفسه من منصب وزارة المالية بناء على أن خلع الوزير محمد شريف باشا لنفسه من منصب الرياسة لم يكن إلا بسبب بند الميزانية فأجابه الخديوى إلى ذلك وقام بقية النظار وساروا إلى بيت البارودى فعقدوا مجلسهم واختاروا لوزارة المالية بعد جدال طويل على صادق باشا وباتوا ليلتهم تلك وأصبحوا وقد اجتمع سائر ضباط الجند فى ساحة قصر النيل فوفد عليهم أحمد عرابى بيك وخطب فيهم خطابا طويلاً فى وجوب الاتحاد ووحدة الكلمة، ثم ساروا بعد ذلك جميعا إلى رحبة عابدين وتمثل جماعة من كبارهم أمام الخديوى يتقدمهم طلبة عصمت بيك أميرجند قصرالنيل فألقى طلبة خطابا بين فيه تعلق جميع أفراد العسكر بشخص الخديوى ثم ساروا إلى ديوان الداخلية حيث البارودى وإلى مقر والدة الخديوى وحرمه وهم فى أبهة وكبكبة زائدة، وقد كان نواب البلاد عند اشتداد الخلاف بينهم وبين الوزير محمد شريف باشا على بند الميزانية ومسئولية الوزراء أمامهم على طرفى نقيض فكان جماعة منهم يرون أن الظروف التى قضت بتشكيل مجلس النواب وخولته النظر فى جميع مصالح البلاد هى نفس الظروف التى تقضى على النواب بلزوم التساهل وعدم فصم عرى الوفاق بينهم وبين هيئة الحكومة وإلا طاش المجلس عن الغرض وضل عن الغاية، وكان الآخرون يرون أن فى إكراه الحكومة على تخويل مجلس النواب حق النظر فى الميزانية وتعديلها بحسب ما تقتضيه مصلحة البلاد فائدتين عظيمتين أولاهما: تخفيف أثقال المصروفات بالتزام طرق الاقتصاد وقفل أبواب السرف والتبذير فى أى نوع كان فيسهل على البلاد التخلص من كثير من شدائد الديون وذل الاستدانة التى كانت السبب فى استرقاق أهلها وتثقيلهم بأحمال الضرائب والمكوس والمغارم، وثانيتهما: تعديل موارد الإيراد وترتيبها على نمط عادل جامع بين النظام والمساواة بين صنوف الرعية وكل مستوطن فى البلاد فيستتب بذلك الأمن ويرتفع الظلم والاعتساف وتتزايد العمارة فتعظم ثقة الأجانب بأهل البلاد ويجل قدر الحكومة فى أعينهم وتقوى شوكتها فلا يظفر بها نسر ولا يغتالها أسد (إشارة إلى دولتى الفرنسيس والإنجليز) وكان هذا الرأى لفريق من زعماء العصابة أيضاً فاستمالوا إليه كثيرين من وجهاء البلاد وأعيانها وتمسك كل فريق بمدعيانه فاشتد الخلاف يومئذ واستفحل فأدرك زعماء العصابة ما وراء ذلك وتجردوا

لمقاومة أصحاب الرأى الأول وحـذروهم وهدّدوهم فكان إذا تخلف أحدهم فى بيته ليلة لا يشعـر إلا وقد دخل عليه نفـر من الجند فيوسـعونه شتـما وسبا ويتـوعدونه بالتبعيد إلى أقاصى الدار فوراً وربما توعدوه بالقتل إن هو لم يعدل عن رأيه وما زالوا معهم على هذه الحال حتى اشتد بهم الخـوف وأخذ من قلوبهم مأخذه فانضموا إلى بقيـة النواب وصاروا أشد طاعـة وأكثر تزلفـا إلى أصحاب الزعامـة فقويت عـزيمة أولئك الزعماء فـخلع كبارهم رداء المواربة وأظهروا ما كـانوا يخفونه عن الناس من طلب المعالى باسـتلام زمام حكم البلاد والتصـرف فى أمور الرعية فجـعلوا يعملون على استحكام النفرة بين نواب البلاد والهيئة الحاكمة ويراعوا أن البلاد فى حاجة إلى مثل الوزير مـحمد شريف باشـا إذ أعماهم الغرض وتملك عليـهم هوى النفس وما زالوا يوسوسون فى صـدور النواب ويزينون لهم كل عاطل حتى تجـرد النواب يومئذ إلى المقاومة واختاروا من بينهم أولئك الخمسة عشـر كما تقدم القول ففعلوا ما فعلوه حتى نفر منهم الوزير محمد شـريف باشا وفضل خلع نفسه من منصب الرياسة عن نقض العهود ومـس الذمم فأنزل نفسه كمـا تقدم وكان ما كان من تـقليد البارودى منصب الرياسة فلم يكن ليـخفى على الناس يومئذ أن فى طلب نواب الـبلاد تقليد البارودى هذا المنصب غاية الجبن والتدليس فقد دلت على ذلك الدلائل وقامت على صدقـه البراهين ولو لم يكن فى الأمـر سوى اتحـاد أصحاب الزعـامة على تقـسيم المناصب العالية بينهم قبل أن تصل إليهم لكفى.

ولما استقـر بالبارودى منصب الرياسة فـرح قومه وعم السرور أعوانه والمـتقربين من بابه فـمنهم من أولم ومنهـم من أدب ومنهم من تصـدق ودفـع النذور وحـذا حـذوهم نواب البلاد فـأكثـروا من الولائم والمآدب وكـان ممن توسع من النواب فى مأدبته أحمـد محمود صاحب نيابة البـحيرة حيث دعا إليها البـارودى وأحمد عرابى وسائر الوزراء وجميع نواب البلاد وكبار الجند ولفيف العلماء وبعض الوجهاء وكثيرا من موظفى الحكومـة ووكلاء الدواوين وبعد الفراغ من الطعام ارتـقى صاحب البيت منبر الخطابة فتكلم طويلا وذكر فى كلامه ما عاناه نواب البلاد من العنت والشدة منذ بداية المجلس إلى تلك اللـيلة وعرّض بذكـر وسـاطة بطرس بيك غـالى بينهم وبين الوزير محمد شريف باشا كما تقـدم بيانه فى حينه وكان معهم فى تلك الليلة، فقال الخطيب ولا أخالكم تجهلون أيها السـادة إننا لما قمنا بحقوق النيابة وتجردنا للدفاع عن الوطن وطالبنا رجال الحكومة يومئذ بمراعاة الذمم انتدبوا للوساطة بيننا وبينهم وسيطا من إخوانهم الذين يدعون الوطنيـة ويتظاهرون بمحبة الوطن فقام بالأمـر وأدى عافاه

الله واجب الوساطة فكان تارة يتوعدنا وأخرى يهددنا وطورا يعززنا وآخر يساكتنا وآونة يستميلنا بزخرف القول وآنة يعدنا برتب الشرف ونياشين الاعتبار وما درى أنا على غير ما كان يتوهم وإنا جميعا على قلب رجل واحد فى خدمة الوطن وبنيه.

ولما كان تاسع عشر ربيع الأول اجتمع الوزراء بعد الظهر بسراى عابدين وعقدوا مجلسهم بحضرة الخديوى وتكلموا فى قانون مجلس نواب البلاد فتقرر العمل به بدون تغيير حتى فى بند الميزانية، ثم تلى بينهم أيضاً الجواب على اللائحة التى كان رفعها قونصلا الإنجليز والفرنسيس إلى الوزير محمد شريف باشا فوافقوا عليه وتقرر إرساله إلى القونصلين على يد مصطفى فهمى باشا وفى ثانى عشرى ربيع المذكور سار البارودى إلى مقر نواب البلاد وسلم إلى رئيسهم قانون المجلس مصدقا عليه فقام النوّاب من ساعتهم ودخلوا على الخديوى وقدموا له مراسم الشكر والطاعة ثم انصرفوا، وقد قرأت فى ذلك اليوم فى إحدى صحف الأخبار الإنجليزية صورة مكاتبة بعث بها أحد كبار الإنجليز بعاصمتهم على جناح البرق إلى أحمد عرابى بيك يقول فيها، تقدّموا أيها المصريون فلا خوف عليكم من جانب الأمة الإنجليزية فإنها لا تروم إلا تأييد مذهبكم القائل يجب الرأفة بفلاح بلادكم، أى نعم فلتسقط أقوال الباخسين للأعمال المالية باختلاف الأكاذيب ولتعش الأمة المصرية لتحيا الأمة المصرية، وشاع خبر هذا الإنجليزى ففرح به ضباط الجند وسروا سرورا عظيما ونقشوا ترجمته على أوراق وجعلوا يرسلونها إلى الأحزاب والمتقربين وهؤلاء كانوا يتلونها على الناس محشوّة بالخلط والتحريف وسقط القول فكان منهم من يقول: أى والله قد جاء اليوم إلى أحمد عرابى بيك أعزه الله فرمان من ملكة الإنجليز منقوشا بخط يدها تقول فيه إنها فرحة القلب، قريرة العين بما علمت به من أعمال الحزب الوطنى وثبات زعماء عصابة الجند ووقوف نواب البلاد موقف الجلاد وأنها لم تكن لتعلم إلى هذا الحين قدر عزة نفوس المصريين ولذلك فهى ساخطة على من كان السبب فى إبعاد أخبار هذه الحقائق عنها وهى تطلب من الله تعالى أن يطيل بقاء أحمد عرابى بيك ويجعل أيامه كلها خيرا وبركة على البلاد وأهلها، فيقول الثانى بل هو خطاب سياسى متوّج بتاج الملكة، فيقول الثالث ليس هو كما تقولان فقد نظرته منقوشا بماء الذهب وأحسن الألوان التى لم تر عينى لها مثيلا، فيقول الرابع إنكم جميعا لفى ضلال فقد حدثنى من رآه بعينى رأسه وسمع ما فيه بأذنيه أنه على شكل كراسة مغشاة من الخارج بالديباج الأحمر وفيها أساطير كلها تحية وتعظيم، فإذا قيل

لهم قد نقلت أصحاب صحف الأخبار هذا النبأ وليس هو فى شىء مما تذكرون قالوا هى عادة أصحاب الصحف يقولون غير ما يسمعون وظل الحال هكذا أياماً، وبينما كانت الأفراح والولائم لنواب البلاد والبارودى قائمة على ساق تحرك المراقبان الإنجليزى والفرنساوى ورفعا إلى الخديوى محررا سياسيا احتجا فيه على الحكومة حيث أباحت لنواب البلاد حق النظر فى ميزانية الخزينة وخولتهم المراقبة على جميع ما يتعلق بأنواع الإيراد والمنصرف فكان مما قالاه فيه ما تعريبه، ولما انتشرت الأوامر الخديوية بتنظيم سلطة المراقبين وخصائصهما كانت القوة المادية منحصرة فى شخص الخديوى بالأصالة عن نفسه وفى وزرائه بطريق الوكالة والنيابة وبما أن حق المراقبين العموميين هو قاصر على إبداء النصيحة وإعطاء المشورة فكان المتعين إذا التمسك بنصيحتهما واعتبارهما بما يحق لهما من الاعتبار والمراعاة فلذلك تحققت الآمال وأصبحت خزينة البلاد فى غاية الضبط والسداد بعد أن كانت فى غاية الخلل والارتباك ولكن لم تلبث على هذه الحال طويلا حتى تزحزحت تلك القوة المادية من موضعها وانتقلت إلى مجلس نواب البلاد وفريق من كبار الجند واستأسر هذا الفريق جميع النواب فهم لا يعملون عملا إلا بمشورته فهذا التغيير العظيم الذى طرأ على نظام البلاد أحدث تأثيرا مهما حيث كان دبيبه تدريجيا مبتدئاً من شهر فبراير سنة إحدى وثمانين وثمانمائة وألف ميلادية الذى هو تاريخ قيام الثورة وخروج الجند وزعزعة سلطة الخديوى ووزرائه ومن هذا التاريخ أخذت هذه السلطة فى القهقرى والانحطاط يوما عن يوم إلى هذا الحد وكان من نواب البلاد الذين كانوا على عهد إسماعيل باشا مقيدين بقيود الرق والعبودية وأوقعوا البلاد تحت أحمال الديون الثقيلة أن قاموا فى هذا الحين يطالبون بحقوق غير ملائمة لحالة البلاد ولهيئتها الاجتماعية وتمادى بهم الحال إلى إكراه الخديوى على خلع الوزارة التى كان معتمده عليها وألزموه بواسطة جماعة من كبار ضباط الجند بتسليم رئيس ديوان الجهادية زمام رياسة الوزراء حتى انحطت بذلك سلطته وصارت هملا مهملا وكأن لم يبق لشخص الخديوى وجود وحيث قد بلغت هذه الأحوال حدها فصار لا يهمنا كثيرا معرفة ما إذا كان المراد التعرض أيضاً لسلطة المراقبين واختصاصهما أولاً لا سيما وأنها قد أصبحت اليوم منحلة العرى بأسباب عدم إمكانهما الاشتغال مع الخديوى ولا مع وزرائه الذين أقيموا فى هذا المنصب جزافا لا ولا مع نواب البلاد والجند العاملين معهم فإن الخديوى وهؤلاء الوزراء ليسوا مسئولين أمام الرأى العام والدول

الأجنبيـة عن الطرق والأسـباب التى عـارض فـيهـا المراقبـان ودوّناها فى مراسـيم سينشـرانها عاجلا، إلى أن قـالا، ولقد كان المصدر الوحـيد لتأييد قـوانا الأدبية هو شخص الخـديوى والوزراء أما الآن فـلابد وأن تصيـر هذه القوة وهمـية مع الوزراء الذين انتـقـاهم نواب البـلاد وفريـق رؤوس الجند فإن الـوزراء الذين هم على هذه الصورة لا يكون إذعانهم إلا لرؤوس الجند ونواب البلاد إذ لولاهم ما كانوا ولقد تم هذا الأمر حيث عقدت الوزارة الحاليـة النية على تخويل مجلس النواب حقا فى نظر الميزانية ولم تكتـرث بمعارضة المراقبـين معارضة رسمـية فى هذا الأمر ولا ننسى أن السبب الذى أوجب سـقوط وزارة الوزير شريف باشـا هو مراعاتهـا عدم معـارضة حكومتى الإنجليز والفـرنسيس فيما طلبه مـجلس النواب من أن يخوّل له حق النظر فى الميزانية فصـار إذا قبول الوزارة الحالية لهذه الأمور وإخراجهـا إلى حيز الفعل هو بمنزلة قبول ما يمكن ارتكابه من انتهاك حـرمة نفوذ دولتى الفرنسيس والإنجليز ونجم عن ذلك إزالة نفوذ المراقـبين اللذين لا سلطة لهمـا إلا بسلطة حكومتيهـما هذا ولا يليق التعامى عن الأسباب التى لابد وأن تدك أس الإصلاحات وتذهبها أدراج الرياح بعد توطيد أركانها فى داخلية البلاد منذ السنتين فإن التعامى مجلبة التغرير وقصارى الأمر أنه ليس ببعـيد وقوع الخلل فى الأحوال المالية التى قـامت بترتيبها وإصـلاحها لجنة التحقيق ولجنة التصفية. اهـ.

فلما وقف الخـديوى على ما فى هذا الخطاب تململ وسيـر به إلى البارودى فلم يكترث به ولا أعاره جانب الالتفات ثم عاد فاجتمع بالمراقبين وأعلمهما بأن ليس فى نية الوزراء قط التعرض لسلطة المراقبـة على أى حال كان ومع ذلك فقد كان الوزراء إذا عقدوا مـجلسـهم للنظر فى أمور البلاد لم يدعوا المراقـبين للحضور فيـه كعادتهم فإذا سأل المراقبان عن السـبب قيل لهما إن الوزراء إنما هم ينظروا فى الأحوال الإدارية والأمور الداخلية التى لا عـلاقة لها بالأشغال المـالية فأصبح المراقبـان بعد هذا هملا مهملا بل سقطا مرذلا وشاع الخبـر وتناقله أصحاب الصحف المحلية والأجنبية فكثر تساءل كبار حكومـتى الفرنـسيس والإنجليز واشتد بينهـم الأخذ والرد وقام خطباؤهم وقوالهم يقلـبون لنواب البلاد ظهـر المجن بعد ذلك وعـمت الإشاعة بقـرب وصول بعض مراكب الحـرب الإنجليزية والفـرنساوية إلى مينا الإسكنـدرية فبالغ العـامة فى التحدث بهـذا الخبر وأحجم أصحاب صـحف الأجنبية تكذيبه فخـاف عقلاء الناس وتطيروا منه فلما كـان اليوم الأول من ربيع الثانى طارت الأخبـار إلى القاهرة بقدوم

سفن حربية فرنسية وإنجليزية إلى مدينة بورسعيد الناس واختلفوا فى أسباب حضور تلك السفن وكثر تحدّثهم فى أمرها فبالغوا فى وصفها واختلفوا فى عددها فمن قائل إنها عشرون ومن قائل بل أربعون فكتب البارودى إلى قونصل جنرال الفرنسيس فأجابه بأن ليس فى الأمر ما يدعو إلى الاضطراب وإنما هى سفينة واحدة قاصدة كوكشين الصين وهى معدّة لنقل الجنود الذين قضوا مدتهم العسكرية فى تلك الأقطار ونقل المرضى وشاع الخبر بذلك فلم تكن لتنكف لتنهى التحدث فى أمر حضور تلك السفينة حتى كثر اللغط أيضاً بحركة الملك يوحنا نجاشى ونزوله على حدود مصر الشرقية وتضييقه على أهلها وإحراقه الكثير من قراها وغير ذلك واشتد اللغط وكثر الأرجاف أياما حتى وردت الأنباء الصحيحة بأنه أهالى قرية من قرى أرض البورى التى تبعد عن مصوع مسافة يومين الضرائب لأصحاب الجباية (وكانت عادة ملوك الحبشة أن لا يجبيوا الضرائب (الجند والعسكر) قامت عليهم الجنود فأحرقت منازلهم وغنمت زهاء أربعة آلاف وعشرة آلاف من الضأن وثلاثة آلاف من الحمير وقتلوا نحو مائة وسبعين رجلاً أحد عشر فأذاع هذا الخبر أصحاب صحف الأخبار وتوسعوا فى الكلام على ذلك الحبشان وشوكة ملوكهم وشدة بأسهم وجبروتهم على الرعية عسى أن تنقطع أسباب القلاقل وتبطل الأراجيف.

وأشار البارودى بإبطال تسيير الجند الذين كانوا على أهبة السفر إلى السودان لردع صاحب المهدوية فأوقفوا وصرفوا وأشاعوا أن القوة التى هى فى بلاد السودان هى لحصر المتهمدى فى جبل هناك ودفع أذاه عن البلاد وأهلها وطيروا الخبر بذلك إلى الملأ فصدّق الناس الإشاعة أو كادوا فلم تكن إلا أيام حتى وردت الأنباء الصحيحة باستفحال أمر المهدى وتزايد جيوشه وخضوع الكثير من المدن والقرى إليه وقيام الحركة الدرفور وكردفان وغيرهما قالوا وبلغت لومه إلى هذا الحين مبلغا عظيما فكان إذا نزل بأرض ولم تقم أهلها بأمره شن عليها الغارة ونهبها وحرق بيوتها وأعمل السيف فى أهلها على آخرهم فهابه لذلك الناس وخشوا سطوته وقاموا لنصرته فتقدم ولم ير أمامه ممانعا وبث الدعاة فى الأطراف حتى فى مراكز الحكومة وحول مقر الحكام فأجاب الناس دعوتهم صاغرين وكبر الخوف بالسواد الأعظم من أهل الكردفان وسنار والخرطوم فانجلوا عنها فرارا من بطشه فتعطلت أسباب الرزق ووقفت حركة التجارة وزال الأمن من تلك الأصقاع وانحدر أصحاب التجارة ببضائعهم إلى مدينة أسيوط ومنع تجار القاهرة من إرسال شىء من البضائع على

ظهور السفن إلى مدينة أسيوط كعادتهم ووصل إلى القاهرة ومصر بعض النازحين وظهرت الحركة فلم تبق للريب محلا، واتفق أن حضر فى هذا الحين إلى القاهرة جماعة من قبائل العربان ومشايخهم وساروا ما بين راكب وراجل وهم متقلدون السيوف يريدون مقر البارودى فلما رآهم العامة على هذه الحال ظنوا أنهم رسل مدعى المهدوية وهم فى ضجة وجلبة حتى دخلوا إلى ديوان الداخلية وصعد جماعة منهم إلى مقر البارودى فقابلهم وسألهم عن سبب حضورهم فقالوا نريد أن لا تضيع علينا حقوقنا التى ورثناها عن آبائنا وهم نالوها بمقتضى فرمانات محمد على باشا الكبير مقابلة خفارتنا للحدود ومنع العدوّ من الوصول إليها فقال: وماذا تبتغون الآن؟ وهذه قضية رآها من كانوا فى خطتى من قبل وفعلوا فيها ما فعلوه قياما بالمصلحة العامة فقالوا لا نرضى أن يؤخذ منا رجال للجند النظامى ولا أن تخرج قومنا للسخرة أو العونة وهذه حقوق ورثناها فلا سبيل إلى التخلى عنها ما دامت البادية بادية ونحن حارسوها فهوّن عليهم البارودى الأمر ولاطفهم فانصرفوا ولكن لم تنصرف عن الناس تلك الهواجس والأوهام وحضر فى هذه الأثناء أيضاً عبد العال بيك أبو حشيش أمير الجند السودانى من مدينة دمياط إلى القاهرة ولازم أحمد عرابى بيك أياما فاشتد الخوف بالناس وكثر تطيرهم وقالوا: إن حضوره فى ذلك الحين عقب حضور أولئك العربان إنما هو مترتب على أن تكون مراكب العدوّ قد ألقت مرساها أمام حصون وقلاع دمياط فلم يبق إلا الرمى بالقنابل، وكان حضور عبد العال بيك فى ذلك الحين باستدعاء من أحمد عرابى ليتشاوروا فيما يلزم عمله للحصول على ما يطلبونه من ألقاب الشرف ونياشين الأعتبار فقد كانت القاعدة من القدم أن لا يتولى رياسة ديوان الجند إلا من حاز رتبة الفريق ليتمكن من سياسة الأمور وحفظ نظام كبار الضباط وكبار الجند وقد تولاها أحمد عرابى بيك وهو لهذا الحين لم يتخط رتبة إمارة فريق من الجند فلما كان لابد من ارتقائه منصة هذه الرتبة العالية وكان عبد العال بيك وبقية أصحاب الزعامة على ماهم عليه من الرتب الصغيرة خاف أحمد عرابى من أنه إذا نال تلك الرتبة السامية قبل أن ينالها أصحاب الزعامة حسدوه ثم أبغضوه وعملوا على نكايته وإذلاله فسير فى طلب عبد العال فقدم إلى القاهرة ولبث بها أياماً حتى تم لهم ما أرادوه من ترتيب أماكن إقامة سائر الجنود والعساكر وإبعاد من شاءوا إبعادهم من صغار الضباط وإدخال من كانوا يتوسمون فيه سمة الخلود إلى طاعتهم والقيام بإشارتهم، ثم رفعوا إلى الخديوى

ورقة بأسماء كثير من صغار الضباط الذين اصطفهم وقدم إليه أحمد عرابى فى طلب إعطائهم بعض الرتب والنياشين فلم يعجب الخديوى بذلك ورأى منهم من لا أهلية له ولا استحقاق فراجعه أحمد عرابى بيك وهوّن عليه الأمر فامتنع وجعل يطاول أياماً، وكانت عادة أصحاب الزعامة أنهم إذا رأوا من الخديو مطلوبة فى أمر يبتغونه أشاعوا أنه إنما يفعل ذلك ابتغاء مرضاة خصومهم فيكثرون حينئذ من الاجتماع والتطواف ويبثون الأراجيف ويختلقون الأكاذيب والترهات فإن عدل عن عزمه عدلوا هم كذلك عن فعالهم وإلا تمادوا حتى يتاح لهم الظفر فلما تحققوا إصراره على الامتناع من إجابة طلب أحمد عرابى بيك قام من بينهم عبد العال بيك أبو حشيش أمير الجند السودانى وأشاع أنه قد دس إليه السم فى اللبن، قال وتحرير الخبر أنه بينما كان ؟ذات ليلة عند أحد أخوانه إذ عاد إلى بيته فقالت له الجارية التى كانت تعدّ له الشاى واللبن فى صباحا إنها تركت المحل لحظة لطيفة ثم عادت فرأت غطاء الوعاء الذى فيه اللبن مكشوفا ولون اللبن متغيرا قال: فبحث فى الوعاء الذى فوجد فى راسبه مادة فأبقاها إلى الصباح وأحضر طبيبا عارفا فحلل تلك المادة فإذا بها زرنيخ كاف لقتل نفس فأكثر واتهم فى هذا العمل غلاماً يبلغ السابعة عشرة وهو يهتم بتربيته فى بيته فقبض عليه وأتى به إلى مقر جند الحرس الخديوى برحبة عابدين وضيق عليه قيل فاعترف بأنه الفاعل بإغراء محمد بك بن إسماعيل بيك ابن أبى بكر راتب باشا ثم عدل واعترف بأن غلاما شركسياً من مماليك الخديوى رفيقا له فى المكتب أعطاه ذلك الزرنيخ وأوصاه بوضعه فى وعاء اللبن ففعل رجاء حارسى وصاية عبد العال بيك وحيازته على أمواله المودعة عنده ثم بعد ذلك سلم الغلام إلى صاحب شرطة المدينة فأودع فى السجن حتى تظهر الحقيقة، ولم ينتشر خبر هذا الخبر العجيب حتى جعل ضباط الجند يفدون على دار عبد العال بيك عشرات عشرات يهنئونه بالسلامة وهرع إليه كذلك أعيان المدينة والعلماء والوجهاء وبعض موظفى الحكومة واستقدم الخديو صاحب شرطة المدينة وشدد عليه فى استكشاف سر هذا الحادث وكشف الحقيقة وقد خافه ورسم بالقبض على ذلك الغلام الشركسى ووضعه بالسجن أيضا دفعا للشك والظنون وسير إلى عبد العال بيك أحد رجال ديوانه الخاص كدره من وقوع هذه الحادثة ويهنئه بالنجاة من شرها وأطال عبد الله صاحب الكلام فى هذا الحادث وبالغ فى مدح تلك السوداء التى كانت سببا فى نجاة عبد العال كانوا يزعمون فهاداها جميع ضباط الجند بالحلى والملابس وكان اسمها

تشريفا فجعلوا يصيحـون تشريف تشريف وينادون بالويل والثبور على أصحاب هذه المكيدة يعـرضون الخـديو وعداوته لجمـاعة الضـباط وأصحـاب الزعامة مـنهم حتى أجابهم إلى ما يطـلبون كبارهم من الرتب ونياشـين الافتخار ما كـانوا يسألون فنال أحمد عرابى بيك وعلى بيـك أمير جند الحرس وعبد العال بيك حـشيش أمير الجند السودانى لقب ميرلواء الباشوية وشاع الخـبر بذلك وتناقله الناس فهرع إلى دار أحمد عرابى العلمـاء والكبراء والوجهاء وتـزاحم على بابه الشعراء وغصت حـجرات داره بالكثير من الأجانب ووردت إليـه رسائل التهانى من عمد البلاد ومشـايخها والتجار بالبريد وسلك التلغراف وهادته الوجهاء بالمأكول والمشروب والملبوس والمفروش فأدب فى ذلك اليـوم وزين داره وأتت إليـه طوائف أرباب الأشاير وأصـحـاب العكاكيـز والمتعممين بطبولهم وزمورهم وكـاساتهم يضربون بها أمام داره واصطف حول الدار سائر ضباط الجند على اختلاف درجاتهم وجعلوا يضجون ضجيج استحسان ويهتفون هتاف التبريك وزاره فى غروب ذلك اليوم سائر رجال الحكومة الملكيين والعسكريين والرؤساء الروحـانيين ومحـررى صحف الأخبـار المحلية والأجنبـية وبعض قناصل الدول كقنصل دولة إيطاليا وغيره ممن كـانوا يكثرون التردد عليه لأمور لم نصل إلى معرفـتها وما زالت داره محطا للمـهنئين وكعبة للشـعراء والمادحين ثلاثة أيام وهكذا جرى مع على باشا الذيب وعبد العال باشا حشيش فقامت عند ذلك قيامة أصحاب الصحف الأجنبية لا سيما منهـا الإنجليزية ونادوا واحرباه إن لم تتدارك دولتا الإنجليز والفرنـسيس الخلل الذى كان يهبط بمصر إلى حضيض الويل والدمار وجعلوا يحضون كبار سياستهم على الأخذ بأطراف العمل ووجوب تغيير منهج السياسة الذى اتخذته الدولتان منذ ظهور الجند إلى هذا الحين فأكثر قونصل الإنجليز من الغدوّ والرواح إلى مقر الخديو للمكالمة فى الأمر.

(مطلب)

تنزيل المسيو دي بلينار المراقب الفرنسوى لنفسه من منصب المراقبة وما كان بعد ذلك

واتفق فى ثالث عشرى ربيع الثانى أن تقـدم المسيو دى بلينار المراقب الفرنسوى إلى الخديو فى قبول تخليـه عن منصب المراقبة فأجابه الخديو إلى ذلك بغـير معاودة فانحدر من فوره إلى الإسكندرية ومعه عياله يريد عـاصمة الفرنـسيس فلما شاع خبر انسحـابه من منصبه فرح أصـحاب الزعامة وبالغـوا فى الأسباب وعزوها لأنفـسهم

وقالوا إنما هى معجزة من معجزاتهم وآية من آياتهم وجعل عبد الله صاحب الطائف حينئذ يطنب فى مديح أحمد عرابى باشا ويثنى على همة رجال العصابة أولى العزم ويقول: قد آن والله الوقت الذى لابد فيه من التخلص من نيران هؤلاء البعوث الجائعة الذين لا يهمهم إلا إشباع بطونهم، واختلف الناس فى أسباب عودة الرجل إلى بلاده وتخليه عن منصبه وقد كان سعى الخديو والرئيس مصطفى رياض باشا أيام رئاسته خلف هذه الغاية ذاهبا أدراج الرياح فترامت الظنون إلى المرمى البعيد وكثر تحدث الناس فى هذا الأمر فمن قائل أن لاستعفائه غاية سياسية قضت حالة البلاد الحاضرة على دولة الفرنسيس باتحادها فلا يلبث أن يرجع إلينا وفى وعائه شىء من السم والدسم ومن قائل بل كان استعفاؤه إرضاء لأصحاب سياسة الإنجليز إذ هم يعتبرون أن بقاءه فى منصبه باعث على فصم عرى الاتحاد وقطع رباط الوفاق الذى عقدته الدولتان لأن الرجل شهم حازم جرىء حريص على نفوذه قوال فعال لا تأخذه رهبة ولا يخشى مكيدة وكان المراقب الإنجليزى على غاية من الجبن وضعف العزيمة وفساد الرأى، قال أصحاب هذا المذهب: فلما كان دى بلينار بهذا لا يعمل إلا لمصلحة بلاده خاصة ميالا إلى التفرد بالعمل وكان المراقب الإنجليزى لا يقوى ولن يقوى على مجاراته استقدمته دولته حرصا على بقاء عرى الاتحاد وشدّ رباط الوفاق وعزمت على استبداله بآخر أقل غيرة وأكثر صبرا، ومن قائل بأنه ليس فى الأمر شىء من هذا كله وإنما هى فلتة من فلتات السياسة الأفرنسية التى ما وراءها إلا الخيبة والعدم حيث لا ينفع الندم، وعندى أن لاستعفاء دى بلينار هذا سبب آخر لعله الصحيح أو ما يقرب منه وذلك أنه لما سقطت وزارة غامبتا رجل الجمهورية الفرناوية وخطيبها المقلق وقامت بعدها وزارة فريسينيه وكانت سياسة دى بلينار هذا على شاكلة سياسة غامبتا كلها حزم وكياسة وتدبير ورئاسة وكانت سياسة فريسينيه مشوبة بالضعف وعدم الثبات محفوفة بضوضاء المكاره من الأحزاب لا سيما منهم غلاة الحرية الذين كانوا أطوع إلى رغائب الإنجليز منهم إلى مصلحة وطنهم أدرك دى بلينار ما وراء بقائه فى منصب المراقبة فى هذا الحين من ذهاب الكرامة وسقوط الهيبة لا سيما وقد كان واقعا يومئذ بين منتطح عنزين عداء الفرنسيس الذين بمصر وتقييم لأعماله جزاء ما بدا منه لقونصلهم على عهد رئاسة مصطفى رياض باشا كما سبق بيان ذلك فى موضعه ويغض رجال الحكومة إليه فعمد إلى خلع نفسه واعتزال المنصب وتقدم إلى كبير سياسة الفرنسيس والخديو فى قبول ذلك فقبلاه فرحل راضيا من الغنيمة بالإياب، ولم تك تهدأ القلوب بعد زوال أراجيف استقالة المراقب الفرنساوى حتى شاع الخبر وذاع بحركة نجاشى الحبشة وزحفه بالجند الكثير على

حدود مصر وعقده النية على إضرام نار الحرب حتى يقضى ما فى نفسه فتحدث الناس به وخلطوا وخبطوا كعادتهم حتى خيل لهم أن قد قامت القيامة وانتصب الميزان، وتحرير الخبر أن علاء الدين باشا العامل يومئذ على شرق السودان أرسل إلى ديوان الخديو يقول قد جاءت رسل نجاشى الحبشة وبينهم قسيس من قسوسهم اسمه ملاك برهان قيروت ومعهم عشرة رجال آخرون خمسة منهم من أئمة الدين وترجمان اسمه يعقوب وعشرة من الأتباع الذين يحملون متاع الوفد فدفع إلى كبيرهم كتاب من النجاشى يقول فيه، باسم سيدنا يسوع المسيح كلمة الله إلخ.

من الملك يوحنا ملك صهيون نجاشى الحبشة وملك ملوكها إلى حضرة المحب المكنون علاء الدين باشا.

- تخبركم أننا بنعمة سيدنا يسوع المسيح نحن وجميع عسكرنا ورجال مملكتنا حائزين كمال الصحة والعافية ممتعون بالراحة الوافية ونود استمرار العلاقات بيننا وبين حكومة مصر ونحب تثبيت أحسن الصلات الودّية وأنه مرسل لكم ياصحبنا الباشا هدية وهى حصان من جياد الخيل إشارة إلى التودد والمحبة والسلام. اهـ.

وكان مع ذلك الوفد أيضاً هدايا أخرى بعضها إلى بطرك القبط بديار مصر وبعضها إلى الخديو وهى عبارة عن عشرة من الفضة المموّهة بالذهب ونياشين من الذهب الخالص وثمان درقات وكمية من اللؤلؤ وزهاء الألف وخمسمائة جنيه فرنسوى برسم القدس الشريف وكتاب إلى الخديو وكانت جميع رجال الوفد البيت المقدس ليلبثوا فيه ما شاء الله، فلما تحقق الخبر بقدومأولئك الحبشان ومثولهم بين يدى الخديوى ثم نزولهم بدار البطريكية القبطية بالقبيلة بطلت الأراجيف وزالت الهواجس واشتغل الناس بما سيكون من وراء ارفضاض مجلس نواب البلاد إذ ظهرت الإشاعة بقرب ارفضاضه ورجوع النواب إلى بلادهم وقد تناقلها أصحاب صحف الأخبار فما لبث أن بلغت أصحاب الصحف الأجنبية حتى وردت صحفهم مشحونة بالتقبيح والتعييب والاستهزاء والسخرية بنواب البلاد وأصحاب زعامة الجند وقام بعض الأجانب الذين فى خدمة الحكومة يسخرون أيضاً بالنواب ويهزؤن بأعمالهم فكانوا إذا قابل أحدهم رفيقه فى طريقه أو فى مجتمع عام قال له عوض صباح الخير أو مساء الخير مثلاً، إننا نودّع نواب الأمة الوطنيين - الوداع للنواب الوطنيين - وغير ذلك من عبارات السخرية والاستهزاء فحرك هذا كله ساكنا فى قلوب ضباط الجند فجعلوا يطوفون بالشوارع والطرقات ويكثرون من التطواف ملازمين مساكن الأجانب فانكمشوا وانكفوا عن الاجتماع فى المنتديات والطرق العمومية وخافوا العاقبة فقام بعض أصحاب صحف الأخبار المحلية يهوّنون الأمر

على أهل البلاد ويلاطفون ضباط الجند ويكثرون من الإطراء على النواب فكتب أحدهم فى وداع النواب يقول: وداع يزيد النفوس وجدا، ويعد يفيد القلوب قربا، وانفصال لا يؤثر فى المشارب إلا اتصالا، وافتراق لا يوجب فى المبادىء إلا اتحادا، وداع لنواب الأمة المصرية راحلين يوم السبت بما فى قلوب الأحبة من الثناء والدعاء مشكورين مأجورين مرجواً عودهم بالمهابة والإجلال والتوفيق والإقبال إن شاء الله . اهـ.

فلما كان ثامن جمادى الأولى من السنة أى سنة تسع وتسعين فى نحو الساعة الخامسة العربية صباحا قدم محمود باشا البارودى إلى مقر النواب يحمل مرسوم الخديو بارفضاض المجلس فدخل عليهم وسلم ووقف بينهم موقف الخطيب، وقال: إن المدة القصيرة التى أقمتموها والأعمال الكثيرة التى نشرتموها تدل على شدة ميلكم إلى الإصلاح ورغبتكم فى تقدم الوطن العزيز، وحيث إن هذا اليوم هو اليوم المعين لارفضاض المجلس بمقتضى لائحته الأساسية فقد أتيت بالأصالة عن نفسى وبالنيابة عن إخوانى لأشكر مساعيكم المحمودة وأرغب إليكم أن تشغلوا أفكاركم فى مدة الاستراحة بالمنافع العامة والمشروعات التى ستوضع فى العام القابل موضع النظر ليسهل تقريرها بالسرعة اللازمة، قال: وهذا هو الأمر الكريم الناسق بانفضاض المجلس على مقتضى القانون أقدمه لديكم والله المسئول فى توفيقنا جميعا لخدمة الوطن العزيز.

فأجابه محمد سلطان باشا رئيس النواب يقول: إنا نشكر للجناب الخديوى المعظم عنايته باستنابة عطوفتكم فى ختم أعمال المجلس هذا العام ونسأل الله توفيقنا فى العام القابل لتتميم المقاصد الخيرية والمنافع العامة التى منع قصر الوقت فى هذا الاجتماع من إخراجها إلى عام الفعل كما نسأله أن يؤيد الاتحاد ويزيد تألف القلوب لنكون يدا واحدة وقلبا واحدا على خدمة هذا الوطن العزيز بما يحتاج إليه من الإصلاح آمين، فأمّن النواب جميعاً على هذا القول ثم ودّعهم البارودى وانصرف وقاموا هم من ساعتهم وساروا إلى مقر الخديو بسراى عابدين لوداعه فقابلهم وخاطبهم قائلا: إن اجتهادكم فى خدمة الوطن وقيامكم بأداء حقوقه الواجبة قد صادف لدينا موقع القبول والاستحسان كما أثبت لكم الفضل وعلو الهمة وصدق العزيمة فى خدمة الأمة ولا ريب عندنا أنكم ستصرفون العناية فى مدة انفضاض المجلس إلى البحث عن طرق المنافع العمومية والمذاكرة فيما يوضع لديكم موضع النظر فى العام القابل لتأتوا إن شاء الله على ما فى نيتى من الإصلاح لوطننا العزيز

وإنى أستودعكم الله ضارعا إليه سبحانه وتعالى أن يوفقنا لما يترتب عليه سعادة بلادنا وأن أحسن الحال يحسن المآل آمين، فرد عليه محمد سلطان باشا رئيسهم يقول أيد الله تأييد الجناب المعظم بعنايته ويحفظه برعايته وأن يبقيه للأمة والوطن فتحصل فى ظله الأمانى وتكمل المنافع العمومية وتدوم قوم الاتحاد بين أركان البلاد ولها غرو فى ذلك فإنه أدام الله مجده قد بسط للنواب يد المساعدة فيما انصرفت همتهم إليه من أوجه الإصلاح ومهد لهم جانب العناية فى البداية والنهاية، ثم بعد ذلك قدم الموكب الخاص إلى الخديو المراسيم الصادرة للنواب باعتماد نيابتهم فسلم إلى كل منهم المرسوم الموجه إليه بيده فكان ما فيه.

قدوة الوجوه المعتمدين، والأعيان المنتخبين حضرة فلان زيد إقباله إنّ من الأمور التى أثبتتها التجارب من سوالف الأزمان حتى صارت جلية عند ذى البصائر والأذهان ووصلت إلى درجة الاستغناء عن إقامة دليل وبرهان أساليب الأقوى فى تقدم الأمم والوسيلة العظمى لانتظام الأحوال على الوجه الأتم هو التشاور فى الأمور وتبادل الأفكار والمبادلة فى الآراء والأنظار ولا شك أن هذه هى أحسن المسالك والشرع الشريف يأمر بذلك فلذا تحرينا طريق الصواب واخترنا أن يكون لمصر مجلس نواب تبعث الأهالى أعضاءه بالانتخاب ويتبادل فيه آراء الأعضاء المرجوه فى مذاكرة ما يلزم من الأمور والقوانين والآن قد تم الانتخاب بالأهلية وعرض ذلك علينا فقوبل بالقبول والاستحسان لدينا فأصدرنا إليك هذا الرقيم إعلاناً على شرف العضوية مدة خمس سنين فى ذلك المجلس الكريم فنرجو الله تعالى أن يجعل هذا المجلس باعثا لحصول مقاصدنا وأوطارنا بتقدم أوطاننا وأقطارنا ووسيلة لانتظام أمورنا وأمصارنا وأن يكون سببا لنوال الفلاح وكمال الإصلاح إنه ولى التوفيق .اهـ.

فانفض من عنده شاكرين وأولم لهم البارودى وليمة فاخرة فحذا حذوه بعض أعيان القاهرة ثم سافر من سافر منهم وبقى من بقي فكتب صاحب جريدة مصر هذه الأبيات مودعا لهم بها قال:

ودّعتهم وبنفسي من مآثرهم	آثار حمد أقامت بعد ما رحلوا
أكارم إن همو عن ناظري انفصلوا	فذكرهم أبدا بالفكر متصل
لهم منازل حب في القلوب فهم	بها مقيمون إن ساروا وإن نزلوا
فحبذاهم من قوم أماثل في	أمثالهم بالمعالي يضرب المثل
وحبذا القول ما قالوه عن رشد	وحبذا الفعل في الإصلاح ما فعلوا
ضنوا بأوطانهم وهي التي بذلوا	في حبها النفس نعم الجود والبخل

وكان الناس يظنون أنه بارفضاض هذا المجلس وانحلال عقد اجتماعه تبطل تلك القلاقل المتتابعة فتطمئن القلوب الواجفة وتسكن الخواطر الراجفة وتنكف أصحاب الزعامة عن اختلاف المشاكل والأراجيف، فبينما هم على هذا الجانب من الظنون إذ قامت قيامة أصحاب الزعامة ورفعوا إلى الخديو فى خامس عشرى جمادى الأولى شكوى تتضمن أن عصابة سرية من جماعة الضباط الشراكسة الذين اختيروا لقتال مدّعى المهدوية بالسودان قامت للفتك بأحمد عرابى باشا وأنهم أعدوا له كمينا فى مفارق بعض الطرق لأخذه غيلة وجعلوا يبالغون ويهولون فكبر الأمر على الخديو ورسم بكشف الحقيقة، وبث أحمد عرابى باشا العيون حول جماعة الضباط الشراكسة وتتبعهم الجند فقبضوا على خمسة منهم وألقوهم فى سجن قشلاق جند الحرس برحبة عابدين وهيؤا لتحقيق هذا الحادث مجلسا عسكريا مؤلفا من عشرين عضوا بينهم على بيك الروبى وعبد العال باشا أبو حشيش وانقسم هذا المجلس إلى قسمين أحدهما، لعمل النهار، والثانى: لعمل الليل وقبضوا على كثير من الشراكسة وألقوهم فى حبوس قشلاق عابدين وقبضوا كذلك على يوسف نجاتى بيك وآخرين معه فكانت عدتهم نيفا وأربعين فاشتد الخوف بأصحاب البيوتات من جماعة الترك والشراكسة وأخذوا حذرهم فى الداخل والخارج فلما كان تاسع عشرى الشهر انعقد مجلسهم العسكرى بقصر النيل وجعل يسأل المتهمين، قالوا: فتحقق أن الذى هيأ هذه العصابة هو راتب باشا سردار العسكر المصرى على عهد إسماعيل باشا فى بيت أحمد أفندى راشد أحد الضباط الشراكسة بحارة الرزنامجة القديمة وكان ذلك على علم من محمد أفندى طلعت ويوسف نجاتى بيك ومحمد نيازى أفندى وأمين شكرى أفندى وسالم شوقى أفندى وعمر أفندى رحمى المعاون بديوان الضابطة ومحمد شفيق أفندى ومحمد أفندى فؤاد الملازم بالمخالفات وأحمد فهيم أفندى وخليل حسنى أفندى ورشوان أفندى ونجيب أفندى المقيم مع شفيق أفندى وأحمد أفندى وصفى الملازم بالمخالفات قالوا: وتحالفت هذه العصابة على السيف والكتاب وجعلوا مقاصدها سرية لا يطلع عليها أحد من صغار الضباط حتى تتقوّى عزائمهم وتطمئن قلوبهم ثم اجتمع معهم بعد قليل من الأيام محمود أفندى طلعت أخو راتب باشا وعقدوا مجلسا وأعلموا الصغار من جماعة الضباط الشراكسة بأن أول شىء يعمله رجال العصابة هو أنهم يرفعون إلى الخديو عريضة يطلبون فيها ردّ حقوقهم إليهم ورفع يد الاستعباد عنهم ولم يطلعوا أحد من أولئك الأصاغر يومئذ على سر المقصد

الإعدامى الذى تحالف عليه كبارهم فانضم إليهم كثير من الأصاغر ومالوا إلى تعضيدهم فبلغوا يومئذ زهاء المائة فكتبت أسماؤهم فى ورقة وأعطيت إلى أحمد أفندى راشد صاحب الدار.

واتفق أن قدم من الإسكندرية خليل أفندى حلمى أحد كبار العصابة فاجتمع عصابة منهم فابلغهم أنه قد انضم إلى عصبتهم على باشا شريف ووعدهم بالمساعدة جهد ؟استطاعته إذا ظلوا على هذه الحال من الاتحاد قالوا وكأنهم قد أحسوا بما وراء اجتماعهم فى بيت أحمد أفندى راشد فتركوا الاجتماع فيه واستبدلوه ببيت عبد الله أفندى الكردى فانضم إليهم عندئذ حسن أفندى الكردى ورجب أفندى ناشد وتشاوروا فاستقر رأيهم على الاجتماع فى ليلة جمعة ليقيموا كلا من رجب أفندى ناشد وحسن أفندى حلمى وعبد الله أفندى الكردى رؤساء موكلين يدبر كل واحد منهم خمسين رجلا ويأخذ عليهم العهد وأن يكونوا روحا واحدة وجسدا واحدا وإذا مات أحدهم قاتل الكل على دمه حتى إذا اتسع نطاق العصابة ونجحت آمالها اختارت الرؤساء من أصحاب الرتب العلية ؟؟ محمود بيك طاهر ومحمد بيك نجيب ومحمد بيك شوقى وهكذا كلما عظم أمرها واتسعت كلمتها فوّضت الرياسة إلى الأكبر من جماعة الشراكسة أو الترك واتفقوا جميعاً على أن مقام السيدة زينب ليتحالفوا ويجدّدوا يمين القسامة هناك ويظهروا ما أسروه من أسر عن بعضهم من قتل أحمد عرابى وكل من يناويهم الشر أو يقف فى سبيلهم هذا فلما عرضت الرياسة على عبد الله الكردى أباها وقال إنى أحس ياقوم بانقباض فى صدرى واضطراب فى قلبى ورجفة فى جسمى من هذا الاجتماع وأخشى أن يكون وخيم العاقبة تتمكن العصابة من إنفاذ مقاصدها ويعظم شأنها فإذا تم لها الأمر وقامت على قدم والوثاق أتيت لها بخمسمائة من الباشبوزق بمعاونة حسين بيك قراجول فأجابوه إلى ذلك حتى يبلغ مبادىء عصابتهم إلى بعض كبار الشراكسة ليكونوا لهم عونا عند الحاجة فاجتمع بالبغض منهم وعاد فأخبر رجال العصابة بأنه لم ير من أولئك الكبار إلا غاية الجبن حتى انفصل عبد الله الكردى عن رجال العصابة لأسباب فكادت تنفشل وتتفرق كلمتهم ولولا رجب أفندى ناشد وحسن أفندى حلمى أدركاها بهمة منهما حيث جمعا أفراد العصابة الذين كانوا عقدوا جلستهم تلك فى بيت أحمد أفندى فهيم الكائن بالقوطية واتفقوا على أن يكون كل من انتظم فى سلك العصابة إلى مقام السيدة زينب ليطلعوه على السر المقصود بهم على إخراجه

إلى حيز الفعل حتى لا تنفصم عقدتهم قبل إدراك مأربهم فلما انكشف أمرهم وعلم به بعض صغار الضباط الشراكسة ذهب أحدهم المدعوّ على رمزى وأخبر بعض أقارب أحمد عرابى وأفشى مكنون سرهم فهال أحمد عرابى الأمر ورسم فقبضوا على أكثرهم وتتبعوهم حتى لم يبق منهم أحد خارج المحبوس، حدثنى صاحب لى قال: عصابة الشراكسة وتناقله الناس حتى كثر تطواف الجند بالشوارع والحارات وأخذوا يقبضون على المارة ويكبسون البيوت ويخرجون من فيها من صغار الضباط الشركسة حاسرى الرؤوس حافى الأقدام فيزجونهم فى المحبوس بقشلاق حرس الخديو برحبة عابدين والناس خلفهم يترامحون وهم فى دهشة وحيرة فكنت لا تسمع فى تلك البيوت إلا عويل النساء وبكاء البنين والبنات وتأوّه الشيوخ وكان كل من أودع السجن منهم وكلوا به من يذيقه مر العذاب فكان الواحد منهم يقضى بياض يومه وسواد ليله واقفا على قدميه وأمامه الموكل به فإذا أغمض الجفن لكمه أو وخزه فينتبه وعيناه تذرفان الدمع فإذا خر على الأرض أو سقط مغشيا عليه من شدة التعب دهمه ذلك الموكل بالضرب واللكم المتتابع فيسترحم وليس من يرحم، قال وكانت حبوسهم مجردة عن كل ما يحتاج إليه المسجون كجرة للماء مثلا أو صحفة للطعام أو حصيرة للرقاد أو مصباح للضوء وكان ضجيجهم لا ينقطع وعبراتهم متراسلة فأثر هذا الحال فى الكثير من جند الحرس أثرا مؤلما فضجروا وكادوا يخرجون عن طاعة كبارهم فلم يتنبه رجال المجلس العسكرى إلا وجند الحرس على أهبة التخلى عنهم فتداركوا الأمر وعجلوا بالعقاب فجاروا وظلموا وأغمضوا جفن الطمان على وسادة الانتقام فلا حول ولا قوة إلا بالله، قلت: وطار خبر هذا الحادث إلى الآفاق فأرسل السلطان فى خامس جمادى الآخرة إلى الخديوى يسأل عن ذلك وكتب أحد الشراكسة إلى إحدى صحف الأخبار الأجنبية يقول قد نزل آباؤنا بديار مصر من عهد ليس بقصير فكانت هى مسقط رؤوسنا وأرض نشأتنا وقد تربينا تحت سمائها وتلقينا من علومها وفنونها أشكالا فقمنا بواجب شكرها وأخلصنا فى خدمتها أعواما طوالا وبذلنا النفس والنفيس فى تلبية داعى تقدمها ودافعنا عن مجدها باقتحام الحروب الروسية وتجشم الخطوب الهائلة الدموية فخدمناها خدمة الابن البارّ بأبويه ومازلنا على هذه الحال حتى وسوس شيطان الحسد فى صدور أهل البغى والفساد فرموا بعضنا بالفجور والتألب على اغتيال النفوس التى حرم الله قتلها وقبضوا عليهم قبض الوحش على فريسته وكبلوهم فى قيود الظلم وألقوا بهم فى

حبـوس الهوان وأذاقوهم مـضض اللكم والوخز وأليم الأخذ والرد وحـرموهم لذة الرقاد واحـرقوا منهم الأكـباد بنار الجوع كل ذلك بلا ذنب جنـوه ولا خطأ ارتكبوه فالله حـسبـنا ونعم الوكيل إلى أن قـال: وحيث ضـاقت بنا أرض هذه البـلاد وقد أصبحنا مضغة فى أفواه قوم لا يخشون يوم الميعاد فقد عزمنا على الرحيل إلى الدنيا واسعة الفضاء وقد عينا أنفسنا لخدمة أمير المؤمنين لا غير والسلام. اهـ.

فأعـجب الناس بهذه المقالة وحنوا إلى جـماعة الشـراكسة وعابوا على زعـماء عصابة الجند فعالهم، فلما كان حـادى عشر جمادى الآخرة حكم المجلس العسكرى على هؤلاء الضباط بالنفى والتـبعيد المؤبد إلى أقاصى السودان وكـانوا مائة وأربعين وبينهم عثمان رفقى باشا مع تجريدهم من كافة رتبهم العسكرية وامتيازاتهم ونياشينهم وأن يكونوا متـفرقين فى أنحاء السـودان بعيدين عن مراكـز المدن والبنادر والسواحل النيلية وحكموا كذلك على اثنين من موظـفى الحكومة بالنفى والتغريب مع تجريدهم من كافـة حقـوقهم المدنيـة وحكموا على راتب باشـا السردار الذى عـدّ زعيم هذه العصابة بالتجـريد من رتبه العسكرية وامتيازاته ونياشـينه وحرمانه من العود إلى ديار مصر بحيث إذا عاد إليها نفى منها على الصورة المذكورة وقال المجلس العسكرى فى حكمه أن الخديوى إسماعيل هو مسبب هذه الحركة العدوانية والباعث عليها مستعيناً فى بثـها بالمرتبـات التى تصرف إليـه فى كل سنة من خزينة الـبلاد فقـرر أن يكون للخديو توفيق ولهيئة الحكومـة حق النظر فى قطع هذه المرتبات وإلغائها ورفعوا هذا الحكم للخديو ليـرسم بتنفيذه وكان الذى رفعـه هو محمود باشـا البارودى، وقيل: على باشا الروبى والأول أصح فلما وقف الخديوى على ما فيـه كبر عليه واستعظمه فراجع البارودى فلم يقـبل فكلم فى ذلك أحمد عرابى فأظهـر غاية الشدة وبالغ فى الجفاء فـجعل الخديوى يطاول ويحاول لعله يتـمكن من استرضـاء أصحـاب الزعامة فلما أعياه الحـال تجرد إلى تعديل الحكم فنقض فيه وأبرم واستبدل حكم الـتبعيد إلى أقـاصى السودان بالتـبعـيد عن ديار مـصر حـيث يشـاء المبعـدون مع حفظ رتبـهم ونياشينهم ولم يتعرض إلى مرتبـات أبيه فلما برز الأمر من ديوانه على هذه الصورة كبر ظهوره على البـارودى وأحمد عرابى وكادا يتميزان غيظـا وراجعا الخديوى فأبى إلا ما رسم به فألح عليه البارودى فامتنع وشدد فى الامتناع فعظم عند ذلك الخلاف وكبرت الفتنة وتزاحمت أقدام أهل السعاية على أبواب الفريقين وانبثت العيون حول مقر الخـديوى، قيل: وهدد البارودى الخديوى بالخلع فلم يلتـفت الخديوى إلى ذلك

ولم يحتفل به، حدثنى أحد المقربين من البارودى، قال: وتاقت نفس البارودى والنفس أمارة بالسوء إلى ارتقاء منصة الخديوية المصرية بعد استفحال أمر الخلاف بينه وبين توفيق باشا فجمع إليه جماعة من أهل التاريخ وكاشف بعضهم على ما فى نفسه وسألهم أن يأتوه بسلسلة نسبه فأتاه أحدهم بشجرة كثيرة الفروع ينتهى أصلها إلى السلطان الملك الأشرف طومان باى وقيل إلى السلطان الملك قانصوه الغورى فاشتد عند ذلك ظهره وكبرت آماله. اهـ.

قلت: ومع بحثى عن حقيقة هذا الخبر كنت أرى الناس فيه فريقين فريق يؤيده بالأدلة القاطعة وفريق ينكره ويقول إنه فرية على البارودى لا أنزل الله بها من سلطان وعندى أن قول الفريق الثانى أقرب إلى الصدق وأبعد عن الشماتة والحط من مقام البارودى، قالوا وتجرد البارودى إلى العداوة فلم يطق الخديوى الصبرعلى ذلك وقد علم بما فى نفس البارودى فراسل السلطان فى أمره وأعلمه بخبره فورد إليه الجواب باستعمال الحزامة والتأنى والإتيان على سائر الأمور من أبوابها فاطمأن عند ذلك الخديوى ورسم إلى جماعة الشراكسة بالخروج إلى حيث شاءوا فخرجوا جميعاً إلى دار السلطنة ولم يتخلف منهم أحد.

وسير البارودى إلى نواب البلاد يستحثهم على الحضور إلى القاهرة فحضروا جميعاً وانعقد مجلسهم بغير إجازة من الخديوى كما هى العادة فقص عليهم البارودى ما وقع من الخديوى وبالغ فى الشكوى واستمسك عليه بأمور منها مؤامرة جماعة الشراكسة على قتل أحمد عرابى وتبعيد الحرمة عائشة المعروفة بالكودية والغلام الحبشى الذى سرق بعض الجواهر من سراى عابدين وقيام إبراهيم أغا التتنجى إلى الشام بمامورية سرية وإرسال ثابت باشا إلى دار السلطنة بغير موجب ولا سبب ظاهر وسعى الخديوى خلف إذهاب حقوق البلاد وتقليل امتيازاتها الممنوحة لها بالفرامانات السلطانية وغير ذلك من التهم التى ما أنزل الله بها من سلطان فأطال النواب اجتماعهم وتناجوا فى الأمر وجعلوا يقومون ويقعدون والحال على ما هو عليه من الوحشة والنفور بين الفريقين وأصبحت حادثة الجراكسة شغل البارودى الشاغل له عن حوادث السودان وخروج المهدى واتساع كلمته بين قبائل تلك الأصقاع وعجز رؤوف باشا عامل السودان عن إيقاف تيار الفتنة مع طلبه المدد ونداثه المتواصل ولم تكن لتخفى يومئذ حقيقة الحال بتلك الديار عن الكثير من أهل القاهرة فقد وصل جماعة كثيرة من تجار السودان بعيالهم وأموالهم ومتاعهم وأخبروا بجميع

حوادث صاحب المهدوية وقصوا على الناس القصص والأنباء وحدّثوا عن عجز رؤوف باشا وأصحابه وقالوا: إن نار الفتنة لم تضطرم إلا بيد سلاطين بيك أحد مديرى ولايات الدارفور بما أعطاه إلى العربان من بنادق الحكومة وذخائر الحرب فكثر تحدث الناس فى ذلك وجعلوا يتبعون سير تلك الحوادث ويحسبون ما وراءها والله من وراء كل حساب، حدثنى صاحب لى قال: حدثنى من لا شك عندى فى صدق حديثه قال: ما تعاقد كبير السياسة الإنجليزية مع الخديوى إسماعيل عام ثلاث وتسعين ومائتين وألف هجرية على إبطال تجارة الرق من بلاد مصر والسودان حتى جعل يطالبه بالمطالب الطويلة ثم لم يلبث أن دس إليه الرقباء من قومه فساروا إلى أرض السودان وجعلوا يجوبون البلاد من أدناها إلى أقصاها ويبحثون فى عادات أهلها وطباعهم وأميالهم والاختلاف الواقع بين عادات بعض القبائل والأدواء الناجعة فى استمالة أعصى القبائل وأشدها بأسا ثم عمدوا إلى تخطيط الأراضى ومعرفة ما فيها من الدروب والمسالك والعقبات والمرابك ووقفوا على حقائق نباتها وأشجارها وتربة أرضها وأنواع حيواناتها وأحصوا قبائلها عددا ولم يتركوا شيئاً تدعو إليه الحاجة إلا وأحصوه وكان ممن سير به من الإنجليز كبير من مقدمى جندهم اسمه غوردون فقدم إلى القاهرة ولبث أياماً لم يفارق فيها باب الخديوى إسماعيل ثم رحل إلى السودان باسم مراقب منع الاتجار فى الرقيق فلم يلبث أن صار حاكم شرقى السودان وخط الاستواء ثم سواحل البحر الأحمر ثم حكمدار جميع أرض السودان وخط الاستواء وأطلق الخديوى له الكلمة وأعطاه رتبة الباشوية وأتحفه بنياشين الشرف فعظمت هيبته وعلت كلمته ونزع إلى قلب الكثير من عادات تلك البلاد وأبطل بعض المغارم والمكوس ورفع ما تأخر من الأموال الأميرية عن مشايخ القبائل ولبث فى خرطوم السودان يأمر وينهى ويعطى من يشاء ويحرم من يشاء بلا رادّ ولا ممانع فنزح فى أيامه إلى أرض السودان كثير من الأجانب وأهل التجارة فراجت تجارتها وكثرت ثروتها ودرت أرزاقها وكان ممن سارت به مطية الأمل إلى تلك الأصقاع أيضاً رجل اسمه سلاطين قيل: أنه نمساوى الجنس، وقيل: إيطالى، والأول أصح وقيل: أن الخديوى إسماعيل هو الذى سير به إلى السودان فى خدمة واليها إسماعيل أيوب باشا فلبث فيها يتقلب فى المناصب الديوانية ويترفع إلى درجات الحكام والمديرين حتى قبض الله له من ولاه ولاية صغيرة من أعمال الدارفور فنشط عند ذلك من عقال وهب من خمول وأخذت كلمته من هذا الحين فى الظهور فلما تولى السودان

غوردون الإنجليز تقرب سلاطين هذا منه وأخلص فى خدمته وأجهد النفس فى طاعته، قال: وخلع غوردون نفسه من ولاية أرض السودان بعد بضع سنين ورجع إلى بلاده وهم أعلم من وطىء هذه الأرض بعادات أهلها وطباعهم وأميالهم وعاداتهم من قبائل العربان وقد بدأت فى أيامه تدب روح الحرية فى صدور كبار أشد القبائل بأسا وأعظمهم شهرة ولم يمض بعد ذلك غير القليل حتى ظهر رجل من الأبيض الدارفور اسمه محمد أحمد فادعى المهدوية وتظاهر بمظاهر النساك وتزيا بزى الصالحين واتخذ له خلوة ورباطا وجمع إليه جماعة من أهل الجبال سماهم دراويش وأكثر هو وإياهم من مظاهر التقشف والتعبد والزهد والورع فشاع بين العربان خبره وظهر اسمه واشتهر ذكره ومال إليه كثير منهم فهادوه بالهدايا من الأدرة والدخن والبقر والضأن وتقربوا منه ولازم بعضهم رباطه فكان يقص عليهم قصص الأبرار ويحدثهم بأخبار الصالحين ويحذرهم من قرب الساعة ودنوا لأجل ويقول إذا عم دين الإسلام واتحدت كلمة المؤمنين على يديه قامت الساعة وانتصب الميزان وحكم الحاكم الديان وما زال على هذا الحال حتى عم خبره وبلغت الآفاق شهرته وتجاوزت بلاد الدارفور فبلغ عدد من لازم خدمته ولاذ إلى رباطه نيفا ومائتين وأربعين درويشا وبدت على عهد رؤوف باشا معظم الخروج وتحزب بعض قبائل العربان وكادت تشق عصا طاعة أصحاب الجباية وامتنعوا من دفع الخراج فرفع أصحاب الجباية الأمر إلى رؤوف باشا وأخبروه بخبر هؤلاء القوم فلم يلتفت إلى ذلك ولم يحفل به فتورك من هذا الحين محمد أحمد فى تخت المهدوية آمنا مطمئنا وجعل يبعث الدعاة إلى بلاد الدارفور يدعون الخلق إلى طاعته ويستميلونهم إلى طريقته ويستنجدهم إلى نجدته واستخلاص البلاد من أيدى الكفرة المارقين فمال إليه ناس كثيرون جداً من أهل تلك الأصقاع وتبعه آخرون ممن تبعوا غوردون الإنجليز من قبل وواصلوا رباطة بالهدايا والتحف وصاروا يجعون إليه فى أيام معلومة من كل شهر ووردت الأخبار بذلك إلى القاهرة فأوعز أصحاب الحل والعقد إلى رؤوف باشا بتدارك الخطب قبل استفحاله وأن سعين هيئة الحكومة بأصح الأخبار فأرسل رؤوف نفرا من الجند لا يبلغون المائتين وضابطين من صغار الضباط إلى مقر صاحب المهدوية ورسم لهم بقتاله وأن يأتوا به حيا صحيحا فلما كانوا على مقربة من رباطه انقض عليهم دراويشه فمزقوهم كل ممزق وسدوا عليهم المسالك وأبدوهم حتى لم يبق منهم سوى ضابط ورجلين قد ولوا الأدبار وركنوا إلى الفرار فاخبروا بما حل

بأصحابهم، قال المحدث، فلم يحرك هذا الحادث من قلب رؤوف ساكنا ولم يتبين له همة حيث جهز للقتال ثانية جماعة من الجند لا يزيدون عن الذين ماتوا وشدد عليهم فى الإتيان بمحمد أحمد حيا وكان المهدى بعد أن ظفر أصحابه بجند رؤوف وسلبوا ما كان من ذخيرة ومتاع قد ترفع بهم إلى الجبال وسير فى طلب النجدة من بعض القبائل فاجتمع لنجدته كثير من السود الأبطال وخرجوا للقاء أصحاب الوالى ودارت بين الفريقين رحى الحرب والقتال فظفرت لموم صاحب المهدوية وانتصرت على أصحاب الوالى نصرة مؤزرة وأبادوهم بحد السيف وشاع الخبر بين قبائل العربان القريبة من مقر المهدى فهابوه وخشوا بأسه وآمنوا بمهدويته وقاموا فى الحال لنصرته وتواردت على رباطه الهدايا وكثرت عنده المؤن فأحبه أصحابه وأخلصوا له الخدمة وبالغوا فى طاعته فوقع الوالى فى الخبال وبلبلة البلبال وكتب إلى حكام الدارفور يستفزهم إلى إيقاف تيار هاته الفتنة فكان أول من لب نداءه سلاطين بيك حيث جمع نفرا من العربان وقلدهم بنادق الحكومة وجهزهم بمعدات الحرب وسير بهم إلى القتال فكان كغراب نوح عليه السلام يوم استقر به الفلك وكانت هذه الضربة من أشد الضربات على هامة الحكومة حيث تقوت بقوم سلاطين ومعدات حربهم عزيمة صاحب المهدوية وكبرت شهرته وكادت تعم دعوته سائر البلاد وهان لديه من هذا الحين كل رخيص وغال فنهى وأمر وجمع وادّخر وغلب وقهر وفاز وانتصر ورتب قومه على أحسن ترتيب وسمى منهم أمراء الجيوش وكبار المئات والأمناء على بيت مال المسلمين وبالغ فى التظاهر بمظاهر الأولياء والصالحين بل الأنبياء المقربين وسن لأصحابه سنة جديدة فكانوا كلهم على قلب رجل واحد يأتمرون بأمره ويقومون عند إشارته، قال محدثى: كل هذا ورؤوف باشا كان كمن ضرب على سمعه وبصره، ثم تنهد وأطرق لحظة ثم رفع رأسه وقال: ولسوف يأتى يوم ترى فيه النفوس تفتك بالنفوس والرؤس مختلطة بالرؤوس يوم تنطبق فيه السنابك على السنابك وتلتقى البنادق بالبنادق والألوف تفتك بالألوف والسيوف تخابط السيوف فالله الله ولا حول ولا قوة إلا بالله، قلت وكأن رؤوف باشا خشى عاقبة إخفاء الحقائق فجاء منه الخبر إلى أولى الأمر مفصلا بما هنالك من اشتداد الفتنة وخروج الكثير من بلاد الدارفور عن الطاعة فسيروا إليه المدد من القاهرة من جند وكراع وكتبوا إليه يقبحون فعاله ويتوعدونه بالعقاب الشديد وجعلوا يواصلون إرسال المؤن والذخيرة ويراقبون سير الحوادث فلما رأوا أن لا قبل له على إطفاء نار

هذه الفتنة خلعوه من منصب الولاية وأقاموا مكانه عبد القادر باشا أحد كبار الجند على أيام الخديو إسماعيل فسار إلى الخرطوم فى نفر من الأتباع ففرح الناس بولايته واستبشروا.

وبينما الناس فى شاغل بسبب حوادث أرض السود واستفحال أمر الفتنة وما يفعله أصحاب المهدى فى كل يوم من القتل والنهب وسبى النساء والأطفال رفع قونصلا الإنجليز والفرنسيس فى حادى عشر جمادى الآخرة إلى الخديوى لائحة تتضمن وجوب إيقاف زعماء العصابة ونواب البلاد عند حدّ عدم مس العهود الدولية المرتبطة بها الحكومة المصرية والإقلاع عن كل ما من شأنه إثارة الخواطر ووقوع القلاقل والاضطرابات وإلا وجب التداخل القوى وإيقاف كل عند حده فاستقدم الخديوى عند ذلك البارودى وأعطاه تلك اللائحة فكبر أمرها عليه وعلى سائر أصحابه واستعظموا ما فيها وعدوه عارا وشارا وجعلوا يولون الاجتماع بنواب البلاد حتى تقررت القاعدة بينهم على أن يرسلوا بصورة من تلك اللائحة إلى الباب العالى ويسألون سرعة التداخل فى الأمر ومنع تعدى الدولتين على حقوق البلاد واختاروا من بينهم من يذهب إلى الخديوى ويحذره من التكلم فى أمر تلك اللائحة مع القونصلين حتى يرد الإذن من أمير المؤمنين، واشتد من هذا الحين بغض أهل البلاد الأجانب على اختلافهم فتقدم قناصل الدول إلى البارودى وأحمد عرابى فى ذلك فهونّا عليهم الأمر وتكفلا بالأمن وعدم تكدير صفو الراحة فلم يطمئن مع ذلك للأجانب قلب ولم يكن لهم جأش ونزح الكثير منهم إلى أوطانهم فرارا مما كانوا يتوقعون وكثر اللغط بقرب وصول مراكب حرب الدولتين إلى ثغر الإسكندرية تارة وبقيام مأمور من كبار رجال السلطنة العثمانية أخرى، وقد بلغت الوحشة بين الخديوى والبارودى حدها وتفاقم الشر بين الفريقين، فلما كان أحد الأيام أرسل الخديوى أحد رجال ديوانه إلى البارودى يقول له تخلى عن مسند الرياسة واعتزلها وإلا أنزلناك عنها قهرا وكذلك قال لبقية الوزراء فعند ذلك عقدوا مجلسهم فى بيت البارودى وتناجوا فيما بينهم ثم سيروا إليه يقولون إننا لا ننزل عن منصبنا ولو أكرهنا على ذلك وإننا نعتبر كل أمر يصدر فى هذا الصدد بمثابة تهديد للأمن العام وتكدير لكأس الراحة فإذا قامت الفتنة بين أهل البلاد ولحق الإيذاء بالأجانب الدين بيننا كان الخديوى مسئولاً عن جميع ما يحدث دون غيره قيل فكبر هذا الكلام على الخديوى حتى كاد يتميز غيظا فلما كان اليوم الثانى الذى هو خامس عشرى جمادى الآخرة انقطع البارودى وبقية النظار عن الذهاب إلى نظاراتهم واجتمع نواب البلاد فى بيت

مقدمهم محمد سلطان باشا ولبثوا ساعة يتحدثون في أمر انقطاع النظار ثم انتقلوا إلى بيت البارودى ولبثوا فيه طويلا وجاءهم أيضاً بعض العلماء والمشايخ والوجهاء والأعيان وبعض قناصل الدول وتكلموا فى ذلك وأكثر قونصلا الإنجليز والفرنسيس الغدوّ والرواح بين مقر البارودى وسلطان باشا ثم جمع إليه البارودى سائر الوزراء ونواب البلاد وأصحاب الزعامة من ضباط الجند وأغلقوا عليهم الأبواب وأوقفوا الحجاب قال بعض المتقربين إليهم: وتكلموا فى خلع الخديوى وتزيله وفيمن تصح ولايته من بعده كأن أمره بيدهم أو روحه من عندهم وطال بينهم الجدال وكثر القيل والقال فكانوا إذا أتوا على أمر وهموا بتنفيذه قام من بينهم من يفتحه ويحذرهم عاقبته فيرجعون عنه إلى غيره وما زالوا حتى أعياهم الحال وقلت منهم الحيل فصمموا على اعتزال سائر الأشغال وترك الأمور وشأنها وإلقاء تبعة جميع ما يحدث من الخلل أو ما يقع من سفك الدماء والفتك بالأجانب والنزلاء فى قلب البلاد على شخص الخديوى وأرسل البارودى فى الحال فى طلب محمد سلطان باشا فحضر ومعه بعض النواب فاعلمه بما وقع الاتفاق عليه وسأله أن يذهب إلى مقر الخديوى ويعلمه بالخبر وكان ذلك فى نحو الساعة العاشرة نهاراً فراجعه محمد سلطان باشا وكذلك فعل نواب البلاد وطال بينهم الأخذ والرد إلى الساعة الرابعة عربى ليلاً فقام محمد سلطان باشا وسار إلى مقر الخديوى ولبث عنده إلى الساعة السادسة ثم عاد إلى بيت البارودى واختلى معه إلى نحو الساعة الثامنة فكان بينهما من الحديث ما لم تصل إلينا معرفته إلى هذا الحين ثم انصرفوا جميعاً وباتوا ليلتهم تلك وأصبحوا وقد جمع البارودى سائر الوزراء وأصحاب الزعامة من ضباط الجند وبعض العلماء والمشايخ والأعيان والوجهاء وجعلوا يتكلمون فيما وقع عليه الاتفاق بالأمس فعلت أصواتهم وقامت بينهم الضوضاء وتفرقت كلمتهم فأرسل البارودى يطلب محمد سلطان باشا فحضر ومعه جماعة من نواب البلاد فلم يستقر بهم المقام حتى دخل قونصلا الإنجليز والفرنسيس وطلبا من البارودى وأحمد عرابى أن يعطيا لهما كفالة على عدم التعرض لرعايا دولتيهما بسوء والذب عن أرواحهم وأموالهم عند مسيس الحاجة فأجابهما إلى ذلك ثم طفق البارودى يقص على القونصلين ما فعله الخديوى مما يعكس مشروعات الأمّة ويصغر من قدر نواب البلاد وما وراء غايته من تعديل حكم المجلس العسكرى وتعضيده لجماعة الضباط الشراكسة وإرساله ثابت باشا إلى دار السلطنة لدس الدسائس وإذهاب امتيازات البلاد فتكلم القونصلان مع البارودى

وأحمد عرابى ومحمد سلطان باشا طويلاً وأخذا على عهدتهما إزالة ما فى الصدور وإذهاب ما علق فى الخواطر وإرجاع الحالة إلى ما كانت عليه من المودة والصفاء، وقاما من ساعتهما ودخلا على الخديو وكلماه، قيل: فشكى إليهما ما يلاقيه من البارودى وأصحابه فما زالا به حتى هوّنا عليه وخففا عنه وزال بعض ما به من الغضب.

فلما كان يوم الاثنين سادس عشرى جمادى الآخرة اجتمع محمد سلطان باشا ولفيف النواب وبعض العلماء والمشايخ والوجهاء بالبارودى وأصحابه فى بيته الكائن بشارع عابدين وتكلموا فى أمر الصلح وفى رجوع البارودى إلى معاطاة أشغال منصبه رحمة بالناس ودفعا لشماتة الأعداء وظلوا على هذا الحال إلى أن صارت الساعة الثانية عربى ليلا فقام محمد سلطان باشا ومعه جماعة من نواب البلاد وتقدموا إلى الخديو فى طلب العفو وحسم أسباب الشقاق فلم يقبل، وقال: لابد من خلع البارودى من مسند الرياسة فخرج محمد سلطان باشا ومن معه من النواب وعادوا إلى بيت البارودى وأخبروا بما جرى، فقال البارودى: نتخلى كلنا عن مناصبنا ونلقى تبعة ما يحصل من الأخطار على عاتق الخديوى وطال بينهم الكلام ساعة ثم عاد النواب إلى مقر الخديوى وتقدموا إليه فى قبول تنزيل البارودى فقط بشرط أن يتولى الرياسة مصطفى باشا فهمى فأجابهم الخديوى إلى ذلك فساروا إلى مصطفى فهمى باشا وكلموه فى الأمر فامتنع وشدد فى الامتناع وقال لا أتولاها والحال على ما هو عليه من الشدة والخصام فعادت عند ذلك الأمور إلى ما كانت عليه بل زادت خبالا وإشكالا وتعطلت الأشغال ووقفت حركة المصالح واشتد الخوف بالناس وأخذتهم الطيرة وعجز محمد سلطان باشا أوكاد عن التوفيق بين مطالب الفريقين وكثر تطواف صغار الضباط فى الشوارع والحارات وانبث الجند فى أطراف القاهرة وأكثر صاحب شرطة المدينة من التطواف والمراقبة وبقى الحال هكذا إلى سابع عشرى جمادى الآخرة فجمع محمد سلطان باشا لفيف العلماء والوجهاء وجماعة من الكبراء والأعيان واشتوروا ثم سار نفر منهم إلى مقر الخديوى بسراى عابدين وجعلوا يستعطفونه ويستميلونه إلى العفو عما فات وهو لا يلتفت إلى قولهم وما زالوا به حتى هان عليه الخطب ونسى أو كاد ينسى ما فات وأجابهم إلى ما طلبوا وهم الكافلون فتكفلوا فرسم باستبقاء الوزراء فى مناصبهم فأصبحوا وقد جلسوا على كراسيهم يأمرون وينهون وطيروا الخبر إلى الآفاق بزوال الخلاف وعود الأمور

إلى سابق مجراها فسكنت الخواطر المضطربة واطمأنت القلوب الواجفة ولكن لم يمض على هذه الحال أيام حتى وفد على مدينة الإسكندرية مساء الجمعة غرة رجب الفرد مدرعة من مدرعات الحرب الإنجليزية ودخل كذلك فى صباح السبت ثانيه اثنتان إنجليزيتان وثلاث أفرنسيات فأطلقت المدافع سلاما للحصون فردت عليها الحصون السلام وجاء الخبر بذلك إلى القاهرة ثم بعد أيام وردت عدة سفن أخرى كبيرة فاشتد الخوف بالأجانب ونزح الكثير منهم من الإسكندرية وكثر تحدث الناس فى أمر حضور هذه السفن العظيمة وكادت تقف حركة الأشغال بالإسكندرية، فلما كان سابع رجب المذكور رفع القنصلان إلى مقام الخديوى بلاغا نهائيا من جانب دولتى الإنجليز والفرنسيس يطلبان فيه أوّلا تنزيل الوزراء من مناصبهم ثم خروج أحمد عرابى من ديار مصر إلى حيث يشاء من أرض الله الواسعة الفضاء مع بقاء رتبه ومرتباته وحفظهما عليه وتبعيد عبد العال مقدم الجند السودانى وعلى فهمى مقدم جند الحرس الخديوى إلى الأقاليم القبلية أو البحرية مع حفظ رتبهم وألقابهم على ما هى عليه فإن لم يتم ذلك بالتى هى وجب تنفيذه كرها فاستعظم البارودى ما فى هذا البلاغ واستكبره جدا فلم يجب عليه فسأله القونصلان، فقال: لا شأن للدول الأوروباوية معنا فى مثل هذه الأحوال وإنما نحن تابعون لسلطان فإذا شئنا فليخابرن سلطاننا وما ذلك عليهن ببعيد وزعم البارودى وأصحابه بأن الصلح كان خدعة من الخديوى حتى تأتيه سفن حرب الدولتين فيفعل ما بدا له فكثر اجتماعهم تارة فى بيت البارودى وأخرى فى قشلاق الحرس الخديوى وكثر تطواف الجند فى الأزقة والحارات ليلا ونهارا وعاد محمد سلطان باشا إلى الوساطة بين الفريقين فلم يفلح ولم ينجح له عمل واشتدت الأزمة واستحكمت حلقاتها وتحذر كل فريق من الآخر ورأى البارودى أن فى خلعه لنفسه من منصب الرياسة غاية التبعة ونهاية المسئولية على الخديوى أمام الدول الأجنبية فخلع نفسه فى ثامن رجب وتبعه فى ذلك بقية الوزراء فهاج عند ذلك ضباط الجند وماجوا واحتج البارودى ورفاقه على بلاغ الدولتين واشتد الهياج والاضطراب فأرسل الخديوى إلى الوزير محمد شريف باشا ورسم إليه بتشكيل هيئة وزارة أخرى فامتنع فراجعه فأصر على الامتناع ولازم بيته فسار إليه قونصل الإنجليز وكلمه فى الأمر فلم يقبل فأراه خبرا واردا إليه من صاحب السياسة الإنجليزية وترجمته: بودّنا لو يقبل شريف باشا رياسة الوزراء فتؤكدوا له أننا نعضده ونؤيده جهد الاستطاعة فقال لا لكم ولا للكرامة والله ما

توليتها وهى على شفا جرف تتجاذبها الأهواء واشتد الخوف بالناس وسعى محمد سلطان باشا ونواب البلاد بين الفريقين فلم يفلحوا وذهب جماعة من ضباط الجند مع طَلبة بيك عصمت إلى مقر الخديوى بسراى عابدين وكأنهم يريدون به السوء فرسم الخديوى بحضور الوزير محمد شريف باشا فحضر وانعقد مجلس حافل حضر فيه نواب البلاد والعلماء والأعيان والوجهاء فكلم الخديوى الوزير فى قبوله منصب الرئاسة وألح عليه فى ذلك وكذلك فعل النواب والعلماء والأعيان والوجهاء فقال أتولاها بشرط تنفيذ ما فى لائحة الدولتين وخروج أحمد عرابى من البلاد فعند ذلك قام طلبة عصمت وقال إنا فى طاعة أولى الأمر ولكننا لا نقبل ما فى تلك اللائحة ولاحق للدولتين فى طلب ذلك منا إذ هى أمور خاصة بالخليفة أمير المؤمنين ثم قام من فوره مغضبا فتبعه من كان معه من الضباط وانفض مجلسهم على غير طائل.

وظهرت بعد خروج طلبة من مجلس الخديوى حركة عظيمة بين الجند وسائر الضباط وورد الخبر من الإسكندرية بأن الجنود المرابطين فيها امتنعوا من قبولهم رئيسا على ديوانهم غير أحمد عرابى وأنه إن مضى اثنتا عشرة ساعة ولم يرجع إلى منصبه لا يكونون مسئولين عما يحصل بالإسكندرية فأزداد الحال إشكالا وخبالا وكبرت حجة الوزير محمد شريف باشا على عدم قبوله الرئاسة وكثر تطواف أحمد عرابى فى هذا اليوم أرسل إلى محمد سلطان باشا فى طلب سائر نواب البلاد فاجتمعوا فى بيت سلطان باشا وحضر أحمد عرابى فى نفر من الضباط والجند وأحاطوا بالبيت ومسكوا على من فيه المسالك ودخل أحمد عرابى فوقف فى وسطهم وعلى يساره محمد عبيد أحد ضباط جند الحرس الخديوى وخطب فيهم خطبة طويلة كلها حض على التعاضد والتعاون على خلع الخديوى ورفض سائر مقترحات الدولتين ثم طفق يقبح ما وقع من الخديوى ويعدد مساويه ومعايبه ومعايب أسلافه وما جلبوه على البلاد وأهلها من المظالم والمغارم وغير ذلك من أنواع البلايا والرزايا فما أتم خطابه حتى علت بينهم الضوضاء واشتد الهرج فصاح أحمد عرابى ما بالكم لا تسمعون وكأنكم خشب مسندة إن كنتم لا تنادون بخلعه فنحن قد خلعناه فصاح عند ذلك سائر العسكر الذين كانوا حول البيت قد خلعناه ثلاثا وكان ممن حضر فى مجلسهم تلك الليلة الشيخ البحراوى مفتى الحقانية فقام ورد على أحمد عرابى وكاد أن يوقفه فتقدم إليه محمد عبيد وصفعه وأمسك بفروجيته فمزقها فصاح الشيخ فى وجهه

وصاح جميع الحاضرين واستل محمد عبيد سيفه وأقسم أنه يقطع عنق سلطان باشا ومن لم يناد بخلع الخديوى من سائر الحاضرين الساعة فهرب أكثر النواب وألقى بعضهم نفسه من الشبابيك وعلا الصراخ فى بيت نساء سلطان باشا ظنا منهن بأنه مات ذبحا وترامح الأتباع ليروا ما حل بساداتهم والجند تدفعهم عن الأبواب وما زالوا على هذه الحال من الجلبة والصياح إلى نحو الساعة السادسة ليلا فخرج أحمد عرابى ومن معه وهم يرعدون ويزبدون كأن بهم مسا من الجن وعلم الخديوى بما جرى فى بيت محمد سلطان باشا فى تلك الليلة فأرسل إلى الباب العالى وديوان المابين الهمايونى يقول إن الجنود المصرية لم ترض عن تخلى الوزراء عن مناصبهم وأن مقدمى الجنود والوزراء أقاموا الحجة على لائحة الدولتين فأتى إليه الجواب بأن قد رسم جلالة الخليفة أمير المؤمنين بإرسال وفد ليرى فى الأمر وسيقدم عليكم بعد ثلاثة أيام فانتظروه وكان الخوف قد كبر بالناس فلم ير الخديوى بدا من استبقاه الوزراء فى مناصبهم فرسم بذلك حتى يأتى وفد السلطان فعاد أحمد عرابى إلى تعاطى الأشغال وكتب إلى سائر قناصل الدول يطمنهم ويضمن لهم تأييد الأمن وعدم مس أحد من أهالى البلاد والأجانب بسوء وقال لهم بعد كلام أيضاً ولم تطلب العصابة الوطنية ونواب البلاد إلا أمورا ثلاثة، الأول منها إعادة لائحة الدولتين كما وردت مع خروج مراكب الحرب لتطمئن القلوب، وثانيها وضع قانون أساسى تتبين فيه حدود كل العائلة الخديوية والوزراء، وثالثها قطع المخابرات والعلاقات مع دولتى الإنجليز والفرنسيس خصوصاً وسائر الدول عموما لا بواسطة دار السلطنة العثمانية، وبلغ هذا الكلام الدول فأكبرته وأعظمته جدا وكتبت دولة الإنجليز إلى قونصلها بمصر تقول إنها لا تألو جهد فى الذب عن مقام الخديوى والدفاع عن نفوذه ما استطاعت.

فلما كان عشرون من رجب دخل مينا الإسكندرية مركب سلطانية وفيها رجل من كبار الدولة اسمه المشير درويش باشا فنزل فى سراى رأس التين برهة لطيفة ثم ركب منها إلى محطة السكة الحديد وأمامه نفر من أصحاب الشرطة وضابط المدينة وسافر إلى القاهرة فكان فى انتظاره على محطتها فريق من الجند ونفر من أصحاب الشرطة وضابط المدينة وقد أعدوا لركوبه عربة من الأصطبل الخديوى فركبها وسارت الجنود أمامه وأصحاب الدولة خلفه فاجتمع عند ذلك الكثير من الحرافيش والسوقة وزعر باب الحديد البحر والأطراف وترامحوا أمام الجند وهم يضجون ويصيحون

ببذىء القول وفحش الكلام وأحاط جماعة منهم بعربة المشير وهم يصيحون بأصوات مزعجة نصر الله دين الإسلام ؟وهدم الله دين الكفار أتاكم الموت ياكفار أتاكم الموت بحرق النار وغير ذلك من عبارات السب واللعن وإشارات السخرية والأستهزاء، قيل فسأل درويش باشا عـن سبب ذلك قال إن هذه عادة العامة إذا فـرحوا بقدوم ضيف عزيز لديارهم فلم يستحسن منهم ذلك وأشار فلم يفعلوا وما زالوا على هذه الحال من الضجيج والصياح والنداء بعضهم على بعض بإيذاء المارة من الأجانب وأهل البلاد حتى وصل المشير إلى المكان الذى أعدّ له فوقف أمام بابه ساعة وهم على ما هم عليه من الصياح والجلبة ثم انصرفوا وبات الناس ليلتهم تلك ذلك وهم فى شاغل مما عساه أن يحدث بسبب حضور درويش باشا ولقائه على هذه الصورة المنكرة وأصبح درويش باشا وقد بدأ فى المكالمة مع أحمد عرابى وكبار الدولة وأصحاب الوظائف العالية وعقد لذلك عدة مجالس فتكلموا فيها طويلاً وكانوا إذا أغلظوا فى القول مع أحمد عرابى وعابوا ما وقع من الوزراء ولا سيما منهم البارودى قال لاحق لكم ولا عتب ما دامت البلاد آمنة مطمئنة وها هى الفتنة قائمة على ساقها ومع ذلك لم يقع فى جوف البلاد ولله الحمد ما يكدر صفو الراحة وطال الكلام بينهم أياماً على غير جدوى.

وكان مذ قدمت سفن حرب الدولتين إلى مدينة الإسكندرية قد أخذ الأجانب يفدون عليها أفواجاً وهم فرحون بها مطمئنون كأنهم لا يخشون بجوارها جائرا فكبر ذلك على العامة والسوقة من أهل الإسكندرية وحسبوه إهانة لهم وإذلالا وظنوا أن الأجانب إنما يريدون بأهل البلاد الشر فأظهروا التغيظ وبدت منهم دلائل الشر وأغلظوا فى مخاطبة الأجانب فكان إذا كلم الواحد منهم أجنبياً هزله الرأس وأسبل الجفن توعدا وتهديدا فأحس الأجانب بما وراء ذلك وخافوا شر العاقبة فأخذوا فى التأهب والاستعداد وأكثروا من شراء البنادق والبارود واستخدم عظماؤهم بعض الأقوياء من أسافل اليونان وزعر الطليان، قيل: وشاوروا فى ذلك أميرى مراكب حرب الإنجليز والفرنسيس فوافقاهم عليه وأرسلوا رجلا منهم إلى القناصل بالقاهرة ليسألهم فى ذلك أيضاً فلم يوافقوا عليه واشتد تحذر الفريقين وظهرت علامات الوحشة فقل تطواف الأجانب فى الليل وامتنع جلوسهم فى محلات اللهو وأغلق أصحاب الحوانيت منهم حوانيتهم فكانت وحشة عظيمة للغاية، فلما كان يوم الأحد سادس عشرى رجب من السنة أى سنة تسع وتسعين هجرية وحادى عشر جونيو سنة

إحدى وثمانين وثمانمائة وألف ميلادية بينما كان الأجانب خارجين عن بيوتهم قامت الغوغاء من أهل الإسكندرية وتجمعت زمرا وسارت أولا من الشارع المعروف بشارع إبراهيم وبأيديهم العصىّ والهـراوى والمساوق وحطب الوقود وهم فى ضجـة وجلبة عظيمتين ثم أتى جماعة منهم من شارع الضبطية وأخرى من سوق الطباخين وكأنهم كانوا على عهد واتفـاق وأوقعوا بالأجانب ضربا وقتلا فـترامح الناس إلى الحوانيت والبيوت وتسـابق الأجانب يريدون الخلاص وأطلقت البنادق من منافـذ البيوت على الغوغاء فكانوا إذا رأوا أجنبياً ترامحـوا خلفه ونزلوا بالعصى والهراوى على أم رأسه حتى يسقط ميـتاً فيأخذون ما معه ويشـركونه ويلحقون بغيره وقد أفـحشوا فى القتل والسلب وتخريب الحوانيت ونهب ما فيها فكثر الصياح من أقصى المدينة إلى أقصاها واشتـد البكاء والعويل وضـاقت الأرض فى وجه الأجـانب ولجأ بعضـهم إلى بيت أصحاب الشرطة فرارا من الموت فلاقاهم أصحاب الشرطة الذين هم جند المستحفظة بسنابك البنادق فـقتلوهم عن آخرهم فكانوا كـالمستجـير من الرمـضاء بالنار وطافت الغـوغاء جـميع حـارات الأجانب فـكان إذا رأى الأجنبى نفرا من هؤلاء الأخـلاط مقبلين نحوه امتقع لونه فى الحال وتخلخلت قدماه فإذا هم بالفرار فلا تطاوعه قدماه فيعدو عدو الغراب خطوات ثم ينكب على وجهه فيلحقونه بضرب العصىّ والنبابيت وربما وجدوه ميتا من شدة الخوف فكان ذلك من غرائب الطبيعة وقد جرح ومات فى ذلك اليوم خلق كثير وبينهم جماعة من كـبار الأجانب ووجهائهم، وكان مقدم جند الإسكندرية يومئذ سليـمان بيك داود فأرسل إليه عمر باشـا لطفى محافظ المدينة فى طلب المدد من الجند ليستـعين بهم على إيقاف تيار الفتنة وحقـن الدماء وكان ضابط المدينة قد تمارض فى ذلك اليـوم ولم يخرج من بيتـه فأرسل سليمـان بيك يقول لا دخل لى فى شىء من ذلك حتى يأذن لى أحمد عرابى فطير عمر لطفى باشا الأخبار إلى القـاهرة بما وقع فورد الأمـر من أحمـد عرابى بقـيام الجـند ومنع تلك الفظائع فتـفرقت العسـاكـر فى الشوارع وأخذوا فى التطواف فى نحـو الساعة الحادية عـشرة العربيـة نهارا وكـانت إلى هذه السـاعـة قد تفـرقت الغوغاء وتمزقت الـلموم وطاف محافظ المدينة فى نفر من أصـحاب الشرطة ومعاونى الضابطة وأمر فجـمعوا ما بقى من جثث القـتلى بالشوارع والطرقـات وجوار حمـام الضابطة فكانوا نيـفا وثلثـمائة قتـيل، وقيل: غيـر ذلك ونادوا بالأمان وعود النـاس إلى تعاطى أشغـالهم وما زال الجند يطوفـون الليل كله وبكاء النساء وصـياح الأبناء على آبائـهم متـتابع، فكانت

حادثة بالهـا من حادثة لم يسبق لها مـثيل إلا فى دولة المماليك الثـانية وقيام العـامّة على نابليون بالقاهرة، ولما علم من بمصـر والقاهرة بما وقع بالإسكندرية قامت بينهم ضجة عظيمة وتسابـق كل من له أهل أو ولد بالإسكندرية إلى موارد الأخبار يسألون وعم الخوف والإضـراب وباتوا وهم فى كمـد ملازم وأصـبحوا وقـد اجتـمع سائر قناصل الدول ودخلـوا على المشـيـر درويش باشـا وكلمـوه فى الأمـر وأغلظوا فى مخاطبته واتهموه بإضرام نار هذه الفتنة وعنفوه وقالوا أنت وحدك المسئول عن كل ما جرى إذ لولا حـضورك فى هذه الظروف ما أريقـت هذه الدماء الزكيـة ونحن اليوم نطلب منك أن تكفل صـيانة أرواح جمـيع الأجانب الذين فى داخل البـلاد، قيل: فاضطراب المشير وأشـار بعقد مجلس في سراى عابدين للمداولة فى الأمـر فعقدوه وحضر فيه الخديوى ودرويش باشا ومن معه من رجال الوفد العثمانى والوزير محمد شريف باشا وكـبار رجال الحكومة وسـائر قناصل الدول فتقررت القاعـدة بينهم بعد أخـذ وردّ على التكفل لقناصل الدول بحـفظ أرواح وأمـوال سائر الأجـانب ونزلاء البلاد منهم بشرط امتثال أحمد عرابى وطاعته وقـيامه بتنفيذ كل ما يصدر إليه متعلقا بالأمن فأجـابهم أحمد عرابى إلى ذلك وتكفـل لهم درويش باشا بجميع مـا طلبوه وبملاحظة طاعة الخـديوى والقيام بجميع أوامـره فانفض مجلسهم يومـئذ على ذلك وقام أحمـد عرابى من فوره وأرسل إلى سـائر المديرين والمحافظين بمنع اجتـماعات الجند أينما كـانوا وكتب إلى سليمان بيك داود مـقدم جند الإسكندرية يستـحثه إلى الالتـفات ومنع وقـوع شىء من الحـوادث والقلاقل وبذل العـناية فى ملازمـة جند الإسكندرية لحدود الطاعة والامتثال.

ورسم الخديوى بتحـقيق أسباب هذه المذبحة ومـحاكمة كل من كان له يد فـيها وشكل لذلك مجلس مخصوص يرأسه عمـر لطفى باشا محافظ الإسكندرية فاجتمع المجلس فى دار المحافظة وبينهم مندوبو قناصل الدول وقد كـثر فى هذا الحين رحيل الأجانب عن الإسكندرية وحضورهم من داخل البلاد عـشرات ومئات إلى السواحل طلبا للفـرار والنجاة وكثـر تواردهم حتى لم يبق منهم أحـد فى المدن والقرى ونزح أيضاً العدد العديد ممن كان منهم بالـقاهرة وقام الخديوى إلى الإسكندرية فى سادس عشـرى رجب ومعه درويش باشا ورجـال ديوانه الخاص فلما نزل بمقـره برأس التين استدعى إليـه قناصل الدول وحادثهم فى أمر الفتنة وطيب نفوسـهم وكلمهم كذلك درويش باشا وهوّن عليهم وبقى قـونصلا الإنجليز والفرنسيس بالقـاهرة ولم يحضرا

مع الخديوى إلـى الإسكندرية إلا بإجازة من حكومـتيهـما بعـد أيام فلما قـدما إلى الإسكندرية أوعزا إلى سـائر قناصل الدول بالتشديد عن رعاياهم بـالجلاء عن البلاد ففـعلوا فاشتـد الخوف بالناس ونزل من بقي من الأجـانب إلى السفن الراسيـة أمام الإسكندرية وطلب قناصل الدول مـن دولهم سفنا لنقل رعـاياها فجـاءتهم فسكنـها الناس بدل البيوت فرارا مما عساه أن يقع.

حـدثنى صـاحب لى كان لا يفـارق باب الخـديوى فى هذه الأيام قـال: دخل المراقب الإنجليزى يومـا على الخديوى وقال له: هل يمكن الاعـتماد على مـا يقوله المشير درويش باشا من طاعة الضباط وأمـانة العسكر المصرى فى الخدمة عند مسيس الحاجـة، قال فتـأفف الخديوى وقـال: أنى يكون لنا ذلك ولم نر منهم إلى الآن إلا العسـف على أنى أخشى العـاقبة ولا أرى سبيـلا لتوطيد الأمن فى هذه الظروف إلا باستنجـاد أمير المؤمنين فيـرسل إلينا فريقا من عسكره المنصـور يذب عن البلاد ومن فيـها عند مسـيس الحاجـة ولم أر فى سفارة المشـير درويش باشا مـا كنت أتمناه من الفلاح فقد خابت سعيا وباتت وأصبحت وكأنها لم تكن شيئاً مذكورا، وشاعت هذه الأقوال بين الناس وعـلم بها قناصل الدول فتـقدموا إلى الخـديوى فى خلع الوزراء وتشكيل وزارة أخرى عـسى أن تفلح فى تدارك الخطر قبل استـفحاله فـأجابهم إلى ذلك وقد كـانت حاجة فى نفـسه، ورسم بتشكيل وزارة جـديدة برئاسة إسمـاعيل راغب باشا وهو من كبار رجـال الحكومة القدماء وأنزل أحمد عـرابى باشا نفسه من منصبه وطيـروا الخبر بذلك إلى الآفاق فاسـتغرب الناس هذا الأمر وكـثر تحدثهم به فلما استقرت براغب باشا الرئاسة تقـدم إلى الخديوى فى طلب العفو عن جميع من اشـتركـوا فى الحوادث الأخـيرة إلا من كـان لهم يد فى مـذبحة الإسكندرية وقـال للخـديوى: إنما نريد بذلك تطيـيب القلوب المتنافـرة فيـعود الأمن وتزول المخـاوف وترجع الأحوال إلى سابق مـجراها فأجابه الخديوى إلـى ذلك ثم جعل راغب باشا يشدّد فى تحقيق حادثة الإسكندرية ويقبض على كلّ من كـان له يد فيها وبث العيون والجواسيس وأصحـاب الشرطة فى أنحاء البلاد فجاءوا بالكثير من السـوقة والغوغاء والحمارين والشـيالين وأهل البطالة والكسل وبعض مشايخ الحـارات ومشايخ الطرق وجماعة من أصحاب الشرطة فأمر بهم فألقوهم فى حبوس الإسكندرية حتى غصت بهم وضاقت وجعل الخديوى يطوف فى نفـر من الحراس فى شوارع المدينة وأرجائها

تطمينا للقلوب وتسكينا للخواطر المضطربة وكذلك كان يفعل درويش باشا ومن معه من رجال الوفد ومع ذلك فقد كان جلاء الأجانب عن البلاد متتابعا.

وتقدمت الدول الأوروباوية على يد سفرائها إلى الباب العالى فى عقد مؤتمر دولى بدار السلطنة للبحث فى أنجع الأدواء الحاسمة لأسباب الفتنة بديار مصر وإيقاف أهلها عند حدهم وشددوا على الباب العالى فى طلب ذلك فامتنع وقال ليس فى الأمر والأنباء متواصلة من درويش باشا باستتباب الأمن ورجوع سائر الأمور إلى مقدر ما كانت عليه فأبى كبار سياسة الإنجليز إلا عقد ذلك المؤتمر والباب العالى يطاول ويحاول ثم استعان بدول روسيا وألمانيا وإيطاليا فأعانوه وقاموا لنصرته خوفا من مطامع الإنجليز فى مصر دولة الإنجليز منهم ذلك وكتبت تقول أنها تتعهد متى تم عقد ذلك المؤتمر لا تعمل قط على فصم عرى الصداقة التى بينها وبين الباب العالى ولا تعمل على أراضيه إلى جانب أملاكها ولا أن تستولى على مصر ولا على قسم منها ولا أن تسعى قط فى الحصول على شىء من الامتيازات السياسية أو التجارية ما لم يشاركها فى ذلك بقية الدول فانحازت لرأيها عند ذلك سائر الدول وانفرد الباب العالى فأصر على الامتناع فتشذذت الدول وعقدت المؤتمر فى قسطنطينية فى سابع شعبان من السنة أى سنة تسع وتسعين ولم يحضره أحد من جانب الباب العالى فتقررت القاعدة بينهم على أن الحكومة وكلاؤها بالنيابة عنها على هذا البروتوكول (يعنى المحضر السياسى) تتعهد قط اغتنام أرض مّا ولا الحصول على امتيازات مّا ولا أن يكون لرعاياها من يكون لغيرها من رعايا الدول الأخرى فى مصر وذلك فى جميع المسائل التى عليها بسعيها واشتراكها فى المخابرات لترتيب وضبط أمور البلاد المذكورة الإنجليز من هذا اليوم يعدّون المعدّات ويجهزون الجنود ويجعلون سفن حربهم قدم الاستعداد ثم دعوا بقية الدول إلى الأشتراك معهم فى عمل يكون من ورائه الفتنة ووقوفهم عند حد الطاعة أو أنهم يسيرون معا إلى الإسكندرية والعساكر لإرجاع الأمن والراحة إلى تلك البلاد فأحست الدول بما وراء ذلك لأسباب لم تصل إليها معرفتنا لغاية الآن، فلما رأت منهن هذا الإحجام قونصلها بمصر وهو المستر مالت فتمارض ونزل إلى إحدى سفن الحرب الإنجليزية أمام الإسكندرية ولبث بها أياما والناس يتساءلون عن سبب ذلك ثم شاع الخبر إلى برندزى إحدى موانى البحر الأبيض فتحدث الناس به كثيرا وأخذتهم الطيرة فى هذا الحين على هذه الصورة هو بمثابة إشهار الحرب على البلاد وإطلاق النار على حصون

الإسكندرية، وبينما كان مالت قونصل جنرال الإنجليز بعيدا عن متزويا في برندزى كان لم يبق بين دولته وديار مصر علاقة كان دوفرين سفير السلطنة يغرر بالباب العالى ويزين لرجال المابين استرضاء أحمد عرابى نياشين الاعتبار وما زال بهم حتى أفلح سعيه فأحسن السلطان على أحمد عرابى المجيدى الثانى وسير الخبر بذلك إلى القاهرة ففرح أحمد عرابى وأصحابه وظنوا أن رضاء السلطان وارتياحه إلى ما هم عليه من مخالفة الخديوى والدولتين ولم يعلموا الخطر القريب وتناقل أصحاب الصحف المحلية خبر هذا الإنعام وفصلوا فيه وقاسوا وخاطوا فنقله أصحاب الصحف الإنجليزية ونادوا بالويل والثبور وقالوا أنه لبرهان جديد على عداء السلطان لسيدة البحار ودولة العظمة والفخار وعمر كبار سياستهم على إحباط أعمال المؤتمر الدولى وتقدموا إلى بقية الدول فى رفع لائحة إلى الباب العالى يطلبون فيها إما أن يسير جنوده إلى مصر لإخماد نار الفتنة وإرجاع الأمور إلى سابق مجراها وإما أن يترك الدول ترى رأيها فى ذلك فامتنع الباب العالى وقال لا داعى لإرسال الجنود والبلاد آمنة مطمئنة فأعجب الإنجليز امتناعه ووافق ما فى نفوسهم وقد كانوا يخشون من ذهاب عسكر السلطان إلى مصر ويحسبون لذلك ألف حساب وأوعزوا فى الحال إلى أمير سفن حربهم الراسية أمام الإسكندرية أن ينتحل أقل العلل والأسباب العدائية ويطلق على الفور مدافعه على حصون الإسكندرية حتى يدكها دكا وكان أحمد عرابى قد قدم من القاهرة إلى الإسكندرية فى حاشيته وبعض الخدم ومعه بعض كبار الجند المقرّبين إليه فاستقرّوا بالترسخانة وكان فى حصون الإسكندرية تسعة آلاف مقاتل فكتب سيمور أمير تلك السفن إلى أحمد عرابى يقول أن الجنود المصرية آخذة فى تحصين سائر القلاع وإلقاء الأحجار الكبيرة فى مدخل المينا ليسدوه ويمنعوا المدد فينحصر الأسطول وأن فى تحصين الحصون وتقوية الاستحكامات مع وقوف سفن دولة الإنجليز أمامها عارا وتحقيرا فإن لم تنكف الجنود عن ذلك أطلقت عليها مدافعى وأصليها نارا حامية، وكان طلبة عصمت أحد أصحاب الزعامة هو المتولى أمر ذلك فكتب إلى أمير السفن يقول ليس فى الأمر شىء مما تقول وأن حصوننا وقلاعنا هى فى حالة لا تستدعى عملا مّا فعاود سيمور الكلام وأغلظ فى القول وقال: لابد من جلاء العساكر المصرية عن طابيتى الأنفوشى والبرج واحتلال الجنود الإنجليزية لهما فلم يجبه طلبة إلى ذلك أيضاً فجعل سيمور يهدد عساكر الحصون ليلا بأنوار الكهرباء التى كانت تنبعث من مراكب الحرب على الحصون فتخطف

الأبصار وتهتز لها القلوب وشاع خبر ذلك بين الناس فاشتد بهم الخوف وكثر جلاؤهم عن الإسكندرية إلى القرى والأرياف البعيدة وكثر تطواف أحمد عرابى فى الشوارع والطرقات وخلفه جماعة من الجند يحملون البنادق وأرسل سيمور إلى الخديوى على يدى كولفن مراقب الإنجليز يقول له: أترك المدينة وأنزل إلى إحدى السفن كى لا يصيبك شىء مما عسى أن يحصل بأسباب ضرب القلاع والحصون فلم يقبل، وقال: عار علىّ أن أترك المدينة وفيها العدد العديد من رعاياى المخلصين فألح عليه كولفن فامتنع وقال: لا يحل لى أن أتركهم فى وقت الشدة ولا يجمل أن أترك بلادى فى ساعة الضيق، وتداخل قناصل الدول فى الأمر وسعوا فى الصلح بين سيمور البحر وعرابى البر فلم يفلحوا وكان سيمور يأتيهم فى كل يوم بطلب جديد فإذا امتنع عرابى من تنفيذه جاءه بأشد منه فكتب أحمد عرابى محضرا بجميع ما يطلبه سيمور ووسمه بالعداء والفجور وقال عن سيمور: أنه مثال الظلم والعداء للبلاد وأهلها وأنه أهان المصريين واحتقرهم ولم يراع للهيئة الحاكمة حرمة ولا اعتبار ولذلك وجبت مقاومته جهد الاستطاعة وأنه قد فوض أمر الدفاع عن البلاد إلى أحمد عرابى ومن معه من كبار الجند المصرى ثم أخذ ورقة هذا المحضر جماعة من أصحاب الزعامة وطافوا بها على بيوت الوزراء فوضعوا عليها أسماءهم قيل ودخلوا بها على الخديوى أيضاً فلم ير بدا من التوقيع عليها ثم أرسلوا هذه الورقة إلى سيمور البحر وسير فى الحال أحمد عرابى إلى سائر المديرين والمحافظين يعلمهم بأن يكونوا من الآن على قدم الاستعداد لإرسال المدد من المال والرجال عند الطلب وأكثر من تطوافه على القلاع والحصون وترتيب الذخرة ومعدّات الحرب فلما كان يوم الأحد ثانى عشرى شعبان جاء رسول من قبل سيمور ودخل على الخديوى بمقره برأس التين، وقال: إن الأمير على عزم إطلاق المدافع على الحصون فى صبح الثلاثاء رابع عشرى الشهر وقد جئت أسألكم أن تنتقلوا من سراى رأس التين إلى سراى الرمل تحرزا مما عساه أن يحصل من رمى القنابل ثم تركه ودخل على المشير درويش باشا وناوله خطابا يقول فيه: إنك أنت المطالب بحياة الخديوى وعليك تبعة جميع ما يحصل لشخصه فاحذر العاقبة والسلام، وفى صبح الثالث والعشرين من شعبان أرسل إلى راغب باشا رئيس الوزراء ودرويش باشا مندوب الباب مكاتبة يقول فيها: حيث قد انسحب قونصلنا من الديار المصرية ولم يبق بها أحد الآن من وكلاء دولتنا فقد انقطعت بذلك العلائق التى كانت بين حكومة جلالة ملكة الإنجليز

والخديوية المصرية ولم يبق بينهما من الوداد ما كان، فلما شاع هذا الكلام بين الناس خافوا خوفا عظيما وازداد جلاؤهم عن المدينة وشدد قناصل الدول على من تخلف من رعاياهم بسرعة الأرتحال أو التزول بالسفن الراسية أمام الإسكندرية واشتد الهرج والمرج فى الشوارع والطرقات وأغلق فى ذلك اليوم ما بقى من حوانيت الأجانب وغيرها من حوانيت أهل البلد وهرع العامة إلى بابى رشيد وسدره فارّين إلى الريف وخرجت مراكب حرب الفرنسيس فى مساء ذلك اليوم راجعة فلم يبق منها سوى مركبين تحت طلب قونصل جنرال الفرنسيس فكان لخروجها دهشة عظيمة وكثر تساءل الناس عن سبب ذلك فاختلفت الأقوال فمن قائل: إن خروجها كان لخلاف وقع بين أميرى الأسطولين، ومن قائل: بل بين الدولتين، ومن قائل: لكره الفرنسيس لقتال المصريين وغير ذلك من الحدس والتخمين وقد عاب عقلاء الناس على الفرنسيس هذا الأمر وعدّوه فلتة من فلتات سياستهم المحفوفة بالطيش والخفة وقالوا: سوف يندم أصحاب سياسة الفرنسيس على ما فرط منهم فلا ينفعهم الندم واشتد قلق الناس وتحذرهم وامتناعهم من الخروج من دورهم فى الليل فكانت وحشة عظيمة للغاية.

ولما كانت الساعة الأولى من يوم الثلاثاء رابع عشرى شعبان سنة تسع وتسعين ومائتين وألف هجرية أى صباح الحادى عشر من يوليو سنة اثنتين وثمانين وثمانمائة وألف ميلادية صوب سيمور أفواه مدافع سفنه نحو الحصون والقلاع وأطلق عليها القنابل إطلاقا متتابعا فاطلقت الحصون كذلك مدافعها وتتابع الرمى من الفريقين ووصلت قنابل السفن إلى القلاع والحصون والبيوت وضواحى المدينة فكانت أشكالا مختلفة بعضها عن بعض ففتكت بجند الحصون فتكا ذريعا ودكت بعض القلاع دكا فلما اشتد الرمى وكادت تتعطل مدافع الحصون خرجت الغوغاء من الحارات وانتشرت فى الأطراف واختلطت بالجنود وهم فى جلبة وصياح وتزاحموا على القلاع والحصون يريدون معاونة الجند فكان إذا هم الجند بتصويب مدفعه نحو سفن الإنجليز هللوا وصاحوا ونادوا ياأهل بيت رسول الله، ياشيخنا ياأباصيرى، ياسيدى ياقوت يا عرشى، وغير ذلك من أنواع النداء والصياح والجلبة وسار جماعة منهم وأمامهم أرباب الأشاير بالبيارق والطبول والكاسات حتى وقفوا على شاطىء البحر ناحية السيالة وصاروا يصيحون بأعلى أصواتهم ياللطيف الله أكبر الله أكبر وهم يطوحون البيارق ويضربون الطبول والكاسات فرمت عليهم إحدى تلك السفن شيئاً

من القنابل الصغيرة تباعا فمزقتهم وأهلكتهم عن آخرهم إلا من كان بعيدا واشتد الرمى من السفن وتراسل فاتصلت نيران إحدى القنابل بمخازن البارود الكائنة بقلعة آطة فالتهب البارود وانفجر انفجارا هائلا ودمر القلعة ودكها دكا وأهلك جميع من بها من الجند والعامة والضباط والتصقت لحومهم وما بقى من مشاشهم بجدران القلعة فكان لها منظر تنفطر من رؤيته القلوب وتتفتت من هوله الأكباد وما زال الرمى متراسلا من السفن والحصون وأحمد عرابى لا يخرج من قلعة القضا ولا يعلم بشىء مما هو جار فى غيرها من بقية القلاع، قيل: وكان لا هم له فى ذلك الحين سوى تحريك شفتيه بتلاوة بعض الأوراد وتحريك أصبعيه على مسبحة كانت بيده، وكان راغب باشا رئيس مجلس الوزراء وبعض الوزراء عند باب رشيد فخرج الناس من المدينة هائمين على وجوههم من شدة رمى القنابل وفعلها بالقلاع والدور والوكائل ومروا من باب رشيد زمرا كالإبل الآبقة، فلما كان وقت الظهيرة بطلت مدافع الحصون وسكنت أصواتها وظهر على ما بقى من القلاع رايات بيضاء إشارة إلى الكف وطلب الأمان فانكفت السفن عن الرمى وخرج حينئذ أحمد عرابى من مخبئه وسار إلى مقر الخديوى بسراى الرمل فسأله الخديوى عما جرى بالقلاع وما حل بالعسكر فقال: الخيبة والفشل والخطر الشديد ولا حول ولاَ قوّة إلا بالله فلم يبق فى قدرتنا أن نقاوم فأما أحسن التدبير فالتسليم بسائر مطالب أمير السفن، فلما سمع الخديوى هذا الكلام كبر عليه الأمر واستعظمه وكان معه بالسراى يومئذ عثمان باشا وإسماعيل باشا كامل والزبير باشا والجنرال استون باشا رئيس أركان حرب الجيش على عهد إسماعيل باشا وفريديكو بيك وتيكران بيك وآخرون غيرهم فجمعهم إليه وعقد فى الحال مجلسا منهم وكلمهم فى الأمر كثيرا فاتفقوا على أن يسيروا طلبة بيك عصمت أحد أصحاب الزعامة رسولا إلى سيمور أمير السفن ليخابره فى الصلح فسار طلبه وغاب ساعة ثم عاد وأخبر الخديوى بأن سيمور يطلب أن تحتل عساكره ثلاث قلاع من أكبر قلاع المدينة وإلا فانه يعاود الرمى بالقنابل بعد الظهر، قال: فسألته مهلة حتى تحصل المداولة فلم يقبل فأمر الخديوية عند ذلك بالمجلس فانتظم وتكلموا ثانية فتقرر أنه لا يصح قط للخديوى المصرية الترخيص فى نزول جنود أجنبية فى قلاعها ولا حصونها بغير إذن من الباب العالى وكتبوا بذلك محضرا ولكنهم لم يبلغوه إلى سيمور السفن.

وأخذ من بقى من جند القلاع والحصون فى الخروج منها قبيل الغروب وقد تركوا ما فيها من جثث الأموات والذخيرة والمهمات وساروا نحو باب رشيد والباب الجديد وخرجت كذلك بقية العساكر من معاقل رأس التين وباب رشيد والباب الجديد إلى ناحية الملاحة وحجر النواتية وتتابعوا فى الخروج الليل بطوله فلما لاح الفجر ظهر سليمان بيك داود مقدم جند الإسكندرية ورسم إلى بعض الفرسان بالنداء فى الناس بالخروج من المدينة عاجلا ومن تخلف حل به ما يكره فكثر النداء فى الحارات والشوارع وهب الناس من نومهم وكأن على رئوسهم الطير وخرجوا هائمين وهم حفاة حاسرو الرءوس، فكانت الأطفال تبكى وتصيح والأمهات يولولن والرجال تتسابق وتترامح وهم فى دهشة وذهول وتتابع خروج النساء من ذوى البيوتات لا يحملن من متاعهن سوى المآزر وما عليهن من خفيف الثياب والعسكر يستحثوهنّ إلى الخروج من الباب الجديد وينادون عليهن بأصوات التهديد فلم تشرق الشمس إلا وقد غصت رحبات الباب الجديد بالخلق الكثير من الرجال والنساء والأطفال وهم فى أسوأ حال وكثر الزحام واختلط الناس بعضهم ببعض وارتفعت الشمس فاشتد بهم الظمأ فطلبوا الماء فلم يصلوا إليه وانتشر العربان حول تلك الأطراف فعاثوا وأفسدوا وسلبوا كل ما وصلت إليه أيديهم فعلا عند ذلك الصياح وارتفعت أصوات النساء بالبكاء والنحيب وهم بعضهن بالرجوع إلى المدينة على ما فيها من المخاوف والأخطار فلم يتمكنّ إذ بانت طلائع زمر الأخلاط والحرافيش يحملون المنهوبات من الحوانيت بالمنشية وشارع شريف باشا والميدان والسكة الجديدة من أصناف الحرير والديباج والمقصبات وأفخر الملبوسات وأثمن المجوهرات والمصوغات وأنواع التحف وأصناف الزينة والمشروب والمأكول وأصناف العطريات وأثاث البيوت من الصينى والبلور وغير ذلك مما يجل عن الحصر وهم فى ضجة وجلبة عظيمتين وأكثرهم ملطخ بالدم، وكان لما أخذ الناس فى الخروج من المدينة وقد تركوا بيوتهم بما فيها من متاع وفرش ومأكول ومشروب تطاولت أيدى العامة إلى سرقة بعض الشىء من ذلك ولم تكد تصل إليه أيدى البعض الآخر حتى برز سليمان بيك داود فى ميدان محمد على، قيل: ونادى فى الجند والعامة بكسر حوانيت التجار ونهب ما فيها وإضرام النار فى المدينة حتى تصير رمادا وأكثر من النداء بذلك فقامت العامة قومة واحدة وكسروا أبواب الحوانيت بالفؤوس والبلط ونهبوا جميع ما فيها من الحرائر والمقصبات وأصناف الأقمشة الغالية والمجوهرات

والمصوغات وكل ما وصلت إليه أيديهم وكان الرجل منهم إذا حمل شيئاً من ذلك وهم بالخروج لحقه من هو أقوى منه فيضربه أو يقتله ويأخذ ما معه وربما اقتتل الاثنان أو الثلاثة منهم على شيء لا يستحق بعض قروش وأنحدر العربان من السيوف والرمل والمندرة وباب العرب ومريوط وغيرها وانبثوا فى المدينة انبثاث الجراد فقتلوا ونهبوا وفسقوا بالأبكار والأمهات قسرا وعاثوا فيمن خرج من الناس إلى الباب الجديد وخطفوا ما وجدوه من حلى وملبوس وقتلوا بعض النساء بإطلاق البنادق والرجال بطعن الرماح وفعل كذلك الجنود فنهبوا وخطفوا وأطلقوا بنادقهم على من كان يقاومهم وكان المشهد مريعا جدا والخطب شديدا للغاية، فلما كان بعد الظهر بساعة أضرموا النار فى الكثير من بيوت المنشية وشارع المسلة وشارع الضبطية والميدان وفى تلك الوكائل العظيمة والمبانى الشهيرة فاندلع لهيب النار وتطاير الشرر إلى عنان السماء وأظلم الجوّ وامتلأ بالدخان واسودّ وجه الأرض من الرماد المتساقط والجند يطوفون ويزيدون النار إضراما بإراقة زيت البترول على ما لم يشتد منها لهيبه والعامة يسيرون بين النار وهم يحملون المنهوبات والناس فى بكاء ونحيب والأطفال والنساء يلتهبون عطشا ويصيحون الماء الماء، ودخل الليل فكان المنظر أشد هولا وإزعاجا فقد كانت المدينة كلها كشعلة واحدة وبقى الجند والنهابة على ما هم عليه من القتل والنهب والعبث بالأبكار والنساء كرها إلى صباح اليوم الثانى فأخذوا فى الجلاء عن المدينة وخرج معهم من لم يبق معه شيء يخاف عليه وتبعهم من كانوا بالباب الجديد فرارا من العربان الضاربين حولهم كالوحوش الخاطفة وأمر أحمد عرابى فأتوا بقطارات السكة الحديد وأركبوا فيها الناس إلى سائر البنادر والقرى لحد القاهرة وأرسل فى يوم الحريق أصحاب الزعامة إلى مقر الخديوى بسراى الرمل جماعة من الفرسان يبلغ عددهم زهاء الأربعمائة فارس وبعض أصحاب الشرطة فأحاطوا به من كل جانب وعلم الخديوى بخبر ذلك فأرسل يسأل عن سبب حضورهم فقال مقدمهم: إنما جئنا لحراسة الذات الخديوية والمحافظة عليها، قال بعض الكتاب: ولم يكن الأمر كذلك فقد كان حضورهم لإضرام النار فى السراى وقتل كل من يخرج فارا منها وظلوا واقفين إلى قبيل الغروب ثم سارت جماعة منهم وبقيت جماعة أخرى تبلغ زهاء المائتين وخمسين فسير عند ذلك الخديوى إلى منيب أفندى مقدمهم يدعوه إلى الطاعة ومراعاة الذمة والعهد فأذعن وتمثل بين يدى الخديوى وأقسم أنه يموت بين يديه وجعل يكلم الجند حتى أطاعوا أيضاً وحلفوا يمين الطاعة ثم نصبوا خيامهم أمام مقر الخديوى وقاموا بخفارته.

ودخل فى ذلك اليوم على الخديوى محافظ المدينة وقص عليه خبر ما جرى من إضرام النار بالمدينة ونهب حوانيت التجار وانحدار العربان من الأطراف وما فعلوه من القتل والنهب والعبث بالأبكار وما الناس عليه من الشدة بسبب إكراههم على الخروج من المدينة فبكى الخديوى وطرق كفا لكف ورسم إلى إسماعيل باشا كامل وإلى الزبير باشا بالانحدار ومنع العامة من النهب ورد العربان إلى منازلهم فانحدرا وبذلا جهد الاستطاعة فلم يفلحا، وأرسل سيمور البحر فى سادس عشرى شعبان يعلم الخديوى بأنه على عزم أن ينزل بعض عسكره إلى سراى رأس التين لحراستها ويطلب إليه أن يأتى إلى إحدى سفن الحرب فيقيم بها حتى تخمد نار الفتنة فامتنع الخديوى وقال : إنى أفضل البقاء فى مقرى برأس التين بين رعاياى الأمناء على البقاء فى سفينة الأميرال وانحدر من ساعته من سراى الرمل فى عربته ومعه المشير درويش باشا وأمامه وخلفه جماعة الحرس وطوائف الفرسان والحجاب وجاويشية ديوانه وساروا بين أطلال القصور والمبانى التى دمرتها النيران، فلما رآه العامة ظنوا أنه أحمد عرابى عائد لقتال الإنجليز فصاحوا الله ينصرك ياعرابى وما زال حتى دخل سراى رأس التين فلاقاه الأميرال سيمور فى نفر من الجنود الإنجليزية يبلغون الثلثمائة مقاتل وأصعدوه إلى السراى فجلس وجلس معه سيمور يتحادثان فيما لم تصل إلينا معرفته لغاية الآن، فلما كان غروب اليوم نزل أيضاً من كان على ظهور السفن من وكلاء الدول وصعدوا إلى مقر الخديوى وهنؤه بالسلامة وباتوا ليلتهم تلك وهم فى تحرز وأصبحوا وقد أنزل سيمور طائفة أخرى من عساكره إلى البر ورسم لهم بالتطواف فى المدينة فجعلوا يطوفون فى الشوارع والحارات ومعهم بعض المدافع الخفيفة فكانوا إذا رأوا أحدا من العامة أو أسافل الروم بين أطلال الحريق يلتقط ما بقى من النهابة رموه بالبنادق وشددوا فى ذلك فامتنع الناس قاطبة وكان إلى ثانى يوم الحريق لم يبق فى المدينة أحد من العساكر والجنود المصرية ولا من الضباط ومقدمى العسكر إلا انسحب إلى حجر النواتية وامتدوا منه إلى كفر الدوار وتركوا المدينة ومن بقي فيها يضرعون إلى الله من هول ذلك اليوم العصيب.

(وقد نظمت قرائح بعض الأدباء فى حريق هذه المدينة الآهلة القصائد الرنانة فمنها قصيدة لقدرى بيك أحد رجال الدولة الذين كانوا مع المشير درويش باشا قال فيها):

إسكندرية هذه أحلام أو قد قضت فيما نرى الأيام
ما هذه الأحوال ياثغر الغنى حارت بها الأفكار والأوهام
أتكون قاعا بلقعا منشية إن العمارة بعدها لحرام
أو تنظر العينان أبهج بلدة أضحت رمادا والسماء قتام
أحرقت أعرابيّ ثغر بلادنا والله قد حاطت بك الآثام
ياليت شعري ما اقترفت فأنه ما سام هذا الفعل قبلك حام
فنقول من فرط الهنا أهل العنا إسكندرية هذه أحلام

انتهى باختصار

(وقال أحد الأدباء أيضاً فى هذا المعنى):

تفطر القلب من حزن ولا عجبا والدمع فاض على الخدّين منسكبا
إسكندرية ما هذا الخراب وكم من نكبة بك قد حلت فوا حربا
قتل وموت وتدمير مهاجرة سلب ونهب وكف للنساء سبا
قد كنت راقصة مثل العروس وها أصبحت ثكلي فلا حظا ولا طربا
وكنت بالأمس مثل الشمس مشرقة فناه كل ضياء عنك واحتجبا
ما هذه الحال في يوم وليلته يحل فيك مصاب قط ما كتبا
يبكيك دان وقاص والدموع دم وقد كوت نارك الأهلين والغربا

(وقال طيب الذكر أديب أفندى إسحق فى ذلك أيضاً):

عج بي على تلك الطلول ونادى أني تحمل أهل هذا النادي
هل صادهم شرك الردى فأبادهم صرف أناخ على ثمود وعاد
أم غادروا الأوطان في أوطانهم مذ حاذروا غدر الزمان العادي
وسل الرسوم وإن خلت عنهم وما فعلوا قبيل رحيلهم بفؤادي
خلفته في حبهم ميتا فهل أحياه أم محياه أهل ودادي
أم حملوه رديف صبري والمنى وتجلدي وتعالى ورقادي
أم غادروه رفيق وجدي والضنى وتلهفي وتذللي وسهادي
يا وارد الإسكندرية طالما بمنافع الأصدار والإيراد
أقصورها خفيت عن الأنظار أم آثار قصري في القفار بوادي
أم تدمر قد دمرت وعمورة ما عمرت أم دار ذي الأوتاد

هذي عروس الشرق ماتت فاكتسى — حزنا عليها الغرب ثوب حداد
بالأمن كانت والبياض دثارها — واليوم صارت أرسما بسواد
كانت ملاذ الخائفين فأصبحت — والخوف منه مبعد القصاد
كانت موارد للظماء وقد غدت — ما أن بها من مورد للصادي
كانت مراتع نعمة فغدت وما — فيها سوى البأساء للمرتاد
كانت وكان الدهر يسعد أهلها — فأصابها بالأهل والإسعاد
كانت وكنا لا ينام حسودنا — صارت وصرنا راحة الحساد
كانت وما تخشى بوادر ضدها — فغدت ترجي رحمة الأضداد
قامت على أقوى العماد تزين ما — تحت التي رفعت بغير عماد
فأبادها جهل خفيّ ما بدا — مثل له من حاضر أو بادي
جهل الذي رام الأماني وهي في — قمم الجبال وكان دون الوادي
وعدا وما لقي الثعالب عمره — يبغي اقتحام عرائن الآساد
وسعى إلى الشورى ولكن خالها — لما تهتك برقع استبداد
وعلى المساواة ابتنى هدم الهنا — لما تساوى حزبه بفساد
وقد ادّعى في عسفه حرية — يامن رأى حرية استعباد
وإلى الإخاء دعا فنال بفعله — من قومه ما لم ينله العادي
شقيت بزلته الجموع وطالما — أشقت جموعا زلة الأفراد
وتلاه في سبل الغواية معشر — زلوا وضلوا حيث ضل الهادي
غرسوا الجناية في الجنون فما جنوا — مما جنوه غير شوك قتاد
وسموا فسادا في البلاد كأنهم — والحادثات أتوا على ميعاد
خلعوا الشعار المستعار من الحيا — فتقمصوا عارا إلى الآياد
وتخيلوا أن الطريق خلت لهم — فنسوا فكان العدل بالمرصاد
فأتاهم رعد المدافع مبرقا — فنبوا عن الأبراق والأرعاد
وسطوا على المستأمنين خيانة — لم تشف منهم غاية الأحقاد
ورموا بنارهم الديار وبددوا — ما استجمعت من طارف وتلاد
نكر عرفنا منه أن لبعضهم — بز اللصوص وبزة الأجناد
ونقيصة يسعى بها أبناؤهم — لمقابر الآباء والأجداد
أسفا على تلك القصور فإنها — كانت منى الورّاد والروّاد

أسفا على من قاده استسماؤه ... للفاتكين ولم يجد من قاد
أسفا على قوم أتاهم فجأة ... صوت المنادي بالبلاء ينادي
فتسارعوا طلب النجاة من الردى ... بنفوسهم والأهل والأولاد
ياهولها من ساعة مرت بما ... زهقت به الأرواح م الأجساد
كم حامل خرجت بها محمولة ... فوق الكواهل أو على الأعواد
ومصونة نفسا تقول لصحبها ... ياليتني قدمت قبل ولادي
لطخت بآثار الولاد وغادرت ... جسدا تلطخ قبله بجساد
دمياه ما يدميه لمس حريره ... طفل قريب العهد بالميلاد
ومعمر لم يبق في الدنيا له ... غير السكينة من منى ومراد
ومريض قوم غاب عنه طبيبه ... وجفاه أنس الأهل والعواد
خرجوا وهم لا يهتدون سبيلهم ... والنائبات روائح وغوادي
ودموعهم والنار في أحشائهم ... حلت محل مزادهم والزاد
فكأنهم إبل بيدو نالها ... ألم السغوب وحاد عنها الحادي
تعلو وتهبط جانحات لا ترى ... من بلغة في النجدو وهاد
أو أنهم قصدوا الصبوح فجاءهم ... في فجأة منهم طريد طراد
شهد الوبال ولم يجد من منجد ... فأغذ في الأتهام والانجاد
فتفرقوا والهول ملء قلوبهم ... يقتادهم زمرا بغير قياد
أو أنهم أهل القبور تيقظوا ... سحرا بنفخ الصور بعد رقاد
نشروا عراة واجفين فيومهم ... يوم المعاد أتى بلا ميعاد
والنار موقدة سرت من خلفهم ... فكأنها حيات بطن الوادي
والجند شردهم قتال عدوهم ... فرقا فلم يتجلدوا لجلاد
ونضوا على أهل السبيل بواترا ... في الحرب ما نضبت من الأغماد
قد حديت شفراتها لكنها ... كانت على الأعداء غير حداد
ولرب عاد منهم في رعدة ... ما أن تسلم بصائد الرعاد
سكنت فرائسه على نهب الحمى ... من قبل تسكن رعدة الصياد
ومرأس حيث الجواد وخلفه ... مما حباه النهب حمل جواد
عدم الرباط فشده بنجاده ... وأتى معسكره بغير نجاد
فهم اللصوص وإن هم قد أوهموا ... أن ليس ما ارتكبوه غير جهاد

وبلادهم قد نالها من عارهم ... ما لم يحق في عهدنا ببلاد

عيبت فلولا السابقون ومجدهم ... وبقاء من ولدوا من الأمجاد

ومؤيد ملك أمير عادل ... أدبي بمفرده على الأعداد

وعصابة كانت قلائد فضلهم ... أبهى من الأطواق في الأجياد

لم تلف في مصر ومصر عزيزة ... من قائل هذي البلاد بلادي

إلا وقد ولى الشريف أمورها ... فلها بحول الله خير معاد

مولى له في النفع رغبة طامع ... وعن المضرة عفة الزهاد

وهو الذي يخبا ليوم كريهة ... وسداد ثغر من طريق سداد

وإذا بدا من ليل خطب رأيه ... أزرى بنور الكوكب الوقاد

ياحائز للمجد الرفيع وجامع ... الفضل الصديع وواحد الآحاد

ياجالب النعم العظام ورافع النقم ... الجسام وموئل القصاد

إلى أن قال:

بيضت بالنعماء أيامي وما ... حالت فأصبغ عرفها بسواد

وبلوتني فسرأيت مني صادقا ... ما شاب ورد صلاحه بفساد

وحميتني والنائبات ملمة ... ونصرت ضعفي والزمان معادي

وظهرت فيك بكل مدح صادق ... صرف وما جمري كمين رماد

وقد اعتذرت وما ورا متنصلي ... في القلب غير أمانة ووداد

فإذا صفوت فذاك غاية مقصدي ... وإذا رضيت فذاك كل مرادي

ياصبح كل مؤمّل بالنجح ... كل توسل يامورد الأمداد

لولاك ما أحييت ليلى ضاربا ... في الشعر بالأسباب والأوتاد

وصفا لما يجري الدموع أقله ... ويقل فيه تفتت الأكباد

فلقد هجرت الشعر لما أن رمى ... ضعف السليقة سوقه بكساد

واستامه من ليس يفرق بين ما ... يفني ويبقى عالي الإنشاد

لكن رأيتك يانصيري جامعا ... نقد البصير ودقة النقاد

فنظمته نظم الفرائد مثل ما ... نظمت لديك قلائد الأرفاد

إلى أن قال

زعموا بأن سريرتي قد كدّرت ... فلمن يصافي بالجميل يصادي

فبعثت صافي الشعر يثبت صفوها ... ولو استطعت جعلت فيه فؤادي

انتهى

وأخذ أحمد عرابى وأصحابه فى التأهب والاستعداد للقتال فأرسل فى طلب الجند وعدة الحرب من مؤن وذخيرة وسير فى طلب جماعة المهندسين وأرسل العيون الجواسيس إلى أطراف الإسكندرية ليأتونه بالأخبار وأرسل إلى القاهرة مكاتبة يقول فيها سنقاتل الإنجليز دفاعا عن الدين والوطن فعجلوا بالمدد وثابروا على الدعاء للعسكر المظفر بذلك فأرسل إليه يأمره بالإمساك عن جمع الجند وإعداد المعدات ويقول له لا خطوب قط بين بلادنا والدولة الإنجليزية وأن أمير سفن الحرب يقول أنه على أهبة تسليم ترتيب القوة الحافظة لها واستتب الأمن فيها وسأل أحمد عرابى أن يسرع رأس التين ليكلمه فى الأمر، وكان لما خرج أحمد عرابى من الإسكندرية بعد والقطوب المدلهمة ونزل كفر الدوار لحق به بعض من التف عليه من الأجانب بلانت الإنجليزى الذى سبق لنا الكلام عليه فبينما هم جالسون مع أحمد عرابى الخديوى بما ذكر فأراه إلى بلانت وشاوره فى الأمر، قال بعض الكتاب: فقبح له بمشورة الخديوى وحبب إليه مقاتلة الإنجليز حتى يذعنوا، وقال: إن الإنجليز ليس لهم منتظم يقدرعلى مقاومة العساكر المصرية وأن الدول كافة لا تترك الإنجليز وشأنهم فى ذلك فهن للإنجليز بالمرصاد فإياك وأن تخدعك ظواهر الخديوى وأمير السفن وثابر على ذلك حتى يعلموا أن فى هذه البلاد رجالا، قال وكان هذا الكلام خدعة من بلانت فاغتر أحمد عرابى وهان عليه كل خطب وكتب إلى الخديوى يقول: إنى لم الإنجليزية بجند القلاع إلا بعد أن صدر لىّ بذلك قرار مجلس الوزراء فإذا كان قد رغب الآن فى الصلح بعد انتشاب القتال فلا بأس به ولكن هذا الطلب الحرب قائمة بيننا وبينه وإنى لا أرغب عن الصلح ولكن مع المحافظة على شرف البلاد والحكومة فإذا أراد الأمير تسليم المدينة فليسملها وليعجل بسحب مراكبه عن الإسكندرية أما الأستعدادات الحربية فلا مندوحة عنها ولابد منها حفظا لشرف البلاد ما دامت القوة الإنجليزية على سواحلها ولا يمكننى الرجوع إلى الإسكندرية وألقى بيدى ما دام الإنجليز بالإسكندرية وختم كلامه بطلب سائر الوزراء إلى مقره بكفر الدوار فكبر الأمر على الخديوى ومنع من إرسال أحد إلى كفر الدوار وراجع أحمد عرابى فى ذلك فلم يلتفت أحمد عرابى إلى قوله وتجرد إلى العداوة والبغضاء وأرسل فى الحال إلى يعقوب سامى باشا وكيل ديوان الجند يومئذ يوقع بالخديوى ومن معه ويرميه بالتهم الطويلة ويصفه بالمروق وسوء النية نحو البلاد وأهلها ويقول أنه هو الذى جلب كل هذه المصائب بسوء رأيه وفساد تدبيره وأنه يطلب لذلك عقد

مجلس من علماء الأزهر ومشايخ القاهرة والوجهاء والأعيان ليروا رأيهم فى خلع الخديوى وتولية من يصلح لتدبير شئون البلاد فجمع يعقوب سامى باشا جميع العلماء والمشايخ والرؤساء الروحانيين وأرباب المناصب العالية والأعيان والوجهاء وكبار التجار وعقد مجلسا منهم فى غرة رمضان برئاسة حسين دراملى باشا الذى كان وكيل نظارة الداخلية وتلا عليهم مرسوم أحمد عرابى وكان المكان غاصا بجماهير الناس حتى السوقة والغوغاء وأسافل القوم فما أتم القارىء كلامه حتى علت الضوضاء واشتد الهرج وجعل بعض العلماء والمشايخ يقبحون ما فعله الخديوى ويرمونه بالمروق وكان بينهم الشيخ عليش المغربى الأزهرى شيخ المالكية فوقف فى وسط ذلك الجمع وقد أخذته رجفة فصاح الله أكبر الله أكبر قد خلعناه ياقوم قد خلعناه الله-أكبر على من طغى وتكبر ثم اضطرب وأخذته الرجفة فكثر عند ذلك صياح العامة فكانوا بين مدمدم ومحوقل وناطق بالشهادتين ثم اتفقوا على أن يرسلوا إلى الإسكندرية وفدا ليرى أوّلا ما يدعيه الخديوى على زعماء العصابة عموما وأحمد عرابى خصوصا وثانيا ليحقق ما إذا كان الوزراء مسجونين كما جاءت بذلك الأخبار وقد وقع اختيارهم لذلك على على مبارك باشا ورءوف باشا وأحمد بيك السيوفى والشيخ سعيد بيك الشماخى والشيخ على نايل والشيخ حمد كبوه فساروا إلى كفر الدوار واجتمعوا بأحمد عرابى وحدثوه بما جرى فسرحهم إلى الإسكندرية ومعهم نفر من الجند فلم يتمكنوا من دخولها إلا بعد شدة زائدة وتمثلوا بين يدى الخديوى وقصوا عليه جميع ما وقع فساءه الأمر ورسم بخلع أحمد عرابى من منصب الوزارة وطير الخبر بذلك إلى الآفاق وكتب إلى دار السلطنة يخبر بعصيان أحمد عرابى وأصحابه ورفع عن نفسه تبعة ما ينجم عن فعالهم من الخطر على البلاد وأهلها وكان فى هذه الأثناء قد ورد مرسوم السلطان إلى درويش باشا ومن معه بالعود إلى دار السلطنة بناء على تغير الحال ونوال سفير الإنجليز من المابين مأربا فعادوا وكأنهم عافاهم الله لم يحضروا إلا لتضرب الإنجليز حصون الإسكندرية وتحتل جنودهم المدينة على مشهد منهم وكان أحمد عرابى يعلم سر بعثتهم فلم يطع للخديوى كلمة وقد أخذ فى إعداد معدات الحرب والذخرة وبالغ فى جمع العساكر والأجناد وإنشاء القلاع والحصون على طول خط ملاحة الإسكندرية وعالج سدّ ترعة الإسكندرية ليمنع الماء عنها فلم يفلح وسير إلى القاهرة يشدّد فى طلب المؤن والمدافع وطوائف البنائين والمهندسين، وقد وصل إلى القاهرة مرسوم الخديوى بخلع أحمد

عرابى من منصبه وشاع خبره وتحدث الناس به فكادت تقف رحى أعماله وتنصرم حزمة آماله فأدرك يعقوب سامى ما وراء ذلك وجمع سائر من حضروا فى المجلس المنعقد فى غرة رمضان وتلا عليهم ما رسم به الخديوى من خلع أحمد عرابى وتنزيله فاختلفت عند ذلك كلمتهم وتفرقت أغراضهم وعلت بينهم الضوضاء وكان بينهم جماعة من كبار الضباط وصغارهم وطائفة من الجند فلما رأوا ما هو عليه ذلك الجمع من الهرج واختلاف الكلمة وأدركوا أن السواد الأعظم منهم ميال إلى خلع أحمد عرابى كما رسم الخديوى قاموا وصاحوا فى وجوه الناس وارتفعت أصواتهم بسبب الخديوى وتقبيح فعاله ونادوا القتال القتال ما دام الإنجليز فى قلب البلاد ثم أكثروا من الحركة وقبضوا على سيوفهم كأنهم يقاتلون الإنجليز فانكمش سائر الحاضرين وخافوا وتحققوا أنهم إن مالوا إلى خلع أحمد عرابى والعمل بمرسوم الخديوى أخذتهم سيوف الضباط وحراب الجند من أمامهم ومن خلفهم فقر رأيهم على استبقاء أحمد عرابى فى منصبه وتكليفه بالذب عن البلاد ما دامت مراكب حرب الإنجليز أمام الإسكندرية وعدم الالتفات إلى ما رسم به الخديوى فطير يعقوب سامى الخبر بذلك إلى الآفاق وعلم به الخديوى فأحزنه جدا ورسم ثانية بخلع أحمد عرابى وعصيانه وسير الكتب بذلك إلى القاهرة وسائر المدن والبنادر فمنع الضباط وصولها وجعلوا يجوبون البلاد ويحضون الناس على بغض الخديوى ويسمونه بالمروق عن الدين وقام الخطباء والفصحاء من أهل البلاد يخطبون فى الناس ويحضونهم على معاونة زعماء العصابة والأخذ بناصر مقدمهم أحمد عرابى وقام بعض الشعراء من أهل القاهرة يلقون الأشعار الحماسية والقصائد المهيجة من ذلك قصيدة لأحد علماء الأزهر يقول فى مطلعها:

لعمرك ليس ذا وقت التصابي ... ولا وقت السماع على الشراب
ولا وقت الجلوس على القهاوي ... ولا وقت التغافل والتغابي
ولا وقت التشبب في سليمي ... ولا وقت التشاغل بالرباب

إلى أن قال:

ولكن ذا زمان الجدّ وافى ... وذا وقت الفتوّة والشباب
ووقت ليس فيه يليق إلا الـ ... إقامة بالقلاع وبالطوابي
ووقت فيه الاستعداد فرض ... لتنفيذ الأوامر من عرابي

إلى أن قال:

وفي مصر لقد طمعوا ومصر ... بكم والله أمنع من عقاب

وقال فيها:

وقوموا بالثبات على الأعادي ... وقولوا فيهم فصل الخطاب

وإن سألوكم من بعد هذا ... فما غير المدافع من جواب

إلى أن قال:

وقولوا ياعرابي مر بأمر ... تراه فأنت ذو الأمر المجاب

ودم لوزارة لسواك تأبى ... وإن وصلت إليك بلا طلاب

وقولوا ياعرابي دم رئيسا ... لحزب النصر محفوظ الجناب

(ونظم آخر قصيدة فى هذا المعنى قال فى مطلعها):

نوال المعالي من طعان الكتائب ... ونيل الأماني من ثمار المتاعب

وقهر الأعادي بالتدبر أوّلا ... وبعد بإشهار السيوف القواضب

إلى أن قال:

ولسنا كقوم عن طريق الهدى عموا ... إلى اليوم من اضلالهم في غياهب

ومنها قوله:

ومن كعرابي في البرايا وحزبه ... أولى العزم أصحاب القنا والقواضب

وغير ذلك من الشعر والنثر شيء كثير لا يسعنا إيراده هنا، وسير أحمد عرابى جماعة من الفرسان وأخرى من المشاة إلى ناحية المندرة ووكلهم باستطلاع أخبار الإنجليز فلم يبلغوها حتى خرج عليهم جماعة من عسكر الإنجليز وناوشوهم القتال فقاتلوهم وتغلبوا عليهم فانهزم الإنجليز وولوا الإدبار فأعمل المصريون فى أقفيتهم السيف ثم عادوا فى ثانى يوم وقاتلوا حتى أجلوا المصريين عن مواقفهم فسير أحمد عرابى فى طلب المدد من المال والرجال ومد الحصون والقلاع من الرمل إلى كفر الدوار وأقام بكفر الدوار خطا عرضه ثلاثون مترا وحفر تحته خندقا فاصلا ما بين الخط والفضاء وقد جعل فى هذا الفضاء عدة كثيرة من القلاع، وكان خط الدفاع الأول مما يلى المحلة بمسافة ألف متر على طول الخط الممتد من الرمل إلى البيضاء وجعل ما وراء هذا الخط من المرتفعات والتلال مواقع محصنة إلى كفر الدوار فبلغت عدة هذه الاستحكامات والمواقع الدفاعية زهاء الخمسمائة وكذلك فى المسافة الواقعة ما بين كفر الدوار وأبى حمص وكان بين أبى حمص ومدينة دمنهور تل كبير مرتفع فحصنوه وجعلوه معقلا يقيهم عند الحاجة إذا تقهقروا إلى الوراء وعززوا دمنهور بالكثير من المدافع الكبيرة وعبوا فيها المؤن والذخيرة ومعدات الحرب وأقام فيها

جماعة من الجند ووكلهم بتسيير المؤن وتوصيل المدد إلى كفر الدوار، ورأى سيمور من استعداد أحمد عرابى وتأهبه للقتال وقطعه لجميع المواصلات مع الإسكندرية ما لم يكن يتوقعه فأرسل إلى عاصمة الإنجليز فى طلب النجدة ورسم فمدوا سلكا تلغرافيا تحت البحر من الإسكندرية إلى بورسعيد وجاءه المدد من المشاة والفرسان وأصحاب المدافع على ظهور السفن من قبرص وجبل طارق ومالطة والهند وكأنهم كانوا جميعاً على قيد فرسخ من مدينة الإسكندرية وجعلت حكومة الإنجليز تبالغ فى التأهب والاستعداد غير سائلة عما تقوله بقية الدول ولا راغبة فى مشاورتهن ولا ميالة إلى مشاركتهن وقد أعدت من المال لنفقة هذه الحرب مائتى ألف ألف وثلاثمائة ألف من الذهب وكان ما جاء إلى سيمور من الجند ألفين وأربعمائة من الفرسان وثلاثة عشر ألفا من المشاة وألفا وسبعمائة من أصحاب المدافع وثلاثة آلاف وسبعمائة ما بين خدمة المرضى وأصحاب الخدم وجيشا احتياطيا قدره ثلاثة آلاف ومائة مقاتل وكان المقدم على هذه الحملة قائدا اسمه الجنرال جارنت ولسلى وآخر اسمه أوبيا ومعهما آخرون من الأمراء والقوّاد فلما نزلت هذه الجيوش بمدينة الإسكندرية أخذوا فى ترميم ما تهدم من الجسور الواقعة على خندق الباب الجديد وما تداعى إلى السقوط من جدران قلعة كوم الدكة ونصبوا بعض المدافع على باب رشيد للدفاع عن محطة السكة الحديد ونصبوا تسعة مدافع من الطراز الكبير على قلعة كوم الدكة وبالغوا فى تحصين المدينة لمنع الواصل إليها وسارت طائفة منهم إلى الملاحة فقطعت خط السكة الحديد الموصل إلى الإسكندرية لتكون المدينة آمنة من هجوم العصاة.

ووقع بين الباب العالى ودولة الإنجليز وبقية الدول مناقشة وجدال فى أمر إرسال عساكر عثمانية أو عساكر مختلطة من الإنجليز والفرنسيس والإيطاليين إلى مصر ما استغرق الأيام الكثيرة ولكنها كلها كانت مماحكة ومراوغة فكان كل فريق من الدول ولا سيما العثمانيين والإنجليز والفرنسيس يظهر للآخر خلاف ما يبطن ويقول غير ما يفعل ثم عادت دولة الإنجليز وشدّدت على سعيد باشا مندوب الباب العالى فى تلك المفاوضة وأعلمته بأنها لا تسمح قط بأن تطأ أقدام الجنود العثمانية أرض الكنانة وأنها قد أخذت على نفسها إرجاع الحالة إلى ما كانت عليه من الهدوء والسكينة وتأييد مركز الخديوى بكل ما تصل إليه قدرتها فراجع سعيد باشا اللورد دوفرين سفير الإنجليز فى ذلك، فلما كان خامس رمضان انقطع سعيد باشا عن ملاقاة سفير الإنجليز وانكف عن مناقشته فى الأمر فجعل السفير يفكر فى ذلك فما هو إلا أن

جاءه الخبـر فى ثانى يوم بقيام سفينتـين كبيرتين من سـفن النقل العثمانية وعليـهما جماعـة كثيرة من العسكر العثـمانى وكان قيامهـما من دار السلطنة تحت جنح الليل وفيهما أيضـاً كثير من الذخيرة والمؤن ومعدات الحرب وأن قـد قام بعدهما أيضاً فى نفس تلك الليلة مـركبان أخريان إحـداهما إلى أزميـر وثانيتهـما إلى الدردانيل وفى ثالث ليلة قام غيرهن يحملن كثيرا من الجند وآلات الحرب وقامت أخرى فى خامس ليلة من الجهة المعروفة بقرن الذهب إلـى صوراباى بمياه جزيرة كريد وكانت فى نفس هذه الليلة مركب أخرى على أهبة القيام إلى جهة غير معلومة وشاع الخبر حينئذ بأن السلطان قد رسم بجعل جميع هذه القوات تحت إمرة درويش باشا وآخرين من كبار القواد العـثمانية فـتأهب هؤلاء للقيام علـى ظهر الباخرة عـز الدين إلى سلانيك ثم يسيروا مـنها ليلتقوا بالجند إمـا بمياه رودس أو مياه صـوراباى فخشى سفيـر الإنجليز عاقبة ذلك وأزعجه الخبر وسير إلى كـبير سياستهم يعلمه بالأمر فلم يكن بأسرع من أن جاء الأمـر إلى سيمور أمـيرال سفن الحـرب الراسية أمـام الإسكندرية يقول: إذا جاءتكم مراكب حرب الدولة العثمانية فامنعوا من نزول أحد من جندها بالإسكندرية وبورسعـيد وأى جـهة من الموانى المصـرية واحذروا مـا استطعـتم وأعلموا مـقدمى العساكر السلطانية مع غاية الرقـة والتلطف بأن يرجعوا فورا إلى جزيرة كريد أو إلى أى جهة يشاؤنها وإياكم والتغافل، فرتب عند ذلك سيمور مراكبه وصفهم فى سلك الدفاع وأبلغ سفـير الإنجليز خبر ذلك إلى سـعيد باشا مندوب الباب العالى فـراجعه سعيـد باشا وقال: إن السلطان رسم بتسـيير عسكره وهو يكفـل بإرجاع الأمور إلى سابق مجراها من الأمن وصفـاء الحال وسيرسم أيضاً بعصيان أحمـد عرابى واعتباره خارجا عن طاعة أمير المؤمنين فلا موجب إذا للتعرض لمراكب الدولة إذا وصلت إلى الموانى المصـرية التى هى جزء من بلاد السلطـنة فقال الـسفيـر: قد ذهبت الـفرص وطاش الغـرض ولم يبق من حـاجـة إلى شىء من ذلك البـتة وقـد سـارت الجنود الإنجليزية على جناح الطائر الميمون وما كنا نرجوه بالأمس قد أصبح عندنا اليوم أمرا مقضـيا فراجعـه سعيد باشـا فلم يقبل، فقال له: قـد قبلت الدولة سائر مقـترحات الدول بشأن إرسال العساكر السلطانية وبسائر الحدود والاختصاصات التى حددتها لها بالديار المصرية وصرحت بقبولها جميع ما ترى لزوم إجرائه أيضاً لإرجاع الأمور إلى ما كانـت عليه فقال السـفير: لا سبـيل إلى ذلك وقد نفذ المقدور فكبـر الأمر على السلطان واستعظمه للغاية وارتبكت أحـوال الباب العالى وكثر توارد الجنود الإنجليزية

على مدينة الإسكندرية وقدم إليها فى خامس عشرى رمضان الدوق أوف كانوت ثالث أولاد ملكة الإنجليز وهو أحد مقدمى العساكر وأخذوا فى تحصين بعض القلاع والحصون وتعبية المؤن والذخيرة ثم جعلوا يناوشون العساكر المصرية عند كنج عثمان وحجر النواتية وكفر الدوار مناوشة خفيفة ونشر ولسلى مقدم العساكر الإنجليزية منشورًا يقول فيه، لم تأت الجنود الإنجليزية إلى هذه الديار بقصد الغزو أو فتح البلاد وإنما حضورهم لردع العصاة وإيقاف تيار الفتنة إلى حد إرجاع الهدوء والسكينة إلى سابق مجراهما وتأييد سلطة الخديوى جهد الاستطاعة، ثم رسم فألقوا بأوراق من هذا المنشور فى مواقع المصريين ليعلم الضباط ما فيها فالتقطوا منها شيئاً كثيراً.

ولما كان خامس شوال انتشب القتال ما بين طليعة العرابيين وبعض الجنود الإنجليزية عند كفر الدوار وطال زهاء الساعتين ثم انجلى عن هزيمة العرابيين فباتوا ليلتهم تلك وأصبحوا يقاتلون فكانت الحرب بينهم سجالا وبالوا وأصبحوا فاقتتلوا قتالا عنيفاً فأظهر العرابيون بسالة زائدة وكادوا يستظهرون على الإنجليز فطلب مقدمهم المدد فجاءه على قطارات السكة الحديد من الإسكندرية واشتد الرمى من الجانبين بالقنابل والرصاص شدة بالغة ثم افترقوا وقد تحرز كل فريق فى موقفه وكان مقدم العرابيين فى هذه المواقع طلبة عصمت وأصبحوا ولم يتقدّم الفريقان لقتال وكانت أخبار الحرب والقتال تأتى إلى الإسكندرية والقاهرة على غير حقيقتها منقولة عن الفلاحين والعربان وضباط الجند ومقدمهم طلبة عصمت فلم يحلها عقلاء الناس محل التصديق ولم يعيروها جانب الألتفات، ونزل من كان على ظهور السفن الراسية أمام الإسكندرية من الأجانب على اختلاف أجناسهم إلى المدينة ودارت رحى الأعمال فى دواوين الحكومة وباشر أرباب الوظائف وظائفهم على قدر الاستطاعة فعز عند ذلك المأكول ونفد ما كان موجودا منه ببعض الحوانيت واشتد الجوع بالناس ثلاثة أيام خرج فيها صغار الناس على اختلافهم إلى رحبة سراى رأس التين وهم يضجون ويعجون فهال الخديوى أمرهم ورسم بإطعامهم وشدد فى ذلك فرتبوا لهم مشارد الثريد بالأرز واللحم مرتين فى كل يوم وكان الخديوى يلاحظ إطعامهم بنفسه وهو مشرف عليهم من مجلسه وشدد الإنجليز فى المحافظة على المدينة فكانت الجنود تطوف فى النهار والليل ومنعوا من خروج الناس من بيوتهم بعد غروب الشمس إلا من كان معه كلمة سر الليل وهى كلمة كان يتفق عليها فى غروب كل ليلة ليعبر بها من يتلقاها وكانوا يقبضون على كل من يرونه سائرا بغير مصباح ولو كان يعرف سر

الليل وأفحشوا فى رمى الناس بالرصاص لأقل سبب وكان إذا رأى أحد المرابطين أحدا فى الطريق بعد الغروب نادى عليه بكلمة (هلت) ومعناها قف فإن لم يجبه على الفور بكلمة (فرند) يعنى صاحب أو رفيق رماه بالرصاص فيسقط ميتا وإذا رأوا مارا بحارات المنشية أو غيرها من جهات الحريق ظنوه يلتقط ما بقى من المنهوبات فيقتلونه فى الحال برمى البنادق فخاف الناس واستوحشوا وامتنع خروجهم قاطبة فكانت شدة عظيمة ووحشة بالغة، وتقدم إسماعيل راغب باشا إلى الخديوى فى قبول خلعه نفسه من منصب رياسة الوزارة فقبل منه ذلك ورسم إلى الوزير محمد شريف باشا بتشكيل وزارة أخرى مع قبوله هو مسند الرياسة فأذعن وأطاع، وكان لما طير البرق الخبر إلى الديار الأوروباوية بخروج عرابى وأصحابه عن طاعة الخديوى وإشهاره الحرب على الإنجليز وبقاء الخديوى مع كبار الدولة وحاشيته بمدينة الإسكندرية وكان مصطفى رياض باشا يومئذ بإحدى مدن الفرنسيس فارا من وجه زعماء العصابة على ما تقدم بيانه فى محله عاد من فوره إلى الإسكندرية وتمثل بين يدى الخديوى مسترحما فعفا الخديوى عنه ورسم له بتولى نظارة الداخلية ووردت الأخبار بذلك إلى القاهرة فلم يحفل أصحاب الزعامة بها ولا أحلوها محلا وجدوا فى إرسال المدد إلى كفر الدوار وهم يشيعون فى كل يوم أخبار هزيمة الإنجليز ووقع الموات فيهم وسير أحمد عرابى إلى المديرين والمحافظين فى طلب حشد الجند من خفراء البلاد وتسييرهم إلى مواقع التل الكبير وفرض على كل مديرية عددا فكان ما خص البحيرة ألفا ومائة واثنين وسبعين والقليوبية ألفا وثمانية وثلاثين والشرقية ألفين وسبعة وسبعين والغربية ثلاثة آلاف وأربعمائة وخمسة وثلاثين والدقهلية ألفين وستمائة وخمسة وستين والجيزة ألفا وثلاثمائة وخمسين وبنى سويف ستمائة وخمسة وتسعين والفيوم ثمانمائة وثلاثة وستين ومنية ابن خصيب ألفا وسبعمائة وثمانية وثلاثين وأسيوط ألفين وثلاثمائة وخمسة وأربعين وجرجا ألفين ومائة واثنين وستين وقنا ألفا وستمائة وعشرة وإسنا ألفا وأربعمائة واثنين وستين فكان جميعهم خمسا وعشرين ألفا فاهتم بعض المديرين بهذا الطلب وبالغ فى الاهتمام وتراخى البعض الآخر ولم يحفلوا به لما يعلمونه من سوء العاقبة وسوء المصير وجاءت الأخبار بذلك إلى أحمد عرابى وهو على حصون كفر الدوار فكبر عليه الأمر واستعظمه وعاود الطلب وشدد وهدد وقام الخطباء من أهل البلاد فى المساجد يحضون الناس على الجهاد ودفع العدو وأكثروا من الأرجاف والتهويل وقام بمدينة أسيوط رجل اسمه

الشيخ على المليجى فجعل يحض الناس على الغزو والجهاد ويستفزهم إلى التطوع فى سبيل طاعة أحمد عرابى وخطب فيهم يوما يقول:

الحمد لله الذى جعل أمة محمد ﷺ خير الأمم، وعوّدها العناية والنصر إذا العدوّ بها ألم، لا إله إلا هو لا عز لنا إلا به إلى يوم الدين، فهو المختص بإعانة من هاجر فى سبيله وكلف عزمه وسمعه، لقوله تعالى ﴿**ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الأرض مراغما كثيراً وسعة ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله إن الله لا يضيع أجر المحسنين**﴾، ونحمده سبحانه وتعالى على ما أولانا من النعم، ونتوب إليه من جميع الآثام إذا الجرّ بها القلم، ونسأله اللطف والإعانة على الكافرين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، المتعالى عن المشاركة والمشاكلة، وعن أن يحتاج لمشارك له فى إعانة من خرجوا من بلادهم متطوّعين، وأشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله، وذروة سنام المجد وتاجه وإكليله، رسول خصه الله بالعناية والفتح المبين، اللهم صل وسلم على هذا النبى العظيم، والرسول السيد السند الكريم، سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه كلما برق بارق النصر للمؤمنين وبأن أثر الذل على الخائنين، وسلم تسليما كثيرا.

أما بعد فياعباد الله لا خفاء أنه قد مرت بنا فى الزمن السالف أيام غير صافية العيش للمسلم، وما ذلك إلا لعدم الحمية الإسلامية فى حكامه الذين كانوا كالليل المظلم، إذ كانوا منهمكين فى ميدان حظهم الدنيوى وعن الدين غافلين، والآن قد ظهرت البشائر بعز المسلمين وسطوتهم، إذ قد اعتدل حكام الوقت أيدهم الله بالأخذ فى أسباب قوة الدين ورد ما ضاع من شوكتهم، وصاروا باذلين الهمة فى التوصل لما يبعد الأمة عن التشويش ولما يكونون به آمنين، إذ قد شرع رئيس المجاهدين المؤيد بنصر ربه فى مدافعة من كانوا فى تشويش الأمة أول سبب، وباع نفسه هو وجيشه للجهاد فى سبيل الله ولم يبال بمشقة ولا تعب، كل ذلك لحفظ الوطن وإعلاء كلمة الدين، فطوبى لقوم باعوا الحياة الدنيا وشروا الآخرة ولم يكن لهم مطمح نظر سوى النصر من رب العالمين، واعلموا عباد الله بأن الله تعالى أمرنا فى كتابه المجيد بالقتال وأوضح لنا أمره، فنعم السيد الآمر ونعم من امتثل أمره، وتأمل فى قوله تعالى: ﴿ **يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة واعلموا أن الله مع المتقين**﴾. فالمسلم العاقل من اكتفى بأمر مولاه، واشترى آخرته وباع دنياه فى سبيل الله، وتباشر بقوله تعالى: ﴿ **فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا**

مائتين وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن اوا مع الصابرين﴾ فاقبلوا عباد الله واخلعوا عنكم ثياب البخل والكسل، وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله قبل اقتراب الأجل، وزوّدوا أنفسكم التقوى وأعرضوا عن المتقاعدين، فمن الواجب الآن على غنينا القاعد بذل الهمة فى الإنفاق على من تبرع بنفسه لدفع الأعادى، وصارت شهامة الإسلام على وجهه وجميع أعضائه تنادى، وجعل قوّته قوله تعالى: ﴿ثم ننجى رسلنا والذين امنوا كذلك حقا علينا ننجى المؤمنين﴾ فمن لم يقنع الآن وبعد الآن بما سمعه فهو منافق، ومن دين الحق مارق، وغافل عن قوله تعالى: ﴿فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين﴾ قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى قال: من انتدب خارجا فى سبيلى غازيا ابتغاء وجهى وتصديق وعدى وإيمانا برسلى فهو ضامن على الله عزّ وجلّ إما أن يتوفاه فى الجيش بأى حتف شاء فيدخله الجنة وإما أن يسيح فى ضمان الله وإن طالت غيبته حتى يرده الله إلى أهله مع ما نال من أجر أو غنيمة وعلى الله قصد السبيل». وجاراه فى ذلك أيضاً آخر اسمه الشيخ محمود إبراهيم من أهالى أسيوط فخطب يقول ـ حمدا لمن جعل أعلام الملة المحمدية، على كواهل أعلام الأمة العربية، وحرسها بشهب ثاقبات، لرجم شياطين أهل البغى والغوايات، وصلاة وسلاماً على من كان إذا أراد غزوا ورّى به، ليتأهب ذو الهمة فيتوجه بصادق آرائه، وعلى آله الذين أقاموا أنفسهم أسوارا لحرمة الدين، ومن تبعهم فى المحاماة من كل حر لعرضه يصون (أما بعد) فإن الإنجليز قد طاشت عقولهم، وعميت بصائرهم، فلم يحسنوا الضروريات فساموا بسوق أموالنا وديارنا نفيسها، وساقوا إلينا من زيف المعارضات خسيسها، وقابلوا عيشنا بخداع، وفتشوا أكنافنا لغدر أضمروه ليوم النزاع، ونحن لما جبلنا عليه من محاسن الإيمان، وفينا لهم بعقد الذمة والأمان، فعاملناهم بالحسنى، وجبرنا ما كان منهم ضعفا ووهنا، فلما صحت أبدانهم، وعمرت أوطانهم، لم يقنعوا بذلك، بل طلبوا التصرف فينا تصرف المالك، فعاد عليهم سوء الحال بالانقلاب، فخربوا بيوتهم بأيديهم من غير زعزعة منا ولا اضطراب، وهكذا خاتمة أهل السوء والفحشاء، والله يؤيد بنصره من يشاء، حيث أقام ناظرا بعين الشرع ناظر، لم يخش فى الله لومة لائم أو زجر زاجر، فقابل كتائب الضلال، وأذاقهم كأس النكال، وقام خطيبنا يدعو إلى دعوة الحق، إذ كان من أم الكتاب بها فى عصرنا هو الأحق، فلباه أناس باعوا أرواحهم للجهاد، فى قطع جيش الضلالة والعناد، فأقبلوا إليه من كل فج عميق أفواجاً،

بالمال والنفس فرادى وأزواجاً، فعند ذلك دهى الإنجليز ما دهاها، حيث لم يكن فى حسابها ما عراها، فنسأل الله أن يكون سعادة أحمد عرابى باشا هو المشار إليه بـ (يبعث الله على رأس كل مائة سنة) فإن البشائر دلت عليه، حتى يمزق الباغون كل ممزق، ويحيا المندوب والمفروض بهذا الموفق، وتموت البدع التى اسودّ القطر بظلمائها، ويختفى شارق الظلم بأرجائها، فحاشا أن يجعل الله ديار أهل بيت نبيه فى ذمة كافر، جعل الله سعادة أحمد عرابى باشا وجنده الظافرين بأعدائنا فى المبدأ والآخر آمين.

وجاء الأمر إلى سيمور البحر بعد وصول ولسلى مقدم العساكر البرية كما تقدّم القول فرحل سيمور بسفنه عن الإسكندرية إلى بورسعيد وألقى مرساها أمام المدينة على هيئة الدفاع وبقيت سفن النقل أمام الإسكندرية وكان لما وصل سيمور بسفنه إلى بوغاز بور سعيد رأى هناك سفينة حربية صغيرة اسمها الصاعقة راسية أمام المدينة فتخوف سيمور منها وقد جاءه الخبر بأن فيها من الديناميت والمواد الالتهابية ما يكفى لسد البوغاز فى أسرع من لمح البصر وأن ربانها من أحب الناس إلى أصحاب الزعامة فتحرز سيمور منها وباتوا ليلتهم تلك وقد قضى ملاحو الصاعقة ليلتهم فى جلبة وحركة فلما أصبحوا أرسل سيمور إلى الربان يقول: ما هذه الحركة وما داعى تلك الجلبة وقد شوشتم علينا وأقلقتمونا فقال الربان: هى حركة لابد منها أمام السفن الأجنبية، فأرسل إليه ثانية يقول: كف وإلا ألحقتك والمركب إلى قاع البحر وارع حرمة سفن الحرب الإنجليزية ما دامت على قدم الاستعداد فانكمش الربان وخاف، وقدمت إلى بورسعيد بعض الطرادات الأفرنسية والألمانية والإيطالية تخفر السواحل يمنة ويسرة وحضرت مدرّعة كبيرة إنجليزية اسمها أوريون ورست أمام البوغاز فمانع أصحاب البوغاز من الفرنسيس فى دخولها فبقيت أياما ثم دخلت وسارت حتى رست فى بركة التمساح وكان فيها من الضباط مائة واثنان وأربعون ومن العساكر والأجناد عدد كثير، قيل وكان من أخص عمل هذه السفينة الوقوف أمام القنطرة بعد قطع خط التلغراف الموصل إلى دار السلطنة، ثم عدلت عن قطعه وعادت فألقت مرساها أمام مدينة الإسماعيلية، وكانت الحرب إلى هذا الحين قائمة ما بين العرابيين والإنجليز عند مواقع كفر الدوار والمواقع الأمامية بلا انقطاع حتى أتت الأخبار إلى أحمد عرابى بوصول مراكب الحرب إلى مدينة بورسعيد ونزول جيوش ولسلى بمدينة الإسماعيلية فسار من كفر الدوار إلى التل الكبير ومعه جماعة

من الضبـاط وطائفة من الحـرس فلما وصل قطاره إلى مـدينة الزقازيق خف لـلقائه العمـد والأعيان والمشايـخ وأرباب الطرق والأشاير وموظفـوا الحكومة فنزل بالمحطة وعلى يمينه عبد الله صاحب الطائف وجلس بالكشك المقـابل لها فاجتمع عند ذلك زعانف الناس حول الكشـك واشتد زحامهم وعـلا الضجيج وكثر الصـياح بكلمات وعبارات قـد لفقوها على قـدر عقولهم من مثل العـسكر فى الطوابى، الله ينصرك ياعرابى، يامولانا ياعـزيز، أهلك عسكر الإنجليز، ياسيمـور ياوش القملة، من قال لك تعمل دى العـملة، وغير ذلك من بذىء القـول وفحش الكلام ولبث على هذا الحال برهة ثم قـام ودخل عربة القطار وهو ينادى أنا لها أنا لها والنـاس فى ضجيج زائد والغوغاء يصفقـون بأيديهم ويضربون الأرض بأرجلهم فـسار به القطار إلى التل الكبير على عجل وجعلوا من هذا اليـوم يتابعون إرسال المؤن وآلات الحرب إلى التل الكبير وتوارد الجند من مـشاة وفرسان وأصحاب المدافع وكثـر الوارد منهم فتعطلت قطارات السـفر من الإسمـاعيليـة والسويس وهاجـر من السـويس من رجـال الدولة وبعض الأهالى وأجهد الجند الطاقة فى إنشاء الحصون والمعاقل وأقاموا المتاريس على مسافة وجمعوا الكثير من أهل البلاد لهذا العـمل ورتبوا المقدمات وبالغوا فى تعبئتها وعالجـوا قطع الماء الحلو عن الإسماعـيلية والسويس وتبع العـسكر كثير من السـوقة وأصحاب الـصنائع الدنيئة مثل الإسكافـية والقهوجـية والسمكرية والخيـاطين وباعة الأفيون والمكيفات ونصبـوا لهم المطاول وعملوا النايات والعشش من القش والبوص وغير ذلك فـأصبح ذلك الصعيد آهلا بأصناف الناس وكـانت لما رست تلك السفينة الإنجليزية أمام مدينة الإسـماعيلية تصدّت إلى سائر ما وجـدته هناك من بقية السفن على اختلافـها ومنعت وقوفها أمـام المدينة وشددت على أصحابها وضـيقت فرحلوا عنها وهم صاغرون وخلا لها الجوّ فلم يمض إلا النصف الأول من تلك الليلة حتى قامت فى المدينة حـركة شديدة للغاية وضـوضاء وجلبة، ثم اشتـد بعد ذلك إطلاق البنادق وجر المدافع وزحف الجند فـهب الناس من مضاجعهم مـذعورين وكأن على رؤوسهم الطير ونظروا وإذا العساكر الإنجليزية قد ملأت الفضاء وهم فى حركة زائدة كأنّ العـدوّ يهاجمهم ثم لم يمـض على ذلك إلا ساعة أو بعض ساعـة حتى دوت أصوات المدافع من تلك السفينة وسفينة أخرى جاءت فرست بجانبها اسمها كارليفور واشتـد الرمى وتراسلت القنابل على مواقع العـرابيين بناحيـة نفيشة ومـا زال الحال هكذا طوال الليل فلمـا أشرقت الشمس سكتت المدافع وخـرج جماعـة من الإنجليز

قاصدين قرية العرب فلما رآهم أهلها مقبلين خرجوا على وجوههم هائمين فأخذتهم نيران البنادق من كل جانب لا سيما منهم النساء والأطفال ثم قطعوا سائر خطوط التلغراف القائمة ما بين السويس والإسماعيلية والقاهرة فاشتد الخوف بأهل الإسماعيلية من الأجانب والأهلين ونزحَ الكثير منهم إلى بور سعيد والمنزلة والمنصورة وغيرها ووصل إلى الإسماعيلية سيمور أمير سفن الحرب وولسلى مقدم العساكر البرية وكثر توارد المؤن وآلات الحرب ودواب الحمل من الجمال والخيل والبغال على ظهور السفن والشوانى واشتدت الحركة بزحف العساكر وجر المدافع وتحميل الأثقال، قيل: فأخذت أحمد عرابى وأصحابه الطيرة واشتد بهم القلق وقد كانوا على عهد مع ديلسبس فاتح خليج السويس بأنه لا يمكن سفن الإنجليز من العبور والوصول إلى مدينة الإسماعيلية فكتب أحمد عرابى إلى المابين الهمايونى كتابا يقول فيه: كنت قد بسطت لعطوفتكم قبل الآن أمر اعتداء الإنجليز وتسلطهم فى جهتى السويس والإسماعيلية على الترعة ومخالفتهم للعهود بما جاء مخلا بنظام الترعة وبسطت أيضاً ما كان من الهمة التى بذلناها فى جعل الترعة على الحيادة لأنها نقطة وحيدة لاجتماع منافع الأمم وممر تجارة العالم أجمع وحيث قد قرب الآن توجه المحل الشريف والحجاج المسلمين إلى جهة الحجاز كتب إلى المسيو ديلسبس الموجود الآن فى الإسماعيلية بالاستفهام عما إذا كانت إنجلترا تمانع فى مرور عساكر المحافظة المعتادة على التوجه مع المحمل الشريف أولا فأجاب وكالة الجهادية بالتلغراف، قائلا: إنه بالنظر إلى الأحوال الحاضرة لا يمكنه أن يأخذ على نفسه تبعة إرسال المحمل الشريف قال وبعد ورود هذا الجواب منع الإنجليز جميع سفن الدول الحربية من المرور بالقنال وقطعوا الأسلاك البرقية الكائنة بين السويس والإسماعيلية كما عرفنا ذلك بالتلغراف ثم أدخلوا سفنهم الحربية مع العساكر بأسلحتهم وقد أجرينا الاحتياطات لمقاومة العدو إذا تقدم إلى داخلية البلاد وكان قومندان الخط الشرقى ومحافظ الإسماعيلية ويوزباشى المستحفظة هناك قد أفادوا أن من عزم الإنجليز أن يطلقوا مدافعهم على النقط العسكرية الكائنة فى مداخل البلاد ففى هذا الصباح علم من الأخبار الواردة أن الإنجليز شرعوا فى الساعة التاسعة من ليلة أمس فى إطلاق القنابل من جهة الإسماعيلية على نفيشة أما نحن فبالنظر إلى احترامنا لعهود الترعة بأن تكون على الحياد وإلى عدم تقويتنا لتلك النقطة وعدم وجود قوة عسكرية تقوم بشأن المحافظة على النقط فيما عدا نقط العساكر المستحفظة وموالاة التحريض الشديد

على عدم مس حقوق الترعة كل ذلك جعلنا فى مأمن تام من تحمل أى تبعة كانت.
ولما بدا من الإنجليز هذا الاعتداء على ضفاف الترعة أقام المسيو ديلسبس الحجة على الأميرال الإنجليزى وأرسل صورة الحجة بالتلغراف إلى الحكومة الفرنساوية فاتصل خبرها بوكلاء الدول فى عاصمة الحكومة المشار إليها فأعلموا بها دولهم بصفة رسمية أما الإنجليز فسيرا منهم على حكم المثل السائر «البادى أظلم» لم يلتفتوا إلى إقامة الحجة بل أصروا على الإخلال بنظام الترعة وفى هذا الشأن أرسل تلغراف إلى المسيو ديلسبس بما يأتى «بما أن الإنجليز خرقوا نظام حيادة الترعة فقد صارت مصر مضطرة إلى سدها وتعطيلها منعا لاعتداءتهم فإذا لم يرد لنا جواب فى مدة أربع وعشرين ساعة اضطررنا إلى اتخاذ الاحتياطات اللازمة للمدافعة» ـ قال ـ فمن التفاصيل التى تقدم سردها تعلمون أن الدولة الإنجليزية التى كانت متخذة لها مقاما خطيرا لدى الخلافة الكبرى وفى دار السلطنة العظمى وكانت تزعم أنها أشد الدول محافظة على السلام وأنها لا تحارب مصر ولا تقصد بها شرا قد أوقعت المسلمين فى إشكال عظيم ومن التعدى الذى قامت به أمس ظهر فى الواقع أنها تتظاهر بخلاف ما كانت تزعمه سابقا وتحقق أيضاً أنها مقاومة لجميع المصريين الأمة الخاضعة للدولة العثمانية، وأنها داست بأرجل المطامع منافع جميع الدول ولم تخش أحدا ورمت بنار الحرب والقتال إقليما عظيما فبما أن أعمال الإنجليز وصلت إلى هذه الدرجة لم يعد فى الإمكان أن نتراخى فى اتخاذ الوسائط الموصلة لدفع كيدهم وأما النتائج الوخيمة التى ستترتب على ذلك فستكون عائدة على المعتدى الظالم وقد بسطت فيما مضى شرح الأحوال التى كانت جارية يوم تدوينها وإرسالها فلكى يكون ما أعقبها غير خاف على شريف علم ظل الله بادرنا إلى كتابتها وتقديمها لنادى عطوفتكم . اهـ.

وكان أحمد عرابى وأصحابه يعلمون أن دخول عسكر الإنجليز إلى جوف البلاد سيكون من هذه الأرجاء الواسعة ولا سيما من جهة الصالحية فعقد مجلسا من جميع الضباط وكبار العصابة وتكلموا فى هذا الأمر ثم استقر رأيهم على تجييش قوة ثالثة يكون مركزها الصالحية وسيروا فى طلب ما جمعوه من خفراء البلاد بالجهاد القبلية والبحرية وألبسوهم الدرعيات من البفتة البيضاء ولبد الصوف عوض الطربوش وسلحوهم بالبنادق والقرابينات على غير دربة ولاخبرة وجعلوا المقدم عليهم على الروبى أحد زعماء العصابة وساقوهم إلى الصالحية فعسكروا بها وعملوا بعض الخطوط والمتاريس وخرج معهم محمود باشا البارودى متطوعاً يريد الغزو والجهاد فى

الإنجليز، وكان أحمد عرابى قد أعد لنفسه بالتل الكبيـر خيمة سعيد باشا ابن محمد على الكبير وهى من عجائب الخيام التى قلّ أن يكون لها مثيل، وأقام بها بين الخدم وطوائف الحرس كـأنه فى عرس أو وليـمة فجـاءه جميع العلمـاء والمشايخ والعـمد والأعيان ووجهاء البلاد للسلام وهاداه عمـد ومشايخ سائر البلاد بالهدايا من السمن والأرز والعسل والدقيق وعجول البقر وفحول الجاموس والضأن لطعامه وطعام الجند المحاربين معه وأكـثروا من إرسال الحلوى والفاكهة على اختـلافها فكانت تأتى إليهم على قطارات السكة الحديد، وكـان لما ذاع الخبر بما عليه المحـاربون من الراحة ورغد العيش تطوع الكثـير من أرباب الطرق والأشاير والمتعـممين وأصحاب العـكاكيز من سائر البلاد القبلية والبحرية وسار من منيـة ابن خصيب إلى مواقع التل الكبير الشيخ عبد الجواد ومن اليـمون الشيخ الجنيد فى لموم كثيرة وطبول وزمـور وكاسات وبيارق فأنزلوهم فى ناحـية أعدت لهم فكان لا هم لهـؤلاء القوم البتة سـوى طلب المأكول والمشروب فى الأوقات الثلاثة فإذا أكلوا وشـربوا وامتلأت بطونهم من الثريد واللحم المسلوق وجحـظت عيونهم عـقد كل طائفـة منهم مجلسا كـما يسـمونه فيـذكرون ويرطنون بكلمات لا معنى لها البـتة ويصيحون وينادون مدد مدد فإذا اشـتبك القتال بين الجند والإنجليـز واشـتـدّ رمى المدافع والتـقت نيـران البنادق بالبنادق صـاحـوا وترامحوا ونادوا ياسيد يابدوى يا أبا عبـد العال يا آل البيت يارجال الله ثم لا يلبثون أن يختـفـوا عن الأبصار، فـإذا بطلت الحـرب عادوا إلى حلقـات الذكر وتكلمـوا برطانتهم ثم يقولون قتلنا من الكفار كذا وذبحنا بحد السيف كذا وكذا ولا نزال بهم إن شاء الله حتى نأتى على آخرهم ببركة آل البيت وكذلك كان يفعل جماعة العربان الذين كانوا بالصالحـية مع معسكر على الروبى عند النداء فـى العسكر بالخروج إلى القتال.

وبينما كانت الحال على ما وصفنا فى مواقع التل الكـبير وكفر الدوار والصالحية كان العامـة بطنطا ودمنهور والمحلة الكبرى يفعلون مـا لا يوصف من النهب والقتل والعربدة ويكثرون من التطواف ليلاً ونهاراً جماعات وبأيديهم العصىّ والمساوق وهم فى ضجـة وجلبة وصـياح يـامولانا ياعـزيز أهلك عـسكر الإنجـليز وغيـر ذلك من العبارات التى لفقوها، حدثنى من شـاهد، فعال العامة بمدينة طنطا ورآها رأى العين بعد كلام قال: ولم أتجاوز البيت يعنى بيـته حتى رأيت البلد يضج بالغوغاء وصراخ النساء والأطفال وتجـمع الناس فى الأزقة والشوارع يدفع بعضهم بعضـا فسألت عن السـبب فـقـيل لى أن الحرب عـلى أبواب البلد وقـد ثار المسلمـون على النصـارى

يذبحونهم وينهبون بيوتهم ويسبون نساءهم وأولادهم فقلت فى نفسى فتنة ورب البيت وأسرعت إلى مقر ديوان المديرية فرأيت أمامه من المناظر المحزنة والمشاهد الموجعة ما تنفطر منه الأكباد فقد كانت الناس تقتل وتجر من أرجلها على الأرض كالبهائم المأخوذة إلى السلخ بعد الذبح وكان الغوغاء وخفراء الديوان يحملون العصىّ والمساوق ويوقعون العطب بكل من يمر عليهم من النصارى ولا يرفعون أيديهم عنه حتى يقضى عليه، وكان بعد موته على هذه الحالة الشنعاء يستلمه جماعة آخرون، فمنهم من يجره من رجليه، ومنهم من ينزل على رأسه بالهراوة حتى تتطاير أجزاؤه . اهـ.

وحدثنى أيضاً من شاهد ما وقع فى نفس ذلك اليوم بالمحلة الكبرى بعد كلام قال: وقد كنت فى سوق السلطان وكان الوقت بالغا إذ ذاك من النهار حدّ الساعة السابعة إذ أقبل من ناحية القنطرة جم غفير من الحمارة والسوقة وكلهم من السفلة والرعاع وفى أيديهم العصىّ والمساوق وبعض الآلات الجارحة والنارية وهم فى ضجة وجلبة عظيمة وكلما مروا بحارة أو زقاق انضم إليهم أهله من أصحاب البطالة حتى اقتربوا منا فسمعناهم ينادون ياتجار اقفلوا حوانيتكم لأن النصارى جعلوا يقتلون المسلمين على القنطرة فعند ذلك سارعنا إلى النهوض وقصدنا بيوتنا خوفا على العيال، وكان معنا فى هذا الحين حسين أفندى سامى مأمور تاريع المديرية فأبى الذهاب إلى بيته وقال: حتى أرى ما أصاب المسيو كجروس مفتش تاريع المحلة فذهبنا معه وقبل أن نصل إلى بيت ذلك المفتش سمعنا الغوغاء يقولون: يامسلمون اقتلوا النصارى وانهبوا بيوتهم كما أمر ضابط البلد، ووصلنا إلى بيت المفتش فوجدنا بابه مغلقا وعليه جماهير العامة وأصحاب الفتنة يريدون كسره واقتحام البيت لنهب ما فيه وقتل المفتش ومن معه فصاح فيهم حسين سامى وفرّق جموعهم ودخل على المفتش وهدّأ روعه وسكن جأشه وسار الأهالى رجالا ونساء وأولادا وهم يصيحون الله أكبر الله أكبر ويهجمون على الخانات ودكاكين التجار وينهبون ما فيها من مأكول ومشروب وملبوس ومفروش واستمر الحال على هذا الوصف إلى قبيل الغروب قليل وقد قتل تسعة رجال منهم ستة من الروم وثلاثة من مهندسى التاريع الأجانب، وقد كانوا مقيمين فى ناحية الشون الكبير وكان لأحدهم زوجة ولآخر ثلاث بنات أبكار وغلام وحماة التجؤا كلهم إلى بيت محمود أفندى منجد مأمور مركز سمنود فآواهم وذب عنهم جهد الاستطاعة ـ قال ـ وقد أحرقت العامة بعض القتلى بنار البترول وألقوا البعض الآخر فى البحر ومنهم من دفن فى تل الواقعة. اهـ.

(قلت): وكانت فعال العامة بالقاهرة أيضاً بالغة حدّ الجفاء والشدة ولكن لم يقع شيء من القتل ولا النهب ليقظة صاحب الشرطة إبراهيم فوزى بيك وتطوافه فى الشوارع والأزقة والحارات ليلاً ونهارا وقد رأيت جماعة منهم يوما يطوفون وبينهم حمار وعلى ظهره كلب أسود وعلى رأس الكلب قبعة (برنيطة) بالية والكلب فى غاية الخمول والكسل كأنه أطعم شيئاً من المخدّرات كالحشيشة ونحوها ولسانه قد تدلى من شدة الظمأ والتعب وهم يصيحون حول بياسيمور ياوش القملة من قال لك تعمل دى العملة، وما زالوا على هذه الحال من التطواف إلى وقت الهاجرة ثم أتوا إلى قشلاق جند الحرس الخديوى برحبة عابدين فلما صاروا أمام الباب تقدم أحدهم نحو الكلب وألقاه عن ظهر الحمار وذبحه بسكين كانت معه ذبح الشاة، فصاح عند ذلك الجمع صياحا متتابعا الله الله قطع الله رأس سيمور قطع الله رأس سيمور يريدون سيمور أمير مراكب الحرب وهكذا كان شأنهم مع الكلاب فى كل يوم حتى انكمشت واختفت عن الأبصار ولجأت إلى مواقد الحمامات وخرائب المدينة وكان إذا ظهر واحد منها ونادى عليه أحد الصبيان باسم سيمور انذعر وترامح واختفى عن الأبصار فرارا من الموت وكأن الكلاب قد أدركت بملكة التمييز (أى الغريزة الحافظة لنوع الحيوان) ما وراء كلمة سيمور من لبس القبعة والتطواف على ظهر الحمار ثم قطع الرأس أقول: والشيء بالشيء يذكرحدثنى صاحب لى، قال: حدثنى أبى رحمه الله وقد كنت أقص عليه يوما فعال العامة بالكلاب فى تلك الأيام فتبسم وقال: ليس فى الأمر ما يدعونى إلى الاستغراب من تلك الحيوانات الداجنة فقد أتى إلى القاهرة على عهد محمد على باشا الكبير أمير من أمراء الإنجليز ومعه زوجته للتفرج على آثار الديار فأقام بالقاهرة ما شاء يتجول فى شوارع المدينة ويتفرج على ما فيها من الدور والمبانى والمساجد والمعامل وكانت يومئذ كثيرة إلى أن سار يوما إلى ناحية الحسينية والدمرداش ومعه زوجته وكان زىّ ملابس الأمراء فى ذلك الحين قبعة طويلة سوداء وسراويل ضيقة وكساء مخروطا من الأمام ولفافة حول العنق، وكان كساء النساء فستانا تحته آخر بأسلاك الحديد على شكل قبة الهواء وقبعة كثيرة الأقمطة والأربطة فلما وصلا إلى ناحية الحسينية عرّج بهما ترجمانهما إلى ناحية المذبح ليروا كيفية الذبح فى هذه البلاد وكان أمام المذبح كثير من الكلاب الأشداء كأنها الوحوش الكاسرة فلما رأت هذه الهيئة الغريبة والزى البعيد عن عادة أهل البلاد قامت على الأمير وزوجته قومة واحدة فذعرتهما ومزقت ملابسهما فتداركهما أهل تلك الخطة

وخلصوهما فعادا إلى المدينة ولبثا ما شاء ثم عزما على الرحيل عن مصر فذهبا لوداع محمد على باشا فلاطفهما وحادثهما ساعة وسألهما عما أعجبهما فى البلاد ـ قال: وكان محمد على باشا شديد الرغبة فى تقدم البلاد وإيرادها موارد العز والرفاهية ميالا إلى توسيع نطاق الزراعة والتجارة والصناعة محبا لخيرها جهد الاستطاعة فقال الأمير: قد رأينا فى بلادك أيها الأمير كل ما يسر الخاطر ويقر الناظر ويبشر إن شاء الله بخير المستقبل غير أن قد رأينا أيضاً شيئاً لم نره فى بلاد الأمم المتمدنة قال: وما هو، قال: رأينا بناحية المذبح عند باب الحسينية جيشا من الكلاب فما وقع نظرها علينا حتى قامت قومة واحدة كالوحوش الكواسر فازعرتنا فتداركنا نفر من أهل تلك الخطة فخلصونا وعهدنا بالبلاد المتمدنة أن لا يترك فى شوارعها مثل هذه الحيوانات الكاسرة فقال الباشا يحزننى جداً ما أصابكما ولكن إذا عدتما إلينا فى السنة القابلة إن شاء الله فلا تريان إلا ما يسركما فشكراه وودعاه وانصرفا فأرسل الباشا فى الحال فى طلب كتخداه لاظه أوغلى فدخل عليه فقال: عليك من الساعة أن تبعد عن القاهرة ومصر جميع ما فيهما من الكلاب وتسير بها إلى الدار البيضاء وطره والجيزة وإياك أن تبقى منها واحدا، قال: فنزل الكتخدا وسار إلى ديوانه ودعا إليه مشايخ الحارات، وقال: تجمعون من الساعة سائر كلاب مصر والقاهرة ومن ترك واحدا منها حل به ما يكره فنزل مشايخ الحارات وجعلوا يطوفون فى الأزقة والحارات وتبعهم الصبيان يقبضون على كل ما يجدونه منها وكثر البحث والتفتيش وأخرجوها من كل فج عميق واشتدوا عليها شدة بالغة فكانوا يسيرون بها عشرات ومئات إلى الدار البيضاء وطره والجيزة فأدركت الكلاب ما هنالك واختفت عن الأبصار فشددوا فى طلبها أياما حتى ظنوا أنه لم يبق منها واحدا فانكفوا، فلما كان بعد بضع أيام ظهر منها ما كان مختفيا وهى فى أسوأ حال من الجوع وجعلت تسعى فى طلب الرزق ولا خفاء أن عادة السوقة وأصحاب الحوانيت إذا جلسوا فى حوانيتهم صباحا لا يبيعون ولا يشترون حتى يفطروا فيأتون بالفول المدمس والبصل والخبز ويجلس الرجل منهم وظهره إلى الطريق فكان إذا أتى كلب ووقف أمام الحانوت يطلب صدقة التفت إليه صاحب الحانوت فيقول له اخسأ ـ جر ـ عصا ـ امش ـ فلا يتحرك فإذا قال لغلامه: ناد ياولد على شيخ الحارة ـ هرول الكلب مسرعا واختفى عن الأبصار لإدراكه ما وراء حضور شيخ الحارة من القبض عليه والتغريب وبقى الحال هكذا فى منع الكلاب وطردها عن الحوانيت أياما كثيرة.

وكبرت فى هذا الحين شرور مهاجرى الإسكندرية وعظمت فعالهم فعاثوا وأفسدوا وبالغوا فى إيذاء الناس بلا فرق ولا تمييز فابعدوهم عن مصر والقاهرة وفرقوهم فى الأقاليم القبلية والبحرية وأسكنوا من بقى منهم بالقاهرة فى دور الحكومة وبيوت الأمراء الذين لجؤا إلى الخديوى بالإسكندرية وأنزلوا جماعة منهم فى بيت محمد سلطان باشا رئيس نواب البلاد على ما فيه من فرش وبسط وأثاث نكاية وانتقاما ورتبوا لهم خبزا فى كل يوم وأقاموا عليهم من يقوم بتدبير أمورهم وإحضار طعامهم فى أوقاته فكانوا لا يشكرون نعمة ولا يحمدون محسنا ولا ينفكون عن المهاترة والشناعة والملاكمة بعضهم مع بعض رجالا ونساء وأولادا وكان الرجل منهم إذا أعوزه الأفيون أو الدخان أو بعض المكيفات عمد إلى الحوانيت المقفلة ففتحها وأخذ ما فيها بلاخوف ولا اكتراث فكان إبراهيم فوزى بيك صاحب شرطة القاهرة لا ينفك عن التطواف ليلا ونهارا ومعه جماعة من أعوانه بأيديهم العصى فإذا رأوا جماعة من هؤلاء الحرافيش فى إحدى الطرق فرقوا جمعهم وباعدوا بينهم وبين بعض كى لا يتمكنوا من فعل شيء بالدور والحوانيت المقفلة وكانت فعال من تفرق منهم فى القرى والبلدان غاية فى الشناعة والإيذاء أيضاً فكانوا ضربة على البلاد وأهلها.

ولما تكامل حضور العساكر الإنجليزية إلى مدينة الإسماعيلية جعل مقدمهم يستكشف مواقع العرابيين ومعاقلهم وحصونهم التى كانوا يشتغلون بعملها بين الإسماعيلية والمسخوطة وكانوا قد تمكنوا من منع الماء عن الإسماعيلية وبورسعيد والسويس فرأى مقدم الإنجليز أن يعاجلهم بالقتال وهم على هذه الحال فزحف عليهم وقاتلهم قتالا شديدا حتى أوقع بهم واستولى على مواقعهم ثم كر عليهم العرابيون فأخرجوا الإنجليز من مراكزهم ولكنهم عادوا فاستولوا عليها بعد قتال، وسار جماعة منهم قبل ظهر السادس من شوّال يبلغ عددهم زهاء الثلاثمائة قاصدين نفيشة فوصلوا إليها فلم يجدوا فيها أحدا من العرابيين فأنهم لما علموا بقرب الإنجليز منهم تركوا نفيشة وساروا إلى المحسمة فعلم الإنجليز بخبرهم فتبعوهم وضيقوا عليهم وأخذوا عليهم الطرق من كل جانب فتقهقروا من المحسمة وتركوا بعض ما كان معهم من المؤن والذخرة وآلات الحرب وكان محمود باشا فهمى ناظر الأشغال العمومية وأحد زعماء العصابة مع العرابيين يومئذ فى ذلك المكان يرتب خطوط الدفاع الأمامية للتل الكبير فتركه العرابيون وتقهقروا فلاقاه نفر من الإنجليز عند

محطة السكة الحديد ولم يعرفوا من هو إلا بواسطة أحد العساكر المصرية المجروحين لأنه كان لابسا لباس الملكيين وبيده مظلة بيضاء فلما اقترب من ذلك الجندى المجروح وكان الجند جالسا قام وأدى له إشارات التعظيم ففطن الإنجليز لذلك وقبضوا عليه فسجنوه ليلتهم تلك فى حجرة صغيرة ثم أصبحوا فسيروا به إلى الإسماعيلية، فلما تمثل بين يدى مقدم الجيوش الإنجليزية قال له: أأنت ممن تركوا العسكر وولوا الإدبار أو ممن أسروا قهرا قال إنى أسير ولست منهزما فأمر به مقدم الجيوش فنقلوه إلى الإسكندرية وسجنوه فى دار محافظة المدينة وتقدم الإنجليز فى ذلك اليوم يريدون قطع شأفة العرابيين فخرّج عليهم جماعة من العرابيين ورموا عليهم بالبنادق رميا متتابعا وكذلك رمى الإنجليز واشتبك الحرب بين الفريقين ففعلت يومئذ نيران العرابيين بالإنجليز فعلا رديئا وكان القيظ لا يطاق فى ذلك اليوم ففعلت الشمس أيضاً بهم من الموت ما لم تفعله نيران العرابيين وظهرت مدافع المصريين أيضاً وتابعت الرمى بالقنابل على مواقع الإنجليز واشتدت فى الرمى حتى اتصلت بمؤخر الإنجليز وفعلت بهم فعلا أليما، وكان العرابيون قد حصنوا التل الذى هناك وأقاموا فيه خطوط دفاعهم مرتبة ترتيبا حسنا إذ كان يشتغل فيها من أهل البلاد والقرى المجاورة زهاء سبعة آلاف فلما اشتدت عليهم نيران الإنجليز وتراسلت قنابلهم انسحبوا إلى التل المذكور وتحصنوا به فتبعهم الإنجليز فى عاشر شوّال وقاتلوهم قتالا عنيفاً وكان مقدم المصريين فى هذه الواقعة الفريق راشد باشا حسنى الجركسى المعروف بأبى شنب فضة فقاتل فى ذلك اليوم قتالا شديدا جدا وفعلت نيران مدافع العرابيين بالإنجليز فعلا رديئاً وكانت قنابلهم تأتى إلى مواقف الإنجليز تباعا محكمة الرمى والإصابة حتى اتصلت بموقف ولسلى مقدم الجيوش فقتلت من حاشيته وجرحت فشهد الإنجليز لأصحاب المدافع وامتدحوا كفاءتهم وما زالوا على هذه الحال والرمى متراسل من الفريقين وراشد باشا يدير الحركة ويتابع الإشارات لأصحاب المدافع وهو بين ملتقى النارين حتى جرح جرحا بليغا وشاع الخبر بذلك بين العسكر فانفشلوا وانهزموا فتبعهم الإنجليز وضيقوا عليهم حتى أخذوا مواقفهم وغنموا ما كان فيها من المدافع والمؤن والذخرة واشتد التعب بالإنجليز وأعوزهم الماء والطعام فقد قضوا ثلاثة أيام كاملة بعد هذه الوقائع لا يأكلون سوى البقسماط اليابس ويشربون الآسن الممزوج بدماء القتلى من الإنسان والموتى من الحيوان ففعل فيهم هذا كله فعلا رديئاً ووقع فيهم الموات واشتدت بهم العلل والأمراض وحاول

العرابيـون رجوع الكرة عليهم واسـترجاع مواقع القصـاصين منهم فخرجـوا عليهم بقوتين إحداهما: قدمت من مواقع التل الكبيـر، والثانية: من مواقع الصالحية وكان مقدم هاتين القوّتين فى ذلك اليوم على باشا فـهمى المعروف بالديب فخرج الإنجليز للقائهم واقتتلوا قـتالا عنيفا فظهر الإنجليز على العرابيـين وجرح على الديب جرحا خفيفا وتقهقر المصريون وانفشلوا وتبـعهم الإنجليز وقد مات فى هذه الواقعة من كبار الإنجليز وصغـار ضباطهم جمـاعة وعدد من الجنود وتحصن العرابـيون بعد ذلك فى حصون ومـعاقل التل الكبير فـتبعهم الإنجليـز رويدا فجعل المصريون يرمـون عليهم بالقنابل رميا متتابعا غاية فى الإحكام فتربص الإنجليز حتى تكاملوا، حدثنى صاحب لى قال: ودبر العرابيون الأمر ورتبوا كيـفية هجومهم على الإنجليز والإيقاع بهم بأن تسير من مواقع الصالحـية قوّة مؤلفة من الجنود بين مشاة وركبان ومدفـعيين وجماعة من العربان بقيادة على الروبى والبارودى فتأتى على ميمنة وخلف الإنجليز قبل مطلع الفجـر الأوّل، وتسير قـوة أخرى من مواقع التل الكبـير وتأتى على ميـسرة وخلف الإنجليز أيضـا بعد وصول القوة الأولى بقليل ثم تلتـحق القوتان بطرفيـهما فيـصير الإنجليز فى القلب ويقـطعان عنهم خط الرجعـة إلى المحسمة ويعـملان فيـهم القتل والتشريد قال: وسمعت أهل الحـرب يقولون كانت هذه الخطة غاية فى الإتقان بالغة حـد التفنن الحـربى ولكن لحظ الإنجلـيز لم يتم لـلعرابيـين شىء من ذلك إذ تأخـر حضور عسكر الصـالحية فى الميعاد المحدد لالتقائهم بـجند التل الكبير وانقسم الرواة فى سبب تأخرهم إلى قسمين قـسم قال: إن الخبراء من العربان الذين تولوا الإسراء بالجند ليلا من صحـراء الصالحية إلى المحسمة قـد ضلوا عن الطريق فلم يشعروا إلا ونور الفجر قد لاح وهم على قيد فراسخ من المـواقع فخاف الضباط وتربصوا قليلا ليتحـققوا الأمر فسمـعوا أصوات المدافع مترادفة فـرجعوا على أعقابهم القهـقهرى، وقسم قال: إن الذى أوجب تأخـرهم إنما هو ضخامة الجيش وثقل مدافـعه وصعوبة السيـر على رمال تلك الصحـراء المموّجة فلمـا وصلت طليعة جند التل الكبـير إلى مقربة من مـواقع الإنجليز وكان الإنجليز قد أحـسوا بما دبره العرابيون قـابلهم فرسان الإنجليز بالسيـوف شمال المراكز وأعملوا فـيهم الضرب فتقهـقروا وعادوا إلى الوراء بدون قتال ولجؤا إلى مقدمات قلاع التل الكبير ولم يفلحوا فى هذه اللحظة التى كان عليها تمام نصرتهم والله يؤتى النصر من يشاء من عباده.

ويدأت تظهـر من هذا الحيـن طلائع الأخبـار ببعـض المدن وفى القاهرة بعـزم

السلطان على إشهار عصيان أحمد عرابى ومن معه من كبار العصابة وأنهم خوارج مارقون واتصلت هذه الأقوال ببعض أخصاء أحمد عرابى والمقربين إليه من أهل البلاد فبالغوا فى كتمانها وكأنهم قد أشفقوا عليه فكثرت رؤياهم وأحلامهم أو هم أكثروا منها وجعلوا يذيعونها بين العامة وصغار الناس علها تدفع عن أسماعهم الخبر القائل بعزم السلطان على تكفير أحمد عرابى والنداء بخروجه وشقه لعصا الطاعة، حدثنى صاحب لى ممن كان فى ركاب أحمد عرابى بالتل الكبير قال: وكثر وقوع الأحلام والرؤيات لبعض المشايخ والمتعممين من أهالى القاهرة ومصر وبعض المدن فكانوا يسطرونها على أوراق ويرسلونها إلى أحمد عرابى بالتل الكبير وكلها عجائب وغرائب فقد اطلعت على بعض ما فى تلك الأقوال فرأيت أنها من الإفك والبهتان بمكان عظيم وعلى الخصوص منها أحلام أهل الشرقية وبعض مشايخها فقد أرسل أحدهم إلى أحمد عرابى يوما يقول رأيت فى نومى الليلة البارحة كأنى دخلت بستانا كثير الأشجار يانع الثمار تجرى فيه الأنهار فأدهشنى حسن ما فيه وتقدمت رويدا وأنا أسرح الطرف فى ذلك البهاء الظاهر والجنة التى لا يعرف لها أوّل من آخر فبينما أنا على هذا الحال إذ أمسك بكتفى صبى ما رأت عينى أجمل طلعة من طلعته، وقال: إلى أين ياهذا أصلحك الله؟ فقلت :لا أدرى ورب البيت، قال: انظر إلى يمينك ولا تجزع فنظرت فإذا بى أرى كرسيا من الزمرد الأخضر وبجانبه آخر من العقيق الأصفر ثم سمعت دويا كصوت النحل ومنادياً ينادى أنزل يامصطفى أنزل ياأحمد أنزل يامحمد فاشتد عند ذلك صوت ذلك الدوى وارتج المكان رجة مزعجة حتى كدت أسقط مغشيا على من شدة الخوف فلم ألتفت إلا وقد جلس على ذلك الكرسى الأخضر إنسان لم تر عينى أحسن شكلا منه وبيده مسبحة حباتها من العنبر فنظر إلى المكان نظرة المشفق ثم دق كفا لكف فحضر لديه فى الحال جماعة من الغلمان كأنهم البدور إذا بدت وقبلوا الأرض بين يديه وقالوا: لبيك ياحبيب الله قال: أين المجاهد أين المغازى أين نسل ولدى الحسين فغاب بعضهم لحظة لطيفة وعادوا وأنت بينهم أيها الأمير الجليل متشحا بحلة من السندس الأخضر وعلى وجهك هيبة وجلالة الله أكبر فقال النبى عليه الصلاة والسلام، تقدم ياأحمد فتقدمت وأنت خاشع مطرق فمد النبىّ ﷺ لك يده الشريفة فقبلتها مبتهلا، وقلت: انظر يارسول الله ما فعل الكفار بنا ونحن فى جوار عترتك الطاهرة وآل بيتك الكرام انظر كيف طرقوا أرض الكنانة بخيلهم ورجلهم فعاثوا وأفسدوا وأراقوا

الدماء هدرا ثم اغرورقت عيناك أيها الأمير بالدموع فنظر إليك رسول الله ﷺ وهو باسم وقال: خفف عنك ياأحمد فسوف تظفرون بهم وينصركم الله عليهم نصراً مبينا ثم ناولك سيفا قبضته من الذهب الخالص المرصع بالدر والجوهر، وقال: اضرب بهذا رقابهم ولا تكف عنهم حتى يستسلموا بإذن الله تعالى فلما سمعت أنا هذا الكلام من رسول الله ﷺ وكأني والله في يقظة لا فى منام صحت فرحا وقلت الله أكبر الله أكبر على من طغى وتجبر فانتبهت من نومى وكان رؤياى منقوشة على صدرى فأبشر بالنصر والغلبة على القوم الكافرين والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته، قال الراوى لهذه العبارة: وكانت هذه الأكاذيب تتلى بين المحاربين فى مواقع التل الكبير من ضباط وجند وعربان وفى مواقع الصالحية وكفر الدوار فيتناقلها العامةُ والسوقة الذين يتبعون الجيش فى مواقع القتال وهؤلاء يبثونها محشوة بالإفك والبهتان بين أهل المدن والقرى القريبة فكان الناس لا يشكون قط فى صدقها ولا يقبلون لها تأويلا وظل الحال على ما هو عليه من انبثاث دعاة العصابة فى جوف البلاد يحضون البسطاء من أهلها على إمداد المحاربين فى مواقع التل الكبير بالنفس والنفيس ويموّهون عليهم الحقائق ويقصون عليهم تلك الأحلام والمنامات محشوّة بالخلط والتخريف حتى عم الفساد واختل النظام واشتدت الفتنة واتسع خرقها وصار الناس كلهم يتطاولون على مقام الخديوى بالسباب وفحش القول ويرمونه بالمروق ويتهمونه بترك دينه والتمسك بدين النصرانية ونصروا عبد الله صاحب الطائف ودعاة العصابة معه وأحلوا سائر مفترياتهم محلا عظيما، وبينما كانت الحرب قائمة على ساقها أمام مواقع التل الكبير ونار الفتنة تتأجج فى جوف البلاد كان سفير الإنجليز بدار السلطنة العثمانية يكثر من تهديد رجال المابين ويعمل على قطع حبل الاتصال الذى كان مشدودا بينهم وبين أحمد عرابى ولا سيما منهم الشيخ أحمد أسعد إمام السلطان فكان يقضى بياض يومه وسواد ليله وهو يغدو ويروح ما بين الباب العالى ومقر السلطان ويعمل بدهائه ويدبر بفطنته وذكائه ويلح بطلب صدور فرمان السلطان بعصيان عرابى، وكان يرجو من هذا العمل أمرين خطيرين أولهما: صرف وجه أحمد عرابى وأشياعه عن السلطان ورجال المابين فيفتتنون وتنفصم عروة اتحادهم والثانى تنزيل أحمد عرابى من عيون المصريين وصرف وجوههم عنه لخروجه عن طاعة سلطانه ورميه بالمروق واعتبار أن حربه للإنجليز حرب غير جائزة ولا هى من الجهاد فى شىء كما كانوا يظنون وما زال السفير يعمل ويكيد حتى أفلح وغرر

بالسلطان ورجال ما بينه وكبار دولته وأصدر فرمانا بخروج أحمد عرابى وعصيانه فطير السفير الخبر بذلك إلى الآفاق وأوعز إلى صاحب جريدة الجوائب العربية التى تطبع فى دار السلطنة العثمانية فنقش ذلك الفرمان على صحائف جريدته فابتاع السفير منه زهاء ستة عشر ألف نسخة وسير بها إلى الهند ومصر وغيرها من البلاد الإسلامية فوصل منها إلى مدينة الإسماعيلية شيء كثير فأمر به مقدم الجيوش الإنجليزية فنشروه على أيدى الجواسيس من العربان والفلاحين فى معسكر التل الكبير والصالحية وكفر الدوار فما انتشر بينهم وذاع خبر ما فيه حتى تراخت عزائم العسكر وفترت همم الضباط وكادوا ينفشلون وعم خبر ذلك بين الأفراد فتحدثوا به كثيرا.

وكان ممن جاء مع عسكر الإنجليز إلى الإسماعيلية محمد سلطان باشا رئيس نواب البلاد وجماعة آخرون من رجال الحكومة المتحزبين للخديوى قد سير بهم الخديوى فى ركاب مقدم العسكر الإنجليزية ليكونوا له عونا على قضاء حاجاته ويمهد أمام جيوشه ما يحدثه أهالى القرى من الموانع والعقبات فجمع إليه سلطان باشا بعض طوائف العربان ممن كانوا حول معاقل العرابيين واستمالهم وأجزل عطاءهم وقرّب منه بعض كبارهم فأطاعوا ومالوا إلى العطاء ودخلوا بين جند التل الكبير وأذاعوا بين صغار الضباط وأفراد العسكر خبر ما رسم به السلطان من عصيان عرابى ومن تبعه وأنهم خارجون مارقون عن طاعة أمير المؤمنين فأزعجهم هذا الأمر وتراخوا وانحلت عزائمهم وانفشلوا أو كادوا واتصل خبر ذلك بأحمد عرابى وأصحابه فهالهم وكبر عليهم وتناجوا فيه طويلا فاتفقوا على كتمانه وإخفائه إلى حين ولكنهم لم يفلحوا إذ انتشر الخبر وعم وتكلم به سائر العسكر، قيل: وجاء فى هذا الحين رسول من عند مقدم الجيوش الإنجليزية فاجتمع بأحمد عرابى فى سرادقه وتحادثا ساعة فيما لم يصل أحد إلى معرفته حتى الآن ثم قفل الرسول راجعا إلى معسكر الإنجليز فظهرت بعد ذلك على وجوه كبار الضباط وصغارهم علامات اليأس والقنوط ووقع بينهم الهرج وبانت على وجه أحمد عرابى دلائل الضعف والاستسلام وذهبت عنه تلك الشدة والحدة وتولاه الخمول فلم يكن لهم فى هذا الحين سوى تحريك شفتيه بتلاوة الأوراد والأحزاب وتقليب مسبحته ذات اليمين وذات الشمال والاحتجاب عن الناس إلا القليل من مقدمى العسكر وكان مقدم جنود خطوط التل الكبير الأمامية اسمه على يوسف المعروف بعلى خنفس فراسله محمد

سلطان باشا أيضاً واستماله إلى طاعة الخديوى فأطاع واستوثق لنفسه، فلما كان ثامن عشرى شوّال من السنة أى سنة تسع وتسعين ومائتين رتب مقدم جيوش الإنجليز عسكره على مقربة من خط السكة الحديد وترك المعسكر كله خاليا فى حراسة نفر قليل من جماعة المهندسين وأبقوا نارهمْ موقدة إيهاما بأنهم متربصون فى مضاربهم فلما صاروا على قدم الاستعداد سروا بعد نصف ليلة تاسع عشرى شوّال تحت جنح الظلام وأمامهم جماعة من الضباط المصريين ممن كانوا فى خدمة الخديوى بالإسكندرية وجماعة من عربان الهناده يدلونهم على الطريق وما زالوا على قدم السير حتى بلغوا مقدمة خطوط العرابيين فأمر لهم على بيك يوسف فدخلوا بين صفوف عسكره بلا ممانع ولا مدافع وكان جل العسكر فى هذا الحين نياما على الحصون والمتاريس والضباط فى فراشهم بأقمصة النوم كأنهم فى أسرة بيوتهم بين أحضان عيالهم آمنين مطمئنين وما زال الإنجليز حتى صاروا فى وسط المعقل وأطلقوا البنادق تباعا فانصبت نيرانها على العرابيين انصباب المطر فهبوا من نومهم مذعورين وحملوا على الإنجليز فلم يثبتوا إلى لحظة لطيفة حتى تمت هزيمتهم وولوا الإدبار وثبت أصحاب المدافع وأكثروا من الرمى بالقنابل فركب الإنجليز عند ذلك أقفيتهم وأعملوا فيهم السيف وأفحشوا فى قتل كبارهم وصغارهم فلما سمع عرابى أصوات المدافع والبنادق هب من نومه وقيل: بل كان على يقظة فخرج من سرادقه وخرج معه عبد الله صاحب الطائف وركب فرسا وركب عبد الله كذلك ومعهما جماعة من الفرسان وخرجوا على وجوههم يريدون بلبيس وقد ترك عرابى ما كان فى سرادقه من أوراق ومتاع فتبعهم نفر من فرسان الإنجليز وترامحوا خلفهم فلم يدركوهم أو لم يشأوا أن يدركوهم وما زالوا حتى أتوا أنشاص الرمل قبيل الظهر واتفق أنه كان بمحطة أنشاص قطار من قطارات المهمات قاصدا القاهرة فترامح أحمد عرابى ومن معه حتى أدركوه وركبوا فى آخر عربة فيه فسار بهم إلى القاهرة فدخلوها فى الساعة الثامنة عربى نهارا من تاسع عشرى شوال والناس فى شاغل عنهم بما هم عليه من التطواف والضجيج فى الشوارع والحارات فقد كان العامة وأرباب الطرق والأشاير وسائر صبيان المكاتب يطوفون زمرا فى ذلك اليوم ويصيحون بيالطيف، ياجبار اهلك عسكر الكفار، وكان المؤذنون يعجون على المنائر ويبتهلون إلى الله بعبارات الاستغاثة وطلب النصر على العدوّ فلما دخل عرابى القاهرة طاف صاحب الشرطة ومعه جماعة من العسكر يمنع الناس من التجمع فى الشوارع ويشدد على العامة بملازمة

السكون على غير عادته فلم تلتفت العامة إلى قوله وبقوا على هذا الحال من التطواف والضجيج والعجيج حتى شاع الخبر بوصول عرابى ومعه رأس سيمور أمير سفن الحرب الإنجليزية ورؤوس كثيرين من كبار الإنجليز والمصريين فهرع عند ذلك العامة من كل صوب وحدب وتبعتهم النساء بالزغاريت واشتدت جلبتهم وتزاحمت الغوغاء فى الشوارع والطرق وكثر صياحهم وضجيجهم واشتدت الحركة فخاف أصحاب الحوانيت وأغلقوا حوانيتهم وكبر خوف أصحاب البيوت وتطيروا من شر ذلك اليوم العصيب وسار عرابى بعد وصوله إلى قصر النيل وجمع إليه أصحابه من كبار الضباط وصغارهم وأخبرهم بخبر هزيمته ودخول الإنجليز فى جوف الحصون والمعاقل قيل: وشكى وبكى فتكلموا فى الأمر طويلاً فألح عليهم بالتعجيل فى إنشاء الحصون والمعاقل ومد الخطوط والاستحكمات أمام العباسية وأن يجمعوا المتشردين من العسكر ويلتقوا بالإنجليز قبل أن يدخلوا المدينة فيقاتلوهم وخطب عبد الله صاحب الطائف فى ذلك وجعل يستحثهم ويستنهض هممهم فاختلفت كلمتهم وكان ممن حضر معهم يومئذ فارا من الصالحية على الزوبى فأشار بوجوب التسليم للقضاء وعقد المجلس العرفى فعقدوه واستدعوا سائر أعضائه من كبار العسكر والملكيين والعلماء والمشايخ والرؤساء الروحانيين والوجهاء والأعيان فقص عليهم عرابى ما جرى وبكى وبالغ فى الشكوى وعظم البلوى ثم قال: وإنى ما زلت على قدم الدفاع ورد العدوّ عن البلاد ما دام فىّ رمق من الحياة وجعل ينتحب فردّ عليه بعض الحاضرين من كبار العسكر وقال: أوماكفاك ياهذا أن دمرت الإسكندرية حرقا بسوء تدبيرك وجهلك العواقب حتى تريد أن تدمر القاهرة أيضاً بسوء فعالك فإن كنت لم تبق فيها على شىء فإن لنا فيها عيالا وأطفالا وأملاكا لا نسلم بضياعها ضحية لأغراضك فكفى كفى ماجرى، فعند ذلك أطرق عرابى رأسه خجلاً ولم ينطق ببنت شفه وطال بين الجميع الأخذ والرد ساعة ثم استقر رأيهم على كف القتال وعدم التعرض لعسكر الإنجليز بشىء مّا وأن يتقدم أحمد عرابى وأصحابه إلى مقام الخديوى فى طلب العفو عنهم بعريضة يرفعونها إليه فقام عبد الله صاحب الطائف وكتب عريضة ملأها بالطعن والتنديد بفعال الإنجليز وشحنها بالإفك والتغرير والتضليل وقص فيها ما وقع من البداية إلى النهاية ولم يصرح فيها بذكر شىء من ذنوب أحمد عرابى وذنوب أصحابه ثم جعل يتلوها على الحاضرين فلم تعجبهم وكان ممن حضر فى ذلك المجلس أيضاً بطرس باشا غالى وكيل الحقانية فكلم عبد

الله فى ذلك، وقال: إن المقام الآن لا يحتمل شيئاً من الطعن ولا التشديد فهات أملى عليك ما يحسن رفعه إلى مقام صاحب الأمر فأملى عليه شيئاً من عبارات الاستعطاف والاسترضاء فأعجب الحاضرين وأوقع عليه عرابى وأصحابه على كره من صاحب الطائف ثم اختاروا لهذه السفارة محمد رءوف باشا وبطرس باشا غالى فطلب على باشا الروبى مرافقتهما وقاموا من ساعتهم فى قطار مخصوص فسار بهم إلى الإسكندرية فلم يصلوا إلى كفر الدوّار حتى جاءهم الخبر بأن تربصوا حتى يأتيكم عبد الله برسالة من عرابى وأصحابه فتربصوا حتى حضر عبد الله على قطار مخصوص ومعه عريضة أخرى يخالف ما فيها ما فى العريضة الأولى، وقال: يقول لكم عرابى باشا لا ترفعوا إلى الخديوى العريضة الأولى وارفعوا إليه هذه، وكان لما قام رءوف باشا ومن معه إلى الإسكندرية فكر عبد الله فيما سيلقاه من العذاب إذا حوسب كل بعمله فزين لعرابى العدول عن طلب العفو وأن يظهر من الضعف قوة ومن الخوف رجاء ويكتب إلى الخديوى قصة يدفع بها عن نفسه عار الذل وشماتة الأعداء فأجابه عرابى إلى ذلك وعبد الله إنما يريد بهذه الحيلة التمكن من الفرار والاختفاء فلما وصل إلى كفر الدوار اختفى ولم يوقف له على أثر إلى أن كان من أمره ما سيذكر فى محله إن شاء الله.

ووصل رءوف باشا ورفاقه إلى الإسكندرية فى غرة ذى القعدة بعد العناء الشديد وتمثل هو وبطرس باشا بين يدى الخديوى ورفعا إليه عريضة عرابى وأصحابه فلم يقبلها وأمر بعلى الروبى فقبضوا عليه وأودعوه فى السجن منفردا عمن أتى بهم الإنجليز من مواقع الحرب من العرابيين وفرح أهل الإسكندرية يومئذ فرحا لا يوصف وأتت رسائل التهانى إلى ديوان الخديوى من كل صوب وطاف طوائف الفرنجة بالإسكندرية يهللون وينشدون أناشيد النصر ونزل المستر مالت قونصل جنرال الإنجليز إلى الإسكندرية ودخل على الخديوى وهنأه من قبل ملكة الإنجليز ومناه بالأمانى الكثيرة، أما المقاتلون من الإنجليز بمواقع التل الكبير فإنهم لما دخلوا فى وسط معاقل العرابيين وحصونهم نسفوا بعضها ومزقوا شمل من كان بها من العساكر ثم تركوا منهم جماعة لدفن جثث القتلى فأحصوها فكانت زهاء الألفين وسار الباقون قاصدين القاهرة من طريقين الأول بجانب السكة الحديد الموصلة إلى مدينة الزقازيق وبنها وبلبيس والثانى على ضفة الترعة الحلوة الخارجة من القاهرة كى يصلوا إليها بأسرع ما يمكن خوفا من أن يصيبها ما أصاب مدينة الإسكندرية وكان سير فرسانهم إلى الزقازيق غاية فى البطأ والفتور بسبب تعب الخيل وضعف الجند عن الحركة فلما

صاروا على قيد فرسخين من الزقازيق هجموا عليها ولكن بغاية الضعف والاختلال فلم يروا من يردهم فمال جماعة منهم نحو السكة الحديد وكان بها فى هذا الحين خمسة قطارات مشحونة بالعساكر المصرية والمهمات الحربية وكثير من المرضى والجرحى فأربعة من سائقى هذه القطارات لما رأوا اقتراب الإنجليز منهم قاموا وأسرعوا فى مسيرهم فنجوا بمن معهم من الوقوع فى أيدى الإنجليز أما الخامس فأنه ما كاد يتحرك حتى لحقه ضابط من الإنجليز ورماه بالرصاص فسقط ميتا فلما رأى العرابيون ما حل بسائق القطار وهجوم الإنجليز عليهم ألقوا بأسلحتهم وفروا طالبين النجاة فلم يتبعهم الإنجليز لقلة عددهم فنجا العرابيون جميعا وفى نحو الساعة الثالثة عربى نهارا تكامل وصول جميع العساكر الموكلين باحتلال مدينة الزقازيق مع مقدمهم الجنرال ماكفرصون وأما الفريق الثانى الذى سار إلى القاهرة على ضفة الإسماعيلية فأنه عبر الترعة من ناحية التل الكبير وسار سيرا حثيثاً جداً على شكل هجوم وما زالوا كذلك حتى وصلوا إلى مدينة بلبيس ليلا فباتوا فيها ليلتهم وهم على أهبة وتحفظ ثم ساروا غلسا فى ثانى يوم الذى هو غرة ذى القعدة وقد تركوا الطينة وترفعوا نحو الخانكاه ومازالوا يجدّون السير حتى بان لهم سواد القاهرة فى نحو الساعة العاشرة ونصف عربى نهارا وما وطئت حوافر خيلهم أرض العباسية حتى غابت الشمس فنزلوا عليها وهم فى أسوأ حال من شدة التعب وفعل الشمس وقلة الماء وشدة الحركة وكان عدد من دخل العباسية فى تلك الليلة زهاء سبعة آلاف مقاتل وسار نحو قلعة الجبل أيضاً زهاء ثلاثة آلاف آخرين فدخلوها فى نحو الساعة الثالثة عربى ليلاً وأخرجوا من كان بها من العسكر المصرى وصغار الضباط وفكوا قيود من وجدوهم فى حبوسها ممن أتى بهم زعماء العصابة من المديرين والوجهاء والأعيان وغيرهم وكذلك فكوا قيود أصحاب الجنايات قيل ولم يكن مقدم العساكر الإنجليزية الذين صعدوا إلى قلعة الجبل يعرف طريق القلعة من جهة العباسية فضبط اثنين من صغار الضباط المصريين الذين كانوا بمعاقل العباسية ليدلاه على الطريق فامتنعا فرسم بقتلهما فأطاعا وسارا مع الإنجليز حتى أدخلاهم القلعة فقابلهم مقدمهم جندها وبش لهم وأدخلهم بها على الرحب والسعة وكان بالقلعة من العساكر المصرية فى تلك الليلة زهاء أربعة آلاف مقاتل كاملى العدد فسلموا بغير منازعة وألقوا بأسلحتهم ونزلوا من ساعتهم إلى معسكر قصر النيل فلما خلت القلعة منهم استلم مقدم الإنجليز سائر المواقع والأبواب ومفاتيح قلعة المقطم الواقعة على

رأس قلعة الجبل وباتوا ليلتهم وأصبحوا وقد دخل القاهرة الجنرال ولسلى كبير مقدمى الجيوش الإنجليزية ومعه محمد سلطان باشا رئيس نواب البلاد وبعض كبار الضباط من المصريين فهرع للقائهم بعض موظفى الحكومة ممن كانوا فى حبوس العرابيين بالقاهرة وإبراهيم فوزى بيك صاحب شرطة المدينة، وكان لما دخل الجنرال لو بعسكره إلى العباسية ولاقاه صاحب الشرطة رسم له بالقبض على أحمد عرابى وكافة أصحابه والإتيان بهم إلى العباسية فنزل صاحب الشرطة وذهب إلى أحمد عرابى فوجد معه طلبة عصمت وآخرين غيره فقال لهما الجنرال لو مقدم جيوش العباسية يطلبكما الساعة فاضطرب أحمد عرابى ولكنه جعل يظهر من الضعف قوة وقام ومعه طلبة عصمت وساروا جميعا إلى العباسية وأرسلوا فى طلب على يوسف أيضاً وعلى يوسف هذا هو الذى سلم للإنجليز قلعتى الجبل والمقطم بعد أن تخلى لهم عن الطريق فى مقدمات التل الكبير كما تقدم بيان ذلك فى محله، فلما دخل ومن معه فى وسط معسكر الإنجليز أوقفوهم برهة وحولهم جماعة من العسكر بالبنادق والحراب ثم أخذوهم إلى مقر الجنرال لو وكان الجنرال جالسا على كرسى ورجلاه ممدودتان على كرسى آخر وحوله جماعة من عسكره وترجمانه فلما تمثلوا بين يديه لم يلتفت إليهم برهة طويلة ثم نظر إلى أحمد عرابى نظرة الظافر وقال: أأنت عرابى باشا؟ قال: نعم، قال: أأنت الذى عصيت وخرجت عن طاعة أميرك ومولاك وحاربته بغير سبب حتى سقطت فى أيدى جند ملكة انجلترا فتلجلج عرابى ولم يردّ الجواب فالتفت إليهم الجنرال وقال: اخلعوا عنكم سيوفكم فخلعوها وتقدموا بها إليه وقالوا إليك نسلم سيوفنا وإلى حكومة جلالة ملكة بريطانيا العظمى نسلم أنفسنا لأننا نعتقد سلامة نواياها نحونا ومعاملتنا بالعدل فامتنع الجنرال من أخذ سيوفهم بيده وقال: لستم أهلا لأن تؤخذ سيوفكم كأسراء الشرف ألقوها إلى الأرض كما تستحقون فألقوها أمامه فأشار إلى بعض صغار الجند الذين حوله فأخذوها وقبضوا على عرابى وطلبة عصمت وعلى يوسف وألقوهم فى سجن العباسية فى تلك الليلة، هذه رواية، وفى رواية أخرى أنهم لما تمثلوا بين يدى الجنرال لو بسيوفهم أخذها بيده فقالوا إننا نحمد الله تعالى على تسليمنا بأنفسنا إلى أمة تعرف العدالة وتقدرها قدرها وسيتضح لها أنا ما عملنا إلا بواجبنا ولم نسع إلا خلف حقوقنا وإن عندنا من العسكر المنظمة بمراكز العباسية زهاء خمسة وثلاثين ألفا ومثلهم فى مواقع كفر الدوار ورشيد ودمياط وهم على قدم الدفاع عند أول نداء

فيهم ولكنا لم نقدم على فعل شىء بعد ذلك خوفا على سلامة البلاد وقد سلمنا بأنفسنا فداء للوطن (قلت): وعندى أن لا حقيقة لهذه الرواية فقد كان موقفهم فى تلك الساعة محفوفا بالمكاره وأبعد من أن يتكلم فيه الفصيح اللبيب اللهم إلا إذا كانوا على يقين من السلامة وبينة من أمرهم وهذا ليس بالأمر البعيد فقد كان فى انسحاب أحمد عرابى من مواقع التل الكبير ودخول العساكر الإنجليزية بين حصون ومعاقل المصريين على ما مر بيانه سر سيتلى عليك فى محله إن شاء الله.

ولبثوا فى سجن العباسية إلى يوم الأربعاء حادى عشرى ذى القعدة ثم نقلوهم إلى قشلاق جند الحرس برحبة عابدين وقد احتله طائفة من الجنود الإنجليزية ونزل فريق آخر بقشلاق قصر النيل ففعلوا به ما لا خير فيه فقد أخذوا جميع ما فى ديوانه من فرش وبسط وطنافس وشراشف وكراسى فكانوا يبيعونها للعامة تحت القصر بأبخس الأثمان أو بشىء من التبغ أو العرق أو الفاكهة أو الخبز أو الجبن وأحرقوا جميع ما عثروا عليه من الأوراق والدفاتر الديوانية والأدوات على اختلافها ونزل الجنرال ولسلى بسراى عابدين واتخذها له مقرا وأقام على أبوابها الحراس والحجاب وأنزل بسراى الحرم الخديوى جميع أركان حربه ونزل الجنرال موريس مقدم النزل بسراى المدرسة التى برحبة عابدين وانبثت العساكر الإنجليزية فى شوارع القاهرة زمرا تطوف وتخاطب العامة بعبارات التحية وكان الهنود منهم يكثرون التطواف بالخطة المعروفة بخطة سيدنا الحسين وناحية دهليز الملك والحسينية ويحيون الناس ويقولون السلام عليكم يا مسلمون نحن مسلمون مثلكم أتينا لخلاصكم من أيدى العصاة المارقين، واهتم محمد سلطان باشا بأمر المؤن والعلوفات لعسكرالإنجليز وقد كثر طلبهم للخبز والأرز واللحم والسمن وغيره فشدد محمد سلطان باشا على صاحب شرطة المدينة فى ذلك فلم يقدر على القيام بأداء هذه الطلبات فى أوقاتها، وقد كنت يومئذ من مفتشى المراقبة العمومية فأتانى الطلب من محمد سلطان باشا على يد صديق لى اسمه عبد القادر بيك فهمى من قضاة المحاكم المختلطة فذهبت إليه فرسم لنا بأن نهيىء ديوانا يناط به لوازم العسكر الإنجليزى وكتب بذلك إلى صاحب شرطة المدينة وإلى ديوان الخزينة فأنشأنا ديوانا بالمكان الذى كان به ديوان المحافظ وقمنا بجمع حاجة الجيش فكانت أشياء كثيرة جدا من الضأن والبقر والخبز والأرز والسكر والفلفل والعسل والشاى وبيض الدجاج وبن القهوة والزبدة والسمن والخضروات

وحطب الوقود والتبن والفول والشعير والحشيش اليابس فى كل يوم صباحا مما قيمته ألف جنيه مصرى وسبعمائة جنيه عدا ما كان معهم من المؤن والعلوفات.

وعادت الأشغال الديوانية بعد أيام إلى سابق مجراها ووردت كتب الخديوى بالقبض على سائر من كان له يد فى إضرام نار الفتنة فقبضوا على من بالقاهرة وأودعوهم فى سجون بيت الشرطة وطيروا الخبر بذلك إلى الآفاق فأفحش المديرون والمحافظون فى معاقبة الناس وبالغوا فى إيذائهم وعلى الخصوص منهم مديرى الشرقية ومنية ابن خصيب فأخذا بالشبهات وملأ السجون من أصحاب الوجاهة وكبار الناس تشفيا وانتقاما وتزاحم أصحاب الوشاية وأهل السعاية على باب مصطفى رياض باشا ناظر ديوان الداخلية فأخذ بقولهم وشدد وهدد وتبعه فى ذلك سائر المأمورين ومن له كلمة مسموعة فانكمش الناس وعم الخوف وبات كل من لا يأمن على نفسه وولده، وكان لما دخل الجنرال وود بعسكره مواقع كفر الدوار حضر للقائه يعقوب سامى وكيل ديوان الجهادية فرسم له بإحصاء ما فى تلك المواقع من جند وآلة وسلاح فأحصاهم فكانوا زهاء ستة آلاف مقاتل وسبعمائة فرس مسرجة ملجمة وخمسين مدفعا بجميع مهماتها وخمسة عشر ألف بندقية فنقل جميع ذلك إلى القاهرة ثم رسم بدفن ما وجد من جثث الموتى من الإنسان والحيوان وبصرف جميع العساكر إلى أوطانهم فانصرفوا ماعدا الضباط فأنه أمر فسيروهم إلى سراى الرمل تخفرهم جماعة من فرسان الإنجليز، قال بعض الإنجليز: وكانت مواقع كفر الدوار غاية فى المنعة وحسن الوضع الهندسى والطبيعى قلّ أن يمكن التغلب عليها إلا بعد معاناة الأهوال وموت الألوف من الأبطال إذ كانت تنقسم إلى ثلاثة خطوط منتظمة محاطة بأرض غير مسلوكة لكثرة ما فيها من الأوحال والمرابك ويتفرغ من تلك الخطوط خطوط أخرى على شكل زوايا قائمة ممتدة إلى جهة سكة حديد كفر الدوار وترعة المحمودية وكانت الخطوط جميعها مسلحة بكثير من المدافع المرتبة على هيئة مناسبة للغاية قلّ أن يمكن معها للعدوّ الظفر بها وكان أمام كل خط من الخطوط الثلاثة خندق بعرض خمسة عشر قدما متقن الوضع محكم العمل وكان بين الخط الأوّل والثانى والثالث خمسة آلاف متر وكان على رأس الأول منها قلعة تسمى قلعة الإسلام إعزازا للدين وهى من أجمل القلاع شكلا وأقواها بنيانا وأحكمها وضعا. اهـ.

وكان العرابيون قد سدوا خط السكة الحديد بسدّ من البناء والتراب فرسم

الجنرال وود بكسر هذا السد فكسروه بشيء من الديناميت وأصلحوا بعض ما تعطل من خط السكة الحديد وعثروا وراء الخط الثالث من تلك الخطوط على كثير من عربات النقل مشحونة بشيء كثير من الحرائر والمقصبات والأطالس والشاشات وغيرها من منهوبات الإسكندرية فجمعوا ذلك كله وأحصوه، ولما أنجز يعقوب سامى ما رسم به الجنرال وود تمثل بين يديه وخلع سيفه وسلمه إليه وقال: لم يكن فيما فعلته إلى الآن مع أصحاب الثورة إلا طاعة مولاى الخديوى وكمال الإخلاص فى خدمة أهل البلاد وكثيرا ما نصحت عرابى فلم يقبل حتى كانت العاقبة ما كانت فلم يلتفت الجنرال إلى كلامه بل قال له: وما الذى جرى للقائمقام الإيطالى مسيو يولشى الذى نزل من بضعة أسابيع من مركب الحرب الإيطالية ولحق بعرابى فى كفر الدوار فقال لا أعرف من هو ذلك الرجل فالتفت الجنرال إلى جماعة الضباط المصريين فرأى الرجل بينهم وهو فى زى الضباط المصريين فأمسك بيده وقال هو هذا الذى أطلبه قال: ذلك وسلمه إلى نفر من الإنجليز فساروا به إلى الإسكندرية ليجازى عما فعل، واستسلم أيضاً من كانوا فى رشيد وحصون أبى قير والبرلس وطابية أشتوم الجميل القريبة من مدينة بورسعيد وغيرها من بقية القلاع والحصون ولم يمتنع سوى عبد العال أبو حشيش مقدم جند دمياط ومن معه من الضباط وصمم على الامتناع والمقاومة ونادى فى عسكره بالخروج فخرجوا بعددهم وآلات حربهم ولازموا الحصون والمتاريس وجدّوا فى تحصين مواقعهم فلم يلبثوا حتى شاع بينهم خبر استسلام جند طابية الجميل وبقية الحصون ففترت همتهم وتراخت عزيمتهم وتركوا سلاحهم وتفرقوا أشتاتاً ولم يفلح عبد العال فى ردّهم وجاء الخبر بذلك إلى الجنرال وود فسير فرقة من عسكره على قطار السكة الحديد إلى دمياط فلما وصلوا السنانية أرسل كبيرهم إلى عبد العال يقول إنا لم نحضر إلى هنا إلا لنأخذك كرها إذا لم تأت بنفسك خاضعا فامتنع عبد العال وأرسل يقول إنى مريض فعبر كبير الإنجليز النيل إلى دمياط فى قلة من أصحابه ودخل على عبد العال بمقره وقيل بل لاقاه عبد العال عند باب الديوان فأمر مقدم الإنجليز فقبضوا عليه قبيل الغروب وعبروا به النيل إلى السنانية ووضعوه ليلته تلك فى إحدى عربات البضاعة والجند يخفره وأصبحوا فسيروا به إلى القاهرة وأنزلوه فى سجن أحمد عرابى ومن معه وهى دار أعدوها لهم بجوار جامع أزبك عند رأس الأزبكية.

وفعل الإنجليز بمدافع الحصون والقلاع جميعها ما لا خير فيه وألقوا جميع

ما وجدوه في المخازن من البارود والمهمات وآلات الحرب والعدد في النيل وقد كان شيئاً كثيرا جدا وشاع الخبر بذلك وتناقله الناس فانقبضت صدورهم وظنوا بالإنجليز السوء بعد أن كانوا فرحين بمقدمهم، فلما تم للإنجليز ما أرادوه من نسف مواقع كفر الدوّار وحصون التل الكبير وتعطيل مدافع سائر القلاع من الإسكندرية إلى أبي قير فرشيد فالبرلس فدمياط فالجميل وما بين هذا كله من المعاقل والأبراج أنزلوا عسكرهم في جميع المخافر ومراكز الأربطة بالإسكندرية والقاهرة ورتبوا منهم أصحاب الشرطة والعسس وجماعة يطوفون في الليل والنهار مشاة وركبانا لانتشار عسكرهم في الطرق والشوارع العمومية وأماكن اللهو والقصف بخطة الأزبكية والعتبة الخضراء والموسكي وجلهم سكارى فكان العامة يتحككون فيهم ويمازحونهم أو يشوّشون عليهم وجماعة العسس المتطوفون يحملون السكارى منهم إلى المعسكرات فكان مقدّمهم يرسل الأوامر تباعا إلى كبار ضباط العسكر وصغارهم بمنع العسكر من الاجتماع في الحانات والتشديد على باعة الخمور والمسكرات بالامتناع عن بيع الردىء منها إليهم وإلا بولغ في عقابهم فلم يأت ذلك بفائدة إذ تفشت الحميات الخبيثة بين العسكر كافة في قلعة الجبل والعباسية وقصر النيل وميدان عابدين وفي سائر المخافر حتى في مساكن الضباط فأنشئوا الشفاخانات (وهي بيوت المرضى) بقلعة الجبل والعباسية فامتلأت بمرضاهم من كل صنف ورتبة وكثرت موتاهم كثرة بالغة فكانوا يحملون الجثث بالنقالات على أكتاف الخدم من الهنود أو على عجلات المدافع مغطاة بالراية الإنجليزية وأمامها الجند بالبنادق والموسيقى تعزف بألحان الحزن والحنان فإذا كان الميت ضابطا أو عظيما من قوّادهم سيروا جواده خلف العجلة التي تحمل نعشه مجللا بالسواد وعلى سرجه قبعة الميت وسيفه وحذاؤه في ركاب السرج بشكل يخيل للرائي أن صاحب الجواد راكب عليه فكانت العامة إذا رأوهم على هذه الحال تجمعوا عليهم خلقا كثيرا وزاحموهم من الأمام ومن الخلف وربما دخل الصبيان بين صفوفهم فلم يكونوا ليظهروا شيئاً من الضجر فإذا وصلوا بالميت إلى المقبرة وضعوه لحظة لطيفة للصلاة عليه، وربما رثوه بشيء من الكلام يناسب مقامه أو رتبته ثم يوارونه التراب وحينئذ يطلقون بعض المدافع من قلعة الجبل أو يطلقون بنادقهم في الهواء فوق القبر ثم يعودون صفوفا كما أتوا وكانت المنية يشتدّ فعلها يوما عن يوم بين عسكرهم الهندي فأهلكت منهم خلقا كثيراً فاهتم لذلك مقدّم الجيوش ورسم بإرجاعهم إلى أوطانهم وجاءه الأمر بذلك فأخذوا

يرحلون طائفة بعد أخرى إلى مدينة السويس ومنها إلى الأقطار الهندية على ظهور النقالات والشوانى الكبار وبقيت طائفة من فرسانهم وبعض كبارهم بالمكان المعروف بالبوليجون بالعباسية وهم فى ضعف وهزال وقد شاع يومئذ أنهم سيلبثون بالقاهرة حتى يأتيهم الطلب إلى عاصمة الإنجليز فيتمثلون بين يدى امبراطورتهم فتهنئهم عن أنفسهم وعن بقية الذين أبلوا منهم البلاء الحسن فى قتال العرابيين، هذا ومن عجيب الاتفاق أن الليلة التى دخلت فيها الجيوش الإنجليزية القاهرة وضواحيها وهى ليلة الثانى من ذى القعدة سنة تسع وتسعين ومائتين وألف أى خامس عشر سبتمبر سنة اثنتين وثمانين وثمانمائة وألف كان الكثير من أهالى القاهرة ومصر القديمة عاكفين على الأعراس والأفراح والولائم وهم فى شاغل عن كل ما سوى ذلك فكانت فعالهم فى ذلك اليوم كفعالهم يوم دخول نابليون بونابرت القاهرة بجيوش الفرنسيس سواء بسواء فكأن مدارك القوم هداهم الله لم تتصل إلى شىء من الترقى من ذلك الحين إلى الآن وفى ذلك ما فيه من العجب العجاب.

ونهض أصحاب صحف الأخبار من الإنجليز يفصلون ويقيسون فى شكل موقعة التل الكبير ويلبسونها أثواب المدح والإطراء ثم جعلوا يعرّضون بذكر حروب بونابرت مع طوائف المماليك بديار مصر ويعجبون بالفرق بين ما لاقته جنود بونابرت من التعب والموات بسبب وعورة الطرق وقلة الماء وما لاقته جيوش الإنجليز من التوفيق وحسن الحظ ونسف مواقع التل الكبير فى قليل من الزمان وعدّوا أفعال مقدم عسكرهم من العجائب والآيات الحربية فرد قولهم بعض الكتاب وأكثروا من النقد والتعييب وقالوا: إن الصورة التى هجم بها قائد الإنجليز على مواقع التل الكبير كانت غاية فى الخلل بالغة حدّ الطيش الذى ما بعده إلا الخسارة والندم قالوا ولا يخطر على بال عاقل قط أن قائدا محنكا يجسر على اتخاذ تلك الخطة الهجومية على خطوط عدوّ من إحدى الدول الأوروباوية فإن إسراء تسع مراحل تحت جنح الظلام كاف وحده للجزم بالفشل والخسارة وبشؤم المصير وأن خروج مقدم عسكر الإنجليز هذا بعسكره فى نحو الساعة الثانية عربى ليلا وتركه جميع المعسكر تحت حراسة نفر من الجند وإسراءه وإياهم إلى منتصف الليل ثم تربصه ثم إسراءه لمن أكبر الأغلاط وأتعس المناورات وقد عابوا أيضاً طريقة الهجوم التى فعلها عند خطوط التل الكبير الأمامية وقالوا إنها تخالف الطرق الجديدة المعمول بها الآن فى جيوش الدول الكبرى وجزموا بوجود سر خفى فى الأمر وشىء مستفق عليه بين قائد العساكر

الإنجليزية وبين أحمد عرابى ومن معه من زعماء العصابة ولولا ذلك ما تمكن مقدم جيوش الإنجليز من الدخول على تلك الصورة الخارقة لكل فنّ ونظام عسكرى، وكتب رجل اسمه جون نينى كتاباً فى هذا الصدد يقول فيه، مالى أرى إخواننا الإنجليز ولا سيما أصحاب صحف الأخبار منهم يلهجون بذكر موقعة التل الكبير ويحسبونها كرامة لمقدم عسكرهم مع أن الأمر ليس فى شىء من ذلك البتة لأنه لما اشتدت الأزمة واستحكمت على جيوش الإنجليز حلقات الضيق قدم إلى أحمد عرابى فى ظهر ثامن عشرى شوال من السنة يعنى سنة تسع وتسعين أحد مشايخ العربان وأعلمه بأن الإنجليز على قدم الهجوم على خطوط الدفاع بعد نصف ليلة تاسع عشرى شوال المذكور بساعتين وأنهم سيسيرون بعد ذلك إلى بلبيس ليفتحوا الطريق منها إلى القاهرة فكان الذى يجب على أحمد عرابى فعله بعد أن سمع هذا الكلام أن يبادر على الفور بتحصين مدينة بلبيس جهد الاستطاعة كى لا يتمكن العدو من دخولها وهى التى كانت أول حصن لبونابرت عند زحفه على مدينة القاهرة ولكنه لم يفعل شيئاً من ذلك وأرسل إلى طلبة عصمت مقدم جند كفر الدوّار يستمده ويقول له أرسل لى المدد بحيث يكون وصوله إلى التل الكبير ضحوة تاسع عشرى شوال يعنى بعد أن تكون قد خرقت جيوش الإنجليز خطوط التل الكبير ومزقت شمل من بها من الجنود وساروا منها إلى بلبيس ليفتحوا الطريق إلى القاهرة ومع ذلك فقد جاء المدد قبل الأجل المضروب ودخل مدينة الزقازيق ولكن ما الذى رآه ياترى ذلك المدد رأى جندا شاردا كالإبل الأبقة وأشلاء قد غطت وجه الفضاء وقد تم الأمر للإنجليز وفر أحمد عرابى هاربا إلى القاهرة فعاد المدد مع من لحق به من الفارّين إلى القاهرة - قال - ومن العجب العجاب أن فى الليلة التى دخل فيها الإنجليز معاقل العرابيين كان العربان على رأس الخطوط الأمامية منها فلما سمعوا صوت أول طلق خرج من بنادق الإنجليز صاحوا وترامحوا وعلت جلبتهم وجعلوا يدوسون بأرجلهم بطون الجند النائمين فهب الجند من نومهم مذعورين لا يعرفون من معهم ومن عليهم وخرجوا على وجوههم هائمين ومع ذلك فقد قابل أصحاب المدافع منهم عساكر الإنجليز وهم لا يزيدون عن ثلاثة آلاف مقاتل فقاتلوهم فأعمل الإنجليز فيهم السيف كأنهم يقاتلونهم وجها لوجه ومع ذلك فقد راسل أصحاب المدافع الرمى على الإنجليز فأصلوهم نارا حامية - قال - ولم يبق مجال للشك أو الريب فى أن ساداتنا الإنجليز قد قبضوا على كثير من صغار الضباط المصريين

وكبارهم عندما هموا بالفرار بما أخـذوه من الرشاوى والبراطيل فأذاقوهم كأس المنون بحيث لم نر بين جثثهم جثة واحدة أو شـيئاً من مشامش أحـد العربان الذين كانوا كما قلنا على رأس الخطوط الأمامية فى تلك الليلة وبين الحصون والمتاريس ولم يكن ثمت مـا يدرأ عنهم فى تلك الساعـة نيران الإنجليـز غير أنـهم كانوا على عـهد مع محمد سلطان باشا وبينة من الأمر قبـل وقوعه ومن العجب العجاب أننا لم نر أحدا من هؤلاء العربان سيق إلى الحبوس كما ساقوا غيرهم مع أنهم كانوا لا ينقصون عن أربعة آلاف كلهم مـدججون بالسلاح بل لـم نر أحدهم أوقف يوماً موقف المسئول فليقل لنا السادة الإنجليز هل بعد هذا كله من دليل على صحة ما يزعمون وما بالهم اليوم ينكرون على جماعة العربان ذلك التوفيق والفوز العظيم الناجم عن فعالهم وما لنا لا نسمعهم يرددون آيات الشكر والثناء على سلـطان باشا جزاء ما قام به من بذل الأصفر الرنان حتى أزال به ما كان يتخلل طريق عسكرهم من العقبات وحال دون ما كان يتـرصدهم من المرابك والهلكات ـ قال ـ والحق أقول ولا أخـشى لومة لائم أن جيش الجنرال ولـسلى الذى كان يبلغ زهاء خمـسة وثلاثين ألف مقاتل كاملى الآلات والعـدد لم يقـاتل فى تلك الليلـة على خطوط التل الكبـيـر سـوى ثلاثة آلاف من المصريـين وبينهم قليل من أصحـاب المدافع وكلهم فى دهشة مـن النوم فأنه لما كـثر صياح العربان عند دنو الإنجليز من الخطوط وارتفعت أصواتهم وعلت جلبتهم خرج سائر المصريين على وجـوههم هائمين فلم يبق منهم بالمعاقل فى تلك السـاعة سوى هذا النزر القليل وعليـه فإنى لم أر فى نصرة مقـدم الإنجليز على مواقع التل الكبـير شيئاً يستوجب الاستغراب أو التفاخر والإعجاب . اهـ. بنصه.

وقد كانت رحى المناقشة إلى يوم دخول الإنجليـز مواقع التل الكبير دائرة ما بين الباب العالى واللورد دوفرين سفير الإنجليز بدار السـلطنة العثمانية على قاعدة تقرير عصيان أحـمد عرابى وخروجه عن الطاعة وكانت هذه المنـاقشة غاية فى المواربة بل كانت من قبيل إظهار غير الخـفى وإخفاء الظاهر المشاهد لأنه بعد أن كانت انقطعت المخابرة بينهما بشأن إرسال العساكر السلطانية إلى ديار مصر لأسباب ما أنزل الله بها من سلطان ووصل إلى المابين الهـمايونى الخـبر بقـيام الجنرال ولسلـى مقدّم حـملة الإنجليـز بعسكره مـن الإسكندرية إلى مدينـة بورسعـيد وأنه قـد احـتل القنطرة ثم الإسماعـيلية وأنه أخذ يقاتل الـعرابيين تباعا وأن مـساعى محمـد سلطان باشا فى استمالة العربان إلى طاعة الخـديوى قد تمت أو كادت عاد رجال الدولة إلى فتح باب

المخابرة مع السفير بشأن إرسال فريق من العسكر السلطانى إلى مصر وألحوا فى الطلب فكان السفير يطاولهم تارة ويحاولهم أخرى ثم عاد إلى المواربة فى القول فلما آنسوا منه بعض الرغبة عادوا فأظهروا عدم الرضا عن قاعدة الاتفاق الذى بموجبه يرسل السلطان عسكره، قيل: فانقبض السفير عند ذلك وانكف عن الكلام أياماً أخرى. وكان الإنجليز قد سيروا جماعة منهم فى هذا الحين إلى الشام لشراء بعض الدواب من البغال والخيل والجمال لحملتهم على مصر، فأرسل الباب العالى إلى عماله بالولايات يحذرهم من بيع تلك الدواب وخروجها من بلاد الدولة ففعلوا وقبضوا على من استخدمه الإنجليز من أهل البلاد فى خدمة هذه الدواب وألقوهم فى الحبوس، فجاء الخبر بذلك إلى السفير فاستعظمه وكبر عليه وكلم الصدر الأعظم فى ذلك وبالغ فى الشكوى وأكثر من الترداد بين الباب العالى والمابين ومازال يغدو ويروح حتى رسم السلطان فى ثامن شوال بإطلاق أمر البيع والشراء فى تلك الدواب لمن يشاء من خلق الله وأطلقوا سبيل من كانوا فى الحبوس بسببها، وأرسل السلطان بعد ذلك أحد رجال ديوانه الخاص إلى السفير يسأله أن لا يكون نزول العساكر السلطانية المزمع إرسالها إلا فى مدينة الإسكندرية فقام السفير من ساعته واجتمع بصدر الدولة وكبارها وكلمهم فى الأمر فكلموه طويلا وبعد أخذ وردّ قال السفير: إنه سيبلغ هذا كله إلى كبير السياسة الإنجليزية فوافقوه على ذلك ووافقوا أيضاً على جميع الأوجه التى كانت سببا فى الاختلاف ورفع السفير الأمر إلى كبير سياستهم ثم عاد فكلم السلطان فى إصدار فرمانه بعصيان أحمد عرابى وشقه لعصا طاعة الخلافة، قيل: فتململ السلطان وامتنع فألح السفير فشدد هو فى الامتناع ورسم إلى رجال دولته فجعلوا يطاولون ويحاولون ويهوّنون على السفير الأمر والسفير لا يزداد إلا تشديدا فى الطلب وسير إلى الصدر الأعظم يوما من يقول له: أن دولة الإنجليز لا تعتبر إرسال العسكر السلطانى إلى الإسكندرية أمرا مقضيا وأنه لا يصير التوقيع على الاتفاق المبرم بشأن ذلك حتى يصدر السلطان فرمانه بعصيان أحمد عرابى ومن معه، وباتوا وأصبحوا وقد جاء الخبر من صاحب سياسة الإنجليز برفض طلب السلطان نزول عسكره بمدينة الإسكندرية فكبر الأمر على السلطان ورسم إلى الصدر الأعظم بمعاودة السفير وفتح باب المخابرة معه، وأنه متى تم إرسال العساكر السلطانية إلى الإسكندرية رسم السلطان بعصيان أحمد عرابى، وطير الخبر بذلك إلى الآفاق فعاد الصدر إلى الكلام مع السفير وأظهر غاية اللين والتلطف وثابر على الكلام مع

المجاملة لعله ينال أربا فلم يفلح، قيل: فأرسل إلى الولاة ثانية يمنع من خروج دواب الحمل لحملة الإنجليز على مصر ففعلوا وأحس السفير بذلك فانكف عن الكلام مع رجال السلطنة أياماً فراسله الصدر الأعظم فى ذلك فامتنع وقال: لا سبيل إلى ما تطلبون فسير إليه من يعلمه بأنّ أمير المؤمنين لا يمتنع من قبول نزول عسكره بأبى قير عوضا عن الإسكندرية فإذا وافقت دولته على ذلك وصار التوقيع على العهد أصدر السلطان فرمانه بعصيان أحمد عرابى ومن معه فأظهر السفير رضاه بهذا الشرط، ولكنه طلب قبل كل شىء أن ينفذ الأمر لسائر الولاة والعمال بالكف عن منع خروج الدواب من ولاياتهم فأجابه الصدر إلى ما طلب، وشاع الخبر بذلك فى دار السلطنة فظن الناس أنه لم يبق بعد هذا كله من سبب للمواربة والتكلف لا سيما وقد ورد على بعض رجال الدولة الخبر بتقدم العساكر الإنجليزية وتغلغلهم فى جوف البلاد المصرية وانضمام بعض كبار العربان إليهم، فلما كانت ليلة سادس عشر شوال سار سعيد باشا صدر الدولة إلى دار سفير الإنجليز وأعلمه بأن أمير المؤمنين ميال كل الميل إلى التعجيل بتسيير عساكره إلى أبى قير كما وقع الاتفاق فلم ير من السفير فى ذلك اليوم وجها باشا ولا صدرا رحبا فانصرف عنه وعاد إليه فى ثانى يوم ومعه كاتم أسرار السلطان. وقال: الخليفة يقرئك السلام ويقول أنه لم يكن ليأنف قط من تنفيذ رغائب صاحب السياسة الإنجليزية كما هى إذا تساهل فى نزول عساكره السلطانية بمدينة الإسكندرية كما أنه لا يحجم أيضاً عن تقليل عددهم المتفق عليه ابتداء وتنزيله إلى ألفين أو ألف مقاتل وأنه يرسل معهم باكر باشا الإنجليزى قائدا ثانيا ولا يمنعه من أن يأخذ معه من الضباط الإنجليز من يشاء بحيث تبقى العساكر السلطانية فى ديار مصر فى هذه الحملة تحت المراقبة الإنجليزية كما كانت أيام الحرب الروسية، قيل فرفع السفير محصل هذا الكلام إلى صاحب سياستهم فلم يرد عليه الجواب أو ورد ولكنه لم يبلغه إلى الصدر الأعظم، وجعل يطاول ويحاول إلى أن وردت إليه الأخبار بنجاح حملتهم وتحقق من تمام استمالة بعض كبار الضباط المصريين وصغارهم ومشايخ قبائل العربان وجاءه الأمر من صاحب سياستهم بأن يبلغ السلطان أن حكومة الإنجليز كانت لا تتأخر عن قبول شروط إرسال العساكر الشاهانية إلى مدينة الإسكندرية لولا ما يحول دون ذلك من الدواعى والأسباب الكثيرة ولكنها مع ذلك لا تمتنع من قبول إرسال ألفين منهم وتنزيلهم فى أحد مواقف ترعة السويس، قيل: فلما سمع السلطان هذا الكلام حزن جدا لا سيما وقد

جاء الخبر فى هذا الحين إلى المابين والباب العالى بتغلغل ولسلى وعسكره فى جوف البلاد وأن قد انضم الكثير من كبار الضباط وصغارهم إلى جهة الإنجليز فأرسل السلطان الصدر الأعظم إلى دار السفير يقول: إن أمير المؤمنين يقبل تنزيل عسكره فى مدينة بورسعيد وأنه فى مقابلة ذلك يتعهد بإصدار فرمانه بعصيان أحمد عرابى وسائر زعماء الثورة بديار مصر فأظهر السفير رضاه عن ذلك ولكنه لم يبد جوابا شافيا.

فلما كان رابع عشرى شوال سار السفير إلى الباب العالى صباحا ومعه ورقة مسطور فيها العهد المراد إبرامه بشأن إرسال العسكر السلطانى ودخل إلى مقر الصدارة ولم يستقر به المقام حتى جاءه من أعلمه بصدور الفرمان الشاهانى القاضى بعصيان أحمد عرابى فسر بهذا الخبر سرورا عظيما، ولكنه لما اطلع عليه لم يعجبه وانقلب سروره حزنا أو هو تظاهر بذلك وقال إنه لم يتضمن شيئاً البتة من الأسباب والقواعد التى وقع الاتفاق عليها فراجعه الصدر الأعظم فلم يلتفت إليه وامتنع من التوقيع على ورقة العهد القاضى بإرسال العساكر الشاهانية إلى مصر فعاوده الصدر ولاطفه وهوّن عليه، وقال: لابد من إرجاع كل شىء إلى ما وقع الاتفاق عليه وسأله أن يطلعه على ما فى ورقة العهد فأطلعه عليها فإذا هى لم تعين مدينة بورسعيد محطا للعساكر السلطانية كما وقع الاتفاق على ذلك بل تبيح نزولهم على ضفاف ترعة السويس ليس إلا فاستاء الصدر الأعظم من ذلك، وقال للسفير: وددت أن لا يبقى بيننا من الآن شىء من المواربة فقد ذهب الصبر واختلط الحال والعهد الذى أبرم بيننا إنما هو على جعل مدينة بورسعيد محطا لعساكرنا وقد وافقتمونا على ذلك فلا موجب إذا أن تعدلوا فتركه السفير وانصرف ثم عاد وقد كتب فى تلك الورقة ما نصه: أن حكومة جلالة الملكة تبيح للعساكر السلطانية الرحيل إلى مدينة بورسعيد ومنها إلى الموقع أو المواقع التى يحصل الاتفاق عليها ما بين مقدمى الجيشين . اهـ.

(قلت): وقد قصدوا بذلك أن العساكر السلطانية يأتون فيمرون من ترعة السويس ولا ينزلون على ضفافها إلا حيث يأمرهم مقدم عسكر الإنجليز، فأبى السلطان عليهم ذلك، وقال: لا بل ينزلون بمدينة بورسعيد فوعد السفير بتبليغ هذا الكلام إلى صاحب سياستهم وانكف عن مقابلة الصدر الأعظم أياما فأحس رجال الدولة بما وراء هذا التطويل وأدركوا ما يترصدهم من الخيبة لا سيما وقد جاءتهم

الأخبار يومئذ بقرب تغلب الإنجليز على أصحاب التل الكبير وأنهم قد طيروا الخبر بعصيان أحمد عرابى وخروجه عن طاعة أمير المؤمنين كماتقدم القول.

وفى سادس عشرى شوال سار الصدر الأعظم إلى مقر سفير الإنجليز متأبطا بعض الأوراق وصورة من العهد المتعلق بإرسال عساكرهم إلى ديار مصر ومذكرة للتوقيع عليها من السفير وكلمه فى الأمر، وقال: قد رسم أمير المؤمنين بأن لا يمكن التغاضى عن عدم ذكر هذه العبارة فى بنود الاتفاق وهى: «ينزلون بمدينة بورسعيد» فأبى السفير عليه ذلك. وقال: لا بأس من أن نأتى على تفسيرها فى سطور المذكرة بهذه العبارة «تسير العساكر الشاهانية قاصدة مدينة بورسعيد لكى تتمكن من الدخول من خليج السويس» وكانت تلوح على وجه السفير فى هذا الحين لوائح الاضطراب والوجل وكأنه كان يتوقع حدوث حدث جديد وكان فى كل لحظة يدخل عليه أحد بطانته فيكلمه همسا فكان تارة يحمر وجهه فرحا وأخرى يصفر وجلا ورجال الدولة فى شاغل عنه بمراجعة بنود الاتفاق وقراءة عبارة المذكرة ثم أعادوا معه الكلام فلم يقبل إلا ما أشار به وأصر على الامتناع فقاموا من عنده وانقطع الكلام بينهم أياماً أخرى، فلما كان تاسع عشرى شوال وردت الأخبار إلى السفير بانتصار الجنرال ولسلى على العرابيين ودخوله القاهرة فأشاع السفير هذا الخبر وطيره إلى الآفاق فجاءه فى ذلك الحين الصدر الأعظم وناظر الخارجية وكلماه فى أمر إرسال العساكر السلطانية إلى بورسعيد وفى تعديل بنود العهد وكأنهما لا يعلمان شيئاً مما حل بالعرابيين، فلما سمع السفير كلامهما تبسم وقال: قد ضاعت الفرص وذهبت الآمال بل قضى الأمر فلم يبق من موجب لإرسال العساكر السلطانية وقد انتصرت ولله الحمد عساكرنا وظفر مقدم جيوشنا بأهل الثورة ظفرا مبينا، قيل: فأظهر الصدر الأعظم استغرابه من هذا الخبر وقال: وكيف ذلك؟ فقال السفير: نعم وقد أتانى الأمر بأن استرجع صورة الاتفاق التى قد كنت بعثت بها إلى المابين ولقد كانت حكومة جلالة ملكتنا تودّ أن لا تعمل إلا ما فيه إرضاء أمير المؤمنين غير أن الظروف لم تأت بالغرض ولكنها لم تغير قط شيئاً من العلائق الودية الكائنة بين الدولتين من القدم فقال ناظر الخارجية: أى نعم وأن حكومة عظمة أمير المؤمنين لا تنسى قط ماهية الحب المتبادل بينها وبين حكومة جلالة الملكة، وعليه فإنى أسأل باسم مولانا أمير المؤمنين ما هو الأجل الذى ضربتموه لجلاء عساكركم عن أرض الكنانة فطفق عند ذلك السفير يحدثهم بخبر ما لاقته العساكر الإنجليزية من التعب

أمام حصون التل الكبير وجعل يبالغ فيما بذلته حكومة جلالة الملكة من النفس والنفيس حبا فى إرجاع الهدوء والطمأنينة إلى البلاد بعد أن كادت تقوض الفوضى ربوعها إلى أن قال: ولقد زادت هذه الضحايا فى نفوذنا نفوذا آخر نجم عنه مسئولية عظيمة لا يمكن التخلى عنها لا سيما وقد انحل الجيش المصرى وأصبح خديوى البلاد فى حاجة إلى تدبير حكومته وإرجاع سابق سلطته فلا يجمل بدولة بريطانيا فى هذا الوقت إجلاء عساكرها وترك البلاد بلا حافظ ولا رقيب على أنها مع ذلك قد رسمت بجلاء فريق منهم وهى على عزم أن لا تبقى منهم أحدا فى جوف البلاد متى سمحت الظروف بذلك إلى أن قال: ولا أرى نفسى مقصرا فى القيام برغائب أمير المؤمنين كما لا ينكر جلالته علىّ ذلك ولكن إعراض جلالته عن الأمر فى حين وجوب الإقبال والتزامه جانب التطويل فى الوقت الذى كان يجب فيه الاختصار كلاهما كان باعثا على وقوع ما وقع ومع كل ذلك فإن رباط المودّة بين الدولتين لا ينفصم أبدا فقام الصدر الأعظم ومن كان معه وانصرفوا وشاع فى الأستانة خبر دخول جيوش الإنجليز إلى القاهرة فاضطرب الناس وأخذتهم الطيرة وقبحوا فعال الصدر الأعظم ووزير الخارجية ورموهما بالخيانة وسوء النية واتهموهما ببيع أملاك الدولة بثمن بخس وقامت الفتنة فى السراى السلطانية وتفرقت أغراض أهل المابين ورمى كل رفيقه بالغش والخيانة وانكشف من أسرارهم المضحك والمبكى، وتكلم أصحاب صحف أخبارهم فى هذا الأمر وتوسعوا فى القول وكادوا يفضحون ما استترت معرفته عن الناس فمنعوهم وهددوهم فانكفوا وفى القلوب ما فيها وقد صدق من قال: وقد يغلب المقدر على التقدير حتى تكون الآفة فى التدبير فالله حسبنا وكفى.

ورسم الخديوى بخلع سائر المديرين والمحافظين وسائر المأمورين الذين استلموا زمام الوظائف على عهد أصحاب الثورة فخلعوا، ورسم أيضاً بصرف سائر العساكر المصرية ورجوعهم إلى أوطانهم فتفرقوا ولم يبق منهم بالقاهرة إلا نفر قد لبسوا لباس العامة ودخلوا فى خدمة بعض الناس وكذلك رسم بتشكيل لجان خصوصية لتحقيق حادثتى رابع عشرى رجب ورابع عشرى شعبان سنة تسع وتسعين بمدينة الإسكندرية وفى طنطا وأخرى بالمحلة الكبرى لتحقيق ما وقع بهما من القتل والحريق ثم أرسل مصطفى رياض باشا الذى ولى نظارة الداخلية إلى المديرين والمحافظين يستقدم من وقع القبض عليهم من أهل كل بلد ممن كان لهم يد فى إضرام نار الفتنة

فسيروا بهم مكبلين بالحديد عشرات عشرات وهم فى أتعس حال وقام المأمورون بعمل التحقيق فجيء لديهم بالمتهمين من كل فج عميق فخاف الناس وأوجس كل شرا من عدوّه وصديقه إذ كثر أصحاب السعاية على باب مصطفى رياض باشا وتزاحموا على ديوانه وتسابق الغريم إلى النكاية بغريمه والجار إلى الإضرار بجاره لأقل سبب ،وأنشئت محكمة عرفية فى القاهرة وجعل رئيسها محمد رؤوف باشا وأخرى رئيسها إسماعيل أيوب باشا، فاختصت محكمة رؤوف باشا بالحكم فى جميع الدعاوى التى ترفع من اللجنة الخصوصية وجعلوا أحكامها فى ذلك قطعية لا تقبل الاستئناف وشكلوا لجنة عسكرية أخرى بالإسكندرية لتحكم أيضاً فى القضايا التى ترفع إليها من محكمتى الإسكندرية وطنطا المخصوصتين حكما قطعيا لا يقبل الاستئناف وكثر القبض على الناس وانبث أصحاب الشرطة يبحثون على الفارّين من المتهمين فكانت شدة عظيمة للغاية كل هذا والخديوى بالإسكندرية يتابع إصدار المراسيم بإعادة النظام وترويج الأعمال كسابق مجراها، فلما كان حادى عشرى ذى القعدة قام الخديوى من الإسكندرية إلى القاهرة فدخلها فى الساعة السابعة عربى نهاراً وكانت طوائف الجند من الإنجليز والهنود مشاة وركبانا مصطفين ذات اليمين وذات الشمال من محطة السكة الحديد إلى سراى عابدين فلما نزل من القطار ونزل معه الدوق أوف كانوت ثالث أولاد ملكة الإنجليز، وكان هذا الدوق قد حضر للقتال كقائد فرقة من العساكر الإنجليزية، أطلقت المدافع من قلعة الجبل وفسحة المحطة تباعا وصدحت الموسيقى بالنشيد الخديوى وهتف الجند بأصوات التهليل فركب عربة يجرها أربعة من جياد الخيل وركب على يساره الدوق المشار إليه وجلس أمام الخديوى ولسلى مقدم الجيوش الإنجليزية وأمام الدوق المستر مالت قونصل جنرال الإنجليز وكلهم بملابس الزينة والتشريف وخلف العربة طوائف الحرس وكبار الضباط وكوكبة من الفرسان وما زال سائرا بين صفوف الجند وأصوات التهليل ودعاء العامة المتواصل وزغاريت النساء من أعالى البيوت حتى نزل بمقرّه بعابدين وأمر فعملت الولائم والمآدب لكبار عسكر الإنجليز أياماً كثيرة وأهداهم نياشين الافتخار من كل رتبة وصنف وأحدث نيشانا جديداً من المعدن المعروف بالبرنز على شكل زاوية سماه النجمة المصرية وأهداه لجميع الجنود الإنجليزية الذين شهدوا قتال مواقع كفر الدوار والتل الكبير، ثم أتت جميع الجنود الإنجليزية إلى القاهرة فلم يبق منها إلا نفر بالإسكندرية وبورسعيد والإسماعيلية فاستعرضها الخديو برحبة عابدين بين عزف

الموسيقى وأصوات المدافع وكانوا قد أعدّوا لذلك كشكا لطيفا فى وسط الرحبة وزينوه بالبيارق والرايات وكان بين هذه البيارق والرايات الراية الإنجليزية فجلس الخديو بالكشك ومر الجند من أمامه تباعا على أشكال متنوعة واتفق أن جلوس الخديو بذلك الكشك كان تحت الراية الإنجليزية وعلى يمينه الدوق أوف كانوت فتطير الناس من ذلك وخافوه وترامت ظنونهم فى ذلك اليوم إلى المرمى البعيد وجعلوا يتساءلون عن معنى ذلك الاستعراض وما فيه من الرموز والإشارات الخفية وما ينجم عن جلوس الخديو تحت ذلك العلم الإنجليزى.

وانقضت ليالى الأفراح والولائم على أحسن ما يكون من الأبهة والزينة وعادت الأعمال الديوانية إلى سابق مجراها فجعل الوزير محمد شريف باشا يدبر الأمور على أحسن ما يكون من التدبير وقد رأى أن فى بقاء جميع العساكر الإنجليزية فى جوف البلاد خطرا دائما وكمدًا ملازما فكلم قونصل جنرال الإنجليز فى ذلك وكشف له عما فى سياسة بقاء جيوشهم بالقاهرة من الخطل وضعف الرأى وطال الأخذ والرد بينهما أياما حتى تقرر الاتفاق على بقاء اثنى عشر ألفا منهم بين القاهرة والإسكندرية وطالبت حكومة الإنجليز الخزينة المصرية بنفقة هذه الجنود ورسمت بصرف ثمانية وأربعين ألفا ذهبا فى كل شهر ما دامت هذه الجنود قائمة بحراسة البلاد، قالت: حتى يستتب الأمن وتتوطد الراحة وتقوى الحكومة الخديوية على القيام بشئونها المالية والإدارية منفردة، ثم رحل عن القاهرة سائر الجنود الذين حصل الاتفاق على تسفيرهم وعاد الجنرال ولسلى إلى عاصمة بلاده وقد أهداه كبار القاهرة وأعيانها سيفا من الصنعة المصرية منقوشا عليه هذه العبارة (هدية من المصريين إلى الجنرال ولسلى قائد الجيوش الإنجليزية). ولم يكد يستقرّ بالجنرال المقام فى عاصمة بلاده حتى قدم إلى القاهرة اللورد دوفرين سفير الإنجليز فى دار الخلافة لينظر فى تنظيم أمور البلاد على ما تقتضيه المصلحة الإنجليزية فقوبل بغاية الاحتفال وأنزلوه مع حاشيته وبطانته بقصر النزهة بشبرا من ضواحى القاهرة فلبث به أياما ثم انتقل إلى دار قطاوى بيك بخطة الإسماعيلية فلازمه بعض الأجانب النازلين بمصر ممن يدعون العلم بعادات البلاد وأخلاق أهلها وما يحتاجونه من خير أو إصلاح شر فقصوا عليه ما وصلت إليه معارفهم وبث هو كذلك العيون لتأتيه بأخبار العامة وما يقوله أهل البلاد، وجعل يوالى الاجتماع تارة بالخديوى وأخرى بالوزير محمد شريف باشا ويكثر من التطواف فى شوارع القاهرة وبين مجتمعات العامة وظل على

هذه الحال أياما، ثم حرر تقريرا فى غاية التطويل والإسهاب وقسمه إلى أبواب وفصول دوّن فيها ما شاء من احتياجات البلاد المالية والإدارية والقضائية وما ينفعها من النظامات الداخلية وبالغ فى إظهار حاجتها إلى ترتيب أمر الجندية وأصحاب الشرطة أوّلا، ثم جعل المراقبة على جميع مصالح الحكومة فى حالة أقوى وأكمل مما هى عليه الآن، ثم توسيع نطاق المصالح الأميرية المتولى إدارتها الموظفون الأجانب وتقليل عدد الموظفين بالدواوين من المصريين، قال: وهم الذين ضاقت بهم تلك المصالح لكثرتهم، وتنظيم محاكم عدلية على نظام يناسب حال أهل البلاد والمساواة بين الأجانب والأهلين وإنشاء هيئة شورية تكون حاصلة على شىء من الحرية واستقلال الفكر ولا بأس من أن تكون هذه الهيئة هى مجلس نواب البلاد أو ما يشابهه وإبطال تجارة الرقيق وقطع دابر الاسترقاق وتأمين طرق التجارة وسبل الاتصال ما بين الديار الأوروباوية والشرق عن طريق مصر وعلى الخصوص جرية المرور من خليج السويس، هذا أهم ما جاء فى تقرير دوفرين هذا، فلم تتناوله الأيدى حتى قابله أصحاب صحف الأخبار المحلية بألسنة الطعن وعابوا عليه كثيرا من الملاحظات ولا سيما ما يتعلق منها بخدمة الحكومة وأرباب الوظائف وشددوا عليه النكير ورموه بالخلط والخبط، وقالوا: إنما هى سفسطة نقلها عن رسله الذين كانوا يجوبون القرى ويطوفون البلاد وينقلون عن حرافيشها وزعانف النزلاء فيها الذين لا خبرة لهم ولا دراية بالأمور فما هو إلا كلام فى كلام فى كلام. فلم يلتفت دوفرين إلى هذا كله ولم يعبأ به وعمد إلى الاهتمام بأمر من كانوا فى الحبوس بتهمة الاشتراك فى الفتنة وقد غصت بهم وضاقت إذ بلغت عدتهم يومئذ ألفا ومائتى مسجون لم يحسب بينهم محمود فهمى وأحمد عرابى وطلبة عصمت ومحمود البارودى ويعقوب سامى وعبد العال حشيش وعلى فهمى وعلى الروبى وغيرهم من كبار العصابة ومقدمى الثورة، فكلم مصطفى رياض باشا فى ذلك وسأله التعجيل فى أمر أولئك المتهمين وفك قيود البرىء منهم فأعظم مصطفى رياض باشا هذا الكلام وأكبره لأنه لا يستطيع أن يرى يدا فوق يده أو كلمة سابقة لكلمته فلم يلتفت إلى ذلك ولا أحل طلب دوفرين محله وقد وردت الشكاوى تترى على مقر دوفرين من أصحاب الحبوس يعدّدون فيها ما يقاسونه من أليم العذاب وأشكال الضيم وذهب بعض نسائهم وذراريهم إلى مقرّه يبكون ويتوجعون إليه مما يلاقيه أهلهم من الجور والعسف من مصطفى رياض باشا ويسألونه الرحمة بأنفسهم والرأفة بأهلهم، فهال

دوفرين أمرهم وأحزنه وقيد جماعة من كبار ضباط الإنجليز بتفتيش جميع السجون التى بالإقليمين القبلى والبحرى وسماع ظلامة سائر من بها من أهل البلاد فذهبوا وعادوا وقصوا عليه من أخبار تلك السجون ما تنفطر من سماعه القلوب لا سيما حبوس الشرقية ومنية ابن خصيب فتقدم إلى الخديوى فى العفو عن سائر أصحاب الجرائم الصغيرة فأجابه إلى ذلك ورسم بالعفو عن سائر صغار الضباط إلا من كان منهم فى مظاهرتى غرة ربيع الأول ورابع عشرى شوال سنة ثمان وتسعين ومن كان تحت السلاح وقت مذبحة حادى عشر يوليو سنة اثنتين وثمانين ميلادية أى رابع عشرى شعبان سنة تسع وتسعين ولبثوا فى الخدمة العسكرية إلى حين ظهور الفتنة واضطرام نارها وماعدا الذين دخلوا فى الخدمة العسكرية باختيارهم بعد اشتداد الفتنة ووقوع مذبحة حادى عشر يوليو المذكور فسكنت عند ذلك خواطر الناس قليلا وزال عنهم بعض الخوف، قال بعض الكتاب: فلم يرق هذا فى عينى مصطفى رياض باشا وأغضبه فنزع إلى التفرد بالأمر وعمد إلى معاكسة اللورد دوفرين فشدّد فى تعقب أعمال أحمد عرابى وأصحابه وضيق عليهم وهدد فأحس دوفرين بما وراء ذلك وأدرك أن العاقبة إنما هى شر على أحمد عرابى وأصحابه، وفى ذلك نكث لعهدهم معه فرسم بوجوب التحقيق مع أحمد عرابى وأصحابه بالطرق العادلة ورفع الأمر بعد ذلك إلى محكمة لتحكم فيه ومنع تعرض مصطفى رياض باشا وكفه عن العبث بالنظام الذى جاءت الجيوش الإنجليزية لتثبت أركانه، قال المستر شارلس رويل أحد كتاب الإنجليز فى كتاب ألفه فى حوادث مصر الأخيرة، فامتعض لذلك مصطفى رياض باشا وأبى إلا معاقبتهم بغير تحقيق وألح على اللورد دوفرين فى ذلك فلم يقبل وصمم على إجراء التحقيق والتزام جانب العدالة ورسم بسرعة العمل فزاد امتعاض مصطفى رياض باشا واشتد به الغيظ إلى حد لم يطق معه السكوت فسار إلى مقر اللورد دوفرين وكلمه طويلا واحتد وأغلظ فى القول فلم ير من اللورد دوفرين أذنا واعية ولا وجها طلقا فتركه ودخل على الوزير محمد شريف باشا وكلمه أيضاً فى ذلك فقال الوزير: لابد من التحقيق ورفع الأمر إلى محكمة، فكاد مصطفى رياض باشا يتميز غيظا وسأل الوزير أن يقيله من منصبه فأجابه إلى ما طلب بغير معاودة، وقد قيل: فى أمر تنزيله من هذا المنصب أقوال أخرى أضربنا عن ذكرها ومن هذا الحين أصبح عمل التحقيق مع أحمد عرابى وأصحابه ورفع نتيجته إلى محكمة تحكم عليهم بما تراه أمرا مقضيا لا رادّ له.

وكان لما أخذ الإنجليز محمود فهمى أسيرا فى موقعة القصاصين على ما تقدم بيان ذلك فى حينه وأتوا به إلى الإسكندرية أرسل المستر مالت قونصل جنرال الإنجليز إلى اللورد جرانفيل زعيم أو صاحب سياستهم يقول: أن الجنرال ولسلى مقدم جيوشنا فى مصر يرى أن من مواجبه تسليم جميع الأسرى الذين يؤتى بهم من ساحة القتال إلى سلطة وتصرف الخديوى فأجابه اللورد جرانفيل إلى ذلك بشرط عدم الحكم على أحد منهم بالقتل ما لم تصادق على ذلك حكومة الملكة، فاعلم القونصل الخديوى بذلك فقبله واشترط على نفسه أن لا يأتى أمرا فى حقهم قبل أن تعترف به دولة الإنجليز، فلما كان سلخ ذى القعدة قدم إلى القاهرة رجلا اسمه مارك نابيير من كبار علماء الشريعة الإنجليزية ومعه آخر اسمه ريشارد آيث وتقدما إلى المحاماة والدفاع عن أحمد عرابى أمام المحكمة التى سيرفع لها أمره فمانع فى ذلك الوزير محمد شريف باشا، وقال: أن الشريعة المعمول بها فى بلاد مصر لا تبيح للمجرمين اختيار من يدافع عنهم ولا إجراء التحقيق معهم علانية ولا تجيز وجود أحد من الأجانب فى هيئة المحكمة وأبلغ هذا الكلام إلى المستر مالت فرفعه إلى زعيم سياستهم فورد الجواب على غير ما يرضاه الوزير وصمم الزعيم المشار إليه على وجوب الدفاع عن أحمد عرابى ورفقائه وعلى تنفيذ ما أشار به مما يتعلق بكيفية المحاكمة فبعد أخذ وردّ طويلين قبل الوزير محمد شريف باشا ذلك بشرط أن يكون المحامى عن أحمد عرابى مصريا لا إنجليزيا فلم يقبل اللورد جرانفيل، وأعاد القول بترك الدفاع عن أحمد عرابى إلى من يختاره هو لنفسه من أى جنسية كانت بشرط اجتناب جميع وسائل الإكراه والتهديد فامتنع الوزير من قبول ذلك وطال الأخذ والرد بين الفريقين أياماً وقفت فيها رحى التحقيق ثم عادت على ما رسم به زعيم السياسة الإنجليزية رغما عن كل مكابرة وعناد، وانقسمت الآراء وتباينت الأقوال فى أمر دفاع الإنجليز عن أصحاب الثورة ومحاماة كبار شريعتهم عن أحمد عرابى فكان الناس فى ذلك على طرفى نقيض لاسيما أصحاب صحف الأخبار المحلية فقد قام بعضهم ينادى بوجوب تسليم أهل الثورة لشريعة البلاد ومنع دفاع الإنجليز عنهم وعدم مس كرامة الشريعة المطهرة فلم يجدوا لندائهم من مجيب، ونزع فى عاصمة الإنجليز جماعة من كبارهم وآخرون من كتابهم وجعلوا يصيحون بألسنة أقلامهم واعدالتاه وا إنسانيتاه وأمرحمتاه، وكان فى مقدمة هؤلاء القوم السير وليم جريجورى والمستر بلانت اللذان تقدم لنا الكلام عما فعلاه، وجاء بلانت هذا برجل من أصحاب الشريعة الإنجليزية اسمه برودلى وقيده بالدفاع عن أحمد عرابى، وكان

هذا الرجل من موظفى حكومة الهند ثم انفصل عنها ولحق بباى تونس مولاى حسن باى فقدم القاهرة فى رابع عشرى ذى القعدة وطلب الاجتماع بأحمد عرابى فلم يسمحوا له بذلك، فاستعان هو ومن معه من جماعة الكتاب والمحامين بقونصل جنرال الإنجليز فأعانهم ونزع إلى مساعدتهم وطلب من الوزير محمد شريف باشا جعل التحقيق مع أحمد عرابى وبقية أهل الثورة علنيا فطال بين الفريقين الجدال وكثر القيل والقال وأبى القونصل إلا ما أراد ومازال حتى تقررت القاعدة على تسليم أمر الدفاع عن أحمد عرابى وأصحابه وعمن يشاء من بقية المجرمين إلى برودلى هذا وتقييد بوررللى بيك أحد محامى الحكومة بإقامة الدعوة العمومية ثم تعينت أوجه التهم وأسبابها فكانت ـ أولاً ـ تهمة أحمد عرابى وطلبة عصمت ومحمود سامى ومحمود فهمى وعمر رحمى كاتم سر أحد عرابى بكل ما حدث من الأضرار المترتبة على رفعهم الراية البيضاء على طوابى الإسكندرية فى يوم الأربعاء خامس عشرى شعبان، ثم إخراجهم جميع العساكر المصرية من المدينة وإضرام النيران فيها، بينما كانت تلك الراية تخفق على حصونها ـ ثانيا ـ تهمة أحمد عرابى وطلبة عصمت ومحمود سامى ومحمود فهمى وعمر رحمى وعلى فهمى بتحريض الناس وحضهم على حمل السلاح والخروج عن طاعة أمير البلاد وماترتب على فعالهم هذه من القتل والنهب والسلب وإراقة دماء الأبرياء من النساء والأطفال ثم تهمة أحمد عرابى ومحمود فهمى وطلبة عصمت ومحمود سامى باستمرار القتال ومحاربة الإنجليز بعد علمهم بإتمام الصلح وتقرير قاعدته. وشاع الخبر بذلك وكثر طلب أصحاب التهم من العامة وصغار الموظفين بمحكمتى طنطا والإسكندرية واشتد أصحاب الشرطة فى البحث عن الفارّين منهم فكبسوا على الكثير من الدور والوكائل فعظم خوف الناس وكانت شدة بالغة.

فلما كان سابع ذى الحجة انتظم مجلس التحقيق فأتوا بأحمد عرابى ورفاقه وخلفهم الحراس من أصحاب الشرطة بالبنادق والحراب فكان لايرى على وجه أحمد عرابى شىء من الاضطراب أو الخوف بل كان ساكن القلب هادئ اللب، وكان إذا سئل أجاب بلا تردد ولا تلجلج وأكثر من الاحتجاج بل ندد وقبح وعاب عليهم ما يرمونه به من العصيان والخروج عن طاعة الخليفة وأمير البلاد وقدم إلى هيئة المحكمة كثيراً من الرسائل التى كانت تأتيه من كبير المابين الهمايونى ومن كاتم أسرار أمير المؤمنين ومن الشيخ أحمد أسعد إمام السراى السلطانية وكلها استنهاض

وتحريض وتشجيع على التظاهر بما كان وإعلاء كلمة السلطان فى داخل البلاد. قال أحد الكتاب العارفين بحقائق هذه الأمور بعد كلام طويل: وقد نجحت تمام النجاح تلك الدسائس الإنجليزية وفازت فى دار السلطنة عامى أحد وثمانين وثمانمائة وألف ميلادية واثنين وثمانين فإنه ما تظاهر أحمد عرابى مظاهرته الحربية بميدان عابدين التى لم يكن القصد منها إلا تنزيل مصطفى رياض باشا ورفاقه من منصب الوزارة حتى حض الإنجليز الباب العالى على انتهاز هذه الفرصة للحصول على سلطة فعلية فى بلاد مصر فأطاع وعمل بما أشاروا، فلما رأوا فلاح سياستهم والعمل بمشورتهم زادوا وغرروا برجال الدولة ومنوا السلطان بالأمانى البعيدة التى منها محو امتيازات عائلة محمد على باشا الكبير وإعادة مصر إلى ولاية عثمانية خاضعة تماماً للباب العالى إن هو عمد إلى تعضيد أحمد عرابى وأصحاب الحزب الوطنى ـ قال: ولم يقف أرباب السياسة الإنجليزية عند هذا الحد من التغرير بالسلطان ورجاله بل أوعزوا أيضًا إلى أصحاب صحف أخبارهم أن يساعدوا على نوال هذه الحظوة فصاحوا بالثارات السلطان عبد الحميد وأشاروا على دول أوروبا بأن تسأل الباب العالى فى إرسال جيوشه المظفرة لإخماد نار هذه الثورة التى لا يقوى على إخمادها إلا العساكر العثمانية، فاغتر الباب العالى بذلك أيضًا واندفع دفعة أخرى فى غير طريق الهدى وسير إلى القاهرة جماعة من المابين والسراى السلطانية بينهم الشيخ أحمد أسعد وقدرى أفندى ليؤكدوا إلى أحمد عرابى ورفاقه تعضيد أمير المؤمنين لهم فنشط عند ذلك أحمد عرابى وتجرد للدفاع عن حقوق أمير المؤمنين فمالت إليه قلوب أهل البلاد واستمال إليه من كان يخالفه من قبل ومن بعد ا.هـ.

وقدم أيضًا أحمد عرابى إلى هيئة المحكمة عدة محاضر موقعًا عليها من عمد وأعيان البلاد يمتدحون فيها أعماله ويشكرونه على نهضته ويسألون له النجاح والفلاح ويطلبون منه الاستمرار على الدفاع عن حقوق الوطن وأهله ومحاضر أخرى منهم أيضًا بمعنى ما ذكر إلى رئيس المابين الهمايونى فأعجبت هذه الأوراق جماعة الإنجليز وعظمت لديهم الأمر واشتد بها أزر برودلى الذى تقيد بالمحاماة عن أحمد عرابى ورفاقه فبالغ فى الدفاع وشدد فى الحجة وأعانه على ذلك جماعة من كبار دار الندوة الإنجليزية وجماعة من أصحاب الكلمة فى دولتهم إذ قام منهم الخطباء والفصحاء يشدون النكير على رجال السلطنة العثمانية ويرمونهم بالخديعة والمكر، فتبدلت عند ذلك الأحوال وتبددت الآمال وانقلبت من طور إلى طور ومازالت

الأمور بين أخذ ورد وإقبال وإدبار حتى ثبت عصيان أحمد عرابى ورفاقه فكتب رئيس لجنة التحقيق إلى برودلى يقول: قد صار من المقرر فى نية هيئة مجلس التحقيق إحالة أحمد عرابى على المحكمة القانونية التى تشكلت للحكم على العصاة وأصحاب الثورة حيث قد تراءى وجوب محاكمتهم بالعقوبة المنصوص عنها بالمادة الثانية والتسعين من القانون العسكرى العثمانى وبالمادة التاسعة والخمسين من قانون الجزاءات الهمايونى. وشاع الخبر فاختلف الناس فيما سيكون من وراء ذلك وتفرقت آراؤهم وترامت ظنونهم إلى المرمى البعيد وكلهم مجمع على فشل الحكومة وفوز جماعة الإنجليز.

(مطلب)

محاكمة أحمد عرابي ومن معه من العصاة

فلما كان يوم الأحد ثانى عشرى محرم الحرام افتتاح سنة ثلثمائة وألف هجرية أى رابع ديسمبر ختام سنة اثنتين وثمانين وثمانمائة وألف ميلادية اجتمعت هيئة المحكمة فى قاعة مجلس شورى القوانين وأتى المتفرجون من كل رتبة ودرجة وغص المكان بجماهير الإنجليز وكبار ضباطهم وكتاب صحف أخبارهم وجمع قناصل الدول وكانت أمارات الهيبة والوقار بادية على هيئة المكان والناس كلهم فى سكون وخشوع فلم تكن إلا ساعة حتى دخل المتهمون ووقفوا فى وسط المكان فأحدقت بهم العيون من كل جانب وتهللت الوجوه فرحاً بوقوفهم فى موقف الجزاء فأشار الرئيس إلى أحمد عرابى وقال : يا أحمد عرابى باشا قد أتوا بك اليوم أمام هذه المحكمة بصفة أنك متهم بالعصيان والخروج عن طاعة الذات الخديوية كما ثبت ذلك أمام مجلس التحقيق وأن عقابك على هذه الجناية يكون بمقتضى كل من المادة الثانية والتسعين من القانون العسكرى العثمانى والمادة التاسعة والخمسين من قانون الجزاءات الهمايونى فهل تعترف بأنك مذنب أم لا؟ فقام فى الحال برودلى المقيد بالمدافعة عن أحمد عرابى وناوله ورقة فأخذها عرابى وجعل يقرأ ما فيها بصوت جهورى فكان هكذا: أعترف بإرادتى وبناء على نصيحة المحامى عنى أنى مرتكب للجناية التى أنا متهم بها الآن. فلما أتم أحمد عرابى كلامه قال الرئيس : انفضت الجلسة مؤقتاً وسيتلى الحكم فى الساعة الثالثة بعد الظهر. ولم يحضر فى ذلك اليوم بوررللى بيك المدعى العمومى لكى يشرح لهيئة المحكمة موضوع التهمة ويسمع الحاضرين ما أتاه أولئك المجرمون من الفظائع وما ارتكبوه من الجرائم ولأقام من يتكلم بدلا عنه فاندهش

عند ذلك الحاضرون وجعل ينظر بعضهم إلى بعض وهم فى حيرة واستغراب وجعل جماعة الإنجليز يكلمون بعضهم همسا والسرور يطفح على وجوههم، فلما كانت الساعة الثالثة تسابق الناس إلى قاعة الجلسة حتى ضاق بهم المكان ولم تكن إلا لحظة حتى خرج الرئيس والقضاة وجلسوا على منصة الحكم فأتوا لديهم بالمتهمين، فلما صاروا فى وسط الجمع أشار الرئيس إلى أحمد عرابى وقال: اسمع الحكم عليك ثم تناول ورقة وقرأ ما نصه: حيث قد ثبت ارتكاب أحمد عرابى باشا جناية العصيان والخروج عن الطاعة وهذه الجناية منصوص ومعاقب عليها بحكم المادة الثانية والتسعين من القانون العسكرى العثمانى والمادة التاسعة والخمسين من قانون الجزاء الهمايونى، وحيث مع ثبوت ارتكابه هذه الجناية لدى مجلس التحقيق لم يتعرض المجلس للبحث فى شيء خلافها ولذلك لم يطلب من المحكمة إلا الحكم بالعقوبة المنصوص عنها فى المادتين المذكورتين وهى عقوبة القتل. فبناء على هذه الأسباب ، قد حكم باتحاد الآراء على أحمد عرابى بالقتل لارتكابه جريمة العصيان والخروج عن طاعة الجناب الخديوى طبقاً لأحكام المادة الثانية والتسعين من القانون العسكرى العثمانى والمادة التاسعة والخمسين من قانون الجزاءات الهمايونى ويرفع هذا الحكم للجناب العالى للتصديق عليه وقد حكم بهذه العقوبة أيضًا على بقية المتهمين بجريمة العصيان مع أحمد عرابى المذكور. فلما سمع الحاضرون هذا الحكم تهللت وجوههم فرحاً ولكن لم يضع رئيس المحكمة ورقة ذلك الحكم من يده حتى تناول أخرى وأخذ يقرأ ما فيها وإذا به عفو خديوى ونصه : قد اقتضت إرادتنا بأن الحكم الصادر على كل من أحمد عرابى وطلبة عصمت وعبد العال حلمى ومحمود سامى وعلى فهمى ومحمود فهمى ويعقوب سامى المتضمن جزاءهم بعقوبة القتل وقع تبديله بالنفى إلى الأبد من جميع الأقطار المصرية وملحقاتها، وأن هذا العفو يبطل ويقع إجراء الحكم على المذكورين بالقتل إذا رجعوا إلى الأقطار المصرية أو ملحقاتها وأن يجردوا جميعاً من كافة الرتب وألقاب الشرف والنياشين مع محو أسمائهم من سجل العسكرية.

فما أتم الرئيس قراءته حتى وقع الهرج بين الناس وعلا وجوههم الاصفرار وانقبضت نفوسهم وجعل بعضهم ينظر إلى بعض وكأن على رؤوسهم الطير وجلس عرابى وبقية المجرمين وهم باشو الوجوه منشرحو الصدور فتقدمت عند ذلك إحدى النساء الإنجليزيات هى زوجة نابيير شريك برودلى الذى تقيد بالمحاماة عن أولئك المجرمين وهى بملابس الزينة والأعراس وناولت عرابى باقة من الورد الأبيض إشارة إلى الظفر والغلبة ثم صافحته ضاحكة فصافحها باسماً فاشتد تعجب الناس

واستغرابهم وكبر عليهم هذا الأمر وخرجوا وهم يتحدثون به ويعجبون من تصاريف الأيام. وأخذ العهد على أولـئك المجرمين بالبقاء فى الجهة التى تعـينها لهم الحكومة بعيدة عن الديار المصرية وكتبوا بذلك صكا فوقعوا عليه جميعاً.

(مطلب)

رسم الخديوي بمصادرة أصحاب الثورة

فلما كان ثالث صفـر رسم الخديو بمصادرة أحمد عرابى وسـائر أصحاب الثورة وقيدوا جماعة بضبط أرزاقهم وعقاراتهم فضبطوها فلم تكن شيئاً يذكر ولم يتعرضوا إلى شيء من متاعـهم وكان كثيراً خصـوصًا متاع أحمد عرابى، وقـد قيل: إنه كان يحتوى على شيء كـثير مما نهبه النهابون من الإسـكندرية مما خف حمله وغلا ثمنه ولم يمسوه بشيء كما أشار بذلك وزير سياسة الإنجليز، ثم تأهب المجرمون للرحيل إلى سيلان إحدى ممالك الهند الإنجليزية وقد كانـوا يعلمون بأنها ستكون دار إقامتهم قبل أن يـصدر الحكم عليـهم بالإعدام بأيام كـثيـرة كما هو ظاهـر مما كتبـه برودلى المحامى عنهم فى كـتابه المعنون بعنوان (الله ينصرك يا عرابى) أو (كـيف كان دفاعنا عن أحمد عرابى) فـحملوا إليهم سائر متاعهم وذخـائرهم وأتوا لهم بها فى قشلاق قصر النيل فى منتصف ليلة خامس عشر صـفر المذكور وكذلك حضر إليهم من شاء الذهاب معهم من نسـائهم وجواريهم وأولادهم وأتباعهم فكانوا نيفاً وسـتين ما بين إناث وذكور وساروا جميعاً فى قطـار مخصوص فى تلك الليلة إلى مدينة السويس، ثم أنزلوهم فى إحـدى بواخر الشركـات الإنجليزية وصحـبهم بعض رجـال الإنجليز مودعين ومطيبين لخواطرهم فأقلعت بهم السفينة بسم الله مجراها.

(مطلب)

قيام تجار الإسكندرية لمطالبة الخزينة بثمن ما نهبه النهابون

وكلم اللورد دوفرين الوزير مـحمد شـريف باشا فى أمر من بقى من أصـحاب الفتنة فرسم الوزيـر بالتعجيل ففـعلوا وقد كانوا أنفذوا من قبل الحـكم على سليمان داود مقدم جند الإسكندرية بـالإعدام شنقاً لارتكابه جريمة إحـراق المدينة فضلاً عن جريمة الخروج عن الطاعة وحكموا على بعضـهم بالتبعيد إلى سواكن ومصوّع وعلى البعض الآخر بالتبعيد إلى الشام وغيرها وكانوا كثيرين، وعفى عن البعض وانفضت

حينئذ مجالس التحقيق ومجالس القضاء وانجلى أصحاب الثورة عن مصر ولكن لم ينجل عنها شر فعلهم إذ قام تجار الإسكندرية يطالبون الخزينة بثمن ما أخذه النهابون وقد تقدم الكلام على ذلك فى موضعه، ونزع قناصل الدول كافة إلى الشدة فى الطلب فجعل الوزير محمد شريف باشا يطاول ويكثر من مخابرة كبار رجال السياسة حتى تقررت القاعدة بينهم على إلزام الخزينة برد ثمن جميع ما نهبه العامة والرعاع وكانت الخزينة إلى هذا الحين قد أمحلتها الحوادث وزادها إمحالاً نفقة الجنود الإنجليزية القائمة بين الكنانة والإسكندرية فضلاً عن كساد التجارة وتعطيل أسباب المعاملات وبوار أكثر المزروعات بأسباب جمع سائر أبناء البلاد وتجنيدهم لقتال الإنجليز بمواقع التل الكبير وكفر الدوّار فلم ير رجال الدولة بداً من الاستدانة فاتفقوا على أخذ قرض قدره أربعة آلاف ألف من الذهب، وتقدم اللورد دوفرين إلى الوساطة فى أخذ هذا المال من بيت روشيلد الغنى الشهير بعاصمة الإنجليز واهتم صاحب سياستهم بذلك اهتماماً عظيماً كى لا يفشل فى سياسته بعد نصرة التل الكبير، وقيد الوزير محمد شريف باشا جماعة من موظفى الحكومة ورجال الدولة بإحصاء ما نهبه النهابون وحرافيش الإسكندرية وما أكلته نيران الحريق فأنشئوا لذلك ديواناً بدار محافظة الإسكندرية سموه ديوان لجنة التعويضات وطيروا خبره إلى الآفاق فتزاحمت على بابه أصحاب الشكايات فأحصوا ما ضاع لكل صاحب حانوت ومخزن وأصحاب البيوت فكان شيئاً لا يكاد يدخل تحت الحصر لكثرته فردّوا لهم قيمته ذهباً من ذلك القرض ومازالوا حتى لم يبق أحد من أصحاب الشكايات فربح يومئذ من ربح وخسر من خسر وقليل هم الخاسرون.

وتسابق من يومئذ أصحاب الدور والوكائل إلى البناء وإعادة ما تهدم فتوسعوا فى العمل وبالغوا فى الإتقان فلم تمض إلا أشهر حتى عادت المدينة إلى أحسن ما كانت عليه من الرونق والبهجة واتسعت وعمرت ربوعها وامتلأت حوانيتها بأصناف المتاجر الفاخرة والبضائع الثمينة وعاد إليها من نزح منها من الأجانب على اختلافهم وجاءها الكثير من تجار الإنجليز بأصناف البضائع النفيسة والصنائع الغريبة فاتسع نطاق الأخذ والعطاء وراجت التجارة وعادت الأمور إلى سابق مجراها واتصلت العلائق التجارية بعضها ببعض بين القاهرة والإسكندرية وداخلية البلاد على ما كانت عليه من قبل واطمأنت قلوب أهل البلاد وزالت عنهم أسباب الوحشة فلم يبق من الثورة إلا حديثها والحديث ذو شجون.

ونظم بعض الأدباء فى سير هذه الحوادث المهمة ومآل هذه الخطوب المدلهمة

كثيراً من القصائد المشخصة لبعض وقائع الحال وما بلغت إليه يومئذ الأحوال مع وصف ما وقع من أصحاب الثورة من سوء الأعمال منها منظومة العلامة مصطفى باشا صبحي التي عنوانها «صدق المقال في مثالب البغاة الجهال» وهي:

تبين عقبي غيه كل معتدي … وأمسى العرابي وهو بالذل مرتدي
يعض بنان المستكين ندامة … ويقرع بالإذلال سنّ المسهد
فهلا رعى نعماه كانت ظليلة … عليه وهلا قد وعى نصح مرشد
وهل ندم الباغي إذا حم أمره … إلى الحين يجدي بالرجاء المردّد
بني الجهل والطغيان كيف كفرتمو … بأنعم توفيق العزيز محمد
مليك توافيه الملوك لنصره … بأنفسها غير الخميس المجرّد
وهل غير إحسان الخديوي عليكمو … سوابغ كانت من طريف ومتلد
نبذتم قوانين الشريعة ضلة … وجاهرتمو بالبغي في كل مشهد
ومن كان لايدري حقيقة أمركم … أنبئه الأنباء عنكم ليهتدي
ولست مريداً بالقوافي مصانعا … ولا راهبا من غائل أو مندّد
فقد تلجئ الأحوال للعجز حازما … كما تلبس الأحرار أثواب أعبد
ويدخل في عد النواصب خيفة الـ … ـردى علويّ حين لم يلق مفتدي
وما أنا إلا ذاكر ما جنيتمو … كما يذكر الرائي فعال المعربد
سرقتم نقود الجند ثم رميتمو … دفاترها ليلاً بسرداب مفقد
وقد ظهرت تلك الخفايا جلية … وحان جزاء السارق المتعمد
كما سرق التفتيش طلبة عامدا … وبالرفت أمسى في عقال التلدد
ورب يتيم قد أكلتم تراثه … وأبعدتموه عن مجير ومسعد
وقلتم جنى ذنبا ليعفى وتظفروا … بإعدامه والمال يبقى لذي اليد
وأرملة أتلفتمو جل مالها … وصيرتموها عرضة للمفند
وأظهرتم التوكيل عنها تسترا … على نهب محصولاتها والتردّد
وبالوفر لما أن فصلتم كغيركم … تضررتمو كالأرقش المتوقد
ووطأتم العصيان بالعهد بينكم … وثرتم بقصر النيل ثورة مفسد
وفي مصر ساورتم سراي أميركم … مراراً وأوريتم زناد التمرد
وجئتم تجرّون المدافع حولها … حصاراً وأبرقتم بأصوات مرعد
فأصبحتمو أصحاب سيف ومدفع … وللفأس والشادوف وسمات باليد
ولما تيقنتم بأن جزاءكم … هو القتل أعملتم دسائس ملحد
وأجمعتمو كيد ابن ملجم إذ غدا … يحاول قتل الأبرياء ولا يدي
والفتمو حزب الضلال يحوطكم … بترقيش بهتان وزور ممهد

وقلتم عن الأوطان والدين أنكم ... تحامون في الجلى محاماة صندد
وما للأوطان والدين آفة ... سواكم عليها إذ أتيتم بمؤيد
وزدتم على ماهية الجند وافرا ... ومن يستزد بالبغي ما شاء يزدد
وأنشأتمو قانون يربي معاشكم ... بتلفيق أحكام وقول معقد
يخالف أسلوب القوانين وضعه ... ويزري بيبت المال إزراء محصد
فأمست به بعض الأرامل منكم ... لواء وأخرى كالفريق الممجد
وغيرتم الضباط عمرا بفاسد ... وسعداً بمشئوم وحراً بأوغد
ولقبتمو منكم عبيداً بخالد ... تريدون سيف الله بعدا لمعتدى
وألقاب شتى من همام وقائد ... وحامي حمى الهيجا وفارس معهد
وقدمتمو أهل الرذائل منكمو ... كما شئتموا في مسند بعد مسند
يجرّون أعقاب السيوف على الثرى ... فتحركه فعل السفيه البلندد
وصححتم الأضغاث بالوهم بينكم ... وبالرغم سدتم لا بفضل ومحتد
وأبرمتمو عهد التحالف بينكم ... على الحرب إن في اليوم تنشب أوغد
وكان عفا بالحلم عنكم أميركم ... فأليتمو إلا وفاء التعهد
هو الحلم حتى يقتل الجهل ربه ... وترمي به الأهواء في شرّ مورد
ولما أتى الأسطول مصر مسالماً ... أثرتم بريح البغي نار التعند
ومناكمو بالمستحيل خطيبكم ... وأدمج غشا في حماس مقلد
وأوهم زورا أن فيكم بسالة ... فحاولتمو بالجهل خطة أصيد
وهيأتمو بعض الطوابي تنمرا ... وهددتمو سيمور كل التهدد
فسببتمو إحراقها وخرابها ... وكانت حصاناً بالبناء المشيد
وأتلفتمو الخرطوش من غير عائد ... مع الريح يذوى لا إلى الفلك يهتدى
ولم تر منكم في سفين إصابة ... تعلل نفس الحرّ عند التنهد
وغادرتمو قتلاكمو دون ملحد ... وخلفتمو الجرحى بها دون منجد
وصلتم على المستأمنين لتأخذوا ... بثار الطوابي من ضعيف ومقعد
وأخرجتم السكان من دور ثغرهم ... سراعاً بتهديد وضرب مبدّد
وكم من بريءٍ قد قتلتم ببغيكم ... وكم من عزيز قد أهنتم وسيد
وكم ذات خدر قد فضحتم وحامل ... جبهتم فألقت حملها دون مولد
وأحرقتمو منشية الثغر بعد ما ... نهبتم وسرتم كالنعام المشرد

وكان سليمان الغبيّ معينا ... إلى الحرق وقافا لذى كل مرصد

فمالكمو لا أحسن الله حالكم ... هربتم هروب الأرعش المتبلد

وخلفتمو في الثغر عارا ورحتمو ... بخزى لكم يبقى بذمّ مخلد

وعاودكم بعض الغرور فملتمو ... إلى الرمل ميل الغادر المتقصد

وحاصرتمو قصر الخديوى بعسكر ... وخيل توالت من كميت وأجرد

وفى كفرة الدوار خلتم مقامكم ... منيعا فأظهرتم كمين التحقد

وحالفتمو إبليس فيها وقد خلا ... لكم جوّها في فدفد بعد فدفد

فصفرتمو تيها ونقر بعضكم ... ولاح لكم بيض به النصر يفتدى

وفى العزل والتنصيب والحكم جرتمو ... وكنتم لجمع المال أشره مجتدى

سلبتم من الأنحاء محصول زرعها ... وما للأهالى من لجين وعسجد

وأظمأتم الإسكندرية حينما ... منعتم وصول الماء من كل مورد

وكم محضر أمضيتموه بقهركم ... وممتنع أرهبتمو بالتوعد

وأخربتم البلدان ثم صعدتمو ... إلى التل فى جيش كثيف معدّد

إليكم إليكم إنما قد تركتمو ... إلى أجل دون القصاص محدّد

فهذى جيوش للنضال تواصلت ... بكل سفين مثل صرح ممرّد

لنصر الخديوى أو لقهر عداته ... لهم وثبات بين راغ ومزبد

وأضحت رحى طغيانكم فى عديدكم ... تدور عليكم بالكروب المهدد

بطالع توفيق المفدّى وبغيكم ... خذلتم غداة الحرب فى كل مطرد

وفى وقعة التل الكبير انهزامكم ... يعيركم فى كل عصر مجدد

أغارت عليكم فيه أول فرقة ... فطرتم شعاعا كالهباء المبدد

وما رابها الروبى هناك بخيله ... ولا زأر الذئب الكمين بمرقد

فأين الذى واعدتمو وادّعيتمو ... به من ثبات فى الوغى وتجلد

فهلا صبرتم وهو تصديق زعمكم ... وهلا قتلتم وهو خير لمرتدى

إذا كانت العورات يخفى ظهورها ... لدى البحث فى ناد دقيق التفقد

ولكن فضحتم بالفرار كدأبكم ... وكان العرابى بالهزيمة مبتدى

كدأب بنى كلب غداة تمكنت ... بنو أسد منها بضرب المهند

كداب جهول باع ثوراً لبومة ... وقيده فى غصنها المتأوّد

لعمرى لقد أبدى العزيز لجهلكم ... من الحلم ما يوهى صلابة أقود

ورقـاكـمـو بالمكرمـات فـحـدتمو وكل لـئـيم إن رقـى يـتـمـرّد
مطايا العلى فى الخطب تنجو بصادق وتكبـو بـمـثـل السـريرة أحـقـد
بيمن الخديوى مصـر كانت لأهلها عـروسـا تجلت فـى كـسـاه زمـردى
سـقـاها غير النيل صـفـوا فـأزهرت وراقت بنى الدنيـا بـوجـه مـورّد
تدبـرها للـسلـم نظار مـجـدهـا وأحكامـهـا تـبـدو بعـدل مـوطد
فـعـهـد ريـاض كـان يزهو نـضـارة وكـان شـريـف للعلى خـيـر منجـد
وقـد حذراكم مـا استطـاعا فـختمو وأضـحـى بكـم سـامـى أشـرّ مـقلد
تضلونه جـهـلاً ومكـراً يضلكم وكل بـآراء المضلين مـقـتـدى
ومـازال فى أمـر (١) البـريئين آخـذا بقـول العـرابى مظهـراً للتـشـدد
إلى أن هوى بـعـد العـتـوّ ولا لمـا لعـشـرة باغ فى الحـمـاقـة أوحـد
جـعلتم(٢) لذى الداعين فيها رئاسة فـعـرضـتـمـوها للدواهى بـأجـرد
وهل مـيت الأحـيـاء يرجـى لمعظم من الأمر فى يوم مـن الخطب أسود
بمنشـوره البـرقـى هيج فـتـنة وأسند عـهـد الحكم فى غـيـر مـسند
كـأن له فـى الأمـر حق تصـرف وصـيـره فـيكم بـقـصـد التـودّد
لقـد زاد فى الطنبـور أنكر نـغـمـة بهـا أزق للمحزون صـوب المغـرّد
ولولاه مـا حـاز العـصـاة من القرى مغـانم شـتى غـيـر رفـد ومـرفـد
فـقل للعـرابى إن رؤياك صـادفت ولكنهـا وافت على غـيـر مـقـصـد
وتأويلهـا بـالحـبـس تـلقى إهـانة ويعـقـبـهـا شـر يسوءك فى غـد
فـيـا كل مـشـئـوم ويا كل غـافل لك الويل من عـاد عن الرشد مبعد
أراك درست البغى بـالجهل كـاملا وفى الحـزم لم تبـدأ بأول أبـجـد
وسلمت سيف الذل فى مصـر صاغرا فيـا شئوم سيف فى الوغى لم يجرّد
فلو كنت تجزى بالذى تسـتحـقـه لناداك داعى الحكم غـيـر مـردّد
تقـدم عـرابى وأرق أعـواد واعظ بصـمـت وقـبـل الارتقـاء تشـهـد
ومـثلك فى ذا الحكم كـل مـجـاهر بـبـغى على عـدل العـزيز المؤيد
ولكن عـفـا عنكم أمـيـر تعـوّدت خـلائقـه الإحـسـان كل التـعـوّد
له الفـضـل أمـا أنتـمـو بفـضـولكم تعـيـشـون أمـواتاً بزلة أنـكد

(١) البريئين: يريد بهم جماعة الشراكسة.

(٢) لذى الداعين: يريد به راغب باشا.

ولولا صدور العفو ناحت نساؤكم ... وغص بنوكم بالقراح المبرّد

وإن تبعدوا لا قرّب الله داركم ... ولا دار من والاكمو فى التحيد

فبغيكمو أبقي عراقيل جمة ... عليكم بها لعن من الله سرمدي

فسيروا إلى أرض الجزيرة حيثما ... منيتكم حمت بها وكأن قد

وكم سائل هل أخرجوا من ديارنا ... وهل أمنت أوطاننا عود معتدي

فقل في جواب السائلين مؤرخا ... بلى خرجوا كرها لنفي مؤيد

سنة ١٣٠٠ ... ٥٢ ١٧٠ ٢٢٦ ٨١٠ ٤٢

يعيش أبو العباس ذخراً لمصره ... وكهفاً لأهليها ورغما لحسد

يعيش الخديوي مصلحا لرسومها ... بعد وإجلال ومجد وسودد

وتسمو به الأنجال مثل جدودهم ... سموا لإبراهيم بعد محمد

ولا زالت النظار تحمي ذمارها ... بحزم وتدبير ورأي مسدد

وإن تعرض الآراء من أيّ وجهة ... فإن الخديوي ينتقي كل أفيد

أصالته بالرأي في مصر أرخت ... محمد توفيق به الكل يقتدي

سنة ١٣٠٠ ... ٥٢٤ ٨١ ٧ ٥٩٦ ٩٢

وقال العلامة البحر الفهامة الشيخ الجليل على أفندى الليثى فى ذلك أيضاً :

كل حال لضدّه يتحوّل ... فالزم الصبر إذ عليه المعوّل

يافؤادى استرح فما الشأن إلا ... ما به مظهر القضا يتنزل

رب ساع لحتفه وهو ممن ... ظنّ بالسعى للمعلى يتوصل

قدر غالب وسر الخفايا ... فوق عقل الأريب مهما يكمل

غاية العقل حيرة وعقال ... واللبيب الذكى من قد تأمّل

كيف ننسى وحادثات الليالي ... فاجأتنا بكارث ليس يحمل

أذهبت أنفسا وغالت نفيسا ... وذوى مربع الحظوظ وأمحل

كان إقليمنا رياض صفاء ... فيه للواردين أعذب منهل

من رآه يقول توفيق مصر ... أبصر الناس بالأمور وأعدل

قد أمنا الزمان فيه وغنا ... آمنين الخطوب لا نتململ

نتهادى فى ظل أسمى مليك ... من سجاياه كل خير يؤمل

فسرت أعين الحوادث فينا ... فأطرحنا الوقار والأمر أعضل

ورأى غيرنا من الحلم أمرا ... غرّة فابتغى الذى لا يحصل

وإذا المرء كــــان بالوهـم يــــفى ... فـخـيـــال الظـنون مـا قـــد تمثل
ويح قـــوم ســـعـــوا لإدراك أمـــر ... دون إدراكـــه الجـــبـــال تـزلزل
مـــا أصـــروا علـيـــه إلا أضـــروا ... بـأناس من نابه أو مـــغـــفـل
ذاك يـسـعى على التقـيـة خـوفـاً ... وســواه يـسـعى لكيـمـا يجـمل
لو أصــابوا الـرشــاد عند ابتــداء ... كـانت الـغـاية الجـمـيلة أمـثل
وكــفــينا مـعـــرّة أو بقــتـنا ... فـاستـوى شـائك السـلاح وأعـزل
آه من رقـــــدة الحـلـوم ودهـر ... أيقـظتنا صـــروفـــه إذ تبـــدّل
كـــانت الناس فـى ظلال نـعـيـم ... تجـتنى من ثمـــار غـصن تـهـدّل
مـــا لنا لـم نقم بجـــد ونـدعـــو ... من عـدا المهـتـدى وننـصح من ضلّ
مـــا لنـا كلـنـا ســـوى النقل منا ... قـــد سلكنا ســبـيل غــاو مـضلل
قـد تسـاوى الغـبى والمتـغـابى ... وعليـم من جـاهل صـــار أجـــهل
قـد جـبنا وصـــاحب الجبن جــان ... وهـو بالـطبـع فـى الآنام مــــرذل
لو رزقـنا الســداد لانســد بـاب ... وحــقـنا دمـــاء قـــوم تحـلل
كـــان ياقـــوته المـذاب مـصـــونا ... فـســقـينا به الثـرى اذ تهــبل
كم غـرسنا جـمـاجـمـا وجسـومـا ... وجـنـيـنـا الأسى بـزلـة مـن زلّ
يـاترى مـن يقـــوم عـنا بـعـــذر ... إذ أطعـنا الغـواة فى كل مـحـفل
حـيـث حـدنا عن المليك وخـفـنا ... سطوة مـن عـداه والقطر مـقـفل
حـــيث لا يرفـع البـــريد شكاة ... وسلوك السـلوك صـــار مـعـطل
حـيــرة أدهشت أولى اللب حـتى ... مـا اهتـدى للصـواب منهم مجـمل
ذاك ســر القـضــا وليس عـجـيـبا ... أن يحـار الأديب فـيـه فـيـذهل
غــيـــر أنا لما أفـــقـنا أرقنا ... من شـئون العـيـون دمـعـا تسلسل
وبسطنا اللســـان فى ذم قـــوم ... إن ذكـرناهمـو نـغص ونخــجل
ومـــــددنـا أكـف ذلّ لمولـى ... شـأنه البـــر كـم عــفـــا وتـطولّ
آل مــصـــر بغـيـــره لا تـلوذوا ... إذ هـو الملـجـــأ الملاذ لمن زل
ياعـظيم الجناب يـا خــيـــر مـلك ... سـعـده قـد أباد مـن قـد تغـول
مـن بغـى والوغـى أثار فـــحكم ... فى طلاه الحسـام فـالسيف فـيصل
واجـعل العـدل عـادل الـرمح فـيـهم ... نافـــذاً قـــدر مـــا يعـلّ وينـهل
واسـقـهـم كـالذى سـقـيـناه إنا ... قـد شـربنا من بعـد بعـدك حنظل

واغتفر زلة لمن جر غما | لبلاد ولا منيع يؤمّل
كم مليك عفا وأنت المفدّى | فوقهم همة فلا تتعجل
وامنح الناس من سجاياك عطفا | واجعل العفو موضع الشكر واعمل
فجدير بمجد ذات الخديوى | كل فضل وليس للعذر محمل
فابق واستبق من رعاياك قوما | أمّلوا العفو من حباك المسهل
إن تدقق تدق أعناق ألف | بل مئين من الألوف تقتل
والرعايا تضيع بين عدوّ | ووليّ له الفخار المؤثل
حاش توفيقنا يقصر عما | ينشر العفو فى البلاد وينقل
سيدى لا عدمت شكرا سناه | يملأ الخافقين ليس يعلل
لا تكلف جميل طبعك أمرا | غير ما فيه فهو لا يتحوّل
كان ما قد أساء حلما فلما | أصبح الصبح بالسرور تأوّل
هذه مصر زينت واستعدت | لسعيد الركاب لما تفضل
وازدهت بالجمال حين تبدّى | موكب بدره بنور تهلل
موكب حف بالكواكب زاه | من رجال أعزة قد تبجل
كلهم صادق شريف الطوايا | نصحهم والخطوب تنهلّ يبذل
ما رأت مصر يوم بشر كهذا | ايّ يوم بدا أغرٌ محجل
دمت للدين والدنا خير راع | ولعباسك النجيب المؤمّل
ما جرى بالفخار عنك حديث | صار بين الملوك بالمدح أكمل
أو أشار الزمان للسعد أرخ | الخديوي لمصر يا سعد أقبل
سنة ١٢٩٩ | ٦٦١ ٣٦٠ ١٤٥ ١٣٣

وصـــــل

(فيما كان من وراء احتلال الجيوش الإنجليزية لأرض الكنانة)

قد كان من وراء ما تقدم من الحوادث والأنباء واحتلال الجيوش الإنجليزية للقاهرة وبعض الثغور والمدن كالإسكندرية ودمياط والسويس وطنطا والإسماعيلية أن

وقع أمران خطيران فى نوعهما وعليهما حياة البلاد السياسية والاقتصادية فى مستقبل الأيام ـ الأول: قلب هيئة الحكومة وتغيير عاداتها والتزاماتها القديمة وإبطال الكثير من مراسمها المعمول بها من أيام محمد على باشا الكبير واستبدالها بالقوانين والشرائع الثابتة والإحداثات التى تناسب روح العصر وترقى البلاد وأهلها إلى ذروة العمران والمدنية ـ والثانى: سلخ الأقطار السودانية عن جسم المملكة المصرية وتركها مرسحا للفوضى وعيث العاثثين من الخوارج الذين هم مدعى المهدوية والملتفون حوله وقد ذكرنا فيما تقدم كيف كان خروج ذلك وأمر الفتنة وحديث النافخين فى ضرامها وكيف تطاير شررها حتى عم تلك الأصقاع شرقاً وغرباً ثم كيف كان عجز الحكومة يومئذ عن إخماد نارها بسبب الثورة العرابية وما جرته على مصر وأهلها من الويل وذهاب القوة والصولة على أنه لم يمض على مقدم اللورد دوفرين رسول الإنجليز بمصر أيام حتى عكف على ابتكار الإحداثات وسن النظامات الجديدة آتيا الأمور من أبوابها فرسم بإنشاء المحاكم الأهلية على هيئة وشكل المحاكم المختلطة بديار مصر وتوسع فى نفقتها وساعده على ذلك الوزير محمد شريف باشا وبطرس غالى باشا لأن إنشاء هذه المحاكم كانت حاجة فى نفس الوزير منذ أيام الخديوى إسماعيل وأتوا لهذه المحاكم بجماعة من القضاة البلجيكيين والهولانديين منعاً لتطاول أيدى رجال الدول الكبرى إلى وظائفها والاستئثار بها أو كما شاع يومئذ تمهيداً للوصول إلى حل عقدة المحاكم المختلطة وإذهاب سلطتها لأنها عقبة كؤد فى سبيل بسط الحماية الإنجليزية على البلاد وإخراجها من تحت نير المراقبة الدولية وقد كنت ممن وقع عليهم الاختيار لوظيفة القضاء بمحكمة المنصورة ثم لرئاسة النيابة العمومية بها فسارت هذه المحاكم سيرا حثيثاً واشتدت عزيمة رجالها جميعاً بما نالوه من الحرية فى العمل والاستقلال فى الفكر ففرح الناس بها فرحاً عظيما وحمدوا دوفرين على صنيعه كما شكروا الوزير محمد شريف باشا على عنايته واستبشروا بحسن المآل. وبينما هم على هذه الحال إذ وردت كتب صاحب السياسة الإنجليزية وهو يومئذ اللورد جرانفل إلى دوفرين سفيرهم بلزوم سلخ سائر الأقطار السودانية عن جسم المملكة المصرية وتركها إلى مدعى المهدوية بغير رد ولا معاودة فصدع دوفرين بالأمر وكلم الوزير محمد شريف باشا فى ذلك فلم يوافقه وقال: لا يكون هذا الأمر وفى عروقى قطرة من الدم فراجعه دوفرين فلم يقبل فكبر الأمر على دوفرين وأعظمه وكلم الخديوى فيما بدا من الوزير من الغلظة والمكابرة ثم أوعز إلى

مالت قونصلهم بما أوعز فقامت حينئذ بينه وبين الوزير قائمة الأخذ والرد وبدت علامات الوحشة، وجعل مالت يكيد المكايد والوزير هادئ القلب ساكن اللب لا يزحزحه عن عزمه شيء من ذلك، ثم اشتد دوفرين فى الطلب وجعل يسد فى وجه الوزير أبواب كل عمل ونافذة كل أمل حتى استفزه وأضاع صبره وتقدم إلى الخديوى فى قبول استقالته من منصب الرئاسة فأجابه الخديوى إلى ذلك بحضرة الوزراء وقال له: أقلتك. قيل: فالتفت الوزير إلى دوفرين وقال: إنى بريء مما سيراق من الدماء فى سبيل هذه الغايات الرديئة فولوا الرئاسة من تشاءون والله من وراء ما تفعلون.

قال بعض الكتاب: وأشار دوفرين على الخديوى بتقليدها للوزير نوبار باشا فصدع نوبار باشا بالأمر ولكنه لم يقدر على المجاهرة بسلخ السودان عن جسم مصر.

(مطلب)

اعتزال الوزير محمد شريف باشا وتولية الوزير نوبار باشا

وأعجب الناس بما فعله الوزير محمد شريف باشا وازدادوا تعلقاً به واشتدت محبتهم له واندفع أصحاب صحف الأخبار يلهجون بحمده فجاءت إليه رسائل التهانى تترى من كل فج عميق، وزاره أصحاب السياسة من الإنجليز والفرنسيس ليعرفوا منه ما خفى من الأسباب وما استعصى عليهم فهمه من مغامز هذه السياسة وكان ممن زاره عظيم من الإنجليز فكتب يومئذ إلى إحدى صحف أخبارهم يقول: زرت الوزير محمد شريف باشا فى داره بعد اعتزاله للرئاسة فحادثنى طويلاً فى جميع الضحايا التى ضحاها فى سبيل الوفاق مع وكلاء دولتنا بديار مصر لعلهم يقفون عند حد يكون من ورائه الكف عن مشاغبته، ثم قال لى وهو يتنفس الصعداء: قد أقسم مالت قونصلكم أن يتركنى وشأنى أتصرف فى العمل حسبما تقتضيه مصلحة البلاد إذا قبلت الرئاسة ومع ذلك فما كنا نتأخر عن فعل ما كانت تشير به دولة الإنجليز فيما يتعلق بالإصلاحات فقط، لا فيما يمس وجودنا السياسى الذى يقضى علينا بالمحافظة على الأصقاع السودانية الشرقية والقبلية وإلا فنكون غير سالكين مسلك الصداقة نحو الأمة التى تعتبر ذلك أمراً ضرورياً لحياة مصر وراحتها. وليس بخاف أنى كثيراً ما ضحيت محبة الأمة لى وتعلقها بى إرضاء لمطالب الإنجليز ومع ذلك فإنى أعتبر نفسى غير أهل لمنصبى إذا افتخرت بهذا العمل. أما زعيم

السياسة الإنجليزية فإنه لم يعمل عمـلاً طيباً لنا نحن معاشر المصريين وتشديده علينا بترك السـودان فى أيدى المهدى أكـبر برهان على ما أقـول، لأنه من المعلوم أن ترك السودان للمهدى مما يـزيد فى قوته ويصيره عزيزاً قوى الجانب، فـإذا بلغ متمناه هذا فماذا تكون ياترى الواسطة فى إيقاف تيـار تلك القوة الثائرة ومن الواضح البين لكل ذى بصيـرة أن جعل حـدود مصر عند أسـوان أو وادى حلفا كمـا أشار صـاحبكم يستلزم وضع جـيش من خمسـة عشر ألفا إلى عـشرين ألفا من الجنود ليـبقى رباطا هناك فمن يا ترى يقوم بنفقة هذا الجيش. نعم إن الخطر بعيد عنا حتى الآن ولكنكم سترونه قـريباً على الأبواب ولا أنكر عليك سيدى أن السـودان كانت تكلفنا الشيء الكثيـر من المال غير أنه لا خسـارة علينا إذا حافظنا على حدودنا بإنفـاق زهاء مائتى ألف جنيه وأظـنك لا يعزب عليك أن محـمد على باشـا أدرك فى أيامه أن حـماية حدود مصر الأصلية تستلزم ضم أراضى النيل الأبيض إليها فسعى فى ذلك وأخضع بقوته تلك الأطراف وجعلها تابعة لديار مصر فنعم ما فعل، وهل يصح بعد ذلك أن نترك حكومة متوحشة بربرية على حدود البلاد فتسلبها راحتها وطمأنينتها مدى الأيام على أن النفقـات التى تنفق على إقامة خط دفاعـى على النيل الأبيض لا تبلغ جزءاً من النفقة التى يستلزمـها الدفاع عن وادى حلفا أو أسوان وأن خمسـة عشر ألفاً من المصريين يـقومون على حـراسة الخرطـوم وبربر ودنقلة وسنار وعلى ذلك يكون من الخرق فى الرأى بل من قلة التـبصـر تضـحيـة سكان هذه المدن ومن فـيهـا ونحن مسئولون عن الذب عن أرواحهم وأموالهم وأعراضهم.

قال الراوى: ثم أطرق الوزير لحظة ورفع رأسه وقال: وماذا تفعلون يا ترى أيها الإنجليز بدعاة المهدى الذين أقـسموا أغلظ الأيمان أن يموتوا بحد السـيف أو يفتحوا مصر السفلى، أما أنا فلم أفهم ما الحامل للإنجليز هداهم الله على التنحى عن مقاتلة المهدى واحتلال السـودان، وما الباعث لهم على معارضتنا فى اسـترجاع البلاد التى أخذها مدعى المهدوية ولماذا لا يسمحون لنا بإبقاء النيل الأبيض فى حوزتنا كما كان؟ ولماذا لا نطلب من أمير المؤمنين السلطان عبد الحميـد النجدة فيمدنا بعشرة آلاف من أبطاله وقد أمـددناه مراراً عند حاجتـه إلى ذلك، وإنى أقول لك الحق: إنا لو أجلينا المهدى عن الخرطوم لاتخذت المسألة دوراً آخـر ولكن قل لى بحقك ما الذى يدعونا نحن إلى الانجلاء عن ذلك البلد قبل أن يتقدم لهـا المهدى بأقوامه وهاهو الزبير باشا قد أبى الذهاب إلى دارفـور والآن حيث إنى خلعت نفـسى من الرئاسة ومـادام أمر الجلاء عن السودان شيئاً مقرراً ولا يمكن التخلى عنه فلابد أن حسين باشا ومن معه

من العربان لا يتقدمون إلى الأمام وتفتر عزيمتهم تماما ـ قال ـ وإنى لا أخفى عنك أنى ناظر إلى المسألة من وجهها الحقيقى فلذلك أرانى مشاهدا من بعيد جميع المصاعب التى تترصدنا، فإن نجاح المهدى أحدث تأثيراً قوياً فى عقول أهل البلاد بحيث صار يتعذر علينا إنفاذ ما ننويه حالة كون البلاد بأسرها تضادنا فى ذلك ـ قال: وأنت تعلم أن سقوط هيئة الوزارات عادة لا يكون إلا عند مباينة رأى الرئيس لآراء الأعضاء الآخرين ومن تبعهم من أعيان البلاد، أما وزارتنا فقد كان سقوطها مسبباً عن اتفاقنا فى الرأى بشأن عدم ترك السودان، نعم إنى مع رفاقى سلمنا بجميع ما يمكن التسليم به على أننا قد رأينا أن ترك الخرطوم وبربر ودنقله أمر لا تقوى عليه عزيمتنا وكيف نستطيع ذلك وهى ليست من أملاكنا الخاصة؟ وما نحن إلا قائمون بحراستها بموجب فرمان سلطانى لا يسمح لنا بالتصرف فيها دون رضا الباب العالى وكأنى بصاحبكم يزعم أن بقاء السودان فى يدنا ضرب من الجور والظلم، فإذا كان الأمر كذلك فلماذا ياترى جازفنا بإنفاق الأموال الطائلة فى إبطال التجارة بالعبيد حتى أغضبنا أهل تلك البلاد وحاربناهم لتوطيد أركان التمدن وتثبيت قدم الإنسانية وإن كنا قد أنفقنا الأموال الكثيرة فى ذلك فإنا ولله المنة لم يعاونا أحد على تحمل أثقال هذه النفقة، نعم إنى صممت على التسليم بترك كردفان والدارفور ولكننى لم أسلم قط بترك الخرطوم وسوف ترون ما سيكون من وراء سياسة صاحبكم الخرقاء وما ستتكبده البلاد من النفقة الثقيلة لا لشىء سوى المحافظة على القوم فقط.

قال الراوى: ثم حملق إلىَّ الوزير بعينيه وقال: إنى أقول لك الحق إنى حزنت جدًا من جراء حادثة السودان ولكنى لم أضجر وثابرت عى العمل وأجهدت النفس ما استطعت، فلما أيقنت أنى مشرف على هوة عظيمة جزعت ووقفت ثم خلعت نفسى من منصب الرئاسة وكان بودى لو يعلم الناس كافة إخلاصى فى الخدمة حتى النهاية ولكن يأبى الله إلا ما يريد. اهـ.

قلت: فكان لمقالة الوزير غاية الوقع فى نفوس أقيال السياسة وأقطابها وتكلم عنها أصحاب صحف الأخبار الأجنبية وعدوها غاية فى الإصابة والسداد بل آية من آيات حسن النظر وأصالة الرأى وازدحم على بابه كبار الكتاب من الإنجليز والفرنسيس لاستكتاب حق أفكاره فكان يحدثهم غير متهيب من عظيم أو كبير.

وبينما كانت الظنون تترامى إلى ما سيكون من وراء تولى الوزير نوبار باشا منصب الرئاسة وما سيكون من وراء ترك السودان وغوائل الحرب القائمة من أقصاها

إلى أقصاها كان زعيم السياسة الإنجليزية يتخبط فى الأمر ويعمل على سلخ السودان شرقاً وجنوباً لأقل الأسباب وأوهى العلل.

(مطلب)

بعثة الأميرال هيوت إلى نجاشي الحبشة

ثم قدم فى هذه الأثناء إلى القاهرة أمير من أمراء سفن الحرب الإنجليزية اسمه الأميرال هيوت مبعوثاً إلى نجاشى الحبشة لعقد وفاق معه على فصل التخوم بين الأملاك المصرية وأملاك السلطنة الحبشية فلبث فى القاهرة أياماً ثم سار إلى السويس ومنها إلى مصوع فوصلها فى أخريات جمادى الثانية من السنة أى سنة إحدى وثلثمائة وألف هجرية، ثم غادرها ومعه محافظ المدينة وبعض كبار عسكر سفينته يريد لقاء الرأس ألولا قائد الجيوش الحبشية وكان قد سير أمامه جماعة من العسكر ليخبروه بقدومه وبسبب حضوره ويطلبوا تعيين المكان الذى يأذن النجاشى بمقابلته فيه، فعادوا وأخبروا بأن اللقاء يكون فى بلدة عدوة فسار إليها بمن معه من الرجال فلما صاروا على مسافة يومين منها كتب إلى النجاشى يعلمه بالغرض من مهمته وبالشروط التى ينبنى عليها الاتفاق بين الدولة الإنجليزية والحكومة المصرية والمملكة الحبشية ولبث ينتظر الجواب أياماً حتى جاءه الخبر من قائد الجيوش الحبشية بأن النجاشى مقيم ببلدة مكله فإذا شاء المسير إليه لاقاه على الرحب والسعة فلم يشأ الأميرال الذهاب إلى مكله، وسار بمن معه إلى عدوة فلما بلغوها لبثوا بها أياماً فجاءهم أمير الجيوش يحمل الأمر من النجاشى بالمداولة معه فيما جاءوا بصدده فوارب الأميرال ولم يمتنع بتاتاً وأكثر من الآخذ والرد فيما لا طائل تحته وجاء الخبر بذلك إلى النجاشى فلم يحفل به ولم يتحرك إلى عدوة وبارح مكله وعرّج فى طريقه إلى دبه ومدرا وغيرهما ثم رجع إلى مكله ثانية كل هذا والأميرال ومن معه يتحملون مضض الانتظار حتى قدم الملك عدوة وأذن لهم بمقابلته فدخلوا عليه وسلموه كتب ملكة الإنجليز وقدموا له بعض التحف والهدايا. فلما كان اليوم الثانى طلبهم أيضًا إلى حضرته فتمثلوا بين يديه وهو فى زيه الملوكى فحادثوه طويلاً فى أمر المعاهدة وما تتضمنه من الشروط والقيود، ثم ودعوه ورحلوا إلى مصوع وعادوا إلى القاهرة ومعهم ورقة عليها خاتم النجاشى واسم الأميرال وماصون بيك محافظ مصوع قالوا: إنها هى تلك المعاهدة وأنها تتضمن سبعة أمور أهمها منح الحرية التامة

للمملكة الحبشية فى نقل جميع البضائع والأسلحة والذخائر من ميناء مصوع تحت حماية الراية الإنجليزية، ثم إعادة بلاد بوغوس إلى المملكة الحبشية مع كسلا وأماديب وسنهيت بما فى جميعها من المبانى والأسلحة والذخيرة حين جلاء العساكر المصرية عنها بشرط أن النجاشى يسهل لأولئك العساكر سبل الجلاء. فلما شاع خبر هذه المعاهدة أخذ الناس يتساءلون عما يراد منها فى حين أن تلك البلاد آمنة مطمئنة لا خوف عليها من إغارات العدو، فقال قوم: إنها غلطة من غلطات زعيم السياسة الإنجليزية، وقال آخرون: بل هى آية من آياته يريد بها إضرام نار الفتنة بين الحبشان ومدعى المهدوية عند بسط النجاشى يده على تلك البلاد فتقوم الحرب بين الطرفين ويقتتلان دونها حتى يهلكا كلاهما أو يهلك فريق ويضعف الآخر فتلتهم السودان دولة الإنجليز لقمة سائغة وتضمه إلى ما نالته من قبل، على أنه لم يكد ينشر خبر هذا الوفاق وما جره على البلاد من الخزى والعار حتى ظهرت الإشاعة بتعاقد زعيم السياسة الإنجليزية مع زعيم السياسة الإيطالية على تنازل السلطنة الإنجليزية للإيطاليان عن مدينة مصوع بعد سلخها من أملاك الحكومة المصرية مع سائر النقط الحربية الواقعة على سواحل البحر الأحمر ما بين عصب ومصوع على شرط أن الجنود الإيطالية التى تحتلها تقوم بقتال أصحاب المهدوية عند الحاجة فنشط حينئذ أصحاب صحف الأخبار المحلية وجعلوا ينادون بالويل والثبور ويحضون أصحاب الحل والعقد على الوقوف فى وجه زعيم تلك السياسة وينذرونهم بالخراب العاجل إن هم ظلوا على هذا الإغضاء والتعامى. وكان ممن أكثر من هذا الصياح والجلبة صاحب جريدة إفرنسية اسمها البوسفور فإنه بالغ فى الوقيعة بزعيم سياسة الإنجليز وزاد فى الطعن والسباب والحط من كرامته حتى استشاط جماعة الإنجليز ولم يطيقوا السكوت على ذلك فطلبوا من الوزير نوبار باشا القبض على الرجل وإبعاده فلم يقدر الوزير على ذلك ولكنه رسم بإلغاء صحيفته وإغلاق محل تحريرها فمانع قنصل الفرنسيس فى ذلك ووردت إليه الأخبار من وزير السياسة الإفرنسية بالمثابرة على الممانعة وقطع كل علاقة مع الحكومة إن هى أصرت على ما تبغيه من إغلاق مكان صاحب البوسفور فأصبح الوزير نوبار باشا وهو بين منتطح كبشين لا يدرى أى الطرفين أدنى إلى السلامة، إغضاب جماعة الإنجليز أم قطع العلاقات مع دولة الفرنسيس، ثم إنه كأنما رأى الثانى أهون الشرين فأوعز بإغلاق المحل فرحل القنصل فى الحال عن القاهرة إلى الإسكندرية وأعلن قطع كل علاقة مع الحكومة ولبث ينتظر ما يأتيه من زعيم سياستهم، وقد اشتغلت الخواطر بهذا الأمر ولم يبق للناس حديث سواه وهم بين

مستضعف لدولة الفرنسيس وشامت بها فكان بعضهم يقول: لو أن فرنسا أظهرت هذا الحزم والعزم يوم كانت مراكب حربها أمام طوابي الإسكندرية ولم ترض بانسحابها صاغرة ذليلة لما حاق بقومها والنافخين في بوقها ما حاق بهم اليوم من الذل والهوان وقال آخرون: هذا جزاء ما فعلته بنا من التغرير حتى أصبحنا وإياها على ما ترى من الضيم والحيف والجزاء من جنس العمل، وقد كثر الأخذ والرد حينئذ بين وزير السياسة الإنجليزية ووزير سياسة فرنسا ونوبار باشا ونسى جماعة الإنجليز أو تناسوا أنهم النافخون في ضرام هاته الفتنة فجعلوا يسعون بين المتخاصمين ويصلحون ذات البين كأنما لم يكن لهم يد فيها وطالت المخابرة في ذلك أياماً والأنباء تأتى في كل يوم إلى القاهرة أشكالاً وألواناً. واتفق أن جاء في هذه الأثناء إلى ميناء الإسكندرية بعض سفن الحرب الإفرنسية فطاش عند رؤيتها جماعة الفرنسيس وبالغوا في الاحتفاء بمن جاء فيها من كبار الجند ومقدمي العسكر وهب أصحاب صحف أخبارهم مما كانوا فيه من خمول وأخذوا يفصلون خبر مجيء تلك السفن ويظهرونه في مظهر العداء والوعيد حتى خيل للناس أن قد قامت الحرب على أبواب القاهرة وبينما هم على هذه الحال إذ انجلت المخابرة عن حصول الاتفاق بين الفرنسيس والوزير نوبار باشا على أن تعود جريدة البوسفور إلى الظهور وأن يذهب نوبار باشا إلى دار قنصل الفرنسيس بكسوة التشريف معتذراً عما وقع فعاد حينئذ القنصل من الإسكندرية إلى القاهرة ومعه أمير تلك السفن الحربية وبعض كبار عسكره، فلما كان اليوم الثالث بعد عودتهم زارهم الوزير بكسوة التشريف فقابلوه هم كذلك فابتدرهم بعبارات الاعتذار والمصالحة فأجابوه بتلطف وفتحت بعد ظهر ذلك اليوم أبواب محل الجريدة فعادت الأمور إلى سابق مجراها وبطل حينئذ القيل والقال بهذا الشأن وانتقل حديث الناس من ذلك إلى سبب رحيل فتس جرالد أحد رجال الإنجليز الذى تولى إدارة أعمال حسابات الحكومة وخزينتها حيناً فقلب نظامها وغير قواعدها القديمة بمعاونة بلوم باشا الذى تولى وكالة الخزينة على عهد الخديوى إسماعيل ولهذا الرجل وخلعه من منصب الوكالة حديث طويل كله أحاجى ومعميات قد ضربنا صفحاً عن ذكره هنا. رحل فتس جرالد هذا في تاسع عشرى رجب من السنة أي سنة اثنتين وثلثمائة وألف هجرية فلم تكن إلا أياما حتى جاء بدله آخر اسمه ويستلاند فلم تطل أيامه وانقلب راجعاً، قالوا: لأنه رأى في أعمال حسابات الخزينة من الخلل والخلط ما لم يوافق عليه، وقد كان من رأيه إعادة شكل الحسابات القديم الذى كان على عهد رؤساء كتاب الخزينة من أهل البلاد وكان من همه منذ حضر إلى القاهرة من ديار الهند الإنجليزية البحث والتنقيب لمعرفة ما كانت

عليه هيئة الحسابات قبل أن يتولاها الإنجليز وبعد أن تولوها وظل على هذه الحال أياما حتى إذا ما هم بإرجاع شكلها إلى ما كان عليه مانعه فى ذلك جماعة الإنجليز فلم يسعه إلا التخلى عن منصبه مفضلاً الرجوع إلى وظيفته فى ديار الهند على البقاء مقيداً بعمل لاترضاه نفسه فحمده الناس على ذلك، فجاء بدلاً منه آخر يدعى بلمر فسار على خطة فتس جرالد وزاد فيها توسعًا وبالغ فى الإكراه على العمل بها حتى عمت سائر دواوين الحكومة وأبطل من قواعد الحسابات القديمة ما لم يتمكن فتس جرالد من إبطاله إلى يوم رحيله عن البلاد، ومازالت طريقة فتس جرالد هذه مرعية إلى هذا اليوم.

ومن الحوادث الجوية الغريبة التى وقعت فى ليلة الحادى والعشرين من صفر من السنة أى سنة ثلاث وثلثمائة وألف هجرية أنه انفجر بعد العشاء الأولى فى السماء ضوء حتى ملأ الجوّ ثم ظهرت بعده فى السماء نيازك وجعلت تتساقط ركاماً كأنها سهام ترمى فى أعقاب الشمس حتى خيل للناظر أن الحرب فى السماء قامت على قدم تنفجر نيازكها انفجار نار المدافع وإن لم يسمع لها دوى فخاف العامة كثيراً وترامحوا وهم يولولون ويضجون بيالطيف يا خفى الألطاف وصعدوا إلى أسطحة البيوت وصاروا يعجون ويبتهلون إلى الله تعالى، وكانت النساء يبكين والأطفال يصرخون بأصوات الخوف وعذرهم فى ذلك مقبول إذ هم لم يسمعوا بل لم يروا من قبل هذا الحادث الغريب وكان المنظر فى تلك الليلة غاية فى الغرابة فلم يبق طرف إلا مدّ إليه ولا نظر إلا تعلق عليه وكانت نجمة الزهرة فى تلك الليلة أشبه بالمنارة الدائرة على نفسها ينقبض نورها حتى لا تكاد تتميز عن سائر صغار النجوم، ثم لا تلبث أن تنبسط فتعود إلى حالها ونورها الزاهر واستمرت على حالتها تلك برهة طويلة والنيازك بين ذلك متتابعة متواصلة كأنها أوراق الشجر تتساقط متناثرة، ثم بطلت وسكنت خواطر الخلق وأصبحوا وهم يرجفون بوقوع الحوادث المهمة وحدوث الخطوب المدلهمة.

(مطلب)

اهتمام دولة الإنجليز بإعطاء الخزينة قرضًا فلم تفلح

وكانت إلى هذا الحين قد أمحلت خزينة البلاد وتولى العجز مواردها وكثرت عليها المطالب والمغارم كثرة بالغة فهمت دولة الإنجليز بإقراض الخزينة قرضًا يقوم بسد احتياجاتها فعارضها فى ذلك وزير سياسة الفرنسيس وقال: إن الحكومة المصرية

مرتبطة بعهود ومحالفات دولية لايصح معها انفراد الإنجليز بهذا العمل فضلاً عن أن البلاد مازالت تحت سيادة السلطان عبد الحميد فلا يصح لها أن تستدين إلا بإذنه.

قال بعض الكتاب: وقد كان وزير الفرنسيس يريد بذلك غل يد الإنجليز فى مصر وإظهار عجزهم عن سد حاجتها حتى لا يعتبر احتلالهم إياها لازماً لابد منه ولكن خاب ظنه وطاش سهمه إذ ما لبث الإنجليز أن سعوا لدى السلطان ورجال المابين حتى جاء فرمان السلطان بعدم المانع من الاقتراض لوفاء مطالب الخزينة المترتبة على الحوادث التى حدثت فتم للإنجليز عمل ذلك القرض فراجت الأعمال وزالت المصاعب فنشط الوزير نوبار باشا حينئذ إلى مخابرة زعيم السياسة الإنجليزية فى صعوبة جعل وادى حلفا حداً فاصلاً بين السودان ومصر وعدم موافقة ذلك لمصلحة البلاد، وقد كان زعيم السياسة المشار إليه رسم بذلك لأصحابه وأشار بالتعجيل فقال الوزير نوبار باشا: إن طمأنينة البلاد لا تتم إلا إذا صارت مديرية دنقلة غاية تخومها لا وادى حلفا لتتمكن من السيادة على النيل - قال: ولما كان ذلك يستلزم إرسال حملة إليها بعد جلاء العساكر الإنجليزية عنها فهو يرى أن تعهد هذه الحملة إلى الحكومة المصرية بحيث تجند عسكراً كامل العدد والعدد يتولى قيادته رجل مصرى خبير بأحوال السودان وأن هذه الواسطة أقرب من سواها إلى الوصول إلى أحسن النتائج فضلاً عن أن النفقة التى تلزم لذلك ستكون طفيفة بالنسبة للنفقات الجسيمة التى يقتضيها تجريد حملة إنجليزية وأنه ينبغى أن نقاتل السود بنفس أسلحتهم، وإذا تحقق خبر موت المهدى كان الأمر أيسر وكانت العاقبة أسلم والمبادرة بالحرب أوجب وألزم فلما علم صاحب سياسة الإنجليز بمقالة الوزير أرسل إليه يقول: اترك كل شىء على ما هو عليه الآن حتى يفد عليك رسولنا درومند ولف.

وكان لما خلع الوزير محمد شريف باشا نفسه من مسند الرئاسة بسبب تصميمه على عدم التخلى عن السودان وتركها لمدعى المهدوية وأخذت أقلام الكتاب يومئذ تقرّع صاحب السياسة الإنجليزية بأشد ما يكون من التقريع عمد إلى شىء من المواربة تسكيناً للفتنة وأرسل كتبه إلى السلطان يعلمه بما عزمت عليه السلطنة الإنجليزية من إرسال رسول ينوب عنها فى التعاقد مع الباب العالى على ما فيه المصلحة لديار مصر والسودان فى مستقبل الأيام.

(مطلب)

بعثة السير درومند ولف إلى دار السطنة العثمانية

فلم تكن إلا أيام بعد ذلك حتى سار إلى الآستانة عظيم من الإنجليز اسمه السير

درومند ولف يحمل الأمر بإبابته عن السلطنة الإنجليزية فى عقد ذلك الاتفاق فأكرم السلطان وفادته وأحسن لقاءه فأخذ يغدو ويروح على الباب العالى تارة والمابين الهمايونى أخرى أياماً لم يتعد الكلام فيها تعيين القاعدة اللازمة لمواد ذلك الاتفاق، وكان الكلام بين الفريقين غاية فى المواربة والتعقيد. وبينما هما على هذه الحال إذ قامت الفتنة فى إمارة البلغار وظهر أهلها ومن ولى الإمارة عليها يطالبون بالاستقلال والخروج من تابعية الدولة العثمانية.

قال بعض الكتاب: ويقال إن دولة الإنجليز هى التى أغرتهم على فعل ذلك وجرتهم إلى التظاهر فى تلك الأيام بما يوجب فشل الدولة العثمانية واضطراب أمورها عساها تتساهل مع رسولها ولف فتنال منها ما تتمناه فتعطلت المخابرة بين ولف والباب العالى ووقفت عند حد الانتظار واشتدت الفتنة البلغارية وتطاولت أيدى رجالها إلى العبث بحقوق السلطنة العثمانية واستخفوا بها فجيش أميرها الجيوش وأعد المعدات وسير الرسل إلى الدول الكبرى يستفزها إلى نصرته فطافوا الممالك وأكثروا من الشكوى ،وعظموا البلوى فمن الدول من مناهم بالأمانى البعيدة ومنها من حضهم على طاعة السلطان وملازمة السكون وطالت الأيام على مبعوث الإنجليز وهو ينتظر فى دار السلطنة العثمانية ما سيكون من وراء تلك الفتنة عسى أن يكون من ورائها مغنم لهم فلم يقع شىء من ذلك وتلاشت الفتنة على أيسر ما يكون وعادت الأمور إلى سابق مجراها وبعد أخذ ورد ما بين ولف والباب العالى وسفراء الدول الكبرى وقع الاتفاق على أن يرسل السلطان مبعوثاً من قبله إلى ديار مصر مع ولف مبعوث الإنجليز فيكون مندوب السلطان هو الأول ومندوب الإنجليز هو الثانى ويكون مع كل من الاثنين بعض الموظفين والمأمورين ليساعدوه على قضاء مأموريته بحيث إن هذه الرسالة لا تتناول إلا البحث فى أحوال خزينة البلاد وأمورها الإدارية والعسكرية مع إصلاح ما يمكن إصلاحه وعلى المندوبين أن يرفعا تقريراً بما يريانه مشتملاً على تفصيلات المسائل باباً فباباً .

ووصل ولف الإسكندرية فقوبل بغاية التجلة والتعظيم وسارت خلفه وأمامه الفرسان من الإنجليز والمصريين إلى محطة السكة الحديد، فلما وصل القاهرة بالغ الخديوى فى الاحتفاء به فقد كان فى انتظاره على المحطة ذو الفقار باشا كبير التشريفات وجميع النظار ومحافظ المدينة وقائد عموم جيش الاحتلال وبعض مقدمى العسكر وكوكبة من الركبان والمشاة، ثم زاره الخديوى وكبار الدولة والأمراء كافة ولبث ينتظر قدوم المبعوث السلطانى وهو يجتمع فى كل يوم بعظماء أهل البلاد

ولاسيما من كان منهم له علاقة بالسودان ومعرفة بأحوالها. وبينما هم يترقبون قدوم مبعوث السلطان إذ جاء الخبر إلى ديوان الخديوى بالإحسان من الخليفة على الخديوى بنيشان الامتياز العالى، وأنه قد أرسل النيشان على يد الفريق محمد باشا وآخر اسمه خيرى بيك فوصلا إلى الإسكندرية وقدما منها إلى القاهرة وسارا من محطة السكة الحديد فى موكب حافل حتى أنزلوهما بقصر النزهة من ضواحى القاهرة فباتا ليلتهما وأصبحا فسارا إلى مقر الخديوى بعابدين ولبثا بحضرته برهة لطيفة ثم عادا إلى قصر النزهة. فلما كان اليوم الثانى عمل التشريف فدخل على الخديوى كبار الدولة وأصحاب الوظائف العالية فهنئوه وأطلقوا لذلك عدة مدافع من قلعة الجبل وفى عصر اليوم سار الخديوى إلى قصر النزهة حيث الوفد العثمانى فسلم عليهما وجلس معهما برهة لطيفة ثم عاد إلى مقره وأقام رجال الوفد بعد ذلك أياماً ثم بارحا الديار إلى الآستانة.

(مطلب)

قاعدة الاتفاق الذى رامت الدولة الإنجليزية عقده مع السلطان

وجاء البريد من دار السلطنة فى ثانى عشرى صفر من السنة أى سنة ثلاث وثلثمائة وألف يحمل صورة الوفاق الذى تم ما بين دولة الإنجليز والباب العالى بشأن مأمورية السير درومند ولف مبعوث الإنجليز وسعيد باشا ناظر خارجية السلطنة العثمانية والأمور التى سيجريها فى مصر بالاشتراك مع الغازى مختار باشا مبعوث السلطان فكانت كما يأتى بنصه:

لما كانت جلالة ملكة بريطانيا العظمى وأيرلانده وإمبراطورة الهند اتفقت مع جلالة السلطان على إرسال معتمدين فوق العادة إلى مصر لأجل تنظيم الشئون المصرية قررا أن يعقد بينهما وفاق وعينا لهذه الغاية معتمدين مرخصين وهما المحترم السير هنرى درومند ولف من أعضاء المجلس الخاص حامل نيشان شوفاليه غران كرواه من صنف سان مشيل وسان جورج ونيشان شوفاليه كومندور من صنف بين وأحد أعضاء البرلمان الإنجليزى ومعتمد الدولة الإنجليزية ووزيرها المرخص لدى جلالة السلطان بمأمورية خصوصية تتعلق بالأكثر بشئون مصر من قبل جلالة ملكة بريطانيا العظمى وأيرلانده وإمبراطورة الهند ودولتلو محمد سعيد باشا وزير الخارجية

العثمانية الحامل النيشان الأول المرصع والنيشان المجيدى الأول من قبل جلالة السلطان. وبعد أن تبادلا الاطلاع على أوراق تعيينهما الرسمية ووجداها صحيحة توافقا على المواد الآتية المبينة على سائر الفرمانات الشاهانية المرعية :

المادة الأولى : يرسل كل من جلالة ملكة بريطانيا العظمى وجلالة السلطان معتمدا سامياً إلى مصر.

المادة الثانية : يبحث المعتمد السامى العثمانى بالاتحاد مع سمو الخديوى أو مع المعتمد الذى يعينه سموه فى أصلح الوسائط الممكن الوصل إليها لإخماد ثورة السودان بطريقة سلمية ويوقف المعتمد السامى العثمانى وسمو الخديوى المعتمد الإنجليزى السامى على سير المخابرات.

ولما كانت الاحتياطات التى ستقرر متعلقة بتسوية شئون مصر العمومية اقتضى اعتمادها وتنفيذها بالاتحاد مع المعتمد الإنجليزى السامى.

المادة الثالثة : ينظم المعتمدان الساميان الجيش المصرى بالاتحاد مع سمو الخديوى.

المادة الرابعة : يفحص المندوبان الساميان بالاتحاد مع سمو الخديوى جميع فروع الإدارات المصرية ولهم أن يعدلوا فيها ما يستصوبون طبقاً للفرمانات الشاهانية.

المادة الخامسة : تصدق الحكومة العثمانية على جميع العهدات الدولية التى أبرمها سمو الخديوى بشرط أن لا تكون مغايرة للامتيازات المخولة لسموه بمقتضى الفرمانات الشاهانية.

المادة السادسة : عقيب أن يتأكد المعتمدان الساميان حصول الأمن على التخوم وتوطيد الحكومة المصرية يقدم كل منهما تقريراً إلى حكومته وعندئذ تبحث الحكومتان فى عقد وفاق يتقرر فيه جلاء العساكر الإنجليزية عن مصر فى أجل مناسب.

المادة السابعة : يصدّق على هذا الوفاق ويصير تبادل النسختين المصدق عليهما فى الأستانة فى خلال خمسة عشر يوما أو أقل إذا أمكن.

وبناء على ذلك وقع المعتمدان المرخصان على هذا الوفاق وذيلاه بطغرائهما اهـ.

(مطلب)

تعدي العساكر الإيطالية على مصوع واحتلالها عنوة وما جرى

وبينما كان المبعوث الإنجليزى ورجال الحل والعقد فى مصر يراقبون حضور مبعوث السلطان وأهل البلاد يرجون النفع من وراء هذه النهضة إذ جاء الخبر من عامل الخديوى على مصوع بأن الجيوش الإيطالية التى كانت ضاربة حول البلد قد دخلتها وأحاطت بأماكن ودواوين الحكومة وطلبت من محافظ البلد الجلاء العاجل عنها بمن معه من المرابطين وتسليم القلاع والحصون إلى قائد الإيطاليان فمانع المحافظ فى ذلك وقال: إنه لا يفعل حتى يأتيه الأمر من الخديوى فشدد قائد الإيطاليان فى الطلب وأغلظ فى القول وهدد المحافظ بإطلاق القنابل من مدافع السفن على الحصون حتى يدمرها إن هو أصر على الامتناع فلم يسع المحافظ إلا الانسحاب بمن معه من الجند وبارح البلد وانحدر إلى سواكن، فلما شاع خبر هذا الحادث هاج الناس وماجوا وطاف نساء وذرارى الضباط وأصحاب الوظائف الذين بمصوع يتساءلون عما جرى لرجالهم وهم فى ولولة وضجة واجتمع الوزراء كافة وبينهم الخديوى وتكلموا فى الأمر طويلاً ثم اتفقوا بعد جدال على أن يحتجوا على عمل دولة إيطاليا هذا ويرفعوا الأمر إلى الباب العالى ليرى رأيه فيه مع سفراء الدول الكبرى بدار السلطنة وظنوا أن الغازى مختار باشا لا يفد إلى مصر إلا ومعه علم ما كان وما سيكون من أمر هذه المحن المتتابعة. فلما كان ثانى عشرى ربيع الأول من السنة أي سنة ثلاث وثلثمائة وألف هجرية وصلت السفينة عز الدين إحدى البواخر السلطانية تقل الغازى مختار باشا مبعوث السلطان فقابله الوزير نوبار باشا وسائر النظار وذو الفقار باشا كبير التشريفات فى أبهة وجلالة وأطلقت المدافع لقدومه من قلاع وحصون الإسكندرية، وكان فى انتظاره العدد العديد من العلماء والوجهاء وأعيان البلد فبعد أن سلموا عليه جميعاً بات ليلته تلك بالسفينة وأصبح فسار بمن معه من رجال الوفد ونسائه وخدمه وأتباعه إلى محطة السكة الحديد فحملهم القطار إلى القاهرة، وكان فى انتظاره الأمراء والكبراء والعلماء والوجهاء فسار بين صفوف الجند وأصوات المدافع إلى سراى الإسماعيلية التى أعدوها لنزوله ولم يستقر به المقام حتى زاره المبعوث الإنجليزى ولبث بحضرته برهة لطيفة وكذلك زاره العلماء

والوجهاء وأصحاب الوظائف على اختلاف طبقاتهم، ثم زار الخديوى فى ثانى يوم ولبث معه برهة وعاد إلى مقره فرد له الخديوى الزيارة وهو فى موكب التشريف، ثم بعد أيام قلائل جعل الغازى يوالى الاجتماع بمبعوث الإنجليز ويتكلمان فى أمر الإصلاح وفى أوجهه وأسبابه وظلا على هذه الحال أياماً. وجلسا يوماً يتكلمان فقال الغازى لولف: لا أخفى عليك أن حالة البلاد الآن داعية إلى تجييش جيش مناسب تسلم قيادته لقواد من أهل الخبرة والتجربة من المسلمين ليتولى إرجاع الأمور فى الديار السودانية إلى سابق مجراها والزحف على بلادها كلما سنحت الفرص. فقال ولف: إن الاتفاق مع أمير المؤمنين مبنى على اتخاذ الوسائل السلمية لا على تجنيد الجنود وتسليح العساكر وإرسالها لقتال العدو فقال الغازى نعم إنى لم أتعود أن أروى غير الحقيقة وقد يمكن أن يكون مولاى الخليفة يظن ذلك فعلىَّ أن أرفع إلى سدته الملوكانية ما أراه الآن من استحالة إرجاع الأمور إلى ما كانت عليه بالوسائل السلمية ما لم تعضدها قوة عسكرية، فقال ولف: ومن أين المال للنفقة؟ فقال الغازى: إن شاءت الدولة الإنجليزية مساعدتنا فالأمر دين والنفقة متيسرة وما عليها إلا أن تعطينا ما تأخذه من خزينة البلاد نفقة على جيشها المحتل الآن مصر. قال محدثى: فسكت عند ذلك السير ولف وأطرق لحظة ثم رفع رأسه وقال: سأكتب بهذا القول إلى صاحب سياستنا وأنتظر الجواب فإذا جاءنى اجتمعنا وتناقشنا فى الأمر.

واتفق فى هذه الأثناء أن تقدمت طائفة من العربان وجماعة من الدراويش أنصار المهدى إلى مواقع العساكر المصرية والإنجليزية الضاربة على الحدود فعاثوا فى ذلك الصعيد فقامت عليهم العساكر وضربتهم ومزقت جمعهم وتأثرتهم فاسترجعت منهم عدة مواقع وكثيراً من القرى والبلدان الصغيرة ومازالت تطاردهم وتعمل فى أقفيتهم السيف حتى صارت على أبواب دنقلة ووردت الأنباء بذلك إلى القاهرة من عاصمة الإنجليز لا من الحدود ففرح الناس فرحاً عظيماً وتعلقت آمالهم بقرب دخول العساكر المصرية دنقلة وإرجاعها إلى حوزة الحكومة وجعلها مقراً للحركات العسكرية ووردت رسائل التهانى على الخديوى من كل فج عميق فلم تكن إلا أيام حتى جاء الأمر من اللورد سلسبورى زعيم السياسة الإنجليزية إلى الجنرال استيفنصون قائد الجيوش الإنجليزية بالحدود أن ردّوا المقاتلين كافة عن دنقلة وأرجعوهم إلى الحدود، قيل: فراجعه الجنرال استيفنصون فى ذلك فلم يقبل وشدد فى إرجاعهم فانحدروا إلى مواقعهم الأصلية وتركوا ما كان بأيديهم من تلك المعاقل والمراكز فعاد إليها

العربان وتقووا فيها وترسوا وجعلوا يراقبون الفرصة لإعادة الكرة على الحدود وانحدر الجنرال استيفنصون إلى القاهرة فشعر الناس بما وراء ذلك من مكنون السياسة الإنجليزية وأكثر أصحاب الصحف المحلية من الكلام على سوء الأثر المترتب على هذه السياسة وعلى بقاء العساكر الإنجليزية فى الحدود من الاضطراب ودوام القلق وأن الحال يحتاج إلى غير ذلك.

(مطلب)

ما وقع إلى الكونت روني وكيل الفرنسيس السياسي بمصر واعتذار الوزير إليه وهو بكسوة التشريف

ولم يشغلهم عن هذه الجلبة إلا ما وقع لقنصل جنرال الفرنسيس ووكيلهم السياسى بمصر، وذلك أنه قد جاء فى هذه الأثناء عظيم من الفرنسيس اسمه الكونت رونى لتولى منصب الوكالة السياسية بمصر فلما وصل القاهرة تحدد يوم لقبوله فى الموكب المعتاد واستلام الأوراق المؤذنة بتعيينه فى هذا المنصب على الطريقة المألوفة فلما حل الأجل المضروب لذلك وتمثل القنصل بين يدى الخديوى بملابس الزينة والتشريف وسلمه تلك الأوراق وألقى عليه حديث المودة وعلائق المحبة الكائنة بين حكومة مصر ودولة الفرنسيس لم تطلق المدافع لذلك من قلعة الجبل كالمتبع فى مثل هذا الاحتفال وانفضت الحفلة على غير سنتها المألوفة ونزل القنصل إلى داره وفى قلبه ما فيه لاسيما وأن المتولين أمر قلعة الجبل وإطلاق مدافعها فى هذه الحفلات الرسمية هم جماعة الإنجليز، فما استقر بالقنصل المقام فى داره حتى كتب إلى الوزير نوبار باشا يقيم الحجة ضد ما وقع ويطلب الترضية العاجلة فانزعج الوزير أى انزعاج ورسم الخديوى بإطلاق المدافع فى اليوم الثانى استرضاء للقنصل وتطييباً لخاطره فلم يقبل، وقال: لابد من الترضية بأن يأتى إلى دارى رئيس التشريفات بكسوة التشريف ويعتذر عما فرط فتطلق عند ذلك المدافع ثانية. وبأن يأتى كذلك الوزير نوبار باشا بملابس التشريف وتطلق المدافع ففعلا وأطلقت المدافع ثانية وثالثة. واندفع أصحاب صحف الفرنسيس ينادون بالويل والثبور على جماعة الإنجليز بمصر وشاركهم فى ذلك أصحاب الصحف المحلية فاهتم السير ولف مبعوث الإنجليز بالأمر وخاف أن يكون من وراء ذلك فشل مأموريته فسار إلى دار قنصل جنرال الفرنسيس ومعه قائد الجيوش الإنجليزية، قيل: واعتذرا وتلطفا فى المقال. فطلب القنصل عندئذ نشر بيان

جميع ما جرى بالجريدة الرسمية فأجابا طلبه وأشار ولف على الوزير نوبار باشا بالتعجيل فى ذلك ففعل وزال الخلاف فعادت الأمور إلى سابق مجراها. وعاد ولف إلى الاجتماع بالغازى مختار باشا والمكالمة فى شئون البلاد وحاجاتها وفى قواعد الإصلاح الواجب إدخالها في سائر دواوين الحكومة وفى تنظيم الجيش على النمط الذى يمكن معه إعادة الكرة على دنقلة ثم استرجاع البلاد السودانية إلى الطاعة وتدويخها وإرسال رسول من قبل الخديوى إلى وادى حلفا للمخابرة مع زعماء القبائل رجاء الوصول إلى تقرير قاعدة للصلح معهم وظلا على هذه الحال أياماً وجاء الطلب من عاصمة الإنجليز إلى السير افلنج بارنج قنصل جنرالهم فتأهب للسفر وقد رتب متاعه وزار الوزير نوبار باشا وبقية الوزراء وقناصل الدول فشاع الخبر يومئذ بخلعه من منصبه وأنه لا يعود إليه إلا إذا عاد ولف إلى بلاده ظافراً بما يرجونه من بعثه، فتحدث الناس فى ذلك كثيراً وقالوا إن استدعاءه فى هذه الظروف الحرجة وإفراغه من كل عمل يدلان على وقوع شيء من النفور بينه وبين السير ولف أو أن يكون نداء الوزير نوبار باشا المتتابع بطلب خلع القنصل المشار إليه قد أقلق صاحب السياسة الإنجليزية ومال به إلى استدعاء القنصل، وقالوا غير ذلك أيضاً. فسار القنصل من القاهرة وغاب عنها حيناً ثم جاءها وقد أعلوا منزلته وأكبروا منصبه وسموه وكيلهم السياسى بديار مصر فذهبت تلك الظنون أدراج الرياح وتم له ما أراده فى منصبه من النجاح والفلاح.

وجاء الخبر بعيد ذلك بقليل بعزم صاحب السياسة الإنجليزية على إرسال غردون الذى هو غردون باشا إلى السودان لاسترجاع من بها من العساكر والجند وغيرهم ممن يشاء الجلاء عنها ثم لم يمض إلا أيام حتى جاء الطلب فى أخريات شهر صفر من صاحب السياسة المشار إليه بتولية غردون الولاية العامة على السودان وإعطائه السلطة المطلقة فيها فأبلغ السير بارنج هذا الطلب إلى الخديوى والوزير نوبار باشا فدهشا واضطربا ومانعا فى ذلك كثيراً فلم يقبل السير بارنج وصدع بالأمر، ثم لم تكن إلا أيام أخر حتى وصل غردون إلى القاهرة فى أخريات ربيع الأول من السنة أى سنة ثلاث وثلثمائة وألف واجتمع بالسير بارنج فأسر إليه بارنج بكل ما قضت به سياستهم فى أصقاع السودان ولم يتصل أحد يومئذ إلى معرفة ما الذى تنويه الهيئة الحاكمة ولا ما إذا كانت شاركت السير بارنج فى آرائه أو لا. ولم يطل غردون مكثه بالقاهرة بل غادرها فشيعه الوزير نوبار باشا وسائر الوزراء والسير بارنج والعدد

العديد من مقدمى العساكر الإنجليزية ولم يأخذ غردون معه فى ذلك اليوم جنداً ولا كراعاً ولا حشماً ولا أتباعاً سوى وعاء لملابسه ورحل إلى الخرطوم كأنما هو ذاهب إلى داره للقاء أم أولاده فتأمل.

قال صاحب كتاب السودان: فلما وصل كروسكو كتب كتاباً إلى المهدى وأرسل معه هدية من نوع الهدايا التى تقدم إلى مشايخ الأعراب كالبنش وغيره وفحوى الكتاب: إننى أعترف بك سلطاناً على السودان الغربى كله فأنت مطلق التصرف فى أقاليمه التى هى كردفان ودارفور. قلت: وهذه هى سياسة الوزير محمد شريف باشا التى مات شهيدها - قال: وإننى لما بلغنى ما أصاب أهل السودان من سفك الدماء وتوالى الحروب خامرنى غم شديد ولذا قد انتدبتنى جلالة ملكة بريطانيه العظمى وإمبراطورة الهند واليًا على السودان وصدقت على ذلك الحضرة الفخيمة الخديوية وإننى من صميم فؤادى أرغب توثيق عرى العلائق الودادية بينى وبين سلطنتكم وأرجو أن تسمحوا بإعادة المواصلات التلغرافية وأظن أن أدوات التلغراف قد أتلفت فى غضون تلك الخطوب، ولهذا أصدرت الأوامر إلى مركز الحكمدارية بأن يعطيكم كل ما تطلبونه من تلك الأدوات وأن يستقبل رسولكم كما يستقبل أعظم سفير، وقد داخلنى الحزن الشديد لما علمت بقفل طرق السودان الشرقى مما حال بين المسلمين وبين مكة المكرمة التى يقصدونها فى كل عام لأداء فريضة الحج وزيارة قبر النبى عليه الصلاة والسلام فهيا بنا لفتح هذا الطريق وإلقاء السلاح وتشييد أركان الراحة وتوطيد دعائم السلام اهـ.

ووصلت الأخبار إلى الخرطوم بمقدم غردون وولايته العامة على السودان ففرح الناس بذلك فرحاً عظيماً وأملوا النجاة على يديه فوردت عليه رسائل التهانى من كل صوب فأرسل إلى أهل الخرطوم يعلمهم بتركه المتأخر من الضرائب والأموال وخراج ثلاث سنوات مستقبلة وبترك جميع السودان الغربى إلى مدعى المهدوية واعتباره منفصلاً عن الخديوية المصرية وأن حكومة جلالة ملكة الإنجليز هى التى منحت المهدى هذا السلطان الواسع. وسير كذلك إلى حسين سرى باشا باعتزال منصب وكالة الولاية فاعتزله صاغراً وأقام بدله رجلا من الإنجليز اسمه الكولونيل برى كوتلجف - قال: وكان هذا الرجل قد حضر إلى الخرطوم فى مهمة سرية من قبل زعيم السياسة الإنجليزية قبل مقدم غردون بكثير ورسم غردون بتولية آخرين بعض الوظائف العالية ثم إنه رحل عن كروسكو إلى بربر فلاقاه مديرها ومعه أعيان البلد

وأصحاب الوظائف الديوانية فحضهم على الولاء والإخلاص، وقال: قد تركت لكم سائر المتأخـر من الأموال الأميرية وتجـاوزت عن خراج ثلاث سنوات مسـتقبلة وقد أبحت لكم الاتجار فى الرقـيق وأبطلت كل مرسوم يـخالف ذلك، ثم أهداهم بعض الهدايا النفيسة والتحف الغالية وسار عنهم قاصداً الخرطوم فكان يرى من الأهالى فى طريقه عين المقت والقلى إذ كانوا يسبونه ويكثـرون من شتمه ويقـولـون فى وجهه: قد زالت دولتكم يا كفار. قال الراوى: فـاندهش غردون من ذلك وأكبره جداً وكاد يتحقق عدم فلاحه وخيبتـه فى هذه البعثة إلا أنه تجلد واستعان بالصبر إلى أن وصل الخرطوم فجمع الأعـيان والعلماء والوجهاء والمشايخ وتلا عليـهم فرمان الولاية. ثم جعل يقول للناس: يا أهل السودان جـميعاً إن الخديوى يسلم عليكم صغيـراً وكبيراً أحراراً وعبيداً إناثاً وذكوراً وكذلك جلالة الملكة فيكتوريا ملكة دولة بريطانيه العظمى وإمبراطورة الهند. وأنكـم لاتجهلـون شفـقتـى عليكـم ومحبتـى لكـم وقـد سـاءنـى ما سمعـته عنكم لما قامت بينكم الحرب وتعطلت تجارتكم وسـفكت دماؤكم ومنعتم من تأدية فريضة الحج التى هى من أركان الإسلام ومن زيارة قبر النبى عليه السلام، وقد ساء ذلك كلا من جلالة الملكة وسمـو الخديوى المعظم فانتدبت من قبل حكومة جلالة الملكة لأكون والياً على السودان ومرخصًا فوق العادة وقد صار فصل السودان فصلاً تامـا وفوض إلىّ الحكم المطلق عليه وقد خابرت حـضرة السيد محمـد أحمد المهدى بكنه مأموريتى واعترفت له بالسلطة المطلقـة على السودان الغربى برمته بشرط أن لا يمـد يده لغيـره. وقـد أبطلت جمـيع الأوامـر المانعـة من الاتجار فى الرقـيق وتجاوزت عن جـميع المتأخر من الـضرائب لغاية سنة ثلاث وثمـانين وثمانمائة وألف ميلادية وتجـاوزت أيضًا عن خراج ثلاث سنوات منذ أول سنة أربع وثمـانين وأمرت بإحراق دفـاتر المتأخرات وبإطلاق جـميع المسجـونين على اختلاف جـرائمهم وتنوع جناياتهم وقد عزمت منذ الآن أن لا أجعل أعضـاء حكومتى إلا من الوطنيين حيث إننى أود تشكيل حكومة وطنية ليحكم السـودان نفسه بنفسه وقد عينت عوض الكريم أباسن مـديراً للخـرطوم وأحسنت عليـه برتبـة الباشـوية، ولى الأمل بأن العـلائق ستصبح بيـنى وبين سلطان الغرب «يعنى المهدى» وثيقة العرى وقـد أمرت منذ اليوم بفتح أبواب الحصون وتخريبها وسـحب الجنود منها لكى تتفرغوا إلى عمارية بلادكم وحرث أراضيكم وإنماء تجارتكم ومنى عليكم السلام اهـ.

قال صاحب كـتاب السودان: وكان أهل الخرطوم يسمـعون هذا الكلام وأعينهم

تذرف الدمع حزناً وإشفاقاً لأنهم كانوا يعلمون أن دوام الحال من المحال وأن مدعى المهدوية سوف ينحدر عليهم بخيله ورجله فلا عهد ينفع ولا حنان غردون يدفع. فدخل جماعة العلماء والوجهاء على غردون وقالوا: إنا نموت موتاً إن أنت أتلفت شيئاً من الحصون والقلاع فإن المهدى لا يلتفت إلى شىء مما دعوته إليه ولا يرده عنا إلا عسكر جرار وهاهم طوائف العربان الضاربون حولنا متحفزون للوثبة علينا والإيقاع بنا فلم يلتفت غردون إلى قولهم ولم يحفل به فلم تمض على ذلك أيام حتى جاء الخبر إلى الخرطوم بفشل حملة الجنرال جراهام وقتل جل رجالها. وكانت هذه الحملة قد سارت من القاهرة إلى شرقى السودان لتمهد الطريق إلى غردون فى مقاصده فلما شاع خبر اندحارها وإثخان رجال المهدى فيها اشتد الخوف بمن هم فى الخرطوم وأكبروا المصيبة وانزعج غردون وجعل يتدبر فيما عساه أن يكون إذا امتنع المهدى عليه وهاجمت جموعه الخرطوم وأخذ من يومه يطوف الحصون والقلاع ويتعهد المعاقل التى كان أشار فى مقالته بفتح أبوابها وتخريبها وسحب من بها من العسكر وبث العيون لتأتى له بأخبار العدو من كل صوب وحدب، فكانوا يتخبطون فى القول ولا يصدقون فى الرواية حتى ضعفت منه الآمال واختلطت عليه الأحوال.

واعلم أن ذهاب غردون إلى الخرطوم فى هذه الظروف المحفوفة بأكبر الأخطار وأعظم المكاره واندفاع أصحاب السياسة الإنجليزية وراء هذه الغاية ليس من الهنات الهينات ولا هو من المجازفة أو عمى البصيرة فى شىء وإنما هى أعمال تشف عن عزم ثابت قوى ونية معقودة على أمر لا يقبل المراجعة وهذه النية كانت تكنها صدور أصحاب تلك السياسة من عهد محمد على باشا الكبير بل ومن قبله على عهد مراد بيك وعلى بيك الكبير فكانوا كلما لاحت لهم بارقة أمل تتبعوها أو فرصة انتهزوها حتى أيام الخديوى إسماعيل الذى بش لهم وفتح لهم الأبواب مرحباً فولجوها آمنين وخفض لهم جناح الطاعة فتربعوا فى مناصب الرئاسة وتصرفوا فى موارد إيراد البلاد ومازالوا يعملون على بلوغ الغاية تارة ببذل المال وأخرى بدهاء الرجال وتارة باستعمال الضغط والتشديد وطوراً بالوعد والوعيد إلى أن أتاح لهم القدر المقدور ظهور فتنة صاحب المهدوية ثم اشتداد الثورة العرابية فأصبحت حكومة البلاد وهى أشغل من ذات النحيين فنهضوا حينئذ إلى إظهار ما تكنه الصدور وسيروا غردون هذا إلى الخرطوم على ما وصفنا وهم يقدرون له السلامة فى الحل والترحال ويرجون على يديه بلوغ سلطتهم غاية الآمال. ولأجل أن لا يفوت القارئ معرفة بعض

الشيء من ضروب هذه السياسة الحازمة نذكر في فصل آت شيئاً مما جرى من أفيال هولاء القوم في السودان على عهد الخديوي إسماعيل والله سبحانه من وراء كل عمل.

فصـــل

(فيمـا كان من دهاء رجال سياسـة الإنجليز على عهد الخديوي إسماعيـل)

لما فتح محمد على باشا السودان ودوّخ مدنها وبلدانها شرقاً وغرباً وملأها بعسكره وجنوده جنوباً وأنشأ عاصمتها الجديدة التي هي مدينة الخرطوم، وقد كانت قاعدتها يومئذ مدينة واد مدني الواقعة على شاطىء النيل الأزرق جعل يولي عليها الولاة والعمال بعد ولاية الدفتردار العامة فكان جلهم على ما قاله بعض الكتاب ممن يحسنون التدبير عارفين بحاجات البلاد بعيدين عن الجور والاعتساف. فلما مات محمد علي باشا وجاءت أولاده من بعده كان أكثر عمالهم أغرارا كثيري الجور والظلم ميالين إلى أخذ ما بأيدي الناس مع غلظة وتجبر، وكان آخر من تولاها على عهد محمد سعيد باشا سنة أربع وسبعين ومائتين وألف هجرية حسين سلامة بيك.

قال صاحب كتاب السودان: كان نعم الرجل عادلاً شفوقًا على الرعية، وكان يسمى يومئذ مدير عموم قبلي وبحري السودان وبقي الرجل وبقيت الولاية بهذا الاسم حتى تولى الملك الخديوي إسماعيل فجعل يبدّل ويغير في الولاة وليس بينهم من تحمد أيامه أو تشكر أحلامه إلى أن تولاها جعفر باشا المعروف بالصغير فكان رجلاً عادلاً شفوقاً باراً بالرعية عارفاً بحاجة البلاد وأهلها فأقام ماشاء الخديوي، ثم عزل وخلفه عدة من الولاة على التعاقب فكان آخرهم قبل غردون الإنجليزي إسماعيل أيوب باشا وفي أيامه بلغت سلطة الخديوي في تلك الأنحاء أوجها وعمت كلمته أرجاء السودان شرقاً وغرباً وجنوباً إذ تتابعت غزوات عسكره وأوغلت في أقاصي البلاد طلباً للمزيد من الفتح فكان أصحاب سياسة الإنجليز وأقطاب القوم منهم ينظرون إلى فعاله بعين السخط ويحسبون لها حساباً كبيراً وجعلوا يعملون على ما تقتضيه مصلحتهم ويتدبرون لمستقبل الأيام فأرسلوا الكشاف والرواد من طريق

الزنجبار ورأس الرجـاء بعضهم فى زى المبشـيرين بالنصرانية، وبعضـهم باسم علماء الآثار وأصحـاب علم طبقـات الأرض، فلم يتم لهم ما أرادوا فـعمدوا إلـى الحيلة والتدبير وجاءوا الخديوى إسماعيل من أقرب المسالك وأحبها إليه فزينوا له المزيد من فتح تلك الأصقاع واستكشاف مجاهل خط الاستواء وما فى جوف أرضه من معادن الذهب والفضة والحديد والفحم ومازالوا به حتى ظفـروا منه ببغيتهم وساعدهم على ذلك مـا كان فـيـه يومئـذ من التـورّط فى الدين لأصـحاب الأمـوال من الإنجليـز والفرنسيس ثم إنهم سيروا إليه رجلاً من أقيـالهم العارفين بمناحى سياستهم ومرامى غايتهم اسمه السير صمويل بيكر فـتلقاه الخديوى على الرحب والسعة فأقام بالقاهرة أياماً، وكـان قد أتى معه من ديار الإنجليـز بشىء من الهدايا والتحف برسم زعـماء قبائل السودان ومشايخ أهلها وأدلاء دروبها ومسالكها وهى أصناف من الخرز والجلود المصبوغـة والفراء والقبعات الحـمر والأساور والأقراط والخواتم والقـلائد من الصفر والأحذية وشـقق الكتان والخناجـر والسكاكين والشىء الكثـير من الاعـيب الأطفال كالأكر والمزامـير والصفافير والعـصىّ والسياط فاستـصحب كل ذلك وبارح القاهرة على عجل وما برح سـائراً حتى تغلغل فى جوف السودان وأوغـل فى مجاهل خط الاستواء فبحث ونقب وراد الطرق واستكشف المسـالك واستمال بعض زعماء القوم وعرف الشىء الكثـير من طباعهم وعاداتهم ومـا يميلون إليه وما ينفـرون منه. قيل وعاهد بعضهم على الولاء والإخلاص للسلطنة الإنجليزية وعاقدهم على ما لم تصل إلينا معرفته وبعد أن لبث بتلك الأصقاع ماشاء هو أو ما شاء صاحب سياسة الإنجليز قفل راجـعاً إلى قومـه بسلام فلم تكن إلا فتـرة بعد ذلك حتـى أخذ قنصل جنرال الإنجليز بالقـاهرة يصبح الخديوى ويمسـيه فى طلب معاقـدة دولة الإنجليز على منع الاتجار فى الرقـيق وقطع شأفة النخـاسة من أرجاء السودان المصـرى فكان الخديوى يماطل ويحاول والقنصل لا ينفك عن الطلب ولا يثنى له عزم دون نوال هذا الأرب حتى فاز وغلب . وتم التعـاقد على شروط أقل ما فيهـا من الحيف أن صار لأمراء سفن الحرب الإنجليزية تمام السيطرة على سائر السفن والشوانى الحاملة للراية المصرية بالبحر الأحمر وحق التفتيش عليها وضـبط ما يوجد بها من الإماء والعبيد وتحريرهم ومصادرة كل ما كان بها من مال ومتاع ومعـاقبة أصحابها بالعقوبات الشديدة. فلما شاع خبر هذه المعاهدة أخذت أصحاب صحف الأخبار الإنجليزية نشوة الفرح فتهللوا وأيقنوا بالفوز والغلبة ونحن المصريين لاهون عمـا سيكون من وراء ذلك فى مستقبل

الأيام. ثم رسم الخديوى إلى عماله بالسودان أن يعملوا بنصوص تلك المعاهدة وأن لا يخالفوا شيئاً من أحكامها فصدعوا بالأمر وذاع خبرها فى البلاد شرقاً وغرباً وجنوباً فلم تكن إلا أيام حتى ظهرت على وجوه السود علامات الوحشة والانقباض وبدأت إشارات الخروج أو كادت ووقفوا فى وجه أصحاب الجباية الذين عم شرهم يومئذ وثقل نيرهم على الأهلين، لأن القوم رأو أن منع المتاجرة فى الرقيق مصيبة كبرى لأن هذا الاتجار معين ثروة كبيرة لهم فضلاً عن أن أهل السودان لم يتعودوا خدمة الأرض بأيديهم ولا خدمة ماشيتهم بل أن نساءهم قلما يؤدين شيئاً من الخدمات البيتية وكل اعتمادهم فى زرع الأرض وتربية الماشية والخدمة البيتية إنما هو على أولئك الإماء والعبيد.

ولما تم للإنجليز ما أرادوا من أمر تلك المعاهدة أوعزوا إلى قنصلهم يومئذ أن كلم الخديوى فى ارسال رجل منهم إلى مجاهل خط الأستواء مرة ثانية ليحيى ما إندرس من معالم المدنية التى كان وضع أساسها فى تلك الأنحاء السير صمويل بيكر ولكى يقطع شأفة الاتجار بالعبيد ويسد المسالك على القوافل التى تقوم بالنخاسة ففعل القنصل وأكثر من ملازمة باب الخديوى إسماعيل والخديوى لا يجهل ما وراء ذلك فكان يطاول ويمنى القنصل بالمواعيد والقنصل لا ينكف عن الطلب حتى أذعن الخديوى، فأتوا له برجل من كبار عسكرهم اسمه الكولونيل غردون "وهو غردون هذا الذى نحن بصدد الكلام عليه" فرسم له الخديوى بالولاية على سواحل البحر الأحمر التى هى شرقى السودان المصرى فتولاها حينا وكأنه لم يطب له المقام هناك أو كأن لم يحسن فى عينى زعيم السياسة الإنجليزية أن يرى سلطة صاحبهم وتعاليمه لا تتجاوز شرقى السودان فوردت حينئذ كتبه على الخديوى بطلب تولية غردون الولاية العامة على خط الأستواء وما يليه. وكانت الديون الى هذا الحين قد أثقلت كاهل الخزينة وأمحلتها فأصبحت وهى بين أيدى أصحاب الديون من جماعة الإنجليز والفرنسيس كالريشة فى مهب الرياح، فكان الخديوى يبذل فى مرضاة أصحاب سياسة الدولتين كل مرتخص وغال عساهم يدفعون عنه بعض ما يعانيه من جور الدائنين فلم ير بدا يومئذ من إجابة طلب صاحب سياسة الإنجليز ورسم إلى غردون بالولاية على خط الأستواء فى أخريات سنة تسعين ومائتين وألف هجرية أى سنة أربع وسبعين وثمانمائة وألف ميلادية فسار غردون إلى الخرطوم على الطائر الميمون فتلقاه إسماعيل أيوب باشا والى السودان يومئذ وبالغ فى إكرامه وأطلق المدافع

إجلالاً لقدومه وأنزله على الرحب والسعة بالقصر المعروف بقصر راسخ بيك فلبث به أياماً ثم سار بمن أخذه من العساكر والجنود إلى فشوده ومنها إلى منزلة سبت التى هى أول بلاد خط الأستواء شمالاً فأمر ببناء القلاع والحصون فيها وحفر خندقاً عظيماً وجعلها مقراً لحكومته الجديدة، ثم رحل عنها بعد أيام إلى جبل الرجاف وكندكور التى كانت مقراً لأستاذه السير صمويل بيكر من قبله ومازال ينتقل من مكان إلى مكان ويأخذ العهود على من يلتقى بهم من زعماء القبائل والمشايخ ويقيم الولاة والحكام من صغار ضباط الجند وممن كانوا فى خدمة صمويل بيكر حتى قامت فى وجهه قبائل العبيد وقاتلت عسكره قتالاً عنيفاً ومازالت تقاتلهم حتى هزمتهم العساكر شر هزيمة وأخضعتهم بغير عهد ولا ذمة، وظل غردون يجوب البلاد شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً حتى نزل على بلاد الملك أمبته صاحب بلاد مرولى فعمد إلى ضم بلاده الواسعة إلى فتوحاته وهمّ بذلك، ثم علم بأن الرجل يدين بدين النصرانية وقد اعتنقها على يدى المبشرين الإنجليز الذين قدموا عليه من ناحية الزنجبار فانكف عن غزو بلاده وجعل مرولى خاتمة فتوحاته.

(مطلب)

انحدار غردون بعد ذلك إلى القاهرة

فلما كانت سنة أربع وتسعين ومائتين وألف هجرية انحدر غردون إلى القاهرة وجعل يغدو ويروح على مقر الخديوى أياماً ثم برح القاهرة إلى ديار الإنجليز فلم يستقر به المقام حتى شاع الخبر وسطرته صحف الإنجليز بتوليته الولاية العامة على جميع السودان المصرى شرقاً وغرباً وجنوباً. قيل: فاندهش الخديوى ورجال دولته لأنهم لم يكونوا يعرفون عن ذلك شيئاً البتة. ولم تمض إلا أيام حتى عاد غردون إلى القاهرة فى هيبة وجلالة ودخل على الخديوى فسلمه الخديوى فرمان الولاية بيده مكرهاً فسار غردون إلى الخرطوم ودخلها فى ضجة عظيمة فدقت لمقدمه البشائر وطير الخبر بولايته إلى الآفاق فجاء مشايخ وزعماء القبائل فخلع عليهم الخلع من الاكسية والفرجيات من الجوخ الأحمر وشقائق الحرير وبالغ فى إكرامهم وفرق بعض التحف والهدايا على جماعة العلماء والوجهاء والأعيان وبعض أصحاب الوظائف فانطلقت ألسنتهم يومئذ بالدعاء له إذ كانوا لم يروا شيئاً من ذلك البتة على يد أحد من كبار الولاة قبل جعفر باشا الصغير. وكانت ولاية غردون على سائر السودان

المصرى ولاية عامة فأطلق الخديوى يده وصرفه فى سائر الأمور. قال بعض الكتاب: وهى محنة أخرى قد نزلت على هامة البلاد من سماء عاصمة الإنجليز وفتنة كبرى لا يعلم بعاقبتها إلا الحكيم العزيز، فإن غردون مالبث أن تربع فى دست الولاية حتى وردت الكتب منه تباعاً على الخديوى فلم يكن إلا شهر أو بعض الشهر حتى جاءه أمر الخديوى بضم سائر بلاد خط الأستواء إلى ولايته فرتب لها الحكام وعين جباة الأموال وسلم مقاليد المهمات إلى جماعة من الإنجليز والألمان والأميريكان والطليان ونفر من أهل البلاد كإدريس بن أبتر وغيره ممن كانوا سيارة يتجرون فى الإماء والعبيد والريش وسن الفيل وأطلق لهم الكلمة حتى تصرفوا فى سائر الأمور فعملوا لغير ما تقتضيه مصلحة البلاد وبالغوا فى منع الاتجار بالرقيق وصادروا التجار فى أموالهم وأرزاقهم وضيقوا عليهم سبل الاتجار وقفلوا فى وجههم أبواب الكسب. واستكتب غردون يومئذ رجلاً اسمه التهامى بك وجعله كاتم أسراره فتمكن التهامى هذا من قلب غردون وأخذ بمجامع لبه فكان لا يأتى أمراً إلا بإشارته ولا يعمل عملاً إلا برأيه.

قال صاحب كتاب السودان: وكان ذلك الرجل من شر الرجال وأخبثهم نية وأفسدهم طوية فسلك بغردون مسلكاً نفر منه القلوب وحرك فى صدور أهل البلاد كامن الحقد عليه وكان تشديد الحكام لا سيما من الإنجليز والإيطاليين فى منع الاتجار بالرقيق وتحرير كل من علموا بوجودهم عند ساداتهم من أهم الأسباب التى دفعت بأهل السودان إلى شق عصا الطاعة كما سيأتى بيان ذلك فى محله. إذ كان الناس هناك يحسبون أن تحرير مواليهم وخروجهم من حوزتهم على يد أولئك الأجانب اضطهاد دينى من النصرانية للإسلام وكان شيوخهم وعلماؤهم يؤيدون لهم ذلك بالأدلة المقبولة والشواهد المعقولة حتى أصبحت عندهم حقيقة لاشك فيها فكانوا يخفون ما بقلوبهم من نار التألم والحقد على عمال الحكومة ويرقبون كل سانحة حتى ظهر محمد أحمد مدعى المهدوية وأيقظ الفتنة الراقدة فهبوا جميعاً لنصرته ولبوا على الفور دعوته وبايعوه على الطاعة والجهاد ضد أولئك القوم الكافرين فلما انتشرت دعوته أو كادت عاهده حتى الذين كانوا ينكرونها عليه. وقالوا: عاهدناك سواء صدقت فى دعواك أو كذبت ما بقيت على عداء هذه الدولة الجائرة ومحاربتها. وقد بقى هذا السر مكتوماً والدعاة يجوبون البلاد شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً حتى قامت الفتنة بين الحبشة ومصر على يد غردون بأسباب تحديد التخوم

بين المملكتين وكان غردون هو البادئ بمعاداة النجاشي والاستخفاف بشأنه استغضاباً له وتكبيراً للفتنة فلم يطق الخديوى إسماعيل الصبر يومئذ على ذلك خوفاً من استفحال الخطب واضطرام نار الفتنة بين البلدين لا سيما وقد كانت دولتا الإنجليز والفرنسيس في ذلك الحين تشدان عليه النكير بسبب كثرة الديون وتضيقان عليه الخناق بالبحث والتنقيب في موارد ومصارف البلاد وتشيران من طرف خفى إلى أن خلعه من مسنده هو من الهنات الهينات. وكان قد آنس من غردون أيضاً الميل إلى الاستبداد بأمر السودان فاستقدمه على عجل فدخل غردون القاهرة في آخريات سنة ست وتسعين ومائتين وألف هجرية مستقيلاً من منصبه فأقاله الخديوى ورسم إلى محمد رؤوف باشا بالولاية بدله فسار رؤوف باشا إلى الخرطوم فلم يصلها إلا ودعوة المهدى قد استفحل شأنها إذ كان قد بايعه أهل الحلوين والخلق العظيم من القبائل الضاربة حول جزيرة آبا وبينهم قبيلتا دقيم وكنانة المعروفتان باسم البقارة لكثرة ماشيتهم والقوم من أهل القوة البأس والصبر في الحروب وعاهده كذلك عظيم من السود من ذوى الوظائف الديوانية على موافاته بالأخبار والتف حوله زهاء الثلاثة آلاف من العربان كل هذا ورجال الحكومة لاهون عنه أو هم مغضون لا يريدون كشف أسراره ولا ذكر شيء من أمره حتى وردت الرسائل تترى على رؤوف باشا من بعض أعداء المهدى يعيبون فيها الحكومة على ذلك الإغضاء ويلومونها على تركها الرجل يعمل على إيقاد نار الفتنة وشق عصا الطاعة حتى ظهرت كلمته كل هذا الظهور، فأرسل رؤوف باشا الكتب بذلك إلى مدير فشوده وهو يومئذ الطيب بيك ورسم له بالقبض على ذلك الخارجى فصدع بالأمر وسار إلى آبا فى نفر من الجند وكبس الخارجى في مقره وأمسكه حياً وزجه فى السجن أياماً. قال صاحب كتاب السودان: حتى جاء بعض أتباعه ومريديه ورشوا الطيب فأطلق لهم سراحه واستقدم الواشين وهددهم وتوعدهم إن هم عادوا إلى الشكوى، ثم أنه قفل راجعاً إلى فشوده. أما الخارجى فإنه ما أفلت من السجن حتى زاد غروره وكبرت قحته فأرسل الكتب إلى سائر من عاهدهم يقول فى مطلعها بعد البسملة والحمد له : إنه قد جاءنى النبى ﷺ فى اليقظة ومعه الخلفاء الراشدون والأقطاب والخضر عليه السلام وأمسك بيدى ﷺ وأجلسنى على كرسيه وقال لى: أنت المهدى المنتظر من شك فى مهدويتك فقد كفر وإن الترك كفار وهم أشد الناس كفراً لأنهم ساعون فى إطفاء نور الله ﴿**ويأبى الله إلاَّ أن يتم نوره ولو كره الكافرون**﴾ وأخبرنى ﷺ بأن

النصر سيسير بين يدى أربعين ميلاً وأنه ﷺ يحضر بذاته الكريمة أمام جيشى ومعه الخلفاء الراشدين، وأن الله تعالى أيدنى بالأولياء والشهداء والصالحين من عهد آدم عليه السلام إلى زماننا هذا، وأن مؤمنى الجن يجاهدون معى ولا ينهزم لى جيش وأن الله ناصرى ومؤيدى على كل من حاربنى من الثقلين وأن أصحابى كأصحابه ﷺ وعامتهم أكبر مقاماً فى دار الخلد من الشيخ عبد القادر الحلى. قال صاحب كتاب السودان، وهو شيخه الذى نهاه عن الخروج فى هذه البدعة ثم طرده. قال: وأرسل نسخاً عديدة من هذا المنشور إلى أناس فى الخرطوم منهم الشيخ الأمين الضرير رئيس العلماء بالسودان وهذا أطلع عليه رؤوف باشا فرسم الباشا إلى أبى السعود بيك العقاد أحد معاونيه بالسفر وأصحابه بجماعة من الدنقليين المقيمين بالخرطوم وأنفذهم رسلاً إليه يعنى إلى الخارجى يدعونه إلى الطاعة ويحذرونه عاقبة الفتنة ويبلغونه أمر الوالى بدعوته إلى الحضور لديه فذهبوا على الباخرة الفاشر، ولما وصلوا إلى جزيرة آبا قابلهم كل من فيها بالتكبير على الكفار وكان الخارجى يتعبد فى سرداب فى الأرض فامتنع عن مقابلتهم أولاً، ثم أذن لهم بالدخول فدخلوا عليه وسيوف أصحابه مسلولة على رأسه فسألوه عن دعواه فأجابهم بمعنى ما فى منشوره فقال له أبو السعود بيك: إن الوالى يدعوك إلى الحضور لديه فقال: لا أذهب، فقال: يا سيدى أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم، فقبض المهدى على سيف كان على فخذه الأيسر وكشر عن أنيابه وقال: أنا ولى الأمر الآن على سائر الأنس والجان فاستأذن الرسل بالانصراف فأذن لهم وهم الناس بالإيقاع بهم لولا أنه شدد عليهم فى الكف عنهم وقفلوا راجعين إلى الخرطوم.

وعلم الملتفون حول الخارجى من المريدين والدراويش بخبر رسل الوالى وما جرى لهم فخافوا شر العاقبة وأيقنوا أن الحرب قائمة لا محالة وأن لا قبل لمدعى المهدوية على الوقوف فى وجه العسكر المصرى فتفرقوا عنه وتركوه مع نفر من أقاربه وخواص مريديه من الدناقلة وهؤلاء أيضاً كانوا يتوقعون القتال فى كل يوم. ووصل رسل الوالى إلى الخرطوم وأخبروا بما جرى لهم فسير الوالى طائفة من العسكر ومعهم مدفع لقتال ذلك الخارجى ومن معه والإتيان به حياً فخرجوا فى أخريات رمضان من سنة سبع وتسعين ومائتين وألف قاصدين جزيرة آبا فوصلوها قبيل الغروب، وكان الوقت صيفاً والأمطار تهطل غزيرة والأوحال تملأ الطرقات فلم يتم نزولهم من السفن التى كانت تحملهم حتى اختلف الضابطان اللذان كانا يقودان هذه

الحملة على من منهما يتولى الرئاسة واشتد بينهما الخلاف حتى باتوا جميعاً فى مكانهم تلك الليلة بعد أن وضعوا أحمالهم والتموا حولها فعلم الخارجى بخبرهم وبث حولهم العيون وهم نيام لا يشعرون ومازال يراقبهم بمن معه من المقاتلة حتى بعد ما نصف الليل فانقض عليهم حينئذ وأعمل فيهم السيف فلم يفلت منهم إلا بضع نفر منهم أبو السعود بيك وغنم الخارجى جميع متاعهم وكراعهم وسائر ما كان معهم وعاد أبو السعود وأخبر بما جرى فعم حينئذ الخوف وذاع خبر هزيمة العسكر فى أكثر البلاد السودانية فجعل التجار من الأجانب والأهلين يرحلون من المدن والقرى ويأتون إلى الخرطوم وأسيوط والقاهرة وغيرها وارتبك رؤوف باشا وتحير فى أمره وكأنما كان يعتقد سراً بصحة مهدوية ذلك الخارجى فلم يأت شيئاً من الحزم أو حسن التدبير سوى أنه أرسل طائفة أخرى من الجند لحصار جزيرة آبا وأرسل إلى مدير كردفان فى طلب النجدة العاجلة وكان المهدى لما ظفر بالعساكر المصرية فى تلك الواقعة حسب وما رواه ذلك فجمع إليه أصحابه وقال لهم: أن رسول الله ﷺ يأمرنى أن نعمل العبج «قال صاحب كتاب السودان وهو نوع يشبه الفلين لخفته وطفوه فوق الماء» مركاب لنعبر بها النيل إلى الجانب الغربى وإن الله تعالى سيأخذ على ناصية الترك الكفار لا يقدرون على إيصال الأذى إلينا حتى نبلغ مأمننا من الجانب الغربى ومن هناك نتوجه إلى دار هجرتنا بجبال ماسه وقدير وهى دار هجرة الأنبياء كلهم إلا نبينا محمداً ﷺ ففرح أصحابه بذلك وعملوا شيئاً كثيراً من تلك المراكب وعبروا النيل فلم يأذن رؤوف باشا لقائد العسكر الذى كانوا يحاصرون الجزيرة بتدمير تلك المراكب وكأنما كان يعمل فى ذلك الحين بمشورة ججلر باشا الألمانى وكيل الولاية وهو تلميذ غردون فى سياسة السودان وغرس نعمته فما استقر الخارجى بالجانب الغربى حتى جاءته رجالة دقيم وكنانة والتفوا حوله وبايعوه على السمع والطاعة والجهاد فى سبيل الله ثم قدموا له الأقوات. قال صاحب كتاب السودان: وكانت البيعة هكذا بايعنا الله ورسوله وبايعناك على طاعة الله وأن لا نسرق ولا نزنى ولا نأتى بهتاناً نفتريه ولا نعصيك فى أمر بمعروف ونهى عن منكر، بايعناك على زهد الدنيا وتركها وأن لا نفر من الجهاد رغبة فيما عند الله اهـ.

وكان الذين بايعوه فى ذلك اليوم زهاء عشرة آلاف مقاتل مدججين بالرماح والسيوف الهندية وبينهم جماعة من الفرسان، ثم ساروا معه إلى جبال ماسه وقدير فعارضهم قبائل النوبة الساكنة هناك وقاتلوهم أياماً كانت الحرب فيها سجالاً، ثم

حلت الهزيمة بأهل الجبال فأذعنوا وأطاعوا فتركهم ومر بجبال تقلى فلم يتمكن من إخضاع أهلها لأنهم أصحاب بأس وقوة فى الحروب، وشاع الخبر بما جرى حتى بلغ كردفان فقويت عقيدة أهلها فى مهدويته وتاقت نفوسهم إلى نصرته وتحققوا خلاصهم على يده من ذل الولاة والحكام فهرعوا إلى قدير ليبايعوه. قال صاحب كتاب السودان: وفد عليه زعيم قبيلة الحوازمة الذين هم البقارة وزعيم قبيلة القديات وكل منهما فى مائتى فارس من أشجع فرسان قومهم وأصبرهم على القتال فأحسن لقائهم فبايعوه على السمع والطاعة. قيل: وقال له زعيم قبيلة الحوازمة أبايعك على المهدوية وإن لم تكن مهديا أبايعك على قتال الحكومة وخلع طاعتها فتقوت بهؤلاء القوم عزيمة الخارجي وأنصاره ووقعت مهابته فى قلوب أهل الجبال المجاورة فكان إذا تحرك جماعة منهم إلى قتاله نزل عليهم وهزمهم شر هزيمة. وفى هذه الأثناء كان قد خلع السلطان الخديوى إسماعيل من مسند الخديوية وتولاه ولده محمد توفيق باشا وكان ما كان من ظهور الثورة العرابية وعجز الحكومة يومئذ عن قطع شأفة المهدوية فلما كانت سنة تسع وتسعين ومائتين وألف هجرية جاء الأمر إلى رؤوف باشا بالتخلى عن الولاية فاعتزلها وسلم مقاليدها إلى ججلر باشا وكيلها وسافر من فوره إلى القاهرة يريد لقاء عبد القادر باشا الذى تولى الولاية العامة بدله فجعل ججلر يتصرف فى الأمور كما يشاء وأرسل يوسف باشا حسن الشلالى فى جيش ضخم لقتال المهدى فظفر به المهدى وفتك بعساكره فتكاً ذريعاً وأخذ جميع ما كان معهم من متاع وسلاح ودواب للحمل فعظمت بذلك قوة الخارجى واشتدت ظهور أصحابه وكثرت لمومه وعمت بيعته سائر الأصقاع السودانية أو كادت فتاقت نفسه إلى التشبه بالخلفاء الراشدين وترتيب أصحابه وأنصاره على طريقة المجاهدين فى أيام عمر بن الخطاب . قال صاحب كتاب السودان: وكان الذين يعتمد عليهم فى سائر أموره خمسة أولهم الخليفة عبد الله التعايشى فعقد له لواء أسرد على جميع المقاتلين معه من قبائل السودان الغربى ولقبه بخليفه الصديق، والثانى الخليفة على بن محمد حلو وعقد له لواء أخضر على المقاتلين من القبائل التى تسكن ضفتى النيل الأبيض والجبال الواقعة حول جبل قدير ولقبه الخليفة الفاروق، والثالث ابن عمه الخليفة محمد شريف بن حامد وجعله مقدماً على سائر من معه من أهالى الخرطوم وبربر ودنقله وسنار ولقبه بخليفة الكرار، وجعل الزعامة العامة لأخيه محمد عبد الله ولقبه بأمير الجيوش المهدوية، وولى رجلاً اسمه أحمد بن سليمان من قبيلة المحس أمانة

بيت المال فكان أحـمد هذا من أقرب المقـربين إليه وأصدقـهم فى طاعتـه وأحفظهم لسره وأطلعهم على سائر عوراته. قال: وهؤلاء هم الخمسة الذين كانوا موضع ثقته اهـ.

وما ذاع خبر انتصار أصحاب الخارجى على جيش الحكومة بين أهل البلاد حتى خرج على عمال الحكومة وأصحاب الجباية كل من فى قلبه مرض وكالوا لهم بالكيل الوافى وزحف رجل اسمه عامر بن المكاشفى فى لموم كـثيرة على سنار فقاتل من بها وفتـحهـا عنوة وأفحش فى القـتل والنهب وسبى النسـاء والذرارى وجاء الخـبر إلى ججلر فقام من الخرطوم فى نفر من العسكر يريد اللحاق بابن المكاشفى وإجلاءه عن سنار فسمع الصائح فى طريقه بخروج آخر اسمه الشريف أحمد طه ووقوفه فى لموم كثيرة بين الخرطوم وسنار فتـربص بمن معه وأرسل إليه يدعوه إلى الطاعة فلم يذعن بل قتل الرسول فسير إليه جماعة من العسكر فقاتلوه وهزموه شر هزيمه وتبعوه حتى قتلوه ثم انقلب ججلر بمن معه من العسـاكر إلى سنار فأنقذها وشتت شمل من كان حولهـا من لموم المكاشفى وكان ابـن المكاشفى قد مـات قبل وصول جـجلر بجراح أصابته عن دخوله سنار.

(مطلب)

وصول عبد القادر باشا إلى الخرطوم

وبينما كان أهل الخرطوم فى خوف ما عليـه من مزيد وهم يتوقعون فتك العدو بهم فى كل لحظة من الزمـان لخلو البلد من المرابطيـن وانتشـار أهل الفسـاد وقطاع الطرق حوله وعدم وجود من يحسن التدبير عند مسيس الحاجة إذ جاءهم عبد القادر باشا فى نفر من الخدم والاتباع والكتاب فلم يسـتقر به المقام حتى طاف البلـد وعلم ما يحتاج إليه من أسباب الدفاع فـرتب العسس للحراسة فى الليل وجمع من العبيد عسكراً لحراسـة النهار والدفاع عند الحاجـة وحصن البلد تحصيناً منيـعاً وخندق عليه وأوقف الحرس على الأبراج فذهب الخوف من قلوب الناس وانتشر الأمن حول البلد وخاف أهل الشقاوة وانكمشوا، ثم أرسل فى طلب المرابطين عند حدود بلاد الحبشة فجاؤا فـعهد إليهم بحـراسة بعض المواقع والأبواب. وكان إذ ذاك قد الـتهب جوف السودان المصرى جمـيعه بنار الفتنة وعمت دعوة المهـدى سائر تلك الأطراف وخرج من كان باقياً على الطاعة وكثرت المذابح فى كل صوب وحدب. قال صاحب كتاب

السودان: فكان لا شئ أيسـر من أن يهب كل من فى قلبه مـرض إلى الخروج وشق عصـا الطاعة فـتلتف حوله اللـموم من أهل حلتـه على أسرع مـا يكون بسيـوفهم ورماحهم ومؤنتهم طلباً للجهاد وغزو الكفار فيسير بهم حينئذ إلى الخارجى فى جبل قدير فيوليـه الخلافة ويأخذ عليه العهد بما شاء ثم يرجع بمن مـعه ويقفون فى طريق الجند ويقاتلونهم أو يطاردونهم أو يهاجمـون مراكزهم مستقتلين مسـتبسلين والدعاة يجوبون البلاد شرقـاً وغرباً وشمالاً وجنوباً يدعون القبـائل إلى طاعة الخارجى حتى لم تبق قبـيلـة إلا استنجـدوا بهـا ولا بيت إلا طرقـوا بابـه. وجاء الخبـر سراً إلى عبد القـادر باشا بعزم الخارجـى على ترك جبل قدير والزحف على الأبيض لبـقائها على ولاء الحكومة الخديوية ووجود المرابطين من العـسكر المصرى بها. قال صاحب كتاب السودان: وكان زحف المهدى إلى الأبيـض بدعوة من تجار كردفان وإلحاح منهم فجعل عبد القادر باشا يتأهب للقائه بالأبيض وينظم النجدات ويعد المعدات على قلة من عسكره وكان يخشى أن المهدى إذا انحدر إلى كـردفان سير دعاته حول الخرطوم فيـحرضـون الناس على الخروج وشـق عصا الطـاعة فيـشتـغل بمن معـه من الجند بإرجاعهم ويتـعذر عليه حينئذ إرسـال النجدة إلى كردفان، فتـتمكن لموم المهدى من الفتك بمن فيـها من الحامية ـ قـال ـ وقد صدق ظنه فإنه ما أنحـدر المهدى من قدير حتى قامت الفـتنة حول الخرطوم واشتبك عبـد القادر باشا معهم فى القـتال واشتد عليهم واشتدوا عليـه فلم يكن ليخضعهم حتى تم للمهـدى الاستيلاء على الأبيض وتخريب ما فيـها من آثار المدنية والعمران. ثم جعل عبـد القادر باشا ينتقل من بلد إلى آخـر ويلح فى قتـال أنصـار الخارجى ويصـليهم ناراً حـامـية ويجـد فى تمزيق جموعهم حتى تمكنت مهابتـه من قلوبهم مع ما كانت عليه جنوده من شظف العيش وعرى الأجساد إذ كانوا يستترون بالجلود ويقـتاتون بلحوم الماشية التى كانوا يغنمونها من العدو ويعملون أحذيتـهم من جلودها مع خلو أيديهم من الدرهم والدينار لعدم صرف مرتباتهـم وتأخير جماكيهم الشـهور الكثيرة، وكان عبـد القادر باشا لا ينفك عن اسـتعطاف رجـال الدولة بمصـر عليهم يرثون لحـالهم ويطلقـون لهم شـيئـاً من رواتبهم. فبـينما هم على هذه الحال إذ جاءه الخبر من ديوان الخـديوى بأن قد قامت إلى الخرطوم حملة عظيـمة من الجنود المصرية بقيادة رجل من الإنجليـز اسمه هيكس وأنها على قدم السرعة وستدرك الخرطوم فى القريب العاجل.

(مطلب)

قيام حملة هيكس إلى الخرطوم

فلما ذاع هذا الخبر إندهش الناس أى اندهاش إذ مع ما هو معلوم من أن الفريقين المتحاربين كليهما من المسلمين فإن الفتنة كانت معتبرة دينية والحرب بينهما جهاداً، فكيف إذا علم أصحاب الثورة أن قواد الجيش المحارب لهم هم من الإنجليز، وكيف يكون تأجج نار الفتنة واشتداد أوارها وفوز دعاة المهدوية متى تحقق للخارجى وأصحابه ذلك. أما هيكس هذا فهو رجل من مقدمى عسكر الإنجليز أوفده زعيم سياستهم إلى أرض مصر لهذه الغاية فلم يلق عصا ترحاله حتى طلب السير بارنج إلى الخديوى إرساله على رأس ذلك الجيش إلى السودان لإخضاع أهله والقبض على مدعى المهدوية فأكبر الخديوى الأمر وأعظمه وكلم الوزير محمد شريف باشا فى ذلك فامتنع الوزير وقال: لا سبيل إليه والفتنة دينية والرأى عندى أن نمد عبد القادر باشا بالمدد الكافى ونطلق له عنان التصرف وإلا اختلط الحابل بالنابل وتعذر إطفاء نار هذه الفتنة، فراجعه السير بارنج ووردت الكتب من صاحب سياسة الإنجليز بالتعجيل وخروج العسكر والوزير يحاول ويطاول. وكان إسماعيل أيوب باشا الذى تولى السودان على عهد الخديوى إسماعيل يشغل أحد المناصب الوزارية مع الوزير محمد شريف وكان يكره ظهور كلمة عبد القادر باشا ويميل إلى خذلانه وحرمانه من فخر الفوز على الخارجى وشرف الظفر بقطع دابر الفتنة، فزين إلى السير بارنج طلب استرجاع عبد القادر باشا وإرسال هيكس بدله، قيل: ومازال هو والسير بارنج يعملان يداً واحدة وبقلب واحد حتى تم إخراج الجيش على رغم أنف كل مكابر وكان مؤلفاً ممن كانوا يعملون فى الجيش المصرى على عهد الثورة العرابية، فسار بهم هيكس وقد أعطاه الخديوى رتبة الباشوية فوصل بالجيش إلى الخرطوم ومعه الشيء الكثير من الأسلحة والمدافع ودواب الحمل والذخيرة وكان إلى يوم وصوله قد تم تحصين سنار ورحل عنها العدو وزالت القلاقل من الجزيرة وحصر عبد القادر باشا دعوة الخارجى فى إقليم كردفان فزال الخوف عن الخرطوم أيضاً بمقدم جيش هيكس أوكاد. قال صاحب كتاب السودان: وكان عبد القادر باشا قبل قدوم جيش هيكس يتمنى لو أن الحكومة تمده بشيء من المال والرجال فيتيسر له إذ ذاك وضع حامية تقاوم دعاة المهدى فى الجزيرة وحول الخرطوم ثم يتقدم هو نحو كردفان من طريقها الشمالى الذى يكثر فيه الماء لا من طريقها الجنوبى الذى لا ماء فيه ولا رواء تاركاً

في كل مرحلة يقطعها حامية تحفظ له خط الرجعة، ثم يؤلف ممن بقى قوة للهجوم فيهجم بها على العدو فيمزق شمله ويقضى عليه القضاء الأخير ولكن قد جاء هيكس وقضى الأمر اهـ.

وقد اشتد العجب بالناس أيضاً من قدوم كبير من كبار عسكر الإنجليز اسمه الكولونيل استيورت إلى بربر ومعه كتاب من الديوان الخديوى إلى سائر العمال يأمرهم فيه بأن يطلعوا استيورت هذا على سائر دفاتر وأوراق الحكومة وأن يصدعوا بأمره في كل ما يطلبه وكان مع استيورت هذا رجل آخر اسمه داليه إيطالى الجنس ممن كانوا في خدمة السودان على عهد الخديوى إسماعيل، فسار استيورت من بربر إلى الخرطوم والتقى بعبد القادر باشا ولبث بها أياماً لا يعلم أحد من عمله شيئاً، ثم غادر الخرطوم إلى سنار فالقضارف فكسلة فمصوع فمصر فاختلف الناس في داعى حضوره فمن قائل: إنه جاسوس جاء ليتحقق من أمر طموح عبد القادر باشا إلى الاستقلال بملك السودان كما أشاع يومئذ المرجفون وهم على ما ذهب إليه بعضهم إسماعيل أيوب باشا وأشياعه أو على مذهب غيرهم، هم صاحب السياسة الإنجليزية ورجال حزبه، ومن قائل: بل حضر ليمهد العقبات أمام جيش هيكس، ومن قائل: غير ذلك ، وعلى كل حال فلم تكن إلا أيام بعد عودة استيورت إلى القاهرة حتى جاء الأمر من الديوان الخديوى إلى عبد القادر باشا بالتخلى عن الولاية والعودة إلى مصر فتخلى عنها في الحال وجعل يتأهب للرحيل، وبينما هو على هذا إذ جاء علاء الدين باشا والياً بدله فانحدر عبد القادر باشا من الخرطوم يريد القاهرة وجعل علاء الدين يتصرف في الأمور، وعلم الخارجى بخبر جيش هيكس فاهتم له كثيراً. قال صاحب كتاب السودان: وظهرت على وجوه أصحابه علامات الخوف فتطير الخارجى من ذلك وكتب يحض الناس على الغزو والجهاد في أعداء الله ورسوله: ثم نادى في عسكره بالخروج إلى ظاهر البلد وظلوا على هذه الحال زهاء ستة شهور، فلما كان شهر ذى الحجة من السنة أى سنة ثلثمائة وألف خرج جيش هيكس من أم درمان براً وبحراً حتى بلغ الدويم وتربص حتى تكاملت رجاله ومعداته وجاء الصائح إلى الخارجى بمسير الجيش فأرسل في الحال رجلا من مقدمى عسكره وآخرين ممن لاذوا به من عسكر الحكومة ومعهم أربعون ألفا من الجعليين والدناقلة ورسم إليهم بأن ينزلوا جميعاً بمكان يعرف بالبساطة على مقربة من أم درمان ـ قال ـ وقال لهم: إذا سارت حملة هيكس من أم درمان فسيروا خلفها على بركة الله واجعلوا بينكم وبين مؤخرها رمية قوس. وخرج علاء الدين باشا ليسير مع الجيش ومعه بعض الخدم

والحشم والاتباع ودليلان من قبيلة الجمع قدما إلى الخرطوم بإيعاز من مدعى المهدوية ليسيرا بالجيش من أوعر الطرق وأقلها مـاء ورواء، وكان هذا الجيش كـما وصف صاحب كتاب السودان: مؤلفاً من ستة عـشر ألف مقاتل من العساكر النظامية وألف من الفرسان لابسى الدروع والخوذ وألف من الجنود السود وكـثير من الفرسان الترك غير المنظمـين، وكان عدد دواب الحمل فيـه زهاء الثلاثين ألف جمل ما عـدا البغال ومع الجيش الشيء الكثـير من الأسلحة والمدافع والمكاحل من الطراز الجديد والمؤن والذخيرة، وسار هذا الجيش الضخم من الدويم إلى شـاة ثم منها إلى عقبة وما كاد يفارق النيل حتى جعل العدوّ يقلقه بالجلبة والصياح فاضطر أن يسير على شكل مربع يحيط بدواب الحـمل وكان لايقدر على المبيت إلا فى داخل زريبـة من الشوك فكان كل من ابتـعد من العـسكر عن الزريبة فـى طلب الحشـائش لعلف الدواب وقع فى أيدى العدو فتعذر الحصول على العلف ومـات أكثر الدواب جوعاً ولحق بالعسكر ما لامزيد عليه من التعب من قلة النوم لأن العدو كان لايتركهم ينامون من كثرة صياحه وجلبته فى كل ليلة مما يضطرهم إلى التأهب والاحتياط والوقوف على قدم الاستعداد والسهر حتى مطلع الفجر.

(مطلب)

الخلاف بين علاء الدين باشا وهيكس باشا

وبينمـا كانت الجنود على هذه الحـال من التـعب وتهديد العـدو لهم فى الليل والنهار بغير حرب ولا نزال كان الخلاف قائماً ما بين علاء الدين باشا وهيكس على أى منهمـا تكون له الرئاسة إذ كان كل منهـما يزعم أنه مقدم هذا الجـيش وصاحب الكلمة بين أفراده. حدثنى صاحب لى قال: حدثنى رجل ممن وقع فى يد العدو بعد هلاك جـيش هيكس قال كـانت فعـال هيكس هذا تدل على جـهله بأحوال البـلاد وعادات الـسود وكان كثـير التقلب قريب الغضب، وكان علاء الدين فـخوراً مختالاً فكان إذا أبدى رأياً فى أمر خـالفه هيكس وعابه وإذا أشار هيكس بشيء مـانعه علاء الدين وخطأه ورمـاه بالجهل فظـهر عندئذ من جـماعـة الضـباط وطوائف العـسكر الاستخفـاف بالاثنين فنبذوا طاعتهما وقـد أضناهم العطش وأنهكهم التعب وتفشت بينهم الأمـراض العفنة وكـثر الموات فى دوابهـم لقلة العلف والماء ومازالوا والعـدوّ محدق بهم من كل صوب يسيـرون وهم على هذه الحال حتى نزلوا على غدير يقال له: غدير شيكـان مملـوء بمـاء الأمطار، فأقاموا عليه أياماً قلائل حتـى استنـزفوا ماءه

وسبقهم الخارجى بجيوشه إلى غدير كثير الماء ونزل حوله ليمنعهم من الوصول إليه فلم يتمكنوا من اللحاق به ولم يقدروا على مناجزة العدو لضعفهم وخور قواهم وأقاموا حول غدير شيكان حتى أكلوا طينه وأوحاله من شدة الظمأ وتمرد الجند على كبارهم وهموا بقتلهم مراراً. فلما كان يوم الاثنين رابع المحرم افتتاح سنة إحدى وثلثمائة وألف قاموا على ما هم عليه من الجهد والضعف يريدون الأبيض لخلوها من رجال الخارجى والتماساً للماء فيها. قال صاحب كتاب السودان: وكانت جواسيس المهدى قد أبلغته ما هم عليه من حالة الضعف والظمأ وأنهم قد أصبحوا جثثا لا حراك بها فنادى فى أصحابه بالخروج عليهم فأطبقوا عليهم من كل جانب وأعملوا فيهم السيف فلم يقدروا على الدفاع ولم يسمع لهم صوت مدفع ولا بارودة حتى أفنتهم سيوف العدو ولم يبق منهم إلا بضع عشرات ممن اختفى بين الأشلاء وأمر الخارجى أتباعه فجعلوا يحرقون جثث القتلى من أعدائهم معللين ذلك بأنهم كفار وقتلوا علاء الدين وهيكس شر قتلة. قلت: هذه رواية، وفى أخرى أنه لما خرج الجيش من أم درمان على ما تقدم ذكره سار الدليلان أمامه فى طريق كثير الغابات شديد المرابك والعقبات قليل الماء والرواء والعدو من خلفه وعن يمينه وعن شماله يثب على مربع العسكر كل حين وهم يجدّون المسير رجاء أن يدركو الماء ويرووا بعض ما بهم من الظمأ فلم يمكنهم العدو من ذلك وقد قل علف دوابهم فكثر فيها الموات وضعفت عن حمل أثقالهم وجرّ مدافعهم، ثم تفشت فى العسكر الأمراض العفنة وأنشب فيهم الموت أظافره ولما كان كلهم أو جلهم من الذين كانوا فى مظاهرات الثورة العرابية وكان كبارهم ممن حكم عليهم بالتجريد من الرتب وألقاب الشرف وكان انتظامهم فى هذا الجيش إنما هو بإيعاز من صاحب السياسة الإنجليزية ولنكد حظهم كان ما كان من سوء تدبير الجيش وتغرير الدليلين بعلاء الدين وهيكس أيقنوا جميعاً بأنهم إنما هم مسوقون إلى الموت لا محالة فانتقضوا وعصوا كبارهم وأكثروا من سبهم وتعنيفهم وضربهم، قيل: وهموا بقتلهم مراراً ومازالوا على هذه الحال من الظمأ والتعب والعدو من أمامهم ومن خلفهم وعن يمينهم وعن شمالهم وهم لا يقدرون على دفعه حتى نزلوا على غدير شيكان فشربوا ما فيه وأكلوا من طينه وأوحاله وعيون العدو ترمقهم حتى أيقنوا أنه لم يبق فى أحد منهم شىء من القوة يدفع بها قاتله فانقضوا عليهم وهم كالأموات وأعملوا فيهم السيف حتى لم يبق منهم إلا نفر قليل ممن اختبؤا بين جثث الأموات وقتلوا هيكس وعلاء الدين وجمعوا السلاح والمتاع والمدافع وما بقى من دواب الحمل وقفلوا

راجعين إلى الأبيض فرسم الخارجي بتقسيم الأسلاب والغنائم على المجاهدين والأنصار والخلفاء. وجاء الخبر إلى القاهرة بما أصاب جيش هيكس فكان لذلك رنة حزن وأسف شديدين وكثر البكاء والعويل في بيوت الضباط وكبار الجند وجلس الناس للعزاء أياماً وظن أهل الخرطوم أن الخديوى لا يلبث أن يعيد عبد القادر باشا في عسكر جرار للأخذ بالثأر وشاع بينهم أيضاً خبر عزم زعيم سياسة الإنجليز على إرسال غردون قائداً على ذلك العسكر فجعلوا يعجون ويبتهلون إلى الله بتحقيق هذا الخبر واختلط الحال على الخديوى ورجال دولته فجعلوا ينقضون اليوم ما أبرموه أمس ويتخبطون في العمل كمن فقد الرشد ووزير السياسة الإنجليزية يضرب على أيديهم ولا يمكنهم من أخذ أو رد فكانوا إذا قاموا أقعدهم وإذا قعدوا أقامهم وإذا قالوا عاب عليهم قولهم وإذا عملوا رماهم بالعسف حتى جاءهم مرسومه بالتعجيل في إخلاء الدويم وفشوده والكوه والجلاء عنهال وتركها إلى الخارجي والإتيان بحاميتها إلى الخرطوم، فصدعوا بالأمر فلم يتم الجلاء عن هذه البلاد حتى جاءهم الأمر أيضاً بإجلاء سائر المصريين عن الخرطوم وإعادتهم إلى مصر على نفقة الخزينة فصدعوا كذلك بالأمر صاغرين وأخذ الناس في الجلاء إلى بربر وأحصوا النازحين يومئذ فكانوا زهاء مائتى ألف وخمسين ألفاً، وشاع خبر ذلك في البلاد شرقاً وغرباً فأجمع الناس من ذلك اليوم على طاعة الخارجي والإسراع إلى متابعته فكان يجتمعون في القرى والبلدان ويضربون الطبول ويخلعون أثوابهم ويلبسون المرقعات التي هي شعار المهدوية ويوفدون الوفود إلى حيث الخارجي ليبايعوه ويأخذوا عليه العهد فتم إلى هذا الحين سقوط هيبة الحكومة المصرية وزوال سلطانها وذهاب نفوذها وصار حكام البلاد يذهبون بما لديهم من الأموال إلى مقر الخارجي تزلفاً وتقرباً منه فكان يمنيهم بالأماني الكثيرة، وكان ممن سُلم وتزلف وبالغ في ذلك جداً سلاطين باشا ومن كان معه من كبار العساكر وأسلم يومئذ ونطق بالشهادتين على يد الخارجي ولازم باب الخليفة التعايشي. قال صاحب كتاب السودان: أما مقدموا العسكر فقد فعل بهم المهدى من القساوة والتعذيب والضرب بالسياط ما تقشعر لسماعه الأبدان.

وصل

في ظهور الفتنة بالسودان الشرقي

قد كانت الفتنة إلى هذا الحين في السودان الشرقي نائمة ولم يحرك أحد من القبائل لها ساكناً، وكان بقرية الدامر على ساحل النيل شيخ من أرباب الطرق اسمه

الطاهر المجدوب وكان محبوباً موقراً معظماً عند أهل السودان الشرقى مسموع الكلمة عند الولاة والحكام وافر الهيبة معززاً. فأرسل إليه مدعى المهدوية يدعوه إلى لقائه ويشرح له كيفية مهدويته ويسأله الانضمام إلى خلفائه هو ومن معه من المريدين ومشايخ الطرق ويستحثه على الخروج على عمال الحكومة وأجازه بمبايعة الناس وخاطبه بألقاب الإمارة على السودان الشرقى جميعه فبعث إليه الطاهر بجماعة من مريديه يتقدمهم رجل اسمه عثمان دقنه بن أبى بكر دقنه وهو من التجار الكبار كانت له أملاك واسعة بسواكن وسواها فذهبت أمواله وبيعت أملاكه لأسباب سياسية.

لا محل لسردها هنا، وكان عثمان دقنه هذا يحمل كتاباً من الشيخ الطاهر إلى الخارجى يقول فيه: إن عثمان هذا من خيرة مريديه ومن أصدق أتباعه وإنه من أولى العزم والحزم وأنه أجدر بإمارة شرقى السودان منه يعنى من الشيخ الطاهر وأن الشيخ لا يأنف من أن يكون تابعاً لأفضل مريديه وأنه سيكون هو مستشاره ومدبر أموره والناصح لسائر أتباعه بالقيام بنصرته وموازرته وأنه لم يكن من مانع من قبول منصب الإمارة لنفسه سوى الشيخوخة والعجز عن الحركة التى يستلزمها هذا المنصب الخطير، فلما وفد عثمان دقنه على الخارجى أكرم الخارجى وفادته وبالغ فى الاحتفاء به وسأله عن الحال فى شرقى السودان قيل: فهوّن عليه، وقال: ياسيدى الناس طرا طائعون لك واهبون أرواحهم فى سبيل مرضاتك ومرضاة رسول الله ﷺ وهم جميعاً على أهبة الغزو والجهاد فى الكفار، قال: ثم ماذا ؟ قال: وأستاذى يقول: أن الدولة قدعزمت على قهرك بإرسال جيش جرار إلى بربر عن طريق سواكن وهو يشير عليك بإرجاعى للوقوف مع المجاهدين فى طريق ذلك الجيش وسد جميع المنافذ عليه حتى تتمكن من فتح الخرطوم. قال الراوى: ففرح الخارجى بمقالة عثمان دقنه وسرحه إلى سواكن وكتب له كتباً إلى سائر القبائل الضاربة هناك يستصرخهم ويستفزهم إلى نصرته ونجدته وأنه قد أمرّ عليهم عثمان دقنه فيجب عليهم طاعته والعمل بمشورته فلم يصل عثمان إلى بربر حتى علم رجال الحكومة بخبره وما جرى له مع الخارجى فأرسلوا خلفه من يقبض عليه فلم يفلحوا ووصل إلى سواكن آمناً مطمئنا واجتمع بالشيخ الطاهر وسلمه كتب المهدى، فجمع الشيخ سائر مريديه وأبناء طريقته ومن التف حولهم وقام فى وسطهم ومد يده إلى عثمان دقنه وبايعه بالإمارة فبايعه الناس كافة وترامت أخباره إلى مصوع وكسلة فدخلت جميع القبائل فى طاعته فجاء الأمر إلى محافظ سواكن بالقبض عليه وهو يومئذ فى سنكات فسير إليه توفيق بك مأمور طوكر فى ستين من الجند للقبض عليه ولم يكن محافظ سواكن يعلم من

أمر جموعه ومن التف حوله من القبائل شيئاً، فلما صار توفيق بك ومن معه على مقربة من سنكات خرجت عليه لموم عثمان دقنه فقاتلهم وأصلاهم ناراً حامية وتحصن داخل زريبة من الشوك وخندق وعمل متراساً عظيماً وصار يدافع من ورائه ويصلى عدوّه بناره.

(مطلب)

إرسال جيش لاستخلاص سنكات وطوكر

وجاء الخبر إلى القاهرة بظهور الفتنة أيضًا فى شرقى السودان وخروج جميع قبائله عن طاعة الحكومة، فبعد أخذ وردّ طويلين مع السير بارنج جاء الخبر من صاحب السياسة الإنجليزية بإرسال جيش لاستخلاص طوكر وسنكات من أيدى أصحاب الفتنة، فاهتم لذلك الخديوى وجماعة الوزراء وجيشوا زهاء خمسة آلاف مقاتل ممن بقى من العسكر المصرى بعد حملة هيكس وبالغوا فى الإكثار من معداتهم وآلات حربهم وعقدوا لواء هذا الجيش إلى محمود طاهر باشا أحد مقدمى العسكر على عهد الخديوى إسماعيل، فسار بجيشه هذا يريد طوكر فعلم بخبرهم عثمان دقنه وتأهب للقائهم فى عدة كثيرة من المقاتلة وكمن بهم فى منتصف الطريق بين طوكر والترنكتات فبينما هم سائرون خرج عليهم الكمين من كل صوب وحدب وداهمهم على غرة فأوقع بهم ومزق شملهم، فلم ينج غير مقدمهم محمود باشا ونفر قليل وغنم دقنه سائر ما كان معهم وعاد الفارون إلى سواكن فتبعهم العدوّ إليها وأحدق بها وجعل يتهددها وجاء الخبر إلى القاهرة بما حل بجيش محمود باشا فأكبر الخديوى الأمر وأعظمه جداً وكبر قلقه أيضاً على الخرطوم لترادف الأخبار يومئذ بما هى عليه من الشدة والضيق واقتراب دعاة الخارجى من أبواب البلد، وكثر تردد السير بارنج على مقر الخديوى تارة وعلى ديوان الوزير نوبار باشا أخرى، ثم لم تكن إلا أيام حتى شاع الخبر بعزم الحكومة على إرسال جيش آخر معقود لواؤه لكبير من كبار عسكر الإنجليز اسمه بيكر باشا فتطير الناس من ذلك وأيقنوا عجز الدولة وعدم قدرتها على إرجاع الأمور فى شرقى السودان أيضاً إلى ما كانت عليه وكأنما أراد صاحب سياسة الإنجليز بإرسال هذا الجيش استبقاء سواحل البحر الأحمر فى قبضة الحكومة المصرية إلى حين حتى يتمكن هو من بسط سلطانه عليها وإدخالها ضمن ممتلكات مملكتهم فخرج بيكر باشا فى أربعة آلاف مقاتل فلما بلغ سواكن أرسل يستميل بعض زعماء القبائل وبالغ فى استرضائهم والتودّد إليهم وأقام على

هذه الحال أياماً فلم يفلح فعمد إلى مخابرة القبائل الضاربة بجهات مصوّع لعله يجد بينهم من يشد بهم أزره فـي فتح الطريق إلى كسله ثم إلى الخـرطوم فلم يفلح أيضاً وقد علم أن الطريق بين مصوع وكسله كلهـا أدغال وغابات كثيرة المرابك والهلكات وأن الطريق إلى الخرطوم أصعب من أن ترام فأخذ يتأهب للمسير إلى طوكر لإنقاذها ثم لإنقاذ سنـكات، فلما كان شـهر ربيع الثـانى من السنة أى سنة إحدى وثلثـمائة وألف خرج بعـسكره من سواكن إلى ترنكتـات وسلك ذات الطريق التى سار فيـها محمود باشا بجيشه فلم تكن إلا مـرحلة أو بعض مرحلة حتى انقض عليهم عثمان دقنه بخيله ورجاله فاختل عندئذ نظام العسكر وفشلوا أى فشل وركن من فى الساقة إلى الفرار وألقوا ما بأيـديهم من السلاح فأثخن العدو فيهم قـتلاً وضرباً حتى أفنى منهم زهاء الثلاثة آلاف وفر بيكر باشا ومن بقى إلى ترنكتات وغنم عثمان دقنه سائر ما كان معـهم من سلاح ومتاع ودواب وكانت واقعة من شر الوقـائع وجاء الخبر بما جرى إلى القاهرة فكثر صياح وعويل نساء الضـباط فى بيوتهم وجلسوا للعزاء وكثر اللغط بأن هلاك هذا الخلق الكثير من العسكر والضـباط إنما كان بإيعاز من الخديوى وجمـاعة الإنجليز لغاية فى الـنفس، واشتد القلق بالناس جـميعاً حـيث أعقب هذه الواقعة سقوط سنكات أيضاً وقتل من كان بها من العسكر مع توفيق بيك ذلك البطل المغوار مذبوحاً ذبحاً.

وقد كانت عمت الفتنة سائر أطراف السودان وتفـشت أيضاً فيما حول الخرطوم من القرى والبلدان فـأصبحت الخرطوم وهى مطمح نظر الخـارجى يريد الانقضاض عليها بخيله ورجـاله ليقبض على ناصيتها حـتى إذا ما علم ذلك فى شرقى السـودان وغربـه وشمالـه وجنوبه دانت له البقـية البـاقيـة من زعمـاء بعض القبـائل الموالين للحكومة فيخلو له الجـوّ حينئذ وكانت عيونه تنقل له أخبـار ما كانت عليه البلد من الشدة والضيق وما وصلت إليه الدولة من العجز ووهن العـزيمة وزوال الهيبة فيزداد تحمساً وغروراً ويكثر من البعوث والدعاة ويرسل الكتب مشحونة بما حدثه به الخضر وإلياس أو ما بشـره به صاحب الشريعة الإسـلامية وما أعـده الله له ولأصحابه من الأسرة والكراسى فى جنات النعيم وغير ذلك من الخـرف والهرف والبهتان على الله وعلى أنبيـائه ورسله، حتى افتـتن الناس طراً واتسع الخرق وتعذر الخـلاص وقد زاد الأمر خـبالاً والطين بلة بما ورد على الخـديوى من صاحب السياسة الإنجـليزية من وجوب ترك جميع السـودان والتخلى عنه بما فيه من مال ومـتاع وكراع إلى الخارجى والإسراع بإجلاء من به من أصحاب الوظائف ومن بقى من العسكر ومن يريد الجلاء

من الأهلين أيضاً، فكان ما كـان مما مر بك بيانه فى محله من تنحى الوزير محمد شريف باشا عن منصب الرئاسة وتولية الوزير نوبار باشا بدله وما وقع من اشتداد زعيم السياسة الإنجليزية على الخديوى والوزير نوبار باشا وترادف طلباته وتباين بعضها لبعض حتى تولى غردون الولاية العامة على السودان ونال السلطة المطلقة عليه شرقاً وغرباً وذهب إلى الخرطوم على ما وصفنا وكان من أمره وما وقع بعيد ذلك ما سيتلى عليك فى بابه إن شاء الله تعالى.

وصل

فى هزيمة أخرى وكسرة كبرى

لم يكن غردون ليتوقع الفشل إلى هذا الحد بعد أن اعترف للخارجى بالملك والسلطنة على غربى السودان وبعد أن خطب فى الناس بما خطب من ترك البقايا من الأموال ومنع الجباية ثلاث سنوات وإطلاق حرية التجارة فى الرقيق وغير ذلك من عبارات المجاملة والتلطف، ولكن خانته الأقدار وسقط فى يده واختلط عليه الحال وفسد التدبير وقلت منه الحيلة وضاق عليه الفضاء بما رحب لا سيما وقد جاءته الأنباء فى هذا الحين بفشل جيش جراهام وموت أكثر رجاله وقد كان يعتقد أن خلاصه وخلاص من معه مرهون على فوز هذا الجيش ونجاح غزوته.

وتحرير الخبر أنه لما علم صاحب السياسة الإنجليز بفشل جيش بيكر باشا ووقوع معظم رجاله في قبضة عثمان دقنه علي ما تقدم بيانه كبرت عليه هذه الخيبة وقد كان يرى أن فتح الطريق ما بين سواكن وبربر أمر لابد منه لفائدة سلطتهم في مستقبل الأيام فعمد إلى إرسال جيش ثالث من رجالهم وصفوة أبطالهم ليتم له ما يريد من فتح ذلك الطريق فجاء جراهام هذا على رأس ذلك الجيش إلى سواكن في العشرة الأخيرة من ربيع الثاني من السنة أي سنة إحدي وثلثمائة وألف ومعهم الشيء الكثير من آلات الحرب ومعدات القتال وانجروا من سواكن إلى ترنكتات وسار معه بيكر باشا مقدم الجيش الذي أفناه عثمان دقنه قاصدين الالتقاء بدقنه، وقد علم دقنه بوصولهم فتحصن في التيب وخندق عليها وأحاط الخندق ببعض المتاريس ووضع عليها المدافع التي غنمها من محمود باشا طاهر وبيكر باشا وتأهب للدفاع، فلما صار جيش جراهام علي مقربة من التيب وشاهد جراهام ما هو عليه موقع العدو من المنعة والحصانة نادى في عسكره بالزحف والهجوم فلم يفعلوا وجبنوا ثم ولوا الأدبار

فلحقتهم قنابل العدو وتساقطت عليهم تساقط المطر وفتكت فيهم فتكاً ذريعاً جداً فما زال بهم جراهام حتى لم شعثهم وأعاد صفوفهم وسار بهم ثانية حتى صار على مقربة من متاريس العدو ثم جعلوا يطلقون مدافعهم ويرسلون قنابلهم على المتاريس والعدو يشتد عليهم في الرمي ويصليهم ناراً حامية حتى انكشف نظام أحد جوانب الجيش وفعلت فيه قنابل العدو فهمّ جراهام بتغيير شكل صفوفه ليدرأ عنهم تلك النيران الآكلة فاحس بذلك عثمان دقنه فلم يكن بأسرع من أن هجم بقومه عليهم من كل صوب وأعمل فيهم السيف وبقى الحال هكذا بضع ساعات من النهار، ثم انفصل الفريقان فكانت القتلى من الجانبين لاتعدّ. وتقهقر عثمان دقنه إلى طوكر لعل جراهام يتبعه فيقع في مخالب العطب فأدرك جراهام الحيلة ولم يغرر بعسكره.
فلما تحقق غردون ما أصاب جيش جراهام كاد يذوب حزناً وأيقن أن الحيلة ضائعة وأن القضاء واقع لا محالة فرسم إلى كبار عسكره بترميم الحصون وتحصين القلاع وشاع خبر ذلك وملأ الأسماع فاعتزل أصحاب الوظائف الديوانية من المصريين وظائفهم ونزلوا مع الكثير من التجار يريدون القاهرة فراراً من البلاء المنتظر وورد على غردون جواب الخارجي هادماً لصروح أمانيه مفعماً باللوم والتقريع وقارص القول ورد هدية غردون التي كان أهداها إليه على ما تقدم لك بيانه ومعها مرقعة من مرقعات الدراويش. قال صاحب كتاب السودان: وأرسل يقول له: إن أحسنت في دنياك وآخرتك فعجل بترك الكفر واعتنق الإسلام دينا وألبس هذه المرقعة التي هي لباس الزاهدين في الدنيا الراغبين في الآخرة ولا تكن سبباً في إراقة الدماء وأعمل كما عمل غيرك من الولاة والحكام. فغضب غردون غضباً ما عليه من مزيد وكبر عليه أمر ذلك جداً. وكان الناس إلى ذلك اليوم لا يعرفون حقيقة بعثة غردون ويجهلون نوايا دولة الإنجليز في شأن السودان المصري ولا يدرون ما إذا كان الخديوي مطلق اليد في التصرف في بلاد هي ينبوع حياة مملكته وأم نيلها العظيم أو أنها خرجت من قبضته بحكم لاراد له ولا ممانع فيه، فدلهم يومئذ تخبط غردون وخلطه وعدم حضور عسكر من الإنجليز كما كانوا يتوهمون على أن صاحب سياسة الإنجليز لم يبعث غردون إلا ليعمل على ترك السودان للخارجي حيناً حتى إذا تم لهم ما يريدون من التحفز للوثبة انقضوا على ذلك الخارجي بخيلهم ورجالهم وانتزعوها منه أو من خليفته من بعده وضموها إلى أملاكهم في هذه القارة السوداء وأضخموا بها جسم سلطتهم الواسعة وهي غاية في نفسهم طالما تمنوها حتى مهد لهم رجالهم الأسباب وفتحوا لهم بحسن كياستهم مغلق تلك الأبواب بأن أوقدوا نار الثورة

العرابية فى جوف القطر المصرى ونفخوا فى ضرام نار الفتنة المهدوية فى جوف السودان وأدانوا لهم فى القريب العاجل من الأيام ما لم تكن لتناله سلطنتهم فى البعيد من السنين والأعوام.

وكثرت كتب محمد بن البصير داعية الخارجى فى أرباض الخرطوم إلى غردون مفعمة بالسباب واللعن والحط من قدره وتهديده بالويل والثبور وعظائم الأمور إن لم يعجل بالتسليم بغير ذمة ولا عهد وظل الحال على ذلك أياماً كاد يهلك فيها غردون كمداً. قال صاحب كتاب السودان: فاجتاز غردون النيل الأزرق إلى قصر راسخ بيك وأرسل إحدى عشرة رسالة برقية إلى السير بارنج بمصر يخبره بما وصلت إليه حالته ويقول: إن العدو على وشك الزحف للإحاطة بالبلد وأن أسلاك البرق انقطعت قبل أن يتمكن من مخابرته ثانية وأرسل كذلك إلى الخديوى والوزير نوبار باشا فأجابه السير بارنج بما معناه - إنى لم أفهم ما تضمنته رسائلك الإحدى عشرة فأعلمنى بقصدك بعد التفكر الطويل - على أن كل ما فى تلك الرسائل كان يتضمن استنهاضهم إلى إرسال النجدة وحفظ الاتصال بين دنقلة وبربر - قال - ولعل السير بارنج كان يقصد بقوله لم أفهم ما معناه - ياغردون أنك لاتجهل أن مقاصد حكومة جلالة الملكة غير الذى أنت تطلبه فلذا لم أفهم منك هذه الطلبات حيث إنك لا تجهل أنها لا تتحول عما عقدت النية على تنفيذه - قال - وفى تلغراف غردون أن الأسلاك البرقية على وشك الانقطاع وأنه من المتعذر بعد هذه الفرصة وصول أخباره إلى القاهرة فكانت إشارة السير بارنج بمخابرته بعد التفكر أمراً فى غاية الصراحة بعدم لزوم المخابرة حتى يقضى الله أمراً كان مفعولاً ا.هـ.

قلت: وهذه كانت صفوة الغرض من الممانعة فى نجدة عبد القادر باشا عندما كان يقاتل الخارجى واتهامه بشق عصا طاعة الخديوى والاستقلال بحكم السودان ثم استقدامه على غرّة بعد أن كاد يقضى على الفتنة فيما وراء الدارفور وعاد بعيد ذلك غردون إلى استعطاف السير بارنج إذ كتب إليه يقول: ليس فى الإمكان إجلاء أصحاب الوظائف من المصريين بمن معهم من العيال إلا أن تفتحوا لى الطريق التى قلت لكم عنها فرد عليه رداً كله مماحكة وفيه شىء من الأمانى وفى كل عبارة يحضه على التروّى وطول التأمل أى كأنه يقول ما بالك لا تفقه ما أسره إليك صاحب سياستنا ومالك تطلب المدد ونحن على غير ذلك من العهد معك. حدثنى صاحب لى خبير قال: كانت فعال السير بارنج فى هذه الظروف الحرجة تقضى بالعجب العجاب، فإنه بينما كان يمنى غردون بالمدد ويعده بقرب وصول النجدة إليه كانت

رسائله ترسل تباعاً إلى عاصمة الإنجليز بأن فتح الطريق بين سواكن وبربر بطائفة من فرسانهم كطلب غردون ضرب من الحماقة، كما أن إرسال جماعة من عسكرهم إلى أسوان ووادى حلفا لتأمين السبل وتسهيل الجلاء عن الخرطوم كما يشير غردون لا معنى له البتة ولا هو من حسن السياسة فى شيء، فكانت كل هذه الأحاجى والمعميات قاضية على حياة غردون وحياة الآلاف المؤلفة من الرجال والنساء والأطفال فى الخرطوم وأرباضها ولا ذنب لهم غير الارتكان على عزيمة الحكومة المصرية وحسن ظنهم بأصحاب الحل والعقد بها فتأمل.

ورأى غردون كثرة مناوشة العدو للجند والعسكر المرابطين بالخرطوم وتحقق من دخول سائر سكان الضواحى فى طاعة الخارجى وخروج جميع السود من سكان البلد إلى معسكر ابن البصير داعية الخارجى والانضمام إليه فأكبر الأمر جداً، وكان العدو قد جعل مركز حركاته فى الحلفايا على قيد بعض فراسخ من الخرطوم وقد تحصن بها فأمر غردون بخروج طائفة من العسكر لطرد العدو من حلفايا وإجلائه عن الضواحى المتاخمة. قال صاحب كتاب السودان: خرج من الجند لذلك يعنى لطرد العدو ثلاثة آلاف من الباشيبوزق وألفان من المنظمين وعقد لواء هذا الجيش إلى السعيد حسين الجميعاتى وحسن إبراهيم الشلالى من معه من مقدمى العسكر ولم ينج إلا بضع عشرات عادت بهم السفن إلى الخرطوم، وما انتشر نعى القتلى حتى ضجت البلد بالعويل والبكاء من كل صوب ودرب وحزن غردون حزناً عظيماً وكاد يستسلم للقضاء المحتم وقد جاءته أخبار جواسيسه بزحف الخارجى على الخرطوم فنظر فلم ير أمامه باباً يلجه فى طلب النجدة إلا استعطاف السير بارنج بمصر لعله يفرج كربته بنفر من العساكر الإنجليزية سوى إرسال الكولونيل استيورت الذى كان فى ركابه من الخرطوم إلى دنقلة ومنها إلى القاهرة مزوداً بالرسائل والكتب بطلب النجدة، فانحدر استيورت هذا من الخرطوم على إحدى البواخر فى أخريات ذى القعدة من السنة أى سنة إحدى وثلثمائة وألف وتبعه باخرتان تحملان بعض المقاتلة وانحدر معهم كذلك نفر من المهاجرين يريدون اللحاق بدنقلة، فبينما هم فى طريقهم خرج عليهم العدو وجعل يطلق عليهم بنادقه وهم يجدون المسير حتى وصلوا بربر فرجعت باخرتا الحرس بمن فيها من المقاتلة وانطلقت سفن المهاجرين تمخر فى النيل وخلفها باخرة استيورت تشق عباب الأمواج والعدو من ورائها وعلى يمينها وعلى شمالها يطلق عليها نيران البنادق إلى أن قطعت الشلال الأول واستيورت يحث ربانها على الإسراع فى المسير أكثر فأكثر حتى ارتطمت بصخر

عظيم ولم تكن إلا لحظة حتى دخلهـا الماء وملأ جوفها فانزعج استيورت ولم يوفق لنكد طالعه إلا إلى إلقاء المدفع الذى كـان معه وسائر الذخيرة فى المـاء وأنزل متاعه فى زورق وسار به مع مـن كان معـه من الخدم والأتباع إلى جـزيرة فى وسط النيل ونزل بها فـأشار عليـه بعض من كان معـه أن يسير بالزورق إلـى حدود دنقله، ثم يرسل من يحمل الخدم والأتباع فامتنع من ذلك ولم يقبل لنفاذ القدر المقدور، وبينما هم فى تردد وحيرة إذ أقبل عليهم جمـاعة من أهل السلامانية ونادوا بأنهم فى طاعة الحكومة وأنـهم على عهد الخـديوى فأرسلوا لنا بـنفر منكم لنتكلم مـعهم فـصدق استيـورت كلامهم وأرسل إليهم جـماعة من الأتباع ومـلاحى البارجة فعـبروا النيل والتقوا بأولئك القوم وسـألوهم عما إذا كانوا باقيين على الطاعة فـأقسموا أنهم على ذلك فعاد رسل استيورت وأخبروه بالخـبر وباتوا ليلتهم تلك بالجزيرة، فلما أصبحوا جاء اثنان من القوم يقـولان لاستيورت: إن شيخ الـقرية قد عاد من غيـبته وعلم بما أصاب باخـرتكم فجـهز لكم مـا يلزم من دواب الحمل وهى فى انتظاركـم بالجانب الشرقى من النيل فـإن شئتم فاعبـروا وامتطوها وسيروا على بركة الله ـ قـال: ففرح استيورت بذلك وعبر مع من كانوا معه وهم زهاء خمسة وأربعين ونقلوا متاعهم فلم يجدوا غـير سبع من النوق ضـئيلة، فقـالوا لهم: إن الفرق آتيـة الساعة فلبـثوا فى انتظارها حتـى قريب الزوال، وبينما هم كـذلك إذا جاء رجل من أهل القـرية يقول لاستيورت: إن الشيخ أعد لـكم طعاماً فهيا كلوا واشربوا هنيئاً مريئـاً فقام استيورت من ساعته ولبس ملابسه كأنه ذاهب إلى وليمة أحـد الأصدقاء ولم يأخذ لنفسه شيئاً من الحيـطة أو الحذر وسار مـعه قـونصلا النمـسا والفرنـسيس اللذان نزلا مـعه من الخرطوم وترجمانه فلاقاهم أهل القرية بالترحاب وبشوا فى وجوههم وأدخلوهم فى مكان فسيح كان فيه خمسون رجلاً فى زى السيارة فرحبوا بهم وهنئوهم بالسلامة ثم انصرفوا عنهم لحظة لطيفة وعادوا فانقـضوا على استيورت والقونصلين وأغمدوا فى رقابهم السيوف وذهب جماعة من القرية إلى شاطئ النيل وأعملوا السيف فيمن كان هناك حتى أفنوهم جميعاً وأخذوا كل ما كان معهم من متاع وأوراق، وكتب غردون التى كان استيورت يحملها وأرسلوا بجميع ذلك إلى الخارجي ـ قال: ففرح الخارجى بها فرحاً عظيماً وأمر فدقوا البشائر وطير الخبر بذلك إلى غردون وعرّض له بذكر ما فى كتبه التى كان استيورت يحملها، ودعاه إلى الطاعة والدخول فى عداد الدراويش فحـزن غردون حـزناً شديداً وأيـقن أنه لم يبق فى طاقتـه دفع هذا المقدور، وتحـقق الناس طرا أن الخرطوم ساقطة لا محالة وأن جميع من بها هالك ولا شك وقد كانوا أحصوا من بها من المصريين فقط فكانوا مائتى ألف فلا حول ولا قوة إلا بالله.

(مطلب)

اشتداد الحال على بربر ومن بها

وإلى هذا الحين كان قد اشتدت الحال على بربر وضاقت ذرعاً بأمرها ووصل إليها دعاة الخارجي وضيقوا عليها المسالك وأمسكوا عليها الأطراف فجعل من بها من المرابطين وأهل البلد يصيحون المدد وكتبهم تأتى إلى مقر الخديوى وديوان الوزير نوبار باشا، وقد أرسلوا يوما عريضة على لسان البرق تشتمل على عبارات تؤلم الفؤاد وتفتت الأكباد فمما جاء فيها قولهم: هل من العدل أن نترك فريسة للعصاة ضحية سوء سياستكم يا أصحاب الأمر أين العاطفة الإنسانية والشهامة والحمية، أين منا جرائد لوندره وجمعياتها المزرية بالاسترقاق ما بالها أغفلتنا وقد باعنا رجالها لهالك بفساد سياستهم وها نحن نحسد الأرقاء فإنهم آمنون على حياتهم ونحن لا نأمن على الحياة والعرض والمال، فأين الدولة البريطانية العظمى التى وعدت وصرحت برغبتها فى إنقاذنا وانتشالنا مما ألم بنا ، ما بالها لا تتقدم إلى وفاء الوعد والقيام بالواجب قبل انقضاء الأجل، وهل تمد يد المعونة بعد أن نذوق حتفنا فتقيمنا من القبور أو كيف؟ وما القصد والداعى إلى تقاعدها وتهاملها بل ما كان الموجب لاسترجاعها عساكرها بعد حلولها فى سواكن وإعلان عزمها على كشف الضيق الحائق بنا . أما نحن فلا نستمد الفرج من إنجلترا وحدها بل نلتمس إسعافنا بالقوة من أية دولة كانت فإن القصد الوحيد إنقاذنا من الموت الزؤام وحفظ أعراضنا وأموالنا فالمدد المدد يا أولياء الأمر المدد اهـ.

فصاح حينئذ لصيحتهم هذه أصحاب صحف الأخبار المحلية وجعلوا يقرعون الهيئة الحاكمة وينحطون عليها باللائمة وهى لا تقدر على نجدة أهل بربر ولا على مكالمة صاحب سياسة الإنجليز فى ذلك بعد الذى تحقق لها من اشتداده فى طلب إخلاء السودان جميعه من المصريين ومن معهم مهما بلغت الضحايا وعظمت الرزايا. وأخذت الخديوى آخذة من الغمّ فجمع إليه سائر الوزراء وبينهم الوزير محمد شريف باشا ومصطفى رياض باشا وخيرى باشا وعمر لطفى باشا وثابت باشا ومحمد سلطان باشا وتناجوا فيما عليه أهل بربر فبعد أخذ ورد ظهر عجزهم عن نجدة القوم وأن الجلاء عن بربر خير من البقاء فاشتدت جلبتهم وطال بينهم الجدال فأخذت أحدهم عند ذلك «ولعله الوزير محمد شريف باشا» هزة الغضب: فقال ما بالكم تقولون غير ما تفعلون وتطلبون ما أنتم عن إدراكه عاجزون وكأنكم تجهلون

أو تتجاهلون أنكم أمسيتم كالريشة أمام مهب الريح إزاء وزير السياسة الإنجليزية لا تملكون من أنفسكم ولا من أموالكم وعيالكم شيئاً منذ احتلت جنودهم البلاد وهاكم كتب صاحبهم ناطقة بذلك ومشيرة إلى ما هنالك فعلا من هذا الاجتماع وإلام نتغافل ونتعامى عن الحقائق. قال الراوى: وبينما هم على هذه الحال إذ جاءهم الخبر بأن داعية الخارجى فى أرباض بربر أرسل كتاباً إلى حسين باشا خليفة مدير بربر يدعوه إلى التسليم هو ومن معه من المرابطين وأهل البلد فامتنع فنادى داعية الخارجى عند ذلك فى عسكره وجموعه بالتأهب لحصار البلد ومنع الوارد عنها حتى يسلم من فيها أو يموتوا جوعاً فأكبر الوزراء الأمر جداً وأرسلوا فى الحال إلى صاحب السياسة الإنجليزية يسألونه عما يفعلونه فجاءهم الجواب بأن لا نجدة إلا بعد أربعة أشهر يعنى ابان الشتاء فإنفض مجلسهم يومئذ على ذلك. وكتب الوزير نوبار باشا إلى حسين باشا خليفه يقول: إن قدرت على الدفع فادفع عن نفسك وإلا فانحدر بمن معك والسلام. فلم تكن إلا أيام قلائل حتى شاع الخبر بقيام سائر القبائل المتاخمة لبربر إلى نجدة أصحاب الخارجى على قتال من فى البلد وانضمام بعض المرابطين إليهم أيضاً، وكان من وراء ذلك ما سيتلى عليك فى محله والأمر لله من قبل ومن بعد.

وصل

فى سقوط أم درمان والخرطوم وما جرى بعد ذلك

لما وردت أخبار النصر على الخارجى تباعاً من كل صوب وحدب تقوت عزيمته واشتد ظهره فرسم إلى عبد الرحمن ولد النجومى صاحب الراية البيضاء الذى سبق الكلام عليه بالزحف على الخرطوم ومعه ستون راية يتبع كل راية زهاء ألف مقاتل خاضعين إلى أمير، وهذا الأمير خاضع إلى ولد النجومى، وانضم إلى جيش ولد النجومى أيضاً عبد الله بن النور فى عشرين راية أخرى ومعه بعض المدافع التى غنمها من المصريين. قال صاحب كتاب السودان: ونادى مناديه فى الناس من شاء الغزو والجهاد فى الكفار فليلحق على بركة الله بجيش ولد النجومى فخرج الناس أفواجاً أفواجاً من الأحرار والعبيد فبلغت بهم عدة الجيش زهاء ستين ألفاً، وبينهم عشرة آلاف من الجنود السود بالبنادق ونحو عشرة آلاف فارس مدججين بالسلاح فوصل هذا الجيش العرمرم إلى بلدة الجريف فى أخريات ذى القعدة من السنة أى سنة إحدى وثلثمائة وألف ، ونزل بها ولد النجومى أياماً حتى تكامل عسكره فقسمهم إلى ثلاث معسكرات وشاد القلاع وأقام الحصون وحفر الخنادق وأنشأ

المتاريس وسلم إلى مقدمى العسكر مواقع الدفاع ومفارق الطرق، وأرسل إلى غردون يدعوه إلى التسليم ويحذره من عاقبة الامتناع ـ قال ـ وتراجع أيضاً المنهزمون من جماعة أولاد الشيخ العبيد وعسكروا فى الحلفايا كما كانوا واحتفروا الخنادق وعملوا المتاريس فكانت مقذوفاتهم تصل إلى منازل المدينة يعنى الخرطوم وشوارعها وتلحق الضرر بالسكان وتميت كثيراً منهم فى كل يوم، ولبث الحال على هذا المنوال إلى أوائل المحرم افتتاح سنة اثنين وثلثمائة حيث زحف الخارجى فى جيش عظيم، قيل: إنه بلغ زهاء الستمائة ألف مقاتل يريد أم درمان، فلما صار على مقربة منها أرسل جواسيسه فدخلوا الخرطوم ولم يشعر بهم أحد وصاروا ينشرون كتب الخارجى بين الناس وكلها حض وتحريض على شق عصا الطاعة والاجتماع على نصرته وألقوا بشوارع البلد من تلك الكتب شيئاً كثيراً. وأقام الخارجى بمكانه حتى تكاملت لمومه فرسم لهم بالهجوم على أم درمان وكان بها جماعة من العساكر المصرية والعساكر السود فهجم القوم عليها فى أوائل النصف الثانى من المحرم هجمة قوية فقابلتهم الجنود بنار حامية واشتدت عليهم برمى القنابل فتراجعوا عنها خاسرين، وقد مات منهم خلق كثير فكبر الأمر على الخارجى ونادى فى قومه بالقتال ثانية فقاتلوا قتالاً شديداً حتى ملكوا من البلد بعض المواقع الأمامية ثم حاصروها حصاراً شديداً إلى آخر ربيع الأول فنفذ ما كان عند الحامية من المؤن ولم يبق عندهم شىء يقتاتونه فسلموا إلى صاحب المهدوية بإشارة من غردون فأحسن الخارجى معاملة كبارهم واستخدمهم فى مصاف جيوشه.

فلما سلمت حامية أم درمان وشاع خبر ذلك بين من بالخرطوم من العساكر والأجناد وهنت عزائمهم وظهرت عليهم علامات الضجر وزاد الأمر شدة نفاد ما فى المخازن والأشوان من المؤن والغلال وعدم إمكان الحصول على شىء منها من الخارج لأخذ العدو بأطراف الطرق فتفشت المجاعة بأسرع ما يكون واشتد الجوع بالناس فصاروا يقتاتون ورق اللوبيا العفنة كانوا يطبخونها ويلعقونها ـ قال ـ وكان قوت الحامية من الصمغ مخلوطاً مع جمار النخل، وقد شوهد أن الذين يقتاتون هذه الأصناف يصابون بالإسهال وتظهر على وجوههم، أعراض تشبه أعراض مرض اليرقان ثم تتناقص قواهم الجسمية فى مدة ثلاث أيام وتعقبها أعراض الموت ـ قال ـ ومن غرائب ما رأينا فى حصار الخرطوم أن صيادى السمك قبل الحصار كانوا يصطادون فى كل يوم نحو ألف قنطار من الأسماك، ولما بدأ الحصار انقطع وجود الأسماك كأنها فرت من فرقعة البنادق وهزيم المدافع حتى أن غردون اشتهى سمكة

يتغـذى بها قبل سقـوط الخرطوم بأربعة شهـور فلم يتيسر الحـصول عليهـا وكما أن الأسماك هجرت شواطئ الخرطوم فـإن أراضى بساتين المدينة التى كانت تقوم بحاجة سكانها من البقول والفاكهة أصبـحت فى إبان الحصار وقد تلفت كل مزروعاتها ولم ينبت فيها شيء من البقول وذبلت أشجار الفاكهة وتلاشت محصولاتها ـ إلى أن قال وكانت أسعار الأقوات فى البلد حتى سقوطها كما يأتى ثلاثون ريالا ثمن الكيلة من الغلة وعشرة ريالات ثمن الأقة من البقسـماط وخمسة ريالات ثمن الأقة من اللحم البقـرى، وكان بعض السكان يذبحون الحـمر الأهلية والحكومـة تعاقب من يرتكب ذلك اهـ.

واختل نظام الجند بالخرطوم فـتمردوا على كبارهم وساروا عـصابات تعبث فى البلد وتسطوا على باعـة الأقوات وتخطف كل ما هو معـرض للبيع، ولحق جمـاعة كـثيـرة منهم بالخارجى عنـد أم درمان هرباً من الجـوع، وكان غـردون مع كل هذه الكروب يظن أن صاحب السياسة الإنجليزية ربما يكون غير أو بدل من أسرار سياسته فيـعمد إلى إرسال حـملة لخلاصه فـأعد لاستطلاع طلع هذه الحـملة الموهومة تسع بواخـر مدرعة كـانت إلى ذلك الحـين تناوش العدو وتأتى بالمؤن إلى الخـرطوم من القرى فسيـر بهذه البواخر إلى المتمة وبربر ولكن على غـير طائل. وكان يضرع إلى الله تعالى أن يقرب عـودتها حاملة أخبار تلك الحـملة وظل على هذه الحال أياماً ثم يئس وقنط وتولاه الحـزن والاضطراب فكان لا يستـقر له قـرار لا فى الليل ولا فى النهـار وكان يغـدو ويروح بين الحـصون والـقلاع يشـدد عزائـم الجند بلين الكلام ويحضـهم على الأمانة والإخـلاص وكان كلمـا رآهم وهم يتألمون من وخـز الجوع يذوب حسرة وتوجـعاً. ويقول: كيف يهدأ بالى وها هـى جنودى تقاسى ألم الجوع ومر العذاب، قيل: وكان يقضى اليـوم والليلة لا يذوق إلا الشيء اليسير من الطعام وأكل جمار النخل أيامـاً حتى أضناه وكاد يودى بحياته. وكـانت كتب الخارجى ترد عليه كل قليل يدعوه بها إلى التسليم وترك العنـاد ويقول له فى بعضها: إن الإنجليز إن قـدموا لنجـدتك فلا يصلون إليك ولا يـكون حظهم إلا كحظ يوسف الشـلالى وهيكس. قال صاحب كتاب السـودان: وكتب المهدى ثلاثة كتب إلى غردون، نص الأول منها : بسـم الله الرحمن الرحـيم والصلاة على سيدنا محـمد وآله مع التسليم وبعد، فمن العبد المعتصم بمولاه محمد المهدى بن عبد الله إلى غردون باشا هداه الله إلى طريق النجاة قبل أن يتلاشى آمـين. نعلمك أن جوابك ردّ المحرر منا وصل إلينا وفهمنا مضمونه وقد عذرناك علـى عدم إذعانك وإجابتك لنا بالطاعة كما طلبنا منك

وذلك لأنك لم تدر الحقيقة التى نحن عليها وتحسب مقامنا ودلالتنا على الله وشفقتنا على عموم خلق الله حتى من هو مثلك ولكن لم يطب قلبنا بصرف النظر عنك ولا زلنا ندارجك عسى الله أن يهديك إلى سواء السبيل فأجب داعى الله واغتنم سلامتك من الشر الوبيل فقد رأيت ما حل ونزل ولا زلت ترى ولا طاقة لك ولا لأعوانك بحرب جند الله عز وجل وقد ذكرت أن عبد القادر ولد أم مريوم حبيبك وتقبل قوله ونصيحته وتطلب إرساله لك فعلام ذا هل أنت منيب إلى الله وقصدك التسليم لنا على يد المذكور؟ أم أنت على تصميمك على إعراضك ومعاداتك لربك فأفدنا على هذا لنعلم طلبك له على أى الوجهين ونرسله لك إن رأينا فى ذلك صلاحاً للدين وأقول لك إن عزة الإسلام خير لك وأبقى لدوام احترامك فى الدارين فتحل بها إن عقلت والسلام.

قال ـ والكتاب الثانى : بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله المولى الكريم والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم وبعد، فمن العبد المفتقر إلى الله المعتصم به محمد المهدى ابن عبد الله إلى غردون باشا أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين فإن أعرضت كان عليك إثمك وإثم من معك فقد أتى الخبر عن الرسول ﷺ أن الجردة الآتية لو كان معى أمامها ستة أنفار تموت أو خمسة تموت أو واحد يموت أو وحدى كذلك ولو كانت مثل ورق الشجر ونبت الوعر وموج البحر وقد آتانى خبرها تموت أيسر من موت جردة ولد الشلالى وهيكس وسأملك المديريات الغربية كلها والبحر الأبيض كذلك موعود بجميع البلاد فالأمر لله ومادام أن الله القادر أيدنى بالكرامات والنصر فلا يضرنى إنكار منكر وإنما يضر نفسه فقط والأمر الذى وعدت به من رسول الله ﷺ جار على الجردة التى تعتمدونها مالها وجه يوصلها لكم لسد الأنصار الطرق فإن أسلمت وسلمت فقد عفونا عنك وأكرمناك وسامحناك فيما جرى منك، وإن أبيت فلا قدرة لك على نقض ما أراده الله وسترى والسلام اهـ.
تحشية ـ وإن طلبت زيادة بعد وصول جوابى هذا فتخبرك المرأة الواصلة إليك وإن رأيت التمكين واليقين إن أردت التسليم أكثر من هذا الجواب فسنرسل لك عبد القادر ولد أم مريوم لزيادة الطمأنينة فى الأمان ولا مانع وبذا لزمت التحشية اهـ. بنصه.

قال ـ والكتاب الثالث : بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله المولى الكريم والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم وبعد، فمن العبد الفقير إلى الله محمد المهدى بن عبد الله إلى غردون باشا وقاه الله كل شر لاشى فإن أراد الله سعادتك

وقبلت نصحنا ودخلت فـى أماننا وضماننا فهـو المطلوب، وإن أردت أن تجتمع على الانجليز الذى أخبرنا رسول الله ﷺ بهلاكهم فنوصلك إليهم فإلى متى تكذبنا وقد رأيت مـا رأيت وقد أخـبرنا رسـول الله ﷺ بهلاك من فى الخـرطوم إلا من آمن وسلم ينجيه الله ولذلك أحببت لك أن لا تهلك مع الهالكين لإنا قد سمعنا مراراً أن فيك الخير ولكن قد كاتبناك للهداية والسعـادة فما أجبتنا بكلام يؤدى إلى خيرك كما نسمعه مـن الواردين والمترددين، والآن ما أيسنا من خيرك وسعـادتك ولما سمعنا من الفضل فـيك سنكتب لك آية واحدة من كـتاب الله عسى أن تـتيـسـر هدايتك بها إذ جـعلنا الله باب الرحـمة والدلالة إلى الله ولـذلك طالما كاتبـناك لنرجع إلى وطنك وتحوز فضيلتك الكبرى ولا تيأس من الفضل الكبير، أقول لك قال الله تعالى: ﴿ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيماً﴾ والسلام، وقد قلت فى جوابك الذى أرسلته إلينا أن الإنجليـز يريدون أن يفدوك وحدك منا بـعشرين ألف جنيـه، ونحن نعلم أن الناس البطالين يقولون كلاماً كثيـراً ليس فينا وذلك ليصدوا من أراد الله شقاوته ولا يعلم نفيه إلا من اجـتمع بنا وأنت إن قبلت نصحنا فبهـا ونعمت وإلا فإن أردت أن تجتمع بالإنجليز فبدون خمسة فضة نرسلك إليهم والسلام. اهـ. بنصه.

قلـت: وقد عثرت على صورة كتـاب آخر من ذلك الخارجى إلى غردون يقول فيه: بسم الله الرحمن الرحيم الحمـد لله المولى الكريم والصلاة والسلام على سيدنا محمد مع التسليم. وبعد، فمن العبد الفـقير إلى الله محمد المهدى بن عبد الله إلى عزيز بريطانية والخديويـة غردون باشا، قد وصلنا جوابك وفهمنا مـا فيه والحال أنك تزعم إرادة إصلاح حال المسلمين وفتح الطريق لزيارة قبر النبى عليه الصلاة والسلام واتصال المودة فيما بيننا وبينكم وإطلاق المسـيحيين من النصارى والمسلمين وأن تجعلنا سلطانا على كـردفان، فأقـول والأمر لله إنى قـد دعوت العبـاد إلى صلاحـهم وما يقربهم إلى ربهم وأن يفزعوا من الدنيا الفانية إلى دار البقاء ويعملوا ما يصلحهم فى آخرتهم وقد كـتبت إلى حكمدار الخرطوم وأنا بآبا بدعـوته إلى الحق وبأن مهدويتى من الله ورسوله ولـست فى ذلك بمتحيـل ولا مريد ملكاً ولا جاها ولا مالا، وإنما أنا عبد أحب المسكنة والمسـاكين وأكره الفخر وعز السـلاطين ونبوهم عن الحق المبين لما جبلوا عليه من حب الحياة والمال والبـنين وهذا هو الذى صدهم عن صلاحهم وأخذ نصيبهم من ربهم فأخذوا الفانى وتركوا الباقى واشتغلوا بما لايكون من الفانيات ولم يسمعوا قول الله ولا رسوله ولـم يذكروا خبر أهل القرون الذين لم يغن عنهم ذلك شيئـاً وتندموا على قدر الذى تمتعـوا به فأيدنى الله تعالى بالمهدوية الكـبرى لدلالتهم

إلى الله تعالى وليتركوا العز الفانى والنعيم الفانى إلى العز الدائم والنعيم الأبدى فى دار النعيم المقيم ولأعرفهم غرور من يريد العاجلة ويظن أنه ساع فى رضا الله ويكون له نصيب فى الآخرة وقد قال المسيح عليه السلام يا معشر الحواريين ابنوا على موج البحر لكم داراً وإياكم والدينا فلا تتخذوها قرار (قلت: إن المسيح لم يقل شيئاً ولا شبه شيء من هذا الكلام فى إنجيله البتة) ـ قال المدعى ـ فمن ظن أنه يخوض البحر من غير بلل فهو مقهور وكذلك من ظن أنه يجمع الدنيا ويريد عزها وجاهها ويكون له فى الآخر شأن فأنب إلى الله الباقى واخضع لجلاله واطلب عز الآخرة ولا تظن أن هذه الدنيا دار بقاء حتى تسعى لملكها وعزها وكيف من يكون على خلاف طريقة النبى ﷺ ممن يرغب زيادة الكلاب كما ورد فإن الدينا جيفة وطلابها كلاب ولم يرغبها فمن عبد غير الله نسى الله وأعرض عن كلامه وطلب متاع الحياة الفانية فإن كنت شفيقاً على المسلمين فالأولى أن تشفق على نفسك وتخلصها من سخط خالقها وتقومها على اتباع دين الحق باتباع سيدنا محمد رسول الله ﷺ الذى أحيا ما اندثر من ملل الأنبياء عليهم السلام الذين لو حضروا لما سلكوا غير ملته وكلهم يتمنون أن يكونوا من أمته ومن حضر بعثته وما بعد لا يقبل منه دين غير سنته فطهر نفسك أولاً بالدخول فى ملته ثم اشفق على أمته بسلوك سنته فعند هذا فأنت الشفيق ومن غير هذا فما لك من المحقين رفيق، كيف وقد قال الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدى القوم الظالمين﴾ ـ إلى أن قال: ﴿إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون، ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون﴾ وإننا امتثلنا أمر الله فما نتخذ وليا إلا الله ورسوله والمؤمنين، وعلى ذلك قد وعدنا الله بالغلبة كما سمعته من قول الله هذا ومادام أن الله يقول هم الغالبون فلا غلبة لغيرهم فإن رجعت عما أنت عليه من ملة غير الإسلام وأنبت إلى الله ورسوله واخترت الآخرة نتخذك وليا وتكون من إخواننا وتكون المودة المطلوبة عند الله ورسوله وتكون ممن امتثل أمر الله فاستحق الوعد والبشارة بعد هذه الآية فى قوله تعالى: ﴿ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم﴾ الآية.. فبعد هذا تظل المودة بيننا وتكون ممن عمل بالقرآن والتوراة والإنجيل وتكون قد اتبعت باتباع نبينا محمد ﷺ عيسى وجميع الرسل والنبيين وحزت الخير الأبدى، وحيث علمت من كلام الله أن حزب الله والذين وليهم الله ورسوله والذين آمنوا هم الغالبون فأعلم أن حزب الله واصل إليك مزيل

لك عمـا شاركت به خالقك فادعـيت ملك عباده وأرضـه مع أن الأرض لله يورثها عباده الصالحين وأن المسلمين والمسيـحيين الذين دعوت بإطلاقهم إليك فأنا أريد لهم الصـلاح والنفع عند الله وفى دار الأبد كمـا أريده لك ولكافـة عباد الله خـلاء من جنتهم إلى محنتـهم فإن الله قد أيدنى رحمة لعبـاده ولإنقذهم من الهلاك الذين هم واقعون فيه لولا رحمة الله بظهـورى فيهم واعلم إنى المهدى المنتظر خليفة رسول الله ﷺ فلا حـاجة لى بالسلطة ولا بملك كـردفان ولا غيـرها ولا رغبـة لى فى مال الدنيا وزخرفهـا وإنما أنا عبد الله دال إلى الله والى ما عنده فمن كان سـعيداً أجابنى وتبعنى ومن كان شـقياً أعرض عن دلالتى فأزاله الله عن موضـعه وأذله وعذابه عند الله إلى الابد وقـد أيدنى الله تعالى بـالأنبيـاء والمرسلين والملائكة المقـربين وجمـيع الأولياء والصالحين لإحياء دينه وقد بشرنى النبى ﷺ بأن جميع من يلقانى بعداوة يخذله الله ويهزمه ولو كان الثقلين الأنس والجن فلا تغـتر فتهلك كما هلك إخوانك فافهم وسلم تسلم.

وأما الهدية التى أرسلتـها لنا فعلى حسب نية الخيـر جزاك الله الخير وهداك إلى الصواب، واعلم أنه كـما كتبنا أنا لا نرغب فى مـتاع الحياة الدنيا وزينـتها وإنما هى قصد المترفـين الذين لم يكن لهم عند الله نصيب فها هى مرسلة إليـك مع ما نرغبه من الملبس لنفسنا ولأصحـابنا الذين يريدون الآخرة ويرغبون فيمـا عند الله من الخير الباقى الأبدى ليسـتحقوا بذلك نعيم الأبد وملك الدوام كمـا درج على ذلك الأنبياء والمرسلون وجميع السعداء من عباد الله الصالحـين وتعلم ذلك أنت حقيقة من سيرة عيسى عليه السلام وحواريه، وقد قال: كتبت لكم الدنيا فلا تغشوها بعدى (قلت: والمسيح لم يقل هذه الترهات أيضاً ولا جاءت فى إنجيله) ـ قال ـ فتعلم بذلك أن من خالفه من الأحبار والرهبان وجميع من يدعى اتباعه ليسوا محقين وإنما غرتهم الحياة الفانية والأمتعة الآيلة إلى أن تكون جيفة وعـذرة ثم عدماً محضاً فتكون حسرة ورزأ عند فراقها وما فوتته من اكتساب خيرات الدوام ثم إن مثل هديتك عندنا كثير ولكن أعرضنـا عنه طلبا لما عند الله وأقـول لك فى ذلك كمـا قال سليـمان عليـه السلام لبلقيس وقـومها: ﴿أتمدونن بمال فمـا آتانى الله خير مما آتاكم بل أنتم بهديتكـم تفرحون * ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون﴾ وأعلم إنك إذا أتيتنا مـسلما نؤنسك ونريك من النور ما يطمـئن به قلبك ويزول به طمعك فى الدنيا وما فـيها ثم بعد ذلك إن رأينا فيك خـيراً وصلاحاً للمسلمـين وليناك كما فعلنا ذلك بمحمد خالد المشهـور بزقل مدير دارا سابقاً فإنه لما أتانا ورأى الحق وفرح

بلقائنا وندم على ما فات مما ضيعه من عمره فى الفانى واطمأن قلبه بالإيمان واختار الآخرة ووثق بالله ولينـاه على دارفور وقد كـتب لنا قبل ذلك عـبد القـادر سلاطين «يريد سلاطين باشا» بالتسليم فأكرمناه وإلى الآن نريد كمال تربيته وهو الآن فى خير كثير وكذلك السيد جمعة الذى كان مديرا لفاشر والآن أرسلنا إلى محمد خالد المذكور يأتى به الينا لكمال التربية والإرشاد وبلغنا حسن إسلام الدمترى سجاده وصدق اتباعه لنا وإنابته للآخرة وكذلك جميع أمراء النقط بدارفور قد أذعنوا لله كباقى سلاطين دارفور وسلموا جميعاً أمرهم إلينا فى حب الله ورسوله فحسن تسليمهم واتباعهم لنا، وكذلك الملك آدم ملك جبال تقلى الآن أتى مهاجراً لما رأى الحق وحسن اتباعه وصدقه وقد أكرمناه وهو الآن معنا بخير كثير وهلم جرا، فكل سعيد لابد أن يتصل بنا من جميع أقطار الأرض ومن أبى لابد أن يخذله الله ويعذبه فى الآخرة كما أشار إلى ذلك النبى ﷺ مراراً وليكن معلوماً عندك ياحضرة الباشا أن جميع الذين قتلوا على يدى قد أنذرتهم أولاً إنذاراً بليغاً وها هو واصل إليك إنذار ولد الشلالى بعد مخاطبته وإنذار هيكس بأجوبة عديدة وجواب مخصوص له ولأكابر جيشه وقد أرسلنا إلى باشه الأبيض بجواب فقتل رسلنا وبعد أن وقع فى يدنا أكرمناه وأعطيناه جبة جميلة ليتدرج إلى الصدق مع الله ولازلنا نكرمه ونعظمه ليقتدى بنا ويصدق مع الله فيكون من الأصحاب الذين هم كالنفس فلم يصدق ولازال يقع فيما يهلكه ونحن نصفح عنه حتى أخذته منيته فمات، ومع ذلك لأجل مبايعته لى ومجالسته معى أياماً قد أتانا خبر بعد موته أنه عفى عنه فى الآخرة فصار من السعداء والعبد إذا كان يسعد فى الآخرة فهو المقصود ولاخير فى الدنيا ولا فى نعيمها بل إنما متاعها يكثر الحسرة والحبس فقط يوم القيامة ونبتى بالعباد سعادتهم فى آخرتهم الأبدية وإزالة الهلاك عنهم من الله ولذلك لاطفت جميع الأكابر من الدولة والحكام فما عملنا معهم إلا الخير والإكرام فمن صدق منهم معنا فهم الآن فى خير كثير وازدياد شرف والسلام ـ وبعد هذا البيان فإن اهتديت وسلمت لى واتبعتنى حزت شرف الدنيا والآخرة وفزت بأجرك وأجر جميع من اتبعك وإلا هلكت فكان عليك إثمك وآثام جميع من اتبعوك وإن كان لك حسن نور فى العقل تعلم أنى خليفة رسول الله ﷺ فلم تتهمنى فيما أسوق به إلى الله والدار الآخرة ولم تسمع على قول الظلمة الحساد الذين يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ـ وقد قال ﷺ من شك فى نصرة المهدى فليقرأ قوله تعالى: ﴿وهو الذى

أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون﴾، وقوله: ﴿كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله﴾ ولزيادة الشفقة عليكم لزمت التحشية بهذا والهادى هو الله وكثرة البيان لاتهدى هدانا الله والعباد إلى الصواب آمين اهـ. بنصه.

قيل: وكتب المدعى على الظرف الذى أرسل فيه هذه الرسالة ما نصه سألتك بحق الله ونبيه عيسى عليه السلام أن تقف على أجوبتنا هذه بالحرف الواحد وقد أبلغنى محمد سعيد المسلمانى الذى يسمى جرجو اسلامبولى أن رجلاً يسمى السيد أفندى نعيم الأجزجى له معرفة بلغتكم وبالخط العربى ومادام أنه يعرف الخطين واللغتين نرغب منكم الوقوف على ما فى هذا الظرف جميعه حرفاً حرفاً على يد المذكور أو من هو مثله والسلام.

وأرسل إلى غردون بعد هذه الرسالة خطاباً يذكر له فيه بيان الهدية التى أرسلها إليه فى مقابلة الهدية التى كان غردون أرسلها عند مقدمه إلى الخرطوم ونص هذا الخطاب: بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله المولى الكريم والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم وبعد فمن عبد ربه الفقير إلى الله محمد المهدى بن عبد الله إلى غردون باشا باطلاعك على ما تدون بالجواب إليك تعلم باطنه وبه كسوة الزهاد أهل السعادة الكبرى الذين لا يبالون بما فات من المشتهيات طلباً لعالى الدرجات وهى جبة ورداء وسراويل وعمامة وطاقية وحزام وسبحة فإن أنبت إلى الله وطلبت ما عنده لايصعب عليك أن تلبس ذلك وتتوجه لدائم حظك وها هو الرسول الذى أتانا منك واصل إليك مع رسل من عندنا كما طلبت والسلام اهـ.

وعندى أن هذا الجواب يجب أن يكون أول كتب المدعى إلى غردون ومع ما فيه من سماجة الأسلوب وركاكة التركيب فأنى استبعد أن يكون من إنشائه إذا جزمنا بأن الخطاب الثالث الذى هو أحد الخطابات التى نقلناها عن صاحب كتاب السودان هو من إنشائه وعلى كل حال فإنها كلها تدل على مبلغ اعتقاد الرجل فى دينه ويقينه الثابت بأنه هو المهدى المنتظر بلا جدال.

وجعل غردون منذ اشتداد العدو على حصون البلد ومعاقلها يدبر واسطة لخلاص قناصل الدول الذين كانوا معه فى الخرطوم فلم يقبلوا وقالوا: لا بل نبقى حتى تصل الجنود الإنجليزية، فأجابهم غردون إلى ذلك وقد كانت الأخبار جاءتهم بأن صاحب السياسة الإنجليزية أرسل لخلاص غردون ومن معه حملة كبيرة بعد أخذ

ورد لا محل لايرادهما هنا وأن تلك الحملة بلغت النيل عند المتمة فقاتلها أنصار الخارجي قتالاً عنيفاً فقهرتهم وغلبتهم، ووردت الأخبار كذلك إلى الخارجي بما وقع لاصحابه فاضطرب وجمع إليه خواصه وأهل شوراه وكلمهم فيما هم فيه فاختلفوا فمنهم من أشار عليه بالزحف، في جيوش وأنصاره والوقوف في طريق الإنجليز وقتالهم حتى ينجز لهم الله النصر ومنهم من أشار بترك حصار الخرطوم والجلاء عنها والرجوع إلى كردفان والتحصن فيها ومنهم من أشار بغير ذلك. قال الراوي: ثم سكتوا لحظة فالتفت الخارجي إلى أبي قرجة أحد الأمراء وعبد القادر على ابن عم الخارجي وقال وأنتما ماذا تقولان: فقال أبو قرجة؟ إن الفرنجة لا يقصدون إلا الخرطوم فإذا بلغها مائة منهم تعذر وقوعها في قبضتنا فالرأى عندى أن نقاتل من بها ونلح في قتالها حتى نفتحها فإذا وصل خبر سقوطها إليهم ارتبكوا وتولاهم اليأس فنكرّ عليهم ونقاتلهم حتى نقهرهم، وقال عبد القادر: مقالة أبي قرجة أيضاً فظهرت عند ذلك على وجه الخارجي علامات الفرح، وقال: هذا هو الرأى الصواب فنعمل به إن شاء الله تعالى وقد كان الخارجي إلى هذا الحين يظن أن المؤن عند حامية الخرطوم كافية وأن أهل البلد في أمان من الجوع كما كان يكتب إليه غردون كل قليل من الأيام فكان لذلك يخشى الزحف على البلد وفتحها عنوة، وكان يحسب لذلك حساباً كبيراً فلما قال أبو قرجة وعبد القادر مقالتهما هذه اشتدت عزيمته وزال خوفه وعقد النية على مهاجمة البلد وفتحها وكان من عساكر الباشيبوزق سنجقان قد مالا إلى دعوة الدعاة وكأنهما استوثقا لأنفسهما منهم. قال صاحب كتاب السودان: فخرجا في إحدى الليالي من البلد سراً ولحقا بالمهدى فأكرم مثواهما وقربهما منه وسألهما عما فيها من المؤن والعسكر فأعلماه بكل شيء وكشفا له عن عورات البلد وهونا عليه فتحها ودلاه على مكان في طرف الخندق من ناحية النيل الأبيض قد انحسر عنه الماء فلذلك يسهل الولوج منه إلى البلد ففرح المهدى بذلك فرحاً لايوصف، فلما كان صبح الأحد ثامن ربيع الثاني من السنة أى سنة اثنتين وثلثمائة وألف خرج المدعى من كهفه وعلى رأسه مقطف من الخوص مملوء رملاً وسار فتبعه الناس حتى جاء شاطئ النيل فأحاط به الناس إحاطة السوار بالمعصم فوقف صامتاً لا يتكلم والناس كأن على رؤسهم الطير ثم صاح الله أكبر على الخرطوم وأخذ حفنة من الرمل بيده ورماها في اليم فصاح الناس جميعا الله أكبر على الخرطوم ومازال يصيح هكذا ويلقى بالرمل في اليم والناس يصيحون بعده بمثل مقالته حتى فرغ ما في المقطف فالتفت إلى من هم حوله وقال يا قوم: إن النبي ﷺ قال لي يا محمد

اهجم على البلد فى هذه الليلة فتسقط فى يدك لا محالة، قال ذلك وعبر النيل إلى الجانب الشرقى يريد معسكر ولد النجومى وبعد صلاة العصر ركب جملاً فاحتشد الناس حوله فأثنى على ولد النجومى وقال له: إن النبى ﷺ بشره بالاستيلاء على الخرطوم فى هذه الليلة وأمره أن يقسم مقاتلته إلى ثلاث فرق كقلب وجناحين ويكون هو فى القلب ومعه الفرسان ويكون الحاج محمد أبو قرجة قائد الميمنة ومعه حملة البنادق ومحمد نوبارى شيخ قبيلة بنى جراد احدى بطون قبيلة الكبابيش قائد الميسرة ومعه العرب والبقارة أصحاب الحراب والسيوف وأن يكون هجوم القلب على نقطة الوسط من الخندق عند البرج المعروف باسم باب المسلمية ـ قال وهى مقر فرج باشا الزينى قومندان الحامية ويكون هجوم الميمنة على الخندق مما يلى النيل الأزرق لجهة برى ويكون هجوم الميسرة على الخندق مما يلى النيل الأبيض عند المكان الذى انحسر عنه الماء وتراكمت عليه الأوحال وصار فى الإمكان الوصول منه إلى المدينة وقدم المهدى عمر إبراهيم وهو أحد الصنجقين اللذين دلا على عورات البلد إلى محمد نوبارى قائد الميسرة بصفة دليل يرشده إلى ذلك المكان «يعنى المكان الذى انحسر عنه الماء» ودفع إليه شخصاً آخر اسمه بدوى الدنقلاوى، وكان كيالا فى الشون بصفة دليل ثان وأصدر المهدى إلى محمد النور أمراً قال فيه ما يأتى: لدى دخولك المدينة يجب أن تقصد سراى غردون على الفور وتبلغه تحيتى ثم تحافظ على حياته ولا تترك أحدًا يتعدى عليه حتى توصله إلى سالماً بغير أن يصيبه مكروه وخطب على الجميع قائلاً لا يتعرض منكم أحد إلى حياة غردون بسوء لأننى أريد أن أفدى به أحمد عرابى باشا، ثم خطب فيهم يحضهم على الجهاد ويذكرهم بنعيم الآخرة، وقال لهم فى ختام خطبته: احملوا الحشائش لإلقائها فى الخندق حيث تجتازون عليها وقفل راجعاً إلى أم درمان ومعه عبد الله التعايشى وترك الخليفتين محمد شريف خليفة الكرار والخليفة على بن حلو خليفة الفاروق واجتاز النهر آيباً إلى أم درمان اهـ.

وكثر عبور المقاتلة من أم درمان إلى الخرطوم وجعل مقدم العساكر المهدية يطلق مدافعه من أم درمان على الخرطوم تباعاً من عصر الأحد ثامن ربيع الثانى إلى ظهر الاثنين تاسع الشهر المذكور وكان يوم الأحد يوما لا شمس له قد حجبتها الغيوم المتلبدة والضباب المتكاثف وكان البرد قارصاً وعلم غردون بحركة العدو واحتشاده فصعد إلى سطح داره ومعه قناصل الدول وجعل ينظر بالنظارات إلى كثرة العدو

وعبوره النيل فانزعج وتحقق أن العدو على أهبة الزحف على البلد فى تلك الليلة فأسرع إلى الحصون والمعاقل وجعل يستنهض همم الجند ويحثهم على الصبر فى الدفاع فكانوا فى شاغل عن كلامه بما هم فيه من الجهد والتعب وما أصابهم من الضر فعاد إلى مقره، قيل: والدمع ملء عينيه فقابله قناصل الدول فقال لهم: لاقدرة للجنود على دفع العدو وقد دبرت لكم أمر النجاة فلم تقبلوا فلا ذنب لى ولا جناح على ولابد للعدو من ولوج البلد فى هذه الليلة ثم صافحهم جميعاً قائلاً أنى أبرأ إلى الله والعالم أجمع من تبعة كل داهية تلم بكم، فقالوا: نحن نشهد بما تقول فصافحهم ثانية وكانت مناوشات العدو فى ازدياد من ناحية الخندق ومن جهة أم درمان وشاع الخبر فى نحو الساعة العاشرة ليلاً أن العدو على عزم الهجوم على البلد فوقع الهرج فى الناس وعلت الضوضاء فلم تكن إلا ساعة حتى دخل العدو بخيله ورجاله وساروا نحو مقر غردون وأحاطوا به إحاطه السوار بالمعصم. قال صاحب كتاب السودان: وكان القائد فرج باشا واقفاً وقت زحف العدو عند باب المسلمية فلما أحس بدخول الميسرة إلى الخندق مما يلى البحر الأبيض أمر بفتح باب المسلمية حيث فر منه بعد أن تنكر بملابس جندى ومعه القائم مقام سرور بهجت ولما دخل محمد نوبارى المدينة قصد بكل مقاتلته سراى غردون ـ قال ـ وكانوا زهاء مائة ألف مقاتل فأطل غردون من النافذة ونظر إليه ثم قال لحراسه لا تبدوا معارضة لأى أحد يريد الوصول إلى وإياكم أن تبدوا أقل دفاع ـ قال ـ ولبس كسوة التشريفة الصغرى التى هى ملابسه اليومية على الدوام وتقلد سيفه ولبس طربوشاً ووضع عليه رداء حريريا «كوفيه» وربطه بعقال كزىّ الأعراب فدخل عليه محمد نوبارى وجماعة من مقاتلته فوجدوه جالساً على كرسيه ممسكاً بيده منديلاً أبيض فابتدره أحد الدراويش وقال له أين أموالك ياغردون يا كافر، قال: فتبسم غردون ضاحكاً، وقال له : أين محمد أحمد يقصد المهدى فابتدره الرجل بطعنه فى صدره خر منها صريعاً على الأرض يتخبط فى دمه ولكنه لم يفقد حواسه من هذه الضربة ـ قال ـ ونقل لى أحد الحاضرين أنه سمع واحد من الدراويش صاح بالذى طعن غردون وقال له: لا تقتله بل أبقه كأمر المهدى فأجابه القائد محمد نوبارى بقوله إن الخليفة التعايشى أمر بقتله وكان صوته خافتاً حين نطق بهذه العبارة قال: ثم سحبوا غردون من رجليه ولم يكن قد فقد الحواس ولا قوة النطق حتى قيل: إنه كان يبتسم وهو مسحوب على وجهه ثم أنزلوه إلى حوش السراى وهناك قطعوا رأسه وأرسلوها إلى الخليفة

محمد الشريف الذى كان وقتئذ فى جامع الخرطوم فانتدب محمد بن عبد الكريم من أقارب المهدى فركب الباخرة اسماعيلية وأوصل رأس غردون إلى المهدى الذى أنكر قتله وصاح قائلاً لماذا قتلتموه ألم أنهكم عن قتله ؟ فقال له التعايشى: إن قتله خير من استحيائه. فبدت من المهدى علامات الغضب وأسرع بالقيام ودخل إلى منزله ونصبت رأس غردون على خشبة طولها متران وأخذ الصبيان والنساء يرجمونها بالحجارة ويهينونها بالبصق حتى تهشمت قطعاً صغيرة اهـ.

ووردت الأخبار نتفاً إلى القاهرة بسقوط الخرطوم فى قبضة الخارجى واستسلام من بها من المرابطين وموت غردون ومن كان معه من قناصل الدول فكان الناس يتحدثون فى هذا الأمر همسا ولا يصرحون به عسى أن يكون من سقط الروايات أو من تضليل الرواة وكانت الحملة التى سيرها الإنجليز لاستخلاص غردون معقوداً لواؤها إلى الجنرال ولسلى صاحب موقعة التل الكبير أو هو فاتح مصر على المشهور وقد سارت مدججة بالسلاح مثقلة بالشيء الكثير من الكراع والمدافع الحديثة الطراز والمؤن والخيل ودواب الحمل وكثير من سفن النقل فجعلت مركز حركتها مدينة أسوان وجعل الجنرال ولسلى يترفع بالجنود إلى أرض السود يريد اللحاق بالخرطوم قبل أن يتمكن الخارجى من فتحها، وقيل: بل كان فى تردد وحيرة وكتب صاحب سياستهم تأتيه تباعاً تارة بالإقدام وأخرى بالإحجام والمخبرون يأتونه من الأنباء بأشكال متضاربة حتى وقع القنوط واليأس أو كاد وكثر توارد كتب الخديوى على ولسلى أيضاً فى طلب معرفة بعض الشيء من أخبار الخرطوم وما حل بها فلم ينل مأرباً واختلط الحال كذلك على قناصل الدول وكثر تساؤلهم وترادادهم على ديوان الوزير نوبار باشا يسألون عما حل بقومهم النازلين بأرض السود فلم يعرفوا من خبرهم شيئاً سوى الشائع بين الناس. وجاءت الأخبارفى هذا الحين أيضاً بوصول طائفة من العساكر الإيطالية فى عدة وذخيرة عظيمة إلى فرضة مصوع وأنهم قد احتلوا بعض المواقع فى ضواحى البلد وهم على عزم الزحف إلى بربر للالتقاء بجيوش الجنرال ولسلى وإنقاذ غردون ومن بالخرطوم فكان الناس بين مصدق ومكذب إذ البلد تابعة لمصر وكان الخديوى ورجاله لايعلمون من أمر هذه العساكر ونزولها على مصوع شيئاً إلا بقدر ما تعلمه العامة وأصحاب صحف الأخبار أو كانوا يعلمون بحقيقة خبرها ولكنهم كانوا يتجاهلون كيلاً يوقظوا الفتنة الراقدة، وكان مقدم سياسة الانجليز لما عوّل على إرسال جيش ولسلى إلى الخرطوم عن طريق

أسوان استمال السنيور كرسبي وزير إيطاليا يومئذ إلى أن يمد جيش ولسلي بمدد من العساكر الإيطالية يسيرون إلى فرضة مصوع ومنها إلى بربر فيلتقون بالجيش ويتضافرون جميعاً على غزو ما فتحه الخارجي من البلاد، وللجماعة الإيطاليين في مقابلة ذلك فرضة مصوع وما والاها من بلاد الصومال وما جزاء الإحسان إلا الإحسان ففرح كرسبي بذلك وأرسل أولئك العسكر على السفن والشواني الكبار فأنزلوهم في بعض المواقع القريبة من مصوع وضربوا خيامهم ولبثوا ينتظرون الأخبار عن جيش ولسلي وهم على أهبة الزحف على بربر وجعل كبارهم يتقربون في تلك الأيام من مشايخ القبائل الضاربة في تلك الأطراف ويتزلفون اليهم بالهدايا والتحف فالتف حولهم بعض أولئك القوم وكشفوا لهم عن عورات الصوماليين وهونوا عليهم غزوهم والغلبة عليهم وإدخال بلادهم في طاعة سلطنتهم. قيل: فعاقدوهم وعاهدوهم على ذلك وكتموا السر إلى حين حتى كان من أمرهم وما وقع لهم ما سيتلى عليك في محله إن شاء الله تعالى.

وسار جيش ولسلي والأخبار عن الخرطوم ومن فيها تأتيه مبتورة مقتضبة لا تشفي عليلاً ولا تروي غليلاً وعيون الخارجي من أمامهم ومن خلفهم وعن يمينهم وعن شمالهم تنقل أخبارهم وهم لايشعرون، وكان أصحاب صحف الأخبار الإنجليزية يظنون إلى هذا الحين أن غردون حي يرزق، وبعضهم يقول: إنه يقاتل دعاة الخارجي على بربر فإذا تقدم جيش ولسلي إلى ما وراء دنقلة تمكن غردون من مبارحة الخرطوم والإتيان إلى دنقلة بطريق بربر دون أن يلقى معارضة من أصحاب الفتنة إذ هم يخلدون إلى السكينة بمجرد نزول جيش ولسلي على دنقلة، وكان غيرهم يقول غير ذلك والعلم بمقتل غردون عندهم غير مقطوع به، وكان الخديوي قد رسم الى سائر المديرين والمشايخ والأعيان في جميع البلاد السودانية بأن يكونوا عوناً للجيش وفي طاعة الجنرال ولسلي وشدد عليهم في ذلك تشديداً كأنهم باقون على طاعة وولاء حكومته والأمر يومئذ على غير ذلك، وكثر توارد سفن النقل للجيش على أشكال مختلفة يديرها جماعة من رجال البحر من أهل كندا وتقاطر مرور الشواني الكبار صعداً وهبوطا إلى أسوان وكبرت الحركة وعمرت أسوان بالبيوت والأشوان والحوانيت لارباب التجارة والصناعة وأصحاب الوظائف ومقدمي العسكر وغيرهم، وقدم بعض السعاة في هذا الحين بكتب من غردون كان قد أرسلها قبل سقوط الخرطوم، وكلها استجارة واستغاثة وإعلان بأن لموم الخارجي أصبحت

أدنى من رمية قوس من الخرطوم ثم يقول فى بعضها: إنى لا أرى الخلاص إلا إذا جاءنا عسكر من العساكر السلطانية العثمانية وإلا فالبلد ساقط لامحالة، ويقول أيضاً: إنه إذا جاءه الزبير باشا فى نفر من أصحابه كانت النجاة على يده أيضاً وكأنه كان يخشى اشتداد الفتنة بوصول جيش ولسلى أو كأنه قد أشفق على قومه من الوقوع فى مخالب ذلك العدو الأسود، وشاع خبر تلك الكتب بين الناس وتحدثوا بها كثيراً وكلهم مجمع على سقوط الخرطوم وموت غردون وتعذر بلوغ جيش ولسلى الخرطوم فى الأجل المضروب لسرعة هبوط النيل وانحسار الماء وارتكاز أكثر شوانى النقل فى معبر الشلالات حتى تعذر المسير فيها. ووصل ولسلى مع أركان حربه إلى دنقله فلاقاه مديرها وأجله إجلالاً عظيماً فألبسه ولسلى نيشاناً إنجليزيا وأراه مرسوم الخديوى إلى سائر المديرين وأهل البلاد بمعاونة الجيش والطاعة إلى مقدمه فجمع المدير إلى ديوانه سائر المأمورين والجند والأعيان والتجار وتلا عليهم المرسوم وهو :

من خديوى مصر وجميع ملحقاتها - إلى حضرات المديريين والعلماء والقضاة والتجار ومشايخ القبائل وسائر أهالى السودان رعاياه إليكم سلامنا الخصوصى وبعد، فإن الجنرال ولسلى ذاهب إلى السودان بوظيفة قائد عام للجيوش الإنجليزية بمقتضى مأمورية خصوصية ذات أهمية سامية وقد صدرت له من لدنا ولدن الحكومة البريطانية التعليمات اللازمة لأجل قضاء الغرض المطلوب على أحسن حال ولذا فإنا نوصيكم جميعاً بأن تكونوا خاضعين له مطيعين لأوامره مجيبين لمطالبه كى تفوزوا برضانا ويتمكن من إتمام المأمورية المنوطة به بأقل ما تقتضى من الزمن والسلام عليكم أجمعين اهـ.

قال الراوى: فعند سماعهم هذا المكتوب سكتوا ولم يعجبهم ما فيه، ورسم ولسلى بجعل دنقله مركز حركة الحملة ونقطة مخازن المؤن والكراع، وجعل بلدة الدبة أول النقط الاستحكامية ورتب جماعة من المرابطين فى مروى لحفظ المواصلات، وقرر القاعدة بينه وبين أركان حربه على أنهم يسيرون بعد ذلك قاصدين بربر فإذا تمكنوا من فتحها زحفوا إلى شندى فإذا قابلهم المهدى بأصحابه جعلوا تلك النقطة حداً فاصلاً وإلا زحفوا إلى الخرطوم وأنقذوها، واشتدت الحركة لذلك فى دنقله وكثر توارد العسكر وانتشرت خيامهم حول البلد فلم تكن إلا أيام حتى تفشت بينهم الأمراض المعدية والحميات الخبيثة والجدرى فعظم قلق الجنرال

ولسلى وضاعت تخميناته هباء منثوراً. قال صاحب جريدة الغازيت الإنجليزية : يا الله إن المصاعب الحائلة دون تقدم جيش الجنرال ولسلى إلى السودان ظهرت أكثر جداً مما خمنها ولسلى وقد تعود المرء أنه إذا صحت له نبوءة مرة حاول التكهن أخرى، ولكن لعمرى ما كل مرة تسلم الجرة ولا كل مرة يصح التكهن، فقد قال هذا المقدم الكبير قبل مبارحة الآل والوطن: إن جيشه يجتمع فى دنقله سابع عشر شهر نوفمبر وأنه سيجلس مع غردون على خوان الطعام خامس عشرى ديسمبر من السنة فها قد مضى الأجل الأول ولم يجتمع من عساكره فى دنقله إلا العدد القليل، فإذا كانت نيته أن لا يتقدم إلى عطمور أبى حمد قبل احتشاد جمع عساكره فى دنقله فعسير عليه إذا المسير قبل أخريات يناير افتتاح سنة خمس وتسعين وثمانمائة وألف أما إذا بلغت به الجسارة مبلغها ونهض إلى الخروج مع فرقة الهجانة المتسلحة على خطر معاناة الفشل فيتعذر عليه التقدم قبل منتصف شهر يناير المذكور ـ قال: فقل لى بحقك إذا أين هذا التاريخ وتاريخ وصوله إلى الخرطوم من الأجل الذى ضربه ليأكل فيه مع غردون على خوان واحد إن فى ذلك العجب العجاب اهـ.

وشاع الخبر يومئذ بأن ولسلى سير رسله إلى الخارجى فى طلب تقرير قاعدة للصلح والكف عن القتال فلم يفلحوا فاستنتج الناس من ذلك حرج موقف جيوشه وتحققوا خبر تفشى الأمراض الخبيثة فيهم وإشفاق ولسلى عليهم، وقد جاءت كتبه إلى القاهرة بتعجيل إرسال المؤن والأدواء والأكسية وسائر احتياجات العسكر فعجلوا بإرسالها فى الليل والنهار وظهرت الحركة تحت قلعة الجبل وفى بولاق الدكرور وبالغوا فى التعجيل بتسيير قطورات السكة الحديد تباعاً حتى كان بعيد ذلك ما سيتلى عليك فى محله.

وصـــل
فى حركة بعد أخرى

بينما كانت الخواطر فى حركة واضطراب دائمين بسبب الفتنة المهدوية وتباين الأخبار عمن هم فى الخرطوم من الجند والعسكر والأهل والمال والولد ظهرت حركة أخرى، إذ جاء الخبر من زعيم سياسة الإنجليز بمقدم عظيم من عظمائهم إلى القاهرة اسمه اللورد نورثبروك ومأموريته هى أن يفحص فيما عليه البلاد من خير أو شر وما تحتاجه دواوين الحكومة من القلب والإبدال كان الذى أتاه دوفرين رسولهم من قبل

لم يكن شيئاً مذكوراً فلم تكن إلا أيام حتى وفد الرجل ونزل ضيفاً على السير بارنج ثم جعل يجتمع برجال الدولة وأصحاب الحل والعقد وأرباب المناصب العالية فيحادثهم فى أمر المكوس والضرائب وأمن البلاد ونظام عمل وعمال الدواوين وغير ذلك، ثم سار عن القاهرة فطاف الإقليمين القبلى والبحرى واجتمع بكثير من أعيان البلاد ومشايخها وكلمهم فى الأمر كذلك، ثم قفل راجعا إلى القاهرة وكان قبل مبارحته عاصمة الإنجليز قد أرسل إلى الهند فى طلب قاض من قضاتها وأصحاب الشورى فيها فجاء إلى القاهرة رجل طويل القامة أسمر اللون طويل اللحية أسودها تظهر على وجهه علامات السذاجة اسمه سميع الله خان ومعه صبى فى الرابعة عشرة من العمر ،قالوا: والرجل صديق اللورد نورثبروك جاء به ليطلع على قانون البلاد المعمول به فى محاكمها الجديدة ويعمل فكره فى تنقيحه وفى التوفيق بين الشريعة المدنية والشريعة الحنيفية وتوحيد المحاكم المصرية وتشريع شىء جديد يناسب روح العصر فأدهش الناس حضوره إذ البلاد بلاد علم وعلماء الشرع فيها ليسوا بقليلين فلبث سميع الله هذا بالقاهرة أياما زار فيها سائر دواوين الحكومة ورجال الدولة وقاضى القضاة بمصر وأرباب المحاكم الأهلية فلم يظهر للناس من أمره شئ، وقد كنت يومئذ رئيسًا للنيابة العمومية بمحكمة المنصورة الأهلية فجاءنا الأمر من الوزير نوبار باشا بلقاء الرجل فلاقيناه على الرحب والسعة وجلس يتكلم بالعربية مع غاية البطء والتكلف وعلامات الإعجاب والخيلاء بادية على وجهه فقال: أنتكم تنظرون المقدمات يريد هل أنتم تنظرون فى قضايا الأحوال الشخصية وكان يتكلم وهو يقلب صفحات نسخة من القانون الأهلى فقلت: إن للمقدمات التى يعنيها الأستاذ محاكم أخرى وقضاه آخرين، فقال: وكم من المقدمات عندكم اليوم : فقلت لا شىء منها عندنا وكما قلت لك هى من خصائص المحاكم الشرعية فسكت لحظة ثم قال : أنتكم تحكمون بشريعة سيدنا محمد ﷺ : فقلت قد شغلنا عن الحكم بها شاغل من هذا الذى بيدك وأشرت إلى نسخة القانون فدمدم بالهندية، وقال: أنتكم تجلسون وين فأخذت بيده وأريته قاعة الجلسة وسائر غرف المحكمة فكان ينظر إليها وهو باهت جامد، ثم رحل عنا إلى القاهرة، قيل: واجتمع بشيخ الأزهر وبعض كبار العلماء وحادثهم فى شىء من شريعة بلاده وما هو عليه القضاء فى مدن وقرى الهند الإنجليزية، قالوا: وبالغ كثيرا فى مدح الأمة الإنجليزية وفى رجال دولتها، ثم رحل عن القاهرة إلى عاصمة الإنجليز وغاب عنا كما غابت عن الناس

نتائج مأموريته، وكان قد حضر قبل سميع الله هذا آخر من الإنجليز اسمه كليفور دليود وهذا قد كانت مهمته تغيير نظامات الحكومة واستبدال عاداتها المعمول بها من القدم بأخرى تناسب روح العصر الجديد وتنطبق على المألوف من عادات البلاد والشريعة الإنجليزية وتنفيذ ما أسسه اللورد دوفرين من اللوائح وقننه من القوانين، فكان الرجل من شر الرجال متسرعاً مخاطرا فخوراً مختالاً مستخفا بعظائم الأمور صلفا عنيدا مكابراً فعاث وعبث وجعل يغير من شرائع البلاد ويقلب من عاداتها ويسن البدع ويبدع السنن السيئة ويكاتب مشايخ البلاد والقرى ويزين لهم الخروج عن حدودهم التى ألفوها وينظر إلى سائر المأمورين وأصحاب الوظائف العالية بعين السخط والقلى ويمدّ يده إلى كل عمل ويقع على المديرين والمأمورين باللائمة والتقريع لأقل سبب واتخذ له مقرا بديوان الداخلية وصار يسمى نفسه فى كل يوم باسم جديد فتارة يقول: مأمور الإصلاح، وأخرى يقول: مستشار الإصلاح وأنه مدير النظام، وأخرى منشئ التحسينات المستحدثة وغير ذلك من الأسماء والعنوانات المتشابهة وهو كالهر الذى عثر عليه الأعرابى وقد سماه له الناس بأسماء كثيرة فأكبر ثمنه فلما وجده على غير ذلك ضرب به الأرض، وقال :لا بارك الله فيك ما أكثر أسماءك وأقل ثمنك، وظل كليفور دليود هذا على ما وصفنا من التحرش بسائر أمور الحكومة مع بسط يده على كل شيء حتى ضج الناس وعجوا وصاح المأمورون والحكام صيحة الضجر والملل، وقد أعيا الوزير نوبار باشا أمره وعجز عن ردّه وإيقافه عند حده، فأرسل كتبه إلى زعيم السياسة الإنجليزية يشكو من فعال الرجل ويحذر أصحاب الحل والعقد فى دار السلطنة الإنجليزية من شر العاقبة ويلقى كل تبعة على الرجل، فجاء الأمر بخلعه فانخلع وسار إلى بلاده متنكرا وقد ترك من آثاره إبطال دواوين أصحاب الشحنة وتقليل اختصاصات بعض الدواوين الأخرى وتقليل سلطة أعضاء مجلس شورى البلاد وعدم تقييد الهيئة الحاكمة بآرائهم والاستغناء عن العدد العديد من أصحاب الوظائف وقفل أبواب الرزق فى وجوه المرتزقة من أبناء البلاد.

وقدم إلى القاهرة فى هذه الفترة شارم سايد عامل الإنجليز على شرق السودان وسواحل البحر الأحمر يسأل الوزير نوبار باشا والسير بارنج استبقاء شرقى السودانى وعدم تركه لأصحاب الثورة قال : حتى يتمكن جيش الجنرال ولسلى من الغلبة على أصحاب المهدى، واستخلاص الخرطوم ومن فيها وكان قد جاءه الأمر بالتخلى عن

بعضها لدعاة المهدى وبعضها إلى نجاشى الحبشة بما فيها من متاع وكراع فلم ير بدا من الشخوص إلى مصر ومكالمة الوزير فى ذلك إشفاقا، فعقد الوزير مجلسه فى دار السير بارنج وحضره عبدالقادر باشا ومصطفى فهمى باشا والجنرال استيفنصون قائد الجيوش الإنجليزية بديار مصر والمستشار المالى وشارم سايد وتكلموا فى الأمر طويلا وحرروا بما وقع عليه الاتفاق محضرا وأرسلوه إلى دار السلطنة الإنجليزية وانفض مجلسهم يومئذ على ذلك، وأرسل الوزير فى ذلك اليوم أيضا إلى الجنرال ولسلى قائد الحملة يسأله عما يكون قد أخبره به جواسيسه من أبناء الخرطوم ومن فيها فلم يحصل إلا على بعض كليمات كلها أحاجى ومعميات لا تشفى غليلا، على حين أن الأخبار مترادفة على بعض ذوى المقامات بالقاهرة ومصر بوقوع النفور والوحشة بين الجنرال ولسلى ومدير دنقلة وإعراض ولسلى عن المدير إعراضا تاما، قالوا: وذلك لا متناع المدير من المسيرة بمن عنده من عساكره فى طليعة الحملة إلى بربر وتكلم أصحاب صحف الأخبار بعزم ولسلى على تحويل سير الحملة من طريق النيل إلى سواكن وكادت تتحقق الإشاعة بعبور بعض سفن النقل والشوانى الكبار ترعة السويس إلى سواكن، وثبت الخبر القائل بأن دعاة المهدى ومن التف حولهم قد تحصنوا بمعبر بربر وإن طلائعهم نازلة فى جهات مروى أو ما يتقدمها، وإنه لما علم ولسلى بذلك أخذ الحيطة ورسم بعدم تجاوز عسكره الدبة فتربصوا بها وهم على قدم الأهبة والاستعداد لصد العدوّ عنهم وأرسل كتشنر بعض الجواسيس من الدبة إلى الخرطوم عساهم يأتون ببعض الشئ من أنبائها فلم يتمكنوا من ذلك، وجاء الأمر إلى شارم سايد عامل شرقى السودان بالشخوص إلى سواكن وإجلاء الحامية الباقية هناك وترك البلاد كافة لمن يطلبها من الحبشان وأصحاب عثمان دقنه فسار على عجل وانقطعت أخباره أياما ليست قليلة .

(مطلب)

وتوالت الطلبات على الخزينة لكثرة النفقة

- وتوالت الطلبات على الخزينة وكثرت النفقة فتعذر على أصحاب الحل والعقد رتق هذا يتأهبون للقتال فلم يكن بأسرع من أن أطلق عليهم العدوّ نارا حامية وأرسل الرمى واشتد فى ذلك شدة بالغة فقتلت نيرانه جماعة كثيرة من الإنجليز وجرحت قائدهم الكولونيل استيورت جراحا بليغة فاستلم قيادة الجيش آخر اسمه

الجنرال ولسن فأودع الجرحى والمؤن وآلات الحرب فى الزريبة وسار بمن بقى من الجيش يجتاز تلالا من الرمال على شاطئ النيل، كان المقاتلون من أصحاب المهدى متترسين خلفها ومعهم طائفة كبيرة من الفرسان فتراجع المهدويون حينئذ وتبعهم ولسن بجنوده، فلما كان ثانى يوم علم ولسن بأن البلد حصينة منيعة لا ترام وأن بها زهاء الألفين من الحامية بينهم ألف من العساكر المنظمة يرأسهم الأمير نور أنقره وعندهم ثلاثة مدافع وكثير من المؤن والذخيرة. فباتوا ليلتهم تلك وأصبحوا وقد جاءهم الفرج حيث رأوا أربع سفن حربية من سفن غردون وعليها بعض المقاتلة مقبلة ففرحوا بمقدمها فرحا لا يوصف، فلما دنت من الشاطئ نزل منها خشم الموس باشا ومن معه من العساكر وانضموا إلى جيش ولسن ولبثوا يومهم فى تأهب واستعداد وأصبحوا وقد سير ولسن ثلاثا من تلك السفن لا ستكشاف ما فى شندى فعادوا وأخبروا بأن حامية البلد قليلة وليس عندها من الأسلحة وآلات الحرب سوى مدفع واحد فعدل ولسن عن مقاتلتهم وأنزل جماعة من عسكره بثلاث سفن من تلك السفن وترفع بهم يريد اللحاق بالخرطوم وترك بقية عسكره فى كابوت بعد أن حصن البلد تحصينا منيعا حتى صارت لا ترام، وجاء الخبر بذلك إلى القاهرة ففرح به جماعة الإنجليز فرحا عظيما وقالوا: ها قد أصبح الجيش الإنجليزى على أبواب الخرطوم وغدا غردون فى مأمن من ذلك العدو فلم يبق على أولئك الأبطال البواسل إلا اقتسام الأسلاب والغنائم وبسط السلطة الإنجليزية على تلك القارة السوداء من أقصاها إلى أقصاها، كل هذا والعارفون بحقيقة ما أصاب غردون يسخرون ويقولون سبحان من يحيى العظام وهى رميم.

وجعل جيش ولسن يخرب القرى المجاورة لكابوت ويدكها دكا حتى لم يبق بها حجرا على حجر وقد تركها أهلها ونزحوا إلى الجبال مستصرخين الأهالى للأخذ بالثار، وكان إلى هذا الحين لم يعلم ماذا جرى على جيش آرل الذى سيره ولسلى عن طريق أبى حمد فخاف أصحاب الحل والعقد من الإنجليز الذين بالقاهرة أن يكون قد لحق به العطب فاستصرخوا نقلة أخبارهم، فجاء الخبر بوصوله إلى برتى الواقعة شمال أبى حمد وأنه لم يلق فى طريقه إلا شراذم قليلة من أصحاب المهدى فبدد شملهم وأوقع بهم، ولكنه عجز عن أخذ بربر ولن يتأتى له أخذها إلا إذا ساعده جيش ولسن الضارب عند المتمة وهذا عسير عليه الانضمام إلى جيش آرل إلا إذا تم له فتح المتمة وشندى وتبديد شمل من بهما من المقاتلة، وترفع ولسن بسفنه

ومعه الجنرال شارلس الذى كان ربان السفينة الحربية الكسندرا يوم ضرب حصون الإسكندرية وآخر اسمه الكولونيل ورتلى وخمسة من ضباط العسكر ومائة من عساكر البحر، فلما صارت سفنه على مقربة من حصون أم درمان لم تشعر إلا وقد علتها نيران مدافع العدو من كل صوب وتراسلت عليها القنابل من طوابى الخرطوم وطوابى عسكر المهدى واشتدوا عليها جميعا بالرمى، فتأمل آرال ومن معه حينئذ فرأوا أن الخرطوم وريعها قد تهدمت وأن منازل الحكومة قد تلاشت فلم يبق منها حجر على حجر فأسرعوا بالسفن فلم يتمكنوا من ذلك وقد أصابت قنابل العدوّ اثنتين من السفن فأغرقتها بما كان فيهما ونجا ولسن ومن معه وطلعوا إلى إحدى الجزر الواقعة أمام البلد وتمكنت الدفة الثالثة وكان عليها الكولونيل ورتلى من النجاة فانحدرت مسرعة إلى حيث مقدمة. وأخبر ورتلى بما جرى، فطيروا الخبر بذلك إلى ولسلى مقدم الجيش فأخذ فى الحال يأمر صاحب سياستهم على لسان البرق من دنقله إلى لندن عاصمة السلطنة الإنجليزية واختلط على ولسلى يومئذ الحال وفسدت تدابيره وانعكست آماله وقام أصحاب صحف أخبارهم وقعدوا وعلت ضوضاؤهم واشتدت جلبتهم وكلهم مجمعون على فساد سياستهم وسوء تدبيره فى إرسال جيش ولسلى وجعلوا يتكهنون بما أصاب غردون بالضعف من أهل البلد من النساء والأولاد حتى قال بعضهم: إن حامية الخرطوم صادقة فى الخدمة أمينة إذ كان غردون يقول لهم كل قليل من الأيام أنه إنما قدم لهم من قبل الخديوى وأمير المؤمنين السلطان عبدالحميد فكانت واثقة من صدق الرواية على الطاعة وحسن الولاء، فلما رأت العين قدوم العساكر الإنجليزية بأكسيتهم وقبعاتهم المحدّبة والمقعرة كذبت الرواية ومالت عن غردون وأبغضته ففتحت للعدو البلد فولجها وأعمل فيمن بها السيف ولربما أصاب غردون ما أصاب آحاد الناس وحدثنى فى هذا الحين رجل ممن فرّ ناجيا من الخرطوم، قال: كانت جميع القبائل حول الخرطوم إلى ما قبل سقوط البلد مخلصة فى طاعة الحكومة الخديوية غير هيابة ولا مصدّقة لدعواه ولا هى حاسبة له حسابا حتى تبدلت أحوال غردون واختلط عليه وساءت أعماله حيث أمر بتخريب المقام الخوجلى الواقع على قيد غلوة من الخرطوم خدام المقام وخليفته فنفرت عند ذلك جميع تلك القبائل أىّ نفور وأخذوا من ذلك اليوم يضيقون على البلد ويمنعون عنها الوارد من المأكول حتى اشتد الجوع بمن فيها من والناس فأكلوا الصمغ والجمار أياما حتى سقطت البلد وقتل غردون ذبحا ومثلوا بجثته تمثيلا شنيعا أ.هـ

وأرسل ولسلى سفينة لتأتى بالجنرال ولسن ومن معه ممن تركوا بالجزيرة بعد غرق السفينتين كما تقدم الكلام فأتوا بهم بعد العناء الشديد، وقد عثروا فى طريقهم بخمسة رجال من الفارين من البلد فأتوا بهم إلى ولسلى فأخبروه بمقتل غردون وما هم عليه وكيف مثل العدوّ برأسه تمثيلا شنيعا فى أم درمان وأكدوا ذلك بالأدلة والأيمان الغلاظ فطير ولسلى الخبر بذلك إلى صاحب سياستهم قيل: فاختلط عليه الحال واختلف مع أصحاب الحل والعقد فيما يفعلونه وفى الذى يشيرون على ولسلى بعمله وقام بينهم والقوّالون ينادون يا لثارات غردون ولبث ولسلى ينتظر الجواب وقد كان إلى ذلك الحين يظن أن قبيلة الشايفية مازالت باقية على الولاء والإخلاص للحكومة الخديوية فلما، جاءه الخبر بسقوط الخرطوم آنس من هذه القبيلة الخروج ومشايعة المهدى أيضا ومظاهرته على الإنجليز فرسم إلى سائر العساكر بالتحفظ وملازمة المعاقل والمتاريس حتى يأتيه المدد، ولكن العربان لم تتركهم بل هاجموهم عند آبار غدقول وأرسلوا عليهم الرمى بالبنادق أياما فلم ير ولسلى بدا من استمالتهم فسير إليهم رسلا يقولون: إن الإنجليز إنما هم آتون من قبل ملكتهم لبث السلام فى ربوعهم وأنه خير لهم أن يخلدوا إلى السكينة والطاعة فيكونون فى مأمن على أرواحهم وأموالهم وعيالهم وهو يكفل لهم جميعا القيام بسائر ما وعدهم به غردون، وظل على هذا الحال أياما والأخبار ترد إلى القاهرة أشكالا وألوانا حتى شاع فى خلالها أن قد وقع الاتفاق بين زعيم السياسة الإنجليزية وزعيم السياسة الإيطالية على حضور جماعة من العساكر الإيطالية النازلين عند مصوع وما والاها ليحلوا محل العساكر الإنجليزية بالقاهرة فيرحل حينئذ من بالقاهرة من الإنجليز إلى السودان لنجده إخوانهم وتأكدت الإشاعة أو كادت بظهور الحركة بين قلعة الجبل ومنازل الحرب ومنازل الجند بقصر النيل والعباسية وتسابقهم فى جر المدافع وإنزال الأثقال والأحمال وآلات الحرب من مخازن قلعة الجبل وذهاب طائفة من العسكر إلى مدينة السويس بخيلهم ومدافعهم ونزولهم بخيامهم فى ظاهر البلد أياما.

(مطلب)

تحرك نجاشى الحبشة للحرب

وزاد الأمر تخوفا وخيالا تحرك نجاشى الحبشة وتأهب عسكره لتذمره من فعال الإنجليز وخرقهم للعهد الذى عاهدوه عليه من ترك مينا مصوع وبوغس حرة له

ومفتاحا لا ملاكه لا يحتلها أحد غير عساكره ورجال دولته، فإنه لما علم بتوارد العساكر الإيطالية ونزولها حول مصوع أكبر الأمر وأعظمه وراسل المهدى ومناه بالمساعدة على قتال الإنجليز وأرسل كذلك إلى عثمان دقنه واستفزه إلى قتال الإيطاليين وجاءت صحف أخبار الإنجليز وهى ملأى بالحض على إرسال المدد إلى سواكن والا اختلط على من بها الحال وتعذر الخلاص، وكانت عيون عثمان دقنه وأرصاده على أشد ما يكون من اليقظة والانتباه، فلما شاع خبر قدوم المدد من الإنجليز إلى سواكن أخبروا به عثمان دقنه فزحف عثمان بمن معه من المقاتلة وخيم فى طمانيب فانضم إليه أكثر القبائل الضاربة فى شرقى السودان وشايعه أهالى اكجيج وغيرها واجتمعت لدية قوّة عظيمة مدججة بالسلاح وكلهم متحفزون للوثبة على القادمين من البر والبحر، وكانت إلى هذا الحين ما برحت حمله آرل السائرة عن طريق أبى حمد على قدم المسير والعدّو يتخطف ساقها ويجول على يمينها ويسارها وهى تدافع بالأمر الخفيف فلما صارت فى منتصف الطريق بين مروى وأبى حمد بأن العدوّ أمامها فى عدد كثير ثم اختفى فخاف آرل شر العاقبة وأرسل طليعة للمكاشفة فعادت الطليعة وأخبرت بما رأت فتحرز آرل وجمع جنوده وسار بهم حتى صار على مقربة من مواقع الثائرين وأحاط بهم من كل جانب فهبوا من مرابطهم كالأسود الضوارى واشتبك القتال بين الفريقين فأظهر أصحاب المهدى بسالة وإقداما غريبين واشتدوا فى الطعن والضرب شدة بالغة وأبلوا بلاء حسنا ومازالوا حتى انكشف القتال عن قتال الجنرال آرل وأربعة من مقدمى العساكر الكبار وترفع العدوّ إلى التلال الواقعة على شواطئ النيل وكان الذين يدبرون أصحاب المهدى فى هذه الموقعة ثلاثة أمراء وهم موسى: ولد أبى حجل وعلى ولد حسين وحامد ولد على وقد ماتوا جميعا فى ساحة الحرب وكان المقاتلون معهم نفرا من المناصير ونفرا من الرباطاب وجماعة من دراويش بربر ثم جعل من بقى من جيش آرل بعد لم شعثه يتابع السير إلى أبى حمد وهم على أشدّ ما يكون من الجهد والإعياء وقد تولى قيادتهم الجنرال براكنبورى بعد مقتل آرل.

(مطلب)

إرسال الأمير حسن إلى السودان
باسم مندوب فوق العادة

وبينما هم على هذه الحال إذ وردت كتب زعيم السياسة الإنجليزية إلى السير بارنج بالمكالمة مع الأمير حسن أخى الخديوى فى ذهابه إلى السودان من قبل السلطنة

الإنجليزية باسم مندوب مدنى فوق العادة بدلا من غردون الذى تحقق لهم خبر مقتله فصدع السير بارنج بالأمر وكلم الأمير في ذلك فأجابه إلى ما طلب، وقال لى شروط أشترطها: فقال السير بارنج وما هى : قال: أن ترسل معى الحكومة الخديوية خمسة آلاف مقاتل من الباشيبوزق وأن تكون لى الولاية العامة على السودان شرقا وجنوبا فأولى من أشاء من الحكام والمأمورين وأن يعطى لى التصرف المطلق فى سائر الأمور ولا يكون معى قط أحد من الإنجليز فلم تعجب صاحب سياسة الإنجليز هذه الاشتراطات، وأرسل يقول: إذا قبل الأمير الذهاب بلا شرط ولا قيد نال رضا حكومة جلالة الملكة فأذعن الأمير وأطاع ولم يبد بعد ذلك معارضة ففرح الناس وقالوا: إن أول الغيث قطر ثم ينهمل وبارح الأمير القاهرة فى نفر من الكتاب والجاويشية على الباخرة زينة البحرين إلى أسوان ومنها إلى قرطى مركز مقدمة جيش الجنرال ولسلى فلم تكن إلا أيام من وصوله حتى ظهرت الحركة فى قرطى والدبة وغدقول ودنقله وفى سوا كن وشرق السودان وبأن عزم الإنجليز على الجلاء عن تلك الأطراف أو كاد ووردت كتب صاحب السياسة الإنجليزية بذلك إلى الوزير نوبار باشا ثم لم تمض إلا أياما على ذلك حتى أرسل إلى الوزير يقول: أن اتركوا السودان إلى صاحب المهدوية واجعلوا وادى حلفا حدا بينها وبين مصر وعجلوا فى ذلك، فاختلط حينئذ على الوزير الحال وتولاه الاستغراب فجعل يكثر من التردد بين مقر الخديوى ودار الوزير محمد شريف باشا وهم يتكلمون فى الأمر وقد استعصى على الناس إدراك مغزى هذه السياسة إذ كيف يرسلون بالأمس الأمير حسن مندوبا بدلا من غردون ليحافظ على ما بقى من البلاد فى طاعة الحكومة ويسترجع ما يقدر على استرجاعه مما خرج منها واليوم يطلبون تخلى الحكومة عن سائر البلاد السودانية إلى صاحب المهدوية بغير شرط ولا عهد وإجلاء من بها من العساكر، واختلف الناس فى أسباب ذلك الجلاء العاجل فمنهم من قال: إنه مترتب على عجز جيش ولسلى عن مقاومة العدوّ وتفشى الأمراض الخبيثة بين أفراده وسوء الحال الذى بات بالحسنى ودلتهم على المكان أخذوا ما وجدوه وأكلوا وشربوا ما يعثرون عليه من طعام وشراب وخرجوا آمنين مطمئنين لاخوف عليهم وإذا رأوا من أصحاب الدار دفعا كانت الداهية الدهياء على البلد وجميع من فيه فيتفرقون فى أزقته ودروبه أو خارجا عنه ويصلون أهله نارا حامية ويفحشون فى القتل والتخريب وهتك الأعراض وكان الذى أكبر فيهم هذه القحة المتناهية ما التقطوه من البنادق والخرطوش مما تركه

العساكر المصرية إبان الثورة العرابية فى ميادين القتال بكفر الدوار والمسخوطة والتل الكبير، وقد كنت يومئذ رئيسا للنيابة العمومية بمحكمة المنصورة الأهلية فرأيت من غرائب أفاعيل أولئك الطغاة أمورا لا يكاد العقل يتصوّرها من ذلك أنهم سطوا ليلة على بلدة العزيزية «إحدى بلاد الشرقية» وكان منسرهم زهاء الأربعين لصا وهم مسلحون ببنادق رمنجتون التى التقطوها من ميادين الثورة فلما أحس بهم خفراء البلد قاموا فى وجههم وأطلقوا عليهم البنادق تباعا فقابلهم اللصوص بالمثل واشتبك القتال بين الفريقين وخرج أهل البلد بما عندهم من الأسلحة وقاتلوا اللصوص قتالا عنيفا من بعد العشاء الأخيرة حتى مطلع الفجر، وبينما النيران تتراسل بين الفريقين كان جماعة من اللصوص ينقبون جدران البيت حتى اتصلوا بمكان لرجل اسمه عبدالجليل أغا المورلى فدخلوه وأخذوا جميع ما وجدوه من حلى ومتاع وقتلوا صاحب البيت وابنته وخادما أسود وخرجوا بما أخذوه من وسط زحام أهل البلد وهم على أشدّ ما يكون من القحة والجراءة وقد أحصينا ما أطلقوه من الخرطوش فى تلك الليلة فكان زهاء السبعمائة خرطوشة واهتمت الهيئة الحاكمة بأمر أولئك الأشقياء اهتماما عظيما فرتبت لمحاكمتهم محاكم فوق العادة باسم لجان تحقيق الجنايات وخولّت لها شيئا فوق الحقوق القانونية فجعلت من يومها تقبض على كل ذى شبهة وكل شقى وتودعه الحبس ثم تتحقق من جنايته وتحكم عليه بالعقوبات الشديدة بين قتل وأشغال شاقة ومؤبدة وسجن مؤبد وغير ذلك من صارم العقوبات فامتلأت الحبوس بعديد أولئك الأشقياء فى الأقاليم البحرية والقبلية ورسم الخديوى أيضا بجمع ما تركه أصحاب الثورة العرابية فى ميادين القتال من البنادق وأدوات الحرب وبكبس دور أهالى كافة القرى والبلاد وإخراج ما بها من ذلك ومعاقبة من يوجد عنده شيء منها بأشد العقوبات فأحصينا ما جمعوه يومئذ من قرى الدقهلية والشرقية وبعض البلدان الأخرى فكان زهاء عشرة آلاف بندقية ومائة ألف من الخرطوش فخاف عند ذلك الأشقياء وانكمشوا وبطل سطو العصابات واطمأنت قلوب الناس قليلا وأمنت الطرق وبات أصحاب الزرع فى مزارعهم بعد أن كانوا لا يلتفتون إليها إذا قربت الشمس إلى الغروب، وسارت تلك اللجان فى عملها سيرا حثيثا فلم تخل من الانتقاد والتعييب ولم تتنزه أحكامها عن الخطأ بأخذ البرئ بذنب المجرم وظلت على هذه الحال عامين وبضعة أشهر حتى أمر الخديوى بحلها فانحلت وعاد النظر فى الجرائم كلها إلى المحاكم الأهلية كما كانت عليه من قبل والحكم لله وحده من قبل ومن بعد.

وصـــــل
(فى آمال وفرض احتمال)

إلى هذا الحين كانت قد تبدلت وزارة غلادستـون شيخ الأحرار وزعيم السياسة الإنجليزية الـذى فعل بالسودان مـا فعل بوزارة المحـافظين القائم على رأسـها اللورد سلسبـورى وأصبح هذا اللورد زعيم السيـاسة والقابض على دفة الرئاسـة فلما علم المصريون بهذا التغيير ترامت ظنونهم إلى أبعد المرامى وتعلقت آمالهم بأعصى المرامى وجعلوا يفرضون الاحتـمالات ويتساءلون فيما بينهم عمـا عسى أن يكون من سياسة ذلك الزعـيم فلم تكن إلا أيام حتى وردت كـتبـه على قائد جـيوشهم بمصـر بلزوم التخلى عن سائر بلاد الســودان وتركها شرقا وجنوبا إلى خليفـة الخارجى وغيره ممن يشاء احتـلالها وعدم الخروج عمـا رسم به الوزير غلادستون، فلمـا كان السابع من رمضـان من السنة أى سنة ثلاث وثلثـمائة وألف هجـرية اجتمع الوزير نـوبار باشا وسائر الوزراء والمشـير مختار باشـا مبعوث السلطـان والسير ولف مبعـوث الإنجليز والسيـر بارنج والجنرال استـيفنصون قـائد الجيوش الإنجليـزية بمصر وكـبار العسـاكر المصرية والكولونيل كـروف أحد مقدمى العسـاكر الإنجليزية وبعض كبار عـساكرهم أيضا، فلما انتظم عـقد اجتماعهم أبرز الجنرال اسـتيفنصون ورقة وقرأ ما فـيها علنا وإذا هى مرسوم زعيم سياستهم الذى كـانت ترجى رحمته بأهل السودان يقول فيه: إن حكومة جلالة ملكة الإنجليز تطلب من أصـحاب الحل بديار مصر ـ أولا: إخلاء وادى حلفا التى تبقى مستقرا لطائفة من العساكر المصرية فقط رباطا ـ ثانيا: استرجاع سائر الجـيوش الإنجليزية من أسـوان وتحديد مواضع استـقرارهم فى مدينتى أسـيوط والقاهرة ـ ثالثا: إمداد القبـائل المصافية بما يحتاجونه من المال والذخيـرة ليتيسر لهم مقاتلة العدوّ فى وادى حلفا أ.هـ

فمـا أتم الجنرال قراءة ذلك حـتى أخذ العجـب من جماعـة المصريين مـأخذه وعرتهم الدهشة وسكتـوا لحظة ثم جعلوا يناقشون جماعة الإنجلـيز ويراجعونهم فى الأمر فاشتـد الأخذ والرد بين الفريقين واختلفوا وذهب كل إلى مذهب فـقام حينئذ الوزير نوبار باشا وقرأ على مسمعهم نبأ ورد إليه من يوسف شهدى باشا الذى كانوا بعثوا به إلـى وادى حلفا بعد رجوع الأمـيـر حسن ليسهل الجـلاء على النازحين من تلك الأطراف ويكلم دعـاة المهـدى فى أمـر الصلح والتـعاهـد معـهم على الهـدو

والسكون يقول فيه: إنه قد وصل إلى وادى حلفا خلق كثير من الموظفين المصريين القدماء فى الخرطوم وأخبروا بأن الفوضى ضاربة فى تلك البلد بين الأهالى والأمراء والرؤساء وأن الشقاق مستحكم بين عبد الله التعايشى خليفة المهدى وأبى الخير أمير بربر وأن القبائل تتأهب للقتال وأن لا صحة لخبر تحفز العصاة للوثوب على التخوم فما أتم الوزير مقالته حتى وقع الهرج بينهم وعلت الضوضاء وكبرت حجة المصريين واشتد ظهر الوزير بهم فتكلم فى الأمر طويلا ولكنه رأى من جماعة الإنجليز غلظة فى الرد وجفاء فى القول واشتد السير ولف فى الكلام مع المشير مختار باشا ثم انفض اجتماعهم على غير طائل وهم الكولونيل كروف بالرحيل لتبليغ خبر ما جرى إلى صاحب سياستهم، وأعقب ذلك ورود الخبر من يوسف شهدى باشا بعجزه عن العمل وبعدم إمكان استتباب الأمن على التخوم إلا إذا استرجعت دنقله وأخذت من دعاة المهدى، وقد هوّن على أولى الأمر بلوغ الغاية بنفر من العساكر المصرية وبشئ قليل من النفقة فلم يقو المشير مختار باشا على إقناع السير ولف بذلك ولم يتمكن الوزير نوبار من استمالة السير بارنج إلى رأيه، ورحل السير بارنج عن مصر إلى دار السلطنة الإنجليزية فلحق به الوزير ولم يلقيا عصا الترحال حتى جاء الخبر بنجاح الوزير فى استرجاع الصلات التجارية بين مصر والسودان والتصريح للقوافل بالخروج إلى الدروب ففرح الناس بذلك فرحا عظيما وتأهب أصحاب التجارة لذلك وبعثوا البعوث إلى أسيوط وحلفا وأسوان ليمهدوا لهم الطرق ويتفقوا مع المكارية وأصحاب الأبل وراجت أصناف التجارة السودانية أو كادت رغما عن الأخبار المتواترة بوقوف الدراويش والدعاة فى جميع الدروب والمسالك وشنهم الغارة على الحدود، وكان الناس يقولون كما أقول إن إعادة هذه الصلات ينجم عنها فائدتين عظيمتين أولهما: تدانى الخواطر فى السودان من جانب الصلح والسلام. والثانية: نهوض التجارة من حضيض الكساد إلى أوج الرواج، وكان المشير مختار باشا مندوب الباب العالى يذهب أيضا إلى هذا المذهب ويكثر من إرسال الكتب إلى الباب العالى والمابين الهمايونى فى ذلك، ويقول: إنها مفتاح مغالق السلام والطمأنينة وخلود العدو إلى السكينة وظل الحال هكذا أياما حتى جاء الخبر ثانية بعدم نجاح الوزير فى رسالته وامتناع زعيم السياسة الإنجليزية من استرجاع دنقله ومن إعادة الصلات التجارية بين مصر والسودان فعاد الوزير وعاد كذلك السير بارنج وكتب يوسف شهدى متتابعة إلى الخديوى والوزير نوبار باشا بالحض على فتح دنقله وانتهاز هذه الفرصة التى

أنشب فيها الجـوع أظافره بأصحاب الفتنة من أدنى السودان إلى أقصاه وكبار عسكر الإنجليز بأسوان يشكون من فعل الأمـراض الخبيثة بعساكـرهم وامتلاء بيوت المرضى منهم فتـرفع الجنرال استيـفنصون قائد الجيـوش الإنجليزية إلى وادى حلفا وأقـام بها رباطا من الإنجليز والمصـريين ورتب العيون والجواسيس من الجند تخـلصا من تغرير الجواسيس من أهل البلد وأقام كذلك بأسوان رباطا ورسم بتبعيد الروم بائعى الخمور والمسكرات فأقصوهم إلى أسوان رحمة بالعـساكر الإنجليزية الذين ضاقت بهم بيوت المرضى بسبب إدمانهم على السكر وأراقوا خمـورهم فى النيل وفى الطرقات فضجوا وعجوا وانحدروا إلى القاهرة صفر اليدين وجعـلوا يرجفون ويشيعون الأخبار المقلقة عن الجنود الإنجليزية والناس لا ينكرون عليهم شيئا مما يقولون لما تولد فى صدورهم من البغض لسائر المحتلين على اختلاف طبقاتهم.

(مطلب)

وإلى هذا الحين لم تقف رحى المخابرات مع الباب العالي

وإلى هذا الحـين لم تكن لتـقف رحى المخـابرات بين الباب الـعالى وصـاحب سياسة الإنجليز ولم تنكف الرسل عن التـردد بين الفريقين وهم بين أخذ وردّ وكتب الغازى مـختـار باشا تترادف على المابيـن الهمايونى وكلهـا ملأى بأوجـه الإصلاح وأسباب الخير للبلاد فكان صـاحب السياسة الإنجليزية يطاول فى ذلك ويحاول وفى كلامه شئ من الجفاء والغلظة، وكان إذ جاءت جـواسيس الحدود بخبر تجوّل نفر من السود عند التخوم فى طلب الماء أو الكلا لماشيتـهم طير الإنجليز الخبر إلى الآفاق بأن قد قامت الحرب واتسع مـيدان القتال بين دعاة المهدى والجند المرابطيـن هناك فيصيح حينئذا أصـحاب صحف أخبارهم وا حـرباه المدد المدد، وإذا تخاصم هناك اثنان من سائقى الإبل على ركـوة من الماء أو شئ من التمر قالوا: همـا من أمراء الدراويش وقد أتيا يسـترقان السـمع ويسـتكشفان مرابط الجند فيـصيح حينئذ أصـحاب صحف أخبارهم وا كـرباه النجدة النجدة فإذا أغضى البـاب العالى وخفض المابين الجناح أو أظهر شيئـا من المجاملة انكفوا، وقالوا: إن الحدود آمنة مطمئنـة لا خوف عليها من زعانف السود فكانت الدول كافة تنظر مع البـاب العالى إلى هذه المغامرة نظرة الحائر فلاهم يجسـرون على نبذها وإيقـاف ترهاتها عند حدّ ولاهم قادرون على إكراه هذا الأسد الرابض على الجـلاء عن البلاد وتركـها لأهلها وغـاية ما فعـله كل من زعيم

السياسة الروسية، وزعيم سياسة الفرنسيس أنهما كتاب إلى زعيم سياسة الإنجليز يقولان: إنهما لا يعترفان بصحة أى اتفاق يحصل رأسا بين الباب العالى ودولة الإنجليز فكان من وراءه ذلك أن وقفت رحى المخابرات بين الباب العالى وسفير الإنجليز بدار السلطنة العثمانية وبارح ولف رسولهم القاهرة وانكشف شيء مما خفى من تلك المخابرات وهو اعتراف السلطنة الإنجليزية بسيادة السلطان عبدالحميد خان على ديار مصر وتكفل جماعة الإنجليز بتأييد الراحة والطمأنينة فى داخلية البلاد ودفع كل عدوّ خارجى بحيث إن خزينة البلاد هى التى تقوم بالنفقة على ذلك فى كل عام، ثم جلاء الجيوش الإنجليزية عندما يصح الجلاء بامتناع الأسباب الحائلة دونه فإذا تم الجلاء لزم زيادة عدد العساكر المصرية ووجبت زيادة القوّاد بينهم من الإنجليز ويصح أن يستخدم معهم نفر من الضباط العثمانيين فإذا مضت ثلاثة شهور ولم تقم حرب على التخوم لزم جلاء العساكر الإنجليزية عنها إلى أسوان ووادى حلفا وحلت محلهم العساكر المصرية ورحلت حامية القاهرة الإنجليزية إلى مدينة الإسكندرية بحيث يبقى لجماعة الإنجليز أرجحية الرأى والإدارة فى سائر المسائل المتعلقة بالخزينة والأشغال العمومية قالوا: أما وزارة الداخلية ووزارة الحقانية فتبقيان مصريتين مطلقا مع الاعتراف بسيادة السلطنة الإنجليزية الأدبية على مصر اعترافا لا يقبل اللبس والإبهام، فلما شاع خبر ذلك قام له أصحاب الصحف المحلية وقعدوا واستصرخوا رجال المابين الهمايونى وقالوا عليكم بالتأنى فى تدبير حل هذا المشكل وإياكم والعجلة فإن الخطب جلل وخذوا برأى صاحبى سياسة الروس والفرنسيس حتى لا يكون فى عملكم ما يوجب الندم أو يدفع إلى زلة القدم، قالوا: وأنتم يا أهل البلاد « ينادون المصريين» عليكم بملازمة الهدوء والسكينة وخفض جناح الطاعة لأولى الأمر عسى أن تعترف جماعة الإنجليز بذلك ولا تنكره فينجلون عن البلاد أو يعينون ساعة الجلاء.

(مطلب)

العزم على إنقاذ أمين باشا من خط الاستواء

فلم تكن إلا أياما بعيد هذه الصيحة من أتت كتب زعيم السياسة الإنجليزية إلى الوزير بعزمه على إرسال حملة خصوصية إلى خط الاستواء بقيادة الرحالة استانلى لإنقاذ أمين باشا مدير خط الاستواء على عهد غردون وإنقاذ من معه من العساكر

والمرابطين فى تلك الأطراف فلم يعجب الوزير هذا الخبر وأكبره لما فيه من المغامز والمقاصد الخفية، قلت: وأمين باشا هذا رجل ألمانى الأصل كان طبيبا مع غردون على عهد الخديوى إسماعيل فولاه غردون يومئذ الوظائف العالية حينا ثم استعمله على عمالة خط الاستواء فبدل اسمه من الألمانية إلى العربية وديانته من النصرانية إلى الإسلامية وسار فى تلك الأرجاء سيرة الملوك والسلاطين وتقرب من مشايخ وزعماء القبائل وتمكن من المنصب أىّ تمكن فلما قامت الفتنة المهدوية وخرجت سائر الأصقاع السودانية من قبضة الحكومة المصرية بقى أمين باشا هذا متربعا فى دست منصبه لا يزاحمه مزاحم ولا يحاربه متاخم فتاقت نفسه حينئذ إلى الاستقلال بملك تلك الأطراف واستمال إليه زعماءها وتحبب لعظمائها وادّخر المؤن وأعد المعدات ليوم الكريهة - وعلم أصحاب الشركة الأفريقية الإنجليزية بخبر ما عنده من العاج وريش النعام وتحقق أهل الحل والعقد فى السلطنة الإنجليزية مما هو عليه من عزة السلطان ونفوذ الكلمة وأيقنوا أنه سيكون عقبة كؤودا فى طريق ملك مملكتهم الجديدة التى ينوون بسط يدهم عليها حتى يدخل فى حوزتهم السودان من أدناه إلى أقصاه وتتبع ذلك الأقطار المصرية إلى الإسكندرية فأوعزوا هم وأصحاب تلك الشركة إلى صحف أخبارهم فأقاموا حينئذ صيحة الأسف وضجوا ضجيج التوجع على مصاب أمين باشا وجعلوا ينادون وا غوثاه أغيثوا يا أهل المروءة سجين خط الاستواء ارحموا يا أهل الرحمة والحنان من معه من الرجال والأطفال والنساء وأمين باشا فى إبان هذه ضجة قرير العين جذل بما أتاحته له الأيام من السكينة والاطمئنان وكان فى حوزته تسعة مواقع حصينة قائمة على شاطئ النيل ومعه من الجنود نيف وألفا مقاتل مدججين بالسلاح وعشرة من المصريين بوظيفة مقدمى العساكر وخمسة عشر من السود ومعه عشرون من الأقباط أصحاب الوظائف الديوانية وكثير من النساء والأطفال والخدم والأتباع وكلهم فى صحة وعافية وظل أصحاب تلك الصحف على هذه الحال من النداء والاستغاثة أياما حتى صدّق الناس أو كادوا يصدّقون أن خلاص أمين باشا والإتيان به من تلك المجاهل البعيدة عمل من أجل الأعمال المشكورة التى تفردت بها أمة الإنجليز، ولم تمض بعيد ذلك إلا أيام حتى جاء الطلب من صاحب سياستهم إلى الوزير بتقدير النفقة لإرسال حملة لإنقاذ أمين باشا هذا ومن معه والإتيان بهم إلى القاهرة فراجع الوزير السير بارنج فى ذلك فلم يفلح واشتد السير بارنج فى الطلب فتقرر على الخزينة القيام بنفقة الحملة وقدرها اثنا عشر ألف ذهبا

وسار استانلى رسولهم لإنقاذ أمين باشا بحملته عن طريق الزنجبار فلقى فى طريقه بعض المقاومة من جماعات السود مما عاقه عن السير أياما ومازال حتى بلغ خط الاستواء والتقى بأمين باشا ولبثا يتجادلان أياما إذ لم يكن أمين باشا ليرضى بترك مقره ولا التسليم فى سلطانه فجعل استانلى يهدده تارة ويمنيه بالأمانى الكثيرة أخرى حتى تمكن من إحضاره مع بعض نسائه وأولاده ونفر من المصريين إلى الزنجبار فلقيه قنصل الألمان وتحادثا فيما هم فيه هناك، فحبب إليه الرجوع إلى مقره والعمل تحت ظل الراية الألمانية وعدم الالتفات إلى شىء مما يقوله استانلى، قيل: ففرح أمين بذلك وتقوّت عزيمته وامتنع من الرحيل عن الزنجبار وصمم على الرجوع إلى واد لاى ووافقه على ذلك نفر ممن جاء معه من المهاجرين ووردت الأخبار بذلك إلى القاهرة وتحدث الناس بها كثيرا وكبرت الوحشة بين أمين واستانلى، قيل: وتلاكما ثم تماسكا بالأطواق وانحدر استانلى إلى السويس يريد القاهرة على غير طائل فوصلها فأولم له الخديوى وهنأه رجال الدولة بسلامة العودة فلم تكن إلا أيام حتى برح الخفاء وظهر للعالمين ما خفى من سر بعثة استانلى وداعى إنقاذ أمين باشا إذ قام أصحاب صحف الألمان يرمون استانلى بالخديعة والمكر ويسمون السلطنة الإنجليزية بالخيانة والغدر، ويقولون: إنها أخلاط من أصحاب المتاجر فى ريش النعام وسن الفيل ومزيج من المرابين والسوقة ثم جعلوا يتهددونها بالحرب والقتال فى تلك القارة السوداء إن لم تقلع عن عدائها لدولة الألمان ومعاكستها فى مستعمرتها الأفريقية أو إن هى عملت عملا يكون من ورائه الإضرار بأمين باشا فردّ على ذلك أصحاب صحف الإنجليز ردّا جافيا واستطالوا على دولة الألمان بهذر الكلام وهددوا أمين باشا بالخيبة وسوء المصير إن هو عاد إلى واد لاى ليؤيد فيها السلطنة الألمانية، وقالوا: سوف يرى «يعنون أمين باشا» من الشدائد ما ليس له فى حسبان بحيث لا يستغرب عجزه عن الوصول إلى بحيرة نيانزة أو أوغانده فإن وصل فلابد أن يرى عند وصوله إليها العلم الإنجليزى خافقا عليها لأن الشركة التى قد سيرت استانلى لخلاصه ستسبقه إليها لتمد فيها النفوذ البريطانى وتمنع يد الألمان من التطاول إليها مهما كلفها ذلك من النفس والنفيس، وكأن استانلى قد أوجعه طعن أصحاب صحف الألمان ووخزهم لفؤاده الدامى بعد خيبته فى استرجاع أمين باشا فالتقى يوما بأحد مراسلى صحف الإنجليز الكبرى، فقال له: وهو يتنفس الصعداء قل لى بحقك ما الذى دفع بأصحابنا الألمان إلى كل هذه المهاترة والهراء ولقد كان من واقع أمرى

أننى خيرت أمـين باشا بين خصال ثلاث ليختار إحداها: إمـا البقاء فى وادى لاى تابعا للسلطنة الإنجليزية براتب سنوى قـدره ألف وخمسمائة جنيه مع مـساعدة مادية قـدرها اثنا عشـر ألف، وإمـا أن يرحل إلى جهـة أخرى من تلـك القارة ليستـقل بحكمها، وأما أن ينحدر معي إلى القـاهرة فهذا كل ما حصل مما لا يستلزم كل هذه الجلبة والتطاول على غير مسوغ فبـلغهم عنى ما سمعت منى والله يحكم بيننا، فلما بلغت أميـن باشا مقـالة استانلى هذه وأن استـانلى يتـهمه أيضـا بأنه لم يذعن إلى مبارحة واد لاى إلا بعد أن فرض له جعـلا على ذلك قدره اثنا عشر ألف ذهبا أكبر الأمر وأعظمه وكـتب إلى صديق له من أصحاب الحل والعقـد فى السلطنة الألمانية يقول: لم يبق فى وسـعى وأيم الله مراعاة السكوت والكتـمان فى حق من لم يكتم السر ولم يراع حقـوق الذمة فلقد عرض علىّ اسـتانلى رسول تلك الشركـة الطامعة قبول خصلـة من خصلتين: إما أن أترك منصبى فى خدمـة الحكومة المصرية وأدخل فى خدمة ملك البلجيك بمستعمرة الكونغو برتبة قائد مع بسط سلطتى على واد لاى وأن أطلب لنفسى ما أريده من الراتب السنوى خلاف مـبلغ الأثنى عشر ألف جنيه الذى سيتقرر كنفقة للإدارة. وأما أن أجمع له جندا من السود ليكون هو قائدهم من جانب تلك الشركة الإنجليزية لا يقل عددهم عن أربعـة آلاف ليسيروا معه« يعنى مع استـانلى» إلى الجنوب الغربى من بحـيرة فيـكتوريا نيانزا ويحـتلوا كاخـير وندو ثم يؤسسوا فيها مركزا إذا وجدوها موافـقة ويذهب استانلى فى أثناء ذلك إلى مومباسيا ليأتينى بسفيتين نقالتين لنقلى مع طائفة من جيشى لبعثة فى نواحى أوغاندا وأونبورو حتى إذا تم لنا فـتح ذلك الصعيـد كانت مركـزا لنا نزحف منه رويدا رويدا إلى واد لاى مقر حكومتى القديمة ثم أجمع بين الـبلادين وأتولى الحكم فيها باسم الشركة الأفريقـية الإنجليزية لاباسم الحكومـة المصرية ـ قال ـ وقـد ألح علىّ ذلك الإنجليزى «يعنى استانـلى» بوجوب الدخول فى خدمة تلـك الشركة وتفضيلهـا على الحكومة المصرية وكـان عافاه الله يخـاف كثـيرا من أنى أفضل البـقاء فى مقـر سلطانى على الرحيل مـعه لعلمه أنى بانفصـالى عن خدمة الحكومـة المصرية لا يمنعنى شىء من الرجوع إلى خدمة دولتى إذا دعيت إليها، ولذلك قد عقد نيته وعزم عزما ثابتا على أنه إما أن يكرهنى على قـبول خصلة من الاثنتين وإمـا أن أرضخ لامره وأبارح على الفور القـارة الأفريقيـة وإلا سلبنى جمـيع ما عندى من ذخرة ومـؤنة وآلات حرب وتركنى وشأنى لا زاد ولا سلاح فاضطررت إلى مرافقته كارها حزينا فظن أنه قد نال منى أربه وفاز بمغنمه وساعدته القـدرة على تقليم أظافر ذلك الأسد ولكن قد خابت

آماله وفسدت أحلامه وها أنا اليوم خادم للراية الألمانية فى تلك الأرجاء والله من وراء ما يعملون.

قلت: وشاع عند وصول استانلى إلى القاهرة أنه أشار على الخديوى والوزير أن يرسلا إلى سلطان الزنجبار فى طلب أمين باشا وأنه إذا حضر له عاقه ومنعه من الرجوع إلى واد لاى فلم يفحلوا جميعا فى ذلك لما ناله أمين باشا من المكانة وعزة الجانب بين الألمان وتحقق الناس حينئذ أن تلك الصيحة التى بلغت عنان السماء من جانب جماعة الإنجليز لاستنهاض أهل النخوة وأصحاب المروءة إلى فك أسر أمين باشا وإنقاذ من معه ليست من الحنان فى شىء ولا هى لوجه الله تعالى، وظهر اهتمام دولة الألمان بتلك الأرجاء وبحملة أمين باشا فبالغت فى تشييعها وأكثرت لها من المعدات وآلات الحرب وأوعزت إلى أمين باشا بأن يبسط يده على بحيرات نيانزا ومات والاها مع واد لاى، وأن لا يبقى ولا يذر وسيرت إليه جماعة من مقدمى العسكر وعظيما من قومها اسمه الماجور ويسمن قد ولته الولاية العامة على ما كان وسيكون لها من المرافق والأملاك هناك، ثم صاحت على جماعة الإنجليز بلسان أصحاب صحفها الكبرى أن ارجعوا عن طمعكم وخففوا من جشعكم فى القارة السوداء واعلموا أن يومكم ليس كأمسكم فلا ارعاد سلطتكم القديم ينفع ولا أزيادها اليوم يدفع واقصروا أيديكم من التطاول الذى هو دأبكم فعيوننا وأرصادنا ترمقكم من كل صوب وحدب وعسكرنا يحول دون بلوغ سلطتكم كل أرب لاسيما وإن كان كلمتها هناك قائمة على الإيهام والتغرير وسلطانها أفرغ من كنّ الفقير فلا عسكر لها هناك ولا كراع ولا حصون ولا قلاع فإن أحسنت العمل فلنفسها وإن أساءت فعليها والسلام، فقام لذلك جماعة الإنجليز وهموا بعمل شىء يرجون من ورائه كشف هذه الغمة فلم ينالوا مأربا واهتمت دولة الألمان من هذا الحين بتوسيع نطاق استعمارها فى قارة أفريقية بعد أن كانت تبتعد عن ذلك وتحسبه ضربا من الطمع وعمدت إلى المزيد من الفتح حصل هذا كله ورجال مصر لاهون بما عندهم من المشاغل معرضون عن الاهتمام بشئ مما وراء الحدود التى رسمها لهم صاحب السياسة الإنجليزية والناس فى دهشة مما يرون ويسمعون - وقد تفرق بعض من حضر من المهاجرين مع أمين باشا فى أزقة وحارات مصر والقاهرة يستعطون أهل البر والإحسان ويحدّثون الناس بما كانوا فيه وقد طرقوا أبواب الحكومة فى طلب ما تأخر من جماكيهم وما يستحقون من المعاش حتى وقفوا فى طريق الوزير فأهتم بأمرهم

وكشف عن بعض غمتهم وصرفوا لهم ثلث ما تأخرلهم وطالب كذلك أمين باشا الخزينة بماله من المتأخر مدة السبع سنوات التى لبثها فى أواسط أفريقيا فأجابته إلى طلبه صاغرة وأعطته ما يستحق كارهة ورتبت له معاشا شهريا يتقاضاه من الخزينة، وأشاع جماعة الإنجليز عن أمين باشا بعيد ذلك الإشاعات المختلفة والأقوال المقلقة عند قومه فيوما يقولون: إنه مريض، ويوما يقولون: إنه فقد السمع والبصر ويوما يقولون: أنه جن وآخر أنه سقط من شرفة مكانه فدق عنقه ومات، وغير ذلك من الإشاعات المتباينة حتى قدم الماجور ويسمن من الزنجبار إلى القاهرة ومعه بعض الخدم من السود والأتباع فاحتفل بمقدمه جماعة الألمان وبالغوا فى إكرامه وأدبوا له المآدب الفاخرة فوقف مرة خطيبا فى إحدى تلك المآدب وقال: أشكركم على المقابلة التى قمتم بها نحوى كلما أسعدنى الدهر بالمرور فى هذه العاصمة الزاهرة ثم إنى أخبركم بأننى قد قمت بالمأمورية التى عهدا إلىّ امبراطور ألمانيا وأؤكد لكم بأن السلام الذى عبث به بعض الثائرين قد استتب فى جميع سواحل أفريقيا الشرقية والفضل فى ذلك للعساكر والمدافع التى استخدمتها لإخضاعهم ولكننى مع ذلك أقول: إنه يتهدد مصالح ألمانيا فى أملاكها الآن مصاعب سياسية ولذلك فقد دعانى عظمة الأمبراطور «يعنى امبراطور ألمانيا» لأبين له نتيجة بعثتى وأعين الرسوم الجديدة لاملاكنا فى أفريقيا حسما للنزاع الذى ربما ينشأ عن هذه المصاعب السياسية ثم إنى أؤمل أن أعرض على دار ندوتنا حالة دولتنا فى أملاكها فى أفريقيا وأسأل النفقة اللازمة لإقامة مملكة استعمارية ألمانية ثابتة فى تلك البلاد وأؤكد لكم أنه رغما عن المساعى التى يبذلها البعض لمنع النفوذ الألمانى فى أفريقيا فإن ألمانيا لا تتأخر البتة رغم أنوف الذين يحولون دون أعمالها المدنية.

هذا وأنى أنقل لكم سلام أمين باشا الذى لا يزال يذكر أصدقاءه فى مصر وأبشركم بأنه على غاية الصحة والعافية خلافا لما تقوله الجرائد عنه من أنه مريض كفيف البصر معتوه العقل بل هو لا يزال كما عرفناه من عشر سنوات بدليل أنه بدلا من أن يعود إلى بلاده للمعالجة قد أحب أن يعاود سفره إلى أواسط إفريقيا رئيسا لحملة عظيمة ولقد أخذه العجب من الذين كانوا يدعونه بالشهير «يعنى الإنجليز» أيام كان فى خدمتهم ثم أصبحوا الآن يدعونه بالكفيف العاجز المعتوه بعد أن فارقهم وعاد إلى خدمة دولتنا فسبحان مغير الأحوال أ.هـ .

وعاد استانلى إلى عاصمة الإنجليز فأجزلت له سلطتها العطاء ولقبته بأكبر

الألقاب عندها وأسندت إليه مسندا عاليا وهو اليوم فى مصاف أهل الرأى وأصحاب الشورى فنشط إلى استنهاض أصحاب الحل والعقد إلى الوقوف فى وجه الدولة الألمانية ومنعها من التغلغل فى جوف القارة الإفريقية ووقوفها سدا قويا فى طريق الإنجليز هناك وجعل يخطب فى الناس ويملأ صحف أخبارهم بعبارات الحض والاستنهاض .والأنين والشكوى من تقاعد رجال السلطنة الإنجليزية عن تدارك الخطب قبل استفحاله لاسيما وقد تمكنت دولة الألمان من قلب القارة الإفريقية أوكادت فتحركت حينئذ خواطر القوم وهمّ صاحب سياستهم بإرسال عظيم منهم إلى عاصمة الألمان يرجو امبراطورها الوقوف عند حد ومنع ذلك الخصام واللدد فلبث الرجل هناك أياما حتى رسم الإمبراطور لرجل من قومه اسمه الدكتور كرانل بأن يناقش رسول الإنجليز فيما جاء فيه فأقاما على هذه الحال أياما طال فيها الأخذ والردّ بين صحف الفريقين وكثرت بينهم المهاترة والقول الهراء على ما تقدم بيانه فجعلت حينئذ أصحاب صحف الفرنسيس تسخر بهم وتهزأ بفعالهم، فما قالته إحدى تلك الصحف الإفرنسية عبارة لا بأس بإيرادها هنا فإنها تشخص لقارئها واقعة الحال بأجلى مظاهر التعبير وتدله على نوايا السلطنة الإنجليزية فى تلك القارة من أقصاها إلى أقصاها ـ قالت لعمرى إن من تأمل مساحة تلك القارة الواسعة على صفحات الخريطة تبين له من أول نظرة أنها كافية لاستعمار سائر الدول حتى دولة البرتغال، ولكن متى تذكر ما اتصفت به الدولة الإنجليزية من الطمع والأنانية واستعمار الدولة الألمانية واندفاعها فيه عاد به الأمر إلى عكس ماتوهم من كفايتها حتى لنسأل عن الدولتين بعد إذ حرمتهما منها دولة البرتغال حتى لا ينتهى بهما الحال إلى الخصام عليها وقد رأينا أن نمثل للقارئ دورا لطيفا بين هذين الرسولين، نعنى بهما رسول دولة الإنجليز ورسول الألمان بكلام نسطره لهما مما يوافق الحال وإن لم نبلغ فيه إلى ما دار بينهما من الجدال بحرفه ولكنه يبين للقارئ بأجلى بيان نوايا الدولتين فى تلك القارة السوداء فنقول ليتمثل القارئ البنيه رسول الإنجليز منكبا علي خريطة إفريقيا وفي يده قلم يخط به خطا من الدرجة الخمسين طولا على طول طريق يؤدي إلي أواسط إفريقيا من بوغاز السويس ثم التفت إلي صاحبه الألمانى وقال: أليست هذه أرضا إنجليزية فانحنى له الألمانى وتبسم فأردف الإنجليزى عبارته هذه وأتبعها بقوله: إننا إذا اتبعنا الدرجة الخمسين طولا نجد أنها تقطع النيل فى موضعين أو ثلاثة مارة به فيكون نهرا إنجليزيا إن شاء الله تعالى ـ فقاطعه الألمانى بقوله: نعطيكم إياها إن شاء الله ـ فقال الإنجليزى وبذلك نصل إلى الخرطوم ولا ننكر عليكم أن غردون قد مات

ولكن لابد من الأخذ بثأره لأن استانلى عنـدما عاد إلينا فى هذه المرة جعل يقول إن ترك السـودان يعد جـريمة لنا لا تغـتفـر وأن أخذها من الهنات الهـينات إذ لا يلزم لافتتـاحها سوى مد خط حديـدى بين البحر الأحمر والنيل كـما بين سواكن وبربر مثلا وهو خط لا يكون طوله أكثر من ثلثمائه كيلو متر وذلك ليس بالشئ العسير ثم نمتد من بربر مقتفين الدرجة الخمـسين طولا فنأخذ العبيد وسنار ثم نصعد فى النيل الذى هو ملكنا كما لا يخـفاك حتى بلغ كوندوكورو وبذلك نضمن لتـجارتنا سلامة النهر بطوله على مسافة ألف وخمسمـائة كيلومتر تبتدئ من بربر ومن ثم نتصل إلى البحـيرات العظمى بلا مشـقة ولا عناء ـ فقـاطعه الألمانى على رسلك يا صـاح لقد وصل الدكتور بترس عالمنـا الشهير إلى تلك البحيرات العظيمة أيضـا وكنا نظنه ميتا قد دفن فإذا بنـا نجده حيا يرزق وفى وعائه الشـئ الكثير من المعاهدات والاتفـاقيات التى عـقدها مع ملوك وزعـماء تلك الأصقـاع بعد المخـاطرة فى قطع جبلى كـينا وكليمنجارو اللذين قد أصبحا جبلين تابعين لدولتنا بعد الآن ولم يقتصر على ذلك بل دار حول بحيـرة نيانزه فيكتوريا حـتى صار الآن فى أواسط أوغانده حيث يتـبعه أمين باشا عما قليل ويلاقيهما الماجور ويسمن قادما من الزنجبار فإذا الدرجة الخمسون التى قد اتخذتموها لأنفـسكم ملكا حلالا ليست لكم فإنهـا تمر فى درجة نفوذنا ولا يصح قط التـسليم لكم فـيهـا ـ فـقال الإنجليـزى: إذا أنتم تريدون أن تنازعـونا فى البحـيرات العظمى التى هى خزانات النيل ومنبع حـياته كأنكم تجهلون أنهـا إنجليزية وأن مكتشفيـها من الإنجليز فإن كنتم تجهلون ذلك أو تتجاهلونه فـانظروا إلى اسمها تجدوا فيكتـوريا وكفى بهذا الاسم دليلا على أنها إنجليـزية فضلا عن أن سكان تلك الجهـات لا يعرفـون من الأمم الأخرى سـوانا وفوق ذلك فـإن الرحالة استـانلى لم يسمح لزعيم سياستنا بأن يتخلى عنها وهذا الزعيم لم يسمح لى بأن أتخلى لكم عن قيد شبر قط بل ولا عن محط أصبع من تلك الأرض ثم أنتم تعلمون أن أمين باشا كان حـاكم السـودان وقـد بسط يده عليهـا باسم الحكومة المصـرية أى باسم السلطنة الإنجليزية كما أنكم لا تنكرون أن تلك الدرجة الخمسين إنما هى طريقنا إلى تانفانيكا أفتريدون أن نتخلى عـنها ونتركها لكم ـ فأجابه الألمانى مـا هذا يا صاح إن تانفانيكا هذه التى تقول عنها إنما هى قلب النفوذ الألمانى وفلذة كبده وأنت هداك الله لا تجهل أننا عزمنا على أن نمد مستعمراتنا من الزنجـبار إلى الكونغو وتانفانيكا كما هو واضح ومعلوم واقعـة فى طريقنا فهى إذا لنا ولا كلام ـ فـهز الإنجليزى رأسه وقـال هيهات

ذلك فقد أخذناها وقد عقد لنا استانلى المعاهدات القوية مع زعماء القبائل الضاربة فى شماليها وستتخذها شركتنا الإنجليزية الإفريقية قاعدة لنفسها سيما وأن استانلى رجلنا عافاه الله لا يدع صاحب سياستنا يتخلى عنها قط ـ فقال الألمانى وصاحب سياستكم أظنه لايدعك أنت أيضا تتخلى لنا عن شئ منها ـ فقال: أجل وكيف أتخلى عن شيء من ذلك فتقطعون طريقنا بين البحيرات وتانفانيكا من جهة وبين أملاكنا فى نياسا من جهة ـ فصاح الألمانى رويدك رويدك ماذا وكيف تقول ألا تدرى أننا ملكنا نصف نياسا وأنها إحدى طرقنا المطروقة إلى الكونغو وغيرها حتى أن البرتغاليين قد تركوها لنا إننى أراك متسرعا متعديا على حدود نفوذنا وهذا لايمكن أن يكون وفينا قطرة من الدم ـ فقال الإنجليزى: كيف تزعمون امتلاك بحيرة نياسا ونحن الذين حمينا منازل المرسلين الأيكوسيين حواليها بل من الذى مدّ الطريق بين تانفانيكا وبينها ومهده غير جماعة المرسلين الإنجليز أماما تدعيه دولة البرتغال من الحقوق فإنكم معشر الألمان تعرفون أننا نجهلها ولا نعترف بشئ منها ولذلك فإنها لم تقدر أن تتنازل لكم عن أراض ليست لها فى الحقيقة وفضلا عن ذلك فكيف تقدرون إن تقطعوا علينا الطريق الوحيدة التى توصلنا من أملاكنا الواقعة فى خط الاستواء إلى أملاكنا الشمالية إلى بورنتال مارة فى دالاكوا التى إن لم نبسط يدنا عليها اليوم ففى غد وغد لناظرة قريب ـ فقال الألمانى: يا لله ولماذا إذا لا تقول أن الدرجة الخمسين هى كلها لكم لالسواكم ـ فأجابه الإنجليزى: ولكن هذا هو الحاصل وإذا أنصفتم وعدلتم لم يسعكم إلا جعل الحق فى جانبنا وأن تلك الدرجة هى طريقنا من مصر أرض الفراعنة إلى رأس الرجاء الصالح ثم أنتم إذا تبصرتم فى الأمر رأيتم أننا لا نطلب إلا طريقا بين مستعمرتين إنجليزيتين فأين يكون الشطط أو الاجحاف فى ذلك ونحن لا نطلب إلا الوصول إلى أخواننا فى طرفى القارة وذلك ويعلم الله أقل ما يكون فعند ذلك تمطى الألمانى وقال: فماذا نصنع إذا وماذا يصنع البرتغاليون والإيطاليون ـ فأجابه على الفور ما لنا وللبرتغاليين الآن أما جماعة الإيطاليان فقد طاب لهم المقام بمصوع فإذا أرادوا الحبشة أيضا فليأخذوها وإن كنا قد دخلناها بجنودنا فيما مضى وصار لنا فيها بعض الحق ولكنا نتركهما لهم هبة كريم مسامح ـ فقال الألمانى: ونحن ـ فأجابه: أما أنتم فقد أعطيناكم الزنجبار بين جزيرتها وشاطئها وذلك فوق الكفاية بل قد نكون أخطأنا فى ذلك لانه سيأتى يوم نحتاج فيه لنقل محصولات خط الاستواء إلى البحر من غير بدّ فإذا ظل أصحاب المهدى آخذين

علينا طريق النيل لم يكن لنا ندحة عن إيرادها من البحيرة إلى البحـر ولا سبيل لنا غيـر الزنجبـار ولذلك كانـت هذه الجهـة أولى بنا من سواها لاننا إذا أطعنا الرحـالة استانلى ـ فـعند ذلك قاطعه الألمانى واحتـد والتفت إليه محـملقا وقال إنى لا أرى فائدة مـن هذا الجدال وإنه خيـر أن نرفع الأمر إلى امبراطورنا لأنى عـلى ما أرى عسير عليّ أن أسالك شيئا بشـأن تحديد النفوذ بيننا فقام الإنجليزى وانصرف مقطب الوجـه وهو يقـول أجل ومن قـال دائرة النفـوذ الإنجليـزى فكأنما يقـول دائرة الكرة الأرضية بتمامها أ. هـ.

وجاءت فى هذه الأيام أيضا كتب صاحب السياسة الإيطالية إلى ديوان الخديوى والوزير نوبار باشا بطلب فتح باب المخابرة بينهم بشـأن السودان وتوسيع دائرة النفوذ الإيطالى فيه من حد سـواحل البحر الأحمر يعنى من فرضـة مصوع وما والاها إلى ضفة النيل الأزرق فأكبـر الخديوى هذا الطلب وأعظمه وكلم قنصل إيطاليا فى ذلك فلم تكن إلا أيام حـتى وردت كتب صـاحب السيـاسة المذكـور بأنه إنما يريد إطلاق الحرية له فى احتلال كسله والاعتراف بسيادة الايطاليان على البقعة المأهولة بقبيلة بنى عامر والممتدة إلى ناحية بركة التى قـبل أهلها حماية دولة إيطاليا لهم. قال: فإن لم تتفق معنا الحكومة المصرية على ما فيـه المصلحة كلمنا فى ذلك زعيم سياسة الإنجليز فأن لم يوافقنا هو أيضا تصرفنا فى الأمر بحسب ما تقتضيه مصلحتنا وبسطنا سلطاننا على كل قسم من القارة الإفريقيـة بدخل ضمن دائرة نفوذنا، وجعلوا من هذا الحين يحاولون مباغته القبائل الصومالية المصافية للحكومة فكانوا إذا انسوا منهم إخلادا إلى السكينة ورأوا من نجاشى الحبـشة تغاضيـا أو من الرأس ألولا مقدم جيوش الحـبشان تقاعـدا عن الحركـة تقدمـوا بعسكرهم ببطء ومـدّوا يدهم إلى بعض البقـاع بلطف وسايروا أهل القرى وكبار القوم فيها وأجزلوا لهم العطاء وأتحفوهم بالتحف والهدايا وخابروا صاحب سياسـة الإنجليز فيما هم فيه وعلقوا أملهـم بالمحال فإن أحسوا من مقدم عـسكر الحبشان بالحـركة وزحف الجنود ورأوا الكتائب تتلو الكتائـب انكمشوا وعاودا صاحب سياسة الإنجليز فى الكلام فيمنيهم ويهوّن عليهم ويشير بالتأنى وترك العجلة فلما طال على نجاشى الحبـشة الحال ورأى أنه لا هو دافع شر الإيطاليان عن تلك البـلاد التى تعتـبرها جـزءًا من سلطنته بحكم الاتفـاق الموقع عليـه مع رسول الإنجليز «وقد مر بيانه» ولا هـو تاركها للإيطاليان يضموُنها إلى مسـتعمرتهم الجديدة رسم إلى مقدم جيوشه بالحركة وعدم الوقوف عند حد فسار مقدم الجيوش إلى التاكا

وضرب القبائل النازلين حولها ونهب أموالهم ومـاشيتهم وأفحش فى قتلهم ثم قفل راجعا إلى عدوه مقر كرسى النجاشى ولبث بها أياما ثم سار إلى جندع الواقعة بين عائلة وأسمره على مرحلة من مصوع وعسكربها بجيوشه وجعلها مقره ومركز حركته وأخذ يتأهب لقتال الإيطاليان وشاع الخبر بـذلك فخاف الناس كثيرا وأخذوا يلجئون بعيـالهم ومتاعـهم إلى الجزيرة وتتابع خـروجهم من البلد حـتى لم يجد الرائى فى طرقها سوى النوق المحملة بالأثاث والمتاع فقلق عند ذلك جماعة الإيطاليان واشتدوا فى عمل الحصون والمتاريس وأكثروا من وضع المدافع والمكاحل على الأبراج وسيروا إلى كتشـنر باشا عامل الخديوى على سـواكن فى طلب المدد فأرسل إليهم سفـينتين حربيـتين من سـفن الحرب الإنجليزية وجـاءهم كذلك بعض السـفن الإيطالية وكـبر خوف المرابطين من العساكـر الإيطالية من اهتمام الحبشان بإقامـة الحصون والمتاريس بمعسكرهم فـأنشأوا هم كذلك قلعـة حصينة على رأس الـناحية المعروفـة بحرقيـقو وسموها طابيــة وعا ووضعوا عليها كـثيرا من المدافع الكبار وبث الحبشـان عيونهم وأرصادهم حول البلد فانقطع عنها الوارد من المأكول والمشروب ورحل من كان نازلا حولها من العربان والمرتزقة فطير الجنرال جنيه قـائد العساكر الإيطالية الخبر بما جرى إلى زعيم سـياستهم ثم كتب يـقول له قد استحكـمت النفرة بيننا وبين الرأس ألولا قائد الجـيوش الحبـشيـة فالمدد المدد فلما أبطـأ المدد لم ير بدّا من تسليح الموالين من أهالى حرقيقـو بالبنادق وأعطاهم شيئا كثيرا من الذخيـرة والمؤن واستحلفهم على أن يكونوا عونا لهم على الحـبشان وتصـاريف الزمان فلم تكن إلا أيام حتى جاء الخـبر إلى مقدم العساكر الإيطالية بحـاجة المرابطين منهم فى موكوللو إلى المؤنة والذخيرة فأزعجه هذا الخبر لحراجـة الموقف ويقظة العدوّ فجعل يراقب الفرص حتى آنس من الحبشان بعض الخلود إلى السكون فسير قافلة صغيرة بما تيسر لديه من المؤن والذخرة إلى موكوللو وأتبـعها بطائفة من المقاتلين فلم يتم خروجـهم من البلد حتى داهمهم العدوّ بخيله ورجله وأعمل فيهم القـتل بحد السيف حتى لم يبق منهم أحد وخرج من كانوا فى مـوكوللو من المرابطين على وجـوههم إلى مصوع لعـدم قدرتهم على البقاء وتركوا رباطهم بما فـيه من متاع وكراع فلم يتعرض لهم جماعـة الحبشان بسوء واحتلوا مكانهم وغنموا مـا فيه غنيمة باردة فـأكبر قائد العساكـر الإيطالية هذا الأمر وأعظمه جـدا ولكنه لم يجسر على الخروج بعـسكره من البلد وسير الكتب تبـاعا إلى صاحب سياستهم فى طلب المدد ولكن يالله ماذا ينفع هذا كله وأرض السود هوّة

عميقة تبتلع الشيء الكثير مـن الأموال والأحمال والأثقال والعدد العديد من الرجال وتزهق دون إخضـاع جبـابرتها أرواح الأبطال ولقـد طالما أنفق فيهـا الدم والمال من المماليك القـديمة كمـا يدل على ذلك تاريخهـا ورأينا رأى العين ما أصـاب الإنجليز والمصريين من نار هذه الأرض الـغبراء حتى جـاءت اليوم نوبة الإيطاليـان الذين غر صاحبـهم الطمع فأوقع قومه في هذه المهلكـة فلما اتصل خبر هزيمتـهم هذه بزعيم سياسـتهم أبلغه إلى دار ندوتهم فـعلم به السواد الأعظم من عامتـهم وأهل الدعارة منهم فاجتـمعوا حول دار الندوة ألوفا وارتفعت أصـواتهم وعلت ضوضاؤهم ونادوا بالويل والثبور على زعـيم سياستهم واشـتد بهم اللجاج والهياج فـجاءت طائفة من عسكرهم وفـرقت جمعهم ومزقت بضـرب العصى شملهم بعـد لكم وضرب وجاء كتاب نجاشي الحبشة إلى جنيه قائد عسكرهم بالجلاء العاجل عن مصوع وما جاورها حقنا للدماء وإلا فالسيف والنار ولا هذا العار قيل فلم يردّ عليه وقيل بل ردّ بأحسن ما يكون من عبارات التلطف والتودد.

وقد هيج ظفر الحبـشان بجماعة الإيطاليان ساكنا مـن أصحاب المهدوية النازلين حول سـواكن فهبـوا إلى الحركة وجـعلوا يتخطفـون الناس والماشيـة من حول البلد ويمنعون عنها الوارد من المأكول والمشروب فاهتم كتشنر باشا بالأمر وأكثر من تطواف العساكر حول البلد في الليل والنهار وتقدمت بعض سفن الحرب الإنجليزية نحو البلد تأهبا للدفاع عند الحـاجة وأخذ كتشنر يسـتميل مشايخ القـبائل الذين كانوا يكرهون الانضواء إلى عثمان دقنه والطاعة إلى دعاة المهدى وخليفته فمال إليه بعضهم فأمدّهم بالأسلحة والذخرة ودفعهم إلى قتال العدوّ فـقاتلوه وأبلوا في قتاله فترفع العدوّ إلى الجبال وانجلى عن ضواحي البلد ثم انحدر إليها بعد أيام وهكذا كانت فعالة كل قليل من الأيام، وورد على كتـشنر باشا يومـئذ كتـاب التعايشي خـليفة المهـدى مفعـما بالتهديد والوعيـد إن لم يخفض كتشنر جناح الطاعة ويترك العناد وقد ذكـر له شيئا كثيـرا من مناقب المهدى وصحة مهـدويته ثم دعا كتشنر إلى ترك النصـرانية واعتناق المهدوية فـإنها أصح المذاهب وأقربها إلى الله تـعالى فإن لم يأت طائعا مـخلصا في العقيدة سير إليـه جيشا عظيما فيستولى على سواكن ومـا والاها ويطرح حاميتها في أليم حيث يكونون طاما لأسماكه وشاع خبر هذا الكتاب بين أهل البلد فخافوا خوفا عظيما وصاروا يتوقعون وصول جيش التعايشي كل قليل من الأيام وقد زادهم خوفا ما شاع في ذلك الحين أيضا من تواطئ الرأس ألولا مقدم الجـيوش الحبشية مع كبار

المهدويين على قتال الأجانب الطامعين فى بلادهم وقطع شأفتهم وأن النجاشى يوجنا ميال إلى ذلك وكاد يتحقق الخبر بخروج مشايخ الحباب والشاكرية والهدندوى والشيخ أمين فقيرى شيخ قبيلة الارقويت الذين استمالهم كتشنر إلى طاعة الحكومة وموالاتها وامتناعهم عن مناهضة العدو رغما عما بذله لهم كتشنر من الأسلحة والأموال الطائلة والهدايا الكثيرة وكان كتشنر قد أرسل إلى السير بارنج فى طلب الشيخ الميرغنى شيخ سجادة الطريقة الميرغنية التى يتبعها أهل السودان شرقا وجنوبا ليحمل العصاة على الرجوع إلى طاعة الحكومة فجاء الشيخ إلى سواكن وجعل يبعث البعوث ويرسل الدعاة ويحض القوم على ترك الحرب والكف عن القتال فلم يفلح وقد رموه بالمروق عن الدين القويم واتهموه بالنصرانية وبيع الآجلة بالعاجلة فلاهم لذلك يعرفونه ولا هم يعتقدون مشيخته فكبر الأمر على الشيخ وسار إلى بلد اجيج وأقام بها أياما لعله ينال من القوم مأربا فلم ينل ولم تجسر بعوثه ودعاته على لقاء أحد من كبار المهدويين فكانت أخبار تلك الأطراف كل يوم فى شأن إن سرت يوما أحزنت أياما.

وعاد الوزير نوبار باشا إلى الرأى القائل بأن إعادة العلائق التجارية مع السودان لابد أن يكون من ورائها تفرق العصاة فى البلاد طلبا للرزق وعدم اجتماعهم فى صعيد واحد للتألب على قتال الحكومة فكتب ثانية إلى زعيم سياسة الإنجليز فى ذلك ولبث ينتظر الجواب أياما حتى جاءه بالقبول ففرح الناس بذلك فرحا عظيما واستبشروا بحسن المآب وقالوا أوّل الغيث قطرة ثم ينهمل وقد كانوا لا يتوقعون بلوغ هذه الأمنية بعد امتناع زعيم السياسة الإنجليزية من المكالمة مع الوزير نوبار باشا فى شأنها حينا على ما تقدم بيانه فاهتم الوزير لذلك اهتماما عظيما ورسم بعمل دستور يكون قاعدة لإعادة تلك العلائق فأجتمع الوزراء كافة فى مجلسهم وقرروا سبعة أمور، حاصل ما فيها منع الاتجار فى الأسلحة وسائر أنواع الآلات والأدوات الحربية وضبط ما يوجد منها ومعاقبة المتجرين فيها وجعل حلفا وكروسكو وأسوان ودراو المراكز التى تخرج وتدخل البضائع منها وأخذ العهود على مشايخ العبابدة والكبابيش وغيرهم من قبائل العربان بذلك وبطاعتهم لتفتيش سائر البضائع التى ترد من السودان أو التى ترسل إليه أوّلا فى حلفا فى كروسكو وفى أسوان وفى دراو ثم يعطى لأصحابها تسريح، فجعل التجار من ذلك الحين يتأهبون للعمل وسار جماعة منهم إلى حلفا وأسوان ونزلوا بهما فعمرت أسوان وكثرت فيها الحوانيت والمخازن

والأشوان للبضـائع وأصناف المتاجر وراجت التجارة فـى القاهرة بعض الرواج وشاع خبـر انحدار بعض القوافل من دنقلة بالصـمغ والريش وسن الفيل وأشيـاء أخر من محـاصيل أرض السود وشوهـد كذلك عير لأهل كـردفان بأصناف المتاجـر وجاءت الأخبار بخلود العربان والدراويـش المرابطين على الحدود إلى السكينة عندما وصلت إليهم الأخبار بعود العلائق التجارية بين مصر والسودان.

(مطلب)

طلب الإنجليز تخفيض عدد العساكر المصرية

ولم تكن أيام بعد ذلك حتى تقدم الجنرال جرانفل باشـا سردار العساكر المصرية إلى الخديوى فـى طلب تخفيض عـدد العسـاكر المصـرية وحل بعض ألويتهـا لعدم الحاجة إليها يومئذ وأن الجيوش الإنجليـزية تحل محلها فى سائر مضاربها وكان زعيم السياسة الإنجليزية قد رأى فى إعادة العلائق الـتجارية مع السودان وفى بقاء العساكر المصرية على قدم الاستعداد فى عددها وعددها شيـئا يخافه فى مستقبل الأيام فأوعز إلى السردار أن اطلب تخفيض عددهم فـوافقه الخديوى على ذلك وكلم الوزير نوبار باشا فـى الأمر فاهتم لـه الوزير وجمع إليـه سائر الوزراء وعقـد مجلسـهم وجلس الخديوى بينهم فـقال السردار مقالتـه وبالغ فى الطلب فرد عليه عبـدالقادر باشا وهو يومئذ المتولى نظارة الداخلية وأخذ يشرح الأسـباب الداعية إلى بقاء الجيوش المصرية على ما هى علـيه من العدد والعـدد وما تحتـاجه البلاد فى هـذه الظروف من حفظ كرامتها فى أعين الأعداء وإعظام قوتها الدفـاعية رهبة لهم فعارضه فى ذلك السردار وبالغ فى الممانعة وكان الخديوى لا يشاء أن يبرم أمرا على غير الذى يرمى إليه زعيم السياسيـة الإنجليزية تسكينا للخواطر وتطمينا للقلوب، قيل فـعضد السردار فى رأيه وعاب على عبدالقـادر باشا قوله وسفهه فامـتعض عبدالقادر باشا وبالغ فى التـعبير وسفه رأى السردار ورفع صوته بحضرة الخـديوى فقاطع عليه الوزير نوبار باشا وقال له: أنت بحضرة مـولاك فاخفض من صوتك، قيل فتـأفف الخديوى من ذلك وكان الخديوى يعرف من الشوائن والتـهم الموسوم بها عبدالقادر باشا شيئـا كثيرا وكان إلى ذلك الحين يغض الطرف عنهـا منعا للقلاقل وتحاشيـا من سوء العاقبة وكان جـماعة الإنجليز يودون لو أن الخديوى يأذن بتحقيق تـلك التهم وقد جمعوا من الدلائل على صحتها وعلى سوء تصرف عبدالقادر باشا مع بعض أصحاب الأطيان بحوش عيسى

والنوبارية بمديرية البحيرة واستعماله لسلطة وظيفته وتطاول يده إلى أموال الناس شيئا كثيرا فلما رأى منه هذه الجرأة والمكابرة ومعاندة السياسة الإنجليزية في مجلسه كبر عليه الأمر وأعظمه لاسيما وقد رأى من جماعة الإنجليز في ذلك اليوم تحفزا للوثبة وكشف ما خفى من عورات الهيئة الحاكمة فرسم حينئذ بتحقيق كل ما هو مسند فعله إلى عبدالقادر باشا وقيد بذلك جماعة من كبار الموظفين فأصبح عبدالقادر باشا وهو يتوقع العزل في كل لحظة من الزمان وعلم خصومه بالخبر فوردت شكاياتهم تترى على ديوان الخديوى وتم لصاحب السياسة الإنجليزية ما أراده من تخفيض عدد العساكر المصرية في أيام قلائل، حدثني صاحب لي قال: كان مما أوجب بغض جماعة الإنجليز لعبد القادر باشا وأكبر سعيهم وراء خلعه من منصبه أنهم رأوا أنه فضلا عن استعماله لسلطة وظيفته في أخذ حقوق بعض الناس وتطاول يده إلى أملاكهم على غير مسوغ شرعي وتطلعه إلى ما في أيدى الغير فقد كان يكيد للإنجليز كيدا عظيما ويدس لهم الدسائس في السر والجهر واتفق أن خلت قلعة الوجه الواقعة على التخوم بين الأراضي المصرية والأقطار الحجازية من المرابطين وباتت خاوية على عروشها منذ انحلال الجيوش المصرية بعد الثورة العرابية فهمّ مقدم الجيوش الإنجليزية بإرسال نفر من عسكره ليحتلوها ويرفعوا الراية الإنجليزية على ما يجاورها من البقاع فأحس الباب العالي بذلك فسير في الحال جماعة من كبار العسكر الشاهاني وطائفة من الجند إلى تلك القلعة فاحتلوها وبسطوا يدهم على ما يجاورها من السهول والبقاع وجاء الخبر بذلك إلى عبدالقادر باشا بصفته ناظرا للداخلية فأهتم له كثيرا واستحسنه وبالغ في استحسانه واجتمع بالمشير مختار باشا مندوب الباب العالي بمصر وتناجيا في ذلك طويلا فلما علم زعيم السياسة الإنجليزية بما جرى وتحقق أن لا قبل له على إخراج العساكر السلطانية من تلك القلعة إلا إذا دفع برجال الحل والعقد في الحكومة المصرية إلى معمعان المقارعة مع الباب العالي أوعز إلى السير بارنج بأن يكلم الوزير نوبار باشا في ذلك فـفعل وأكثر من الاجتماع بالوزراء فكان يرى من عبدالقادر باشا جفاء وغلظة في القول فشكاه إلى الخديوى وكان الخديوى يكره فعال عبدالقادر باشا وينقم عليه كثيرا فرسم بتشكيل هيئة من بعض كبار موظفي الحكومة لتنظر فيما هو مسند إليه من سلب أموال بعض الناس والاستطالة على حقوق الضعفاء من الرعية فسارت تلك الهيئة في عملها سيرا حثيثا وحققت من تلك الشوائن شيئا فلم تكن إلا أيام حتى ظهر خبر تنزيل عبد القادر باشا من منصبه

وعلمَ الناس بخبر مبارحته القاهرة على عجل فتحققوا أنه مكره لإبطال فولى الخديوى مكانه مصطفى فهمى باشا وولى محمد زكى باشا مكان مصطفى باشا نظارة الخزينة ا.هـ.

(مطلب)

وكاد السلطان ينجح في استمالة الروس والفرنسيس إلى معاونته

وكاد السلطان فى هذه الفترة ينجح فى استمالة كبار سياسة الروس والفرنسيس إلى معاونته على طلب تخفيض عدد العساكر الإنجليزية المحتلة لمصر وهموا جميعا بطلب ذلك فلما أحس زعيم السياسة الإنجليزية بما هم عليه أوعز فى الحال إلى قائد جيوشهم بمصر بأن أظهر الأهبة والاستعداد لجلاء الكتائب فجعل يظهر الحركة بين الجنود وأخذت كتائبهم تغدو وتروح بين الإسكندرية والقاهرة وتحت قلعة الجبل وبولاق الدكرور بأثقالهم وأحمالهم وآلات حربهم ودوابهم وانجلى من كان منهم بقشلاق الحرس الخديوى برحبة عابدين فاحتله نفر من العساكر المصرية ولم تكن إلا أيام حتى كثر الأرجاف بأن جماعة من الدراويش انحدروا إلى حلفا بخيلهم يريدون الزحف على أسوان فالقاهرة وأن الفتنة ظهرت بين أهالى ذلك الصعيد وأن قد جاء الصائح بطلب المدد العاجل فأسرعوا فى إرسال طائفة كبيرة منهم إلى الحدود قالوا لمنع العدوّ وأنزلوهم بالمواقع والمعاقل التى قد كانوا أخلوها وطيروا الخبر بذلك إلى الآفاق فسكت حينئذ أصحاب المابين وانكف السلطان عن استنهاض الدول ولبث كعادته يراقب الفرص فعلم الناس أنها خدعة وحيلة وظن السواد الأعظم بالوزير نوبار باشا السوء ورموه بالخيانة وعاد أصحاب الصحف الحازبة إلى صيحتهم الأولى وهى طلب تنزيل الوزير نوبار باشا من منصبه وإرجاع الوزير محمد شريف باشا إلى منصة الرئاسة وبدأت تظهر طلائع التحزب بين الناس وشوهد بعض الأوراق التحريضية ملصقة على جدران بعض محال الحكومة فتناقل خبرها مراسلو الصحف الأجنبية وأكبروها جدا فلم تكن إلا أيام بعد ذلك حتى مرض الوزير محمد شريف باشا واشتدت علته فجمعوا له الأطباء فأشاروا بسرعة مغادرته للقاهرة والترفع فى النيل إلى الصعيد الأعلى فاندهش الناس من هذا الحادث الغريب وترامت ظنونهم إلى المرمى البعيد فمن قائل إنه مريض بذات الجنب ومن قائل إنه مريض باهة فى

الكبد ومن قائل بأنه قد سم فى التبغ بيد أجنبية ومن قائل غير ذلك وسار الوزير على ظهر باخرة من الركائب الخديوية إلى الصعيد الأعلى فلبث أياما ثم انحدروا به على غير جدوى إذ اشتدت علته وكبر سقمه فأشار الأطباء بقيامه إلى الديار الأورباوية فسار فى نفر من الاتباع إلى تريستا وأقام بها والناس كافة يسألون الله له السلامة والعودة إلى منصب الرئاسة فلم تكن إلا أيام حتى جاء الخبر بموته فحزن الناس جميعا وبكوه ورسم الخديوى إلى الوزير نوبار باشا بتعطيل سائر دواوين الحكومة حدادا عليه وإلى كبير التشريفات الخديوية بالشخوص إلى تريستا على باخرة مخصوصة ليأتى بالجثة إلى مصر التى كان يحبها وكانت تحبه وتحنّ إليه وجلسوا فى داره للعزاء أياما حتى وصلت جثته على ظهر سفينة قد استأجرها ولده قبل أن تصل إليه سفينة مصر فما ألقت السفينة مرساها حتى هرع الناس من كل رتبة ودرجة إلى المسير أمام نعشه فسار أوّلا جمهور المشايخ والعلماء ثم صفوف جند البر والبحر ورجال الحرس الخديوى تتقدمهم موسيقى باخرة المحروسة ثم وجهاء البلد وأعيانها على اختلاف أجناسهم ثم تلامذة المدارس ومازالوا سائرين بالنعش والناس على جانبى الطريق يبكونه حتى وصلوا به إلى محطة الباب الجديد فأنزلوه فى قطار مخصوص وسار القطار إلى القاهرة فلما وصلها حمل النعش جماعة من العساكر المصرية وساروا بالجنازة على شكل مهيب وترتيب عجيب أسكب عبرات الناس وأبكاهم حتى واروه التراب، وكان شريف باشا رحمه الله معروفا بالإخلاص والترفع عن الدنايا مشهورا بالحزم والحكمة والدراية وسعة الباع فى المعارف السياسية والعلاقات الدولية وغير ذلك من علوم العصر - تلقى علومه فى مدارس الفرنسيس العليا وقضى فى خدمة البلاد وأهلها زمنا غير قليل فى الجندية على عهد الحاج محمد على باشا الكبير ثم على عهد إبراهيم باشا وعباس باشا الأول وسعيد باشا ثم فى ولاية إسماعيل باشا وتقلد فى كل هذه الأزمنة وظائف خطيرة أدار مهامّها بالحزم والجد والغيرة مات وله من العمر ثمان وستون سنة وقيل سبعون وهو القائل إن تركنا السودان فلا تتركنا فذهب مثلا عند المصريين رحمه الله برحمته الواسعة .

وكان مما زاد الناس كرها للهيئة الحاكمة توالى الحوادث وظهور الكوارث واشتداد الإنجليز على أهل البلد وإذلالهم لأقل سبب وأصغر حادث فقد وقع فى هذه الأيام أن اثنين من كبار عسكر الإنجليز خرجا يوما للصيد فى أرباض أهرام الجيزة فاتفق أن أحدهما أطلق بارودته يريد صيداً فأصابت نارها وجه صبى لأحد الفلاحين كان

يرعى جاموسته فانذعر الصبي وذهب مولولا مستصرخا أباه فلحق به الضارب وأخذ يلاطفه ويخفف عنه وأعطاه شيئا من الدراهم ولم ينصرف عنه حتى جاء أبوه وقبض على الإنجليزى وأوسعه سبا ولكما فصاح الإنجليـزى على رفيقه فأتاه مسرعا وصوب بارودته نحو الرجل فاستصرخ الرجل أهل قريـته وأكثر من النداء عليهم فأطلق أحد الإنجليزيين بارودته على الرجل فسـقط ميتا وجاء أهل القرية مسرعـين وقبضوا على الإنجليزيين وأخذوا ما كان مـعهما من سلاح وذخيرة وساقـوهما إلى قرية وزجوهما فى دار هناك وحملوا القتـيل إلى القرية بين الصياح والجلبة وعـويل النساء ثم ساروا بالإنجليزيين إلى ديوان مديرية الجـيزة وسلموهما إلى ولاة الأمر فلما إتـصل خبر ما جرى بقنصل جنرال الإنجليز وقـائد جيوشهم قاما وقعـدا واشتد القنصل على الوزير نوبار باشا فى طلب معاقبة أهل تلك القرية جمـيعا لقبضهم على القاتل والجارح من الإنجليز ولم يكن إلا يوم أو بعض يوم حـتى سار إلى تلك القرية طائفـة من فرسان الإنجليـز وأحاطوا بهـا من كل صوب ودرب وأخـرجوا جمـيع من بها مـن الرجال وساقوهم كـالأنعام إلى خيمة قـد ضربوها على مقربة من الأهرام وبها جـماعة من الإنجليز فأخـذوا يستنطقونهم ويسألونهم ثم عاقـوهم أياما ثم حكموا عليهم جمـيعا بالجلد بالسياط فضربوهم ضربا مبرحا وسجنوا بعضهم وقد جمعوا ما فى القرية من سلاح وهراوى وانصرفوا وقد راح دم ذلك المقتول هـدرا تم هذا كله والهيئة الحاكمة لا تبدى حـراكا ولا تظهـر عراكا سـوى أنها وافقت على زج أهل تـلك القرية فى الحبوس حـتى تحكم عليهم المحاكم بالعقـوبات التى يقتضيهـا القانون فكان من وراء ذلك أن ظهرت عصابة من شـبان أهل القاهرة ومصر القديمـة المتخرجين من بعض المدارس وسموا أنفسهم باسم «الوطنيين الأحرار» فالتف حولهم جماعة من المحازبين لمصطفى رياض باشا وجلعوا يـجتمعون فى بيت أحدهم فى الـسر والعلن ويتكلمون فيما وصلت إليه الحكومة من الضعف وزوال الهـيبة وفى استسلام الوزير نوبار باشا وجماعة الوزراء إلـى السير بارنج وشوهدت بعض الأوراق المفعمـة بالتقريع والتنديد على جمـاعة الوزراء ملقاة فى بعض دور الحـكومة ودواوينها وجـاء مصطفى رياض باشا مـن مزرعتـه فى طود البحـيرة وأقـام بالقاهرة فـتزاحم على بابه أهـل الدعارة والمملقون ومن فى قلبه مرض وتحققوا أن الوزير نوبار باشا معزول لا محالة وظهرت يومئذ الحركة فى ديوان الخديـوى وترددت رسله على بيت مصطفى رياض باشا لغير سبب ظاهر سوى الإرجاف بعزم الوزيـر نوبار باشا على التخلى عن منصب الرياسة

وماهـو شائع بين الناس من أن كـبار الإنجليـز أرسلوا إلى الأقاليم القـبلية نفـرا من اليونان والمـالطيين جواسـيس يسعـون فى استطلاع أفكار أهل البـلاد بشأن احـتلال الإنجليز لمصـر وغير ذلك من التـرهات التى ما أنزل الله بهـا من سلطان، وكان من دهاء السير بارنج وقوة شكيمتـه أنه كلما آنس من أولئك الزعانف خلودا إلى الحركة أو سمع لهم صوتا فى مـجتمعاتهم أو رأى لهم مقالا فـى إحدى الصحف المحاربة عمد إلى المساهلة مع الوزير نوبار باشا وخفف من طلباته وهوّن عليه كل صعب من الأمور كأن يقول خـففوا عنكم فوالله ما استعملنا صـاحبكم « يعنى مصطفى رياض باشا» إلا بعد أن نكون قـد دبرنا له المكايد والإحن وقلبنا لكم ظهر المجن ونلنا على يديه ما لا تستطيعون عليه صبرا، حدثنى صاحب لى قال: كان بعض هؤلاء الصبية يراسلون بعض مديرى الأقاليم وأصحاب بعض الـوظائف الديوانية بكتب الاستمالة والانعطاف إلى مصطفى رياض باشا وهو لا يأنف من ذلك ولا يراه معيبا بل كان إذا زاره أحد من أعيـان البلاد أو مديرى الجهـات زلفى أنّ واشتكى وعاب على الهـيئة الحاكمـة ضعفها وتأفف مما وقـعت فيه البلاد من الدمار وكـان كثير الوقيـعة برجال القضـاء يقول إنهم أحداث أغرار لا خـبرة لهم بالأمور ولا دربة حـتى خيل للناس يومئذ أنه إن عاد إلى منصة الرئاسة أراح جميع الخلق وسلك فى سائر أموره مسالك الحق ـ قال: وأخذت الحمية من أولئك الصبيـة مأخذها فنجحت سعايتهم وتحرجت صدور الناس من الوزير نوبار باشا أو كادت فتجرد حينئذ السير بارنج إلى النهج فى منهاج جديد والقـبض على زمام سائر الأمور بيد من حديد ـ قـال: وكأنه كان على اتفاق مع الوزير نوبار باشـا بأنه إذا شاء إنفاذ أمـر من الأمور التى تقتـضيهـا سيطرة الاحتلال الإنجلـيزى وحفظ هيبتـه فى أعين أهل البلاد من مثـل إحداث الإحداثات المخالفة لعـاداتهم أو إبداع البدع الداعية إلى سقـوط نفوذ الحكام المصريين أو ترتيب النظامات الجديدة الحـاملة على إقصاء أصحـاب الوظائف من أبناء البلاد عن أبواب الارتزاق جعل إنفاذ ذلك كله على يدى من كـان معتمد أولئك القوم عـليه وأرغمه على العمل به ـ قـال: فقد مـضى على رئاسة الوزير نوبار باشـا فى هذه المرة حين وكلمة السير بارنج معه فى شئون البلاد لم تتـجاوز حد النصيحة والإرشاد ولم تتعد عبارات التـشجيع والاستنهـاض ماعدا ما يتـعلق منها بالسودان شرقـا وجنوبا وكان الوزير إذا رأى منه يومـا إكراها على عمـل شىء أراده صرفه عنه بالتـى هى أحسن واستـماله إلى التأنى وترك الـعجلة فينثنى عنه راضـيا ولذلك قـد تأخر إبرام الشىء

الكثير من مقاصد زعيم سياسة الإنجليز فى الأمور الداخلية وظلت كلمة المديرين والمحافظين وأصحاب الوظائف الأخرى مسموعة وأيديهم مطلقة وسلطتهم مرعية وكان الذين تولوا الوظائف العالية من جماعة الإنجليز إلى هذا الحين يعدّون على الأصابع وقد تمكن الوزير نوبار باشا بحزمه وقوة شكيمته من فك قيود الحكومة من العقود التى كانت مرتبطة بها مع الأجانب النزلاء الذين فى خدمتها ونادى على رؤوس الأشهاد بالكف عنها وعدم العود إليها فهيج هذا العمل أصحاب بعض الصحف الأجنبية فقاموا يستصرخون قناصلهم وظهر التحزب والتألب بين أصحاب الوظائف من كل جنس وطبقة ولبث الحال على ذلك أياما كثر فيها أنصار مصطفى رياض باشا وتقوت عزيمتهم بما كانوا يسمعونه من ضوضاء أصحاب الصحف الأجنبية وتكهنهم بقرب سقوط الوزير نوبار باشا من أعالى منصة الرئاسة، وكأن مصطفى رياض باشا قد استبشر بما سيكون من وراء هذه الحركة فجعل يكثر من التردد على مقر الخديوى ويظهر التودد والعطف إلى رجال ديوانه الخاص ويوالى المآدب إلى كباره ويدنى من مجلسه أصحاب صحف الأخبار ويوحى إليهم بالذى يعمله إذا أفضت إليه الرئاسة.

وأشاع المرجفون فى هذا الحين أن الوزير نوبار باشا أكره الشيخ المهدى شيخ الجامع الأزهر ومفتى الحنفية وجماعة من كبار العلماء وأصحاب المقامات العالية على عمل محضر يطلبون فيه ضم مصر وسائر ملحقاتها إلى أملاك السلطنة الإنجليزية واستخلاصها من سيطرة الدولة العثمانية التى أثقلتها كل هذه السنين والأعوام وتكلم فى ذلك أصحاب صحف الأخبار على اختلافها فصدق ذلك السواد الأعظم من الناس وأرجفوا إرجافا عظيما والأمر على غير ما كانوا يسمعون وذلك أن الشيخ المهدى مالت نفسه فى ذلك الحين إلى الاستبداد بتقليد وظائف القضاء الشرعى إلى صنائعه والأغرار الملتفين حول ولده الشيخ عبدالخالق وقد كان إعطاء هذه الوظائف لذويها من أهل العلم والفضل موكولا إلى لجنة يرأسها بطرس باشا غالى وكيل الحقانية يومئذ والشيخ عضو من أعضائها فمانعه بطرس باشا فى ذلك واشتد فى ممانعته بحكم اللوائح المعمول بها عندهم فامتعض الشيخ وأخذته هزة الأحزاب فاستمال إلى رأيه جماعة من العلماء وأعضاء شورى البلاد فكان لا حديث لهم فى سمرهم إلا خبر وقوف بطرس باشا فى وجه الشيخ والحيلولة بينه وبين هواه واتفق أن رجلا من أهل الجزائر التابعين لدولة الفرنسيس امتلك دارا بأحد شوارع القاهرة

وآخر يمتلك دارا أمام دار ذلك الجزائرلى قد تداعت إلى السقـوط فأخذ صاحبها فى لم شعثها وترميم ما تهدم من جدرانها وتنسيق شبابيكها على الطراز الجديد فقام عليه ذلك الجـزائرلى ومنعـه من العـمل وقـال له إن منافـذ دارك تكشف عـورات دارى فعـارضه صـاحب الدار المتـداعيـة وقال إن بين الدارين طريقـا ولا سبـيل قط إلى المعارضـة وطال بين الاثنين الخصـام أياما لم ينكف فيـها صاحـب الدار عن العمل فشكاه الجـزائرلى إلى قاضى قضاة مـصر فحكم له القـاضى بسد منافذ دار خصـمه فهال صاحبها حكم القاضى وأزعـجه أىّ إزعاج فرفع ظلامته إلى المحكمة المختلطة لتابعية خصمه لدولة الفرنسيس فأنصفته وحكمت ببقاء منافذ داره كما هى وحكمت على خصمه بشيء من المال تعويضا عما لحق صاحب الدار من الخسارة بسبب الحكم الشرعى فلما شاع خبر ذلك بين الأحزاب هاجـوا وماجوا وأكبر الشيخ المهدى الأمر وأعظمه جدا وقال إنما هو عمل من أعمال بطـرس باشا غالى التى يقصد بها إلصاق الخزى بأصحاب الشريعـة الحنيفية ونصرة أصحاب شريعـة الفرنجة وسعى الشيخ مع جماعة من أعضاء مجلس شورى البلاد والأعيان عند الخديوى ووشوا فى حق الباشا ومازالوا بالخديوى حتى كادوا يستهـوونه ويغرّرون به فعلم بطرس باشا بما فعله القوم فدخل على الخديوى وأعلمه بحكاية الجزائرلى وما جرى لصاحب الدار المتداعية وما حكم به قاضى قضاة مصر وحكم المحكمة المختلطة فكبرت عليه فعال الشيخ المهدى وأعظم مـقارعـة المحازبين له من الأعـيان وشـورى البلاد وأرسل فى طلب الشـيخ وكلمه فى ذلك طويـلا ورسم إلى بطرس باشا بعمل مـا فيه المصلحـة تسكينا لتلك القلاقل فأشـار على الشيخ بتكذيب كل قال وقيل فى هذا الصـدد فلم ير مناصا من الإذعان وكتب من يومه إلى الجريدة الرسمية وصحف الأخبار المحلية يعلمهم بأنه لم يحصل شيء مما ذاع خبره ألبتة وأن جماعة العلماء براء من كل تهمة أو فرية يفتريها عليـهم المفتـرون وأن لا أصل لما أرجف به المرجـفون العـاملون على إيقـاظ الفتـة فاختلف الناس يومئذ حتى كادوا يفتتنون وداخل الخديوى ما داخله من بغض الشيخ المهدى حـتى رسم بخلعه من منصبى الإفـتاء ومشـيخة الجـامع الأزهر فخلع وولى مكانه فى مشـيخة الجامـع شمس الدين الشيخ محـمد الأنبابى وفى منصب الإفـتاء الشيخ مـحمـد البناء الاسكندرى واتفق فى هذه الأثناء أن مرض الوزيـر نوبار باشا واحتجب عن الناس أياما فعاد الإرجاف بخلعه وتنزيله عن منصب الرئاسة .

(مطلب)

وقوع القتال بسواكن مع عثمان دقنه

وبينما كانت الأحزاب في قيل وقال وأماني وآمال إذ وردت الأخبار من سواكن بوقوع القتال بين أصحاب عثمان دقنه والقبائل المصافية للحكومة والمرابطين من العسكر المصرى وبأن العدوّ أبلى فى قتال المرابطين بلاء حسنا، وتحرير الخبر أنه لما كثرت مناوشات العدوّ للقبائل المصافية وكثر تعديهم على ضواحي البلد رسم كتشنر باشا العامل يومئذ على سواكن إلى نفر من الجند والمولدين المرتزقة والى أولئك المصافين بقتال العدوّ وإجلائه عن ضواحي البلد فخرجت طائفة من قبيلة الرمادر وجماعة من الباشيبوزق والمرتزقة مع طائفة أخرى من السود الذين نجوا من حامية كسله وغيرها في منتصف الليل يتقدمهم كتشنر وبعض كبار العسكر من الإنجليز وبعض الفرسان والهجانة المصريين وساروا بجوار الخط الموصل إلى هندوب وما زالوا فى طريقهم حتى إذا كان ما بعد زوال اليوم الثاني وصاروا على مقربة من هندوب بانت لهم طلائع العدوّ فهجم عليهم جماعة الباشيبوزق والعبيد وهزموهم أو كادوا فلم تكن إلا لحظة حتى أحدق العدوّ بكتشنر وجنوده من كل صوب ودرب فثبتت الجنود في مواقفها واشتدت فى رمى القنابل ورصاص البنادق على العدو وأصلته نارا حامية فقابلهم العدوّ بالمثل وهجمت طائفة من فرسانه على ميمنة الجنود هجمة شديدة كادوا يسحقون فيها الميمنة سحقا وأصابت كتشنر رصاصة فى فكه الأيمن وأصابته كذلك جراحة عظيمة فتفرقت عساكره شذر مذر وتعذر جمعهم للقتال أو الدفاع وكثرت القتلى والجرحى واقتفى العدوّ أثر من بقى من العساكر يصليهم نارا حامية حتى دخلوا البلد وهم فى أسوأ حال واشتدت علة كتشنر وعظمت جراحته فانحدر من سواكن إلى السويس وجاء القاهرة فاهتم السير بارنج لحضوره وزاره الكبراء والعظماء وجعل أصحاب صحف الأخبار ينقلون للناس أخبار صحته وما يطرأ عليه فى كل ساعة من ليلة ونهاره كعظماء الملوك أو أقيال القوم إذا مسهم مرض ومازالوا حتى برأ وعوفى وزال عنه البأس.

وكما كانت أحوال سواكن إلى هذا الحين فى قلق واضطراب بسبب هجمات العدوّ المتتابعة فقد كانت أحوال مصر أكثر قلقا وأكبر اضطرابا لتفشى الأمراض الخبيثة بين الجنود الإيطالية وفعلها فيهم وفى خيلهم ودواب حملهم ووقوف الحبشان

لهم بالمرصاد وتخطفهم كل من بعد ولو قليلا عن البلد حتى سئمت نفوس العساكر وخارت عزائمهم من السهر ليلا على حراسة البلد والطواف حولها نهارا دفعا لذلك العدوّ الرابض كالأسد وكان قائد الجنود الإيطالية يتقرب زلفى من القاضى إبراهيم شيخ قبيلة الأسورتيين ويستميله بالرشا والبراطيل إلى معاونة الإيطاليان وحماية أجنحة الجيش بنفر من قومه فكان هذا الشيخ كثير التقلب إذا قرب يوما ابتعد أياما وإذا أظهر الرضا والحركة يوما فبالشىء الكثير من المال حتى أعيت الحيلة زعيم السياسة الإيطالية وهمّ بإجلاء العساكر عن مواقعهم والتخلى عما بأيديهم إلى ذلك العدوّ الذى أشبعهم ضربًا وطعنا قد طأطأت لشدتهما الرؤوس وكان قائد الجيوش الحبشية يرسل فى كل قليل رسله إلى الحماسيين يستحثهم على اليقظة وعدم ترك السلاح ويستنهضهم إلى إجلاء العدوّ عن أرضهم فكان دعاته يجوبون البلاد شرقا وغربا وأهل البلاد فى حركة متتابعة ونهضة عظيمة وقد زاد الحال شدة على الجنود الإيطالية اشتداد القيظ وكثرة الموات من تفشى الحميات الخبيثة بينهم، وإلى هذا الحين كان قد تم الاتفاق بين صاحب سياسة الإنجليز والدول الكبرى على عزلة بوغاز السويس وجواز سير سائر السفن فيه وكيفية الحكم فى الخلاف الذى يقع بين الدول فى ذلك وفى حق سيادة الباب العالى وملكيته لسائر الأراضى التى يشقها الخليج من أدناها إلى أقصاها فلما اشتدت الأمراض بالعساكر الإيطالية المرابطين بمصوع وفتكت بهم ذلك الفتك الشديد كلم زعيم سياستهم وزير السياسة الإنجليزية فى أن يأذن لهم بالنزول فى قطعة أرض بمدينة السويس وجعلها مصيفا لهم إبان القيظ فرارا من هذا العدوّ الذى قد ضم عداءه إلى عداء الحبشان فكادوا لا يبقون على أحد منهم فأجابه وزير سياسة الإنجليز إلى ما طلب فهب حينئذ أصحاب صحف الفرنسيس من رقادهم وتبعهم أصحاب الصحف المحلية واستصرخوا الدول كافة وحذروهم سوء عاقبة هذا الأمر وأكثروا من الجلبة والضوضاء ولم يشغلهم عن هذه الصيحة إلا ورود الخبر بهجوم عثمان دقنه ولمومه على حصون سواكن مرة ثانية فإنه لما تم له الظفر بالقبائل المصافية للحكومة وقهرهم طمع فى مقاتلة المصريين فكان لا ينكف عن شن الغارة على ضواحى البلد ولا يقف عند حدّ من تخطف القادمين إليها أو الخارجين منها ورمى حصونها بالقنابل رميا متتابعا ليل نهار حتى فرغ صبر المرابطين وأعياهم الدفاع من خلف الأسوار فتقدمت عند ذلك سفينتان من سفن الحرب الإنجليزية وجعلت ترمى قنابل مدافعها على العدوّ كلما اقترب من البلد وظلت على

هذه الحال أياما فلما كان بعض الأيام رأى الكولونيل تاب مقدم عساكر المصرية أن العدوّ قد احتل عند مطلع الفجر مرتفعات القلعة المسماة بقلعة هدسون وهى لا تبعد عن سور البلد إلا بقدر فرسخ وأن قد جاءه المدد من المشاة والركبان من هندوب فخاف تاب العاقبة ونادى فى العسكر بالخروج من وراء الحصون فخرجوا جميعا بمدافعهم وآلات حربهم وخرج كذلك طائفة من الجنود الإنجليزية ومعهم بعض مدافع السفن وساروا جميعا لإجلاء العدوّ عن تلك القلعة فاشتبك القتال بين الفريقين وحمى الوطيس والتقت السنابك بالسنابك فلم تكن إلا ساعة أوبعض ساعة حتى تقهقرت العساكر ورجعوا إلى الوراء على أعقابهم فتبعهم العدوّ وأصلاهم بناره ثم انقض عليهم من كل صوب فقتل الكولونيل تاب وقتل وجرح كثير ممن معه ومازالت نيران العدوّ تتساقط تساقط المطر حتى غابت شمس ذلك اليوم وتمكن من بقى من العساكر من دخول البلد فرجع أصحاب دقنه بما ظفروا به من الغنائم والأسلاب وشاع الخبر بما جرى ووردت تفاصيل الواقعة إلى الخديوى والوزير نوبار باشا فانزعجا وكان كتشنر باشا قد عوفى فكر راجعا إلى سواكن قيل وأوصاه الخديوى بعدم خروج العساكر من وراء الحصون كى لا يحركوا ساكنا من العدوّ وجاءت كتب زعيم سياسة الإنجليز بالتخلى عن سواكن أيضا وتركها إلى العدوّ فكبر أمر ذلك على الخديوى وأقلقه جداً ووردت أيضا كتب كتشنر إلى الوزير نوبار باشا بأن جماعة من المهاجرين الذين قدموا إلى سواكن أخبروا بأن عثمان دقنه أرسل إلى الخليفة عبدالله التعايشى فى طلب النجدة على قتال المرابطين فى سواكن فإذا جاءته النجدة هاجم البلد بخيله ورجله ولم يتخل عنها حتى يفتحها عنوة ويقتل جميع من بها بحد السيف وكبر خوف كتشنر يومئذ واهتم كثيرا باستطلاع أخبار العدوّ ومراقبة حركاته ورسم إلى جميع العساكر بملازمة الحصون والسهر على حراستها وأرسل دعاته إلى مشايخ قبيلة الرمادر يستفزهم إلى الوقوف فى طريق عثمان دقنه ومنعه من التقدم إلى البلد قيل فأجابوه إلى ذلك وسيروا رسلهم إلى دقنه يقولون له لا تبارح هندوب وإلا قاتلناك أشد القتال ومزقنا جموعك فلم يلتفت دقنه إلى قولهم ولم يهمه أمرهم وقال للرسل: السيف يحكم بيننا فارحلوا عنا فعادوا كما ذهبوا، واتفق أن جماعة من عساكر السفن الإنكليزية الراسية أمام البلد نزلوا إلى البر لحاجة وابتعدوا عن البلد قليلا فخرج عليهم نفر من أصحاب دقنه وأعملوا فيهم الطعن بالحراب والضرب بالسيوف فرأى المرابطون بالقلعة ما حل بالإنجليز فأطلقوا على

العدو مدافعهم فلم تكن إلا ساعة أوبعض ساعة حتى اجتمع العصاة واحتشدوا ألوفا وهاجموا القلعة هجوم الأسود الضوارى حتى كادوا يأخذونها عنوة لولا اشتداد نيرانها عليهم وتراسل قنابل مدافعها ولم يرجعوا عنها إلا بعد قتال عنيف للغاية، وخاف من فى البلد فكادوا يتركونها وينزلون إلى السفن ولم تطمئن قلوبهم إلا بعد رجوع العدوّ عن القلعة وكف المرابطين عن إطلاق المدافع وأصبحوا وقد رأى كتشنر أنه لا يمكن الذب عن البلد وردّ العدوّ عنها إلا إذا أنشئوا قلعة أخرى فأنشئوها وأتموها على أحسن ما يكون وسلحوها بالمدافع الكبيرة وعبوها بالأسلحة وآلات الحرب والمؤن الكثيرة وأقام بها المرابطون فكانوا يدفعون العدوّ عن البلد كل قليل من الأيام وهو لا ينكف عنهم فلما أعياه الحال وعجز عن مناجزة من فى هذه القلعة عاد على أعقابه إلى هندوب فكبر أمر رجوعهم على عثمان دقنه وأعظمه وأرسل الكتب إلى الخليفة عبدالله التعايشى فى طلب المدد ويبشره بقرب الفتح والخليفة يمنيه ويرد عليه الرد الجميل ولم يمده بشىء.

وصـــــل

(فى ارتياب وانقلاب)

قد كانت الرئاسة على طول أيامها لم تصف إلى الوزير نوبار باشا من أكدار الوشاية وأوضار السعاية إذ كان له مع الخديوى من أمرها فى كل يوم شأن ومع السير بارنج فى كل لحظة أخذ ورد بشأن أعمال بعض المأمورين وأصحاب الوظائف وفى نظام بعض الدواوين وفى غير ذلك مما يتعلق بشئون البلاد الداخلية وقد كبرت فى هذه الأيام شدته وعظم إلحاحه فى طلب تنفيذ الكثير من الإحداثات المخالفة للمألوف عند أهل البلاد وإبداع البدع التى لا يقوى الوزير على عملها خوفا من صيحة الأحزاب وتألبهم عليه فكان إذا دافعه وحاجه وكادت حجته تغلب حجته تأفف وقلب للوزير ظهر المجن حتى يكاد يخلط عليه الحال ويفسد عليه كل عمل وتدبير وإذا سايره وعمل بعض الذى يريده كارها قامت صيحة الأحزاب وأخذت الوزير من كل جانب واشتدت جلبة أعدائه وأكثروا من الاجتماع تارة فى بيت مصطفى رياض باشا وأخرى فى مقر الغازى مختار باشا فإذا علت أصواتهم وسمع الناس صيحاتهم ورأوا كثرة اجتماعهم أقبل السير بارنج على الخديوى وتبرأ من تبعة كل عمل وشجعه على الأخذ بأطراف الحزامة وحبب إليه الاستبداد بشئون مملكته

فداخل الخديوى من هذا الحين ما داخله وصار لا يأذن بانعقاد مجلس الوزراء إلا تحت رئاسته ولا يبرم فى شئون البلاد أمر إلا برأيه ولا يعمل عمل إلا بمشورته حتى كاد يستبد بالأمر ولا يترك لأحد من رجال دولته عملا وتعذر على الوزير حينئذ أن يوفى الرئاسة حقها أو أن يأتى عملا إلا ويكون من ورائه اللدد والكمد فكثر توجعه وعظمت شكواه إلى بعض قناصل الدول وضعفت عزيمته عن العمل وضاعت تدابيره فخاب منه الرجاء والأمل وظهرت علامات الوحشة بينه وبين الخديوى وكادت تستفحل فأرسل الوزير تكران باشا وكيل نظارة الخارجية يومئذ إلى زعيم سياسة الإنجليز يشكو إليه علة الوزير وما يلاقيه من أفاعيل السير بارنج وما نجم عن ذلك من الاضطرابات الداخلية التى لابد وأن تودى بنظام الحكومة وترجع بالأحوال إلى أسوأ مما كانت عليه ولبث تكران باشا فى عاصمة الإنجليز أياما ثم قفل راجعا إلى القاهرة وشاع الخبر بعد رجوعه بوصول كتب صاحب السياسة الإنجليزية إلى السير بارنج بالإقلاع عن كل عداء وعدم مساس كرامة الوزير بشىء ولا مراجعته فى شىء من أعمال منصبه فلم يكن هذا الخبر ليرضى الأحزاب ولا ليوقف الأرجاف عند حد بل زاد النفور وربك الأمور ومال بالخديوى إلى التفرد بالعمل والبحث فى الصغيرة والكبيرة من أمور الحكومة وقد أحس مصطفى رياض باشا بما وراء ذلك فعاد يومئذ إلى عمل المآدب للكبراء والأمراء وأصحاب الوظائف وبالغ فى التودد إلى الناس والإقلاع عن التحجب فكثر تردد المديرين وأعيان البلاد على بيته تزلفا فلما كان شهر رمضان من السنة أى سنة خمس وثلثمائة وألف هجرية جاء من مزرعته بمحلة روح إلى القاهرة وأكثر من عمل تلك المآدب فقويت حينئذ ظهور المحازبين له وظهرت جلبتهم وكثرت اجتماعاتهم وفى تاسع عشرى الشهر أرسل الخديوى إلى الوزير نوبار باشا كتابا يقول فيه:

إنه بناء على ما وقع فى جلسة المجلس بالأمس وماهو إلا تكرار ما حدث أكثر من مرة من التباين فى الآراء مما رأيت معه استحالة بقائك فى منصبك فلهذا قد أقلتك منه وعهدت رئاسته وتشكيل هيئة جديدة إلى صاحب الدولة رياض باشا أ. هـ.

ثم أرسل إلى مصطفى رياض باشا يستقدمه إلى الإسكندرية وقد كان الخديوى يومئذ هناك فجاءها فى ظهر الثلاثين من رمضان واجتمع بالخديوى ولبث بحضرته ساعة ثم نزل وطاف يزور بيوت الكبراء والأمراء وقناصل الدول وغيرهم من

الأجانب أصحاب الحيثيات فزاره الجم الغفير منهم وازدحم على بابه الشعراء والمهنئون وأصبحوا وقد خرج الناس من الأمراء والكبراء وأصحاب الوظائف لتأدية واجبات التهنئة بالعيد وصعدوا إلى مقر الخديوى برأس التين فهنئوه، وسمعت بعضهم يقول للخديوى ونحن بقاعة التشريف ساعة التبريك عيد مزدوج يا أفندينا يريد بذلك عيد الفطر وعيد خلع الوزير نوبار باشا وكان ممن سمع معى هذا القول جماعة ممن لا يفضلون فريقا على الآخر فنظر اليّ أحدهم بعد أن خرجنا من حضرة الأمير وقال أو تظن أن الخديوى أقال الوزير نوبار باشا للأسباب التى تضمنها مرسومه؟ قلت لا أظن غير ذلك ـ فقال: اعلم أنه لما كبرت الوحشة بين الوزير نوبار باشا والسير بارنج وعظم الخلاف وضاعت تدابير السير بارنج أدراج الرياح فلم ينل من الوزير مأربا عمد إلى المواربة فكان إذا اجتمع بالخديوى ورأى منه انقباضا خفف عنه وقال: يا مولاى إن البلاد إسلامية وقد بلغت فيها المعارف الحديثة مبلغها فليس من حسن السياسة أن يكون وزيرها نصرانيا ولا من الحزامة أن تترك البلاد هدفا لغايات الأحزاب الذين قد ظهر صوتهم وارتفع نداؤهم، وكان إذا طرأ شىء من الخلاف بين الخديوى والوزير على أمر من الأمور دخل على الخديوى وأظهر التأفف وبالغ فى الإشفاق ـ كل ذلك ليتمكن من خلع الوزير من منصب الرئاسة لكرامة الوزير عند صاحب سياسة الإنجليز وتقديره له حق قدره ـ قال: ومازل بالخديوى وهو يهوّن عليه خلع الوزير حتى ظن الخديوى أن السلامة فيما يشير به السير بارنج وأن الخلاص هين وميسور فلما آنس منه ذلك أشار عليه بتولية الرئاسة للوزير مصطفى رياض باشا وهو يرمى بذلك إلى غايتين أولاهما التنكيل بالوزير نوبار باشا وثانيتهما بلوغ ما يتمناه لدولته من المآرب على يدى مصطفى رياض باشا لشهرته بالوطنية وإعجاب السواد الأعظم بكياسته وحسن تدبيره حتى إذا ارتفعت أصوات الأحزاب يومئذ وعلت ضوضاء أصحاب صحف الأخبار وقالوا فعل الإنجليز بالبلاد كذا وتركوا كذا وكذا أجابهم السير بارنج خففوا عنكم فما هى إلا فعال زعيمكم ومقدام وطنكم فلا لوم على الإنجليز ولا تثريب فتأمل - فقلت ياهداك الله هذه ظنون وأوهام ولله وحده علم ما فى مستقبل الأيام فقال نعم ولكن الأمر ظاهر للعيان والنتيجة لا يختلف قط فيها اثنان واعلم أن الخديوى ما برح ذاكرا للوزير نوبار باشا حسن طاعته وولاءه لذاته وعرشه وهو يعلم أنه أسلم الوزراء نية وأنقاهم طوية وأحب الناس إلى البيت العلوى وأحفظهم لنعمته ولكن وقع القضاء فلا خلاص ولا مناص ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ثم تم تشكيل هيئة الوزراء فكان الوزير مصطفى رياض باشا للرئاسة ولنظارتى الداخلية والمالية ومصطفى فهمى باشا للحربية والبحرية وذو الفقار باشا للخارجية ومحمد زكى باشا للأشغال العمومية وحسنين فخرى باشا للحقانية وعلى مبارك باشا للمعارف العمومية، وجعل الوزير مصطفى رياض باشا يغدو ويروح على مقر الخديوى إلى يوم الثلاثاء ثم عاد مع الوزراء إلى القاهرة وطير الخبر بتوليته إلى الآفاق وكتب إلى سائر المديرين والمحافظين بالقيام بواجب وظائفهم وحذرهم من عاقبة التراخى والإهمال ثم لم تمض إلا أيام حتى استقدمهم إلى القاهرة وأشبعهم تأنيبا وتقريعا ثم حضا على الاستقامة والأخذ بأطراف الحزامة والسهر على راحة العباد وتأمين الطرق والمسالك فى أنحاء البلاد وقد شاع يومئذ أنه على عزم خلع سائر وكلاء النظارات كنظارة الخارجية ونظارة الحقانية ونظارة المعارف فقام لذلك بعض أصحاب الصحف الأجنبية والصحف المحلية وقعدوا وأخذوا يرمون بعض أولئك الوكلاء بشيء من التهم ويوجهون إلى بعضهم اللائمة فكان ممن أكثر الكلام فى ذلك صاحب جريدة الغازيت الإنجليزية وهى لسان الإنجليز بمصر فإنه شط فى المقال وأغلظ فى التعبير وكان إذا أمسك عن الكلام يوما أتته كتب الخصوم فى ذلك تترى فيرجع إلى المهاترة وهذر القول حتى ظن الناس أن مناصب القوم باتت على شفا جرف الزوال وأن قول صاحب الغازيت فى ذلك موحى به إليه من المراكز العالية ولكنه لم يمض على هذه الجلبة إلا أيام حتى نهض أصحاب صحف الإنجليز الكبرى يعيبون على صاحب سياستهم ما وقع من خلع الوزير نوبار باشا ويظهرون الميل والعطف إليه وإلى مباديه وأمياله الشريفة ثم جعلوا يعرّضون بدساس الغازى أحمد مختار باشا مبعوث الباب العالى ويقولون إنه هو علة هذا الانقلاب وداعية ذلك المصاب بإيقاظه الفتنة الراقدة وتشجيعه السير بارنج على ما زين للخديوى عمله وأخذوا من هذا الحين يقلبون للغازى مختار باشا ظهر المجن ويتوعدون الرئيس مصطفى رياض باشا وأصحاب شوراه بسوء العقبى والمصير إن لم يقلعوا عن هذا المنهاج المعيب ويعتدلوا فى سيرهم وتطرق بعضهم إلى القول بأن الرئيس إنما يريد من هذه الضوضاء تولية ولده منصب وكالة الحقانية وزج سائر ذوى قرباه فى مصاف أصحاب الوظائف العالية وقالت بعضهم غير ذلك، وأخذ الرئيس يتصرف فى الأمور فمد يده إلى أعمال سائر الدواوين وبسط عليها نفوذه فتعذر على كبارها توفية وظائفهم حقها واستعصى عليهم رده عن هواه أو مخالفة كلمته فاختلط يومئذ الحابل

بالنابل وفشلوا أى فشل وهو لا ينكف عن ترديد نداء الوعد والوعيد إلى المديرين والمحافظين وسائر أرباب الوظائف بالالتفات إلى تأمين الطرق وقطع شأفة اللصوصية وأصحاب السطوات إذ كثر عبثهم فى هذه الأيام واشتدوا على القرى والبلاد بين قتل ونهب وإفساد فكان كلما اشتد الرئيس على أصحاب الوظائف بسبب ذلك ازداد اللصوص قحة وجرأة على الإفساد وإراقة الدماء وفتكوا بالناس فتكا ذريعا فى مشرق البلاد ومغربها حتى فى القاهرة ومصر القديمة إذ سطوا على بيت حسين فخرى باشا ناظر الحقانية وأخذوا منه شيئا من الحلى والأعلاق النفيسة وكذلك فعلوا ببيت نوبار باشا بعد رحيله إلى الديار الأوروباوية وبيت الطبيب جرانت بك الإنجليزى وأزعجوا أهل القاهرة ومصر وبلغ خوف الناس منهم معظمه فكان إذا خرج الرجل من بيته لحاجة وكل جاره بحراسة بيته حتى يعود والرئيس مع هذا كله كان يقول: عسير علىّ أن أرى فى أيام رئاستى غير ما هو صائر من تأمين الناس على أرواحهم وأموالهم وعيالهم وقطع شأفة أصحاب الشقاوة .

واجتمع به يوما مكاتب جريدة الستاندرد الإنجليزية فحادثه فى أحوال البلاد وما عليه أهلها من القلق والخوف المتزايد بسبب عبث اللصوص فى مشرق البلاد ومغربها وفى التهم الفاضحة الموجهة إلى أصحاب بعض الوظائف الديوانية وأشار على الرئيس بتشكيل لجنة شبيهة باللجان التى يتولاها مجلس الأشغال العمومية فى عاصمة الإنجليز وأن تكون أعمال هذه اللجنة علنية لا تخفى على أحد من الناس فقال له الرئيس: إن مثل هذه اللجان فى بلادكم لا تتناول إلا أبناء جنسكم فقط على حين أنها إذا أنشئت هنا حال دون بلوغها الغاية موانع شديدة إذ تقوم الأحزاب ويندفع كل منهم على الآخر ويرمى غيره بالتهم والوشاية وهناك تكون الطامة الكبرى- إلى أن قال: وحقيقة الأمر أن الأحوال فى السنوات الست الماضية « يعنى بها أيام رئاسة الوزير نوبار باشا» قد بلغت حدا من الخلل والارتباك لم أكن أخالها تبلغ إليه عند ما استلمت زمان الرئاسة فى هذه المرة والذى أراه أنه ليس فى الإمكان الآن فحص جميع الأعمال المخلة التى عملها بعض موظفى الحكومة لا سيما وأنهم فيما يظهر قد أقدموا عليها مدفوعين ممن كانت واجباتهم تقضى عليهم بمعاقبتهم قال: وأؤكد لك أنه لا يكاد يمضى يوم حتى يظهر فيه مظهر جديد مشوّه بالعيوب والخلل مما كان يدفع بى أحيانا إلى القنوط إذ أجد نفسى تجاه أمور ثقيلة تقضى على بالعناء الكثير والذى يدهشنى ويوجب مزيد استغرابى هو عدم تداخل الدولة

الإنجليزية فى ذلك الأمر وإغماضها الطرف عن الأعمال السابقة «يعنى أعمال الوزير نوبار باشا» قال وإنى لا أقصد محو المغايرات القديمة والإغضاء عنها ولكنى سأجهد النفس فى نسيان الماضى لا سيما وأن المستقبل معقودة نواصيه بنزاهة الأعمال الحاضرة أ. هـ.

قلت : ومحصل بعض هذه التهم التى أشار إليها ذلك المكاتب الإنجليزى أنه لما سقطت الخرطوم وانحدرت الجيوش الإنجليزية وتحقق الناس خروج الأقطار السودانية من قبضة الخديوية المصرية تقدم إلى ديوان الخزينة جماعة من اليونان والروم الذين كانوا يتجرون فى السودان يطالبون بمال لهم فى ذمة غردون أيام الحصار ودفعوا إلى الخزينة صكوكا موقعا عليها بخاتم غردون تثبت أن فى ذمته لأصحابها مالا اقترضه للنفقة أيام الحصار وتزاحمت أقدام هؤلاء القوم على أبواب الخزينة وهم فى كل يوم يلحون فى طلب مالهم فاهتمت الخزينة يومئذ بالأمر وأكبره رجالها وشكلوا لفحص تلك الصكوك هيئة ممن أشار بهم جماعة الإنجليز فتقرب أصحابها حينئذ من بلوم باشا وكيل الخزينة وأورنشتاين كاتب سر المستشار المالى فيل ومنوهما ووعدوهما بالوعود الكثيرة ففصلا فى الأمر وقاسا وألبسا كلا من أصحاب تلك الصكوك ما لاق فهمّت الخزينة بالوفاء وهى فى إمحال وعسر فلم تتمكن فانبث أصحاب الجباية يومئذ يجوبون البلاد شرقا وغربا ويجمعون الأموال والضرائب مع العنف والشدة وطلب أصحاب تلك الصكوك مترادف حتى برح الخفاء وبان فساد تلك الصكوك وتحققوا أن خاتم غردون مزوّر فامتنعت الخزينة من القيام بتعهداتها وخابت مساعى كل من كان فى قلبه مرض بعد فيل وقال ضربنا عنهما صفحا فلما ذاع كلام الرئيس مصطفى رياض باشا مع ذلك المكاتب على ما تقدم وتناقله الناس أخذت الرئيس ألسنة الأحزاب وعابوا عليه خيلاءه وتفاخره وقالوا عسير عليه أن يدرأ عن نفسه وصمة هذا التزلف وعار التقرب من الإنجليز وهو رجل الوطن ووحيده وتطيروا من ذلك وحسبوا للمستقبل أيام رئاسته فى هذه المرة حسابا كبيرا.

وكان قد حدث على عهد الوزير نوبار باشا حادث فى الفيوم ـ وذلك أن أحد أصحاب الحيثيات بها واسمه مصطفى بك واصف قتل فى إحدى ليالى شهر رمضان فى بيت وجيه من البلد اسمه خليل الدهشان فاهتمت الحكومة يومئذ بالأمر ورسم الوزير نوبار باشا إلى جماعة من المأمورين بتحقيق هذا الحادث وإظهار الجانى فلم يفلحوا واختلط عليهم الحال أياما فلما تولى الرئيس مصطفى رياض باشا الرئاسة

وآنس من الناس قلقا واضطرابا لفقدان الأمن وعبث اللصوص فى سائر البلاد عمد إلى إظهار شىء من الشدة فى تحقيق مقتل مصطفى بك هذا ورسم به إلى جماعة اصطفاهم وهم حشمت بك رئيس محكمة المنصورة، وأحمد خيرى بك قاضى تحقيق جنايات محكمة مصر، ومحمد صبرى بيك أحد ضباط قسم الضبط فساروا جميعا إلى مدينة الفيوم وقبضوا على خليل الدهشان صاحب البيت الذى قتل فيه مصطفى بك وعلى جماعة آخرين ممن حصروا الشبهة فيهم وزجوهم فى المحبوس وضيقوا عليهم وشددوا فلم يصلوا إلا إلى معرفة أن الرجل أصيب بطلق نارى وهو يلعب النرد مع خليل الدهشان ثم شاع الخبر بعد ذلك أن خليلا وأخاه خير الله هما القاتلان ـ قالوا: وتحرير الخبر أن مصطفى بك هذا جاء فى إحدى ليالى شهر رمضان من مزرعته إلى بيت الدهشان ليزوره لمودة وصحبة بينهما فبعد الإفطار وأداء صلاة التراويح جلس مصطفى بيك مع الدهشان على مسطبة فى صحن الدار يتحادثان لحظة لطيفة ثم طلب مصطفى بيك من الدهشان أن يلاعبه النرد « الطاولة» فأجابه إلى ذلك ونادى على أحد أتباعه أن هات لنا الطاولة فأتى بها الخادم فبينما كان خليل يرتب أحجارها نظر مصطفى بيك مسدسا بجانب خليل فقال ما هذا؟ قال هو مسدس من الطراز الجديد قال أرنى إياه ومد يده وأخذه فقلبه وأعجب به كثيرا ثم ناوله إلى الدهشان فجعل الدهشان يقلبه أيضا ويطرى على صانعه فلم يشعر مصطفى بيك إلا وقد خرجت منه رصاصة أصابت كتفه فانزعج وصاح فى وجه الدهشان وقال «أهى خونة يا كلاب فلا كنتم ولا كانت صحبتكم» فجاء فى الحال خير الله أخو خليل وصاح على أخيه ما هذا وما الذى تنتظره بعد الذى جرى عجل بإزهاق روحه ـ قال وأخذ هو المسدس وأطلقه على مصطفى بيك ثانية فأماته. قالوا وقد شهد شهود الحال بهذا المقال فأتم جماعة المحققين عملهم وانحدر حشمت بك إلى القاهرة وأخبر الرئيس بما جرى قيل فأعجب الرئيس فطنته وذكاؤه واهتم بالأمر ورسم إلى حسين فخرى باشا ناظر الحقانية بتشكيل محكمة مخصوصة للحكم في مقتل مصطفى بيك فرفعوا بذلك طلبا إلى الخديوي فأجابهم إليه وتشكلت تلك المحكمة من خمسة قضاة وهم: عبدالحميد باشا، وأحمد بليغ بيك، وإبراهيم نجيب بيك، ومحمد كمال بيك صهر الرئيس مصطفى رياض باشا، وسليمان رؤوف بيك، وأحمد حشمت بيك، لأداء وظيفة المدعى العمومى وتقرر بأن تتبع هذه المحكمة فى أحكامها نصوص القانون الجديد المعمول به فى المحاكم الأهلية بالأقاليم البحرية

لأنه إلى ذلك اليوم لم تكن تأسست المحاكم بالأقاليم القبلية وبأن يكون حكمها فى ذلك نهائيا لا يقبل طعن على أى وجه كان فلما كان صباح الاثنين خامس عشرى المحرم افتتاح سنة ست وثلثمائة وألف هجرية انعقدت هيئة تلك المحكمة وأوقفوا أمامها خليلا وأخاه خير الله ووقف معهما أحمد أفندى الحسينى وخليل أفندى إبراهيم المحاميان عنهما وبعد دفاع يومين كاملين حكمت المحكمة بإعدام خليل وأخيه شنقا، وصادق قاضى قضاة مصر والخديوى على ذلك وأعطى للمحكوم عليهما مهلة ثمانية أيام من يوم صدور الحكم لكى يدبر أمر عيالهما وعلاقاتهما ثم نفذ الحكم على خليل بمدينة الفيوم وعلى خير الله أخيه باهربيت إحدى قرى الفيوم فلما وضعوا حبل المشنقة فى عنق خليل وأزاحوا الكرسى الذى كان تحت أقدامه انقطع الحبل وسقط خليل مغمى عليه فأجلسوه على كرسى وذهب الجلاد يشترى حبلا آخر من سوق البلد ففتح خليل عينيه وقال ائتونى بقليل من الماء فأتوه بركوة فشرب قليلا والتفت إلى الجمع وقال: أشهدكم بأنى مظلوم مظلوم ويعلم الله - القصاص قريب - ثم أغمض عينيه وسكت فضج الناس وتوجعوا وظهرت حركتهم وعاد الجلاد بالحبل ووضعه فى عنق خليل وشده فبقى معلقا وفاضت روحه فى الحال وشاع خبر هذا الحادث فانقبضت صدور الناس لسماعه وعاب كثير من القضاة على تلك المحكمة حكمها ورموا بعض رجالها بالمروق عن جادة الحق وكثر تحدث الناس فى ذلك ولا سيما بعد أن خلع الرئيس بعض أصحاب الوظائف العالية وحاكم البعض الآخر ممن كان لهم يد فى التحقيق الأول. حدثنى وجيه من وجهاء الفيوم قال: أيظن الناس أن خليل الدهشان وأخاه خير الله هما قاتلا مصطفى بك واصف - قلت: لم يبق على ما أظن من ريب عند أحد فى ذلك بعد أن حكمت به تلك المحكمة العليا فأطرق ثم رفع رأسه وقال عرفت مصطفى بك منذ حين وأعرف ولدى الدهشان من قبل فأحدهما وهو خليل صعب المراس قوىّ الشكيمة جبار عنيد ولكنه جواد كريم حسن المعشر بعيد عن الجور وكان بينه وبين مصطفى بك صحبة ومودة عظيمة لا لغرض سوى محض الإخلاص وكان أعرابى اسمه منصور مستأجرا لشىء من أطيان خليل الدهشان بإحدى قرى الفيوم وله زوجة جميلة قد علق خليل بحبها وعلقت هى كذلك به فكان خليل يزورها فى خدرها كل قليل من الأيام وتزوره فى بيته بالبلد وكانت مع شدة مراقبة حليلها وغيرته لا تخشاه ولا تنكف عن الإتيان إلى خليل وشاع خبر ذلك بين الناس وعرفه كبار البلاد وصغارها حتى ندّد بعضهم يوما بزوج المرأة وناداه بعضهم بفحش القول فصمم الرجل على الانتقام من

خليل وجعل يراقب الفرص وخليل يعلم ويحذر ويدفع بالرجل إلى المهالك رجاء الخلاص منه واتفق أن حضر مصطفى بك فى إحدى ليالى شهر رمضان لزيارة خليل فى داره باهربيت والإفطار عنده فى تلك الليلة ففرح خليل بحضوره وبعد الإفطار جلسا على مسطبة بصحن الدار يتحدثان ساعة ثم قال مصطفى بك لخليل أو ليس عندك طاولة للعب فقال عندى قال: هاتها لنلعب معا قتلا للوقت فنادى خليل على أحد أتباعه أن ائتنا بالطاولة من بيت النساء فدخل الخادم وأبطأ كثيرا فقال مصطفى بك أين الطاولة ياقوم ما هذا الإبطاء فخجل خليل من إبطاء الخادم وأسرع إلى بيت النساء فلاقاه الخادم عند الباب وقال له: سيدى فلان «يريد به ابن أخى خليل المتوفى» منعنى من أخذ الطاولة ويقول إن أخته ماتت منذ خمسة أيام فكيف يليق لعب الطاولة وقد لطمنى على وجهى فلما سمع خليل ما قاله الخادم غضب وأسرع بالدخول وكان ابن أخيه قد رآه على هذه الحال فأسرع إلى الطاولة وأخذ حجرا من أحجارها ليمنع من الاستفادة منها فمال عليه خليل وأشبعه ضربا ولكما وأخذ الطاولة وخرج مسرعا وجعل يعتذر إلى مصطفى بك ومصطفى بك يضحك فجلس خليل وفتح الطاولة يريد رص أحجارها فوجد حجرا فاقداً فنادى على الخادم أن أحضر لنا قرشا نحاسًا نضعه بدل الضائع من الحجارة فذهب الخادم، وعلم منصور العربى فى تلك الساعة بخبر جلوس خليل وضيفه فى صحن الدار فأتى مسرعا يتأبط بارودته ووقف خلف سور صحن الدار والسور لا يتجاوز ثلاثة أذرع ارتفاعا وصوب بارودته نحو رأس خليل وكان فى هاته اللحظة قد رجع الخادم وناول سيده القرش فأخذه وانحنى قليلا وجعل يرص الحجارة ثم رفع رأسه قليلا ثم طاطأها فأطلق الأعرابى بارودته فخرجت رصاصتها عند انحناء خليل واحتكت برأسه من خلف إلى الإمام وأصابت كتف مصطفى بك ثم استقرت بقلبه ففاضت روحه لساعته واختفى الأعرابى فلم يعلم به أحد فقامت ضجة فى بيت خليل وامتلأ صحن الدار بالعدد العديد من أهل البلد وطيروا الخبر بما حصل إلى المدير وإلى أهل الفقيد فوردت يومئذ كتب الوزير نوبار باشا مشددة بالقبض على القاتل وجاء بعض مأمورى الحكومة لتحقيق الحادث وبثوا العيون فدلت التحقيقات على أن الطلق النارى كان على بعد بضعة أمتار وأن مقذوف البارودة شظية من الرصاص لا رصاصة من رصاص المسدسات واستخرج تلك الشظية جماعة من الأطباء فلم يبق موضع للريب عند أحد فى أن القاتل هو غير الدهشان. قال: ولكن أين هو القاتل يا ترى لم يحصل العثور عليه إلى ذلك الحين، واتفق أن عزل الوزير نوبار باشا من

منصبه فتولى الرئاسة مصطفى رياض باشا فاهتم بهـذا الحادث اهتماما عظيما لسعاية بعض الخصـوم وتقرب أصهار مـصطفى بك من مجلس الرئيس فوردت كتـبه على مدير الفيوم بالتشديد فى طلب القاتل والتحذير من عاقبة التوانى ثم لم تكن إلا أيام حتـى أرسل أحمـد حشمـت بك أحد رؤساء المحـاكم الأهليـة ومعـه جماعـة من المأمورين فما لبثوا أن قبضوا على خليل وأخيه خير الله وزجوهما فى الحبس مع نفر من أهل البلد وعملوا مـا لا خير فـيه إذ نبشـوا جثة المقتـول وأخرجوها من قـبرها وكبسوا بعض الدور وفتشوها ونقلوا شيئا مما وجدوه بها ومنعوا المسجونين من الراحة فى الليل والنهار واشتـدوا عليهم فى الأخذ والرد شدة بالغة وقـالوا إن الجراحة التى شوهدت فى رأس خليل ليست إلا كيا بمسمار محمى فى النار يراد به درء فعل القتل عنه. قال: وقـد كان السـواد الأعظم من أهل الفيـوم يعلم بأن الحقـيقـة غابت عن أولئك المأمورين أو هم أخـفوها لغرض فى النفس فأخذتهم الطـيرة وكانوا إذا تكلم بعضـهم مع بعض فى شىء من ذلك تكلمـوا همسا خـوفا من العـيون وكثـر غدو ورواح حشمت بيك إلى القاهرة فكان كلمـا ذهب وعاد قلب الأعمال بطنا إلى ظهر وبالغ فى الحيطة والتشـديد على المسجونين ثم جاء جماعـة من القضاة للحكم على خليل وأخيه فى محكمة مخصوصة أو هى مـحكمة عليا كما سموها وجلسوا لذلك يوما وبعض يوم قـام فيهمـا حشمت بك مدعـيا فبـالغ فى القول وشط فى الطلب وعاب على بعض مأمـورى التحقيق عملهم وارتاب فى ذممهم ولم يتـرك جارحة إلا وطعن بهـا جسم خليل وأخيـه خيـر الله ثم أخذ بعـد كلام طويل ينادى القـصاص القصاص احكموا لنا بتعليق هذين السفاكين على خشبة احكموا احكموا على قاتلى ذلك البرئ احكموا فكان السامعون يدمدمـون فيما بينهم ثم قام المدافعون عن خليل وأخيـه وتكلموا واحتجـوا بأقوى الحجج وبرهنوا بأعظم مـا يكون من البراهين على براءة خليل وأخيه واستلفتوا أصحاب الحكم إلى صوت الحق الصـارخ أمامهم حتى بكى بعض الحاضرين وبعد أخذ وردّ تقدم خليل وكانوا قد فكوا قيوده وأغلاله وقال بصوت استلفت إليـه الأنظار: يا سادتى اتهمنى وأخى خيـر الله حضرة هذا المدعى الذى لم يراع الذمـة ولم ينصر الحق واشـتد على وعلى أخى شـدة الله يحكم فيـها بعـدله وزعم أن الجراحـة التى أصـابت رأسى من الطلق النارى الذى أصـاب قلب فقيدنا مصطفى بيك إنما هى جراحة أحدثها لى أحد الحـلاقين إخفاء لحقيقة جريمتى وقد سمعتم من دفاع المدافعين عنى ما أسأل الله أن يوفقكم به إلى الصواب فلم يبق إلا أن أسألكم أمـرا هو إن وفقتم إلى الحكم على وعلى أخـى بالقتل ولا أظنكم إلا

فاعلين فأستحلفكم بمن ترجون منه الرحمة من هول هذا الموقف الرهيب أن تبدءوا بى وتستبقوا أخى خير الله أياما حتى تفحص الأطباء جراحتى بعد الموت فإن كانت إصابة حقيقة وليست جراحة من يد حلاق كما يزعم مدعيكم فأطلقوا سبيل أخى ليعول صبيتى وأهلي ويكون قد خفف الله عنكم وزرا من وزرين وكفاكم عقاباً من عقابين وإن كانت جراحتى كما يقول صاحبكم فأنتم فى حل من دمى ودم أخى والله على ما أقول شهيد ثم ذرفت عيناه الدمع فانتحب وبكى الناس لبكائه وكادوا يضجون ويرفعون أصواتهم. قال الراوى: فعند ذلك قام القضاة واختلوا برهة ثم خرجوا وجلسوا على كراسيهم ونطق الرئيس بالحكم على خليل وأخيه بالإعدام شنقا فانذعر الناس وخرجوا وكأن على رؤوسهم الطير. قال: واتفق أن عاد السير بارنج قنصل جنرال الإنجليز إلى القاهرة بعد غياب وشاع خبر حضوره فعلمت به عجوز هى أم خليل وخير الله فقامت لساعتها ومعها صبى لخليل لم يناهز الخامسة وانحدرت إلى القاهرة واتصلت بباب السير بارنج واستجارت فأدخلها إليه وسألها عن سبب حضورها فقصت عليه الخبر وقالت جئتك يا سيدى لا لتخلص ولدى من الموت بل ليبدءوا بقتل خليل وفحص جراحته فإن كانت كما يقول فأبقوا لى خير الله يعولنى ويعول صبيته وصبية أخيه وإن كانت كما يزعم مصطفى رياض باشا وأصحاب شوراه فهم فى حل مما يفعلون. قال: وبكت العجوز بكاء مراً وترامى الصبى على أقدام السير بارنج فطيب السير خاطرها ووعدها خيرا. قال: وكأن السير بارنج أرسل إلى الرئيس مصطفى رياض باشا يستعلم عن هذا الحادث فلم يكن إلا يوم أو بعض يوم حتى جاء أحمد حشمت بك إلى الفيوم يحمل الأمر بتنفيذ الحكم على خليل وأخيه، ولم يكن قد مضى الأجل المضروب لذلك قانونا فأنفذوه على ما اشتهر خبره يومئذ وبلغ السبع الطباق أ.هـ

قلت: وكأن الرئيس كان يظن أن فى قتل ولدى الدهشان، وعبرة وإرهابا لأهل الشقاوة وأصحاب اللصوصية الذين ملئوا البلاد شرقا وغربا ينهبون ويقتلون ويقطعون الطرق فلم يصب ظنه المرمى فإنه ما انتشر خبر هذا الحادث حتى كبرت قحتهم وعظمت جرأتهم وانبثوا فى سائر أنحاء الإقليمين فكانت الأخبار تأتى إلى الرئيس تباعا بوقوع النهب والقتل وإتلاف المزارع وتسميم الماشية حتى ضج الناس وذهب منهم الصبر وتولاهم القنوط واليأس وقد زادهم قلقا واضطرابا ورود الخبر بظهور الوباء فى مكة واشتداد الموات بين الحجاج شدة بالغة فاهتمت رجال الحكومة لذلك اهتماما كبيرا ورسم الخديوى بناء على ما قرره مجلس الكورنتينات بإرسال قوّة

كبيرة من العساكر والأجناد إلى مدينة السويس لتقوم بعمل طوق صحي ما بينها وبين طور سينا وعيون موسى وتشديد مراقبة الحجر على الحجاج فى الطور عند قيامهم من جده وغيرها وبالغت الخزينة فى بذل النفقة اللازمة لذلك وتحوطت الدول الأجنبية كافة فضربت الحجر على سائر ما يرد إلى موانيها من الموانى المصرية وسواحل البحر الأحمر وأرسل بعضهم إلى السويس رسلا ليراقبوا مرور الحجاج بالترعة الملحة عند عودتهم إلى أوطانهم وخاف الناس من تناقض الأخبار وورودها متقضبة مبتورة عن ظهور هذا الداء أيضا فى رواندوز من بلاد الموصل وفى جزيرة ابن عمر وغيرها من البلاد العربية وهو آت إليها من الهند الإنجليزية وكثر اجتماع الرئيس مصطفى رياض باشا بكبار موظفى ديوان الصحة ليروا رأيهم فيما يجب عليهم عمله لقاء هذا العدوّ الفتاك وطاف أطباء أقسام مصر والقاهرة فى الأزقة والحارات ومعهم أصحاب الشرطة ومشايخ الحوارى يستحثون العامة إلى نظافة بيوتهم والعناية بتطهيرها وصارت الأخبار تأتى فى كل يوم من مكة والمدينة بعدد الوفيات فكان مبلغها فى اليوم نيفا وألفًا فاشتد الخوف بالناس وكبرت حيطة رجال الحكومة ورسم الخديوى بمنع عمل الموالد ومنع الناس من الاحتشاد فيها وأرسلوا بعض سفن الحرب لحراسة السواحل من السويس إلى دبه ومنها إلى الزعفرانة وأقاموا أربطة من الجنود على هذه السواحل لمنع الفارّين من الحجر والأخبار ترد فى كل يوم باشتداد الوباء فى مكة وفى المدينة ودخوله إلى جدة وفتكه بالحجاج فتكا ذريعا ثم كثر توارد الحجاج على ظهور السفن إلى الطور وعيون موسى فأنزلوهم هناك محجورا عليهم وبقى الحال هكذا أياما وجاء الخبر يوما إلى محافظ السويس بفرار أربعة من الطوق الصحى ودخولهم المدينة ثم فرارهم منها ليلا إلى القاهرة واختفائهم فى بولاق مصر فطير الخبر بذلك إلى محافظ مصر فاهتم له المحافظ وبث جماعة من أصحاب الشرطة فى طلب الفارّين فعاثوا فى بولاق مصر وكبسوا على كثير من الدور والوكائل على غير طائل واتفق أن مرض رجل من سكان بولاق مرضا عاديا سبقه بعض القئ والذرب فأخبر شيخ حارته طبيب القسم بخبره فسار الطبيب إلى منزل المريض ليبحث عن علته وسبب مرضه فوجد أن الرجل قد مات وأن أهله يستعدون لتشييع جنازته فمنعهم من ذلك وأرسل فى طلب عربة الموتى من مركز صاحب الشرطة ببولاق وطير الخبر إلى محافظ البلد بأن الرجل مات بالهيضة الوبائية ثم منع الناس من الاقتراب من الجثة وبالغ فى ذلك فقام عليه حينئذ أهل الميت وأشبعوه ضربا ولكما ووخزا وأخرجوه خارج الدار وقفلوا دونه الباب فلم تكن

إلا لحظة حتى أتى رجال الشـرطة ونفر من رجال الصحة ومـعهم عربات نقل الموتى وتطهير متاع المصابين بالأمراض المعدية وشيء من العقـاقير ومواد التبخير ودقوا باب بيت الميت فلم يفتـحوا لهم فظلوا على هذا الحال سـاعة اجتمع فـيها العامـة وزعر بولاق بعصـيهم وهراويهم واشتدت جلـبتهم وصيـاحهم فى وجه أصحـاب الشرطة ورجال الصحة وعلا عويل النسـاء وصراخهن من شبابيك الدور ورموا رجال الصحة بالحجارة من أسطحة البيوت وكثر الهرج والمرج فأتى محافظ المدينة فى نفر من الجند والأتباع ومازال بأهل الميت حتى فتحوا الباب فدخل أصحاب الشرطة ورجال الصحة وحملوا الجثة عنوة ووضـعوها فى عربة الموتى فسارت بها على عجل إلى مـستشفى القصر العينى والناس مـحتشدون حولها وهم فى ضجة وصيـاح فكان المشهد مريعا وخاف الناس خوفا عظيما وظن بعضهم أن قد أنشب الوباء أظفاره فى جوف بولاق القاهرة بدخول الفارّين من الحـجر الصحى إليها واستصـرخ أصحاب الصحف على اختـلافها رجـال الصحة واسـتنهضت أصحـاب الشرطة إلى الأخـذ بأطراف الحزم والثبات وسألت أصحاب الحل والعقـد أن لا يبخلوا ولا يقتروا فى النفقة حتى يدفع الله عن البلد شر هذا العدوّ القاهر وأكثر الأطباء من نشر الإرشادات الطبية والنصائح الصحية لعل الناس يعوّلون عليها ويعملون بها، فلما كان اليوم الرابع من ظهور هذا الحادث ظهر الخبر وتحقق أن ذلك الميت لم يمت بالهـيضة الوبائية وأن مرضه إنما هو من الأمراض العـادية التى تحصل عـادة فى فصل الصيف مـن كل سنة وأن الرجال الفارين من محـجر الطور ليسوا من الحـجاج وإنما هم ممن ذهب مع ركب الحج يوم خروج المحمل من القاهرة ثم تخلفوا بالسويس لضيق ذات اليد ولبثوا بالبلد ينتظرون رجوع الحجاج فـينزلون معهم إلى القاهرة كأنهم حجوا وطـافوا وتمموا المناسك كلها زورا وبهتانا وتكلمت فى ذلك الجـريدة الرسمية وأقامت عليـه الدليل فاطمأن الناس وزال عنهم الخوف وكبرت عناية أصحاب الحل والعقد بمراقبة السواحل والتشديد فى النطاق الصحى بمحجرى عيون موسى وطور سينا.

وبينما كـان دعاة الصحـة يطوفون المدن والبلدان شـرقا وغربا وشـمالا وجنوبا يحـضون الناس على تنظـيف دورهم وإصلاح حـالة طعامـهم والعناية بماء شـربهم والامتناع عن كل ما من شأنه تسرب ذلك الداء الفتـاك إلى البلاد وفتكه فيهم وفيمن يحبون كـان جباة الخراج يطوفون كذلك البـلاد زمرا يجبون الأموال فى غيـر آجالها ويشددون على الناس فى ذلك تشديدا بالغا وكـان بعض المديرين يبذلون من الهمة فى ذلك والعناية به ما أعـجب الرئيس مصطفى رياض باشا وأرضاه إذ كـان يخشى

عاقبة إمحال الخزينة وفراغها من الدرهم والدينار وعجزه عن القيام بالنفقة المطلوبة ـ قيل وهو فى كل يوم يقول لجماعة الإنجليز إن أيام رئاستى خير ورخاء على البلاد وأهلها فرسم للمديرين كافة يومئذ بخروج الجباة والتشديد عليهم فى جمع الأموال وعدم الوقوف فى التحصيل عند حدّ فطافوا وعاثوا واشتدوا على الناس فضج الناس وعجوا إلى الله تعالى وأرسلوا الشكاوى تترى إلى ديوان الرئيس بطلب المهلة وكف أيدى الجباة إلى حين فلم يلتفت الرئيس إلى ذلك بل رسم أيضا بتحصيل سائر المتأخرات على اختلافها وعدم التجاوز عن شىء منها وسير بعض المأمورين وأصحاب الوظائف إلى الأقاليم يستحثون الجباة على التعجيل وعدم الإبطاء فضاق خناق الناس وتولاهم القنوط وانحدر منهم جماعة كثيرة إلى القاهرة ووقفوا على أبواب الداخلية والمالية يرجون لقاء الرئيس أو لقاء صهره محمود باشا دبوس أوغلى فلم تمكنهم الحجاب من ذلك أياما.

واتفق فى هذه الأثناء أن تولى وكالة الخزينة المستر منلر أحد كبار الإنجليز «وقد كان مديرا لحسابات الخزينة» بدلا من بلوم باشا الذى تولاها فى عهد الخديوى إسماعيل وبقى شاغلا لها حتى أقصاه الإنجليز عنها فى هذه الأيام صاغرا لأسباب لا محل لإيرادها هنا فتزاحم القوم على باب منلر وصاحوا واستغاثوا ووردت على ديوانه كذلك صكوك الظلامات من كل فج عميق فأكبر منلر الأمر واهتم له اهتماما عظيما لأنه أعلم الإنجليز بحالة البلاد وأهلها وما هم فيه من شظف العيش وخلو ذات اليد وأعلمهم كذلك بقدر اهتمام الرئيس بجباية الأموال وميله إلى قهر الناس على دفعها صاغرين فسار من فوره إلى الإقليمين القبلى والبحرى وطاف كثيرا من المدن والبلدان وخبر من أحوال أهلها ما زاده شفقة وعاد إلى القاهرة فسير إلى المديرين والمأمورين فى منع الجباية إلا فى آجالها المقررة وكف الجباة عن المطالبة بالبقايا والمتأخرات إلى ميسرة وشدد عليهم فى ذلك تشديدا فلم يعجب الرئيس فعال منلر وعابها وحسبها تعديا وافتياتا على منصبة وهمّ بردّ كل شىء إلى ما كان عليه وأرسل فى طب سائر المديرين ووكلاء المديريات فحضروا فخلا بهم فى ديوانه يوما أو بعض يوم ثم أرجعهم إلى مراكزهم فلم تكن إلا أيام حتى ظهر لمنلر وجماعة الإنجليز أن بعض المديرين يكرهون مشايخ البلاد على تقديم عرائض يسألون بها دفع جميع الخراج معجلا عن السنة الجارية أى سنة تسعين وثمانمائة وألف ميلادية وأن قد ورد على ديوان الخزينة شىء من تلك العرائض فاهتم منلر بالأمر كثيرا وطال الأخذ

والردّ بينه وبين الرئيس أياما ثم أرسل منلر كتبه إلى المديرين ثانية بالكف عن الجباية والإقلاع عن كل إكراه وإلا ساءت العاقبة وعظم الحساب وبدت من هذا الحين دلائل الوحشة بين منلر والرئيس ونفر كل من رفيقه واهتم منلر بإيقاف الرئيس عند حده وبالغ فى السعى وراء ذلك وعلم الناس بما جرى ففرحوا وحمدوا منلر وشكروه فتكلم فى ذلك بعض أصحاب صحف الأخبار وعابوا على الرئيس فعاله وقالوا ما ضره لو أقلع عن هواه وقلل من حدّته ولم يمكن منلر من الغلبة عليه وتنفير قلوب الناس منه وهو رجل الوطن وكاشف غمته ومفرج كربته فردّ عليهم بعض أصحاب الصحف المحازبة للرئيس ردا كله مماحكة ومهاترة ووقعوا على المستر منلر باللائمة وأشبعوه تأنيبا وتقريعا، وتلاقيت يوما مع أحد المقربين من مجلس الرئيس فقلت قد ذهبت أتعاب صاحبكم فى التعجيل بجباية الخراج قبل أوانه وفى تحصيل البقايا القديمة والمتأخرات العاطلة هدرا وقد كان عهدنا به أن لا يصرف وجه أصحاب الظلامات عنه ولا أن يمكن أحدا من طرق باب غير بابه فان ذلك كما تعلم أدعى إلى الصغار وأدنى إلى مهواة البوار وكلنا يعلم ما لصهر الرئيس من الحيطة والقدرة على تلافى مثل هذه الفلتة المزرية المعيبة خصوصا فى هذه الأيام التى قويت فيها شوكة الأجنبى واتسعت سلطته فسبحان الله ـ فتبسم الرجل عند ذلك وقال: وأى حيطة تنفع أو قدرة تدفع والرئيس قد خص ذاته بقضاء أشغال الخزينة ولجناتها ومجلس الوزراء وجلساته وأشغال الداخلية وفروعها واهتم بمعرفة أسرار وعورات كل فرد من أفراد مستخدمى كل ديوان وإدارة من الصغير إلى الكبير فضلا عن عنايته الكبرى بنشر المنشورات والإكثار منها وقلب النظامات وغير ذلك من دوام التفكير فى أحسن التدابير مما لا يقدر عليه أحد غيره ـ قلت: إنى لا أراك مصيبا فى ذلك لأن ما لا يقدر على عمله بنفسه وقلمه وهو على كرسى إدارة الخزينة مثلا يقوم بعمله صهره محمود باشا وهو فى مسند وكالة الداخلية ـ قال: وهل لصهره من الوقت ما يكفيه لقضاء مثل هذه الأعمال الخطيرة كلها وقد هجر منزله فى بولاق مصر ولازم دار الرئيس بالحلمية نهارا وليلا ولا يجد مع ذلك ساعة يقضيها فى حوائج نفسه لأنه يأتى نظارة الداخلية فى صباح كل يوم فيجد على مكتبه الشىء الكثير من الرسائل الرسمية والكتب الخصوصية فيفض ختامها ويقرؤها جميعها ويحفظ الخصوصى منها ثم يرد الباقى إلى أصحاب الوظائف الديوانية كل هذا وهو يقابل الكتاب والحجاب وأصحاب الحاجات الخصوصية وأرباب الوظائف العالية وأصحاب الحاجة من مشايخ البلاد حتى الساعة الأولى بعد الظهر فيذهب إلى دار الرئيس ويجلس معه على مائدة

طعام الظهر ويقص عليه حوادث الصباح وما فيها وقصص أفراد السهارة فى الليل وحاجات أصحاب الحاجات منهم ثم يذهب فيستريح قليلا ويقوم بعد ذلك إلى حيث يستقبل الوافدين فيرد عليه رواة الحوادث والأخبار اليومية والجواسيس الخصوصية ثم المرتزقة وطالبو الخدمات ووظائف مشيخة البلاد وأرباب الصحف وأصحاب الوساطة فيقضى بقية يومه فى سماع ظلاماتهم وربما حنّ لشكوى بعضهم وتوجع لبلواهم حتى الغروب فيأخذ فى قراءة الصحف بتأمل وإمعان فيذم الذامة منها ويضرب بها عرض الحائط ويقبل على المادحة ثم يقوم إلى تناول الطعام مع الرئيس فيقص عليه ما اتصل به من أخبار نقلة الأخبار والجواسيس ثم ما قرأه فى الصحف من مدح وقدح ثم يشير على الرئيس بأن يأمر بإقصاء زيد عن خدمة الحكومة وبإدخال عمرو فيها وبردّ بكر إلى مشيخة بلده كما كان وغير ذلك من المقاصد والآراء إلى أن ينتهى من الطعام فيرجع إلى حيث يستقبل الناس فيدخل عليه حينئذ المدلسون والمملقون والمداهنون والواشون والآكلون للحوم إخوانهم والزوار فمن كان من هؤلاء مقبولا فى مجلس الرئيس استأذن له وأدخله وإلا أخذ يسمع له شكواه ويتأوّه لبلواه حتى منتصف الليل فيتركه ويذهب إلى غرفة نومه أو يشعر الرجل بثقل وطأته فيرحل من ساعته وهو يعض أصبع الندم على ما أضاعه من الوقت فقل لى بعيشك أين الساعة التى يتمكن فيها من نظر تلك الظلامات وهذه الحال حاله بين ليله ونهاره فقلت إن لله فى خلقه شئونا.

(مطلب)

عدم بلوغ النيل حده المألوف من الزيادة

ولم تكد تطمئن القلوب بزوال الوباء وعودة الحجاج إلى أوطانهم وسلامة البلاد كافة من تسرب الداء إليها حتى ظهر انخفاض فيضان النيل عن معتاده فى كل عام وعدم بلوغه حده المألوف الذى ترتاح إليه الخواطر فكان قلق أهل الإقليم القبلى والحوف الشرقى عظيما إذ ارتفعت عندهم أسعار الغلال من القمح والفول والشعير والعدس والحلبة وقلّ علف دوابهم فانحدروا بها إلى الأقاليم الوسطى والإقليم البحرى طلبا للكلأ والعلف فاهتمت الحكومة لذلك وظهر اهتمام جماعة الإنجليز بالأمر تقربا من أهل البلاد وزلفى وسار محمد زكى باشا ناظر الأشغال إلى الإقليم القبلى لينظر فى تدارك الخطر قبل استفحاله وسار معه الماجور روس مدير رى الإقليم القبلى وهو من كبار مهندسى الإنجليز رجل كبير الدراية واسع الخبرة عالى

الفكر مهندس حاسب مقدام لم يضارعه أحد ممن تولى عمل الرى قبله وقل أن يضارعه أحد من بعد فاهتم الماجور روس بالأمر وعمل من خوارق الأعمال الهندسية ما أزال الخوف وأمن الناس فعاد من نزح منهم إلى بلده وجاء زمن الرى فلم يتعذر سوى رى الجزر المرتفعة والحوف الشرقى وقليل من الأحواض العالية ببلاد إسنا وقنا وجرجا فأصاب أهلها الضر ولا سيما أهل الحوف الشرقى منهم فمات بعضهم وأنشبت الأمراض الخبيثة أظفارها فيمن بقى منهم وكبرت عناية الماجور روس بأمر رى ذلك الصعيد واهتم بتنسيق جسوره وتنظيم أحواضه على أحسن ما يكون من الأشكال الهندسية وعمل من خوارق الأعمال شيئا كثيرا ولم تبخل الخزينة بالمال وأكثرت من بذل النفقة حتى جاءت أعماله آية من الآيات الهندسية وهى باقية إلى ما شاء الله تشهد للرجل بالفضل وطول الباع.

(مطلب)

مجيء ولي عهد السلطنة الإنجليزية إلى مصر

وجاء الخبر فى هذه الأيام إلى ديوان الخديوى بقيام الأمير دى غال ولى عهد السلطنة الإنجليزية على ظهر إحدى سفنهم الحربية يريد ديار مصر والمكث فيها أياما معدودة فرسم الخديوى إلى الرئيس مصطفى رياض باشا بالتأهب للقاء هذا الضيف العظيم فقام رجال الدولة حينئذ من مصريين وإنجليز لذلك وقعدوا وبالغوا فى الاستعداد فلما كان يوم الأربعاء سابع ربيع الأول من السنة أى سنة سبع وثلثمائة وألف هجرية سير الخديوى أخاه الأمير حسن وذو الفقار باشا ناظر الخارجية وعبدالرحمن رشدى باشا كبير التشريفات ومحمد زكى بك التشريفاتى إلى الإسكندرية على قطاره الخاص لينوبوا عنه فى استقبال الأمير فساروا إلى سراى رأس التين وباتوا ليلتهم وأصبحوا وقد جاءهم الخبر من بورسعيد بقرب وصول الأمير إليها وأنه قد رجع عن عزمه على القدوم إلى الثغر الإسكندرى وأنه أراد الذهاب إلى القاهرة عن طريق الإسماعيلية فقاموا من ساعتهم إلى الإسماعيلية على القطار الخديوى ومنها إلى بورسعيد ولبثوا يومهم ذلك حتى وصل الأمير فى نفر من الحاشية والأتباع فقاموا فى ركابه إلى القاهرة وكانت قد توجهت ساعة الظهيرة كوكبة من العساكر المصرية وأخرى من العساكر الإنجليزية إلى محطة السكة الحديد للقاء الأمير وكذلك وفد إليها الوجهاء ومقدمو العسكر ورؤساء النظارات ثم تبعهم الخديوى بلباس الزينة والتشريف ومعه جماعة الوزراء وكبار الدولة بزينتهم ووقفوا

جميعا على أكمل هيئة ونظام حتى أقبل القطار الذى يقل الأمير وأولاده ورجال حاشيته فأطلقت عند ذلك مدافع التعظيم واستقبله الخديوى بالتجلة والتكريم وأركبه على يمينه فى عربة تجرها أربعة من جياد الخيل يتقدمها طائفة من الفرسان المصريين والإنجليز وخلفها عربة أولاد الأمير ومعهم الأمير حسين أخو الخديوى ثم عربات الوزراء وكبار الدولة ومازالوا سائرين حتى وصلوا إلى دار قنصلاتو الإنجليز فنزل بها الأمير وحاشيته وذهب الخديوى إلى مقره بعابدين وأقام الأمير فى تلك الدار لحظة تناول فيها طعامه ثم سار فى موكبه إلى سراى الجيزة وقد كانت أعدت لنزوله فزاره الخديوى فرد له الزيارة على الأثر ولما كان فى مساء ذلك اليوم أقبل الأمير إلى سراى عابدين بموكب حافل لمأدبة أدبها له الخديوى وفيها ثمانون مدعوا فلبث إلى ما قبل نصف الليل بقليل ثم عاد إلى مقره بالجيزة وفى اليوم الثالث خرج إلى شوارع المدينة وجعل يتجول فيها وفى ركابه السير بارنج وشاع الخبر فى ذلك اليوم بأنه سيستعرض الجيوش الإنجليزية والمصرية معا بميدان العباسية عند الجبل الأحمر فهرع الناس إلى ذلك المكان أفواجا وانتشر أصحاب الشحنة على طول الطريق ذات اليمين وذات الشمال ثم أقبل الخديوى فى موكبه فلم تكن إلا ساعة حتى برز كل من الأمير والخديوى إلى الميدان فى ملابس زينته وتشريفه ممتطيين جوادين ووقفا وحولهما كبار الجند ومقدمو العسكرين وخلفهما حاملو العلمين فهتف لهم الجند بأصوات التهليل وصدحت الموسيقى بألحان السلام ومرت من أمامهما العساكر والأجناد مشاة وركبانا وكذلك أصحاب المدافع وما يتبعهم فكان المنظر مهيبا والناس فى دهشة وسكون كأن على رؤوسهم الطير إشفاقا مما عساه أن يكون من وراء مجيء ذلك الأمير إلى هذه الديار، واتفق أنه فى مساء ذلك اليوم كانت الليلة الكبرى لمولد صاحب الشريعة المحمدية المعتاد عمله فى كل عام فبعد أن تناول الأمير العشاء مع الخديوى ركب عن يمينه فى موكب حافل مشى فيه الوزراء وكبار العسكر وساروا إلى ساحة المولد ونزلوا بفسطاط شيخ مشايخ الطرق لحظة لطيفة. ثم انتقلوا إلى فسطاط الخديوى وجلسوا به ساعة كثر فيها لغط العامة وتساؤلهم وترامت ظنونهم إلى أسمج المرامى ثم انصرفوا جميعا وباتوا وأصبحوا وقد ركب الخديوى فى موكبه وسار إلى محطة السكة الحديد وخلفه سائر الوزراء والأمراء وكبار العسكرين يريدون وداع الأمير حتى إذا كانت الساعة التاسعة صباحا أقبل الأمير وولده يحف بهما موكب حافل من الفرسان وطائفة من الحرس الخديوى فاستقبله الخديوى وبالغ فى وداعه فركب الأمير مع حاشيته القطار إلى الإسكندرية فلما وصلها نزل فى سفينته فأقلعت به إلى بعض الثغور الإيطالية .

وما تحركت سفينته حتى تحركت معها أقلام أصحاب الصحف العربية المحازبة للسياسة الإنجليزية بمصر فجعلوا يتكهنون وينبئون بمستقبل الأيام ويقولون قد قضى الأمر ونفذ القضاء وأذن الله بضم الديار المصرية من أقصاها إلى أقصاها إلى ملحقات السلطنة الإنجليزية فلا دافع ولا راد لقضاء الله ولا مجير لأهل البلاد سوى الاستسلام وخفض جناح الطاعة لأولى الأمر من الإنجليز وأن تقلع الأحزاب عن تلك الضوضاء وتنكف عن استصراخ الدول لتخلصهم من سيطرة الإنجليز فقام حينئذ فى وجههم أصحاب الصحف الأخرى وكذبوا فيما يقولون ورموهم بالخيانة وبيع الذمم وقالوا لهم إنما أنتم فى إضرام نار هذه الفتنة مريدون السوء للبلاد وأهلها وكثر اللغط فى ذلك كثيرا حتى أرجف بعض أصحاب تلك الصحف بأن الخديوى قد استسلم وأطاع وعقد النية على تسليم البلاد بشروط وقع الاتفاق عليها بينه وبين الأمير دى غال وعندى أنها فرية ما أنزل الله بها من سلطان .

واشتدت عزيمة السير بارنج بمقدم الأمير دى غال وأظهر ما كان يخفيه من الشدة والجبروت وكان الرئيس قد تمكن من بسط يده على سائر الدواوين والإدارات وقلب بعضها بطنا إلى ظهر ومسخ نظام بعضها واشتد على قضاة المحاكم الأهلية فخلع بعضهم لغير علة ولا سبب ظاهر وهدد بعضهم بشىء من قارص الكلام فاختلط الحال على من بقى منهم وأصبحوا وهم فى ريب من استقلالهم وسلامة مراكزهم وبات حسين فخرى باشا ناظر ديوانهم مغلوبا على أمره ليس له من حق النظر سوى الاسم والأمر للرئيس مصطفى رياض باشا وحده فكان إذا أخذت حسين باشا يوما عزة النفس وهمّ بعمل يرضى الله والناس قام فى وجهه محمود باشا صهر الرئيس فينكف وفى النفس ما فيها وظل الحال على هذا المنوال حينا حتى تحركت من جراء ذلك خواطر جماعة الإنجليز القابضين على زمام بعض المصالح الديوانية وأكبروا عمل الرئيس وأعظموه وعابوا عليه عسفه وخيلاءه وشكوه إلى السير بارنج فعمد السير بارنج حينئذ إلى إيقاف كل عند حده قيل وقد زاده اهتماما بهذا الأمر ما عرفه من دخائل حادث مقتل خليل الدهشان وأخيه خير الله وما تحققه من أسباب التعجيل فى تنفيذ الحكم بإعدامهما قبل الأجل المفروض وجعل من هذا الحين يكيد للرئيس كيدا فكان إذا همّ الرئيس بأمر من الأمور وقف فى وجهه ورده عنه ومنعه من هواه فيتركه أياما ثم يرجع إليه فيرده وهكذا حتى اشتد الجفاء وكبرت الوحشة بين الاثنين وظهر للعيان بغض بعضهما لبعض فتحقق الناس من خذلان الرئيس وقالوا بأنه معزول لا محالة وأن رئاسته باتت على شفا جرف الزوال ومال الخديوى

أيضا عن مسايرته وعاب عليه الشيء الكثير من أعماله وأنكرها فظهرت عند ذلك جلبة الأحزاب وترددت رسل الرئيس على دار السير بارنج يسترضونه ويستميلونه وهو يكيد له كيدا ويعمل على تسليم زمام الوظائف العالية إلى جماعة الإنجليز ويطلق لهم الكلمة فيما هم قابضون عليه منها ويفسح لهم نطاق سلطتهم بلا حد ولا تقييد وظل الحال على ذلك حتى بات أصحاب الوظائف من الأهلين وهم لا يملكون من أمرهم فى مناصبهم شيئا سوى جماكيهم وما يتبعها من الألقاب والنعوت وذاع الخبر بأن السير بارنج سيتقدم إلى الخديوى فى طلب إقامة مستشارين من كبار الإنجليز فى كل وزارة من وزارات الحكومة ليحولوا بين هوى الرئيس وحقوق المأمورين وأصحاب الوظائف الذين أثقلهم نير الرئيس وعسفه فقام عند ذلك أصحاب الصحف المحاربة يقرعون السير بارنج ويرمونه بالجور فرد عليهم أصحاب بعض الصحف الكبرى الإنجليزية كصاحب التيمس وصاحب الدالى نيوز وصاحب مجلة القرن التاسع عشر ردا كله إيعاد ووعيد وإرهاب وتهديد ثم نادوا صاحب سياستهم أن اضرب على يد أولئك الأغرار الذين زينت لهم أنفسهم الإمارة إذهاب ما صنعته أيديك من الإصلاح فى أرض الفراعنة وأدراج الرياح ولا تكن ضعيفا مستضعفا فيشمت بك الشامتون ويستخف بك المستخفون فلم تمض على هذه الضجة إلا أيام حتى تقدم السير بارنج إلى الخديوى فى طلب إقامة رجل من الإنجليز مستشارا قضائيا يكون مقره بديوان الحقانية ويختص بالإشراف على سائر أعمال المحاكم الأهلية والشرعية على السواء فلا يبرم أمر إلا بإشارته ولا يتم عمل إلا برأيه- قال : كى لا يبقى للرئيس مصطفى رياض باشا دخل فى شىء من هذه الشئون وكى لا تزول بهجة ذلك النظام الذى أحدثته يد السلطة الإنجليزية بعد ذلك العناء الكبير. قيل فمال الخديوى إلى مقالة السير بارنج ووقعت عنده موقعا مقبولا لأنه كان يكره من الرئيس استبداده بسائر الأمور وضغطه على صغار وكبار المأمورين وأصحاب الوظائف وكان ينهاه عن ذلك ويتألم من اندفاعه وراء صغار الأمور وإيغار الصدور على غير مسوّغ فكتب صاحب جريدة الأهرام لمحة فى هذا المعنى بعنوان «صهوات المناصب لفوارس التجارب» وهى من حسن السبك وخالص النصح بمكان عظيم قال فيها:

سأل أحدهم حكيما من أجلّ الرجال فقال: من قام بأجل الأعمال قال من هو وما هى قال من قاد أبدان الناس بقلوبها وقلوبها بخواطرها وخواطرها بأسبابها قال إذا تعنى رب المنصب ومنصبه أجاب أنت قلت وإلى هذا المعنى أشار أرسطو

الفيلسوف على الإسكندر حيث قال املك الرعية بالإحسان إليها تظفر بالمحبة منها واعلم أنك إنما تملك الأبدان فاجمع لها القلوب لأن الرعية إذا قدرت أن تقول قدرت أن تفعل فاجتهد أن لا تقول تسلم من أن تفعل. نتج مما ذكر أن سياسة المنصب من أجل الأعمال وأن القائم بمواجبها له امتياز الفضل بين الرجال ولا غرو فإن المرء ليتولاه الشعور بالفخر وتتلقاه نوافل الثناء وهو لم يحسن القيام إلا بسياسته وسياسة خاصته فكيف به وقد أضاف إلى ذلك إحسانه سياسة العامة، ولما كان مقدار فضل المرء على سواه موقوفا على مقدار نفعه سواه كما جاء فى الحديث الشريف «إن خير الناس من نفع الناس» كان لرب المنصب ما ليس لغيره من الذرائع التى تعدّ له سعة المجال فى سبيل نفع الناس وليس بخفى على البصير أن المرء يطالب بقدر مكنته ووسائطه إذ لا جود إلا من وراء موجود فإذا أمسك موسرا ليم لوم من بسط معسرا وإذا نشرت له الأيام بساط العمل فطواه إما بذراع أدماها سهم الخمول والكسل أو بيد أشلها الغرض والحمق قضى عليه العدل بعقاب من عاكس إحكام الوضع والطبع وخالف قانون العرف والشرع وهل تفترش الأيام بساط العمل لرجل أولى من رجل المنصب فهو ولا مراء شريك الطبيعة فى المحافظة على قوانينها والاحتفاظ على نواميسها بل هو آلتها المنفذة لأحكامها والقائمة بحركة دقائقها فإذا لم تكن صالحة حالت دون الحركة فنشأ الضرر وقد قيل إذا زل العالم زل بزلته العالم ومثل ذلك زلة من يتولى مصلحة العباد ويقوم بسياستهم فهو قد عهد إليه أهم أعمال الإنسان فكان مركبه خشنا وموقفه هائلا وحسبه من صعوبة المراس جمعه من الأضداد ما قاله عمر رضى الله عنه وهو لين لا يتولاه ضعف وقوة لا يمازجها عنف أو ماقاله آخر تواضع عن رفعة وزهد عن قدرة وإنصاف عن قوة.

وإذا سبرنا غور الحقائق بإمعان الفكرة وإنعام النظرة وأنسنا إلى صحة المبادئ التى شرحنا متونها وقفنا أمام المنصب وقد حفرت بنان الحق على قوائم كرسيه الأربع أربع كلمات وهى وطنية حكمة همة مسئولية فوجدنا الموقف هائلا لأن من ورائه التقاضى إلى محكمة مهيبة عادلة قانونها الذمة وقاضيها الضمير ومنفذ أحكامها الشرف فمن العبث إذا أن تسند المناصب إلى من لا تهصر أعطاف الوطنية فى مقامه ولا يجنى ضرب الحكمة من ضروب بنانه ونفثات أقلامه ولا يسل سيف الهمة من أجفاف نشاطه وأغماد إقدامه ولا تشام بارقة شعور فى أفق ضميره من سحب نقضه وإبرامه إلى أن قال : أما الوطنية فهى المحور الذى تدور عليه كرة الخواطر أو النقطة التى ترسم منها دائرة الشعور والعواطف يولدها الطبع وتنميها التربية ويكفلها الشرف

وتعززها الأريحية ولها على المرء من الحرمة ما لوالديه عليه لأنها تقوم بكفايتهما ليقوما بكفايته ولم تعمر البلدان إلا بمحبة الأوطان ولذلك قالوا إن حب الأوطان من الإيمان فعلى صاحب المنصب أن يتصف قبل كل صفة بالوطنية الصادقة ويأنس إلى وفاء حقوقها العامة قبل النظر فى وفاء حقوقه الخاصة لاشتمال الأولى على الكل والثانية على الجزء والجزء داخل فى الكل وأن له من احتضان الطير لعشه مهمازا لشاكلة تنبيهه.

وأما الحكمة فهى الدعامة الثانية المتممة للوطنية لأن مجرد إرادة الميل إلى العمل لا يغنى مالم يشفع بقوة فاعلة مدركة تستبين أوجه العمل والذرائع التى تنطبق على ذاك الميل وتجاوب على تلك الرغائب الصادقة وإلا ضاع الميل القويم باستكانة عن خمول أو نزق عن جهل فأتى الضرر من حيث يرجى النفع ووقع الخطأ من حيث يرام الصواب ومن هذا القبيل قولهم عدوّ عاقل خير من صديق جاهل.

وأما الهمة فمن متممات الحكمة لأنها القوة المنفذة لها والكافلة لاغتنام نتائجها بل هى التى تمتطى الليل والنهار فى مجاهل العمل إنفاذا لما تشعر به الوطنية ويقضى بإيجابه الحكمة فمن ثبطت همته عن السعى إلى الأمام نقلته إلى الوراء أدوار الأيام.

وأما المسئولية فما هى إلا خلاصة القوى الثلاث ومن خصائصها التنبيه والتحذير وصون رب المنصب من الخطل فى القول والزلل فى العمل صونا ناشئا عن رعاية لحرمتها وإدراك لأهميتها فمن لا يسئل عما يعمل يأخذه دافع من اثنين إما قعود يمازجه كسل وإما غرور يخالطه طيش وفى الأول سقوط وخمول يفضيان إلى الإضاعة والضعة وفى الثانى استبداد وظلم يؤديان إلى النفرة والضغينة وبئست نتيجة المقدمتين .

ولكن بأى شىء تقوم الوطنية يا ترى أبالدعوى بها قولا والإغماض عنها عملا أم بمجرد الانتماء النسبى دون القيام بمواجبه أم بالتحامل على قريب لم يسئ أم بكسر الأبواب الموصدة دون تداخل الغريب أم بنسيان الواجبات التى تستلزمها الوطنية على مبدأ الدين والشرف ـ كلا ليس ما ذكرناه من الوطنية فى شىء فالقول لا يصدق حتى يشهد به العمل ولو أنك لم تقل ولم تفعل خير من أن تقول ولا تفعل وأفضل منه فعل لا يسبقه قول وما ألطف ما قاله صفى الدين الحلى فى مثل ذلك إذ ضمن فى شعره مثل البلبل والصقر فقال البلبل مخاطبا الصقر:

وقـــال أراك جـلـيـس المـلــوك ... ومن فــوق أيديهـــمــو تحــمل
وأنت كـــمـــا عـلمــوا أخــرس ... وعن بـعض مـــا قلتــه تنكل
وأحــــبس مـع أنـنـي نـاطـــق ... وقـدري عنـدهمـو مـهـــمل
فــــقــال صـــدقـت ولكـنهـم ... بـذاك دروا أنـي الأفــــــضل
لأني فــــعلت ومــــا قلـت قط ... وأنـت تـقــول ولا تـفـــــعل

وأما مجرد الانتماء دون القيام باللوازم فكـالصفر عن يسار العدد لا قيمة له أو كواو عمـرو تكتب ولا تقرأ بل هو عيب لا يستر وذنب لا يغفر ومـثله إيقاع الأذية بمن لم يسئ تشفيا وانتقاما على جهل بدعوى أن ذاك ليس منا مع أن السياسة تقضى بأن تعتبر من ليس عليك فى مـصاف من هو مـعك ويعاكس ذلك تمهـيدك لمن هو عليك السبيل الذى تمهده لمن هو معك وهذا من قبـيل وضع الشىء فى غير موضعه ومثل ذلك إغـضاؤك أو صمك الأذنين دون اسـتماع صـوت الدين والشرف اللذين يقضيان عليك بأن تفدى وطنيتك بما عز وهان وتحـتقر فى جنب صونها كل مصلحة خاصـة وإن عظمت وتحترم كل مـصلحة عامة وإن حـقرت تلك هى الوطنية الحـقة الصادقة التى يجب أن يتجلى بها كل ذى منصب ورئاسة .

ثم بماذا تقـوم الحكمة الوطنيـة يا ترى أبالاسـتبداد فى الرأى والعمـل أم باتخاذ المنصب ذريعة لـلإضرار بالناس إجابة لداعى الانتـقام أو إصـاخة لإشارة أم بتـفريق كلمة أبناء الوطن وإيجاد الشقاق بينهـم ودفع الواحد منهم للإيقاع بالآخر أم بإنفاذ الغرض الخاص وتحميل المؤتمرين بالأمر ما ليسوا مكلفين باحتماله أم بأسر الإرادة فى شئون الإدارة وإطاعة كل إشارة أم بتفضيل حـلاوة المنصب مجردة على مرارته مركبة وقد نتـجت المضرة من بينها وحكم العـقل والعيان بهـا وأبى الطبع الشريف قبـولها فكل ذلك بينه وبين الحكمة بون شـاسع وبعد سحيق ـ فـأما الاستبـداد فضرب من ضروب الحماقة وقـالت الحكماء: الرجال ثلاثة رجل ونصف رجل ولا رجل فالأول من له رأى ومـشورة والثانى من لـه رأى ولا مشورة له والثـالث من لا رأى له ولا مـشورة فـالمستـبد لابد من أن يكون ثانى الـثلاثة أو ثالثـهم ولا يعزب عنا قـوله : ﴿وشاورهم في الأمر﴾ والمشورة من الروح القدس قال الشاعر:

أقرن بـرأيك رأى غيـرك واستـشر ... فـــالأمـــر لا يخــفي علي الاثنين
للمــرء مـــرآة تـــريــه وجهــه ... ويـــرى قـفـاه بجـمـــع مـرآتين

وقال آخر :

شـــارو ســـواك إذا نـابتك نـائبـــة يومـــا ولو كنت من أهل المشـورات
فـــالعين تنظر مـنهـــا مـــا دنا ونأي ولا تـــري نـفـسـهـــا إلا بمـرآة

وقيل لرجل من عبس ما أكثر صوابكم فقال: نحن ألف رجل وفينا حازم واحد فنحن نشاوره فكأننا ألف حازم، وأما اتخاذ المنصب ذريعة للمضرة فمن أكبر المعايب وأخس الأفعال فـعلى رب المنصب أن ينسى صفته الخاصـة وهو فى منصبه ولا ينظر إلا فى صفته العامة التى تحظر عليه الانتقـام إما لغاية داخلية أو لإشارة خارجية فإن ذلك من الدنايا التى يتـرفع المنصب عن النزوع إليهـا ومن سوء الطبع اندفـاع القوى إلى الإضـرار بالضعـيف وإن لم يحل دون ذلك حـائل فكيف به وقـد قـام حاجـز حصين هو منصة تحمل دعـامتها نجاد حسام العدل والحق ولذلك امـتاز كبار الرجال بتنكبهم عن هذه الخلة وشرفوا مناصبـهم برعاية ما ظهر لهم صوابه ولو بدا من عدوّ ألد فـضلا عن صـديق أودّ، ثم الإغـضـاء عمـا لم يأت على مـرادهم أو لم يلائم سياسـتهم، بل ما هى الحكمة الوطنيـة من وراء نثر النظيم وتشتيت الجميع إذا كان رب المنصب يثـير ثائرة الحـقد من هذا على ذاك ويفـرق كلمة الرعـية المؤتمرة بـأمره ويولد الضغائن والأحقاد فى القلوب بإنشاء الأحزاب المتباينة وتعضيد البعض للتغلب على الآخر إمـا لانتقـام خاص عن كـره لذاك وإما لغـاية أخرى مثل أن يـتوهم أنه بتفريق كلمتهـم تـسود كلمته فيأمن فى سربه وينال مرامه ويجـاوب جشع طمعه بينا تقضى الحكمة بجمع الشتيت ونظم النثـير وإزالة الأحقاد وتأليف القلوب ونبذ التنافر ومثل ذلك يقال فى تحميلهم ماليسوا مكلفـين باحتماله بأن يكرههم وهوغير مصيب أو مسوق إليه بموجب قـانون على قبول ما يكرهون وهم مصيبـون وغير مكلفين به بقانون ولله در من قـال من تداخل فيـما لا يعنيه سـمع ما لا يرضـيه وأن ليس فى القانون محاباة وجوه ومراعاة خاطر على حد قول الشاعر:

ولـم أنس المليحـة حين راحـــت إلى قاضـــى المحبـة تشتكينـــى
فقلت لها ارحمى ضعفى فقالت وهل فى العشق يا أمى ارحمينى

وكيـف يليق به وهو يرى نفســه أهلا لمنصـبه أو أسـمى منه أن يكلف من يأتمر بأمره إما عن رجاء أو عن تهديد بتـحمل ما يكره وهو غير مكلف به وهل ذلك من قبيل الحكمة الوطنيـة والطبع الشريـف والمنزع السامى ومن هذا القـبيل أيضـا عدم استـقلال الإدارة فى شـئون الإدارة وهكذا - إلى أن قـال: وليس من الحكمـة أيضا

رفض رب المنصب كل ما يطلب إليه ثم قبوله لكل ما رفض لأن الرفض إما أن يكون عن أنفة واستكبار إجابة لخلق غريزى يرتاح إلى مجرد النهى والأمر دون النظر فى صوابية المطلوب وإما عن اقتناع مسبوق بتروّ وإمعان بأن المطلوب لا يناسب فإذا كان الأول ولا مناص من القبول فالأولى عدم الرفض لأن مرارة العود إلى القبول تربو على حلاوة الاستبداد بالرفض وإذا كان الثانى فالثبات على الرفض أولى ولا عبرة للمصانعة إذا كان هناك سبيل للتخلص منها والتنصل من تبعتها ويقاس على ذلك تفضيل الحلاوة المجردة على المركبة التى كدرتها المرارة فإن فى منابذتها حلاوة لا تعقبها مرارة وهى وسيلة للتجرد عن مضرة تكتنفها معرة.

ثم بماذا تقوم مهمة الحكمة الوطنية أبالنزوع إلى إنفاذ العمل دون رعاية الظروف أم بالضغط الشديد المتولد عنه ضغط متسلسل؟ ليست هذه المهمة تقوم بمثل ذلك لأن الإسراع فى إنفاذ العمل دون رعاية الظروف يدعو فى كثير من الأحايين إلى تجاوز الحقيقة والتخطى إلى الاعتساف فلكل مقام مقال والأشياء مرهونة بأوقاتها وكثيرا ما أفسد العمل التسرع فى إنفاذه ولذلك قالوا فى العجلة الندامة وفى التأنى السلامة وإما الضغط المنوّه عنه فأقل ما فيه أن يدفع العمال بالتسلسل إلى الإخلال بالقانون والعبث بأحكامه وما أحسن ما جاء عن معاوية فى هذا الشأن حيث قال: إنى لا أضع سيفى حيث يكفينى سوطى ولا أضع سوطى حيث يكفينى لسانى ولو أن بينى وبين الناس شعرة ما انقطعت فقيل له وكيف ذلك قال كنت إذا مدوها أرخيتها وإذا أرخوها مددتها - ثم بماذا تقوم المسئولية وراء ذلك أبالاسراع فى العمل حسنا أو قبيحا أم بمجرد نيته دون إنفاذه أم برفعها عن كاهله وإلقائها على كاهل غيره؟ كلا لا تقوم المسئولية بشىء من ذلك ولكنها وتقوم بأن يعلم رب المنصب أنه مسئول أمام منصبه أوّلا من ربه وثانيا من ضميره وثالثا من شرفه ورابعاً من أميره وخامسًا من وطنه وسادسًا من خاصته وبأن يعلم عظم هذه المسئولية وأهميتها وما يترتب عليها له ولوطنه من مضرة ونفع وخير وشر - وأن عليه تلقاء ذلك مواجب ذات شأن تقضى عليه بمغادرة الوسن وملازمة السهر ومزاولة العمل ومراقبة الحوادث وانتهاز الفرص ومنابذة الأغراض والترفع عن الدنايا والتجلد على مضض الشغل واحتمال أثقاله بالصبر والتؤدة والرفق بمن يأتمرون بأمره وزرع بذور الاتحاد والألفة والمحبة بينهم واستئصال جراثيم الشقاق والخلاف والضغائن والأحقاد بحيث يكون لهم بمثابة أب وأخ وابن فيبر أباه ويحفظ ويرحم ابنه تلك هى مسئولية المنصب بل تلك هى بعض المواجب التى عليه ولا سبيل لتنصله من تبعتها إذا لم يقم بها فإذا قرن استقلال

إرادته بحسن إدارته أتاحــت له الأيام إدراك غايته ونيل بغـيته فلزم الوظيـفة يشرفـها وتشرفه واسـتمال إليه قلوب من سلم زمـام أمرهم فأخلصوا له فى الـسر والنجوى ووثقوا منه بعدم تغيره فى سلوكه لوثوقهم بأن نفـسه أسمى من منصبه على نحو ما قاله أرسطو وقد سـئل عما دفع زيدا إلى التغـير بعد الولاية فقـال: من ولى منصبا وكانت نفسه أكبر منه لم يتغير له ولكن إذا كانت نفسه أصغر منه تغير له. فالمنصب إذا مقام خطير محفوف بالمصاعب فمن الخطأ أن تراه العامة بالنظر المجرد فتحكم بأن صاحـبه آمـر مطاع لا يهمه إلا إصـدار الأمر ونيل الراتب بل يجب أن لا يـفوتهم العلم بحقائقـه من أن صاحبه أليف الأرق حليف الفكر رفيق الهمـوم حديد اللحاظ شديد التأثر مديد التصور هدف لسهام اللوم عرضة لملاحظات العموم مسئول عن كل ما يفعـل عدوّ لنصف من يرعاهم ولو عدل بعـيد السخط قريب الرضـا ومن كانت هذه مواجبه وكلها مرارة فهل يحلو له ذكر المنصب فهو على حد المثل القائل «درهم من عسل على قنطـار من خل» وحسبـه هما اضطراره إلى الاحتـفاظ على الأحكام السياسيـة ليتذرع بها إلى نيل غاية صعبـة المنال ألا وهى استمتاعه بهيـبة الخاصة مع صدق مودته وانقيـاد قلوب العامة بالإنصاف إليها وقد قل بـل ندر من حنكته تجربته ومكنتـه حكمـتـه من الوصـول إلى هذا المطلب ولذلك قلنا إن صـهـوات المناصب لفوارس التجارب أ.هـ.

فكان كل ما فى هذه المقالة من المغامز الظاهرة والمطاعن الخفية قليلا من كثير مما بدا من الرئيس مـصطفى رياض باشا لدى توليـه المنصب فى هذه المرة وتناقل الناس مقـالة صاحب الأهرام هذه فـى الأندية والمجتمـعات فكانت سـمر ليلهـم وحديث نهارهم حتى ظن بعضهم أنه موعز إليه بها من ديوان الخديوى الخاص إرهابا للرئيس وتحذيرا والأمر علـى غير ما يظنون فإنه لما اخـتلط على الرئيس الحال وفسـد التدبير وساء المال ونال السيـر بارنج من دواوين الحكومة كل منال اجتمعت كلمـة أصحاب صحف الأخبـار المحلية على نشر هذه الشوائن على رؤوس الملأ والتـعريض بها كل قليل من الأيام عسى أن يقلع الرئيس عن هواه ولا يعطى نفسه مـشتهاها فترجع عن بغضـه القلوب وتنكف عن تقريعـه الألسنة وتقف مطامع جمـاعة الإنجليـز عند حدّ ولذلك لم يهبّ أحـد من المحـازبين للرئيس إلى الرد على مـقالة صـاحب الأهرام وأقوال غـيره ممن حـذا حذوه بل أقـبلوا على قـولهم وأنزلوه من سمـعهم وقلبـهم وامتدحوه قالوا فقد بلغت الروح الحلقوم والسكين العظم.

(مطلب)

وقوف عثمان دقنه بسواكن على قدم الكر والفر

وكانت أخبار التخوم إلى هذا اليوم لم تخل من المغامز الدالة على عدم خلود العدوّ إلى السكينة ووقوفه على قدم الكرّ والفرّ ولا سيما عثمان دقنه ومن معه من عصاة شرقى السودان فقد عظم شرهم وكبر أمرهم وكثر هجومهم على القلاع والحصون تارة ورميها بالقنابل أخرى حتى ضاق خناق المرابطين وأعيتهم الحيل وأرسل مقدمهم يطلب المدد فجاءه سردار الجيوش المصرية ومعه جماعة من مقدمى عسكر الإنجليز وأقاموا بسواكن أياما يتروون فى أمر الخلاص من شر ذلك العدوّ وعلم دقنه بمقدم السردار فزاد فى الكرّ والفرّ بمن معه من أولئك الأبالسة السود واشتد فى رمى القنابل على الحصون والمتاريس فى الليل والنهار ففعلت مقذوفاته بالمرابطين فعلاً رديئا جدا واتصلت بسفن الحرب الإنجليزية الراسية أمام البلد فخاف السردار العاقبة وقد آنس من المرابطين مللا ونفورا إذ أعياهم القيام على قدم الدفاع ليلا ونهارا فأرسل إلى صاحب السياسة الإنجليزية يخبره بواقعة الحال ويسأله سرعة إرسال المدد على كل حال فكان يطاول ويحاول ويرسل كتبه إلى الباب العالى بأن تحتل طائفة من العساكر الشاهانية سواكن وتتولى أمر الدفاع عنها ـ قيل وكانت تلك الكتب على ما فيها من التطويل معقدة مفعمة بالألغاز والمعميات ليتعذر على السلطان ورجال دولته البت بإرسال عساكره إلى سواكن ولبث الحال على ذلك أياما فلما آنس من السلطان ميلا وعزما على إرسال حملة من عساكره إلى سواكن بعد ذلك التردد والإحجام خاف العاقبة ورسم على الفور إلى قائد عسكرهم بمصر بإرسال النجدة العاجلة من عسكرهم إلى سواكن فصدع بالأمر وحملت ذلك العسكر سفنهم وشوانيهم وأنزلتهم فى سواكن ففرح المرابطون بمقدمهم وأخذوا من يومهم فى ترميم الحصون والمتاريس وضاعفوا القلاع ورتبوا مدافعها وأصلحوا الخنادق وجعلوا يتأهبون لقتال العدوّ فلما شاع خبر وصول هذه النجدة وتناقله أصحاب صحف أخبار الإنجليز قامت الأحزاب فى عاصمتهم واشتد حزب الأحرار منهم على زعيم سياستهم وعلت ضوضاؤهم فى دار ندوتهم وظهرت جلبتهم فى سائر محافلهم ونادوا واويلاه ما لكم تعرّضون بأرواح رجالنا وتبددون أموالنا لمصلحة غيرنا وظل حالهم على ذلك أياما حتى كاد المطلع على صحف أخبارهم لا يشك فى أنّ الرجل على شفا جرف السقوط من منصة الزعامة وأن أصحابه مخذولون وما

ذلك إلا ضرب من التغـرير كأن يقولوا إذا قامت الدول في وجه صاحـبهم ومانعت في حلول عسكرهم سواكن إنا ما احتللناها بعسكرنا وسفن حربنا إلا مكرهين وهذا الباب العالى قد استصرخنـا رجاله وسألناهم نجدة المرابطين فلم ينجدوهم ولا أعاروا نداءنا المتتابع فلا لوم علينا بعد هذا كله ولا تثريب ولا نحن مؤاخذون بما فعلنا .

وعلم عثـمان دقنه بمقدم العـساكر الإنجليزية مـددا للمرابطين بحصـون سواكن وماهم عليه من الحركة فجدّ حينئذ فى قتالهم وألح وتابع الرمى بالقنابل على القلاع والحصون أياما فهاجموه فلم ينالوا منه مـأربا فأحلوا فى قتاله بين كرّ وفرّ أياما أيضا ثم عادوا إلى الحصون وجعلوا يدافعون من وراء المتاريس أياما أخرى ووردت الأخبار إلى ديوان الخديوى بما هم عـليه من التعب المتـواصل بسبب مناوشـة العدوّ لهم فى الليل والنهار وعـجزهم عن كفـه عن تخطف كل من بعد عن البلد ولو قليلا وكـبر على السلطان ورجال دولته خبر وصول المقـاتلين من الإنجليز إلى سواكن فعادوا إلى مخابرة صاحب السياسة الإنجليزية فى تقرير القاعدة التى على مقتضاها يرسل الباب العالى إلى سواكن طائفة من العـساكر الشاهانية لتبقى مع المرابطين وأكثروا من الأخذ والرد فى ذلك أياما فلم يفلحوا ولم يساعدهم أحـد من رجال سياسة الدول الكبرى على نوال هذا الأرب فتكـلم حينئذ أصـحاب صحف دار السلطنة بـكلام فى معنى سيادة السلطان على تلك السواحل وفى معنى كـيان السلطنة العثمانية وفى شىء من ماهية الخـلافة الإسلاميـة وفيما يعتـورها من الضعف إذا زالت هيبتـها وتقلص ظل نفوذها من سواحل البـحر الأحمر وأطالوا فى ذلك القول وبالغـوا فى التوجع حتى كتب أحدهم صورة المعاهدة الدولية التى كان تم التوقيع عليها من كبار سياسة الدول صاحبات الشـأن فى حياد بوغاز السويس شاهـدا على ما للسلطان من المقام الراجح بينهن ولم يكن أحد يعلم بها إلى يومنا هذا وهى:

أولا ـ يبقى بوغـاز السويس حرا مطلقـا فى زمن الحرب والسلم لجمـيع السفن الحربية بغير تمييز بينها وعليه فالدول العظمى الموقعة على هذا الوفاق قد وافقت على أن لا يعبـثن بحرية هذه الترعـة سواء فى زمن الحرب أو السلم وعلى أن لا تحـاصر شطوطها على الإطلاق .

ثانيا ـ أن الدول الموقعات باعترافهن بأنه لا يمكن أن تكون الترعة الحلوة منفصلة عن الترعة الملحة قـد أخذن على أنفسهن القيام بالمعاهدات المبرمـة بين خديوى مصر وشركـة بوغاز السويس العمـومية فيـما يتعلق بالتـرعة الحلوة كما هو مـذكور فى

الوفاق المبرم فى ثامن عشر مارس سنة ثلاث وسبعين وثمانمائة وألف ميلادية الذى يشتمل على مقدمة وأربعة بنود ثم تعهدن بأن يحسن حالة هذه الترعة وما يتبعها ولا يقمن فيها ما يمنع حريتها.

ثالثا ـ قد تعهدت الدول باحترام المواد والأبنية والأعمال الموجودة فى الترعتين المذكورتين وعدم مسها بشىء ما .

رابعا ـ تبقى الترعة الملحة مفتوحة فى زمن الحرب بحيث تمر فيها المدرعات الحربية بدون ممانع كما جاء فى الوجه الأول من هذا الوفاق ـ وبناء على ذلك قد اتفقت الدول الموقعات على أن لا يباح عمل عدائى يكون من شأنه منع حرية الملاحة فى الترعة والموانى الموصلة إليها أو على بعد ثلاثة أميال بحرية من تلك الموانى ومن جملة هذه الموقعات الدولة العثمانية ولو كانت من المحاربات ثم إن المدرعات الحربية لا يجوز لها أن تأخذ إلا ما يكون ضروريا لها من المؤن والذخيرة فى الترعة والموانى الموصلة إليها وأن يكون مسيرها منها فى أقرب ما يمكن من الزمن على حسب الشروط النافذة ولا تقف إلا عندما تقضى الضرورة بذلك وفى هذه الظروف أيضا تكون مجبورة على السفر بأسرع ما يمكن ويجب أن يكون الوقت بين خروج سفينة وخروج أخرى من سفن دولة معادية لها من إحدى الموانى الموصلة للترعة أربعا وعشرين ساعة على الأقل .

خامسا ـ أن الدول المتحاربات لا يمكنهن فى زمن الحرب أن ينزلن فى البوغاز والموانى الموصلة إليه جنودا أو ذخائر أو موادّ حربية ولا أن يأخذنها منها ولكن إذا حدث بها مانع فى الترعة كان لها عند ذلك أن تنزل إلى تلك الموانى أو تأخذها منها فرقا من الجنود لا تبلغ الواحدة منها ألف رجل بما يلزم من المؤن.

سادسا ـ إن ما اشترط على المدرعات فى مسيرها يشترط فى مناوشاتها إذا حصلت فى الترعة .

سابعا ـ لا يجوز لأية دولة أن تبقى لنفسها فى مياه الترعة أو فى بحيرة التمساح والبحيرات المرة مدرعة حربية على أنه يجوز لها أن تقيم فى الموانى الموصلة إلى مدينة بورسعيد والسويس مدرعات لا يتجاوز عددها اثنتين لكل دولة إلا أن هذا الشرط لا يباح للدول المحاربات .

ثامنا ـ أن وكلاء الدول القائمين فى مصر من قبل الدول الموقعات على هذا الوفاق منوط بهم مراقبة تنفيذه بحيث إنهم عندما يحدث ما يهدد سلام الترعة

وحرية الملاحة فيها يجتمعون بناء على طلب ثلاثة منهم برئاسة أقدمهم فى الوكالة للبحث فيما يجب إجراؤه ثم يخبرون الحكومة الخديوية بما يكونون قد عملوه من المحاضر لتأخذ الوسائط الفعالة لضمانة ووقاية الترعة وحرية المرور فيها وعلى كل حال فإنهم يجتمعون مرة فى كل سنة ليروا ما إذا كانت المعاهدة معمولا بشروطها أو لا وهذه الاجتماعات يصح أن تكون برئاسة مرخص مخصوص تعينه الدول العثمانية الشاهانية ويصح أن ينوب عن هذا المندوب آخر من رجل الحكومة المصرية عند غيابه ويصح له أن يحضر الجلسات إذا كان حاضرا ويكون لهؤلاء الوكلاء الحق فى أن يطلبوا على الخصوص منع كل اجتماع على أى مكان من شطوط الترعة يكون من ورائه مس حرية المرور بالترعة .

تاسعا ـ تتخذ الحكومة المصرية بما لها من السلطة الممنوحة لها بالفرمانات السلطانية وبموجب الشروط المذكورة فى هذه المعاهدة كل ما يلزم من الوسائل توصلا إلى إنفاذ المعاهدة واحترامها ولكن إذا لم تكن هذه الوسائط كافية لذلك فعليها أن تطلب من الباب العالى الشاهانى القيام بتلك الوسائط من عنده وإعلانها إلى الدول الموقعات على التصريح الذى أبرم فى لندن فى سابع عشر مارس سنة خمس وثمانين وثمانمائة وألف ميلادية والاشتراك معهن عند الحاجة فى المحذورات الواضحة فى المواد أربعة وخمسة وسبعة وثمانية فلا تكون عائقا فى تنفيذ الوسائل اللازمة بمقتضى هذا الوجه .

عاشراً ـ وأيضا فإن المحذورات الواردة فى المواد المذكورة لا تحول دون الوسائل التى تضطر الحضرة السلطانية الشاهانية أو الخديوى بالنيابة عنها بموجب الفرمانات الممنوحة له إلى اتخاذها لكى يكفلا بقوتهما الخاصة حماية مصر وتأييد النظام العام فيها ولكن إذا اضطرت الحضرة السلطانية أو الخديوى أن يستزيدا الاستثناءات الواردة فى هذا الوجه كان على حكومة السلطان أن تعلن الدول الموقعات على تصريح لوندره بذلك ثم إن ما ورد بالأوجه الأربعة السابقة بشأن هذه الاستثناءات لا يمنع الوسائل التى ترى حكومة جلالة السلطان ضرورة اتخاذها بواسطة قواتها الخاصة ضمانة لحفظ سائر أملاكها على الساحل الشرقى من البحر الأحمر .

حادى عشر ـ إن الوسائل التى تؤخذ مراعاة للأحوال الواردة فى الوجهين التاسع والعاشر من هذا الاتفاق لا يجب أن تكون عثرة فى سبيل استعمال الترعة وحريتها وفى هذه الأحوال يكون من الممنوع إقامة حصون مستمرة تخالف منطوق الوجه الثانى .

ثانى عشر ـ تتعهد الدول الموقعات على هذه المعاهدة بناء على مبدأ المساواة فيما يتعلق بحرية استعمال الترعة وهو المبدأ الأساسى لهذه المعاهدة أن لا يسعين بالتوسع فى الأرض والتجارة بالنسبة للترعة ولا بالحصول على امتيازات دولية تتعلق بهذا الشأن أيضا ماعدا الدولة العثمانية لما لها من الحق فى ذلك لكونها صاحبة البلاد.

ثالث عشر ـ عدا المواثيق الواردة بإيضاح فى بنود هذا الاتفاق فإنه لا يجوز مس حقوق الخديوى الممنوحة له بالفرمانات ولا التعرض إلى ما أغفل منه من الواجبات.

رابع عشر ـ اتفقت الدول الموقعات على هذا على أن المواثيق الناشئة عن هذه المعاهدة لا تنتهى بانتهاء مدة الامتياز الممنوح لشركة بوغاز السويس .

خامس عشر ـ لا تحول شروط هذا الاتفاق دون التحوطات الصحية المتخذة فى الديار المصرية .

سادس عشر ـ تتعهد الدول المتعاقدات بأنهن يبلغن هذا الوفاق إلى الدول التى لم توقع عليه ويطلبن منها التسليم به وهذه المعاهدة يصدق عليها ويتبادل التصديق بشأنها فى الأستانة فى مدة شهر أو أقل إن أمكن .

وبناء على ذلك فالمرخصون قد وقعوا على هذه المعاهدة ووقعوا أختام وظائفهم عليها. انتهى بنصه .

ونقل أصحاب صحف الأخبار العربية نص هذه المعاهدة وقالوا إذا كانت كل هذه الحقوق للسلطان وليس لدولة من سائر الدول أن تنازعه فيها فليس إذا من النصفة فى شىء أن تستضعف الإنجليز جسم السلطنة العثمانية إلى هذا الحد فتسلبها حقها وتبخسها أشياءها ولا من الكياسة فى شىء أن تطيل يدها إلى هذا الحد من التطاول على غير مسوّغ فرد عليهم أصحاب صحف الإنجليز وأغلظوا فى الرد وبالغوا فى التهديد وعادوا إلى استنهاض همم صاحب سياستهم وحضه على ترك المجاملة والأخذ بأطراف الحزامة والضرب على يد كل مكابر حتى يرجع صاغرا.

(مطلب)

موت رجل من الهنود وإحراق جثته

واتفق أن مات فى هذه الأيام رجل من الهنود التابعين للسلطنة الإنجليزية وهو من كبار تجارهم بمصر فعزم قومه على إحراق جثته حسب عاداتهم الدينية فطلبوا من قنصلهم التسريح بذلك فسرح لهم وأعلم صاحب الشرطة بخبرهم فاحتمل القوم

جثة فقيدهم إلى فضاء العباسية عند سفح الجبل الأحمر وطرحوها على الأرض ودهنوها بالزبدة ثم لفوها بلفائف من نسيج الكتان ووضعوا قطعة من الخشب فوق الرأس وأخرى فوق القدمين وأحاطوا بالجثة حطبا مرصوصاً بعضه فوق بعض وأضرموا فيه النار إلى أن احترقت وصارت رمادا فرآهم وهم على هذا الحال نفر من أصحاب مقالع الحجر بالجبل الأحمر وسمعوا دمدمتهم بشيء من الأدعية الدينية فهلعت قلوبهم من شدة الخوف وصاحوا وولوا مسرعين إلى البلد يستفزون أصحاب الشرطة ويستصرخون العامة من سكان الحسينية والمذبح وعلت أصواتهم بيا لطيف نصر الله دين الإسلام أهلك الله دين الكفار فتبعتهم النساء والأولاد وهم فى صياح وجلبة ولحقهم أصحاب الشرطة ففرقوا جمعهم وأقاموا جماعة منهم يحرسون القوم حتى جمعوا رماد جثة فقيدهم فى ركوة وساروا بها على غير الطريق السلطانى خوفا من بطش العامة وزعر الحسينية بهم وانتشر فى تلك الليلة خبر هذا الحادث فى سائر أطراف القاهرة ومصر القديمة وتحدث العامة به فقال ضعفاء العقول منهم إن هذا الحادث قطرة من بحر مما سيحل بالمسلمين بعد أن جاء ولى عهد السلطنة الإنجليزية وأنهم سيرون يوما قبور آبائهم منبوشة وعظامهم محرقة بزيت البترول وجثث موتاهم تلقى على قمم الجبال وغير ذلك من الأرجاف حتى كادوا يفتتنون.

(مطلب)

ما ترتب على كثرة اللصوص من إلحاح السير بارنج بتعيين مستشار لنظارة الحقانية

وكثرت فى هذه الأيام اللصوصية وعم فساد أهل الشقاوة وكبر عبثهم فى القرى والبلاد وعظمت قحتهم فكانوا يتخطفون فى الليل والنهار ويكبسون الدور بلا حياء ولاخوف فجد أصحاب الشرطة فى طلبهم واهتم الرئيس لذلك جدا تحاشيا من ضوضاء جماعة الإنجليز وأصحاب صحف أخبارهم فلم يتمكن من إرجاع الأمور إلى مجراها وبقى الحال على ذلك أياما كثر فيها تردد السير بارنج على ديوان الخديوى تارة وديوان الرئيس أخرى يشكو مما هو صائر من الخلل وعدم الأمن على الأرواح والأموال بسبب فساد رأى المديرين والمحافظين وعجزهم عن إرجاع الأمن إلى البلاد ثم أشار على الخديوى بطلب تسليم وكالات المديريات والمحافظات إلى جماعة من الإنجليز وهو يقول لا خلاص للبلاد من هذه الفوضى المستحكمة إلا

بتسليم زمام سائر إدارة الحكومة إلى جماعة الإنجليز قيل فتأفف الخديوى من ذلك وكلم الرئيس فيما هو صائر وأغلظ عليه فى القول وألقى عليه تبعة ذلك كله فتشكى الرئيس من أعمال المكلفين بضبط الجنايات من رجال النيابات ورماهم بالجهل وقال: إنهم أغرار غير أكفاء لمهمة ضبط الوقائع وتحقيق الجرائم ووسم قضاة المحاكم بوهن العزيمة والخلط بين اللين والشدة وطلب جعل النيابات تابعة لنظارة الداخلية وتحت سلطة رجال الإدارة فلما شاع هذا الكلام نقله أصحاب صحف الأخبار الإنجليزية وجعلوا يقرّعون الرئيس ويرمونه بالعجز وعدم القدرة على تدبير الأمور فى هذه الأيام وأكثروا من عبارات الهزء والسخرية. قالوا وقد آن الوقت الذى يجب فيه على صاحب سياستهم أن يسلم زمام الدواوين الكبرى إلى من يحسن تدبيرها من الإنجليز لكى يحولوا دون كل مطمع وهوى وما كادت تهدأ ضوضاؤهم هذه حتى تقدم السير بارنج إلى الخديوى فى التعجيل بإعطاء منصب استشارة الحقانية والإشراف على سائر النيابات والمحاكم الأهلية والشرعية إلى رجل من الإنجليز قد اصطفوه لذلك اسمه أسكوت، وجعل يغدو ويروح على مقر الخديوى أياما حتى رسم الخديوى إلى الرئيس بالعمل، قيل فامتنع لما فى ذلك من الحيف والصغار لا سيما وأنها كبيرة من الكبائر التى لم يكن ليقوى السير بارنج على إتيانها أيام رئاسة الوزير نوبار باشا فجعل يطاول ويحاول والخديوى فى قلق من تردد السير بارنج على ديوانه فلما آنس الرئيس من الخديوى ميلا إلى طلب السير بارنج زين كما قيل يومئذ إلى حسين فخرى باشا ناظر الحقانية الوقوف فى وجه السير بارنج والعمل على إيقافه عند حده فقام حسين فخرى باشا قومة الحازم غير هياب ولاوجل ورفع إلى الخديوى صحيفة كلها تفنيد لمزاعم السير بارنج وتحذير من سوء عاقبة هذا الأمر، حدثنى صاحب لى من المقربين من مجلس الرئيس قال: كان الرئيس إذا رأى فى هذه الأيام من حسين فخرى باشا مللا أو إغفالاً لمقاومة مطالب السير بارنج حرضه وشجعه وأكبر قدره أو أنبه وقرّعه وصغر نفسه وأحرج صدره فيهب إلى المشاغبة ويتجرد إلى الدفاع ويملأ فضاء ديوانه بكلمات الوعيد وعبارات التهديد على أنا نعلم والناس كلهم يعلمون أن صيحته هذه إنما هى كصرخة فى واد أو نفخة فى رماد وأن لا راد للسير عن هواه ولا دافع لقدر الله وقضاه وكانت كتب زعيم سياسة الإنجليز مترادفة على ديوان الخديوى بالتعجيل وترك الإبطاء والخديوى فى أخذ ورد مع الرئيس والرئيس يفسح لحسين فخرى باشا الأمل ويشجعه على الأخذ بأطراف العمل

لعله ينال من ذلك الداهية مأربا فقال الناس يومئذ: إن أحد الرجلين مخلوع لا محالة وإن فوز زعيم سياسة الإنجليز فى هذه المرة سيكون مفتاحا لمغالق ما استعصى على جماعة الإنجليز ولوجه من دواوين الحكومة إلى الآن فلما كان خامس عشرى فبراير من السنة أى سنة إحدى وتسعين وثمانمائة وألف ميلادية وسادس رجب الفرد سنة ثمان وثلثمائة وألف هجرية رسم الخديوى بتولية أسكوت هذا منصب الاستشارة القضائية والإشراف على سائر المحاكم فتولاها وكان من أمره بعد ذلك ما هو مشهور ومعروف أ.هـ.

وحدثنى أيضا من لا أشك فى صدق حديثه قال: قد كان من دهاء صاحب سياسة الإنجليز فى أمر تسليم زمام الاستشارة القضائية إلى أحد رجال الإنجليز أنه كان يرسل إلى الخديوى الرسائل تلو الرسائل وكلها تتضمن الشكوى والإشفاق مما هو حاصل من ذهاب الأمن من البلاد وكثرة اللصوصية ويستميله إلى تمحيص الأسباب الناجم عنها هذه الفوضى المستحكمة حلقاتها ويشير بمنع تطاول يد الرئيس مصطفى رياض باشا إلى العبث بوظائف رؤساء النيابات ومأمورى تحقيق الجنايات ومازال بالخديوى حتى هان عليه تولية أسكوت المنصب حولا فإن أفلح وتم لأهل البلاد على يديه فى ذلك الحول ما يرجونه من تأمين الطرق واستتباب الراحة فإلى ما شاء الله أو إلى أن تصير المحاكم فى غنى عنه وإلا عادت الأمور إلى ما كانت عليه ثم تعين أسكوت فلم تمض عليه أيام حتى طاف سائر المحاكم بالإقليم البحرى وسبر غور ما فيها وجعل يمحو ويثبت ما يشاء من موادّ القانون المدنية والجنائية ويعدل فى نظام وهيئة القضاء والقضاة ورؤساء أقلام النيابات ويدوّن كل ما يعنّ له من أوجه الإصلاح ووسائل الفلاح ثم سار إلى الإقليم القبلى وسار معه حسين فخرى باشا فكان إذا نزل فى بلد استدعى إليه عمدتها ومشايخها وحادثهم فيما عليه المحاكم بالإقليم البحرى ويبشرهم بقرب انفراج الأزمة وزوال تلك الشدة ومناهم بمستقبل كله خير واطمئنان ثم عاد إلى القاهرة وشاع الخبر بأنه على عزم أن يرفع إلى الخديوى والرئيس تقريرا بما رآه من أوجه الإصلاح فتحدث الناس فى ذلك وفيما عساه أن يكون من الرئيس إذا أحرج السير بارنج موقفه وأكرهه على قبول مطالب أسكوت وأحس الرئيس بوشك وقوعه فى هذا الشرك فعمد إلى الخلاص منه وأوعز إلى حسين فخرى باشا بأن يستعد لتقديم تقرير إلى الخديوى بما يراه فى مطالب أسكوت وفيما يلائم وما لا يلائم منها مصلحة البلاد فلم تكن إلا أيام حتى رفع أسكوت تقريره وفعل كذلك حسين فخرى باشا وكل يدعى لنفسه العصمة والبعد

عن الخطل، ورأى الرئيس أن لا ينجز لأسكوت غرضا ولا أن ينيله مأربا فرسم بتشكيل لجنة من المسيو بيترى مستشار قضايا نظارة الحقانية وإبراهيم فؤاد بك وكيل محكمة الاستئناف الأهلية وإبراهيم نجيب بك رئيس المحكمة الابتدائية والمسيو لوجريل النائب العمومى واثنين من مستشارى الاستئناف الأجانب لينظروا فيما يشير به أسكوت من أوجه الإصلاح وفيما يعارضه به فخرى باشا فوافق على ذلك مجلس النظار وقرر العمل به، وسافر الخديوى إلى الأقاليم القبلية فى قلة من الخدم والحشم والأتباع ترويحا للنفس أو كما شاع فرارا من عناء الأخذ والرد فى هذا الحادث الذى كثرت أذنابه واشتبك بعضها ببعض وأحس أسكوت بالذى ترمى إليه أغراض الرئيس فلم يرض عن تشكيل تلك اللجنة وعدّ تشكيلها ميلا عن الجادة وضررا بالإصلاح وقال: لا يصح تشكيلها على هذه الصورة قبل أن يصادق مجلس النظار على المبدأ الذى قد بنى عليه تقريره ولاسيما تصديقه على وجود المراقبة والتفتيش على سائر المحاكم وجعل سلطة التفتيش بيد جماعة من الإنجليز أو من المصريين إن وجد بينهم من يصلح لذلك واشتد الأخذ والردّ بين الرئيس والسير بارنج شدة بالغة كان من ورائها استبدال المسيو بيترى مستشار قضايا نظارة الحقانية بالمسيو مور يوندو مستشار قضايا الداخلية وجعل رئاسة اللجنة لحسين فخرى باشا فكبرت عند ذلك حجة أسكوت وأنكر على اللجنة فعلها وقال إن حكمها فى ذلك سيكون من قبيل حكم المرء لنفسه وامتنع المستر بوند الإنجليزى أحد الاثنين المستشارين المعينين بعضوية اللجنة من الحضور فى جلستها وقال لا تصح رئاسة حسين فخرى لها وهو خصم أسكوت المعارض له فى مبدئه وكذلك لا تصح عضوية بعض الأعضاء لأنهم أصغر درجة من صاحبى الخصومة فلم يلتفت أعضاء اللجنة إلى شىء من ذلك واجتمعوا بغير حضور بوند وبحثوا فى قولى الخصمين أياما ثم اتفقت كلمتهم على رفض سائر مطالب أسكوت إلا ما كان منها مختصا بتعيين مستشارين من الأجانب بمحكمة الاستئناف العليا بشرط أن يكونوا من القضاة الأجانب الشاغلين الآن لوظائف القضاء بالمحاكم الابتدائية لا أن يكونوا من جماعة الإنجليز كما أشار أسكوت، ولما علم السير بارنج بما قررته اللجنة أكبر الأمر وأعظمه ورأى أن فوز الرئيس مصطفى رياض باشا فى هذه الطفرة يكون هادما لأمانى صاحب سياسة الإنجليز وقاضيا على عظمة الاحتلال فرفع فى الحال إلى الرئيس مذكرة يطلب فيها البت قبل كل شىء بتثبيت أسكوت فى منصب الاستشارة وعزل حسين فخرى باشا من مسند نظارة الحقانية وعدم المعارضة فى ذلك ويقول إن هذه المذكرة واردة إليه على جناح البرق

من صاحب سياستهم وهو يلقى تبعة كل إبطاء فى تنفيذها على عاتق الرئيس، وكأن التعجيل بتثبيت أسكوت تعجيل أيضا بقبول سائر مطالبه على علاتها لأنه إذا تمت له ولاية المنصب أمنت مطالبه جميعها من العبث وحقت على الرئيس طاعته- فلما وقف الرئيس على ما فى تلك المذكرة عقد فى الحال جلسة مجلس النظار فلم يحضرها معه سوى على باشا مبارك وقبيل حسين فخرى باشا أيضا وقرر عدم جواز تثبيت أسكوت فى المنصب ورفض عزل حسين فخرى باشا وكتب مذكرة بالتركية ورفعها مع قرار المجلس إلى الخديوى بالصعيد الأعلى ولبث الفريقان ينتظران الجواب وهما على أحر من نار الجمر.

فلما كان تاسع عشرى جمادى الثانية من السنة أى سنة ثمان وثلثمائة وألف هجرية وتاسع فبراير سنة إحدى وتسعين وثمانمائة وألف ميلادية عاد الخديوى من رحلته فبالغ أهل القاهرة ومصر فى عمل الزينة لمقدمه ثلاث ليال وأولم الرئيس مصطفى رياض باشا وليمة عظيمة لسائر الأمراء من البيت العلوى وكبار الحكومة وأصحاب الوظائف ولم تنقض ليالى الزينة حتى اجتمع النظار لدى الخديوى بسراى عابدين صبيحة الجمعة رابع رجب الفرد وثالث عشر فبراير وجعلوا يتباحثون فيما جاء فى مذكرة السير بارنج حتى الساعة الحادية عشرة فظهر الخبر وتحقق بأنه قر رأيهم أولا على إبقاء أسكوت فى المنصب مع قبول جميع الشروط المترتبة على الولاية وجميع فروعها وأذنابها بغير معارضة، وثانيا رفض عزل حسين فخرى باشا من منصبه بما أنه قد تقررت ولاية أسكوت فلم يوافق السير بارنج على ذلك وقال لابد من عزل حسين فخرى باشا لاستحالة حصول الوئام بينه وبين أسكوت وترددت الرسل بين الخديوى والسير بارنج بقية يوم الجمعة إلى ظهر السبت والناس فى تساؤل عما عساه أن يكون من الرئيس بعد ذلك التشديد وتلك الحدة وهل هو باق على عزمه من اعتزاله الرئاسة بعد أن وكلت الاستشارة إلى أسكوت وأصاب سهم السير بارنج من جسم الحكومة فى هذه المرة أيضا مقتلا وبعد أن باتت نظارة الأشغال بيد منكريف والحربية بيد الجنرال جرنفيل والخزينة بيد منلر وبالمر والداخلية بيد فنك والمعارف بيد صنائع السير بارنج فيها وقد ختم أيضا على قلب الوظائف الصغرى بخاتم لا يقدر على فضه إلا الجبار العظيم فلم يبق إلا أن يقضى على البقية الباقية بأيدى أبناء البلاد الضعفاء من أوجه الارتزاق فيموتون جوعا وتحيا جماعة الإنجليز أو ثناه عنه عزة المنصب وأبهته الظاهرة فلم يكن إلا القليل حتى برح الخفاء وظهر للعيان أنه قد غير من عزمه وفضل البقاء فى منصبه فقالوا لعل فى ذلك حكمة .

واشتد أصحاب صحف الإنجليز على الرئيس وبعض النظار بقارص الكلام ورموهم بالعسف وحب الذات وقالوا إنهم جميعا زعماء للحزب الذى عاش أعواما تحت راية الاستبداد القديم فلا يليق بعظمة السلطنة الإنجليزية أن تفسح لهم فى الأجل ولا أن تتركهم يتضافرون على مثل هذا العمل فإما عيشة راضية وإما ضربة قاضية وإلا ساءت الحال واتسع المجال واستعصى على سلطانة البحار بلوغ الآمال. وهبَّ صاحب سياسة الفرنسيس من الخمول وأرسل إلى قنصلهم بمصر أن يحتج على تولية أسكوت منصب الاستشارة ويمانع فى تعيين لجنة المراقبة وأن يعلن أصحاب الحل والعقد بمصر أن دولة الفرنسيس لا تتساهل فى شيء من ذلك ألبتة فصدع القنصل بالأمر واجتمع بالرئيس مصطفى رياض باشا وتيكران باشا وأدّى الرسالة حقها، قيل ففرح الرئيس بذلك وأبلغ الخبر إلى السير بارنج وهذا رفعه إلى صاحب سياستهم ولبثوا ينتظرون الجواب وانقطع الرئيس فى داره يوما وبعض يوم ثم سافر إلى مزارعه بطود البحيرة وأقام بها أياما كثر فيها لغط أصحاب صحف الأخبار المحلية بشيء من مطاعن أصحاب الصحف الإنجليزية ثم جاء الخبر إلى ديوان الخديوى بنزوع صاحبى سياسة الإنجليز والفرنسيس إلى المناقشة فيما أفضى إلى تولية أسكوت منصب الاستشارة وأن المناقشة فى اشتداد وقد دخلت فى غمارها أيضا دولة الألمان والباب العالى.

واتفق أن مات فى رابع عشر رجب قاضى قضاة مصر الشيخ عبدالرحمن نافذ فخلا بموته منصب القضاء الشرعى فتساءل الناس عمن يخلفه وعما إذا كان ذلك الخلف يأتى من دار السلطنة بفرمان من الباب العالى على ما جرت به العادة من قبل أو أن الحكومة المصرية تولى من تشاء من قضاتها وظنوا أن وقوع هذا الحادث فى هذا الحين قد يمكن السلطان من التوسع فى الكلام مع الدول عن حالة القضاء بديار مصر وفى تطاول يد الاحتلال الإنجليزى إلى العبث به وفى تولية أسكوت منصب الاستشارة على غير مسوّغ فيتضافروا جميعا على ما فيه المصلحة وقد وقع ما كانوا يظنون فإنه ما بلغ الباب العالى خبر موت الشيخ القاضى حتى وردت كتبه على ديوان الخديوى والغازى مختار باشا بعزم السلطان على إلغاء ما جاء بفرمانه الشاهانى المؤرخ سنة إحدى وتسعين ومائتين وألف هجرية من بقاء الشيخ عبدالرحمن فى منصب القضاء بمصر وعدم استبداله كالعادة المتبعة بالباب العالى فى كل سنة إذ بموت الشيخ عاد إلى الباب العالى حقه فى تولية القضاء كل عام لمن هم مترشحون لذلك

من مشايخ الوقت فى دار السلطنة، فاهتم الخديوى بالأمـر وكلم الغازى مختار باشا فى بقاء حق انتـخاب القـاضى الجديد للخديوية المصـرية فأرسل الغـازى إلى الباب العالى فى ذلك فـجاء الجواب قائلا إنه قـد جرت العادة من قديم أن للبـاب العالى وحده حق تعيين قاضى قضاة مصر من أصحاب الدراية والأهلية بالترتيب لكل قاض منهم سنة واحدة فإذا انقضت السنة يرسل الباب العالى صاحب الدور وهكذا، فلما كانت سنة إحدى وتسعين ومائتين وألف هـجرية التمس الخديوى إسماعيل من لدن الذات الشاهانيـة بقاء الشيخ عـبدالرحمن نافـذ فى منصب القضـاء بشرط أن تدفع خديوية مصر ثلاثة آلاف جنيه فى كل سنة لصاحب الدور من مشايخ الوقت فى دار السلطنة بدون أن يشغل الوظيفـة فأجاز الباب العالى للشيخ عبـد الرحمن البقاء فى مصر من سنة اثنتين وتسـعين بمرتب قدره ألف وخمسمائة جنيه يتـقاضاه من خزينة الخديوية المصرية فى كل سنة إلى أن يتوفاه الله ولما كان هذا الامتياز لم يختص به إلا الشيخ عـبد الرحمن وحـده فقد زال بموته وعاد إلى البـاب العالى حقـه فى إرسال صاحب الدور من علماء دار السلطنة إلى هذا المنصب، فمال الرئيس مصطفى رياض باشا إلى مقالة الباب العالى وأحلها محلهـا ولم يبخسه حقه وكأنه كان يتمنى لو أن السلطان ينال من هذه الفرصة مأربا فيوقف مطالب صـاحب سياسة الإنجليز عند حد ويعمل على إرجـاع الأمور إلى ما كـانت عليه ولكن هل يطلب أثرا بعد عـين وقد جاء فى المثل «الصيف ضيعت اللبن» وقيل إن من التوقى ترك الإفراط فى التوقى لأن من حنكته التجارب قاد هامة الحـوادث بذوائبها فدانت له ورجل الأنام من قدر على الاستيثاق من موادعة الأيام.

فلما كان ثالث عشـرى رجب جاء الخبر من دار السلطنة العثمـانية بأن قد صدر الفرمان السلطانى بتولية الشيخ عبدالله جمـال الدين قضاء مصر وقد كان على قضاء الروملى ثم أعقـب هذا الخبر ورود كـتاب من الصدر الأعظم إلـى الديوان الخديوى يقول فـيه: إن جلالة مـولانا المتبوع الأعظم أمير المؤمنين قد سـاءته تولية أسكوت الإنجليزى منصب الاستـشارة القضائية بالخديوية المصرية فـى حين أن القضاء بديار مصر قـد بلغ أقصى درجات الكمال وشـاع الخبر بذلك فأرسل الخـديوى إلى الباب العالى على جناح البـرق رسالة يقول فيـها بعد الاستـعطاف والتلطف: إنه بإجازته تولية أسكوت هذا المنـصب لم يأت أمرا جديدا فى ديار مـصر بل هو فعل مـثل ما فعله خلفـاؤه من تولية بعض الأجانب فى المصـالح والدواوين المهمة للاستـفادة من

نشاطهم وعلمهم وأنه لا شيء بيد أسكوت من القوّة الإجرائية ولا هو مطلق الكلمة في شيء وأن مشروعاته لا يعمل بها إلا بعد تمحيصها والتصديق عليها من مجلس النظار وصدور الأمر بتنفيذها ـ فلم يعجب الأحزاب هذا القول وظنوه خدعة وحيلة وقالوا إن الباب العالى سيطاول فى إرسال القاضى الجديد حتى يتم لصاحب سياسة الفرنسيس الاتفاق مع زعيم السياسة الإنجليزية على إرجاع الأمور إلى ما كانت عليه فلم يصب ظنهم المرمى ووصل القاضى إلى الإسكندرية فى صبح الاثنين الحادى والعشرين من شعبان من السنة مع عائلته وبعض الخدم وبات ليلته تلك فى بيت مفتى الثغر فزاره العلماء والوجهاء وأصبح فركب قطار السكة الحديد إلى القاهرة فاستقبله فى محطتها جماعة العلماء والغازى مختار باشا وبعض رجال الغازى وفخرى باشا ناظر الحقانية وشيخ الجامع الأزهر ومفتى مصر والتشريفاتى الخديوى وبعد تبادل التحية ركب القاضى فى مركبة من المركبات الخديوية يحف بها كوكبة من الفرسان وعلى يساره حسين فخرى باشا ونزل ضيفا بمنزل سعادته وفى ثانى يوم ركب فى عربة من عربات الخديوى وعلى يساره الشيخ الرافعى رئيس المجلس العلمى وحضر إلى سراى عابدين فاستقبله عبد الرحمن رشدى باشا رئيس التشريفات وأدخله على الخديوى فقابله بالترحيب وبعد أن تناول القهوة ألبسه الخديوى خلعة ثمينة من فرو السمور فنزل بها إلى المحكمة واحتفل به قضاة مجلسها وهنئوه وبعد برهة لطيفة سار إلى المشهد الحسينى فزاره وركب من هناك إلى منزل مضيفة وبعد أيام قلائل أولم له الخديوى وليمة شائقة حضرها الغازى مختار باشا وبعض الأمراء من البيت العلوى وبعض الوزراء وكبار الديوان الخديوى والعلماء.

واتفق أن ابتاعت حكومة الإنجليز من الحكومة الخديوية قطعة أرض من فضاء قصر الدوباره على ساحل النيل الشرقى لبنائها دارا لقنصلاتو الإنجليز بثمن وقع الاتفاق عليه وكان المشترى لها السير بارنج باسم ملكة الإنجليز وإمبراطورة الهند فبعد أن تم الاتفاق على البيع والشراء وقبض الثمن أرسل ناظر المالية إلى قاضى القضاة جمال الدين يطلب توقيع الصيغة الشرعية وتسجيل البيع بالطريق الشرعى واستخراج الحجة بذلك فأعاد القاضى السؤال عما إذا كان تحديد الأرض يشمل شيئا من ساحل البحر فإذا كان كذلك فلا يصح لأنه طريق مطروق لا يصح تمليكه للغير فقال السير بارنج إن البيع يشمل الساحل وأنه قد اشترى الأرض إلى مجرى الحوت فامتنع القاضى عند ذلك من عمل المسوغ الشرعى وقال لا يجوز تمليك الطريق السلطانى للغير

فشدد السير بارنج فى الطلب وقال لابد من استخراج الحجة بما تم بيعه فسأل حسين فخرى باشا مفتى مصر رأيه فى ذلك فأفتى بعدم جواز البيع وبعدم تمليك الطريق السلطانى للغير وعدم جواز جعل الحد الغربى .

فلما كان عصر ذلك اليوم حضر مصطفى فهمى باشا إلى مقر الخديوى بعابدين وليث بحضرته برهة ثم خرج فأرسل إليه الخديوى فى سادس شوال مرسوما يقول فيه: إنه بناء على ما رأيناه فى عطوفتكم من الدراية والأهلية ووثوقنا بكم قد أحلنا على عهدتكم رئاسة مجلس نظار حكومتنا وعلى هذا نطلب منكم القيام بتأليف هيئة نظارة جديدة وليكن فى علمكم أننا نعضدكم ونساعدكم على الأعمال المهمة التى دعوناكم لأدائها وبما أن المنهج الذى سلكناه منذ توليتنا لحسن سير أعمال حكومتنا وسرنا على مقتضاه للآن هو ما جاء فى أمرنا الصادر بتاريخ حادى عشر سبتمبر سنة تسع وسبعين وثمانمائة وألف ميلادية ولا حاجة لتذكيركم بما تضمنه من المواد الأساسية وهى أن حكمنا وإجراءه يكون مع مجلس نظارنا وبواسطته مع بقاء الحق لنا فى الرئاسة على جلساته بذاتنا كلما رأينا لزوما لذلك كما أن جل قصدنا وغاية مرغوبنا هو العدل والاستقامة والإصلاح وحسن الترتيب فى جميع إدارات القطر والسعى فى ازدياد الرفاهية والتقدم فى جميع أنحاء البلاد حسا ومعنى فليكن ذلك دائما مطمح أنظاركم حتى يتسنى لنا بإذن الله الحصول على ما ذكر ونسأله تعالى أن يوفقنا جميعا لما فيه الخير للبلاد ورفاهية العباد أ.هـ .

فلما وصل إلى مصطفى فهمى باشا مرسوم الخديوى اجتمع بالسير بارنج برهة طويلة واجتمع كذلك بالمستشار المالى وعند الساعة الثامنة من ذلك اليوم تمثل بين يدى الخديوى بمقره ورفع إليه عريضة تتضمن أسماء من ستتألف منهم هيئة الوزارة الجديدة فكان فيها أن عبدالرحمن رشدى باشا للمالية ومحمد زكى باشا للأشغال العمومية والمعارف وحسين فخرى باشا للحقانية ويوسف شهدى باشا للحربية والبحرية وتيكران باشا للخارجية فوافق الخديوى على إسناد هذه المناصب إليهم ورسم بذلك فساروا جميعا إلى مقره بعابدين فهنأهم فقبلوا يده وانصرفوا وسافر مصطفى رياض باشا إلى مزرعته بطود البحيرة واحتجب عن الناس كافة وعفت أخباره وشاع الخبر بعزم أولى الأمر على خلع محمود باشا دبوس أوغلى صهره من وكالة الداخلية فاستحسن الناس ذلك وأحلوه من الصواب محله.

(مطلب)

ظهور الجراد بالإقليمين القبلي والبحري

ووردت الأخبار من بعض مديرى الإقليمين القبلى والبحرى على ديوان الخديوى وديوان الداخلية بظهور الجراد فى جهات الصالحية والزنكلون وتل حوين من بلاد الشرقية وأهوه وباروط وآها من بلاد مديرية بنى سويف وكثير من بلاد مديرية جرجا وأسيوط وبلاد مركزى النجيلة والدلنجات واليهودية وقبور الأمراء بالبحيرة وطود وداماريس والبرجين والأخصاص وغيرها بمديرية المنيا وأكثر بلاد القليوبية والمنوفية وكسا أراضى الجزيرة بالبر الغربى من القاهرة وكان ظهوره فى أخريات رمضان فخاف الناس شره واهتمت الحكومة بأمره اهتماما عظيما وأرسلت إلى سائر المديرين والمحافظين بالتشديد على قطع شأفته فجدوا فى تأثره وكانت الأخبار ترد تباعا بتكاثره وانتشاره شرقا وغربا وشمالا وجنوبا وفتكه بكل ذى خضرة من النبات والشجر والنخيل وظل الحال على ذلك أياما والناس فى دهشة وحيرة حتى أذن الله سبحانه بأن هبت فى أخريات شوال من السنة رياح مختلفة بعضها من الشرق وبعضها من الغرب ولبثت على اشتدادها أياما فاكتسحته وحملت بعضه إلى الحوف الشرقى وبعضه إلى الجبل الغربى ولم تترك منه إلا القليل فى البلاد والقرى التى نزل عليها فأباده أهلها بضرب العصى وسعف النخل وجدّوا فى جمع بيضه وفرضت الحكومة قرشين لمن يأتى بأقة من بيضة فتسابق الناس إلى البحث عن مواطنه وإخراجه منها فكان أكثره فى مركز النجيلة بالبحيرة وفى الجبل الغربى وسواحل البحر وفى الفشن بمديرية المنيا، ومن غريب ما نقل عنه أن سحابة منه نزلت على مزرعة قطن بإحدى بلاد المنوفية فأكلتها وما أتت على آخرها حتى ماتت جميعها فجاءت أخرى إلى مزرعة فى جوار المزرعة الأولى فلما رأت ما أصاب الأولى نفرت من النزول على شجر القطن وعافته وفرت فلم ير بعد هذه الحادثة جراد يأكل شجر القطن وتحوّل ضرره إلى الأشجار والنباتات الأخرى وأخبر جماعة من تجار المنوفية مديرها وحلفوا له الأيمان المغلظة بأنهم شاهدوا فى بلاد مركز أشمون جريس طيرا كثيرا جدا أقرب شبها بأبى قردان ولكنه أطول منقارا قد نزل من الجبل الغربى أسرابا أسرابا وأخذ يتتبع الجراد أينما وجده ويكبس عليه ويزدرد منه المئين والألف ثم يتقيئوه ميتا وهكذا فلا يرحل عن البلد أو المزرعة إلا وقد أفنى ما فيها من الجراد وأباده وأن بعض الجهلة من الفلاحين كانوا يخافون من ذلك الطير

فيرجمونه بالأحجار وهو لا يلتفت إلى ذلك ولم يثن له عزما، قلت: وقد شاهدت شيئا كثراً من ذلك الطير نازلا على طول الطريق من نفيشة إلى السويس وهو على هيئة صفوف الجند بعضها خلف بعض ساكن القلب لا يزعجه مزعج ولا يحركه محرك وقد أخبرنى بعض أهالى نفيشة بأن قد نزل عليهم منذ أيام وهو يترصد الجراد الزاحف من بلاد الشرقية إلى الحوف الشرقى حتى إذا مر به قام من فوره وسد عليه الطريق وجعل يضربه بأجنحته ومنقاره ويبتلع منه الألف فلا تستقر فى جوفه لحظة حتى يتقايأها فإذا أفلت منه شيء تعقبه وقتله ثم يعود إلى مكانه متربصًا. قيل وبقى على هذه الحال أياما حتى قامت تلك الريح واكتسحت ما بقى من الجراد فسبحان مدبر الأكوان ومسلط الأبدان على الأبدان إنه خلاق عظيم سبحانه جل شأنه.

(مطلب)

موافقة عيد الأضحى لعيد بلوغ ولي العهد سن الرشد

وبالغ الخديوى هذا العام فى إظهار أبهة عيد الأضحى لموافقة أيامه لأيام عيد بلوغ الأمير عباس ولى العهد سن الرشد وكان الخديوى باسكندرية على عادته فى إبان الصيف فطير الخبر بعمل تشريف العيد إلى الآفاق فهرع الأمراء من البيت العلوى والكبراء والعلماء والمشايخ وأرباب الوظائف على اختلاف مراتبهم إلى الإسكندرية استعدادا لحضور يوم التبريك بالعيدين عيد الأضحى وعيد بلوغ الأمير سن الرشد وكثر توارد رسائل التهانى على ديوان الخديوى من كل صوب، فلما كان صبح الخميس عاشر ذى الحجة ركب الخديوى عربة التشريف وعلى يساره الأمير عباس وأمامه الأمير محمد على ولده الثانى وأمام العربة كوكبة من الفرسان وخلفه كذلك وسار إلى مسجد أبى العباس فصلى صلاة العيد ثم عاد إلى مقره برأس التين فدخل عليه الأمراء من البيت العلوى فهنئوه بالعيد وبلوغ ولى العهد سن الرشد وهنئوا كذلك الأمير ثم دخل الوزراء والكبراء والعلماء والوجهاء والرؤساء وأدوا فروض التهانى وخرجوا من عنده إلى سراى الحرم وكانت رحبة السراى مزدحمة بصفوف الجند والمواكب والمدافع تطلق من طوابى وأبراج البلد ومن سفن البحر على اختلاف أجناسها والموسيقى تصدح فى كل ناحية من ساحة السراى وكانت والدة ولى العهد قد أولمت ثلاثة أيام قبل يوم العيد وأطعمت وتصدّقت على الفقراء وأصحاب البيوتات وفرقت بعض التحف والهدايا النفيسة وكذلك فعل الخديوى

وجاء إلى ولى العهد نيشان الافتخار من إمبراطور النمسا والمجر فسلمه إياه القنصل في حفلة من الأمراء والوزراء والكبراء وألبسه الخديوى كذلك بيده فى حفلة أخرى النيشان العثمانى الأول فوقف على باب الأمير يومئذ الشعراء والقوالون وتسابق المهنئون من كل صوب فمما قاله أحدهم فى الأمير:

نيه يراعك من وصف وتشبيب	وخذ بنظم التهانى كل أسلوب
إن الهناء إذا طابت موارده	أغناك عن غزل فى الشعر مطلوب
واليوم جلت تهانينا فكان لها	صدر المقام كعنوان المكاتيب
قد بلغ الله مصرا ما به وعدت	ونعمة الله وعد غير مكذوب

إلى أن قال :

والبدر فى أصله ثم تحجبه	أيامه ثم يبدو غير محجوب
يابالغ الرشد فى ترتيب مدنه	وأنت بالغه من قبل ترتيب
ونائل الأدب الوضاح من خلق	من قبل تأديب أستاذ وتهذيب
ليس الحداثة من حلم بمانعة	قد يوجد الحلم فى الشبان والشيب
وليس رشد الفتى فى سنه أبدا	بل فى فؤاد وأخلاق وتدريب
كذاك قد خلق الله الأمير لنا	والمجد فى النفس طبع غير مكسوب
فنال من بعد تغريب معارفه	ولم ينل فضله من بعد تغريب
فضل توارثه عن خير محتده	والفرع من أصله فى الحسن والطيب
جارى أباه فكادا يجريان معا	لولا مهابة إجلال وتأديب
وأصبحت مصر فى آمالها ولها	قلب المحب أتاه وعد محبوب
حتى ترى منه غيثا فى شمائله	والغيث فى وشك سكب مثل مسكوب
لقد دعوه بعباس ليوم وغى	ولكنه فى الندى من غير تقطيب
فأبصروا منه بحرا فى مكارمه	تخلو عذوبته من كل تعذيب
وشاهدوا منه عقل الشيخ فى حكم	برأس أمرد داجى الشعر غربيب
ومن يكن نجل توفيق البلاد فلا	بدع إذا كان مجموع الأعاجيب
حاولت وصف الهنا فيه فأزعجنى	كأنه شقة فى عين منعوب
فلم أنل وصفه إلا على بعد	ولم أنل مدحه إلا بتقريب

وركب ولى العهد فى ذلك اليوم فى عربة فاخرة وخلفه نفر من الجند فطاف على بيوت الأمراء من البيت العلوى وزار بعض قناصل الدول فكان يوما مشهودا.

(مطلب)

ظهور الوباء بمكة ومصوّع

وما تمت أيام العيد وما تبعها من أيام التزاور حتى ورد الخبر من مكة بظهور الوباء الأصفر بها ودخوله إليها من الحجاج الهنود فقام رجال الحكومة لذلك وقعدوا وأرسل الخديوى كتبه إلى نصحى باشا أمير ركب الحج المصرى فجاء الرد يقول إن الوباء على أشد ما يكون بمكة وأنه قد مات به ثلاثة من الجنود المصرية وأحمد أفندى عمر طبيب الركب المصرى ثم جاء الخبر أيضا بدخول ذلك الوباء إلى مصوع وفتكه بمن فيها فتكا ذريعا فرسم الخديوى من فوره بعمل الاحتياطات الصحية وسيروا فى يوم الأربعاء سادس عشر ذى الحجة جماعة من الأطباء والصيدلية وخدام المرضى إلى محجر الطور على ظهر الباخرة عائدة ومعهم الأدوية والخيام والملابس لفقراء الحجاج وأرسل ديوان الصحة إلى سائر عماله بالتأهب والاستعداد ليوم الطلب ومنعت نظارة الداخلية من إقامة سائر الموالد فى أنحاء البلاد فخاف الناس وجعلوا يبالغون فى الحيطة والتوقى من شر ذلك العدوّ الفتاك وطاف مشايخ الحارات ينادون على العامة بتنظيف دورهم والعناية بمأكلهم ومشربهم وملبسهم فضلا عن نظافة أجسامهم فوقع هذا النداء من قلوبهم موقعا رهيبا وكثر بينهم الهرج والمرج على عادتهم عند ظهور خبر هذا الحادث وطاف كذلك أصحاب الشرطة وأطباء الأقسام يفتشون الدور والوكائل ويلزمون أصحابها بنظافتها والعناية بها وظل الحال على ذلك حتى وصل الحجاج إلى محجر الطور ولبثوا به أيام الحجر فكان الموات بينهم قليلا ثم انقطع ولم يبق عليهم من خوف فجاءوا إلى السويس ودخلوا القاهرة معافين فزال عن الناس الخوف واطمأنت قلوبهم وانكف أصحاب الشرطة وأعوان الصحة عن التطواف كما كانوا يفعلون فى كل يوم .

(مطلب)

حريق سراي عابدين

وفى فجر يوم الخميس سابع عشر ذى الحجة سمع دوىّ شديد وصوت كأشد ما يكون من قصف الرعد وانتشر دخان كثيف ملأ جو القاهرة فهب الناس من نومهم

مذعورين وخرجوا يريدون مكان ذلك الصوت فظهر لهم لهب النار يرتفع من سراى الخديوى بعابدين إلى عنان السماء وشاهدوا طوائف الجند من المصريين والإنجليز يتسابقون إلى رحبة السراى ومعهم أصحاب المطافئ وجماعة ينفخون فى البوق نداء لمن تخلف منهم وكانت النار قد ظهرت أولا من غرفة فى الجهة الشرقية المجاورة لأحد مطابخ الدائرة الخاصة واشتد لهيبها ثم اتصلت إلى غرفة أخرى فأصابت أنابيب الغاز فتفرقعت الأنابيب فاشتد سعير النار وامتد لسانها وكبر خطرها وكثر نداء البوق فهرع الجند من كل صوب وناحية وجاءت خيل الحمل وعربات المياه وعربات الرش والطلمبات والفعلة ثم حضر الوزراء ووكلاء النظارات ورؤساء المصالح وكثير من الباشوات المتقاعدين وجعل كل منهم يقول رأيه فى كيفية إطفاء تلك النيران الآكلة فاختلفت الآراء واشتد اللهب وعلا علوا كبيرا وقد غاب عنهم جميعا إجراء الهدم للفصل بين الأماكن التى أخذت النار تأكل فيها وبين الأماكن التى لم تكن قد وصلتها النار واشتد الخوف على ما فى السراى من الأمتعة الفاخرة والفروشات الثمينة والثريات والمقاعد والأسرة والتحف التى لا تكاد تدخل تحت الحصر فأشار بعضهم بنقلها كلها إلى فسحة السراى الخارجية فنقل الجند بعضها فتكسر بعضه وتعطل البعض الآخر وكانوا يلقون بالشىء الكثير منها من النوافذ والشبابيك فيتحطم وهكذا ولم يتنبه أحدهم إلى الهدم والحيلولة بين النار وبين ما بقى من البناء أو تنبه بعضهم ولم يجد سميعا حتى أتت النار على جميع ما فى الجهة الشرقية إلى قرب باب المعية من الجهة الأمامية وإلى قريب سراى الحرم من الجهة الخلفية فتنبهوا حينئذ للهدم فهدموا غرفتين كبيرتين بين ديوان المعية وبين سراى الحرم بإلقاء الديناميت وكذلك هدموا سائر محلات الكتبة فانفصلت النار عن غرف المعية وانحصرت فى الجهة الشرقية وكان فعل الديناميت عند إلقائه على ذلك البناء غريبا مهولا جدا مادت له الأرض وأظلم به وجه السماء وكاد الناس يخرون على وجوههم لشدة ما أصابهم ثم جعلوا يلقون الماء على النار من المطافئ كالسيل ومازالوا على ذلك حتى تمكنوا من إخمادها وسلمت الجهة البحرية من السراى وكان ما كان من أمر المفروشات والنفائس والتحف أما الأوانى الذهبية والفضية والخزائن والسجلات والأوراق المهمة فقد نجت كلها من النار فحفظوها فى مكان وأقاموا الحراس من الجند حول السراى وما تهدم منها فى الليل والنهار وطيروا الخبر بما جرى إلى الخديوى فجاء ولى العهد ووالدته إلى القاهرة على قطار مخصوص وذهبا من فورهما إلى بناء السراى ولبثا هناك إلى قريب الغروب ثم عادا إلى الإسكندرية ومعهما من حضر من

الخدم والأتباع، واختلف الناس فى أسباب الحريق وكثرت الظنون وترامت إلى أسمع المرامى فرسم الخديوى بتحقيق الأسباب قيل ويلغه ما يقوله الناس فشدد على النائب العمومى فى ذلك، واتفق أن وجد جماعة العسس فى فجر الخميس ثانى عشرى ذى الحجة كيسا ملقى فى الطريق ما بين ترعة الإسماعيلية وكنيسة الإفرنج فيها ففتحوه فوجدوا فيه جثة رجل من العامة مقطوع الرأس مجهول الاسم والبلد فحملوا الجثة ودفنوها وأبقوا الرأس على رصيف الطريق وحولها جماعة من العسكر تخفرها فلما طلع النهار وشاع خبر ذلك تسارع الناس على اختلاف طبقاتهم إلى ذلك المكان ليروا الرأس واشتد الزحام حتى استدت منافذ الطرق وكثرت ضوضاء العامة وقالوا إن صاحب هذا الرأس هو الذى أحرق سراى عابدين وأنه قد حكم بقطع رأسه وتشهيرها وكثر اللغط بذلك وانتشر فى القاهرة ومصر القديمة فخاف أصحاب الشرطة العاقبة وحملوا الرأس فدفنوها وقد كانوا يريدون من عرضها على الناس معرفة صاحبها فلم يتمكنوا من ذلك وجدّ أصحاب الشرطة فى البحث عن القاتل وتعقبه أينما سار وحيثما صار فعلموا أن القاتلين للرجل جماعة دعاهم إلى فعل القتل الطمع فيما معه من المال، وتحرير الخبر أن القتيل رجل من المزارعين من أهالى أسيوط وله عادة أن يأتى إلى القاهرة فى مثل هذه الأيام من كل سنة ليدفع أجرة أرض استأجرها من أحد أعيان القاهرة فجاء فى ذلك اليوم على سابق عادته فى إحدى المراكب ومعه شىء من القمح والفول ليبيعه ويدفع إيجار الأرض من ثمنه وبات ليلته تلك عند صاحب له من خفراء بيوت خطة الإسماعيلية فظن الخفير أن ضيفه يحمل معه إيجار الأرض لصاحبها على عادته فى كل عام فلما نام الرجل آمنا مطمئنا فى حمى مضيفه انسل الخفير وعاد ومعه رجلان على شاكلته فانكبوا على الرجل وهو فى نومه وذبحوه ذبح الشاة وفتشوه فلم يجدوا معه شيئا لأنه لم يكن إلى تلك الليلة قد باع غلته فوضعوا جثته فى كيس وألقوها فى الطريق فقبض أصحاب الشرطة عليهم جميعا وألقوهم فى الحبس لينالوا جزاءهم.

(مطلب)

جبر البحر

ورسم الخديوى بأن يكون جبر الخليج أى جريان الماء فى خليج الخليفة المار بوسط القاهرة فى يوم الخميس ثالث عشر الشهر أى شهر المحرم من السنة وأن ينوب عنه فى حضور المهرجان ولى عهده الأمير عباس فقام الأمير من الإسكندرية فى يوم

الأربعـاء على قطار خـاص فكان كلمـا وقف القطار فـى محطـة أطلقت له المدافع إجلالا وتعظيـما حتى وصل القاهرة وقد كـانت محطتها مـزدانة بالرياحين والأزهار وغاصـة بجماهيـر الأمراء والوزراء والعلمـاء والموظفين والوجـهاء وقضـاة المحاكم الأهلية وأعضاء مـجلس شورى البلاد وقد اصطفت الجنود ما بين مـشاة وركبان فى ساحة المحطة مع بعض العساكـر الإنجليزية فلما نزل الأمير من القطار أطلقت المدافع وصدحت الموسـيقى العـسكرية فسار بين هذا الجـمع حتى ركب العـربة وإلى يساره شقيقـة الأمير محمد على وركب أمـامهما شوقى باشا ناظر الخاصـة ودومرتينو باشا أحد رجال المعيـة وسارت بهم المركبة وخلفها الجند حتى اليـخت الخديوى بالترسانة ببولاق مصر فأطلقت لمقدمهم المدافع من كل صـوب فباتوا ليلتهم باليخت فلما كان مساء اليوم الثانى فى نحو العشاء الأولى ركب الأمير وشقيقه إلى مصطبة فم الخليج وقد أعدّوا لهـما بصدر المصطبة سـرادقا من الديباج فرش بالطنافس وأنيـر بالثريات وصفت فيه الكراسى الملبسة بالحرير فجلس الأمير واجتـمع الناس فى تلك الساحة وفى الساعـة التاسعة أحـرقت الحراقات وأطلقت الأسـهم النارية وجعل كبـار القوم يدخلون على الأمير ويهنئونه إلى نحو نصف الليل ثم ركب مع شقيقه وحاشيته إلى قصـر الجزيرة فبـاتوا وفى الصبـاح عاد إلى المصطبة وكـان قد اجـتمع هناك الوزراء وموظفو الحكومـة بملابس الزينة والتشريف وبعـد برهة لطيفة أمر الأميـر بقطع السد فجرى الماء بالخليج ونثرت على السد الدنانيـر فصاح الناس بأصوات الفرح ثم ركب فى قلة من الخدم والحشم إلى مدينة حلوان فقضى فيها بقية يومه وعاد فبات ليلته فى اليخت الخديوى وأصبح يوم الجـمعة فزار فى مسائه المشهـد الزينبى والمسجد الجامع والمسجـد الحسـينى ومن هناك عاد إلى اليـخت وفى يوم السبت قضى هـو وشقيـقه نهارهما بين المطرية والقـبة والأهرام ومتحف الجيزة وسافـرا فى صبح الأحد عائدين إلى الإسكندرية ووقف الشعراء على باب الأمـير وامتدحوه بالأبيات الأبيـات فممن قال فى ذلك مـحمود أفنـدى حسنى المعاون بمحـافظة مصر قـصيـدة طويلة قال فى مطلعها.

وفى النيل بالأنجال يمنا لذا العام ولاحت شموس البشر للخاص والعام

وقال فى المديح :

صفات صفت من معدن المجد والتقى صفات أمير القطر والسودد النامى

وقال فى الختام:

جبرتم قلوب العالمين تكرما بتشريف جبر النيل فى خير أيام

وقال فى التاريخ :

بذا لسعود القطر قلت مؤرخا وفى النيل بالأنجال يمنا لذا العام

(مطلب)

تحقيق ديون غردون باشا

وعادوا فاشتغل أصحاب الحل والعقد بعد خلع مصطفى رياض باشا من منصب الرئاسة بتحقيق ديون غردون لأصحاب الأموال بالسودان أيام حصار الخرطوم والنظر فى شكاوى النازحين من الأقطار السودانية من الجند وأصحاب الوظائف والأهلين فقد كان قناصل الدول فى سعى متواصل مع رجال الدولة فى ذلك فرسم الخديوى فى سابع عشرى المحرم وأول سبتمبر بتشكيل لجنة من البارون رشتوفن والكونت زالوسكى والمسيو لوشوفاليه والمستر مونى والمسيوريوميدس والمسيو مورانا والبرنس موروزى وكلهم أعضاء صندوق الدين والمسيوروكاسيره مستشار قضايا الخزينة وأجاز لهم النظر فى تلك الطلبات والحكم فيها نهائيا مع اعتبار صحة سائر الديون التى حكم بها قضائيا بأحكام صارت فى قوّة التنفيذ وكذلك الديون المعترف بها من الخزينة أنها صحيحة وأن ترد للخزينة جميع الأموال التى قامت بدفعها قبل تشكيل هذه الهيئة فأحصوا تلك الديون والطلبات فبلغت تسعمائة ألف وستة وتسعين ألفًا وستين جنيها مصريا منها ستمائة ألف وسبعة وخمسون ألفًا ومائتان وثمانية وخمسون للأجانب على اختلاف أجناسهم وثلثمائة ألف وثمانية وثلاثون ألفا وثمانمائة واثنان للأهالى على تباين مذاهبهم فعدّلوا فيها ماشاءوا وحكموا بما شاءوا واستدانت الخزينة لوفاء هذه الديون والمطالب قدرا من المال كبيرا فكان نصيب الأهلين وأصحاب الوظائف الديوانية من ذلك نصيب الثعلب من صيده مع الأسد وراحت أموالهم وأرزاقهم هباء كما راح دم غردون بين أصحاب المهدى هدرا.

(مطلب)

العثور على عبد الله نديم بعد هروبه

وشاع خبر عزم الخديوى على الحضور إلى القاهرة من مصيفه بالإسكندرية وأن بعض العيون أبلغت ديوانه الخاص بأن فى بلد الجميزة التابعة لمديرية الغربية رجلين غريبين يقيمان بها منذ أمد بعيد وربما كان أحدهم عبدالله نديم صاحب الطائف

وخطيب عصاة الثورة العرابية وصاحب تلك الأحوال والأهوال المشهورة فاهتم الخديوى بالأمر وسير إلى مدير الغربية مرسوما بتحقيق الخبر ومعرفة ذينك الغريبين فصدع المدير بالأمر وسير جماعة من أصحاب الشرطة وبعض رجال العسس إلى ذلك البلد فلم تكن إلا أيام حتى عادوا فى ثانى ربيع الأول ومعهم عبدالله نديم بعينه ومينه وخادم له اسمه صالح أحمد وكان عبدالله فى زى الدراويش المولوية وعلى رأسه عمامة خضراء مكورة وقد أطلق لحيته فجعلته أقرب شبها بعرب العبابدة فكتم المدير عن الناس خبر ظهوره خوف الفتنة وطير الخبر بذلك إلى ديوان الخديوى ونظارة الداخلية فاجتمع فى نظارة الداخلية عبدالرحمن رشدى باشا وزكى باشا وكتشنر باشا وتيكران باشا وأحمد شكرى باشا وتناجوا طويلا فى ظهور عبدالله نديم بعد اختفائه كل هذه المدّة الطويلة وفى الخطة الواجب اتخاذها فى تحقيق أمر هربه واختفائه ومكثه كل هذا الزمان بالجميزة فلما كان عاشر الشهر قرر مجلس النظار إنفاذ الأمر الخديوى الصادر بنفى عبد الله نديم إلى الشام وإطلاق سبيل من ضبط معه وجاء الأمر بذلك إلى مدير الغربية وبأن يرسل عبدالله إلى الإسكندرية ليسير منها إلى الشام فأنزلوه فى قطار السكة الحديد تحرسه جماعة من الجند ومعاونى المديرية ومنعوا الناس من رؤيته وقد كانوا قبضوا أيضا على جماعة من أهل الجميزة ممن آوى إليهم عبدالله ومن كان يعرفه فعفا الخديوى عنهم وأطلقوا سراحهم ووصل عبدالله إلى الإسكندرية فأنزلوه فى سجن الترسانة ليلته تلك ثم أصبحوا فنقلوه إلى إحدى بواخر الشركة الخديوية الذاهبة إلى الشام وقد رسم الخديوى إلى ربانها بأن لا يضيق على عبد الله ولا يشوّش عليه وأن ينزله بأى بلد شاءها هو من بلاد الشام وأن يعطى له بعد نزوله شيء من المال للنفقة وتيسير المعيشة وأجاز إلى عبدالله أن يشتغل بأى حرفة شاءها فأعجب الناس صنع الخديوى وتحدثوا به كثيرا وقد كان بعضهم يظن أن عقاب عبد الله نديم بعد العثور عليه لا يكون إلا الصلب أو قطع يديه أو النفى من أرض الشرق بأجمعه فوقع غير ما كانوا يظنون واختار عبد الله أن ينزلوه بيافا فأنزلوه بها قيل ففتح مكتبا لتعليم الصبيان وأظهر الزهد والورع ما استطاع ورضى بالكفاف فعرفه بعض الناس وقربوه منهم فحسنت حاله.

(مطلب)

فتح جسر قشيشة المستجد في حفلة حافلة

وجاء الخبر إلى الديوان الخديوى فى الإسكندرية بما بذله عمال الرى من جماعة الإنجليز من العناية بضبط رى سائر حيضان مديريات الإقليم القبلى فى هذا العام

وعدم تخلف شيء من الشراقى إلا النزر القليل من أطيان الحوف الشرقى رغما عن عدم بلوغ النيل حده المعتاد فى الزيادة وهم يطلبون الإذن بفتح قناطر قشيشة المستجدة فى حفلة حافلة فرسم الخديوى بذلك فلما كان رابع عشر ربيع الأول من السنة وسابع عشر أكتوبر زين رجال الرى القنطرة بطولها والطريق الموصلة إليها بالأعلام والرايات ووضعوا رسم الخديوى فى مدخل القناطر من جهة ورسم ناظر الأشغال العمومية والكولونيل منكريف والنابغة الكولونيل روس مفتش الرى وجماعة المهندسين الذين باشروا عمل هذا البناء من الجهة الثانية وقد اجتمع سائر الوزراء والكبراء وأرباب الوظائف وكبار المزارعين وطوائف المهندسين من أجانب ووطنيين وكثير من كتاب صحف الأخبار فلما أتت الساعة الحادية عشرة صباحا فتحوا خمسا من عيون تلك القنطرة فانحدر الماء انحداراً عجيبا ثم جلسوا على مائدة الطعام الذى أعده لهم المسيو زورو مقاول بناء القناطر فأكلوا جميعا وشربوا وعادوا إلى القاهرة فى القطار الخصوصى الذى حضروا به، وقد كان بناء هذه القناطر بإشارة من المجاور روس فإنه لما رأى الخطر المحدق بجسر سكة حديد الإقليم القبلى بسبب المياه التى تتسلط عليه أوان انحدار مياه الحيضان القبلية إلى حوض قشيشة وعدم تيسر ضبط صرف مياه هذا الحوض ومياه سائر الحيضان التى تنصرف إليه وضرورة وجود الموازنة فى مياه الصرف حرصا على فائدة حيضان الإقليم البحرى وانتفاعه منها أشار بعمل تلك القنطرة فاتفقوا مع أحد المهندسين الأجانب واسمه المسيو زورو وشريكه المسيو بوتا فى أخريات جمادى الثانية سنة سبع وثلثمائة وألف هجرية وأوائل شهر فبراير سنة تسعين وثمانمائة وألف ميلادية على عمل البناء بمقتضى تخطيط وتقدير هندسى فأتموا بناءها وهى تشتمل على ستين عينا مزدوجة سعة الواحدة منها ثلاثة أمتار وتحتوى على صفى عقود أحدهما فوق الآخر وللصف الأعلى منها أبواب أفقية من الحديد المتين وللصف الأسفل أبواب من حديد أيضا مركبة فى دروندات سطحية ترفع بواسطة مرفعتين متحركتين على خط حديدى مستوى الدورند من الأمام ووزن الباب الواحد من الأبواب العليا نحو سبعة وأربعين قنطارا مصريا ومن الأبواب السفلى نحو ثلاثة وعشرين قنطارا وكيفية استعمال هذه الأبواب هى أنه قبل أن يأخذ النيل فى الزيادة ترفع سائر الأبواب العليا منها وتجعل أفقية فتسد الفتحات العليا من القنطرة ثم ترفع البوابات السفلى فتدخل من العيون السفلى مياه النيل إلى الحوض ومتى صارت مياه الحوض معادلة لمنسوب مياه النيل أقفلوا تلك البوابات لكى تعلو

مياه الحوض مما يرد عليه من مياه الملق ومياه البحر اليوسفى فإذا زادت المياه بالحوض عن منسوب تمام الرى المعتدل فتحوا العيون السفلى مرة ثانية للتخفيف كلما دعت الحالة لذلك حتى يجيء وقت الصرف العمومى فيفتحون الأبواب العليا كلها حتى إذا ما هبط منسوب الحوض هبوطا كافيا فتحوا العيون السفلى لسهولة صرف ما يكون قد بقى فى الحوض من المياه ـ وبصرف مياه قشيشة إبان الصرف يرتفع النيل عند القاهرة وتظهر فيه الزيادة ولكنها تختلف بحسب مناسيب مياه الحوض والبحر فى إبان الصرف ويبلغ عمق المياه المحصورة فى الحيضان الكائنة بين أسيوط وقشيشة ما بين عشرين وأربعين سنتيمترًا ـ وقد بلغ ما أنفق على هذه القناطر العظيمة زهاء اثنين وستين ألفا وستمائة وعشرين جنيها مصريا فجاءت من أجل الأعمال الهندسية وأكبرها فائدة إذ هى تصرف فى النيل مياه سلسلة الحيضان الكائنة بين أسيوط وقشيشة على مسافة مائة وسبعة وسبعين ميلا تجمع خمسمائة ألف وخمسة وخمسين ألف فدان وستمائة واثنين وخمسين فدانا وأخبرنى جماعة من المهندسين بأن هذه القنطرة تصرف كل عشرين يوما ألفى مليون متر مكعب فى السنين التى يكون نيلها عاليا وألف وخمسمائة مليون فى السنين التى يكون نيلها منحطا فيكون صرفها فى كل يوم مائة مليون متر مكعب فى الحالة الأولى ومائة وخمسين فى الحالة الثانية،
قلت: وكانوا قبل إنشاء هذه القنطرة يردمون شاطئ النيل موضع القنطرة الآن ردما محكما ويغطون سطحه بالأحجار الضخمة أيام الشتاء وينفقون على ذلك الكثير من المال فضلا عن تسخير العدد العديد من أهالى مديرية الجيزة وأهالى مديرية بنى سويف وبعض أهالى مديرية الفيوم فإذا جاء الصيف وبدأ النيل فى الارتفاع أعادوا ردم ما يكون قد تشعث منه وبالغوا فى حراسته وأكثروا من التطواف عليه فى الليل والنهار وهكذا حتى تتم زيادة النيل وتمتلئ الحيضان القبلية فإذا جاء أوان صرفها إلى قشيشة قام بحراسة ذلك السدّ مدير بنى سويف ومدير الجيزة وجماعة المهندسين والمأمورين والعدد العديد من أهالى البلاد القريبة والعمد والمشايخ فيضربون خيامهم على طول الشاطئ ويقضون ليلهم ونهارهم متأهبين لكل طارئ حتى يأتى الأمر بكسر السد فيكسروه مع التحفظ والالتفات فتنصرف منه مياه الحيضان كافة إلى النيل وهكذا فى كل عام يصرفون على هذا السد الشيء الكثير من المال ثم هم يكسرونه ويلقون به فى اليم حتى انشئوا تلك القنطرة فتخلصوا من جميع تلك المخاوف، ولم يمض على ذلك أيام حتى شاع الخبر بعزم الكولونيل منكريف وكيل نظارة الأشغال والماجور روس صاحب الأيادى البيضاء فى أعمال رى الإقليم القبلى على ترك

منصبيهما والعودة إلى عاصمة الإنجليز فأجمع الناس يومئذ على أن ذلك مترتب على ما هو واقع بينهما وبين السير بارنج من البغض والشحناء قالوا لأن الرجلين من أقيال القوم وأصحاب البيوتات العالية والمعارف السامية فلم يخفضا جناح الطاعة العمياء إلى ذلك الداهية ولم يطيقا الصبر على ذل النفس وإكراهها على مالا ترضاه فبادرا إلى اعتزال المنصب وترك السير بارنج وشأنه فى هذه الأرض أرض العجائب يولى فيها المناصب العالية والوظائف السامية لمن يشاء من صنائعه والملتفين حوله من شبان الإنجليز الأغرار حتى إذا قال لأحدهم قم قام أو افعل فعل بغير أخذ ولا رد، فلما كان أول ربيع الثانى من السنة وثالث نوفمبر اجتمع مجلس النظار بغير حضور الخديوى وقرر قبول استعفاء الرجلين وتعيين المستر جارستن لوكالة نظارة الأشغال والمستر فوستر لتفتيش رى الإقليم البحرى والمستر براون لتفتيش رى الإقليم القبلى والمستر ويلكوكس لتفتيش الخزانات المزمع إنشاؤها بأسوان عند قصر أنس الوجود والمستر الن يوسف لرى القسم الثالث وإسماعيل بك سرى لرى القسم الرابع-وأن يؤتى باثنين من الإنجليز المقيمين بالهند ليتولى أحدهما رى القسم الأول وثانيهما رى القسم الثانى فتطير الناس من ذلك وقال جماعة منهم هى حلقة من سلسلة كثيرة الحلقات سيطوقون بها أعناق أهل البلاد مادامت مصر مغنما والإنجليز ساداتها وقال آخرون ربما كان فى تخلف الخديوى عن الحضور بجلسة ذلك اليوم حكمة لا تلبث أن تظهر للعالمين يوم يعود الخديوى من مصيفه بالإسكندرية، فلما كان خامس الشهر أى شهر ربيع الثانى قام الخديوى من الإسكندرية على قطاره الخاص ومعه جماعة الوزراء ورجال ديوانه يريد القاهرة فكان لوداعه احتفال عظيم وكان فى انتظاره بمحطة القاهرة كافة الأمراء من البيت العلوى والكبراء والعظماء والعلماء وأصحاب الوظائف العالية فلما وصل القطار أطلقت المدافع من قلعة الجبل وصدحت الموسيقى وهتف الجند هتاف الترحيب فركب عربته وعلى يساره الرئيس مصطفى فهمى باشا وخلفه طائفة الحراس وجماعة الفرسان وسار إلى مقره بسراى عابدين وكان قد تم بناء ما تهدم منها وكمل زخرفها على أحسن ما يكون وفرشت بأحسن المفروش وأنفقوا على ذلك شيئا كثيرا جداً وكان يعمل فيها من الصناع والبنائين وأصحاب الصنائع الأخرى فى كل يوم ألفان وثمانمائة عامل مدة أربعة أشهر كاملة ـ وبالغ أهل القاهرة ومصر القديمة فى عمل الزينات والألعاب النارية إجلالا لمقدمه وغصت الشوارع كافة بالمتفرجين مشاة وركبانا وانتشر أصحاب الشرطة فى كل صوب ودرب فأقبل الخديوى عند الساعة الثامنة مساء فى عربته يطوف في تلك الشوارع ويحيى

الناس فانطلقت ألسنة العامة بالدعاء له وألسنة النساء منهم بالزغاريت وطافت كذلك خلفه والدة ولى العهد فى عربة وحولها جماعة الخصيان وأمامها طائفة من الفرسان ثم عادوا جميعا إلى سراى القبة وأصبحوا وقد وقف على بابه الشعراء والقوالون وأتت إلى ديوانه قصائد التهانى والمديح من كل صوب ومنها قصيدة طويلة لحسن بيك حسنى الطويرانى يرحب فيها بالخديوى قال فى مطلعها:

توسمت بدر الفوز من مطلع اليسر فبشرت آمالى بطالعة البشر

وفى مخلصها :

ولولا الهوى لم أشك من غربة النوى ولولا سنا توفيق ماعدت للشعر

له موكبا بأس ولين كلاهما وأقام المنى والأمن فى البر والبحر

أنام الورى فى أمنه وهو ساهر وأتعب منه النفس فى راحة القطر

وفى ختامها:

وأرخ بأفراح القدوم زهاء الهنا وقل عاد توفيق المليك إلى مصر

وقال فى ذلك أيضا محمود أفندى حسنى أحد معاونى محافظة مصر:

بحسن عود الخديوى أنس مصر بدا وكوكب البشر فى أفق الهنا صعدا

وقال فى الختام وهو بيت التاريخ الهجرى:

لسان إسعادها نادى يؤرخها بحسن عود الخديوى أنس مصر بدا

ثم شفعها بتاريخ هجرى آخر قال فيه :

بالصفو عاد الخديوى والأنس بالبشر عرف

ياقطر فاهنأ وأرخ باليمن توفيق شرف

ومضت أيام الأفراح والزينات والناس متشوقون إلى معرفة ما سيفعله الخديوى بعد تسليم زمام الرى إلى جماعة الإنجليز وإطلاق أيديهم فى شئونه فلم تكن إلا أيام قلائل حتى قرر مجلس الوزراء مرتبات أولئك القوم فكانت ألفا وخمسمائة جنيه لكل منهم يتقاضاها من الخزينة فى كل سنة وستمائة فقط إلى إسماعيل سرى بك فصادق الخديوى على ذلك ورسم به فاختلط حينئذ الحال على الناس وقالوا حكمة الله سبحانه فى ذلك فوق كل حكمة، فلم يكن إلا يوم أو بعض يوم حتى جاء الخبر من مدير البحيرة بأن قد حدث قطع عظيم بساحل ترعة المحمودية عند جسر حجر النوتية وأن الماء قد انحبس عن الإسكندرية وانهال على ملاحة مريوط وأن سبب

ذلك إهمال أصحاب الرى ردم الجسور وتقوية منافذ الماء وجاء الخبر كذلك من محافظ الإسكندرية بانحسار الماء عن الآلات الرافعة لسقاية البلد وأن الأهالى فى قلق واضطراب لاسيما الأجانب منهم وقد تزاحمت العامة على صهاريج أصحاب البيوت القديمة بالبلد ليستقوا منها فاهتم أصحاب الحل والعقد لذلك اهتماما كبيرا وقام مدير البحيرة ومحافظة الإسكندرية وسعدالدين باشا رئيس مفتشى الداخلية والمستر فوستر أحد أولئك الإنجليز إلى مكان القطع وحشدوا الأنفار وجمعوا بعض الصناع واشتدوا فى العمل وأكثروا من المعدات وظلوا على هذه الحال أياما وانحدار الماء من القطع على أشده حتى تمكنوا بعد العناء الكبير من سده ورجعت المياه إلى مجاريها ولم يمض على هذا الحادث إلا بضعة أيام حتى جاء الخبر من مدير أسيوط بأن قد جرت المياه إلى حوض الزنار وغمرتها ثانية بعد انقضاء أوان صرف ذلك الحوض فأغرقت مزروعاته وأماتتها جميعا وأن قد قامت ضجة أصحاب تلك المزروعات ورفعوا الدعاوى أمام الجهات الاختصاص على أصحاب الرى ووردت شكاوى القوم على ديوان الخديوى تباعا وكلها مفعمة بقارص الكلام ومر الملام والتألم من فعال أصحاب الرى الذين تسلموا زمامه فى هذه الأيام فأكبر الخديوى الأمر وكلم الرئيس مصطفى باشا فهمى فى ذلك فأوعزالرئيس إلى مدير أسيوط بملاطفة أصحاب تلك المزارع وأن يخفف عنهم ما استطاع حتى يتروى فى الأمر، ثم كلم أصحاب الرى فى شكوى أهالى حوض الزنار وتوجع من فعال المكلفين بصرف مياه الأحواض فقام على الفور الماجور براون مفتش رى الإقليم القبلى إلى أسيوط وغاب أياما ثم عاد ورفع إلى نظارة الأشغال تقريرا قال فيه - إن الضرر الذى أصاب الزروعات بذلك الحوض ليس بالأمر العظيم لأن المزروعات تتراوح مابين مائتين إلى ثلثمائة فدان وأن أصحاب الرى لم يخطئوا فى عملهم عند فتح الحيضان للصرف وأن الأهالى كسروا سدا لم يشر أصحاب الرى قط بكسره فكان فعلهم سببا لرجوع المياه إلى الحوض يعنى حوض الزنار وغرق تلك المزروعات، وعلم مدير أسيوط بما قاله الماجور براون فأنكر عليه مقالته وأثبت أن الضرر ألم بمزروعات زهاء ثلاثة آلاف فدان وقال إن الأهالى لم يكسروا شيئا من السدود وأن الخطأ كل الخطأ فيما فعله أصحاب الرى. وعلت ضوضاء أصحاب حوض الزنار وأنذر بعضهم نظارة الأشغال بطلب التعويض على يدى المحاكم المختلطة وقام أصحاب صحف الأخبار يقرّعون جماعة الإنجليز ويرجعون على أصحاب الرى منهم باللائمة ويقولون إنهم أغرار

يجهلون طرق الـرى المصرى ولا يعرفـون شيئـا من وسائل الحيلولة بين الـنافع منها والضار وأن إعطاءهم تلك الجمـاكى الفادحة ضرب من الجور ومـحنة كبرى لا دواء لها وصـاح لصيحتـهم هذه أيضا بعض أصحاب صـحف الفرنسيس فأكـبر الرئيس مصطفى فهمى بـاشا أمر ذلك وعقد جلسة مجلس النظار وتـناجوا طويلا وبعد أخذ ورد قرروا تشكيل لجنة من محمـد سعد الدين باشا وعامر عبـد البر بيك واسمعلوم بك لتحقـيق تلك الشكاوى وتقدير ما أصاب أصـحابها من الخسـائر وإقامة الدليل على ما إذا كان الخطأ الناجم عنه تلك الخسائر واقـعا بفعل أصحاب الرى أو الأهالى أو غيـرهم فـساروا إلى أسـيوط وقـد أحس السيـر بارنج بما وراء ذلك فعـمل على استرضاء الكولونيل مونكريف والمـاجور روس واستبقائهما فى منصبيـهما حولا آخر وسعى فى ذلك ما استطاع حتى قبلا البقاء عاما أو بعض عام فغيروا حينئذ من ذلك النظام وقللوا من أهمية وظائف جارستن وبراون وفوستر وغيرهم إلى حين ثم خففوا من مطالب أصحـاب حوض الزنار واستـرضوهم بشيء من المال فـسكتوا وانقطعت ضوضاؤهم فبات هذا الحادث بعد ذلك فى خبر كان.

(مطلب)

ما أبطل من المغارم والمكوس

ورأى منلر وكيل المالية عند عـمل ميزانية الخزينة لسنة إحدى وتسـعين وثمانمائة وألف ميلادية أن فى مجموع موارد إيراد الخزينة شـيئا كثيرا من المغارم والمكوس التى ما أنزل الله بهـا من سلطان وهى غل فى أعناق الفقـراء من أهل البلاد فـأخذ منذ ولايته يدبر الأمر على إبطالها ويعمل على تغيير نظام بعض تلك الموارد ومازال دائبا على ذلك وبعض كـبار الإنجليز يـمانعونه حـتى تمكن فى أخريات ربيع الـثانى من السنة وأخريات سـبتـمبر من إعـفاء بيوت القـاهرة ومصر القـديمة التى لا يتـجاوز إيجارها فى السنة خمسمـائة قرش من الإتاوة السنوية ومن إبطال رسوم القيدية على رخص تعاطى صناعـة الطب والولادة والجراحة الصـغرى ومهنة القـوابل والمحلات المعدة لبيع العقاقير والمواد الأقرباذينية والجواهر السامة ورخص الصنائع وأنقصوا ثمن الملح كى لا يتعذر على الفقراء وأهل القرى استعماله بدلا من الملح البرانى الذى هو الملح الجـبلى وأبطلوا دائرتى بلدية مـصـر والإسكندرية وخصـصـوا دخل دخوليـة الإسكندرية لمجلس بلديتـها وأبطلوا كـذلك السخرة والعـونة وما يتبـعهـا من البدل

النقدى وتكفلت الخـزينة بالنفقة على خفارة الجـسور والأعمال المستـعجلة التى تلزم عند حصول خطر من فيضان النيل ففرح الناس بذلك واستبشروا بانفراج الأزمة بعد أن استحكمت حلقاتها .

(مطلب)

ما وقع من التبديل في قضاة المحاكم الشرعية

وإلى هذا الحين أى إلى شهر ربيع الثانى من السنة كان المستشار القضائى قد كاد ينجز ما أراده من القلب والإبدال فى هيئة القضـاء والقضاة بالمحاكم الأهلية وأعضاء ورؤساء النيابات كما تقدم القول فلما كانت أخريات الشهر عمد إلى التغيير والتبديل فى قضاة المحـاكم الشرعية أيضا فمـد يده إلى محاكم الجيزة وأسـيوط وبنى سويف والغربية والشرقية وسيـوه وسواكن وتناول كذلك بعض وظائف الإفتاء بالمديريات ثم انقلب على محكـمة الاستئناف الأهـلية فتنحى عـبدالحميـد صادق باشا عن مـركز رئاستها فتولاها إبراهيم فؤاد بيك رئيس محكمة مـصر الابتدائية واشتد المستشار فى عمله واكبـر فى القلوب هيبته وتمكن من منصـبه أى تمكن واستبـد بالأمر حتى بلغ الغيظ من حسين فخرى باشا معظمه واتفق أن أحسن الخديوى على إبراهيم فؤاد بك برتبة الباشوية عقب توليته رئاسة محكمـة الاستئناف فقال الناس إنه سيخلف حسين فخرى باشا فى منصبه وشـاع الخبر بذلك وأصبح عند نقلة الأخبار فى حكم الشىء المقرر لأن السواد الأعظم كان يتوقع ذلك من يوم دخول حسين فخرى باشا فى عداد وزارة مصطفى فهمى باشا لبغض جماعة الإنجليز له وكرههم لبقائه فى مسند الوزارة وسعيهم وراء خذلانه، فلما كان صـبح الثانى عشر من جمادى الأولى من السنة أى رابع عشر ديسمبر ذهب السير بارنج إلى مـقر الخديوى بعابدين ولبث بحضرته ساعة ثم انصرف ثم عاد ولبث برهة أخرى ثم انصرف فاستدعى الخديوى فى الحال جماعة النظار وعقد مجلسهم فتداولوا معه فى كيفيـة افتتاح الجمعية العمومية لمجلس شورى البلاد حسب العادة فى كل سنة ثم انفض مجلسهم وذهب كله منهم إلى ديوانه ولم يؤذن الظهر حتى جـاء الطلب من الديوان الخديوى إلى حسين فخرى بـاشا فقام من فوره وتمثل بين يدى الخـديوى فقال له الخديوى إن الـرئيس مصطفى فهمى باشـا قد شكا إلى منذ أيام مما هو بينكما من الخـلاف والتباين فى الرأى ويقول إنه يستحيل اتفاقه معك وقد أتانى اليوم وعرض علىّ خـصلة من ثنتين إما أن يخلع نفسه ويترك

منصب الرئاسة وإما أن تخلع أنت من مسند الحقانية فقال يامولاى إنى لا أريد أن أكون حجر عشرة فى سبيل أعمال حكومة سيدى وها أنا قد خلعت نفسى وتركت منصبى فليقبل سيدى منى ذلك فقال الخديوى قد قبلته فانصرف حسين فخرى باشا من حضرة الخديوى وأرسل فى طلب ماله فى الديوان من الأوراق الخصوصية فأتوه بها. حدثنى أحد المقربين من باب الخديوى قال: خرج حسين فخرى باشا فى ذلك اليوم من حضرة الخديوى وهو يجر أذيال الغيظ ويعض أصبع الندم وكلنا يعلم أن ما بدا من الرئيس مصطفى فهمى باشا من الشكوى وما قاله من استحالة الاتفاق مع فخرى باشا إنما هو مكره عليه من أسكوت ومدفوع إليه من السير بارنج وأن خلع فخرى باشا وتنحيته عن منصبه أمر متفق عليه من قبل وقد ضربوا له أجلا هو تغيب أسكوت بالإجازة فلما غاب أسكوت وحان الأجل المضروب استقدمه الخديوى وقال له تلك المقالة التى لم تخف مغامزها على أحد من العالمين - قال ولقد كان الأجدر بحسين فخرى باشا أن لا يبقى فى هذا المنصب المحفوف بصنوف المكاره إلى أن يكرهوه على التخلى عنه فإن ذلك يحط من الكرامة وتأباه الشهامة - قال: وبعد فقل لى بحقك من ذا الذى يرجو السلامة لجماعة النظار من مثل هاته الضربة إذا لم ترض جماعة الإنجليز طاعتهم أولم تعجبهم شمائلهم، إن الناس طرا يعلمون أن سياسة القوم فى هذه الأيام هى تمزيق شمل أصحاب الوظائف من أهل البلاد كل ممزق حتى يتم لصاحبهم ما طفق ينادى به على رؤوس الملأ من أنه لا رجال فى مصر يحسنون التصرف فى مناصب البلاد أ. هـ.

واتفق أن أحمد بليغ بيك وكيل رئاسة محكمة الاستئناف العليا أدب فى ليلة اليوم الثانى لخلع حسين فخرى باشا مأدبة لإبراهيم فؤاد باشا بمناسبة ارتقائه مسند الرئاسة للاستئناف ودعا فى تلك الليلة جماعة القضاة وبعض رؤساء النيابات فأكلوا وشربوا وبينما هم حاصلون على أكمل ما يكون من أسباب الأنس والصفاء إذ دخل عليهم كحيل باشا باشكاتب مجلس النظار وأبلغ إبراهيم فؤاد باشا خبر ما رسم به الخديوى من توليته مسند نظارة الحقانية بدلا من فخرى باشا فشكر وانطلق لسانه بالدعاء فهنأه الحاضرون وأصبح فسار إلى مقر الخديوى بعابدين فهنأه الخديوى بالمنصب فقبل يده وكان ذلك اليوم وهو خامس عشر جمادى الأولى وسابع عشر ديسمبر من السنة موعد افتتاح الجمعية العمومية لمجلس شورى البلاد فرسم الخديوى إلى إبراهيم باشا بالذهاب إلى قاعة الشورى مع جماعة الوزراء فقبل يده وانصرف،

وركب الخديوى كذلك عربة التشريف وعلى يساره ثابت باشا كاتب الديوان الخديوى وأمامه وخلفه جماعة الحرس وطوائف الجند وسار إلى قاعة الشورى فلقيه النظار وجماعة أعضاء شورى البلاد فدخل وجلس فى إحدى غرف المكان فقدموا إليه عمد البلاد المنتدبين لعضوية الجمعية العمومية فحلفوا بين يديه يمين الأمانة إذ كانت هذه أول مرة لانعقاد الجمعية العمومية بعد الانتخابات الأخيرة ثم دخل الخديوى القاعة الكبرى وخلفه النظار فخطب على الأعضاء الخطبة المعتادة ثم قال إن الغرض من اجتماعكم فى هذه المرة هو النظر فى مشروع تقليل فيات ضرائب الأطيان ولا يخفاكم أن هذا المشروع إنما هو مقدمة لتخفيف الضرائب كافة وأملى أنكم تنظرون فيه بما يكون صالحا للبلاد وأهلها وأسأل الله أن يوفق الجميع إلى ما فيه السداد والخير فعند ذلك صاح جماعة الأعضاء بالدعاء له فخرج ولبث أصحاب الشورى مع جماعة النظار يتكلمون فيما هم بصدده وفى ثانى يوم سادس عشر جمادى الأولى رسم الخديوى بتولية بليغ بيك رئاسة محكمة الاستئناف بدلا من إبراهيم فؤاد باشا وأحسن عليه برتبة الباشوية وعاد أسكوت من غيبته فرحا جذلا بما ناله من الظفر والغلبة على حسين فخرى باشا وقد خلا له الجو فجعل يصفر وينقر ما شاء أن ينقر ولم تكن إلا أيام قلائل من عودته حتى رسم الخديوى أيضا بتولية إسماعيل صبرى بيك رئيس محكمة الإسكندرية وكالة محكمة الاستئناف العليا فلم يبق فى نفس أسكوت بعد ذلك حاجة إلا قضاها فأقصى عن سائر المحاكم صنائع مصطفى رياض باشا وصهره محمود باشا وخلع من وظائفها جماعة من أهل الدعارة والنفاق وألبس القضاة والنواب وأعضاء النيابات شارات مخصوصة عند جلوسهم للحكم بين المتقاضين وهى زنار من الحرير فى عرض قبضة اليد يجمع بين اللونين الأحمر والأخضر اللذين هما لونا الراية المصرية العثمانية فكانوا إذا جلسوا فى كراسى القضاء تقلدوها على صدورهم وألبس كذلك جماعة المحامين كساء من الجوخ الأسود على شكل الفروجيات أو أقبية العلماء وأصحاب حلقات التدريس بالجامع الأزهر يلبسونها عند الوقوف فى موقف المحاماة وقد كانت هذه الشارات والأكسية من مبتكرات شفيق بيك منصور على عهد ولايته وكالة النيابة العامة ولكنه رحمه الله لم يقدر على إخراجها إلى عالم الظهور لممانعة مصطفى رياض باشا فى ذلك أيام رئاسته فأهملت حتى جاء أسكوت فجعلها ركنا من أركان نظامه الجديد فى محاكم البلاد.

(مطلب)

ما فعله كتشنر باشا من النظام

وكما بسط أسكوت يده على سائر المحاكم فغير وبدل أدنى من قضاتها من شاء وأقصى منهم من شاء وسنّ لهم السنن وقنن القوانين فعل كذلك كتشنر باشا فى نظام الشحنة ومن فيها من الجند ومقدمى الجند وقد بالغ فى الحيطة وإحكام التدبير لعله يتمكن من قطع دابر اللصوصية وإرهاب أهل الشقاوة وتأمين السبل لأبنائها فكان له فى كل يوم منذ تولاها شأن جديد وعزم لا يفله الحديد وكان لا ينكف عن التجوال بين الإقاليم القبلية والبحرية ليتحقق من كفاءة خفر البلاد وعسسها وسير مشايخ القرى وعمدها وما يحتاجه الأمن فيها من الوسائل والأسباب وقد غير وبدل كثيرًا من ضباط الجند وسنّ لهم السنن وقنن القوانين الصارمة وسنّ كذلك قانونا للعطلة من أهل البلاد والأجانب سكان المدن والمتشردين من الفئتين لا يقدر على العمل به إلا الجبار العنيد فلما أخذ أصحابه فى تنفيذه والعمل به استعصى عليهم الحال وأشكل المآل وخشن قناصل الدول للرئيس مصطفى فهمى باشا بسببه المقال وظلوا على ذلك أياما حتى أوعز الرئيس بعد أخذ ورد مع أعضاء شورى البلاد بإهماله والكف عن مشاغبة الناس إلى حين.

(مطلب)

ما فعله المستر منلر وكيل المالية

وكذلك فعل المستر منلر وكيل نظارة المالية فإنه لما ساءه ما فعله مصطفى رياض باشا أيام رئاسته من التشديد على مأمورى الحكومة بجمع الخراج فى غير آجاله وبثه أصحاب الجباية فى شرق البلاد وغربها لتحصيل البقايا القديمة والمتأخرات العاطلة وكان ما كان بينه وبين مصطفى رياض باشا من الوحشة والجفاء واستفحال العداء إلى الحد الذى بيناه فى محله عمد من ذلك الحين إلى البحث والتنقيب عن حالة موارد الخزينة وما وصلت إليه حالة أهل البلاد مع المرابين وتجار الأرياف من جماعة الروم وغيرهم وفى أسباب استدانتهم وما عليهم من الديون المتراكمة بعضها فوق بعض وفى كيفية حبس أرزاقهم وزروعاتهم وعقارهم تحت أيدى أولئك القوم رهنا على تلك الديون كل ذلك ليبرهن إلى صاحب سياستهم على أن فلاحى البلاد فى

أشد ما يكون من حالات العسر والإفلاس وعلى أن البلاد فى أحرج المواقف وأدناها من مهواة الدمار وعلي أن فعال رياض باشا يومئذ كانت ضربا من العسف بأهل البلاد وتغريرا بأصحاب الوظائف الديوانية من جماعة الإنجليز فرفع إلى صاحب سياستهم صحيفة مطولة فى معنى ما ذكر وتناقل ما فيها أصحاب صحف أخبارهم الكبرى كالتيمس والداليتيوز وغيرهما وتعقبوا عليها بشىء من قارص الكلام وقد أحصى منلر فى صحيفته تلك حياه الله ما على أهل البلاد على اختلاف درجاتهم من الديون المسجلة بسجلات المحاكم المختلطة وحدها لأولئك القوم إلى أخريات سنة تسعين وثمانمائة وألف ميلادية فبلغ عشرين ألف ألف وستا وثمانين ألفا ومائة واثنين وثمانين جنيها مصريا وأن ما حبس لوفائها من الأطيان بلغ ألف ألف وثلثمائة ألف وأربعمائة فدان من العقار تسعة آلاف وخمسة وتسعين عقاراً هذا عدا ما استدانوه فى سنة إحدى وتسعين الحالية وعدا ما هو مسجل بالمحاكم الشرعية وفضلا عن المبالغ المتعامل بها بين الأهالى والأفراد الأخر من الأجانب ونزلاء البلاد مما لا ينقص عن الخمسة آلاف ألف وخمسمائة ألف جنيه وأطنب منلر فى المقال وأكثر من البرهان على وجوب تعديل الخراج والتعجيل بالتخفيف عن أهالى مديريتى الحدود وأسوان وشاع خبر ذلك بين الناس ففرحوا ومدحوا منلر وقالو « إذا تزاحمت الخيل فمن سعد الركاب» وجعل منلر من هذا الحين يكثر الترداد ما بين مجلس النظار ومجلس شورى البلاد حتى تم له ما أراده من التخفيف عن تينك المديريتين وتقررت قاعدة ذلك بينهم.

(مطلب)

مرض الخديوي توفيق باشا ووفاته

واتفق أن ذهب السير بارنج فى سابع عشرى جمادى الأولى من السنة أى تاسع عشر ديسمبر إلى سراى عابدين ليكلم الخديوى فيما وقع الاتفاق عليه مع منلر فعلم من رئيس التشريفات أن الخديوى بعد أن كان على عزم الانحدار من قصره بحلوان إلى عابدين على عادته فى كل يوم وقد أخذ رجال ديوانه الأهبة لذلك جاءهم الخبر بعدم قدرته على الحضور وأنه يشكو منذ صباح اليوم ذات الصدر فعاد السير بارنج إلى مقره ولبث يومه ينتظر الخبر فإذا بهم أرسلوا يقولون إنه قد شعر فى ذلك اليوم بقشعريرة أتعبته ولكن الأعراض ليست شديدة وليس فيها ما يدعو قط

إلى القلق، فلما كان اليوم الثانى أى ثامن عشرى جمادى الأولى سار السير بارنج وجماعة الوزراء وبعض الكبراء إلى حلوان للسؤال عن صحته فعلموا فى طريقهم بأنه انحدر من حلوان إلى القاهرة فعادوا ودخلوا عليه بمقره بعابدين فشكا إليهم ما يلاقيه من أعراض النزلة وبات ليلته تلك بسراى القبة ثم عاد فى ثانى يوم إلى حلوان فلم يصلها حتى اشتدت به الأعراض فلازم مخدعه ولم يخرج منه واستدعى طبيبيه الخصوصيين وهما سالم باشا سالم وعيسى باشا حمدى فأثبتا أنه مصاب بالنزلة الصدرية فى درجتها البسيطة وبقى على هذه الحال إلى صباح خامس جمادى الآخرة وكان ديوانه قد أعلن عزم الخديوى على أن يأدب فى هذا اليوم أى خامس جمادى الآخرة مأدبة يحضرها ثلاثون مدعوا من الأمراء والعظماء ومقدمى العسكرين المصرى والإنجليزى وقد كانوا أخذوا الأهبة والاستعداد لذلك فلما اشتدت به علته شاع الخبر بأن قد أبطلت تلك المأدبة وتأجلت إلى يوم الثلاثاء حادى عشر جمادى الآخرة ثم جاء الخبر إلى القاهرة بتقدمه إلى العافية وزوال البأس عنه وتكلمت صحف الأخبار فى ذلك وهنأه بعضهم بشىء من مليح القول فلما كانت عشية ذلك اليوم أحس الخديوى بألم شديد فى الصدر فاستدعى طبيبه عيسى باشا وشكا إليه ألمه فجس الطبيب نبضه فإذا به على أشد ما يكون من السرعة وكذلك الحرارة على أشد ما يكون فسهر عليه ليلته تلك وبعد نصف الليل بقليل ظهرت عليه أعراض أخرى خطرة فاستدعوا الطبيب سالم باشا فحضر فى نحو الساعة الثالثة بعد نصف الليل فرأى أن الحالة قد بلغت أشدها وأن الخديوى على شفا جرف الموت فطيروا الخبر إلى صاحب شركة سكة حديد حلوان بإعداد قطار خاص يستحضر بعض الأطباء من القاهرة فلم تكن إلا ساعة أو بعض ساعة حتى حضر الطبيب كمانوس والطبيب هيس فلما عاينا حالة الخديوى قالا إنه فى النفس الأخير وأن لا مفر من القدر المحتوم وكان إلى هذه الساعة قد اشتدت به علة ذات الرئة فامتنعت بذلك كل وسيلة ولم يبق لهم قط حيلة.

إن الطبيب له فى الداء مخبرة	مادام فى أجل الإنسان تأخير
أما العليل فإن حانت منيته	تاه الطبيب وخانته العقاقير

وقضى الأطباء الليل كله فلم تنجح لهم طريقة وبقى الحال هكذا إلى الساعة الثالثة من مساء الخميس سابع الشهر فكبر الخطر وشاع الخبر وطلب الأطباء جماعة آخرين ليشاوروهم فى الأمر فحضر الطبيب أمبرون والطبيب بنيت والطبيب ويلد

فلما شاهدوا الحالة قالوا لم يبق أمل فى النجاة فقد استعصى الداء ولا ينفع الدواء وكان لما وصل الخبر إلى القاهرة بطلب هؤلاء الأطباء تسارع كبار قناصل الدول والأمراء من البيت العلوى والكبراء وعظماء القوم إلى حلوان، ومنذ الساعة السادسة غاب العليل عن الصواب ولم يعد يعى وسأله الطبيب كمانوس عما يؤلمه فلم يجبه بشىء سوى هذه الكلمات«هاتوا لنا الضوء» فتحقق جماعة الأطباء أنه قد دخل فى غمرات النزع الأخير واستمر النزع إلى الساعة السابعة وفيها أسلم الروح فقام الصياح من كل صوب وعلت أصوات الجوارى والخدم والحشم والأتباع بالصياح والعويل فهب الناس من نومهم وتسارعوا إلى رحبة القصر وكلهم باك منتحب ووصل الخبر إلى القاهرة إذ طاف جماعة الخدم والخصيان على بيوت الأمراء يخبرونهم بالحادث وانتشر نعيه وشاع فى كل صوب ودرب فهرع الناس على اختلاف طبقاتهم إلى حلوان وعقد النظار جلسة مجلسهم فى صباح الجمعة بحلوان فجلس بينهم السير بارنج قنصل جنرال الإنجليز وتناجوا فى ذلك طويلا وقد شاع أنهم لم يقروا على تبليغ الخبر من طريقه الرسمى إلى دار السلطنة العثمانية ولكن الخبر وصل إلى المابين والباب العالى من مصادر أخرى كثيرة ثم انعقد المجلس مرة ثانية بسراى عابدين فجلس معهم غرانفل باشا سرادار الجيش المصرى وكتشنر باشا صاحب الشرطة فقرروا فيما بينهم كيفية سير الجنازة والإتيان بجثة الفقيد من حلوان ثم قرروا أيضا تبليغ الخبر إلى الباب العالى قيل وقد كان تأخرهم عن ذلك مترتبا على انتظار مجيء الإذن من صاحب السياسة الإنجليزية .

ونشروا فى ضحوة اليوم بالجريدة الرسمية النشرة الآتية: الجناب الخديوى محمد توفيق باشا توفى إلى رحمة الله تعالى فى ليلة الجمعة ثامن يناير سنة اثنتين وتسعين وثمانمائة وألف فى الساعة السابعة وسبع عشرة دقيقة إفرنكى ليلا بسراى حلوان، وقد أعلن بذلك سمو البرنس عباس باشا حلمى تلغرافيا (بويانا) وينتظر قدومه لمصر بوابور مخصوص وسيدير أعمال الحكومة إلى حين حضور سموه مجلس النظار تحت رئاسة سعادة مصطفى فهمى باشا .

الاحتفال بجنازة جثمان الخديوى سيكون فى الساعة الثانية على الحساب الأفرنكى بعد الظهر من هذا اليوم يعنى الجمعة ثامن شهر يناير والجنازة ستشيع من سراى عابدين .

وإيذانا بالحزن ستقفل كافة دواوين الحكومة والمصالح العمومية يومى السبت والأحد تسعة وعشرة يناير.

واتتشر الخبر وذاع ونقله البرق إلى الإسكندرية وسائر المدن والبلدان فى داخلية القطر ودار السلطنة العثمانية والممالك الأوروباوية فى تلك الليلة فأصبحوا يوم الجمعة وقد رفعت الأعلام مجللة بالسواد وألبسوا مصابيح الغاز بالشوارع لفائف سوداء وأناروها فى النهار وأقفلت سائر دواوين الحكومة والبنوكة والمخازن والدكاكين والمدارس والمكاتب ورفع قناصل الدول أعلامهم منكسة وجاء إلى القاهرة كثير من وجهاء البلاد والعمد والأعيان وفى الساعة الأولى من بعد ظهر اليوم حملوا نعش الفقيد من قصر حلوان فى قطار مخصوص فسار به إلى القاهرة وكان قد ركب فى القطار الأمير حسين أخو الخديوى ورجال الديوان الخاص وكثير من كبار الأهلين والأجانب ممن جاءوا حلوان فلما وصل القطار إلى محطة باب اللوق استقبل النعش الغازى مختار باشا مندوب دار السلطنة « وقد كان مقيما فى بلدة مغاغة فى الأقاليم الوسطى تبديلا للهواء فوصله الخبر ليلا فانحدر إلى القاهرة مسرعا» واستقبل النعش مع الغازى مختار باشا جماعة الوزراء ورجال الديوان الخاص والعدد العديد من الوجهاء والعظماء وأجلة القوم فحمل النعش جند الحرس وسار المشهد إلى سراى عابدين بين الزحام وولولة النساء من الشبابيك وأسطحة الدور فلما وصلوا إلى السراى قابلهم العلماء والرؤساء الروحيون وقناصل الدول وأعضاء صندوق الدين ورؤساء المصالح الأميرية وكبار الجند وأصحاب البنوكة والتجار وأرباب الإشارات وأصحاب الطرق وعدد لا يحصى ولا يحصر من الأهالى والقادمين من الأقاليم القبلية والبحرية ثم ساروا بالمشهد فمشت أمامه جمال الكفارة ثم طائفة من الجند الهجانة ثم جماعة من الفوارس المصرية وأمامهم رجال الموسيقى ساكتة زرق الملابس والجند منكسو السلاح ثم جماعة من أصحاب المدافع ومعهم بعض المدافع الكبار ثم مقدمو العساكر المصرية مشاة وركبانا ثم حملة المصاحف والذاكرون ثم مشايخ الطرق والسجاجيد وأرباب الإشارات وبأيديهم البيارق ثم تلاة البردة ودلائل الخيرات ثم تلاة الأحزاب والأوراد ثم نقباء الأشراف والأشراف ثم مشايخ التكايا ودراويشهم ثم طوائف طلبة العلم بالجامع الأزهر ثم تلامذة المكاتب الأهلية والمدارس الأميرية وطلبة مدرسة دار العلوم والمدارس العالية الخصوصية ثم تلامذة المدارس التجهيزية والابتدائية ثم التجار والأمراء والكبراء من الأهلين والأجانب ثم موظفو النظارات والمصالح فى العاصمة وغيرها من مدن القطر ثم رجال المحاكم المختلطة والأهلية والأفوكاتية والمحامون ومديرو صندوق الدين والسكك الحديدية والدائرة السنية والدومين ثم الرؤساء الروحيون وخدمة الدين ثم كبار قناصل الدول ثم النظار ثم الأمراء من البيت العلوى والغازى مختار باشا ورجاله ثم العلماء ثم حملة القماقم

والمباخر ثم أولاد الكتاتيب يحملون المصاحف ثم النعش وحوله جماعة من العسكر وطائفة من أصحاب الشرطة وخلفه جماعة أخرى من الجند المصرى ثم فريق من فرسان الشرطة وعلى النعش سيف الفقيد وبعض ما عنده من النياشين .

وخرج المشهد من سراى عابدين إلى شارع عبدالعزيز إلى العتبة الخضراء إلى الموسكى إلى السكة الجديدة ومنها إلى المشهد الحسينى فوضعوا هناك النعش وصلوا عليه ثم حملوه إلى القرافة فوصلوها قبيل الغروب فدفنوه وفرقوا ساعة دفنه الصدقات وعاد الجمع إلى رحبة عابدين حيث نصبت السرادقات وأوقدت المصابيح فجلسوا للعزاء كما جلسوا للعزاء أيضا بسراى القبة وقصر حلوان فلم تكن إلا ساعة بعد جلوسهم حتى ورد الخبر من الأمير عباس إلى الرئيس مصطفى فهمى باشا يقول: إن خبر وفاة سيدى ووالدى قد أدهشنى وهذا مصاب عظيم ليس بالنسبة لعائلتى وحدها بل بالنسبة لجميع القطر المصرى أيضا فمتى وصلتنى منكم الأخبار الأكيدة عن الوابور الذى سيصير تحضيره فى تريسته أسافر بلا تأخير وأخبركم بالتلغراف عن ساعة السفر وإنى على يقين من أن الأعمال ستستمر سائرة إلى حين وصولى على أحسن محور بهمة عطوفتكم ورفقائكم أ.هـ.

وجلسوا للعزاء ثلاث ليال متواليات ثم جعلوا يجلسون فى مساء كل يوم خميس إلى تمام أربعين يوما، وفى ضحوة تاسع جمادى الآخرة ورد على السير بارنج إشارة من ملكة الإنجليز وإمبراطورة الهند بطلب موافاتها بتفصيل مرض الخديوى توفيق باشا وأسباب الوفاة قيل فأرسل السير بارنج خبرا مفصلا للحادث وجاءت بعد ظهر اليوم إلى الغازى مختار باشا والرئيس مصطفى فهمى باشا إرادة سلطانية مؤداها أنه لما وصل الخبر بوفاة المغفور له محمد توفيق باشا اجتمع الوكلاء فى الحال وقرروا أن يسند مسند الخديوية المصرية إلى الأمير عباس ووكالة أشغال الحكومة إلى الرئيس مصطفى فهمى باشا وبقية النظار إلى حين حضور الخديوى عباس وأنه برفع هذا القرار إلى أعتاب المتبوع الأعظم صدرت الإدارة الشاهانية بالموافقة عليه، فعقدوا فى الحال مجلس النظار وقرروا تبليغ هذه الإرادة السلطانية إلى سائر قناصل الدول وأن يوالوا الاجتماع فى كل يوم صباحا حتى يصل الخديوى الجديد .

واختلفت الأقوال فى مرض الفقيد وفى كيفية العلاج وأسباب الوفاة وما فعله الطبيب عيسى باشا وقد أجمع جماعة الأطباء الذين شاهدوا الفقيد قبل موته بقليل

أن عدم العناية بالعلاج وإهمال مراقبة سير المرض كانا سببا فى تسمم دم المريض واختلاط علته الأصلية التى هى النزلة الصدرية بعلل أخرى وأودت بحياته رحمه الله فطلب بعض الأمراء من البيت العلوى وقيل السير بارنج تحقيق أسباب الوفاة ومقاضاة الطبيبين فسأل الرئيس مصطفى فهمى باشا الطبيب هيس والطبيب كمانوس أن يبديا رأيهما فى ذلك وكلم والدة ولى العهد فى هذا الأمر فلم توافق على مقاضاة الطبيبين ورفع الطبيب هيس والطبيب كمانوس تقريرا قالا فيه فى الساعة الرابعة الإفرنجية من صباح الخميس سابع يناير الجارى دعينا للتوجه إلى حلوان على قطار مخصوص لأجل عيادة الجناب العالى فوصلناها منتصف الساعة السادسة الإفرنجية من الصباح واستقبلنا هناك سالم باشا الطبيب الخصوصى بالحضرة الخديوية فأعلمنا بالإيجاز أن الجناب العالى أصيب منذ ثمانية أيام بالنزلة الوافدة وكان سير المرض إلى البارحة عاديا وأن الحمى لم تشتد وطأتها إلا فى الليلة الماضية وأن الجناب العالى كان يعانى الأرق وضيقا فى التنفس وبعض الألم فى الجانب الأيسر وأنه لأجل تخفيف الألم أعطيت له حقنة من المورفين ولما دخلنا بعد هذا التعريف إلى غرفة المريض انذهلنا إذ رأيناه فى حالة موجبة للقلق الشديد وكان منظره على العموم متغيرا ولونه أصفر وبصره شاخصا وكان متكئا على أذرعة جاريتين وظاهرا عليه شدة ضيق التنفس ولم يكن يميز من حوله وكان يشكو على الخصوص عدم إبصاره للضياء وبالفحص وجدنا أن الحمى بلغت درجة أربعين وأن ضربات النبض سريعة وضعيفة جدا ويمكن إيقافها بسهولة ثم فحصنا الجسد فوجدنا ارتشاحا شعبيا رئويا زائدًا فى الرئة اليسرى ونزلة شعبية عامة فى الرئة اليمنى ومع كون حالة الرئتين هى بهذه الشدة فإنها ليست كافية لإحداث الأعراض المخية التى كانت ظاهرة ولذلك وجهنا نظرنا إلى فحص الوظائف الأخرى وخصوصا الكليتين وباستيضاحنا من الأطباء المعالجين عن حالة البول كان الجواب أن لا شيء فيه خارجا عن الحالة المعتادة وعندما أتممنا الفحص أمرنا بعلاج موافق لما ظهر لنا من التشخيص وشددنا فى التنبيه على اتباعه ثم رجعنا إلى مصر لاخذ الاحتياطات اللازمة لمرضانا والعودة إلى جنابه العالى فلما رجعنا إلى حلوان فى الساعة الواحدة الإفرنجية بعد الظهر حصل لنا مزيد الكدر لما رأينا حالته قد أخذت فى الخطر الشديد بكيفية ظاهرة وأن الأعراض التى فى جهة الصدر قد اشتدت وفوق ذلك أن الأعراض المخية قد وصلت إلى درجة ينقطع معها الأمل ودلنا ذلك دلالة واضحة على تسمم الدم بالبول فألححنا فى طلب

البـول فعلمنا حـينئذ أن جنـابه الفخـيم لم يبل منذ الليلة الماضـية فـأدخلنا المجس وتحصلـنا بواسطة القسطرة على كـميـة صغيـرة من بول أسود قـاتم فحللناه تحـليلا كيماويا اتضح منه وجود كمية عظيمة من الزلال فى البول فقادنا ذلك إلى أن نعرف بلا ريب طبيعة الداء وهو أن الجناب العالى بعد إصابته بالنزلة الوافدة أصيب بالتهاب رئوى عفن مصحوب بالتـهاب وريدى عفن أيضا وأنه فى هذه الحالة لم يبق لنا أمل ولكن لم يمنعنا ذلك من اتخاذ كافة التدابير والوسائط الفـعالة حسب ما يقتضيه فنّ الطب وإن لم نجـد نفعـا وبمزيد الأسف علمنا أنه لابد مـن الوفاة التى حـصلت فى الساعة السابعة وربع مساء أ.هـ.

فتـحقق الناس طرًا أن الوفاة كـانت بسبب إهمال الطبـيبين وخـصوا الخطأ كل الخطأ بالطبيب عيسى باشا لإخفائه خبر احـتباس البول عن الطبيب سالم باشا بسبب مرض المثانة المزمن وتحدثوا فى ذلك كثيرا فكان سمر ليلهم وحديث نهارهم وأرجف بعضـهم بأن سيـقبض على الطـبيب عيـسى ويودع فى ظلمـات الحبوس حـتى تتم مقـاضاته ثم شاع بعد أيام أن والدة ولى العـهد لم تسمح بذلك وأنهـا أشارت على الرئيس مصطفى فـهمى باشا بالكف عن مـتابعة هذا الحـادث فانكف إذ لم يبق إلا التفويض لله الـواحد القهار الذى لا يزول ولايحول وهو وارث الأرض ومـن عليها وإليه المآب.

قلـت: وهو محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن محمد على باشا الكبير ولد فى يوم الخمـيس عاشر رجب سنة تسع وسـتين ومائتـين وألف هجرية ولما شب أدخل مدرسة المنيل فـتعلم فيهـا العلوم الأولية ثم انتقل إلى التجـهيزية فتلقى بهـا علومها واللغات العربيـة والإفرنسية والإنجليـزية والتركية والفارسـية ولما بلغ التاسعـة عشرة تولى رئاسـة جلسات المجلس المخـصوص فى سنة ثـمان وثمـانين ثم تولى نظارتى الداخلية والأشغال العـمومية ثم قلد رئاسة مجلس النظار قبل تـوليته الخديوية بقليل وفى سنة تسعين ومـائتين تزوج بابنة الأمير إلهامى بن عبـاس باشا الأول والى مصر وفى سنة إحدى وتسعـين ولد له بكره الأوّل الأمير عبـاس وفى سنة ثلاث وتسعين ولد له ابنه الثانى الأمير محمد على وفى سنة أربع وتسعين ولدت له الأميرة خديجة هانم وفى سنة ثمان وتسـعين ولدت شقـيقتهـا الأميرة نعـمت هانم وتولى الخديوية المصرية فى يوم الخميس سابع رجب الفرد سنـة ست وتسعين ومائتين وألف هجرية أى سابع عشرى يونيـه سنة تسع وسبعين وثمانمائة وألف ميلادية وكان عـمره يومئذ

سبعا وعشرين سنة هجرية إلا ثلاثة أيام وأقام فى هذا المنصب ثلاث عشرة سنة إلا شهرا ومات فى ليلة الجمعة لسبع مضين من جمادى الثانية سنة تسع وثلثمائة وألف فكانت حياته كلها أربعين سنة هجرية إلا ثلاثة وثلاثين يوما ـ وكان رحمه الله شفوقا على رعيته يواليهم فى شدائدهم ويعفو عنهم كثير التسآل عن حالهم وما هم عليه فى إبان الشدة والرخاء وكان باراً بذوى قرابته مع رأفة وحنان وشفقة وعطف وأمانة ومروءة وعدل واستقامة وحلم وتواضع وخشية وتقوى وجلال وإنفاق فى الخير وتصدق فى السر والعلن ولكنه قليل الحظ غير موفق الطالع فكانت ولايته كلها مشاكسة ومعاكسة ومحاسدة ومنافسة إن سرت يوما أحزنت أياما وإن صفت عاما كدرت أعواما وهو مع ذلك طويل الروح كثير الجلد والصبر شديد التوكل حسن الاعتقاد فى وحدانية الله تعالى وقدرته فلم يكن يظهر مللا ولا ضجرا ولا قنوطا بل كان دائما هادئ اللب ساكن القلب حتى وافاه القدر المقدور وقد رثاه الشعراء وأبنه الفصحاء وبكاه أصحاب الصحف على اختلاف مذاهبهم فمن قال فى ذلك صاحب المؤيد :

هى الدار ما الآمال إلا فجائع   عليها وما اللذات إلا مصائب

فكم سخنت بالأمس عين قريرة   وقرت عيون دمعها الآن ساكب

يالله أىّ خطب نزل وأى مصاب حل وأى صاعقة صعقت القلوب وأى حادثة شقت لها الجيوب بل ما شأننا وقارعة الخطوب قد اندكت لها جوانب الجنان وفاجعة القلوب قد تولت على خاطر كل إنسان وخارت القوى وحارت النهى ووهى العزم وخان الجلد فإنا لله وإنا إليه راجعون نعم آمنا بقول القائل :

ألا كل شىء ما خلا الله باطل   وكل نعيم لا محالة زائل

وأى نعيم بعد نزول هذا الخطب المدلهم الذى قضى على كل جارحة بالثكل فلا عجب أن ناحت الثاكلات وأوحت إلى المحاجر كيف تجود بالعبرات فإنا لله وإنا إليه راجعون يا لله بماذا نسمى الداهية الدهياء والمصيبة العظمى التى فاجأتنا بها حوادث الأيام فقضت بالبأس على الأنام وعلى العبرات بالانسكاب وعلى المهج بالأنين وعلى الأحداق بالرنين كما قيل فى المثل استراحة المنكوب ولكن أين الاستراحة وقد اغتالتها أيدى الحادثات فلتذرف الماء فى بلاء راحة ذائب الجوانح :

فلقد آن لك أن تودع خلة   رثت وكان حبالها أرماما

كذلك تكون فى آمالك يا طالب الراحة فى هذه الحياة الدنيا وموضوع سعادتها قد تولى

وهل تستطيع النادبات إلى العلا تقول يفدّى الملك بعد الذى حلا
وفى نعيها نعى الملـوك بأسرهم ودون الذى تنعيه كم حادث جلا

فيا مصيبة الملك والدِّين والدنيا بعد أن قضى توفيق أمير البلاد المحبوب نحبه وعاجلته المنون فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وقال صاحب الأهرام:

كذا فليجل الخطب وليفدح الأمر فليس لعين لم يفض ماؤها عذر

طلع على مصر صباح اليوم بما أظلم ضحاها وودّ الناس معه لو طال ليلها وامتد دحاها ينعى إلى رجالها خطب فقيد تقومت لمنعاه الأضالع وفقد عظيم ارتجت لوقعه القلوب واستكت لمنعاه المسامع فقامت تندب بفقد أميرها الكريم على توفيقها المحبوب وتبكى على عزيزها العظيم بما استنزف شئون المدامع واستدرّ حبات القلوب وكيف لا يبكى الوطن على من كان له أبا شفوقا بل كيف لاتسفح عين العدالة والمكارم على من كان لها خدنا ورفيقا بل كيف لا يندبه وطن ساوى بعدله بين جميع سكانه حتى ذهب كريما مندوبا ينشده الحال بلسانه:

فكنت لناشيهم أبا ولكهلهم أخا ولذى التقويس والكبرة ابنما

فلتبك عليك البلاد ياتوفيقها عدد انعامك وعدلك وتنتحب عليك قلوب أبنائها بمقدار ما خزنت فيها من حبك وفضلك فإنها لو بكتك بما لك فى نفوسها من الفضل والمكارم إذن ما رأينا مقلة إلا وهى دامعة ولا مدمعا إلا وهو ساجم فعليك رحمة ربك من ذاهب ذهبت الأكباد على آثاره وفقيد فقدنا الصبر من بعده فحل محله شديد تذكاره وكريم تولت المكرمات لما مات وواعظ مرشد هدى الناس فى الحياة حتى هداهم فى الممات فأىّ آثار فضلك لا يندبون بعدك وأنت لم يطلبوا منك محمدة وعدلاً إلا وجدوهما عندك بل أى فضائلك ينساها الناس وقد كنت لهم أبا رحيما كما أنت أبوالعباس أمحاسن فضلك أم مآثر عدلك أم فيض مراحمك أم غزارة مكارمك أم حسن أخلاقك أم كرم أعراقك .

أىّ الفضائل منك تندب فقدها يا بن المكارم يا أبا العباس
فلقد حويت من المحاسن مثل ما جمعت جميع الناس لفظة ناس

فقل لمصر الآن أن ترثيك بعد مدائحها ولشعرائها أن تجود فى تأبينك إن كنت أبقيت لغير الحزن مجالا فى قرائحها وللأقلام أن تبكيك بدمع محابرها وللكتاب أن تتفجع عليك بما يسوّد وجوه دفاترها فلقد طالما بيضتها بمحاسن أعمالك ومعاليك فصار يحق لها أن تلبس أثواب الحداد من خط مراثيك فإنك الراحل الذى لم يجعل مطاياه غير القلوب والمودّع الذى لم يترك للناس زادا غير أكباد ملتهبة ودمع مصبوب فنحن نودعك بما أبقى فقدك فى نفوسنا ان كان فيها بقية ولا نزال نذكر رزيتنا فيك مع أمثالك إن كان يوجد مثلها رزية رحمك الله رحمة واسعة عداد حسناتك وأجمل أجرك وأجر البلاد فيك بعدد مبراتك وخيراتك فأنت الكريم فى حالى فقدك ووجودك ويومى حياتك ومماتك.

ثم نتقدم بعدك بالعزاء إلى صاحبة الطهر والعفاف والنجلين الكريمين اللذين يعز علينا أن نعزيهما بك بعد أن كنا نهنئك ببدريهما الكاملين ولكن مثل بيتك الكريم من حمل المصائب ومثل آلك المصون من عودته على التقاء الخطوب واستقبال النوائب فإنا عهدنا الصبر على قدر قلب الثاكل كما عهدنا الأجر فيه على قدر الفقيد الراحل فأيهما اعتبرنا فهم أصحاب الصبر الكريم وإلى أيهما ذهبنا فأنت الفقيد الراحل العظيم نسأل الله أن يعوضهم وإيانا جميل الصبر وأن يكتب لك بما تقدم من عدلك مزيد الأجر فإنك لا تخل قلبًا من المسرة فى حياتك ولم تحزن نفسا قط إلا فى مماتك.

ومن يحزن الناس فقدانه　　　يسر ملائك دار النعيم

هذا ما سمحت به بادرة الحزن وأجازة على القلم وقع المصاب وهول الفجاءة ووسعة مقام الجريدة وضيق الوقت والصدر منهما أضيق والقلب أصغر وأحرج ولاحولة ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.

يا دهر بع رتب المعالى بعده　　　بيع السماح ربحت أم لم تربح

قدّم وأخّر من تشاء فإنه　　　مات الذى قد كنت منه تستحى

وقال صاحب النيل :

قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير .

سمو ولى نعمتنا البر الرحيم بنا المشفق علينا خديونا المعظم بالأمس محمد توفيق الأول وهو اليوم الخديوى المرحوم هو اليوم الفقيد العزيز وهو اليوم ساكن

الجنان فى جوار رضوان الله عليه الرحـمة والرضوان ولاحول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.

قـد مـات توفيـقنـا والدائـم الله | فليـهرق الدمع ولتـستـتبـع الآه
مات الخـديوى الرحيم البـر فطرته | قـديسـة مـلكيات سـجـاياه
قـضى فيـاحسـرة الملك العظيم له | ومـات فلتندب العلياء عـلياه
فـازت بطلعتـه الأخـرى ويا أسفـا | أضـحت تعـزى به من بعـد دنيـاه

إى وربك إن خديوينا العـزيز أمير مصـر المحبوب توفيق الأول قد فـارق الدنيا مأسوفا عليـه بقلوب الأمةمبكى الشمائل بدموع الوطن انـتقل إلى جوار مولاه طيب ثراه وأكرام فى الفـردوس مثواه فـترك القلوب تـسامى الجيوب فى الانشـقاق وودع العيون المندفقة تجارى المهج المحترقـة فالتقى النهران دم يراق ودمع مهراق وحق لهول هذا اليوم وناهيك به يوم الفراق:

بكينـا خديوينـا العزيز وإنمـا | بكى كل مصرى أميرا ووالدا
ولو أن فى الأقدار ما يبلغ المنى | تمنى بنوها أن يكونوا له الفدا

يعز على الأقلام التى كانت تستمد الخـبر من آثار حكمته أن تبتلى بصب دموع المداد يوم رحلته رحـيل مدهش وسفر بعـيد وأوب غير منتظر إلى يوم مـوعود رسم وداع لكن إلى الأبد موكب حافل لكنه مأتم سيار وحزن قهار وقلوب فى نار وعقول فى انبهار ودهشة محرقة وموقف عظيم « الوداع الوداع» أيها المولى المنعم البر بالأمة الرحيم بالملة المشفق بكل الذى لا نشكو منه إلا يوم هذا الفراق الأليم فالوداع الوداع يا من سهـر لياليه لتنام الرعيـة فى مهد أمانة وأجـهد أيامه ليرغد عـيش الأمة تحت ظلال فضله وإحسـانه لقد قضيت عمـرك العزيز وحياتك الشريفـة وأوقاتك الناضرة وشبيبـتك الوضاء فى توخى الصوالح الوطنية والمصالح الجدية والمنافع العـمومية لم تلهك الدنيا بزهرتها ولم تلفتك جلالة الملك عن التـماس رضا الخالق بالإحسان إلى الخـلائق فلم يسوءهـم منك إلا حزنهم علـيك وبعدك عنهم وهـم فى حاجـة إليك «الوداع الوداع» يا من لم نر من حكمه غير الحكمة ولا من سيرته غير الرحمة فكنت القريب من الضـعيف الرفيق بالبائس الـعافى عن المسئ المتفضل على المحـسن المعزز لأبناء الوطن المحب لخيـر البلاد المعين على الســراء والضراء فلنعم سيرتك الجـميلة وسريرتك الطاهرة وأخلاقك الكريمة ونفسك الراضيةووجهتك المرضية :

شيم ينقضي الزمان وتبقى وثناء تبلى الليالي ويتلى

ومحاسن كلما ذكرناها بكيناها وفواصل كلما تأثرناها تأثرنا بها فعليك الرحمة والرضوان وغاية الحديث في عالم الإمكان كان وسبحان من يبقى كل شيء فإن نودعك يا خديوينا العزيز بقلوب واجفة وعيون واكفة وأفكار مضطربة مضطرمة وأذهان مستوحشة مندهشة ونسأل الله العظيم أن يجعل لك الفردوس مقرا والنعيم المقيم مقاما والرضا الإلهي قرينا إنه هو الرؤوف الرحيم إلى آخر ما قال.

وقال صاحب الفلاح :

إنا لله وإنا إليه راجعون من مصاب ألم وخطب أعم داهمنا مساء هذا اليوم والجريدة تحت الطبع فقصف منا الضلوع وأهمى منا الدموع وأجمد الدم في العروق وابتلانا بالصدوع وأجج فينا نار حزن لا يطفئها ماء جفن ماطر وأنزل في صدر كل سامع رزأ للقلوب فاطر لا ينشرح معه خاطر وذلك بينما كانت الآمال مستبشرة بزوال ما مازج ولي النعم من الاعتلال، والأخبار تفد إلينا مباشرة بتقدم صحة سموه في خطة الاعتدال إلى الكمال إذ فجعتنا أخبار عصر هذا اليوم بأن صحة سموه عن الاعتدال تحولت واضطربت وتغيرت فاستدعى كبار الأطباء للإسراع إلى حلوان ليتبصروا في هذا الشأن فما ذاع هذا الخبر وكلمح البصر انتشر إلا وكنت ترى القلوب راجفة والخواطر واجفة والكل في اندهاش وتلهف إلى أخبار ترد إلى الأرواح الانتعاش - إلى أن قال ولكن أبى الدهر الخؤن إلا أن ينفذ مطالب المنون ويحرق القلوب ويدمي العيون فإنه لم تأت الساعة السابعة وسبع عشرة دقيقة مساء الخميس إلا ونعب غراب الكهرباء بمنعاه فكان أشأم على النفوس من البسوس إذ نعى من قضى وهو حي بذكره ومضى أثره مخلد في قطره ولي نعمتنا «محمد توفيق» الأول خديوي مصر الذي لم يماثله مماثل في هذا العصر فياله من خبر تهون دونه الخطوب فإنه فتت الأكباد وأذاب القلوب - إلى أن قال ونعق بوم التلغرافات إلى كل الجهات للقيام بمراسيم التعزية والتأسف ولسان الحال يقول هذا المقال :

أصوت صاعقة أم نفخة الصور فالارض قد ملئت من نقر ناقور
أصاب منها الورى دهياء داهية وذاق منها البرايا صعقة الطور
تصدّعت قلل الأطواد وارتعدت كأنها قلب مرعوب ومذعور
أتى بوجه نهار لا ضياء له كأنه غارة شنت بديجور
أم ذاك نعي لتوفيق الزمان ومن قضت أوامره في كل مأمور

معلى معالم دين الله مظهرها	فى العالمين بسعى منه مشكور
وحسن رأى إلى الخيرات منصرف	وصدق عزم على الألطاف مقصور
بآية العدل والإحسان ممتثل	بغاية القسط والإنصاف موفور
مجاهد فى سبيل الله مجتهد	مؤيد من جناب الله منصور
براية رفعت للمجد خافقة	تجرى على علم بالنصر منشور
يانفس مالك فى الدنيا مخلفة	من بعد رحلته عن هذه الدور
وكيف تمشين فوق الأرض غافلة	أليس جثمانه فيها بمقبور
حق على كل نفس أن تموت أسى	لكن ذلك أمر غير مقدور
يا نفس فاتئدى لا تهلكى أسفا	فأنت منظومة فى سلك معذور
إذ لست مأمورة بالمستحيل ولا	بما سوى بذل مجهود وميسور
سبحان من ملك جلت مفاخرة	عن البيان بمنظوم ومنثور
لا زال أحكامه بالعدل جارية	بين البرية حتى نفخة الصور

فيالها من ليلة ليلاء قضتها مصر بين التلهف والتحسر والبكاء، وتنفس الصعداء وقل ما تشاء عن حلوان التى جللها الحزن والهوان مع وفرة الناس للقيام بمراسيم احترام ساكن الجنان فأعظم به من مؤلم ملم وخطب عظيم مدلهم شقت له الجيوب بل تمزقت له القلوب قد محا سطور الصبر من الصدر وظهر به ما فى اللوح مكتوب واقشعر له الوجود إذ قيل مات توفيق مصر والجود.

فانفض يديك من الدنيا وساكنها   فالأرض قد أقفرت والناس قد ماتوا

فأكرم به ميتا كثر إحسانه، وقلد أعناق الجود امتنانه ... إلخ

وأرسل تيكران باشا متولى نظارة الخارجية فى ثامن جمادى الآخرة وتاسع يناير الى جميع قناصل الدول يقول : إنه ليحزننى أن أنبئكم بوفاة مولاى الفخيم الجناب الخديوى محمد توفيق باشا توفى إلى رحمة الله فى مساء اليوم السابع من هذا الشهر يعنى شهر يناير بقصره الحلوانى أثر مرض لم يمهله سوى بضعة أيام وإنى بمواصلتكم بهذا المصاب الذى حل بالبلاد أتشرف بإبلاغ جنابكم أن الجناب الخديوى المعظم عباس حلمى باشا قد تبوأ الأريكة الخديوية خلفاً لساكن الجنان والده الفخيم طبقاً للفرمانات الشاهانية العلية اهـ.

وقد رثاه رحمه الله وهنأ ولده العباس بالولاية العلامة الفهامة إسماعيل صبرى باشا وكيل نظارة الحقانية حالاً فقال :

نحن لله ما لحي بقاء … وقصاري سوى الإله فناء
نحن لله راجعون فمن ما … ت ومن عاش ألف عام سواء
يفرح المرء في الصباح وما يعـ … ـلم ماذا يكنه الإمساء
ومتاع الدنيا قليل وما يلـ … ـهو به المرء من حطام هباء
زهد الناس في الحياة ملم … روّعتنا بهوله الزنباء
قصر حلوان كنت أنضر قصر … فيه يحلو ويستطاب الهواء
كنت ذا هيبة يحاذرها الدهـ … ـر وتكبو أمامها البأساء
كيف أصبحت مستضاماً وللخطـ … ـب إلى ركنك المنيع ارتقاء
ما كذا عهدنا بعزك ترميـ … ـه الليالي أو يعتريه انقضاء
كان بالأمس في ذراك أبو العبـ … ـاس تحيا ببشره الأحياء
فطوت برده الخطوب وكانت … قبل تشقى ببعده ونساء
ويح من شيعوه قد أودعوا القبـ … ـر كريماً يبكي عليه العلاء
وارتضوا بالبكا وما الحزن إلا … أن تسيل القلوب والأحشاء
عاش فينا عذب البشاشة والأخـ … ـلاق تروى به النفوس الظماء
وتولى وفي الصدور من الوجـ … ـد عليه ما ليس يرويه ماء
عطلت مصر من سناه كما قد … عطلت من حليها الحسناء
كل خطب في جنب خطبك يا مصـ … ـر يرجي للناس فيه عزاء
ما يقول الراثون في فقد توفيـ … ـق وماذا تحاول الشعراء
والرزايا في بعضها يطلق القو … ل وتعيا في بعضها البلغاء
إن مولاك كان أحسن من تز … هي بأنوار وجهه البطحاء
كان للتاج فوق مفرقه ضو … ء لديه تحقر الأضواء
كان يجلو دجى الكوارث إن حلـ … ـت برأي تعنو له الآراء
كان أدرى الملا بكسب ثناء … آه لو خلد النفوس ثناء
آل توفيق الكرام البسوا الصبـ … ـر رداء فالصبر نعم الرداء
أنتم الراسخون في علم ما كا … ن فقولوا من ذا عداه الفناء

أين قـوم شـادوا البـلاد وسـادو   هـا وكـانت تهـواهم العليـاء
ملكوا الأرض حقبة ثم أمسوا   وهمـو في بطونهـا نزلاء
سنة الله في البـرية لـم يـسـ   ـتثن منهـا الملوك والأنبيـاء
لا أعـزيكمـو وأنى لقـولي   أن تعـزى بمثله الحكمـاء
احمدوا الله في العشية والإصـ   ـباح فـالبؤس قـد تلاه هناء
إن يكن من سمائكم خر بدر   مـا حوت شبهـه بدورا سمـاء
فلقـد أشـرقت لآخـر أنوا   ر بهـا يصـدع الدجى وضيـاء
قـد أرانا العبـاس بعـد أبيـه   كـيف يلقى العظائم العظمـاء
فـاجتليناه طـود مجـد وسورا   دار منـه حـول البـلاد بناء
حبـذا منه همة تترك الصعـ   ـب ذلولا وعـزة قـعسـاء
وثبـات فـي طيـه وثبـات   للمـعـالي وحكمـة وإباء
وصفـات عن كنهها يعجز الوصـ   ـف وفيـها يستغرق الإحصـاء
دام يكسـو الزمان حسنا ويسـدي   أنعمـا لا يشـوبهن انتهـاء

ورثاه العلامة البحر الفهامة حنفي بك ناصف
القاضي بالمحاكم الأهلية حالاً فقال :

شقوا القلوب وغادروا الأطواقا   وذروا الدمـو تقـرح الأمـاقـا
ودعوا النفوس تصبها أجفانكم   دمعـا وتسكبهـا دمـا مـهـراقـا
ذوبوا من الأحزان لا تبقـوا على   أكبـادكم واستنفـدوا الأرمـاقـا
قـد فـارق الدنيـا العزيـز محمـد   يا لهف نفسي من يطيق فـراقـا
خطب دوت في الخافقين رعوده   فـزعـا وطبق نعيـه الآفـاقـا
غشى الأنام ولم يكن متوقعـا   كـالسحب صيفا أرسلت إبراقـا
وأصـمت الأسـمـاع رنة وقـعـه   والحزن أولى الألسن استغلاقـا
ودجـا الزمـان فكل نور حـلكة   ونبـا المكان فكل رحـب ضاقـا
ناشـتدكم يوم ارتحـال محـمـد   من في الرعيـة لم يودّ لحـاقـا
هل تعلمـون مـعـمـراً أو ناشـئـاً   لم يوله نبـأ الـرى تصـعـاقـا
هل تعلمـون مـعـمـراً أو نـاشـئـاً   لم يوسع الصبـر الجميل طلاقـا
أى امـرئ لم يسقـه يـوم النوى   كـأسـاً من الروع المرير دهـاقـا
لا كـان يوم سـار فـيـه نعـاته   يلقـون في مـهج الورى إحـراقـا
هى سـاعة راش القـضاء سهامـه   فـيهـا وحل بنا البـلاء وحـاقـا
أودى فـأى فـريصـه لم ترتعـد   أم أى قلـب لم يكن خـفـاقـا

بدر عـراه وهو فى اسـتـقـبـاله خسف وصادف في الكمال محاقا
حـملـتـه أعناق الرجـال وطالما بنوا له قـدّ طوّق الأعناقـا
تركوه عـمداً فى الظلام ولم يكن يرضى الشمـوع لبيتـه إشـراقـا
سكن القبور وكم قصور شادها وأوى إلى غـرف وحل طبـاقـا
إن فـاق فى المجـد الملوك فـإنه أرب عليـهم فـى العلى إنفـاقـا
خلق كـمـا سـرت الشمـال ورقـة تحكي الشـمـول لطافـة ومـذاقـا
وبديـهـة تقـف الروية دونـهـا والسـمـع يلقى عنـدها الأوراقـا
وعـبـارة تشـفى الغليـل ومنطق بمجـامع المعنى بـحـيط نطـاقـا
وتسـاول بذر المعـمى واضحـا وطلاقـة تولى الـنهى اطـلاقـا
خـفـق السـمـاح عليه حـتى انه لم يخش طالـب جـوده إخـفـاقـا
لا يرهب الإقـلال بعـد لقـائه ءاف ولا يتـهـيـب الامـلاقـا
إن قـيل عـفـو فـهـو بحـر زاخـر لايعـرف الجـانى له أعـمـاقـا
طبعت سـجـايـاه عليـه أمـا ترى ى كل بـادرة له مـصـداقـا
أو قـيل دين فـهـو حـافظ عـهـده كم شـد منه عـرى ومـد رباقـا
أو قـيل اصـلاح فـذلك صنعـه فى مـصـر أعـتق أهـلهـا إعـتـاقـا
لدغت أفـاعى الحـادثـات يمينهـا دهراً فكـان لسـمـهـا تريـاقـا
زأب الصـدوع بحكمـة منه وقـد ملئت طبـاق بلاد مـصـر شـقـاقـا
وأقـر فـيـهـا العـدل بعـد تزعـزع والحق أولـى أمـره إحـقـاقـا
ونفى الضـلال فمـا تصـدى باطلا إلا وأزهق روحـه إزهـاقـا
أولى المعـارف فى البـلاد عـوارفـا والعـلم يـعـد ذبـوله إيـراقـا
مـهـد الطريق لمن تقلد بـعـده وهدى السـراء وفـتح الأغـلاقـا
فـسروا بنبراس الذكـاء ليغمـضوا ممن نـطلع نـحـوها أحـداقـا
مـا وفق اللّه أمـرأ فى أمـة إلا وكـان لنفـعـهـا منسـاقـا
تربت يمين الدهر غيب فى الثرى هذى الخـصـال وتلكم الأخـلاقـا
سبق الكرام إلى النعيم وعهدنا فـيـه لكل عظيـمـة سـبـاقـا
وسـرى إلى الرب الرحيم مـلاقيـا بين الملائكة الكـرام رفـاقـا
عن فـضله حـدث فطيب حـديثـه يشـفى المحب ويطرب المشـتـاقـا
يا راحـلاً عنـا تركت نـفـوسـنا تشكو الاسى وتـسـاور الأشـواقـا

لم يبق منا الحزن إلا مهجة حرّى وإلا مدمعا دفاقا
خطفتك خاطفة المنية فجأة منا وغادرت الجسوم رقاقا
لم تنتثر شهب السماء ولم يطل مرض ولم يبد الغراب نعاقا
ويد الردى سرقتك ليلا ليتهم حدّوا بقطع يديهم السراقا
بحماك حراس وحولك عسكر وصنوف أبهة فكيف أطاقا
إنا على الود الذى مكننه منا وعنه لا نحول فواقا
لا كان من ينسى الولاء لسيد يوما وينقض بعده الميثاقا

وقال العلامة وهبي بيك ناظر المدارس القبطية على منوال العزاء والهناء :

مهادك فى حسن العزاء ممهد وجدك ملحوظ به الكل يشهد
وبدر علاك اليوم أسفر ضوءه فأودى به ليل الأسى يتبدد
وعادت بك العليا إلى مصر راقيا على الطائر الميمون والعود أحمد
ودانت لك الأقدار حتى كأنها بأمرك تشقى من تشاء وتسعد
فوال بنى الآمال واصدع بما تشاء فإنك فى كف الزمان مهند
وفوّض إلى اللّه الأمور فإنه إليه تعالى فى العظائم يصمد
ومن عجب أن الحوادث جمة ولكنّ سهم النائبات مسدّد
أساءت إلى المعروف فينا صروفها وما الأجل المحتوم إلا محدّد
وقد كان توفيق البلاد مملكا حديث حلاه للمكارم يسند
تحلى به جيد الفضائل ناشئا وأوتى منها فوق ما كان يعهد
وساس شئون الملك خير سياسة بها الفضل يحيا والفخار مؤيد
فلا غرو أن ساء الأنام فراقه وقد أصبحت نار الجوى تتوقد
ولما رقت شوقا إلى اللّه روحه وأنهم فينا المرجفون وأنجدوا
تلافيت أمر القطر خوف تلافه وأنت بتوفيق الإله مؤيد
وجاءك مرسوم الخليفة مؤذنا بأنك مشروع الوراثة أوحد
وآلت إلى علياك فى العز دولة إذا سيّد منها خلا قام سيد
وها أنا أهديك الثناء مرحما على الوالد المبرور وهو الممجد
وأنشد يا مولاى فيه مؤرخا توفى توفيق العزيز محمد

سنة ١٣٠٩

رعـــاك إلـه العـــــرش جـل ثناؤه وألهـمك الـصبـر الذى ليس ينفـد
ولا زلت مـــشكـور العنـاية دائمـــاً وذكـرك فى تاريخ مـصـر مـخلد

وقال أحد الأدباء ولم نقف على معرفة اسمه :

من عـادة الدهـر بعـد الحـزن إيناس ومـا الـدهر فى أفــعـالـه باس
يومـاه يـوم به للهـم قـد مـزجت كـأس ويوم هنا تصـفـو به كـاس
فاضرب عن الحزن صفحًا وامح سيرته فـهكذا الدهر نـاس بعـدهـم ناس
واسـتقبل الأمـر بالتـعزيز من ملك فى قطر مـصر فـأنت الروح والراس
وكن على الله فـيمـا شئت معـتمـداً تطب لـعليـاك بالتـأييـد أنفـاس
بالجـدّ والجـدّ نلت الأمـر ذا شـرف لا غـرو ان أثـمرت بالعـز أغـراس
وفى الوراثـة مـعنًى عـز مـدركـه ومـا بـه بعـد هـذا اليـوم ألـبـاس
للّـه من خـلف فـى القـطر عـن سلـف سادوا الورى وعلى هام السـها داسوا
وأجـمـعـوا الأمـر فى تدبيـر ملكهم والرعـيـة بالإنصـاف كم سـاسـوا
هذا وعـذراء فكـرى لا أخـال مـعى بل ما معى الشتداد الخطب إحساس
ولا لـســـــان به أطـرى ولا قـلـم يجرى وللضـيق ذرعا ضـاق قرطاس
وفـضـل والدك المرحـــوم لست له أنسى ولو ضـمنى بالموت أرمـاس
لا زال فى كـرم الـرحـمن مـسكنه جنات عـدن بهـا الريحـان والآس
ولا تزال لهـذا القطر مـعـتـصـمـاً وأعـين الله مـهـمـا كـانت حـراس
وهذه حـكمـــة المولـى مـــؤرخـــة توفـيـق مـات وولى اليـوم عـبـاس
سنة ١٣٠٩

قلت : ومن غريب الاتفاق أنه رحمه الله ولد في يوم خميس وتولى الخديوية المصرية في يوم خميس ودخل القاهرة في موكبه بعد الفتنة العرابية في يوم خميس وتوفي إلى رحمة الله تعالى في يوم خميس فسبحان الله الأزلي الذي لا يموت سبحان مالك الملك والملكوت منه المبتدأ وإليه المنتهى وهو رب الآخرة والأولى وله ما سلب وما أعطى وما أخذ وما أبقى ولا شك أنا جميعاً في هذا السبيل نسعى وأن إلى ربك الرجعى.

اللهم كما حمدتك في المبدأ أحمدك في الختام وأشكرك على مر الأيام اللهم كما وفقتني للحق فارض عني الخلق ووفقهم إلى معذرتي والتجاوز عن عثرتي فإني أشفق أن يكون عملي هذا عملاً حابطاً أو شغلاً ساقطاً اللهم إني معترف بأني لست من أهل ذاك الشان ولا من خيل هذا الرهان ولكني قد توكلت عليك سيدي فأعنتني ولم تكلني إلى نفسي فلم أضل وأريتني الغي غياً فاجتنبته وأريتني الهدى هدى فاتبعته والوقت غير مساعد والمانع غير مباعد والفراغ متعسر وجمع الخاطر غير متيسر لاسيما وقد أصبت في خلال العمل بما غلب على التجلد والصبر وفتّ في العضد والصدر من فقد شقيق لي كان مرجعي في كل أموري إليه ومعتمدي في سائر أعمالي وآمالي عليه وحيدي الذي أورثني فقده جزعاً وهلعاً وسقماً ووجعاً وغماً وهماً وحزناً لم تزل في أحشائي ناره وفي صدري أواره فعندك اللهم أحتسبه واستمنحك أحسن الصبر فلك سيدي الأمر اللهم أنت تعلم أن بغية مُرادي وغاية مَرادي تعميم النفع بقدر اجتهادي فإن كنت قد أجريت البراعة في هذه الغاية إلى منتهاها وبلغت النفس من هذه الأمنية مشتهاها فذلك لكي أجمع بين قديم الأيام وجديدها وأكفي المطلق مؤنة الرجوع إلى قريب الأخبار وبعيدها ليتم النفع بما ألفته منها وصنفته بعد إعمال الفكرة وإجهاد الفطرة اللهم أنت تعلم أني فعلت ما فعلت تقرباً إلى أبناء وطني بخير ما لدي بعد معاناة الأهوال في طول الأحوال وما بي إطراء نفسي ولا تزكية عملي فإني أكره المباهاة فوفقهم مولاي إلى أن يتقبلوه بالقبول والإقبال وهم في كمال الأحوال كي أنال من عملي ما أتمناه وأفوز من أملي في وجهك سيدي بأسناه ولا حول ولا قوة إلا بك فأنت حسبي وكفى.

دبيت للمجد والساعون قد بلغوا	جهد النفوس وألقوا دونه الأزرا
لا تحسب المجد تمراً أنت آكله	لن تبلغ المجد حتى تلعق الصبرا

إلى هنا تم الجزء الرابع من الكافي وبه ختام الكتاب فإذا فسح الله لي في

الأجل ووفقني إلى شيء من العمل وأعانني على بلوغ الأماني عنيت بجمع أخبار أيام صاحب الولاية الحالية والأريكة الخديوية (عباس باشا حلمي الثاني) ورتبتها كما تستحق من التنسيق والترتيب فإنها جمعت أمورا عجيبة وحوادث غريبة وشئونا تستوقف الطرف وتستدعي الإسهاب في الوصف وكلها تشهد بأن الأمير «حرسه الله» وأناله ما يتمناه لم يقل قبل أن يعلم ولم يجب قبل أن يفهم ولم يعزم قبل أن يفكر ولم يقطع قبل أن يقدر وهو مع ذلك بين عاملين شديدين وفريقين متقاربين متباعدين فكيف به إذا قضى الله تعالى بنفاذ ما أراد وانقشعت سحب تلك المحن عن سماء هذه البلاد فزاده الله نبلاً وعزماً وفضلاً وحزماً ووقاه من شرها حتى يطويها على غرها.

وما أحسن ما قيل :

لأستسهلن الصعب أو أدرك المنى	فما انقادت الآمال إلا لصابر

وقول آخر:

فاصطبر وانتظر بلوغ الأماني	فالرزايا إذا توالت تولت
وإذا أوهنت قواك وجلت	كشفت عنك جملة وتجلت

★★★

اللهم هب لي مغفرة من لدنك

وارحمني يا أرحم الراحمين

(تم)

يقول طه بن محمد قطريه رئيس التصحيح بالمطبعة الكبرى الأميرية :

إن أحسن الحديث فى القديم والحديث بعد التيمن باسم الله تعالى حمد الله جل ثناؤه على نعم تنهل على عباده وتتوالى فالحمد لله القديم وجوده العام للخاص والعام كرمه وجوده الأول قبل كل شيء بلا بداية الآخر بعد كل شيء بغير نهاية المنزه عن أن يؤرخ بزمان أو يسئل عنه أين كان ومتى كان كيف وهو الذى خلق الزمان والمكان نحمده أن جعلنا خلفاً للأولين وقص لنا عنهم أحسن القصص فى كتابه المبين وحدثنا عمن مضى بما فيه مزدجر من الأنباء فكان لنا قدوة حسنة فيمن أحسن منهم وعبرة بينة بمن أساء ونصلى ونسلم على نبى الرحمة وهادى الأمة أول الأنبياء موجوداً وآخرهم مولوداً وعلى سائر النبيين والمرسلين ومن اقتفى أثرهم وسلك سبيل المهتدين.

أما بعد: فإن من حسن البخت وصفاء الوقت للمصريين عامة وطلاب التاريخ خاصة طبع هذا الكتاب الجليل الذى لم تسمح الأيام له فى بابه بمثيل المسمى بـ«الكافى فى تاريخ مصر القديم والحديث: تأليف حضرة الفاضل السرى الوجيه الكامل صاحب العزة «ميخائيل شاروبيم» مدير الأملاك الميرية بنظارة المالية حالاً بلغه الله آماله وأكثر فى فضلاء المصريين أمثاله شمر حفظه الله عن ساعد الجد والاهتمام وقام بتأليف هذا التاريخ أحسن قيام فجاء كتابا بأحوال مصر ومجرياتها حافلاً وبشرح حال ملوكها وأمرائها وعادات أهلها وما كانوا عليه محيطاً كافلاً وبسط الكلام على سياسة ملوكها فى كل زمان من عهد القدماء ثم من بعدهم دولة بعد دولة إلى الآن أعنى سنة ١٣٠٩ هجرية التى انتقل فيها إلى الدار الباقية المرحوم محمد توفيق باشا خديو مصر السابق عليه الرحمة والرضوان فلله در هذا المؤلف من همام خدم الوطن بهذا العمل الجليل والصنيع الحسن الذى قلد به الأعناق أعظم المنن فلا غرو إن افتخرت به مصر على سائر الأمصار وكانت به القاهرة قاهرة لغيرها من الديار فلقد شيد لها حفظه الله ذكراً وشرح لأبنائها صدرا ورفع لهم قدراً فما من المصريين أحد إلا وهو فى حاجة إلى تحصيله واضطرار إلى الوقوف على إجماله وتفصيله ليعرف نعمة الله عليه فى هذا القطر السعيد المغمور بهذا النهر الذى يغار منه البحر الطويل المديد هذا القطر الذى كم شدت إليه الرحال وتطاولت إليه أعناق الرجال وخيضت فيه لجج المعاطب والأهوال وأجاد فى وصفه من قال :

إن مصر لأطيب الأرض عندى ... ليس فى حسنها البديع التباس
وإذا قستها بأرض سواها ... كان بينى وبينك المقياس

ومن قال :

ما مصر إلا منزل مستحسن فاستوطنوه مشرقاً أو مغرباً
هذا وإن كنتم على سفر به فتيمموا منه صعيداً طيباً

وبالجملة فهو تاريخ وحيد وعقد فى فن التاريخ فريد جاء كاسمه كافياً وللداء العضال شافياً وكان لنا دليلاً قاطعاً وبرهاناً ساطعاً على فضل هذا العلم المعلوم وعظيم شأنه بين العلوم كما اتفقت عليه الكلمة وأصبح من القضايا المسلمة :

ليس بإنسان ولا عالم من لم يع التاريخ فى صدره
ومن درى أحوال من قد مضى أضاف أعماراً إلى عمره

قد سلك المؤلف حفظه الله فى كتابه سبيل الاحتياط والتحرى التام فجاء بالأحوال والمجريات والمقاصد السياسية فضلاً عن الأخبار من مصادر الصدق الموثوق بها وهذه هى الطريق القويم التى أفلح من تمسك من المؤرخين بسببها وتأدّب بأدبها

الصدق أوفى خليل إن ظفرت به يغنيك عن جمع إخوان وأحلاف
ومن أراد بأنباء الذين مضوا علما وصدق حديث يكفه الكافى

هذا وقد ضاعف المؤلف حفظه الله إحسانه فقام بطبعه على نفقته وباشر تصحيحه وإتقانه بمطبعة بولاق الأميرية فى عهد الدولة الفخيمة الخديوية العباسية أطال الله أمدها وأسبغ ظلالها وألهم العدل والإصلاح رجالها وتم طبعه المنير فى أوائل رجب سنة ١٣٢٣ من هجرة البشير النذير عليه الصلاة والسلام وعلى آله الكرام وأصحابه بدور التمام.



(ولما آذن طبعه بالتمام قرظه حضرات الأدباء الفضلاء أرباب الأقلام)
كتب فى ذلك العلامة البحر الفهامة صاحب السعادة
إسماعيل صبرى باشا وكيل نظارة الحقانية
الجليلة حالاً يخاطب حضرة المؤلف فقال :

قرأت كتاب الكافى ووقفت من تحرّيك الوقائع المدونة فيه وإبرازك إياها لمحب التاريخ على مبلغ الأتعاب التى تجشمتها فى تأليفه فجاء وله نصيب من اسمه كافيا وافيا يخبر عن أحوال القرون الماضية بأفصح عبارة فأثنيت على واضعه مع المثنين وأعجبت به مع المعجبين كيف لا وقد اشتمل على فوائد كل الناس فى الانتفاع منها سواء وإن اختلفت منهم المشارب والأهواء يقرأ فيه الأمراء كيف تحاط الممالك ويسلك أقوم المسالك وتجد فيه قادة الملل كيف تعلو الدولات وتصح السياسات ويتعلم منه من دونهم كيف تتضافر الأمم وتتعاضد الهمم للوصول إلى السعادة ضالة كل مجتمع إنسانى. إن الشاعر إذا أجاد فى شعره قيل له أجدت والناثر إذا أحسن فى نثره قيل له أحسنت والحكيم يصيب كبد الحقيقة يهنأ بأصبت والمؤرخ يتحرى الصدق فى تحرير وقائع التاريخ يقال له صدقت أما أنا وقد اطلعت على كافيك وعرفت ما تحملته من العناء فى جمعه وتنسيقه وترصيفه فإنى أهنيك بقولى لك أجدت وأحسنت وأصبت وصدقت.

وقرظه العلامة المفضال صاحب العزة
وهبى بك ناظر المدارس القبطية قال :
بسم الله الرحمن الرحيم

ما صدحت حمائم البيان للدلالة عما فى الجنان بأوجب من حمد الله القديم ولا ترنحت عذبات البان بأطرب من صلاة الملك المنّان على كل رسول كريم فالحمد لله أجرى أعنة الأقدار بما تتضاءل عنه أفكار الحكماء ولم يعزب عن علمه وهو الفاعل المختار مثال ذرة فى الأرض ولا فى السماء.

(أمــا بعــد) فإن التــاريخ على ما بين دفتـيه من خصائص حــسان ألحق أدناها بأقصـاها لم يغادر من شئـون بنى الإنسان صغـيرة ولا كبيـرة إلا أحصاها وحـسبنا شاهداً على ذلك ما أودعـه تاريخ مصر من آثار ملوك وخلفاء ســالت بأعناق مطيها أباطح الكلام وكادت تنقلب بها رياح العفاء فى غضــون الجاهلية والإسلام فلا غرو إن جاس خلال ديارها فريق من العلماء علقوا بأذيال التنقيب عن آثار القدماء فدونوا فى وصفها كما فعل عبد اللطيف الـبغدادى العالم الطبيب من الحوادث والأخبار ما حقه أن يتخذه اللبـيب كتاب إفادة واعتبار وإن للإفرنج فى تمحـيص تاريخها القديم استقراء لا يتأتى لكل محسن ولايقدره كل من أقلته الغبراء وأظلته الخضراء من أبناء هذا اللسـان فأحر بـنا أن نطاول كل ذى استئثار بمزايا هذا البلد الأمين ومـا شاده فيه السلف الصالح من الآثار الباقـية فى العالمين ولقد ألمّ العالم الفـاضل صاحب العزة ميخـائيل بك شاروبيم فى مؤلفـه هذا كل الإلمام بما رقّ وراق وتناولته يد المريد على طرف التمام من ثمـرات الأوراق فهو عقد فـريد اندمجت فيه الحـوادث كأنها اللؤلؤ والمرجان أو جنة كثيرة الأغاريد بهـا من كل فاكهة زوجان فلو أنه تداولته الأيدى فى العهد الـذى غبر عهد ابن خلدون لـقوم ما أورده فى ديوان المبتدأ والخـبر بالدون أو مثله العيان لابـن خلكان لألحق وفيات الأعيان بخبر كـان فلله در مؤلفه أتحف ذوى الألباب بما تأخذ بمجامع الأفـئدة حلاه واستخلص فى تاريخ مصـر القشر من اللباب ومصر كنانة الله فى أرض الله فيا أيها الأريب الذى أصاب مرمى السداد وأماط اللثام عن كل غـريب من مآثر الآباء والأجـداد لقد سحـرتنا بآياتك بعـد أن ألقينا عـصا الاذعان والتسليم ومحوت سيـئات الزمان بحسناتك وفوق كل ذى علم عليم لازلت تستــدرج فى أى غرض تتوخاه مــا يهزأ بقلائد العـقيان على لبات الغـوانى ونصيب مؤلفك فى الاستغناء به عما سواه نصيب الأغانى لأبى الفرج الأصبهانى إن الله على ما يشاء قدير وبإجابة هذا الدعاء جدير.

وقرظه ايضاً الكاتب الفاضل والنحرير الكامل صاحب العزة جرجس بك حنين أحد مديرى الأموال المقررة بنظارة المالية حالاً مخاطباً لحضرة المؤلف فقال:

لقد طالعــت يا أخا الفضل تأليـفك «الكافى» فى التاريخ وأمـعنت النظر فيـما احتـواه وجئت بهذا لأؤدى لجنـابك واجب التهنئة على مـا توفقت إليـه من أحاسن

التأليف والتصنيف التى بها أكسبت علم التاريخ مجداً وفخراً وخلدت لاسمك السعيد على مر الدهور كرامة وذكراً. نعم تحق التهانى فكتابك يا ناصر الأدب له قيمة عظيمة ومنزلة رفيعة بين المؤلفات العربية إذ ليس هو مجرد أقاصيص وأخبار أو مجموع روايات وأسمار بل هو ميدان تمثلت فيه مشاهد العالم بأدق مظاهرها يرى الناظر فيه مشهد نشأة الخلق وأدوار تكوينه، يرى أيضاً دولاباً عظيماً جداً تديره العناية الالهية على سلاسل نظامية طبيعية ينشأ من احتكاكها تولد الحوادث العمرانية والتقلبات المدهشة العصرية من قيام الممالك والأمم والشعوب ونهوضها وارتقائها بعد الانحطاط أو ذبولها بعد الإيناع وانحلالها بعد الارتباط وغير ذلك من مجتمعات الأضداد التى بها تتمثل حقائق أحوال الأمم وبلدانهم ورسومهم وعاداتهم وأخلاقهم وتربيتهم وعلومهم وآدابهم ولغاتهم وصنائعهم وأنسابهم وأفرادهم ومن قام منهم من الأنبياء والأولياء والملوك والقواد والعلماء والحكماء والكتاب والخطباء والشعراء وغيرهم من أبطال العصور.

التاريخ الصادق هو أعدل شاهد على درجات العصور فى الحضارة والمدنية بل هو حياة الذكرى بل هو رسول القدم لمن يشاء الاقتداء بفضائل السلف من أمور الدِّين والدنيا وكيف لا يكون كتابك أيها السيد من أصدق التواريخ وقد عرف القاصى والدانى عن شمائلك من شهامة فى الأخلاق وطيب فى الأعراق وقلم سيّال ولسان قوّال ورجحان فى البرهان واقتدار فى البيان وسلامة فى الذوق ودقة نظر فى الترتيب وجميل وضع فى الأساليب وحسن اختيار فى الألفاظ الرقيقة ولطف صنع للمعانى الرشيقة وغير ذلك من الخصائص الغراء والشيم الشماء التى أكسبت الكتاب طلاوة فوق طلاوته وجذبت النفوس لتلاوته والاعتماد على صحة روايته. وكيف لايتخذ كتابك حجة يرجع إليه ويعوّل عليه وقد توفرت فيه شروط الاعتماد الخمسة وهى :

أولاً: اعتبار الينابيع المستمدة مواده منها. ثانياً : صفاؤه من شبهة الغرض وابتعاده عن هوى التعصب فى المدح أو الهجاء. ثالثاً: جلاء عباراته ودقتها وخلوها من التطويل الممل. رابعاً: تجرده عن الخرافات والترهات التى لا يحتملها العقل ولا يقبلها الذوق السليم. خامساً: تجرده من التمويه والتلبيس والمصانعة التى يراد بها التزلف لأصحاب المراتب السامية.

ولايقف بى القلم عند هذا الحد فى وصف هذا الكتاب الجليل الشأن لأنك قد

زدته بهجة وغلاء بما أوردته فيه من تقرير الحوادث التى عاصرتها بنفسك والمعلومات الواسعة التى لجنابك فى الوقـائع السياسية أثناء الثلث الأخير من القـرن التاسع عشر واعتمادك فيما عدا ذلك على أقوال صفوة المؤرخين والكتاب - وأخيراً فإنى أكرر لك التهنئة وأرجو الله أن ينفع البلاد بعلمك وقلمك وأن يوفقك لكل خير.

